

رَفَع

عبد الرحمن العنبري
أسكنم الله الفردوس
www.moswarat.com

الأعمال المقدسية الكاملة د. كامل العسلي



القُدس

عاصمة الثقافة العربية
Capital of Arab Culture
al-QUDS
2 0 0 9

2 0 0 9

الجلد الأول

١

القدس في التاريخ

٢

بيت المقدس

في كتب الرحلات عند العرب والمسلمين

منشورات وزارة الثقافة/عمّان
١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

تَصْدِير

إنّ فلسطينَ توأمُ الأردنّ؛ والقدسَ توأمُ عمّان. من هنا، أعدت وزارةُ الثقافةِ الأردنيةَ برنامجًا حافلًا للاحتفاء والاحتفال بالقدس عاصمةً للثقافة العربية ٢٠٠٩. فالقدسُ في ضميرنا دومًا؛ وهي الرّمزُ الخالد وقدسُ الأقداس وزهرةُ المدائن، وتستحقّ أن تكونَ العاصمةَ الأبديةَ للثقافةِ العربيةِ. وبتوجيه من جلالة الملك عبد الله الثاني، شكّلت الوزارة عددًا من اللجان للإشراف على عقد الندوات والمعارض، وعلى الاحتفالات بالقدس طوال عام ٢٠٠٩. وضمت هذه اللجانُ لجنةَ الإصدارات والنشر التي انبثرت منذ تشكيلها بكل ما بوسعها لإصدار عددٍ من الكتب الجديدة القيمة عن القدس؛ إضافةً إلى إعادة نشر عددٍ من الأعمال الشامخة التي يصعبُ الحصولُ عليها لسببٍ أو لآخر. وركّزت اللجنةُ على الأعمال المقدسية الكاملة لعددٍ من المؤرخين المشهود لهم بالمستوى الرفيع والإتقان والإخلاص. ولم تتوان الوزارةُ بكل طاقمها عن تيسير الأمور والمساعدة في المتابعة وحلّ المشكلات. كما لم تتردّد قطّ عن الموافقة على أيّ قرار اتّخذته اللجنة؛ بما في ذلك خطة العمل التي احتوت على موازنة المشروع بأكمله.

فالشكرُ كلُّ الشكر لبلدنا الغالي، ولوزارة الثقافة - وزيراً وأميناً عاماً والعاملين فيها فرداً فرداً - لما قدّموه بتفانٍ ومحبةٍ وسعةٍ أفقٍ للقدس التي لن تنساها الأمةُ أبداً.

اللجنة العليا

الإشراف والمراجعة

لجنة الإصدارات والنشر

احتفالية «القدس عاصمة الثقافة العربية ٢٠٠٩»
وزارة الثقافة/ عمان - الأردن

الأستاذ الدكتور همام بشارة غصيب (رئيساً)

الأستاذ هنّاع البرامري (مقرّراً)

الدكتور همد أبو الشعر

الأستاذ عودة القضاة

الأستاذ محمد يونس العبادي

الدكتور محمد صالح بني عيسى

المهندس نضال يحيى السقرات

تصميم الغلاف: غدير سعد البشر

الفقه في التاريخ

حرر الطبعة الإنجليزية وترجمها

و. ك. منعم عبد العلي

سلسلة إصدارات:

احتفالية الأردن بالقدس عاصمة للثقافة العربية

٢٠٠٩

• أعمال الدكتور كامل العسلي
المجلد الأول: القدس في التاريخ، بيت المقدس في كتب الرحلات عند العرب والمسلمين.

• المؤلف: الدكتور كامل العسلي

• الناشر: وزارة الثقافة

شارع وصفي التل

خلف جبيري المركزي

ص ب ٦١٤٠ عمّان - الأردن

تلفون: ٥٦٩٩٠٥٤/٥٦٩٦٢١٨

فاكس: ٥٦٩٦٥٩٨

Email: info@culture.gov.jo

• الطباعة: مطبعة السفير ٤٦٥٧٠١٥

• رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (٢٠٠٩ / ١٢ / ٥٠٤٩)

• جميع الحقوق محفوظة للناشر: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

• All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without the prior written permission of the publisher.

*J*ERUSALEM
I N H I S T O R Y

EDITED BY K J ASALI



SCORPION PUBLISHING LTD

القدس في التاريخ

محتويات الكتاب

الصفحة	الموضوع
١١	— المسهمون في الكتاب
١٥	— مقدمة
١٧	— القدس في العصر البرونزي ٣٠٠٠ - ١٠٠٠ ق.م. هـ. ي. فرانكن H.J. Franken
٥٣	— القدس من ١٠٠٠ - ٦٣ ق.م. جورج مندهول G. E. Mendenhall
٩٣	— القدس تحت حكم روما وبيزنطة ٦٣ ق.م. - ٦٣٧ ب.م. جون ولكنسون John Wilkinson
١٢٩	— القدس في الفترة الإسلامية الأولى (من القرن السابع حتى القرن الحادي عشر) عبد العزيز الدوري
١٦٥	— القدس تحت حكم الصليبيين ١٠٩٩ - ١١٨٧ م مصطفى الحيارى
٢٠٣	— القدس تحت حكم الأيوبيين والمماليك ١١٨٧ - ١٥١٦ م دونالد ب. لتل Donald P. Little
٢٣١	— القدس تحت حكم العثمانيين ١٥١٦ - ١٨٣١ م كامل جميل العسلي
٢٧٣	— القدس في القرن التاسع عشر ١٨٣١ - ١٩١٧ م الكزاندر شولش Alexander Schölch
٣٠٥	— تحويل القدس ١٩١٧ - ١٩٨٨ مايكل هدسون Michael C. Hudson
٣٤١	— المرجعية (البليوغرافيا)

المستهمون في الكتاب

هـ. ي. فرانكن H. J. Franken

هندريكوس ياكوبوس فرانكن ولد في هولندا سنة ١٩١٧، ودرس اللاهوت واللغات السامية في امستردام ولايدن وحصل على دكتوراة في الفلسفة في دراسات العهد القديم من لايدن حيث أصبح محاضراً من المرتبة العليا في علم آثار فلسطين. أجرى حفريات في تل دير علا بالأردن وفي سوريا وكتب عدة كتب ومقالات في علم الآثار. وقد طور مداخل جديدة إلى الدراسات الخزفية في علم الآثار، وأصبح فيما بعد رئيساً لدائرة تكنولوجيا الخزف في لايدن. وهو أستاذ متقاعد منذ سنة ١٩٨٤. ويعمل الآن في إعداد منشورات حول دير علا وحول الحفريات التي أجرتها مدرسة الآثار البريطانية في القدس.

ج. مندنهول G. E. Mendenhall

جورج مندنهول أستاذ متقاعد في الدراسات القديمة والتوراتية في جامعة ميشيغان حيث درس ابتداءً من سنة ١٩٥٢. وقد نشط في الأبحاث الأثرية والفيلولوجية في الأردن وسوريا ولبنان منذ سنة ١٩٥٥. وآخر أعماله الكبيرة حل رموز النقوش المقطعية من بيلوس (جيبيل) : The Syllabic Inscriptions From Byblos, Beirut, 1985. الذي يثبت فيه أن سكان مناطق شرقي البحر الأبيض المتوسط في فلسطين ولبنان في العصر البرونزي المبكر كانوا يتكلمون ويكتبون لغة هي جذة اللغة العربية.

جون ولكنسون John Wilkinson

جون ولكنسون هو كاهن من هيئة كهان كاتدرائية القديس جورج، وقد عمل طيلة تسع سنوات في مدرسة سانت جورج (المطران) في القدس حيث درس التاريخ في دورات قصيرة خصوصاً لرجال الدين الأجانب والطلاب اللامتخرجين. وهو يهتم بنصوص الحجاج المسيحيين إلى القدس. وقد نشر ترجمات انجليزية لجميع النصوص من سنة ٣٣٣ إلى ١١٨٧. كان مديراً لمدرسة الآثار البريطانية في القدس من سنة ١٩٧٩ - ١٩٨٤، ودرس في هذه الأثناء الكنائس المسيحية القديمة، وواصل كزميل في معهد دومبارتن أوكس Dumbarton Oaks (الولايات المتحدة) أبحاثه في معهد الطنطور (القدس)، وهو يكتب لأن كتاباً عن تصاميم مباني الكنائس الأولى.

عبد العزيز الدوري

ولد عبد العزيز الدوري في بغداد سنة ١٩١٩ . وقد عمل أستاذاً للتاريخ الاسلامي في الجامعة الأردنية بعمان منذ سنة ١٩٦٩ . وكان سابقاً رئيساً لجامعة بغداد (١٩٦٣ - ١٩٦٨) . ومجال بحثه الرئيسي هو التاريخ الاقتصادي الاسلامي ، وعنوان أطروحته للدكتوراة (جامعة لندن ، ١٩٤٢) هو [دراسات في الحياة الاقتصادية في بلاد ما بين النهرين في القرن العاشر الميلادي]

[Studies on the Economic Life of Mesopotamia in the 10th Century A.D.] . وقد ألف الأستاذ الدوري عدة كتب ومقالات ، وحصل في سنة ١٩٨٦ على جائزة الملك فيصل الدولية (المملكة العربية السعودية) .

مصطفى الحيارى

حصل مصطفى الحيارى على درجة الدكتوراة في فلسفة التاريخ الاسلامي من معهد الدراسات الشرقية والافريقية بجامعة لندن سنة ١٩٧٥ . وهو الآن أستاذ للتاريخ في الجامعة الأردنية . ومجال بحثه الرئيسي هو تاريخ القبائل في العالم العربي وتاريخ الثغور بين بلاد بيزنطة وبلاد الخلافة الاسلامية وكذلك الفترة الصليبية . وقد نشر وحرر عدداً من الكتب والمقالات حول هذه الموضوعات وحول الادارة العباسية .

دونالد ب. لتل Donald P. Little

دونالد لتل هو أستاذ اللغة العربية والتاريخ الاسلامي في معهد الدراسات الاسلامية في جامعة ماكجيل Mc Gill في مونتريال . وكان مديراً للمعهد منذ سنة ١٩٨٢ . وهو متخصص في الكتابات التاريخية في عصر المماليك البحرية . وقد حصل على الدكتوراة في فلسفة الدراسات الاسلامية من جامعة كاليفورنيا ، لوس انجلوس سنة ١٩٦٦ .
من كتبه الأخيرة :

- A Catalogue of the Islamic Documents from al-Haram ash-Sharif in Jerusalem, 1984.

- History and Historiography of the Mamluks, 1986.

كامل جميل العسلي

كامل جميل العسلي من أبناء القدس . وقد حصل على درجة الدكتوراة في الفلسفة من جامعة هومبولدت Humboldt ببرلين سنة ١٩٦٧ . وهو يعكف الآن على دراسة تاريخ

القدس والبحوث المتصلة به في الجامعة الأردنية. كان مديراً لمكتبة الجامعة الأردنية من سنة ١٩٦٨ إلى سنة ١٩٨٣. وخلال السنوات الاحدى عشرة الأخيرة ألف ثلاثة عشر كتاباً حول التراث الاسلامي في القدس وفلسطين، ووضع عدة مقالات وأبحاث. حصل على جائزة مؤسسة الكويت للتقدم العلمي سنة ١٩٨٢. ووسام القدس للثقافة والآداب والفنون سنة ١٩٩٠.

الكزاندر شولش Alexander Schölch

ولد الكزاندر شولش في موزباخ Mosbach بالمانيا ودرس بجامعة هايدلبرغ. وقد لقيت اطروحته للدكتوراة: مصر للمصريين (Ägypten den Ägyptern)، ١٩٧٢، ترحيباً بالغاً في الأوساط العلمية بوصفها واحدة من أهم الكتب التي وضعت عن تاريخ الشرق الأوسط الحديث. ثم انتقلت اهتمامات البروفسور شولش تدريجياً نحو فلسطين في القرنين التاسع عشر والعشرين. وفي سنة ١٩٨١ حرر كتاب Die Palästina Frage 1917-1948 - المسألة الفلسطينية ١٩١٧-١٩٤٨ - وفي سنة ١٩٨٣ كتاب Palästineser in Israel - الفلسطينيون في إسرائيل - . وآخر كتبه Palästina im Umbruch 1856-1882 هو دراسة متقنة عن تطور فلسطين في تلك الفترة. وقد ترجم هذا الكتاب إلى العربية كامل جميل العسلي بعنوان (تحولات جذرية في فلسطين ١٨٥٦ - ١٨٨٢) وصدرت الترجمة عن الجامعة الأردنية سنة ١٩٨٨. وآخر منصب تولاه الاستاذ شولش كان في جامعة ايرلانغن حيث عين سنة ١٩٨٤ في الكرسي الذي انشيء حديثاً لدراسات الشرق الأوسط الحديث. وكانت وفاة الكزاندر شولش المبكرة في شهر آب ١٩٨٦ خسارة كبرى لدراسات الشرق الأوسط بصورة عامة ولتاريخ مصر وفلسطين بصورة خاصة.

مايكل هدسون Michael C. Hudson

مايكل هدسون هو مدير مركز الدراسات العربية المعاصرة - Center of Arab Contemporary Studies وأستاذ العلاقات الحكومية والدولية (كرسي سيف غوباش) في جامعة جورج تاون. تلقى الدكتوراة في العلوم السياسية من جامعة يال Yale. وألف عدة كتب منها كتاب Arab Politics: The Search for Legitimacy ووضع دراسة عن لسياسة اللبنانية سنة ١٩٦٨ أعادت طبعتها مؤخراً دار ال Westview Press . والدكتور هدسون عضو هيئة تحرير كل من مجلة Journal of Arab Affairs .
مجلة International Journal of Middle East Studies .

مقدّمة

إن الحاجة إلى وضع مؤلّف عام وشامل عن تاريخ القدس قائمة منذ زمن طويل . وعلى الرغم من أن عدة كتب ممتازة قد وضعت حول فترات أو موضوعات خاصة فان ميدان البحث كله ما يزال في حاجة إلى جهود مركزة من جانب الباحثين - لتحقيق نواحٍ معينة مختلفة من تاريخ المدينة المقدسة وتراثها - وبذلك يمكن إنجاز تاريخ موثوق به وعام لمدينة القدس .

والمؤلّف الذي بين يدي القراء الآن هو جهد في ذلك الاتجاه . فهو عرض عام لتاريخ القدس في جميع الفترات التاريخية . ومع أنه تاريخ موجز فمن المأمول أن يرسى الأساس لعمل كبير شامل .

إن طلاب تاريخ القدس ، في جميع الفترات ، يواجهون نوعين من الصعوبات . انهم يدركون أولاً أن هناك ثغرات كثيرة في تاريخ المدينة المقدسة لا بد من تجسيدها ، وهناك نقاط غامضة كثيرة وحشد من المشكلات المتعلقة بالحقائق التاريخية ينبغي توضيحها وحلّها . وهناك ثانياً ناحية مهمّة للغاية تتصل بـ «الموضوعية» في سرد الأحداث التاريخية وتحليلها ، وهذه الصعوبة من الأمور الطبيعية في حالة مدينة مقدسة لها مكانة القدس حيث تتلاقى مطالب أتباع ثلاث ديانات عالمية : المسيحية والاسلام واليهودية وتتصادم .

إن قداسة القدس قد صنعت تاريخها بأكثر من معنى من المعاني . وإذ كانت القدس موضع الحب والتقديس لدى مئات الملايين في جميع أنحاء العالم وفي جميع العصور فإنها قد عاشت أياماً مجيدة عمّرت خلالها وجمّلت على نطاق فخم شديد التأثير في النفوس . ولكن بسبب هذه المكانة الخاصة التي احتلتها القدس لدى المؤمنين كان عليها في أيام أخرى أن تعاني معاناة مخيفة . فقد دمرت عدة مرات تدميراً تاماً وأُبيد سكانها . ولكن في كل مرة كان يقدر لها أن تنهض من جديد . إن تاريخ القدس مزيجٌ من الأجداد والمصائب .

وفي كل الحالات تقريباً كان للمشاعر الدينية القوية دورٌ في صياغة الأحداث . وما أكثر ما كانت هذه المشاعر تولّد بطريقة مصطنعة وتوجّه لخدمة الأغراض الدنيوية .

ولكن عندما يساء استخدام الدين تكون كوارث التعصب دائماً على الأبواب . وفي

مثل هذه الأحوال تعاني الرواية التاريخية أشد المعاناة وتفتح صفحاتها لضروب الهوى والتحيز. وهذا الوضع نشأ عدة مرات في تاريخ القدس .

وفي السنوات المائة الأخيرة أنتجت كمية ضخمة من الأدب حول القدس تناولت جميع نواحي حياتها : التاريخ والجغرافيا والآثار والأهمية الدينية والثقافية والقضية السياسية والحياة الاقتصادية والتطوير الحضري الخ . وازداد حجم الكتابة زيادة هائلة في السنوات الأخيرة، خصوصاً بعد الاحتلال الاسرائيلي لجزء من المدينة سنة ١٩٤٨ ، وللمدينة كلها سنة ١٩٦٧ . ومن الواضح أن قسماً كبيراً من هذه الكتابات كان جزءاً لا يتجزأ من حملة سياسية صُممت لتبرير هدف معين : تحويل القدس (تهويدها) . ونتيجة للتدفق المستمر لهذا النوع من الأدبيات فقد وضعت غشاوة على عيون شعوب برمتها .

وفي ظل هذه الظروف شعرنا بالضرورة الملحة لمعالجة الوضع الراهن بمحاولة تقديم صورة متوازنة حقيقية لتاريخ القدس ، تقديم تاريخ موضوعي يهدف إلى مساعدة الناس على فهم تاريخ المدينة وتكوين رأي مستقل عنه .

وقد رأينا أن أفضل السبل لتحقيق هذا الهدف هو اللجوء إلى التعاون الدولي حيث يشارك عدة علماء من بلدان عديدة في جهود تبذل لكتابة تاريخ القدس ، ويحيث يكتب كل عالم في ميدان اهتمامه الخاص . وهكذا تم تكوين فريق دولي يضم ثمانية من العلماء البارزين من سبعة أقطار هي الولايات المتحدة وكندا وبريطانيا والمانيا وهولندا والعراق والأردن ، إضافة إلى محرر الكتاب .

وتلطف المشاركون بقبول دعوتنا لاغناء الكتاب بثمرات أبحاثهم عن تاريخ القدس ، وقدم كل واحد منهم صورة للقدس في الفترة المعينة التي عمل على دراستها مدة طويلة من الزمن . وفي هذا الكتاب وضعوا ثمرات أبحاثهم في متناول العلماء وجمهور القراء بصورة عامة . وقد شفعت مساهماتهم بالايضاحات والصور .

إن لهم جميعاً علينا ولكل واحد منهم واجب الشكر . ونأمل أن تضع جهودهم المشتركة ، كما قلنا سابقاً ، أساساً سليماً لتاريخ القدس العظيم ، وتكون فاتحة طيبة للعمل المستقبلي حول أقدس المدن لدى البشرية .

كامل جميل العسلي

الفصل الأول

الْقُدْسُ فِي الْعَصْرِ الْبَرْقُوسِي
٣٠٠٠ ~ ١٠٠٠ ق م

هـ . ي . فرانكن

مقدّمة

إن تاريخ القدس في الألف الثاني قبل الميلاد هو تاريخ فترة لم تكد تصلنا منها أية وثائق تاريخية على الاطلاق. ولما كانت المعلومات التاريخية الحقيقية المتوافرة لدينا حول المراحل المبكرة من حياة المدينة ضئيلة للغاية فسوف نسمي هذا الفصل «التاريخ الأول proto-history» للقدس (أي التاريخ السابق للتاريخ المدون). إن معظم المعلومات التي لدينا حول أقدم تاريخ للمدينة ترجع إلى عصور لاحقة، وليست لها طبيعة تاريخية بالمعنى الدقيق، وما نعرفه تاريخياً عن القدس في العصر البرونزي يمكن قوله بكلمات قليلة. لكن مفهوم التاريخ لا يقتضي أن نشير فقط إلى المصير المادي لمدينة في الماضي، بل إلى أصل وإلى نمو «المعنى» الذي اكتسبته المدينة في أوقات لاحقة. إن حقيقة وجود مستوطنة في العصر البرونزي أعطيت منزلة رفيعة كسلف للمدينة المقدسة في تاريخ متأخر كثيراً يسرّر لنا أن نصف في هذا الفصل الأحوال التي بعثت على هذه التطورات التالية باعتبارها جزءاً من ذلك التاريخ المبكر. ومن المعقول تماماً أن بعض الأفكار التي تعتبر القدس مركزاً روحياً للعالم قد ترجع إلى ما قبل استيلاء داود على قلعة صهيون. وكثيراً ما يدعى بالحقائق التاريخية والأثرية المعروفة جيداً من زمن المستوطنة اليبوسية ليست حقائق صحيحة، بل هي بالأحرى إعادة بناء للاحداث تستند إلى نصوص أسية فهمها لأنها غير واضحة أو غير كاملة، أو إلى حفريات كشفت بقايا من الصعب أن نصف وظيفتها التاريخية.

ويترتب علينا أن نتناول جميع هذه الأنواع المختلفة من الأدلة بطريقة تحليلية لكي ندرك قيمتها بالنسبة لإعادة بناء التاريخ. وما لم نسر في هذا الفصل بهذه الطريقة الحذرة ونصف طبيعة البيانات التي بين أيدينا ونسب كل بينة إلى فرعها الخاص الذي تنتمي إليه بصورة أساسية من فروع الأبحاث الشرقية كفقهِ اللغة، والدين الخ. . فسنعرض أنفسنا لخطر بناء صورة بانورامية (شاملة الرؤية) لمدينة القدس القديمة توحى لنا بما هو أكثر بكثير مما كان فيها في أي وقت مضى. وقد حدث هذا مرّاتٍ عديدة في الماضي. وإنه لحرى بنا أن نتفحص المجال الواسع للمادة الأدبية والأثرية التي بين أيدينا لإعادة بناء «التاريخ الأول» للقدس وتحليلها المبكر بتحليل طبيعة المصادر بمنظورها الخاص لتبين المعلومات التاريخية الحقيقية التي قد تكون كامنة فيها. وهناك بوجه الإجمال مصدران رئيسيان: المصدر الأدبي والمصدر الأثري. المصادر الأدبية هي مصادر ذات طبيعة لغوية خالصة، أو طبيعة تاريخية

أو شبه تاريخية، وفي معظم الحالات، طبيعة دينية. أما المصادر الأثرية فهي محصورة لسوء الحظ في الحد الأدنى من المعلومات المفيدة، مما يتناسب تناسباً عكسياً تقريباً والأهمية الجوهرية للتاريخ الذي يُفترض أنها تعكسه. وفي كل حال سنجد أن لا «بيّنة» من البيانات يمكن أن تؤخذ حسب قيمتها الظاهرية.

وإنه من الصعب على القراء الذين لم يطلعوا على «القواعد اللغوية» الخاصة بالتفسير العلمي للنصوص أن يفهموا لماذا لا يُؤخذ الشيء الذي كثيراً ما يبدو بأنه حقيقة بسيطة أو الشيء الذي يبدو أنه «يتحدث عن ماهيته بدقة» حسب قيمته الظاهرية. ولكن الواقع أن نصوصاً كهذه لا تؤخذ أبداً حسب قيمتها الظاهرية، لا في عالم العلم، ولا في عالم الدين بالقدر نفسه، ولا في سياق أثري حيث ينبغي أن يعترف المرء بأن التفسير الأثري ما زال في أحيان كثيرة يفتقر إلى الأطار الصارم الذي يضعه المرء حول تفسير النصوص. إن كثيراً من النصوص الدينية التي تتناول ما قبل القدس الاسرائيلية تتضمن معلومات ذات قيمة لفهم طبيعة القدس في العصر البرونزي. ولكن هذه النصوص تساعدنا أقل من ذلك بكثير سواء على إعادة بناء التاريخ أو لتحديد مواقع الأحداث المرتبطة بتاريخ المدينة. وفي الوقت الذي يتوافر فيه لدينا حشدٌ من القصص حول القدس القديمة، وكثير منها قصص قديمة قدم أسوار المدينة في العصر البرونزي تقريباً، فإنه ينبغي علينا أن نتناول هذا الجمع من المعلومات القديمة بطريقة علمية موجزة ودقيقة. وحيثما فقط يتسنى للقاريء أن يجد الصديق التاريخي حول ماضي القدس المبكر ويدرك في الوقت نفسه القيمة الداخلية لعالم الأسطورة الذي نشأ حولها. إن الأساطير كثيراً ما تحتوي على معلومات مفيدة جداً حول الماضي، ولكن لسوء الحظ فإن من طبيعة الاسطورة أنها تخفي حقائق التاريخ إخفاء شديداً. لقد كانت الاسطورة طريقة ثمينة للغاية لنقل حقائق الحياة فيما قبل العصر الحديث. ولكن في الساعة التي نفقد فيها احساسنا بطبيعة الاسطورة، عندئذ فقط تغدو الاسطورة خطراً على البشرية. إن الاسطورة يمكن أن تفسر بعدة طرق، وسوف نستخدم قصة ملكي صادق، ملك سالم، لايضاح ما هو بمعنى من المعاني صحيح أيضاً بالنسبة للقصص حول القدس في العصور البرونزية. وكل من يفهم خلق الاسطورة في الماضي يستطيع أن يفهم بسهولة طبيعة الأساطير الحديثة التي نشأت حول القدس في هذا اليوم وهذا العصر. ومن أبرز معالم الأساطير التي نشأت في القدس أن كثيراً منها ترجع فيما يبدو إلى فترة «تاريخها الأول»، كما سنبيّن في هذا الفصل. وأذ تناقلتها، كما حصل،

الديانتان اليهودية والمسيحية إلى الزمن الحاضر فانها قد خلقت وحُضنت في صهيون اليبوسية على جبل أوفل .

طبيعة البيّنات

إن القراء الذين لم يتعرفوا على المداخل الحديثة لدراسة النصوص التاريخية أو الأدبية أو الدينية القديمة أو لدراسة نظم تفسير المكتشفات الأثرية قد يجنون بعض الفائدة من قراءة مقدمة قصيرة للدراسة في هذه الميادين . وهذا الفصل يستند استناداً تاماً إلى مثل هذه الدراسات النقدية . وسوف نتعرض لذكر البحوث الأدبية والأثرية والدينية والتاريخية .

البيّنات الأدبية :

إن جميع المعلومات القديمة المكتوبة عن القدس في العصر البرونزي هي معلومات ذات طبيعة أدبية في الدرجة الأولى . وهذا ينطبق أيضاً على أي معلومات دينية نجدها في الكتب المقدسة . والمعلومات الأدبية يدرّسها اللغويون بطبيعة الحال . وهنا تكون لفقه اللغة (الفيلولوجيا) الكلمة الأولى . وفي هذه المرحلة من مراحل دراسة النص كثيراً ما تستخدم لغات الشرق الأدنى القديمة الأخرى إلى جانب اللغة العبرية للتوصل إلى تفسير فيلولوجي للنص وإلى ترجمته . ويهتم جزء كبير من جميع دراسات العهد القديم بدراسة النص العبري نفسه . والخطوة التالية هي تفسير النص المكتوب ، وهنا تتم في أغلب الأحيان مناقشة تاريخ النص أولاً . والسؤال التالي هو عن المهد الذي نشأت فيه الفكرة المعبر عنها ، وفي أي وقت لعبت هذه الفكرة دوراً ولاي غرض جعلت جزءاً من النص ؟ وبصورة عامة ترجع المعلومات إلى وقت يسبق كتابتها بزمن طويل ، وهي لم تحفظ في النص إلا لأنها كانت تؤدي غرضاً ما في ذهن الكاتب . وكثيراً ما توفر نتائج هذه الدراسات الأسباب لقراءة النص وترجمته بصورة تختلف عما فعله العلماء المترجمون السابقون . ومن أكثر القضايا التي تنتج عن هذه الدراسات التفسيرية إثارة للجدل قضية الصحة التاريخية للموضوع . هل يمكن اعتبار ملكي صادق شخصاً عاش بالفعل في وقت من الأوقات وهل منّح ابراهيم بركته حقاً؟ إن الجواب الذي يجيبه علماء مختلفون على هذه الأسئلة كثيراً ما يتكون من مجموعة مركبة من طرق مختلفة لتناول الموضوع . وهم يطبقون طريقة نقدية في المعالجة وفقاً للمجرى العام لدراسات النصوص ، وهم «يَزنون البيّنة» على خلفية قناعاتهم الدينية نفسها .

ويبدو أن هذا اجراء مشروع تماماً نظراً للحقيقة القائلة بأنه ما من قدر من الجهود الفيلولوجية أو الظواهرية phenomenological يستطيع أن ينتج - في أحيان كثيرة - الجواب «النهائي» أو الحاسم. هناك دائماً مجال لتفسيرات جديدة، وهناك دائماً فرصة للعثور على نقوش جديدة ترغمنا على تنقيح تفسيراتنا. بيد أن العلماء الذين يتفوقون تماماً على أن تفسيراً معيناً لنص ما هو تفسير مقبول قد يختلفون مع ذلك على نقطة الأهمية فيه بالنسبة لإعادة البناء التاريخية «لما وقع بالفعل»، على أساس قناعاتهم الدينية مثلاً.

إن تاريخ تفسير ملكي صادق هو مثال جيد. عندما اكتشف لأول مرة أن الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم هي تأليف غاية في التعقيد من مصادر مختلفة (مدرسة كونين - فلهاوزن Keunen - Wellhausen) ^(١) لم يكن ملكي صادق يعتبر شخصاً تاريخياً. ويناقش دي فو De Vaux الأمر فيقول إننا لا نستطيع في ضوء المكتشفات الأثرية أن نخرج بهذه النتيجة وتبعه في الرأي جماعة آخرون ^(٢). لكن الدليل الأثري هو حتى أقل مُلاءمة من الدليل الأدبي للأخذ به كشاهدٍ عَدَل على حياة إنسان العصر البرونزي في فلسطين، إلا إذا كان هذا الدليل يقوم على مادة من النقوش والكتابات، كالنقوش التذكارية، والواح الآجر والكتابة على كِسْر الأواني الخزفية. وليس لاسم ملكي صادق وجود في أي سجل أثري.

إن المدارس التي انتمى أو ينتمي إليها الكتاب المختلفون أو الخلفية الدينية التي كثيراً ما تصوغ النتائج التي يتوصل إليها المؤلف حول ما حدث في الماضي، على الرغم من مساعدتها في إيجاد حلول لبعض المشكلات الصعبة، هي خارج التفكير التاريخي العلمي. وكما سنرى فإنه ليس في وسع التفكير التاريخي العصري أن ينكر وجود القدس كمدينة في الألف الثالث قبل الميلاد، إذا كان شخص من الأشخاص «يعتقد» أنها كانت موجودة. وقد صرح أولبرايت ذات مرة بأنه «لا مجال للشك مطلقاً في أن القدس كانت مسكونة خلال القرون الأخيرة من الألف الثالث...». ^(٣) إن أقوالاً كهذه شائعة في الأدب حتى الوقت الحاضر. لكننا اليوم نرى البيئات التي بنى أولبرايت رأيه عليها في ضوء مختلف تماماً. وكل ما لدينا من بيئات في الوقت الحاضر تدحض قوله هذا. ولكن هل نستطيع أن ندحضه؟ إن عدم استطاعتنا العثور على آثار مدينة كهذه لا يكفي لاثبات أنها لم تكن موجودة. وبكفي أن نقول إنه ليست لدينا بيئات أدبية أو أثرية تشير إلى وجود القدس في الألف الثالث قبل الميلاد. إن البيئات الأدبية، إذا ترجمت وفهمت على وجهها الصحيح، تخبرنا بما كان الكاتب القديم يريد أن يقوله، وأما إذا كان ما كتبه صحيحاً من وجهة تاريخية فهذه مسألة مختلفة كل الاختلاف.

البيئات الأثرية :

إن تاريخ الحفريات في المدينة المقدسة وما حولها يثبت أن الكشف عن الأسوار وغيرها من البقايا الأثرية لا يتجاوز أساس العمل الأثري . وعندما بدأت الحفريات في النصف الثاني من القرن الماضي كان هنالك سبيل واحد لتفسير المكتشفات الا وهو تطبيق المعرفة التاريخية المستقاة من كتابات يوسيفوس ومن الكتاب المقدس على الخرائب والأطلال . وقد جرت مناقشات حامية حول قضايا كقضية المكان الذي كانت تقع فيه مدينة اليوسيين ، بعد أن تم العثور على أجزاء صغيرة من الأسوار . وكانت هذه المكتشفات تتم عادة في مناطق محصورة . وفي تلك الأيام لم يكن في الامكان تأريخ الخزف الا بالنسبة لفترات متأخرة تماماً كالفترة الرومانية أو البيزنطية . أما الأبحاث الستراتيغرافية (المتعلقة بالطبقات الجيولوجية) فلم يكن لها وجود مطلقاً . وقد حُصّ ماكالستر ودنكان العمل الذي انجز حتى عام ١٩٢٥^(٤) ، ولكن جميع التواريخ الخاصة بالمباني الهامة التي اكتشفها ظهر فيما بعد أنها خطأ بطريقة يمكن البرهنة عليها أو أنه لم يتسن التحقق من صحتها لعدم وجود بيئة يعتمد عليها في التأريخ . ومع ذلك فقد تمكنا من ادراج جميع مكتشفاتها وكثير من مكتشفات أسلافها في تسلسل تاريخي مستخلص كلياً من مصادر الكتاب المقدس الأدبية . وقد سار العمل الأثري الحديث في المنطقة نفسها بالكيفية التالية : إما أن يؤرخ المرء المكتشفات بصورة مؤقتة لأن مادة التأريخ (الخزف) لم تكن قد درست دراسة صحيحة بعد^(٥) ، وإما أن يضع المرء تواريخ على أساس المادة نفسها^(٦) قبل نشر البيئات . وطبيعي أنه أصبح من الأسهل الآن اثبات الفترات التي اقيمت فيها المباني ، ولكن مايزال من المتعذر علينا مثلاً أن نقول بوجه قاطع إستناداً إلى تحليل الخزف فيما إذا كانت المعالم ترجع بتاريخها إلى زمن الملك داود أو زمن الملك سليمان . وهنا كثيراً ما يلعب نص الكتاب المقدس مرة أخرى دوراً حاسماً في إعادة بناء تاريخ العمران في الموقع . إن الاتجاه العام لعلم الآثار في المنطقة يميل إلى تكييف الأشياء وفق معلوماتنا ، الأشياء التي لا يمكن تفسيرها تاريخياً من تلقاء ذاتها ، هو اتجاه يمكن فهمه لكنه كثيراً ما سدّ الطريق في وجه تفسيرات جديدة . ومن الواضح أنه من الصعوبة بمكان أن ندرس الخرائب ونحلل المباني من أجلها هي بالذات بالدرجة الأولى دون أن نقفز إلى النتائج الا بعد أن تكون هذه الخرائب والمباني قد وصفت ودرست تمام الوصف والدراسة . إن خرائب القدس لا تشرح نفسها بنفسها ولا يمكن مقارنتها مثلاً بالخرائب ذات النقوش كذلك التي نجدتها في مصر أو الخرائب التي تضم ارشيفات تاريخية

كتلك التي نجدها في سوريا أو بلاد ما بين النهرين . والطريق التي نسلکہا في تناول حالات كحالة القدس هي أن نقارن المكتشفات بتلك التي عثر عليها في مكان آخر وتم تأريخها تاريخاً جيداً من قبل بربطها بأشياء منقوشة من مصر^(٧) . وهذا الأسلوب يعني ضمناً بأنه سيكون هناك شيء من الارتياح لا فيما يتعلق بالتأريخ فحسب وإنما أيضاً في تفسير طبيعة مبنى معين . وسوف نرى مثلاً أن سور المدينة اليبوسية الذي اكتشف في الستينات يمكن أن يُفترض افتراضاً فحسب بأنه بني في القرن الثامن عشر قبل الميلاد وأن أمد حياته العملية في الحقيقة غير مؤكد^(٨) .

البيئات الدينية :

هذه البيئات هي أيضاً مصدر تكمن فيه معلومات تاريخية . وقد حُفظ قسماً كبيراً من المادة الدينية والثقافية القديمة في نص العهد القديم . واستخدمها كتاب العهد القديم القدماء لإعادة بناء تاريخ القبائل العبرية أو لتذكير القراء بأعمال يهوه العظيمة في الماضي . ولكن كثيراً ما يبدو أنهم اقتطفوا أقوالاً من مصادر مكتوبة أو شفوية قديمة ، فأخذوا منها ما كانوا في حاجة إليه فقط وتركوا معلومات كان وجودها بين يدينا أمراً جوهرياً بنوع ما إذا كان لنا أن نجد التفسير التاريخي الصحيح . وهكذا فإننا نصادف في قصة ملكي صادق اسم (إل - عليون) ، الله العلي ، الذي كان ملكي صادق كاهناً له . ويمكننا أن نشرح من وجهة دينية لماذا حفظ هذا الاسم . ولكننا لا نكاد نستطيع الاقتباس من العهد الجديد لشرح الأصل التاريخي لهذا الكاهن : «بلا أب بلا أم بلا نسب» [الرسالة إلى العبرانيين ٧ : ٣] أو الأصل التاريخي لـ (إل - عليون) . اننا في هذه الحالة لا نتعامل مع معلومات تاريخية بل مع تفسير ديني . وفي كل حالة ترد فيها إشارة في النصوص إلى القدس في العصر البرونزي يجب أن نتبين ما هو سياق الإشارة ، وإلى أي حد هي مؤلفة من شظايا أو كسر ، وما هو الذي يمكن الاعتماد عليه ليعكس ناحية ما ، تاريخية أو ثقافية أو دينية للمستوطنة اليبوسية . ولا نكاد نتوقع أن يتضمن العهد القديم نفاً من المعلومات التي يرجع تاريخها إلى العصر البرونزي الأوسط (حوالي ١٩٠٠ - ١٥٥٠ ق. م) ، بله معلومات من فترات أقدم .

البيئات التاريخية :

إن البيئات التاريخية الصحيحة حول تاريخ القدس المبكر لا يمكن العثور عليها إلا «بوزن» المعلومات الأدبية والأثرية المتوافرة لدينا في الوقت الحاضر . والتاريخ أو الزمن

التاريخي يسبقه زمن ما قبل التاريخ والتاريخ الأول. والتمييز بينهما في بعض الحالات هو تمييز مصطنع. فنحن نعتبر بداية التاريخ الوقت الذي تتوافر فيه وثائق أدبية حول الناس والأماكن. وبهذا المعنى يمكن أن تكون القدس قد دخلت التاريخ زمن نصوص اللعنة execration texts، وهي قد دخلت التاريخ بالتأكيد في فترة العماونة. والمكتشفات الأثرية غير الأدبية لا تستطيع تغيير هذا التاريخ وابداله بتاريخ أقدم. وإذا كان هذا الفصل يتناول تاريخ القدس المبكر فينبغي أن يتضمن فترة ما قبل التاريخ والتاريخ الأول للمدينة، أو على الأقل الدلائل التي تدل على أن الموقع كان مأهولاً، وهو أمر لا يمكن التأشير عليه بلافتات تاريخية، سواء كانت عرقية أو خلاف ذلك. إن النقوش لم تكشف عن اسم التل في الألف الثالث قبل الميلاد وما قبله، مع أنه أصبح واضحاً من المكتشفات والحفريات العرضية أن الناس كانوا هناك وعاشوا فترة موقته هناك، أو أنهم كانوا مقيمين في مكان مجاور ابتداءً من العصر الحجري القديم. ومن المؤكد تماماً أن مصدر أو مصادر الماء في المنطقة اجتذبت دائماً الصيادين وغيرهم من جامعي الغذاء وكذلك المزارعين والرعاة. وإذا لم تكن هناك دلائل على وجود الإنسان في المنطقة في فترات معينة فيجب الانسحاب في الأزمنة التي انقضت على وصول أول زوارٍ من البشر إلى المنطقة كان سطح الأرض التي مشوا عليها قد انجرف منذ أمد بعيد أو أنه كان قد دفن تحت أنقاض ثقافات عديدة لاحقة. وهذا شيء رمزي بالنسبة للبيئات التاريخية حول القدس في العصور البرونزية. فالذي يبدو أن معظمها قد جرفه الزمان لكن بعضها ما زال هناك ينتظر من يستخرجه سواء من تحت التراب أو من تجمع ضخم من «الرواسب» الروحية التي خلفها العقل الإنساني من بعد.

البيئات الأدبية

اسم الموقع :

ظهر اسم اورسالم لأول مرة في مجموعة الألواح التي عرفت بما دعي بـ «نصوص اللعنة» التي عثر عليها في مصر. ففي سنة ١٩٢٥ اشترى هـ. شيفر Schaefer في الأقصر ٢٥١ كسرة أثرية ظهرت على معظمها كتابة هيرية^(*) قديمة جداً، ثم اشترت كسرة أخرى

* شكل قديم للكتابة المصرية القديمة، أبسط من الهيروغليافية.

فيما بعد. ومن هذه الكسِرَ أمكن ترميم ٨٠ طبقاً ومزهريّة. وبهذه الطريقة أصبحت النصوص مفهومة. ويعد مضي عام واحد فقط نشر ك. زيته K. Sethe هذه النصوص في برلين، مع ترجمة وتعليق^(٩).

ووجد زيته عدة مرات كلمة نقلها إلى الأحرف اللاتينية هكذا : Awšamm - أوشام، وقرأها هكذا : Urusalim - اوروسالم. وأبدى بعض العلماء شكوكهم حول هذه القراءة ولكن هذه الترجمة للنصوص كان لها وقع في نفوس معظم العلماء وأعربوا عن اقتناعهم بها. وقد أرجع تاريخ هذه النصوص في البداية إلى القرون الأخيرة من الألف الثالث قبل الميلاد. أما الآن فهي تنسب عادة إلى فترة الأسرة الثانية عشرة، وبوجه أكثر تحديداً، إلى فترة حكم سيزوستريس الثالث (Sisostris III) (١٨٧٩ - ١٨٤٢)^(١٠) وهذا التاريخ الأخير أحدث أيضاً تغييراً في تفسير استعمال هذه النصوص. وهذه هي النصوص التي تدعى بنصوص اللعنة والتي ذكرت فيها أسماء البلدان والمدن والحكام الذين لعنوا بسبب نواياهم أو أفعالهم الشريرة، الحقيقية أو المحتملة، ضد مصر.

وقد ظن في البداية أنه كان يفترض أن يكون لهذه اللعنات قوة السحر ضد جميع أولئك الأعداء الذين لم تكن مصر قادرة على السيطرة عليهم بالقوة العسكرية^(١١). وعلى أية حال فإن التاريخ الجديد يجعل هذه النصوص في فترة كانت مصر تمارس فيها السلطة في فلسطين وسوريا. ولذلك فإن «النص لا يشير إلى واقع تاريخي بل إلى الاعتقاد الدوغماتي (الجامد) في السيادة الشاملة للفرعون، الذي ينبغي على كل إنسان مهما كان بمقتضاه أن يخضع لفرعون ويدين له بالطاعة»^(١٢). ولذلك فإن النصوص لا يمكن أن تستخدم لتحديد اتساع الامبراطورية التي كانت تتبع الأسرة الثانية عشر، كما أنها لا تشير إلى ضعف من جانب مصر. لقد كانت طقوس اللعنة «مسألة روتينية ولم تكن اجراءً استثنائياً فرضته الظروف»^(١٣). وتذكر النصوص الأقدم عهداً عشرين بلداً وثلاثين أميراً. ومن بينها اوروسالم Urusalim واثنين من أمرائها. ونحن نصادف هنا للمرة الأولى اسم سالم أو شالم [Salem, Salim or Shalem] وقد حددت هوية سالم بأنه اسم إله، واورو uru ربما تعني «أسس». ويعتبر الاسم عمورياً من حيث الأصل. وأول ذكر لاسم سالم في الكتاب المقدس نجده في سفر التكوين ١٤ : ١٨ في الموضع الذي ذكر فيه اسم ملكي صادق ملك سالم. وليس من المؤكد أبداً أن سالم هنا هي اختصار لـ اوروسالم. وقد اعتبر الاسمان اسماً واحداً لأول مرة في المزامير (٧٦ : ٢) ثم في يوسفوس (Ant. I. 10. 2). ولكن يبدو أن

أوسابيوس Eusebius عين موقع سالم في قرية إلى الشرق من نابلس حيث يعتقد أن أبرام وملكي صادق قد التقيا. أما جيروم Jerome فقد أرتأى أن سالم هي سالومنياس Salumnias على بعد ثمانية أميال إلى الجنوب من سكيثوبولس Scythopolis (بيسان). ومن الممكن، ولكنه من غير المؤكد أبداً، أن هذه التفسيرات المختلفة للموقع كان سببها الوحيد أن كلمة سالم كانت شبيهة الجرس باسم مكان آخر صادف أن عرفه المؤلفون. وأولى من ذلك أن يفكر المرء بمشكلة واجهت علماء اللاهوت القدامى فيما يتصل بالمباركة التي أسبغها على أبرام ملك غير إسرائيلي لم يكن إلهة إله موسى أو أبرام. وقد اقتبس سكينر Skinner في تعليقه على سفر التكوين قول غونكل Gunkel: «إن المشهد الذي جمع بين إبراهيم وملكي صادق لا يعوزه سحر الشعر: الشخصيتان الكبيران اللتان كان من شأنهما أن تتحداً إتحاداً وثيقاً، الشعب المقدس والمدينة المقدسة قد جمعتا معاً للمرة الأولى: هنا تنال إسرائيل لأول مرة البركة من مكانها المقدس». ⁽¹⁴⁾ ولكن على الرغم من أن كثيراً من العلماء يقبلون اعتبار سالم وأورسالم شيئاً واحداً إلا أنه ليس هنالك برهان قطعي على ذلك. إن سالم يمكن أن تنسب إلى شكيم Schechem بدلاً من القدس ⁽¹⁵⁾. أما بيتر فينحذف ملكي صادق كليةً من قصة مباركة إبراهيم، وهذا قد يترك «ملكي صادق ملك سالم» خارج أي سياق ⁽¹⁶⁾. وإذا أخذنا في الاعتبار بشكل خاص أن مدينة القدس اليوسية أو قلعتها لم يكن لها أي قيمة دينية محددة في التفكير الإسرائيلي قبل أن تصبح مركزاً دينياً لهم خلال المملكة الموحدة فإن نتفاً قديمة كهذه من المعلومات يمكن أن تكون قد ألحقت بأي قصة يرويها الكتاب المقدس بسبب الاشتراك في جرس الاسم أو حتى في نواح تكون أعصى على المتابعة. ومهما يكن من أمر حدوث هذا ومكان حدوثه فلنا أن نكون على ثقة من أن بقاءه على الزمان ليس له طبيعة التاريخ بالدرجة الأولى وإنما له طبيعة رمزية أو دينية. إن حادثة ملكي صادق قد ذكرت لأنها قد تحتوي على إشارة قديمة للغاية إلى مدينة القدس. ويأتينا على ذلك دليل أقوى مما يسمى بنصوص العمارنة التي عثر عليها أيضاً في مصر. كان تل العمارنة موقعاً لقرية بدوية قائمة على خرائب مدينة تسمى «افق آتون» - Achet - Aton - أسسها الفرعون أختاتون سنة ١٣٧٠ ق.م. ويقع تل العمارنة في مصر الوسطى على الضفة الشرقية لنهر النيل وعلى بعد حوالي ٣٠٠ كم جنوب القاهرة. وفي سنة ١٨٨٧ وجدت هناك وثائق من أرشيف امنحوتب الرابع، تتألف من رسائل كتبت بأحرف مسمارية على ألواح من الأجر ⁽¹⁷⁾. وست من هذه الرسائل كتبها الملك عبدي حيبا ملك اورسالم، وفي غيرها ذكرت «اورسالم». ومن هذه

الرسائل يمكن أن نستنتج أن فلسطين كانت مقسمة إلى ممالك مدن صغيرة لم يكن يوحد بينها إلا القوة التي يمارسها المصريون في البلاد. وعندما كان الفرعون يعجز عن حفظ النظام بين الأجراء المقطعين التابعين له فإن الأخيرين كانوا يحاولون توسيع أراضيهم على حساب جيرانهم، بينما كانوا يشكون في الوقت نفسه في رسائلهم إلى بلاد مصر من جميع الأضرار التي لحقت بهم من هؤلاء الجيران. وفي ذلك الوقت لم تكن المنطقة التي ملكها ملك اوروسالم صغيرة كثيراً لأنها كانت تمتد إلى حدود أرض جازر Gezer في الغرب وشكيم في الشمال. وفيما يتعلق برسائل العمارة نجد أنفسنا ازاء وضع يمكن أن نسميه تاريخياً لأن هذه الوثائق كتبت في وقت الأحداث التي تصفها كما أن المدن يمكن تحديد مواقعها على الخريطة.

ولم ينجح ملك القدس كل النجاح لأنه يبدو أنه فقد حلفاءه في النهاية، بل فقد سيطرته على الطريق المباشر إلى مصر. إن اسم اوروسالم أصبح مضموناً في هذه الفترة (النصف الأول من القرن الرابع عشر ق. م). وهناك قليل من الشك في أنه يشير إلى مدينة ملكية على جبل الظهور أو الظهور المعروف عند الغربيين بجبل اوڤل Ophel إلى الجنوب من الحرم. ويوحى العهد القديم بأن اسم (يبوس) كان يستخدم كاسم لمدينة القدس اليبوسية (سفر القضاة ١٩ : ١٠) ولكن من غير المحتمل أن يبوس كان اسماً حقيقياً متداولاً في الاستعمال قبل زمن داود. ونحن نعرف بعض الأسماء التي تشير إلى أجزاء معينة من الجبل الذي كانت تقع عليه قدس العصر البرونزي. فأوڤل مثلاً قد يكون اسماً قديماً يفسر بأنه «الجبل المحصن» أو قلعة مدينة. وقد يكون استخدم من قبل للإشارة إلى القلعة اليبوسية^(١٨). والاسم يستعمل أيضاً في السامرة وغيرها من المدن. أما صهيون أو حصن صهيون فقد يكون استخدم للإشارة إلى الحصن اليبوسي أو القلعة (صموئيل الثاني، ٥ : ٧)^(١٩). وإذا كان من المحتمل أن اليبوسيين استعملوا هذين الاسمين فإن هذا بعيد الاحتمال تماماً بالنسبة لاسم موريا، وهو اسم موقع هيكل سليمان في القدس وفق التقاليد المسيحية واليهودية. وهو يستعمل للدلالة على الموقع الذي قيل لآبراهيم أن يضحى بآبانه فيه. لكن سفر التكوين (٢٢ : ٢) يذكر «أرض موريا» التي كانت في التقاليد السامرية قرب شكيم، ولكنها كثيراً ما تصحح إلى «أرض العموريين»، وهي فلسطين بوجه الاجمال. ولو افترضنا أن الاسم محرف وأن «أرض . . .» لا تكاد تبرر التفسير التقليدي كمكان للتضحية «أيذاناً» باختيار الملك سليمان لموقع الهيكل فسنجد اننا نتعامل مع تقليد ديني أكثر من تعاملنا مع معلومات تاريخية.

الاسماء الشخصية :

ذكرت من قبل عدة أسماء لحكام القدس في العصر البرونزي . وأقدم ما ذكر اسمان لـ «أميرين» في نصوص اللُّغة : ياقر عمو وسازُ عَنو. وقد حقق اولبرايت^(٢١) هوية هذين الاسمين فقال انها اسمان عموريان . وفي هذه الفترة سكن فلسطين وسوريا قوم يُنسبون إلى العموريين^(٢٢) . وبقي اسم «عموري» ماثلاً في عصر الكتاب المقدس . أما اللغة فكانت سامية عربية وكثيراً ما تدعى بالكنعانية .

وأما ملكي صادق، الذي تربطه التقاليد ربطاً قوياً بالقدس وإبراهيم فلا يمكن تحديد زمن له في التاريخ . ومن وجهةٍ مثالية يمكن تحديد تاريخه بالقول انه كان يزامن إبراهيم . ولكننا هنا نصادف المشكلة نفسها . فان إبراهيم يجب ان نحدد تاريخه بمزامنته لأقدم النصوص المؤرخة عنه أو قبل ذلك . ومع أنه جرت محاولات كثيرة لتحديد تاريخ هذه الفترة من الزمن بالوسائل الأثرية، أو بالمقارنة بالمصادر المكتوبة من سوريا الشمالية أو بلاد ما بين النهرين (ماري) فان النتائج ظلت قائمة على الافتراض^(٢٣) .

أما فيما يتعلق بعبدي حيبا، ملك القدس في فترة العمارة، فنحن نتعامل مع شخصية تاريخية . لقد ادعى بانه مخلص لفرعون ولكنه رأى ببطه مملكته تتضاءل بعد نجاح أولي في القتال ضد جيرانه في الجنوب . وهكذا فان سوارداتا Swardata من كيلتي Kilti [= خربة كيلا جنوب القدس ؟] كتب رسالة إلى فرعون قال فيها : « . . . لا بابا (من شكيم) استولى على المدن . لقد مات الآن ولكن هناك لا بابا آخر هو عبدي حيبا . وهو يأخذ مدننا . » وتقول رسالة أخرى إن الملك يحارب الساقاز أو العبيرو، وهو اسم أوحى في البداية بأن هؤلاء الأعداء هم العبرانيون . واسم «حيبا» هو أيضاً جزء من اسم وجد في صموئيل ٢٣ : ٣٢ ، وكان يحمله جندي في جيش داود يدعى اليحيبا Elihiba ، «إلهي هو حيبا» . وحيبا كان إلهاً للحموريين .

وحفظ لنا الكتاب المقدس اسمين للملكين : ادوني بازق (سيدي هو بازق) وادوني صادق (سيدي هو صادق) . والأخير كان ملكاً على القدس ، والأول كان ملكاً ذهب إلى القدس ليموت فيها . وقد ظن أن الاسمين يشيران إلى ملك واحد . لكن من الممكن أن ادوني بازق مرتبط بمدينة بازق بين شكيم وبيسان . كان ادوني صادق ملكاً على القدس في زمن يشوع ، كما جاء في سفر يشوع ١٠ : ١ - ١٥ . وقد نظم تحالفاً ضم خمسة ملوك للمالك

المدن الصغيرة وهزمه الاسرائيليون . ولكن القصة تثير عدداً من المشكلات للمفسرين لأن هنالك خلطاً واضحاً . وربما جمعت قصتان لحمالات ادوني صادق في قصة واحدة . ومن الجائز أن الملكين لم يعيشا في زمن واحد، وأن ادوني صادق عاش بعد ادوني بازق بزمن طويل . ووفقاً للنص فان ادوني صادق لم يفقد القدس مطلقاً في تلك المناسبة .

السكان

العموريون :

في الأدب القديم والحديث ذكرت أسماء عدة لشعوب سكنت القدس أو كانت لها صلة بشكل ما بالمدينة . وفي أثناء العصر البرونزي المتوسط كان سكان القدس بوجه الاحتمال من «العموريين» . ويمكننا استنتاج ذلك من الاسمين اللذين حفظتهما لنا نصوص اللعنة ومن اسم المدينة نفسها بوصفه عموريا . ظهر العموريون في التاريخ (والمقصود في الوثائق المكتوبة) أثناء حكم الأسرة الثالثة في «أور» في نهاية الألف الثالث قبل الميلاد . وقد مر ذكرهم من قبل في بعض الأحيان في نصوص اسبق . وفي بلاد ما بين النهرين دعي هؤلاء باسم عمورو Amurrü (في الاكديّة) ومارتو Martu في السومرية . وفي ذلك الوقت كان موطنهم سوريا ومركزهم في وادي العاصي على الأرجح حيث كانوا منظمين في ممالك، ولكنهم كانوا يعيشون جزئياً على الأقل معيشة غير مستقرة . واصبحوا يشكلون تهديداً للملك ما بين النهرين . وفي حوالي سنة ٢٠٠٠ ق . م غزا العموريون بلاد سومر بقيادة ملك ماري Mari . إن تحديد كينيون لهوية الشعب الذي عاش في العصر البرونزي المبكر والأوسط ووضع حداً لحياة المدن في فلسطين ابتداءً من ٢٣٠٠ ق . م قد يكون صحيحاً . ولكن ليست هناك وثائق مكتوبة لاثبات ذلك . ووفقاً لكينيون فان الفضل في بعث حياة المدن من جديد يرجع إلى شعب جديد جاء إلى فلسطين حوالي ١٩٠٠ ق . م . وهي تحدد هوية هذا الشعب بانه الكنعانيون^(٢٣) . ويبدو من السجلات التاريخية التي عثر عليها في بلاد ما بين النهرين أن اسم امورو ذو أصل سامي شمالي غربي .

ونفترض أن اللغة السامية كانت سائدة في القدس في العصر البرونزي . وأما ان السكان في العصر البرونزي الأوسط كانوا من سلالة الموجة الأولى من المهاجرين في الربع الأخير من الألف الثالث قبل الميلاد أو الموجة الثانية فهذا ما لا يمكن البت فيه^(٢٤) . وكلمة

«عموري» توجد أيضاً في النقوش العائدة للألف الأول ق. م. وفي العهد القديم. وليس ثمة نصوص ترجع للعصر البرونزي الأوسط أو المتأخر من مصر أو من بلاد ما بين النهرين وسوريا الشمالية تستعمل فيها كلمة عموري بالنسبة لأي جزء من فلسطين أو شرق الأردن. لكن مصادر الكتاب المقدس من القرن الثامن ق. م. وما بعده تسمي سكان العصر البرونزي عموريين فنجد مثلاً في القوائم المتكررة للشعوب: الكنعانيين والحثيين والعموريين والحويين والفرزيين والجرجاشيين واليبوسيين. وتدمج المصادر الآشورية من القرن الثامن ق. م. أيضاً في «بلاد العموريين» للمرة الأولى فلسطين مع إسرائيل والمدن الفلسطينية ومؤاب وعمون وادوم. ولا يشير هذا إلى تغيير في السكان لا في العصر البرونزي ولا العصر الحديدي بل يشير بالأحرى إلى تطور معنى كلمة «عموري». فبالنسبة للآشوريين كانت تعني «الشعب في الغرب» وبالنسبة لكتاب العهد القديم «الشعوب التي اعتادت العيش في الجبال». ويبدو بصورة ماثلة أن كلمة «حثي» فقدت سياقها التاريخي واصبحت مرادفة تقريباً لـ «عموري» في القرن الثامن. وكلتا الكلمتين تشير إلى انحطاط الشعوب التي تحمل هذا الاسم. وفي سفر حزقيال ١٦ : ٣ يطبق النبي هذا على القدس حيث يقول: «مخرجك ومولدك من أرض كنعان. أبوك عموري وامك حثية». ولا نقرأ هذا على أنه وصف تاريخي لاصل المدينة بل هو رأي سلبى حول سلوكيات السكان في عصر النبي المذكور^(٢٥).

الهكسوس

بين سنتي ١٧٠٠ و ١٥٨٠ حكم الهكسوس في سوريا وفلسطين وكذلك في مصر. ولا نعرف الا القليل جداً عن خلفية هؤلاء الغزاة وطبيعتهم، وهم الذين يسميهم المصريون «حكام البلدان الأجنبية» ويسميهم مانيتو Manetho «الملوك الرعاة». ومانيتو كان كاهناً وكاتباً مصرياً عاش حوالي سنة ٣٠٠ ق. م. وكثيراً ما يظن أن الهكسوس كانوا مهندسي نوع خاص من الأنظمة الدفاعية. وكان نظامهم هذا يتألف من أحواش ذات مساحات مستطيلة واسعة ولها جدران من الطين المضغوط terre pisée مكدسة في طبقات كان يبنى على ظهرها جدار من الطوب. وهذا النظام الدفاعي نجده في الشمال في كركميش على نهر الفرات، إلى الشمال الشرقي من حلب، كما نجده في جميع أنحاء سوريا وفلسطين حتى الدلتا في مصر^(٢٦). ولكن يبدو أنه بعد أن طرد فراغنة الأسرة السابعة عشرة الهكسوس من مصر

وسوريا إلى نهر الفرات وُجد نوع آخر من أسماء الحكام المحليين في المنطقة كلها. ولاحظ نوت Noth «أنا نجد بعد فترة الهكسوس طبقة عليا في سوريا وفلسطين تتكرر فيها أسماء حورية (حوية) بوجه خاص، وكذلك أسماء هندية إيرانية، بصورة ليست غير شائعة»^(٢٧). وليس هنالك دليل أثري على وجود نظام دفاعي للهكسوس في القدس، وهو الأمر الذي كان سينطوي على دلالة أكيدة على احتلال الهكسوس للمدينة، كما أنه ليست هناك أي علامة على وجود أنواع من الخزف من العصر البرونزي في خرائب القدس يمكن أن نرجعها واثقين إلى فترة الهكسوس. والواقع أن الخزف من القرن السابع عشر إلى الخامس عشر قبل الميلاد لا وجود له على الإطلاق. وقد حافظ الهكسوس على بقائهم من بداية القرن الخامس عشر وحتى وسط القرن الرابع عشر ق.م. شرقي الفرات في مملكة الميتاني التي كان الحوريون يشكلون الأكثرية السائدة من سكانها. ويمكن تتبع اثر الميتاني في فلسطين في أواخر العصر البرونزي، وقد تكون أثرت على القدس أيضاً.

اليوسيون :

في فترة العمارنة كان اليوسيون يسكنون القدس. وفي الكتاب المقدس ينسب اليوسيون إلى الكنعانيين، تمييزاً لهم عن العموريين (سفر التكوين ١٠ : ١٦) الذين يفترض أنهم سكنوا المدينة في العصر البرونزي الأوسط. ويشهد الكتاب المقدس بوضوح على وجودهم في المدينة في بداية العصر الحديدي. وقد احتل الملك داود «قلعة صهيون»، ومن المحتمل تماماً أن هذا لا يشير إلى المدينة نفسها بل إلى الحصن العالي الواقع في الطرف الشمالي من المدينة. ويبدو أنه غُيب الاستيلاء على قلعة صهيون فقدت المدينة نفسها دفاعاتها واصبحت تلقائياً جزءاً من ممتلكات داود. ولا يذكر في أي مكان أن سكان المدينة اليوسيين طُردوا منها. وكما ذكرنا من قبل فإن القدس كانت في فترة العمارنة من ممالك المدن التي تألفت من مركز وبلاد ذات مدن تتاخم بلاد شكيم وجازر. وكان لا بد من التخلي عن هذه الممتلكات رويداً رويداً. وفي القرن الحادي عشر ق.م. كان خط الحدود بين بلاد قبائل يهودا وبنيامين يمر في وادي هنوم (وادي الرابية الآن - المترجم) ولم يحتل اليوسيون مدينة القدس فقط بل الريف المحيط بها أيضاً. ويشير سفر القضاة ١ : ٢١ إلى وضع كان يعيش فيه البنيامينيون واليوسيون جنباً إلى جنب : «وبنو بنيامين لم يطردوا اليوسيين سكان أورشليم فسكن اليوسيون مع بني بنيامين في أورشليم إلى هذا اليوم».

وفي سفر القضاة نفسه، العدد ٨، ذكر أن بني يهوذا حاربوا اورشليم وأخذوها وضربوها بحد السيف واشعلوا المدينة بالنار. ولما كان العدد ٢١ يوحى بأن قبيلة بنيامين لم تتمكن من أخذ المدينة، وانما اختلطت بالسكان الأصليين فحسب، فان القول الوارد في العدد ٨ لا يعكس حقيقة تاريخية. إذ إن المدينة لم تسقط في يد الاسرائيليين إلا عندما استولى الملك داود عليها.

العبيرو :

كما جاء في الرسائل التي بعث بها عبدي حيبا ملك القدس، إلى فرعون في أخت - آتون (أفق آتون) (المهارة) فان العبيرو كانوا يغزون البلاد^(٢٨). ونحن نذكر هذا هنا لأنه كثيراً ما تردد بعد نشر رسائل المهارة هذه أن الساقاز Sa. qaz أو «العبيرو» Apiru لم يكونوا سوى العبريين من نسل عابر (التكوين ١٠ : ٢١ - ٣١) الذين دخلوا البلاد تحت قيادة يشوع. لكننا نعرف الآن أن «العبيرو» تشير إلى مجموعات من الناس الذين لم يعيشوا حياة الاستقرار، والذين فقدوا حريتهم إلى حد بعيد. وكان يمكن أن تجدهم في أي مكان في الشرق الأدنى. ولكن الاسم كان يمكن أن يستخدم أيضاً للدلالة على مجموعات من الناس كانت تتصرف تصرف العبيرو أو تصرف النهابين وقطاع الطرق. وفيما يتعلق باعداد عبدي حيبا فإن العبيرو قد يكونون حتى قبيلة حاولت التغلغل في القدس أو تم ترحيلها من مكان آخر. ومهما كان هؤلاء فانهم لم ينجحوا في غزو المنطقة المحيطة بالقدس أو المدينة نفسها. ولا طائل يُرجى من التخمين حول ما اذا كانوا بالذات قبيلة من القبائل العبرية المعروفة^(٢٩).

البيئات الأثرية

لم يتم تحديد هوية مبانٍ في المدينة تحديداً صحيحاً الا في الحفريات التي جرت مؤخراً في جبل الظهور^(٣٠). أما الأعمال العظيمة التي قام بها فنسان^(٣١) وسيمونز^(٣٢) فيما يتعلق بالعصر البرونزي والعصر الحديدي المبكر فقد فات أوانها على الرغم من أنها لم تفقد أهميتها كأعمال مسح للعمل الأثري الذي تم حتى ذلك الحين. وقد اهتم فنسان وكينيون اهتماماً كبيراً باقدم شاغلي الموقع والأماكن المحيطة به مباشرة.

وفيما يلي لمحة موجزة عن المكتشفات الأثرية ومكتشفات ما قبل التاريخ في المدينة وبقرها. وفي الوقت الذي حصلت فيه هذه المكتشفات لم يُعرف إلا القليل جداً عن سياق ما قبل التاريخ بحيث يتسنى وضعها في منظورها الصحيح. أما الآن فإن ما يعرف هو أكثر بكثير لأن المكتشفات اللاحقة تمكننا من تقدير التواريخ ووصف الثقافات التي تنتمي إليها.

العصر الحجري القديم

وُجدت في البقعة، وهي وادٍ جنوب غرب القدس، أدوات صوانية منذ القرن الماضي. وقد وصل خبرها آخر الأمر (سنة ١٩٣٣) إلى برويل Breuil. وقام نوفيل Neuville يساعده ستيكيلس Stekelis بحفريات ووجدت أدوات في الموقع نَسبها إلى الصناعات الأخولية^(*). ولم توجد بقايا بشرية، ولكن من الواضح أن المكان كان محطة للصيادين في العصر الحجري^(**). وقد ربط بعض الناس هذه المكتشفات بانسان فلسطين القديم Palaeanthropus Palestinensis الذي اكتشفت بقاياه في جبل الكرمل^(***). وقد تغيرت الآراء حول «إنسان فلسطين» هذا بعض التغيير مع مضي الوقت. فحسب رأي فاندر ميرش Vandermeersch يرتبط هذا الانسان بجنس الكروماجنون (أو الكرومانيون)^(***) أكثر من ارتباطه بانسان النياندرتال Neanderthal Man مما قد يعني أن إنسان فلسطين كان أساساً لجزء كبير من سكان أوروبا الغربية بعد سنة ٣٥٠٠٠ تقريباً قبل وقتنا الحاضر. وكلا الانسانين إنسان كرومانيون وإنسان فلسطين ينتمي إلى جماعة تُعرف الآن باسم الانسان العاقل Homo Sapiens^(***). ولا نعرف إن كان إنسان فلسطين قد هاجر إلى فلسطين أو تطور من مرحلة أقدم في المنطقة نفسها. إن رواسب البقعة قد تمثل عدة آلاف من السنين.

وقد دعا العثور على هذه الأدوات الصوانية إلى الافتراض بان اسم وادي الرفائين (العمالقة) الذي ورد في سفر يشوع (١٥ : ٧ - ٩) بوصفه وادياً، وجزءاً من تخم أرض قبيلة يهودا قرب القدس («جنوب جبل اليبوسيين»)، ما يزال يحفظ إلى الآن تقليداً قديماً حول سكان فلسطين في العصر الحجري. ويبدو بوجه خاص أن وصف الجهاجم التي عثر عليها

* نسبة إلى سان أخول Saint-Acheul قرب أميان بفرنسا، حيث عاشت جماعة ثقافية معروفة من العصر الحجري القديم، وانتشرت في أوروبا وشمال إفريقيا وآسيا الغربية (المترجم).

** جماعة من الناس تنتمي إلى جنس عاش ما قبل التاريخ في أوروبا ووجدت بقايا عظمية من أفرادها في مغارة كرومانيون Cro-Magnon في دورن Dordogne بفرنسا (المترجم).

في السخول واماكن أخرى، والتي اتصفت بـكبر الحجم نسبياً، قد لعب دوراً في هذا الافتراض. والرفائليون هم جنس قديم عملاق من اهل البلاد الأصليين معروف في الفولكلور الاسرائيلي قيل إنه عاش في كنعان ومؤاب وعمون وغيرها من الأماكن (سفر التكوين ١٥ : ٢٠ الخ). ولا طائل من محاولة الجمع بين انسان العصر الحجري القديم وبين هذه القصص، مهما كانت هذه القصص قديمة. ^(٣٦) فالقصص حول المردة الذين سكنوا العالم بعد خلقه موجودة في كل انحاء الدنيا. ويبدو انها ترجع في اصلها من جهة إلى الحكايات التي تردت عن اصل النصب الحجرية الجبارة [Megalithic monuments] في عدة انحاء من العالم، والتي رويت في وقت لم تعد فيه هناك اي رابطة تقليدية مع الناس الذين انشأوا هذه النصب، وترجع من جهة اخرى إلى الاعتقاد الشائع بقدر متساو بأن الكائنات الانسانية في العصور البدائية لم تكن اعمارها اطول من الأعمار التي اصبحت عادية فيما بعد فحسب بل انها كانت اكبر حجماً واقوى كذلك. وهذا هو الوضع الذي ساد بعد خلق العالم، وهذا الوضع المثالي للاشياء سوف يعود في آخر ايام هذا الخلق. وهذه هي اسطورة اول الزمان وآخره ^(٣٧) Urzeit und Endzeit.

العصر البرونزي المبكر (٣٢٠٠ - ٢٠٠٠ ق.م)

إن الخزف الذي نسبه ماكاليلستر إلى فترة العصر الحجري الحديث تحددت هويته الآن بأنه قدور للطبخ من العصر البرونزي الأوسط ^(٣٨). ووجدت كينيون بعض مخايء الخزف من العصر البرونزي المبكر. ووجد شيلوح Shiloh في المنطقة التي سماها EI بنائين تم ادراجهما، على اساس تحليل مبدئي للخزف، في طبقته المسماة ٢١ - ٢٠ = النصف الثاني من الألف الرابع ق.م.، وهي نهاية الفترة النحاسية وبداية العصر البرونزي المبكر ^(٣٩). ويبحث كينيون في فترة سمتهما الفترة الحضرية الاولى Proto-Urban period في فلسطين، على غرار الفترة الاسرية الاولى Proto-Dynastic في مصر وعصر الكتابة الاولى Proto-Literate في بلاد ما بين النهرين. وهي تذكر قبراً في جبل اوغل يحتوي على فخار من تلك الفترة ويرجع تاريخه إلى القرون الأخيرة من الألف الرابع ق.م. وهذه المرحلة تسبق مرحلة تأسيس مدن العصر البرونزي المبكر في البلاد ^(٤٠) بيد انه ليست هناك آثار تدل على أن هذا التطور حدث في القدس. وبعد نشر اللوحات الاولى من تل مردينخ (إبلا)، جنوب حلب في سوريا، ادعى بعض العلماء أن القدس مذكورة في هذه النصوص التي ترجع إلى وسط العصر البرونزي

المبكر. ولكن هذا يعتبر الان بمثابة «تفكير مدفوع بالرغبة». ومن وجهة اثرية ليس هناك ما يؤيد مثل هذا التفسير.

العصر البرونزي المبكر - العصر البرونزي الأوسط :

توصلت كينيون استناداً إلى الحفريات التي اجرتها في مقابر تل السلطان (أريحا القديمة) إلى نتيجة مؤداها أن حضارة العصر البرونزي المبكر جاءت نهايتها بسبب غارات شنتها قبائل بدوية ذات ارتباط بالعموريين⁽⁴¹⁾. لقد دمرت هذه القبائل المدن، ولم تقم بعد ذلك بيناتها. وعرفت هذه القبائل على افضل وجه من مقابرها الماثورة في اماكن عديدة. وقد سمت كينيون هذه الفترة العصر البرونزي المبكر - البرونزي الاوسط المتوسط Intermediate Early Bronze-Middle Bronze Age على غرار الفترة المتوسطة الأولى في مصر. ويفضل آخرون تسميتها الفترة البرونزية الوسطى الأولى. وعثر وارن على قبر من هذه الفترة كما أن كينيون كشفت اثناء حفرياتها في القدس عن احد عشر قبراً آخر تنتمي إلى المجموعة ذاتها على جبل الزيتون (الطور). ولم يعثر على كسرٍ من هذه الفترة على جبل اوفل، لكن القبور دليل واضح على أن العموريين كانوا يعيشون في نهاية الالف الثالث ق. م على مقربة من وادي قدرون.

العصر البرونزي الأوسط (٢٠٠٠ - ١٥٥٠ ق.م)

عُثرت كينيون سنة ١٩٦١ على مبانٍ لا شك أنها لمدينة من العصر البرونزي الأوسط في أسفل السفح الشرقي لجبل اوفل⁽⁴²⁾. ففوق نبع الماء الرئيسي للمدينة، وإلى الشرق من منحدر صخري، عُثِر على جدار سمكه متران يتجه من الجنوب إلى الشمال. وكان لهذا الجدار زاوية تتجه إلى الداخل re-entrant في الجهة الشمالية، يختفي بعدها الجدار تحت سور للمدينة بنى بعده بوقت طويل في مكان اعلى على المنحدر. وقد عثر على خزف في الفراغ الكائن بين الجدار والمنحدر الصخري الذي يمكن ارجاع تاريخه إلى القرن الثامن عشر ق. م. ووجد شيلوح بقية هذا الحائط في مكان ابعد إلى الجنوب في منطقتة المسماة EI⁽⁴³⁾. ووجدت كينيون جيوباً من الخزف من الفترة نفسها في مكان اعلى على المنحدر مع اجزاء صغيرة قليلة من المباني. واثبتت كينيون أنه لم يكن هنالك أثر لاشغال المكان في العصر البرونزي شمال الخط الذي يفترض بأن جدار العصر البرونزي الاوسط كان يسير فيه صعوداً على منحدر التل الى جهة الغرب. وقد دفعها اعمال السبر التي أجريت غربي قمة أوفل باتجاه

حدودها الجنوبية إلى الاستنتاج بأن الجدار كان يسير بمحاذاة الجانب الغربي من القمة إلى الجنوب وعلى الجانب الشرقي في منتصف الطريق الهابط على المنحدر رجوعاً إلى المكان الذي حفرته فيه من قبل وكشفت جزءاً من الجدار. وقد اتاح الخط الذي سار فيه هذا الجدار على محاذاة المنحدر الشرقي للسكان الوصول إلى النبع من خلال نفق استكشفه لأول مرة واربن ثم من بعده فنسان. وفي حالة الحصار لم يكن السكان مضطرين إلى الذهاب خارجاً لطلب الماء. لكن يبدو أن المنحدر الحاد داخل السور لم يكن مسكوناً أو انه كان مسكوناً فقط حيث كانت الرفوف الصخرية عريضة إلى درجة تسمح بالبناء عليها. أما كم بقيت هذه المدينة على قيد الوجود فهذا غير معروف. فلا كينيون ولا شيلوح وجدا اي فخار يمكن ان يرجع تاريخه إلى القرن السابع عشر حتى القرن الخامس عشر ق. م. وافترضت كينيون أن الجدار كان ما يزال قائماً كسورٍ دفاعي عندما فتح داود المدينة حوالي سنة ١٠٠٠ ق. م. لانه لم يعثر على جدار آخر كان ممكناً استخدامه في العصر البرونزي المتأخر او في بداية العصر الحديدي.

وليس في وسعنا أن نقول أين كان قصر الملك في هذه المدينة. وفي زمن الرومان كانت قمة الجبل تستخدم كمنقلع للحجارة. وفي المنطقة التي حفرت كينيون فيها خنادقها كان الحجارون الرومان قد ازالوا بقايا كل الأبنية من على السطح الصخري. ولم تبق سوى المباني التي بنيت بعد تلك الفترة.

العصر البرونزي المتأخر (١٥٥٠ - ١٢٠٠ ق. م.)

ترجع اقدم بقايا العصر البرونزي المتأخر المحفوظة في المناطق التي جرت فيها الحفريات إلى القرن الرابع عشر ق. م.

وإذا جمعنا نتائج المنطقة التي سهاها شيلوح (G) مع مربعات كنيون A II-III ، وهي تتداخل جزئياً، فسوف نجد بناءً ضخماً من العصر البرونزي المتأخر لا بد أن الغرض منه كان توسيع المنطقة الواقعة على قمة الجبل. وهو ما يزال داخل حدود السور الشمالي لمدينة العصر البرونزي الاوسط، لانه لم يتم العثور على بقايا من العصر البرونزي المتأخر إلى شمال ذلك الخط. وقد وصفت كينيون هذا البناء بقولها: إن النواة الاصلية تتكون من حشوة (رَدْم) كلها تقريباً من الدبش المبني في سلسلة من الحجر المتجاورة التي تتميز بكسوات امامية مؤلفة من مدماك واحد من الحجر مبني على جدار مائل الى الخلف. . . وهي تستند

من جهة الشمال إلى عامود أسامي (spine) . . . يكون اتجاه ميل الجدار إلى شماله في الاتجاه المعاكس . وعلى المرء ان يتصور العملية كسلسلة من الاهرامات المتجاورة المبنية لتكوين منصة . وقد أسند البناء كله في المربعات III-I من جهة الشرق بجدار يتجه من الشمال إلى الجنوب في موازاة المنحدر . وهذا الجدار كان أكبر كثيراً من ذلك الذي قسم حجرات الردم ، ولكنه ارفع بكثير من أن يتحمل اندفاع الردم الكثيف . . . على انه من الواضح انه كان يستند عند منحدر الجبل الى مصطبة او طأ ، أزالنا معظم الدليل على وجودها مصطبة اخرى اقيمت في العصر الحديدي⁽⁴⁴⁾ وقد ظنت كينيون ان هذا البناء والمباني المماثلة استخدمت كمصاطب «كان يمكن أن تبنى عليها بيوت من نوع اكثر تمدناً» . وقد دفعها إلى هذا الظن انها كشفت بيوتاً من القرن السابع ق . م . على السطح العلوي لهذه المباني . وظهرت الحفريات التالية التي قام بها شيلوح انه قبل بناء هذه المباني كان هناك غطاء حجري يغطي مبنى العصر البرونزي المتأخر وارتفع حتى قمة الجبل . ولسوء الحظ لا يظهر شيء من هذا الغطاء في خندق كينيون رقم (1) trench I . ولما كانت بيوت القرن السابع قد بنيت بعد أن كان «الغطاء» قد فقد وظيفته وحفرت البيوت فيه فقد كانت بطبيعة الحال قائمة على بقايا مصاطب العصر البرونزي المتأخر . وعلى اية حال فان هذه المصاطب ارتفعت في الاصل اكثر بكثير . ويبدو الان أن الغطاء الحجري أدى الوظيفة نفسها التي ادتها المصاطب ، فهي لم توسع منطقة البناء على قمة الجبل فحسب ، بل خدمت غرض الدفاع عن تلك المنطقة في العصر الحديدي ايضاً . واقترح كينيون بان بناء العصر البرونزي المتأخر يمثل «الميلو» Millo المذكور في صموئيل الثاني 5 : 9 يغدو معقولاً اكثر لو انه لم يخدم اغراضاً مدنية فحسب ، بل اغراضاً عسكرية ايضاً⁽⁴⁵⁾ .

واهتم الملوك فيما بعد بـ«الميلو» الذي لا بد أنه كانت له وظيفة حيوية ما يؤديها . والانطباع الذي كان لدى كينيون بأن كل ما بني على المصاطب من القرن الرابع عشر حتى القرن السابع عشر ق . م . قد انهار نظراً للضعف في بنية هذه المصاطب هو تخمين لم يعد من الممكن تأييده الآن . والأكثر احتمالاً أن الوظيفة الدفاعية لسور العصر البرونزي الأوسط تولاهما في منطقة الحفريات هذا البناء المدرج من العصر البرونزي المتأخر . وما اعتبرته كينيون سلسلة من انهيارات المصاطب في خندقها رقم 1 (trench I) الذي كان يمتد نزولاً على المنحدر الشرقي لجبل اوغل الذي وجد فيه سور مدينة العصر البرونزي الأوسط لم يكن سلسلة من الانهيارات التدريجية . وانه لمن المهم ايضاً في هذا الشأن أنها لم تجد أثراً للغطاء

الحجري الذي بني في العصر الحديدي والذي غطى البناء البرونزي المتأخر. وقد اقترحت دراسة جرت في لايدن مؤخراً للملاحظات الميدانية التي سجلتها كنيون عن حفرياتها تفسيراً آخر : إن سوراً ثقيلاً جداً للمدينة عرضه ستة أمتار ومبنياً في العصر الحديدي في موازاة سور العصر الحجري الأوسط، ولكن في مكان أعلى قليلاً على المنحدر، كان يسند المباني الأقدم إلى جنوب الخندق المحفور وشماله، قد انهار في ذلك الموضع بالضبط الذي نزل الخندق رقم واحد من خلاله. وهذا الانهيار أو الخرق للسور لا بد أنه حدث عندما كان السور قيد البناء أو بعد ذلك بوقت قصير. وفوق ذلك الخرق على خط مستقيم عند أعلى الجبل انزلت الغطاء الحجري والرديم الذي تحته والمباني الواقعة جنوب بقايا بناء العصر البرونزي المتأخر، عندما زال دعم سور المدينة الذي كان يسندها. وتم الآن أيضاً التعرف على آثار الغطاء الحجري إلى الجنوب من الخندق. وقد حدث انجراف شديد للغاية في البقعة التي حفرت فيها كنيون بالضبط. وهذا قد يفسر لماذا لم تعثر إلا على بينات للتأريخ بالنسبة لمصاطب العصر البرونزي المتأخر في الفترة التي بنيت فيها هذه المصاطب في هذه المنطقة، فقد سقطت كلها من قمة الجبل في وادي قدرون. وهذا يوضح المشكلة التي واجهها نحميا عندما حاول أن يتفقد حالة سور المدينة وأبوابها في الليل. (نحميا ٢ : ١٤).

شبكة المياه : نفق وارن

عندما بدأت كنيون حفرياتها في جبل اوغل كانت على اقتناع بأن «السيطرة الكاملة على مصدر المياه المتاح الوحيد، نبع جيحون، هي التي أمّلت موقع أسوار مدينة القدس من جهة الشرق...»^(٤٦) وقد كشفت حفرياتها على المنحدر الشرقي فوق النبع مباشرة أن النفق الصخري الذي استكشفه وارن في سنة ١٨٧٦ خرج إلى السطح في المنطقة التي يحيط بها من الخارج سور العصر البرونزي الأوسط. وعثر فانسان على كسرة أثرية في طبقات الغزيرين نسبها إلى الفترة الكنعانية - الاسرائيلية المبكرة. ويبدو أن النفق كان يستعمل في العصر البرونزي المتأخر. وهذا النفق ليس نفقاً في الصخر ينزل في خط مستقيم إلى النبع. فهناك أولاً نزول على درج في الصخر، وبعدئذٍ إنحدار خفيف نسبياً على امتداد طريق متعرج ينتهي فجأة عند نفق ينزل عمودياً مسافة ١٥ متراً، ثم يمر النفق خلال سطح قناة أفقية مقطوعة في الصخر، وهي على مستوى النبع وتتغذى منه. وقد أشار شيلوح إلى أن سلسلة من الصدوع الجيرية الطبيعية والأنفاق والممرات استخدمت ودمجت في شبكة المياه، الأمر الذي يفسر لنا مظهرها غير المنتظم^(٤٧) وهذا يعني أن إمكانية النزول إلى الماء كانت قائمة

على الدوام عبر الصلوع والشقوق في الصخر، لكن قاطعي الحجارة في العصر البرونزي المتأخر بل والأوسط قد يسروا المرور خلالها.

البيئات الدينية

الخلفية الدينية لليوسيين :

أصبح من الأمور المعتادة في الدراسات العلمية الحديثة أن تربط نواح عديدة في الديانة اليهودية خلال القرون الثلاثة التي تلت استيلاء داود على القدس بالديانة الكنعانية. وهذه هي الحال بوجه خاص فيما يتعلق بالطقوس التي كانت تمارس في هيكل سليمان. فالنبي ناثان الذي لام داود على أخذ زوجة قائد جيشه اوريا ومنعه من بناء هيكل والكاهن صادق الذي كان مسئولاً عن الطقوس الدينية بعد تدشين الهيكل كان كلاهما فيما يفترض من اليوسيين. وتستند الدراسات المتعلقة بتأثير الطقوس اليوسية على المؤسسات الدينية في هيكل سليمان بالقدس إلى دراسات أعم حول تأثير المعتقدات والطقوس الكنعانية على إسرائيل^(٤٨). ويجب أن نؤكد أنه ليست لدينا من اليوسيين أنفسهم بيانات مكتوبة حول ديانتهم، كما أنه ليست هناك بيانات مباشرة من المصادر الأخرى في ذلك الوقت. وقد استنتج من البيئة الكنعانية العامة التي عاش فيها اليوسيون أن لغتهم كانت كنعانية أو لهجة كنعانية وأن معتقداتهم كانت لها طبيعة معتقدات الكنعانيين ذاتها. وقد زادت معرفتنا بالعالم الكنعاني زيادة كبيرة عندما تم حل رموز النصوص العديدة التي وجدت في رأس شمرا، أوغاريت القديمة، وتفسيرها. وكان من أبرز النتائج تأكيد صحة كثير من المقترحات حول دمج الحياة الروحية الكنعانية في الممارسات الدينية الرسمية والأقل رسمية في إسرائيل. وهذا يعني أن الكلمات والتعبيرات العبرية التي كان يشتبه العلماء في أن لها معاني دينية ظهر أنها متصلة بأفكار العبادة في اللغة الكنعانية. وبعبارة أخرى فإن الأفكار الدينية القديمة المخبوءة في نصوص العهد القديم، وخصوصاً في الأدب النبوي والشعري، كانت أكثر بكثير مما كان متوقفاً. ونشأ سؤال حول ما إذا كانت هذه التعبيرات ما يزال لها معنى ديني في النص العبري للعهد القديم.

إن كلمة «البحر» في العبرية نجدها أيضاً في أوغاريت. ولكن هل «بحر» في الشعر العبري تعني إلهة كما تعني بالأوغاريتية؟ من الواضح أن المشكلة الرئيسية لم تحل عندما عثر

على هذه النصوص . وهناك طرق مختلفة لتناول المشكلة . فيمكن للمرء أن يقول مثلاً إن القبائل العبرية لم تعرف الزراعة الا بعد أن تغلغت في البلاد واستقرت فيها . ولذلك فإن جميع القوانين والطقوس والاحتفالات والأغاني والأمثال الاسرائيلية وما شاكل ذلك مما يتصل بالزراعة ، استعيرت من «العموريين» و«الكنعانيين» الذين كانوا يعيشون في البلاد قبل أن يأتي العبرانيون اليها .

وهناك بالطبع أجوبة أخرى ممكنة . أحدها أن القبائل العبرية تشكلت بصورة أساسية في البلاد ولذلك فلم يكن عليها أن تستعير أي شيء من مواطنيها (السكان الآخرين) . وجواب آخر هو أن خلفية العبرانيين كانت تشبه خلفية العموريين والكنعانيين وأنهم وصلوا إلى البلاد وهم على معرفة كافية بالزراعة والمؤسسات الدينية الزراعية التي طوروها بطريقتهم الخاصة . وقد سبق أن أشرنا إلى أنه ليس هنالك ضوء لا يعتوره الغموض في النصوص التي بين أيدينا . فالنصوص يمكن أن تفسر بطرق مختلفة ، وإضفاء معنى معين على النصوص هو مسألة تعتمد على العلم وعلى تمسك المرء بـ «مدرسة» معينة أو «افتراضات مقبولة بصورة عامة» . وطرق تناول الموضوع تتباين تبايناً كبيراً . وقد كانت المدرسة الأشهر لمدة طويلة هي مدرسة «الاسطورة والطقوس» . وقد تم وصف ظواهر دينية عديدة قيل إنها مستمدة من النصوص الدينية ونصوص العبادة من جميع أنحاء الشرق الأدنى القديم . ومعروف جيداً موضوع موت الإله وبعثه ، الإله الذي «أمات» الأرض من الجفاف وأحيائها بالمطر . ان أساطير كهذه وكلماتها الدقيقة لم تقل بالطبع حرفياً ان لها علاقة بجفاف الأرض أو أحيائها بالمطر . وقد فسرت بانها ذات معنى لأنها كانت تتصل باحتفالات معينة في التقويم الزراعي (الروزنامة) ، ولذلك كان يفترض أنها تمنح الناس الأمل بنهاية الجفاف عند قيام الإله من الموت . وهكذا فإن أداء الطقوس كان سيخلق النتائج المطلوبة بطريقة سحرية . ولكن هذا الافتقار للتفسير الذاتي الواضح يفتح في الدراسات الحديثة الامكانيات لاستنباط معانٍ مختلفة وكذلك علاقات مع طقوس مختلفة . ومن هذه الموضوعات التي يجري النقاش حولها ، على سبيل المثال ، الخطر العام الشامل من أن تسود القوضى العالم ، وسيطرة الآلهة على الموت والدمار ، وخصوبة الأرض والمواشي والجنس الانساني ، أو اعتبار الملك لها ، والمدينة مركز العالم والبحر العالم السفلي .

ووجد بعض العلماء أسباباً تدعو إلى الاعتقاد بأن بعض الموضوعات العامة ، التي

وجدت أيضاً في الديانة الكنعانية، لعبت دوراً في الديانة اليوسية. ويُفترض أن هذه الموضوعات اخذها عنها الملك الاسرائيلي. وبعد بناء الهيكل اعترف بها كهنة القدس. ومن هنا اصبحت جزءاً من الديانة الاسرائيلية وتم تحويلها في داخل هذه الديانة إلى صيغة التوحيد تدريجياً. وإذا كان افتراض هؤلاء العلماء صحيحاً فإن الاساس العام للديانة الكنعانية يتعلق بالقدس في العصور السابقة للاسرائيليين. أما البيئة التي يسوقونها فهي نصوص ترجع إلى الزمن الذي تلا استيلاء داود على القدس وتناول زمانه وزمان ورثته وزمان السبي البابلي أو بعد ذلك. ونصوص كهذه يمكن أن نجدها أيضاً في صحف موسى «المبكرة»، الاسفار الخمسة الأولى في العهد القديم، وكذلك في كتب التاريخ والشعر وكتب الأنبياء التي تلت ذلك. إن محاولات إعادة بناء التراث الديني اليوسي من مصادر إسرائيلية كثيراً ما تستند إلى جانب مقبول تاريخياً على وجه العموم لدى العلم الحديث. وهذا الجانب هو أن الاسرائيليين كان لديهم زمن الأنبياء العظام (القرن الثامن إلى السابع ق. م.) كثير من الصفات الدينية والاقتصادية والاجتماعية المشتركة مع الكنعانيين، لا بسبب احتكاكهم بهم في المقام الأول، بل لأنهم «تعرفوا» على المفاهيم والتصورات الكنعانية باعتبارها مشابهة لعالمهم الروحي الخاص. ومن الواضح أن العلماء الذين يصوّرون القبائل العبرية الأولى في صورة المشركين المتقلعين الذين لا أرض لهم لا يقبلون هذه الفكرة. والشيء الذي ربما يستعصي على فهم القاريء إلى الغاية هو أن هؤلاء العلماء كثيراً ما يقتبسون لبناء نظرياتهم تلك النصوص نفسها التي يقتبسها أولئك العلماء الذين يعتقدون أن القبائل العبرية أخذت جزءاً من التراث الثقافي العام للشرق الأدنى في العصر الحديدي المبكر. لكن هذا يزيد في تأكيد الحقيقة التي تقول إن البيئات التي تقوم عليها عمليات إعادة البناء هذه مستمدة كلها من الدراسات الأدبية، وليس من المعطيات التاريخية وإن القرار بما قبله من ذلك يتوقف على الخلفية العلمية والتعليم الروحي. ولهذا السبب بالذات اقتصرنا على ايراد مختارات من الظواهر الدينية اليوسية المقترحة مما يمكن إعادة بنائه من نصوص الكتاب المقدس التي غالباً ما ترجع بتاريخها إلى قرون بعد تولي داود السلطة.

أعاد شتولتز Stoltz بناء عدد من الموضوعات التي يذهب إلى أنها تظهر خصائص الممارسة الدينية اليوسية^(٤٩). والموضوعات الدينية والشعائرية التي يعالجها شتولتز هي المعركة ضد الفوضى والمعركة ضد الأمم (وكلاهما موضوع معروف جيداً في الأدب النبوي والشعري في العهد القديم)، والإله البعيد ايل El، إله المدينة بوصفه خالقاً وقاضياً أعلى،

وألهة المدينة الأخرى مثل سالم . ثم إن هنالك دليلاً قوياً، كما يقول شتولتز، على أن القدس كانت تعتبر في العصور الاسرائيلية معصومة من الانتهاك، ولكن الآراء تختلف فيما إذا كانت هذه الفكرة قد وجدت منذ زمن اليوسيين أو أنها جاءت فيما بعد .

لقد ساد الاعتقاد في كثير من الأحيان أن صادوق، كاهن هيكل سليمان، نقله داود من هيكل يبوسي^(٥١) . وإذا كان هذا صحيحاً فإن صادوق استمر بلا ريب في أداء الشعائر الدينية في الهيكل الجديد وفقاً لشعائره الخاصة التي مضت عليها قرون . وقد عُرض أيضاً أن بنايا، رئيس حرس داود الملكي، جاء من القدس السابقة على عهد داود وأنه كان يبوسياً . وهكذا كان هناك ما يكفي من الروابط مع الماضي اليوسي بعد أن استولى داود على المدينة . أصبحت القدس رمزاً للساء في المعتقدات المسيحية . وهذا الرمز استمد من الفكرة التي تقول بأن العالم له مركز، كثيراً ما وصف بأنه سرّة الأرض . وقد ثار سؤال حول ما إذا كانت القدس اليوسية تعتبر في عرف اصحابها من قبل بانها سرّة الأرض^(٥٢) . لقد قدم لنا تيرين Terrien وصفاً مفصلاً للأسطورة في علاقتها بالقدس أخذ بنو يهودا عن الكنعانيين في ييوس القديمة الاعتقاد بأن موقع صهيون كان مرتبطاً بسرة الأرض وبأن هيكل سليمان مبني على صخرة هي مركز الأرض وجبل العالم وركن الخليفة وطرف جبل السرة الذي يربط بين السماء والأرض والعالم السفلي . ولذلك فهو يغدو مرتبطاً بشجرة الكون وجنة عدن، وفي وقت متأخر عن ذلك، بالجنة الجديدة والقدس السماوية^(٥٣) . وأشار تيرين إلى مماثلة قائمة بين اسطورة السرة Omphalos في اليونان (دلفي) وفي شكيم وفي القدس . وهو يظن أن النيهوشتان Nehushtan ، الأفعى البرونزية التي أزالها الملك حزقيا [سفر الملوك الثاني (١٨ : ٤)] ، كانت ملكاً لهيكل يبوسي . وهو يذهب إلى أن «بحر البرونز» الذي رُكبه سليمان أمام الهيكل كان يرمز إلى ارتباط هيكل القدس بالعالم السفلي، هاوية أنهار عدن واسطورتها . وربما لم يكن هذا العنصر مستمداً من اليوسيين، لكن الفكرة التي وراءه كانت بالتأكيد جزءاً من المعتقدات الكنعانية، ولهذا السبب قد تكون أيضاً جزءاً من الديانة اليوسية . وكل ما نستطيع أن نقوله هو أن كثيراً من تراث اليوسيين قد قبله وتناقله ملوك أسرة داود من خلال العبادة في الهيكل . ولكن يبقى ما اخذ مباشرة من الممارسات اليوسية السابقة موضع تخمين . وقد رأى البعض أن أرونا الذي باع البيدر القريب من القدس لداود كان هو نفسه ملكاً من ملوك القدس اليوسيين . و «أرونا» كلمة حورية نجدها أيضاً في «الحثية» وتشير إلى حاكم .

إن مقترحات كهذه توضح بالأحرى مهارة علماء العهد القديم أكثر مما توضح إمكانيات التوصل إلى نتائج تاريخية ثابتة، بيد أننا نستطيع أن نتقبل بثقة أن تغيير السلطة في القدس لم يخلق ثورة كبرى في تراث العبادة اليوسية وممارساتها، ولهذا فإن لدينا معلومات عامة كثيرة عن ديانتهم .

وسرعان ما أدخل الملك سليمان عبادات مغايرة لعبادة يهوه في الهيكل الجديد الذي بناه لزوجاته الأجنبية (سفر الملوك الأول ، ١١) . وهذا يتفق وممارسات الملوك في الشرق الأدنى القديم . ويجب أن لا نرى في هذا ما يشير إلى أن اجراء سليمان كان مقبولاً لدى أعضاء القبائل الذين تمسكوا بدين يهوه . وفي الفكر الحديث لا يفترض أن الديانة الفسيفسائية أو اليهودية كانت على صلة وثيقة بالممارسات الكنعانية العامة . ومهما كان الجزء الذي نقل من العبادة اليوسية إلى هيكل سليمان فلا يمكن أن يعتبر في المستوى الديني نفسه للعناصر الأساسية لدين يهوه في القرون الأولى من الألف الأول قبل الميلاد؛ بل على النقيض : إذ إن قيام المادة الدينية اليوسية بدور في ممارسات التعبد في القدس ينبغي أن يعتبر غريباً عن اليهودية، وناشئاً عن الانتقال من تحالف قبلي إلى دولة لها ملك تصرف كما تصرف غيره من الملوك^(٥٣) .

آلهة القدس اليوسية :

لقد حفظت أسماء الآلهة التي تتصل بالقدس اليوسية اتصالاً أكيداً، وأضاف العلماء أسماء أخرى إلى القائمة . ونحن نذكر هنا سالم وإيل وحييا .

سالم :

إن سالم الذي يفترض أن اسمه محفوظ في اسم المدينة، يعتبر الهها الراعي . وقد فُسر الاسم بمعنى : «نجم المساء» . وتذكر إحدى الرسائل التي بعث بها عبيدي حيا إلى فرعون «عاصمة أرض اوروسالم التي تدعى بيت شولماني»، أي بيت شولمان الذي هو سالم . ويفترض أن أرض اوروسالم سميت باسم هيكل هذا الإله الرئيسي . وبما أنه معروف أن سالم في أمكنة أخرى كانت له زوجة تدعى سولاميت Sulamith ، فقد أدخلت هي أيضاً في هيكل جميع الآلهة (pantheon) اليوسية^(٥٤) .

صاڑق وإيل :

إن ملكي صاڑق الذي لا يمكن وُضعه في سياق تاريخي ، كما اسلفنا ، واڑوني صاڑق الذي كان ملكا على القدس في زمن القضاة ، كليهما سمي باسم صاڑق ، وهو إله قڑيم في الشرق الأڑنى . والاسم يعني «الصڑق» . وقڑ انتجت قطعة من قصّة قڑديمة محفوظة في سفر التكوين (١٤ : ١٧ - ٢٠) حول اجتماع ابرام وملكلي صاڑق ثروة ضخمة من التخمينات الدينية ما تزال تلعب دوراً اليوم . «ملك صاڑق ملك شاليم أخرج خبزاً وخبراً وكان كاهناً لله العلي وباركه وقال مبارك أبرام من الله العلي مالك السموات والأرض . ومبارك الله العلي الذي اسلم أعداءك في يدك» . ومع أن هذا السُّفر لا يتناول تاريخ القدس بعد استيلاء داوڑ عليها فإن الطبيعة الرمزية للقدس في التفكير الديني فيما بعد قد ربطت بهذا النص «السابق للتاريخ» . وبالنسبة للنصرانية تمّ التعبير عن جميع عناصر التأمل اللاهوتي في «معنى» «ابن الله» في الرسالة إلى العبرانيين في العهد الجڑيد ٧ : ٢ : «الترجم (أي ملكي صاڑق) أولاً ملك البرّ ثم ايضاً ملك ساليم أي ملك السلام بلا أب بلا أم بلا نسب لا بداءة أيام له ولا نهاية حياة بل هو مشبه بابن الله ، هذا يبقى كاهناً إلى الأبد» . وبالنسبة للنصارى الأولين كان «مؤذناً» بالكاهن والملك المثالي الذي ظهر عند اكتمال الزمان كابن الله . إن مثل هذه الدراسات المتعلقة برموز الكتاب المقدس (typological) كانت تجري في الغرب حتى العصور البروتستنتية المبكرة ، وكانت تهدف إلى توضيح معنى المسيح كما كانت تخدم أغراض الدفاع عن العقيدة المسيحية ، وهو نشاط بدأ واضحاً من قبل في سفر «الرسالة إلى العبرانيين» .

إن تعبير «الله العلي» نفسه في زماننا بأنه يشير إلى ايل - عليون - وهو الله العلي الذي عرف على أفضل وجه من أوغاريت . وإذا اعتبر أن سالم تشير إلى القدس أو أن ملكي صاڑق كان ملك القدس فلا بد أن ايل كان رأس مجمع الآلهة اليبوسي . ونشأ عن هذا تخمينات كثيرة حول دور ايل هذا في الديانة اليهودية . ولا شك أن التنف الصغيرة من المعلومات التي تشير إلى المؤسسات الدينية اليبوسية في العصر البرونزي لا تتناسب مع التخمينات الدينية والعلمية التي تلت خلال ثلاثة آلاف سنة من التفسير .

حياتاً :

لا يمكننا أن نقول إلا القليل عن هذا الاسم . إن القسم الثاني من اسم ملك عصر

العمارة عبدي حيبا، موجود أيضاً في أسماء أخرى مثل إبي حيبا (صموئيل الثاني ٢٣ : ٣٢). والاسم معروف من النصوص الحورية باعتباره اسم إلهة. ولكننا لا نستطيع أن نثبت فيها إذا كانت هذه الإلهة عضواً في مجمع الآلهة اليوسوي. ويبدو أن هذا الاسم موجود في الديانة الحثية أيضاً.

استنتاجات :

هناك ناحيتان يمكن أن نذكرهما كحصيلية لهذه اللمحة عن المحاولات التي جرت لاعادة بناء الديانة اليوسوية .

١ - يبدو واضحاً أن هذه الديانة شكّلت جزءاً من عالم العبادة الكنعانية، مع أننا لا نستطيع أن نقول، كما نستطيع الآن بالنسبة إلى اوغاريت، ما هي العناصر التي لعبت دوراً هاماً في تلك الديانة .

٢ - إن ادخال داود تنظيمياً سياسياً جديداً في إسرائيل تضمّن أخذ بعض عناصر الديانة اليوسوية في الهيكل الجديد، ونقصد العناصر المرتبطة بشكل خاص بوضع الملك في الشرق الأدنى أو العناصر المشتقة من هذا الوضع .

تاريخ القدس في العصر البرونزي^(٥٥)

العصر البرونزي الأوسط :

في العصر البرونزي الأوسط كان جبل الظهور هو الموقع الذي قامت عليه القدس الأولى. كان الناس يعيشون على الجبل، ولكن ليست لدينا معلومات تاريخية أو أثرية حول طبيعة المستوطنة. ومع أن كنيون لم يكن لديها سوى بينات أثرية ضئيلة لرسم سور المدينة الدفاعي في العصر البرونزي الأوسط على الخريطة فليس هنالك دليل ينقض إعادة بنائها. وقد أكدت الحفريات التالية التي أجراها شيلوج على جبل اوفل خط السور على امتداد المنحدر الشرقي. وقد اهتمت كنيون اهتماماً كبيراً بخط سير السور الشمالي الذي كان يسير صُعداً من الشرق. لكنه من غير المؤكد أن المدينة كان لها سور واحد يحميها من جهة الشمال. وربما كانت المدينة في حاجة إلى إجراءات دفاعية أقوى وأكبر لتأمين سلامتها ضد الهجوم من الشمال، وهي الجهة الوحيدة المتوقعة لهجوم الأعداء. ويبدو أنه كانت هناك قلعة

في هذا الجانب في العصر البرونزي المتأخر، يمكن أن يكون لها سلف في العصر البرونزي الأوسط. وليس من المؤكد حتى الآن فيما إذا كان الممر الكائن تحت الأرض لنبع جيحون بُني في هذه الفترة. ولكن بما أن السور الدفاعي على امتداد المنحدر الشرقي ^(٥٦) يتضمن المنطقة التي كان يقع فيها المدخل القديم إلى نبع الماء فمن المحتمل جداً أن النفق الصخري حُفر في هذه الفترة.

وليس هناك ما يشير إلى أن هذه المدينة بقيت مدة طويلة. إن تواريخ الكربون ١٤ (C 14) غير متوافرة؛ لكن تحليل أشكال الخزف يُرجع تاريخها إلى القرن الثامن عشر ق. م. ومن الجائز أن الهكسوس الغزاة دمروا المدينة حوالي سنة ١٧٠٠، ولم يعيدوا بناءها. ومع أن أعمال التنقيب جرت في مناطق واسعة على المنحدر الشرقي للجبل غربي سور العصر البرونزي الأوسط خلال السنوات الخمس والعشرين الأخيرة، فإنه لم يعثر على آثار للسكن يمكن ارجاعها إلى الفترة ما بين القرنين ١٧ و ١٥ ق. م.

وقد نشر سالر S. J. Saller دراسة عن قبر كبير عمره عليه سنة ١٩٥٣ على المنحدر الغربي لجبل الزيتون (الطور) ^(٥٧). وأرجع تاريخ الخزف الذي وُجد في هذا القبر إلى القرن ١٦ - القرن ١٤ ق. م. على أساس دراسة مقارنة لأشكال الخزف. ومعظم الأشياء تأتي من العصر البرونزي المتأخر، ولكن القليل منها يمكن أن ينسب إلى القرن السادس عشر. وللمرء أن يفترض أنه كانت هناك قبور أخرى ترجع إلى الوقت نفسه. ولم يبق من القبر الأصلي المقطوع بالصخر الذي اكتشفه سالر إلا الجزء الأسفل الذي يظهر منه أن القبر كان له شكل ذو فصين bilobate، وهو شكل كان يوجد في أمكنة أخرى أيضاً في هذه الفترة. ولم يستعمل القبر بصورة مستمرة بل بقي مغلقاً لفترات أطول. وربما كانت هناك قبور مماثلة في المنطقة ولكنها اختفت تماماً بسبب انجراف الصخر أو حفر قبور جديدة فيها بعد. إن المنحدرات الغربية لجبل الزيتون (الطور) والمنطقة المحيطة بجيحون هي مقبرة واحدة كبيرة. واقدام القبور التي وُجدت هناك ترجع إلى نهاية الألف الرابع ق. م. ^(٥٧). ومع ذلك فإن قبراً واحداً يرجع بتاريخه إلى القرن السادس عشر لا يكفي للقول بأنه كانت هناك مدينة مسكونة، وليس أطلال مدينة.

العصر البرونزي المتأخر :

ليس من المؤكد أن المدينة سُكنت ثانية حتى القرن الرابع عشر ق. م. وقد ذهب

البعض استناداً للتحليل الأدبي إلى أن اليبوسيين سكنوا المدينة من القرن الثاني عشر إلى القرن العاشر ق. م. فقط. بيد أن التحقيقات الأثرية لم تؤيد حدوث تغيير في السكان في نهاية العصر البرونزي المتأخر. وقد يكون اليبوسيون أعادوا بناء الموقع في أوائل القرن الرابع عشر وشغلوه طوال ٤٠٠ سنة. وارتأت كينيون أن سور المدينة اليبوسي كان هو نفسه سورها في العصر البرونزي المتأخر أو أن السور اليبوسي كان إعادة لبناء هذا السور. وحيثما توقعت كينيون أن نجد القسم الشمالي من هذا السور كشفت سلسلة من المصاطب التي أضافت في رأيها إلى حيز البناء داخل المدينة وجعلت المنحدر الحاد قابلاً للسكن. ومن المحتمل أن هذا البناء كان جزءاً من القلعة على قمة الجبل ومن دفاعاتها. وهذا يوحي بأنه ربما لا يتعين على المرء أن يبحث عن سور واحد على امتداد القسم الشمالي للدفاعات، بل عليه، أن يتوقع أن «المعقل» الذي كشف عنه على المنحدر الشرقي كان يمتد عبر حرف الجبل إلى الغرب حيث تطوّر إلى قلعة حقيقية. وهذه القلعة كانت أعلى بكثير من السطح الحالي. وهذه هي منطقة «موقع هـ.». Site H في حفريات كينيون. وبما أن الوثائق الميدانية للحفريات في موقع هـ. لم تدرس حتى الآن فليس لدينا إلا ملاحظة واحدة لكينيون حول الوضع الأثري^(٥٨). «على السطح الحالي للجبل كانت هناك رقعة من الأرض «قَشَطت» طرف سلسلة معقدة من جدران ضخمة للغاية على امتداد الحد الجنوبي للموقع. وفي وسع المرء أن يفصلها بنائياً، لكن البيانات الاستراتيجية (المتعلقة بالتركيب الطبقي) إلى الشمال كان يقطعها الممر، وإلى الجنوب دمرتها الحفريات السابقة». لكن كينيون كانت واثقة بأن هناك كان الحد الشمالي لرُشاش كِسْر الخزف من العصر البرونزي المتأخر، وبالتالي لمدينة اليبوسيين.

وفي إعادة البناء التي قمنا بها كانت هناك قلعة عالية في الجهة الشمالية للمدينة السفلى. وكانت المدينة ستحرم من وسائل الدفاع في حالة الاستيلاء على القلعة. وكثيراً ما كان يظن أن صهيون لم تكن هي نفسها مدينة اليبوسيين. إن صهيون، تمييزاً لها عن القدس، كانت تشير إلى الجزء العلوي المحصّن (اكروبوليس) من المدينة الذي كان يحمي جانبها الشمالي الأكثر تعرضاً للهجوم^(٥٩).

ونحن نقرأ في سفر صموئيل الثاني : ٥ : ٦ - ٩ : ١١ (وذهب الملك داود) ورجاله إلى اورشليم إلى اليبوسيين سكان الأرض فكلّموا داود قائلين «لا تدخل إلى هنا ما لم تنزع العميان والعرج» . . وأخذ داود حصن صهيون، هي مدينة داود. وقال داود في ذلك اليوم «إن الذي يضرب اليبوسيين ويبلغ إلى القناة» . . وأقام داود في الحصن وسماه قلعة داود.

ثم بنى داود مستديراً من القلعة فداخلاً). إن أحداً لم يستطع حتى الآن أن يجول هذه القطع المتباينة من المعلومات إلى قصة مفهومة ومنسقة. والحق أن النص قد يكون مؤلفاً من قطع من روايات مختلفة. ولكن يبدو من الواضح أن حصن صهيون قد تم الاستيلاء عليه وأنه قد سُمي من الآن فصاعداً قلعة داود. وليس هنالك ذكر للاستيلاء على مدينة القدس، وقد يعكس هذا واقعاً تاريخياً فعندما استقر اليوسيون على الجبل، ربما في القرن الرابع عشر ق. م.، بنوا حصناً جعلوه حصناً لا يُقهر تقريباً. وكانت هناك مدينة ملحقة به لم يكد يكون لها دور في قضايا السلطة السياسية والعسكرية أو السيطرة على ما حولها. وعندما جاء الوقت الذي اتفق فيه سبطا يهوذا وبنيامين على الحد الفاصل بين الأراضي التي احتلوها كان هذا الحد يسير في وادي هنوم (وادي الربابة اليوم - المترجم) عبر جبل القدس. (سفر يشوع ١٥ : ٨). وفي هذا النص موقع وصف بانته «إلى جانب اليوسيين من الجنوب هي اورشليم...». القدس كانت «جانب» أو «كتف» اليوسيين. وهذا قد يشير مرة أخرى إلى أن المستوطنة بحد ذاتها لم تكن عنصراً مهماً في حياة اليوسيين. وفي الاصحاح الخامس عشر نفسه من سفر يشوع (العدد ٦٣) نقرأ: «وأما اليوسيون الساكنون في اورشليم فلم يقدر بنو يهوذا على طردهم فسكن اليوسيون مع بني يهوذا في اورشليم إلى هذا اليوم». وقيل الشيء نفسه عن بني بنيامين في سفر القضاة ١ : ٢١.

إن المدينة بذاتها لم تكن لها دفاعات قوية، حتى لو ظل سور المدينة في العصر البرونزي الأوسط يقوم بوظيفته، كما ذهبت إليه كنيون. فقد كان حصن صهيون هو الوسيلة التي تُمكن اليوسيين من الحفاظ على أنفسهم. وإذا لم يتمكن علماء الآثار من العثور على وريث من العصر البرونزي المتأخر لسور العصر البرونزي الأوسط فقد افترض بصورة عامة أن سور العصر البرونزي الأوسط ظل يؤدي وظيفته في العصر البرونزي المتأخر. وليس هذا صحيحاً بالضرورة. وقد وضع العلماء تخمينات حول أصل اليوسيين فاعتبرهم مايزلر Maisler من أصل حثي^(١١). وقد يكون هؤلاء بالفعل من حيث الأصل عائلة من النبلاء امتلكت الأراضي وعاشت في حصن كان يجاوره مستوطنة. وأما أن هذه المستوطنة كانت في حد ذاتها محمية بسور دفاعي فهذا أمر لم تكن له أهمية كبيرة بالنسبة لهم. وعلى أية حال فإن كثيراً من المعلومات التاريخية حول القدس في العصر البرونزي المتأخر تصبح مفهومة أكثر إذا اعتبرت القدس (اوروسالم) حصناً يدعى صهيون ألحقت به مستوطنة تدعى القدس (اوروسالم). وكان امتلاك القلعة هو الذي استهوى داود بشدة، وكان الاستيلاء عليها أكثر بقليل من «ثورة في داخل القصر».

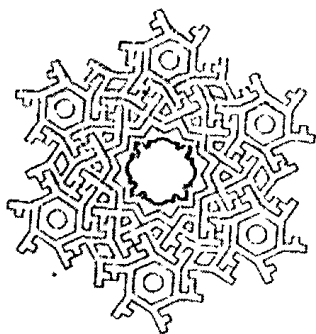
List of Abbreviations

قائمة الاختصارات

- BZAW *Beihfte zur Zeitschrift für die Alttestamentliche Wissenschaft*
 CAH *Cambridge Ancient History*, 2nd ed.
 ICC *International Critical Commentary*
 JBL *Journal of Biblical Literature*
 JPOS *Journal of the Palestine Oriental Society*
 PEQ *Palestine Exploration Quarterly*
 PJB *Palästina Jahrbuch*
 QDAP *Quarterly of the Department of Antiquities of Palestine*
 RB *Revue Biblique*
 VT *Vetus Testamentum*
 ZAW *Zeitschrift für die Alttestamentliche Wissenschaft*

- 1 J H Hayes and J Maxwell Miller, *Israelite and Judaeon History*, London, 1984, ch. II-V.
- 2 R de Vaux, 'Les Patriarches hébreux et les découvertes modernes', *RB* 55, 1948, 327-336.
- 3 W F Albright, 'The Egyptian Empire in Asia in the Twenty-first Century BC', *JPOS*, vol. III, 1928, 247-248.
- 4 R A S Macalister and J G Duncan, 'Excavations on the Hill of Ophel, Jerusalem 1923-1925', *Palestine Exploration Fund Annual*, London, 1926.
- 5 K M Kenyon, *Digging up Jerusalem*, London, 1974.
- 6 Y Shiloh, 'Excavations at the City of David I, 1978-1982', *Qedem*, 1984.
- 7 H J Eggers, *Einführung in die Vorgeschichte*, Munich, 1959, ch. 3.
- 8 Kenyon, op. cit., 1974, ch. 4.
- 9 N Sethe, *Die Ächtung feindlicher Fürsten, Völker und Dingen auf altägyptischen Tongefäßscherben des Mittleren Reiches*, Berlin, 1926.
- 10 W C Hayes, 'Chronology, Egypt - to end of twentieth dynasty', *CAH*, vol. I, ch. VI, part 1.
- 11 A Mallon, 'Jérusalem et les documents égyptiens', *JPOS*, vol. VIII, 1928, 1-6.
- 12 G Posener, 'Syria and Palestine during the twelfth dynasty', *CAH*, vol. 1, ch. XXI, part 2.
- 13 *Ibid.*
- 14 J Skinner, 'Genesis', *ICC*, 1930, 267.
- 15 R H Smith, 'Abraham and Melchizedek', *ZAW*, LXXVII, 1965, 149ff.
- 16 M Peter, 'Wer sprach den Segen nach Genesis xiv 19 über Abraham aus?' *VT*, vol. XXIX, 1979, 114-120.
- 17 J A Knudson, *Die El-Amarna-Tafeln*, Leipzig, 1907.
- 18 K Galling, *Biblisches Reallexikon*², 1977, 160.
- 19 J Simons, *Jerusalem in the Old Testament*, Leiden, 1952, 60.
- 20 Albright, op. cit., 247-248.
- 21 K M Kenyon, *Amorites and Canaanites*, London, 1963.
- 22 Th. L Thompson, 'The Historicity of the Patriarchal Narratives', *BZAW*, 133, Berlin, 1974.
- 23 Kenyon, op. cit., 1963.
- 24 J Bottero, 'Syria during the third dynasty at Ur', *CAH*, vol. I, ch. XXI, part 4.
- 25 J V Seters, 'The terms "Amorite" and "Hittite"', *VT*, vol. XXII, 1972, 64-81.
- 26 K M Kenyon, *Archaeology in the Holy Land*, London, 1979, ch. 7.
- 27 M Noth, *The Old Testament World*, London, 1966, 257.
- 28 See note 17.
- 29 W F Albright, 'The Amarna Letters from Palestine', *CAH*, vol. II, ch. XX, 107.
- 30 Kenyon, op. cit., 1974, and Shiloh, op. cit.
- 31 L-H Vincent and A M Steve, *Jérusalem de l'ancien Testament*, IIIème partie, Paris, 1956.

- 32 Simons, op. cit.
- 33 'Excavations in Palestine, 1932-3', *QDAP*, III, 1933, 177.
- 34 I Neuville, 'Le Préhistorique de Palestine', *RB*, 1934, 301-382.
- 35 B Vandermeersch, *De Evolutie van de mens*, Natuur en Techniek, 1982, 301-304.
- 36 Vincent, op. cit., 615.
- 37 H Gunkel, 'Mythus und Mythologie', *Die Religion in Geschichte und Gegenwart*, IV, 2nd ed., 381-382.
- 38 Macalister, op. cit., 173f.
- 39 Shiloh, op. cit., 11.
- 40 Kenyon, op. cit., 1979, 72.
- 41 Kenyon, op. cit., 1963.
- 42 Kenyon, op. cit., 1974, 78.
- 43 Shiloh, op. cit., 12.
- 44 Kenyon, op. cit., 1974, 95.
- 45 Kenyon, op. cit., 1974, 100.
- 46 Kenyon, op. cit., 1974, 77.
- 47 Shiloh, op. cit., 21.
- 48 G Henton Davies, 'An approach to the problem of Old Testament Mythology', *PEQ*, 88, 1956, 83-91.
- 49 F Stolz, 'Strukturen und Figuren im Kult von Jerusalem', *BZAW*, 118, Berlin, 1970.
- 50 C Hauer, 'Who was Zadok?', *JBL*, 1963, 89-94.
- 51 A J Wensinck, *The ideas of the Western Semites concerning the Navel of the Earth*, Amsterdam, 1916.
- 52 S Terrien, 'The Omphalos Myth and Hebrew Religion', *VT*, XX, 1970, 317.
- 53 J A Soggin, 'The Davidic-Solomonic Kingdom', in J H Hayes and J Maxwell Miller, op. cit., ch. IV.
- 54 B Maisler, 'Das vordavidische Jerusalem', *JPOS*, vol. X, 1930, 189.
- 55 J J Schmitt, 'Pre-Israelite Jerusalem', in C D Evans, W W Hallo and J B White, *Scripture in context, essays on the comparative method*, Pittsburg, 1980, 101-122.
- 56 S J Saller, *The excavations at Dominus Flevit*, part II, 'The Jebusite burial place', Jerusalem, 1964.
- 57 K Gallig, 'Die Nekropole von Jerusalem', *PJB*, 32, 1936, 90-95.
- 58 Kenyon, op. cit., 1974, 91.
- 59 Simons, op. cit., ch. IIIa.
- 60 Maisler, op. cit., 186.



الفصل الثاني

القدس من ١... - ٦٣ ق.م

جورج مندزول

الفترة الامبراطورية : عهدا داود وسليمان ٩٩٣ - ٩٢٢ ق.م.

مدينة القدس

في الخليل نودي بداود ملكاً على الأسباط الشمالية وكذلك الجنوبية للاتحاد القديم حوالي سنة ١٠٠٠ ق.م. لكن التنافس الدائب بل والعداوة التي كانت قائمة بين المجموعتين الاقليميتين الكبيرتين للاتحاد القبلي القديم جعلت من غير الحكمة إلى حد بعيد بالنسبة لداود أن يتبنى تبنياً وثيقاً تقاليد الاسرة المالكة القديمة في مدينة الخليل. واكثر من ذلك فإن المدينة كانت بعيدة اكثر مما ينبغي عن مركز السكان للاتحاد القديم الذي كان يقع على مسافة كبيرة شمال القدس. ولذلك نشأت الحاجة إلى مقر جديد للملك يعلو على المنافسات القبلية بعدم الانحياز إلى اي منها. وكانت مدينة القدس الكائنة في البلاد الجبلية الوسطى تتمتع بموقع ممتاز على خط الحدود بين سبطي يهوذا وبنيامين؛ كما كانت على ارتفاع كبير في الجبال بحيث تأمن الغارات المفاجئة من الفلسطينيين من السهل الساحلي او من الكيانات المعادية المختلفة في هضبة عبر الاردن او من المجموعات القبلية في المنطقتين الهذابيتين في سيناء والنقب.

ومن الواضح أن المدينة كانت محصنةً تحصيناً جيداً. ومن الشواهد الممتازة على ذلك بقايا السور البيوسي القديم الذي كشفت عنه الحفريات الأخيرة^(١). ولم يُعر العلماء اهتماماً كافياً الحقيقة التي مؤداها أن حكايات الكتاب المقدس لا تجربنا عملياً بأي شيء عن السكان المقيمين في المدينة او عن مصيرهم بعد استيلاء داود وكتائبه عليها. بل إن اسم الملك البيوسي لم يذكر مع انه ربما جرت الاشارة اليه في القائمة القديمة التي تضم واحداً وثلاثين ملكاً تمّ التخلص منهم في وقت ما يدعى بـ«بفتح فلسطين»^(٢). وبدلاً من ذلك تركز النقاش فيما يتصل بالاستيلاء على المدينة، كما كان شأن الحكاية القديمة نفسها، على

«النفق المظلم» (sinnor) الذي تمكنت جيوش داود بوساطته من الوصول إلى المدينة؛ وبعبارة أخرى على التكتيك العسكري الذي اتبع. وليست هناك من اشارة إلى «حريم Herem» مذبحة جماعية للسكان اليبوسيين ومن ثم إلى احلال جماعي لليهوديين محلهم. وهذا الملمح بشكل خاص في الحكاية القديمة في الكتاب المقدس هو الذي يرغمنا على الاستنتاج بأن استيلاء داود على المدينة كان اقرب بكثير في طبيعته إلى انقلاب عسكري أجنبي، منه إلى التدمير العنيف واعداد إسكان أقوام محل أقوام أخرى. وكما كانت الحال في التاريخ القديم عادة فإن ازاحة نظام حاكم عن السلطة كانت تعني مجرد وصول ملك جديد إلى الحكم مع تولي نفرٍ من رفاقه الاقربين مراكز مهمة. اما بقية المؤسسة اليبوسية فقد ظلت سليمة.

وهناك ثلاث حقائق تالية مسجلة ايضاً في مصادر الكتاب المقدس تجعل هذا الاستنتاج مؤكداً من الوجهة الواقعية. وأولى هذه الحقائق هي أن الادارة الملكية التي وصفت باستيفاء بالنسبة لنظام الملك سليمان هي الادارة نفسها تقريباً التي تميزت بها مصر الفرعونية منذ عهد بعيد: على الرأس طبعاً، كان الملك نفسه، ويليهِ موظف كان يحمل لقب «المشرف على البيت» (مع أن هذه الوظيفة قد لا تكون وجدت منذ البداية لأنها كانت نظير وظيفة الوزير الأعظم الذي كانت سلطته تشمل جميع موظفي الحكومة ما عدا الجيش). ويليهِ «الكاتب» الذي كان مسئولاً عن الشؤون الخارجية، و«المسجل» الذي كان مسئولاً عن القضايا الداخلية والأمن، و«صاحب الملك» وإعماله غامضة. وفي بلاط الملك سليمان كان يشغل منصب «الكاتب» أخوان: أليحورف وأخيا، وهما ابنا شخص يدعى شيشا Shesha. واسمه ليس اسماً سامياً بلا شك، وربما كان حورياً (شيش = ses = اخ). وبذلك يكون اسم الاب مرادفاً في المعنى للاسم السامي الشائع الذي اطلق على الابن الثاني أخياً (الملوك الأول ٤: ٣). (ولا شك أن هؤلاء الكتبة اليبوسيين هم الذين ادخلوا الابدادية الفينيقية الموحدة إلى الإدارة اليهودية ومن بعد إلى قبائل القرى. ومن المتفق عليه ان الابدادية الفينيقية في القرن العاشر كانت موحدة الشكل في جميع انحاء فلسطين وفنيقية وسورية). إن أبسط تفسير، وأكثر التفاسير جدارة بالتصديق من وجهة تاريخية، لهذا التطابق في الادارة هو أن داود واصل الاحتفاظ بمعظم الموظفين الموجودين بما في ذلك الجنود المحترفون المرتزقة الذين شكلوا الجيش الدائم الصغير للملك اليبوسي السابق. والارجح أن ذلك الهيكل السياسي موروث من مدينة القدس التي وثقها جيداً ارشيف العمارنة في فترة الامبراطورية المصرية.

والحقيقة الثانية ثار حولها كثير من الجدل منذ اواخر القرن الثالث عشر؛ ولكن يبدو أنه لم يُعد بالإمكان نكرانها الان. فالحقيقة التي مؤداها أن جهاز الموظفين اليوسبي كان يتضمن كهنوتاً مُكرساً لعبادة ايل - عليون او آلهة كنعانية قديمة مثله اصبحت امراً مفروغاً منه^(٣). إن ملكاً ليس له طبقة كهنوتية ولا عبادة ولا هيكل من نوع ما هو شيء لا يمكن تصوره في العالم القديم. والهدف الخاص لهذه المؤسسات هو إسباغ الشرعية على النظام السياسي وتزويده بالأساس الايديولوجي، وهو النظام الذي كان يقوم عادة وبساطة على القوة العسكرية المتفوقة. إن جوهر اللاهوت الرسمي القديم في جاهلية الشرق الادنى القديم هو أن الملوك يحكمون لا برضى المحكومين بل من خلال «اختيارهم» من لجنة من الكائنات العلوية التي يصبح قرارها معروفاً فوق ميدان معركة سابق.

في عهد الملك داود كان هنالك «كاهنان» لم يكن احدهما، كما هو واضح، اعلى رتبة من الآخر. أبحاثار كان رفيق داود منذ الايام التي كان عليه ان يفر فيها طلباً للنجاة من الملك شاول. وليس هناك شك مهما كان في اصله اليهوي الحقيقي باعتباره من كهنة شيلوه التي كانت مركز العبادة لاتحاد يهوه في الايام التي سبقت تشكيل الاتحاد مباشرة. أما الكاهن الآخر صادق فلا يمكن الا ان يكون قد ورث من المؤسسة اليوسبية، ولم يكن بالإمكان عزله من وظائف العبادة دون نشوء مشكلات خطيرة بين داود وسكان المدينة الذين كانوا عنصراً اساسياً لادارته. اما أن الكهنوت اليوسبي القديم اصبح الكهنوت المعترف به في هيكل سليمان فهذا ما تبرهن عليه دون اي شك معقول طبيعة طقوس الهيكل ذاتها، وهي التي كانت بتامها استمراراً للعرف الكنعاني القديم، كما اشار اليه دوسو Dussaud قبل عدة عقود من السنين^(٤). واما أن النظام لم يكن كنعانياً فحسب، بل كان غربياً تماماً عن تقاليد التوحيد اليهودية ايضاً، فهذا ما يتضح من ادانة معظم الانبياء اليهوديين لهذا النظام ومن التأكيد الصريح المتكرر بأنه لم يكن جزءاً من التقاليد اليهودية الموسوية الاصلية، مثلاً عاموس ٥ : ٢٥ - ٢٧ . وارميا ٧ : ٢٢ .

كان الملك نفسه في الجهاز البيروقراطي المصري، بوصفه عضواً في مجمع الآلهة، رئيساً للكهنوت. ولكن كان هنالك كاهن اعلى يقوم بالإشراف على البيروقراطية الكهنوتية. ويتضح التشبه بالنموذج الوثني في ترؤس سليمان للطقوس وتقريب القرابين المتصلة بتكريس الهيكل (سفر الملوك الاول ٨ : ٥، ٦٢). [قبل نصف قرن فقط عنف النبي صموئيل بشدة

اول ملوك الاسباط شاول لتجروه على تقديم الذبائح بنفسه (صموئيل الاول ١٣ :
[٠٤٨٠٠٠]

إن المدن الكنعانية في البلاد كان لها نظام اداري وبيروقراطي سياسي ومالي قبل زمن الملك داود بقرون^(٥)، على الرغم من أن هذا النظام كان بسيطاً بلا شك بالمقارنة مع البيروقراطية المحكمة التي كانت لاوغاريت الاكثر ثراء في الشمال . وهناك من ناحية أخرى الحقيقة التي لا مفر منها وهي أن القرويين والفلاحين اليهوديين لم تكن لديهم قدرة كهذه ولا تقاليد على الإطلاق . إن معرفة القراءة والكتابة اللازمة للادارة السياسية لا محل لها بالطبيعة بالنسبة لفلاحي القرى وهم لا يقدرونها . والمصدر الوحيد المتاح للملك داود لتنظيم مملكته الممتدة الاطراف وادارتها على هذا الوجه لا بد أن يكون نظاماً قائماً كان في متناول يديه عند سكان القدس . ومن الثوابت كذلك في التاريخ السياسي أن الادارة وكذلك الجيش المحترف لا يابهان الا قليلاً لهوية النظام الحاكم وأيديولوجيته ما داموا يقبضون رواتبهم . الناس على دين ملوكهم Cuius regio, eius religio كان ثابتاً من الثوابت على مدى تاريخ السياسة .

إن البيروقراطية البيوسية كانت تشمل بالطبع جيشاً دائماً كان قوامه على وجه الاحتمال حرس الملك الشخصي ومرافقيه . وفي هذه الحال كان هؤلاء الكريتيون والفلسطينيون Kereti and Peleti ، وهم محترفون مرتزقة ، يدينون بالولاء للملك نفسه دون سواه . ومن الشخصيات الهامة الأخرى في الجيش كان ايضاً وبلا شك العسكريون المحترفون الذين أخذوا عند الاستيلاء على المدينة او جندوا فيها بعد اثناء فتوحات داود للمدن الكنعانية والممالك المجاورة . وفي سياق هذه الفتوحات تم إدخال التكنولوجيا العسكرية للعصر الحديدي المبكر في الدولة السياسية .

وكان احد اهم هؤلاء المرتزقة ضابطاً عالي الرتبة حُدِّدَت هويته بأنه اوريا الحثي (صموئيل الثاني ١١ : ٣) وكانت زوجته بَشَبَع (ابنة الآلهة السبعة ، ربما الثريا Pleiades في الاسطورة الإغريقية . شبع ، sheba كتبت بالاحرف المسماة sibitti) . لقد أدى زنا داود بالمرأة إلى تديره موت زوجها لكي يستطيع أن يتزوجها . وتحديد هوية اوريا بأنه حثي ليس له سوى علاقة عرضية بالحثيين الذين تنسب اليهم امبراطورية العصر البرونزي المتأخر في الاناضول : في العصر الحديدي المبكر كانت سوريا الشمالية تعرف بـ «ارض الحثيين» ، لأن عدداً من المدن في تلك المنطقة واصلت اتباع التقاليد السياسية والثقافية للامبراطورية الحثية بعد تدميرها بوقت طويل .

والحجة الثالثة التي تؤيد تبني داود البروقراطية القائمة نجدها في التعامل الغريب للغاية مع اساء جديدة كثيرة تحتل مكاناً بارزاً في الحكايات التي تتناول هذه الفترة. فالنبي ناثان، مثلاً، وهو «نبي بلاط» ومستشارٌ للملك يقدم حتى دون اسم اب يحدد هويته. وبالمقابلة مع جميع الانبياء اليهوديين عملياً لا يقال لنا شيء عن اصوله وخلفيته. والسبب بسيط جداً: لقد كان سابقاً نبي البلاط قبل انقلاب داود، وكان ذا قيمة كبيرة جداً للملك كمستشار وكوسيط بين داود وسكان المدينة البيوسيين الوثنيين الذين يحكمهم داود الان إضافة إلى قرويي الريف الموحدين اليهوديين. وكما اشرنا من قبل فإن الشيء نفسه يصح بالنسبة لكاهن داود الثاني صادوق. وعند نقطة زمنية معينة، والارجح في زمن سليمان نفسه، تم ادخال النسب الحقيقي للكهنوت الهاروني في نسب صادوق الخاص، النسب الحقيقي ايضاً^(٧) الذي يمتد إلى زمن استيلاء البيوسيين على القدس، ربما قبل تشكيل النسب اليهودي بجيل او جيلين.

وهناك حجة رابعة ايضاً تؤيد استمرارية سكان القدس نجدها في لغة الحكايات الثرية للكتاب المقدس العبري التي يتفق جميع العلماء على انها من حيث الاساس اللغة القياسية للمتعلمين في مدينة القدس. ولسوء الحظ فإن الدراسة التاريخية لعبرية الكتاب المقدس في مستوى بدائي للغاية بحيث لا يتسنى حتى الآن وصف التمايز القائم بين لهجة القدس الكتابية هذه ولهجات القرى اليهودية. وكل من عالج الشعر اليهودي القديم السابق لعهد الملكية سيدرك على اية حال أن هنالك تمايزاً كبيراً؛ وهذا الامر لا يمكن تعليقه استناداً إلى المسافة الزمنية بين اللهجتين فحسب. ويكتسب التمايز أهمية أكبر إذا علمنا أن لهجة القدس بشكل خاص لديها سمات لغوية مشتركة عديدة مع اللغة الأوغاريتية. إن العلاقة بين القدس في الفترة السابقة لداود وسوريا الشمالية يمكن تتبعها الآن الى سنوات القرن الرابع عشر ق. م.^(٧)

لقد لخص نبي فترة السبي حزقيال الوضع بدقة بكلماته الشهيرة حول القدس (حزقيال ١٦: ٣): «تخرجك ومولدك من ارض كنعان. ابوك اموري وامك حثية». وفي نصف القرن الماضي فقط جرت اكتشافات عديدة توضح الاسس التاريخية لقول حزقيال. وإذا ترجمنا ما يقوله إلى التاريخ الاجتماعي فهو يعني أن مدينة القدس كانت مدينة كنعانية نموذجية وأن ثقافتها وسكانها نشأوا اساساً في أرض العموريين في شمال شرقي سوريا. وفوق

هذا الأساس قام نظام ثقافي وسياسي يرجع باصله إلى سوريا الشمالية، لأن سوريا الشمالية كانت تعرف في هذا الوقت على نطاق واسع بـ«ارض الحثيين». ومن وجهة عملية فإن كل شيء مرفه عن المدينة يوضح هذا التاريخ. حتى الاسم، ييوس، وهو الذي عرفت به المدينة في الكتاب المقدس حتى وقت استيلاء داود عليها، يحتوي على جذر شائع تماماً في علم الأعلام (onomastics) العموري، وفي مختلف اشكال اللهجات بما في ذلك تلك التي فيها «شين» التي تظهر ايضاً في اسم المكان المدعويابيش - جلعاد yabes - gil'ad في شرق الاردن. إن معنى الجذر غير معروف حتى الآن، ولكن من المؤكد انه ليست له علاقة بالاسم الكنعاني الجنوبي الذي يجانسه في اللفظ، والذي يعني «يبس». ومن الممتع أن نلاحظ ان مقابلة الحرف الصافر هي نفسها التي تنعكس في حادثة «شبولت» (سفر القضاة ١٢: ٦).

ولم يكن النبي حزقيا بحال من الاحوال هو الوحيد الذي اكد أن مدينة القدس لم تكن فقط غريبة على قبائل يهو التي تدين بالتوحيد وأن سياساتها وممارساتها لم تكن سوى كارثة منتظرة الوقوع. فمن قبل، قبل ذلك بقرن ونصف، اعلن النبي ميخا قائلاً: «ما هو ذنب يهوذا؟ اليس هو القدس؟» [ميخا ١: ٥].

إن تاريخ القدس باسره، حتى تدميرها على يد الامبراطورية البابلية، ما هو الا تاريخ صراع مستمر بين تقاليد اليهوديين الموحدنين وبين شرك المدن في القدس (وكذلك في المدن الكنعانية الأخرى) التي دججت في امبراطورية داود، واصبحت في عهد خلفه سليمان ناهية الشأن ثقافياً وسياسياً. إن التقاليد السياسية كلها في فترة الكتاب المقدس لم تكن سوى تكييف بسيط للهيكل السياسي والايديولوجية الكنعانية الموطنين منذ عهد بعيد. وكان هذا امراً لم يكن منه مناص منذ أن اعلنت اليهودية الموحدة الباكرة يهو ملكاً، دون أن يكون لها، شأنها في ذلك شأن ديانات التوحيد العالمية، ايديولوجية لاقامة الملكية او لإسباغ الشرعية عليها.

ولا بد لنا أن نؤكد أن المدينة التي استولى عليها داود وجعلها عاصمة له كانت مدينة صغيرة بالمعايير العصرية. ولم تكن مساحتها تزيد الا قليلاً عن ٣٥٠ x ١٠٠ متر تقريباً ولم يكد مجموع عدد سكانها يتجاوز الألفين. ولا بد أن موارد المدينة اليوسية القديمة كانت محدودة للغاية لأن المنطقة التي تجاورها إلى الشمال كانت جزءاً من ارض قبيلة بنيامين

اليهودية؛ بينما كان معظم السكان إلى الجنوب مباشرة من يهوذا اليهودية. ولذلك فإن مكانة المدينة ومركزها الاقتصادي وسكانها قد ازدادوا زيادة هائلة عندما أصبحت عاصمة لعدد كبير من السكان الذين تم توحيدهم قبل ذلك بعدة اجيال في الاتحاد اليهودي.

وشأنها شأن عددٍ من «المدن» الأخرى ربما لم تكن المدينة تضم أكثر بكثير من القصر الملكي ومساكن لخدام الملك وموظفيه ورجاله العسكريين. وقد غدا مجّمع المدينة كله والحقول المحيطة به ما أصبح يعرف بمصطلح الأزمنة التالية بـ«ملكية التاج» وفق المبدأ الوثني القديم الذي يذهب إلى أن ما يستولي عليه الملك بقوة السلاح يصبح ملكاً شخصياً له. ووفقاً لما جاء في سفر صموئيل الثاني ٥ : ٩ فإن داود نفسه اعاد تسمية المدينة فأصبحت: «إر دافيد، مدينة داود». ومما له مغزى أن هذا الاسم لم يستمر؛ بل إن الاسم القديم السابق لليبوسيين - والذي وثقته من قبل نصوص اللعنة المصرية التي ترجع للقرن التاسع عشر وكذلك رسائل العمارة في القرن الرابع عشر - وهو اورو سالم (او ما يشبه ذلك) - غدا الاسم الوحيد للمدينة فيما تلا من فترات التاريخ.

إن المبدأ القانوني للملكية التاج توضحه على اية حال الحقيقة التي مؤداها أن حقلاً في ضواحي القدس المباشرة خصص لابن عم داود ورئيس اركان جيشه يوأب، وأن حقلاً مجاوراً خصص لواحدٍ من اكبر ابنائه، ابشالوم، كما نعرف من حكاية عودة الشالوم من النفي في موطن أمّه الوثني جشور (صموئيل الثاني، ١٤ : ٢٨-٣٣). وهذه العادة في تخصيص ما أصبح يدعى فيما بعد بـ«الممتلكات الوقفية» لشخصيات مُهّمة في البلاط الملكي كمصادر للدخل موثقة بصورة جيدة في ماري في العصر البرونزي الاوسط وفي اوغاريت في العصر البرونزي المتأخر. وما من شك في أن كل ما فعله داود هو أنه اقتبس العادة الملكية التي كانت متبعة في العهد الليبوسي السابق، وواصل العمل بها.

مملكة داود

إن القاعدة السكانية الكبيرة التي تألفت من اتحاد القبائل الديني الذي امتد من دان الشهيرة الى بئر السبع وفرت الأساس الاوّل لتطور السلطة السياسية مع أنه من الواضح أن ملكية داود لم تكن تحظى بشعبية موحّدة بصورة من الصور. ويمكن أن نرى ذلك في العصيان الذي قام به كل من شيماي وابشالوم. ومع ذلك فإن الوحدة ذات النطاق الواسع للغاية سارت سيراً حسناً بما فيه الكفاية بالنسبة لداود، بحيث مكنته من تأسيس دولة واسعة

خلال عقدين من الزمان . ولا شك أن هذا هو السبب الذي جعل نظام القدس يسجج في إقامة شكل كهذا من اشكال الدولة في وقت كانت فيه اقاليم البحر الابيض المتوسط الشرقية قد بدأت للتوّ في الخروج من العصر الحديدي المبكر (العصر المظلم) .

وكانت الخطوة الأولى بعد الاستيلاء على القدس دمج معظم عمالك المدن الكنعانية القديمة بالقوة المسلحة في المملكة ، وكذلك المدن الفلسطينية والقرى التابعة لها . وتستطيع ان نرى بوجه خاص من قائمة حكام الولايات التي ترجع إلى عهد سليمان أن كثيراً من هذه المدن الملكية القديمة أصبحت الان مقرّاً لحكام ملكيين . ويبدو أن النظام المالي كان يشبه الى حدٍ لافٍ للنظر نظام ماري في العصر البرونزي الاوسط . ودمج سكان المدن لم تطرأ زيادة عظيمة على قاعدة القوة في المملكة فحسب بل حدث توسع هائل في المخزون الثقافي ايضاً . وكما كانت الحال دائماً فإن سكان المدن هم الذين توفرت لديهم التقاليد التقنية والثقافية والخبرة اللازمة لإقامة نظام حكم سياسي يتمتع بالابهة . ومع ذلك فانه حتى المدن الفلسطينية التي سُلبت ثروتها نسبياً لم تكن بقادرة على توفير المهارات والمواد اللازمة لمشاريع البناء التي قام بها داود وسليمان . وبدلاً من ذلك أرسل الملك حيرام ملك صور التجارين والبنائين وكذلك خشب الأرز لبناء حتى القصر الجديد للملك داود (صموئيل الثاني ٥: ١١) . . . بل ان هذا لم يكن مرضياً كما هو واضح ؛ إذ إن الملك سليمان أمضى ثلاث عشرة سنة في الجليل التالي في بناء قصر جديد لنفسه (الملوك الاول ٧: ١) ، وهو ضعف الوقت الذي صُرف تقريباً على بناء الهيكل .

أما المرحلة الثانية فكانت الدمج عن طريق الاستيلاء لاجزاء كبيرة من شرق الاردن ونعني أدوم وموآب وعمون . وقد ادت التحالفات المتشابكة في شمال شرقي الاردن إلى هزيمة ملك دمشق ودمج كل الاراضي التي كان يسيطر عليها الأخير في امبراطورية داود . اما امتداد الامبراطورية إلى تفساح Tiphseh على نهر الفرات فما كان في احسن الاقتراضات اكثر من تلبية قانوني ، لأن البيئات الاثرية المتاحة الان تشير بقوة إلى انه لا بدّ انه كانت هنالك قلة مفرطة في الكثافة السكانية في المنطقة الواقعة بين واحة دمشق ووادي الفرات الذي كان هو نفسه محروماً من السكان من الناحية الواقعية في العصر الحديدي المبكر .

إن روايات التّتاب المقدس تقول صراحةً إن داود صرف كثيراً من الوقت والجهد على حروبه الامبريالية بحيث لم يكن لديه وقت او حافز للنشاطات العمرانية التي تتصف بها

عادة عملية بناء الامبراطورية . وقد اسفر فرض الضرائب في الامبراطورية عن خزن فائض من الأموال، كما تقول الروايات الموروثة، في الخزنة المقدسة . وليس من المفاجيء أن العناصر القبلية اليهودية القديمة كانت في اكثريتها راضية تماماً عن المشاركة في المجد والرخاء اللذين نشأ عن مثل هذا التدفق لرؤوس الاموال . والاحتجاج النبوي المسجل الوحيد على الشطط وعلى انتشار الوثنية المتزايد في الادارة حتى نهاية حكم سليمان ذاتها انها جاء من النبي جاد الذي اعلن العقاب القاسي بسبب احصاء داود (صموئيل الثاني ٢٤) . ولا شك أن هذه المؤسسة الملكية التي سجل التاريخ نظيرها من قبل في الفترة البرونزية الوسطى في ماري كانت تمثل ادارة مركزية لقوة الافراد والموارد الاقتصادية للمملكة باسرها . ولا بد انها كانت اداة مكنت الادارة الملكية من انتزاع الاشراف على مسائل كهذه من السلطات المحلية والقبلية .

إن التائب الشهير الذي وجهه نبي البلاط ناثان إلى داود لارتكابه الزنا مع بثشبع وتدبير موت زوجها الناشيء عن ذلك لم يكن له علاقة بالاخلاق اليهودية، بل إنه كان يستند بدلاً من ذلك إلى الاشمئزاز الطبيعي من اساءة كهذه لاستخدام السلطة، مما كان يهدد مركز داود عند موظفي الدولة والمحاربين المحترفين في القدس . والواقع أن جميع افراد عائلة داود عملياً ممن لدينا معلومات عنهم كانوا سيخضعون لعقوبة الموت بموجب القواعد الاخلاقية للميثاق الموسوي القديم في فترة الاتحاد . إن الحقيقة ذاتها التي مفادها أن ناثان كان المحرك الاول للحيلة الناجحة لاعتلاء ابن بثشبع الثاني سليمان العرش (الملوك الاول، ١) هي افضل دليل على أن ناثان لم يمكن يابه في كثير أو قليل للتقاليد اليهودية .

إن الامبراطورية السريعة الزوال كان لها قليل من التأثير المستديم في تاريخ الشرق الادنى القديم ؛ لكن التغيرات الايديولوجية التي رافقت الانتقال إلى الملكية كان لها نتائج مصيرية حتى الوقت الحاضر . وينبغي أن نؤكد في المقام الأول أن اتحاد يهوه كان يتميز بعدائه الشديد للديانات السياسية التي قامت على اشكال الشرك القديمة في المدن ولأهنتها التي كانت تسمى بحق بعالميم، وكانت في الجوهر رموزاً شخصانية لسيادة الملوك المختلفين او لضيق الأفق المحلي حيثما عبت . وكانت حروب الاتحاد من حيث الاساس عمليات مقاومة اما للتخلص من الهيمنة السياسية لسانسة طموحين جاء كثيرون منهم، إن لم يكن معظمهم، إلى المنطقة في وقت حديث جداً، مثل الفلسطينيين، واما انها كانت حروباً لتفادي اعادة فرض سيطرة سياسية واقتصادية أجنبية كهذه . وفي فترة الاتحاد لم تكن معارك

كهذه دائماً ناجحة لا لسبب الا لأن روابط الاتحاد، على الرغم من اسسها الدينية العميقة، كانت اضعف من أن تضمن اشتراكاً كبيراً بما فيه الكفاية من جانب تلك القبائل التي لم تكن متورطة بصورة مباشرة في نزاع محلي معين.

في هذه الظروف لا ندهش إذا كانت الديانة النبوية الموسوية المبكرة لا تتضمن ايديولوجية معينة او ضمنية لاسباغ الشرعية على الدولة السياسية: إن مملكة يهو هي التي استبعدت صراحةً الفكرة التي تسمح لمجرد ملك ارضي من الملوك أن ينال ولاء القرى اليهودية الواسعة الانتشار. ومن جهة أخرى فان شجرة العوسج التي لا نفع فيها في حكاية يوثام الرمزية (القضاة: ٩) هي وحدها التي ارادت أن تكون ملكاً؛ وهو ايضاً نموذجي غير مقيد بزمان لموقف سكان القرى من ادعاءات الطموح السياسي.

إن تسييس دين الانبياء القديم بدأ بادخال تابوت العهد إلى مدينة القدس تحت الرعاية الملكية (صموئيل الثاني: ٦). ويبدو أنه اقيم بنيان موقت باذخ نوعاً ما كان هدفه اعلان استمرارية «المسكن» (الخيمة) الذي ورد ذكره في احاديث الخروج والتية القديم. ويعتقد كثير من العلماء أن وصف المسكن في المواد الكهنوتية في سفر الخروج ٢٦-٢٧ يذكرنا في الواقع بالمسكن الداودي.

بيد ان الوضع تغير تغيراً شديداً بعد دمج ممالك المدن الكنعانية الوثنية القديمة في امبراطورية داود. فهذه المدن لم تكن معتادة على الملكية فحسب؛ بل ان مجتمعاتها واقتصادها تطلباً فيما يبدو تركيزاً كهذا للسلطة والرقابة. فلا غرابة إذن إذا كان تكييف التقاليد النبوية اليهودية القديمة بحيث تقدم الدعم الإلهي للملكية الجديدة قد استمد ايضاً من التقاليد الاسطورية الوثنية. إن اعلان «الاختيار» الإلهي لداود والوعد بالوراثة الاسرية الذي تمّ بوساطة النبي ناثان هو صورة دقيقة للتقليد الكلاسيكي المودع من قبل في شريعة همورابي. وإذا وضعناه في لغة عصرية علمانية فانه يعني ببساطة أن حكم الملك وورثته ليس برضى المحكومين، ولكنه ميثاق الهي تتنازل بموجبه الالهة عن الحكم لمصلحة إنسان من البشر. ولا نستطيع ان نقرر الآن إن كانت هناك اية شروط تجعل هذا الميثاق مشروطاً بـ«طاعة» الملك لقواعد سلوكية مقررة من قبل. والاحتمال الكبير هو انه لم تكن هناك شروط كهذه، مع أن التقاليد التي بين يدينا الان تتضمن عادةً شروطاً كهذه هي بلا شك نتيجة لاصلاح التثنية الذي قام به الملك يوشيا بعد ذلك بزمن طويل. ومن المؤكد انه ليس هناك طوال عهد

الملكية سوى اشارات قليلة في القصص التي لدينا إلى أن الملك كان يعتبر حكمه متوقفاً على توافق كهذا مع معايير مفروضة من الخارج. إن رد الفعل الشديد للغاية الذي صدر عن يوشياً عندما اكتشف انه قد تكون هناك شروط كهذه (الملوك الثاني ٢٢ : ١١-١٣) هو برهان كافٍ على أن افكاراً كهذه لم تكن تراود الملوك. إن «علم اللاهوت المتعلق بالمسيح المنتظر» هو بتامه اذن وثني من حيث الاصل ومن حيث التطبيق حتى نهاية الملكية واسرة داود.

وناحية أخرى مهمة لايديولوجية الملكية لا بد انها كانت قد بلغت تمام تطورها في عهد سليمان على الاقل هي إدخال «جد مشترك» جديد، ابراهيم، الذي حل محل الجد المشترك الاصيلي للاسباط الاثني عشر يعقوب. وكان لا بد من ايجاد اصل مشترك «من حيث النسب» لتجسير الفجوة وانهاء النزاع بين القرى اليهودية والمؤسسات الحضرية الوثنية البيوسية. ولهذا الغرض رَجَع الكتبة الملكيون بعيداً إلى التقاليد السابقة للموسوية التي كانت قد تنوقلت فيما هو محتمل بشكل من اشكال الملاحم لمدة قرون قبل أن يُعاد تدوينها لتلائم حاجات الملكية الاسرائيلية. وقد عكست هذه التقاليد روايات متواترة بالغة القدم حول اصل اسرة من الاسر السابقة لموسى وهجرتها من الاراضي العمورية في سوريا الشمالية. وربما كانت هذه الاسرة في الخليل (حبرون) نفسها لا لسبب سوى وجود القبر في مغارة ماكفيل؛ وهي رواية متواترة ليست هناك اشارة أخرى اليها في المجموعة الكتابية* كلها. وقد رُبِطت الرواية المتواترة عن «الاب» ابراهيم بصورة مصطنعة بتلك المتعلقة بيعقوب من خلال شجرة نسب ابراهيم - اسحق - يعقوب. اما شجرات النسب المرتبطة من قبل بابراهيم فقد أنزلت درجتها إلى مستوى تلك المتعلقة «بالسراري» في فنية نسبية لها ما يوازنها لدى الكثير من القبائل البدائية: عندما يتغير المجتمع تُغَيَّرُ الانساب لتعكس الوضع الجديد. ومع ذلك فجدير بنا أن نلاحظ أن الكتبة الملكيين لم يقوموا فقط بحفظ شجرات النسب تلك التي تربط ابراهيم بالمجموعات العربية الأولى proto - Arabic ، مثل مَدِين وسبأ وغيرهما التي عرفت جيداً بعد ذلك. بل حفظوا ايضاً ذكرى مؤداها أن هذه المجموعات هي في الاصل من ابناء فلسطين بمعناها الحقيقي. وسفر التكوين ٢٥ : ٥ - ٦ هو برهان كافٍ على ذلك: «وأعطى ابراهيم اسحق كل ما كان له. واما بنو السَّراري اللواتي كانت لابراهيم فاعطاهم ابراهيم عطايا وصرْفهم عن اسحق ابنه شرقاً إلى ارض المشرق وهو بعد حي.» وحفوظ على

* نسبة إلى الكتاب المقدس

استمرار هذ الروايات القبلية المتواترة في حافة الصحراء التي تنتهي جزئياً في اليمن البعيد^(٤). وبالمثل فان اللغة القديمة في المنطقة الساحلية احتفظت بالكثير من طابعها في تلك المنطقة القصية، بينما تغيرت لغة قلب البلاد تغيراً شديداً لدى الانتقال من العصر البرونزي المبكر إلى العصر البرونزي الاوسط، وتغيرت حتى اكثر من ذلك في نهاية العصر البرونزي المتأخر^(٥).

وكان التوحيد المطلوب لهوية إله ابراهيم وهوية يهوه جزءاً ضرورياً من عملية اعادة تكييف الرواية المتواترة عن ابراهيم، وهي العملية نفسها التي جرى بموجبها توحيد هوية إله القدس الاقدم وإله اسرة الملك داود ايضاً. وهذا التوحيد ذكر بوجه التحديد في الشريعة الكهنوتية المتأخرة في سفر الخروج ٦: ٣، بما مؤداه أن الله واحد؛ أما الاسم وحده فهو مختلف: ايل - شداي كان هو يهوه تحت اسم مختلف.

وجراء هذه التغيرات كلها اصبحت القدس مدينة امبراطورية لوقت قصير، تمّ خلاله المزج بين مجموعتين من التقاليد الدينية والاجتماعية المتميزة تماماً، مع أن الاعتقاد بتعدد الآلهة السياسي الكنعاني القديم ظل هو السائد سيادة ساحقة في المجال العام. وقد نجح نجاحاً لافتاً للنظر في ايجاد علاقة كافية لإحداث النتائج المرجوة فيما بين التقاليد السياسية الوثنية الحضرية القديمة والتوحيد الأخلاقي النبوي، وهي علاقة ادت وظيفتها بصورة جيدة بما فيه الكفاية لمدة اربعة قرون، ولو ان ذلك تم دون معوقات الامبراطورية ومآزقها بعد الجيلين الأولين.

عهد سليمان ٩٦٠ - ٩٢٢ ق.م

لقد قام حكم سليمان جراًء مكيدة بلاط أمّنت نجاح التقاليد اليوسية الحضرية. وكما كانت الحال في كثير من الاحيان فان الملك داود كما هو واضح لم يتخذ ترتيبات لنقل السلطة على نحو منتظم إلى وريث له. وربما افترض اكبر ابنائه الباقيين أدونيّا انه سَيرته على العرش كما هي العادة. واقام احتفالاً عندما بدا أن اباه اصبیح غير اهل للحكم وفي حالة احتضار (الملوك الاول ١). ومن الصعب الاعتقاد بأن حفل التتويج لم يكن حيلة متعمدة دبرت بالضبط استباقاً لانقلاب مماثل يقوم به داودي آخر. وهكذا جند أدونيّا اتباع الملك اليهوديين المخلصين القدامى الذين كانوا سنداً لداود منذ الايام التي فرّ فيها طلباً للنجاة من الملك شاول. وكان على رأس مؤيدي أدونيّا في المطالبة بالعرش يواب ابن عم الملك وقائده

العسكري ، وأبياتار الكاهن الذي يرجع باصله إلى سلالة كهنة شيلوه القديمة والذي شاطر داود المحن التي صادفها في هربه من غضب شاول . وبهذا التأيد العسكري والكهنوتي ربما كانت لديه كل الاسباب التي تجعله يتوقع نجاح مطالبته بالشرعية .

لكن ادونياً لم يأخذ مكائد البيروقراطية البيوسية القديمة في الحسبان . فقد حصل النبي ناثان بالاتفاق مع بثشبع من الملك داود على تسمية سليمان خلفاً له . ومع انه كان يحضر فإن كلمته ، إضافة إلى دعم الجيش الدائم ، كانت كافيةً لضمان اعتلاء سليمان العرش . وأما خصومه فإما انهم اعدموا (يوآب وادونياً) أو نُفوا (أبياتار) . ولا يكاد يكون هناك شك في أن البيروقراطية البيوسية القديمة كانت لها اليد العليا في هذه الحادثة . وبلغت العودة إلى التقاليد السياسية الوثنية القديمة للعصر البرونزي تمامها . وقد ظل اسم إله الاسرة الحاكمة يهوه بالتأكيد ولكن الاله اصبح ، بقدر ما يتعلق الأمر بالجهاز البيروقراطي ، مجرد إنه حارس للمؤسسة الحاكمة . ولم نعد نسمع ثانياً حتى نهاية عهد سليمان بنشاط نبي يهوي ، لا كمستشار للملك ، بل كرسول ليهوه الآخر الذي يعود إلى تقاليد سيناء والذي يحكم على التاريخ الإنساني ويُعلن أن امبراطورية سليمان وحكمه على قبائل يعقوب قد انتهى نظراً لانحرافه التام في اسس حكمه عن الاوامر الإلهية .

وبقدوم سليمان سارت النشاطات المألوفة للامبراطوريات القديمة مسارها الهدام اربعين سنة . والفائض الذي تجمع في حروب داود الامبراطورية إضافة إلى الضرائب التي كانت ترد بانتظام من المناطق المقهورة، قد تبدد بسرعة في برامج بنائية طموحة وفي البناء الكثيف للتحصينات والتسليح العسكري . ولافساح المجال امام المباني الجديدة وسّع سليمان حدود المدينة ، وربما انهمك في وضع ردمٍ كثيف، ليزيد في مساحة المنطقة المستوية من اجل بناء القصر الملكي والهيكل الملكي والمباني الملحقة التي ما تزال غايتها غير معروفة بوجه قاطع . ومن المؤكد ان سكان المدينة ازدادوا زيادة كبيرة خلال الثمانين سنة من حكم الملكية الموحدة ، ولكن ليست لدينا معلومات بهذا الشأن . ولا بدّ أن زيادة الجهاز الوظيفي بحد ذاتها والحاجة إلى اسكان الموظفين ، والجهاز العسكري والمؤسسة الكهنوتية المحكمة التفاصيل والموظفين المساندين اقتضت توسيع المدينة . وشهد جبل الهيكل قيام مبنى مهيب (ومكلف) لا يواء تابوت العهد الذي كان داود قد احضره وسط نفخ الابواق إلى مدينته الملكية . وانه لمؤشر جيد على المستوى المنخفض لفنون الصنائع المحلية أن سليمان اضطر إلى

استيراد عمال مهرة من صور من اجل عمليات البناء التي تتطلب المزيد من المهارة. ويشتهبه المرء في أن التصميم المعماري للهيكل كان من اعداد المعمارين الصوريين لانه يتطابق في هويته من وجهة عملية والتصاميم المعروفة في سوريا الشمالية. وكما اثبت احد العلماء مؤخراً^(١٠)، فإن مشروع البناء بكامله هو نصب تذكاري للعمارة الامبراطورية الحثية.

وقد جرت بعض التنازلات القليلة للتقاليد الاقدم عهداً، السابقة لداود: في المقام الاول لا يجوز اقامة تمثال للاله في الحرم الداخلي. وقد احتل مركز الشرف بدلاً من ذلك تابوت العهد الذي اصبح رمزاً للحضور الإلهي وضماناً لسرمدية النظام الحاكم مهما كان هذا النظام ومهما فعل. ولم يكن هناك مناصب من كون اسم إله الاسرة الحاكمة يهوه ولم يكن من الجائز تمثيله بتمثال. اما جميع المتعلقة الأسرية الوثنية الأخرى فكانت موجودة ابتداء من الملائكة الكرويين cherubim* والملائكة المقرئين seraphim (الساوفيم)** حتى رموز الخصب؛ ونحن نعرف الآن أن هذه جميعاً لها ارتباطات وتاريخ قديم الرسوخ في عالم الشرق الأدنى القديم. ومفهوم تماماً أن ملك صور هنا الملك سليمان على قراره بمجاراة الاجراءات والايديولوجيات السياسية المعتادة، خصوصاً وأن الملك الصوري كان على صواب عندما توقع ربحاً كبيراً من اسهامه في مواد البناء والعمال المهرة. والواقع أن الموارد الاقتصادية للمملكة كانت قد استنفدت بحيث اضطر سليمان إلى التخلي لملك صور عن اراضٍ بدلاً من سداد ثمن مواد البناء، وهي صفقة ريبا زادت من تقدير الملك الصوري لحكمة سليمان (الملوك الأول ٩: ١٢-١٣).

لقد اسفر الانفاق الهائل على التحصينات والمركبات العسكرية، اضافة إلى برنامج البناء الفخم، عن استنفاد كبير لأموال الخزانة الملكية اتضح بشكل خاص بالتخلي عن الاراضي على الوجه الذي مر ذكره. وربما كان اهم من ذلك، على اية حال، ان سليمان، على الرغم من الاكثار من بناء المركبات الحربية، لم يكن قادراً على الاحتفاظ بالسيطرة على المملكة المترامية الأطراف التي ورثها. وهكذا فان الإيرادات التي كانت تأتي من ذلك المصدر توقفت. وقد يكون انفصال أدوم وموآب قد تم في اواخر عهده فقط؛ اننا ببساطة تعوزنا الدلائل على التسلسل التاريخي للعملية، فنحن نعرف وقائع فقط. وبغض النظر عن هذا،

* ملائكة من الطبقة الثانية (على صورة طفل بجناحين) - المترجم.

** ملائكة من الطبقة الاولى (الحارسين عرش الله). ولها ثلاثة ازواج من الأجنحة - المترجم.

فان افكار الخزنة الملكية يجب أن يؤخذ بجديّة بوصفه السبب الرئيسي للسياسة الحافلة بالكوارث التي اتبعها ابنه وخلفه رحبعام ، وهي التي ادت حتى إلى ضياع القبائل الاسرائيلية الشمالية . وهذا الحدث انتهت مزاعم العظمة التي احاطت بامبراطورية داود ، مع أنه يبدو أن بعض العناصر في المجتمع كان لها حين دائم للايام الطيبة القديمة عندما كانت القدس تُحكّم في أبهة ومجد . ومن الواضح الآن أن ايام الامبراطورية لا يجمعها جامع والنشوء الاصلي للشعب الاسرائيلي ؛ لكنها كانت تشكل بالاحرى ردةً كاملة إلى الممارسات السياسية للشرق الادنى القديم ولايديولوجية العصر البرونزي المتأخر والتي ثبت إفلاسها اخلاقياً واقتصادياً قبل نهاية تلك الفترة من الزمن . والواقع أن الاسرة الحاكمة في القدس لم تكن حينها جاء ابن رحبعام إلى الحكم «اسرائيلية» الا بقدر ضئيل^(١) .

لقد أدت ممارسة الدبلوماسية عن طريق الزواج المختلط مع أسر ملكية مختلفة وقادة اجتماعيين مهمين إلى تشكيل حريم ضخم للملك سليمان ، كما ادت - على حد ما ورد في مصادر الكتاب المقدس - إلى بناء هياكل كثيرة لألهة هذه الدول الاجنبية في ضواحي القدس . ومع أن الشكل الحالي لهذه الروايات المتواترة لا يشير الا اشارة عابرة إلى هذه الهياكل الوثنية فان وعودها دليل كافٍ على طبيعة تعدد الآلهة في مجتمع القدس منذ هذا الوقت فصاعداً . فالقدس كغيرها من المدن الكنعانية في هذا الوقت كانت مركزاً حضرياً كوزمو بوليتانياً كانت فيه السياسة لا الاخلاق الدينية هي السائدة في عملية اتخاذ القرار . وابتداءً من سليمان لم يجد صانعو القرار هؤلاء في التراث الديني النبوي الذي يرجع إلى بعثة موسى ورسالته فائدة تُرجى اكثر مما وجد فيه ملوك المدن وسكانها الآخرون . لقد اصبح إله الانبياء ببساطة بعلا آخر لم تكن له من وظيفة سوى تقديم الدعم الايديولوجي لسُلطة النظام السياسي .

الانشقاق العظيم

لقد بدد الملك سليمان ثروة الامبراطورية على برامج بنائه الطموحة والمتسمة بجنون العظمة وعلى توسيع مؤسسته العسكرية وصناعة المركبات الحربية وبناء التحصينات وما شابه ذلك من امور تعدل برامج البناء في ارتفاع الكلفة . ومن الغريب ان سليمان على الرغم من بناء القوة العسكرية لم يستطع الاحتفاظ بالسيطرة على امبراطوريته الموروثة . وعند نهاية

حكيمه كانت معظم الاراضي الواقعة تحت السيطرة قد استردت استقلالها وحتى الوطن القبلي القديم لم يخلُ من المشاكلات . إن التنفير المتزايد للقاعدة السكانية في القرى من اعضاء النخبة الحاكمة المتعجرفة والمتسلطة الذين كانوا، إذا كانوا على الاطلاق، موحدين بالاسم فقط، وصل إلى نتيجته الطبيعية (التي يمكن التنبؤ بها) بحماقة الملك رجبعام .

إن خسارة الدخل من الامبراطورية أعطت رجبعام خيارين لا ثالث لهما . فقد كان بوسعها أن يخفض عبء الضرائب على رعاياه، وهذا يعني بصورة لا مفر منها خفض مستوى المعيشة بالنسبة للمؤسسة الملكية والتخلي بصورة دائمة عن الطموح إلى إعادة تأسيس امبرالية جدّه القديمة . ومن النادر في التاريخ أن يلجأ ملك حاكم إلى سلوك طريق كهذا حتى وإن كانت الخيارات الاخرى محفوفة بالكوارث على نحو يمكن التنبؤ به . وليس مما يدهش أن رجبعام رفض نصيحة رجال حاشيته الاكبر سناً والاكثر حكمةً . وبدلاً من ذلك اتبع نصائح مستشاريه المتشددين الأصغر سناً الذين رأوا حق الرؤية أن تخفيض الضرائب كان يعنى تقليصاً شديداً في الفرص المالية والسياسية المتاحة لهم كجزء من البيروقراطية السياسية / العسكرية .

وكانت النتيجة تخفيضاً فادحاً في الدخل، حتى اشد من ذلك، بالنسبة للخزنة الملكية لأن القبائل الشمالية الاكثر سكاناً وغنىً بكثير انفصلت تاركة رجبعام وليس له من الممتلكات سوى الجنوب (يهودا) وضواحي القدس نفسها (الملوك الاول ١٢) . وفضلاً عن ذلك كانت هناك، كما تقول القيود المكتوبة، حالة حرب دائمة بينه وبين منافسه يربعام الذي اتخذ لقب ملك اسرائيل . وهكذا فإن الايديولوجية السياسية التي أنهت حضارة العصر البرونزي المتأخر الكنعانية المزدهرة نسبياً كان لها التأثير نفسه عندما احياها الملك سليمان ؛ أو بالأحرى عندما استمر العمل بها في القدس دون أن تكيف الا تكيفاً ضئيلاً والتقاليد الدينية لسكان القرية الموحدون من اليهوديين .

إن الاندفاع نحو الهيمنة والسلطة كان يعني سلسلة مستمرة من الحروب المدمرة خارج حدود الدولتين الوثنيتين ؛ وكان هذا يعني بدوره افقاراً متزايداً للسكان المتجدين في الريف . ومع ذلك فإن البيئات الأثرية وكذلك النقوش تظهر لنا زيادة في السكان وفي الازدهار في جميع بلاد شرقي البحر الابيض المتوسط والمنطقة الداخلية خلال القرنين التاسع والثامن . كما أن الخروج من العصور المظلمة في القرن الثاني عشر حتى القرن العاشر شهد ايضاً

نهوض دول مزدهرة نسبياً كانت منشغلة على الدوام كالعادة في محاولة توسيع سيطرتها الاقليمية والاقتصادية على حساب جيرانها. والنتيجة الوحيدة كان سقوطها تحت السيطرة الاكثر تفوقاً إلى حد شاسع للامبراطورية الاشورية الناجحة.

القرن الثامن

خلال فترة الازدهار المتزايد في جميع انحاء المشرق شاركت القدس بوضوح والى حد ما في تلك العملية. وتشير البينات الاثرية إلى انه ما إن جاء القرن الثامن الا وكانت المدينة قد اتسعت إلى ما وراء الحدود الصغيرة لمدينة داود وسليمان إلى التل الغربي^(١٢). ونحن نعرف من انسجلات المكتوبة انه كانت هناك انتاجية متخصصة متواضعة على الاقل في المدينة (ويذكر في هذا الصدد سوق الخزافين). ولكن يبدو على العموم ان المدينة، كمدن اخرى كثيرة في عالم البحر الابيض المتوسط، كانت من حيث الجوهر مقرأ ملكياً وهيكلًا مع مرافق ذلك من موظفين مساندين ملتحقين بالبيروقراطية السياسية التي كانت تشمل بالطبع مؤسسة كهنوتية محكمة التفصيل.

وقد ساعدت المنافسات الدائمة بين الدول الصغيرة في المنطقة الدولة الامبريالية إلى الشرق مساعدة تامة. ومع انه قام ائتلاف يدعو إلى الدهشة في اواسط القرن التاسع ق. م. لمواجهة الزحف الاشوري واستطاع فيما يبدو تأخيره بصورة مؤقتة^(١٣)، الا ان الائتلاف كان سريع الزوال واصبحت الحرب المتجددة بعد زواله بوقت قصير هي القاعدة. ومع اننا نعرف القليل نسبياً عن هذه العملية، الا ما جاء عنها في صحائف الكتاب المقدس، فليس لدينا سبب للاعتقاد بأن التنافس السياسي البالي القديم نفسه كان يختلف عما كان عليه في اي مكان آخر.

وبعد ذلك بقرن من الزمان تحركت الامبراطورية الاشورية بلا رافة. وشُكِّل على عجل تحالف بين المتنافستين القديمتين اسرائيل وآرام إضافة إلى دولة اخرى لم يحدد مكانها بعد، وذلك سنة ٧٣٢. وهدد هؤلاء مجتمعين القدس لارغام نظام بني يهودا على الانضمام للائتلاف. وإذ تردّد آحاز في فعل ذلك، وداخله الرعب من التهديد فقد عرض الخضوع طوعاً للملك الاشوري باعتباره الخيار الوحيد، كما كان قد فعل مثل ذلك بالضبط ملك اسرائيل ياهو في القرن السابق (الملوك الثاني ١٦). وكما تنبأ النبي أشعيا تماماً (في نبوءة عمانوئيل الشهيرة، أشعيا ٧) فان اسرائيل والحكم الآرامي في دمشق لم يعد لهما وجود خلال

عشر سنوات، فقد دمرهما الآشوريون. ومع أن الرواية الواردة في التوراة تتردد على نحو مفهوم في الدخول كثيراً في التفاصيل فمن الواضح أن الخضوع لبلاد آشور قد نجم عنه تغيرات ثقافية كبيرة. ومن الصعب، إن لم يكن من المستحيل، أن نحدد ذلك الجزء من التغيرات الثقافية الكبيرة في أواخر القرن الثامن الذي يرجع إلى النفوذ الآشوري، لأن كثيراً من هذه التغيرات كانت تحدث كذلك في كثير من الأقاليم الأخرى. ومن الضروري أن نؤكد الحقيقة التي مؤداها أن ما نقرأه ونسمعه عن دولتي يهوذا وإسرائيل خلال العصر الحديدي بأكمله يمثل تمثيلاً صادقاً للتغيرات السياسية والثقافية المماثلة التي كانت تجري في كل مكان آخر في الإقليم الذي يتحدث اللغة السامية الغربية.

من الواضح أنه كانت هناك تغيرات مهمة في الأيديولوجية الدينية والممارسات التعبودية. وتذكر الحكاية التوراتية بشكل محدد المسرح ذا الطراز الآشوري الذي اقيم في هيكل القدس. وأكثر من ذلك فإنه يتضح من اتهامات الأنبياء أنه كان هنالك نمو هائل في شعبية العبادات التي تتعلق بالشمس والقمر ومجموعات النجوم؛ بيد أن هذه الظاهرة كانت فيما يبدو تعم عالم الحضارة، وهي توضح فقط أن أرسطراطية القدس كانت تحذو حذو الجيران.

لقد ثبت أن الاستسلام لآشور لم يكن ضرورياً؛ وكما تنبأ النبي أشعيا سقطت دمشق أولاً ثم سقطت إسرائيل فريسة للغضب الآشوري بعد محاولة التمرد العديمة الجدوى. ونحن لا ندهش إذا علمنا أن القدس قد أصبحت خلال عقد واحد من السنين، وفي عهد الملك الجديد حزقيا، مركزاً لتحالف جديد كان يطمح إلى الاستقلال عن الامبراطورية الآشورية. وفي سياق الاعداد للثورة الجديدة أمر حزقيا بحفر القناة الشهيرة التي حولت مياه عين ستنا مريم إلى بركة سلوان التي كانت حينئذ داخل سور المدينة. وكما تنبأ النبي أيضاً (أشعيا ١ : ١ - ٢٣) كانت النتيجة كارثة. فبعد تدمير واسع النطاق للريف وحصار طويل للمدينة اضطر حزقيا إلى الاستسلام بدفع مبلغ ضخم من الذهب والفضة تذكر مقداره كل من الروايتين التوراتية والآشورية (الرواية الآشورية تجعل هذا المقدار أكبر بكثير).

وربما بسبب هذه الكارثة الاقتصادية والسياسية قام الملك بالمحاولة الثانية من محاولتين استهدفنا الإصلاح الديني والسياسي؛ المحاولة الأولى كانت محاولة يهوشافاط التي جاءت بعد المحاولة التي قام بها عثليا لتحويل الدولة إلى عبادة بعل دفعة واحدة على منوال أخاب

وايزابيل Jezebel ، وهي انقلاب سياسي اوشك على إفناء اسرة داود (الملك الثاني ١١) .
وقد جرى وصف اصلاح حزقيا بصورة اكثر تفصيلاً ؛ لكن يبدو أن اثره الدائم كان قليلاً ،
اللهم الا باعتباره حدثاً مصيرياً ساد لاجيال الايديولوجية الدينية للدولة .

وعلى الرغم من عدم توافر أية بينات قوية يمكن في ضوءها أن نعيد بناء الاحداث في
السنوات الأخيرة من حكم حزقيا ، فلا يكاد يكون هناك شك في أن القدس قد شهدت نوعاً
من الخلاص المعجز من حصار اشوري^(١٤) . ومن المؤكد تقريباً أن ذلك قد حدث بسبب
تفشي وباء في الجيش الأشوري ؛ الأمر الذي فسّر طبعاً بأنه تدخل إلهي من اجل الملك
التقي الان حزقيا . وقد كان هذا باعثاً على التأكيد بان يهوه لن يسمح بتدمير مدينته المقدسة
وهيكله . وكانت النتيجة بعيدة المدى لأن هذا المبدأ - مبدأ «حصانة صهيون غير القابلة
للالتهالك» - اعطى الساسة اللاحقين في القدس احساساً كاذباً بالأمن^(١٥) . وقد عزز بقوة
الفكرة القائلة بأن الاله يهوه لم يَكُنْ سوى بعلٍ / الحامي للدولة الصغيرة . ولا ندهش بعد
هذا إذا كان ساسة القدس قد عجزوا عن ايجاد سياسة تنسجم مع الرفاه الاجتماعي بله مع
استمرار بقاء الدولة .

القرن السابع

اتسم النصف الاول من القرن تقريباً بحكم منسى الذي لا بد أنه كان ، وفق
المصادر التي مبنى أيدينا ، اسوأ ملك حكم القدس على الاطلاق . وتتضح الانقسامات
الداخلية العميقة في المدينة نفسها من الحقيقة التي مؤداها أن الملك شعر بوضوح بضرورة
ملء «المدينة بالدماء» مع أننا لا نملك لسوء الحظ معلومات حول القضايا التي دفعت الملك
إلى اتخاذ اجراء كهذا . وتشير الاحداث اللاحقة بقوة إلى أن صراعاً حاداً كان يجري على
السلطة ؛ وهو امر كثيراً ما يرافق المغالاة في الأمن . ويبدو أن خلال حكمه الذي استمر من
حوالي ٦٨٢ إلى ٦٤٢ لم تكد تجري محاولة واحدة للثورة على الهيمنة الاشورية . ومن الممكن
تماماً أن هذه هي القضية التي انقسم حولها الزعماء العبريون في المدينة .

عند موت منسى تلاه على العرش ابنه أمون ولكنه اغتيل خلال سنة او قريباً من ذلك
على يد بعض موظفيه . إن الروايات حول هذه الفترة مشوشة وتبعث على التشويش ؛ ولكن
يبدو أن أمون واصل سياسات أبيه في عدم المجازفة بتحدي السلطة الأشورية الساحقة .
ولا شك أن الصقور المتعصبين في حاشيته كانوا يريدون ان يحدوا حذو مصر التي اصبحت

مستقلة قبل ذلك التاريخ بحوالي خمس وعشرين سنة. وكان العقدان التاليان من اهم الفترات في التاريخ التوراتي منذ موسى لانها جلبا معها تطورات قررت إلى حد كبير مستقبل التقاليد التوراتية برمتها.

اصلاح يوشيا

عند اغتيال أمون (وهو الثالث فقط في خلال الأربعمئة سنة التي مرت على تاريخ نظام القدس) حدثت تغيرات مهمة للغاية في توازن القوى في الداخل. فللمرة الاولى تدخل «اهل الارض»* في الشؤون الملكية وقتلوا تلك الجماعة من البيروقراطيين الذين كانوا مسئولين عن موت أمون (الملوك الثاني ٢١ : ١٩-٢٦). إن تعبير «اهل الارض» يشير بلا شك إلى سكان الريف بالمقابلة مع سكان المدينة الملكية الذين كانوا إلى حد كبير هم المؤسسة السياسية إضافة إلى الاشخاص المساندين الضروريين. وإذا كان تعبير «اهل الارض» يشير إلى اصحاب الاراضي الكبار الاغنياء بشكل خاص، كما نحن البعض، ام لا فهذه مشكلة لا يمكن حلها، وربما لا يكون لها علاقة بالاحداث اللاحقة.

كان الوريث على العرش، يوشيا، في هذا الوقت (٦٤٢ ق.م) صيباً عمره ثماني سنوات، وهكذا وضع الملك في يدي عمه حتى بلغ سن الرشد. وفي هذا الوقت (حوالي ٦٣٠ ق.م.) كان العالم المتمدن، كما عرف طوال قرون عديدة، قد اشرف على نهايته. ومن الجدير بالتأمل أن النخبة الحاكمة في جميع انحاء العالم المتمدن شعرت بأن النهاية كانت قريبة. فمن مصر إلى بلاد ما بين النهرين كانت هناك محاولات للإمساك من جديد «بأعجاد» ماضٍ وهي إلى حد بعيد أسبغت عليه المثالية. إن هذه المحاولات المتسمة بالحنين لاسترداد ماضٍ زائف إلى حد بعيد واعادة تكوينه هي من سمات فترات الانحطاط على مدى التاريخ الإنساني. وتاريخ القدس والحكم فيها في هذه الفترة هو انعكاس، من جديد، لتطورات ثقافية مشابهة في جميع انحاء العالم المتمدن. إن هذه التركيبة كلها لما كان يسميه العلماء «الشرق الادنى القديم» كانت تقترب بسرعة من خاتمتها في توالٍ سريع لحروب امبريالية خلال القرن اللاحق ادى إلى اصابة معظم المجتمعات بالاعياء والإفقار، واصبحت كثير من المناطق محرومة من السكان.

* هذا التعبير يرد في نص الطبري للعهد العبري - المترجم.

اولا وقبل كل شيء كان انهيار الامبراطورية الاشورية . ففي حوالي سنة ٦٣٠ ، عندما بدأ يوشيا بحكم بناءً على حقه الشخصي : كانت السيطرة الاشورية على الغرب قد ذهبت او انها كانت تضعف بسرعة . وكانت هذه فرصة لتأسيس «الماضي الجيد» من جديد، الماضي الذي لم يكن ليعني سوى امبراطورية داود وسليمان . لقد ترك انهيار السلطة الامبريالية الاشورية فراغاً في السلطة في شمالي فلسطين بدأ يوشيا في الاستيلاء عليه بسرعة . وهكذا وفرت صُدف التاريخ الفرصة للانشغال مرةً أخرى في مطامع امبريالية تدفعها ايدولوجية تاريخية تشبه ما كان يحدث في جميع انحاء العالم الوثني القديم .

ولا شك أن هذه الرحلة القصيرة إلى الامبريالية ما كانت لتنجز أكثر مما كان حقيقياً بدولة سورية فلسطينية أخرى في ذلك الوقت لولا صدفة أخرى من صدف التاريخ أكثر أهمية بكثير . فكجزء من هذا الحنين إلى الأجداد الماضية بدأ يوشيا حملة لإعمار الهيكل السليمانى وتجديده وهو الذي لا بد أنه أصبح بعد حوالي ثلاثة قرون في وضع سيء نوعاً ما . وكان في الهيكل صندوق للهبات اعتاد الاتقياء من الزوار ان يضعوا هباتهم للهيكل فيه . وعندما اخرجت النقود حوالي سنة ٦٢٢ عثر في الصندوق على دَرَجٍ للتوراة لُفَّتت اليه انظار الملك وتلي عليه . وكانت الاستجابة الملكية متطرفة . ويشير هذا بلا شك إلى أن محتوى الدرج التوراتي كان مجهولاً لديه تماماً، ويتناقض مع كل ما كان يعتقد حتى ذلك التاريخ .

منذ القرن التاسع عشر كانت هناك درجة كبيرة من الاتفاق بين العلماء على أن دَرَج التوراة الذي وجد في الهيكل هو النموذج الاصيلي للاقسام القانونية في سفر التثنية ، خصوصاً الاصحاحات ١٢ - ٢٦ . إن التقليد القانوني المحفوظ في ذلك السفر هو بلا شك وصف متأخر لقواعد الاخلاق الدينية لاتحاد يهوه القديم الذي سبق تشكيل الملكية بزمن طويل . واقدم اشكاله محفوظ في سفر الخروج ٢١ - ٢٣ . وهناك اتفاق عام على أن هذا التقليد كله من تقاليد الشريعة أصله من الشمال . وما من شك كذلك في أن تلك القواعد السلوكية والاخلاقية المبنية على العرف كانت موضع التطبيق في يوم من الايام في دولة منظمة سياسياً^(١) . ولا شك أن ما اصاب يوشيا بصدمة هو اكتشافه أن التقليد اليهودي القديم لا يؤيد الفكرة التي تذهب إلى أن دعم يهوه للدولة والملك والشعب كان دعماً مطلقاً؛ بل إن استمرار الشعب والبلاد كان يعتمد بالاحرى اعتماداً مطلقاً على اطاعة الأمر الالهي كما وصَّفته «شريعة موسى» . وينطوي هذا على مفارقة كبيرة مع اللاهوت الاسري القديم الذي

أكد التزام يهوه السرمدي بالحفاظ على مملكة داود إلى الأبد في التوارث الاسري . (وقد جمعنا اشكال اللاهوت التالية التقليديين : الملك سيحكم إلى الأبد إذا كان تقياً في اطاعته «شريعة موسى» .)

وكانت النتيجة «اصلاح» يوشيا المشهور . إن حركة الاصلاح الديني من حيث التعريف هي عودة إلى تقاليد سابقة . . . محاولة لتحقيق نظام قيمي سابق واقامته . وهي تستتبع في الوقت نفسه رفض بعض ملامح النظام الرسمي القائم . والنظام القيمي يقرر اختيار تلك الملامح التي يتعين رفضها . وفي الوقت نفسه ينبغي التأكيد بأن إعادة إقامة النظام الغابر ليست في حيز الامكان . إن «التصور» المعاصر للماضي هو الذي يجعل على الدوام النموذج للاعمال الاصلاحية ؛ بيد أن الهيئة التي تقوم بالاصلاح تكون عادةً عاجزة عن ادراك امكانية وجود فارق كبير بين الماضي الحقيقي وبين افكارها عن ذلك الماضي . لكن المشكلة المستديمة للاصلاحات السياسية هي أن الهياكل السياسية لا تستطيع حقيقةً أن تخلق انظمة جديدة للقيم يجري العمل بها بين المواطنين . وكل ما تستطيع فعله هو اقرار عقوبات تتجه إلى تغيير اشكال السلوك ، وتعاقب تلك التي تكون بغیضة لدى النظام الذي يقوم بالاصلاح .

وتشير قائمة قوانين يوشيا الاصلاحية إلى نظام القيم الجاري العمل به :

١ . مع أن التسلسل الزمني للقوانين الملكية المختلفة غير مؤكد فيبدو واضحاً أن سلسلة الاحداث تبدأ باصلاح الهيكل ، وذلك انه في اثناء هذه العملية تم اكتشاف «كتاب الشريعة» .

٢ . إن سن القانون - اي العملية التي اصبح كتاب الشريعة بمقتضاها قانوناً للبلاد - تم من خلال ميثاق مهيب . وقد نشأت المبادرة عن الملك نفسه ولكن انضم اليها السكان باسرههم أو ممثلوهم . وقد حفظ هيكل الميثاق الموسوي القديم في سفر التثنية الذي اعيدت كتابته . ولكن من الواضح تماماً من النصوص القصصية أن هيكل الميثاق القديم اسيء فهمه تماماً . إن هدف الميثاق الان كان الأمل في تفادي الغضب الالهي الذي سينزل بهم جرأء خطايا الماضي . وهذه الفكرة الرئيسية الناشئة عن صيغة اللعنة / المباركة في هيكل الميثاق الممعن في القدم اصيحت سائدة من الآن فصاعداً ، على الرغم من احتجاجات الانبياء . وقد زيدت تفصيلاً فيما بعد في ميثاق عزرا ونحميا المشابه .

٣ . إن ما نشأ عن ذلك من ازالة لجميع معالم عبادات الشِّرك في القرون الخالية هو مؤشر جيد على أن الوثنية الشائعة لشعب سوريا وفلسطين كانت قد استوعبت ملكية القدس استيعاباً تاماً؛ فلم تكن هناك العشيرا Asherah فقط - وهي رمز لعبادة لا تُعرف طبيعته مع أنه من المؤكد انه كان بلاطة او عموداً حجرياً عليه نقش من نوع ما - بل كان هنالك ايضاً حشد من الاصنام الوثنية ومنشآت العبادة، بما في ذلك حتى اكشاك من نوع ما تستخدم بغايا العبادة في الهيكل نفسه . وبما هو مذكور ايضاً جياذ الشمس المؤهلة ومركباتها، التي تذكر بالاساطير اليونانية حول هيليوس Helios (إله الشمس) وركوبه اليومي في المركبة عبر السماء . كما وصف بشيء من الإطالة تدنيس المرتفعات المحلية وكذلك الهاوية Tophet حيث كان ارستقراطيو القدس، شأنهم شأن اولئك في قرطاج، يقرَّبون الفائض من ذريتهم إلى مولبخ Molech (؟) .

٤ . وقد تضمَّن تدمير منشآت العبادة الهياكل المكرسة لإلهة صيدا، وآلهة موآب وعمون والمذابح (ج مذبح) المرتبطة بالامبراطورية الاشورية؛ وقد كان لها جميعاً بلا شك معانٍ سياسية ضمنية، إما بالنسبة لعلاقات التكافؤ الدولية او للولاء السياسي إلى امبراطورية اجنبية . كانت اصلاحات يوشيا الدينية اولا وقبل كل شيء بياناً بأن الدولة السياسية يترتب عليها من الان فصاعداً الا تعترف بتعهدات او التزامات تجاه اي كيان سياسي آخر، وهي سياسة ادت في نهاية الامر إلى تدمير الدولة .

٥ . اما اكثر الاعمال وحشية وهمجية فقد ارتكبت ضد الاشخاص القائمين على خدمة العبادة في مملكة اسرائيل القديمة التي كان الاشوريون قد دمروها قبل قرن من الزمان . فالكهنة الذين كانوا يعملون في خدمة الهياكل المختلفة جرى قتلهم، واحرقت عظامهم على مذابحهم نفسها . وفي المقابل فان كهنة مملكة يهودا ازبحوا من مناصبهم فقط، ودمرت هياكلهم . والظاهر أن اسماهم وضعت على جدول الرواتب الملكية، مع انه لم يعد في وسعهم أن يعملوا كهنة في هيكل القدس . (ولا شك أن المؤسسة الكهنوتية في القدس قد تدبَّرت هذا الامر.)

وإذا اضفنا هذا الذبح لرجال العبادة إلى مَرَكزة العبادة في هيكل القدس يتضح لنا أن اصلاحات يوشيا المزعومة كانت في الواقع استغلالاً نموذجياً لتقاليد دينية لتوطيد سيطرته السياسية . فقد كان تدمير مراكز الطقوس الدينية يعني محو اساس العبادة للطوائف المحلية

وتماسكها المحلي . وبما أن مملكة اسرائيل الشمالية وسكانها لم يعترفوا بنظام الحكم المقدسي منذ زمن سليمان فان اشكال التضامن في الشمال كانت ستصطدم بصورة لا مفر منها بطموحات يوشيا إلى تأسيس امبراطورية داود من جديد .

ان اعتبار الطموح السياسي وضيق الافق هذا والتقاليد الموسوية النبوية شيئاً واحداً يقدم نموذجاً لتحالفات كهذه لا حصر لها بين الدين والسياسة في آلاف تالية من النسنين . وقد وصف مؤرخ سفر التثنية النتيجة بشكل مقتضب للغاية : « في ايامه صعد فرعون نحو ملك مصر على ملك آشور إلى نهر الفرات ، فصعد الملك يوشيا للقائه فقتله في مجدو حين رآه . » (الملوك الثاني ٢٣ : ٢٨ وما يلي ذلك) .

تدمير القدس

إن النهاية التي جاءت في غير اوانها لهذا الملك الذي كان على الأرجح ، رغم طموحه ، افضل من معظم الملوك الذين سبقوه (والذين تلوه) احاطت حركة الاصلاح باسرها ، فيما هو واضح ، بسمعة سيئة . ويتضح من احتجاجات الانبياء واداناتهم المستمرة أن انقاذ المملكة نفسها بات متعذراً . ولم يمض وقت طويل على تحقق نبوءات الانبياء هذه بالخراب المحتوم بفضل عجز الطبقات الحاكمة عن الاعتقاد بأن الأمن يمكن تحقيقه بأي سبيل من السبل غير استعداداتهم العسكرية وبجهودهم الشعائرية المرتبطة بالهيكل . وكالعادة فإن ذوي البصائر الاعمق من امثال أرمياء غامروا بحياتهم ، وقد تم تجاهلهم وازدراؤهم ببساطة في احسن الاحوال .^(١٧) ومن الواضح مرة ثانية أن الاسرة المالكة والمؤسسة السياسية لم تجد سوى جدوى قليلة او لم تجد جدوى على الاطلاق في الدين النبوي الحقيقي النابع من موسى ومن ميثاق سيناء .

لقد ادى النزوع إلى السيطرة أولاً إلى الاخضاع التام من جانب مصر ثم من جانب بابل . وفرضت غرامة فادحة على الدولة الصغيرة مما ادى بلا ريب إلى زيادة السخط على الهيمنة الأجنبية ، وإلى الاستعداد الناشيء عن ذلك للمقاومة بكل شيء في املهم العقيم لنيل الاستقلال . واجلس « اهل الارض » مرة اخرى يواحاز على العرش ، ولكن نحو فرعون مصر ، عزله بعد ثلاثة أشهر وأخذه اسيراً إلى مصر . واجلس نحو اخاه الاكبر يوياقيم (Jehoiakem) ، على العرش . وظاهر انه كان طيعاً في دفع الإتاوة إلى ولي نعمته . وهزيمة نحو على يد نبوخذ نصر صار يوياقيم تابعاً يدفع الإتاوة إلى الامبراطورية البابلية كما

كانت تفعل جميع البلدان من حدود سيناء إلى نهر الفرات . وبعد ثلاث سنوات ثار بوياقيم وهاجمه الكلدانيون والأراميون والمؤابيون والعمونيون . وقبل أن يستطيع نبوخذ نصر ارسال جيشه لاختاد العصيان مات بوياقيم وجاء إلى العرش ابنه يويakin لمدة ثلاثة اشهر، وحاصر جيش بابل المدينة فسلم إلى نبوخذ نصر. ويحتمل أن ذلك كان سنة ٥٩٦ ق.م.

ويسود المصادر التشويش فيما يتعلق بعدد الاشخاص الذين تم اسرهم وترحيلهم إلى بلاد ما بين النهرين على يد البابليين في هذه المناسبة . وتراوح الاعداد ما بين ١٠,٠٠٠ (الملك الشافي ١٦:٢٤) و ٣,٠٢٣ (ارمياء ٥٢:٢٨). على أنه يتضح من الوصف أن النظام البابلي كان ينوي نزع سلاح القدس ويهودا وإزالة العسكريين (الرجال الاقوياء ذوي الشجاعة) والحدادين الذين يستطيعون صنع السلاح ورجال الادارة السياسية، بمن فيهم الملك وموظفوه. ومن الطبيعي أن الموارد اللازمة للقيام بالحرب ازيلت ايضاً: الخزنة الملكية وكنوز الهيكل . وقد أتبعت هذه المحاولة لانزال العقوبة وكذلك لازالة امكانية العصيان ومغرياته الاجراءات القياسية التي اقتضاها العرف في الامبراطوريات القديمة . وكما حذر الانبياء تكراراً فان نتائج هذا الاعتماد الأحمق على الحرب كان يمكن التنبؤ بها بصورة كاملة . ولا يبدو أن النظام البابلي كان متعطشاً للدماء على اية حال . وليس لدينا في هذه المناسبة على الاقل اي تلميح إلى اعدامات جماعية، ربما لأن المدينة استسلمت طوعاً .

ومن الغريب أن هذه التجربة لم تعلم دروساً . فإن صدقياً الإبن الثالث ليوشيا وعم يويakin أجلس على العرش، وثار ايضاً في السنة الثامنة من حكمه على الاقل . وحوصرت القدس لمدة سنة ونصف من السنة التاسعة حتى السنة الحادية عشرة من حكمه . وتغير السور في شهر آب / اغسطس ٥٨٦ ق.م . وهرب الملك وجيشه في اتجاه شرق الاردن؛ ولكن الملك اسر قرب اريحا وأخذ للحكم عليه إلى نبوخذ نصر الذي كان في ذلك الوقت في ربله Riblah بمكان ما في سوريا الغربية . ويبدو غريباً أن ابناء صدقياً قد اعدموا بحضوره؛ بينما قلعت عيناه فقط وأرسل في السلاسل إلى بابل .

وقرر نبوخذ نصر تدمير المدينة تدميراً كاملاً . وبعد شهر من سقوط المدينة وصل احد ضباط الجيش الكبار لإحراق القصر والهيكل وجميع البيوت الكبيرة في القدس . وأخذ الكاهن الأعلى والضباط العسكريون وخمسة اعضاء في المجلس الملكي وموظفون مختلفون آخرون من ذوي الرتب العالية إلى ربله حيث اعدموا . وتم ترحيل باقي السكان العبريين

في القدس الى بابل تاركين وراءهم فقط «مساكين الارض، كرامين وفلاحين» (الملوك الثاني ٢٥ : ١٢).

ونصب البابليون جدلياً حفيد كاتب الملك الذي قرأ «سفر الشريعة» للملك يوشيا حادثاً على من بقي من السكان. وظاهر أن القدس تركت غير صالحة للسكن، لأن مقر الحاكم كان في المصفاة Mizpeh التي يعتقد بأنها تل النصب، قرب الجيب. وبدأت بقايا الجيش اليهودي القديم في يهودا وفي شرق الاردن، حيث هربوا مع غيرهم من عناصر السكان غير العبريين، في الرجوع. ولكن بعد حوالي اربع سنوات حضر سليل للأسرة المالكة كان قد هرب الى ربة عمون مع كتيبة من الجنود وقتل جدلياً وكثيراً من افراد حاشيته. وعلى الاثر فر معظم النشطاء السياسيين إلى مصر طلباً للنجاة من انتقام البابليين، مع أن التبعة في حوادث القتل هذه كانت تقع على عاتق حوالي تسعة اشخاص فقط. وهنا تصبح احوال القدس وما جاورها مجهولة تماماً تقريباً بالنسبة لنا. إن المدى الذي أفرغت فيه يهودا من السكان هو موضع نقاش. ولا شك انه بقي بعض السكان في المنطقة. ويبدو أن بعض الاشارات التوراتية تؤيد التأكيد بأن سكان الصحراء من سيناء او جنوب شرق الاردن تسربوا إلى يهودا، ولكن لدينا القليل جداً من البيئات الصلبة بهذا الشأن. وكما كانت السياسة الثابتة للامبراطوريات القديمة منذ ايام الحثيين في العصر البرونزي المتأخر على الاقل فان تدمير الدولة السياسية واعداد قادتها ادى إلى اثناء ملكية يهودا ككيان سياسي. وهو لم ينة التقاليد الدينية؛ بل بالعكس تماماً. فإن الجيلين الذين تلوا تدمير القدس كانا اكثر الاجيال ابداعاً وتأثيراً في الفكر والإخصاب الديني منذ ايام موسى وصموئيل. إن اكتشاف التقاليد الموسوية من جديد وتكييفها وفق الظروف الجديدة، متحررة من الايديولوجية الاجتماعية السياسية للوثنية القديمة هو من اكبر التطورات اللافتة للنظر في تاريخ الدين. ولكن وصف تلك العملية يقع خارج نطاق اهداف هذه المقالة.

العودة من السبي

لقد دأب الانبياء، خصوصاً بعد سقوط القدس وسبي معظم السكان، على التنبؤ بالعودة من السبي واعادة بناء المدينة والمجتمع. وجاءت الفرصة باستيلاء ملك الفرس كورش على بابل وامبراطوريتها سنة ٥٣٩ ق. م. ويتضح من عدة مصادر أن سياسة الفرس السياسية كانت نقيضاً للمحاولات السابقة من جانب الامبراطوريات التي استهدفت بسط

سيطرته عن طريق السبي التآديبي للسكان الثائرين . فقد اعاد كورش صور العديد من الالهة التي استولى عليها إلى اوطانها^(١٨) . وفي حالة اليهود اصدر كورش مرسوماً يأذن لليهود بالعودة إلى القدس ويهودا (١ : ٢-٤) . وفي الوقت نفسه صدر توجيه محدد باعادة بناء الهيكل في القدس وتم تسليم خزنة الهيكل التي كان نبوخذ نصر قد اخذها إلى شيشبصر رئيس يهودا الذي عينه الملك الفارسي ، كما هو واضح ، حاكماً .

وتسجل المصادر التي لدينا أن حوالي خمسين ألفاً من السكان من مختلف الاصناف عادوا من السبي ، مع التسليم بصورة عامة بأن القائمة ربما تضم الكثير مما يعود إلى فترة أخرى . ويعزز هذا قائمة الممتلكات والمواشي الواردة في عزرا . وعلى اية حال فاذا كانت قائمة السلع تعكس الفترة التي سبقت اعادة بناء الهيكل فيتضح أن العائدين لم يكونوا في حالة فقر على الاطلاق . ومن جهة أخرى يتضح بالقدر نفسه أنه كان هناك تفاوت اقتصادي ضخم في المجتمع المعاد . فقد واصلت الارستقراطية الملكية والدينية القديمة بوضوح اساليبها القديمة ، ولكن مع اختفاء زربابل تركت الاسرة المالكة دون دعم مؤسسي ، واختفت تدريجياً كعنصر سياسي فعال . وملاّت الفراغ عائلات الكهنة التي اصبحت السلطة السياسية الفعالة في المجتمع .

هناك في قائمة الاحصاءات مُدخّل من المدخلات الفائقة الطرافة والاهمية ؛ إذ يذكر المُدخّل جماعة لم تستطع اثبات اصلها ، «فيا إذا كانوا ينتمون إلى اسرائيل» ، لأن هناك بينات أخرى بأن الدين النبوي التوحيدي قد اجتذب [مهمتين] في بلاد ما بين النهرين وغيرها في فترة السبي .

إن اعادة بناء الهيكل لم تسر بسلاسة . فبعد ارساء القواعد طالب السكان الموجودون في فلسطين بالمشاركة في العمل ، «لاننا نعبد إلهكم كما تعبدونه» ؛ ولكنهم ردّوا باحتقار . واننا لنجد مفارقة صارخة بين ضيق افق القيادة وتفاهتها وبين رؤيا اشعيا النبوية ٤٠ - ٦٦ ، نبي السبي الذي لولا ذلك لما كان معروفاً ، وهي الرؤيا التي توقع فيها أن يعمّ الخلاص الإلهي الارض حتى اقصيها (اشعيا ٤٩ : ٦) . ويقدم لنا سفر يونس الصغير ايضاً حكاية رمزية يبدو أنها تسخر باولئك (هل بينهم انبياء؟) الذين اتسموا بضيق افق كهذا . ولا ندهش إذا كان السكان المحليون الموجودون في البلاد قد اصبحو معادين ونجحوا في ايقاف اعمال البناء مؤقتاً . ولم ينته بناء الهيكل بصورة نهائية الا في سنة ٥١٦ ، بعد أن اكد بحث امر داريوس

باجرائه في السجلات أن الملك كورش قد امر بالفعل ببناء الهيكل وبأن تدفع الخزينة الامبراطورية الفارسية نفقات بنائه (عزرا ٦ : ٦ - ١٢). واكثر من ذلك، فحتى كلفة الحيوانات اللازمة للطقوس اليومية كانت ستدفعها الايرادات الملكية، في مقابل الدعاء «بحياة الملك وابنائاه».

وفي هذه الاثناء وقعت احداث أخرى لا نجد لها وصفاً شافياً في المصادر. فعند وفاة قمبيز سنة ٥٢٢ عمّت الثورة ارجاء الامبراطورية. ويبدو من المؤكد أن الحكم القائم في القدس ظن الاستقلال ممكناً، فقد اعلن النبي حَاجِي (Haggai) زُرُّ بَابِل «مختار» يهوه بكلمات تظهر فيها المطامح الملكية إن لم تكن الامبراطورية. وهذا يصدق بشكل خاص لأن النبوءة نفسها تنبأت بانقلاب «كرسي المالك»؛ وهو امر لم يحدث مطلقاً. وكانت رسائل الانبياء بعد السبي بصورة عامة عكس رسائلهم قبله. وربما كان هذا هو السبب في أن النبوءة تلاشت بسرعة إلى أن ظهرت من جديد لوقت قصير مع مجيء النصرانية.

هذه هي الاشارة الأخيرة إلى زُرُّ بَابِل الذي كان بالفعل سليلاً لاسرة داود. ولا نعرف مطلقاً ما حدث له؛ ولكننا نشبهه بأن هذا الطموح المتأخر للامبراطورية لم يؤد إلى نتيجة طيبة. إن التقاليد الملكية القديمة ماتت بعد نضال مريب ولكنها تحولت عبر القرون إلى توقع رؤيوي لتدخل إلهي في التاريخ بارسال مسيح Messiah (ممسوح بالزيت) يقيم السلام والعدل في الارض.

إصلاح عزرا ونحميا

إن مصادر هذا الحدث (او الاحداث؟) الذي وقع بعد حوالي قرن مشوشة وتبعث على التشويش بحيث لم يتسن الوصول إلى اجماع في الرأي حول التسلسل الزمني. وليس التاريخ ذا أهمية كبيرة بالنسبة لغرضنا الحالي لأن الخلاصة الرئيسية لما حدث والنتائج المستقبلية واضحة بصورة معقولة. فقد ارسل الملك أرتخشستا كلاً من نحميا وعزرا إلى القدس بأوامر ملكية واموال سخية، حسب الروايات التي لدينا.

اما الوضع في القدس فواضح انه كان يبعث على الكآبة. ومع أن الهيكل قد اعيد بناؤه واقامت الشعائر فيه من جديد فان مستوى الحياة الدينية والثقافية وصف بانها منخفضة جداً (مَلْخِي Malachi). وكانت اسوار المدينة ما تزال خراباً. وكان الشعب حسب قول

نحميا (٧ : ٤) « قليلاً في وسطها ولم تكن البيوت قد بنيت بعد ». والارجح أن قلة من الناس عاشوا في المدينة فيما عدا رجال الهيكل وربما افراد حاشية الحاكم . ويذكر نحميا على وجه التحديد (نحميا ١١ : ١-٢) أن رؤساء الشعب (شاريم + šarim) سكنوا هناك . «والقى سائر الشعب قُرْعاً ليأتوا بواحد من عشرة للسكنى في اورشليم مدينة القدس وبارك الشعب جميع القوم الذين انتدبوا للسكنى في اورشليم . » وهناك إشارة (نحميا ١٣) إلى الصوريين الساكنين في المدينة والذين كانوا يأتون بالسّمك وكل بضاعة ويبيعون في السبت . وبدأ نحميا العمل في مهمة سريعة للغاية لإعادة بناء الاسوار في اثنين وخمسين يوماً وبناء الابواب لمراقبة الداخلين إلى المدينة . واثار هذا المشروع عداوة حادة عند جيرانهم الذين ادركوا تمام الادراك أن تحصين المدينة يعني ادعاءات بالسيطرة السياسية وثورة في حالة الكمون ضد الامبراطورية .

ويتضح تمام الوضوح للمرة الثانية أنه كان ثمة صراع على السلطة بداخل المجتمع المعاد . وهناك اشارات متكررة إلى اشخاص حتى داخل طبقة الكهان نفسها كانت تربطهم علاقات وثيقة باشخاص في الخارج يشملون حتى سنبلط السامري الذي قدّم بوصفه من اخطر خصوم نحميا . وفضلاً عن ذلك كان لا بد من اتخاذ اجراءات للسيطرة على جشع الاغنياء في المجتمع الذين لم يكونوا يتورعون عن شيء وكانوا يضعون ايديهم على ابناء المساكين وبناتهم وحقوقهم وكرومهم إذا عجزوا عن سداد القروض مع الربا إلى اغنياء اليهود (نحميا ، ٥) . وقد استحلف نحميا كحاكم ، وبتأييد شعبي كبير بلا شك ، المقرضين الذين وصفوا بالعظماء والولاة بالامتناع عن اخذ الربا . وكان هذا ممنوعاً من قبل بمقتضى مجموعة الشريعة الاقدم في التوراة (الخروج ٢٢ : ٢٥) . ولكن ذلك كان كلاماً ميتاً لا حياة فيه بقدر ما كان الامر يتعلق بالاعراف السائدة في المدن ، ربما منذ زمن سليمان على الاقل . ولم يكن هذا مطبقاً على الاطلاق في المدن الوثنية القديمة التي دمجها داود في امبراطوريته .

إن أهم حادث بما لا يقاس في هذه الحركة الاصلاحية يصفه لنا سفر نحميا ٨ - ١٠ ، وهو العهد الذي قطعه الشعب على نفسه باتباع شريعة الله التي أنزلت على موسى . لقد قرر هذا الحادث مستقبل اليهودية ؛ إذ جعل شريعة مكتوبة معياراً لسلوك المجتمع . ومن خصائص الامور اننا لا نجد تلميحاً حول المحتوى الدقيق للشريعة المكتوبة التي قرأها عزرا الكاتب وفسرها اللاويون للناس المجتمعين «من الصباح إلى نصف النهار» (نحميا ٨ : ٣) .

واما إذا كان ما قريء امام الناس هو سفر التثنية او شريعة الكهان او اسفار موسى الخمسة كلها او لا شيء من هذه التي ذكرت اعلاه مما وصل اليها في شكله الحالي فهذه قضية لن نجد لها، فيما هو محتمل، جواباً شافياً على الاطلاق. إن الباعث على هذا القسم المهيب على طاعة الشريعة المكتوبة المستمدة من الماضي السحيق قد ذكر بوجه التحديد في نحما ٩ : ٣٨-٣٢. فهو يذكر صراحة أن غضب الله قد نزل عليهم لأنهم لم يعملوا بالشريعة ولذلك اصبحوا رعايا (عبداً) للملوك الذين جعلهم الله عليهم عقاباً لهم وذهبت غلاتهم لأولئك الملوك. إن هذا التوحيد في الهوية ما بين التقاليد الدينية وبين الطموح السياسي والمصلحة الاقتصادية الخالصة ما كان يمكن أن يذكر بجلاء اكثر من هذا. وفي المقابل كان التحذير الذي اطلقه النبي صموئيل ضد قيام الملكية يتضمن في المقام الأول أن ملكهم سوف يستولي (كما فعل بالفعل - لاحظ رجبعام) على اموالهم وحتى على نسلهم خدمة لغاياته الخاصة (صموئيل الأول ٨ : ١٠ والملوك الاول ١٢ : ٩ - ١٦).

إلا أن سنّ شريعة قديمة على هذا الوجه لم يكن كافياً لمعالجة هموم المجتمع. فقد كان العهد يتضمن عدداً من الالتزامات المحددة التي كانت إما غائبة في مجموعات الشريعة القديمة او كانت موجودة كتحذيرات عامة فقط. وكان في طليعة الاحكام الجديدة منع الزواج المختلط مع اولئك الذين هم خارج المجتمع. وحتى هذا لم يكن كافياً بالنسبة لضيق الافق الذي اتسم به كل من عزرا ونحميا. فكلاهما قضى بطلاق النساء غير اليهوديات وطبقه (اليهوية لم يكن لها دخل بذلك؛ وكل ما في الامر أن الهيئة المركزية للقانون ركزت على القدس). ولحسن حظ المجتمع وسلامته في المستقبل من حيث الوراثة فان القانون كثيراً ما كان يتم تجاهله بما فيه الكفاية لمنع الآثار المؤذية المترتبة على الاستيلاء الداخلي inbreeding، وكذلك فان دخول غير اليهود في المجتمع كان امراً مستديماً ايضاً. بيد أن منع الزواج من غير اليهود بقي عقيدة غيبية حتى الوقت الحاضر، وهو امر لا يمكن أن تكون له علاقة مطلقاً بذلك الشكل بالمجتمع الاصلي للدين الموسوي.

من الآن فصاعداً كان هناك توحيد منهجي لهوية المجتمع «الارثوذكسي» (القوم المعتقد) ونماذج السلوك المتعلقة بالشعائر الدينية والاقتصاد التي تمت المصادقة عليها بفضل تفسير المجموعات القانونية القديمة المعنة في القدم الان. وسرعان ما تركز الصراع حول السلطة على مشكلة ربط صيغ اللغة شبه القانونية التي مضى عليها الزمان بحقائق الحياة

اليومية. والارجح أن معظم الاشخاص المنهمكين في رتبة الانتاج اليومية والحياة العائلية ما كانت تشغلهم الا قليلاً حجج الكتاب العويصة وتعريفاتهم. وعلى اية حال فقد بقيت سلالة الصدوقيين الكهنوتية القديمة رئيسة للمجتمع. ولم ير هؤلاء كاكثر الناس العاديين كبير جدوى في تفاليد التوراة فيما عدا ذلك الجزء الذي يتعلق بطقوس الهيكل، قاعدة سلطتهم ومكانتهم.

وتتضح لا مبالاة هذه الارستقراطية الكهنوتية بالاخلاق والشريعة اليهودية من حادث وقع بعد زمن عزرا بوقت قصير: لقد اصبح يوحنا، حفيد الياشيب، وهو معاصر لعزرا، كاهناً اعلى؛ لكن اخاه، يشوع، تملق الحاكم الفارسي باغوز، الذي وعد يشوع بمنصب الكاهن الاعلى. واسفر الشجار الذي نشب في الهيكل نفسه عن قتل يشوع بيد الكاهن الاعلى^(١٩). ويقول يوسيفوس إن هذا قد اسفر عن ايقاع عقوبات على نظام القدس وعن استياء موقت في الامبراطورية الفارسية. ولا يبدو أن ذلك ترك أثراً دائماً على اية حال.

إن الفترة التالية من عزرا إلى زمن الثورة المكابية هي واحدة من اكثر الفترات غموضاً في تاريخ الرواية التوراتية المتواترة، ربما لخلوها من الاحداث المهمة في تاريخ المجتمع. ونحن نعرف أن هيئة الكهانة في القدس قد سمح لها باصدار نقد باسم «يهود»، تقليداً للعملة الفضية الشهيرة في أثينا. ونعرف أيضاً أن الثقافة الهيلنستية كانت تتخلل المجتمع اليهودي بصورة متزايدة، كما كانت تفعل في سائر انحاء الشرق الادنى. كانت المركبات الثقافية في الشرق الادنى القديم تتلاشى بسرعة في كل مكان، جنباً إلى جنب مع كثير من اللغات القديمة. ومن الاسئلة المثيرة للجدل إلى حد بعيد: إلى اي مدى ظلت اللغة العبرية التوراتية قيد الاستعمال بينما ادرك لغتها التوأم، الفينيقية، الانقراض إلا في المستعمرة الصورية القديمة في قرطاجة بشمال افريقيا؟ وقد اوضحت الأرامية بلاريب، خصوصاً تحت تأثير الامبراطورية الفارسية، اللغة المشتركة lingua franca لعالم الشرق الادنى كله.

ونستشهد بيو سفوس مرة أخرى^(٢٠)؛ فنقول إن كاهن القدس الاعلى رفض في البداية الخضوع للاسكندر الاكبر في سنة ٣٣٢ ق.م على اساس انه كان قد اقسم يمين الولاء لأخر ملوك الفرس داريوس الثالث. ويروي لنا يوسفوس حكاية خيالية حول احلام متبادلة اسفرت عن سماح الاسكندر للمجتمع (اليهودي) بان يحكم بمقتضى قوانينه الخاصة. وقد مدد هذا ليشمل ايضاً اليهود القاطنين في اي مكان في امبراطوريته. ومهما

كانت التفصيلات فهناك قليل من الشك في أن هذه كانت حقيقة تاريخية ذات أهمية خاصة فيها بعد؛ إذ إن الثورة المكابية قد نشأت عن هذا الوضع بصورة مباشرة.

المملكة المكابية

لقد تصدّعت امبراطورية الاسكندر الاكبر العظمى عند وفاته في سنة ٣٢٣ ق. م. ووقعت فلسطين تحت سيطرة البطلمة (البطالسة) في مصر، بينما حكم السلوقيون سوريا وبلاد ما بين النهرين. وخسر السلوقيون بلاد ما بين النهرين التي استولى عليها البارثيون في وسط القرن الثالث فأحالوا المملكة السلوقية إلى كسرة مما كانت عليه. وفي سنة ٢٠٠ نجح انطيوخوس الثالث (الكبير) في انتزاع السيطرة على فلسطين من البطلمة فوسع بذلك اراضيه. بيد أن ذلك لم يجده نفعاً لأن الجيش الروماني الذي ضم اليونان وجزءاً كبيراً من الاناضول شزّمه بعد ذلك بعشر سنوات، وفرض عليه مقابل الاحتفاظ بعرشه أن يدفع غرامة فادحة وإتاوة سنوية. ويبدو أن القدس رحبت بالحكم السلوقي الذي جدد الاعتراف بادارة الشريعة اليهودية وقدم تنازلات أخرى مؤاتية، تماماً كما كان الفرس قد فعلوا قبل ذلك بقرون. ولكن الوضع اتجه إلى الأسوأ. ويعود ذلك جزئياً إلى حاجة انطيوخوس الرابع الدائمة إلى المال، وهو الذي جلس على العرش سنة ١٧٥، واقتران ذلك بالطموح الدائم لعناصر من ارسطراطية الكهان لوضع حد للسلام والهدوء النسيبين. وكان الكاهن الاعلى هو أونياس الثالث؛ ولكن مرة أخرى عمد أخوه يشوع، الذي غير اسمه إلى إسم يوناني هو ياسون، إلى تملك الامبراطور السلوقي للحصول على منصب الكاهن الاعلى. وعرض على انطيوخوس مبلغاً ضخماً من المال، كان الملك سعيداً كل السعادة بقبوله. ونفي اونياس إلى أنطاكية ثم قتل بعد ذلك بقليل.

وحدث أن تغلّب كاهن آخر سمي نفسه بالاسم اليوناني مينلاوس على ياسون في الزيادة على منصب الحبر الاعظم ولذلك اضطرّ ياسون إلى الفرار ربما إلى شرق الاردن. إن مينلاوس لم يكن من سلالة الصدوقيين. ولذلك فلم يكن له، وفق العرف والشرع اليهودي التقليدي، اي ادعاء مشروع بالمنصب. وواضح انه، كغيره من سلسلة الكهنة، لم يكن يابّه للتوراة على الإطلاق، وقد عزز هذا بشدة اصراره على جعل القدس مملكة مدينة هيلينستية نموذجية. وقد دفع مرة ثانية مبلغاً كبيراً من المال لجعل القدس بوليتيوما *politeuma* في انطاكية؛ اي نوعاً من الكيان المنفصل في العاصمة السلوقية. واعاد تسمية

القدس «انطاكية في منطقة اليهودية» واقام فيها المؤسسات الهيلينستية النموذجية كالجمنازيوم (دار الرياضة) والإيفيات (ephebate) (مركز التدريب العسكري للشباب) والالعاب على الطراز اليوناني. ولما كانت المدينة ما تزال صغيرة في هذا الوقت، ولا تشغل فيها هو واضح سوى التل الشرقي وجبل الهيكل فيبدو من المحتمل أن هذا الاجراء، مع انه كان بمثابة الصدمة للحسيديم. *hasidim* المحافظين، اولئك المخلصين للتقاليد التوراتية، لم يكن له تأثير جدي على طريقتهم الخاصة في الحياة، وفي هذا الوقت لم يكن هناك عملياً مقاومة منتظمة.

واستمر الصراع على السلطة عندما عاد ياسون بجيش لمحاولة استعادة منصبه. وكانت النتيجة حرباً اهلية قصيرة هزم فيها ياسون واضطر إلى الهرب. الا أن انطيوخوس اعتبر الحادث عصياناً، ونتيجة لذلك نهب كنوز الهيكل سنة ١٦٩ ق. م. وفي السنة التالية هدم سور المدينة، وبنى قلعة لقوات الاحتلال التابعة له كانت تطل على فناء الهيكل. لقد كانت هذه بالفعل مدينة قلعة اغريقية تعبد فيها آلهة الإغريق وتضم قوماً من المرتزقة السلوقيين وبعض اليهود المصبوغين بالصبغة الهلينية. واهم من هذا بلا شك أن انطيوخوس، استحث، بناء على اقتراح من صنيعته مينيلوس بلا ريب، على اصدار المرسوم الشائن الذي جعل التقييد بالتوراة جريمة يعاقب عليها بالموت.

إن ما تلا ذلك من اضطهاد ومن تكريس الهيكل لشكل من اشكال زفس (Zeus)، وتقريب* الخنازير على المذبح ومحاولة ارغام الانقياء على التقريب للآلهة الاجنبية أسفر عن عصيان مكشوف. وكانت نتيجة هذه السياسة قيام ما اصبح يعرف بالاسرة «الحشمونية» في نهاية الأمر، وهم من نسل ماتاتياس وابنائهم الخمسة، واشهرهم يهوذا المعروف باسم المكابي (المطرقة).

ولما كان الحكم السلوقي منهكاً في هذا الوقت في محاولة ابقاء قبضته على بلاد ما بين النهرين التي كان البارثيون قد استولوا عليها، فإن ثورة المكابين كانت ناجحة على غير توقع حتى إن انطيوخوس ارغم في سنة ١٦٤ على اصدار مرسوم بالعمفو العام وضع فيه حداً للاضطهاد، وسيطر يهوذا على القدس نفسها واعاد تكريس الهيكل، وهو حدث اصبح

* تقديم القران او الاضاحي.

يحتفل به في التقويم اليهودي احتفالاً يعرف بالخانوكاه . ومع مضي الوقت زادت الصراعات الداخلية على السلطة النظام السلوقي ضعفاً على ضعف، ونجح ورثة يهوذا في تأليب المدّعين بالعرش الواحد ضد الآخر. ولا شك أن نجاح يهوذا سنة ١٦١ في عقد حلف مع روما كان عاملاً مهماً. واخيراً أصبحت الدولة مستقلة ببعض الوقت تحت حكم يونانان، وكان ذلك سنة ١٤٢ ق. م. (٢١)

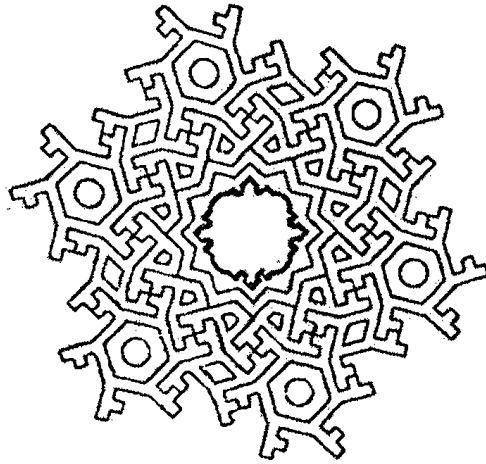
وشهدت الفترة التالية مرة أخرى انتقالاً من حكم ذي قاعدة دينية إلى مملكة ذات صبغة هلينية كاملة، تتميز بكثير من الملامح التي كانت الثورة قد اعترضت عليها في المقام الاول. وعين الملك السلوقي اسكندر - يونانان - أخاً يهوذا كاهناً اعلى . وفي هذا اشارة كافية إلى أن متولى السلطة لم يعد يحتاج كثيراً إلى التقيد لا بالشرعة اليهودية ولا بالاخلاق الدينية اليهودية . وقد قتل اخ آخر هو سيمون في صراع على السلطة بايدي ابنائه انفسهم .

واعتلى ابن سيمون الثالث، جون هركانوس العرش سنة ١٣٤ ؛ وبمجيئه بدأت الاسرة بالانتقال إلى الامبراطورية مرة ثانية . وما ان جاءت سنة ١٢٤ حتى أصبحت السيطرة السلوقية على المنطقة من الضعف جرّاء الحروب ضد البارثيين وفيما بين حكامها بحيث تُركت الحرية لهركانوس ليستولي على السامرة ويدمر الهيكل المنافس على جبل جرزيم . ومن الغريب ايضاً انه ارغم الأدميين على اعتناق اليهودية، وهو عمل كانت له نتائج مُريعة بعد قرن من الزمان . وعلى الرغم من الحروب المتواصلة التي خاضها هركانوس فقد نمت مدينة القدس وامتدت ثانية إلى الجبل الغربي، وشهدت الكثير من العمران، الذي شمل القصر الملكي الضروري والتحصينات والابراج . لقد كانت تلك الفترة رغم كل شيء فترة نمو سريع للسكان وتوسع في جميع انحاء عالم الشرق الادنى .

وبوفاة هركانوس جاءت فترة من الصراع المستديم على السلطة عملياً تخللتها حرب اهلية متكررة وكذلك حرب خارجية . وازداد الانقسام العميق بين الملوك - الكهان والحزب الديني حدة في العداة يوماً بعد يوم . وحاولت البقية الباقية من الامبراطورية السلوقية بشكل مستمر أن تعيد فرض سيطرتها على فلسطين وكذلك على سوريا . ودخلت المعركة كذلك امارات عربية مختلفة، بما فيها الانباط الذين كما قال يوسفوس ، «لم يكونوا على حذقٍ بقنون الحرب» (٢٢) . وعمد الفريسيون، الذين يبدو انهم كانوا يتمتعون بتأييد الشعب في هذا الوقت، عمدوا احياناً إلى مناشدة الملك السلوقي الحماية والدعم ضد ملوكهم هم انفسهم،

وبالأخص اسكندر يانوس Jannaeus . وقام الأخير بصلب حوالي ٨٠٠ من قادتهم ، الأمر الذي اثبت بشكل مريع بالطبع أن الملكية أصبحت مجرد استبداد هليينستي آخر .

وقد اوصى اسكندر يانوس ، وهو على فراش الموت ، بأن تقوم امرلته بتسليم السلطة إلى الفريسيين ، وقد فعلت ، ولكن ذلك لم يؤد الا إلى القليل من النتائج الدائمة في ذلك الوقت ، لأن ابني اسكندر واصلا الصراع على السلطة بمساعدة قوى خارجية مختلفة ، وخصوصاً من جانب انتيباتر ، جد هيرودس الكبير ، الذي كان حاكماً على الاقاليم الجنوبية زمن يانوس . وناشد كلا الابنين السلطات الرومانية تكراراً الدَّعَمَ في تولي المُلْك وكذلك منصب الحبر الأعظم . وناشد الحزب الديني بومبي الغاء الملكية بوصفها عنصراً غريباً عن شرائعهم الدينية واعرافهم . وبدأ بذلك فصل جديد في تاريخ القدس ؛ بيد انه لم يضع على الاطلاق حداً للصراع على السلطة .



الحواشي

١ . للاطلاع على وصف انظر

For a description, see Kathleen M Kenyon, *Digging up Jerusalem*, London, 1974, ch. 5, 98-106.

٢ . يشوع ١٢ : ٨ . نظم ملك سابق للقدس ادوني صادق تحالفاً ضد يشوع في السنوات المبكرة للحلف وهزم، يشوع ١٠ . ولا يذكر شيء أكثر عن المدينة نفسها في هذه الرواية.

٣ . انظر مناقشة كروس :

F M Cross, Jr, *Canaanite Myth and Hebrew Epic*, Cambridge, 1973,

الذي يخفق في رؤية العلاقة بين استيعاب الايديولوجية الكنعانية والعناصر الكنعانية في الملكية، خصوصاً في عهد الملك سليمان .

٤ . René Dussaud, *Les origines cananéennes du sacrifice Israélite*, Paris, 1921, 2nd ed., Paris 1941.

٥ . لوصف الإجراءات البيروقراطية المعقدة والمتغيرة التي تتناول ملكية الأرض فقط انظر أطروحة ليولت التي ترك اثرأ قوياً في النفس :

Clayton Libolt, *Royal Land Grants from Ugarit*, University of Michigan, 1985.

٦ . إن شجرة نسب صادوق هي اطول بخمسة اجيال بالضبط من عدد الاجيال التي مضت بين موسى ومولد الملك داود . ويعطينا سفر اخبار الايام الاول ٦ رواية الانساب الرسمية (بعد السبي) التي كانت بلا شك الرواية المتواترة المعيارية في فترة ما قبل السبي .

٧ . انظر مناقشة موران للهجة سوريا الشمالية في القدس حتى في رسائل الهامونة :

W Moran, 'The Syrian Scribe of the Jerusalem Amarna Letters', *Unity and Diversity*, Baltimore, 1975, 146-166.

٨ . لمزيد من النقاش انظر :

G Mendenhall, 'The Nature and Purpose of the Abraham Narratives', *Ancient Israelite Religion: Essays in Honor of Frank Moore Cross*, Philadelphia, 1987.

G Mendenhall, *The Syllabic Inscriptions from Byblos*, Beirut, 1985.

٩ . David Ussishkin, 'King Solomon's Palaces', *The Biblical Archaeologist*, vol. 36, 1973, 78-105.

١٠ . كانت ام كل من سليمان وابنه رحبعام غير اسرائيلية .

١١ . N Avigad, *Discovering Jerusalem*, New York, 1983, 31.

١٢ . إن معركة قرقر الشهيرة حوالي ٨٦٣ ق . م . شاركت فيها دول صغيرة من الإمارات العربية الصحراوية جنوب الاناضول . ومن الغريب انه ليس هنالك تلميح إلى هذا في القصص التوراتية مع أن دولة اسرائيل الصغيرة في عهد الملك احاب Ahab كانت شريكاً رئيسياً في الاتحاد .

١٣ . إن افضل اعادة بناء للاحداث متاحة حتى الان، بما لا يقاس عليه، هي تلك التي وضعها ج . برايت

John Bright, *A History of Israel*, 3rd ed., Philadelphia, 1981, Excursus I, 298-309.

١٤ . لاحظ بصورة خاصة احتجاج ارميا المرير، الإصحاح السابع : لقد كاد أن يفقد حياته بسبب هذه الاشارة إلى بعض الحقائق غير السارة .

١٥ . إن «مجموعات الشرائع» القديمة لم تكن تشكل بصورة عامة اساس الدعاوى القانونية او الاحكام القضائية .

١٦ . انظر مناقشة مندنهول :

G Mendenhall, 'Ancient Oriental and Biblical Law', *The Biblical*

Archaeologist, 17, 1954, 50-74.

١٧ . وقعت اول حادته احراق للكتب في التاريخ عندما طلب الملك يويا قيم Jehoiakim أن تقرأ عليه نبوءات ارمياء . فوضعها في النار جزءاً جزءاً بينما كانت تلى عليه (ارمياء ٣٦) . وتشير الحكاية بوضوح ، على اية حال ، إلى أنه كان هناك على الاقل بعض الموظفين الذين يتعاطفون مع الانبياء ويأخذون رسالتهم بجدية . ولم يكن هؤلاء اقوياء ولا كثيرين بها فيه الكفاية لتقرير السياسة السياسية .

١٨ . انظر النقش الاسطواني لكورش : . (Ancient Near Eastern Texts, 316) . إن إعادة الألهة والمعابد والسكان كانت سياسة منتظمة لكورش . ولا شك أن المقصود بها أن تكون اجراء لضمان ولاء الملوك والسكان الخاضعين له .

١٩ . Josephus, *Antiquities of the Jews*, book XI, ch. VII.

٢٠ . يوجه اللوم عادة إلى انطيوخوس بهذا الشأن ؛ الا أن يوسفوس يسجل على وجه التحديد أن المبادرة جاءت من مينيلوس . وبما يعزز دقة هذه الرواية أن مينيلوس قد اعدم بعد عدد من السنين بأمر ملك السلوقيين التالي :

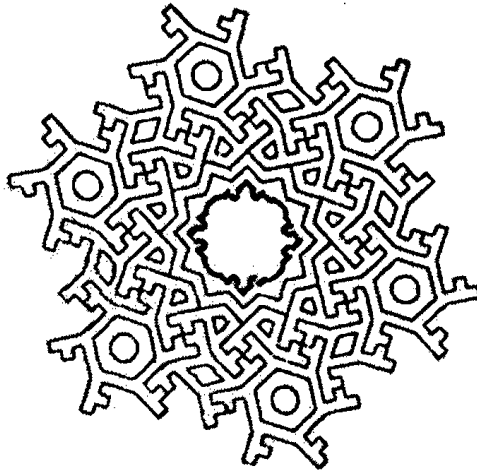
Ant., XII, ix, 7.

٢١ . نجد دراسة مفصلة لتاريخ الثورة في :

Der Gott der Makkabäer, Berlin, 1937.

Ant., XIV, ii, 3.

٢٢ .



الفصل الثالث

القدس تحت حكم روما وبيزنطة

٦٣ ق.م - ٦٣٧ ب.م

جون ولكنسون

القدس تحت حكم روما وبيزنطة

٦٣ ق.م - ٦٣٧ ب.م.

جون ولكنسون

في شهر ايلول (سبتمبر) سنة ٦٣ ق.م استولى اول قائد روماني على القدس، وبعد ذلك بما يقارب سبعمائة سنة بالضبط، في سنة ٦٣٧، كان على القدس أن تتخلى عن علاقتها بالامبراطورية الرومانية. إن القدس وروما كلتيهما قد تغيرتا تغيراً كبيراً في سبعة قرون. وفيما يتعلق بالقدس كان وصول بومبي سنة ٦٣ ق.م بداية لجهد روماني للسيطرة على اليهود انتهى بعد قرنين من الزمان بطرد اليهود من القدس. وشهد القرنان التاليان القدس تحمل اسماً آخر كمستعمرة رومانية عادية في الامبراطورية الشرقية، وقد حرمت اليهودية فيها. واستهلقت القرون الثلاثة من ٣٢٤ حتى ٦٣٧ فترة من السيادة المسيحية على القدس.

وروما أيضاً كانت تتغير. ففي سنة ٢٧ ق.م بلغ الامبراطور الروماني أوج قوته، وكان يحكم حتى ذلك الوقت بطريقة أو بأخرى على جميع الخط الساحلي للبحر الابيض المتوسط. وكان بالفعل يعبد بوصفه الها، ولا بد أن احد المعابد الاولى التي بنيت له المعبد الذي أقامه الملك هيرودس الكبير في سبسطية^(١). وتعاقب الاباطرة، وكانت تدور المنافسة احياناً بين اثنين منهم. وبعدهذا وفي سنة ٣٣٠ ب.م تم تكريس مدينة بيزنطة القديمة كمدينة القسطنطينية الجديدة. وكانت تهدف لأن تصبح «روما الجديدة» وكان لها مجلس شيوخ خاص بها. ومن هنا فعندما سقطت روما في ايطاليا سنة ٤١٠ امام الارك القوطي الغربي أصبحت القسطنطينية العاصمة. وهكذا فإن التغيير من سلطة رومانية خالصة إلى سلطة تستند إلى بيزنطة او القسطنطينية كان عملية تدريجية. وقد بدأت باعادة بناء المدينة الجديدة وتكريسها وتمت بأخذ الارك روما.

وحاولت بيزنطة في عهد الامبراطور جستنيان أن تعيد الاستيلاء على الولايات الرومانية غربي البحر الابيض المتوسط؛ لكن ثبت أن الجهد كان فوق طاقتها. وبعد مضي

سبعين سنة على وفاة جوستينيان، وعندما كانت الجيوش الرومانية قد خاضت معارك طويلة ومميرة ضد الامبراطورية الفارسية الجديدة، اخذت الامبراطوريتان كلتاهما تتعرضان لغزو قوة جديدة هي الجيوش الاسلامية من بلاد العرب. وعندما هزمت هذه الجيوش قوات الامبراطور هرقل في سنة ٦٣٦ م في معركة اليرموك قفل الامبراطور راجعا إلى القسطنطينية وعلى شفثيه قوله: «الوداع يا سوريا!».

في سنة ٦٣ ق. م كانت القدس عاصمة لدولة يهودية (انظر الشكل ١) ثلثا سكانها تقريباً من اليهود. اما الباقون، كما قال سترابو الذي كتب حوالي سنة ١٩ ب. م، فكانوا الانباط في بلاد أدوم جنوب القدس وحولها، و«المصريين والعرب والفينيقيين» إلى الشمال^(١). ومن الصّعب العثور على معلومات حول الجزء غير اليهودي من السكان لأن المصادر المتاحة اما أن تكون يهودية او معادية لليهود. كانت دولة يهودية قامت «باديء ذي بدء» بتقدم اقليمي في ظل ملوك الحشمونيين الذين حكموا حوالي سنة ١٠٠ ق. م. وكانوا كلما تغلبوا على جنس او قبيلة يعرضون عليهم إطاعة الشريعة اليهودية، وإذا لم يقبلوا فكانوا يُنْفون. وهكذا فإن عدداً كبيراً من اليهود في المناطق المغلوبة كانوا يهوداً على مضمض. وقد اعتبر هيرودس الكبير، بعد ذلك بثماني سنوات، سياسة ارغام الشعوب المغلوبة على امرها على قبول الشريعة اليهودية سياسة خاطئة^(٢). وكما يظهر من قطع العملة فانه لم يتدخل في اديان الاقوام الذين كانوا في رعايته.

وبعد الهزيمتين اليهوديتين في سنتي ٧٠ و١٣٥ ب. م أنقص عدد السكان اليهود في فلسطين من الثلثين إلى الثلث، واستمر هذا العدد في التناقص، كما سنناقشه بشكل أوفى فيما بعد. وعن فلسطين الجديدة هذه التي كانت وثنية إلى حد كبير ليس لدينا الا القليل جداً من المعلومات التي يركن اليها. لا شك بأن عدد «المصريين والعرب والفينيقيين» قد ازداد. وقد اشتهروا، كما يقول يونيور فيلو سوفس^(٣) الذي كتب عنهم في سنة ٣٥٠ ب. م، بعدد من الاشياء يبدو انها كانت مألوفة تماماً في العالم اليوناني الروماني. وكانت منتجاتهم مشهورة - الكتان من سكيثوبولس (بيسان)، والأرجوان من اربع مدن مختلفة، والالعب كانت مشهورة في قيسارية، كما ان المصارعين والملاكمين من غزّة وعسقلان كانوا معروفين جيداً. أما عسقلان فكانت مشهورة بفلاسفتها وكذلك بصلها! وأما ديانتهم فاما كانت يونانية - رومانية بتامها، مثلاً هيكل جويتر كابتوليس في القدس، او مزيجاً من اشكال عبادة محلية

والديانة الرسمية، مثلاً عبادة زفس مارناس Zeus Marnas في غزة، و«مارناس» يطلق فقط على الاسم اليوناني «زفس» في غزة. ومن المحتمل أن يعني هذا أن الغزيين استمروا في عبادة الالههم نفسه، مع انهم سمّوه زفس.

وجراء تجييد قسطنطين الرسمي للديانة المسيحية اصبحت القدس مدينة مسيحية بسرعة. وهكذا فان حياة القدس منذ حوالي ٣١٢ وحتى سنة ٦٣٧ عُرِضَتْ في المصادر المسيحية، بوصفها تاريخ مدينة مُهمّة جداً في تاريخ الكنيسة المبكر. وكانت كذلك في الواقع. وعلى اية حال فان الوثنية (وهو اسم سنستخدمه للدلالة على ديانة اليونان وروما المبكرة) كانت في أفول في فلسطين ككل. وقد غدا جميع الناس الذين كانوا يبارسونها تقريباً مسيحيين مع نهاية القرن الخامس.

في ظل حكم الحشمونيين كانت الدولة اليهودية تتألف الى حد بعيد من اليهود. ولكن عندما جاء بومبي إلى القدس سنة ٦٣ ق. م بدأ يعكس هذه العملية؛ فقد سمح لليهود بأن يحكموا الجنوب والجليل (شكل ٢) لكن غير اليهود حكموا بقية المملكة^(٥). وجعل بومبي الناس الاصلين الذين كانوا منفيين زمن المملكة الحشمونية يرجعون وعاد التنوع الديني الطبيعي كما كان الأمر من قبل. وكان بومبي حكياً من ناحية سياسية لأن كثيراً من السامريين الذين فقدوا هيكلهم على جبل جرزيم سنة ١٢٩ ق. م، رغبوا في العودة إلى دينهم السابق. والمنفيون من المدن السورية، الذين اعتنق معظمهم نسخاً شرقية من الاديان اليونانية، ما كانوا ليشعروا بالسعادة تحت سيطرة اليهود؛ ولذلك كان عدد كبير من سكان فلسطين على استعداد لمناسبة اليهود العداة لو انهم حاولوا تأكيد سلطتهم مرة اخرى.

كان يوليوس قيصر منافس بومبي، وعندما قتل بومبي سنة ٤٨ ق. م اعدّ قيصر ترتيبات اقليمية جديدة. فقد ترك انتيباتر الادومي حاكماً ادارياً على الدولة اليهودية، ومعه افراد العائلة الحشمونية امراء فيها. وعين انتيباتر فصايل حاكماً على القدس، وهيرودس ابنه الآخر حاكماً على الجليل^(٦). لكن ترتيبات قيصر الجديدة لم تعمّر طويلاً. فقد اغتيل في منتصف آذار (مارس) سنة ٤٤ ق. م. وقامت مملكة البارثيين في بلاد ما بين النهرين وما وراءها بغزو سوريا خلال الفوضى التي اعقبت اغتيال قيصر في الامبراطورية الرومانية. ورحبت الاسرة الحشمونية بالبارثيين. وكان على هيرودس أن ينجو بنفسه. واول مكان

ذهب اليه كان البتراء، عاصمة مملكة الانباط، لأن أمه سيروس Cypro كانت من الاسرة العربية المالكة^(٧). ولم يلق ترحيباً من ملكوس الثاني الملك العربي فذهب إلى كيلوباترة في مصر حيث لقي صداً للمرة الثانية. واخيراً ذهب إلى روما حيث ظفر بصداقة ماركوس انطونيوس. وتصور أن هذا الشاب هيروودس قد يكون الزعيم الذي تنشده روما في جهودها لاستعادة السيطرة على فلسطين. وهكذا فان مجلس الشيوخ في روما اعلن الملك هيروودس ملكاً على اليهودية، ثم عاد هذا إلى فلسطين ليحارب من اجل لقبه الجديد. كان هيروودس قبل هربه يحكم الجليل، وفي سنة ٣٩ ق.م بدأ حربه هناك. وبعد سنتين فرض حصاراً ناجحاً على القدس^(٨). واستمر ماركوس انطونيوس في مصادقته. وخلال هذا الوقت انتقم هيروودس من الحشمونيين. وفي سنة ٣١ ق.م، وعندما هزم انطونيوس في معركة أكتيوم، ذهب هيروودس إلى رودس ليقابل المنتصر اوكتا فيوس. واستطاع ان يقنعه بأنه كما كان صديقاً لانطونيوس فيمكنه أن يكون صديقاً لاوكتافيوس أيضاً^(٩). وهكذا بدأت صداقة استمرت طوال عهد هيروودس. وكان اوكتا فيوس حليفاً قوياً للغاية، لانه كان قد اكتسب سنة ٢٧ ق.م لقب «اغسطس» واصبح بذلك اول امبراطور روماني.

لم يكن هيروودس يهتم اهتماماً خاصاً بالقضايا الدينية. والواقع أنه بنى خارج مملكته هياكل مكرسة للآلهة اليونانية والرومانية، كما بنى في سبسطية (قرب نابلس) هيكلًا مكرسًا لـ«اغسطس». وكان آخر تكريم يوناني روماني حصل عليه هورياسته للاعب الاولمبية^(١٠). ومن هنا فانه عندما اراد أن يضع مخططاً جديداً للقدس كانت فكرته أن ينشيء عاصمة كلاسيكية. وكانت سلطته وثروته من الضخامة بحيث أن بعض مبانيه الضخمة وكثيراً من شوارعه ما تزال تستعمل اليوم.

وفي سنة ٣٥ ق.م، عندما كان ما يزال صديقاً لانطونيوس بنى قلعة دعيت «انطونيا»^(١١)، كانت في الواقع تعديلاً لحصن سابق كان قد انشأه الحشمونيون. وربما قام هو أو هم ببناء الخندق الذي يبدو انه كان خندقاً جافاً يسير على امتداد الجدار الشمالي لفناء منطقة الهيكل، وينتهي في البركة المسماة بركة اسرائيل. لكن الجزء الذي يحيط بالقلعة مباشرة كان فيه ماء، وكان يدعى «ستروثيون» Struthion، وهو الاسم اليوناني لطير «السنونو».

بدأت اعادة بناء القدس بصورة جدية بعد سنتين من المجاعة سنة ٢٥ و ٢٤ ق.م.

واكتسب هيرودس مكانه كبيرة بتخفيفه آثار المجاعة سواء في القدس او في غيرها من انحاء مملكته، بتقديم الطعام او الحبوب للبذار^(١٢). ولكن كان هنالك في القدس كثير من الناس الذين صدمتهم المجاعة والوباء الذي رافقها. واختار هيرودس بعض العاطلين من هؤلاء الناس للعمل كبنائين في مشروعاته. واستهل هيرودس اعمال البناء بانشاء قصرٍ غربي المدينة (الشكل ٣). وكان هناك خندق يحيط بالقصر، على الاقل كما دلت عليه الحفريات التي ترينا انحداراً حاداً عند حافة الاطلال. وفي الداخل كان القصر يتألف من مبنيين كبيرين كان احدهما يُدعى سيزاريوم Caesareum تكريماً لصداقته مع اوكتافيوس، اغسطس الآن^(١٣). وكان يربط ما بين هذه المباني حدائق تنساب فيها المياه water-gardens. وانشأ في الطرف الشمالي للقصر ثلاثة ابراج هي فصايل ومريامه وهيبيكوس، وقد اغناها بالزخارف واصبحت اقوى نقطة في القصر إبان المعارك^(١٤). وكان للابراج قواعد متينة يبلغ ارتفاعها حوالي خمسة عشر متراً لمقاومة دك الكباش*. ولا تزال قاعدة احد هذه الابراج، ربما هيبيكوس، تشكل جزءاً من قلعة القدس.

ويبدو أن هيرودس مَدَّ أيضاً الشوارع على التل الغربي لمدينة القدس بطريقة جديدة. إن تلك القطعة من الشارع (المؤشر حولها بدائرة في الشكل ٣) التي تقع إلى الشرق من القصر وفي منتصف الطريق عبر المدينة اكتشفت في الحفريات الأخيرة في حارة اليهود. ولما كانت هذه تقع على زاوية قائمة مع القصر فربما انشئت هناك شبكة متسامته من الشوارع. إن قطعة الشارع المؤشر حولها بدائرة بنيت فوق اطلال بيت يهودي كان مسكوناً فترة لا بأس بها امتدت إلى ما بعد بداية عهد هيرودس^(١٥). اما المنطقة التي ظهرت فيها الشبكة في الشكل ٣ فهي من قبيل التخمين الذي يستند إلى الوضع الحالي للشوارع على التل الغربي ومقدار مسطح الفراغ. وفي الجهة الجنوبية الشرقية لا بد أن الشبكة قد أفسحت المجال امام الشوارع المقامة على خط المناسيب حيث تزداد حدة الانحدار. وربما سهل ترتيب نموذج الشبكة حركة المرور في المنطقة، ولكن احدى مزاياه الرئيسية كانت توفير قطع ارض ذات قيمة متساوية تقريباً.

وبعدئذٍ في سنة ١٩ او ١٨ ق. م خطط هيرودس لاعادة بناء الهيكل. وقد واجه اعتراضات مختلفة من الكهنة وانتهى الأمر بتدريب آلاف منهم كبنائين ونجارين^(١٦).

* الكباش: آلة حربية كان يستعملها القدماء لدك اسوار المدن المعادية (المترجم).

وانتهى العمل في الهيكل نفسه بعد ثمانية عشر شهراً، بيد أن البناء في المنطقة المحيطة به استمر اكثر من ثمانين عاماً. وعندما انجز العمل كان هناك اكثر من ١٨,٠٠٠ عامل وصانع يبحثون عن عمل^(١٧). وكانت المهمة الرئيسية هي مد فناء الهيكل الذي كان مبنياً على قناطر بحيث يصل تقريباً إلى ارتفاع المنصة العليا التي انشيء فوقها الهيكل. ويبدو أن اساسات جدران الفناء بقيت حول الفناء من جميع الجهات [كما يجعله في حجم الحرم الشريف]. وعندما أتم هيرودس هذا العمل كان هناك رواق عالٍ يمتد حول ثلاثة من جوانبه^(١٨)، واضيف مسطح مغطى على الجانب الجنوبي، يشبه إلى حد بعيد مباني الباسيليكات في الساحة العامة الرومانية Roman Forum، لتوفير مكان للناس قرب الساحة المكشوفة يستطيعون أن يستظلوا فيه في الصيف او يجتمعا من المطر في الشتاء^(١٩).

كانت اعمال هيرودس هذه تتصل باكساب المدينة حلة جديدة من الفخامة والرواء ولكنه مضى قدماً في توسيع المدينة. كانت هناك ساحة للسوق احاطها بسور امتد من برج انطونيا الى باب في السور الشمالي للمدينة الذي انشأه الحشمونيون^(٢٠). وخط هذا السور غير معروف حتى الان. وربما كان احد ابوابه، وهو باب سنحدده فيما بعد، يقع في النهاية الشمالية لطريق الواد، ولكن من المؤكد انه كان هناك باب في الشرق. وهناك قرب برج انطونيا قوس روماني عبر طريق باب الاسباط يدعى قوس «ها هو الرجل» [Ecce Homo]. وقبل عام ١٩٧٩ كان يعتقد أن هذا القدس كان قوس نصر. بيد أن البحث الحديث يدلنا الان على انه اشبه كثيراً بباب للمدينة،^(٢١) وهو يشبه بابا من ابواب مدينة نيقية بني في عهد أغسطس. وعلى هذا فإن الباب الشرقي للسور الجديد معروف. وهناك إلى الشرق منه بركة طويلة هي استمرار للخندق المحيط ببرج انطونيا. وفي اوقات السلم كان هناك جسر خشبي يجعل الشارع يمر عبره. وكان من الممكن ازالة هذا الجسر عند تعرض القدس لخطر الهجوم.

وكان لا بد من زيادة تزويد المدينة بالماء في زمن هيرودس. ويذكر يوسفوس بفخر أن قصر هيرودس - الكائن في اعلى نقطة في القدس - كان مزوداً بالماء بصورة جيدة^(٢٢). وكان نبع القدس هو النبع الكائن في سلوان في اسفل الزاوية الجنوبية الغربية. اما الجزء العلوي من المدينة فكان يزود بالماء لفترة طويلة من البرك التي كانت تحبس مياه الوديان المجاورة، والتي كانت ينقل مخزونها إلى المدينة بواسطة الأقنية. ولا نعرف تواريخ البرك المحيطة بالقدس، ولكن هناك احتمال كبير بأن يكون هيرودس هو الذي بنى البركة المعروفة بما ملا

(الثدي) التي تبعد عن المدينة مسافة قصيرة للغاية إلى جهة الغرب، حوالي نصف كيلومتر، وهي أعلى من قصر هيرودس. وهناك بركة أخرى قد تكون من بناء هيرودس هي البركة الكائنة في «المدينة الجديدة» التي لم يكن السور زمن هيرودس قد احاط بها بعد. إن بركة بيت حسدا Bethesda المزدوجة الكائنة في هذه الشبكة من الشوارع، والتي لا تزال صافية إلى درجة تلفت النظر اليوم، ترتبط بالشبكة بحكم أنّ لها أساساً من الصخر البكر يشكل فاصلاً بين البركتين. وهكذا فإن الشوارع والبركة كانت جزءاً من مخطط واحد للمدينة.

واضاف هيرودس إلى القدس مسرحاً وميداناً لسباق الخيل^(٢٣) مع أن موقعها غير معروف حتى الان. لقد كانت وسائل الترفيه والتسلية هذه غريبة عن اليهود؛ ولكنها كانت إلى حد كبير جزءاً لا يتجزأ من مدينة لها علاقة ما بالتقاليد الكلاسيكية. ولكن ما إن جاءت السنة العاشرة قبل الميلاد وهي السنة التي تم فيها تكريس الهيكل حتى كان القلق قد استبد بهيرودس أكثر فاكثرت حول المنازعات في عائلته وحول من يرثه في السلطة. لقد كان رجلاً على درجة من العزم والقوة بحيث كان يميل إلى اتخاذ القرارات بنفسه ولا يفوض احداً. ومن هنا فلم تكن لديه فكرة حقيقية عن ينبغي أن يكون ورثه. وفي النهاية وبعد أن كتب وصايا كثيرة وقام بالغائر نرك معظم مملكته إلى اركيلاوس. وقد فصل الجليل وبيريا Peraea (وهي المنطقة التي تقع إلى الشرق من عمان بين وادي اليباس والموقس) واعطاها إلى هيرودس انتيباس والمناطق الواقعة شمال شرق بحيرة طبريا واعطاها إلى فيليبوس^(٢٤).

مات هيرودس سنة ٤ ق. م. وبعد جنازته مباشرة ذهب ابناؤه الثلاثة جميعاً إلى روما لعرض مطالبهم، وربما لزيادتها. لكن اغسطس اراد أن يختبر الثلاثة كلهم ولم يكن ليقبل بأن يكونوا أكثر من امراء. وعاد هيرودس انتيباس وفيليبوس وحكما منطقتيهما بنجاح مدة تتجاوز الثلاثين عاماً. اما اركيلاوس فما إن تسلم السلطة حتى اشتدت قسوته على السامريين واليهود بحيث شكوه إلى روما فنفي إلى فينا في بلاد الغال. وفي السنة السادسة قبل الميلاد بعث حاكم سوريا كيرينيوس Quirinius برومانيين إلى اليهودية لبيع ممتلكات اركيلاوس وللقيام باحصاء لمعرفة عدد السكان الذين يتوجب عليهم دفع الضرائب^(٢٥). وهذا هو الاحصاء الذي من اجله ذهب يوسف ومريم إلى بيت لحم حسب ما ورد في انجيل لوقا^(٢٦). وهناك ولد يسوع المسيح. لكن تاريخ ميلاد يسوع غير مؤكد لانه، فيما قيل على لسان القديس متى، تجنب حكم الموت الذي اصدره هيرودس الكبير في حق اطفال بيت لحم^(٢٧). وهذا يعني ضمناً تاريخاً يقع في السنة الرابعة ق. م او قبلها، وهي السنة التي مات

فيها هيرودس . لكن الاحصاء جرى بعد وفاته بعشر سنوات . ولذلك فليس لدينا طريق لمعرفة ايها كان على صواب القديس لوقا او القديس متى .

بدأ الحكم الروماني على اليهودية بعدد من الحكام الذين كانوا يحكمون لفترات قصيرة وكانوا يُدعون بالوكلاء procurators . ولكن بعد بعض الوقت بات يعين ولاية prefects لفترات اطول؛ ومنهم على سبيل المثال بونتئوس بيلاطس الذي حكم اليهودية مدة عشر سنوات . وفي فترة حكمه نزل يسوع من الناصرة إلى الاردن حيث قام يوحنا المعمدان بتعميده . وبعدها باشر حملته . وانتقل إلى كفرناحوم على الشاطئ الشمالي لبحيرة طبريا . واختار اثني عشر حوارياً وجال في البلاد معهم يشفي ويعظ في قرى الجليل واحياناً خارج الجليل في المناطق المجاورة . ما هو نوع العمل الذي اعتقد الناس أن يسوعاً كان يقوم به؟ إن يسوعاً نفسه ربما كان يقبل تعريف مهمته بانها إصلاح طاعة اليهود للشريعة . ولكن في الانجيل الذي كتبه قوم من اتباعه كان نبياً مقدساً، مستعداً للذهاب إلى اقصى مدى في الحياة والموت لاطهار تفانيه في عبادة الله وللمشاطرة في حب الله لجيرانه . اما حواريوه فقد اعتبروه المسيح (Messiah) (٢٨) الامام المسوح بالزيت الذي بعثه الله والذي سيكون في مجيئه الخلاص . وهذه المهمة، مهما كانت، كان لا بد أن تشير عداة زعماء اليهودية التقليديين؛ ولكنها اصبحت اتباعاً كثيرين بين قروسي الجليل . وفي نهاية الأمر صعد إلى القدس ليواجه أشرس خصومه . وهناك، فيما يقول الانجيل، قبضوا عليه وضمنوا صلبه . كان موته نتيجة لتفانيه في الله . وموت كهذا لا يمكن ان يكون النهاية . فبعد دفنه بثلاثة ايام بدأ حواريوه يرونه حياً مرة ثانية . وبعد أن صعد إلى السماء انتشر حواريوه ليشرحوا بالرسالة التي تقول إن يسوعاً كان الامام وكان المعلم الذي ينتظر كل من اليهود وغير اليهود على يديه النعمة والخلاص .

ما هي اماكن الحج المقدسة التي ترتبط بيسوع في الواقع في مدينة القدس؟ يبدو أن الحج المسيحي يرجع إلى القرن الثاني، وهكذا فإن الاماكن المقدسة هي احدث بقرن واحد فقط من الكتاب المقدس نفسه . هناك اربعة من هذه الاماكن حقيقية سواء في الكتاب المقدس او الحج، وأما الخامس - وهو قصر بيلاطس - فليس حقيقياً . ولكننا سوف نرى أن هناك سبباً بسيطاً جداً لا يجعله كذلك . اما المكانان الاوان فهما بركتان : واحدة في سلوام (سلوان) التي ارسل اليها المسيح الرجل الذي ولد اعشى فارتد بصيراً^(٢٩)؛ لكن البركة رُحمت في زمن الرومان ولا يمكن أن نعرف شكلها زمن يسوع . اما البركة الثانية فهي بركة بيت

حسدا حيث شفى المسيح الرجل الذي كان مصاباً بالشلل^(٣٠). والمكان الثالث هو حديقة الجسمانية. وقد اختفت كحديقة منذ حصار الرومان سنة ٧٠ ب. م. لأن الرومان استعملوا جميع الأشجار كدعامات للمتاريس في اثناء الحصار. وفي مرحلة لاحقة من المعركة بعثوا يطلبون المزيد منها على بعد احد عشر ميلاً^(٣١). لكن الموقع العام للجسمانية مؤكد. والمكان الأخير المرتبط بيسوع هو الجمجمة (الجلجثة) حيث صلب. وحسب ما يقول الانجيل فان القبر المقدس الذي دفن فيه يسوع «كان قريباً» من هذا المكان^(٣٢). كان صلب المسيح حدثاً علياً. ولذلك فمن المحتمل كل الاحتمال أن البقعة الدقيقة التي تم فيها ذلك ظلت عالقة في الذاكرة. والواقع انه لم يجر التفكير في مكان آخر حتى نهاية القرن التاسع عشر.

وبعد أن صعد المسيح إلى السماء بقي بعض افراد الطائفة المسيحية في القدس. ولم يكن هؤلاء محبوسين لدى السلطات اليهودية. فاستشهد ثلاثة منهم. ولكن بعض المعلمين اليهود علموا بأن المسيحيين يجب أن يتركوا وشأنهم: «إن كان هذا الرأي أو هذا العمل من الناس فسوف ينقض، وإن كان من الله فلا تقدر أن تنقضوه»^(٣٣).

وجاء من اليهود ملك آخر كان عضواً في اسرة هيرودس، وهو هيرودس أغريبا، حفيد هيرودس. وقد حكم من سنة ٤١-٤٤. ثم تولى الحكم ولأه رومانيون آخرون. وفي ولاية فيلكس من ٥٢ - ٦٠ انتشر الاشقياء وقطاع الطرق في اليهودية، ومن بينهم اشقياء ذوو نزعة دينية عقدوا العزم على قلب الحكم الروماني^(٣٤). ونشبت الاضطرابات في قيسارية بين السكان السوريين واليهود. وجاء بعد فيلكس هذا فسطوس. وبعدئذ اعترى الادارة الرومانية تدهور شديد. وقيل إن البيئوس، الذي حكم من سنة ٦٠ - ٦٢، اخذ الرشاي من قطاع الطرق الذين حالفوا جميع اولئك الذين كانوا يرغبون في إنهاء الحكم الروماني. وواصل غيسوس فلوروس، الذي حكم من سنة ٦٤ - ٦٦ تلقي الرشاي من قطاع الطرق. وعندما تجددت الاضطرابات في قيسارية في شهر حزيران (يونية) ذهب إلى القدس^(٣٥). واحضر معه كمييتين من قيسارية، واشتد الخلاف مع اليهود حتى إن الكتيبتين اندفعتا نحو الجمهور وقتلتا معه. ورجع فلوروس إلى قيسارية دون أن يستطيع تهدئة اليهود فهبت يطلب النجدة من حاكم سوريا سيستيروس غالوس. واعد غالوس العدة للحرب ضد اليهود وزحف إلى القدس، حيث وصل في اواسط تشرين الثاني (نوفمبر). وذهب مباشرة من جبل سكرس (جبل المشارف) حيث اقام معسكره إلى بيت حسدا كما يدل على أن السور الشمالي لم يكن قد بُني بعد. ولكنه ما إن اقترب من المدينة حتى رجع ادراجه على نحو لا

يمكن تفسيره . ولاحقه اليهود في اثناء تراجعه على الطريق المؤدي إلى عمواس . وهُزِمَ الفيلق الثاني عشر والقوات الملحقة به ، وقتل اليهود اكثر من خمسة الآف جندي^(٣٦) .

واعد اليهود الآن العدة لحرب اكثر خطورة . وفي هذا الوقت بالذات اتموا بناء السور شمالي المدينة ، وهو السور الذي وُضِعَ تخطيطه هيرودس أغريبا ولكنه لم يُتمه (الشكل ٤) . وبنى اليهود السور في حالة طواريء بين الوقت الذي هُزِمَ فيه سيستيروس غألوس ووصول الجيش الروماني بقيادة فسباسيان في فصل الربيع . ومن هنا فلا ندهش إذا استعملوا اية حجارة استطاعوا العثور عليها ومنها حجارة كثيرة كانت قد صنعت للنصب الحجرية في زمن هيرودس الكبير . وفي اثناء حالة الطواريء هذه تشاجر الجنود اليهود الذين كانوا يتبعون قادة مختلفين . وربما نجح المسيحيون في هذه المرحلة في الهرب إلى بلا Pella (طبقة فجَل) عبر الاردن .

حارب الجيش الروماني الرئيسي بقيادة فسباسيان في الجليل لمدة ثلاث سنوات ، ثم نودي بفسباسيان امبراطوراً^(٣٧) . وترك الحملة على اليهودية لابنه تيطس الذي عاد لمحاصرة القدس . ووصل في كانون الثاني (يناير) او شباط (فبراير) (سنة ٧٠ ق.م) . وفي شهر ايار (مايو) أحدث ثغرة في السور الشمالي الجديد ، ويعد ذلك باسبوع ، ثغر السور المحيط بالاسواق الذي بناه هيرودس الكبير . ويعدنذ نشب قتال متواصل من أجل الاستيلاء على الهيكل لأن هيرودس الكبير لم يجعله فخماً فحسب ، بل جعل الدفاع عنه ميسوراً أيضاً^(٣٨) . استولى الرومان على اكثر النقاط مناعة في فناء الهيكل وهي برج انطونيا في أواخر تموز (يوليه) . ومن هناك هاجموا الهيكل ، حيث توقف تقريب القرابين في ٦ آب (اغسطس) . ودخل الرومان الهيكل في حوالي ٢٨ آب (اغسطس) ، ثم قضوا شهراً في تنظيف المدينة العليا والقصر^(٣٩) .

وأمضى تيطس شهراً آخر في القدس . ودمر الهيكل تدميراً تاماً واعطى الأوامر بأن تسوّى بقاياها والمدينة كلها بالارض . والشيء الوحيد الذي استثناه كان السور الواقع غربي المدينة من اجل توفير الحماية للفيلق العاشر الذي ابقاه كحامية للمدينة ، والابراج الثلاثة شمال القصر : فصايل ومريامه وهيبكوس^(٤٠) . ويمكننا أن نبيّن نتيجة الأمر الذي اصدره بتدمير المدينة من بقايا السور الشمالي الذي لم يتبق منه الا القليل جداً من الاحجار . لكن مدة شهر ليست بالمدة الكافية لضمان تدمير مدينة كبيرة كالقدس . لقد هُدمت الاسوار ولكن الشكل الاجمالي للمدينة بقي قائماً ، مع أن هدم الاسوار جعل المنطقة المحيطة بفناء الهيكل

طلّلاً من الاحجار المطروحة جانباً. وبقي بعض اليهود في القدس لكن المجلس انتقل إلى يامنيا Jamnia (يُبنى). ولم تعد القدس مقراً لرياسة اليهود. لقد هزم اليهود هزيمة تامة، وستمضى ستون سنة أخرى قبل ان يستطيعوا تجميع قوتهم ليقفوا الوقفة الأخيرة ضد روما.

واخذ المشرق يبدو اكثر اهمية كخط دفاع شرقي ضد منافسي روما. وكان هؤلاء لا يزالون البارثيين في هذه المرحلة؛ وفي سنة ١٠٦ فتح الامبراطور تراجان مملكة البتراء التي اصبحت ولاية [العربية] الرومانية^(٤١). واقام القلاع على امتداد الحدود. وامتدت العربية شمالاً إلى بصرى، عاصمتها الجديدة، وعبرت جنوباً وادي عربة وشملت صحراء سيناء جنوب بلاد الادوميين. واصبح هذا الجزء الجنوبي فيما بعد في سنة ٣٥٧ فلسطين الثالثة Palaestina Tertia^(٤٢). وقام هادريان الذي خلف تراجان بزيارة إلى العربية، وخطط بعض اليهود للقيام بثورة اخرى ضد روما. وكان قائد الثورة بار كوخبا الذي اعتبره البعض المسيح. اما مناسبة الثورة فهي الانباء التي تردت بأن هادريان منع الختان وانه كان ينوي جعل القدس مستعمرة رومانية تدعى ايليا كايبتولينا.

وفي سنة ١٣١ أرغم بار كوخبا الرومان وغيرهم من غير اليهود على ترك القدس واعلن الاستقلال. ومن المحتمل انه اقام الصلوات في موقع الهيكل بقدر الإمكان. لكن قوات بار كوخبا كانت اصغر من أن تبقى على قيد الوجود. فطرد رجاله من القدس سنة ١٣٥، ومات بار كوخبا نفسه في حصار بتير، على بعد ستة اميال جنوب غرب القدس^(٤٣).

ومضى هادريان قدماً في خطته لجعل القدس مستعمرة رومانية. وقرر الرومان عدم السماح لليهود بالدخول إلى منطقة ايليا كايبتولينا. وكان هذا اسم القدس الجديد؛ وضمت المنطقة اقضية جفنة وهروديوم والمنطقة الواقعة غرب القدس والتي دعيت اوراينيه 'Oreinë' او البلاد الجبلية (الشكل ٥). ويبدو أن مرسوم روما بشأن طرد اليهود قد صيغ بالشكل التالي: «يحظر على جميع الاشخاص المختونين أن يدخلوا إلى منطقة ايليا كايبتولينا او يقيموا فيها. وكل من يخالف هذا الحظر سيعاقب بالموت»^(٤٤). وكان القصد من المرسوم منع اليهود من العيش هناك. ومن المحتمل ان يكون المسيحيون الذين كانوا مثل اليهود قد منعوا ايضاً. لكن الشعوب السامية كلها تختن ولا بد أنه كانت هناك استثناءات كثيرة من المرسوم. وعلى سبيل المثال فإن المحاربين القدماء من رجال الفيلق العاشر، وهم الجنود الذين امضوا خمساً وعشرين سنة في الخدمة، ربما كان لهم الحق في السكن في المدينة؛ ومعظم هؤلاء كانوا

من السوريين والعرب . وهزيمة اليهود كانت تعني ان عددهم قد انقص من ثلثي السكان إلى ثلثهم .

إن مدينة ايليا كايبتولينا كانت مدينة جديدة، تستند إلى القدس الهيرودسية، ولكنها كانت مقسمة بطريقة مختلفة . وقد أعيد استعمال حجارة قدس هيرودس تكراراً في ايليا، ولذلك فإن وجود هذه الحجارة في نصب ما ليس ضماناً كافياً بأن النصب كان من بناء هيرودس . وهناك نصان رئيسيان يصفان ايليا . الاول، وهو يثير من الاسئلة اكثر مما يحل، هو وصف المباني التي شادها هادريان، وهو جزء مما يدعي بـ الباشال كرونیکل *Paschal Chronicle* . وسوف نعالج القضايا التي يثيرها هذا النص في الاقسام الموضوعه بين قوسين :

«لقد اسس الديموسيا الاثنتين *the two demosia* [قد تعني *demasia* اي بناية عامة كالقاعات والسجون والحمامات والمدرجات] والمسرح والتريكامرون [«الغرف الثلاثة»]، وقد تعني هذه هيكل جويتر كايبتولينس، وفيه ثلاث غرف مكرسة للالهة جويتر ويونو ومنيرفا] والـ«ترانيمفون» *tetranymphon* [قد تكون اي بركة مكرسة للبحوريات، ويحتمل كثيراً أن تكون بركة سلوان المربعة] وال دوديكايلون *dodecapylon* . [المبنى ذا الاثني عشر باباً] وكان يدعى من قبل أنا باثموي *anabathmoi* «مجموعة من الدرجات» . وال كادرا *quadra* «المربع» قد يكون اما الدوديكايلون أو الكادرا الفناء الذي كان يسند الهيكل^(٤٥) .»

اما النص الثاني فهو اقدم وصف وصلنا من حج مسيحي . ومع أنه يتعلق بالدرجة الاولى بالحج بعد اعتلاء قسطنطين العرش بعشر سنوات فيبدو انه يفسر الشيء الكثير عن ايليا^(٤٦) . والواقع أن المبنين المسيحيين الجديدين الوحيديين هما الكنيسة اللتان بناهما قسطنطين خلال السنوات العشر الاولى من الحكم الروماني المتعاطف مع المسيحيين . وكان الحج المسيحي قد اتخذ شكله من قبل في القرن الثاني . ونحن نعرف عن مغارة كان يؤخذ المسيحيون في بيت لحم لرؤيتها . ولا بد أن الكاتب قد عرفها قبل سنة ١٣٠ م . وهي المغارة التي ولد فيها المسيح . ونحن نسمع عن القبر المقدس لأول مرة من عظة القيت سنة ١٦٠ . ويقول ثلاثاً إن القبر يقع في وسط القدس^(٤٧) . فلا بد إذن أن نوعاً من انواع الحج المسيحي كان قائماً قبل سنة ١٣٠ . وهناك احتمال بأن بعض الاماكن التي زارها الحجاج كان اول شهودها ذكريات حواربي المسيح . وكما سنرى فليس كل الاماكن المقدسة سواء حين يتعلق الأمر بالتاريخ . بيد أن أحد اقدم ملامح الحج التي تم تدوينها هو عدم وجود

بنايات مسيحية في المواقع الباقية بصرف النظر عن الكنيستين السالفتي الذكر. انها معالم مدينة شرقية ونباتاتها وأطلالها. ولو استثنينا ارتباطات هذه المواقع بالكتاب المقدس، وهي الارتباطات التي عزاها اليها المسيحيون، لما وجدنا فيها ما يلفت النظر بصورة خاصة. ونرى في الشكل ٦ التخطيط العام للمدينة، وهي تحمل اسمين. فالسائح الذي يرجع اصله إلى مدينة بوردو في بلاد الغال يدخل إلى ما يسميه القدس - «اورشليم» - من باب المدينة الشرقي في نقطة تقع إلى الشمال من فناء الهيكل تماماً. وهو يؤخذ في جولة حول الفناء الذي يقال له إنه من بقايا هيكل سليمان ثم يخرج من احد الابواب جنوبي الفناء. وهو إذ يفعل ذلك يترك القدس / اورشليم. انه يذهب غرباً ويشار إلى بركة سلوان عن يساره. ويلاحظ أن هناك سوراً للمدينة قائماً من قبل ويمتد بين البركة الداخلية والبركة الخارجية. وإذا ما صعد إلى قمة التل الغربي يستدير. اراً ليدخل ما يسميه «سور صهيون» ثم يذهب شمالاً ليدخل ما كان قبل ذلك بوقت قصير معسكر الفيلق العاشر، ويخرج من باب في السور الشمالي ومن شارع يؤدي إلى الباب الشمالي، باب نابلس Neapolis. وها هو في القدس / اورشليم مرة أخرى. وهكذا فان السور الذي كان يجد القدس لا بدّ انه كان عند نقطة ما شمال الباب الذي ترك منه الهيكل. ولما كان هناك من قبل سوراً للمدينة يلتقي مع الجدار الغربي لفناء الهيكل فيبدو من المحتمل أن هذا هو السور، ولكنه بني بحيث يكون وجهه من الناحية الأخرى. وهكذا فإن المنطقة التي كانت تدعى القدس - «اورشليم» - في ايليا كابتولينا كُنت مدينة صغيرة للغاية. ولكن لما كانت المدن الرومانية المتأخرة في بعض الحالات مجرد قرى حوّلت إلى مدن فان الحجم لا علاقة له بوضعها كمدينة.

إن السور الشمالي كان على خط جديد، وحيثما كانت هناك تلال تقترب منه كان يفصل عنها بوادٍ اصطناعي. وكانت اجزاء منه محاطة بخندق. وكان للفورم داخل الباب الشمالي شارعان محاطان بالأعمدة مرتبطان به ولهما ارضفة مغطاة. وربما يمثل هذا اضافة للمدينة استحدثت حوالي سنة ٢٠٠ ب. م. وفي منتصف الطريق على الشارع الغربي من ذينك الشارعين كان مدخل هيكل افروديت الذي كان هادريان قد بناه فوق القبر المقدس. وشاهد الحاج في فناء الهيكل رخاماً اقيم فوقه تمثالان للامبراطورين هادريان وانطونينوس بيوس. ويبدو أن الرخام كان اضافة رومانية إلى الموقع الخرب الذي كان يقوم عليه الهيكل. لكن الحاج وزائراً ذهب إلى موقع الهيكل قبله بحوالي قرن لا يقولان شيئاً عن وجود هيكل روماني في موقع الهيكل اليهودي^(٤٨). ولذلك فان ديو كاسيوس ربما كان على خطأ عندما قال

إن الرومان قد بنوا هيكلًا في الفناء^(٤٩). وربما كان هيكل افروديت الواقع في منتصف الشارع الغربي المعمد مجاوراً لهيكل جوبيتر. ومع الأسف فإن الاكتشافات الأثرية التي جرى الإبلاغ عنها حتى الآن لم تؤد إلى تخطيط واضح لكلا الهيكلين الرومانيين اللهم إلا فيما يتصل بالمدخل الرسمي للهيكل (القبر المقدس فيما بعد) في طريق خان الزيت. وكان هذا مبنياً من حجارة لمباني هيرودس اخذت من اكوام الحجارة التي تخلفت عن هدم فناء الهيكل. وقد تم ملء الخنادق الداخلية في برج انطونيا وفي القصر وغطى خندق انطونيا بشارع مُدّ فوقه.

وأخذ حاج بوردو لرؤية اربعة من الاماكن الخمسة المرتبطة بحياة المسيح في الانجيل. لكن المكان الذي أروه اياه باعتباره المكان الذي حاكم فيه بيلاطس المسيح كان في موقع غريب. فعندما يخرج الحاج من صهيون عبر السور الشمالي يرى على يمينه أطلال بيت بيلاطس^(٥٠). لكن هذا البيت قد لا يكون بيت بيلاطس. ومن المحتمل جداً أن يكون قاعة المجلس التي حاكم فيها المجلس اليهودي المسيح قبل أن يؤخذ إلى بيلاطس. إن الحجاج الاولين ما كان في استطاعتهم زيارة القصر الذي كان يعيش فيه بيلاطس لأن هذا كان في منطقة عسكرية. ولا بد أن تقترن محاكمة المسيح في الذاكرة بمكان آخر. وربما كان هذا هو السبب الذي لم تربط محاكمة بيلاطس للمسيح من أجله بالقلعة (القصر الذي بناه هيرودس) وانما باطلال أخرى^(٥١). وبصرف النظر عن هذه الأماكن كانت هناك أماكن أخرى تعبدية صرفة مثل المغارة التي «على جبل الزيتون» حيث اقترن جزءاً تعاليم المسيح بالذاكرة وكذلك صعوده، وهو امر غريب أن يذكر في مغارة^(٥٢). وكان هناك أيضاً بعض الأماكن التي لا تتفق والأماكن المذكورة في الكتاب المقدس، ولكنها كانت قد استندت إلى قصص رواها الادلاء المحليون.

كانت الديانة الرسمية لايليا كابيتولينا هي الديانة الرسمية للامبراطورية الرومانية. وهناك دلائل على عبادة سيرابيس Serapis (إله الشفاء المصري اليوناني) في بركة بيت جسدنا. لكن يبدو أن المسيحيين كانوا من حيث الجنس مثل الناس الآخرين: وكان اسقفان من اساقفة القرن الثالث يحملان اسمي مازابانيس وزبداس^(٥٣). ويأتي هذان الاسمان من تدمر التي كانت مركزاً عربياً قوياً في ذلك الوقت. بدأ المسيحيون اقلية تعبد في بيت يقع بالضبط جنوب معسكر الفيلق الذي كان يشغل المكان الذي توجد فيه الآن حارة الارمن

التي سمّوها صهيون . ولا شك أنها سميت باسم صهيون السماوية التي ورد ذكرها في العهد الجديد^(٥٤) ، وعلامة على أن الكنيسة ترمز إلى السماء . لكن الكنيسة نمت من أقلية إلى ان أصبحت قوة يعتد بها كل الاعتراد في القرن الثالث . وقد كتب اوسابيوس ، الذي ولد في قيسارية البحرية Caesaria Maritima حوالي سنة ٢٦٠ واصبح فيما بعد أسقفا لها ، كتب تاريخاً كنسياً وصف فيه النمو . لقد حل محل كنائس البيوت مباني كنسية اكبر^(٥٥) . واتخذ اوريجانوس الاسكندري - وهو من اعظم المعلمين المسيحيين واكثرهم إثارة للجدل فيما بعد - مدينة قيسارية سكناً له . وازداد المسيحيون ثقةً ولكنهم كانوا ما يزالون اعضاء في طائفة غير مشروعة . وقضية الامبراطور فيليبوس مثال جيد على هذه المعضلة . كان فيليبوس عربياً من قرية شهباء ، شرقي بصرى اسكي شام ، وكان مسيحياً . ولكنه عندما تولى الحكم كامبراطور من سنة ٢٤٤ الى سنة ٢٤٩ ترتب عليه أن يتخلى عن مسيحيته . لقد تعاطف مع المسيحيين ، ولكن المهام العامة لامبراطور روماني منعتة من العبادة على الطريقة المسيحية . وكان يعنى ذلك أنه ترتب عليه المشاركة في كثير من الطقوس الوثنية^(٥٦) . وبعد ذلك بخمسين سنة اتخذ الامبراطور ديو كليتيانوس ، وقد شعر بتهديد من المسيحيين ، خطوات لكبح جماح قوتهم المتزايدة ، فأمر بتطهير الجيش من المسيحيين واصدر مرسوماً سنة ٣٠٣ باحراق جميع الكتب المقدسة المسيحية وتدمير جميع مباني الكنائس^(٥٧) . وحظرت المسيحية وترتب على الزعماء المسيحيين أن يقدموا الاضاحي للآلهة الرومانية واستشهد شخصان من ايليا هما بروكويوس وفاليس . واستمر هذا الاضطهاد على فترات لمدة سبع سنوات حتى سنة ٣١٠ .

لكن شخصاً آخر كان سيتولى السلطة وشيكاً ابدى استعداده لمعاملة المسيحيين كاصدقاء . ففي سنة ٣١٢ امر قسطنطين باعادة بناء الكنائس على نفقة الدولة . وفي سنة ٣٢٤ اصبح يسيطر على الجزء الشرقي من الامبراطورية . ولم يكن هو نفسه مسيحياً ، للسبب عينه الذي لم يكن فيليبوس من اجله كذلك . ولكنه كان قد حلم يوماً برمز مسيحي عليه الكلمات التالية : «بهذه العلامة اغلب!»^(٥٨) ، وذلك قبيل الحاقه الهزيمة بمنافسه عند جسر ميلفيا خارج روما . واستقر في نفسه أن المسيحية يجب أن تزدهر وتتحد . ولما اشرف على نهاية حياته اصبح مسيحياً بالتعميد .

وهكذا حوّلت القدس من مدينة رومانية ذات اهمية ضئيلة للغاية بالنسبة للامبراطورية إلى مدينة عظيمة الأهمية . وعلى هذا فان تاريخ القدس يفهم إلى حد بعيد في

سياق مسيحتها وكمركز للحجاج . ولهذا السبب امر قسطنطين بكشف القبر المقدس . وعُرف الموضوع باسم كنيسة الشهداء Martyrium^(٥٩) . وحملت اول كنيسة بناها قسطنطين هذا الاسم . ويرينا (الشكل ٧) مخطط المباني التي شرع فيها قسطنطين في الموقع ، ولكنها لم تتم كلها دفعة واحدة . وبعد أن وجد المسيحيون القبر المقدس ارسل قسيس يدعى اوستاتيوس Eustathius من القسطنطينية للشرع في بناء الكنيسة . وأرسل بعد ذلك مهندس يدعى زنوبيوس (وهو اسم تدمري آخر)^(٦٠) . وقام أسقف القدس بزخرفة القبر أولا واطاف اليه رواقاً ، ولكن المبنى المستدير لم يكن قد بني حوله بعد . ومضوا قدماً في بناء الصحن والجلجثة (الجمجمة) في احد اركانها ، وكنيسة الشهداء شرقيه ، والصحن الذي يدخل فيه الناس من الشارع . اما كنيسة أنسطاسيا ، بقدر ما يفيدنا اوسابيوس في كتابه «حياة قسطنطين»^(٦١) ، فلم تكن قد بنيت بعد طيلة تسع سنوات . واول قيد باتمامها يأتي من سنة ٣٤٧ ، اي بعد مضي عشر سنوات على وفاة قسطنطين . وربما كان زنوبيوس قد ارسل سنة ٣٣٦ لاتمام الكنيسة ولكنه توقف عند وفاة قسطنطين لنقص الاموال . وبالفعل فان احدث العلماء الذين فحصوا كنيسة انسطاسيا يعتقد أن الاعمدة المحيطة بالقبر كانت اعمدة قطعت في الاصل إلى نصف حجمها .

كانت سياسة قسطنطين هي سياسة هديران نفسها تجاه اليهود . فلم يكن يسمح لهم بالعيش في القدس ، ولكنهم كانوا يحجون إلى الحائط الغربي للهيكل ، كما كان يسمح لهم مرة في السنة في التاسع من آب بدخول موقع الهيكل للبكاء على خرابه^(٦٢) . اما المسيحيون من جهة اخرى فقد انتصروا^(٦٣) . وبعد حياة كحياة اوسابيوس رأى فيها الكنائس تنمو ، ولكن لتدمر سنة ٣٠٣ وشهد فيها بداية فترة طويلة من الاضطهاد بدا التسامح الجديد تجاه الكنيسة كأنه نعمة خاصة من نعم الله . وتغير طابع القدس بسرعة . وبعد تولي قسطنطين السلطة بسبعين عاماً امتلأت المدينة بالرهبان والراهبات ، وكانت الصلوات العامة بالقدس تقام باللغة اليونانية بحضور ترجمان كان يردد الكلمات بالأرامية^(٦٤) . وهكذا كانت الكلمات بلغتي سوريا كلتيهما . ولكن عند مجيء الأجانب ، الناطقين باللاتينية مثلاً ، كان هناك تراجع غير رسمي إلى اللاتينية . وكان الزوار الاجانب يفدون إلى القدس باعداد كبيرة^(٦٥) . وبعضهم عاد ليذيع الانباء عن وجود كنيسة نشطت من جديد في القدس ، ولاحظ الزوار بعض أعرافها فاتبعوها لدى عودتهم إلى بلدانهم . وبقي بعض الزوار الاجانب في المدينة واصبح الكثيرون منهم رهباناً وراهبات . إن حياة الرهبنة بدأت في مصر ولكن سرعان ما

اكتسب الرهبان والراهبات في فلسطين سمعة في القداسة، واصبحت البرية الكاثنة شرق القدس مدرسة للرهبان من مختلف الجنسيات: اللاتين والفرس والهنود والحيش والارمن. ولما كان الرهبان في الصحراء فقد كان لهم نفوذ كبير على القبائل البدوية. وقد قام القديس افثيموس، احد اعظم رهبان الارمن، بتنصير أسبييت Aspebet، وهو عربي منفي من بلاد فارس، وجعله اسقفاً لقبيلته. ودعيت الأبرشية «المعسكر». (٦١) .

وحدث انقطاع في سلام الكنيسة الجديد سببه حكم يوليانوس. فقد قرر يوليانوس بوصفه الامبراطور الروماني تشجيع كل الناس على العودة إلى ديانتهم القديمة. ولذلك منح اليهود حق العيش في القدس وفرصة اعادة بناء هيكلهم. وداخلت بعض اليهود الشكوك فيما إذا كان أمر يصدره امبراطور روماني هو الطريقة الصحيحة للشروع في اعادة البناء، لانهم كانوا ينتظرون ان تكون علامة ذلك هي عودة المسيح. وبدأ العمل في بناء الهيكل ولكنه توقف بسبب زلزال. وإذ كان يوليانوس نفسه قد توفي بعد شهرين فان الامبراطور الذي خلفه كان مسيحياً ارثوذكسياً، وتم التخلي عن البناء (٦٢).

كان عدد اليهود قد قلّ كثيراً بسبب الحرب اليهودية الثانية، وبعد سنة ١٣٥ هرب كثير منهم إلى سوريا ومصر. وبعد أن كانوا يشكلون حوالي ثلثي السكان، أي الاغلبية في فلسطين، أنقص عددهم إلى الثلث، كما يقول البروفسور مايكل أفي-يونا. وبصرف النظر عن دراساته التي تتعلق بالسكان اليهود في فلسطين، فما هو الدليل الآخر الذي يمكن أن نسوقه لنعرف من كان يعيش في فلسطين في العصر البيزنطي؟

إن الناس في الواقع لا يمكن عدّهم، لاننا لا نعرف المجموع. لنخمن انهم كانوا حوالي مليونين، كما كان عددهم في فلسطين سنة ١٩٤٧. هناك في الحقيقة طريقتان سهلتان (والى ذلك الحد لا يمكن الركون اليهما) للحكم على التكوين الديني للسكان. الأولى هي أن نعدّ القرى في قائمة نشرت سنة ٣٣٧ ب.م. ونرى إن كان اي منها قد وصف باوصاف دينية (٦٣). والثانية أن نعد المباني الدينية التي تم الكشف عنها في الفترتين الرومانية والبيزنطية.

وقائمة القرى جمعها اوسابيوس القيسري لتحقيق مواقع الاماكن المذكورة في الكتاب المقدس. وهي قائمة ناقصة، لانها تقصر اهتمامها على هذا الموضوع. ونجد خلاصة لتناجها في الشكل ٨، الرسم البياني الايسر. هناك ٢٨٧ قرية لم تذكر دياناتها. وهناك ١١

قرية يهودية وصفت، ما عدا اثنتين منها، بأنها كبيرة، وربما ست قرى سامرية، وثلاث فقط مسيحية. ولما كان الكتاب المقدس لا يصف اي مواقع في الجليل، حيث كان يعيش نصف اليهود، فمن غير المحتمل أن تضم نسبة كافية من اليهود، مع أن نسبة السامريين والمسيحيين قد تكون صحيحة بالنسبة لسنة ٣٣٧.

والطريقة الثانية للعدّ هي أن نجمع كل البيانات الدينية التي كشف عنها من هذه الفترة^(٩٩). يقدم الرسم البياني اليمين في الشكل ٨ خلاصة لهذه المباني. ولكن لنذكر أن جميع المباني الدينية التي بنيت في اي وقت خلال هذه الفترة مشمولة. وبلغ عدد هذه المباني ٣٥٦ مبنى: ٢٦٠ كنيسة، و٨٥ كنيساً يهودياً، و١١ كنيساً سامرياً. وهذه الطريقة قاصرة ايضاً إذ لا يقال شيء عن الديانات الأخرى. ومن بين الكُتُب ربما بطل استعمال اكثر من ثلاثة قبل مضي نصف هذه الفترة بمدة.

والواقع أن أفى - يونا يخرج بنتائج تجعل هذه الأرقام مفهومة لدينا إلى حد كبير. إن تخمينه حول تأثير الحرب اليهودية الثانية على اليهود موضع في الجانب الايسر من الرسم البياني في الشكل ٩. وهو يذهب إلى أن الاضطرابات الاقتصادية والسياسية في القرن الثالث أدت إلى انقاص الجزء اليهودي من السكان من الثلث إلى الخمس، وطراً من بعد تراجع ثابت ولكنه بطيء إلى حوالي ٩٪^(١٠٠). إن أرقامه لا تتفق تماماً وتلك التي نخرج بها من الطريقتين الآخرين، ولكنها تنسجم معها. والنتيجة واضحة على الأقل لبيان أن اليهود كانوا بعد نهاية القرن الثالث اقلية صغيرة في فلسطين. فمعظم القرى التي وصفها اوسابيوس سنة ٣٣٧ كانت قرى وثنية بيد أن العدد الكبير من الكنائس التي كشف عنها تبين أن معظم السكان تنصّر قبل سنة ٦٣٧ ب.م. وهي نهاية الفترة التي يغطيها هذا الفصل.

وتميّز القرنان الأخيران من الحكم البيزنطي في فلسطين بخلاف شديد كان في ظاهره مذهبياً. وقد بدأ الخلاف في مجمع إفيسوس الذي حضره اساقفة الكنيسة كلها، فيما عدا الاساقفة السوريون، ومثلو بابا روما. ونجح المجمع في نفي نسطوريوس من بطريركية كنيسة القسطنطينية. وكان من نتائج ذلك أن اتباع نسطوريوس، في شمال سوريا اساساً، شكلوا كنيستهم اخاصة بهم، معارضين بذلك وجهة النظر الرسمية للامبراطورية. ويعد ذلك بستين حصل اتفاق بين مثل وجهة النظر الرسمية والاساقفة السوريين. ولكنه لم يتم

كسب الاساقفة بحيث يتبنون راي المجمع بدقة ويؤيدونه . والواقع أن هذا الخلاف المذهبي كانت له صلة ايضاً بقضية الاستقلال عن سلطة بيزنطة ، وكان من شأنه أن يستمر ليس الى سنة ٦٣٧ فحسب بل إلى الوقت الحاضر ايضاً .

وفىما يتعلق بالقدس كان الاسقف الذي انتخب سنة ٤٢٨ هويوفنال ، الذي لم يرض بكونه اسقفاً بل اراد أن يكون بطريكاً . وقد عرض مطالبه على مجمع افيسوس ولكن المجمع رفضها . وبعد ذلك ، وفي سنة ٤٣٨ ، حضرت إلى القدس للحج الامبراطورة اودوكيا التي كان من شأنها أن تغدو خصماً ليوفينال طيلة ثلاثة عشر عاماً . لقد احبت اودوكيا القدس ، وعندما نشب خلاف بينها وبين اسرتها في سنة ٤٤٤ ، وخصوصاً مع اخت الامبراطور بلخيريا Pulcheria ، نفيت اودوكيا إلى القدس . ونظراً لرتبتها فقد حكمت فلسطين .

ومنذ البداية ، وإلى حد بعيد بسبب خلافها مع بلخيريا ، عارضت الرأي البيزنطي الرسمي في المذهب المتنازع عليه وأيدت استقلال الحركة التي شملت عدداً كبيراً من الرهبان في جميع انحاء سوريا وفلسطين . وكانت كريمةً للغاية في معاملتها للمسيحيين وبنيت لهم كثيراً من الاديرة والأنزال (الهوسبيسات) والكنائس . ورجع لها كثير من العلماء المحدثين ايضاً الفضل في بناء اسوار القدس ، ولكن «الاسوار» قد تعني في الواقع المباني الكنسية . ويستند هذا إلى قول مقتبس تداوله بلا شك الناس الذين كانوا يرغبون في الحصول على اموال من اودوكيا . واودوكيا تعني في اليونانية «الرُضى» . ويقول المزمور ١٨:٥١ : «أحسن برضاك (Eudokia) إلى صهيون . ابن اسوار اورشليم»^(٧١) .

وفي سنة ٤٥١ انعقد مجمع دولي آخر للاساقفة دعت اليه بلخيريا ، في خلقدونية ، وكان من منجزاته الصغيرة أن مطالبة يوفينال بأن يصبح بطريكاً تكلمت بالنجاح سنة ٤٥١ . وقد نشأ اعتقاد بأن البطريرك حديث الانتخاب حصل على بطريركيته عن طريق الخيانة . وبلغ اودوكيا نبأ هزيمة الحزب الذي كانت تؤيده ، وأن هذا الحزب ، وهم الذين



يعتقدون بطبيعة واحدة للمسيح - مونوفيزايت - كما كانوا يدعون، أسس كنائس منفصلة مثلها الحديثون هم الإقباط والاحباش واليعاقبة السوريون، الأمر الذي نتبين فيه المدى الذي انتشرت فيه المعارضة جغرافياً. وعين في القدس اسقف مونوفيزي هو الراهب ثيودوسيوس. وعندما عاد يوفينال بوصفه بطريكاً مع حرس من الجند اضطر إلى الاختباء في صحراء روبا Ruba إلى الغرب من قُمران بالضبط^(٧٢).

وعندما توفي الاسقف ثيودوسيوس في سنة ٤٥٧ نظرت أودوكيا إلى الفوضى السائدة في الكنيسة. وإذا لم تدر ما تفعل فقد كتبت إلى اقدس رجل عرفته وهو القديس سيميون ستيليتس St Simeon Stylites الذي كان يعيش فوق عاموده قرب انطاكية، وطلبت منه معلماً فأجابها القديس سيميون بأن لديها معلماً على مرمى الحجر منها هو الراهب افثيميوس. وقابلت افثيميوس وبلغ من تأثيره عليها أنها تصالحت مع البطريرك الارثوذكسي انسطاسيوس الذي خلف يوفنال^(٧٣). وآخر عمل قامت به اودوكيا هو بناء كنيسة القديس اسطفان على بعد ٣٥٠ متراً شمال باب العامود. وانتهى العمل في المبنى سنة ٤٦٠، وادعت فيه بقايا القديس اسطفان. وماتت اودوكيا بعد ذلك بوقت قصير جداً ودفنت أيضاً في الكنيسة^(٧٤).

لم تتم استعادة الصلح المذهبي إلى الكنيسة بعد. وتوالى المشاجرات في السنوات التسعين التالية. وهدد السلام تصميم الساميين على اعلان دولة مستقلة. وفي سنة ٤٨٤ ثار هؤلاء ونادوا بشخص يدعى يوستوس ملكاً عليهم. ولاحق بهم الامبراطور زينون هزيمة قاسية وبنيت كنيسة فوق مذبحهم على جبل جرزيم. وفي سنة ٥٢٩ ثاروا ثانية في عهد الامبراطور جستنيان. وكانت ثورتهم هذه المرة بقيادة ملك يدعى يوليانوس، ولاحقوا اضراً بالغة بالكنائس. وفي منطقة القدس دهررو الكنائس في عمواس (نيقوبوليس، الان اللطرون) وبيت لحم. وكان الامبراطور جستنيان آخر ملك يبني كنيسة في القدس في الفترة البيزنطية^(٧٥). فالى جانب اعادة بناء كنيسة في بيت لحم واصل جستنيان بناء كنيسة كان قد خطط لبنائها البطريرك العربي إلياس والقديس سابا ودعت «الكنيسة الجديدة لوالدة الله». وقد دمرت الكنيسة بفعل زلزال ولكنه تم الكشف عن اساساتها. وضم مجمع الكنيسة مستشفيين يحتويان على مائة سرير للحجاج ارضى ومائة اخرى للسكان المحليين^(٧٦).

وهذه هي آخر كنيسة على الخريطة النيسيفسائية للارض المقدسة، التي عثر عليها

فوق ارضية كنيسة بيزنطية في مادبا عبر الاردن . وقد صُنعت هذه الخريطة حوالي سنة ٥٧٥ ، وهي تظهر في اللوحة رقم ١٠ . والجزء العلوي من الخريطة يشير إلى جهة الشرق . وربت الاسوار في شكل بيضاوي تنقصه الزاوية اليسرى من الاعلى ؛ وربما ضم هذا الجزء برك سلوان وكنيستها . ولا يظهر في الخريطة سوى الحائط الغربي لفناء الهيكل . والشارع الاكثر انخفاضاً بين الشارعين المَعْمَدَين (انظر الشكل ١٠) يجتاز كنيسة الشهداء ، التي تظهر مقلوبة بوصفها المَعْلَمَ المركزي تحت الشارع السفلي ، ثم يمتد إلى «الكنيسة الجديدة لوالدة الله» . وينتهي عند سور صهيون . والخط العمودي إلى يمين الكنيسة الجديدة ربما يمثل تنمة الشارع حتى شرقي السور . وعند نهاية الشارع المَعْمَدَ العلوي هناك قوس قرب الباب الشمالي ربما كان الباب القديم للسور الذي طُوّقَ به هيرودس الكبير منطقة السوق . وتستمر الطريق إلى اليمين ولها شعبة تتجه إلى الباب الشرقي ، ثم تسير إلى الجسر الذي يحمل الطريق من المدينة العليا إلى منصة فناء الهيكل . ولا يمكن رؤيتها فيما وراء ذلك ، ولكنها مُدّت ايضاً ، كما تظهر الحفريات ، إلى ما بعد باب الدَمَنَ Dung Gate الحالي* . والكنائس التي يمكن تحديد هويتها هي الكنيسة القسائمة عند بيت حسدا قرب الباب الشرقي ، وصهيون المقدّس في الزاوية اليمنى السفلى ، وكنيسة إلى اعلى تلي الكَسْرَ وتلي الجسر . وهذه هي كنيسة الحكمة المقدسة ، وهي المكان الذي أحيأ فيه المسيحيون ذكرى محاكمة المسيح امام بيلاطس . ويرينا الشكل ١١ خريطة القدس في القرن السادس .

دأب البارثيون على مهاجمة روما منذ سنة ٤١ ق . م . ولكن في سنة ٢٢٤ ب . م تغلب أردشير ، حفيد «ساسان» ، على البارثيين واوجد امبراطورية فارسية ساسانية جديدة^(٧٧) . ووجد هذا المَجْجُوم على روما . وفي سنة ٢٦٥ ب . م وقع الامبراطور فاليريان نفسه في ايدي الفرس . وعقد جستنيان معاهدة صلح مدتها خمسون سنة مع بلاد فارس ، ويدين كسرى الثاني بمكانه على سُدّة العرش الفارسي بصورة جزئية إلى صداقته مع الامبراطور البيزنطي موريس . بدأ كسرى يحكم سنة ٥٩١ . بيد أن موريس مات سنة ٦٠٢ وغزا كسرى سوريا . وعندما احتل قائده شَهْرَبَارز دمشق سنة ٦١٣ عزل فلسطين ، وفي سنة ٦١٤ زحف نحو القدس . وكان كسرى صديقاً للسامريين واليهود الذين اضطهدهم أباطرة الرومان . وقد رغب بعض المسيحيين في القدس في التعامل معه ، واجدر هؤلاء بالذكر البطريرك

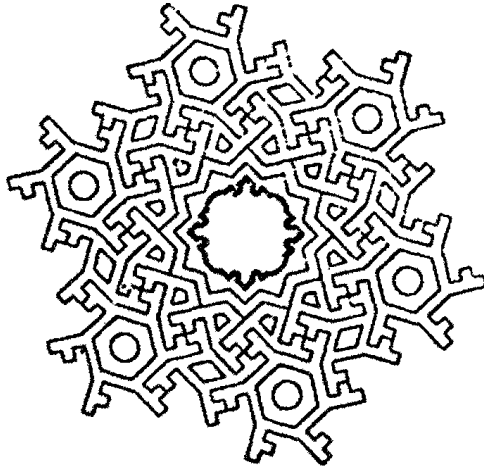
* وهو الباب الذي نسميه الان باب المغاربة - المترجم .

زخريا . ولكن لم يسمح له بأن يفتح كسرى . وقد ادى قتال بين الشبان المسيحيين واليهود الى تعكير السلام . وبدأ الفرس لذلك في محاصرة القدس ، ودخلوا المدينة بعد اربعين يوماً وذبحوا عدداً كبيراً من سكانها واحرقوا الكنائس^(٧٨) . وأخذ عدد كبير من الاسرى المسيحيين إلى بركة مأملاً ويبيعوا عبيداً او ماتوا هناك . وعندما احصى عدد الموتى كان هناك منهم ٨٧٧ ، ٣٣^(٧٩) . اما الاسرى الذين كانت فيهم فائدة محتملة للفرس فقد أخذوا إلى ستيسفون (المدائن) عاصمتهم ، وذهب معهم البطريرك زكريا حاملاً معه البقية التذكارية للصليب من القبر المقدس .

وتركت المدينة تحت سيطرة اليهود بينما واصل الجيش الفارسي سيره . ولكن الفرس ادركوا بعدئذ ضعف اليهود في البلاد جميعها . وهكذا اخذوا زمام السيطرة في القدس من ايدي اليهود وطردوهم من المدينة بالقوة ، وسمحوا باعادة ترميم الكنائس . وفي سنة ٦٢٨ قام الامبراطور هرقل بعد حملات عسكرية طويلة بهجوم معاكس ووصل إلى ستيسفون . وجاءت الانباء بموت كسرى . ولم يكن الجيش الروماني موضع ترحيب على الاطلاق قرب العاصمة الفارسية عندما كان هؤلاء الذين كان من المحتمل ان يرثوا ملك فارس يبدأون منافساتهم . ولذلك فإن هرقل نجح في تأمين عودة الولايات البيزنطية التي كان الفرس قد غزوها ، واطلاق سراح الاسرى واعادة البقية التذكارية للصليب . وفي سنة ٦٢٩ أعاد الصليب التذكاري إلى القدس .

بينما كان الجيشان الروماني والفارسي يواجهان بعضهما بعضاً ظهر تهديد جديد لكليهما في شبه الجزيرة العربية . وقد دعا هذا الخطر الجيش الامبراطوري النزول إلى مؤتة على بعد ستة اميال جنوب الكرك . وهزم ثلاثة من القادة كان النبي محمد قد ارسلهم . ولم ينج سوى القائد الذي عينه الجيش بعد قتل الثلاثة ، خالد بن الوليد . وبعد ذلك بخمس سنوات عاد العرب ووصلوا إلى ضواحي غزة . واتجهوا شمالاً وحاربوا القوات الامبراطورية عند اجنادين ، على بعد عشرين ميلاً إلى الجنوب الغربي من القدس . وهُزمت القوات الرومانية ، وخشي الناس في المدن بقية ذلك العام الخروج من الاسوار خوفاً من تعرضهم للهجوم . بل انه تعذر على صفرونيوس بطريرك القدس أن يسافر مسافة قصيرة إلى بيت لحم في يوم عيد الميلاد^(٨٠) . وحلت هزيمة أخرى بالجيش الروماني عند اليرموك سنة ٦٣٦ وانسحب الجيش اخيراً من سوريا .

وبقيت القدس سليمةً . وظل الامل يخالج بعض سكانها في عودة الجيش الروماني .
وحاصر العرب المدينة سنة ٦٣٧ ولكنهم ترددوا في تشديد الوطأة عليها لانهم لم يكونوا على
إلمام باقتصاد سورية ورغبوا في أن تظل ثروتها بادارة الناس الذين أداروها من قبل . وفي سنة
٦٣٧ تلقى الخليفة عمر رسالة بأن ايليا سوف تستسلم ولكن له شخصياً دون سواه ، ولذلك
فقد انطلق من الجابية قرب بحيرة طبريا ، ليتسلم المدينة وشيكاً من البطريرك ، وليضمن
بالمقابل سلامتها .

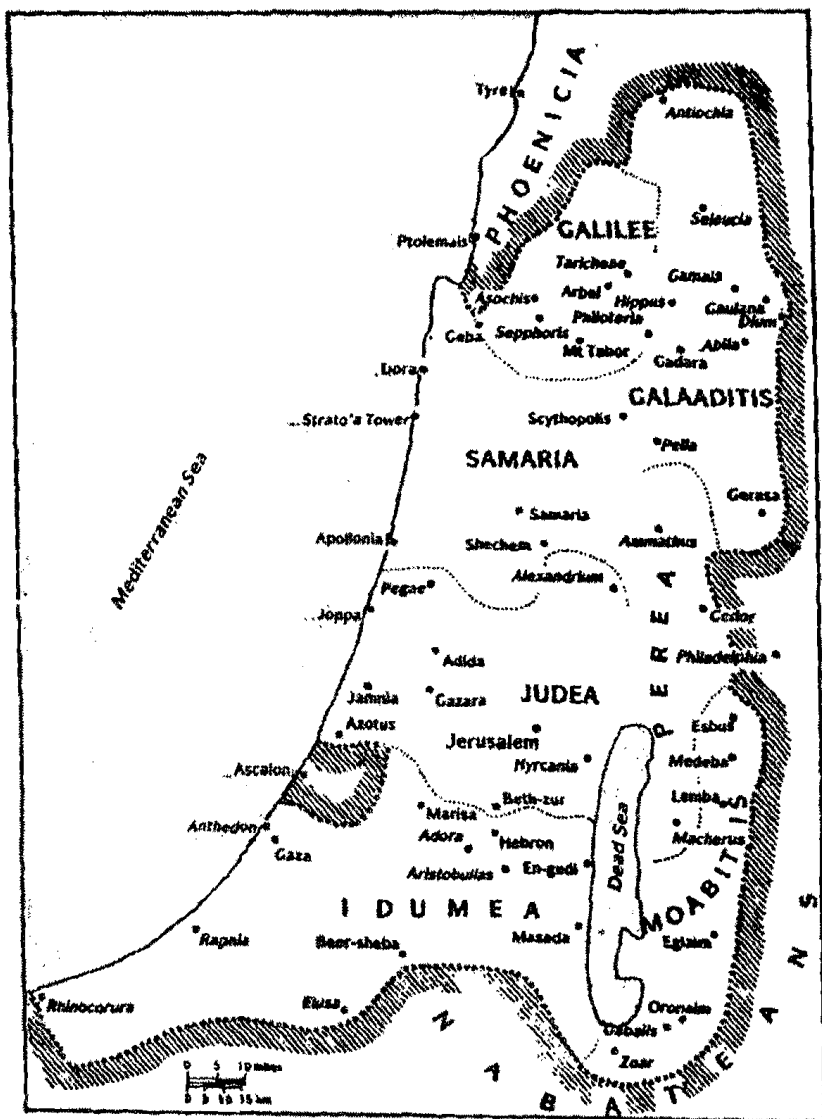


الحواشي

- 1 Josephus, *War*, 1, 403.
- 2 Strabo, *Geography*, XVI, 2, 34 (Loeb vol. VII, 281). See also *The History of Barsauma of Nisibis*, ed. F Nau, *Resumé de Monographies Syriacques*, 8(18), 1913, 274.
- 3 Josephus, *Antiquities of the Jews*, 15, 254, 365.
- 4 Junior Philosophus, ed. A Riese, *Geographi Latini Minores*, Heilbron, 1878, 110f.
- 5 Josephus, *War*, 1, 155–58.
- 6 Ibid, 203.
- 7 Ibid, 181.
- 8 Ibid, 349–53.
- 9 Ibid, 388–90.
- 10 Ibid, 426–28.
- 11 Josephus, *Ant.*, 15, 292.
- 12 Ibid, 311.
- 13 Ibid, 318.
- 14 Josephus, *War*, 2.439, 5.163–5.
- 15 See N Avigad, *Discovering Jerusalem*, Nashville, Tennessee, 1983, 83–95 and figure 77.
- 16 Josephus, *Ant.*, 15.388–90.
- 17 Ibid, 20.219.
- 18 Josephus, *War*, 5.190–2.
- 19 Josephus, *Ant.*, 15.412–13.
- 20 Josephus, *War*, 5.146.
- 21 See R Blomme, 'Faut-il revenir sur la datation de l'Arc de l'“Ecce Homo”?', *Revue Biblique*, 1979, 244–71.
- 22 Josephus, *War*, 5.181.
- 23 Josephus, *War*, 2.44 and *Ant.*, 15.268.
- 24 Josephus, *Ant.*, 17.189.
- 25 Josephus, *Ant.*, 17.355.
- 26 Luke 2:1.
- 27 Matthew 2:16.
- 28 Mark 8:29.
- 29 John 9:7.
- 30 John 5:2.
- 31 Mark 14:32, and Josephus, *War*, 6.5–6.
- 32 John 19:42.
- 33 Acts 5:39.
- 34 Josephus, *Ant.*, 20.161, 168, 171.
- 35 Josephus, *War*, 2.296.
- 36 Ibid, 540.
- 37 Ibid, 4.588.
- 38 Josephus, *Ant.*, 15.396.
- 39 Josephus, *War*, 6.374.
- 40 Ibid, 7.1.
- 41 Dio Cassius, *Roman History*, 78.14.5. (Loeb vol. VII, 389).
- 42 Libanius, *Letter*, 337.
- 43 Justin Martyr, *I Apol.* (tr. T B Falls in series FC = Fathers of the Church, 84), Eusebius, *Ecl. Hist.*, 4.6.
- 44 The late Professor Michael Avi-Yonah's reconstruction in *The Jews of Palestine*, Oxford, 1976, 19, 132–3, 222, 241.
- 45 *Paschal Chronicle* in *Patrologia Graeca*, 92.613.

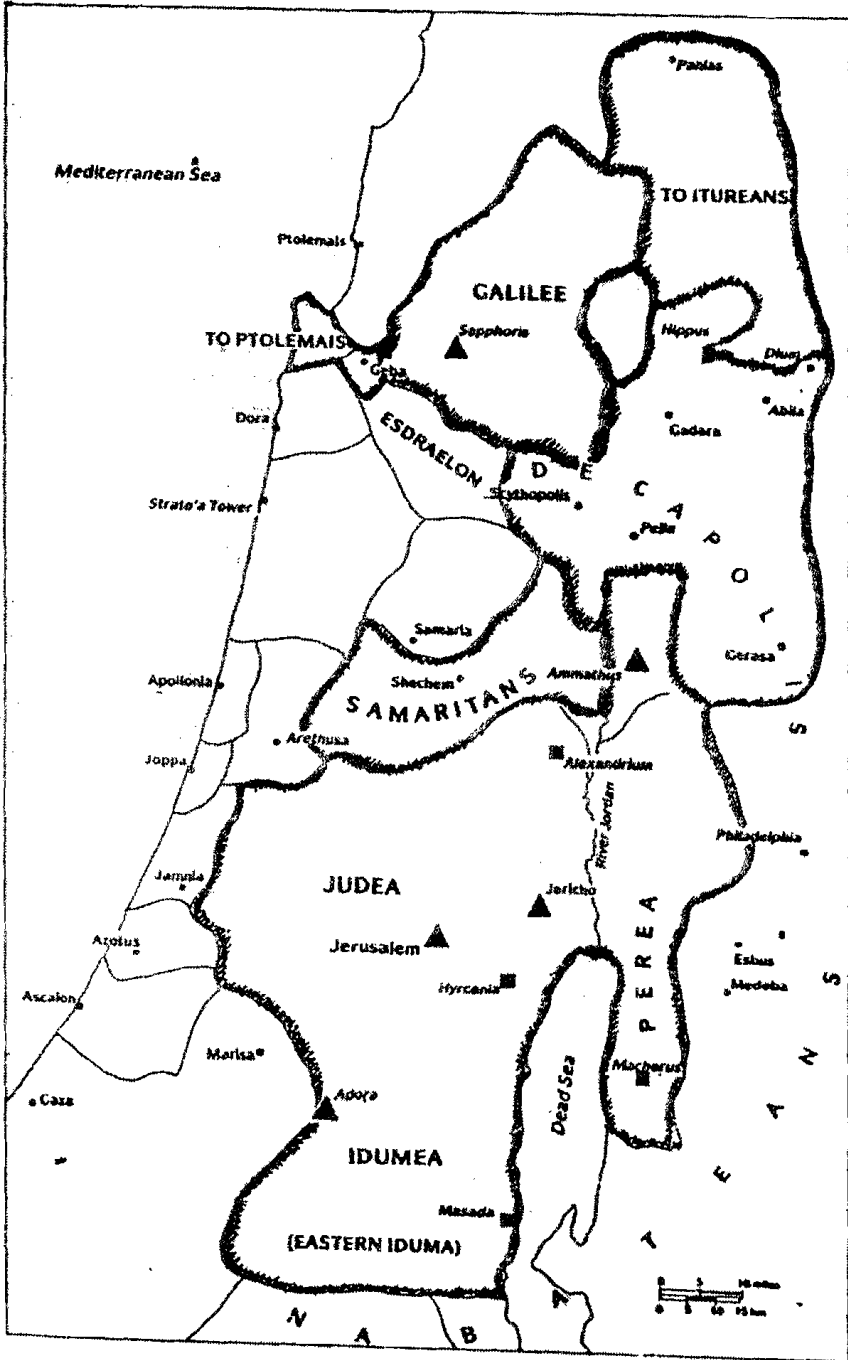
- 46 *Itinerarium Burdigalense* in *Corpus Christianorum* 175, 13–21, and English translation in J Wilkinson, *Egeria's Travels*, Warminster, 1981, 153–63.
- 47 Mehto of Sardis, *On Pascha*, ed. S G Hall, 72, 94.
- 48 Origen, *C. Matt.*, 24.15 (Fr. 469, iv), GCS X:1, 193f.
- 49 Dio Cassius, *Roman History*, 69.12 (Loeb vol. VII, 447).
- 50 *Itin. Burd.*, 593.2, 17 (tr. 158).
- 51 Antoninus Piacentinus, *Itin.*, 23 (*Corpus Christianorum* 175, 141 and translation in J Wilkinson, *Jerusalem Pilgrims before the Crusades*, Warminster, 1977, 84).
- 52 *Acts of John* 97:102 (tr. M R James, *The Apocryphal New Testament*, Oxford, 1924, 254), Eusebius, *Dem. Ev.* IV.18.20–23 (GCS[VI], 278), *Itin. Burd.*, 595.5 (18, tr. 160).
- 53 Eusebius, *Ecl. Hist.*, 4, 6 (tr. McGiffert in series NPNF = Nicene and Post-Nicene Fathers, 177) and Cyril of Jerusalem, *Cat.*, 16.4 (tr. L P McCauley in *FC* second vol., 78).
- 54 Hebrews 12:22.
- 55 Eusebius, *Ecl. Hist.*, 8.1–2 (tr. 323).
- 56 See F M Abel, *Histoire de la Palestine*, vol. 2, Paris, 1952, 199.
- 57 Eusebius, *Ecl. Hist.*, 8.1–2 (tr. 323).
- 58 Eusebius, *Life of Constantine*, 1.27 (tr. McGiffert, NPNF, 489).
- 59 Zephaniah 3:9, cited by Cyril of Jerusalem, *Cat.*, 14.9, PG, 33.832 (tr. second vol. 35).
- 60 Philostorgius (ed. J Bidez, fr. 13, GCS 208) quoted by Theophanes, *Chronographia*, ed. de Boor, 33.11.
- 61 Eusebius, *Life of Constantine*, 3.33–39 (tr. 529f.).
- 62 *Itin. Burd.*, 591.5 (16, tr. 197), Exodus R. 2.2
- 63 Jerome, *Comm. Soph.*, 1.15 (ed. M Adrian, *Corpus Christianorum* 76A, 673).
- 64 *Egeria's Travels*, tr. J Wilkinson, 47.3–4, 146.
- 65 Jerome, *Ep.*, 46.10, 108.33 (tr. W H Fremantle, NPNF, 211).
- 66 Cyril of Scythopolis, *Life of Euthymius*, 78 (tr. Festugière, 24.17) and 80 (26.12).
- 67 Gregory of Nazianzus, *Or. V. contra Julianum*, 4 (GCS 35, 688).
- 68 Eusebius, *Onomasticon*, GCS III, 1.
- 69 Synagogues are taken from F Hüttenmeister and G Reeg, *Die antiken Synagogen in Israel*, (BTA VO B.12.1–2), Wiesbaden, 1977, and churches from A Ovadia and C G de Silva, *Levant* 16, 154–164.
- 70 M Avi-Yonah, *The Jews of Palestine*, 132–3, 241.
- 71 John Malalas, *Chron.*, 14, (PG 97.532–3).
- 72 Zacharias Rhetor, *Hist.*, 2, 3 (ed. E W Brooks, *CSCO Scr. Syr.* 3.5, 108–9).
- 73 Cyril of Scythopolis, *Life of Euthymius*, 102–3 (49.3).
- 74 *Ibid.*, 107 (53.5).
- 75 *Codex Iustin.* I, tit. V, 12, 10 and John Malalas, *Chron.*, 18 (PG 97.667).
- 76 Procopius of Caesarea, *The Buildings of Justinian*, 5.6.22–26 (Loeb vol. VII, 347).
- 77 Dio Cassius, *Roman History*, 80.3 (Loeb vol. IX, 483).
- 78 Sebeos, *Histoire d'Heraclius*, (tr. F Macler, Paris, 1904) 24, 64–70.
- 79 Strategius, *Capture of Jerusalem*, 9.5–6 (ed. and tr. G Garitte, *CSCO* 203, 16).
- 80 Sophronius, *Orat.* 1, *On the Birthday of Christ* (ed. H Usener, *Kleine Schriften* 4, Leipzig, 1913, 173, 175).





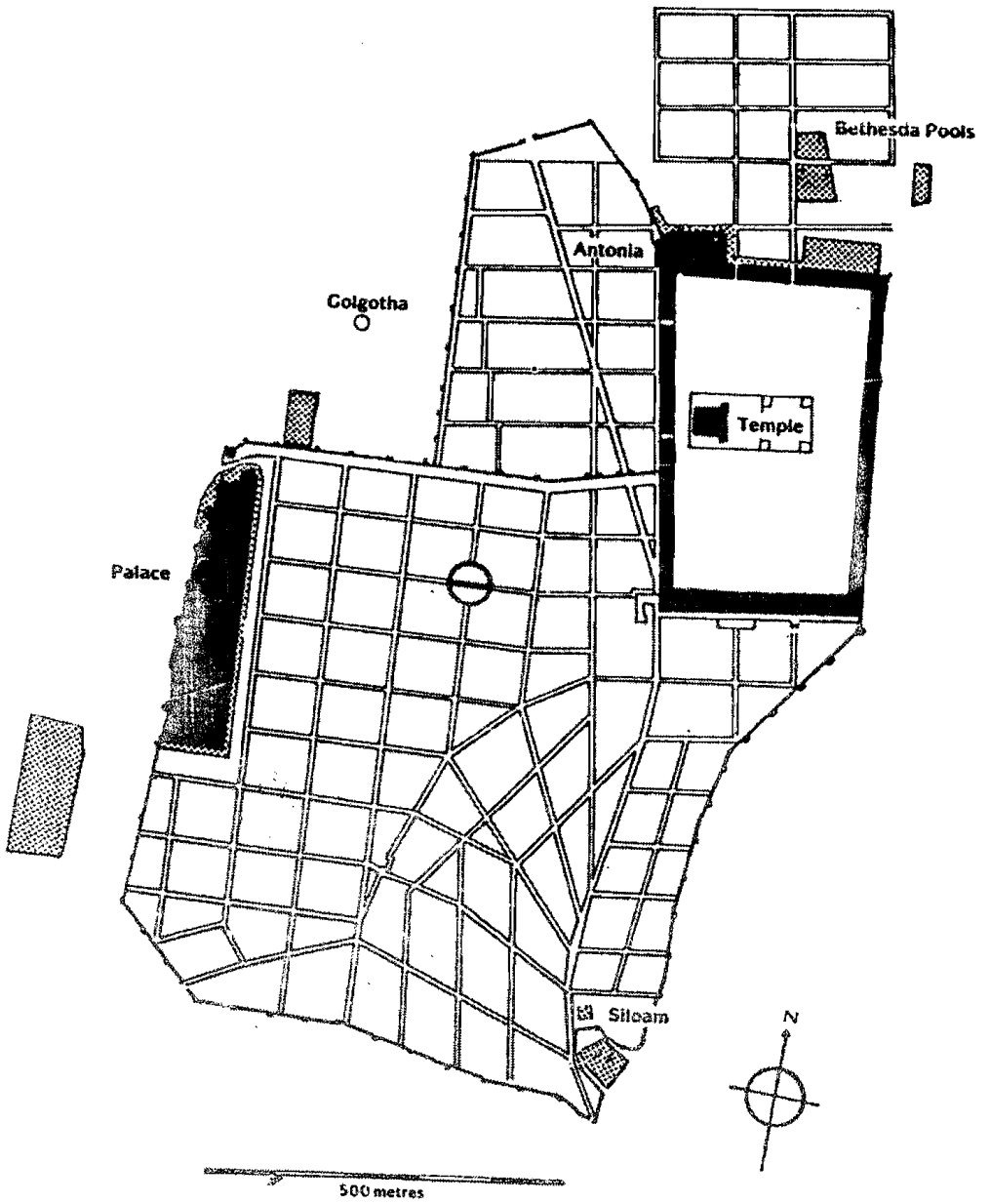
الشكل (1)

خريطة المملكة الحشمونية ٧٦-٦٥ ق.م.

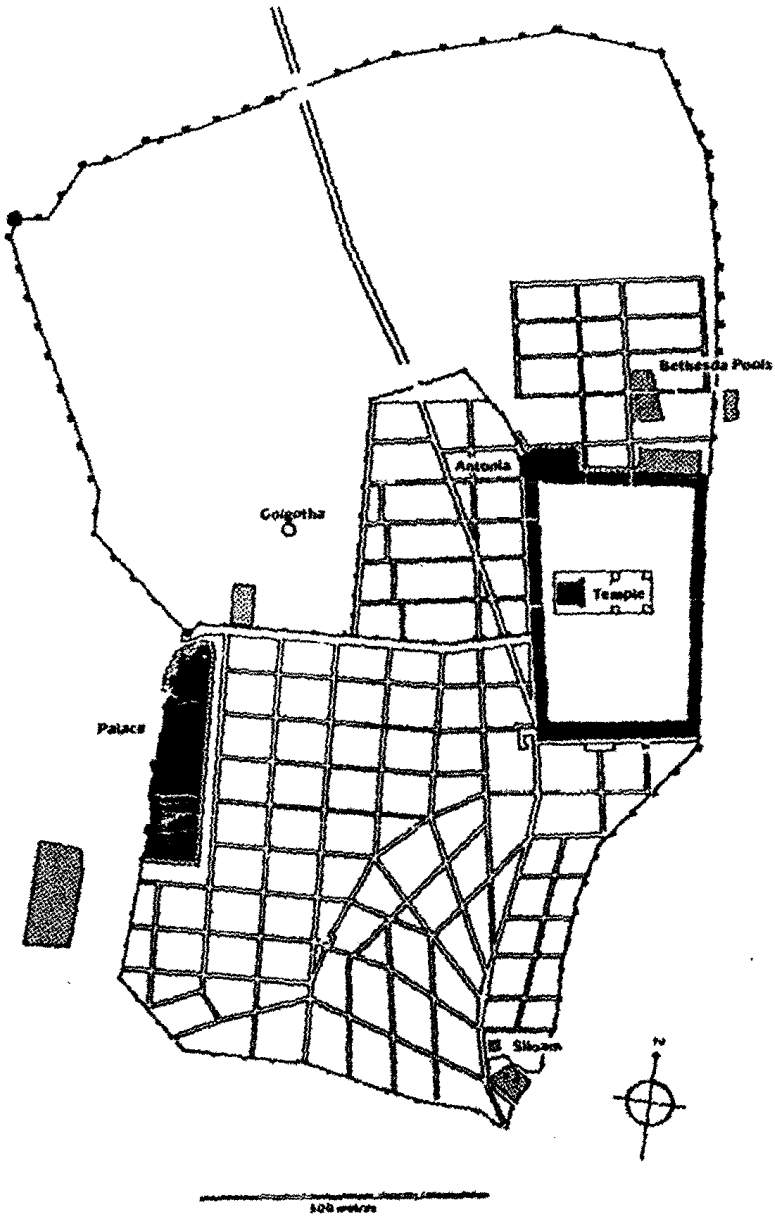


الشكل (٢)

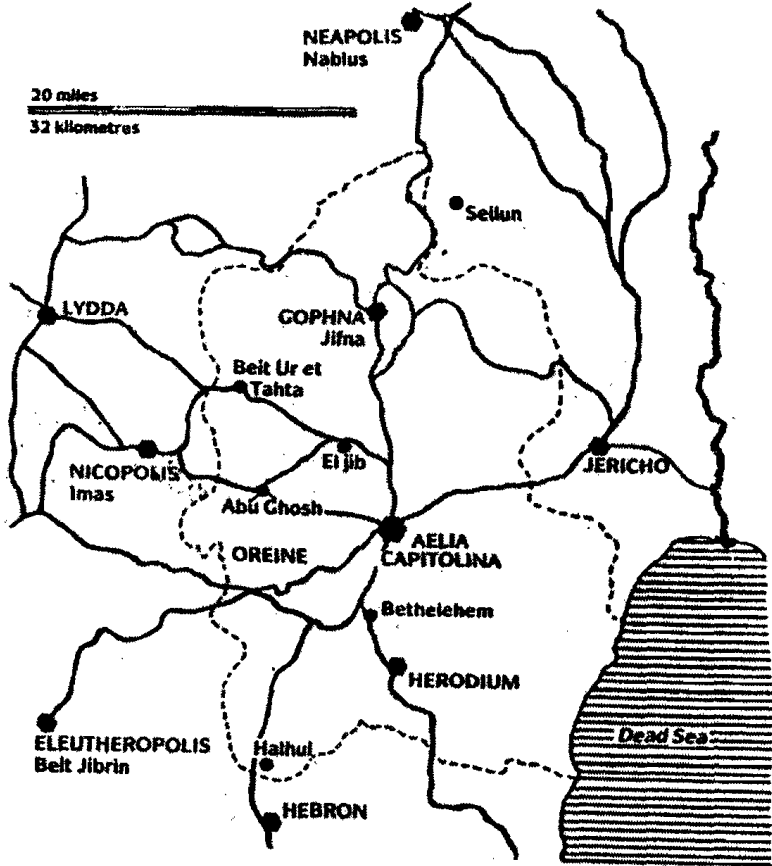
خريطة الترتيب الجديد للمملكة الحشمونية في زمن بومبي



الشكل (٣)
القدس في زمن هيرودس.



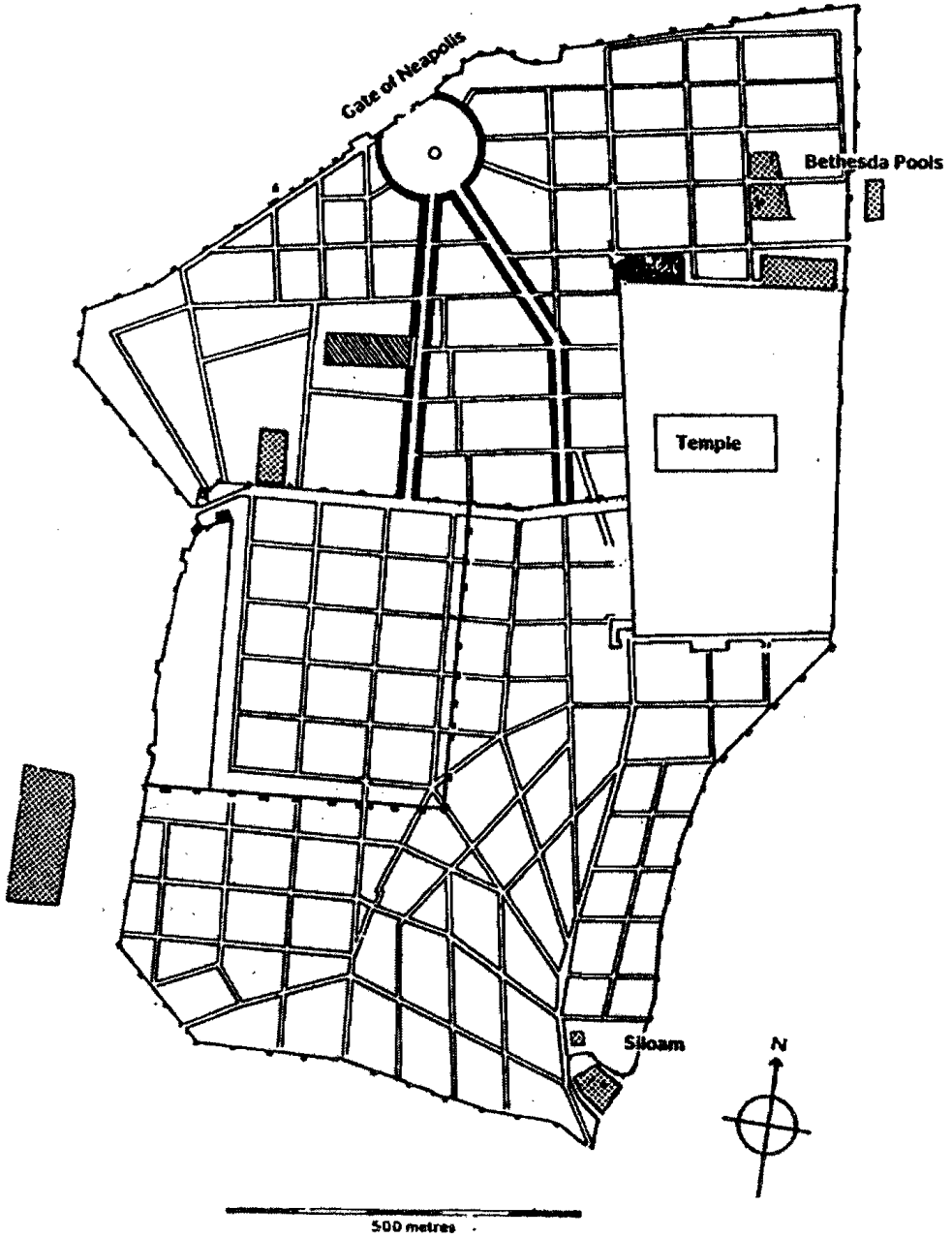
الشكل (٤)
القدس سنة ٦٨ ب.م.



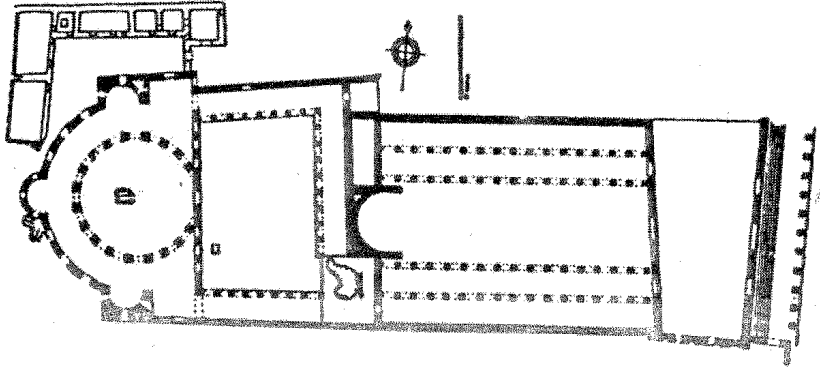
الشكل (٥)

لواء ايليا كايبتولينا، حيث منع اليهود من السكنى بعد سنة ١٣٥ ب. م.

Jerusalem under Rome and Byzantium 63 BC – 637 AD

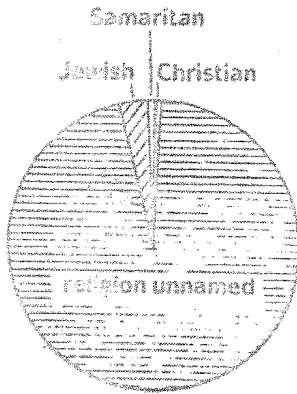


الشكل (٦)
إيليا كابيتولينا في أواخر القرن الثالث.

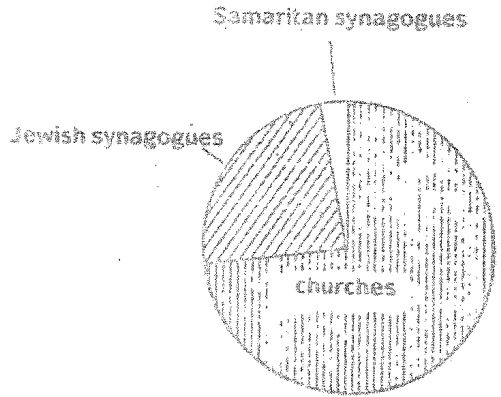


الشكل (٧)

مباني الكنيسة في موقع القبر المقدس في القرن الرابع.



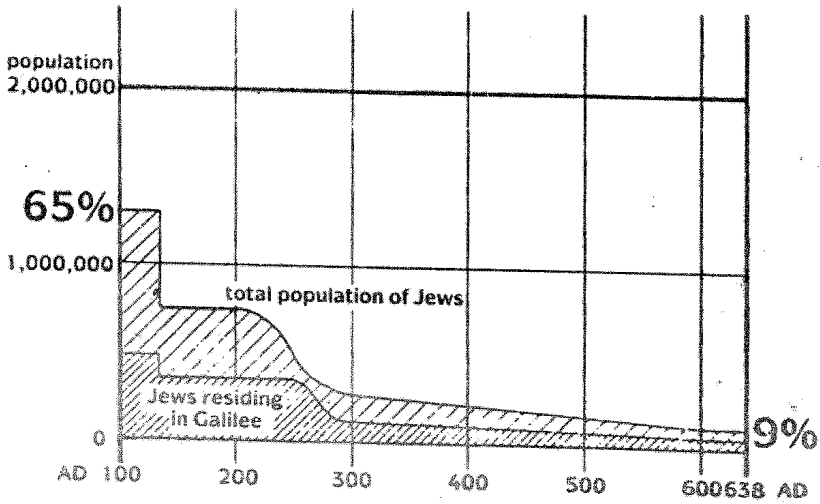
القرى في اوسايروس



المباني الدينية التي كشف عنها

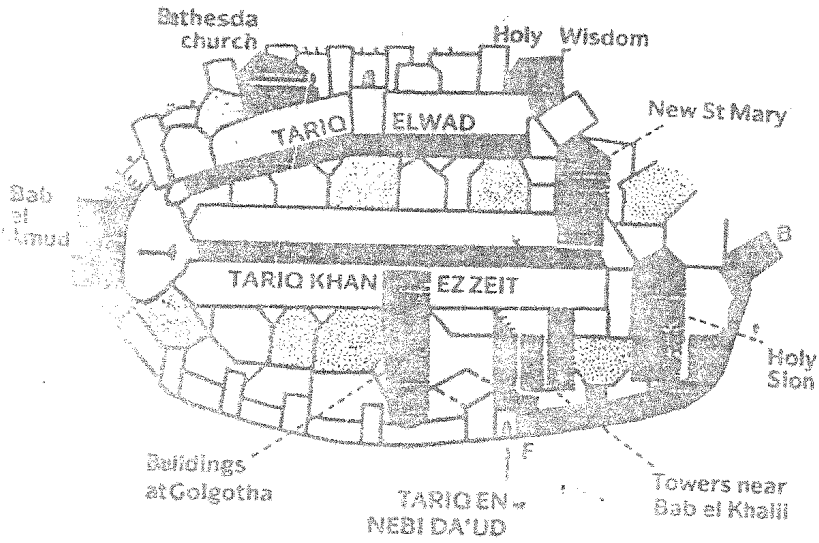
الشكل (٨)

احصاء اوسايروس للقرى حسب اديانها ومجموع المباني الدينية التي كشف عنها في فلسطين



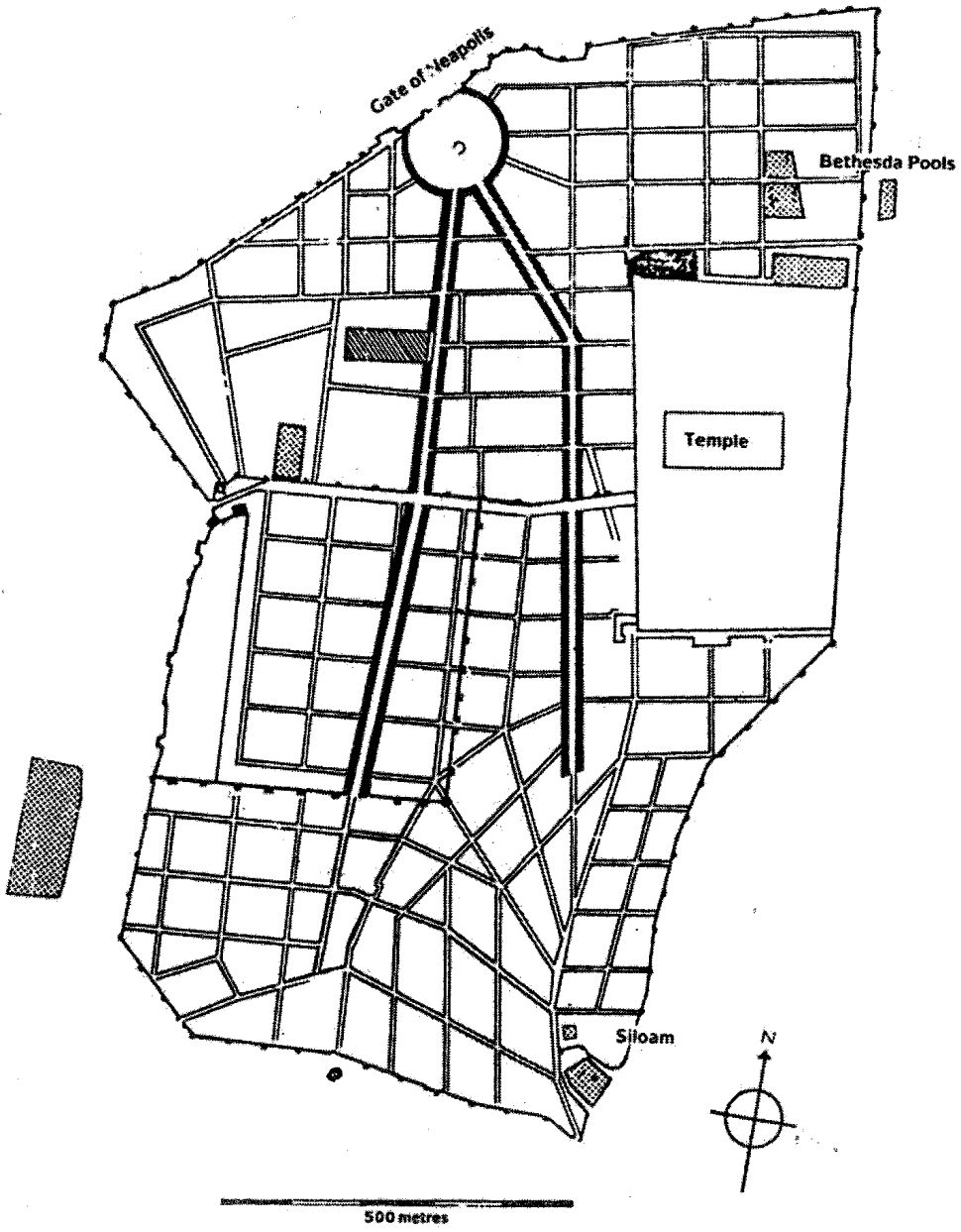
الشكل (٩)

شكل يمثل تقدير الأستاذ أفينا لعدد السكان اليهود في فلسطين البيزنطية.



الشكل (١٠)

دليل خريطة مادبا القيسارية



الشكل (١١)
القدس في أواخر القرن السادس ب. م.

الفصل الرابع

القدس في الفترة الإسلامية الأولى
(من القرن السابع حتى القرن الحادي عشر)

عبد العزيز الدوري

القدس في الفترة الإسلامية الأولى من القرن السابع حتى القرن الحادي عشر

عبد العزيز الدوري

تبدأ الفترة الإسلامية الأولى في تاريخ القدس بفتح المدينة وبعد وفاة النبي محمد بحوالي خمس سنوات وتنتهي باحتلال الصليبيين للقدس في سنة ١٠٩٩ .

بدأ تعظيم بيت المقدس منذ بداية الإسلام . إن آية الإسراء^(١)، التي نزلت بمكة قبل الهجرة بحوالي سنة (حوالي ٦٢١)^(٢)، تشير إلى الإسراء بالنبي من مكة (المسجد الحرام) إلى المسجد الأقصى . وهناك روايات كثيرة مبكرة تفسر الأقصى بأنه يعني بيت المقدس ، وبصورة أفضل الحرم ، وتضيف أن المعراج كان من هناك^(٣) . وتلت ذلك كثير من التفسير والقصص التقوية حول المعراج وتطورت بحيث أصبحت تشكل أدباً زاخراً .

وإزدادت حرمة بيت المقدس باتخاذها القبلة الأولى في المدينة* . ويروي الزهري (ت ٧٤١) أن المسجد الذي بناه النبي كانت قبلته تجاه بيت المقدس^(٤) . وتتفق الروايات المبكرة على أن هذا كان بعد الهجرة إلى المدينة مباشرة واستمر حوالي سنة ونصف^(٥)، قبل أن يؤمر المسلمون بالتوجه نحو مكة في صلواتهم .^(٦)

وقد أسهمت الأجداد إساهماً كبيراً في ترسيخ حرمة بيت المقدس، خصوصاً الحديث المشهور: «لا تشد الرحال الا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام (في مكة) ومسجدي (في المدينة) والمسجد الأقصى .»^(٧) ومع أن هذا الحديث يُروى بصيغ تختلف فيما بينها اختلافاً ضئيلاً، الا أنه أسبغ على بيت المقدس مكانة سامية^(٨) .

* نعتقد أن بيت المقدس كانت قبلة الإسلام الأولى منذ فجر الرسالة النبوية في مكة (المترجم) .

وهناك آثار أخرى تنسب إلى الصحابة والتابعين انتشرت في وقت مبكر وتعكس التعظيم المتزايد لبيت المقدس.^(٩)

اختلفت الأخبار في فتح بيت المقدس وتاريخه وزيارة عمر للمدينة والصلح الذي عقده معها. وتتلون هذه الأخبار بألوان المصالح المحلية والسياسية والدينية، وهذا مؤثر على المركز الخاص الذي تتمتع به المدينة.

وتختلف الأخبار حول تاريخ فتح المدينة وتسليمها، ويعطينا سيف بن عمر (١٨٠٠/٧٩٠)، كما ورد في الطبري، تاريخاً مبكراً أكثر من اللازم ٦٣٦/١٥^(١٠)، بينما يجعله بعض الأخبار في سنة ٦٣٨/١٧.^(١١) ولكنه يعتقد بصورة عامة أن عمر توقف في سرغ في سنة ١٧هـ^(١٢) بسبب الطاعون. وتجعل معظم الروايات المبكرة تاريخ الفتح في سنة ٦٣٧/١٦^(١٣) ويبدو أن هذا أكثر احتمالاً.

وتختلف الروايات أيضاً حول ما إذا كانت القدس قد استسلمت لقائد من القواد (أبو عبيدة) أو للخليفة عمر شخصياً. ونحن نجد تعليلاً جزئياً لذلك في زيارة الخليفة للمدينة، وهي زيارة مؤكدة. ويبين التحليل النقدي للمصادر أن الروايات الشامية تذهب إلى أن القدس جعلت وجود الخليفة شرطاً للتسليم وإلى أن الصلح أنفذه الخليفة نفسه^(١٤). أما الروايات المدنية^(١٥) والروايات الكوفية (عادة من الكوفة والمدينة)^(١٦) فتجعل تسليم القدس على يد قادة عمر. ويبدو أن الروايات التي تؤكد وجود الخليفة عند تسليم القدس وإجراء الصلح معها تريد إبراز أهمية المدينة. وتسير الروايات والقصص غير الإسلامية في الاتجاه ذاته، لأهمية ذلك عندهم.^(١٧)

لم تكن للمدينة أهمية عسكرية (أو استراتيجية) ولم يكن في وسعها الاصرار على شروط غير عادية مع الفاتح. وقد جرى التسليم والصلح بإشراف أبي عبيدة، وجاء عمر في ذلك الوقت إلى الجابية (المركز الرئيسي للقوات العربية) لينظر في أحوال الشام والقوات العربية هناك. ثم زار بيت المقدس بعدئذٍ، بلد الأسراء وأولى القبلتين. ولعل زيارته اعتبرت اقراراً للصلح، ولعل هذا وراء الروايات التي أوردت شرط حضوره التسليم^(١٨).

وتختلف الروايات ثانية حول شروط صلح القدس، وخصوصاً بين المصادر المبكرة والمتأخرة. ويبدو أن لذلك صلة بحرمة المدينة وكنائسها العظيمة وتطور العلاقات مع النصارى. ويفهم من عامة الروايات الأولى أن الصلح كان يتفق والعهود التي أعطيت إلى

المدن الأخرى في الشام. فقد كان على الأمان لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم مقابل أداء الجزية. (١٩) وكان اليعقوبي (٢٨٣/٨٩٧) أول من أورد النص: «انكم آمنون على دماءكم وأموالكم وكنائسكم لا تسكن ولا تخرب، الا أن تحدثوا حدثاً عاماً» (٢٠). ويورد افثيشيوس (ابن البطريق) نصاً مشابهاً (٢١). ويتفق هذا والاتجاه العام لعهود الفتح.

ولكن بينما كانت الاشارة الى الصلح مع المدن الأخرى أو الأقاليم المفتوحة تقتصر على حوليات الفتح، فإنه يبدو أن الصلح مع بيت المقدس تطور في السياق واتخذ أبعاداً أوسع (ليشمل جميع النصارى في الشام) (٢٢). بل ان سيف بن عمر يضيف لا «تسكن» ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها» . . . «ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بايلياء معهم (أي مع النصارى) أحد من اليهود» (٢٣) إن تفصيلات كهذه تخرج عن اتجاه نماذج الصلح في ذلك الوقت ولا تعكس سوى اتجاهات متأخرة. أما الاشارة إلى اليهود فلا نجد ما يؤيدها في المصادر العربية. وقد انفرد ميخائيل السوري بذكرها، (٢٤) وربما جاءت من مصدر نصراني. ويقول مصدر متأخر هو الحميري إن النصارى «اشتروطوا أن لا يسكنهم اليهود فيها» (٢٥). أما ابن الجوزي، الذي يبدو أنه يأتي بالوصف ذاته للصلح الذي جاء به سيف، فلا يذكر اليهود. (٢٦)

ويشير المطهر المقدسي إلى الصلح الذي اشترط أن لا تهدم الكنائس ولا يطرد الرهبان منها (٢٧). وفي القرن (الخامس / الحادي عشر) يصلنا على أية حال النص الموسع كثيراً والذي يدعى الآن «العهدة العمرية». وكان أول من أورده المشرف بن المرجى (القرن الخامس / القرن الحادي عشر) باعتباره عهد عمر الى بيت المقدس (ومدن الشام الأخرى) وهو العهد الذي تعهد أهل القدس بالسير عليه. (٢٨) والنص الذي ورد في ابن عساكر (٢٩) (١١٧٦/٥٧١)، وبجير الدين الحنبلي (٣٠) وابن قيم الجوزية (٣١) يتبع عن كُتُب خطى نص المشرف، مع اختلاف بسيط. وفضلا عن ذلك فإن أول اشارة الى وجود نص للعهد يحفظه أهل بيت المقدس تأتي من ابن أعثم (٩٢٦/٣١٤) الذي يقول: « . . . وكتب (أي عمر) لهم كتاباً يتوارثونه إلى يومنا هذا، والله أعلم.» (٣٢)

إن تطور شروط الصلح على هذا الوجه له صلة ببعض العوامل الهامة: حرمة بيت المقدس عند النصارى ووجود أول بطريرك وأكثر الكنائس حرمة فيها وكونها مركز الحج. ولا بد أن تطور العلاقات مع النصارى ابتداءً بأيام عمر بن عبد العزيز إلى أيام هارون الرشيد

إلى المتوكل وإلى الفاطميين له صلة مباشرة بالموضوع. ^(٣٣) إن الحقيقة التي مؤداها أن عهد عمر تطور من صلح أنفذه المسلمون إلى تعهدات قطعها أهل القدس يدعوننا إلى الاستنتاج بأن نص العهد طور بحيث ضُمن شروطاً لا علاقة لها بزمان الفتح، واكتسب صبغة فقهية وضعت لتنظيم أوضاع تالية. ^(٣٤)

جاء عمر بيت المقدس يوم الاثنين وأقام بها بضعة أيام. ^(٣٥) وتحاط الزيارة بقصص نصرانية ويهودية تنسب إلى الخليفة بعض الأعمال التي تخدم مصالحهم. ^(٣٦) ومن ذلك زيارة عمر كنيسة القيامة ورفضه الصلاة هناك، ^(٣٧) ووجود كعب الأحيار (وهو شخص تتضارب حوله الروايات) ومناسبة وجوده والدليل (أو الأدلة) الذي رافق عمر إلى الحرم هي أمثلة على ذلك. ^(٣٨)

وعلى أية حال فالزيارة تتصل بمكانة القدس الكبيرة، كما أن الروايات التاريخية أكدت أن عمر قصد الحرم، الذي كان النصراني قد أهملوه وأحجموا عن استعماله لأسباب تتصل بالكتب الدينية، ونظف الأرض حول الصخرة وصلى في مكان قريب إلى الجنوب منها. ويبدو أنه أراد بهذا الموقع أن يكون مصلى. ويروي الأزدي أن عمر «خطب بها محراباً من جهة الشرق، وهو موضع مسجده». ^(٣٩) ويُعطى مقاتل بن سليمان (١٥٠ هـ) أول إشارة إلى ذلك ويقول بوضوح: «وخرب بيت المقدس فلم يعمر حتى بناه المسلمون في زمن عمر بن الخطاب» ^(٤٠). ويقول المهلبي (القرن الرابع / العاشر) إن عمر «كشف عن الموقع (في الحرم) وبنى عليه المسلمون مسجداً». ^(٤١) ويروي المطهر المقدسي أن عمر بنى مسجداً في بيت المقدس. ^(٤٢) وترد إشارة متأخرة للمسجد في بعض المصادر المتأخرة. ^(٤٣)

ويقول ثيوفانس إن عمر شرع في بناء المسجد في سنة ٦٤٣ م (٢٢ هـ) ^(٤٤). ويشير كل من ميخائيل السوري ^(٤٥) وافتيشيوس ^(٤٦) إلى بناء عمر للمسجد. ويتضح من هذا أن عمر في زيارته القصيرة عين موضع الصلاة في الحرم وخط المحراب، وأن أول مسجد اقيم في زمانه ^(٤٧). ويردنا أول وصف خارجي لهذا المسجد من الأسقف أركولف الذي زار القدس حوالي سنة ٦٨٠ م أيام خلافة معاوية.

وعين عمر عبادة بن الصامت ليكون قاضياً ومعلماً في بيت المقدس، وهو ما فعله الخليفة مع مراكز الأمصار فقط ^(٤٨). وثمة إشارة إلى كثير من الصحابة الذين زاروا المدينة تقرباً إلى الله، وتوفي بعضهم هناك ^(٤٩). وتوجه أبو عبيدة، القائد العام، إلى المدينة وتوفي

وهو في طريقه إليها. ^(٥١) ووقف الخليفة الثالث عثمان عين سلوان (قرب القدس) على أهل المدينة. ^(٥٢) وكانت هذه بداية أوقاف اسلامية غنية على بيت المقدس على مدى القرون.

ومع مجيء الأمويين نالت بيت المقدس اهتماماً خاصاً لأسباب سياسية ودينية. إن حرمة المدينة أضفت على الأمويين مكانة اسلامية عظيمة. وليس من قبيل الصدف أن غير خليفة من خلفائهم أخذ البيعة في القدس. وكان معاوية يعلم حق العلم ما كان لبيت المقدس من أهمية. وفي أثناء خلافه مع علي تعاهد هو وعمرو بن العاص في بيت المقدس. ^(٥٣) وفي وقت تال، وعندما كان ما يزال في نزاع مع الحسن بن علي، تلقى بيعة الشاميين في بيت المقدس في سنة ٤٠هـ / ٦٦٠ في المسجد ^(٥٤)

وأكد معاوية حرمة بيت المقدس لأنه روى أنه قال من على منبر مسجدها: « ما بين حائطي هذا المسجد أحبُّ الى الله تعالى من سائر الأرضين » ^(٥٥). ويبدو أنه توسع في تفسير الأرض المقدسة لتشمل بلاد الشام وسياها «أرض المحشر» ^(٥٦). وفي رواية له عن خالد بن معدان (٧٢١/١٠٣) عن الرسول قال: «عليك بالشام فانها خيرة الله من بلاده ويحبى إليها خيرته من عباده». ^(٥٧) وفي مناسبة اخرى تحدت عن مجد الله في الأرض المقدسة التي جعلها الله موطن الأنبياء والصالحين من عباده وأسكن فيها أهل الشام. ^(٥٨)

واستمر الحج الى بيت المقدس وانتعشت الحياة فيها. ويقول الأسقف أركوف الذي زارها في أيام معاوية إن الناس كانوا يأتون الى القدس من بلدان وجنسيات مختلفة ويعقدون فيها سوقاً سنوية (في ١٢ أيلول / سبتمبر) تشمل نشاطات تجارية كثيرة. وتحدث أيضاً عن المسجد فقال إنه بناء مستطيل بسيط في منطقة الحرم، ^(٥٩) معظمه من الخشب ويتسع (فيما قال) لثلاثة آلاف شخص. ويعني هذا أن عدد العرب هناك كان يبلغ ضعفي أو ثلاثة أضعاف هذا الرقم. وهذا أمر مفهوم اذا تذكرنا أن القبائل العربية (النصرانية)، خصوصاً قبيلتي لخم وجذام، كانت تعيش في فلسطين قبل الفتح ^(٦٠). وهناك إشارات إلى العرب (النصارى) في القدس أثناء الفتح. ^(٦١) ولا شك أن العرب زادوا فيما بعد لأن عمر أرسل عبادة بن الصامت قاضياً ومعلماً. ومن المقبول الآن بصورة عامة أن الجزء الأعظم من سكان فلسطين الأصليين قد تعربوا في القرون الأولى من الحكم العربي. وينحدر معظم العرب الفلسطينيين اليوم من أجناس سكنت البلاد عبر الأزمنة الماضية.

وتبع خلفاء معاوية موقفه وسياسته تجاه المدينة بنشاط. وتبدو المنزلة الخاصة للأرض

المقدسة في أن ولاية فلسطين كانوا عادة من الأمراء الأمويين مثل عبد الملك^(٦١) وسليمان بن عبد الملك أو من بين أميّر رجالهم مثل عمر بن سعيد الأنصاري الذي ولاه معاوية^(٦٢) وابن بحدل الكلبي خال يزيد الأول الذي قام يزيد بتوليته. ^(٦٣)

وقد أخذ اثنان من الخلفاء الروانيين (الأمويين) البيعة في القدس . وجاءت خلافة عبد الملك عندما كان ابن الزبير قد أعلن خلافته في المدينة فلا غرو أن يذهب إلى القدس ليأخذ البيعة لنفسه فيها، ليكسب المناسبة أهمية خاصة. ^(٦٤)

أما سليمان بن عبد الملك فقد أتته البيعة وهو في مشارف البلقاء فأتى البيت المقدس ليأخذ البيعة من الوفد الذي جاء خصيصاً إلى هناك . واحتفل سليمان بهذه المناسبة فكان يجلس في صحن المسجد الأقصى مما يلي الصخرة ويتقبل التهاني. ^(٦٥) وعندما أراد عمر بن عبد العزيز محاسبة بعض عمال سليمان أمر بأن يحملوا إلى بيت المقدس ويحلقوا عند الصخرة. ^(٦٦) وفضلاً عن هذا فقد قام الخلفاء الأمويون معاوية وعبد الملك والوليد وسليمان وعمر بن عبد العزيز ويزيد بن عبد الملك بزيارات متكررة إلى المدينة. ^(٦٧)

لم تكن القدس مركزاً ادرياً، لأن المراكز الادارية كانت قواعد للمقاتلة تلي حاجاتهم إلى المراعي والمناخ وتكون مرتبطة مباشرة بشبه الجزيرة العربية، ولم تكن بيت المقدس وحرّمها ملائمة لهذا الغرض . وقد همّ سليمان باتخاذها عاصمة له، ولكنه تخلى عن الفكرة على نحو مفهوم . بيد أن بيت المقدس كان لها والٍ خاص وقاضٍ خاص نظراً لمكانتها الخاصة .

وشاد الأمويون في المدينة صروحاً عظيمة، ليؤكدوا في الدرجة الأولى حرمة الحرم وليكسبوا الاحترام والشهرة بين المسلمين . واشتهر عبد الملك (٦٥ - ٦٨٥/٨٦ - ٧٠٥) ببناء قبة الصخرة في سنة ٦٩ - ٧٢هـ / (٦٨٨ - ٦٨٩) - (٦٩١ - ٦٩٢)م ^(٦٨) وقد فكر في المشروع أثر تولّيه الخلافة، مع أنه كان يواجه متاعب كبيرة . وليس مما لا علاقة له بالأمر أن نلاحظ أنه كان مدنياً (نسبة للمدينة) في تعليمه وانه كان من رجال الحديث .

وهناك اختلاف في تفسير دوافع هذا العمل بين الكتاب لأن الروايات تتضارب . يذكر اليعقوبي (٢٨٤/٨٩٧)، وهو شيعي، أن عبد الملك أراد ببناء قبة الصخرة أن يحول الحج إلى قبة الصخرة ليواجه دعوة منافسه ابن الزبير، وأنه رد على اعتراض الناس

بالاستشهاد بالزهري (١٢٤/٧٤١) الذي يروي الحديث الذي يمحصر الزيارات بالمساجد الثلاثة. (٦٩)

وقد ردد ابن البطريق (٣٢٤/٩٤٠) وبعض المؤرخين التالين الخبر. ولكن المهليبي (القرن الرابع / الحادي عشر)، وهو جغرافي ذو ميول شيعية، نسب هذا الإجراء الى الوليد الذي اتخذ خوفاً على أهل الشام أن يعرفوا فضل أهل البيت على بني أمية^(٧١) (إذا هم دخلوا الحجاز للحج - المترجم). ويذكر اليعقوبي والمهليبي أن المنع من الحج الى مكة استمر طيلة العهد الأموي.

وقد أخذ غولد تسير وبعده كرزويل برواية اليعقوبي^(٧٢)، ورفض غويتين وغرابار هذه الرواية على أساس أن الحج الى مكة استمر أيام عبد الملك، كما يفهم من الروايات التاريخية، وأن المصادر المبكرة الأخرى لا تذكر اجراء كهذا وأن مثل هذا العمل بالغ الخطورة على عبد الملك، وأخيراً أن هيئة القبّة ونطاق الموقع لا تلائم مثل هذه الفكرة^(٧٣). ويمكن أن نضيف أن الزهري كان شاباً مغموراً آنثذ ولا مجال للاستشهاد به. ويفهم من البسوي أن الزهري جاء الى دمشق لأول مرة في سنة ٧٠١/٨٢ وأنه دعي صدفة إلى مجلس عبد الملك. (٧٤)

وربما أراد عبد الملك أن يعبر عن روعة الاسلام بعمل عمراني فذ في مدينة الكنائس الفخمة، كما أشار المقدسي^(٧٥). ولعل الأهم من ذلك أن عبد الملك أراد بهذا العمل أن يؤكد حرمة الحرم وأن يكسب نفوذاً بين المسلمين. وهذا كله مفهوم ضمناً من النقوش الظاهرة في القبّة والتي تعكس نوعاً من الحوار الاسلامي المسيحي في ذلك الوقت، وتبين الأفكار الاسلامية الأساسية وتزكي الدين الاسلامي وتؤكد على شمول رسالة الاسلام وعلى أنها خاتمة الرسالات. (٧٦)

وكان لاختيار الصخرة دلالة خاصة. وتشير بعض الروايات الأولى إلى الصلة بينها وبين الاسراء والمعراج^(٧٧). وتشير روايات اخرى إلى أن عبد الملك نفسه ربط بين حرمة الصخرة والمعراج،^(٧٨) ويروي فضلا عن ذلك أن عمر (حين دخل الحرم) سأل عن موضع الصخرة. (٧٩)

ومن المحتمل أن المسلمين^(٨٠) وغير المسلمين روجوا القصص حول الصخرة، ولكن ليس هذا موضعها. (٨١) وهكذا فإن الصخرة تحمي ذكرى الاسراء والمعراج بشكل ما. (٨٢)

وكان الأمويون فخورين بقبة الصخرة صرحاً اسلامياً عظيماً. (٦٣) وحتى الخليفة العباسي المهدي اعترف بشيء من الغيرة بأن قبة الصخرة هي من المآثر التي سبق بنو أمية بني العباس إليها. (٨٤) وقد أمر عبد الملك أيضاً بإنشاء بايئ جديدتين في أسوار المدينة. (٨٥)

وشاد الأمويون صروحاً عظيمة أخرى. ويُني المسجد الأقصى في هذه الفترة. وتختلف المصادر حول مَنْ بناه: هل هو عبد الملك أم ابنة الوليد. (٨٦) ومال كرزويل الى الأخير استناداً الى أرواق البردي التي وجدت في أفروديتو (٨٧). ومن المحتمل أن عبد الملك أمر ببناء المسجد الأقصى وأن الوليد شارك في بناء بعض الأجزاء. (٨٨)

وقد كُشِفَ مجْمَعُ بنائِي أموي رائع الى الجنوب والجنوب الغربي من المسجد الأقصى. ويحتمل أن أحد المبنيين اللذين يتصلان اتصالاً مباشراً بالحرم كان مقرراً لحاكم المدينة (دار الإمارة). وقد تكون المباني الأخرى قد خصصت لكبار الضيوف أو للأمويين الذين كانوا يكثرون من زيارة المدينة. (٨٩) وهذا كله مؤشر على المكانة الخاصة لبيت المقدس، ومن شأنه أن يزيد قدر الأمويين.

وتشير صُورَى الأميال التي اكتشفت حول القدس في أواخر العصر العثماني الى أن عبد الملك أمر ببناء طريق رئيسي من دمشق إلى القدس. (٩٠) ومن المعروف كذلك أن الأمويين انشأوا داراً للسكة في القدس. وقد حملت قطع العملة التي ضربت هناك اسم «إيلياء» (٩١).

وسارت عملية تعريب القدس بسرعة خصوصاً بعد الإجراءات التي اتخذها عبد الملك لتعريب الدواوين والنقود. وفي أواخر القرن السابع الميلادي تقريباً حُلَّت اللغة العربية محل اليونانية بوصفها اللغة السائدة في المدينة. ويبدو أن عدد سكان بيت المقدس العرب أصبح الآن كبيراً لأنهم استطاعوا أن يقفوا في وجه مروان آخر الخلفاء الأمويين. وأدى ذلك الى إنزال العقوبة بهم والى تدمير سور المدينة بصورة جزئية سنة ٧٤٥ / ١٢٨. (٩٢)

لقد نشر الأمويون (والشاميون) الأحاديث والأخبار التي ترفع شأن بيت المقدس لأسباب سياسية. ولكن حرمة بيت المقدس كانت عامة. فالعباسيون والعلويون أشاروا الى بيت المقدس دعماً لقضاياهم. وهكذا فإن المهدي (المتنظر) يقترن اسمه ببيت المقدس. «وتقبل رايات سود (عباسية) من قبل خراسان فلا يردها شيء حتى تنصب بإيلياء» (٩٣)؛ وبذلك كان تعظيم المدينة شاملاً.

و بمجيء العباسيين ازدادت أهمية القدس الاسلامية . وقد أظهر العباسيون في تأكيدهم الاتجاه الاسلامي تقديراً كبيراً للمدينة المقدسة . فقد زارها المنصور (الخليفة الثاني) عند عودته من الحج (في سنة ١٤٠ / ٧٥٨) .^(٩١) وتمت هذه الزيارة في الواقع ايفاء لنذر^(٩٥) . وزار المنصور بيت المقدس مرة ثانية في سنة ١٥٤ / ٧٧١^(٩٦) ورجل ابنه (وخليفته) المهدي الى بيت المقدس سنة ١٦٣ / ٧٨ لزيارة الأقصى والصلاة فيه .^(٩٧)

وقد ضربت بيت المقدس هزتان ارضيتان في هذه الفترة أصابتا المسجد الأقصى . وقام المأمون بعمل إصلاحات كبيرة بعد أن هُدمت الأجزاء الشرقية والغربية .^(٩٨) وأحدثت هزة أرضية ثانية (ربما في سنة ١٥٤)^(٩٩) أضراراً كبيرة في المسجد الأقصى وأمر المهدي (سنة ١٦٣) بإجراء اصلاحات كبيرة وزاد في عرض المسجد وأنقص طوله .^(١٠٠) وتحدث المقدسي باعجاب عن اصلاحات المهدي التي شاهدها .^(١٠١)

وقام المأمون (١٩٨ - ٨١٣ / ٢١٨ - ٨٣٣) ببناء الأبواب الشرقية والشالية للحرم . وتم ذلك في ربيع الثاني سنة ٢١٦ / أيار (مايو) ٨٣١^(١٠٢) . ورغم وضع اسمه مكان اسم عبد الملك (وليس التاريخ الذي بقي كما هو) ، فليس هناك اشارة إلى أي بناء قام به هناك^(١٠٣) .

وأصلحت الأسوار كذلك أو أعيد بناؤها عند تضررها من البشر أو الزلازل . وركزت العناية المستمرة على الحرم . إن جميع المباني التي بداخل الحرم لها بعض الدلالات الاسلامية الواضحة . وقد أمرت السيدة أم الخليفة المقتدر (حوالي سنة ٣٠١ / ٩١٣) باصلاح قبة الصخرة وأمرت بتزويد كل باب من أبوابها بمدخل خشبي فخم^(١٠٤)

وانفرد ثيوفانيس بالقول إن المنصور أمر عند زيارته اليهود والنصارى بكتابة اسمائهم وشماً على أيديهم لأغراض الجزية .^(١٠٥) وهذا أمر من الصعب قبوله لأن الرشيد هو الذي أمر غير المسلمين في مناطق الحدود بارتداء أردية يُعرفون بها احتراساً من الجواسيس الأجانب .

أما قصة السفارات بين شارلمان وهارون الرشيد (التي رواها ايغنهارد Eginhard سنة ٨٢٠) . واهداء مفاتيح المدينة للأول فليس لها أساس تاريخي .^(١٠٦) ولكن من الواضح أن الامبراطور أسس في بيت المقدس بعض الأنزال (ج نُزُل) ومكتبة . ويُمتدح المسلمون لمعاملتهم الحسنة للحجاج . وكانت تعقد في المدينة سوق سنوية في الخامس عشر من أيار

(مايو)^(١١٧). وفي عهد المأمون أجرى البطريق بعض الإصلاحات في مباني القبر المقدس.^(١١٨)

وفي هذا الوقت كان قد تم تعريب بيت المقدس وأسلمتها بصورة كاملة. وقد هيأت حرمة المدينة وانفتاحها أمام العلماء والحجاج والتجار، والريف الأخضر المحيط بها لسكانها حياة آمنة من الاضطراب والعوز. والخبر الذي يقول إن الله قد حبا أهل بيت المقدس الرخاء والعافية له دلالة في هذا الشأن.^(١١٩) بيد أنها لم تكن بمنجاة تماماً من المشقة. فقد ضربتها الزلازل^(١٢٠). ويروي افتيشيوس خبر مجاعة حلت في المدينة أيام المأمون^(١٢١). وهزت بيت المقدس ثورة الفلاحين التي قادها المبرقع اليماني (٨٤١/٢٢٧) في خلافة المعتصم. فقد دخل المبرقع المدينة وهرب أهلها من مسلمين وسواهم ونهبت أماكن العبادة.^(١٢٢)

ويشكل أدب الحديث جوهر معلوماتنا فيما يتصل بنمو حرمة بيت المقدس^(١٢٣). ورويت أحاديث حول فضل زيارة المسجد الأقصى والصلاة فيه.^(١٢٤) وانتشرت هذه الأحاديث انتشاراً نشيظاً وواسعاً في الفترة الأموية. ومما له دلالة أن بعض المؤرخين استشهدوا بالحديث الذي يحصر شد الرحال بالمساجد الثلاثة في صدد بناء قبة الصخرة.

هناك أحاديث تكتفي بتأكيد فضائل بيت المقدس أو فضل زيارتها أو فضل الصلاة في المسجد الأقصى.^(١٢٥) بيد أن هنالك أحاديث تقصر شد الرحال على مسجدي مكة والمدينة أو تقلل من شأن الصلاة في المسجد الأقصى بالنسبة لمسجد المدينة أو حتى تنصح بعدم الارتحال إلى بيت المقدس.^(١٢٦) ويرجع اسناد هذه الأحاديث إلى الفترة الواقعة بين الثلث الأخير للقرن الأول الهجري / السابع الميلادي والرابع الأول من القرن الثاني / الثامن (جابر بن عبد الله ٦٩٧/٧٨، وعطاء ٧٣٣/١١٥، وقتادة ١١٧ - ١١٨ / ٧٣٥ - ٧٣٦). وقد كانت هذه الفترة فترة صراعات مريرة بين الأمويين وحركات المعارضة (الزبيريون، والعلويون والعباسيون)، وحاول الجميع أن يجدوا في الحديث سنداً معنوياً أو دينياً.

ولا تتعرض هذه الأحاديث إلى وضع المسجد الحرام في مكة أو مسجد المدينة. بل هي تتناول بالأحرى موقف الأمويين وأحزاب المعارضة^(١٢٧) ويمجد هذا الوضع صداه في بعض الأقوال^(١٢٨). فهذا الفرزدق، الشاعر، يتحدث عن البيتين اللذين كان الأمويون ولائهما:

وبيتان بيت الله نحن ولاته وبيت بأعلى ايلياء مشرف

ويقول في معرض مدحه لسليمان بن عبد الملك بأنه الامام الذي اهتدى في المسجد الأقصى^(١١٩)*. وقد أسهم مفسرو القرآن والقصاص وكذلك الصالحون في فضائل بيت المقدس. فمقاتل بن سليمان (٨٠ - ١٥٠هـ) يذكر في تفسيره عدداً كبيراً من الآيات حول الأرض المقدسة والقدس^(١٢٠). فهو يروي مثلاً ما ورد في السورة الثانية (البقرة) الآية ١٤٢ عن تحويل القبلة وتعليق قريش بأن محمداً قد تردد عليه امره واشتاق الى مولد آبائه وانه رجع الى دين مكة^(١٢١). وكان مقاتل يأخذ عن الاسرائيليات، وقد انتقد بسبب ذلك^(١٢٢). ويبدو أنه كان يعقد مجالس العلم في الأقصى واجتمع اليه خلق كثير من الناس^(١٢٣).

والواقع أن الاسرائيليات انتجت طوفاناً من الأدب حول بيت المقدس. وكان هذا يتألف من قصص وحكايات رواها الذين اعتنقوا الاسلام حديثاً، وكانوا بصفة رئيسية من أصل يهودي. وينسب أكثرها إلى كعب الاحبار (٦٥٢/٣٢) ووهب بن منبه (٧٢٨/١٢٤).^(١٢٤) وكان أبو ربحانة (٧٠٥/٨٦)، وهو يهودي اعتنق الاسلام، يروي القصاص في مسجد بيت المقدس.^(١٢٥) وكان للاسرائيليات أثر كبير على الأفكار الشعبية حول بيت المقدس، بيد أنه ليست لها قيمة تاريخية أو دينية. والواضح أنها ليست أحاديث ولا يجوز أن يخلط بينها وبين الأحاديث، وقد لقيت انتشاراً واسعاً في العقود الأخيرة من القرن الأول/ السابع.^(١٢٦) وقد أحيطت الاسرائيليات بشكوك قوية من حيث مصداقيتها ومصادرها، ولكنها كانت تلقى التسامح حينما لم تكن تتعارض والمعتقدات الاسلامية.

وتروى هذه الحكايات من الاسرائيليات باسناد الى بعض التابعيين أو حتى الصحابة [كعبدالله بن عمرو ٦٨٣/٦٥ - ٨٤، ورجاء بن حيوة وعبدالله بن عمر، ومكحول (٧٣١/١١٣)^(١٢٧)]. وقدم الزهري (٧٤٢/١٢٤) إلى بيت المقدس؛ فأروه شيخاً يُحدث من الكتب عن فضائل بيت المقدس^(١٢٨). . . بل ان الاسرائيليات كانت تنسب إلى النبي نفسه لكي يصدقها الناس.^(١٢٩)

وعلى أية حال فإن الآثار حول الفضائل (دون بيان للمصادر) انتشرت انتشاراً واسعاً باسناد إلى بعض التابعيين أو الى أشخاص توفوا في العقود الأولى من القرن الثاني الهجري /

* وبالمسجد الأقصى الامام الذي اهتدى به من قلوب المتمرين ضلأها (الترجم)

الثامن الميلادي . ويمكن الاشارة إلى أشخاص مثل عطاء بن أبي رباح (١١٤ - ١١٥ / ٧٣٢ - ٧٣٣) ومكحول (١١٣ - ١١٤ / ٧٣١ - ٧٣٢)، وقتادة (٧٣٦ / ١١٨)، وبعد هؤلاء إلى ثور بن يزيد (٧٧٠ / ١٥٣) ومقاتل (٧٦٧ / ١٥٠).^(١٣٠)

وعلى هذا الوجه رسخت اتجاهات حرمة بيت المقدس في الحديث والتفسير والحكايات مع مجيء القرن الثاني / القرن الثامن . ووصل الأدب الذي يتناول الفضائل حذّه الأقصى من حيث النطاق والتوكيد،^(١٣١) كما نرى في مجاميع الحديث والأدب والتفسير وكتب فضائل القدس .

وقد وصلتنا أول كتب الفضائل من القرن الخامس / الحادي عشر . وكانت تواريخ بعض المدن، وهي عادة من المراكز الادارية كالمدينة وواسط وبغداد، قد دوّنت في القرن الثالث الى الرابع / التاسع الى العاشر.^(١٣٢) ويتركز الاهتمام في هذه المؤلفات على التاريخ السياسي والاداري أو على التراجم . وفي هذا الصدد ينسب كتاب عن فتوح بيت المقدس إلى اسحق بن بشر (٨٢١ / ٢٠٦)^(١٣٣) . وكتب الرملي (٨٧٥ / ٢٦١) كتاباً آخر حول من نزل فلسطين من الصحابة.^(١٣٤) وتلت ذلك كتب عن الفضائل . ويرجع أول كتاب عن فضائل دمشق (وهو فضائل الشام وفضل دمشق للربيعي) الى القرن الخامس / القرن الحادي عشر.^(١٣٥)

وماله دلالة أن بعض المؤلفات الجغرافية من القرن الرابع / العاشر تتحدث عن بيت المقدس،^(١٣٦) وتبدي الاهتمام بالمدينة . لكن القرن الخامس / الحادي عشر شهد نشاطاً كبيراً في الكتابة عن فضائل بيت المقدس . فقد كتب الواسطي كتابه فضائل البيت المقدس،^(١٣٧) قبل سنة ١٠١٩ / ٤١١ ، وكتب أبو المعالي المشرف بن المرتضى بن ابراهيم المقدسي «فضائل القدس والشام»^(١٣٨) في أواسط القرن الخامس / الحادي عشر . ويروى أن الشيخ أبا القاسم الرميلي «شرح في تاريخ بيت المقدس وفضائله وجمع فيه اشياء كثيرة»؛ لكن الكتاب ضاع لأن الصليبيين قتلوا المؤلف سنة ١٠٩٩ / ٤٩٢ .^(١٣٩) وتناولت هذه الكتب أساساً فضائل بيت المقدس وحرمة الأماكن المقدسة فيها . وكانت من الشمول في تناول الفضائل بحيث إن الكتب التي تلتها (في القرن السادس / الثاني عشر وبعد ذلك) لم تستطع أن تضيف إليها سوى قسم حول تراجم العلماء والمتعبدين الذين عاشوا في بيت المقدس أو أتوا إليها.^(١٤٠)

وقد استمدَّ هذا الأدب الموسع عن الفضائل مادته أساساً من الحديث وآثار الصحابة والتابعين من جهة، ومن الحكايات والقصص التي كان يرددها أهل الكتاب (أي المسيحيون واليهود)، ومن ضمن ذلك قصص الأنبياء. ويتعذر علينا بحكم الحيز المخصص لنا أن نناقش الأمر مناقشة مستفيضة. لكن قد تكون بعض الاشارات القليلة في محلها. فالمشرف بن المرجى يلخص النقاط التي أكدها بقوله: «ثم إن سائلاً سألني أن أذكر جميع ما انتهى اليُّ من فضائل المسجد المقدس الذي عظمه الله تعالى وشرَّفه، وجعله محشراً ومنشراً وقبلة جميع الأنبياء ومعقلاً لأهل الصفوة من الأولياء، وما خصه الله تعالى من المآثر الكريمة والفضائل العظيمة.»^(١٤١)

هذا ما قيل عن فضل زيارة بيت المقدس،^(١٤٢) ونعمة السكن والاقامة بها؛^(١٤٣) واليها تكون الهجرة الثانية في نهاية الزمان (الهجرة الأولى إلى المدينة)، ويُساق خير عبادة الله إلى بيت المقدس^(١٤٤)، وهي أرض المحشر والنشر، ولا تقوم الساعة حتى يسوق الله خير عباده إلى بيت المقدس وإلى الأرض المقدسة.^(١٤٥)

وتزداد فضائل المسجد الأقصى والصلاة فيه زيادة كبيرة؛^(١٤٦) فصخرة بيت المقدس هي معقل المسلمين من الدجال.^(١٤٨) وهي - عند الفئات الإسلامية كافة - المكان الذي تنزل فيه المهدي أو ينتصر، ليعيد الحق والخير إلى الأرض.^(١٤٩)

وبالاختصار كل الفضائل تجتمع في بيت المقدس، وهي قدس الأقداس.^(١٥٠)

وكان لهذه الأفكار أثر كبير على عقول الناس. وهكذا فإن المقدسي ٩٩٧/٣٨٧، وهو من أبناء المدينة، يقول إنها: «بلدة جمعت الدنيا والآخرة... وأما الفضل فلأنها عرصة القيامة... وإنما فضلت مكة والمدينة بالكعبة والنبي ﷺ، ويوم القيامة تزفان إليها (إلى بيت المقدس)»^(١٥١) وهو يقول إن الساهرة هي أرض القيامة.^(١٥٢) ويردد ذلك ناصر خسرو في القرن التالي (٤٣٨/١٠٤٧): «يقال إنه (أي سهل الساهرة) سيكون ساحة القيامة والحشر؛ ولهذا يمضي إليه خلق كثيرون من أطراف العالم، ويقيمون به حتى يموتوا.»^(١٥٣)

وهذه النظرة وراء اقامة كثير من الصالحين فيها ووفاتهم فيها كما يشير ناصر خسرو^(١٥٤). بل إن بعض الولاة والحكام أودعوا بدفنهم فيها.^(١٥٥) ويقول ناصر خسرو إن المدينة أصبحت الآن تدعى القدس وأخذ الناس يذهبون إليها تعظيماً لها كما يظهر في التعريف. ويذكر ناصر أن من لا يطيق الحج «يذهب إلى القدس في الموسم فيتوجه إلى

الموقف ويضحى ضحية العيد،^(١٥٦) كما هي العادة (في مكة). ويذكر أنه يقوم بمثل هذه الزيارة في بعض السنين عشرون ألف شخص^(١٥٧). وفي أواخر القرن الخامس / الحادي عشر شهد الطرطوشي هذه البدعة وانتقدها. وكان في بيت المقدس، فاذا كان يوم عرفة حُسر أهل السواد وكثير من أهل البلد في المسجد مستقبلين القبلة مرتفعة أصواتهم بالدعاء كأنه موطن عرفة. وأضاف أنه سمع هناك سماعاً فاشياً فيهم أن من وقف ببيت المقدس أربع وقفات فانها تعدل حجة (الى مكة).^(١٥٨) ولاحظ الطرطوشي بعض البدع المتعلقة بالصلاة (في منتصف شعبان ورجب).

ولا نعرف بصورة جازمة متى بدأ هذا التعريف ببيت المقدس. ويفهم من القلقشندي أنه جاء في فترة اسبق من القرن الخامس الهجري لأنه يقول «وكان الناس يحضرونها (قبة الصخرة) يوم عرفة ويقفون عندها». ويضيف: «يقال إن ذلك سبب التعريف ببيت المقدس ومساجد الأمصار»^(١٥٩) ويرجع ابن كثير (استناداً الى ابن الجوزي القرن السابع / الثالث عشر) ذلك إلى زمن عبد الملك عندما كان الناس يقفون عند الصخرة، ويطوفون حولها ويضحون ويحلقون شعرهم (كما يفعلون في الحج). وقد استغل ابن الزبير ذلك لمهاجمة عبد الملك بعنف.^(١٦٠) ويبدو أن هذه الرواية الغربية فيها تفصيل وتطوير لرواية اليعقوبي (القرن الثالث/ التاسع) بالاستناد إلى الممارسات التي جاءت فيما بعد. ويورد البسوي (ت ٢٧٧ / ٨٩٠) رواية منسوبة إلى الزهري تقول إن عمر عندما دخل القدس قال: «ليك اللهم ليك» (وهو ما يقوله الحجاج عادة وهم مقبلون على مكة).^(١٦١) وهذه رواية متأخرة تؤيد التعريف. ولهذا فان من المحتمل أن يكون التعريف الذي انتشر في بيت المقدس قد ظهر في وقت متأخر من القرن الرابع / العاشر أو أوائل القرن الخامس / الحادي عشر.

إن الأقسام الجيوغرافية في المؤلفات المتأخرة^(١٦٢) تُدرج عملياً الأسماء نفسها لفترتنا هذه. انها تدرج بعناية الصحابة والتابعين وتابعيهم (أي حتى أواسط القرن الثاني للهجرة) الذين جاءوا الى المدينة لزيارتها أو الإقامة فيها. ويرتبط هذا أساساً بقداسة المدينة. وبعدها يُذكر كبار العلماء (مثل سفيان الثوري والأوزاعي ووكيع بن الجراح والشافعي) ومشاهير الصوفية من أمثال السري السقطي وذو النون المصري وبشر الحافي. وبينما كان الصوفية يجيئون لأسباب روحية فان العلماء جميعاً شاركوا في الحياة الثقافية في المدينة. وقد تناقص

الزوار على نحو مفهوم بعد الاحتلال الفاطمي (٩٦٩/٣٥٨)، كما هو واضح من المؤلفات التي كتبت عن المدينة. ويبدو أن الفاطميين انشأوا مركزاً ثقافياً (دار علم) هناك للدعوة إلى الفكر الاسماعيلي^(١٦٣). وهكذا فإن المقدسي (٩٩٧/٣٨٧)، الذي كتب في هذه الفترة، يقول إنها قليلة العلماء. ويلاحظ أن المسجد الأقصى خلا من الجماعات والمجالس.^(١٦٤) ويفترض أن المقدسي كان يعبر عن ضيقه بالقيود التي فرضها الفاطميون والتراجع في عدد العلماء الذين كانوا يفدون إلى بيت المقدس. ومن هنا افتقد المناقشات الحرة والمجادلات العلمية.^(١٦٥) وهكذا فهو يشكو من أن الفقيه فيها مهجور؛ ومع ذلك كان فيها فقهاء محافظون على وجه الاجمال. وكان الفقهاء يجلسون (للتعليم) في المساجد - أوقات العصر والمساء - كما كان للقراء مجالس في المدينة.

ويلاحظ أيضاً أن لأصحاب أبي حنيفة بالمسجد الأقصى مجلس ذكر يقرأون في دفتر وأن للكرامية (فرقة دينية) مجالس في خوانقهم، وأن المذكورين بالمسجد قصاص.^(١٦٦) هل كانت المحافظة وغياب البدعة رد فعل للدعاية الفاطمية؟

ومع هذا فإن العلوم التطبيقية كانت بخير لأن المقدسي يقول إن المدينة كان فيها كل حاذق وطبيب^(١٦٧). وقد شجع الفاطميون مثل هذه الدراسات. وكان لبعض العائلات تقاليد في تلك الميادين.^(١٦٨) وكان أكثر الأطباء والكتبة نصارى، وأكثر الصيارفة والصباغين والدباغين يهوداً.^(١٦٩)

وكان الفاطميون يعتمدون على النصارى واليهود أحياناً في دواوين الحكومة وفي الشؤون المالية. وربما يفسر هذا ملاحظة المقدسي حيث قال: قد غلب عليها النصارى واليهود.^(١٧٠) ومن وجهة اجتماعية كانت القدس مفتوحة أمام عدد كبير من الحجاج «ولا تخلو كل يوم من غريب».^(١٧١) وإضافة إلى المسلمين الذين كانوا يأتون لزيارة المدينة أو للتدريس أو للدراسة كان بعض الصالحين يبدأون إحرامهم للحج من القدس، ويصدق هذا بشكل خاص على المغاربة.^(١٧٢) ومع قدوم الزوار والحجاج كانت الصنائع والتجارة تشهد نشاطاً كبيراً. وتحدث المقدسي باعجاب عن أسواقها النظيفة الحافلة بالبضائع والمقسمة حسب الحرف وعن المسجد، وهو أكبر المساجد.

وكانت العلاقات الاجتماعية بين المسلمين وغيرهم حسنة في العادة. ويقول المقدسي إن المسلمين كانوا يشاركون النصارى أعيادهم وخاصة الزراعية منها.^(١٧٣) وكانت سياسة

الفاطميين نحو النصارى أكثر من ودية؛ ولكنهم قاسوا من الاضطهاد لبعض الوقت على يد الخليفة الحاكم (٣٨٦ - ٤١١ / ٩٩٦ - ١٠٢١) الذي لا يمكن التنبؤ بأعماله. وبلغ هذا أوجه في تدمير كنيسة القيامة (القبر المقدس) (٤٠٠هـ / ٢٨ أيلول / سبتمبر ١٠٠٩). بيد أن الحاكم غير رأيه قبل وفاته وسمح للنصارى باعادة بناء كنائسهم. واعاد الظاهر (٤١٨ / ١٠٢٧) بناء القبر المقدس^(١٧٤). وفي هذه الفترة ألحقت هزة أرضية وقعت سنة ٤٠٧ / ١٠١٦ أضراراً بالمسجد وسقطت القبة، فأعاد الظاهر بناءها سنة ٤١٣ / ١٠٢١. كما أعيد بناء المسجد وأسوار المدينة سنة ٤٢٥ / ١٠٣٣ إثر تأثرها بهزة - حدثت في السنة نفسها. ^(١٧٦) ورسم المستنصر السوادية الامامية للمسجد سنة ٤٥٨ / ١٠٦٥^(١٧٧). ويشير العمل الممتاز^(١٧٨) الذي قام به الفاطميون الى أنهم لم يكونوا أقل حرصاً من الأسر المالكة السابقة على تأكيد حرمة بيت المقدس وأهميتها الاسلامية.

ولاحظ ناصر خسرو [الذي زار المدينة بين ١٤ آذار (مارس) و ٢٠ نيسان (ابريل) ١٠٤٧م] أن البضائع فيها كانت وافرة ورخيصة الثمن،^(١٧٩) وأن بها أسواقاً جميلة وأبنية عالية، وأن فيها صناعات كثيرة لكل جماعة منهم سوق خاصة. ^(١٨٠) ويعكس هذا الجانب التجاري في المدينة. كانت مدينة كبيرة وكانت تأتي بعد الرملة في القرن الرابع الهجري. ^(١٨١) وكانت في طريقها لأن تصبح المدينة الأولى في فلسطين في النصف الثاني من القرن الخامس / الحادي عشر. ^(١٨٢) ويذكر ناصر خسرو أنه كان في القدس عشرون ألف «رجل». ^(١٨٣) والاشارة إلى الرجال تعني عادة العائلات. وهذا يجعل الرقم حوالي مئة الف.

ويشير ناصر خسرو في الجانب الثقافي، الى مستشفى عظيم عليه أوقاف طائلة ويصرف لمرضى العديدين العلاج والدواء وبه أطباء يأخذون مرتباتهم من الوقف. ^(١٨٤) وكان يدرّس فيه الطب. ^(١٨٥) وأشار ناصر خسرو إلى صومعتين للصوفية قرب المسجد يقيم فيهما جماعة منهم ويصلون موضحاً بذلك التقاليد الصوفية.

وبعد سنة ٤٦٣ / ١٠٧١ كانت بيت المقدس عموماً في مجال نفوذ السلاجقيين وأكثر انفتاحاً على العلماء. ^(١٨٦) وفي سنة ٤٦٥ / ١٠٧٢ عادت الدعوة الى الخلافة العباسية

اليها. (١٨٧) وواضح أن بيت المقدس، لا الرملة، كانت الآن المدينة الأولى في فلسطين. (١٨٨)

وفي القرن الخامس / الحادي عشر كان المذهب الأول بين المذاهب الأربعة فيها هو المذهب الشافعي يليه الحنفي. وفي أواخر القرن كان لكل من هذين المذهبين مدرسة. أما المذهب الحنبلي فكان قليل الأتباع. فلم ينشره في المدينة لأول مرة الا أبو الفرج الشيرازي المتوفى سنة ١٠٩٣/٤٨٦.

لقد افتقد المقدسي روح المناظرات الفكرية والتساؤلات التي كان ممثلاً جيداً لها في الربع الأخير من القرن الرابع / العاشر. كان رحالة عظيماً ومراقباً ناقداً. وكان المطهر بن طاهر المقدسي (نبه شأنه حوالي سنة ٩٦٦/٣٥٥) مؤرخاً جيداً ودارساً عظيماً للأديان. وكان محمد بن سعيد التميمي طبيباً وعالم نبات مقدسياً درس النباتات الطبية في فلسطين. وكان لكل من المقدسي (محمد، الجغرافي) والتميمي تقاليد علمية في عائلتهما، وذلك أن جد المقدسي كان مهندساً نابهاً كما كان جد التميمي طبيباً. (١٨٩)

وشهد القرن الخامس / الحادي عشر نشاطات ثقافية واسعة ومتنوعة كانت تتركز على الدراسات الاسلامية وخصوصاً الحديث والفقه. وجاء الى بيت المقدس علماء كبار من البلدان الاسلامية شرقاً وغرباً اما للزيارة أو الإقامة. وشاركوا علماء المدينة نفسها، وكذلك الزوار، في حياة ثقافية خصبة.

وكان عالمها الأول نصر بن إبراهيم المقدسي الشافعي (١٠٩٦/٤٩٠). وقد نشط في الافتاء والتدريس. ودرّس في المدرسة النصرية، وكان كثير من العلماء من تلاميذه. (١٩٠)

وكان عطاء المقدسي (أبو الفضل) شيخ العلماء الشافعيين في الأقصى، وله مجلس يؤمه كثير من الناس. أما أبو القاسم مكّي بن عبد السلام الرميلى (ت ١٠٩٩/٤٩٢) فكان عالماً كبيراً في الحديث ومدرساً جم النشاط. ويروى أنه كتب تاريخاً للقدس؛ ولكنه لم يتمه لأن الصليبيين قتلوه. (١٩١)

ويمثل أبو الفضل محمد بن طاهر القيسراني (١١١٢/٥٠٧ - ١٣) اهتمامات العصر بصورة واسعة. كان نشيطاً في الدراسات الخاصة بالحديث واللغة العربية والتصوف. وقد سافر بكثرة، وكان له تأثير واسع. (١٩٢)

ومن بين الضيوف الأكثر أهمية أبو الفرج الشيرازي (١٠٩٣/٤٨٦) الذي سكن

المدينة وأدخل المذهب الحنبلي فيها، واشترك اشتراكاً نشيطاً في الحياة الثقافية. (١٩٣) وجاء الغزالي العظيم الى بيت المقدس حوالي سنة ٤٨٨/١٠٩٥ للتأمل والعبادة وزيارة الأماكن المقدسة. ونزل في الزاوية (أو المدرسة) النصرية، وعقد مجالس علم في الحرم. وهنا كتب الغزالي «الرسالة القدسية» (بناء على طلب بعض سامعيه) لا «أحياء علوم الدين» (١٩٤). وجاء الفقيه الأندلسي أبو بكر الطرطوشي بيت المقدس حوالي سنة ٤٨٣/١٠٩١، وأقام فيها أكثر من ثلاث سنوات ودرّس في المسجد الأقصى. وحضر مجالسه أبو بكر بن العربي الذي ترك الأندلس سنة ٤٨٤/١٠٩١ في رحلته الى الشرق.

ويعطينا ابن العربي صورة حية للحياة الثقافية في القدس. فقد كانت ملتقى العلماء من الأقطار الإسلامية بين خراسان والأندلس. وهو يشير الى المدارس في المدينة ويحدد مدرسة للشافعية في باب الأسباط ومدرسة للحنفية قرب كنيسة القيامة. وقد أثرت في نفسه مجالس الدراسة والمناظرة بين مذاهب السنة والجماعات الإسلامية الأخرى أو بين أتباع الديانات الثلاث. ومن الجماعات الإسلامية كان هناك المعتزلة والكرامية والمشبهة. وهو يشير الى الميادين الثلاثة الرئيسية للدراسات الإسلامية: الكلام وأصول الفقه ومسائل الخلاف. وقد أخذ ابن العربي بالنشاط الثقافي المتنوع والمفعم بالحياة حتى إنه بقي في المدينة أكثر من ثلاث سنوات. (١٩٥)

إن العقد الأخير من القرن الحادي عشر الميلادي كان مضطرباً شديداً الاضطراب في الشرق العربي وكذلك في أوروبا. ووصلت فيه الخصومات بين حكام مصر والشام ذروتها. وكان هذا هو الوقت الصحيح للصليبيين للهجوم على الشرق. ففي سنة ٤٩١/١٠٩٨ استرد الفاطميون بقيادة الأفضل الجهمالي القدس من سلاجقة الشام. لكنها كانت فترة انتقال وجيزة، ذلك أن المسلمين امتلأت نفوسهم حسرة في السنة التالية على ضياع بيت المقدس للصليبيين. بيد أن حرمة المدينة العظيمة جعلتها رمزاً للجهاد ضد الغزاة.



الحواشي

١. السورة ١٧، الآية (١)
٢. ابن سعد باسناد جمعي، ١، ٢١٣. البلاذري، أنساب، ١، ٢٥٥. يضيف رواية أخرى تجعله قبل الهجرة بشائية عشر شهراً. ابن كثير، عن عروة عن الزهري، يجعله سنة قبل الهجرة، في ربيع الأول. انظر أيضاً ابن سعد، المجلد ٤، ج ١، ص ١٥٣.
٣. ابن هشام، سيرة، ٢، ٣٦-٣٧، ٣٩، ٤١، ٤٣؛ ابن اسحق، سيرة (تحقيق محمد حميد الله) ص ٢٧٥؛ البلاذري ج ١، ص ٢٥٥، ويقول: وهو مسجد بيت المقدس، وانظر ص ٢٥٦، ابن سعد، الطبقات ج ٤، ص ١٥٣. ويشير الطبري الى تبين الروايات حول معنى المسجد الأقصى ويقول: وأولى الأقوال بالصواب أنه مسجد بيت المقدس، تفسير الطبري: جامع البيان، بولاق ١٣٢٨، ج ١٥، ص ٥. انظر أيضاً الصفحات ٧ و ١٢، و ١٣-١٤.
٤. ابن سعد، الطبقات، ج ١، ٣٩-٤٠
٥. سورة ٢، آية ١٤٤
٦. تختلف الروايات بين ١٦ و ١٧ شهراً. انظر أيضاً ابن سعد، ج ١، ٢٤١، ٢٤٣، ٦١٩.
٧. انظر فنسك: *Wensink, Concordance et indices de la Tradition Musulmane, vol. II, 439.*
٨. انظر مثلاً، الصنعاني، المصنف ج ٥، رقم ٩١٥٨، ٩١٦٠، ٩١٦٢؛ ابن حنبل، المستدج ٢، ص ٢٣٨ و ج ٣، ص ٥١-٥٣، ٦٤؛ صحيح مسلم، ج ٣، ١٠١٤-١٥؛ كنز العمال، ج ١٣، ٢٣٣.
٩. مثل عبد الله بن عمر وعطاء (ت ١١٤)، وقتادة (ت ١١٨)، ومكحول (ت ١١٣). انظر الواسطي، ١٥-١٦، ٢٦، ابن سعد، ج ٤، ص ٢٣١.
١٠. عن سالم بن عبدالله، الطبري، ١/٢٤٠٣، انظر أيضاً ١/٢٤٠٦. وترد الرواية عن سالم في خليفة بن خياط ١٢٥/١.
١١. روايتان في البلاذري، فتوح ١٣٨-٣٩، احدهما عن الأوزاعي. انظر ابن اسحق في الطبري ١/٢٥١١، سيف عن هشام بن عروة وآخرين، الطبري/٢٥٢١-٢٢.
١٢. يرفض أبو زرعة هذا التاريخ عملياً. تاريخ ١٢٥/١٧٨. انظر أيضاً ابن عساکر، ٥٥٣/٢، ٥٥٤.
١٣. الواقدي في البلاذري، أنساب (مخطوط) ج ٢/٥٩٤؛ ابن الكلبي في تاريخ خليفة ١/١٢٤؛ ابن سعد ١/٢٨٣؛ سيف بن عمر في الطبري ١/٢٤٠٨؛ الوليد بن مسلم في أبي زرعة ١/١٧٦-١٧٧؛ اليعقوبي ١/١٤٦-١٢٧؛ ابن عساکر، تاريخ ١/٥٥٣-٥٥٤. انظر *Donner, Conquests, 151-2.*
١٤. البلاذري (عن أبي حفص الدمشقي)، فتوح ١٣٨-١٣٩. ورواية أخرى لهشام بن عمار الدمشقي عن الأوزاعي، ١٣٩؛ أبو زرعة عن سعيد بن عبد العزيز، تاريخ ١/١٧٦؛ انظر أيضاً رواية يزيد بن عبيدة، المصدر نفسه ١/١٧٦؛ ابن عساکر، تاريخ ١/٥٥٣-٥٥٤؛ الأزدي (عن حسن بن زياد الرملي)، فتوح، ٢٤٢-٢٤٧، ٢٩٥-٢٩٦، ٢٤٧-٢٥٢. انظر ابن الأعمش، فتوح ٢٨٩، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٦-٣٠١، وهو يورد رواية مشابهة دون ذكر المصدر. خليفة (عن ابن الكلبي) ١/١٢٤-١٢٥، مثل الأوزاعي في البلاذري، المطهر القدسي، البلده ٥/١٨٥.

- ١٥ . سالم بن عبدالله في الطبري ١/١٤١٣، وخليفة ٢/١٢٥؛ يزيد بن أبي حبيب في أبي عبيد، الأموال، ٢٢٤ - ٢٢٥؛ البلاذري، فتوح ١٣٩؛ يقول ابن سعد إن عمر قدم الجابية وشهد فتح بيت المقدس المجلد ٣/القسم الأول، ص ٢٠٣.
- ١٦ . يقتبس ابو عبيد عن هشام بن عمار الدمشقي ما مؤداه أن عمر ارسل احد القادة من الجابية الى بيت المقدس، فسلمت اليه، الأموال، ٢٥٥ - ٢٢٦. والرواية نفسها في ابن عساكر، دمشق ١/٥٥٣. سيف بن عمر في الطبري ١/٢٣٩٧ - ٢٤٠٢. انظر اليعقوبي ٢/١٦٠ - ١٦١. وفي رواية أضعف (يقول «ويقال») يشير الى وجود عمر، ٢/١٦٧. التاريخ ٢/١٦ - ١٧ و ١٧ - ١٨. انظر الطبري ١/٢٣٩٧ - ٢٤٠٢.
- ١٧ . سعيد ابن البطريق، التاريخ ٢/١٦ - ١٧ و ١٧ - ١٨. انظر الطبري ١/٢٣٩٧ - ٢٤٠٢.
- ١٨ . يقول ابن سعد : خرج عمر الى الجابية في صفر سنة ١٦ ومكث عشرين ليلة ثم حضر فتح بيت المقدس وقسم الغنائم بالجابية. ١/٢٨٣.
- ١٩ . الأزدي، فتوح ٢٥٠؛ البلاذري ١٣٩؛ ابن الأعمش، فتوح ١/٢٩١؛ الطبري ١/٢٤٠٤.
- ٢٠ . اليعقوبي ٢/١٦٧. ويبدأ : «هذا كتاب كتبه عمر بن الخطاب لأهل بيت المقدس».
- ٢١ . ابن البطريق، تاريخ ٢/١٦ : «بسم الله من عمر بن الخطاب لأهل مدينة ايلياء، انهم آمنون على دمائهم وأولادهم وأموالهم وكنائسهم ألا نهدم ولا تسكن».
- ٢٢ . انظر ابن عساكر، دمشق ١/٥٦٣، والصفحات التالية.
- ٢٣ . انظر الطبري ١/٢٤٠٥ - ٢٤٠٦.
- ٢٤ . Michael le Syrien, *Chronique*, II, 45.
- لم يخل الأمر من ادعاءات يهودية، فبالإضافة الى الدور المقترض لكعب الأحبار تدعى رواية يهودية أن اليهود طلبوا من عمر السماح لمائتي عائلة يهودية من مصر بالسكن في القدس. ولكن معارضة البطريق جعلت الخليفة يسمح لسبعين عائلة فقط بالسكن. انظر
- See *E. Judaica*, art. 'Jerusalem'.
- تمّ غزو مصر بعد حوالي أربع سنوات من هذا التاريخ.
- ٢٥ . الحميري، الروض المعطار، ٦٩.
- ٢٦ . من المؤلف أن نجد في المصادر المتأخرة روايات مبكرة. انظر ابن الجوزي، فضائل القدس، ١٢٣ - ١٢٤. «كتب (عمر) لأهل بيت المقدس: إني قد أمنتكم على دمائكم وأموالكم وذراريكم وصلبانكم (صلبان لا صلاة كما في الأصل) وبيعتكم. لا تكلفوا فوق طاقتكم... وأن عليكم الخراج (الجزية) كما على مدائن فلسطين».
- ٢٧ . كتاب البدء والتاريخ، ١٨٥/٥.
- ٢٨ . الشيخ المشرف بن المرجى، فضائل بيت المقدس والشام (مخطوط)، ٢٥٧ الاسناد الوارد فيه ضعيف.
- ٢٩ . ابن عساكر، دمشق ١/٥٦٣ - ٥٦٨.
- ٣٠ . الأنس الجليل ١/٢٥٣ - ٥٤.

٣١. أحكام أهل الذمة، ٦٥٧/٢ وما بعدها

٣٢. ابن أعثم، فتوح ١٩٦/١.

٣٣. انظر ترتون :

Tritton, *The Caliphs and their Non-Muslim Subjects*, خصوصاً الصفحات ٥ وما تلاها و ٢١ وما تلاها و ٥٢-٥٣ و ٤٧-٥٥ و ١١٥-١١٨ و ١١٩ و ١٢٠ و ١٢٤.

أمر عبد العزيز غير المسلمين بالآ يرتدوا العمامة والآن يتزويوا بزى المسلمين، الكندي الولاية ٦٦٢ ابن عبد الحكم، سيرة عمر، ١٦٧. أمر الرشيد (في سنة ١٩١هـ) غير المسلمين في المناطق القريبة من الحدود البيزنطية بأن يلبسوا ملابس مختلف عن ملابس المسلمين والآن يركبوا ركائب تشبه ركائبهم لأسباب أمنية، ابن الاثير، ٢٠٦/٦. وكان المتوكل أول من وضع قيوداً (سنة ٢٣٩/٨٥٣) على غير المسلمين فيما يتعلق باللباس والركائب والتعليم، الطبري ٣/١٣٨٤، ١٤١٩.

٣٤. من المنتظر أن تكون الفترتان المملوكية والعثمانية قد تركتا أثراً هنا. انظر النص النهائي للمهدة الذي أصدرته البطريركية الأرثوذكسية في القدس في ١٩٥٢/١/١ في عارف العارف، الفصل في تاريخ القدس، ٩١-٩٢.

٣٥. يقول الأزدي، ٢٥٩، إن عمر اقام حتى يوم الجمعة. أما المطهر المقدسي فيكتفي بالقول إنه اقام بها أياماً (١٥٥/٥).

٣٦. انظر ابن اعثم ٢٩٩/١ - ٣٠٠

٣٧. ابن البطريق، ١٧/٢ - ١٨، يعطي رواية نصرانية.

٣٨. إن تاريخ اعتناق كعب الإسلام وكذلك وجوده الفعلي في القدس آنذاك وكيفية مجيئه اليها من الأمور غير الواضحة. انظر الأزدي، ٢٥٩ وما تلاها. ويقول ابن أعثم (٢٩٦/١) انه أسلم بعد فتح القدس. وفي رواية اخرى أنه أسلم قبل ذلك وأنه كان في القدس فسأل عمر عنه. انظر الطبري ١/٢٤٠٨ - ٢٤٠٩، أبا عبيد، الأموال، ٢٢٥ - ٢٢٦؛ ابن عساکر، دمشق ١/٥٥٧.

٣٩. الأزدي، فتوح ٢٥٩. ويرد النص نفسه في فتوح الشام المنسوب للواقدي، ١٥١/١.

٤٠. مقاتل بن سليمان، تفسير، ٦٢/١ - ٦٣.

٤١. مجلة معهد المخطوطات، ١٩٥٨، ٥٤.

٤٢. المطهر المقدسي، البدء، ١٨٥/٥، وانظر أيضاً ٨٧/٤.

٤٣. المشرف، ٥٣؛ يقول الحميري في الروض المعطار ص ٦٩: إن عمر جعل القبلة في صدر المسجد ويذكر القلقشندي (عن الروض المعطار، كما قال) بناء عمر للمسجد الأول، ١٠١/٤. وانظر السيوطي، إتحاف الأخصا ١/٢٣٨ - ٢٤٠، وكذلك ابن خلدون (بولاق)، ١/٢٧٩.

٤٤. *Chronicle*, tr. H Turtledove, Philadelphia, 1982, 42.

٤٥. *Chronique*, II, 423.

٤٦. يقول ابن البطريق، ١٨/٢: بنى عمر المسجد وترك الصخرة في مؤخرة المسجد.

٤٧. وينفرد المطهر المقدسي بالقول (٨٧/٤): «فلم يزل بيت المقدس خراباً الى أن قام الاسلام وعمره عمر ثم معاوية بن أبي سفيان». هل يُنهم من هذا أن معاوية ساهم فيها بعد في البناء؟ يشير إلماد إلى نص رؤيوي في المدرش (التفسير اليهودي التقليدي للتوراة) يقول إن معاوية بني أسوار جبل الهيكل:
- A El'ad, Muslim Holy Places in Jerusalem, visitation and ritual in the Umayyad period.
٤٨. ابن حجر، الإصابة، ١٦٠/٢، وابن عبد البر، الإصابة (على هامش ابن حجر)، ٤٤١-٤٤٢.
٤٩. انظر محمد بن حبان البستي، معاصر علماء الأمصار، ٥٠-٥١ ابن سعد، ٤٠١/٧، ٤٠٨، ٤١٧؛ أبا زرعة، ٢٢٦. درس العسلي هذا الموضوع بالتفصيل في كتابه «أجدادنا في ثرى بيت المقدس». انظر الصفحات ٣٣، ١٠٦، ١٩٩، ٢٠٠، ٢١٩.
٥٠. ابن حجر، الإصابة، ٢٤٥/٢؛ ابوزرعة، ٥٩٣، ٦٩٠؛ ابن عساکر، تاريخ ٣١٦/١-٣١٧.
٥١. المقدسي، احسن التقاسيم، ١٧١؛ الهروي، الزيارات، ٢١.
٥٢. يورد ابن سعد نص هذا التعاهد، ٢٥٤/٤. انظر أيضاً ابن عساکر، تاريخ، ٣١٦-١٧.
٥٣. الطبري، ١٥/٢؛ المطهر المقدسي. البدء، ٨٧/٤. فلهاوزن (عن مصدر سرياني)، ٩٦-٩٧؛ تاريخ الخلفاء (المؤلف مجهول)، ١٢١.
٥٤. المشرف بن المرجى، فضائل، ١٤٩.
٥٥. البلاذري، أنساب، ٤، قسم ١، ٣٢.
٥٦. ابن عساکر، دمشق، ٦٠/١.
٥٧. نصر بن مزاحم (ت ٢١٢هـ)، صفين (تحقيق عبد السلام هارون، ط ٢، ١٣٨٢هـ، ٣١).
٥٨. Palestine Pilgrims' Texts Society, vol. III, New York, 1971, 4-5; J Wilkinson, Jerusalem Pilgrims before the Crusades, 1977, pp. 7-8, 95.
٥٩. انظر الدوري، «العرب والأرض في بلاد الشام» في كتاب المؤتمر الدولي الأول لتاريخ بلاد الشام (١٩٧٤)، ٢٥-٢٦.
٦٠. الأزدي، فتوح، ٢٥٩؛ ابن أعثم، ٢٩٦/١.
٦١. البلاذري (تحقيق الورت) ١٦٤-١٦٥.
٦٢. البلاذري، أنساب، ٢٤ قسم ١، ٣٥٩.
٦٣. المصدر نفسه، ٢٥٩.
٦٤. خليفة بن خياط، تاريخ، ٣٢٩/١. كان ذلك في رمضان ٦٥هـ/٦٨٥.
٦٥. صلاح الدين المنجد، معجم بني أمية، ٦٧؛ المشرف بن المرجى، ٣١-٣٢؛ مثير الغرام، ٤٥.
٦٦. الواسطي، ٨٧.
٦٧. انظر مثلاً ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٤٧٤/٢؛ البسوي، ٣٧٠/٢.
٦٨. انظر: K Creswell, Early Muslim Architecture, I, 65؛ الجهمشاري، وزراء، ٤٨؛ ابن البطريق، ٢٩/٢؛ الواسطي، ٨٧، van Berchem. CIA, Ilème, 'Jerusalem "Haram"', 234 ff.
٦٩. يعقوب، تاريخ، ٣١١/٢.

٧٠. تاريخ، ٣٩/٢. يقول ابن البطريق أمر الناس بالطواف حول القبة، انظر أيضاً ابن تغري يردى، النجوم، ٢١٧/١، ابن كثير، البداية، ٢٨٠/٨، الأئس الجليل، ٢٤٠/١ - ٤١.
٧١. مجلة معهد المخطوطات، ١٩٥٨، ٥٤.
٧٢. Goldziher, *Muslim Studies*, II, 44 ff., Creswell, op. cit., 65-67.
٧٣. أنظر Grabar, *The Umayyad Dome of the Rock*, 15-16; Goitein, *Studies in Islamic Civilisation*, 115.
٧٤. البسوي، المعرفة والتاريخ، ٦٢٦ - ٦٢٩. Duri, *The Rise of Historical Writing among the Arabs*, tr. by L I Conrad, 117-18.
٧٥. المقدسي، أحسن التقاسيم، ١٥٩، ١٦٨.
٧٦. انظر See Grabar, op. cit., 53 ff.
٧٧. انظر الواسطي، ٧٠-٧٤، ١١٤-١١٧؛ ابن عدي، العقد الفريد، ٢٦٥/٦.
٧٨. انظر اليعقوبي ٣١١/١؛ المهلي، المصدر المشار اليه، ٥٤. مع أن الروايات ملونة بالألوان سياسية، فإن الاشارة ذات مغزى.
٧٩. انظر ابا عبيد، الأموال، ٢٢٥ حيث نجد حديثاً شامياً عن هشام بن عمار الدمشقي.
٨٠. ينسب إلى الزهري قوله إن جميع الأنبياء صلوا نحو الصخرة، وانها قدست ثلاث مرات، وإنما هي المقصودة بالسورة ٧، آية ١.
٨١. انظر غرابار، الكتاب المشار اليه، ص ٣٨ وما بعدها، وانظر الواسطي، ٥١.
٨٢. انظر ناصر خسرو، الرحلة، ٣٠-٣١؛ دائرة المعارف الاسلامية EI، الطبعة الثانية، مادة «القدس».
٨٣. انظر قول سليمان بن عبد الملك في الجهشيارى، ١٤٨.
٨٤. أمر المهدي بهذا الرأي الى وزيره، انظر المشرق بن المرجي، ١٨٦.
٨٥. ابن كثير، ٢٦١/١١.
٨٦. يقول الواسطي، ٨٣، إن عبد الملك هو الذي بناه. والرواية عن الوليد بن حماد الرميلي، وترجع باسنادها إلى رجاء بن حيوة (١١٢هـ) ويزيد بن سلام اللذين أشرفا على البناء. انظر أيضاً: الأئس الجليل، ٢٦٩/١ - ٧٠ (عمان، ١٩٧٣). ويذكر ابن البطريق، ٤٢/٢ الوليد أيضاً، وكذلك ابن الأثير، ١٠/٥، وينسب الى الوليد عادة الفضل في بناء مسجد دمشق ومسجد المدينة.
٨٧. Creswell, op. cit., I, 373. الواسطي، ٨١-٨٣؛ المشرق، ٥٨-٥٩؛ ابن كثير البداية، ٢٨٠/٨.
٨٨. الأئس الجليل، ٢٧٠/٢، ومادة «القدس» في دائرة المعارف الاسلامية EI، الطبعة الثانية، مجلد ٣٤١/٥، El'ad, op. cit., 21 ff.
٨٩. *Jerusalem Revealed, Archaeology in the Holy City, 1968-1971*, The Israel Exploration Society, Jerusalem, 1973; Benjamin Mazar, *The Mountain of the Lord*, New York, 1975, 262-67.
٩٠. عبدالله مخلص، مجلة الكشاف، مجلد ٢.

٩١. سمير شيّا، مجلة القدس الشريف، عدد ١٠، كانون الثاني، ١٩٨٦، ٤٥ - ٤٦.
٩٢. الترجمة العربية بقلم أبي رضا، ص ٣٦٨.
٩٣. انظر الواسطي، ٥٤؛ ابن عبد ربه. المعقد، ٣٨٦/٤.
٩٤. الطبري، ١٢٩/٣؛ الأزدي، تاريخ، ٢١٨/٢؛ الكندي، ولاة، ١٠٦.
٩٥. المسعودي، مروج، ٢١٢/٦.
٩٦. الطبري، ٢٧٢/٣؛ الكندي، ولاة، ٢١٨؛ ابن تغري بردي، نجوم، ٢٩/١.
٩٧. الطبري، ٥٠١/٣؛ الأزدي، تاريخ، ٢٤٣/٢؛ البسوي، المعرفة والتاريخ، ١٥٠/١.
٩٨. يتحدث ابن تغري بردي عن الهزة الأولى في سنة ٧٤٨/١٣١، التي كانت شديدة وخربت بيت المقدس. النجوم، ٣١١/١.
٩٩. انظر ابن الأثير، ٦١٢/٥.
١٠٠. انظر الواسطي، ٨٣ - ٨٤.
١٠١. المقدسي، أحسن التقاسيم، ١٦٨. انظر يعقوبي، ٥٩٧/٤.
١٠٢. Van Berchem, op. cit., 248-49, 250.
١٠٣. المصدر نفسه، ص ٢٥٠ وما بعدها.
١٠٤. المصدر نفسه ٢٠٦، و ٧ وما بعدها.
١٠٥. Theophanes, 138؛ بينما يتحدث ميخائيل السوري عن زيادة في الضرائب.
١٠٦. انظر: للدوري، الفترة العباسية الأولى. بغداد، ١٩٤٥، ١٤٩ - ١٥٦.
١٠٧. روى برنارد الحكيم (حوالي ٨٧٠) انه نزل في نزل (Hospice) الامبراطور المجيد شارل، وذكر مكتبة عظيمة، و ١٢ قصراً. انظر. J Wilkinson, Jerusalem Pilgrims before the Crusades, 1977, 142.
١٠٨. ابن البطريق، ٥٥/٢ والصفحات التالية.
١٠٩. انظر الواسطي، ٣٩.
١١٠. ربما كان آخر زلزال في قترتنا هذه سنة ٤٦٠هـ. ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ٩٤، ابن الأثير، ٥٧/١٠.
١١١. ابن البطريق، المصدر المشار اليه. المصادر الأخرى لا تشير اليها.
١١٢. ميخائيل السوري، ١٠٣/٣؛ انظر ابن الأثير، ٣٧١/٦ - ٧٢.
١١٣. الحديث هنا هو الأقوال المنسوبة الى النبي.
١١٤. انظر Kister, 'You shall only set out for three mosques', Le Muséon, LXXXII, 1-2, 1979, 173.
١١٥. ابن ماجه، السنن، القاهرة، ١٣٤٩، ٤٢٩/١؛ كنز العمال، ١٣، رقم ١٣٣٠ وكذلك ١٣٦٨ و ١٣٧٩ و ١٣٨٠.
١١٦. انظر الصنعاني، المصنّف، ٥، رقم ٩١٣١ و ٩١٦٣، ٩١٧٣؛ المنلري، ترغيب، بيروت ١٩٦٨، ٢١٢/٢. وانظر أيضاً المصنّف، ٥، رقم ٩١٦٤ و ٩١٦٦.

١١٧ . كنز العمال، ١٣ رقم ١٣٦٨ و ١٣٧٩ و ١٣٨٠ .

١١٨ . انظر الأغباني، بولاق، ٥٩/١٩ .

١١٩ . انظر الديوان، ٣٢/٢، ٧٣ .

١٢٠ . انظر مقاتل بن سليمان، تفسير، المجلد الأول، تحقيق م . شحاته، القاهرة ١٩٦٩، ٤١ وما بعدها، ٦٢ - ٦٣، ٧٥، ١٠٤ - ١٠٥، ١٣٥، ١٨٤، ٢٧٩، ٣٠٥ - ٣٠٦، ٣٠٦ - ٣٥١ .

١٢١ . مقاتل، تفسير، مجلد ١، ص ٧٤ . وهو يفسر السفهاء بأنها تشير الى قريش؛ بينما يقول البسوي إنها تشير الى اليهود .

١٢٢ . ابن الفقيه، البلدان ٩٣؛ المشرف بن المرجي، فضائل، ٢١٦ - ١٧ و ٢٥٤ والصفحات التالية .

١٢٣ . المشرف، ٢٣٥؛ الانس الجليل، ٢٩٢/١ .

١٢٤ . ر . نعناعة، الاسرائيليات، ١٦٩ والصفحات التالية، ١٨٧ .

١٢٥ . مثير الغرام، ٢٧ - ٢٨ .

١٢٦ . الواسطي، فضائل، ٢٣ .

١٢٧ . انظر الواسطي، ١٥ - ١٦ و ١٩ - ٢٠ و ٢٢ - ٢٣ .

١٢٨ . أي كتب النصارى واليهود . انظر الواسطي ١٦٥؛ السيوطي، المحاف ٩٥/١ والصفحات التالية .

١٢٩ . انظر مثلاً الواسطي، ١٩ - ٢٠ .

١٣٠ . انظر الواسطي ٢٢ - ٢٣، ٢٨، ٤١؛ المشرف ٢٥٩ والصفحات التالية .

١٣١ . انظر المشرف حيث تمجد عدداً كبيراً من الروايات من القرن الرابع / العاشر مثلاً في الصفحات ٢٢٢، ٢٥٧، ٢٦٩، ٧٠ - ٢٨٤ .

١٣٢ . تاريخ المدينة لابن شيبه؛ تاريخ واسط لبحشل، تاريخ بغداد لطيفور . ويجب أن نأخذ بعين الاعتبار تاريخ مكة، مهد الحركة الاسلامية، للأزرقى .

١٣٣ . الخطيب، تاريخ بغداد، ٣٢٦/٦ .

١٣٤ . وضع موسى بن سهل بن قادم الرملي (ت ٢٦١هـ) كتاب من نزل فلسطين من الصحابة، ابن حجر، الاصابة، ٣٦٥/٢ .

١٣٥ . الربيعي، فضائل دمشق، تحقيق المنجد، دمشق ١٩٥٠ .

١٣٦ . المهلبى، المسالك والممالك العزيزي فيه فصل عن بيت المقدس . انظر مجلة معهد المخطوطات، ١٩٥٨/١ ص ٤٩ - ٥٥، حيث حقق صلاح الدين المنجد قطعة منه . وهذه المناسبة فان الكتاب أهدى إلى الخليفة الفاطمي العزيز . احسن التقاسيم، تحقيق دي خويه، المكتبة الجغرافية العربية - BGA - هو مثال آخر .

١٣٧ . تحقيق اسحق حسون، القدس، ١٩٧٩ .

١٣٨ . ما يزال مخطوطاً .

١٣٩ . الانس الجليل، ٢٨٩/١، وانظر أيضاً

. Sivan, 'The Beginnings of Faḍā'il al-Quds Literature', *Oriental Studies*, 1, 1971, 263 ff.

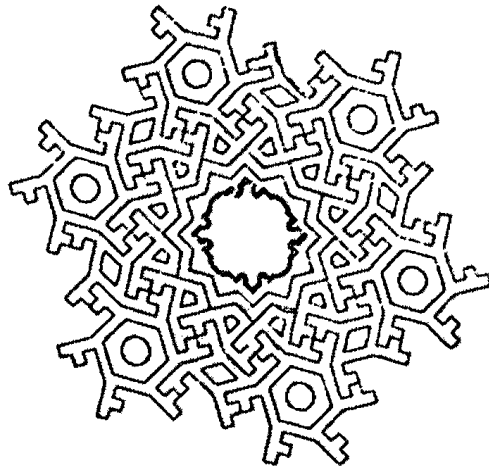
وكامل العسلي، مخطوطات فضائل بيت المقدس، ١٩٨١، ص ٢٤ . والصفحات التالية وص ٣٩ - ٤٠ .

١٤٥ . مثير الغرام والسيوطي المحاف الاخصا والانس الجليل .

١٤١. المشرق، ٣.
١٤٢. انظر كنز العمال، ١٣، الأرقام ١٣٧٩ و ١٣٦٨ و ١٣٨٠؛ المشرق، ٩٢-٩٣؛ الواسطي، ٤٠.
١٤٣. كنز العمال، ١٣، رقم ١٣٨١ و ١٣٨٢؛ الواسطي، ص ٤٠.
١٤٤. ابن الفقيه، البلدان، ٩٤.
١٤٥. الواسطي، ٢٢، ٢٨، ١٢١-١٢٢؛ المشرق، ٨٧-٨٨، ٢٤٥ وما بعدها.
١٤٦. ابن الفقيه، ٩٤-٩٥؛ المشرق، ٨٦-٨٧؛ الواسطي، ٢٣، ٢٤-٢٥.
١٤٧. الواسطي (عن الزهري)، ٥١.
١٤٨. نعيم بن حماد، كتاب الفتن، ص ٤٥ (أ) الى ١٤٨ (أ).
١٤٩. المصدر نفسه، ٤٩ (أ) وما بعدها، ٥٢ (أ-ب)، ٥٦ (أ)، ٥٧ (أ)، ٥٩ (أ-ب)؛ وثيمة، بدء الخلق وقصص الأنبياء، ٢٩٧-٢٩٨؛ المشرق، ٢٢٨، ٢٣٠-٢٣١، ٢٣٣؛ الواسطي، ٥٤.
١٥٠. الواسطي، ٣٩، ٤١؛ انظر المشرق، ٥٥، ٢٥٩ وما بعدها.
١٥١. المقدسي، أحسن التقاسيم، ١٦٦-١٦٧.
١٥٢. المصدر نفسه، ١٧٢.
١٥٣. ناصر خسرو، الرحلة، ٢.
١٥٤. المصدر نفسه، ٢٩.
١٥٥. انظر الكندي، الولاة، ٢٩٦، بالنسبة لبعض الاخشيديين. ابن القلانسي، ٧٩. تكين بن عبدالله والي مصر (ت ٣٢١هـ)، والاشيد (ت ٣٢٤هـ) وولدها دفنوا هناك. ابن تغري بردي، النجوم ٣/٢١١، ٢٥٦، ٣٢٦-٢٧؛ الكندي، ٢٨١؛ انظر أيضاً ابن القلانسي، ٧٩، وكامل العسلي، أجدادنا في ثرى بيت المقدس، ٢٤ و ٢٢١.
١٥٦. العيد الذي يلي الحج.
١٥٧. الرحلة، ١٩-٢٠.
١٥٨. الطرطوشي، كتاب الحوادث والبدع، تحرير محمد الطالبي، تونس، ١٩٥٩، ١١٦-١١٧. ويشير الى بدع أخرى كصلاة الرغائب (بُذنت سنة ٤٤٨هـ) وصلاة رجب (بُذنت بعد سنة ٤٨٠م)، ١٢١-١٢٢.
١٥٩. القلقشندي، معالم الإنافة، ١/١٢٩.
١٦٠. ابن كثير، البداية، ٨/٢٨٠-٨١. وهو يقول في ذلك: لم يكن يومئذ على وجه الأرض بناء احسن ولا أبهى من قبة صخرة بيت المقدس بحيث إن الناس التهبوا بها عن الكعبة والحج، وبحيث كانوا لا يلتفتون في موسم الحج وغيره إلى غير المسير إلى بيت المقدس. وافتن الناس بها افتتاناً عظيماً، وأتوه من كل مكان. وقد عملوا فيه من الاشارات والعلامات المكلوبة شيئاً كثيراً مما في الآخرة، فصوروا فيه صورة الصراط وباب الجنة وقدم رسول الله ﷺ ووادي جهنم. انظر: El'ad, 54 ff.
١٦١. البسوي، كتاب المعرفة والتاريخ، ١/٣٦٥.
١٦٢. مشير الغرام للمقدسي الشافعي (٧٦٥/١٣٦٤)، تحقيق احمد سامح الخالدي، ياقا، ١٠ وما يليها. السيوطي (٨٧٤/١٤٦٩)، انحاف الاخصا ١/٢٠ وما يليها. مجير الدين الحنبلي، الأئسن الجليل، ٢٨٥ وما بعدها.
١٦٣. انظر عبد الجليل عبد المهدي، الحركة الفكرية، عيآن، ١٩٨٠، ١٥/١-١٦.
١٦٤. المقدسي، أحسن التقاسيم، ١٦٣.

- ١٦٥ . يقول: لا مجلس نظر ولا تدريس، ١٦٧ .
- ١٦٦ . المقدسي، ١٦٧، ١٨٢ .
- ١٦٧ . المصدر نفسه، ١٦٦ .
- ١٦٨ . انظر احسان عباس، الحركة العمرانية في فلسطين. المؤتمر الثالث لتاريخ بلاد الشام. عمان، ١٩٨٣، المجلد الثاني، ٣٥٧ .
- ١٦٩ . المقدسي، ١٨٣ .
- ١٧٠ . المصدر نفسه، ١٦٧ . انظر 'Fātimids' Tritton, op. cit., 26, 131; EI², art.
- ١٧١ . المصدر نفسه، ١٦٦ .
- ١٧٢ . المصدر نفسه، ٢٤٣ .
- ١٧٣ . المقدسي، ١٨٢ - ٨٣ .
- ١٧٤ . Tritton, op. cit., 54-55; ابن القلاسي، ذيل تاريخ دمشق، ٦٦ - ٦٨؛ ابن الأثير، ٢٠٦/٩؛ ابن البطريق، ١٢٥/٢ . انظر أيضاً الدوري: اليهود في المجتمع الاسلامي، في: القضية الفلسطينية، المجلد الأول (اصدار اتحاد الجامعات العربية)، ١٩٨٣، ص ١٠٢ وما بعدها .
- ١٧٥ . ابن الأثير، ٢٩٥/٩؛ الأنس الجليل، ٢٦١/١، 263-66؛ Van Berchem, op. cit., 263-66؛ يقول الهروي إنه قرأ في سقف القبة تاريخ ذي القعدة ٤٢٦ هـ . كتاب الزيارات ٢٦، ٢٩ - ٩١ .
- ١٧٦ . Van Berchem, Hême, Cairo, 1925, 15.
- ١٧٧ . انظر حمد يوسف، بيت المقدس، القدس، ١٩٨٢، ١٣٢ .
- ١٧٨ . انظر الرحلة، ٥٨ - ٥٩ .
- ١٧٩ . كان في القدس في ٥ رمضان وبقي حتى أول ذي القعدة ٤٣٨ [من ٥ آذار (مارس) إلى ٢٩ نيسان ابريل ١٠٤٧].
- ١٨٠ . المصدر نفسه، ٥٦ .
- ١٨١ . ابن حوقل، في: BGA, 2nd ed., Kramers. 171 .
- ١٨٢ . انظر: مادة «القدس» في EI⁽²⁾ .
- ١٨٣ . الرحلة، ٥٦ . ابن الأثير يعطي هذا الرقم للكرامية في بيت المقدس، ٢٠/١٠ .
- ١٨٤ . الرحلة، ٥٩ .
- ١٨٥ . انظر ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، بيروت، ١٩٦٥ . ترجمة محمد سعيد التميمي، ٥٤٦ - ٤٨ .
- ١٨٦ . ابن الأثير، ٦٨/١٠ .
- ١٨٧ . المصدر نفسه، ٨٨/١٠ .
- ١٨٨ . انظر المصدر نفسه، ١٠٣/١٠ و ١٤٧؛ ابن تغري بردي، النجوم، ٨٧/٥، ١١٥؛ الذهبي، المعبر، ٢٥٢/٣؛ حمد يوسف، بيت المقدس، ١٣٦ وما بعدها .
- ١٨٩ . المقدسي، ١٦٣؛ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ٥٤٧ . انظر احسان عباس، المصدر المشار اليه، ٣٥٦ - ٥٧ .
- ١٩٠ . عبد الجليل عبد المهدي، الحركة الفكرية، ١٦ - ١٨ .
- ١٩١ . المصدر نفسه، ٢٤ - ٢٥؛ احسان عباس، المصدر المشار اليه، ٣٥٩ .

- ١٩٢ . عبد المهدي، المصدر المشار اليه، ٢٦ - ٢٧ .
١٩٣ . المصدر نفسه ٢٨ - ٢٩ .
١٩٤ . المصدر نفسه، ١٩ - ٢١؛ Tibāwī, Jerusalem, 14؛ الأونس الجليل، ٢٠١/١ - ٢٠٢؛ انظر ابن الأثير، ٢٥٢/١٠ .
١٩٥ . احسان عباس، رحلة ابن العربي، الأبحاث، الجامعة الأمريكية ببيروت، ١٩٦٨، ص ٨١ وما بعدها؛ أيضاً احسان عباس، الحياة العمرانية، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، المجلد الثاني، ١٩٨٣، ص ٣٥٩ - ٣٦١؛ عبد المهدي، المصدر المشار اليه، ٢ و ٢١ - ٢٢ و ٢٩ - ٣٣ .



القدس من سنة ١٦هـ / ٦٣٧م الى سنة ٤٩٢هـ / ١٠٩٩م
جدول زمني بأهم الأحداث

فتح العرب القدس .	٦٣٧/١٦
الخليفة عمر يدخل المدينة ويُصدر عهداً إلى أهلها .	
وفاة الصحابي عبادة بن الصامت في القدس .	٥٥ - ٦٥٤/٣٤
معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص يتعاهدان على التخالص والتناصر عند قبة الصخرة .	٥٩ - ٦٥٨/٣٨
معاوية ابن أبي سفيان يأخذ البيعة في القدس .	٦١ - ٦٦٠/٤٠
الأسقف اركولفوس من بلاد الغال يزور القدس .	٦٧٠/٥٠
وفاة الصحابي فيروز الديلمي في القدس .	٦٧٣ - ٦٧٢/٥٣
وفاة الصحابي شداد بن أوس في القدس .	٧٨ - ٦٧٧/٥٨
الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان يأخذ البيعة في القدس .	رمضان ٦٥ /
	آذار - نيسان ٦٨٥
الشروع في بناء قبة الصخرة .	٦٨٨ - ٦٨٧/٦٨
انتهاء بناء قبة الصخرة .	٦٩٢ - ٦٩١/٧٢
وفاة الصحابي وائل بن الأصقع في القدس .	١٨٥ و ٨٦
	٧٠٥ - ٧٠٤
إتمام بناء المسجد الأقصى	حوالي سنة ٩٠ /
	٧٠٩ - ٧٠٨
الخليفة سليمان بن عبد الملك يأخذ البيعة في القدس .	٧١٥/٩٦
هزة أرضية في فلسطين، واصابة المسجد الأقصى وكنيسة القيامة بأضرار بليغة .	٤٨ - ٧٤٧/١٣٠
وفاة المتصوفة المشهورة رابعة العدوية ودفنها على جبل الطور .	١٣٥ (أو ١٨٥)
وفاة العالم والمفسر عطاء بن مسلم الخراساني في القدس .	٥٣ - ٧٥٢

الخليفة العباسي المنصور يزور القدس .	٥٨ - ٧٥٧/١٤٠
تعمير المسجد الأقصى وتجديده .	٥٩ - ٧٥٨/١٤١
- هزة أرضية في القدس واصابة المسجد الأقصى بأضرار .	٧٧١/١٥٤
- الخليفة المنصور يزور القدس ويأمر بتعمير المسجد الأقصى .	
هزة أرضية أخرى في القدس واصابة المسجد الأقصى بأضرار مرة ثانية .	٧٧٥/١٥٨
الخليفة العباسي المهدي يزور القدس ويأمر بترميم المسجد .	٧٨٠ - ٧٧٩/١٦٣
عبدالله بن طاهر (والي الشام من ٨٢٠ الى ٨٢٢) يبني رواقاً في المسجد الأقصى .	٢٠٧ - ٢٠٥ ٨٢٢ - ٨٢٠
الخليفة العباسي المأمون يأمر بتعمير قبة الصخرة .	٨٣٢ - ٨٣١/٢١٦
كلمة «القدم» تظهر على عملة يصدرها المأمون .	٨٣٣ - ٨٣٢/٢١٧
الراهب بزارد الحكيم يزور القدس .	٨٦٨/٢٥٣
وفاة محمد بن الكرام ، زعيم الكرامية ودفنه في القدس .	٦٩ - ٨٦٨/٢٥٥
احتلال احمد بن طولون حاكم مصر لفلسطين .	٧٨ - ٨٧٧/٢٦٤
انتهاء حكم الطولونيين في فلسطين .	٩٠٥ - ٩٠٤/٢٩٢
عيسى بن موسى النوشري ، أول والي عباسي على مصر بعد سقوط الطولونيين ، يُدفن في القدس .	٩٠٩ - ٩٠٨/٢٩٦
أم الخليفة العباسي المقتدر تأمر بصنع أبواب قبة الصخرة .	٩١٤/٣٠١
الحريق يصيب كنيسة القيامة بأضرار .	٩٣٨/٣٢٦
محمد الاخشيد ، مؤسس الدولة الاخشيدية في مصر ، يحتل فلسطين .	٩٤٠/٣٢٨
تكوين بن عبدالله والي مصر العباسي يدفن في القدس .	٤٣ - ٩٤٢/٣٣١
محمد الاخشيد يدفن في القدس .	٤٦ - ٩٤٥/٣٣٤
مولد محمد بن احمد المقدسي البشاري ، الجغرافي المشهور ، في القدس .	٤٧ - ٩٤٦/٣٣٥

الحسن بن طنج أخو الاخشيد يدفن في القدس .	٥٤ - ٩٥٣/٣٤٢
اتوجور الاخشيدي حاكم مصر يدفن في القدس .	٦١ - ٩٦٠/٣٤٩
الوزير الاخشيدي كافور يأمر بتعمير الحرم الشريف .	٦٢ - ٩٦١/٣٥٠
علي بن الاخشيد حاكم مصر يدفن في القدس .	٦٦ - ٩٦٥/٣٥٥
- محمد الصنهاجي ، حاكم القدسي المغربي ، يعتدي على كنيسة القيامة ويقتل يوحنا بطريرك القدس .	
نهاية الدولة الاخشيدية .	٩٦٩/٣٥٨
الفاطميون يحتلون مصر .	٧٠ - ٩٦٩/٣٥٩
وفاة الجغرافي محمد بن احمد المقدسي في القدس .	٩١ - ٩٩٠/٣٨٠
الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله يأمر بتخريب كنيسة القيامة .	١٠٠٩/٤٠٠
الحاكم يلغي اجراءاته ضد النصارى .	١٥ - ١٠١٤/٤٠٥
هزة أرضية تخرب قبة الصخرة وبعض جدران المسجد الأقصى .	١٠١٦/٤٠٧
الحاكم يقوم بتعمير قبة الصخرة .	١٨ - ١٠١٧/٤٠٨
الحاكم يأمر باعادة بناء كنيسة القيامة .	٢٠ - ١٠١٩/٤١٠
الحاكم يتعهد بسلامة النصارى .	٢١ - ١٠٢٠/٤١١
الخليفة الفاطمي الظاهر يعيد بناء قبة الصخرة .	٢٣ - ١٠٢٢/٤١٣
- ترميم قبة الصخرة .	١٠٢٧/٤١٨
- الفاطميون يعقدون اتفاقاً مع البيزنطيين بشأن ترميم كنيسة القيامة .	
الفاطميون يقومون بتقوية أسوار القدس .	١٠٣٣/٤٢٤
- هزة أرضية في فلسطين ، تلحق أضراراً بالغة بمسجد القدس وجدرانه .	١٠٣٣/٤٢٥
- الخليفة الفاطمي الظاهر يقوم باصلاح أسوار الحرم وتحصينات أسوار المدينة .	
اعادة بناء المسجد الأقصى واصلاح قبة الصخرة في عهد الظاهر .	١٠٣٥ - ٤٢٦

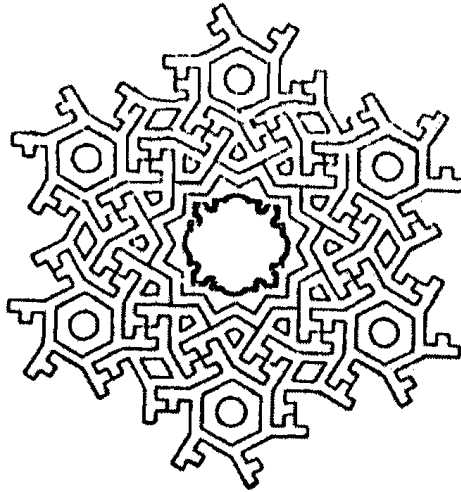
- ١٤٠٧/٤٣٨ الرحالة الفارسي ناصر خسرو يزور القدس .
- ١٠٤٨/٤٠ - ٤٣٩ التجار الايطاليون ينشئون اسبتاراً في القدس يقوم على خدمته اخوة القدس يوحنا .
- ٥٤ - ١٠٥٣/٤٤٥ أحمد بن مروان أمير ديار بكر يقف دارين في القدس على الواردين اليها من ديار بكر .
- ١٠٥٤/٤٦ - ٤٤٥ قطع علاقات بطريرك القدس مع روما بعد الانشقاق في الكنيسة النصرانية .
- البطارقة العرب يحكمون كنيسة القدس حتى سنة ١٠٥٤ م .
- ٦٤ - ١٠٦٣/٤٥٦ الخليفة الفاطمي المستنصر يرسم اسوار القدس وتحصيناتها .
- ١٠٦٥/٤٥٧ اثنا عشر الف حاج الماني وهولندي يقومون بحج جماعي الى المدينة المقدسة .
- ١٠٦٦/٤٥٨ الخليفة الفاطمي المستنصر يبني واجهة المسجد الأقصى .
- حوالي ١٠٦٨/٤٦٠ الشيخ نصر المقدسي ينشئ مدرسة في القدس .
- ١٠٦٨/٤٦٠ هزة أرضية تشق قبة الصخرة الى نصفين .
- ٧٣ - ١٠٧٢/٤٦٥ - التركمان بقيادة أتسز يقتحمون القدس ويطردون الحامية الفاطمية .
- نور الدين زنكي يأمر بصنع منبر للمسجد الأقصى في حلب .
- ٧٧ - ١٠٧٦/٤٦٩ أهل القدس يثورون على حكم التركمان .
أتسز يدخل المدينة ويقتل حوالي ٣٠٠٠ شخص .
- ١٠٧٨/٤٧٠ عساكر تتش ، حاكم دمشق السلجوقي ، يقتحمون القدس ويقتلون أتسز .
- ٨٧ - ١٠٨٦/٤٧٩ تتش يُقطع أرتق بن أكسب القدس .
- ٩٢ - ١٠٩١/٤٨٤ أرتق يسلم القدس لولديه سُقمان وايلغازي .
- ١٠٩٥/٤٨٩ أبو حامد الغزالي يزور القدس ويعتكف في المسجد الأقصى للعبادة والتأمل .
- ١٠٩٦/٤٩٠ وفاة العالم الشهير نصر المقدسي في دمشق .

الفاطميون بقيادة الأفضل الجمالي يستردون القدس من السلاجقة . ١٠٩٨/٤٩١

رجب /٤٩٢/ حزيران الصليبيون يحاصرون القدس .
(يونية) ١٠٩٩

٢٩ شعبان /٤٩٢/ الصليبيون يدخلون القدس ويقتحمون المسجد الأقصى ، ويقتلون
١٥ تموز (يوليه) ١٠٩٩ حوالي ٧٠٠٠٠ شخص

(المحرر)



الفصل الخامس

القدس تحت حكم الصليبيين ١٠٩٩ - ١١٨٧ م

مصطفى الحيارى

القدس تحت حكم الصليبيين

١٠٩٩ - ١١٨٧

مصطفى الحيارى

القدس والتركمان والسلاجقة :

في سنة ٤٨٦هـ / ١٠٩٣م، اي بعد نصف قرن من زيارة ناصر خسرو لمدينة القدس وقبل ست سنوات من استيلاء الصليبيين على المدينة، قام شاب اندلسي يطلب العلم بزيارة المدينة في طريقه إلى مكة لأداء فريضة الحج برفقة ابيه. هذا الشاب هو ابو بكر بن العربي الذي صار فيما بعد من مشاهير العلماء. وفي ذلك الوقت كانت القدس تشهد نشاطاً ثقافياً وفكرياً على درجة من التنوع والإثارة دفعت ابن العربي إلى الإقامة فيها لمواصلة دراسته. وكان في المدينة حينئذ عدد من علماء الفقه الشافعي والحنفي يقومون بالتعليم في مدارس خاصة بهم. لكن أكثر ما اثار اهتمام ابن العربي هو اساليب المناظرة والتدريس الجديدة التي لم تكن مألوفة في بلده الاصيل^(١).

وامتدت اقامة ابن العربي في مدينة القدس اكثر من ثلاث سنوات. وقد كتب فيما بعد وقائع رحلته إلى الشرق. ولا تزال مقتطفات وقطع متفرقة منها محفوظة في مؤلفاته الأخرى. وتصور لنا الفقرات المتعلقة بالقدس من الرحلة، مع انها غير كاملة، بعض جوانب الحياة في المدينة المقدسة خلال العقد التاسع من القرن الخامس الهجري (العقد العاشر من القرن الحادي عشر الميلادي) تصويراً نابضاً بالحياة^(٢).

وفي الفترة التي زار فيها ابن العربي مدينة القدس كان الحكم فيها بيد التركمان السلاجقة. وكان هذا الحكم في القدس قد ابتدأ قبل عشرين سنة منذ تمكن أتسزبن اوق الخوارزمي من احتلال المدينة [شعبان ٤٦٦ / نيسان (ابريل) ١٠٧٤]. وشهدت القدس خلال تلك الفترة إحياء ثقافياً، خاصة الدراسات الدينية والفقهية، لم تشهد له مثيلاً خلال فترة المائة سنة والعشر سنوات من حكم الدولة الفاطمية (٣٥٨ - ٤٦٦ / ٤٨٩ - ١٠٧٤). فمجير الدين الحنبلي الذي عرف اكثر ما عرف بتأريخه لمدينة القدس الذي جمعه في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري يؤكد هذه الحقيقة؛ اذ لا يذكر اي عالم او شخصية مشهورة

خلال تلك الفترة^(٧)؛ بينما يذكر للفترة التركمانية القصيرة عدداً من العلماء البارزين الذين عاشوا في المدينة أوزاروها لفترات قصيرة^(٨). وكان من بينهم ابو الفتح نصر، والطرطوشي، والغزالي، وابن العربي، وغيرهم^(٩).

وتؤكد الفقرات المتبقية من رحلة ابن العربي، ومقتطفات أخرى حفظتها مؤلفاته، ملامح مميزة للحياة التربوية والاجتماعية في المدينة المقدسة: اولها وجود مدرستين سُنيّتين احدهما للشافعية والثانية للحنفية، وكلتاهما اسست في الفترة التركمانية، وكان يعقد فيها علماء بارزون حلقات الدرس للطلاب ويجرون المناظرات بصورة منتظمة. وثاني هذه الملامح المحاورات بين الاديان التي كانت تجري في المدينة ويشترك فيها علماء المسلمين والنصارى واليهود في مجالس تعرض فيها موضوعات متنوعة^(١٠). اما الملمح الثالث الاكثر اهمية الذي تجده في رحلة ابن العربي فيبرز موقف سكان المدينة من الصراعات الداخلية للطبقة الحاكمة في المدينة. ويقول إنه شاهد في المدينة حادثة لا يمكن أن يقع مثلها في مدينته الاصلية او أي مدينة أخرى في الاندلس. والقصة التي يرويها ابن العربي تتناول في غير ناحية التجارب التي مرّ بها المقدسيون، وهي جديرة بأن نوردتها بالتفصيل:

«ورأيت فيه (برج داود) غربية الدهر، وذلك أن ثائراً ثار به على واليه وامتنع فيه بالقوت؛ فحاصره وحاول قتاله فيه بالنشاب فترة، والبلد على صغره^(١١) مستمر على حاله، ما اغلقت لهذه الفتنة سوق ولا سار اليها من العامة بشر، ولا برز للحال من المسجد الأقصى معتكف ولا انقطعت مناظرة، ولا بطل التدريس، وإنما كانت العسكرية قد تفرقت فرقتين يقتتلون، وليس عند سائر الناس لذلك حركة. ولو كان بعض هذا في بلادنا (الاندلس) لاضطربت نار الحرب في البعيد والقريب، ولانقطعت المعاش وغلقت الدكاكين، وبطل التعامل، لكثرة فضولنا وقلة فضولهم»^(١٢).

وقد كانت هذه اللامبالاة المدروسة لسكان القدس نتيجة لمعاناتهم المتكررة في الماضي من الاضطرابات المدنية الماثلة. ويزودنا عرض سريع لتاريخ المدينة خلال القرن الحادي عشر الميلادي بصورة واضحة لهذه التجارب. فقد عانت المدينة المقدسة اشد المعاناة من كوارث من صنع الانسان ومن صنع الطبيعة.

افتتح القرن الحادي عشر الميلادي، فيما يختص بالقدس، بأوامر اصدرها الخليفة الفاطمي الحاكم باسر الله يهدم كنيسة القيامة (القبر المقدس) واضطهاد المسيحيين في

القدس . واختتم القرن ذاته بحمات الدم التي واكبت الاحتلال الفرنجي الصليبي ، والتي ادت إلى ابادة جميع سكانها تقريباً بالسيف . وبين بداية القرن المذكور ونهايته شهدت القدس سلسلة من التطورات التي كان لها اثر كبير على مستقبلها . وسوف تساعدنا للمحة القصيرة التالية عن هذه التطورات على فهم الفترة الصليبية في القدس .

في سنة ١٠٠٩/٣٩٩ كتب الحاكم بامر الله إلى والي فلسطين يأمره يهدم كنيسة القيامة . وفي ٥ صفر سنة ٤٠٠ / ٢٨ ايلول (سبتمبر) سنة ١٠٠٩ تم هدم الكنيسة وتسويتها بالارض^(١) . وتبع ذلك مباشرة تنفيذ سياسة مضايقة سكان القدس من النصارى ، مما ادى إلى هجرتهم بالجملة إلى الاراضي البيزنطية . ومنذ ذلك الحين صارت قضية «كنيسة القيامة» قضية رئيسية في العلاقات الدبلوماسية بين الخلافة الفاطمية والامبراطورية البيزنطية . وفي سنة ١٠١٤-١٠١٥ ، وفيما بعدها . وعندما ألغى الحاكم بعض الاجراءات التي اتخذها ضد النصارى ، أرسل سفير بيزنطي إلى القاهرة فاستقبله الخليفة نفسه . ولا نعرف نتيجة هذه السفارة ، لكن القدس وفلسطين سيطر عليها آل الجراح الطائيون لفترة قصيرة^(٢) . وفي هذه الفترة قام اميرهم ، الذي عين نفسه بنفسه حاكماً على البلاد ، بتنصيب بطريك للنصارى في المدينة . وساعد النصارى على اعادة بناء كنيسة القيامة . ونحبرنا المؤرخ يحيى بن سعيد الانطاكي أن ابن الجراح أسهم في نفقات اعادة البناء بما سمحت به إمكاناته المادية المحدودة^(٣) .

وبعد وفاة الحاكم استؤنفت العلاقات الودية بين الفاطميين والامبراطورية البيزنطية ، وبدأت الخلافات بينها تحمل عن طريق المفاوضات التي أفضت إلى عقد معاهدة بين الجانبين سنة ٤١٨ / ١٠٢٧ . ونصت المعاهدة ، فيما نصت عليه ، على «فتح كنيسة القيامة» . ويقول المقرئزي إن الامبراطور البيزنطي وملوك النصارى «حملوا اليها (كنيسة القيامة) الاموال والآلات واعادوها»^(٤) . أما يحيى بن سعيد الانطاكي فيقول إن المفاوضات امتدت فترة طويلة من الزمن وأن «ملك» الروم طلب خلالها السماح له باعادة بناء كنيسة القيامة على نفقته الخاصة وكذلك اعادة بناء بقية الكنائس الأخرى المهتمة في بلاد الملك الظاهر سلطان مصر ، وأن يعين الملك بطريكاً للقدس . ومقابل ذلك وعد الامبراطور باطلاق جميع الاسرى المسلمين الذين اسروا خلال فترة حكمه وفترة حكم الامبراطور الذي سبقه^(٥) . ولم يتم التوصل إلى اتفاق نهائي واستمرت المفاوضات^(٦) . وفي اواخر سنة ٤٢٤ / ١٠٣٣ امر الظاهر باعادة بناء اسوار القدس . ولكن البناء توقف بسبب هزة ارضية قوية وقعت يوم

الخميس ١٠ صفر سنة ٤٢٥ / ٤ كانون الثاني (يناير) ١٠٣٤ ، وأسفرت عن تهديم نصف مدينة الرملة واجزاء من سورها وخراب معظم مدينتي اريحا و نابلس وقرامها وجزء من المسجد الأقصى^(١٥).

واستمرت المفاوضات بين الفاطميين والبيزنطيين . وفي سنة ٤٢٧ / ١٠٣٥ عقدت معاهدة بين الجانبين مدتها عشر سنوات^(١٦) . وتوفي الخليفة الظاهر في تلك السنة نفسها ، لكن الخليفة الجديد المستنصر بالله صادق على المعاهدة . وكان ابرز البنود في المعاهدة السماح للامبراطور البيزنطي باعادة بناء كنيسة القيامة مقابل اطلاق سراح خمسة آلاف اسير من اسرى المسلمين . وبعد هذا الاتفاق صرف الامبراطور مبالغ كبيرة من المال على اعادة بنائها^(١٧) . وفي سنة ٤٣٣ / ١٠٣٧ نقض البيزنطيون المعاهدة بهجومهم على سوريا الشمالية . ولكن الفاطميين لم يتخذوا اي اجراء مضاد تجاه كنيسة القيامة او نصارى بيت المقدس . وبعد ذلك بربع سنوات استؤنفت العلاقات الطيبة بين الدولتين وتبادلنا السفراء والهدايا^(١٨) . وبعد مرور أقل من سنة (في رمضان ٤٣٨ / آذار ١٠٤٧)^(١٩) زار ناصر خسرو مدينة القدس ووصف المدينة الكبيرة المزدهرة . وتمت زيارته للمدينة بعد عقد المعاهدة بعشر سنوات . وبدل وصفه لحالة الاسوار ولكنيسة القيامة على تنفيذ بنود الاتفاق . ويستفاد من اقوال ناصر خسرو أن حالة الاسوار كانت ممتازة وأن الكنيسة كانت تامة البناء ومزدانة بالزخارف الجميلة^(٢٠) . لكن بعد هذا التاريخ بتسع سنوات تدهورت العلاقات بين الدولتين . وقد نجم ذلك عن ظهور دولة السلاجقة في الشرق وسماح الامبراطور البيزنطي لهم بحق الخطبة في مسجد القسطنطينية باسم الخليفة العباسي في بغداد وللأمير السلجوقي^(٢١) . وكما هو متوقع ، رد المستنصر على ذلك رداً قوياً فأمر باغلاق كنيسة القيامة ومصادرة محتوياتها ، وطرد البطريرك واحتجازه في بيت منفرد واغلاق جميع الكنائس في مصر والشام ، وزيادة الجزية على النصارى ومطالبة الرهبان بدفع جزية اربع سنوات مقدماً^(٢٢) .

وفي خلال هذه الفترة بالذات وصلتنا اقدم الاشارات حول انشاء وقف على الواقدين إلى القدس من خارج بلاد الشام ؛ إذ يفيدنا نقش مؤرخ سنة ٤٤٥ / ١٠٥٣ - ٥٤ أن أمير ديار بكر من بني مروان وقف بيتين متجاورين خارج سور الحرم الشريف مباشرة لسكنى الزوار الذين يفتدون إلى زيارة القدس من ديار بكر^(٢٣) . ومن الطريف أن هذا الأمر تم في الوقت الذي كانت الخلافة الفاطمية تسعى فيه إلى كسب دعم بني مروان ومشاركتهم في حركة البساسيري التي استهدفت القضاء على الخلافة العباسية . وربما كان في القدس

اوقاف اخرى لجماعات من مسلمي الشرق في هذه الفترة؛ الا اننا لم نعثر على وثائق مكتوبة تؤيد ذلك .

استهل قيام سلطنة السلاجقة في الشرق وتقدم قواتهم والقبائل التركمانية نحو بلاد الشام عهداً جديداً في تاريخ فلسطين . وبدأت في مدينة القدس تطورات جديدة داخلية وخارجية، ترجع إلى حد كبير إلى ظهور التحدي التركماني وعجز الفاطميين عن مواجهته . وفي النصف الثاني من القرن الحادي عشر اقيم «حي البطريرك (البطرك)» وبني بيت الاستبار الاول، واستولى التركمان على المدينة وحكموها نيابة عن السلاطين السلاجقة اكثر من عشرين سنة، وتمكن الافضل بن بدر الجمالي (الوزير الفاطمي) من استعادة القدس للفاطميين (١٠٩٨/٤٩١)، وانتهت اخيراً الفرنجة الصليبيون عنوةً بعد ذلك بسنة واحدة . ولنحاول الآن أن نقف وقفة قصيرة عند هذه التطورات .

كان سكان القدس من مسلمين ونصارى يعيشون قبل الاحتلال التركماني بعقد من السنين او نحو ذلك كما اتفق في مساكن مختلطة ودون تمييز^(٢٤) . ولكن عندما انشيء حي البطريرك (حارة النصارى) تيرت احياء السكن لكليها . فقد أرغم المسلمون بأمر الخليفة الفاطمي «على الانتقال إلى اجزاء اخرى من القدس وتركوا ذلك الحي» للنصارى وحدهم^(٢٥) . اما السبب الذي يورده مصدرنا الوحيد لهذه المعلومات، وليم الصوريّ، فهو أن اسوار المدينة كانت في حالة سيئة فأمر الفاطميون السكان النصارى بتحسين جزء منها .

لكن نصارى القدس لم تتوافر لديهم وقتئذ الامكانيات المادية الكافية فطلبوا السماح لهم بطلب المساعدة والدعم من الامبراطور البيزنطي . وتم التوصل إلى اتفاق بين الخليفة الفاطمي والامبراطور البيزنطي قسطنطين، تقرر بموجبه أن يقوم الامبراطور بتمويل ذلك الجزء من السور المحيط بالقسم المخصص للنصارى (والذي تم بناؤه سنة ١٠٦٣) شريطة أن يجعل الحي مقصوراً على السكان النصارى لا يخالطهم فيه احد^(٢٦) .

اما حدود حي النصارى (حي البطرك)، كما حددها وليم الصوريّ^(٢٧) فكانت

كمايلي :

«يتكون الحد الخارجي (للربيع) من سرر المدينة الذي يمتد من الباب الغربي اوباب

داود** مروراً بالبرج الذي يقع في الزاوية والذي يعرف (في عصر وليم) بـ برج تانكرد، ويمتد من ثم إلى الباب الشمالي الذي يعرف باسم الشهيد الاول اسطفان (باب العامود او باب دمشق). اما الحد الداخلي للحي فيتكون من الشارع العام الممتد من باب اسطفان (طريق القديس اسطفان في فترة الصليبيين) وحتى مناخذ الصرافين (صرافي النقود)، ويتجه من هناك ثانية إلى الباب الغربي». (٢٨)

ووضع الحي كله، بمقتضى الاتفاقية ايضاً، تحت سلطة البطريرك، وعرف خلال الفترة الصليبية باسم «ربع البطريرك» (٢٩).

وخلال تلك الفترة منح الخليفة المستنصر قبيل الاحتلال التركماني، التجار الاوروبيين هدية أخرى، الا وهي قطعة من الارض في حارة النصارى (٣٠). وقد منحت لتجار مدينة أمالفي (Amalfi) الايطالية لبناء مركز عليها يقيمون فيه في القدس. وقام هؤلاء التجار ببناء دَيْر عرف فيما بعد باسم دير القديسة ماري اللاتينية (St Mary of the Latins)، ودير للراهبات عرف بدير القديسة مريم المجدلية ليكون مأوى للحاجات من النساء، ونزل (Hospice)، وكنيسة القديس يوحنا. ثم تحول النزل والمرافق التابعة له إلى مستشفى القديس يوحنا (٣١).

ويعد هذه التطورات مباشرة استولى التركمان على القدس.

الاحتلال التركماني

وصف أتسز بن أوق الخوارزمي، زعيم الجماعات التركمانية التي غزت بلاد الشام الجنوبية، في رسالة بعث بها إلى الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي (٣٢) كيفية التي تم بها استيلاء الأمير التركماني ورجاله على القدس في شهر شوال ٤٦٥ / حزيران (يونيه) ١٠٧٣. فقد تقدم اتسز وباشر حصار المدينة لكنه رفض أن يهاجمها او يستولى عليها بالقوة، لأن المكان، كما قال، «حرم الله لا اقاتله». وكان والي المدينة الفاطمي تركياً ورفض في البداية الاستسلام. لكن اصرار اتسز وتركمانه على مواصلة الحصار ونقص الاقوات في المدينة ارغمها على التفاوض. فارسل رسلاً إلى اتسز يقولون له على لسانه:

* المقصود بالباب الغربي باب الخليل. اما قوله باب داود فاعتقد أنه خطأ، لان باب داود او باب صهيون في الجنوب - المترجم.

«انا منكم، وما أقمت على الامتناع الا وفاء لمن كنت خادماً له وعبداً (الخليفة الفاطمي). وقد فعلت ما يجب على (الدفاع قدر الاستطاعة) فان أمنتني على نفسي ومالي سلمت اليك البلد ونزلت إليك»^(٣٣). واعطاه اتسز امانا مكتوباً وأقسم على الوفاء بجميع الشروط الواردة فيه. كما منحه اقطاعاً لعدد من الضياع التي حددها الوالي نفسه. ثم فتح الوالي باب المدينة ودخل أتسز ورجاله ونادى بمنح الأمان لجميع السكان. وفضلاً عن هذا فقد امر رجاله بعدم التعرض لشيء من الاموال العظيمة في المدينة، واقام رجالاً من جنده لحفظ اموال الناس «وكان هذا امراً لم يتوقعه الناس»^(٣٤).

واما الحامية العسكرية الفاطمية - التي كانت تتألف من الاتراك والرجال السودان والمصامدة البربر - فقد بقيت في المدينة، وفعل الشيء نفسه، كما يبدو، اعضاء الجهاز الاداري مثل القاضي والمحاسب وصاحب الشرطة. . . اما الاتراك فقد انضموا إلى أتسز؛ بينما استقر الباقون كسكان عاديين.

ويعد الاستيلاء على القدس بابرع سنوات كان اتسز يقاتل في مصر لاقامة نفوذ الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية فيها. لكنه هزم (في رجب ٤٦٩ / كانون الثاني - شباط ١٠٧٧) وهرب مع بعض رجاله إلى دمشق التي دخلها في ١٠ شعبان / ٩ آذار (مارس) من السنة نفسها^(٣٥). وفي القدس ثار السكان الموالون للفاطميين ضد التركمان واستولوا على جميع اموالهم واسروا النساء واستعبدوا الاولاد. اما الاتراك الذين كانوا يسكنون في برج داود او التجأوا اليه فقد همتهم اسواره المنيعة^(٣٦).

وعندما عرف أتسز بهذه التطورات اعاد تجميع ما بقي لديه من القوات التركمانية وهرع الى القدس وفرض عليها الحصار. ولم يقم اتسز بالهجوم على المدينة لأن الامل خالجه في امكان اخماد الثورة بصورة سلمية. فارسل رسولاً إلى المدينة يطالبها بالاستسلام ويعد بمنح الأمان للجميع. ورفض السكان العرض وهددوا بقتاله. وتقدم هو نفسه ثانية إلى تحت الاسوار وخاطبهم في ذلك أملاً في الوصول إلى حل وسط؛ ولكنهم توعدوه وسبوه. وعندئذ هاجم اتسز المدينة يوماً وليلة ولكن دون جدوى. اما نساء اتسز المحاصرات داخل جدران القلعة فقد وجدن طريقاً للخروج من رتق جانبي في سور البرج. فخرجن منه ودلن عليه. فدخل الأمير ومعه جماعة من عسكره من هذا الرتق وفتحوا الباب لبقية العسكر التركماني، وقاموا على الفور بمهاجمة الثائرين. فقتلوا القاضي والشهود الذين كانوا، كما

يبدو، رؤساء هذه الفتنة، وقتلوا معهم زهاء ثلاثة آلاف شخص. وما نجا الا من اعتصم بالحرم الشريف؛ لكن تقرر على هؤلاء دفع القدية^(٣٧).

كان مركز ولاية اتسز الرسمي مدينة دمشق فغادر القدس واقام فيها شخصاً تركمانياً يدعى قرموش نائباً له فسكن هذا مع نساء اتسز والامتعة في برج داود. وعندما جاء تتش بن الب ارسلان إلى الشام ليعزز التركمان ضد التهديد الفاطمي قتل اتسز [ربيع الاول ٤٧٢ / ايلول (سبتمبر) ١٠٧٩] وسيطر على جميع البلاد التابعة له؛ ثم اقام أرتق بن اكسب والياً على القدس واقطعه جميع المناطق التابعة لها. وسلم قرموش المدينة دون مقاومة، وعوضه تتش اقطاعاً مساوياً من حيث القيمة للاقطاع الذي تخلى عنه، والذي تضمن قلعة صرخد في حوران والبلاد التابعة لها. اما زوجة أتسز وابنته واحد اقاربه الذين كانوا مقيمين في برج داود فقد خافوا على حياتهم من تتش وغادروا بلاد الشام وتوجهوا إلى بغداد^(٣٨).

حكم بنو أرتق القدس حوالي عشرين سنة تميزت بالهدوء والازدهار. وفي سنة ٤٨٢ / ١٠٨٩ بُني في القدس مسجد جديد، وحولت كنيسة القديس حنه الخربة إلى مدرسة للشافعية بعد ترميمها وانشئت مدرسة للحنفية^(٤٠).

وبعد وفاة ارتق ابن اكسب اعطيت المدينة والمناطق التابعة لها إلى ولديه سُقمان وايلغازي. وحكم هذان الاخوان المدينة في جو من الهدوء حتى شهر شعبان ٤٩١ / تموز (يوليه) ١٠٩٨، عندما قاد الأفضل بن بدر الجمالي وزير الدولة الفاطمية حملة كبيرة من مصر إلى القدس وقام بمحاصرتها. وحاول الأفضل في البداية الاستيلاء على المدينة دون قتال، ولكن الاراتقة رفضوا الاستسلام. وعندئذ قصف الأفضل المدينة بالمنجنيقات وادوات القتال الأخرى^(٤١). ويذكر المؤرخ ابن ميسر إن قطعة من السور سقطت اثناء القصف فادرك الاراتقة استحالة الاستمرار في المقاومة وسلموا المدينة^(٤٢). اما سبط ابن الجوزي فيقول، استناداً إلى ادلة اكثر قرباً من ذلك العصر، إن القتال استمر اربعين يوماً ارسل بعدها سكان المدينة رسلاً إلى الأفضل يعدونه بفتح ابواب المدينة إذا اعطاهم الأمان. وقبل الأفضل العرض وفتح السكان الباب ودخلت قوات الفاطميين المدينة. وفي هذه الاثناء غادر سُقمان واخوه المدينة من باب آخر، وتوجه احدهما إلى الرها، والثاني إلى بغداد^(٤٣).



اللاتين في القدس

في تموز (يوليه) ١٠٩٨م استولى الأفضل على مدينة القدس واطافها مُلك الفاطميين، ونظم شؤون المدينة وعين افتخار الدولة والياً عليها ووضع تحت امرته حامية مناسبة ثم عاد مع قواته إلى القاهرة. وفي هذه الاثناء احتل الصليبيون مدينة انطاكية في شمال بلاد الشام (٣ حزيران / يونيه). وقبل شهرين او ثلاثة اشهر من ذلك التاريخ كانت رسل الأفضل في معسكر الفرنجة امام مدينة انطاكية يتفاوضون مع الفرنجة ويقترحون عليهم اقتسام ممتلكات السلاجقة في بلاد الشام فيما بينهم بحيث يأخذ الفرنجة بلاد الشام الشمالية ويأخذ الفاطميون فلسطين. لكن امراء الفرنجة الذين كانوا يعرفون هدف حملتهم الرئيسي حق المعرفة «لم يلزموا انفسهم باي ترتيبات محددة». ^(٤٤) فعادت البعثة الفاطمية إلى بلادها ^(٤٥). وفي اوائل حزيران (يونيه) ١٠٩٩ وصلت قوات الفرنجة امام اسوار القدس.

وفي بداية الحصار كانت المدينة تكتظ بعشرات الآلاف من سكان فلسطين الذين هربوا امام قوات الفرنجة المتقدمة يبتغون الحماية وراء اسوارها وبذلك ازداد عدد افراد الحامية العسكرية في المدينة. اما نصارى المدينة فقد أجبر معظمهم على ترك المدينة للمسلمين خوفاً من تعاونهم مع الفرنجة. وكان نصارى بيت لحم قد فعلوا ذلك من قبل بارسال وفدٍ منهم إلى الرملة يدعو امراء الفرنجة إلى تسلم بلادهم ^(٤٦).

وحاصرت قوات الفرنجة القدس عند قطاعين رئيسيين من السور. ففي الجنوب رابط ريموند الصنجيلي (كونت طولوز) ورجاله في جبل صهيون. وفي الشمال عسكر غودفري ورجاله بمحاذاة القطاع الممتد من باب العامود إلى الزاوية الشمالية الغربية للسور مقابل سهل الساهرة. وكانت مسئولية الدفاع عن القطاع الاول تقع في الدرجة الاولى على الحامية المرابطة في برج داود؛ بينما تولى الدفاع عن القسم الآخر في الدرجة الأولى سكان المدينة ذوو المراس في القتال تساندهم الحامية والجنود الذين لجأوا إلى المدينة.

واستمرت مهاجمة القوات الصليبية لاسوار المدينة زهاء اربعين يوماً استخدموا خلالها كل اسلحة الحصار التي كانت معهم او التي استطاعوا صنعها. وفي نهاية المطاف انعقد النصر للبرج الشهير الذي تم بناؤه من المواد التي قدمها البحارة الجنوبيون المهرة الذين التحقوا بمعسكر غودفري، وبمساعدهم. اما رجال ريموند فقد استخدموا اولاً السلام لتسليق الاسوار ولكن دون طائل؛ فقرروا بناء برج بدورهم.

ودافع رجال القدس ونساؤها عن السور الشمالي ببسالة . وفي هذا الشأن يقول مصدر صليبي :

«كان على المهاجمين أن يتصدّوا غالباً للنجذات (التي كانت تصل للمدافعين من اجزاء المدينة الأخرى) وفي الوقت ذاته كان عليهم أن يدكوا الاسوار ويؤهّنها، مؤملين في اكثر الاحيان أن يرغم اليأس والجوع المدافعين على الاستسلام . ومع أن المسلمين عمدوا إلى حماية اسوارهم بالأكياس المحشوة بالقش والتبن وبالحبال والسجاجيد والدعامات الخشبية الضخمة والفرش المحشوة بالحزير فان الصليبيين شقوا طريقهم^(٤٧)» .

وهكذا فإن المقاتلين المجريين داخل المدينة نجحوا في صدّ الهجمات الفرنجية . ولكن عندما استعمل الفرنجة البرج «الشهير»^(٤٨) الذي لم يكن مألوفاً لدى المدافعين، احرز الصليبيون النصر واقتحموا المدينة .

وفي يوم الجمعة، ١٥ تموز ١٠٩٩، وعند وقت الظهر وبعد شهر من الهجوم المتواصل (وسط عزف الابواق وصخب اجتاح كل شيء . . . ونداء: «اعاننا الله») شق الفرنجة طريقهم إلى داخل المدينة . وهرب المدافعون خلال الازقة الضيقة وتبعهم الافرنج^(٤٩) . وتلت ذلك مذبحه فظيعة . وذبح كل سكان المدينة رجالاً ونساءً واطفالاً في الطرقات والازقة والبيوت وحيثما وجدوا . والتجأ قسم كبير من الناس الى الحرم الشريف على امل أن تحول حرمة المكان دون قتلهم ، كما كان يحصل في الماضي . ولكن هؤلاء لوحقوا وذبح معظمهم . وكان عددهم يقدر بنحو عشرة آلاف .^(٥٠) ومن بين اولئك الذين كانوا داخل اسوار المدينة ويقدر عددهم بستين او سبعين الفاً لم ينج من المذبحة سوى عدد ضئيل . اما حامية برج داود الحصين واولئك الذين تمكنوا من الوصول اليها فقد سلموا من القتل بموجب اتفاق عقد بين ريموند الصنجيلي وافتخار الدولة سمح لهم بموجبه بمغادرة المدينة بأمان إلى عسقلان ومصر^(٥١) . كما أن الفرنجة احجموا عن قتل بعض الوجهاء والعلماء أملاً في أن يقوم المسلمون بافتدائهم بمبالغ كبيرة من المال . ويزودنا مجير الدين الحنبلي بمثال مفيد للغاية . فقد اسر الفرنج الشيخ عبدالسلام الانصاري وعرفوا انه من العلماء وداروا به في مختلف انحاء فلسطين ليفتدي بألف دينار . ولما لم يدفع احد المبلغ الذي قرره الفرنج قتلوه . كما قاموا بقتل عالم آخر هو عبدالجبار بن احمد الاصبهاني . وكلاهما من علماء الشافعية الذين قدموا إلى القدس إبان فترة الحكم التركماني^(٥٢) . وارغم الفرنج جماعات من الاسرى

الذين ابقوا على حياتهم على تنظيف الطرق والبيوت وساحة الحرم من عشرات الآلاف من الجثث التي جمعت في اكوام واحرقت او رميت من فوق الاسوار إلى الخارج. وعندما جاء القسيس فوشيه دو شارتر إلى القدس صحبةً بلدوين الاول بعد ذلك ببضعة اشهر كانت رائحة الجثث المتعفنة لا تزال تلوث الهواء. إنه يقول: «يا لها من رائحة كريهة حول اسوار المدينة من الداخل والخارج تنبعث من جثث الشرقيين العفنة الذين قتلهم رفاقنا عند استيلائهم على القدس، منظرحة حيث تم اصطيادها»^(٥٣).

إن حملة الفرنجة حققت هدفها الرئيسي. لقد تمت للسيطرة على القدس. واصبح اليوم الخامس عشر من تموز (يوليو) عيداً «وطنياً» يحتفل فيه كل عام احتفالاً فخماً^(٥٤). وفي اليوم الثاني لدخولهم المدينة والمذبحة التي قضت على سكان المدينة «توجه رجال الدين وعامة الناس إلى قبر الرب والهيكل الأجد وهم يغنون ويقدمون القرابين... وزاروا المكان المقدس...، وهم يبكون شكراً لله على ما اعطاهم»^(٥٥).

وتم إفراغ القدس من جميع سكانها وقتل المسلمون واليهود او طردوا. وارغم النصارى المحليون ورجال الدين الروم، كما رأينا، على ترك المدينة قبل الحصار. واستولى الفرنجة المنتصرون على البيوت ومحتوياتها. وتم هذا الاستيلاء طبقاً لما كان يعرف آنذاك بقانون الفتح. ويقدم لنا فوشيه دو شارتر صورة صحيحة عن الكيفية التي تم بها ذلك:

«بعد هذه المذبحة العظيمة دخلوا بيوت المواطنين فتملكوا ما وجدوا فيها. ورتبوا ذلك بحيث أن اول من يدخل بيتاً... (ويترك امام بابه قطعة من سلاحه او أي شيء آخر يدل عليه) يصبح مالكا لهذا البيت ولا يتحداه على ملكيته اي فرنجي آخر... وكان يشغل البيت او القصر، وكل ما يجده فيه ويمتلكه كما لو كان ملكاً خالصاً له. وهكذا تم الاتفاق فيما بينهم على حق الملكية هذا. وهذه الطريقة اصبح كثير من الفقراء اغنياء»^(٥٦).

وبدأت مرحلة جديدة في تاريخ المدينة المقدسة امتدت اكثر من ثمانين سنة. وهي مرحلة قصيرة إذا ما قورنت بتاريخ المدينة الطويل والعريق. ومع ذلك فقد حدثت اثناءها تغيرات كثيرة بداخل اسوارها. وسوف ننظر في نوعين من هذه التغيرات في هذا الفصل: التغيرات الطبوغرافية والتغيرات الاجتماعية السياسية.

إن التغيرات الطبوغرافية التي احدثها الفرنجة في القدس يمكن تصنيفها في صنفين: تغير وظيفي في بعض المباني القائمة لكي تخدم اغراضاً جديدة، وانشاء مباني

جديدة لتلبية حاجات السكان الجدد. بيد أن هذه التغيرات لم تشوه المنظر العام للمدينة الذي ظل في الاكثر كما كان؛ ولكنهم اضافوا زخارف وتحسينات تلائم اذواق المواطنين الجدد.

وبقيت اسوار المدينة سليمة بصورة عامة لأن الحصار لم يُصبها باضرار خطيرة. وقد اصلحت الأضرار، واضيفت إضافتان جديدتان: برج تانكرد في الزاوية الجنوبية الغربية من الاسوار في حي البطرك وباب القديسة مريم المجدلية الخلفي في الزاوية الشمالية الشرقية. وحولت مدرسة الشافعية إلى كنيسة (القديسة حنه) كما كانت في الفترة السابقة^(٥٧). واصبح المسجد الأقصى مقراً للملك اللاتيني إلى أن منح للهيكليين (فرسان الداوية) الذين جعلوه مقراً رئيسياً لهم، و اضافوا اليه مباني جديدة. واصبح مسجد قبة الصخرة هيكل الرب (Templum Domini). وبني قصر جديد للملك اللاتيني شرقي برج داود. وواصل المجمع الذي بناه تجار أمالفي اداء خدماته واصبح مقراً لفرسان الاستبارية. وبنيت فنادق وانزال للحجاج الاوروبيين والشرقيين في انحاء مختلفة من المدينة. كما أقيمت الكنائس والاديرة الجديدة. وغيرت أسماء أبواب المدينة وشوارعها والأماكن المختلفة فيها، وخصوصاً إذا كانت الأسماء القديمة صعبة على الناطقين باللاتينية. ويبدو انه بنيت ايضاً اسواق جديدة^(٥٨).

وكانت التغيرات الاجتماعية السياسية تغيرات جذرية. فقد حل سكان جدد من اللاتين والنصارى السوريين المحليين (الذين استقدموا من شرق الاردن) وغير اولئك من الاقليات النصرانية الشرقية محل المسلمين القدامى والنصارى المحليين واليهود. واقيم نظام سياسي واداري جديد. وتغير كذلك التنظيم الاجتماعي للمدينة ومؤسساتها وحياتها اليومية واحتفالاتها واعيادها. وفيما يلي خلاصة للملاحح الرئيسية لهذه التطورات.

اعادة توطين الناس في المدينة

في تموز (يوليه) ١٠٩٩ أخليت المدينة من جميع سكانها السابقين. وحل محلهم الافرنج الذين احتلوا مساكنها واستولوا على كل ما وجدوه فيها. ولكن الذين دخلوا القدس لم يبقوا ولم يستقروا جميعاً فيها. فمعظم اولئك الذين شاركوا في الاستيلاء على المدينة المقدسة غادروها إلى بلادهم الاصلية او إلى مناطق اخرى احتلها الفرنجة. وطبقاً لما ذكره وليم الصوري فان عدد الذين استوطنوا القدس بصورة دائمة كان قليلاً. وكانوا موزعين في جميع انحاء المدينة وعاشوا في السنوات الاولى التي تلت الاحتلال في حالة من الخوف الدائم وانعدام الطمأنينة.

« . . . وحتى داخل اسوار المدينة (وفي ذلك الوقت لم يكن بايدي الفرنج من المدن سوى الرملة والقدس ويافا) وداخل جدران المنازل، لم يكن هنالك مكان يستطيعون (الافرنج) الركون إليه باطمئنان وأمان. فقد كان السكان قلة مبعثرة . . . وكان (المسلمون) يقتحمون مدناً مهجورة كان سكانها القليلون (من الافرنج) يعيشون متباعدين ويتغلبون على الكثيرين منهم في بيوتهم ذاتها. ونتج عن ذلك أن تخلى (الفرنج) عن الممتلكات التي احرزوها، سرّاً وعلانية، وبدأوا يعودون إلى بلادهم الأصلية»^(٥٩).

ولم يكن فقدان الشعور بالأمن وحده هو الذي دعا الافرنج إلى ترك القدس، وانما كان لظروف المدينة الاقتصادية اثر كبير في ذلك ايضاً. فقد كان من العسير للغاية على الافرنج الذين تنقصهم المهارات المهنية والذين يعودون باكثريتهم الى اصول فلاحية اكتساب الرزق في المدينة المقدسة. فالقدس كانت مدينة تعتمد على الحرف اليدوية والخدمات التي يحتاج اليها عشرات الآلاف من الحجاج الذين كانوا يفدون اليها كل عام لزيارة الاماكن المقدسة. وكان جلّ المستوطنين الجدد محرومين من الدربة والخبرة في هذين المجالين. ولذلك فان بعضهم قفل راجعاً إلى بلاده وذهب بعضهم إلى المدن الساحلية التجارية التي تم الاستيلاء عليها مؤخراً بينما ذهب البعض الآخر إلى الارياف برفقة اسيادهم الاقطاعيين. ودفع هذا التناقص في السكان الملك اللاتيني إلى اصدار مرسوم يجري بموجبه تعداد سنوي للسكان. واي مسكن يخلو من السكان لمدة سنة واحدة ويوم واحد يصبح عرضة لاسترداده من قبل السلطات^(٦٠).

ولم تكن هذه الاجراءات كافية لتوطين الناس في المدينة وتزويد سكانها بالخدمات الضرورية التي كانوا يحتاجونها ويحتاجها ايضاً السيل المتواصل من الحجاج الذين كانوا يزورون الاماكن المقدسة. ويقول وليم الصوري إن الملك بلدوين الاول (١١٠٠ - ١١١٨) ادرك بقلبي بالغ «أن المدينة المقدسة كانت خالية تقريباً من السكان. إذ لم يكن فيها من الناس ما يكفي للاعمال والخدمات التي تحتاجها الدولة الجديدة. وبالفعل فقد كان السكان من القلة بحيث لا يكفون لحماية مداخل المدينة والدفاع عن اسوارها وابراجها عند تعرضها لهجمات العدو المفاجئة . . .»^(٦١).

وادرك بلدوين الأول أن تصحيح هذا الوضع يقتضي الاعتماد على النصارى السوريين المحليين. اما نصارى فلسطين من سكان القدس السابقين فقد تفرقوا في

الارياف او انتقلوا إلى المراكز التجارية على الساحل . وتم العثور على مصدر . ان حملات بلدين وغاراته شرقي نهر الاردن قد عرفته بالنصارى المقيمين هناك فاعتبرهم ملائمين لغرضه . ولذلك «فقد ارسل إلى اولئك النصارى ووعدهم باوضاع معيشية أفضل . وخلال وقت قصير استقبل هؤلاء بسرورهم وزوجاتهم واطفالهم وقطعان اغنامهم وماشيئهم وكل ما كانوا يملكون من متاع» وجاء كثيرون آخرون ممن لم يوجّه اليهم دعوة^(٦٦) . ومنح الملك السكان الجدد جزءاً كبيراً من المدينة كان يبدو اكثر احتياجاً من غيره لهذه المساعدة وهيا لهم المساكن فيه ؛^(٦٧) ودعى هذا الجزء بحارة المشاركة .

وما إن جاءت نهاية العقد الثالث من اتخاذ مدينة القدس عاصمة للمملكة اللاتينية في الشرق حتى كان حيان رئيسيان من احياء القدس قد امتلأا بالسكان وهما حي البترك الذي استقر فيه اللاتين نهائياً وحي المشاركة الذي استوطنه النصارى الشرقيون . وقد تحدت حدود الحي الأول منذ العقد السادس من القرن الحادي عشر . اما الحي الثاني فقد شغل ، في ارجح الاحتمالات ، تلك المنطقة من المدينة القديمة التي تقع ضمن الحدود التالية : شارع يهو شافاط (شارع باب الاسباط اليوم) الذي يمتد من الباب الكائن في السور الشرقي والذي يعرف بذلك الاسم إلى حيث يلتقي مع شارع الإسبان (طريق الواد اليوم) في الغرب . ويشكل الشارع الأخير الحد الغربي من نقطة التقائه بشارع يهو شافاط إلى باب القديس اسطفان (باب العامود او باب دمشق) . اما الحد الشمالي فهو سور المدينة الشمالي والباب الخلفي للقديسة مريم المجدلية الذي كان يقع في الزاوية الشمالية الشرقية للحي . ولم تكن كنيسة القديسة حنه ضمن حدود هذا الحي ؛ ولذلك اقيمت فيه كنيسة القديسة مريم المجدلية للطائفة الجديدة^(٦٨) .

وقد أدى قيام السلطة اللاتينية في فلسطين وتثبيت دعائم الامن في المدن المجاورة وعلى الطرق المؤدية إلى القدس إلى زيادة تدريجية في عدد سكان المدينة حتى بلغ في اواخر عهد المملكة اللاتينية الأولى حوالي عشرة آلاف شخص يقيمون فيها بصفة دائمة^(٦٩) . ولكن هذه الزيادة ادت ، فيما يبدو ، إلى بروز مشكلة تتعلق بتزويد المدينة بالمواد الغذائية الضرورية . وكانت جميع الاطعمة التي تجلب إلى المدينة خاضعة للضريبة . وفي سنة ١١٢٠ طلب البطريرك من الملك الغاء تلك الضريبة لكي يتسنى تزويد المدينة بالحاجات اللازمة لها ؛ فاصدر الملك المرسوم التالي :

«انا بلدوين الثاني . . . استجابة مني لصلوات ابينا البطريرك جورموند (Guarmund)، ولرجال الدين ولأبرشية (chapter) مدينة القدس المقدسة أمر، وبموافقة النبلاء، الآن وفي المستقبل، بالغاء رسوم الجمارك التي كانت تجبى وتدفع عند باب المدينة من الذين يجلبون الحبوب والخضروات. والحق أن هذه الرسوم كانت فيما يبدو عبئاً على الناس، وكانت ضارة لا بالذين يأتون لزيارة كنيسة القيامة فحسب بل بسكان المدينة المقدسة أيضاً. ولذلك فأنني أعفي كل من يرغب باحضار الحبوب والخضروات والفاصوليا والعدس والبازيلا إلى داخل ابواب القدس من جميع الجبايات. فليكن لهم ملء الحرية في المجيء إليها والخروج منها وبيع البضائع دون مضايقات في اي مكان ولأي كان سواء كانوا من النصارى او المسلمين»^(١٦). وازضافة إلى الحيين الرئيسيين اللذين مر ذكرهما سكنت اقسام اخرى من القدس خلال القرن الثاني عشر. فعدد الارمن من رجال الدين وعامة الناس ازداد زيادة مضطردة وأسكنوا في القسم الجنوبي الغربي من المدينة حول كنيسة مار يعقوب. واسكنت جماعات أخرى في اجزاء أخرى خالية في المدينة. وكان الألمان آخر القادمين. وقد ابدى يوحنا من فرتسبورغ - John of Würzburg ، وهو احد الالمان الذين زاروا المدينة المقدسة في الستينات من القرن الثاني عشر، فزعه إذ لم يجد مكاناً فيها ينسب إلى المانيا او الألمان او يحمل اسمهم، مع أنهم كانوا من المشاركين البارزين في الحملة الاولى^(١٧). وبعد ذلك بسنوات قلائل انشئ شارع الماني ونزل الماني وكنيسة القديسة ماري الخاصة بالالمان شرقي طريق جبل صهيون^(١٨).

ويذكر يوحنا من فرتسبورغ ايضاً، بعد مرور جيلين على تأسيس المملكة اللاتينية، جماعات قومية ودينية أخرى اسكنت في المدينة واقامت مصليات وكنائس فيها: فقد كان هناك يونانيون وبلغاريون ولاتين ولمان وهنغاريون واسكتلنديون ونافاريون وبريتونيون وانجليز وفرنجة ورومانيون ويوهيميون وكرج (جورجيون) وأرمن ويعاقبة وسريان ونسطوريون وهنود ومصريون وانباط وكافيتوريثيون وموارنة وكثير غيرهم . . .^(١٩).

وكان يمكن التمييز بين الفئات المختلفة من سكان القدس، كما يحدثنا الحاج المجهول الذي زار المدينة قبيل استردادها على يد صلاح الدين سنة ١١٨٧، بسماة خاصة بكل منها وطريقة اللباس وطريقة تربية اللحم. وتفيدنا الملاحظات التي اوردها انه كان في وسع اي متجول في شوارع المدينة اذآك أن يميز بين القوميات، والجماعات الدينية التي تسكنها. ونذكر فيما يلي الجماعات الرئيسية وملاحظها المميزة: فاللاتين (او الفرنجة) كانوا

مولعين بالحرب وعراة الرؤوس، والوحيدين الذين يملقون لحاهم. اما اليونانيون (الروم) فقد تميزوا بالدهاء وكانوا يطلقون لحاهم، بأسلوب خاص بهم لكنهم لم يكن لهم كثير من الدربة في استعمال السلاح. اما السريان فكانوا يختلفون عن سائر الجماعات. فقد كانوا «عديمي الجدوى في الحرب» ولم يكونوا في الاكثر يطلقون لحاهم كاليونانيين؛ بل كانوا يقصونها بشكل ما. . . وكانوا في كل مكان تابعين لاقوام أخرى. . . وهم يستخدمون الحروف العربية» (والمقصود انهم كانوا يتحدثون العربية على الارجح - المترجم). وكانوا مع ذلك يشبهون اليونانيين في جوانب أخرى. ويختلف الارمن الذين كانوا كثيراً في المدينة آنذاك^(٧١)، في مجالات عديدة عن اللاتين واليونانيين. كان لهم شيء من المهارة في استعمال السلاح وكانت لهم لغة خاصة بهم. وكان للكرج ايضاً لغتهم الخاصة وطريقة خاصة في تربية لحاهم وقبعات من نوع خاص. «وكانوا يطلقون شعرهم ولحاهم ويرتدون قبعات طولها ذراع (cubit) * . وكانوا جميعاً، من رجال دين ورجال عاديين، يجزّون شعر رؤوسهم بحيث يكون الجزء الحليق من الرأس مستديراً عند بعضهم أو مربعاً عند البعض الآخر. . . وهم يقلدون اليونانيين في كل شيء تقريباً»^(٧٢).

المجتمع والحياة الاجتماعية في القدس

كان لمدينة القدس قبل احتلال الفرنجة بنية اجتماعية وادارية خاصة بها شأنها في ذلك شأن أي مدينة اسلامية أخرى في المنطقة: طبقة حاكمة من الجند سواء من العساكر الفاطميين او التركمان، ثم عامة السكان من العلماء والتجار (الذين كانوا يشكلون زعامة «العامة») واصحاب المهن والحرف المختلفة (من جميع المستويات)، كما يظهر في الاسواق المتخصصة التي يذكرها ناصر خسرو، وغير هؤلاء من العوام الذين كانوا يقومون بالخدمات المختلفة التي تحتاجها المدينة.

وتركزت ادارة المدينة وسكانها في الحاكم العسكري (الوالي) ومثلي مختلف دواوين الحكومة. وكان القاضي اهم هؤلاء جميعاً في مجتمع المدن ويتبعه الشهود والكتاب. وكان القاضي يحكم طبقاً لاحكام الشريعة سواء وفق المذهب الشيعي (الفاطمي) او وفق المذاهب

* cubit = ١٨ انشا = ٤٦ سنتيمتراً تقريباً (المترجم).

السنية (الأتراك أو الأتراكمان). وقد شمل اختصاصه جميع المسلمين في المدينة ومنطقتها الإدارية الا فيما يتعلق بقضايا المظالم التي كانت من اختصاص الوالي الذي كان ينظر فيها في مجالس يجلس فيها القاضي إلى جواره. اما النصارى واليهود فكانت تحكمهم «شرائعهم» الا في الحالات التي يكون المسلمون طرفاً فيها. وكانت هناك فضلاً عن ذلك مؤسستا الحسبة والشرطة. ولكل منهما رئيس (صاحب) واعوان واعداد كافية من الرجال اللازمين لإدارة شؤون المدينة^(٧٢).

وبعد احتلال الفرنجة القدس سنة ١٠٩٩ تغير هذا كله، وبرز تدريجياً مجتمع جديد له ادارة جديدة. كان سكان المدينة الجدد جميعاً في بداية الاحتلال من اللاتين الذين شاركوا في الحملة الصليبية الأولى. وتآلف هؤلاء من فئتين اجتماعيتين رئيسيتين، إضافة إلى رجال الدين. كانت الطبقة العليا تتألف من كبار النبلاء والبارونات والفرسان الذين استقر اغلبهم في المدن^(٧٣). وقد شكل هؤلاء الطبقة الحاكمة والقوة المقاتلة الاساسية في المملكة. اما الطبقة الثانية فكانت تتألف من الفلاحين الذين قدموا من اوروبا اللاتينية. ويقول يشوع برافر J. Prawer في هذا الشأن: «علينا أن نبحث ضمن اولئك الذين تحرروا من جراء اشتراكهم في الحملة الصليبية - pedites - عن العناصر التي شكلت فيما بعد طبقة البورجوازية (او الطبقة الوسطى)»^(٧٤). وواضح أن معظم الذين سكنوا القدس كانوا من اصول ريفية؛ فلم يكونوا بذلك يملكون المؤهلات الفنية لمزاولة المهن والحرف والخدمات التي كان يقوم عليها اقتصاد المدينة. ودليلنا على ذلك ما جرى اثناء حصار القدس في حزيران (يونيه) - تموز (يوليه) ١٠٩٩. ذلك أن جيش الفرنجة «عجز عن بناء ابراج الحصار وغيرها من الآلات إلا بعد وصول سفن الجنويين إلى ميناء يافا وهي محملة بالمواد الضرورية والحرفيين ذوي الدربة في المهارات الاكثر تعقيداً في صناعة البناء»^(٧٥).

وظهرت في القدس تدريجياً طبقة جديدة متميزة من غير النبلاء واصبحت جزءاً لا يتجزأ من حياة المدينة. وينسب برافر بداية ظهور هذه الطبقة إلى الامتيازات التي منحها بلدوين الاول إلى كهنة القبر المقدس إذ سمح الملك لرعيته من النبلاء والفرسان والطبقة الوسطى بأن يتنازلوا عن مداخيلهم للقبر المقدس^(٧٦)؛ وتحددت مكانة هذه الفئة الاجتماعية في المدينة بكونها تعيش في المدينة وباعدادها الكبيرة وبالاعمال التي كانت تتعاطاها^(٧٧). ويقول جان ريشار: «من المحتمل... أنه كان للبرجوازية في مدينة القدس دورٌ غير عادي

تقوم به، وانه لم يكن يفصل اعلاهم عن فئة صغار الفرسان الا القليل؛^(٧٨) وقد شكل الدور الذي كان يقوم به هؤلاء عصب الحياة الاقتصادية في المدينة، كما كانوا يقدمون للجيش زهاء خمسمائة سرّ جندي (sergeant)*^(٧٩) وكانت تخضع حياة هؤلاء في المدينة إلى محاكم خاصة عرفت بمحاكم البراجسة "burgesses courts". وقد اختصت بالافرنج وحدهم، «لأن براجسة القدس لم يشملوا اطلاقاً النصارى المحليين»^(٨٠).

وشكلت الهيئتان العسكريتان (الداوية والاسبتارية) خلال القرن الثاني عشر فئتين متميزتين من الاوروبيين المقيمين في القدس. ولم تندمج هاتان الهيئتان في مجتمع المدينة شأنهما في ذلك شأن كبار النبلاء والفرسان والبراجسة (اعضاء الطبقة الوسطى) ورجال الدين، وانما كانتا تخضعان لمجموعة الانظمة والقواعد الخاصة بهما^(٨١). وكذلك كان شأن الطبقات الأخرى التي كان لها محاكمها الخاصة.

اما النصارى المحليون والنصارى الشرقيون الآخرون فعاشوا في أحيائهم الخاصة وكانوا يخضعون إلى حد معين لـ«محاكمهم» الخاصة. ويقول جان ريشار إن «محاكم الرؤساء» كانت تفصل في الأمور الثانوية طبقاً للعادات المتبعة في كل مجتمع^(٨٢).

كانت القدس عاصمة المملكة اللاتينية، وكان الملك رأس حكومتها. وكان ينوب عن الملك في ادارة شؤون المدينة (في الجانب المدني) الفيسكونت viscount - الكونت النائب^(٨٣). وكان هذا مسؤولاً عن جمع الضرائب ورأس الادارة الامنية. ويبدو أن المتحسب Methesep (المتحسب بالعربية) كان يساعده في ذلك^(٨٤). . . . وقد حدد القانون الأعمال والواجبات التي يقوم بها المتحسب بدقة على الوجه الثاني:

«واجب المتحسب أن يذهب كل يوم إلى الاماكن العامة، وبمعنى آخر (عليه أن يذهب) إلى دكاكين اللحامين وإلى الاماكن التي يباع فيها الخبز والنبيد وغيرها من الاشياء. وعليه أن يُولي المعاملات التجارية عناية فلا يقع من الباعة غش او خداع ولا يعتري الخبز نقص في الاسواق، كما أمرت المحكمة، وأن تراعى الاسعار المعلنة خصوصاً اسعار الخبز والنبيد والنقل بالعربات والسّمك. . . وهكذا فان عليه أن يطوف البلد ويراقب هذه الأمور. ولتحقيق هذه الغاية لا بد أن يكون له اعوان يقدمون له التقارير عن المخالفات

* رقيب في الجيش.

التي لا يستطيع اكتشافها بنفسه . . . وعليه أن يقدم بدوره تقارير إلى الفيسكونت حول كل ما يكتشفه . وإذا اكتشف أن شخصاً ما قام بفعل غير لائق أو اتهم بذلك فعليه أن يقبض عليه من قبل سر جندي واحد أو اثنين ينبغي أن يلازمه (أي المتحسب) قدر الامكان وأن يحضر المتهم امام الفيسكونت ويشرح الجريمة او التهمة . وإذا تعذر على الفيسكونت أن ينظر في التهمة لسبب من الاسباب فقي وسع المتحسب ومن واجبه أن يودع الشخص السجن وأن يعرض القضية على الفيسكونت في اقرب فرصة ممكنة . وهكذا فانه يستطيع ان يعتقل اي شخص ويودعه السجن ولكنه لا يستطيع ولا يجوز له أن يفرج عن اي شخص في السجن دون امر من الفيسكونت او المحكمة . . . وهو مسؤول كذلك عن سرق المحكومين إلى مكان تنفيذ العقوبة برفقة السرجندية، وكذلك الذين حكم عليهم بالكسر او القطع ، او بفقدان حياتهم او اطرافهم . . . »^(٨٥) .

وقد شملت صلاحيات الفيسكونت والمتحسب جميع سكان المدينة الذين يتعاطون التجارة والحرف . وكان معظم هؤلاء يعملون في السوق . وكان الاشخاص الذي يتعاطون المهنة الواحدة يتجمعون في سوق واحدة او مكان واحد ، كما كانت عليه الحال قبل احتلال الفرنجة . وهكذا كانت في القدس اماكن واسواق خاصة بالطباخين والصرافين والحدادين وصانعي الجلود والديباغين وغيرهم^(٨٦) . اما في النواحي الأخرى من حياة هؤلاء الناس فقد كانوا يخضعون لمحاكمهم الخاصة بهم او المحاكم العليا في المملكة .

وكانت الاحتفالات الدينية الكنسية وبعض الاحتفالات الدينية والمدنية الأخرى تشكل جانباً مهماً من جوانب الحياة في القدس . وكان يشارك في هذه الاحتفالات عدد كبير من سكان المدينة وجموع الحجاج . وكان هناك في القرن الثاني عشر عدد كبير من هذه الاحتفالات والاعياد المدرجة في التقويم الكنسي واهمها جميعاً احتفالات عيد الفصح . وقد اضيفت احتفالات اخرى بعد احتلال القدس سنة ١٠٩٩ . ومن ذلك الاحتفال السنوي بالاستيلاء على المدينة في الخامس عشر من تموز (يوليه) والذكرى السنوية لانتخاب الدوق غود فري حاكماً على المدينة بعد ذلك بثلاثة ايام ، والاحتفال بتتويج الملك عند اختيار ملك جديد^(٨٧) .

إن احتفالات عيد الفصح في القدس عريقة في القدم . ويذكر المقريري أنه كان من عادة النصارى الاقباط في مصر أن يخرجوا كل سنة في موسم الحج ويتجمل عظيم - مثلما

يعمل المسلمون في موسم الحج إلى مكة - لأداء الحج والقيام باحتفالاته في كنيسة القيامة بالقدس^(٨٨). أما يجيى بن سعيد الانطاكي فيذكر انه كان «من عادة نصارى القدس في كل سنة ان يحملوا في يوم احد الشعانين شجرة زيتون في احتفال كبير يبدأ من كنيسة العازارية في ضواحي القدس إلى كنيسة القيامة، حيث يمرّون في شوارع المدينة رافعين الصليب عالياً ويصلون ويترنّمون بالاناشيد الدينية. وكان الوالي يركب مع رجاله معهم ليمنع الناس من التعرض لهم بأذى»^(٨٩).

وكانت احتفالات احد الشعانين تجري في القرن الثاني عشر على النحو الثاني: قبل شروق الشمس كان جميع رجال الدين في كنائس القدس ورؤساء الاديرة في جبل صهيون وجبل الزيتون (الطور) وفي كنيسة القديسة مريم في وادي قدرون والبطيريك يتوجهون إلى العازارية (العيزرية). وكان أمين خزانة كنيسة القيامة يحمل الصليب المقدس. وفي الوقت نفسه يتجمع سكان القدس والحجاج وبعض رجال الدين في ساحة هيكل الرب (قبة الصخرة) وهم يحملون سعف النخل واغصان الزيتون. ويبارك احد المطارنة هناك سعف النخل واغصان الزيتون ثم يقود الموكب من الساحة وخلال باب الاسباط (يهوشافاط) إلى الوادي الذي يحمل الاسم ذاته (يهوشافاط او قدرون). ويلتقون هناك بموكب رجال الدين القادم من العازارية ثم يتبع الجميع البطيريك وهو يحمل الصليب المقدس ويصعد الجبل إلى الباب الذهبي (باب الرحمة) الذي كان يفتح كل سنة خصيصاً لهذه المناسبة. ثم يتجمع الجميع ثانية في الساحة المقدسة (ساحة الحرم القدسي). وبعد أن يُطاف بالصليب في هيكل سليمان (المسجد الأقصى) ينتهي الموكب باقامة الصلوات في ساحة هيكل الرب (صحن قبة الصخرة)^(٩٠).

ومن بين احتفالات عيد الفصح المشهورة الأخرى الاحتفال بظهور «النار المقدسة» التي يصفها دانيال، الحاج الروسي، وصفاً حياً^(٩١). ولا حاجة بنا لاعادته هنا.

وفي الخامس عشر من تموز (يولييه) كل عام احتفل الفرنجة بالاستيلاء على القدس. ففي صباح ذلك اليوم الباكر كان البطيريك يقود موكباً من كنيسة القيامة إلى (هيكل الرب). ويتوقف الموكب هناك لأداء الصلوات عند المدخل الجنوبي للهيكل (قبة الصخرة) في مواجهة المسجد الأقصى. وبعد اتمام الصلوات كان الموكب يتقدم إلى المقبرة الكائنة وراء الاسوار؛ حيث دفن الفرنجة الذين سقطوا اثناء الاستيلاء على القدس. وبعد ذلك كان جميع

المشاركين في الاحتفال يعبرون شارع يهو شوفاط (شارع باب الاسباط) وراء سور الحرم الشمالي ثم يتوجهون إلى ذلك الجزء من سور المدينة الشمالي الذي دخل الفرنجة منه إلى المدينة (برج اللقلق)^(٩٣). وكان البطريك يلقي هنا عظة امام الجمع المحتشد ثم تؤدي صلوات الشكر.

وبعد ذلك بثلاثة ايام (في ١٨ تموز / يوليه) كان يحتفل بالذكرى السنوية لتنصيب الدوق غودفري . وكانت المدينة، كما يذكر الحاج الالماني يوحنا من فرتسبرغ، «تحتفل احتفالاً مهيباً بهذه الذكرى باعطاء الصدقات السخية في الكنيسة العظمى، كما كان يفعل غودفري نفسه وهو على قيد الحياة»^(٩٣).

وكان تتويج ملك جديد للملكة اللاتينية مناسبة اخرى من المناسبات التي تقام فيها الاحتفالات . وكان تتويج الملوك بدءاً ببلدوين الثاني، يتم في كنيسة القيامة . وبعد اتمام الشعائر الدينية يتوجه الموكب من الكنيسة إلى قصر الملك قرب برج داود حيث تقام مأدبة كبرى لنبلاء المملكة والفرسان جميعاً . وكان من واجبات البراجسة (افراد الطبقة المتوسطة) أن يقوموا باعداد هذه الوليمة^(٩٤).

القدس والحملات الصليبية التالية

قال برنارد دي بلانكفور Bernard de Blanquefort مقدم الداوية (١١٥٦ - ١١٦٩) ذات مرة إن اشد ما يخيفه هو أن يقوم «امير مسلم واحد باعادة توحيد المملكتين البالغتي القوة في القاهرة ودمشق ويمحو بذلك اسم النصارى ذاته»^(٩٥). وقد اعرب معاصره وليم الصوري عن آراء مماثلة غير مرة في كتابه المشهور^(٩٦). وقد ظهر هذا «الامير» في شخص صلاح الدين يوسف بن ايوب الذي استطاع اثر سيطرته على مصر بخمس عشرة سنة او اكثر من ذلك بقليل ان يوحد لا مملكتي مصر والشام فحسب بل زاد على ذلك اجزاء من الجزيرة الفراتية . وفي الرابع من تموز (يوليه) ١١٨٧ انزل الهزيمة بالفرنجة في معركة حطين الحاسمة، وابدأ قواتهم المقاتلة تقريباً واستولى على القدس بعد ذلك بثلاثة اشهر.

وعندما كان صلاح الدين مجرد قائد في خدمة نور الدين زنكي كان الشعراء والعلماء (وخاصة عماد الدين الاصفهاني) كثيراً ما يذكرّونه بواجبه في تخليص بيت المقدس والحرم الشريف من ايدي الفرنجة . وقد ابقت صحائف التاريخ وبعض المؤرخين والوعاظ الذين كانوا يصحبونه حتى في ميدان المعركة ذكريات الفطائع والمذابح في تموز ١٠٩٩ حية في النفوس . وهكذا فعندما عسكر صلاح الدين يوم عشرين ايلول / سبتمبر امام سور القدس الشمالي وبدأ عمليات الحصار كان قد عقد العزم على أخذ المدينة بالقوة . وواصل جنوده طيلة اسبوع الضغط على المدافعين عند السور غير بعيد عن النقطة التي شق الفرنجة طريقهم منها إلى المدينة قبل ثمانٍ وثمانين سنة . واصاب الوهن اقساماً عديدة من السور بسبب الانفاق التي حفرت تحتها، وسقطت قطعة من السور جرّاء ذلك . ورفرفت راية صلاح الدين الصفراء فوق القمة، لكن المدافعين ضمّوا صفوفهم وارغموا المهاجرين على التراجع .

واخيراً اتصل باليان صاحب يُبْنَى ، وكان قد نجا من حطين واصبح الان قائداً للمدافعين عن القدس ، اتصل بصلاح الدين وبدأت المفاوضات، وكان السلطان الايوبي ما يزال مصراً على الاستيلاء على المدينة بالسيف . لكن تهديد باليان بتخريب الاماكن الاسلامية المقدسة وقتل الاسرى المسلمين الخمسة آلاف الذين كانوا في المدينة وكذلك ضغط أمرائه - كل ذلك جعله يقبل استسلام المدينة وفق شروط معينة^(١٧) . وانتصرت الحكمة وجُنبت القدس فطائع الحرب والدمار .

وشهدت القدس مرة أخرى وبعد مرور ثلاثة اجيال تغيرات اساسية في بعض مظاهر عُمرانها وفي بنية السكان والادارة والحياة الاجتماعية . ولعله من الضروري تقديم عرض عام موجز لهذه التغيرات .

لقد ظلت الملامح الطبيعية العامة لمدينة القدس ، سواء الطوبوغرافية منها او غير ذلك ، دون تغيير . فاساليب البناء والتدمير في القرون الوسطى لم تكن من التطور بحيث يتسنى لها تحقيق هذا الغرض . وقد اجريت ، كما رأينا من قبل ، تغييرات كثيرة خلال الفترة اللاتينية لتخدم الحياة الروحية والاجتماعية والفكرية واليومية للسكان الجدد . وحدث هذا ثانية بعد سنة ١١٨٧ . فبعد دخول صلاح الدين القدس أبقي معسكره خارج المدينة . وادرك صلاح الدين خلال اقامته القصيرة في المدينة الحاجة إلى تحصين سور المدينة وتقويته

ليصمد امام الحصار والهجوم في المستقبل . وعلى اية حال فلم يكن ثمة تهديد مباشر في الوقت الحاضر . وكان في وسع الاسوار أن تنتظر لأنه كانت هناك اجراءات دينية وادارية اكثر الحاحاً . وكانت الاولوية الاولى بطبيعة الحال للحرم الشريف . فقد تمت اولاً ازالة جميع الاضافات العمرانية والزخارف التي احدثها الداوية ورجال كنيسة القديس اوغسطين اثناء سكناهم في المنطقة وقاعة الطعام والكنيسة والحاجز الفاصل بداخل المسجد الاقصى . وحدث الشيء نفسه بالنسبة للاضافات والانشاءات التي احدثت في داخل قبة الصخرة وخارجها . تمت ازالة ذلك كله وجرى تنظيف ساحة الحرم كلها بشكل ملائم . وغسلت منطقة القبة بماء الورد الذي جلبه ابن اخي صلاح الدين ووكيله الأمين تقي الدين عمر خصيصاً لهذا الغرض^(٩٨) . وتم تجديد محراب المسجد الاقصى وترميمه . وجلب من دمشق منبر نور الدين الذي صنع وحفظ من اجل نصبه في المسجد الاقصى ، ونصب في مكانه في المسجد . واعيد بناء المساجد الأخرى التي طال اهمالها ، او تم تجديددها . وعين الائمة والخطباء وغيرهم من رجال الدين المؤهلين للقيام بالواجبات الضرورية في الحرم ولاقامة الخدمات فيه . واولى صلاح الدين القلعة عناية ، واصبحت كما كانت في السابق مقراً للحاكم والحامية . وعين لها اماماً ومؤذناً وموظفين آخرين . وغير السلطان كذلك وظائف بعض المباني الصليبية . فكنيسة القديسة حنه حولت إلى مدرسة للشافعية واصبحت تدعى بعد الان الصلاحية . وعين ابن شداد كاتب سيرة صلاح الدين المشهور وقاضيه اول شيخ لها^(٩٩) . كما كان والد ابن واصل مؤرخ الدولة الايوبية من شيوخها في القرن الثالث عشر^(١٠٠) .

اما حي البطرك ، الذي كان يقيم فيه الفرنجة من رجال الدين وعامة الناس ، فقد اصبح خاوياً . ووقف صلاح الدين ، بعد أن شاور العلماء والصوفية ، دار البطرك رباطاً على الصوفية وانشأ اوقافاً كثيرة للاتفاق عليها كما تشهد بذلك وثيقة الوقف التي بين ايدينا^(١٠١) . وجرى تحويل جزء من مجمع الاستبارية الكبير ، وهو كنيسة ، إلى بيمارستان (مستشفى) . وخصصت مبالغ من المال للاتفاق عليه واحضرت له العقاقير النادرة^(١٠٢) .

وكانت اسوار القدس ، كما ذكرنا اعلاه ، في حاجة إلى التعمير والتقوية . وكان صلاح الدين يعرف أن دفاعات القدس ضعيفة امام الهجمات الجدية . وكانت امكانية اعادة استيلاء اللاتين على المدينة ماثلة في ذهنه على الدوام . وعندما استولى على عسقلان (٥٠

ايلول / سبتمبر ١١٨٧)، وهي البوابة الشمالية لمصر، لم يتحقق هدفه الرئيسي لأن القدس كانت ما تزال في ايدي اللاتين. وعندما استولى على القدس كان لا بد من تخريب عسقلان. ولم يكن هناك مناص من التضحية باحدى المدينتين لأنه لم يكن يستطيع حمايتهما معاً. وقد ضحى بعسقلان؛ فجردت اسوارها وبيوتها بصورة منتظمة من وسائل الدفاع ثم هدمت (١١٩١)^(١٠٣). وعندما تنفس السلطان الصعداء على هذا الوجه عاد إلى القدس (١١٩١/٥٨٧) وجعل مقره داخل المدينة في بيت الاقساء المجاور لكنيسة القيامة في حي البطرك^(١٠٤). وبدأت على الفور عملية اعادة البناء. فبنيت من جديد اقسام كاملة من السور وحصنت بالابراج وحفر خندق عميق في الصخر، واستعملت الأحجار المستخرجة لاغراض البناء. واشرف صلاح الدين بنفسه على العمل؛ بل إنه ساعد في حمل الاحجار^(١٠٥). ووزعت اقسام السور والابراج والاشغال الأخرى على المشاركين وأسهم في العمل ابناء صلاح الدين واقاربه وامراؤه ورجاله^(١٠٦). وقام الملك العادل اخو السلطان بتحسين القسم الجنوبي الغربي على جبل صهيون، بحيث ادخلت الكنيسة القائمة هناك والابنية التابعة لها والمنطقة التي تبعد عن السور القديم ضعفي رمية السهم ضمن السور الجديد^(١٠٧). وقد احدث الايوبيون الاولون كذلك تطوراً كبيراً داخل اسوار المدينة. فالملك الأفضل نور الدين على «ملك» دمشق (حكم من ٥٨٢ - ٥٩٢ / ١١٨٦ - ١١٩٦) وقف منطقة كاملة في المدينة على المغاربة المقيمين بالقدس او الواردين اليها ثم بنى مدرسة للمالكية في الحي^(١٠٨). ويقول مجير الدين الحنبلي إن وثيقة الوقف الاصلية قد ضاعت لكن الوقف نفسه دون وتم تسجيله شرعياً وحفظ في سجلات المحكمة الشرعية في القدس^(١٠٩). وتحدد الوثيقة بدقة حدود الحي المذكور (أي حارة المغاربة).

وتمت في الفترة بين سنة ١١٩٣ و سنة ١٢١٩ اعادة توطين المسلمين بالقدس بالتدريج ووقف المزيد من المدارس والزوايا الصوفية، ووقفت الاوقاف الكثيرة على هذه المؤسسات.

وعلى الرغم من الصراع المستمر والمكائد بين «ملوك» الاسرة الايوبية فقد تميزت حياة المدينة بالهدوء؛ لكن وصول الحملة الصليبية الخامسة وحصار الصليبيين دمياط والاستيلاء عليها (في ربيع ١٢١٨) ادى إلى انتشار الذعر في ممالك الايوبيين. وفي بلاد الشام راجت الاشاعات بأن الفرنجة كانوا ينوون الزحف على فلسطين والاستيلاء على القدس. وقد جمع المعظم عيسى، الذي كان في مصر اذاك لدعم اخيه الكامل، امرائه للتشاور فكان رأيهم

أن الشام قد خلا من الجند وانه إذا تمكن الفرنج من الاستيلاء على القدس فانهم سيسيطرون على كل ممالك الايبين في بلاد الشام . وعندئذ قرر المعظم تخريب سور المدينة وكتب إلى اخيه العزيز عثمان واستاداره عز الدين ايبك اللذين كانا فيها يبدو في القدس يأمرهما بتنفيذ خطته . ولكن عثمان وايبك رفضا إطاعة الأمر واجابا بأنهما قادران على الدفاع عن المدينة . فكتب لهما المعظم غاضباً يقول : «إذا تمكن (الافرنج) من الاستيلاء عليها (القدس) فانهم سيقتلون كل من فيها وسيطرون بعدها على بلاد الشام وبلاد الاسلام جميعها» . وارسل المعظم الحجارين والنقابين والمهندسين للقيام بعلميات الهدم . وفي محرم ١٢١٩/٦١٦ بدأت عملية هدم اسوار مدينة القدس بصورة منتظمة ولم ينج من ذلك الا برج داود . واحداث هذا الاجراء ضجة عظيمة في المدينة . وتجمعت اعداد كبيرة من النساء والبنات والشيوخ في ساحة المسجد الأقصى ومزقت النساء ثيابهن وشعورهن وغادروا المدينة وساروا دون أن يأخذوا شيئاً من ممتلكاتهم واموالهم بل دون أن يروا اقاربهم ، متوجهين في مختلف الاتجاهات ؛ فذهب بعضهم إلى دمشق وبعضهم إلى الكرك وبعضهم إلى مصر^(١١٠) . وهجر سكان القدس مدينتهم وقد فقدوا الاحساس بالأمن والحماية ، وصارت المدينة وكأنها مزار للزوار والحجاج والمتعبدة والمجاورين ورجال الدولة والحامية العسكرية لكن ليس مكاناً للقرار^(١١١) . واصبحت القدس بعد سنة ١٢١٩ ولمدة تزيد على قرن من الزمان لا اكثر من قرية صغيرة . وحتى هذا الوصف لم يكن في نظر ابن فضل الله العمري صحيحاً ؛ إذ يذكر أنها لم تكن (حتى النصف الاول من القرن الرابع عشر) تعتبر قرية . وقد بقيت القلعة التي هدمت (سنة ١٢٤٢) خراباً حتى سنة ٧١٧ (١٣١٧) عندما اعاد بناءها بكتمر الجوكندار كافل الممالك الشامية آنذاك . ويضيف العمري : «إن وجودها وعدمه سيان لانه لم يكن لها تحصينات . . .»^(١١٢) .

تغير سكان القدس بعد سنة ١١٨٧ مرة أخرى . لكن التغيير في هذه المرة لم يكن جذرياً وتاماً كما جرى سنة ١٠٩٩ . ففي الفترة بين ٤ تموز (يوليه) ١١٨٧ وحتى أواخر ايلول سنة ١١٨٧ ، عندما حاصر صلاح الدين القدس ، اصبحت المدينة مركز التجمع للافرنج جميعاً من انحاء فلسطين كافة . وقد لجأ هؤلاء إلى المدينة طلباً لحماية اسوارها . ويؤكد القاضي الفاضل أنه لم يبق على السلطان الا القدس التي تجمع فيها الفرنج الهاربون من الداي والقاضي^(١١٣) . وعندما سلّمت عسقلان لصلاح الدين زوّد اللاتين الذين كانوا في المدينة بالخبراء الذين رافقوهم إلى القدس^(١١٤) . ووصل إلى المدينة اعداد كبيرة من القادمين من

الداروم وغزة والرملة والقرى الكثيرة المحيطة بالقدس . وبلغ ازدحام المدينة إلى الغاية؛ فحتى الكنائس والطرقات امتلأت بالناس، ولم يكن المرء يستطيع المشي في شوارعها الا بصعوبة^(١١٥).

وعلى اية حال ففي خلال اقل من اسبوعين من الاربعين يوماً التي نصت عليها اتفاقية التسليم غادر جميع السكان اللاتين في القدس المدينة، فيما عدا اولئك الذين عجزوا عن دفع الفدية والذين استرقوا تبعاً لذلك^(١١٦). واصبحت احيائهم واسواقهم ودكاكينهم ومؤسساتهم الأخرى خالية. ولم يبق في المدينة سوى المواطنين الاصليين في حارة النصارى وبعض رجال الدين الروم وجماعات نصرانية شرقية أخرى.

ودفع النصارى المحليون الذين شملتهم اتفاقية التسليم الفدية وطلبوا من صلاح الدين السماح لهم بالبقاء في بيوتهم. وابدى هؤلاء استعدادهم لدفع الجزية، ومتابعة حياتهم العادية في المدينة المقدسة^(١١٧).

وتوافد آلاف المسلمين على القدس بعد تشرين الاول / اكتوبر ١١٨٧ مباشرة، بيد أن معظمهم غادروا المدينة بعد إقامة قصيرة، عائدين إلى اوطانهم او واصلوا سفرهم إلى مكة لأداء فريضة الحج^(١١٨). اما صلاح الدين فقد بقي في معسكره على جبل الزيتون (الطور) واقام مدة كافية ليتسنى له تدبير الأمور الاساسية في المدينة قبل أن يغادرها إلى دمشق (٣٠ - ٣١ تشرين الاول / اكتوبر). وعين السلطان ضياء الدين عيسى الهكاري، احد رجاله الاكراد الموثوقين، والياً على المدينة. وأتاب هذا بدوره أخاه الظهير مكانه، وعين سياروخ التركي ناظراً على الحرم الشريف، ثم تولى سياروخ الولاية^(١١٩). ورتب السلطان حامية مناسبة في القلعة.

وتبين من هذا أن المجموعة الاولى من المسلمين الذين نزلوا القدس بعد سنة ١١٨٧ كانوا من الجند والموظفين المدنيين وافراد عائلاتهم، وكذلك العلماء والفقهاء والصوفية الذين عملوا في المدارس التي انشئت حديثاً والاربطة، ونظار الاوقاف والخطباء والمؤذنين والمدرسين والوعاظ في مساجد الحرم وغيرها. وسكن هؤلاء جميعاً حول الحرم وفي انحاء مختلفة من حارة البطرك. وعندما عاد صلاح الدين إلى القدس في ذي القعدة من سنة ١١٩١/٥٨٧ كانت الحياة في المدينة تعود تدريجياً إلى طبيعتها. واعاد السلطان بناء الاسوار وانشأ مستشفى (بيهارستان) وجهزه بما يحتاج اليه، وزاد الاوقاف على المنشآت الخيرية التي اقيمت في السابق.

وأنشئت حارتان جديدتان (مع انهما صغيرتان) داخل اسوار المدينة وهما حارة المغاربة وحارة اليهود. ويبدو أن الحارة الأخيرة كانت تقع إلى الغرب من الحارة الأولى. وكان يفصل بينهما حارة الشرف. وفي فترة الفرنجة لم يكن هناك سوى حفنة من اليهود في القدس يعيشون قرب القلعة^(١٢٠). وقد ادت سياسة السلطان التي اتصفت بالتسامح إلى الإذن لليهود بالعودة إلى المدينة المقدسة. وهكذا بدأ هؤلاء تدريجياً في تشكيل مجتمع خاص بهم. ويقول يشوع براقر إن ثلاث فئات استقرت في القدس هذه المرة: العسقلانيون الذين انتقلوا إليها بعد أن خرب صلاح الدين اسوارها في سنة ١١٩١، ويهود المغرب الذي فرّوا إلى الشرق حوالي سنة ١١٩٨ - ٩٩، ويهود فرنسا، الذين ضموا حوالي ثلاثمائة عائلة، وهاجروا على دفعتين سنة ١٢١٠^(١٢١). وقد ادت التطورات التي حدثت في النصف الأول من القرن الثالث عشر إلى نزوحهم إلى الساحل. فهدم اسوار القدس سنة ١٢١٩ اضغفها دفاعياً وحرّمها من الأمان. وعندما سلمت القدس إلى فريندريك الثاني (١٢٢٩) استؤنف العمل بالتشريعات المعادية لليهود التي كانت سائدة في فترة الفرنجة ومنع اليهود من السكن في المدينة مرة أخرى. «ولكن بعد بعض المفاوضات سمح لعائلة يهودية واحدة بالسكن في القدس لتكون دارها محطة للحجاج اليهود الذين يسمح لهم بزيارة المدينة.»^(١٢٢)

إن السنوات الستين التي مرت على القدس منذ سنة ١١٨٧ يمكن تقسيمها الى فترتين متميزتين. والحد الفاصل بين هاتين الفترتين هو سنة تخريب الاسوار التي كان قد اعيد تحصينها. ولم يسلم من معاول النقايبين والحجارين الذين جلبهم الملك المعظم الابرج داود. إن الأمن والاطمئنان، وهما من مستلزمات الحياة الاساسية في مدن العصور الوسطى، لم يكن من الممكن توفيرهما الا ببناء التحصينات واقامة الحاميات العسكرية في هذه المدن وتزويدها بالآلات الدفاع وبالاسلحة. وقد حرمت القدس فجأة من هذا كله سنة ١٢١٩ / ٦١٦. فاسوار المدينة سويت بالارض، ومعظم القوات المقاتلة سُحبت منها إلى اماكن اخرى والاسلحة والآلات^(١٢٣) المخزونة فيها نقلت إلى دمشق^(١٢٤). ومع هذا فان السكان كان بمقدورهم أن يتحملوا مثل هذا الوضع لو أن الاوضاع السياسية كانت مستقرة وكانت الاسرة الايوبية موحدة الصف. لقد مات صلاح الدين سنة ١١٩٣، وكذلك مات دبلوماسي^٥ الاسرة الايوبية المحتك، الملك العادل، سنة ١٢١٨. واحتل الفرنجة دمياط وهددوا بلاد الشام. وادى هذا كله إلى القرار الذي اتخذته الملك المعظم وكان له أثر بعيد

المدى على مستقبل القدس اكثر من قرن من الزمان . وكانت المملكة الصليبية ما تزال تسيطر على أجزاء من الساحل الفلسطيني وبعض المعاقل في الداخل وعاصمتها عكا جرّاء الحملة الصليبية الثالثة ومعاهدة الرملة (١١٩١) . وبلغت المنافسات بين (ملوك) الاسرة الايوبية أوجها . وفي هذه الظروف نزح معظم السكان المسلمين الذي حلوا في المدينة مؤخراً وبعض النصارى «المحليين» القدامى إلى اماكن جديدة طلباً للأمان وكسباً للعيش .

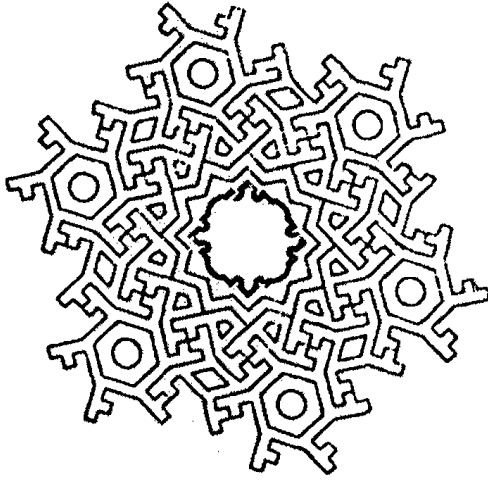
وربما عاد بعض سكان القدس إليها بعد انتهاء الحملة الصليبية الخامسة . وكانت المؤسسات الاساسية التي اقامها صلاح الدين ما تزال تعمل بشكل ما .

ولكن في سنة ١٢٢٦/١٢٢٩ دخلت المدينة في منعطف خطير . فبسبب الخصومات بين ملوك الايوبيين في القاهرة ودمشق ، وهي الخصومات التي اضعفت الجبهة الاسلامية إلى حد كبير، اتخذ السلطان الملك الكامل قراراً خطيراً . فقد بدأ الملك الكامل وسط هلع اجتاح المسلمين جميعاً ، مفاوضات مع الامبراطور الألماني فريدريك الثاني . وسرعان ما جرى تسليم القدس بعد ذلك إلى فريدريك ، باستثناء منطقة الحرم . وكانت الذريعة الاساسية التي تدرع بها الكامل هي عجزه عن الدفاع عن المدينة . واضطربت الحياة العادية في القدس من جديد .

وامتدت سيطرة الفرنج على القدس عشر سنوات (١٢٢٩ - ١٢٣٩) لكنهم لم يستطيعوا تثبيت سلطتهم فيها . وفي سنة ١٢٣٩ تمكن ملك الكرك الايوبي من استرداد المدينة ثم قام بهدم آخر الاماكن المحصنة فيها وهو برج داود . وبعد هذا التاريخ (١٢٣٩) بربيع سنوات عاد الفرنج إلى المدينة (١٢٤٣) ، ولكنهم قبل أن يستقروا فيها استولى عليها الخوارزمية (١٢٤٤) ووجهوا الضربة النهائية . وعادت القدس نهائياً إلى الاسلام . وكان من نتائج هذه التطورات والتهديدات المستمرة ، الحقيقية منها او الخيالية ، التي تعرضت لها المدينة من جانب المملكة اللاتينية ، أن صارت القدس خراباً ، كما قال العمري ، لمدة طويلة من الزمن . ولم تبدأ في النهوض البطيء والتدريجي من كبوتها الا بعد عام ١٢٩١ .

وليس ادلّ على وصف ما حل بالقدس من احداث في القرون الثلاثة التي تناولها هذا البحث بايجاز من النتيجة التي توصل اليها وليم الصوري في الثمانينات من القرن الثاني عشر:

«وهكذا فان المدينة المقدسة . . . بتقلب الاحداث المستمر عليها، كثيراً ما بدلت اصحاب الامر فيها وقد جربت فترات من الصفاء والقتام تبعاً لشخصيات الأمراء الذين تعاقبوا عليها. وحسنت احوالها او ساءت، شأنها شأن الرجل المريض، حسب ضرورات الزمان، لكن تمام العافية كان من المستحيلات.» (١٢٥)



الحواشي

- ١ - اعجب ابن العربي بأساليب التدريس والمناظرة. انظر احسان عباس، «رحلة ابن العربي إلى المشرق كما صورها قانون التأويل»، مجلة الأبحاث، المجلد ٢١، قسم ١، آذار ١٩٦٨، ص ٥٩ وما بعدها، وص ٦٥ (من الدراسة) وص ٨١ (من مقتطفات الرحلة).
- ٢ - بقي ابن العربي في فلسطين أكثر من ٣ سنوات، وغادر القدس سنة ٤٨٩/١٠٩٦، قبل استيلاء الفرنجة عليها بثلاث سنوات فقط. المصدر نفسه، ٨٤ - ٨٦.
- ٣ - لم يرد في كتاب الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل (عمان، ١٩٧٣) لمجير الدين الجنبلي ذكر لاية شخصية علمية بارزة أو عين من الاعيان ممن سكن القدس او زارها بين سنتي ٣٤١ و٤٨٠هـ، الانس الجليل، ٢٩٧/١.
- ٤ - الأنس، ٢٨٧/١ - ٣٠٢.
- ٥ - كان نصر شيخ الشافعية في الشام في زمنه، وقد زار القدس وعاش فيها فترة من الزمن في الزاوية النصرية بباب الرحمة. كما زار الغزالي القدس واقام فيها في المكان نفسه فسميت النصرية ايضاً بالغزالية نسبة اليه. اما الطروشني فقد زار القدس وكان فيها عندما قدم اليها ابن العربي، الانس الجليل ٢٩٧/١ - ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠١.
- ٦ - رحلة ابن العربي، ٨١ - ٨٢.
- ٧ - اعتبر ابن العربي القدس مدينة صغيرة، وربما قارنها بالمدن الكبيرة التي زارها من قبل مثل القاهرة. اما ناصر خسرو الذي زار القدس قبله بخمسين سنة فقد اعتبرها مدينة كبيرة. انظر *Diary of a journey through Syria and Palestine*, tr. Guy Le Strange, PPTS, vol. 4, London, 1893 (reprint, New York, 1971), 21.
- ٨ - رحلة ابن العربي، ٦٦ - ٦٧.
- ٩ - للاطلاع على وصف مصدر مسيحي معاصر انظر: يحيى بن سعيد، تاريخ، بيروت، ١٩٠٩، ١٩٥ - ١٩٦. وانظر ايضاً: القريري، اتماظ الحنظا بلخبار الائمة الفاطميين الخلفاء، المجلد الثاني، تحقيق محمد حلبي احمد، القاهرة، ١٩٧١، ص ٨١.
- ١٠ - اتماظ، ٢، ١٠٧ - ١٠٨، وحول سيطرة بني الجراح انظر: مصطفى الحيارى، الامارة الطائفة، عمان، ١٩٧٧، ص ٤٧ وما بعدها وكذلك
- M Canard, 'Djarrāhids', *Et*.
- ١١ - يحيى، تاريخ، ٢٠١.
- ١٢ - اتماظ، ١٦٧/٢.
- ١٣ - يقول يحيى إن تبادل الرسل بدأ بعد موت الحاكم، تاريخ، ٢٤٣ - ٢٤٤، ٢٦٩. وحول الشروط انظر المصدر نفسه ص ٢٧١. ويقول يحيى ايضاً إن المفاوضات استمرت مدة ثلاث سنوات ونصف، المصدر نفسه، ٢٧١.
- ١٤ - المصدر نفسه، ٢٧١.
- ١٥ - المصدر نفسه، ٢٧٢.
- ١٦ - اتماظ، ١٨٢/٢.
- ١٧ - المصدر نفسه، ١٨٧.

- ١٨ - اتماظ، ١٩٤/٢ .
- ١٩ - ناصر خسرو، سفر نامہ، ترجمها إلى العربية بحسب الخشاب، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٩٨٣، ص ٥٥ .
- ٢٠ - المصدر نفسه، ٧٤ - ٧٥ .
- ٢١ - كان جامع القسطنطينية قد اعيد فتحه للصلاة منذ سنة ٤١٨هـ / ١٠٢٧م . واعلنت الخطبة فيه في ذلك الحين باسم الخليفة الفاطمي الظاهر وحده، وارسل الخليفة الفاطمي القناديل والحصر من مصر إلى المسجد، كما عين له مؤذناً . اتماظ، ١٧٦/٢ . واستمر وضع الجامع على هذه الحال إلى سنة ٤٤٦هـ / ١٠٥٢ - ٥٣م حينما فشلت المفاوضات لتجديد الهدنة . وفي هذه السنة ايضاً سمحت الامبراطورة ثيودورا لرسل السلاجقة بالصلاة في الجامع وعلان الخطبة للخليفة العباسي فيه يوم الجمعة . اتماظ، ٢٣٠/٢، ابن ميسر، المتتقى من اخيار مصر، تحقيق فؤاد السيد، القاهرة، ١٩٨١، ص ١٤ .
- ٢٢ - اتماظ، ٢٣٠/٢ .
- ٢٣ - M H Burgoyne, 'A recently discovered Marwānid inscription in Jerusalem', *Levant*, vol. XIV, 1982, 118-21.
- ٢٤ - William of Tyre, *A History of Deeds Done Beyond the Seas*, 2 vols., tr. Emily A Babcock and A C Krey, New York, 1976, reprint of 1941 ed., I, 407.
- ٢٥ - المصدر نفسه .
- ٢٦ - المصدر نفسه .
- J Prawer, 'The Patriarch's Lordship in Jerusalem', *Crusader Institutions*, Oxford, 1980.
- ٢٧ - لا يذكر اي من المصادر العربية التي رجعت اليها تأسيس «حي البطرک» او حدوده . ويبدو أن وليم الصوري كان على اطلاع على نائق كنيسة القيامة وسجلاتها . اما السبب الذي يقدمه وليم فلا يرد في اي مصدر آخر . فناصر خسرو يذكر، كما رأينا، أن الاسوار كانت في حالة جيدة . ولم يحدث في الفترة بين ١٠٤٧ - ١٠٦٣ أي هزة قوية . وربما كان ذلك الجزء من السور مهملاً لأن القدس لم تكن تواجه تهديداً خطيراً لمدة طويلة . وعلى أية حال فإن الاحوال الاقتصادية الخطيرة في مصر والحرب الاهلية قد تفاقما مع ظهور الخطر التركياني . وربما ادى هذا إلى مطالبة سكان المدن بتحسين مدنهم .
- ٢٨ - وليم الصوري / WT.I, 407-408 .
- ٢٩ - المصدر نفسه . للاطلاع على تفاصيل الوضع القانوني لحي البطرک قبل الاحتلال الصليبي وبعده، انظر برافر، المصدر نفسه .
- ٣٠ - منحت هذه الهدية بعد انشاء الحي . ولا بد ان الارض كانت خالية او خربة . ويعتقد رايلي سميت أن دير الرهبان وكذلك دير الراهبات بنيا على اساسات ابنية سابقة . انظر:
- The Knights of St John in Jerusalem and Cyprus, c. 1050-1310*, London, 1967, 34-36.
- ٣١ - المصدر نفسه، الجزء الأول، الفصل الثاني .
- ٣٢ - لم تحفظ المصادر نص الرسالة، لكن مضمونها محفوظ في كتاب مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي، وقد نسخ سبط ابن الجوزي او لخص المؤرخ المعاصر محمد بن هلال الصايغ الذي كان مطلعاً على مراسلات الدولة في بغداد .
- ٣٣ - مرآة الزمان، مخطوطة المكتبة الوطنية بباريس، ورقة ١٤٨. وانظر ايضاً اخيار الدولة السلجوقية من مرآة الزمان التي نشرها على سويم، انقرة، ١٩٦٨، ص ١٦٩ .
- ٣٤ - المصدر نفسه .

- ٣٥ - المصدر نفسه، الاوراق ١١٦٧-١١٦٩م؛ ابن ميسر، المتقى، ٤٤.
- ٣٦ - مرآة الزمان، ورقة ١١٦٩.
- ٣٧ - المصدر نفسه. اخذت مبالغ كبيرة من النقود حتى إن الدراهم الفضية الفاطمية صرفت في دمشق كل خمسين دينار، وكان سعر الصرف سابقاً كل ثلاثة عشر دينار.
- ٣٨ - المصدر نفسه، الورقة ١٧٦ أ و ب.
- ٣٩ - M H Burgoyne and Amal Abul Hajj, 'Twenty-four Medieval Arabic Inscriptions from Jerusalem', *Levant*, vol. XI, 1979, 117.
- ٤٠ - ابن العربي، رحلة، ٨٠-٨١.
- ٤١ - مرآة الزمان، ورقة ٢٢٨؛ ابن ميسر، المتقى، ٦٥-٦٦.
- ٤٢ - ابن ميسر، المصدر نفسه، ٦٦. ويذكر ابن ميسر أن الافضل كان بالغ السخاء مع الأخوين وسمح لهما بالمغادرة بعد أن خلع عليهما خلعاً.
- ٤٣ - مرآة الزمان، الورقة ٢٢٨ ب.
- ٤٤ - S Runciman, *A History of the Crusades, vol. 1: The First Crusade and the Foundation of the Kingdom of Jerusalem*, New York, 1964, 229, and n. 1, 230.
- ويرد في هذه الحاشية (n.1, 230) ذكر المصادر الفرنجية المعاصرة.
- ٤٥ - يبدو أن الافضل قرر القيام بحملته بعد عودة رسله. وكان جنود صاحب دمشق آنذاك ما يزالون منهمكين في عمليات عسكرية ضد الفرنجة في شمال بلاد الشام.
- ٤٦ - انظر:
- Fulcher of Chartres, *A History of the Expedition to Jerusalem, 1095-1127*, tr. S Fink, New York, 1969, 115-16;
- (وقد تُرجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية: زياد جميل العسلي بعنوان تاريخ الحملة إلى القدس ١٠٩٥ - ١١٢٧، عمان ١٩٩٠).
- وانظر كذلك: William of Tyre, *History*, I, 335 f. وايضاً
- Runciman, op. cit., 280-81; Hans E Mayer, *The Crusades*, tr. John Gillingham, Oxford, 1972, 59-60; *A History of the Crusades*, ed. K Setton, vol. 1: *The First Hundred Years*, ed. Harry W Hazard, 332.
- ٤٧ - Roland Finucane, *Soldiers of the Faith*, London and Melbourne, 1983, 96-97, based on William of Tyre's narrative, *History*, I, 362.
- ٤٨ - تعبير استخدمه القلانسي للدلالة على «القلعة» المتحركة التي استعملها الفرنجة خلال حصار صور. ومن المهم ان نلاحظ ان «البرج» استعمل في معظم الحصارات الصليبية الناجحة. ولم يكن المسلمون معتادين على هذا النوع من الآلات، ولكنهم طوروا فيما بعد تكتيكاً حريياً لمواجهة.
- ٤٩ - Fulcher, *Expedition*, 121; William of Tyre, *A History of Deeds*, I, 370 ff. Fulcher, *ibid*, 121-22.
- ٥٠ - اما المصادر العربية فتقول إن حوالي سبعين الفاً هلكوا بالسيف في المسجد الأقصى وحده. ابن الاثير، الكامل في التاريخ، بيروت ١٩٧٩، ١٠/٢٨٣. المقرئزي، انعاظ، تحقيق محمد حلمي احمد، ج ٢٣/٣، القاهرة، ١٩٧٣. لا يذكر القلانسي اي رقم، ولكنه يقول: وقتل خلق كثير، تاريخ دمشق، تحقيق سهيل زكار، دمشق، ١٩٨٣، ٢٢٢.

- 51 - Fulcher, *ibid*, 124 وانظر أيضاً Runciman, *History*, I, 286.
- 52 - مجير الدين، الانس، 1/ 298 - 299.
- 53 - Fulcher, *Expedition*, 132.
- 54 - انظر فيما يلي القسم الخاص بالاعياد والاحتفالات في القدس.
- 55 - Fulcher, *ibid*, 123.
- 56 - المصدر نفسه.
- 57 - يقول المؤرخ الايوبي ابو الفداء إن صند حنة (St Anne) كانت كنيسة قبل الاسلام ثم صارت مدرسة في الفترة الاسلامية قبل سنة 1099. المختصر في اخبار البشر، بيروت د.ت، 3/ 83.
- 58 - يقول مايكل بيرغوين إن الصليبيين بنوا سوقاً كبيرة تنفرع من ذلك الجزء من طريق الواد الذي كان يعرف في الفترة الصليبية بطريق الفرائين، وهو الذي عرف في الفترة المملوكية بسوق القطنين: *Mamlük Jerusalem*, London, 1987, 80, col. 2.
- 59 - William of Tyre, *A History of Deeds*, I, 409.
- 60 - المصدر نفسه، 409.
- 61 - المصدر نفسه، 507، ويعني هذا أن المملكة اللاتينية لم تتمكن من المحافظة على الأمن في المناطق التي استولت عليها خلال العقود الأولى من تأسيسها. فسكان القدس كانوا قلة ولم يشكلوا الا جزءاً من سكانها في الاحوال العادية والذي قارب العشرة آلاف. انظر:
- Josiah C Russel, 'The Population of the Crusader States', *A History of the Crusades*, vol. 5: *The Impact of the Crusades on the Near East*, ed. Norman P Zacour and Harry W Hazard, Madison, 1985, table 2, 306.
- 62 - William of Tyre, *History*, I, 507-08.
- 63 - المصدر نفسه.
- 64 - انظر الخريطة الممتازة في كتاب:
- Michel Join-Lambert's excellent map, p. 193, in his *Jerusalem*, tr. Charlotte Haldane, London, 1966.
- 65 - انظر المصدر في الحاشية رقم 18.
- 66 - انظر:
- Cartulaire Sepulchre*, 1849, 83-85, as tr. in Peters, *Jerusalem, the Holy City in the Eyes of Chroniclers* . . . , Princeton, 1985, 306.
- 67 - *Description of the Holy Land*, tr. Aubrey Stewart, PPTS, V, New York, 1971, 40.
- 68 - المصدر نفسه، ص 69.
- 69 - المصدر نفسه، ص 41.
- 70 - عندما استولى صلاح الدين على القدس تم اعفاء حوالي 1500 ارمي من دفع الفدية، بعد أن منحوا إلى اثنين من امرائه اللذين اعتبراهم من رعاياهما، لان الأميرين كانا يحكمان الرها وحران.
- 71 - *Anonymous Pilgrims in PPTS*, IV, New York, 1971
- 72 - كانت هذه المؤسسات بصورة عامة هي المؤسسات الاساسية في مركز ولاية من هذا النوع خلال القرن الحادي عشر الميلادي. ويرد ذكر بعض هذه المؤسسات في المصادر العربية. اما البعض الآخر فيمكن استخلاصه من معلومات متأخرة، ومن ذلك المتحسب *muhtasib* من الادارة الفرنجية للمدينة. وهو محريف لمنصب المحتسب في الادارة الاسلامية.

- ٧٣ - J Praver, 'Social Classes in the Latin Kingdom: the Franks', *A History of the Crusades*, V, 130.
- ٧٤ - المصدر نفسه، ١٤٥.
- ٧٥ - William of Tyre, *History*, I, 355 f.
- ٧٦ - J Praver, *ibid.*
- ٧٧ - المصدر نفسه، ١٥٠.
- ٧٨ - J Richard, *The Latin Kingdom of Jerusalem*, tr. Janet Shirley, Amsterdam, 1979, vol. A, 122.
- ٧٩ - المصدر نفسه، ١٢٦، نقلاً عن قائمة John Ibilin.
- ٨٠ - J Praver, op. cit., idem, 'The Origin of the Court of Burgesses', *Crusader Institutions*, 263-95.
- ٨١ - بشأن انظمة الداوية (الهيكلين) انظر: Stephen Howarth, *The Knights Templar*, London, 1982, ch.2
- ؛ وبشأن الاستبارية انظر: J Riley-Smith, *The Knights of St John*, pt. 2.
- ٨٢ - J Richard, op. cit., 223.
- انظر ايضاً:
- John La Monte, *Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem*, New York, 1970 (reprint of 1932 ed.), 108.
- ٨٣ - يقول جان ريشار إن نواب الكونتات viscounts كانوا على الاغلب من الفرسان، مع بعض الاستثناءات القليلة، المرجع السابق ص ٢٢٢. اما بالنسبة ليشوع برافر فقد وكان في استطاعة حاكم المدينة أن يعين نائب الكونت دون موافقة البراجسة، ولكن كان يفترض فيه أن يأخذ بنصيحتهم عند اعلان انظمة المدينة؛ انظر
- "Social Classes . . . , *History of the Crusades*, V, 158.
- ٨٤ - Peters, *Jerusalem*, 301.
- ٨٥ - هذا النص ترجم عن ترجمة بيترز الانجليزية (Jerusalem, 301-302) للنص الوارد في Recueil Lois، ج ٢، ص ٢٤٣ - ٢٤٤.
- ٨٦ - هذه المعلومات عن الاسواق تجدها في الاوصاف التي اوردها الحجاج والسياح للمدينة خلال القرن الثاني عشر الميلادي.
- ٨٧ - تجدد وصفاً مفصلاً لهذه الاحتفالات في:
- J Praver, *The Latin Kingdom of Jerusalem*, London, 1972, 176 ff. and the note for his sources.
- ٨٨ - المقرئزي، اتعاظ، ٧٤/٢ - ٧٥.
- ٨٩ - يحيى بن سعيد، تاريخ، ١٩٤.
- ٩٠ - J Praver, *ibid.*, 178.
- ٩١ - *The Pilgrimage of the Russian Abbot Daniel in the Holy Land, 1106-1107 AD*, tr. C W Wilson, New York, 1971 (reprint of 1895 ed.), in PPTS, IV, 74 ff.
- ٩٢ - John of Würzburg, *Description*, 39-40.
- ٩٣ - المصدر نفسه، ٤٠.
- ٩٤ - J Richard, *The Latin Kingdom*, vol. A, 129.
- ٩٥ - Howarth, op. cit., 125 (quotation).

- ٩٦ - انظر وليم الصوري، *A History of Deeds*، ج ٢، ص ٢٢٥ (عن نور الدين) وص ٤٠٦-٤٠٨، ٤٩٠-٤٩١. وهو يقول: «وهكذا... فان كل الممالك من حولنا تطيع رجلاً واحداً وتعمل بإرادة رجل واحد، وقيامته وحده فقط. وهم مستعدون ولو يتردد لحمل السلاح لإيذاننا كوحدة واحدة. فهذا صلاح الدين... الآن يُخضع لسيطرته كل هذه الممالك». ٤٠٨.
- ٩٧ - نصت شروط الاستسلام على أن يسمح للآتين بمغادرة المدينة مع ممتلكاتهم الشخصية؛ ولكن كان عليهم أن يتركوا وراءهم خيولهم وآلاتهم وكل معداتهم العسكرية، وعلى كل رجل منهم أن يدفع عشرة دنانير وكل امرأة خمسة دنانير وكل طفل (ذكراً أو أنثى) ديناراً واحداً: الاصفهاني، *الفتح القسي في الفتح القيسي*، تحقيق محمد صبح، القاهرة، د.ت، ١٢٧، ابن الاثير، *الكامل*، ١٥٤٩/٢، الانس، ١٣٤٨/١، Runciman, *History*, II, 466-67.
- ٩٨ - انظر الفتح، ١٤٠-٤٤.
- ٩٩ - المصدر نفسه، ١٤٥، ٦١١-١٢، الانس، ٣٤٠/١، ٣٩١، ابن شداد، *التواريخ السلطانية والمحاسن اليوسفية*، تحقيق محمد جمال الدين الشيبان، القاهرة، ١٩٦٤، ٢٤٩.
- ١٠٠ - ابن واصل، *مفرج الكروب في اخبار بني ايوب*، ج ٤، تحقيق حسنين ربيع، القاهرة، ١٩٧٢، ١٤١-٤٢، ٢٠٨. وقد حُددت اوقاف هذه المدرسة في وثيقة منشورة في كتاب *اوقاف واملاك المسلمين في فلسطين*، تحقيق محمد إيشري ومحمد داود التميمي، استانبول، ١٩٨٢، ص ٣٥.
- ١٠١ - نشرها كامل العسلي في *وثائق مقدسية تاريخية*، المجلد الاول، عمان ١٩٨٣، ص ٩١ وما بعدها.
- ١٠٢ - *الفتح القسي*، ٦١٢، الانس، ٣٩١/١.
- ١٠٣ - سبط ابن الجوزي، *مرآة الزمان*، ج ٨، حيدر اباد، ١٣٧٠هـ، ٤١٠، ٤١٣، *الكامل*، ج ١٢، بيروت، ١٩٧٩، ص ٦٩ وما بعدها.
- ١٠٤ - اغلقت الكنيسة اياماً قليلة ثم اعيد فتحها. وقد اقترح بعض مستشاري صلاح الدين عليه أن يهدمها ولكنه رفض. *الفتح* ١٤٥-٤٦.
- ١٠٥ - انظر *الفتح*، ٥٦٢، ٥٦٥، ٥٨٢، ٦١٠. وصف عبداللطيف البغدادي، الذي زار القدس اذاك، برنامج صلاح الدين اليومي في اثناء تعمير السور وتحصيناته، الافادة والاعتبار، تحقيق احمد غسان سبانو، دمشق، ١٩٨٣، ١٥١.
- ١٠٦ - المصدر نفسه، ٥٧٨، *الكامل*، ٧٤/١٢.
- ١٠٧ - *الكامل*، ١٢ / ٨٦-٨٧.
- ١٠٨ - الانس، ٤٩ / ٢.
- ١٠٩ - المصدر نفسه، الوثيقة التي وصلت اليها تؤيد ما ورد في الانس. انظر A L Tibawi, *The Islamic Pious Foundations in Jerusalem*, London, 1987, 14, and Arabic text Appendix II. والنص العربي في الملحق رقم ٢.
- ١١٠ - ابن تغري بردي، *التجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة*، ج ٦ (اعادة طبع)، ٢٤٤-٤٥.
- ١١١ - لم تذكر المصادر التي استطلعت الرجوع اليها اي شيء عن مصير النصارى المحليين بعد سنة ١٢١٩، ولكن يبدو انهم غادروا المدينة ايضاً. ويقول ابن واصل الذي عين ابوه شيخاً للصلاحيه بعيد سنة ٦٢٢ / ١٢٢٥: إن اكثر السكان غادروها ولم يبق الا القليل. *مفرج الكروب*، ٣٢/٤.
- ١١٢ - العمري، *مسالك الابصار في ممالك الامصار*، الجزء الذي نشره أيمن السيد، القاهرة، ١٣٨/١.
- ١١٣ - الانس، ٣٤٥/١.

١١٤ - الكامل، ٥٤٦/٢ .

١١٥ - المصدر نفسه، ٥٤٩ - ٥٥٠ .

ويرد في المصادر تقديرات مختلفة حول عدد الناس الذين كانوا في المدينة في اثناء حصار صلاح الدين . فيقول العماد إن عددهم كان اكثر من مائة الف (اي عشرة اضعاف عددهم في الاحوال العادية) كان منهم ستون الفاً من المقاتلة . الفتح ص ١٢٨ . ويبدو أن ابن الاثير كان اكثر تأكيداً من العدد، مما يوحي بأنه كان يعتمد على بعض انواع الوثائق المتاحة له . فهو يقول إنه كان فيها ستون الفاً بالضبط من الفرسان والرجالة اضافة إلى الرجال والنساء . . . ولا يستغرب ابن الاثير هذا الرقم لأن المدينة كانت في رأيه كبيرة . ويمكن التوصل إلى ارقام اكثر دقة من عدد اولئك الذين دفعوا القطيعه (التي نص عليها الاتفاق) للخروج من المدينة : ٢٠,٠٠٠ تقريباً من اللاتين دفعوا المبلغ المقرر عليهم، ١٨٠٠٠ من الفقراء والمساكين الذين أطلقهم باليان، ١٥٠٠٠ وقعوا في الاسر (٧٠٠٠ من الرجال و ٨٠٠٠ من النساء)، ١٥٠٠ من الأرمن الذين أطلقوا دون دفع القطيعه، ٥٠٠٠ اسير مسلم، ويبلغ المجموع الكلي ٦٠٠٠٠ تقريباً، باستثناء النصارى المحليين الذين لم يحدد عددهم . ومع ذلك فإن المدينة كانت مزدهمة كل الازدهام . وكان الوضع يشبه ما كان عليه سنة ١٠٩٩ .

١١٦ - قام النصارى المحليون والتجار في جيش صلاح الدين بشراء معظم ما باعه الفرنجة بأسعار رخيصة للغاية . فما كان يساوي عشرة دنانير اشترى بدينار واحد . الفتح، ١٣٥ ، الكامل ٢٥١/٢ - ٢٥٢ .

١١٧ - الفتح، ١٣٦ ، الكامل، ٢٥٢/٢ - ٥٣ .

١١٨ - الفتح، ١٣٤ .

١١٩ - المصدر نفسه ٥٧٩ . وهو يورد نص مرسوم تعيين سياروخ، ص ٥٨٠ - ٥٨١ . وقد مات الظهير سنة ٥٨٥هـ، وتوفي عيسى في اواخر السنة ذاتها . وترك صلاح الدين لنائب عيسى حكم المدينة مدة من الزمن إلى ان عين سياروخ . وعين عز الدين جُرديك والياً سنة ٥٨٨ . التوادر السلطانية، ص ٢٤٠ .

١٢٠ - Benjamin of Tuleda, *Travels* .

١٢١ - J Praver, "Minorities" in the Crusader States', *A History of the Crusades*, V, 97 .

١٢٢ - المصدر نفسه، ١٠٠ .

١٢٣ - بالاضافة إلى الاسلحة وآلات الحرب التي تركها الفرنجة في المدينة، عملاً باتفاقية تسليم المدينة، ترك العزيز عثيان بن صلاح الدين كل خزائن سلاحه من مختلف الانواع فيها، الفتح، ١٤٤ .

١٢٤ - مفرج الكروب، ٣٢ / ٤ .

١٢٥ - William of Tyre, *History*, I, 63-64 .



الفصل السادس

القدس تحت حكم الأتوبيين والمماليك

دونالد ب. لتل

١١٨٧-١٥١٦ م

القدس تحت حكم الأيوبيين والمماليك

١١٨٧-١٥١٦

دونالد ب. لتل

إن إعادة القدس المكلّلة بالنصر للاسلام على يد صلاح الدين كانت موضوع أول خطبة جمعة القيت في المسجد الأقصى بعد خلاصه من أسر بيد الفرنجة استمر حوالي ثمانين عاماً. ولما كانت هذه مناسبة عامة واضحة الأهمية حضرها صلاح الدين نفسه وكبار رجال جيشه ودولته فقد اشتد التنافس بين علماء الدين من أفراد حاشيته للفوز بشرف القاء الخطبة. ومن بين أولئك العلماء الذين أعدوا خطباً وأملوا أن يقع عليها الاختيار اختار السلطان القاضي عميي الدين بن الزكي قاضي قضاة الشافعية في حلب. ونظراً لأهمية المناسبة وجلالها فلا بد أن ابن الزكي قد اختار كلماته بعناية. وعلى أية حال فإن الخطبة تزودنا بالتأكيد بخلاصة فصيحة لوضع القدس في نظر صلاح الدين ونظر مستشاريه الروحانيين، وبصورة المدينة التي كانوا يرغبون في ترويحها بين المسلمين. وعلى هذا فإن الخطبة تستحق التمهيص.

تبدأ الخطبة كالعادة بآيات من القرآن في تمجيد الله وبكلمات للقاضي نفسه يحمّد فيها الله على «تطهير بيت المقدس من أدناس الشرك وأضارته» (١). وهذه العبارة بمفردها تتضمن لبّ رسالة الخطبة، ألا وهي تقديم الشكر لله وأوليائه على إعادة بيت المقدس للمسلمين. ويتضمن سائر الخطبة في معظمه بياناً بأسباب تقديس المسلمين لبيت المقدس، والثناء على مخلصيه، وحثاً على مواصلة الجهاد ضدّ الفرنجة. وأطرف جزء من أجزائها هو ذلك الذي يضم قائمة بفضائل القدس. وكما هو معروف فإن فضائل المدن كانت تشكل أساساً لفرع قائم بذاته من الأدب العربي اكتسب شهرة خاصة فيما يتصل بالقدس حوالي

هذا الوقت من التاريخ؛ أي بالارتباط بالحملات العسكرية التي قام بها نور الدين زنكي، وصلاح الدين، والتي وصلت أوجها بالاستيلاء على القدس سنة ١١٨٧ (٢). إن تعداد الفضائل في خطبة ابن الزكي كان من شأنه أن يذكر المسلمين بما كانوا يحاربون من أجله في المعركة من أجل القدس، وكذلك بالأسباب التي توجب عليهم الاستمرار في الجهاد في سبيلها. وفضائل القدس كما أفصح عنها ابن الزكي أمام صلاح الدين ورجاله هي ما يلي :

[فهو موطن أبيكم ابراهيم ومعراج نبيكم عليه الصلاة والسلام وقبلتكم التي كنتم تصلون اليها في ابتداء الاسلام، وهو مقر الأنبياء، ومقصد الأولياء، وموقف الرسل، ومهبط الوحي، ومنزل ينزل به الأمر والنهي، وهو أرض المحشر، وصعيد المنشر، وهو في الأرض المقدسة التي ذكرها الله في كتابه المين، وهو المسجد الأقصى الذي صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالملائكة المقربين، وهو البلد الذي بعث الله اليه عبده ورسوله وكلمته التي ألقاها الى مريم وروحه عيسى الذي أكرمه برسالته وشرقه بنبوته، ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته... وهو أولى القبلتين، وثاني المسجدين وثالث الحرمين...] (٣).

ونظراً لقداسة القدس التي صورت على هذا النحو فان فتح صلاح الدين لها جدير بأن يشبهه بأقدس المارك في التاريخ الاسلامي : بدر والقادسية واليرموك وخيبر، التي أحرز فيها الرسول نفسه نصراً مذهلاً على أعدائه، وهزمت فيها الجيوش العربية الاسلامية الامبراطوريتين الجبارتين الساسانية والبيزنطية. ولثلا يقع المنتصرون المجتمعون في المسجد الأقصى في شباك الرضى عن الذات جرأ هذا الاطراء لانجازهم الرائع فان ابن الزكي يذكرهم بواجبهم في الثبات على حسن الطاعة لله لكي يظلوا على يقين من نعمته. وهو يذكرهم بوجه خاص بواجبهم في مواصلة الجهاد. وتنتهي الخطبة بالثناء على الفاتح «مطهر البيت المقدس» بالدعاء الى الله أن ينشر «ذوائب ملكه على الأمصار» وبيت «سرايا جنوده في سبل الأقطار» وأن يثبت «الملك فيه وفي عقبه الى يوم الدين» (٤).

وكما سنرى فان هذا الأمل الذي أعرب عنه ابن الزكي قد خاب بلا ريب.

ولكن لا يكاد يكون هناك شك في أن صلاح الدين وأتباعه اعتبروا الاستيلاء على القدس تتويجاً لانجازاتهم في جهاد طال أمده ضد أعداء الاسلام، وسيواصله ورثته من بعد. وقد أرسل حوالي سبعين كتاباً تعلن النصر الى زعماء العالم الاسلامي، بمن فيهم الخليفة العباسي في بغداد (٥). وفي داخل المدينة اتخذ صلاح الدين الاجراءات لتطهير قبة الصخرة

والمسجد الأقصى . فقد نقل المتبر الذي كان نور الدين قد أمر بصنعه للقدس ، الى المدينة ووضعه في المسجد الأقصى (١) . وأقيمت تحت رعايته مؤسسات دينية جديدة، منها مدرسة للشافعية ورباط للصوفية ومستشفى (بيمارستان) وكلها حملت اسمه* . وأعيدت كنيسة القبر المقدس (القيامة) الى الكنيسة الأرثوذكسية وسمح لليهود بالبقاء في المدينة والإقامة فيها (٧) . ولكي يعيد الوجود الاسلامي في المدينة أسكن السلطان فيما ذكر عدة قبائل عربية في المدينة وما حولها (٨) . وعندما غادرها الى عكا بعد مضي أقل من شهر على سقوط القدس بيده أوكل ادارة المدينة الى الأمير حسام الدين سياروخ التركي (٩) .

ولا حاجة بنا لأن نقف هنا عند تفاصيل المفاوضات المطولة حول القدس بين صلاح الدين ورتشارد قلب الأسد أثناء الحملة الصليبية الثالثة . ويكفي أن نقول إن مطالبة رتشارد بتسليم المدينة له وتقسيمها بين المسيحيين والمسلمين وبأن تحكم القدس حكماً مشتركاً يتقاسمه أخو السلطان الملك العادل وأخت الملك الملكة جوانا ملكة صقلية قد رُفِضت . وأجاب صلاح الدين على قسم رتشارد بأنه لن يتخلى عن القدس بقوله :

«وأما القدس فهو لنا كما هو لكم . وهو أعظم عندنا مما هو عندكم فإنه مسرى نبينا ومجتمع الناس يوم الحشر فلا تتصوروا أننا ننزل عنه» (١٠) .

ولتأمين الدفاع عن المدينة في سنة ١١٩١/٥٨٧ استخدم صلاح الدين أسرى الفرنجة في حفر خندق عميق وإعادة بناء الأسوار والأبراج حول الأجزاء غير الحصينة والمعرضة للهجوم (١١) . ومع ذلك، ورغم أن الهجوم المتوقع لم يتحقق مطلقاً ، فإن صلاح الدين عقد هدنة مع رتشارد قبل مبارحته الأراضي المقدسة . والبند الوحيد الذي يمس القدس مباشرة في هذا الاتفاق يمنح رتشارد الحق بالسماح للحجاج بزيارة المدينة المقدسة . لكن وضع المدينة تأثر أيضاً بالاتفاق الذي يعترف للفرنجة بحق المرور الحر الى ساحل فلسطين من صور الى يافا (١٢) .

لقد نجح صلاح الدين في إعادة القدس للإسلام وفي تعمير الأماكن الاسلامية المقدسة وإقامة مؤسسات دينية جديدة وتيسير وصول المسيحيين واليهود الى المدينة . وانسجاماً مع إعادة تطهير مساجد الحرم فقد أقيمت مؤسساته الدينية العديدة في مبان كان يشغلها

٥ فيما بعد (المترجم) .

المسيحيون و يستعملونها من قبل ولم تقم في مبانٍ جديدة. وأشهر هذه المؤسسات وأهمها المدرسة الصلاحية وهي مدرسة (كلية) لتدريس الفقه الشافعي اقيمت في كنيسة القديسة حنّة في سنة ١١٩٢/٥٨٨ (١٣). ويتضح من أنتراجم التي أوردها مجير الدين العلمي لرؤساء هذه المدرسة أنها كانت تتمتع بمكانة عظيمة بوصفها مقر المذهب الفقهي السائد في القدس في كلا العصرين الأيوبي والملوكي (١٤). أما الخانقاه الصلاحية، وهي خانقاه للصوفية، فقد جعلت في المقر السابق لبطريك القدس المتاخم لكنيسة القبر المقدس. وبفضل نسخة محفوظة في الأرشيف العثماني بالقدس من كتاب وقف الخانقاه المؤرخ في ١١٨٩/٥٨٥، نعرف أن صلاح الدين أراد أن يكون هذا المبنى مقراً لفقراء الصوفية من عرب وعجم. وكان ينتظر من هؤلاء مقابل سكنهم أن يشاركوا بتلاوة آي القرآن الكريم في حفلات الذكر وأن يقوموا بالدعاء للسلطان المُحبس (١٥). وقد أنشئ مستشفى، البيمارستان الصلاحي، في كنيسة بحى الدباغة على مقربة من كنيسة القبر المقدس (١٦). ووقفت على المستشفى أوقاف سخية. فكان يؤدي خدمات المستشفى الاعتيادية، ويظهر أنه كان الى جانب ذلك مركزاً لتعليم الأطباء (١٧). وهناك دلائل كثيرة على أن عدة سلاطين من خلفاء صلاح الدين شاركوه الشعور تجاه المقامات الاسلامية وأسهموا في نشاطات اسلامية دينية في المدينة، عن طريق إنشاء مبانٍ دينية بصفة رئيسية. فقد وقف أكبر أبناء صلاح الدين، الملك الأفضل (المتوفى سنة ١٢٢٥/٦٢٢)، المدرسة الأفضلية على فقهاء المالكية وبنائها حوالي سنة ١١٩٤/٥٩٠ (١٨).

واختار موقعاً مناسباً لهذه المدرسة في حارة المغاربة لأن معظم المالكية يرجعون بأصلهم الى بلاد المغرب. وكان واحد من أشهر الأيوبيين، وهو الملك العادل (المتوفى سنة ١٢١٧/٦١٥)، مسؤولاً عن بناء أسبلة للوضوء والتشرب داخل الحرم. وفضلاً عن ذلك فنحن نجد في عهده ما لا يقل عن عشرة نقوش في القدس تحمل اسم ابنه الملك المعظم عيسى (ت سنة ١٢٢٦/٦٢٤) وتشهد برعايته للنشاطات العمرانية التي تتراوح بين ترميم أروقة الحرم وبناء برج في القلعة. وازافة الى ذلك فإن الملك المعظم، الذي يبدو أنه «كان يعتبر نفسه حاكماً مستقلاً» في فلسطين (١٩)، قام ببناء مدرستين، احدهما للحنفية دعيت نسبةً اليه بالمدرسة المعظمية، ووقفت سنة ١٢٠٩/٦٠٦ وتم بناؤها في سنة ١٢١٧/٦١٤ - ١٨، والأخرى لتعليم اللغة العربية سُميت بالمدرسة النحوية وكان انشاؤها في سنة ١٢٠٧/٦٠٤ (٢٠).

ولكن هناك اعتبارات أخرى كانت تتنافس مع اجلال الأيوبيين للمدينة وجهودهم لتجميلها وإغناء حياتها الروحية، وهي اعتبارات تفوق هذه من الوجهة العملية. فبعد وفاة صلاح الدين في سنة ١١٩٣/٥٨٩ برزت الحقيقة البسيطة وهي أن القدس لم تكن أساسية بالنسبة لأمن امبراطورية قاعدتها مصر أو سوريا. وبناء على هذا فانه ثبت أن المدينة يمكن بذلها في أوقات الأزمات السياسية أو العسكرية. واذا أخذنا بعين الاعتبار الاحتكاكات الداخلية في داخل العائلة الأيوبية ورغبة الفرنجة المتكررة في إعادة الاستيلاء على المدينة المقدسة للمسيحية فان هذه الأزمات كانت تتكرر.

وكما هو معروف جيداً فان أية وحدة أو ولاء استطاع صلاح الدين أن يغذيها في نفوس الأيوبيين تضاعف مع موته، عندما بدأ ورثته في الشجار حول الأرض والسيادة. وقد لعب الملك العادل دوراً حاسماً في المنافسة التي جرت بين إبنه أخيه (الأفضل والعزیز)؛ إذ أيد أولاً الأول ثم أيد الثاني. وفي نهاية المطاف في سنة ١١٩٦/٥٩٢ نال العادل لنفسه نيابة السلطنة في دمشق في ظل حكم العزيز. ولكن حينما مات العزيز في سنة ١١٩٨/٥٩٥ تجدد الصراع مع الأفضل (٢١). وانتهى بهزيمة وتولى العادل سلطنة مصر والشام. ومع أن القدس بقيت على هامش هذا الصراع على السلطة فقد تأثرت بالطبع. ومن الأمور ذات الدلالة أن القدس بالرغم من قداستها - وربما بسبب هذه القداسة - لم يعش ولم يحكم فيها أي فرد من العائلة الأيوبية حتى حوالي سنة ١٢٠٤/٦٠١ عندما جعلها المعظم عيسى مقره الرئيسي (٢٢). وقبل ذلك التاريخ، ووفقاً لسابقة استنها صلاح الدين نفسه، منحت المدينة اقطاعاً الى كبار الضباط العسكريين ذوي الأصل المملوكي أو الكردي. وليس من غير الطبيعي أن يحكم القدس كانوا يتغيرون تكراراً مع تنقل خطى الصراع الى الخلف والى الأمام بين المتنافسين. فقد عين صلاح الدين عز الدين جرديك النوري، وهو من مماليك نور الدين، حاكماً على القدس في سنة ١١٩٢/٥٨٨ بعد عقد الهدنة مع رتشارد. وبقي في هذا المنصب حتى سنة ١١٩٥/٥٩١ عندما عين العادل مكانه القائد الكردي حسام الدين أبا الهيجاء الهذباني السمين. وفي هذه الأثناء عرض الأفضل، ثم رفض فيما بعد، أن يتخلى عن سلطته على القدس الى العزيز. وفي سنة ١١٩٦/٥٩٢، وعندما نجح العزيز في الاستيلاء على دمشق، عزل أبا الهيجاء وعين مملوك صلاح الدين صارم الدين خُطَلُجُ العززي في المنصب. وأبقي فيه عند تولي العادل السلطنة على مصر وسوريا في سنة ١٢٠٠/٥٩٦. وخلف خطلج المعظم عيسى الذي حكم المدينة باسمه بمساعدة أحد أمراء المماليك (٢٣).

ومع أننا لا نعرف الا القليل عن التاريخ الاقتصادي للمدينة في العهد الأيوبي فهناك اشارات تدل على أن قاعدتها الاقتصادية لم تكن سليمة بالقدر الذي يمكن أن تكون عليه، بسبب غياب التدفق الثابت للحجاج الأوروبين الذين كانوا، كما هم الآن، مصدراً كبيراً للدخل بالنسبة للمدينة. ولسد العجز في واردات القدس حوّل ثلث ايرادات نابلس اليها. ومما يدل على القوة الاقتصادية لاقطاع نابلس بالنسبة الى القدس أن حاكم نابلس تكفل بجميع نفقات القدس ونفقات القوات المخصصة لها (٢١).

ومع ذلك وبالرغم من الاضطراب السياسي والغموض وعدم الاستقرار الاقتصادي فان وضع القدس ظل مستقراً حتى سنة ١٢١٩ وحصار دمياط في مصر والاستيلاء عليها آخر الأمر من جيش الحملة الصليبية الخامسة. وقبل ذلك التاريخ عُقدت سلسلة من الهدن (ج هدنة) مع مملكة القدس اللاتينية أصبح الملك العادل قادراً بموجبها على تأمين قاعدته في مصر واتفاقياته التجارية مع ممالك المدن الايطالية مقابل تنازلات اقليمية وغيرها من مثل تسليم يافا واللد والرملة والناصرية إلى الفرنجة سنة ١٢٠٤. وفي حكم العادل حدث التلميح الوحيد بتهديد للقدس سنة ١٢٠٣. ولكن التهديد لم يتحقق بسبب وباء أنهك عساكر الفرنجة الذين كانوا قد اتخذوا مواقعهم للهجوم على المدينة. وفي سنة ١٢١٠/٦٠٧ - ١١ دفع نشاط صليبي عدواني حول حمص بسوريا الملك العادل إلى بناء قلعة قوية على جبل طابور للدفاع عن الطرق المؤدية الى القدس. ولكن في سنة ١٢١٩ ومع نجاح الصليبيين في انزال قواتهم الى مصر تغير الوضع تغيراً شديداً عندما دعا خليفة العادل، وهو ابنه الكامل، الأيوبيين في فلسطين وسوريا الى نجده في مصر (٢٥). وكما رأينا من قبل كان المعظم عيسى أمير دمشق قد اختار القدس مقراً رئيسياً له حيث رعى أعمالاً عمرانية كثيرة في المدينة. ولهذا فان من سخرية القدر أن يصبح المعظم أداة لتدمير تحصيناتها. وقد توصل المعظم إلى هذا القرار في مصر عندما أدرك أن غياب قواته والقوات الأيوبية الأخرى عن سوريا ترك فلسطين عُرضة للسقوط أمام هجمات الصليبيين. ورغم كل ما يقال فان الهدف الظاهري للحملة الصليبية الخامسة كان تسهيل الاستيلاء على المدينة المقدسة بهجمة مركز القوة الاسلامية في مصر. والواقع أن المعظم علم بأن جماعة من الفرنجة كانوا يدبرون للاستيلاء على القدس. وبناءً عليه أمر بهدم تحصينات القدس وكذلك تحصينات جبل طابور وصفد والكرك وتبنين وغيرها هدماً تاماً لكي لا تقع في أيدي الفرنجة وتستخدم بذلك كقواعد للمزيد من التوسع (٢٦). ونظراً لأهمية القدس الدينية فان الأيوبيين أنفسهم وسكان

المدينة ومسجلي التاريخ المسلمين لم ينظروا اليها نظرة استخفاف . وعندما تردد أخو المعظم وضابط آخر في تنفيذ الأمر وعرضاً أن يقوموا بنفسيهما بحفظ المدينة كتب اليهما المعظم يقول : « لو أخذوه لقتلوا كل من كان فيه وحكموا على دمشق وبلاد الاسلام فالجأت الضرورة الى خرابه (٢٧) » .

ووصل المعظم بنفسه ليشرف على العمل في ربيع سنة ١٢١٩/٦١٦ . ويقول المؤرخ المعاصر سبط ابن الجوزي (ت ٦٥٤ - ١٢٥٦) إنه بعد هدم الأسوار خرج النساء والأطفال والشيوخ والعجائز هاربين الى دمشق والقاهرة والكرك وتركوا أموالهم وأهاليهم (٢٨) . ويقول مؤرخ جاء بعده هو المقرئزي (ت ٨٤٥/١٤٤١) إن المعظم تسبب في خروج «معظم من كان في القدس من الناس، ولم يبق فيه الا نفر يسير. ونقل المعظم ما كان في القدس من الأسلحة وآلات القتال» (٢٩) « ووقع في البلد ضجة مثل يوم القيامة ... وكانت نوبة لم تكن في الاسلام (٣٠) » . ومهما بدا هذا الاعتداء الشائن على القدس فاجعاً لأعين المؤرخين والشعراء، فان الاعتبارات السياسية والعسكرية كانت لها الغلبة . ونحن نعرف بالفعل أن السلطان الكامل وأخاه المعظم عيسى عرضاً تسليم مملكة القدس كلها، باستثناء الكرك والشوبك فحسب، إذا ترك الفرنجة مصر . ورفض الفرنجة الذين كان يقودهم الممثل البابوي بيلاغوس Pelagius قبول هذه الشروط في هذا الوقت (٣١) . ولكن شروطاً مشابهة اتخذت أساساً للاتفاق الذي عقد بين الكامل وفريدريك الثاني بعد حوالي عشر سنوات وخسر الاسلام بموجبها القدس للمرة الثانية بصورة مؤقتة . وكانت الأسباب الكامنة وراء قرار الكامل تسليم القدس هي الأسباب عينها التي أدت الى هدم الأسوار . إن كرسي مملكة الكامل كان في مصر . والقدس غير المحصنة في أيدي الفرنجة لم تكن تشكل تهديداً لمصر وهي تلبى أهداف الصليبيين الظاهرية . وكان فريدريك صريحاً على نحو مميز، بل وقحاً في بيان هذه العوامل للكامل :

« وأنت كاتبتنني بالمجيء وقد علم البابا والملوك باهتمامي، فان رجعت خائباً انكسرت حرمتي . وهذه القدس هي أصل دين النصرانية وأنتم قد خربتموها وليس لها دخل طائل؛ فان رأيت أن تنعم علي بقصبة البلد ليرتفع رأسي بين الملوك ... » (٣٢) .

وكتب الى مبعوث أيوبي يقول بأنه «لولا يخاف انكسار جاهه ما كلف السلطان شيئاً من ذلك، ماله غرض في القدس ولا غيره ... وإنما قصده حفظ ناموسه عند الفرنج» (٣٣) .

ومع ذلك فإن الكامل لم يغفل، وسط هذه الاعتبارات العملية، عن ادراك أهمية القدس الدينية؛ بحيث نص الاتفاق على أن يبقى الحرم الشريف بما فيه من المساجد في أيدي المسلمين وتبقى فيه أشعرة الاسلام ظاهرة كالعادة «ويتولاه قوام من المسلمين و يقيمون فيه شعائر الاسلام من الآذان والصلاة» (٣١). وتخفيفاً لوقع تخليه عن المدينة لفريدريك أعلن الكامل: «إننا لم نسمح للفرنج الا بكنائس وأدر خراب. والمسجد على حاله وشعار الاسلام قائم...» (٣٥).

وفضلاً عن ذلك فقد أحتجّ تعزيزاً لقضيته بأن المدينة يمكن استرجاعها بسهولة في وقت لاحق. بيد أن هنالك عاملاً مهماً لم يذكر وهو تجدد النزاع في داخل الأسرة الأيوبية. ففي غياب جبهة موحدة في سوريا ومصر لم يكن الكامل مستعداً لأن يواجه بنجاح جيشاً صليبيّاً داخل أراضيه، وأصبحت القدس رهينة في الصراعات العائلية. والعامل الرئيسي في هذا الشأن كان حرب الإخوة بين الكامل والمعظم، التي عكست صعوبة السيطرة على امبراطورية تضم مصر وسوريا. ويتجلى عمق المخاوف التي كان يشعر بها الكامل من قوة المعظم في سوريا وفلسطين بالعرض الذي قدمه الى فريدريك في سنة ١٢٢٦/٦٢٣ بالتخلي عن مدن في فلسطين من ضمنها القدس حسب ما يقول المؤرخ العيني (ت ١٤٥١/٨٥٥) مقابل تقديم معونة له ضد أخيه من جانب الامبراطور (٣٦). ومع أن المعظم كان قد تعاون سابقاً مع أخيه في صلح تفاوضي مع الفرنجة فقد رفض العرض الذي قدمه فريدريك سنة ١٢٢٧/٦٢٤ ورفض من دمشق أن يكون طرفاً في تسليم فتوحات صلاح الدين. ومع أنه كان في مرض الموت، فقد انتقل الى القدس ليضمن تخريب أي دفاعات بقيت فيها. وسرعان ما مات المعظم لكن الضرر كان قد وقع وفشل الكامل في لمّ شعث الأيوبيين لمواجهة غزو كان قد بدأ بالفعل (٣٧).

وكما هو منتظر فان تسليم المدينة استقبال بفرح من جموع المسلمين. فقد اشتد الاثمة والمؤذنون في القدس على الكامل في معسكره عند تل العجول، وكان لا بد من ابعادهم. وطلب عدو الكامل في دمشق الملك الناصر داود من ابن الجوزي أن يخطب مندداً بالمصير الذي آلت اليه بيت المقدس في مسجد دمشق (٣٨). ويقول المقرئ في ضياع القدس:



«فعظم على أهل الاسلام هذا البلاء واشتد الانكار على الملك الكامل ، وكثرت الشناعات عليه في جميع الأقطار» (٢١) ومن الواضح أن فردريك قد تصرف بحساسة فائقة تجاه الأماكن الاسلامية المقدسة عندما زار الحرم بمناسبة تتويجه في كنيسة القبر المقدس . وهناك أقوال بأنه طرح أرضاً قسيساً مسيحياً كان يحمل الكتاب المقدس الى داخل المسجد الأقصى دون تفويض . كما طلب اعادة رفع الآذان في الحرم عندما علم بأنه أوقف خلال فترة اقامته (٢٠) .

وصمدت هدنة العشر السنوات ونصف السنة خلال حياة الكامل (توفي في آذار/ مارس سنة ١٢٣٨) . ومع أن المسلمين أغاروا على المدينة من الخليل ونابلس بعد سفر فريدريك بوقت قصير في سنة ١٢٢٩ ، وضويق الحجاج النصارى على الطريق المؤدي الى القدس من الساحل فان الأيوبيين لم يقوموا بجهد لاستعادة المدينة . وحافظ الفرنج من جانبهم على كلمتهم بعدم اعادة تحصين المدينة حتى انتهاء مدة الهدنة في سنة ١٢٣٩ . ومع ذلك فان جهودهم لم تكن كافية بحيث أن الناصر داود الذي كان حاكماً على الكرك في ذلك الوقت ، استطاع أن يرغم الفرنج على التخلي عن المدينة بعد حصار قصير في أواخر السنة . بيد أن النزاع الداخلي بين الأيوبيين دعا الناصر داود وحلفاءه الى اعادة المدينة الى الفرنجة مقابل تعهد بالمساعدة ضد الملك الصالح أيوب سلطان مصر (٢١) . وفي هذا الوقت بالذات وصل مركز القدس الى الحضيض زمن الأيوبيين . ومكّن النصارى من الاستحواذ على قبة الصخرة . ويقول المقرئزي : ومكّن الفرنج من الصخرة بالقدس وجلسوا فوقها بالخمر وعلقوا الجرس على المسجد الأقصى (٢٢) . لكن هذا الانتهاك الفظ سرعان ما عولج معالجة قوية بغزو القوات الخوارزمية التي استدعاها الصالح أيوب لتصفية أعدائه في سوريا . وفي أثناء تقدم الخوارزمية عبر فلسطين زحفوا الى داخل القدس في صيف سنة ١٢٤٤ وذبحوا السكان النصارى وخرّبوا كنائسهم ، بما فيها كنيسة القيامة (٢٣) . وهكذا أعيدت القدس الى الأيوبيين وبقيت كذلك حتى مات غيلةً آخر سلطان أيوبي في مصر ، توران شاه . ومن الممتع أن نلاحظ أن والد توران شاه ، الصالح أيوب ، شاطر أسلافه مشاعرهم المختلطة تجاه القدس . فعلى الرغم من أن الصالح أيوب أعرب عن إجلاله لقداسة القدس بانشاء قبة موسى في الحرم (٢٤) ، فإنه كان على استعداد للتضحية بالمدينة لأسباب استراتيجية اذا كانت سلامة مصر عرضة للخطر . ويتجلى هذا من الوصية التي تركها لارشاد ابنه وخليفته في حكم مصر ، توران شاه . وأدرك الصالح أيوب أن القضية المباشرة التي تواجه توران شاه

هي وجود الجيش الصليبي السابع في دمياط فقد قدم لابنه النصيحة التالية :

وهذا العدو المخذول ان عجزت عنه وخرجوا من دمياط وقصدوك ولم يكن لك بهم طاقة وتأخرت عنك النجدة وطلبوا منك الساحل وبيت المقدس وغيرها من الساحل أعطهم ولا تتوقف على أن لا يكون لهم في الديار المصرية قعر قصبه (١٥) .

ولم يكن على توران شاه أن يعمل بنصيحته فقد قتله المماليك الساخطون سنة ١٢٤٨/١٢٥٠ . وبذلك تأسست دولة جديدة في مصر عاشت أكثر من ٢٥٠ سنة حتى سنة ١٥١٧ . واقتضى الأمر حوالي ثلاث عشرة سنة لادخال الممتلكات السورية الأيوبية في فلك المماليك ؛ إذ ان الفئات الأيوبية والملوكية المختلفة طعنت في سلطة النظام القائم في القاهرة . وفي هذه الفترة كان وضع القدس غير مستقر . وفي سنة ١٢٥١ عرض الناصر يوسف سلطان حلب أن يتخلى عن القدس للصليبيين بقيادة لويس التاسع مقابل حلف يعقده معهم ضد المماليك ولكن لويس رفض العرض . وبعد ذلك بستين ، أي في سنة ١٢٥٣/٦٥١ ، منح الناصر يوسف فلسطين غربي نهر الأردن ، بما فيها القدس ، الى السلطان المملوكي أيبك مقابل السلام . ولكن فلسطين والقدس اعيدتا إلى الأيوبيين سنة ١٢٥٦ ، نتيجة ارتداد ممالك منشقين والتحاقهم ببلاطات أيوبية مختلفة في بلاد الشام (١٦) . والحدث الحاسم في تاريخ القدس خلال هذه الفترة كان هزيمة المماليك للجيش المغولي سنة ١٢٦٠ في عين جالوت ، قرب الناصرة ؛ إذ ان هذه المعركة وطرد المغول إلى ما وراء الفرات هي التي مكنت المماليك من بسط سيادتهم على فلسطين . وابتداء من العام التالي عمل في المدينة سيئل مطرد من الحكام الذين عينهم المماليك حتى انتهاء أسرتهم . وقد احتفظت المدينة في عهد المماليك كما سنرى بأهميتها كمكان اسلامي مقدس . والتغيير المهم في مصائرهما كان سياسياً . ومن الآن فصاعداً ، وللمرة الأولى منذ عهد صلاح الدين ، كان من شأنها أن تبقى بصورة راسخة في أيدي المسلمين ، وبحيث لا تقدم بعد الآن غنيمة في النزاعات السياسية والعسكرية والدبلوماسية . أما السبب في هذا التغيير فيمكن في نجاح المماليك بطرد الصليبيين من الأرض المقدسة . ومع أن هذا لم يتحقق حتى سنة ١٢٩١/٦٩٠ بسقوط عكا بيد الملك الأشرف خليل ، ومع أنه استلزم عقد اتفاقات هدنة سابقة مع مختلف الامارات الفرنجية فان وضع القدس لم يرد له ذكر مطلقاً في المفاوضات ، ربما لأن الصليبيين لم يكونوا على درجة من القوة بحيث يشكلون تهديداً كبيراً للمصالح المملوكية في فلسطين .

إن مجرد الحقيقة التي مؤداها أن القدس لم تعد هدفاً للعدوان الأوروبي، أو أي عدوان آخر بهذا الشأن، قد جلبت عنصراً من الاستقرار. وبما له مغزى في هذا الصدد أن الممالك لم يروا سبباً لاعادة بناء أسوار المدينة طوال القرنين ونصف القرن التي حكموا بها المدينة. ولم تتعرض القدس للتهديد مطلقاً من أي حملة من الحملات العسكرية ضد الصليبيين والمغول، مع أن المعارك ضد كلا العدوين قد نشبت في فلسطين. وفضلاً عن ذلك فإن دولة الممالك، بالمقارنة مع الأيوبيين، كانت أقوى وأفضل حكماً وأكثر مركزية، رغم المنافسات والنزاعات الداخلية التي ظهرت في المحاولات المتكررة التي قام بها الأمراء المقيمون في مدن سوريا الكبرى لتأكيد استقلالهم.

ويمكننا أيضاً أن نتبين انخفاض الأهمية السياسية للقدس من وضعها الإداري ضمن الامبراطورية المملوكية. إن خليل بن شاهين الظاهري (ت ١٤٦٨/٨٧٣) لم يأت، في دليله عن الدواوين المعنون «زبدة كشف الممالك»، على مجرد ذكر المدينة بين الممالك الشمانية التي كانت تنقسم إليها بلاد الشام. وبدلاً من ذلك كانت هذه الممالك تتخذ قواعدها في المدن الكبرى مثل دمشق وحلب وطرابلس وحماة، ومدن أصغر بكثير ولكنها ذات أهمية استراتيجية مثل الاسكندرونة والكرك وصفد وغزة (١٧). ويقول القلقشندي (ت ١٤١٨/٨٢١) إن القدس كانت أولاً ولاية (محافظة) ثم أصبحت نيابة تابعة لنائب السلطنة في دمشق. وكان نواب السلاطين في القدس يُختارون من الأمراء المتوسطي الرتبة (أمراء الأربعين). أما ولاية المدينة فكانوا جنوداً؛ أي أنهم لم يكونوا ضباطاً (١٨). وكان هؤلاء الموظفون (النواب) يعينون من والي دمشق حتى حوالي سنة ١٣٩٨/٨٠٠، وبعدئذ صاروا يعينون من السلطان في القاهرة إلا في أوقات النزاع بين مصر والشام (١٩)، وقد دون لنا أسماء العديد من هؤلاء الموظفين وتواريخهم مؤرخ القدس العظيم بجز الدين الحنبلي الذي عاش في السنوات الأخيرة من العصر المملوكي. ونحن لا نعرف سوى أقل القليل عن هؤلاء كأفراد. وكانوا باستثناء القليل منهم، من الأمراء: تسعة وأربعون من بين الستة والخمسين المدونة اسمائهم. أما معظم الآخرين فكانوا من القضاة (٢٠). ويشير وجود عدد قليل من القضاة ضمن جماعة حكام الممالك إلى البعد الديني لأكثر مناصب إداري في القدس. ويؤكد هذه الناحية الألقاب المختلفة التي كان يحملها من يتولى هذا المنصب. كان بعض حكام القدس يعرفون باسم نائب السلطنة لا غير، وكان آخرون منهم يحملون لقب ناظر الحرمين الشريفين (القدس والخليل). وفي عهد السلطان الناصر محمد جُمع اللقبان في

شخص واحد. واتبعت هذه العادة في كثير من الأحيان فيما بعد، ولكن ليس بصورة ثابتة بحال من الأحوال، لأنه كان يعهد أحياناً الى أحد علماء الدين بمنصب ناظر الحرمين، بينما تترك الشؤون «المدنية» الى نائب السلطنة (٥١). وما هو جدير بالملاحظة هنا أن مقامات ابراهيم وأسرته في الخليل كانت مرتبطة بالأماكن الدينية في القدس. إن قداسة الخليل في وعي المسلمين وارتباطها بقداسة القدس لم تلق حتى الآن الاهتمام الذي تستحقه. ويشير البحث في وثائق الحرم التي اكتشفت مؤخراً في المتحف الاسلامي في القدس الى أن قاضي القضاة الشافعي كان موظفاً مهماً للغاية أيضاً ويعمل بصورة مستقلة عن النائب والناظر وبالتفاه معهما.

وفيما يتعلق بالقاضي شرف الدين عيسى بن غانم الأنصاري الخرجي (ت ٧٩٧/١٣٩٥) فانه يتضح من لقبه الاضافي، ناظر الأوقاف المبرورة في القدس الشرف، أن المسؤولية عن أوقاف القدس وأماكن العبادة فيها كانت مقسمة من حيث إن موظفين آخرين، وبصفة رئيسية من أمراء المماليك، كان يعهد اليهم، كما رأينا، بنظارة الحرم (٥٢). وربما كان تقسيم المسؤولية هذا يرجع جزئياً إلى النموائل في انشاء المباني التذكارية الدينية وترميمها وصيانتها في القدس برعاية المماليك. وفي هذه الفترة أعقد السلاطين والأمراء والعلماء والتجار والأتقياء والنساء القواعد ثروتهم على تزيين المدينة ضماناً لتخليد أسمائهم في هالة قداستها. وقد اشتهر السلاطين بمجزاتهم المعمارية في القاهرة ودمشق وطرابلس وغيرها من المدن الكبيرة في امبراطوريتهم. ومع أن القدس لم تلعب دوراً كبيراً في اعتباراتهم السياسية والعسكرية فان أهميتها بالنسبة لهم كمكان اسلامي مقدس موثقة توثيقاً جيداً. ومن المعروف أن أبرز السلاطين في فترة المماليك البحرية (١٢٦٠ - ١٣٨٩) بيبرس وقلاون والناصر محمد قد زاروا القدس. وشارك هؤلاء السلاطين أنفسهم ثلاثة آخرون. هم كتبغا ولاجين وشعبان. في اجراء ترميمات وتعميرات في الأماكن المقدسة في القدس والخليل وكذلك في انشاء عمائر جديدة (٥٣). وقام السلطان الناصر محمد طبقاً لما تميز به، وهو السلطان الذي اشتهر بأعماله العمرانية بالقاهرة، بشمول القدس أيضاً برعايته. وقد خص الحرم بعنايته، فأعاد ترميم قبة الصخرة وقبة المسجد الأقصى وأتم الأروقة الغربية والمصاطب المحيطة بالصخرة (٥٤). وزار السلاطين البرجيون المدينة أيضاً: برقوق وفرج وقايتباي (٥٥). وفي هذه الفترة من سنة ١٣٨٢ الى ١٥١٧ يبرز السلطان قايتباي بأعمال التعمير التي قام بها في المسجد الأقصى وبانشاء مدرسته العظيمة،

الأشرفية، وكذلك السبيل الذي يحمل اسمه، في الحرم أيضاً (٥٦). وشاطر أمراء المماليك السلاطين حماستهم لتشييد مبانٍ دينية في الحرم. فالأمير تنكز الذي تولى نيابة السلطنة في دمشق مدة طويلة (١٢ - ٧٤٠/١٣١٢ - ١٣٤٠) كان مسؤولاً عن إقامة مجمع فخم غربي ساحة الحرم، وبنى أمراء آخرون مدارس شمالي الساحة (٥٧). إن مشروعات كهذه غيّرت طابع الحرم المقدس ومظهره خلال هذه الفترة:

«فبدلاً من أن يكون الحرم مجرد منطقة يحيط بها رواق ويتوصل إليها من عدد من الأبواب التذكارية بدرجةٍ تقل أو تزيد، أصبح الجانبان الشمالي والغربي للحرم معرضاً لواجهات مبانٍ لم تعد وظيفتها مرتبطة بالحرم؛ بل اكتسبت منه نصيباً من القدر والجمال (٥٨)....».

وإضافة إلى النصب الأثرية القائمة في الحرم هناك بينات وثائقية متزايدة حول اهتمام سلاطين المماليك بالحرم. وقد قام الدكتور كامل جميل العسلي مؤخراً بنشر وقفيات لبعض هذه المنشآت أو بتلخيصها (٥٩). ونحن نجد في وثائق الحرم سبعة مراسيم أصدرها السلاطين بيبرس والناصر محمد، وشعبان وجقشق واينال وخشقدم وجميعها تتعلق بتأمين موارد كافية لصيانة مبانٍ في الحرم والانفاق على موظفيها (٦٠).

وفي خارج الحرم استفادت القدس أيضاً من الرعاية المعمارية للمماليك، وخصوصاً من أمرائهم. ونحن نعرف أنه كان هناك، إلى جانب أولئك الذين كانوا يقومون بأعمال إدارية، كثيرون من الذين اختاروا أن يتقاعدوا في المدينة نظراً لجوها الهادئ ومناخها اللطيف. لقد أصبحت القدس «منفى» حقيقياً خلال الفترة المملوكية: «أهم مكان كان يُنفي إليه الناس في المنطقة، بل في السلطنة المملوكية بأسرها كان بلا ريب القدس» (٦١). إن قربها من مصر وخلوها من التحصينات القوية ومن عدد كبير من الجنود الذين يمكن أن يخدموا مصالح الأمراء الساخطين قد زكّأها كمنفى لدى السلاطين. وعلى أية حال فإن كثيراً من الأمراء تولوا بناء عمائر دينية بجوار الحرم، في تجمعات كانت تقوم بصفة رئيسية على امتداد الطرق المؤدية إلى أبوابه. وهكذا - ولنذكر باباً واحداً فقط - نجد خارج باب الحديد رباطاً اسمه رباط كُرْد بناه سنة ٦٩٥/١٢٩٦ أحد مماليك السلطان قلاوون وهو سيف الدين كرد؛ وعبر الطريق من الجهة الأخرى المدرسة الأرغونية التي وقفها وبنها الأمير أرغون الكاملي سنة ٧٨٥/١٣٨٥، وبعد ذلك بمسافة قصيرة على امتداد

طريق باب الحديد المدرسة الحنبلية التي أنشأها للفقهاء الحنابلة الأمير يدمر الخوارزمي،
نائب دمشق سنة ١٣٧٩/٧٨١ (١١٢) .

ولكن لم يكن السلاطين والأمراء وحدهم هم الذين شادوا عمائر دينية للقدس في
فترة المماليك. فعلى الطريق نفسها، وفي البيت الملاصق، وفوق رباط كرد قام خصي^٥ كان
مسؤولاً عن حريم السلطان خشقدم، وهو جوهر القنقباي* ببناء مدرسة دعيت المدرسة
الجوهريّة سنة ٨٤٤/١٤٤٠ (١١٣). وفي الجهة الأخرى من الطريق (أي الجهة الجنوبية/
المترجم) أشار صاحب ديوان الانشاء** في عهد قايتباي ببناء المدرسة المزهرية (١١٤). وفي
أماكن أخرى في المدينة قام مواطنون عاديون بتمويل إنشاء مباني لأغراض دينية. فالمدرسة
السلامية مثلاً التي بنيت خارج باب العتم بعد سنة ٧٠٠/١٣٠٠ أنشأها التاجر الشهير
والوكيل الدبلوماسي لدى المماليك، الخوجا مجد الدين أبو الفدا اسماعيل السلامي (١١٥).
كما قامت نساء ثريات ذوات أصل أجنبي اخترن القدس مكاناً للإقامة برعاية المعاهد.
وعلى سبيل المثال وقفت الست الحاجة سُفرة خاتون، ويفترض أنها من زوجات وبنات
التجار، المدرسة البارودية سنة ٧٦٨/١٣٦٧؛ وتولت سيدة من بلاد الشرق، هي أغل
خاتون القازانية البغدادية، بناء المدرسة الخاتونية سنة ٧٨٢/١٣٨٠؛ و بنت امرأة من أكابر
الروم اسمها اصفهان شاه خاتون المدرسة العثمانية سنة ٨٤٠/١٤٣٧ (في فترة المماليك
البرجية)، وهي ملاصقة للحرم، وتقع جنوب الخاتونية خارج باب المظهرة (١١٦).

وهذه الأمثلة القليلة تكفي لإثبات أن القدس الإسلامية تمتعت بفترة من النمو
الكبير والثابت في العهد المملوكي، مقابل التقدم المتقطع في عهد الأيوبيين. ولكن بغض
النظر عن التحول في مظهر المدينة، ما هو الأثر الذي تركه كل هذا الانشاء في حياتها؟ من
الواضح أن الأبنية عكست إعادة الطابع الإسلامي إلى المدينة وأسهمت فيه بعد أن قضى
المماليك على المسيحيين كمنافسين في السيطرة عليها. ومع أنه ليست هناك دراسات
ديموغرافية يركن إليها لهذه الفترة فلا بد أن عدد السكان المسلمين قد ازداد ولا بد أن
البنائات الجديدة قد أقيمت لاستيعاب الحضور الإسلامي المتزايد. وفي الاتجاه ذاته فإن

* كان مما تولاه جوهر منصب يدعى «زمام الأدر الشريفة» والمقصود المسؤول عن الحريم. ولكن اعتقد أنه تولى هذا المنصب
زمن السلطان الظاهر جقمق وليس زمن خشقدم لأن جوهر توفي سنة ٨٤٤ بينما تولى خشقدم الحكم سنة ٨٦٥ - ملاحظة
للمترجم.

** زين الدين أبو بكر بن مظهر (المترجم).

تعمير مكاني العبادة الكبيرين في الحرم وتزيينهما، وكذلك اضافة مبانٍ فرعية قد ساعد بلا شك على استعادة المدينة لمكانتها كمركز للحج بالنسبة للمسلمين. وخدمت الفورة التي شهدتها المدينة في بناء الأربطة لاسكان الزوار الهدف ذاته. ومن بين الأربطة السبعة التي نعرف عن وجودها في القدس يمكن تحديد هوية خمسة منها بأنها مبانٍ مملوكية، ومن ضمنها الرباط المنصوري الذي وقفه السلطان قلاوون في سنة ١٢٨٢/٦٨١ (١٧). أما المباني المملوكية الأخرى التي عكست حاجات العدد المتزايد من السكان، سواء أكانت دائمة أم عابرة، فقد شملت عدة أسواق وحمامات وسبل وقنوات انشئت خلال هذه الفترة (١٨).

واضافةً الى الانشاءات التي تركزت في الحرم كانت هناك مبانٍ كثيرة خدمت أهدافاً دينية أخرى، وبشكل رئيسي الهدفين التاليين وهما (١) تدريس الفقه وموضوعات الدراسة الاسلامية المتصلة به و(٢) رعاية الحياة الصوفية. ومع أن هذين الهدفين كثيراً ما تحققا في بنائية واحدة فإن المدارس كان يقصد منها في الدرجة الأولى تحقيق الهدف الأول. أما الخوانق والزوايا فكانت لتحقيق الهدف الثاني. وقد رأينا من قبل أن أحد الأعمال الأولى التي قام بها صلاح الدين بعد فتح القدس كان تأسيس مدرسة للفقه وخانقاه للصوفية. وازدهر هذان النوعان من المؤسسات في عصر المماليك. ونعرف ما لا يقل عن سبع وعشرين مدرسة جرى تأسيسها في عصر المماليك: ثماني عشرة منها خلال فترة المماليك البحرية، وتسع في فترة المماليك البرجية (١٩).

ولا ندهش إذاً أن أصبحت القدس مع وجود هذه المرافق مركزاً لدراسة الفقه والحديث. وتحت صفحات تاريخ مجير الدين الحنبلي بتراجم العلماء الذين درسوا وعلموا في المدينة. ومع أن الشافعية حافظوا على مركز الصدارة الذي أعطاهم صلاح الدين إياه فإن المذاهب الفقهية الأخرى لم تهمل. وقد ذكرنا من قبل مدرسة تخصصت في الفقه الحنبلي. وكان للأحناف والمالكية أيضاً مؤسساتهم الخاصة بهم (٢٠). إن هذا التنوع في الدراسات الفقهية يعكس الطابع المتنوع للسكان؛ كما يعكس سياسة المماليك التي بدأها السلطان بيبرس لاضفاء شكل مؤسسي على مذاهب الفقه الأربعة في النظام القضائي. وهكذا، ففي سنة ١٣٨٢/٧٨٤ نصّب السلطان برقوق قاضياً حنفياً في القدس لينضم الى القاضي الشافعي، وفي سنة ١٣٩٩/٨٠٢ - ١٤٠٠ سنة ١٤٠١/٨٠٤ - ١٤٠٢ انضم اليهما قاض مالكي وقاض حنبلي على التوالي (٢١).

إن التشويش في استخدام مصطلحات مثل خانقاه ورياط وزاوية يجعل من الصعب علينا أن نقدر بدقة عدد المؤسسات الصوفية التي أسست في هذا الوقت. فضلاً عن ذلك فإننا نعرف أن كثيراً من المدارس التي توصف بأنها مدارس فقه كانت تضم مرافق لاقامة الصوفية. فالمدرسة التنكزية مثلاً ضُمَّت خانقاه خصصت لخمس عشرة صوفياً. وتذكر وقفيتا المدرسة الاشرفية المؤرختان في ١٤٧٦/٨٨١ و ١٤٩٠/٨٩٥ أن ستين صوفياً كانوا يتقاضون مخصصات من ريع أوقافها. أما المدرسة / الخانقاه الدوادارية التي وقفها سنة ١٢٩٦/٦٩٥ أحد أمراء المماليك، فكان يسكن فيها ثلاثون صوفياً: عشرون من العزاب وعشرة من المتزوجين (٧٢). وإضافة الى المدارس / الخوانق فان كثيراً من الزوايا التي أسست في فترة المماليك كانت تقدم أيضاً تسهيلات للصوفية ولوعلى نطاق أصغر عادة. وتشمل الزوايا المرتبطة بطرق صوفية معينة والتي يعرف بأنها ازدهرت في هذه الفترة الزاوية البسطامية (حوالي ١٣٦٩/٧٧٠)، والوفائية (١٣٨٠/٧٨٢)، والنقشبندية (القرن الثامن/ القرن الخامس عشر) (٧٣). ويتضح من مباني الصوفية وكذلك من معطيات التراجع في المصادر الأدبية والوثائقية أن الصوفية انتعشت في القدس في هذه الحقبة. وكما كانت الحال في أماكن أخرى في العالم الاسلامي، فان الصوفية كانوا قد اندمجوا اندماجاً جيداً في طبقة العلماء حتى إن الفقهاء الذين احتلوا مناصب مهمة في جهاز القضاء كانوا في كثير من الأحيان من الصوفية البارزين. والقاضي شرف الدين عيسى بن غانم الأنصاري الشافعي هو مثال على ذلك. فإضافة الى وظيفته كقاضي القدس الشافعي وناظر الأوقاف المبرورة كان أيضاً شيخ الخانقاه الصلاحية التي ربما كانت أعلى المؤسسات الصوفية مقاماً في القدس المملوكية (٧٤). وقد أصبحت لدينا الآن بفضل وثائق الحرم معلومات كثيرة عن عالم صوفي مقدسي هو برهان الدين ابراهيم الناصري (ت ١٣٨٧/٧٨٩) الذي لا يبدو انه كان بارزاً بما فيه الكفاية ليذكر في قائمة تراجم مجير الدين. وأدّ تحدّد عدة وثائق هوية برهان الدين بأنه «صوفي في الخانقاه الصلاحية» فهو يوصف في وثائق أخرى بأنه قارئ قرآن، وحديث وفقه وتفسير في الأقصى وقبة الصخرة والتربة الطازية والتربة الأوحدية وأماكن أخرى في القدس (٧٥). ونحن نعرف من مجير الدين وغيره من المصادر بأن الصوفية الفقهاء في القدس المملوكية - كمجموعة - كانوا يميلون للتنقل بحيث لم يكونوا يدرسون ويعملون في القدس وحدها، بل في القاهرة ودمشق أيضاً. وكان في استطاعتهم، على هذا الوجه، أن يُسبغوا عنصراً من العالمية على الحياة الثقافية في المدينة (٧٦). وفي هذا الشأن يشير

نعى لشمس الدين الديري قاضي القدس (ت ١٤٢٤) الى ارتباطه بكثير من علماء مصر والشام «لأن بيت المقدس محط رحالهم وغاية مقاصدهم وآمالهم» (٧٧).

وفي الوقت نفسه الذي كانت تتحول فيه القدس الى مركز ديني مزدهر في حماية الممالك ورعايتهم، تكاثرت بغزارة المؤلفات التي تمتدح فضائلها. ويمكن أن ينسب الى هذه الفترة ما لا يقل عن ثلاثين كتاباً من كتب الفضائل (٧٨). بيد أنه ساد بعض الأوساط شعور بأن الحماسة للمدينة تجاوزت الحد. فان المصلح الحنبلي الشهير من رجال القرن الرابع عشر، ابن تيمية، مع اعترافه بالطابع المقدس الذي أضفاه اسراء النبي محمد على المدينة، هاجم الاجلال الشعبي للمدينة الذي تضمنته، مثلاً، أدلة الحج المعاصرة مثل كتاب «باعث النفوس الى زيارة القدس المحروس». وقد رفض ابن تيمية الأحاديث والمعتقدات الشعبية التي تمجد الصخرة وغيرها من المواقع باعتبارها منحولة، ورفض كذلك رفع الزيارات الى المدينة الى مصاف الحج الى مكة والمدينة (٧٩). ومع هذا فعلى الرغم من تأثير ابن تيمية الكبير والشهرة الفائقة التي اكتسبها بين معاصريه لتنديده بالاساءة الى الاسلام التقليدي وتشويهه، فان آراءه كانت أكثر تطرفاً مما كان يمكن احتماله في المؤسسة المملوكية. ومات في السجن بسبب الدعوة اليها. وليس هنالك من دليل على أن محاولته لكبح جراح حماسه المسلمين لزيارة القدس كان لها أي تأثير عملي.

كما أن امتلاك المسلمين للمدينة لم يكبح حماسة المسيحيين لزيارة مدينتهم المقدسة. وهناك أدلة وافرة على الوجود المسيحي طوال الفترة المملوكية سواء في شكل حجاج أوروبيين أو مقيمين محليين. والقيود الخاصة برحلات الحج المسيحية قيود غنية بشكل خاص بالنسبة للقرن الخامس عشر، أي قبل أن يؤدي ظهور البروتستانتية في أوروبا الشمالية والاعتبارات الجغرافية السياسية الى تخفيض حركة السفر. ومع أن كتب الرحلات التي كتبها الحجاج تتضمن معلومات مقوَّبة stereotyped في أكثرها فانها تبين لنا أن الحج الى القدس كان خاضعاً لرقابة السلطات المملوكية وجهازها الوظيفي واشرافهما.

وقد زوّد الممالك الحجاج بالتراجم والأدلاء لارشادهم وحمايتهم مقابل رسوم يدفعونها لقاء السفر المأمون وضرائب أخرى. صحيح أنهم كانوا كثيراً ما يتعرضون للمضايقات والابتزاز من جانب مضيفيهم؛ ولكن ذلك لم يكن أسوأ مما كانوا يعانونه من

قباطنة السفن البنادقة الذين كانوا يزودونهم بوسائل النقل الى الأرض المقدسة ومنها . والنقطة المتعلقة بالموضوع التي نود توكيدها هي أن الممالك جعلوا الأماكن المسيحية في متناول الحجاج (٨١) . وفيما يتعلق بالمسيحيين المقيمين في المدينة فنحن نعرف أكثر ما نعرف عن الفرنسيين (الفرانسيكان) ، وذلك بفضل القيود التي تتصل بتعاملهم مع السلطات المملوكية والملاحظات الواردة في قصص الحجاج . إن وجود الرهبان في دير على جبل صهيون ، بني حوالي سنة ١٣٣٠ ، كان مصدراً لاعانة الحجاج خصوصاً حين لم يكن هناك قناصل أجانب في المدينة . ويرجع أول دليل على وجود قنصل أجنبي — من البندقية — الى سنة ١٤١٨ / ١٤١٥ . وفي سنة ١٤٣١ / ٨٣٥ حصلت جنوة أيضاً على اذن بفتح قنصلية لها هناك (٨١) . ولكن ما إن جاءت سنة ١٤٨٠ حتى خلت المدينة من أي تمثيل أوروبي رسمي . وقد عمل الأب رئيس الدير الفرنسي بصفة رسمية كحامٍ للحجاج الأروبيين (٨٢) . وتشهد الوثائق الكثيرة الباقية التي منحهم السلاطين بموجبها الحماية والإذن بعمارة مبانيهم على أن الفرنسيكان كانوا يتمتعون بعطف السلطات المملوكية في أكثر الأحيان (٨٣) . وتعكس هذه القيود أيضاً الصراع الذي ترتب على الرهبان أن يخوضوه ضد محاولات المسلمين لتحويل أملاكهم على جبل صهيون الى مسجد ، وهو صراع كان يقترن بالنجاح في بعض الأحيان (٨٤) .

وتشير البحوث الأخيرة الى أن الطوائف المسيحية الأخرى كانت تخضع لتقلبات مماثلة في علاقاتها مع الممالك وأعيان القدس المسلمين . فالسلطان الناصر محمد أعاد للكرج (أهل جورجيا) مثلاً ديرهم المعروف بدير المصلبة سنة ٧٠٥ / ١٣٠٥ . وتأمر مراسيم تالية أصدرها سلاطين الممالك السلطات في القدس بأن يعامل الكرج معاملة أهل الذمة (٨٥) . ومهما يكن الأمر فإن الممالك لم يترددوا في العمل ضد المسيحيين اذا بررت الظروف ذلك . وهكذا فإن كنيسة القبر المقدس أغلقت سنة ١٣٦٥ انتقاماً لهجمات الفرنجة على الاسكندرية . وفي سنة ١٤٧٦ أرسل الفرنسيون في القدس وبيت لحم إلى القاهرة كرهائن بعد أعمال قرصنة مسيحية في الميناء نفسه (٨٦) .

ويبدو أن الطائفة اليهودية الصغيرة في القدس كانت تتمتع أيضاً بوضع أهل الذمة الذي يمنحها إياه الشرع الاسلامي . واذا كانت هناك في حالة اليهود ، كما في حالة المسيحيين ، بلا شك أمثلة على النزاع مع المسلمين ، حول الأماكن المقدسة بصفة رئيسية ،

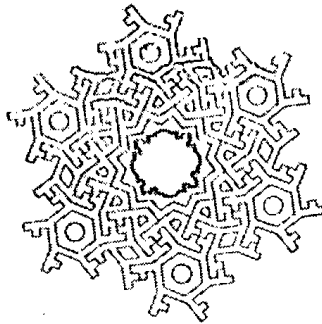
فان اليهود «لم يشكلوا خطراً على الطابع الاسلامي للمدينة، وعاشوا بسلام مع جيرانهم، فيما خلا حوادث قليلة أثير فيها غضب المسلمين المؤمنين ضد اليهود» (٨٧). ونحن نعلم من وثائق الحرم أن اليهود كان بوسعهم التملك في المدينة والقيام بالأعمال التجارية. وإضافة الى ذلك، ففي مناسبة واحدة على الأقل تدخل شيخ المغاربة لمصلحتهم ضد الاساءات الحكومية (٨٨).

واذا كان الممالك، كما بينا، قد نجحوا في اعادة الصبغة الاسلامية الى القدس مع توفير الحقوق والامتيازات للأقليات الأجنبية وترسيخ الاستقرار السياسي فيها، فكيف كانوا يُديرون اقتصادياتها؟ لقد وردت تلميحات الى ذلك من قبل. إن تقديم الخدمات للحجاج من أتباع الأديان جميعاً كان بلا شك عملاً رئيسياً في القدس المملوكية. لقد تحقق الدخل عن طريق تدفق الزوار الذين كانوا يحتاجون الى الطعام والسكن والأدلاء والنقل والهدايا التذكارية والذين كانوا يدفعون رسوماً وضرائب أثناء إقامتهم. وما يتصل أيضاً بوضع المدينة الديني الرعاية التي كانت تقدّم للأماكن المقدسة. وأهم ما في هذا الشأن بالطبع الأوقاف التي وقفها السلاطين والأمراء والمواطنون المسلمون الأغنياء على العمائر الاسلامية التي تراوحت بين قبة الصخرة والمسجد الأقصى الرائعين وبين أكثر الزوايا تواضعاً. هذه المباني وفرت فرص العمل لا للبوابين والقوام فحسب بل للعلماء والخطباء وقراء القرآن والحديث والصفوية أيضاً. ومن أجل تزويد الحرم بالماء رعى مختلف السلاطين والأمراء انشاء قنوات الماء وتعميرها. ولا بد أن أمراء الممالك المنفيين كانوا أيضاً من عوامل تشجيع الحياة الاقتصادية كما نلمس ذلك في المباني التي شادوها (٨٩). إن هذه العوامل جميعاً كانت مهمة بالنسبة لرخاء مدينة لم تكن تقع على طريق تجاري رئيسي ولم تكن تنتج كميات كبيرة من البضائع للتصدير. ومن جهة أخرى تقدم لنا وثائق الحرم أدلة على وجود تجار أجانب من الشرق في القدس، وخصوصاً تجار القماش. وهناك اشارات الى تجار الحرير والقطن (٩٠). ووجود الأخيرين أمر غير مستغرب نظراً لوجود سوق القطنين الكبير الملاصق للحرم. ونحن نعرف أن الصابون كان يصنع في القدس خلال هذه الفترة، وارتبطت هذه الصناعة بالطبع بزراعة الزيتون بجوار المدينة (٩١). وتضمنت المصنوعات الأخرى منتجات القطن والكتان المعروف بـ «القدسي»، مثل بطانات الوسائد، والمناديل والسُتر، وسجاجيد الصلاة والقمصان (٩٢). ويتضح من وصف الأدوات المنزلية والأثاث المخلفة في تركات المقدسيين في أواخر القرن الرابع عشر أنّ المدينة كانت تعتمد على

الواردات التي كانت ترد اليها من أماكن بعيدة كالأناضول (السجاجيد) ونيسابور (القلانس والجلابيب والقمصان) واليمن (البطانيات) والمغرب (الستر والأردية) والبندقية (القمصان) والبرتغال (الجلود) (١٣)، ومهما كانت هذه الاشارات الى اقتصاد القدس مثيرة للاهتمام فاننا لا نعرف شيئاً عن حجم التجارة أو حجم الصناعات المحلية .

وكما أشرنا من قبل فإن إيرادات القدس في عصر الأيوبيين كانت قليلة بالنسبة الى إيرادات غيرها من مدن فلسطين . ويصدق الأمر نفسه على الفترة العثمانية ، عندما كانت ضرائبها تناهز ربع الضرائب التي كانت تدفعها الأقضية الأخرى (١٤) . ورغم عدم توافر أرقام للمقارنة في الفترة الفاصلة بين الفترتين فان وثائق الحرم تثبت المدى الذي كان يذهب اليه ديوان الموارث الحشرية ، هو والمحكمة الشافعية ، لمصادرة بقايا التركات التي كان يعوزها الورثة الممكن الوصول اليهم من أجل زيادة دخل الدولة (١٥) .

وفي أواخر القرن الخامس عشر تدهور الوضع السياسي والاقتصادي والديني في القدس ، شأنها في ذلك شأن المدن الأخرى في الامبراطورية المملوكية . وطيلة عشر سنوات في أوائل القرن السادس عشر لم يتمكن الحجاج المسلمون الى مكة من مصر والمغرب من زيارة القدس بسبب الفوضى التي سببها البدو ، جنوب المدينة (١٦) . ويعكس هذا الصعوبة التي كان يعانيها المماليك في السيطرة على البدو العرب في أفضل الأوقات واستحالتها التامة لدى انهيار الحكومة المركزية نتيجة للمشكلات الاقتصادية التي يتعذر التغلب عليها ، وللطاعون والغارات العثمانية وانحطاط النظام المملوكي نفسه . وخسر المماليك القدس للعثمانيين في وقت ما بين معركة مرج دابق في شمال سوريا سنة ١٥١٦ ، وسقوط القاهرة في السنة التالية .



الحواشي

١. W M de Slane, *Ibn Khallikan's Biographical Dictionary Translated from the Arabic*, Paris, 1843, II, 635.
٢. انظر: E Sivan, 'Le caractère sacré de Jérusalem dans l'Islam aux XII^e-XIII^e siècles', *Studia Islamica*, XVII, 1967, 142-182, وكذلك and 'The Beginnings of the *Faḍā'il al-Quds* Literature', *Israel Oriental Series*, 1971, 263-71; Issac Hasson, 'Muslim Literature in Praise of Jerusalem: *Faḍā'il Bayt al-Maqdis*', *The Jerusalem Cathedre*, Jerusalem, 1981, 168-84; K J Asali, *Makhtūṭāt Faḍā'il Bait al-Maqdis: Dirāsa wa-Bībliyughrāfiyā*, Amman, 1984.
- كامل جميل العسلي، مخطوطات فضائل بيت المقدس، دراسة وبيبلوغرافيا، عمان، ١٩٨١.
٣. De Slane, *Ibn Khallikan*, II, 636-37.
٤. المصدر نفسه، ٦٣٧ - ٦١.
٥. Stanley Lane-Poole, *Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem*, reprint Beirut, 1964, 235.
٦. مجير الدين العليبي، الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل، عمان ١٩٧٣، الجزء الأول ص ٣٣٩.
٧. Steven Runciman, *A History of the Crusades*, London, 1965, I, 467.
٨. عارف العارف، الفصل في تاريخ القدس، القدس، ١٩٦١، ص ١٧٦. ومع الأسف فان العارف لا يذكر مصدراً لهذا الادعاء.
٩. المصدر نفسه، ١٧٧.
١٠. ابن شذاد، التوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، *Ibn Shaddād, Al-Nawādir al-Sultāniyya wa-'l-Mahāsin al-Yūsufiyya, Recueil des historiens des Croisades: Historiens orientaux*, Paris, 1884, III, 265.
١١. مجير الدين، الانس، الجزء الأول، ٣٨٣.
١٢. Sidney Painter, 'The Third Crusade: Richard the Lionhearted and Philip Augustus', *A History of the Crusades*, ed. Kenneth Setton, 2nd ed., Madison, 1969, II, 85.
١٣. كامل جميل العسلي، معاهد العلم في بيت المقدس، عمان، ١٩٨١، ٦١ - ٦٣. وهو يعتقد أن صلاح الدين قرر انشاء المدرسة في سنة ٥٨٣/١١٨٧؛ ولكنها لم تفتح الا في سنة ٥٨٨/١١٩٢.

- ١٤ . الانس ، ٢ ، ١٠١ - ١١٨ .
- ١٥ . كامل جيل العسلي ، وثائق مقدسية تاريخية ، المجلد الأول ، عمان ١٩٨٣ ، ص ٨٣ - ١٠٠ .
- ١٦ . العارف ، المفصل ، ١٧٨ .
- ١٧ . العسلي ، معاهد ، ٢٩٤ - ٩٦ .
- ١٨ . المصدر نفسه ١١٦ - ١٧ .
- ١٩ . R Stephen Humphreys, *From Saladin to the Mongols: The Ayyubids of Damascus, 1193-1260*, Albany, 1977, 150-53.
- ٢٠ . العسلي ، معاهد ١٠٤ - ١٠٦ ، ٢٧٢ - ٢٧٥ .
- ٢١ . من الصمب أن نُثبتت منْ مين الأيوبيين كان يحكم القدس في أي وقت معين بعد وفاة صلاح الدين سنة ١١٩٣/٥٨٩ . أوضح الأقوال بهذا الشأن نجده في :
- Max van Berchem's Salāh al-Dīn's death in 589/1193. The clearest statement is found in *Matériaux pour un corpus inscriptionum arabicarum*, pt. II, vol. I, Jérusalem 'Ville', Cairo, 1922, 98-99.
- Humphreys, *Saladin*, 145.
- ٢٢ .
- ٢٣ . المصدر نفسه ، ٩٣ ، ١٠١ ، ١٠٨ ، ١٤٤ .
- ٢٤ . المصدر نفسه ، ٧٩ ، ٩٤ .
- ٢٥ . Hans L Gottschalk, *Al-Malik al-Kāmil von Ägypten und seine Zeit*, Wiesbaden, 1958, 48-50; H A R Gibb, 'The Aiyūbids', *A History of the Crusades*, ed. Setton, II, 694-97.
- Gottschalk, *Al-Kāmil*, 88.
- ٢٦ .
- ٢٧ . المصدر نفسه ٨٨ .
- انظر : سبط ابن الجوزي ، *مرآة الزمان* ج ٨ ، ص ٦٠١ .
- ٢٨ . المصدر نفسه .
- انظر سبط بن الجوزي ، المصدر نفسه ، ٦٠١ .
- ٢٩ . *A History of the Ayyūbid Sultans of Egypt Translated from the Arabic of al-Maqrīzī*, by R J C Broadhurst, Boston, 1980, 181.
- انظر : المقرئزي ، السلوك ، ج ١ ق ١ ص ٢٠٤ .
- Gottschalk, *Al-Kāmil*, 88.
- ٣٠ . وهو يستند الى سبط ابن الجوزي ، *مرآة الزمان* ، ج ٨ ، ٦٠١ - ٦٠٢ .
- ٣١ . Thomas C van Cleve, 'The Fifth Crusade', *A History of the Crusades*, ed. Setton, II, 409-10.

322. Gottschalk, *Al-Kāmil*, 154. ملاحظة للمترجم:
انظر ابن العماد الحنبلي، *شذرات الذهب*، ج ٥ دار الآفاق الجديدة، بيروت د. ت؛ ص ١١٨. ترجم لثل هذا القول عن كتاب غوتشالك. ولا يشير غوتشالك الى مصدره فيما رأينا. ووجدنا القول المقتبس في *شذرات الذهب*، مع تباين طفيف.
323. المصدر نفسه.
انظر المقرئ، *السلوك*، ج ١ ق ١، ص ٢٣٠.
324. Al-Maqrīzi. *History*, 26. انظر المقرئ، المصدر نفسه.
325. المقرئ، المصدر نفسه، ص ٢٣١.
326. Thomas C van Cleve, 'The Crusade of Frederick II', *A History of the Crusades*, ed. Setton, II, 449.
327. Gottschalk, *Al-Kāmil*, 144. المصدر نفسه، ١٥٨.
328. *History*, 207. انظر المقرئ، *السلوك* ج ١ ق ١ ص ٢٣١.
329. Gottschalk, *Al-Kāmil*, 159; المعارف، المفضل، ١٨٨.
330. Humphreys, *Saladin*, 261; Gibb, 'The Aiyūbids', 703. المعارف، المفضل، ١٨٩ - ١٩٠.
331. *History*, 272. انظر الحنبلي، *الانس الجليل*، ج ٢ ص ٦.
332. Humphreys, *Saladin*, 275. المعارف، المفضل، ١٨٩ - ١٩٠.
333. Van Berchem's *Matériaux* pt. II, II, 'Jérusalem. Haram', 105-107.
334. Claude Cahen and Ibrahim Chabbouh, 'Le testament d'al-Malik aṣ-Ṣāliḥ Ayyūb', *Bulletin d'Etudes Orientales*, XXIX, 1977, 108.
335. Gibb, 'The Aiyūbids', 713; Mustafa M Ziada, 'The Mamluk Sultans to 1293', *A History of the Crusades*, ed. Setton, II, 743.
336. باريس، ص ١٣١ - ٣٥.
337. صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، القاهرة ١٩١٣ - ١٩، المجلد الرابع، ١٩٧، ١٩٩، المجلد الثاني عشر، ١٠٤ - ١٠٥.

Donald P Little, 'Jerusalem and Egypt during the Mamluk Period', *Egypt and Palestine*, ed. . ٤٩
Amnon Cohen and Gabriel Baer, New York, 1984, 75-76; Boaz Shoshan, 'On the Relations
between Egypt and Palestine: 1382-517 AD', *Egypt and Palestine*, 97.

. ٥٠ العارف، المفصل، ٢٢١ - ٢٣٢.

Huda A Lutfi, *A Study of al-Quds during the Late Fourteenth Century Based Primarily on the Haram* . ٥١
Estate Inventories, unpublished McGill University dissertation, 1983, 245-49. (This
dissertation was published in 1985 in Berlin.)

(نشرت هذه الأطروحة سنة ١٩٨٥ في برلين)

. ٥٢ المصدر نفسه، ٢٨٦ - ٣٠٣.

Ibid, 286-303; Donald P Little, *A Catalogue of the Islamic Documents from al-Haram as-Sarif in*
Jerusalem, Wiesbaden, 1984, 9-14.

Little, 'Jerusalem and Egypt', 74. . ٥٣

. ٥٤ رشاد الامام، مدينة القدس في العصر الوسيط (١٢٥٣ - ١٥١٦ م)، تونس ١٩٧٦، ٦٧ - ٧٠.

Little, 'Jerusalem and Egypt', 74. . ٥٥

. ٥٦ العسلي، معاهد، ١٥٨ - ٨١.

Christel M Kessler and Michael H Burgoyne, 'The Fountain of Sultan Qāytbāy in the Sacred
Precinct of Jerusalem', *Archaeology in the Levant, Essays for Kathleen Kenyon*, Warminster, 251-
268.

. ٥٧ العسلي، معاهد، ١١٨ - ٣٣.

Oleg Grabar, 'al-Quds: Monuments', *EF*, V, 343. . ٥٨

. ٥٩ معاهد، ١٥٩ - ١٦٨، ٦٢، ١٦٨، ٦٦، ٣١٩.

Little, *Catalogue*, 24-35. . ٦٠

نقل العسلي بعض هذه الوثائق من خطوطها القديمة ونشرها في وثائق مقدسية تاريخية، المجلد الأول، ١٧٧ -
. ١٨٦، ١٨٩ - ١٩١.

David Ayalon, 'Discharges from Service, Banishments and Imprisonments in Mamluk
Society', *Israel Oriental Studies*, 1972, II, 1972, 34. . ٦١

. ٦٢ العسلي، معاهد، ٣٢٠، ١٨٨، ٢٠٠ - ٢٠١.

. ٦٣ المصدر نفسه، ١٩٦ - ١٩٣؛ ٩٩ - ١٩٤.

van Berchem, *Matériaux*, II, 222-223. . ٦٤ الانس، مجلد ٢، ٤٢.

- ٦٥ . الأتس ، مجلد ٢ ، ٤٣
- ٦٦ . العسلي ، معاهد ، ١٨٢ — ١٨٦ ، ٨٦ — ١٧٦ — ٨١
- ٦٧ . المصدر نفسه ، ٣١٥ — ٢٠ .
- ٦٨ . الامام ، مدينة القدس ، ١٤٨ — ٥٣
- Lucfi, *A Study*, II, 413;
- الأتس ، مجلد ٢ ، ٣٥ ، ٩٠ ، ٩٤ ، ٩٩ ، ٢٨٤ ، ٣٠٤ . العسلي ، معاهد ، ١٢٦ .
- ٦٩ . الأتس ، مجلد ٢ ، ٣٤ — ٤٨ ، قارن العسلي ، معاهد .
- ٧٠ . العسلي ، معاهد ، ١١٦ ، ١٢٧ ، ١٧٩ .
- ٧١ .
- Little, 'Jerusalem and Egypt', 76.
- العسلي ، معاهد ، ١٢٨ ، ١٦٢ ، ١٦٨ ، ٣٣٨ .
- ٧٢ .
- المصدر نفسه ، ٣٤٥ — ٤٦ ، ٣٥١ ، ٣٥٥ ، ٣٥٨ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ .
- ٧٣ .
- Little, *Catalogue*, 9-10.
- ٧٤ .
- لكن هناك أيضاً أدلة على علاقات متناقضة بين الصوفية والفقهاء في القدس الملوكية .
- انظر :
- S D Goitein, 'al-Ḳuds', *EF*, V, 333.
- Little, *Catalogue*, 26, 27, 28, 218, 220, 232, 247.
- ٧٥ .
- نشرت بعض الوثائق المتعلقة بتعيين برهان الدين في كتاب العسلي ، ووثائق مقدسية ، المجلد الأول ، ١١٧ — ٢١٤ .
- Goitein, 'al-Ḳuds', 332. Little, 'Jerusalem and Egypt', 76.
- ٧٦ .
- Shosan, 'Egypt and Palestine', 100.
- ٧٧ .
- والجوهري ، علي بن داود الخطيب ، ت ٢٨٥٠ ، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان ، القاهرة ، ١٩٧٠ — ١٩٧٣ ، مجلد ٣ ، ص ٦١ .
- Goitein, 'al-Ḳuds', 332; Sivan, 'Le caractère sacré', 181.
- ٧٨ .
- ٧٩ .
- Muhammad Umar-Memon, *Ibn Taimiya's Struggle against Popular Religion*, The Hague, 1976, 72-78; Charles D Matthews, 'A Muslim Iconoclast (Ibn Taimiya and the "Merits" of Jerusalem and Palestine)', *Journal of the American Oriental Society*, LVIC, 1936, 1-21.
- ٨٠ . بشأن الحجاج المسيحيين الى القدس انظر :
- H F M Prescott, *Jerusalem Journey: Pilgrimage to the Holy Land in the Fifteenth Century*, London, 1954, and
- وأيضاً :
- R J Mitchell, *The Spring Voyage: The Jerusalem Pilgrimage in 1458*, London, 1964.

- الامام، مدينة القدس، ٢٨٢. .٨١
- Prescott, *Jerusalem Journey*, 102. .٨٢
- انظر أحمد دراج، وثائق دير صهيون بالقدس الشريف، القاهرة، ١٩٦٨ وكذلك: .٨٣
- Ahmad Darrāj, *Wathā'iq Dayr Saylūn bi'l-Quds al-Sharīf*, Cairo, 1968, and Noderto *Documenti e Firmani*, Jerusalem, 1931. .٨٤
- Joseph Drory, 'Jerusalem during the Mamluk Period (1250-1517)', *The Jerusalem Cathedral*, Jerusalem, 1981, 212. .٨٤
- Butrus Abu-Manneh, 'The Georgians in Jerusalem in the Mamluk Period', *Egypt and Palestine*, ed. Cohen and Baer, 102-112. .٨٥
- Drory, 'Jerusalem', 210. .٨٦
- المصدر نفسه، ٢١٣. .٨٧
- انظر: .٨٨
- Little, 'Haram Documents Related to the Jews of Late Fourteenth Century Jerusalem', in *Journal of Semitic Studies* vol. 30, no. 2, 1985, 227-264.
- Drory, 'Jerusalem', 196-97. .٨٩
- Lutfi, *A Study*, 423-24. .٩٠
- Goitein, 'al-Quds', 333. .٩١
- Lutfi, *A Study*, 441. .٩٢
- المصدر نفسه، ٤٣٣ - ٤٣٧. .٩٣
- Drory, 'Jerusalem', 197. .٩٤
- انظر .٩٥
- Lutfi, *A Study*, 21-54.
- Goitein, 'al-Quds', 333. .٩٦



الفصل السابع

القدس تحت حكم العثمانيين

١٥١٦ - ١٨٣١ م

كامل جميل العسلي

القدس تحت حكم العثمانيين ١٥١٦ - ١٨٣١

كامل جميل العسلي

عهدا سليم وسليمان :

إن سنة ١٥١٦ سنة جديرة بالتذكّر في تاريخ القدس . فبعد أربعة أشهر من انتصار السلطان سليم الأول الحاسم في مرج دابق (شمال سوريا) في ٢٣ آب (أغسطس) سنة ١٥١٦ دخل العثمانيون القدس . وقد حُدد يوم دخولهم بأنه اليوم الثامن والعشرون من كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٥١٦ (الرابع من ذي الحجة سنة ٩٢٢هـ) (١) . وبعد هذا التاريخ بيومين قام السلطان بزيارة خاصة للمدينة المقدسة . ويبدو أنه عرّج عليها خصيصاً وهو في طريقه الى مصر (٢) .

«وخرج العلماء والأتقياء عن بكرة أبيهم لملاقاة سليم شاه، وسلموه مفاتيح المسجد الأقصى وقبة الصخرة. ثم قدم السلطان الهدايا لأعيان البلد جميعاً وأعفاهم من الضرائب الباهظة وثبتهم في وظائفهم» (٣) .

ودامت زيارة سليم يومين . وفي اليوم الأول من كانون الثاني (يناير) سنة ١٥١٧ (٨ ذي الحجة سنة ٩٢٢) استأنف رحلته الى مصر (٤) .

كان سلاطين بني عثمان يكتون احتراماً خاصاً للقدس بوصفها ثلثة المدن المقدسة في الاسلام . ونخصّ بالذكر منهم ابن السلطان سليم وخليفته الذي فاقه في الشهرة، سليمان المعروف بالقانوني .

ففي فترة حكم سليمان الطويل (١٥٢٠ - ١٥٦٦) نعمت القدس بأزهي أيامها في العهد العثماني . وتذكرنا أعمال التعمير الكبيرة التي جرت في المدينة في هذه السنوات بالأيام المجيدة في العصر الأموي وبذروة العصر المملوكي . بدأ التعمير بترميم

شامل لقبة الصخرة بناء على أوامر السلطان سليمان (٥). واستعيض عن الفسيفساء التي كانت تحيط بالأجزاء العلوية من الجدران الخارجية بالحزف المزخرف بينما كسيت الأجزاء السفلى بالرخام الجيد. وجددت نوافذ قبة الصخرة وثلاثة من أبوابها الأربعة (٦). وكسيت قبة السلسلة المجاورة أيضاً بالحزف المزخرف الجميل.

إن المقدسيين يذكرون السلطان سليمان بصفة رئيسية اليوم لأنه أعطى المدينة سورها الفخم الحالي. فقد ظلت القدس عملياً بلا أسوار لمدة تتجاوز الثلاثمائة سنة، منذ أن دمر الملك العظيم عيسى الأيوبي أسوارها سنة ١٢١٩ (٧). وكان لسور سليمان هدف مزدوج يتمثل في حماية المدينة من الغزاة الأجانب وكذلك من غارات العربان. ويبلغ طول السور حوالي ميلين ومعدل ارتفاعه أربعين قدماً. ويبلغ عدد أبراج السور في الوقت الحاضر ٣٤ برجاً وله سبعة أبواب، تحمل ستة منها نقوشاً تسجل تاريخ بنائها (٨). ويعتبر باب العمود (العمود) الذي يفتح الى الشمال، آية من آيات الجمال المعماري. والأبواب القديمة الأخرى هي باب الخليل وباب النبي داود وباب المغاربة وباب ستنا مريم (أبواب الأسباط) وباب الساهرة. وهناك أيضاً عدد من الأبواب المغلقة هي باب الرحمة (المعروف عند الافرنج بالباب الذهبي) والباب المفرد والباب المزدوج والباب الثلاثي.

لقد استمر بناء السور خمس سنوات (١٥٣٦ - ١٥٤٠) واقتضى نفقات طائلة. وتبين سجلات المحكمة الشرعية في القدس أنه كانت تنظم حملات لتمويل المشروع في مختلف أنحاء فلسطين (٩) (لاكمال المخصصات التي كانت ترصدها الحكومة المركزية لهذا الغرض). وهناك نقش قرب المدخل الرئيسي لقلعة القدس يفيد أن القلعة كانت قد رُممت أيضاً قبل بناء السور بأعوام قلائل.

وأولى السلطان مشكلة المياه الزمنة في القدس عناية كذلك. فخصصت مبالغ كبيرة من المال لبناء المنشآت المائية واصلاحها وصيانتها، كالقنوات والبرك والأسبلة والحمامات. وعمرت كذلك القناة المعروفة بقناة السبيل التي كانت تزود القدس بالماء من البرك والينابيع الكائنة بين الخليل وبيت لحم (١٠). كما عمرت هذه البرك نفسها وسميت فيما بعد باسم السلطان (١١). وفي القدس نفسها، خارج باب الخليل، رُممت (١٢) البركة المعروفة باسم بركة السلطان (١٣) وبني بجوارها سبيل. وكان هذا واحداً من ستة أسبلة جميلة بنيت في عهد السلطان سليمان. الأسبلة الخمسة الأخرى تقع في داخل السور، وهي

سبيل السلسلة وسبيل الواد وسبيل باب الناظر وسبيل ستانمريم وسبيل سليمان . وتظهر على هذه الأسيلة نقوش تدل على سنة بنائها، وهي سنة ٩٤٣هـ / ١٥٣٦م .

وفي أواسط القرن السادس عشر أقيمت في القدس مؤسسة مُهمّة هي تكية أو عمارة (رباط ومطبخ) خاصكي سلطان . وقد أنشأتها خاصكي سلطان (أو خرم) أوروكلانه، زوجة سليمان الروسية الأصل، سنة ١٥٥١ . وسرعان ما أصبحت أهم مؤسسة خيرية في فلسطين . كانت التكية مجمعاً بناثياً ضخماً يضم مسجداً وخاناً ورباطاً ومدرسة ومطبخاً . وكان المطبخ (وهو قائم الآن ولكنه بات على شفا الزوال) يقدم يومياً مئآت الوجبات إلى ضيوف الرباط والصوفيّة والطلبة والفقراء بشكل عام^(١١) . وانشأت خاصكي سلطان وفقاً ضخماً للانفاق على تكيتها . وقد ضم الوقف عدة قرى ومزارع في أربعة سناجق (ألوية) في سوريا وفلسطين، ومعظمها بجوار مدينة الرملة^(١٢) . وهكذا ضمنت للمؤسسة حياة طويلة . وقد وقف السلطان سليمان عليها، بعد وفاة زوجته، أربع قرى ومزارع في ناحية صيدا^(١٣) .

وكما هو معروف فإن إيرادات الأوقاف كانت الشكل العادي والرئيسي للانفاق على المؤسسات الاجتماعية والتعليمية والدينية، وكذلك على المرافق العامة بوجب الإجمال؛ إذ إن الوظيفة الرئيسية للحكومة كانت تتمثل في الدفاع عن البلاد وصيانة الأمن العام وجمع الضرائب .

ورثت القدس من زمن الأيوبيين والمماليك عدداً كبيراً من الأوقاف التي وقفت على مصالح المساجد والمدارس والزوايا والمستشفيات وغيرها من المرافق العامة . وقد لقيت هذه الأوقاف الرعاية في الفترة العثمانية وزاد عددها . وتُقدم لنا دفاتر التحرير العثمانية (طابو تحرير دفتر لري)^(١٤) وسجلات المحكمة الشرعية في القدس معلومات غزيرة عن الأوقاف . ونحن نجد في دفتر التحرير العثماني رقم ٥٢٢ وحده، وفي السنوات الثلاثين الأولى من الحكم العثماني، ثلاثة عشر ادخالاً لأوقاف مختلفة، عامة وخاصة، وقفت على مؤسسات (مكاتب «كتاتيب»، وأربطة، ومساجد وترب الخ) أو على أشخاص (ذرية الواقف، وقراء القرآن وأرباب الطرق الصوفية أو الفقراء بوجه عام) .

وفي النصف الثاني من القرن السادس عشر أنشئت عدة أوقاف مُهمّة، إضافة إلى وقفي خاصكي سلطان والسلطان سليمان المشار إليهما أعلاه . وتشمل هذه وفقاً لآخر للسلطان على مصالح قناة السبيل كان يضم عدة قرى في منطقة الخليل^(١٥) .

وغني عن البيان أن الوقف لعب دوراً مُهمّاً في حياة القدس الاقتصادية . فقد أوجد وظائف لمئات الأشخاص وزوّد مئات المنتفعين (المستحقين) بدخل ثابت ؛ كما أنه أنعش كل فروع الاقتصاد . ولم يكن ليتسنى قيام المشروعات الانشائية الكبيرة التي شهدتها القدس في القرن الأول من الحكم العثماني دون ادارة اقتصادية على درجة من الكفاءة .

منذ بداية الفتح العثماني كانت القدس تتبع اىالة (ثم ولاية) دمشق ، وهي احدى ثلاث ولايات تألفت منها بلاد الشام في ذلك الوقت . وقد قسمت كل ولاية الى عدد من السناجق (الألوية) . وكان للقدس سنجقها الخاص الذي ضم الخليل والقرى المجاورة^(١١٩) .

وكان على رأس الادارة حاكم اللواء (سنجق بك أو ميرلوا) . وكان هذا المنصب مقصوراً على الأتراك العثمانيين تقريباً . وكان الحاكم رجلاً عسكرياً تمثلت واجباته الرئيسية في قيادة القوات المسلحة في السنجق في أثناء الحرب والمحافظة على النظام العام والاشراف على الاقطاعات العسكرية وجباية الضرائب . وكانت اقطاعته (خاصي ميرلوا) أكبر الاقطاعات في السنجق بعد أراضي السلطان . وكان الحاكم يبقى في منصبه عادة سنة واحدة ؛ إلا أن هذه المادة قابلة للتجديد^(١٢٠) .

كان للحياكم نائب يدعى الكيخيا وكاتب يدعى يازجي ويتبعه عدد من التراجم^(١٢١) . وكان الفرسان الاقطاعيون — السباهية — تحت امرة الميرالاي . أما قوات الشرطة فكان يرأسها السوباشي . وكان للقلعة قائد خاص يدعى دزدار^(١٢٢) . يرتبط مباشرة بالحكومة المركزية . وتألفت حاميتها من السباهية وغيرهم من الجنود ؛ إلا أن قوامها الرئيسي هم الانكشارية^(١٢٣) الذي كان يرأسهم «أغا» .

أما الفرع المدني من الادارة فكان على رأسه القاضي ، وكان عادة تركياً يعيّن من استانبول لمدة سنة واحدة . وكان منصب القاضي مقصوراً على الأحناف^(١٢٤) (فالمذهب الحنفي كان المذهب الرسمي للدولة العثمانية) . وكان قاضي القدس من القضاة الكبار في الدولة^(١٢٥) واتسعت منطقة اختصاصه وراء حدود القدس فشملت عدة مدن في فلسطين ، حيث كان يعيّن نائباً — نائب الشرع — للقيام بمهام القضاء^(١٢٦) . وكان للقاضي ، اضافة الى المهام القضائية والقانونية ، وظائف ادارية واسعة ، تغطي جميع حقول الادارة تقريباً .

ومن بين رجال الادارة البارزين المحتسب . كان المحتسب يعني بشؤون النقابات

المهنية (الطوائف أو الأصناف) و بجمع الرسوم التي تفرض على البضائع والمعاملات التجارية . وكان راتبه يدفعه التجار من أصحاب الدكاكين الذين كان له الحق بفرض عقوبات عاجلة عليهم (٢٧) .

والى جانب القاضي كانت هناك ثلاث شخصيات دينية واجتماعية بارزة في القدس هي المفتي ونقيب الاشراف وشيخ الحرم . وكان هؤلاء الثلاثة من المقدسة الذين يعينهم السلطان . وكان من شأن المفتي اصدار الفتاوى الشرعية (بشأن تفسير أحكام الشريعة) . وفي القرن السادس عشر كان كثير من المفتين من عائلة بني جماعة أو عائلة أبي اللطف (٢٨) . أما نقيب الاشراف فكان مسؤولاً عن حماية الاشراف من نسل الرسول ؛ في حين كان شيخ الحرم مسئولاً عن ادارة الحرم الشريف . واذا استثنينا العاملين في الوقف فان عدد الموظفين الحكوميين في القدس كان صغيراً لأن المدينة نفسها كانت صغيرة .

ان عدد سكان القدس طيلة القرن السادس عشر لم يتجاوز أربعة عشر ألفاً . ويبين الجدول التالي، المستند الى دراسات برنارد لويس وأمتون كوهين لدفاتر التحرير العثمانية ، تطور السكان في القرن السادس عشر، بأرقام تقريبية :

السنة	المجموع	المسلمون	المسيحيون	اليهود
١٥٢٥	٤٧٠٠	٣١٠٠	٦٠٠	١٠٠٠
١٥٣٨	٧٩٠٠	٦٠٠٠	٧٥٠	١١٥٠
١٥٥٣	١٣٣٨٤	١٠١٠٠	١٦٥٠	١٦٣٤
١٥٦٢	١٢٦٥٠	٩٩٠٠	١٥٥٠	١٢٠٠
١٥٩٦	٧٦١٠	٧٣٠٠	٢١٠	*١٠٠

* يمكن أن يستخلص من السجل ٦٨ من سجلات المحكمة الشرعية في القدس تعديل كبير في هذه الأرقام ... مما يدل على أن احصاءات دفاتر التحرير العثمانية كان يمتورها النقص في كثير من الأحيان . انظر : كامل جميل المسلي، وثائق تاريخية، مجلد ٣، ص ٢٠١ - ٢٩٩ .

و يتضح من هذا الجدول أن عدد سكان القدس بلغ أوجه في أواسط القرن، ثم بدأ في التناقص . وربما يرجع الانخفاض الكبير في سنة ١٥٩٦ الى النقص في الدفتر رقم ٥١٥؛ إذ إن عدد سكان فلسطين وفقاً لهذا الدفتر كان ٢٩٠ ٢٠٦ نسمة وعدد سكان سنجق القدس ١٠٠ ٤٢ .

إن الأثرية الساحقة من السكان كانت تتألف من أهالي المدينة المسلمين العرب؛ ولكن هناك نسبة صغيرة من المسلمين الذين اختاروا الإقامة في القدس بعد أن وفدوا إليها من أقطار اسلامية وعربية مختلفة مثل المغرب و سوريا و مصر و العراق و تركيا و البوسنة (البشناق) و الهند و فارس و عدة أقطار أخرى في آسيا الوسطى (٢٠) .

أما المسيحيون، فلم يكونوا — ولم تكن الدولة تعتبرهم — طائفة واحدة . فقد كانوا منقسمين الى عدد من الطوائف والقوميات : لاتين و روم أرثوذكس و أرمن و أقباط و أحباش و صرب و سريان و كُرج (أهل جورجيا) الخ؛ غير أن أكثرية المسيحيين كانوا من الروم الأرثوذكس العرب .

وتعود الزيادة الملموسة لليهود في القرن السادس عشر الى موقف السلطات العثمانية التي سمحت ليهود الأندلس الذين طردوا سنة ١٤٩٢ بالعيش في فلسطين . وعلى أية حال فيبدو أن عدد اليهود الوارد في دفاتر التحرير مبالغ فيه؛ فان يهود القدس اشتكوا الى السلطات سنة ١٥٧٢ من أن عددهم في دفاتر التحرير مغالتي فيه . وقالوا في شكواهم إن كثيراً من الزوار اليهود الذين كانوا يقيمون في المدينة بصورة مؤقتة أدخلوا في الدفاتر دون وجه حق . وأمرت السلطات على الأثر بإجراء احصاء لليهود . وأظهر الإحصاء أن عدد اليهود المذكور في القدس كان ١١٥ (٢١)؛ ومعنى هذا أن إجمالي عدد اليهود كان يتراوح بين ٥٠٠ و ٦٠٠ شخص .

وفيما يتعلق بالحياة الاقتصادية في القدس في القرن السادس عشر، تزودنا الوثائق العثمانية بمادة مفيدة . وقد دلت دراسة حديثة مستندة الى سجلات المحكمة الشرعية على أنه كانت هناك خمسة فروع رئيسية من الصناعات في مدينة القدس، وهي : (١) الصناعات الغذائية (استخراج الزيوت و طحن الحبوب و عصر الفواكه الخ) و (٢) صناعة النسيج و الصباغة و (٣) الصناعات الجلدية و (٤) صناعة الصابون (كانت هناك تسعة مصانع للصابون) و (٥) الصناعات المعدنية : النحاسية و الحديدية (٢٢) .

وكان العاملون في الصناعة والتجارة وجميع النشاطات الأخرى منظمين في طوائف شأنهم شأن أمثالهم في جميع أنحاء الدونة. وكانت كل طائفة تضع الأنظمة الخاصة بالحرفة التي تمارسها وبشروط العاملين فيها. وكان يرأس الطائفة شيخ يساعده نائب عنه. أما العمال فكانوا على ثلاث مراتب هي المعلم والصانع والأجير(٣٣).

وبلغ عدد الطوائف في القدس في القرن السادس عشر زهاء أربعين طائفة تضم الأطباء والجراحين والمعماريين والكيالين والطحانين والحلوانية والوسطاء والصرافين وصناع الصابون والعطارين. وحتى المغنيات والراقصات كانت هن طائفة خاصة بهن؛ فلم يكن في وسع أيّ كان أن يعمل خارج طائفته.

وفيما يتعلق بتجارة التصدير والاستيراد كان هنالك تصدير نشيط للصابون الى مصر عبر ميناء غزة(٣٤). وكذلك للحبوب الى مصر ورودس و يوغوسلافيا (دوبروفنيك)(٣٥). أما المستوردات الرئيسية فكانت الأرز والمنسوجات من مصر والملابس والقهوة من دمشق، والمنسوجات والبسط من استانبول والصين والحجاز والعراق(٣٦).

وكانت النشاطات الاقتصادية خاضعة لنظام ضرائبي شامل. وشملت أنواع الضرائب الضرائب على الأراضي الزراعية (العشر أو الخراج)، والضرائب على الرعي والمواشي، وضرائب السوق التي كانت تفرض على بيع السلع المختلفة (وكانت أهم هذه تدفع الى المحتسب)، وضرائب على الصناعات (معاصر الزيتون ومطاحن الدقيق والحياكة والصباغة)، وضرائب تصدير (وعلى الأخص تصدير الصابون) وضرائب على الدكاكين وغيرها من العقارات (كالخانات والحمامات).

ونظراً لما تتمتع به القدس والحليل من قداسة كان سكانهما يُعفون أحياناً من بعض أنواع الضرائب(٣٧).

وإضافة إلى الضرائب المذكورة أعلاه كانت هناك ضرائب مختلفة تجبى من المسيحيين واليهود (أهل الذمة). وهذه الضرائب هي الجزية (وكانت تفرض على البالغين الذكور الأصحاء فقط)، ورسوم الحجاج، ورسوم الخفر (الخفارة) التي تجبى في محطات المراقبة على الطرقات، ورسوم على زيارة النبر المقدس (كنيسة القيامة)، ورسوم أساكيل (مواني) وخصوصاً تلك التي تجبى في ميناء يانا(٣٨).

ومن الطبيعي في بلد مقدس كالقدس أن تشكل الرسوم التي يدفعها حجاج القبر المقدس جزءاً كبيراً من الإيرادات (تضاعفت هذه الرسوم ثلاث مرات من ٤٠ ألف أقة سنة ١٥٢٥ (٣١) الى ١٢٠ ألف أقة سنة ١٥٥٣ (٤٠)). وكانت إيرادات الجزية تشكل نصف الرسوم التي كان يدفعها زوار القبر المقدس (٤١). أما الجزية التي تجبي من المسيحيين واليهود فكانت محصورة في أدنى فئات الجزية الثلاث التي نصت عليها الشريعة (قطعة ذهبية واحدة من كل أسرة، لا من الأفراد) (٤٢).

وطالما كانت الأقليات من النصارى واليهود تدفع الضرائب فقد تركت لها ادارة شؤونها الداخلية ضمن إطار الشريعة الاسلامية التي منحها وضع أهل الذمة. وكانت الشؤون الدينية خاضعة للتنظيمات التي يضعها رؤساء الطوائف.

وكانت العلاقات بين الطوائف المسيحية طوال العهد العثماني، وخصوصاً في القرن السابع عشر والقرون التالية، مشحونة بالمنازعات والخصومات. وفي أواسط القرن السادس عشر نشبت خصومات بين اللاتين، ممثلين بالآباء الفرنسيين، والروم الأرثوذكس حول حقوق الطرفين في الأماكن المسيحية المقدسة، وخصوصاً في القبر المقدس. وفي سنة ١٥٤١ أنشئت في القدس طائفة لاتينية محلية (٤٣). وفي الوقت نفسه تقريباً أنشأ البطريرك جرمانوس (١٥٣٤-١٥٧٩) الاتحاد الهليني للقبر المقدس. وأصبح أعضاء هذا الاتحاد حراساً على الأماكن المسيحية نيابةً عن المسيحية الأرثوذكسية (٤٤).

وضمنت كنيسة الروم الأرثوذكس الأثرية العظمى من المسيحيين في الدولة، وكان مقر بطريركها في استانبول حيث كانت له كلمة مسموعة. أما اللاتين فكانوا أقلية ضئيلة في القدس (وفي الدولة العثمانية). لكنهم تمتعوا بتأييد دول أوروبا الكاثوليكية، وخاصة فرنسا والنمسا وإسبانيا. وقد برز اسم القدس فعلاً في العلاقات بين هذه الدول والدولة العثمانية ابتداءً من القرن السادس عشر. فحتى في سنة ١٥١٨ طالبت إسبانيا بحرية زيارة المسيحيين للقدس (٤٥). وفي سنة ١٥٢٨ طلبت فرنسا إعادة المدرسة الصلاحية الى كنيسة كما كانت سابقاً. ولكن السلطان رفض هذا الطلب (٤٦).

وكان أهم حدث في العلاقات العثمانية الفرنسية في هذه الفترة عقد اتفاقية الامتيازات الأجنبية (Capitulations) بين الدولة العثمانية وفرنسا سنة ١٥٣٥، وهي الاتفاقية التي أمنت للتجار الفرنسيين وضعاً متميزاً في الدولة، وضمنت لرعايا فرنسا حقهم

في الحرية الدينية ومنحت الأكليروس اللاتيني حراسة الأماكن المقدسة في القدس (١٧). إن الامتيازات الأجنبية منحها سليمان الأول الى فرنسيس الأول في الأصل كبادرة على حسن النية، وكتنازل من جانب الدولة العثمانية التي كانت في أوج قوتها الى شريك أضعف؛ بيد أن سليمان أخطأ الحساب لأن اتفاقية الامتيازات، وما تلاها من اتفاقيات مماثلة، أصبحت أداة للتدخل المكشوف في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية.

وعلى أي حال فان سليمان لم يكن يشعر بتهديد أو تحدٍّ من جانب فرنسيس. ففي سنة ١٥٢٤ طرد الفرنسيون سكان على جبل صهيون من المكان المعروف بعليّة صهيون، مكان العشاء الأخير، الذي كان يقع تحته القبر الذي يبجله المسلمون بوصفه قبر النبي داود. وعندما تدخل فرنسيس في سنة ١٥٢٨ لم تجد احتجاجاته أذناً صاغية. ولكن فرنسيس حصل على تأكيدات مفادها أن جميع الأماكن المسيحية المقدسة في القدس ستظل سالمة آمنة (١٨).

ولم يكن لليهود دولة أوروبية تقف وراءهم في هذا الوقت. وقد ازداد عدد أفراد الطائفة اليهودية الصغيرة بعد أن انضم إليها مهاجرون فروا من محاكم التفتيش الإسبانية، ومنح هؤلاء ملجأ لهم في كل من القدس وصفد. وقد علق دافيد دي روسي David dei Rossi، وهو يهودي ايطالي زار القدس في القرن السادس عشر، على حياة اليهود في القدس بما يلي: «نحن هنا لسنا في المنفى كما نحن في بلادنا ذاتها (ايطاليا). هنا... المعينون على الجمارك والمكوس من اليهود وليست هناك ضرائب خاصة مفروضة على اليهود...» (١٩).

ويؤكد الأستاذ أمنون كوهين، في دراسة جيدة عن الحياة اليهودية في القدس في القرن السادس عشر مستندة الى سجلات المحكمة الشرعية، المواقف الايجابية للسلطات العثمانية تجاه اليهود. و يبين على وجه التأكيد أن القيود المالية التي تفرضها الشريعة لم تكن تطبق تطبيقاً حرفياً؛ كما أن يهود القدس الذين تستحق عليهم الجزية لم يكونوا جميعهم يدفعونها. وأما الذين كانوا يدفعون فكان يتوقع منهم أن يدفعوا الفته الرسمية الدنيا للضريبة (٢٠). وهو يضيف أن جهاز المراقبة بأسره الذي أشرف على تنفيذ أحكام الشريعة كان يميل في كثير من الأحيان لمصلحة اليهود (٢١)، وأن المحاكم كانت تحمي اليهود وتقبل شهادات المتقاضين والشهود اليهود، على نقيض الفكرة السائدة بأن شهاداتهم لم تكن

تقبل (٥٢). و يقول كوهين في الختام إن حكام المسلمين قد شجعوا قيام حياة يهودية مستقلة في القدس وأسبغوا عليها الحماية .

أواخر القرن السادس عشر والقرن السابع عشر

في الثلث الأخير من القرن السادس عشر بدأت تظهر تصدعات خطيرة في كيان الدولة العثمانية، وبدأت الدولة في التراجع، وهو تراجع استمر أكثر من قرنين. وأخذ الانحطاط يتعمق منذ أواخر القرن السابع عشر وازدادت حدته في القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. إن نظام الاقطاع، الذي كان السباهية، أمراء الاقطاع، الدعامة التي يستند إليها، أخذ يتدهور تدريجياً. وعندما أشرفت حروب التوسع على نهايتها وقلت الغنائم انصرف امراء الاقطاع الى الأرض باهتمام متزايد وحاولوا التعويض عن الغنائم التي خسروها باستغلال الفلاحين استغلالاً لا رحمة فيه. وأدى هذا بطبيعة الحال الى هبوط حاد في الانتاج الزراعي وفتح باب أزمة الامبراطورية كلها على مصراعيه. واجتمعت عوامل أخرى عديدة لتعميق الأزمة: اكتشاف الطريق البحري الى الهند وما تلا ذلك من تحويل الطرق التجارية عن آسيا الغربية؛ الازدياد الكبير للفضة في أسواق بلدان البحر الأبيض المتوسط بعد اكتشاف أميركا وما أسفر عنه من تدهور في قيمة العملة الفضية؛ تدمر الانكشارية المتزايد بعد وقف غنائم الحرب؛ وانتفاضات الفلاحين وسكان المدن في تركيا نفسها وفي الولايات.

وكانت هزيمة العثمانيين في معركة ليبانتو البحرية سنة ١٥٧١ أمام أعضاء الحلف المقدس بمثابة الانذار الأول. وفي السنوات الأخيرة من القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر كانت الدولة في حالة حرب مع كل من النمسا وبلاد فارس. وفي الوقت نفسه كانت هناك انتفاضة للفلاحين في الأناضول (١٥٩٨ - ١٦٠٥). وفي النصف الأول من القرن السابع عشر بدأت الحكومة المركزية تفقد سيطرتها على الانكشارية. فقد تمرد هؤلاء في سنة ١٦٢٤ وفي سنة ١٦٤٨؛ بل إنهم قتلوا أحد السلاطين.

وحفلت السنوات الأخيرة من القرن السابع عشر بالشؤم على الدولة؛ فقد أسفرت

الحروب مع النمسا عن خسائر فادحة، ومنى الجيش العثماني بهزيمة مهينة أمام أسوار فيينا (١٦٨٣). وفي العقد الأخير من القرن اشتركت روسيا مع النمسا في حربها ضد العثمانيين. وبعد الهزائم العسكرية عقد صلح كارلوفيتس في سنة ١٦٩٩ وأسفر عن خسائر كبيرة في الأرض سواء في البلقان أو جنوبي روسيا. واستغلت فرنسا صعوبات الدولة لفرض نسخة جديدة من الامتيازات الأجنبية عليها في سنة ١٦٧٣.

كان لهذه التطورات بطبيعة الحال آثار سلبية في الولايات وفي القدس. ففي القدس وضواحيها حدث تدهور ملحوظ في الأمن العام في الربع الأخير من القرن السادس عشر، وخصوصاً على الطرق المؤدية الى المدينة. وكان من شأن هذا أن يستمر حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وقد صعد البدو هجماتهم على قوافل الحجاج المتجهين الى المقامات المقدسة في الخليل والنبي موسى (٥١)، ومنعوا الخطباء من القاء خطبهم في المساجد وفرضوا إتاوات على الحجاج (٥٥). وفي سنة ١٥٨٧ اتخذ بعض أرباب الاقطاعات يساعدهم زهاء ٣٠٠٠ من قطاع الطرق مواقع دائمة لبعض الوقت عند مقام النبي موسى الى أن هاجمهم حاكم سنجق القدس خدا وردي والحق بهم الهزيمة (٥٦).

ولجأت الحكومة من أجل كبح جماح البدو الى اجراءات مختلفة تتضمن فيما تتضمنه أخذ الرهائن وتعيين شيوخ البدو أمراء سناجق أو أرباب اقطاعات وتكليف شيوخ القرى أو البدو بحماية القوافل (٥٧)؛ بل قد جرت محاولات لزيادة الكثافة السكانية في البلاد بإنشاء مستوطنات للبدو الرحل (٥٨). وفي سنة ١٦١٤ أعفي أربعون من أرباب التيمار والزعامة من المشاركة في الحملات العسكرية خارج السنجق، لكي يتسنى لهم حماية قافلة الحجاج المتجهة الى مكة (٥٩). ومن أجل صيانة الأمن العام انشئت عدة قلاع وزودت بالرجال والأسلحة (٦٠). وحوالي سنة ١٦٣٠ بنى السلطان مراد الرابع (١٦٢٢ - ١٦٣٩) قلعة كبيرة عند برك سليمان لحماية الينابيع والبرك التي تزود القدس بالماء من قطاع الطرق. وفي النصف الثاني من القرن السابع عشر كان في هذه القلعة دزدار وأربعون جندياً بمدافعهم وأسلحتهم الأخرى. وكان بداخل القلعة مسجد وخمسون منزلاً صغيراً لسكنى الجنود (٦١). ولا يزال مبنى القلعة قائماً حتى الآن.

بيد أن جميع الاجراءات التي اتخذتها السلطات لم تنجح. والسبب الرئيسي هو أن الحكومة المركزية، نظراً لتورطها في الحروب على الجبهتين الشرقية والغربية، لم يكن بوسعها

تخصيص قوات أو أموال كافية لصيانة النظام العام (١١٢) .

وكان هنالك مصدر آخر لتخوف أهل القدس في زمن العثمانيين وهو القلق من المطاعم الأوروبية في المدينة . وانعكس هذا القلق في عريضة وجهت الى السلطان مصطفى الأول سنة ١٦٢١ . فقد ثبتت فرمان سلطاني صدر في تلك السنة تعيين مسيو دارامون قنصلاً فرنسياً مقيماً في القدس . وقوبل فرمان بالسخط في القدس ، وعقد ممثلو المدينة اجتماعاً في المسجد الأقصى وكتبوا عريضة أكدوا فيها أن تعيين م . دارامون كان بدعة خطيرة تتعارض مع ما جرت عليه العادة في القدس ولذلك فلا بد من الغائه . وأضاف واضعو العريضة قائلين : «إن بلدنا محل أنظار الكافرين ... إذ حل سعيهم وعملهم عليها . ومع ذلك قرب الأسكلة المينا - أي ميناء يافا - على ثماني ساعات ... ونحن نخشي من جلب أناس أحر غيره (أي غير القنصل المعين) بدسائس يعملها المذكور مع ما عندنا منهم الآن ، ونخاف من الاستيلاء علينا بسبب ذلك كما حصل في الزمن السابق مراراً» (١١٣) . وما لبث التعيين أن ألغي .

وفي سنتي ١٥٩٧ و ١٥٩٨ ، في أثناء الحرب العثمانية النمساوية ، ساورت السلطات في القدس شكوك من أن الأديرة كانت تستخدم مخازن للسلاح . وهكذا صدرت الأوامر بتفتيشها (١١٤) . والحق أن تاريخ الطوائف المسيحية في القدس مرتبط أوثق ارتباطاً بالتقلبات التي كانت تطرأ على العلاقات بين العثمانيين والدول الأوروبية ، وتنافس هذه الدول فيما بينها وحرص كل منها على زيادة نفوذها في الأرض المقدسة . وعندما تردت العلاقات بين الدولة وفرنسا إبان حكم مراد الرابع (الذي طرد اليسوعيين من استانبول بتحريض من السفيرين البريطاني والهولندي سنة ١٦٢٨) أصدر مراد ثلاثة فرمانات (سنة ١٦٣٤) منحت الروم حق التصدر والتقدم على اللاتين في الاحتفالات الدينية في القبر المقدس . وكما حدث مرات عديدة من قبل ومن بعد ، كانت مثل هذه فرمانات تلغى بعد تدخل أحد الأطراف المتنازعة أو ضغطه على الدولة . وفي هذه المرة الغيت فرمانات مراد الثلاثة أثر تدخل لويس الثالث عشر . ففي سنة ١٦٧٣ نجحت فرنسا في تجديد الامتيازات الأجنبية وتأكيد دورها كـ «حامية للكاثوليك» . وتدخلت النمسا وبلنדה أيضاً نيابة عنهم . وفي سنة ١٦٤٢ حصلت النمسا على امتيازات خاصة لللاتين . أما بلنדה فقد أرغمت الحكومة العثمانية في معاهدة عقدتها مع الباب العالي سنة ١٦٧٦ على إعادة الفرنسيين (الفرنسييسكان) إلى القبر المقدس . وأهم من ذلك أن النمسا حصلت بموجب اتفاقية

كارلوفتس سنة ١٦٩٩ على حق تمثيل المصالح المسيحية فيما يتعلق بالأماكن المقدسة في القدس . ويتضح من هذا كله أن التطورات الدولية كانت لها صلة مباشرة بمدينة القدس . وفي المدينة المقدسة ذاتها كانت الأمور تتعقد أحياناً بالتدخل المباشر للدبلوماسيين الأجانب في النزاعات حول الأماكن المقدسة . ففي سنة ١٦٧٣ قام السفير الفرنسي في استانبول ، الكونت نواتيل (Noitell) ، الذي كان في زيارة للقدس ، بتحريض اللاتين بصورة مكشوفة في صدامهم مع الروم (١٠٠) .

وقد لاقى العثمانيون صعوبات جمة في محاولتهم حل المطالب المتناقضة حول التقدم والأسبقية في الأماكن المقدسة . وكانت المشاجرات بين الطوائف المسيحية ، خصوصاً اللاتين والروم والأرمن ، تشتد فتتحول الى صدامات دامية . وحدث هذا عدة مرات في القرن السابع عشر (على سبيل المثال سنة ١٦٦٦ و ١٦٦٩ و ١٦٧٤) (١١٠) . وجرى مثل ذلك في القرون التالية . وقد صدم السائحون الأوروبيون من حدة هذه المشاجرات ، وكتب هنري موندريل ، القسيس الانكليزي في حلب الذي زار القدس سنة ١٦٩٧ ، في هذا الشأن يقول : «والشيء الذي كان على الدوام الجائزة الكبرى التي تتنافس عليها طوائف عدة إنما هو السيطرة على القبر المقدس والاستيلاء عليه ، وهو امتياز يتقاتلون عليه بكثير من الضراوة والعداء المنافئين للمسيحية ، خصوصاً اليونان واللاتين ؛ حتى إنهم في نزاعهم حول أي فريق منهم يدخل للاحتفال بالقداس يلجأون أحياناً الى تسديد الضربات والجروح حتى عند باب القبر المقدس ذاته ...» (١١٧) .

وكما سنرى فيما بعد ازداد تدهور الوضع في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر عندما ضعفت الدولة واشتد التدخل الأوروبي .

كان القرن السابع عشر للدولة العثمانية قرن انتقال بين رخاء القرن السادس عشر وانحدار القرن الثامن عشر . وهكذا كان بالنسبة للقدس أيضاً . فالمؤسسات القديمة مثل المدارس والبيمارستان والرباطات والزوايا ، الخ ، كانت ما تزال تؤدي عملها رغم أنها فقدت جزءاً من حيويتها . وقد وصف أوليا جلبي الذي زار القدس سنة ١٦٧٢ (١١٨) سنجق القدس بأنه ينعم بالرخاء وخلبت المدينة وحرمها وقلعتها ومؤسساتها المختلفة لب السائح التركي ؛ بل إنه أعجب بأحوالها الاقتصادية ووفرة منتجاتها .

وقدم جلبي في كتاب رحلته المسمى «سياحتنامه» وصفاً مفصلاً للمدينة :

«في القدس عدد كبير من المباني . هواؤها عليل وماؤها عذب ... وقد عدّ زاده محمد باشا (حاكم المدينة) سكان المدينة قبلغوا ٤٦٠٠٠ . وكان الباشا يوزع الصرة على الف رجل على الأقل ، أكثرهم من الأصدقاء ورجال التصوف» .

ووصف جلبي بعد ذلك خبز المدينة وعنبها وعطورها وبخورها وجبالها المغطاة بشجر الزيتون . وأضاف قائلاً :

«في القدس ٤٣ الف كرم . وكل مقدسي يعيش في هذه الكروم شهرين أو ثلاثة أشهر في السنة (٧١) . ومع أن المدينة تبدو صغيرة ، ففيها ٢٤٠ محراباً و٧ دور للحديث و١٠ دور للقرآن و٤٠ مدرسة وتكايا لسبعين طريقة من طرق الصوفية أكبرها طرق عبد القادر الكيلاني وأحمد البدوي والرفاعي والمولوي . وفيها ٦ خانات و٦ حمامات و١٦ سيلا .

وتشير سجلات المحتسب الى أن في القدس ٢٠٤٥ دكاناً وعدة أسواق . وهناك كنيسة لالأرمن وثلاث للروم وكنيسان» (٧٠) .

ومضى جلبي قائلاً :

ليست هنالك مبانٍ من أي نوع حول قلعة القدس ، باستثناء ضاحية داود التي تتألف من ٤٠ بيتاً .

ولو استثنينا البساتين والكروم وحدائق الأزهار فان جميع المباني تقع داخل الحصن (السور) . وجميع الأحياء اسلامية (٧١) . هناك بوجه الاجمال ألف قصر من القصور المنيفة التي تشبه القلاع (٧٢) .

ونعرف من مصادر مختلفة أن أبواب القدس كانت تقفل من غروب الشمس حتى شروقها ، لأسباب أمنية . وكان على السياح والزوار أن يحصلوا على اذن قبل دخولهم المدينة . وحصل هنري موندريل على هذا الاذن «الذي لا يجزؤ أي افرنجي على الدخول ضمن الأسوار بدون» (٧٣) . ولكن هذا لم يكن شأن الأفرنج وحدهم . فقد كان يسري على المسلمين كذلك ، كما يجزؤنا عدة رحالة مسلمين (٧٤) .

بعد التغييرات الدينامية في القرن السادس عشر بدت القدس في القرن التالي في حالة سكون . ان كل الآثار الكبيرة تقريباً التي كانت قائمة في القرن السابع عشر كانت مورثة عن الماضي . وكانت الاضافات والتعميرات قليلة ؛ فقد رمم السبيل الأيوبي

المعروف بسبيل شعلان سنة ١٦٢٧ (٧٥). وبنى الحاج عبد الكريم الشوربجي سبيلا آخر سنة ١٦٨٥ (٧٦). وعمرت قناة السبيل في سنتي ١٦٥٦ (٧٧) و١٦٦٦ (٧٨). وفي ساحة الحرم جرى ترميم الجامع المعروف بجامع الحنابلة سنة ١٦١١ (٧٩). وربما كان أكبر بناء منفرد شيد في القرن السابع عشر هو القلعة التي بناها السلطان مراد الرابع قرب بيت لحم.

وأهم الترميمات تمت في الحرم الشريف. فقد كان السلاطين يرون، كما في السابق، أن واجبههم الديني يحتم عليهم أن يمدوا يد العناية والرعاية الى المقامات وأماكن العبادة الاسلامية، خصوصاً في القدس والخليل والنبي موسى، وهي أماكن الحج الاسلامية الرئيسية في هذه الفترة. واستمرت أعمال التعمير والترميم في الحرم في جميع الأوقات. وفي هذه الفترة تعاقب على ترميم قبة الصخرة كل من السلطان محمد الثالث (١٥٩٧) والسلطان أحمد الأول (١٦٠٣) والسلطان مصطفى الأول (١٦١٧).

وتضم الدفاتر المهمة العثمانية (مهمة دفترلري) عدة فرمانات وأوامر تظهر الاهتمام الذي كانت توليه السلطات مقامات الأنبياء والأولياء. فقد كان الحفاظ على النظام في المقامات الدينية والعناية بنظافتها واجباً من أسس الواجبات. وكان على سدنة هذه الأماكن أن يتحلوا بالتقوى وأن يكونوا أهلاً للثقة.

وكان من الواجبات الملحة صيانة الأماكن المقدسة وضرائح الأنبياء وتعميرها بلا تأخير. وكان يشترط أن تصرف واردات الأوقاف على أعمال الصيانة بالدرجة الأولى. ومن جهة أخرى كانت الحكومة دائماً على استعداد لأن تتحمل نفقات الترميم والتعمير (٨٠).

وفيما يتعلق بإدارة مدينة القدس في القرن السابع عشر هناك بعض المعلومات المفيدة في «رحلة جلبي». ففي سنة ١٦٧٢ كان تحت إمرة باشا القدس ٥٠٠ جندي. وكان الباشا أمير الحاج الشامي (٨١). ولم يكن أرباب الاقطاعات يكلفون بالخدمة العسكرية في الميدان واقتصرت مهمتهم على أن يرافقوا بأعلامهم الحجاج... ويرشدوهم... وبلغ عددهم (أي أرباب الاقطاعات) ٦٠٠ رجل (٨٢). أما عدد أفراد حامية قلعة القدس فقد بلغ مائتي رجل (٨٣). ومعظم القرى المحيطة بالقدس كانت تابعة لأرباب الاقطاعات (٨٤).

وفيما يتعلق بالادارة المدنية كان قاضي القدس يتقاضى مرتباً يساوي مرتب الباشا (٤٠,٠٠٠ قرش سنوياً) لأن لواءها كان يعد بوجه الاجمال ١٦٠٠ قرية (٨٥).

وإضافة الى القدس، كانت منطقة اختصاص القاضي تشمل الخليل ونابلس والرملة والكرك واللجون وجنين (٨٦)؛ أي أنها كانت أكبر بكثير من منطقة اختصاص حاكم لواء القدس. وكان تحت إمرة القاضي ٢٠ ضابطاً (أغا) يعينون بفرمان سلطاني. ويشمل هؤلاء: حراس أبواب المدينة الليليين، وصاحب الشرطة، ... والخازن والمحاسب (٨٧).

ويبدو لنا من قائمة مبدئية لحكام القدس في القرن السابع عشر أن حكام نابلس أو غزة كان يُعهد اليهم أحياناً بحكومة القدس أيضاً. فان محمد بن فروخ، حاكم نابلس الشركسي، حكم القدس سنة ١٦٢٥/١٦٢٦ (٨٨)؛ كما تولى حسين بن حسن الغزاوي، حاكم غزة العربي، حكومة القدس أيضاً سنة ١٦٦٠؛ ولكنه فوض ابنه ابراهيم صلاحياته بهذا الشأن (٨٩). وصارت تعيين حكام محليين من العرب عادة كثر أتباعها في القرن الثامن عشر.

وإذا استثنينا قاضي القدس الذي كان يأتي عادة من استانبول (وذكر في احدى الحالات أنه كان تونسياً (٩٠)، فان أصحاب المقامات الدينية الرفيعة كانوا غالباً من القدس. ومن بين المفتين المعروفين لدينا أربعة من عائلة أبي اللطف وواحد من عائلة الدجاني (٩١). وكانت العائلات القديمة تزود المناصب الدينية عادة بالموظفين وخاصة لأغراض التدريس. ولما كانت هذه المناصب وراثية عادةً فان ذلك قد ساعد على هبوط مستوى التعليم. وكان معظم أرباب المناصب الدينية والتعليمية في القرن السابع عشر على حظ ضئيل من العلم في واقع الأمر. وفي سنة ١٦٧٠ بحث الرحالة الخياري عبثاً عن عالم متمكن في المسجد الأقصى (٩٢). وحتى خطيب الجمعة في المسجد الأقصى كان ضعيفاً في اللغة العربية (٩٣). ويقول الرحالة العياشي إن قاضي القدس، النفاتي، عين في هذا المنصب لمجرد «الترسيم والوجاهة» لا لقدرته العلمية (٩٤). وفي بعض الأحيان ظل علماء بارزون يؤمون المسجد الأقصى للتدريس. وقد درّس المؤلف المغربي المشهور أحمد المقرّي مدة شهر واحد في القدس سنة ١٦٢٧ (٩٥).

والمهم في الأمر على أية حال أن المدارس، رغم تناقصها عدداً ونوعاً، ظلت قائمة. ومن بين ٥٦ مدرسة تقريباً في الفترة المملوكية كانت هناك حوالي ٤٠ سنة ١٦٧٢ (٩٦).

وكان هناك زهاء مائتي غرفة للمدارس المحيطة بالحرم (١٧٧).

وتولت الدولة دفع المرتبات لى عدد كبير من المعلمين وأرباب المناصب الدينية الآخرين. وفي المسجد الأقصى وحده كان هنالك ٨٠٠ موظف يتقاضون مرتباتهم من جيب السلطان «الخاص» (١٧٨).

وظل العبء الرئيسي للانفاق على المستخدمين في الحرم وفي المؤسسات الأخرى يقع على عاتق الأوقاف، كما كان الأمر سابقاً. وكانت كثير من المؤسسات الوقفية تعين ما يفيض عن حاجتها من الموظفين توفيراً لفرص العمل لآلاف المستخدمين في الحرم وفي المدارس والأربطة والزوايا والخوانق الخ... وفي بعض الأحيان تجاوز عدد المستخدمين في المدارس عدد الطلاب. وحتى في القرن السادس عشر (١٥٧٤) كان في المدرسة الطازية ٣٦ موظفاً وقارئاً للقرآن؛ ولكن عدد الطلاب لم يتجاوز ٢٦ (١٧٩). وفي سنة ١٥٥٢ استهلكت رواتب المستخدمين من قناة السبيل ثلثي إيراد الوقف، وكان لا بد من الاستغناء عن العدد الفائض عن الحاجة من مستخدمي القناة (١٨٠).

وبالمثل كان وقف المسجد الأقصى يعيل عدداً مفرطاً من المستخدمين من جميع الأنواع، مع أن المسجد نفسه كان في حاجة ماسة للتعمير (١٨١). وفضلاً عن ذلك كان على الوقف ومؤسساته أن يقوم بأود مئآت الدراويش «من الهند والسند وبلخ، فرس وأكراذ وتار ومغول وأتراك» (١٨٢) الذين كانوا يعيشون في أروقة الحرم.

وقد ازدادت نفقات الأوقاف في وقت كانت فيه أحوال العقارات الوقفية تتدهور، نظراً لاهمال بعض المسئولين أو انعدام أمانتهم. وفي بعض الأحيان كانت الأموال المخصصة لمشروعات الأوقاف عرضة لاختلاس الشريين من الحكام (١٨٣).

القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر

إن معاهدة كارلوفيتس المشؤومة (١٦٩٩) أعقبتها سلسلة من الحروب والنكسات السياسية والعسكرية التي منيت بها الدولة طوال القرن الثامن عشر. ففي العقد الثاني من هذا القرن تورطت الدولة في حروب مع روسيا والبندقية والنمسا. وفي العقد الثالث والرابع منه دخلت في حرب مع الفرس ثم مع النمساويين والروس مرة ثانية. وفي النصف

الثاني من القرن كانت رومانيا هي العدو الرئيسي . وبموجب معاهدة كوتشوك كايبرج سنة ١٧٧٤ اضطرت الدولة الى التنازل لروسيا عن مساحات واسعة من الأرض في منطقة البحر الأسود . وأبرمت معاهدتين مهينتين أخريين مع كل من النمسا (١٧٩١) وروسيا (١٧٩١) . إن الدولة العثمانية كانت تسير بثبات وبسرعة على طريق الانحدار .

وبينما كانت الحروب تستمر كان جهاز الدولة يتهدم . وكان أحد أسباب التدهور المهمة فساد السلالة الحاكمة ذاتها . فنظام الوراثة جلب سلاطين ضعافاً الى العرش . وقد انفق السلاطين المتأخرون مبالغ ضخمة من المال على الرفاهية الشخصية واستسلموا للمذات الحريم . وقادتهم حاجتهم المستمرة الى المال الى بيع المناصب العامة والاعتراف بالرشوة كمؤسسة من المؤسسات . وهكذا فان أرفع المناصب ، بما فيها مناصب حكام الولايات ، كانت تطرح للبيع . ولما كانت مدة وظيفة الحاكم تنتهي عادة بعد عام واحد - كثيراً ما كان ينتهي بمصادرة أمواله أو حتى باعدامه - فقد وجد الحاكم من المناسب أن يجمع أكبر قدر من المال بوجه السرعة ، وأن يستهلك ما جمعه بالسرعة ذاتها . وأدت نفقات الحرب وتurf القصر ونهب الحكام بطبيعة الحال الى زيادة الضرائب والابتزازات غير المشروعة وأدت بالتالي الى إفقار الشعب بشكل عام . وأدت الضرائب المفروضة على الفلاحين بصورة خاصة الى قتل حماستهم للعمل تماماً ؛ فهجر الكثيرون منهم قراهم ، وتشتتوا في البلاد أو نظموا انتفاضات مسلحة .

وقد تحدث عالم من الشام عاش في هذه الفترة ، هو أحمد بن علي الميني (١٦٧٨ - ١٧٥٨) ، بكلمات عامة ومريرة عن المحن والمصائب والأرزاء التي نزلت بسوريا في تلك الأيام ، وعن الفتن واختلال الأحوال فيها « بسبب الافراط في الجور من والٍ عليها في غابر الأيام ونظرت الدولة العلية الى أهلها بعين الانتقام » (١٠٤) .

وفي سنة ١٦٦٠ لاحظ السائح الفرنسي ل . دارفيو L d'Arvieux أن منطقة بيت لحم بدت كأنها خالية من السكان لأن الفلاحين هربوا من الأرض واختبأوا عن أعين حكام القدس النهابين . فالفلاح لم يكن يشعر بأي اطمئنان مطلقاً لا بالنسبة لشخصه ولا لأمواله (١٠٥) .

وفي القدس نفسها استهل القرن الثامن عشر في سنة ١٧٠٣ بانتفاضة كان على رأسها نقيب الاشراف محمد بن مصطفى الحسيني ، واستمرت سنتين . وكان سببها سياسة

التسلط التي انتهجها حاكم القدس جورجي محمد باشا (١١٠٦) الذي فرض ضرائب باهظة على سكان المدن والفلاحين على حد سواء، ولجأ الى اجراءات قاسية لتحصيلها. فحمل أهالي القدس السلاح وهاجموا القلعة وأطلقوا سراح المساجين. وهرب الحاكم من المدينة وعُين محمد نقيب الاشراف حاكماً مؤقتاً. وفي هذه الأثناء عُين جورجي الحاكم المطرود والياً على دمشق. وفي سنة ١٧٠٥ أرسل هذا انذاراً الى أهل القدس وأمرهم بتسليم اسلحتهم. وبعد ذلك بوقت قصير ارسل الوالي حوالي ٢٠٠٠ من الانكشارية والجنود الآخرين الى القدس. وتمكن هؤلاء من احتلال المدينة بعد مقاومة صلبة في شهر تشرين الثاني / نوفمبر سنة ١٧٠٥. وفر النقيب واختبأ بعض الوقت في قلعة طرسوس، ثم اعتقل وارسل الى استانبول حيث نفذ فيه حكم الاعدام سنة ١٧٠٧ (١١٠٧).

إنَّ عدم قدرة ولاية دمشق على اخاد الانتفاضة طوال مدة طويلة دليل واضح على عجزهم. وقد انعكس ضعف الحكومة المركزية بوضوح في تطورين حدثا في القدس خلال القرن الثامن عشر. التطور الأول كان تعيين عدد من الأعيان الفلسطينيين ذوي النفوذ حكاماً للقدس (وغيرها من مدن فلسطين). والثاني كان ازدياد مكانة عائلات أعيان القدس وسلطتها.

لقد ولت أيام الحاكم القوي المستند الى يد استانبول القوية. وكان على الحكومة المركزية الآن أن تجند تأييد الزعماء المحليين بتعيينهم في مناصب الحكام. ففي سنة ١٧١٧ كان أحد أعضاء عائلة طوقان، صالح باشا طوقان، حاكماً على القدس (١١٠٨). وشغل فرد آخر من عائلة طوقان، هو أسعد بك، هذا المنصب لمدة ثلاث سنوات (١٧٨٨ - ١٧٩٠) (١١٠٩). وتولى حكم القدس أيضاً عدة أفراد من عائلة النمر التي حكمت نابلس عدة عقود في القرن الثامن عشر: عمر (من حوالي ١٧١٧ الى ١٧٣١)، ومصطفى (١٧٣١ - ١٧٣٣)، وعمر للمرة الثانية، (١٧٣٣)، واسماعيل أغا (١٧٦٠)، وابراهيم أغا (١٧٧١) (١١٠٠). ويقول المؤرخ احسان النمر ان عائلة النمر تعاونت مع عائلات القدس، مع أخوالهم آل العلمي وكذلك مع آل العسلي الذين كانوا يتولون منصب دزدار القلعة (١١١١). ويمتدح حكم عمر النمر الذي «وفق لحل مشاكل الطوائف المسيحية... وقطع دابر اللصوص والأشقياء» وعمل «لتأمين طريق الحج». وعمر عمر سور القدس قرب باب الأسباط ومقام الشيخ محمد العلمي في جبل الطور (١١١٢).

وفي أواسط القرن يبدو أن القدس رفعت لفترة وجيزة الى مستوى إيالة يحكمها باشا (متصرف)، واستقلت عن دمشق. وفي سنة ١٧٥٧ شغل حسين بن مكّي، وهو من أبناء غزة، هذا المنصب لمدة عام تقريباً (١١٣).

وعلى الرغم من تعيين شخصيات محلية حكاماً للقدس في القرن الثامن عشر فيبدو أن الحكم الجدد لم يتمكنوا، شأنهم في ذلك شأن سابقهم، من حل مشكلة الأمن على الطرق وكبح غزوات البدو. ونحن نعرف من كتب السياحة والتسيرة التي وضعها الرحالة والعلماء أن كثيراً من هؤلاء سلبوا أو جرحوا بل قتلوا أثناء الهجمات التي شنت على قوافل الحجاج (١١٤).

ومن المؤشرات الأخرى على عجز حاكم القدس عن استطاعته جمع الضرائب من القرويين وسكان المدن. فقد كان على والي دمشق أن يقوم بنفسه، وبمرافقة الجند، بجولة سنوية (دورة) يجمع خلالها الضرائب. وكان يترتب على سكان السنجق أن يقدموا كميات كافية من المؤن (الذخائر) الى الوالي والجند. وكان عدم الامتثال لذلك يواجه بعقوبات قاسية (١١٥). وكان جمع الضرائب هو عمك كفاية الحاكم. ولم يكن يقبل أي عذر لأي فشل أو اهمال في هذا الشأن (١١٦).

أما التطور الثاني الذي عكس اعتماد الحكومة المركزية المتزايد على العناصر المحلية لدعم النظام القائم فنتيئته في زيادة سلطة عائلات القدس الرئيسية مثل آل الحسيني والخالدي وأبي اللطف وتعزيز شأنها. فقد زود ضعف الحكام هذه العائلات بفرصة مناسبة لزيادة مكانتها والحصول على نصيب متزايد في الإدارة. وأدعى هؤلاء درس انتفاضة السنيق واستوعبوه، فقد حاولوا الآن المحافظة على علاقات طيبة مع أصحاب النفوذ في كل من استانبول ودمشق (١١٧). لكن عائلات الوجهاء هذه كانت في الوقت نفسه الممثل الوحيد المتاح للشعب ازاء الدوائر الحاكمة؛ ولذلك فانها قامت بدور الوسيط بين الشعب وتلك الدوائر. وربما يستطيع المرء أن يرى في محاولة عائلات الوجهاء تعزيز مركزها بدور الطموح الى الاستقلال الذاتي المحلي. وعلى أية حال فان الوجهاء قنعوا في الوقت الحاضر بما كان لهم من امتيازات مريحة: لقد ضمّوا في أيديهم المناصب الدينية المجزية وإدارة الأوقاف والتزام جمع الضرائب. وإذا قاموا بدور حماة القرى، فقد نجحوا في الاستيلاء على مساحات واسعة من الأراضي (١١٨). وفي القرن الثامن عشر تولى أفراد من عائلة أبي اللطف منصب

الافتاء في القدس عدة مرات (١١١١). وبنى الحسينيون نفوذهم الى حد بعيد في هذا الوقت : كان عبد اللطيف الحسيني نقيباً للاشراف ، وهو منصب ورثه عن أجداده ، وخلفه في هذا المنصب ابنه عبد الله . وجمع ابنه الثاني حسن في شخصه وظائف النقيب والمفتي وشيخ الحرم (١١٢٠) . وإضافة الى هذه المناصب الدينية كان يعهد الى الوجهاء أحياناً بمهام ادارية . ففي سنة ١٧٧٦ طلب كيخيا دمشق — مساعد الوالي — مساعدة عبد الله بن عبد اللطيف في جمع أموال الجزية . وفي سنة ١٧٩٨ طلب من عبد الله هذا المساعدة في جمع الضرائب من قبيلة بني حسن (١١٢١) . وبعد ذلك ببعض الوقت (سنة ١٨١٠) تلقى عمر حفيد عبد اللطيف ، الذي ورث منصب النقيب وشيخ الحرم ، مبلغاً كبيراً من المال من والي دمشق لتعمير قناة السبيل (١١٢٢) .

وأما المنافسون الرئيسيون للحسينيين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فهم الخالديون . لقد احتفظ آل الخالدي لأجيال متتالية بوظيفة نائب الشرع (نائب القاضي) في القدس ووظيفة باشكاتب المحكمة الشرعية (١١٢٣) . وكان موسى الخالدي (١٧٦٧ — ١٨٣٢) شخصية مهمة . وقد شغل في وقت متأخر من حياته منصباً مهماً هو قاضي عسكر الأناضول (١١٢٤) ، وهو واحد من أعلى ثلاثة مناصب قضائية في الدولة .

كان موسى الخالدي عالماً بارزاً ومؤلفاً كتب عدة رسائل في الفقه . وقد تمتع باحترام كبير لدى السلطان محمود الثاني وفي الدوائر العلمية في استانبول (١١٢٥) . والى جانب الخالدي كان هنالك عدد من العلماء البارزين في القدس في القرن الثامن عشر مثل محمد الخليلي (ت ١٧٣٤) ومحمد بن بدير (١٧٤٧ — ١٨٠٥) . وكلاهما من رجال التصوف المشهورين . ويبدو من المادة المتاحة أن عدد علماء القدس في القرن الثامن عشر زاد عن عددهم في القرن السابع عشر . ويذكر حسن بن عبد اللطيف الحسيني في «تراجم أهل القدس في القرن الثاني عشر» أسماء ٧٤ عالماً . وكانت القدس ما تزال تجتذب عدداً من العلماء من أقطار أخرى . ومن بين من زاروها أو أقاموا فيها عبد الغني النابلسي ومصطفى البكري من دمشق ومصطفى أسعد اللقيمي من دمياط وعلي الخلفاوي من القاهرة (١١٢٦) . ودلت الدراسات الأخيرة على أن معظم علماء القدس وفلسطين في القرن الثامن عشر تلقوا تعليمهم العالي في مصر وخصوصاً في الجامع الأزهر (١١٢٧) . وهناك آخرون ذهبوا الى دمشق أو استانبول .

وأما البحث العلمي الحديث أيضاً اللثام عن ناحية مشرقة للحياة الثقافية في القدس في القرن الثامن عشر، ألا وهي وجود عدد كبير من المكتبات الخاصة العائدة لعلماء المدينة؛ وهي حقيقة تبرر بعض التعديلات في الصورة القائمة التي ترسم عادة للأوضاع العلمية في هذه الفترة (١٢٨).

وإذا كانت هناك زيادة معينة في عدد العلماء في القرن الثامن عشر فلم يكن لهذا علاقة بمدارس القدس. المدارس كانت في حالة انهيار، والطلاب الذين يطلبون التعليم العالي كان عليهم السفر خارج البلاد. ويقدر أن من بين ٥٦ مدرسة كانت قائمة في العصر المملوكي بقي في أواسط القرن الثامن عشر (٣٥) مدرسة لا غير.

وفي نهاية القرن أصبح الرقم أقل من ذلك بكثير. والمدارس التي رآها جلبي في الأروقة المحيطة بالحرم في القرن السابع عشر اختفت كلها تقريباً. وقال سائح أوروبي زار القدس في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر: إنه لم ير أثراً للمدارس التي كانت تحيط بالحرم؛ فقد اختفت (١٢٩).

أما سبب انحلال المدارس فينبغي أن نبحث عنه في انقراض أوقافها. ومع أن الأوقاف من وجهة نظرية تدوم أبد الدهر، فإن انقراضها بفعل عوامل الفساد ومضي الزمان أمر لا مناص منه. وفي عصر تميز بأزمة اجتماعية واقتصادية تسارعت عملية الانقراض إما بسبب انعدام الصيانة أو اللجوء إلى أساليب قانونية مختلفة أفضت إلى تقطيع أوصال الأوقاف أو انتقال ملكيتها. وحتى في القرن الخامس عشر شكوا مجير الدين من أن عدة قرى كانت موقوفة على المدرسة المعظمية قد أخذت، وصارت بيد الناس اقطاعاً أو ملكاً (١٣٠).

وبلغ انقراض الأوقاف ذروته في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر. وفي أوائل القرن التاسع عشر كانت كثير من الأوقاف قد جُرئت وانتقلت ملكيتها إلى الآخرين إما عن طريق الإجارة الطويلة لعقارات الوقف أو استبدال المال النقدي بهذه العقارات؛ أي بيعها (١٣١). وكان أكثر التدابير شيوعاً لإنشاء حقوق خاصة في أموال الوقف هو الاجراء المعروف بالخلو، الذي يسمح بموجبه للمستأجر أن يعمر الوقف ويغدو ما أنفقه على الوقف ادعاء لمصلحته يكسبه حقاً تجاه الوقف (١٣٢). وبين سنتي ١٨٠٥ و ١٨٢٠ بلغت عمليات الخلو الجديدة في القدس السبعين (١٣٣).

وكانت الاجارة الطويلة للأوقاف تُفضي في الواقع الى اغتصابها أو انتقالها الى غير المسلمين . وقد أعرب الشيخ محمد الخليلي في وقفيته المؤرخة سنة ١٧٢٦ عن تفجعه لانتقال أموال الأوقاف الى الغرباء وأكد ما يحمله هذا الانتقال من نذر الخطر للقدس (١٣٤) .

إن وقفية الشيخ الخليلي وثيقة طويلة حافلة بالمعلومات القيمة . ونحن نعرف منها ، بين اشياء أخرى ، أن القدس كان فيها كثير من الكروم وأشجار الفاكهة كالتين والزيتون والعنب والتفاح والرمان والتوت والإجاص واللوز الخ ، سواء في داخل المدينة أو خارجها (١٣٥) .

ويتعارض هذا مع أقوال الزوار الأوروبين الطارئين الذين اتجهوا الى تأكيد النواحي السلبية . ان دارفيو ، على سبيل المثال ، تحدث عن الخراب البياب والأراضي المهملة وقطاع الطرق الهائمين في البلاد وعن «منطقة اليهودية ، الجبلية المجذبة ...» (١٣٦) .

وكذلك فعل فولني السائح الفرنسي الذي زار القدس سنة ١٧٨٤ ؛ فقد أسهب في الكلام عن النواحي ذاتها وضخمها : «... أسوارها (أي أسوار القدس) المسوّاة بالأرض (١٣٧) وخنادقها الممتلئة ، وجميع مبانيها (١٣٨) المثقلة بالأنقاض» (١٣٩) . وفي رأي فولني أن سكان القدس «يستحقون أتم استحقاق سمعتهم كأحق الناس في سوريا» (١٤٠) . أما شاتوبريان ، الذي زار المدينة أربعة أيام فقط سنة ١٨٠٦ ، فقد فاق كلا من دارفيو وفولني ، وقال كلمات كثيرة في الحظ من قدر المدينة وأهلها (١٤١) .

من الطبيعي أنه كانت هنالك بعض المناطق المهملة في القدس في تلك الأيام ؛ ولكن كانت هنالك أيضاً عدة دارات وقصور . وتذكر المصادر قصور جبار الله بن أبي اللطف (١٤٢) ، ونور الدين الجماعي (الخطيب) (١٤٣) ، وصالح العسلي (١٤٤) . وكان هنالك قصران بناهما الشيخ الخليلي خارج سور المدينة (١٤٥) . ولاحظ الخليلي بأسف أن أكثر من مائة قصر «منيع» انتقلت الى أيدي العدو أو هدمت ، وأكد أهمية عمارة القدس وشحنها بالسكان «ارهاباً للعدو واغظة له وقطعاً لا طماعه» (١٤٦) .

و يبدو أن تحذيرات الخليلي حول عمارة القدس واسكان الناس فيها لم تعرها السلطات العثمانية أي اهتمام . فليست لدينا وثائق عن مشروعات عمرانية عامة كبيرة في القدس خلال هذه الفترة ، باستثناء أعمال الترميم الدائمة في منطقة الحرم بطبيعة الحال . ففي أثناء عهود السلاطين أحمد الثالث وعمود الأول وعبد الحميد الأول جرت أعمال

ترميم في قبة الصخرة في السنوات ١٧٠٥ و ١٧٣٥ و ١٧٥٢ و ١٧٨٠ (١١٧). وشهدت السنوات الأولى من القرن التاسع عشر أعمال ترميم كبيرة في قبة الصخرة. ونفذ هذه الترميمات سليمان باشا والي صيدا في سنتي ١٨١٧ و ١٨١٨ بأمر من السلطان محمود الثاني. واستمرت الترميمات ٢١ شهراً وبلغت نفقاتها ٤٠٠٠ كيس (١١٨).

إن عدد السكان في نهاية القرن الثامن عشر لم يتجاوز فيما يبدو، وحسب المعلومات المتوافرة لدينا، الذروة التي وصلها في أواسط القرن السادس عشر؛ أي ١٤٠٠٠. وقد قدر فولني عدد سكان القدس سنة ١٧٨٤ باثني عشر أو أربعة عشر ألفاً (١١٩). أما زيتسن Seetzen، السائح والعالم الألماني الذي زار القدس بعد ذلك بحوالي عشرين سنة (١٨٠٦)، فيعطينا رقمين ذكرا له، أحدهما ١٢ ألفاً، والثاني أقل من ذلك، وهو ٨٧٧٤. والرقم الأخير، الذي يعتقد بأنه أقل من الحقيقة، قسم على الوجه التالي: ٤٠٠٠ مسلمون، ٢٧٧٤ مسيحيون و ٢٠٠٠ يهود (١٢٠). و يقدر مؤرخ اقتصادي معاصر هو بونيه A. Bonne عدد سكان القدس في أوائل القرن التاسع عشر بـ ١٢ ألفاً (١٢١). وهذا الرقم، مع أنه تقريبي ومبني على التقدير، ربما لم يكن بعيداً عن الحقيقة. أما الرقم ٢٦٠٠٠ المبني على تقديرات و. تيرنر W. Turner الذي زار القدس في أوائل القرن التاسع عشر، فهو على الأرجح مبالغ فيه (١٢٢).

وفي غياب الاحصاءات الرسمية يظل من غير الممكن اعطاء أرقام دقيقة عن سكان القدس في هذا الوقت. أما أن المسلمين كانوا يشكلون الكثرة الساحقة فهذا واضح على أية حال. ففي سنة ١٨٢١ قال قاضي القدس: «لا يكاد يوجد نصراني واحد لكل مائة من المسلمين» (١٢٣). وهذا القول بينطوي على المبالغة بطبيعة الحال ولكنه ذو دلالة. وفي السنوات الأولى من القرن التاسع عشر ازداد عدد اليهود بعد وصول ٢٠ عائلة اشكنازية من فلنا Vilna سنة ١٨٠٩ (١٢٤).

ونظراً لقداسة القدس اعتمد سكانها في معيشتهم الى حد كبير، الآن وكما في السابق، على الإيرادات التي تولدها الدوافع الدينية. فإضافة الى الأوقاف والمؤسسات التقوية من كل الأنواع كان أهل القدس يتلقون دفعات متعددة من الأموال النقدية. فالحكومتان العثمانية والمصرية كانتا ترسلان منحة سنوية تعرف باسم الصرة لتوزيعها وفق قوائم خاصة على عدد كبير من الفقراء وغيرهم (١٢٥). وبعثت الجاليات اليهودية في أوروبا

ومصر وغيرهما الى أبناء دينها في القدس مساعدات خيرية تعرف باسم خالوكا *Halukka* وكذلك أرسل ملوك أوروبا، وخاصة ملك اسبانيا، مبالغ كبيرة من المال الى الفرنسيسكان في القدس (١٥٦).

وهناك مصدر آخر للدخل كان يتألف من صناعة أدوات التعبد وتصديرها مثل المسابح والصُّلبان وذخائر القديسين. وكان يصدر من هذه الأدوات ٣٠٠ صندوق سنوياً الى تركيا وايطاليا والبرتغال والى اسبانيا بوجه خاص (١٥٧). وكان هذا المصدر ذا أهمية كبيرة للمسيحيين والمسلمين على حد سواء. ويذكر زيتسن سنة ١٨٠٦ مصنعاً كبيراً للجلود قرب كنيسة القبر المقدس (القيامة) وكذلك عدداً من المشاغل بينها خمس طواحين وخمسة وعشرون قُرناً. ويبدو من وصفه للمهن المحلية أنه كان في القدس ٧٠٠ من أصحاب الصنائع والتجار كحدٍ أدنى (١٥٨).

وهناك مصدر رئيسي ثالث للدخل هو الدخل من الحجاج. كان من عادة الحجاج المسيحيين أن يكتنوا في القدس خمسة أو ستة أشهر كل عام، ولا بد أنهم كانوا ينفقون مبالغ كبيرة. ومع أن عدد الحجاج الأوروبين تناقص بشكل كبير في القرن الثامن عشر، إلا أن الأمر كان مختلفاً بالنسبة للمسيحيين الشرقيين الذين بلغ عددهم سنة ١٧٨٤ ألفي حاج (١٥٩).

إنّ النقص في عدد الحجاج الأوروبين في القرن الثامن عشر يرجع جزئياً الى روح العلمانية التي ازداد أنصارها في أوروبا. ومن قبيل التناقض أن نشهد في هذا الوقت بالذات فورةً في الحماسة «الدينية» حول المدينة المقدسة في وزارات الخارجية للدول الأوروبية. فقد ظهرت فرنسا والنمسا بمظهر «الحاميتين» للاتين؛ بينما ادعت روسيا، خصوصاً في عهد بطرس الأكبر (١٦٨٢ - ١٧٢٧)، أنها تدافع عن مصالح الروم وانعكست مواقف الدول في جميع المعاهدات الدولية الرئيسية تقريباً. وفي سنة ١٧٤٠ نجحت فرنسا في فرض نسخة جديدة من الامتيازات الأجنبية على الدولة أكدت فيها دورها كحامية للكاثوليك وضمنت حقوق الفرنسيسكان في القبر المقدس وغيره من الأماكن الدينية. وفي هذه المرة مُنحت الامتيازات الأجنبية بصورة مؤبدة. وفي معاهدة كوتشوك كاينرجه (١٧٧٤) أكدت روسيا حقوقها في حماية الروم الأرثوذكس وحق رجال الدين والحجاج الروس في زيارة القدس دون دفع ضرائب أو إتاوات.

وكان من نتائج مواقف الدول الأوروبية زيادة لا سابق لها في المشاحنات بين الطوائف المسيحية. وكثيراً ما كانت هذه المشاحنات تتطور الى صدامات دموية. وقد حدث أعنف هذه الصدامات في سنة ١٧٥٧ بين اللاتين والروم في داخل القبر المقدس (١١٠). وعلى أثر ذلك أصدر السلطان عثمان الثالث فرماناً مشهوراً أعاد فيه تأكيد حق الروم الأرثوذكس في جميع الأماكن التي أخذت منهم سنة ١٦٩٠. ويشكل الترتيب الذي تم التوصل اليه سنة ١٧٥٧ أساس «الوضع الراهن» — *status quo* — الذي ينظم العلاقات بين المسيحيين اليوم بهذا الشأن.

أما العلاقات بين المسيحيين والمسلمين فبقيت سلمية. وبسبب الخلافات بين الطوائف المسيحية حاول رؤساء هذه الطوائف تنمية العلاقات مع الحكام ووجهاء القدس المسلمين وعامة الشعب، بغية تعزيز مواقعهم ونفوذهم في البلاد. وكان من عادة رؤساء الأديرة، سواء من اللاتين أو الروم أو الأرمن أن يقدموا الهدايا الى الأشخاص المتنفذين والمساعدات الخيرية الى الفقراء. وتطورت هذه الى مرتبات وراثية كان يمكن بيعها أو نقلها حسب الرغبة من شخص الى آخر. وهناك أمثلة عديدة لمعاملات البيع أو النقل هذه في السجلات (١١١). وكانت الأديرة تدفع أيضاً مبالغ مقطوعة الى خزانة الحاكم (١١٢).

تطورات تالية

في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن العشرين واجهت الدولة تهديدين رئيسيين أحدهما في مصر والثاني في البلقان. ففي سنة ١٧٩٨ غزا نابوليون بوناپرت مصر وفي السنة التالية زحف الى سوريا. وانتهت حملته السورية بالفشل أمام أسوار عكا. وقد قوبلت أنباء الحملة الفرنسية في القدس بترقب وقلق. ويعطينا السجلان ٢٨٠ و ٢٨١ بعض المعلومات في هذا الشأن (١١٣). فحتى في شهر تموز (يوليه) ١٧٩٨، وهو أول شهور الغزو الفرنسي لمصر، استجاب والي الشام الى طلب وجهاء القدس بتزويدهم بالسلاح للدفاع عن المدينة (١١٤). وبعد ذلك بأسبوعين أبلغهم الوالي أن أحمد باشا الجزائر، والي صيدا، عين قائداً عاماً وأن جميع القضايا المتعلقة بالدفاع ينبغي أن تحال اليه (١١٥). وفي شهر أيلول (سبتمبر) أمر والي دمشق جميع الرجال القادرين في سنجق القدس بالالتحاق بجيش السلطان (١١٦). وأثارت أنباء نزول الجيش الفرنسي في الاسكندرية الذعر والغضب في القدس وأدت الى مهاجمة الأديرة وأخذ الرهبان كرهائن.. بيد أن الوالي نصح بالتروي وأمر بحماية الأديرة

« طالما أنهم يدفعون الجزية ولا يظهرون علامات على الخيانة » (١١٧). وعندما سمع الوالي أنباء عن قيام الفرنسيين بارسال بعض الرسائل الى سكان القدس أمر بأن تسلم هذه الرسائل الى السلطات على الفور (١١٨).

والتف أهل القدس وجميع فلسطين حول الحكومة العثمانية، وأرسل الشيخ موسى الخالدي، قاضي عسكر الأناضول منشوراً الى أهل فلسطين دعاهم فيه الى القتال ضد نابوليون (١١٩). وانشأ الشيخ محمد بن بدير، عالم القدس، قصيدة تمخيداً لانتصار الجزائر على الفرنسيين (١٢٠).

وعندما ماتت الجزائر سنة ١٨٠٤ تلاه سليمان باشا (١٨٠٤ - ١٨١٨) الذي تلاه بدوره عبد الله باشا (١٨١٨ - ١٨٣١). ومع أن القدس كانت تتبع - كما هي العادة - والي دمشق فقد كان حكمها في الواقع خلال الجزء الأعظم من الثلث الأول من القرن التاسع عشر بيد والي صيدا. وفي سنة ١٨٣٠/١٨٣١، وهي السنة التي سبقت الاحتلال المصري، كانت المدينة رسمياً وفعلياً تحت حكم عبد الله باشا والي صيدا (١٢١). وخلال هذه الفترة تولى حكم القدس عدد من الحكام المحليين الذين كان يدعى واحد منهم بـ «المتسلم». ومن ١٨٠٢ الى ١٨٠٣ ومن ١٨٠٥ الى ١٨٠٧ تولى حكم القدس مُتسَلِّمُ ياقا محمد أبو المرق الذي اكتسب سمعة سيئة بسبب استبداده وتسلطه على أهل ياقا والقدس والخليل والرملة وغزة. وقد ضايق أبو المرق الحجاج المسيحيين أيضاً وفرض عليهم الإتاوات الباهظة.

ومن سنة ١٨٠٨ الى ١٨٣١ (وهي نهاية الفترة الأولى من الحكم العثماني) عاشت القدس سلسلة من الاضطرابات والثورات. وفي سنة ١٨٠٨ دمر حريق الجزء الغربي من كنيسة القبر المقدس. واتهم الأرمين باشعال النار في الجزء المخصص لهم من الكنيسة في محاولة لتغيير الوضع الراهن *status quo*. وقدمت الطوائف جميعاً عروضاً لاعادة بناء الكنيسة. وبعد كثير من البيانات والاحتجاجات نجح الروم في الحصول على اذن لمباشرة العمل؛ إلا أن الإنكشارية الذين غضبوا لأن حماية القلعة أسندت الى جنود آخرين حرّضوا السكان المسلمين على عرقلة أعمال التعمير (١٢٢). وتلت ذلك ثورة عامة. وطرد الثائرون المتسلم واحتلوا القلعة. وصدرت الأوامر الى سليمان باشا باتخاذ اجراء فوري ضد العصاة. ولذا فقد أرسل مفرزة من الجند بقيادة ضابط مغربي يدعى أبوزريعة وحوصرت القلعة

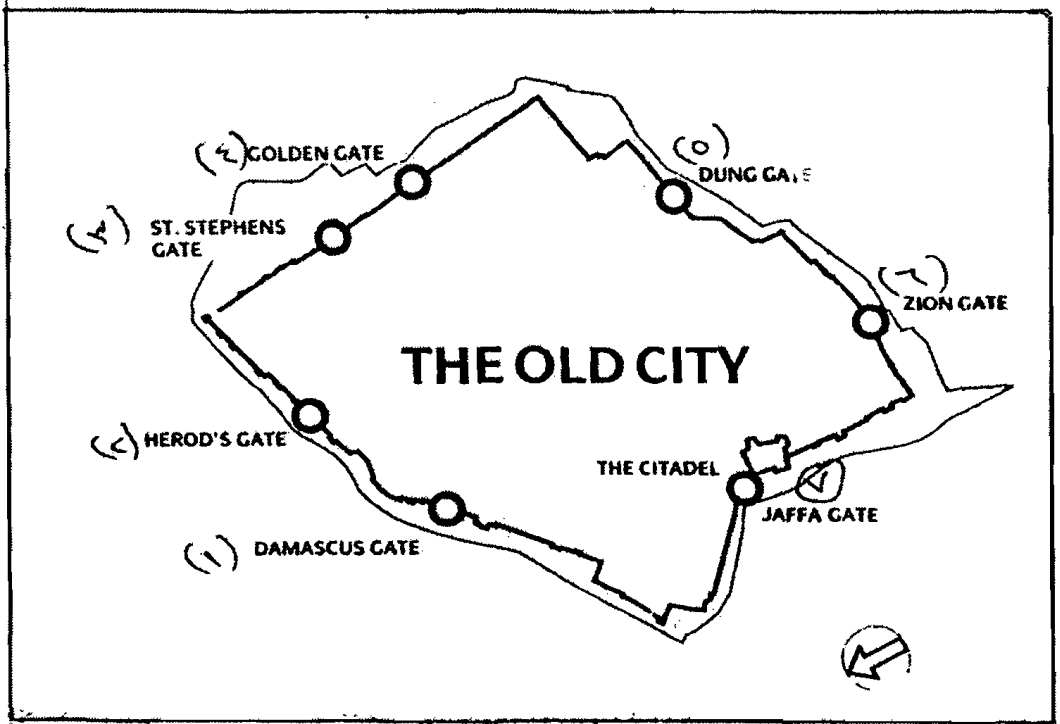
وأرغم الثائرون على الاستسلام . وقطع أبو زريعة بيديه أعناق ٤٦ ثائراً ، وأرسل رؤوسهم الى سليمان باشا (١٧١) .

ولم تخل التطورات في البلقان من انعكاسات في القدس ، خصوصاً الثورة اليونانية سنة ١٨٢١ . فعندما وصلت أنباء الثورة الى القدس صدرت الأوامر الى جميع المسلمين بأن يحملوا السلاح وجمعت الأسلحة من المسيحيين . ويقول الراهب اليوناني نيوفيتوس إن متسلّم القدس في ذلك الوقت ، سليمان أفندي ، كان يهودياً اعتنق الاسلام وكان يضم السوء للمسيحيين ويوجه لهم اتهامات باطلة (١٧٦) . وأتهم مسيحيو القدس بالتآمر مع اليونان وهيج العامة ضدهم . لكن درويش باشا ، والي دمشق ، وقف بحزم ضد اساءة معاملة المسيحيين بأي شكل ووجه تعليمات للقدس بأن لا يقتل أي مسيحي الا بعد أخذ موافقته (١٧٦) . وعقد اجتماع كبير في المحكمة القدس الشرعية وحذر القاضي أيضاً من اساءة معاملة المسيحيين : « لا تضيقوا على الرعية فهم مؤمنون ؛ وأي شر يلحق بهم انما هو اثم وظلم ضد الله ورسوله » (١٧٧) . وبعد وقت قصير تمت السيطرة على الوضع ولم يصب أي مسيحي بأذى .

وبعد مضي حوالي ثلاث سنوات على هذه الأحداث (في سنة ١٨٢٤) شهدت القدس ثورة ذات أبعاد أكبر . وقد روى نيوفيتوس وقائعها بالتفصيل . وكانت أسباب الثورة تشبه أسباب الثورات الكثيرة في أنحاء الدولة المختلفة ، وهي تزايد عبء الضرائب . لقد طلب والي دمشق الجديد ، مصطفى باشا ، « دفع أعشار أكبر ، تبلغ عشرة أضعاف الأعشار المعتادة » (١٧٨) . وعندما ثار الفلاحون في المنطقة المحيطة بالقدس أرسل الباشا ١٠٠ جندي الى القلعة ، ثم سار بنفسه من دمشق على رأس خمسة آلاف رجل لمعاينة الثائرين . ولدى اقتراب الباشا هجر الفلاحون قراهم ولجأ بعضهم الى الأديرة التي قام الجنود بتفتيشها . وأدّخشي المسيحيون أن تدمر نيران المدفعية الأديرة فقد قاموا بدور الوساطة بين الباشا والفلاحين . وبعد أن دفع الفلاحون والمسيحيون غرامة كبيرة تم التوصل الى اتفاق . ولكن حالما غادر الباشا الى دمشق استؤنفت الثورة ، هذه المرة داخل القدس نفسها . ففي الخامس من حزيران (يونية) سنة ١٨٢٥ احتل أهل القدس القلعة وحرسوا أبواب المدينة حراسة دقيقة . وعندما عاد المتسلّم من بيت لحم والقرى المجاورة لم يسمح له بدخول المدينة . وانتخب أهالي القدس شخصين من بينهم ليكونا زعيمين لهم ، وهما يوسف عرب جبجي الجاعوني وأحمد أغا الدردار العسلي . وكان من أوائل الاجراءات التي اتخذها الحكام

الجدد تخفيض الضرائب. فقد حُرر سكان بيت لحم والقرويون، مسلمين ومسيحيين، من معظم الأعداء (١٧٨١). وأحدث الوضع الجديد رد فعل حاداً لدى السلطان؛ فأمر عبد الله باشا باخضاع الخونة. وأرسل الباشا على الأثر نائبه (الكيخيا) الى القدس على رأس ألفي جندي. وفي المفاوضات التمهيدية رفض زعماء القدس التزحج عن مواقفهم، إذ أنهم كانوا قد أقسموا مراراً على ألا يستقبلوا بين ظهرانيهم أجنبياً أو غربياً (أي عثمانياً أو البانيا) (١٧٨٠). وبعد وقفة شجاعة استسلموا. ولكن ذلك لم يحدث الا بعد أن أخذت نيران المدفعية تتساقط بلا تمييز على المدينة من جبل الطور. وانتهت الثورة هذه المرة دون سفك دماء، وأعطى قادتها الأمان للخروج من المدينة.

وبعد ذلك بست سنوات، في سنة ١٨٣١، زحف ابراهيم باشا، ابن محمد علي باشا حاكم مصر، الى سوريا واحتل القدس.



الشكل (١٢): أبواب القدس

(١) باب العمود. (٢) باب الساهرة. (٣) باب الأسباط. (٤) باب الرحمة. (٥) باب المغاربة. (٦) باب النبي داود. (٧) باب الخليل.

الحواشي

١. أحمد فريدون بيه، منشآت السلاطين الجزء الأول، ص ٤٨٣. فريدون بيه عالم تركي عاش في القرن السادس عشر وتوفي سنة ١٥٨٣.
٢. ابن اياس، بدائع الزهورج، ص ١٣٦.
٣. Evliya Çelebi, 'Evliya Tschelebi's Travels in Palestine', tr. St H Stephan, *Quarterly of the Department of Antiquities in Palestine*, VIII, 147.
٤. فريدون، منشآت، ج ١ ص ٤٥٢-٤٥٦.
٥. نقش قرب الباب الشمالي للعبة.
٦. سجلات المحكمة الشرعية بالقدس، سجل ٤٤، ص ٥٧٧.
٧. تحتوي السجلات على مادة غنية للمعهد العثماني بكامله وفي جميع الميادين الاجتماعية والاقتصادية والدينية والثقافية والسياسية. وهناك الآن أكثر من ٦٥٠ سجلاً يتجاوز عدد أوراقها المائة ألف ورقة. وهي غير مفهرسة حتى الآن.
٨. انظر، بين مصادر أخرى، ابن تغري بردي النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٤٥، رشاد الامام مدينة القدس، ص ١٦٤، وكذلك، N Avigad, *Discovering Jerusalem*, 254.
٩. الباب السابع، ويدعى «الباب الجديد»، بني في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٩).
١٠. السجل رقم ١٠، ص ١٦ (١٥٤٥هـ/١٥٣٨م).
١١. المسلي، من آثارنا في بيت المقدس، ص ١٥١/١٥٢.
١٢. برك سليمان. كان هناك ثلاث برك في أوائل القرن السادس عشر. ويذكر مجير الدين الحنبلي في أواخر القرن الخامس عشر بركتين فقط: «بركنا المرجع» [الأنس الجليل، مج ٢، ص ٩٩]. ويبدو أن البركة الثالثة أضيفت في العهد العثماني خلال حكم سليمان القانوني.
١٣. دعيت بهذا الاسم نسبةً للسلطان بروق الذي عمرها سنة ٨٠١هـ/١٣٩٨م (مجير الدين الأنس الجليل، مج ٢، ص ٩٤).
١٤. المعارف، المفضل، ص ٥٠٤.
١٥. لمعرفة التفاصيل انظر وقفية خاصكي سلطان، السجل ٢٧٠، ص ١٨-٤٩.
١٦. السجل ٢٧٠، الوقفية.
١٧. السجل ٢٧٠، ص (٥٠).
١٨. دفاتر الطابور التي وضعت لتقدير الضرائب تعطينا معلومات حول السكان وتركيبهم وتوزيعهم والمدن واحيائها وسكانها ومؤسساتها المختلفة (الحمامات والخانات والدكاكين الخ)، والريف والمحاصيل الزراعية والمواشي الخ. وهناك عدة دفاتر تتعلق بالقدس (ومنها على سبيل المثال الدفاتر ذوات الأرقام ٥٢٢، ٣٤٢ و ٦٠٢ و ٤٢٧ و ١٣١ و ١٠١٥ و ٢٨٩ و ٣٤٦ و ٩٥٠).
١٩. انظر مثلاً:

- ١٩ . وفق ما يذكره محمد سليم اليقوب في ناحية القدس الشريف (وهي رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية ١٩٨٦)، ص ٢٤ - ٧١، بلغ عدد القرى ١٦٩ .
- ٢٠ . السجل ٣ (١٥٣٢)، ص ٤٢٨ .
- ٢١ . السجل ١٢ (١٥٤٠)، ص ٦٧٢، والسجل ٣١ (١٥٥٥)، ص ٤٢٦ .
- ٢٢ . السجل ١٥ (١٥٤٢)، ص ٧٩ .
- ٢٣ . صفوة الجنود المشاة في الدولة العثمانية. نظمت كجيش معترف في القرن الرابع عشر. وكانوا يُختارون من الشعوب الخاضعة للدولة العثمانية، وخصوصاً من العائلات المسيحية. وقد تمردوا في القرنين السابع عشر والثامن عشر وقتلوا اثنين من السلاطين. وفي سنة ١٨٢٦ قام السلطان محمود الثاني بتصفيتهم.
- ٢٤ . المذهب الحنفي أحد المذاهب الفقهية الأربعة. والمذاهب الثلاثة الأخرى هي المذهب الشافعي والمذهب المالكي والمذهب الحنيلي.
- ٢٥ . عبد الكريم غرايبة، سوريا في القرن التاسع عشر، ص ٥٢ .
- ٢٦ . انظر مثلاً: Heyd, *Ottoman Documents*, no. 9.
- ٢٧ . Gibb and Bowen, *Islamic Society and the West*, II, pt. II, 288.
- ٢٨ . بناء على قائمة مبدئية وضعت استناداً إلى مصادر متعددة.
- ٢٩ . Cohen and Lewis, *Population*, 94.
- وانظر أيضاً
- Hütteroth and Abdul Fattah, *Historical Geography*, 52.
- ٣٠ . اتضح من دراسة قام بها كاتب هذا البحث أنه كان يعيش في القدس في الفترة المملوكية مسلمون وفدوا إليها من ٢٢ بلداً [كامل الحسلي، «الطابع الاسلامي الدولي لعلماء القدس» - مجلة القدس الشريف رقم ٨، تشرين الأول ١٩٨٥، ص ٤٠ - ٥٠].
- ٣١ . السجل ٥٥، ص ٢٠٧ .
- ٣٢ . اليقوب، ناحية القدس، ص ١٢٥ - ١٣٣ .
- ٣٣ . المصدر نفسه، ص ١٣٦ .
- ٣٤ . Cohen and Lewis, *Population*, 55, 63.
- استناداً إلى دفتر التحرير لسنة ٩٦١هـ (١٥٥٣ - ٥٤م).
- ٣٥ . Heyd, *Ottoman Documents*, nos. 79, 80 and 82;

اليقوب، ناحية القدس، ص ١٧١

- Heyd, op. cit., no. 82, 132. . ٣٦ اليقوب، ص ١٧٣،
- Heyd, *Ottoman Documents*, no. 23. . ٣٧
- . ٣٨ للتفاصيل انظر:
- Cohen and Lewis, *Population*, 46-72; Ya'qub, op. cit., 177-94. . ٣٩ واليقوب ناحية القدس ص ٣٧٧ - ١٩٤ .
الوحدة الرئيسية للعملة الفضية العثمانية .
- Et², V, 334. . ٤٠
- . ٤١ المصدر نفسه والصفحة ذاتها .
- Cohen and Lewis, *Population*, 70. . ٤٢
- . ٤٣ العارف، المسيحية في القدس، ص ٢٤ .
- F E Peters, *Jerusalem*, 506. . ٤٤
- . ٤٥ محمد فريد، تاريخ الدولة العلية، ص ٧٨ .
- . ٤٦ روجي الخالدي، المقدمة في المسألة الشرقية، ص ٦٥ .
- . ٤٧ انظر:
- See J Hurewitz, *The Modern East and North Africa in Modern Politics*, I, *European Expansion*, 2-3. . ٤٨
- Peters, *Jerusalem*, 499. . ٤٩ المصدر نفسه، ص ٤٨٤ .
- Cohen, *Jewish Life Under Islam*, 223, 224. . ٥٠
- . ٥١ المصدر نفسه، ص ٢٢٤ .
- . ٥٢ المصدر نفسه، ص ١١٩ .
- . ٥٣ المصدر نفسه، ص ٢٢٥ .
- Heyd, op. cit., 28. . ٥٤

- ٥٥ . المصدر نفسه ، ٤٣ (سنة ١٥٨٣)
- ٥٦ . المصدر نفسه ، ٤٤ .
- ٥٧ . عهد سليمان الأول الى عائلة أبوغوش من قرية العنب بحماية الطريق من يافا الى القدس . وأعطيت قبائل بني زيد وبني حسن والبيدية مهام مماثلة في مناطقهم .
- ٥٨ .
- M Sharon, "The Political Role of the Bedouins in Palestine" in M Ma'os, *Studies on Palestine during the Ottoman Period*, 23.
- ٥٩ . Heyd, op. cit., no. 28.
- ٦٠ . المصدر نفسه .
- [Ibid, nos. 61, 62, 66.
- ٦١ . Evliya Çelebi, *Siyāhatnāmesi*, XIII, 255.
- ٦٢ . تعكس تقارير السياح حالة الأمن السيئة على الطرق . فعندما أراد السائح التركي أوليا جلبي أن يزور الخليل سنة ١٦٧٢ رافقه ٢٦ من الفرسان الى هناك .
- (*Siyāhatnāmesi*, XIII, 253).
- وفي ذلك الوقت كان أرباب الاقطاعات مكلفين باصطحاب السياح المسلمين الى الخليل وبيت لحم والقيي موسى .
- (St. H. Stephan, *Tschelebis Travels*, Q D A P, vol. VIII, p. 150).
- وفي سنة ١٦٧٠ قال الرحالة المصري المدني الخياري إن قافلته المتجهة من الرملة الى الخليل كانت في حاجة الى حراسة عسكرية من قطاع الطرق (الخياري، تحفة الأديباء، ج ٢، ص ١٧٢) . وفي سنة ١٦٦٣ لم يتمكن الرحالة المغربي أبوسالم العياشي من القيام بالزيارة التي كان يتطلع اليها لمقام النبي موسى، ولم يكن في وسع قاضي القدس أن يساعده (أبوسالم العياشي، الرحلة، ص ٣١٨/٣١٩) .
- ٦٣ . كامل الصلي، وثائق مقدونية، المجلد الأول، ص ٢٨٩/٢٩٠ .
- ٦٤ . السجل ٧٩/١٥٩٨)، ص ٥٣٠/٥٣١ .
- ٦٥ . العارف، المسيحية في القدس، ص ٢٥٠ .
- ٦٦ . العارف، الفصل، ص ٣٦٣ .
- ٦٧ .
- Peters, *Jerusalem*, 521.
- ٦٨ . رمضان سنة ١٠٨٢ هـ .
- Stephan, IX, 95).
- ٦٩ . Çelebi, *Siyāhatnāmesi*, XIII, 253.
- ٧٠ . المصدر نفسه، ص ٢٥٠ .

٧١. في اوائل العهد العثماني لم يكن هناك احياء خاصة منفصلة للمسيحيين واليهود. ولا تظهر أسماء «حارة النصارى» و«حارة اليهود» في السجلات العثمانية قبل القرن التاسع عشر. فقد كان المسيحيون والهنود يعيشون مع المسلمين في الأحياء ذاتها.

٧٢. 'Tschelebi's Travels in Palestine', tr. St H Stephan, VIII, 156.

٧٣. H Maundrell, *A Journey from Aleppo to Jerusalem*, 61.

٧٤. انظر رحلتي مصطفى البكري الصديقي ومصطفى أسعد اللقيمي في الخالدي، رحلات في ديار الشام، ص ٥٦ و ١٠٠.

٧٥. السلي، من آثارنا، ص ٢٣٨.

٧٦. المصدر نفسه، ص ٢٨٤

٧٧. المصدر نفسه، ص ١٥٣ و ١٥٥

٧٨. السجل ٢٠٥، ص ٢٤.

٧٩. العارف، الفصل، ص ٣٠٧.

٨٠. انظر:

op. cit., nos. 98, 100-105.

٨١.

'Tschelebi's Travels in Palestine', tr. St H Stephan, VIII, 149.

كان أمير الحاج الشامي من الشخصيات المهمة في الحياة العامة. وكانت مهمته الرئيسية تأمين سلامة الحاج والاشراف على شئون قافلة الحاج. وفي أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر كان يمين أمراء محليون لهذا المنصب. وفي أواسط القرن السابع عشر عين بعض ضباط الانكشارية في هذا المنصب. وبعد سنة ١٦٦٠ تلا ضباط الانكشارية في إمرة الحاج ضباط عثمانيون، كانوا يتولون حكم السناجق. وابتداء من سنة ١٧٠٨ أخذ ولاية دمشق يمتثلون هذا المنصب بصورة منتظمة (عبد الكريم رائق، بلاد الشام ومصر، ص ٢١٣-٢١٥، وبحوث في التاريخ الاقتصادي ص ١٩٧).

٨٢. في القرن السادس عشر صدرت الأوامر الى أرباب الاقطاعات في سنجق القدس وفيه من السناجق في فلسطين بالذهاب الى ميادين القتال خارج مناطقهم، خصوصاً في الحروب ضد الفرس.

٨٣. 'Tschelebi's Travels in Palestine', tr. St H Stephan, VIII, 150.

٨٤. المصدر نفسه، ص ١٥٠.

٨٥. المصدر نفسه، ص ١٤٩.

٨٦. المصدر نفسه، ص ١٥٠.

- ٨٧ . المصدر نفسه، ص ١٥٠ .
- ٨٨ . المجي، خلاصة الأثر، ج ٤، ص ١٠٨ .
- ٨٩ . رافق، بلاد الشام ومصر، ص ٢١٤ .
- ٩٠ . اسمه الشيخ محمد النفاتي . انظر العياشي، الرحلة ج ٢، ص ٥٣ .
- ٩١ . من قائمة موقته أعدها كاتب البحث .
- ٩٢ . الخياري، تحفة الأديباء ج ٢، ص ١٤ .
- ٩٣ . المصدر نفسه، ص ١٩٥ .
- ٩٤ . رحلة العياشي ج ٢، ص ٥٣ .
- ٩٥ . المقرئ، نفع الطيب ج ١، ص ٣٣ .
- ٩٦ . العارف، المفصل، ص ٢٦٧ و ٢٦٩ .
- ٩٧ .
- 'Tschelebi's Travels in Palestine', IX, 100.
- ٩٨ . المصدر نفسه، ص ٨٤ .
- ٩٩ . السجل ٥٧ (١٥٧٤هـ/١٥٧٤م)، ص ٦٢ .
- ١٠٠ . Heyd, op. cit., no. 94.
- ١٠١ . خير الدين الرملي، الفتاوي الخيرية، المخطوط رقم ٤٤٢، قسم يهودا، مكتبة جامعة برنستون، ورقة ١١٧، انظر احسان عباس، الحياة العمرانية والثقافية، في مجلة المستقبل العربي رقم ٦ (١٩٧٩)، ص ١٤٣ .
- ١٠٢ . 'Tschelebi's Travels in Palestine', IX, 95.
- ١٠٣ . السجل ١٦٧ (١٠٧٧هـ/١٦٦٦م)، ص ٢٧٧ .
- ١٠٤ . المنيني، الإعلام بفضائل الشام، ص ٤٦ .
- ١٠٥ . 105 L d'Arvieux, Mémoires, II, 227-28.
- ١٠٦ . عيّن سنة ١٧٠٢ .
- ١٠٧ . لتفاصيل أخرى حول الثورة انظر المصادر التالية :
محمد كرد علي، خطط الشام، مجلد ٢، ص ٢٧٣ ؛
حسن بن عبد اللطيف الحسيني، تراجم أهل القدس، ص ٣٣٥ ؛
السجل رقم ٢٠٣، ص ٤٤٤
عادل متاع، «عمر أفندي الحسيني وثقافة الأشراف في القدس» في مجموعة بحوث عربية، ص ١٢٧ .
- ١٠٨ . احسان التمر، تاريخ جبل نابلس ج ١، ص ١٢٦ .
- ١٠٩ . السجل ٢٧٠، ص ١١ والسجل ٢٧٢، ص ٢١ و ٢٥ .
- ١١٠ . التمر، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٤٣ - ١٤٦، والعارف، المفصل، ص ٣١٩ .
- ١١١ . المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٠٦ .

١١٢. المصدر نفسه، ج ١، ص ١٣٦.

١١٣. رافق، العرب والعثمانيون، ص ٢٦٥.

Jerusalem (Keter Books), 91.

١١٤. هناك أمثلة كثيرة؛ فالشيخ محمد بن بدير، وهو عالم مرموق، جرح خلال اعتداء على قافلة الحج سنة ١٧٧٩ (حسن بن عبد اللطيف الحسيني، تراجم ص ٣٤٦-٣٤٧)؛ كما أن عالماً مقدسياً آخر هو الشيخ محمد الخليلي تعرض للسلب مع غيره من الحجاج سنة ١٦٩٩ (المصدر نفسه، ص ١٤٨). ويحيى بن درويش الدجاني، خادم قبر النبي داود، قتله قطاع الطرق سنة ١٧٢٠ (المُرادي، سلك الدرر، ج ٢، ص ٢١٧).

١١٥. السجل ٢٤٤ (١٧٦٠)، ص ٣، والسجل ٢٦٨ (١٧٨٦)، ص ٢٣٥ والسجل ٢٧١ (١٧٨٩)، ص ٢٤.

١١٦. انظر مثلاً مرسوم حسين باشا والي دمشق الى متسلم القدس وأعيانها في السجل ٢٦٨ (١٧٨٧)، ص ١١٧.

١١٧. كان لعائلة الحسيني، مثلاً، وكيل خاص يمثلها في استانبول، ويدافع عن مصالحهما:

(B Abu Manneh, 'The Hussainis, the Rise of a Notable Family' in *Palestine in the Late Ottoman Period*, ed. D Kuschner, 98).

EI, V, 334.

١١٨

١١٩. من قائمة مؤقتة أعدها كاتب هذا البحث.

١٢٠. حسن بن عبد اللطيف، تراجم، ص ٣١٧-٣٣٠؛ السجل ٢٧٨ (١٧٩٧)، ص ٧٠.

١٢١. بطرس أبومنة، الكتاب المذكور أعلاه، ص ٩٧ (ويشير فيه الى رسائل خاصة بمائلة الحسيني).

١٢٢. عادل مناع، أعلام فلسطين، ص ١١٩ و ١٢٠.

١٢٣. السجل ٢٦٥ (١٧٨٣)، ص ٢٦، والسجل ٢٦٨ (١٧٨٦)، ص ٢٨، والسجل ٢٧٠ (١٧٨٩)، ص ٨١. وانظر أيضاً المرادي، سلك الدرر، ج ٢، ص ٢١٧.

١٢٤. أحمد سامح الخالدي، أهل العلم، ص ٣٧.

١٢٥. مناع، أعلام فلسطين، ص ١٥٠-١٥١.

١٢٦. حسن بن عبد اللطيف، تراجم، ص ٣٤٠-٣٤٢.

١٢٧. Uri Kupferschmidt, 'Connections of the Palestinian 'Ulama with Egypt' in *Egypt and Palestine*, ed. Cohen and Baer, 176-89. See also A S Khalidi, *Ahl al-'Ilm*.

وانظر أيضاً أحمد سامح الخالدي، أهل العلم

١٢٨. انظر: كامل العسلي، التطعيم في فلسطين، الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد ٣، ص ٣-٣٥، بيروت، ١٩٩٠. والسجل ١٨٨، ص ٢٤٤ وما بعدها والسجل ٢٧٢ ص ١٤٧-١٥٠، والسجل ٢٦٧، ص ١٥٦-١٦٢.

١٢٩

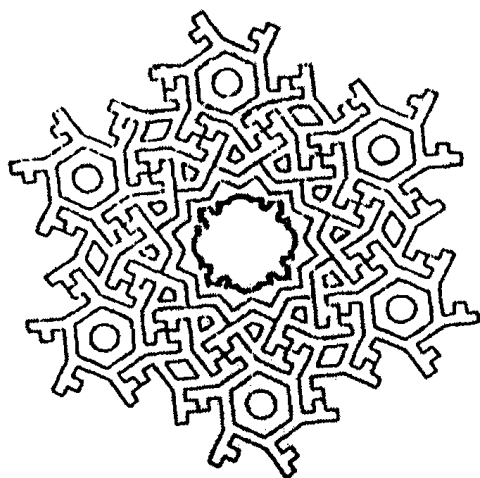
Badia Y Leyblich, *Travels of Ali Bey*, II, 225, 242.

- ١٣٠ . مجر الدين، الأئس الجليلي مجلة ٢، ص ٤٢ .
١٣١ .
- Baer, 'The Dismemberment of Awqaf in Early 19th century Jerusalem' in *Asian and African Studies*, XIII, no. 3, 1979, 220.
- ١٣٢ . المصدر نفسه والصفحة ذاتها .
١٣٣ . المصدر نفسه، ص ٢٢٤ .
١٣٤ . الخليلي، وثيقة مقدسية، ص ٤٣ .
١٣٥ . المصدر نفسه، ص ٣٨ .
- Chevalier d'Arvieux, *Mémoires*, II, 323. ١٣٦ .
- ١٣٧ . من المعروف للجميع أن سور القدس بقي سليماً منذ أن بناه السلطان سليمان .
١٣٨ . الخط من وضعنا نحن .
١٣٩ .
- Volney, *Travels Through Syria*, 303.
- ١٤٠ . المصدر نفسه، ص ٣٠٤ .
١٤١ . انظر
- Chateaubriand, *Oeuvres romanesques et voyages*, II, 980, 981, 1124.
- ١٤٢ . البوريني، تراجم الأعيان، ج ٢، ص ١٢٨ .
١٤٣ . اللقيمي، موانع الأئس، مخطوط في مكتبة الجامعة الأردنية (رقم التصنيف ١٠٤ ٦٤٢ ٩١٥)، الورقة ٧١ .
١٤٤ . عبد الغني التابلي، المختار من الحضرة الأنسية، اختصار النمر، ص ٦١ .
١٤٥ . الخليلي، وثيقة مقدسية، ص ٣٨، ٣٩، ٤٠ .
١٤٦ . المصدر نفسه، ص ٤٣ .
١٤٧ . الماروف، تاريخ قبة الصخرة، ص ٩١ و٩٢ .
١٤٨ . العمرة، تاريخ ولاية سليمان باشا العادل، ص ٢٩٢ - ٢٩٧ .
١٤٩ .
١٥٠ .
- Volney, *Travels*, 304.
- Scetzen, *Reisen durch Syrien*, 18.
- Alfred Bonne, *The Economic Development of the Near East*, 10-11. ١٥١ .
- ١٥٢ . اقتبس
- Thomas Philipp, 'Jews and Arab Christians in Eighteenth Century Syria and Egypt' in *Egypt and Palestine*, ed. Cohen and Baer, 163.
- ١٥٣ .
- Neophytos, *Annals, JPOS*, XVIII, 70.

- ١٥٤ .
M Gilbert, *Rebirth of a City*, 8.
- ١٥٥ . المسلي، وثائق، مجلد ٢، ص ٢٧٥ — ٢٨٠.
- ١٥٦ .
Volney, *Travels*, 318.
- ١٥٧ . المصدر نفسه، ص ٣٠٧.
١٥٨ .
- Seetzen, *Reisen*, II, 21–23.
- ١٥٩ .
Volney, 309.
- ١٦٠ . ميخائيل بريك الدمشقي، تاريخ الشام، ص ٧٢.
١٦١ . السجل ٢٦٩، ص ٥٦ و ٧٤ و ٩٤ والسجل ٢٧٠، ص ٥٤ و ١١٠.
١٦٢ . أسد رستم، الأصول العربية، مجلد (١)، ص ٤٣، ٤٤، و ٤٤.
١٦٣ . انظر:
- Mannā', 'The Sijill as a Source for the Study of Palestine . . .' in *Palestine in the Late Ottoman Period*, ed. Kushner, 357–60.
- ١٦٤ . المصدر نفسه؛ السجل ٢٨٠، ص ٤.
١٦٥ . المصدر نفسه؛ السجل ٢٨٠، ص ٣٥٨.
١٦٦ . المصدر نفسه؛ السجل ٢٨٠، ص ٣٢ و ٣.
١٦٧ . المصدر نفسه؛ السجل ٢٨٠، ص ٣٥٩.
١٦٨ . المصدر نفسه؛ السجل ٢٨٠، ص ٣٥٨.
١٦٩ . أحمد سامح الخالدي، أهل العلم، ص ٢٣٧ ولكن انظر مناع، أعلام فلسطين، ص ١٤٩ و ١٥٠.
١٧٠ . المخطوط رقم ٦٢٣، مجموعة غاريت، Garret Collection، مكتبة جامعة برنستون.
١٧١ . في سنة ١٨٣١ كان يوقع الأوامر والمراسيم كما يلي: والي صيدا وطرابلس ومصرف غزة ويافا والقنس ونابلس وجنين (رستم، الأصول العربية ج ١ ص ٢٤ و ٢٥ و ٣٦ و ٣٧).
١٧٢ . العورة، تاريخ، ص ٨١ و ٨٢.
١٧٣ .
١٧٤ . العورة، تاريخ، ص ٨٨ و ٨٩.
- EF², V, 335.

Neophytos, *Annals of Palestine*, JPOS, XVIII. 68.

- ١٧٦ . المصدر نفسه ، ص ٧٠
- ١٧٧ . المصدر نفسه ، ص ٧٠
- ١٧٨ . المصدر نفسه ، ص ٧٣
- ١٧٩ . المصدر نفسه ، ص ٨٠
- ١٨٠ . المصدر نفسه ، ص ٨١



الفصل الثامن

القدس في القرن التاسع عشر

١٨٣١ - ١٩١٧ م

اسكندر شولش

القدس في القرن التاسع عشر

(١٨٣١ - ١٩١٧ م)

الكزاندرشولش

الظرف التاريخي

إنّ تاريخ القدس في القرن التاسع عشر هو تاريخ بروزها كمركز اداري كبير في بلاد الشام، وعلى نحو ما، كماصمة لفلسطين التي برزت ككيان سياسي اداري تحت سطح التقسيمات العثمانية المتقلبة للولايات. وخلال الفترة التي ندرسها كانت القدس تمثل حالة خاصة بين المدن الداخلية للدولة العثمانية؛ فمن وجهة عملية كانت جميع المدن الأخرى التي ظهرت كمراكز مدنية (مدينية) جديدة خلال القرن التاسع عشر تقع على شاطئ البحر الابيض المتوسط (مثلاً؛ الاسكندرية وحيفا وبيروت). لكن نهوض القدس، خلافاً لهذه الحالات، لم يكن يرجع الى اهميتها من حيث التجارة والمال والمواصلات؛ بل كان مرتبطاً بالاحرى بالمصالح الدينية والسياسية المتزايدة والمختلفة التي كانت تتركز على المدينة: المصالح المسيحية واليهودية والإسلامية من جهة، والاوروبية والعثمانية والعربية من جهة أخرى.

ومع أن القدس كانت حالة خاصة، فإن مراحل نهوضها ونموها، وتطورها الديمغرافي (السكاني) والاجتماعي الاقتصادي والسياسي الإداري، كانت تتفق ومراحل التطور التاريخي بصورة عامة. إن قوى التغيير الكبرى التي كانت تفعل فعلها في فلسطين كانت الحكم المصري المؤقت (١٨٣١ - ١٨٤٠)؛ وسياسات التنظيمات العثمانية خلال

فترة مرسومي الاصلاح (لسنة ١٩٣٩ وسنة ١٨٥٦)، والتغلغل الديني الثقافي والاقتصادي الاوروبي (بما في ذلك الهجرة اليهودية والاستعمار اليهودي)؛ والدمج المتزايد للبلاد في الاقتصاد العالمي منذ اواسط القرن؛ وردود الفعل المحلية على هذه التحديات. وكان تطور القدس منفرداً في هذا السياق الاوسع الذي شكّل الاطار التاريخي لهوض المدينة(١).

إن الغزو النابوليوني العابر لفلسطين سنة ١٧٩٩ لم يترك في واقع الأمر آثاراً في البلاد؛ فقد كان هذا حملة عسكرية لم تكن تستهدف فلسطين بالذات. وقد تحاشى الجيش الفرنسي دخول القدس لأن المدينة لم تكن اذالك مركزاً من مراكز السلطة المحلية أو العثمانية؛ وزحف نابوليون عبر غزة و ياقا باتجاه عكا ولكن ليُمنى هناك بتراجع محفوف بالكوارث. وهكذا فان المواجهة الأولى للقدس مع قوى العدوان الخارجية في القرن التاسع عشر كانت احتلال القوات المصرية بقيادة ابراهيم باشا ابن محمد علي، في سنة ١٨٣١. بيد أن حكم ابراهيم، لو نظرنا اليه بمنظور بعيد المدى، أثر على فلسطين بعامة والقدس بخاصة بالتطورات اللاحقة التي احدثها أكثر مما أثر عليها بالاجراءات المباشرة التي قام بها. فقد اقام المصريون في بلاد الشام إدارة مركزية على غرار تلك التي كانت قائمة في بلادهم. وكان مركز الادارة مدينة دمشق(٢) وهكذا فإن القدس لم تكن قد غدت بعد مركزاً ادارياً مهماً.

وعلى اية حال فإن محمد علي و ابراهيم باشا حاولا كسب تأييد الدول الاوروبية لسيطرتها على سوريا بانتهاج سياسة محسوبة تقضي بمنح المساواة في الوضع الاجتماعي لاعضاء الاقليات الدينية و بفتح البلاد امام النشاطات التبشيرية والقنصلية الاوروبية. وقد اطلقت هذه السياسة قوى سرعان ما شعرت بها القدس، لأن العثمانيين لم يكن في وسعهم بعد عودتهم الى القدس أن ينقضوا الاجراءات المصرية. واذ لم يكن القناصل الاوروبيون والبعثات المسيحية يستطيعون أن يوطدوا اقدامهم في القدس ولم يكن يسمح للحجاج والزوار الاوروبيين بأن يقيموا فيها بصفة دائمة، قبل الاحتلال المصري، فإن العثمانيين ترتب عليهم بعد عودتهم أن يواصلوا انتهاج سياسة الباب المفتوح.

كانت أول قنصلية اوروبية تفتح في القدس هي القنصلية البريطانية سنة ١٨٣٨. وتلا ذلك تسمية قناصل لكل من بروسيا (١٨٤٢) وسردينيا (١٨٤٣) وفرنسا (١٨٤٣) والنمسا (١٨٤٧) واسبانيا (١٨٥٤) واميركا (١٨٥٦) وروسيا (١٨٥٧). ووجد التغلغل

الديني التبشيري تعبيراً له على اعلى مستوى في تأسيس اسقفية بروتستانتية انجليزية بروسية مشتركة (١٨٤١) وفي إعادة تأسيس بطريركية اللاتين (١٨٤٧) وبوصول اسقف روسي (١٨٥٨). ولا بُد أن نذكر ايضاً في هذا السياق أن بطاركة الروم الارثوذكس للقدس لم يعودوا يقيمون في القسطنطينية بعد سنة ١٨٤٥، بل انتقلوا الى القدس نفسها. وفي مستوى ادنى انشأ عدد كبير من الكنائس والجماعات المسيحية العديد من البعثات والمؤسسات في القدس طوال القرن التاسع عشر.

ولفترة قصيرة خلال «الأزمة الشرقية» المتعلقة بطرد المصريين من سوريا، حاولت دوائر مختلفة في اوربا أن تخلق «مسألة القدس». وبرزت كل انواع المشروعات لـ «تدويل القدس»؛ وبعبارة أخرى لاقامة كيان اداري «مسيحي» منفصل تحت السيطرة الاوروبية. ولكن هذه المشروعات ذهبت ادراج الرياح مع عودة العثمانيين وتدشين سياسة التنظيمات في الولايات السورية (٢).

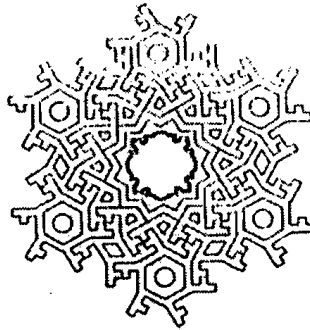
منذ عودة العثمانيين حتى الحرب العالمية الأولى عكس تطور القدس إيقاع التفاعل بين السياسات العثمانية والتغلغل الاوروبي وردود الفعل الاقليمية. وكانت المعالم العثمانية البارزة في هذا الشأن مرسومي الاصلاح لسنة ١٨٣٩ و١٨٥٦، ودستور سنة ١٨٧٦، وقيام حكم تركيا الفتاة سنة ١٩٠٨. أما التغلغل الاوروبي في فلسطين فقد حدث على مستويين متصلين بعضهما ببعض. فمن جهة كان هناك «مستوى الدولة» المتعلق بدبلوماسية القوى العظمى، والمصالح السياسية والتجارية وسياسة ما يدعى بـ «حماية» الاقليات الدينية. ومن جهة أخرى كان هناك مستوى نشاطات الكنائس والجمعيات والحركات والمجموعات المختلفة، التي بثت في الناس مثلاً الدعوة الى «حملة» صليبية سلمية («إعادة الارض المقدسة» للمسيحيين بوسائل سلمية)؛ و«إعادة اليهود» (مشفوعة بتنصيرهم)؛ و«استرداد» الارض بوساطة الاستعمار الاوروبي (اقامة المستعمرات)؛ أو «عودة» اليهود الى «ارض اسرائيل» (اي مطامح اليهود الاوروبيين السابقة للصهيونية والصهيونية).

وهكذا فإن فلسطين بصورة عامة، والقدس بصورة خاصة، قد وقعتا منذ زمن الحكم المصري في دوامة المنافسات الاوروبية في سياق «المسألة الشرقية». ولما كان تقطيع اوصال الجزء المركزي من الدولة العثمانية أمراً غير وارد في القرن التاسع عشر فان الدول الاوروبية

لم تجهد لفرض سيطرتها الاقليمية في فلسطين بل سعت لبسط «نفوذها». وكانت اسهل الطرق لبسط «النفوذ» سياسة «حماية» الاقليات الدينية. الروس كان لديهم الان المسيحيون الارثوذكس «ليحموهم» والفرنسيون كان لديهم الكاثوليك. وسعيًا الى التكافؤ في هذا المضمار كان على انجلترا وبروسيا (ألمانيا فيما بعد) أن توجدا أو تخلقا اقليتهما الخاصة بهما لتقوموا بـ «حمايتهما». ومنذ سنة ١٨٣٩ وضع البريطانيون اليهود تحت جناحهم، وخلقوا طائفة بروتستانتية صغيرة عن طريق التنصير. وهكذا فان سياسة التغلغل الديني الثقافي و«المحميات الدينية» جعلت من القدس حلبةً للمنافسات الاوروبية.

النمو السكاني

إن معظم الارقام الخاصة بالسكان في الادب الذي يتناول القدس في القرن التاسع عشر تستند الى تقديرات السياح والقناصل الاوروبيين، وكذلك تقديرات الاوروبيين المقيمين في المدينة. وأكثر الجداول الاحصائية التي وضعت بالاستناد الى هذه المصادر تفصيلا وضعها بن أريه Ben-Arieh. ويمثل الجدول (١) خلاصة للنتائج التي توصل اليها.



الجدول (١)

تقديرات سكان القدس من سنة ١٨٠٠ الى سنة ١٩٢٢ وفق ما اورده بن أريه

السنة	المسلمون	المسيحيون	اليهود	المجموع
١٨٠٠	٤٠٠٠	٢٧٥٠	٢٠٠٠	٨٧٥٠
١٨٣٥	٤٥٠٠	٣٢٥٠	٣٠٠٠	١٠٧٥٠
١٨٤٠	٤٦٥٠	٣٣٥٠	٣٠٠٠	١١٠٠٠
١٨٥٠	٥٣٥٠	٣٦٥٠	٦٠٠٠	١٥٠٠٠
١٨٦٠	٦٠٠٠	٤٠٠٠	٨٠٠٠	١٨٠٠٠
١٨٧٠	٦٥٠٠	٤٥٠٠	١١٠٠٠	٢٢٠٠٠
١٨٨٠	٨٠٠٠	٦٠٠٠	١٧٠٠٠	٣١٠٠٠
١٨٩٠	٩٠٠٠	٨٠٠٠	٢٥٠٠٠	٤٢٠٠٠
١٩٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠٠	٣٥٠٠٠	٥٥٠٠٠
١٩١٠	١٢٠٠٠	١٣٠٠٠	٤٥٠٠٠	٧٠٠٠٠
١٩٢٢	١٣٥٠٠	١٤٧٠٠	٣٤٤٠٠	٦٢٦٠٠

المصدر :

Ben-Arieh, 'The Growth of Jerusalem in the Nineteenth Century' in *Annals of the Association of American Geographers*, 65, 1975, 262.

وتظهر ارقام مختلفة قليلا عن هذه في

Yehoshua Ben-Arieh, 'The Population of the Large Towns in Palestine . During the First Eighty Years of the Nineteenth Century According to Western Sources'

Moshic Ma'oz

في كتاب موشه ماعوز

Studies on Palestine During the Ottoman Period, Jerusalem, 1975;

• الارقام التي اوردها بن اريه فيحسا يتعلق باليهود مبالغ فيها ويجب أن تؤخذ بحذر. ولا مجال هنا لمناقشة هذه الارقام بالتفصيل - (الترجم).

ولزيد من التفصيل انظر :

Yehoshua Ben-Arieh, *Jerusalem in the 19th Century. The Old City*, Jerusalem, 1984,

ولنقارن هذه التقديرات بالمعلومات المستقاة من سجلات السكان العثمانية التي ازداد استعمالها في السنوات الأخيرة. و يضم الجدول (٢) خلاصة لبعض الأرقام المتوفرة.

الجدول (٢)

عدد سكان مدينة القدس وقضائها
١٨٤٩ — ١٩١٤ وفق المصادر العثمانية

مدينة القدس	مسلمون	مسيحيون	يهود	المجموع
١٨٤٩	٦١٤٨	٣٧٤٤	١٧٩٠	١١٦٨٢
١٨٧١				
٧٢ —	٦١٥٠	٤٤٢٨	٣٧٨٠	١٤٣٥٨
قضاء القدس				
١٨٨١				
٩٣ —	٥٤٣٦٤	١٩٥٩٠	٧١٠٥	٨١٠٥٩
١٩١٤	٧٠٢٧٠	٣٢٤٦١	١٨١٩٠	١٢٠٩٢١

المصادر :

في شأن القدس انظر :

Alexander Schölch, 'The Demographic Development of Palestine, 1850-1882'

في

International Journal of Middle East Studies, 17/4, 1985;

وبالنسبة للقضاء (بما في ذلك مدينة القدس)، أنظر :

Kamal H Karpat,

(الصفحة السابقة)

Ottoman Population 1830-1914, Madison, 1985, 144-145 and 184-185.

وتستند الأرقام الخاصة بسنة ١٨٤٩ إلى دفتر النفوس؛ أما الأرقام المتعلقة بسنة ١٨٧١/٧٢ فتستند إلى سالنامة ولاية سورية. وقُتل معطيات السنوات ١٨٨١/٧٢ - ١٨٩٣ نتائج الإحصاء العام، بينما أُخذت معطيات ١٩١٤ من إحصاءات السكان الصادرة عن وزارة الداخلية. وتشمل أرقام قضاء القدس السكان المسلمين والمسيحيين لقرى جبل القدس (١). أما اليهود فقد عاشوا على وجه الحصر تقريباً في مدينة القدس.

إن التضارب الأشد وضوحاً بين الجدولين ١ و ٢ يتعلق بأرقام السكان اليهود في القدس. ولوتركنا جانباً المشكلات الصغيرة الخاصة بالتقليل الإجمالي في عدد السكان وربما التهرب من التسجيل فإن سبباً من أسباب التفاوت بين الجدولين هو أن الإحصاءات العثمانية تقتصر على المواطنين العثمانيين؛ بينما كان ثمة جزء لا يستهان به من اليهود من الأجانب أو المحميين. وعلى أية حال فإن الإحصاءات العثمانية لسنتي ١٨٩٥ و ١٨٩٩ تظهر أنه لم يكن هناك سوى ٥٥٠٠ أجنبي في سنجق القدس بكامله (٢). وهكذا يبقى التضارب قائماً. وفي هذا السياق ينبغي ألا يغيب عن ذهننا أيضاً أن جزءاً من السكان المهاجرين اليهود كانوا عابري سبيل خلال العقود الثلاثة التي سبقت الحرب العالمية الأولى. وكثيرون منهم كانوا غرباء مكثوا في القدس بصورة غير مشروعة. ويقدر أن نصف اليهود الأوروبيين الذين قدموا إلى فلسطين في هذه الفترة بقصد الإقامة فيها قفلوا راجعين من البلاد بسبب الأحوال المعيشية غير المتوقعة وموقف السلطات العثمانية تجاههم (٣). ومع أننا نستطيع أن نعيد رسم صورة الاتجاه العام للنمو السكاني في فلسطين في القرن التاسع عشر فينبغي علينا أن نخلص إلى القول إنه ليس في إمكاننا أن نصنف سكان القدس تصنيفاً يصح الاعتماد عليه ما دامت سجلات النفوس العثمانية وسجلات القنصليات الأوروبية المختصة لم تخضع للفحص الدقيق وبصورة مفصلة.

وبالرغم من ذلك يمكن القول، على أية حال، إن القدس، المدينة الصغيرة نسبياً من مدن الأقاليم والتي لم يتجاوز عدد سكانها العشرة آلاف نسمة عشية الاحتلال المصري، قد أصبحت بلا ريب أكبر مدينة في فلسطين والمركز السياسي والثقافي للبلاد

عشية الحرب العالمية الاولى . وفي أثناء تلك الحرب لم يعد في وسع القزاة أن يتنكبوها كما فعل نابوليون وهو في طريقه الى عكا . وكان الهدف الرئيسي للهجوم البريطاني بقيادة الجنرال ألنبي Allenby هو القدس ، التي دخلها في يوم ١١ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩١٧ (٧) .

النشاطات العمرانية واتساع المدن (٨)

حتى أواسط القرن التاسع عشر كانت القدس ما تزال ضمن حدود الاسوار . كان هنالك بيوت نصف مهدومة خالية من السكان ، وقطع أراضٍ مفتوحة وأكوام من القمامة داخل المدينة . وشهدت المدينة زمن الحكم المصري بعض النشاطات العمرانية . وعلى سبيل المثال بنى ابراهيم باشا ثكنتين للجنود داخل الاسوار وطاحونتين هوائيتين خارجها . وقامت الطوائفان المسيحية واليهودية أيضاً ببعض اعمال الترميم والبناء خلال هذه الفترة ، خصوصاً المباني الدينية ونزل الحجاج (٩) . وفي الاربعينيات واولئ الخمسينيات كان البروتستانت الانجليز والألمان أول الاجانب الذين انشأوا مباني جديدة داخل المدينة وخارجها ، ومن أهمها كنيسة المسيح Christ Church ، وهي «الكاتدرائية» البروتستنتية التي كُرسَت سنة ١٨٤٩ .

وبدأ ازدهار حقيقي في البناء بعد حرب القرم (١٨٥٣ - ١٨٥٦) . ففي خلال عقد واحد من السنين تم تنفيذ اربعة وعشرين مشروع بناء داخل الاسوار وخارجها ، (من بينها) أو (منها) المجتمع الروسي الضخم * الذي أقيم في منطقة «الميدان» الكائنة شمال غرب المدينة (١٠) . إن بناء الكنائس الجديدة والأديرة والكُنس والمساجد والمدارس والمستشفيات ودور الايتام والنزل (الهوسبيسات) والفنادق والقنصليات ... الخ استمر دون انقطاع حتى الحرب العالمية الاولى ؛ بل إن الكنيسة البروتستانتية الألمانية المعروفة باسم كنيسة المخلص تم تكريسها بحضور الامبراطور الألماني سنة ١٨٩٨ . وفي نهاية القرن التاسع عشر أحصى كينييه (Cuinet) ووصف ، مثلاً ، ٤٢ ديراً مسيحياً و ٢٨ نُزلاً (هوسبيس) و ١٧ مستشفى و ٥٤ مدرسة (باستثناء المدارس الدينية الاسلامية) في القدس (١١) .

* المعروف في القدس باسم «المسكوبية» .

وكان بين هذه المدارس ثماني مدارس رشدية، افتتحت اولها في سنة ١٨٦٧-٦٨ (انظر ادناه). وشملت المؤسسات التعليمية الاوروبية الاكثر اهمية مدارس البنين والبنات التي اسسها الاسقف غوبات (Gobat)، ودار الايتام السورية للبنين التي انشأها المبشر البروتستنتي الألماني شنلر Schneller سنة ١٨٦٠؛ ومدرسة طاليتا قومي، للبنات، وهي مدرسة الشماسات الالمانيات، وقد دشنت سنة ١٨٦٨؛ ومدرسة لامل (Lamel) التي أسسها في الاصل اليهود النمساويون سنة ١٨٦٨؛ ومدرسة ايقيلينا دي روتشيلد للبنات (١٨٦٤)؛ ومدرسة الاتحاد الاسرائيلي العام (١٨٨١)؛ ومدرسة الاب راتزبون الكاثوليكية للبنين (سان بيير، ١٨٧٠)؛ ومدرسة البنين التابعة لاخوة المدارس المسيحية (الفرير) الذين وصلوا الى القدس سنة ١٨٧٦؛ ومدارس الآباء البيض (وصلوا سنة ١٨٧٨) في دير القديسة حنة، خصوصاً للروم الكاثوليك.

ومنذ أواخر الستينيات وسَّعت البيوت وانشئت بيوت جديدة داخل الاسوار، وبرزت الى الوجود احياء سكنية يهودية الى الشمال الغربي من المدينة، على جانبي شارع يافا. وفي السبعينيات اسست جمعيات بناء يهودية قامت ببناء عمارات سكنية وبيوت مبنية في صفوف - موحدة الشكل و«شبيهة بالثكنات»، كما شعر احد المعاصرين - لا يواء العدد المتزايد من المهاجرين اليهود. وفي الوقت نفسه ظهرت الى الوجود ضواحي عربية جديدة شمال المدينة وجنوبها. وكان رواد التوسع السكني العربي خارج الاسوار العائلات الاسلامية البارزة والغنية.

ولهذا فإن اسوار المدينة فات اوانها بعض الشيء. وابتداءً من أوائل السبعينيات بقيت الابواب مفتوحة في الليل وفي أثناء صلاة الجمعة.

وما إن تم تعبيد طريق العربات بين يافا والقدس، الامر الذي تسنى معه نقل مواد البناء المستوردة بالعربات دون صعوبة، حتى ادخلت اساليب عمرانية جديدة في الاحياء السكنية خارج البلدة القديمة، ابتداءً من سنة ١٨٨٠ فصاعداً. وقد اصبحت جدران المباني الجديدة اقل سمكا وصارت الغرف تُغطى ارضياتها بالواح خشبية وتُسقف باعمدة خشبية ثم باعمدة حديدية وبلاط حجري، وصارت هياكل الاسطحة تُلبس بالقرميد. وهكذا نشأت مدينة جديدة اوروية الطراز جنبا الى جنب مع القدس التاريخية.

وفي العقود الثلاثة التي سبقت الحرب العالمية الأولى استمر إنشاء الضواحي اليهودية الجديدة الى الشمال الشرقي من القدس القديمة بسرعة متزايدة. أما حارة اليهود داخل الاسوار فكانت بجملتها تقريباً وفقاً اسلامياً؛ وكانت دورها مؤجرة تأجيراً لمشغليها اليهود (١٢). وكان من السهل نسبياً الحصول على اراضٍ للبناء خارج المدينة، لان الاراضي في اطراف المدينة معظمها اراضٍ مملوكة لا أميرية (١٣). وكما هو معروف جيداً فان معظم القادمين الجدد من اليهود جاءوا من اوروىا الشرقية، ومعظمهم دخل البلاد بتصاريح زيارة مؤقتة حسب. وفي سنة ١٨٨١ و١٨٩٠ جاءت عدة مئات من العائلات من اليمن (١٤).

وزيادة في الاندفاع نحو القدس اسست طائفة الهيكلين الألمانية (Templar) مستعمرة جنوب غرب المدينة في سنة ١٨٧٣ (وكانت قد أسست ثلاثاً أخر في حيفا و يافا سنة ١٨٦٩ وفي سارونا سنة ١٨٧١ م. وفي سنة ١٨٨٢ كان يعيش في مستعمرة القدس ٢٥٧ شخصاً، كانوا اساساً من الحرفيين وعائلاتهم (١٥).

الاقتصاد والمواصلات (١٦)

ابتداء من الخمسينيات في القرن الماضي اتسعت المدينة وزاد عدد سكانها زيادة كبيرة. لكن القدس لم تغدُ مركزاً مهماً للتجارة والانتاج. فقد عاشت اساساً من أجل الاماكن المقدسة للمسلمين واليهود والمسيحيين، ومن أجل المؤسسات التي قامت أو انشئت بسبب هذه الأماكن والحجاج والسياح الذين كانوا يقصدونها. ولم يغير تدفق اليهود الاوروبين خلال العقود الأخيرة من الحكم العثماني الاساس الاقتصادي للقدس. فالهاجرون لم يُحدثوا تطورات صناعية أو تجارية مهمة، وظل جزء مهم من الجالية اليهودية يعيش على الصدقات التي تجمع من اوروىا.

بيد أن نتيجة مهمة لنمو المدينة تمثلت في ازدهار البناء منذ منتصف القرن، وهو الازدهار الذي استفادت منه ايضاً القرى والمدن المجاورة. كانت هناك عمالة كاملة للكلاسين (صناع الجير) والحجارين. وكان من المناظر المألوفة أن ترى صفوفاً طويلة من الجمال تقترب من القدس وعليها احمال ثقيلة من الشيد والحجارة. وفي البداية كان لا بد

من استقدام البنائين ودقّاقى الحجارة من اماكن اخرى . ولكن في بداية الستينيات (من القرن الماضي) اصبح في الإمكان تغطية الحاجة الى العمال المهرة محلياً . ففي بيت لحم وبيت جالا بشكل خاص نشأ تخصص حرفي في مهنة البناء ؛ وهكذا ففي بداية التسعينيات أخصي من بين ٧٩٢ من الصناع والتجار والمتعهدين الصغار في بيت لحم ٣٠ بناءً و ٢٥٠٠ دقّاقا للحجارة (دقيقة) و ٥٠ حجّاراً و ٦ ملاطين (قصيرة) و ٤٠ جمّالاً لتنظيم نقل الجير والحجارة بين أشياء أخرى) (١١٧) . وكانوا يعملون — في المقام الأول في صناعة البناء في القدس .

وبغض النظر عن هذا كانت النشاطات الاقتصادية الرئيسية في القدس تتركز حول تزويد سكان المدينة بالبضائع الاساسية وحول الخدمات المختلفة للحجاج والزوار . وكما كانت الحال في المدن الفلسطينية الأخرى كانت صناعة الصابون في القدس على شيء من الأهمية خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، لكنها تدهّرت خلال النصف الثاني (في حين أن هذه الصناعة نمت نمواً كبيراً في نابلس) . وفي الاربعينيات والخمسينيات من القرن التاسع عشر شجع المثل اللبناني على إدخال إنتاج الحرير في هذا المجال في اوائل الستينيات . والى حد ما كانت ادوات التعلّب تصنع في المدينة، بيد أن الجزء الأعظم من هذه الأدوات، التي كانت تباع في القدس وتصدر منها بكميات كبيرة خلال النصف الثاني من القرن، كان يصنع في بيت لحم .

ولدينا من إواخر الستينيات والسبعينيات احصائيتان ممتعتان، ولو انهما غير كاملتين لاولئك الذين كانوا يعملون في الحرف والصنائع في القدس (١١٨) . ففي اواخر الستينيات أخصي وارن (Warren) (١١٩) ١٩٣٢ شخصاً من العاملين الاقوياء البنية في ١٣٢٠ دكاناً فكان من بينهم ١٤٣ من اصحاب الدكاكين العمومية و ٨٨ من تجار الخضروات و ١٨٩ بقالاً و ١٠١ من الفرانين و باعة الخبز و ٤٦ جزاراً و بائع دجاج، و ٥٨ تاجر خر و ٣٠ طحان بن و ٣٧ بائع تبغ و ٢٣٠ حدّاء (صانع احذية) و ٦٢ خياطاً و ٢٨ صباغاً و ٣٢ عصار سمس و ٧٦ صبّاناً و ١٥١ من المشتغلين بالمعادن من مختلف الانواع و ٣٦ نجاراً و ٨٦ صانع نعوش و ٥٦ حلاقاً و ٢٣ ساعاتياً و ٢٢ صرافاً . وهذه القائمة هي أكمل بالنسبة للمسلمين (٨٢٨) والمسيحيين (٦٠١) منها بالنسبة لليهود (٥٠٣) .

وبعكس ذلك كان الأمر بالنسبة للاحصائية التي اثبتتها لونتش سنة ١٨٧٧ (١٢٠) .

وظاهر أن لونتش لم يكن على دراية فيما يتعلق بالطائفتين الاسلامية والمسيحية . وقد احصى ٢١٩٠ رجلا من العاملين في المهن والخدمات : ١٤٢٥ يهوديا ، ٣٨٢ مسلماً ، و٣٨٣ مسيحياً . ومن بين اولئك الذين اوردهم في قائمته ١٨٥ بقالا و٥٥ بائع خضروات و٣٥ تاجر بهارات (عطاراً) و٤٩ فرّانا و٥٢ جزاراً وبائع دجاج و٢٦ تاجر خمر و١٨ طحاناً ومحمّصاً للبنّ و٨٨ بائع تبغ و١٧٠ حدّاء و٨٥ خياطاً و١١٥ تاجر قماش و٧ غصاري سمس (لاستخراج الزيت) و٧٣ مشتغلاً بالمعادن (من مختلف الانواع) و٣٤ سمكرياً و٩٦ نجاراً وخرائطاً و٣٤ حلاقاً و١١ ساعاتياً و٢٧ صرافاً و٤٢ كاتباً (عرض حاجلي) و٣١ صاحب مقهى و٥١ صاحب مطعم وحانة عمومية . وازداد لونتش أن ثمة فائضاً في سوق العمل بقطاع الحرف مما دفع الحرفيين المهرة الاشكناز الذين وجدوا انفسهم عاجزين عن اعالة عائلاتهم في القدس إلى الهجرة الى مصر بينما كان التجار وتجار المفرّق احسن حالا .

وهكذا فان الهيكل الاقتصادي طوال القرن التاسع عشر عكس طابع القدس كمدينة مقدسة ، كمركز ديني وروحي لا تباع ثلاث ديانات مقدسة . وبقي اقتصاد المدينة اقتصاد استهلاك ، تدعمه واردات من الخارج ، وفي حالتها الطائفتين المسيحية واليهودية ، أموال اجنبية (٢١) .

وبالمثل فإن تحسين نظام المواصلات (التلغراف ، والطرق ، وسكة الحديد) ، وهو ناحية مهمة من تطور القدس في الستينيات من القرن الثامن عشر ، لم يكن عاملاً من العوامل التي شجعت تحويل القدس الى مركز صناعي او تجاري . فقد سهل بالاحرى الوصول الى البلاد والسيّاحة فيها ، وكان شرطاً مسبقاً لنهوض القدس كمركز اداري .

في آب (اغسطس) ١٨٦٤ وصل خط التلغراف إلى يافا وتم تمديده الى القدس في حزيران ١٨٦٥ . وتم ربط القدس الان بواسطة التلغراف بالقسطنطينية والقاهرة ، وعن طريقهما بالعواصم الاوروبية . وكان هذا امراً مهمّاً بالنسبة لفصل القدس فيما بعد عن دمشق ، واقامة سنجق «مستقل» في جنوبي فلسطين .

وفي سنة ١٨٦٧ بدأت السلطات العثمانية العمل في أول طريق للعربات بين يافا والقدس باستخدام العمل غير المأجور - السخرة . وعهد الى المهندس الايطالي Pierotti بالاشراف على المشروع الذي انجز سنة ١٨٦٨ ...

بل ان خدمة منتظمة للعربات أدخلت على الخط فترة من الوقت بمبادرة من رئيس

بلدية القدس يوسف الخالدي . وفي السبعينيات واولائل الثمانينيات اصلحت الطريق عدة مرات وغير خط سيرها في بعض المواقع . وفي سنة ١٨٧٥ اسس المستعمرون الهيكليون شركة نقل استطاعت أن تؤمن خدمة يومية منتظمة بين يافا والقدس . وفي سنة ١٨٧٩ حصل هؤلاء على امتياز رسمي للقيام بهذا العمل ، ولكنهم خسروه فيما بعد لمصلحة منافسيهم العرب واليهود .

وعلى أية حال فإن اوضاع النقل تغيرت بتدشين خط سكة حديد بين يافا والقدس في سنة ١٨٩٢ . فمنذ اوائل الستينيات كانت هناك خطط مختلفة لانشاء سكة حديد تصل القدس بيافا ، مينائها على البحر المتوسط . وكان السبب الرئيسي في عدم تحقيق أي من هذه المشروعات الشكوك التي دارت حول جدواها المادية . ولكن نظراً لنمو القدس وسكان فلسطين ككل ولزيادة تدفق الحجاج والسياح امكن اعادة التفكير في هذه القضية (حتى في السبعينيات تراوح العدد السنوي للحجاج والزوار الاوروبيين بين ١٠٠,٠٠٠ و ٢٠٠,٠٠٠ ؛ وفي سنة ١٩١٠ وصل الرقم الى ٤٠٠,٠٠٠) . وفي سنة ١٨٨٩ حصلت شركة فرنسية على امتياز لخط سكة حديد كان قد منح في سنة ١٨٨٨ لشخص يدعى نافون افندي . وبدأ العمل سنة ١٨٩٠ وتم إنشاء الخط سنة ١٨٩٢ . بيد أنه لم يتسن تحقيق ارباح الا بعد نهاية القرن . وكان هناك ما مجموعه ٨٥٤٤٠ راكبا في سنة ١٨٩٤ و ١٤٩,٢٠٠ راكب سنة ١٩٠٩ (٢٣) .

وفي موازاة هذا التطور بنت السلطات العثمانية في القدس شبكة من الطرق ربطت المدينة منذ اوائل التسعينيات بالمدن الأخرى في وسط فلسطين وجنوبها ، وخصوصاً برام الله ونابلس وبيت لحم والخليل واريحا (٢٤) .

ارتقاء القدس كمرکز اداري (٢٥)

كان من أهم التطورات الادارية في القرن التاسع عشر بروز كيان سياسي فلسطيني للعيان . وفي هذا السياق غدت القدس مركزاً ادارياً علق عليه العثمانيون اهمية خاصة . وكان هناك خطان لهذا التطور . تمثل احدهما بالمحاولات التي جرت لتوحيد السناجق الفلسطينية الثلاثة (القدس ونابلس وعكا) تحت حاكم واحد . وتآلف الثاني من الجهود التي بُذلت لمنح مدينة القدس وسنجقها وضعاً خاصاً .

وفي سنة ١٨٣٠ وعشية الاحتلال المصري لسوريا وتحد الباب العالي السناجق الفلسطينية الثلاثة تحت حاكم عكا. وكان على فلسطين أن تصبح نوعاً من المنطقة الحائزة ضد اطماع محمد علي. وبعد ذلك بعشر سنوات، في سنة ١٨٤٠ (وفي سياق المفاوضات الدولية لايجاد حل لـ «المسألة الشرقية») عرض السلطان تعيين محمد علي حاكماً لعكا مدى الحياة اذا هو قبل شروط الصلح العثمانية. والولاية التي كان على محمد علي أن يديرها لو انه قبل هذا العرض كانت هي نفسها تقريباً المنطقة التي اصبحت فيما بعد فلسطين الانتداب.

في سنة ١٨٣٠ و١٨٤٠ كانت عكا تُعدُّ عاصمة للسناجق الفلسطينية الموحدة. لكن بعد عودة العثمانيين تطورت القدس لتصبح عاصمة لفلسطين الوسطى والجنوبية. وألحق قضاء غزة ويافا بصورة دائمة بسنجق القدس، وحتى سنة ١٨٥٨ كان سنجق نابلس ايضاً تحت سلطة حاكم القدس.

وعندما وُحِّدَت السناجق الثلاثة مرة أخرى في سنة ١٨٧٢، ولو لفترة قصيرة فحسب، اصبحت القدس بصورة منطقية تماماً هي العاصمة. وهلل الأوروبيون في البلاد بحماسة لتشكيل ولاية القدس، أو كما قالوا، ولاية فلسطين. فقد ضُمَّت الولاية جميع الأماكن المقدسة والمؤسسات المسيحية واليهودية. ولما كان على القناصل أن يتعاملوا مع حاكم واحد فقط فان التغلغل الاوروبي في فلسطين كان سيغدو أكثر سهولة. ولكن لهذا السبب بالذات ألغى الباب العالي هذا الاجراء الاداري في السنة ذاتها. إن السلطات العثمانية لم يكن في مزاجها ان تمهّد الطريق امام الأوربيين.

وبدلاً من ذلك، ومن اجل أن يوازن الباب العالي النشاطات الاوروبية، شدّد سيطرته على فلسطين. وحتى في سنتي ١٨٤١ و١٨٥٤ جُعِلَ حاكم القدس خاضعاً بصورة مباشرة للباب العالي لفترات قصيرة. وفي سنة ١٨٧٤ اصبح سنجق القدس «مستقلاً» مرة أخرى، أي أن حاكم القدس جعل مسئولاً امام القسطنطينية مباشرة واحتفظت القدس وجنوبي فلسطين بهذا الوضع الخاص حتى الاحتلال البريطاني.

من الواضح تماماً أن السلطات العثمانية علقت أهمية متزايدة على فلسطين خلال القرن التاسع عشر؛ حيث كانت تحاول تعزيز وجودها الاداري تجاه مصر من ناحية، وايضاً، وهذا هو الأهم، تجاه اوروبا. وكان هذا يعني بروز القدس كعاصمة لولاية ذات وضع متميز.

المجالس : المشاركة السياسية والادارية

كان هنالك جانب آخر للتطور الاداري . فنتيجةً لسياسة التنظيمات العثمانية طرأ تحول ملحوظ على الحياة السياسية في القدس . وكان أحد العوامل تشكيل المجالس المختلفة في المدينة : المجلس البلدي ومجلس الادارة ، وعشية الحرب العالمية الأولى ، مجلس لواء القدس الشريف أو المجلس العمومي . والعامل الآخر كان تمثيل المدينة وسنجق القدس في البرلمان العثماني سنة ١٨٧٧ / ١٨٧٨ وخلال فترة تركيا الفتاة .

وقد ادخل هذا الانتخابات والمنافسة السياسية والتمثيل السياسي في الحياة الاجتماعية السياسية . ونتيجةً لذلك اصبح اعضاء العائلات الوجيهة في المدينة زعماء سياسيين وناطقين باسم سكان السنجق . وحتى أواخر الخمسينيات كانت الجبال الفلسطينية المسرح الرئيسي للصراع على السلطة والموارد المالية ، وهو الصراع الذي شمل العائلات المتنافسة لشيوخ الارياف والسلطات العثمانية . وبعد أن قام العثمانيون بتدمير نظام الحكم المحلي اصبحت المدن ، وبخاصة القدس ، الميدان الحقيقي للتنافس السياسي والمالي (٢٦) .

وحتى في سنة ١٨٦٣ سُكِّل مجلس بلدي في القدس بمقتضى فرمان خاص (٢٧) . وربما كانت القدس المدينة العثمانية الأولى بعد القسطنطينية التي شهدت قيام مؤسسة كهذه . وفي الفترة الأولى لقيام البلدية كان ابرز رؤسائها يوسف الخالدي الذي شغل منصب رئيس البلدية لفترة مجموعها تسع سنوات . وحتى سنة ١٩١٤ جاء كل الرؤساء تقريباً من عائلات الخالدي والحسيني والعلمي والدجاني . وكان تعيين رئيس البلدية وتشكيل مجلس المدينة يعكس عادة توازن القوى الداخلي بين العائلات الوجيهة في المدن ، وخصوصاً بين عائلتي الحسيني والخالدي .

وفي سنتي ١٨٧٥ و ١٨٧٧ فقط تم وضع تعليمات مفصلة بموجب القانون لانتخابات مجالس المدن ومهتات البلديات . ووفقاً لهذه الاحكام القانونية كان لكل مواطن عثماني ذكر يبلغ سن الخامسة والعشرين و يدفع ضريبة املاك سنوية لا تقل عن خمسين ليرة تركية الحق في الاقتراع في انتخابات مجالس المدن . اما المرشحون فكان ينبغي الا تقل اعمارهم عن ثلاثين سنة ، وأن يدفعوا ضريبة املاك لا تقل عن ١٥٠ ليرة تركية

سنوياً، وكان اعضاء مجلس المدينة يُنتخبون لمدة اربع سنوات، ويجري استبدال نصفهم كل سنتين. وفي القدس كان المجلس يضم عشرة اعضاء ستة منهم من المسلمين واثنان من المسيحيين واثنان من اليهود (في سنة ١٩٠٨). وفي السنة نفسها اشترك ١٢٠٠ مواطن في الانتخابات : ٧٠٠ من المسلمين و٣٠٠ من المسيحيين و٢٠٠ من اليهود. وكان لا بد لميزانية البلدية، التي تألفت من المنح الحكومية وإيرادات الضرائب والرسوم، أن تقترن بموافقة مجلس الادارة. أما رئيس البلدية فكان يعينه الحاكم من بين الاعضاء المنتخبين لمجلس المدينة.

ومنذ البداية حاولت بلدية القدس أن تحسّن البنية التحتية واطلاع المعيشة في المدينة. وتضمنت نشاطاتها الأولى اجراءات لتنظيف المدينة وإنارتها ورصف الشوارع وإزالة عوائق السير وتحسين تزويد المدينة بالماء. وبدأ رصف الشوارع وإنشاء شبكة للمجاري في السبعينيات. ووسعت شبكة المجاري باستمرار حتى سنة ١٩١٤. وبقي تزويد المدينة بالمياه واحداً من أهم الأمور التي تشغل اهتمام البلدية. وابتداء من التسعينيات اصبحت الشوارع ترش بالمياه، على الاقل في الاوقات التي يشكل فيها الغبار مصدرًا للازعاج؛ وبدأ جمع القمامة بانتظام وأنشئت بيوت الراحة العمومية. وفي سنة ١٨٩٢ فتح أمام الجمهور متنزه في شارع يافا واخذت فرقة موسيقى عسكرية تعزف الحانها هناك مرتين في الاسبوع، لبعض الوقت على الاقل. وعشية الحرب بدأت البلدية في زرع الاشجار على جوانب بعض الشوارع. ومنذ نهاية القرن التاسع عشر تم تركيب الآلاف من مصابيح الكازلانارة المدينة. وفي السنوات التي سبقت الحرب بدأت مناقشة خطط لادخال الكهرباء وشبكة تليفونات وخطوط الترام (في الضواحي الجديدة).

وفي سنة ١٨٨٦ شكلت قوة شرطة للمدينة. وفي السنة نفسها عينت البلدية طبيباً بلدياً كان يعالج المرضى بالمجان. وفي سنة ١٨٩١ افتتح مستشفى بلدي، واصبحت البلدية مسؤولة عن اصدار تراخيص للبناء. وقد فتح سجل بهذه التراخيص منذ اواخر القرن التاسع عشر على الاقل. ومن بين النشاطات العمرانية التي قام بها المجلس نفسه إنشاء سبيل عمومي لماء الشرب قرب باب الخليل سنة ١٩٠٠، واقامة برج الساعة فوق هذا الباب سنة ١٩٠٧. وشملت النشاطات الثقافية تأسيس متحف للآثار وافتتاح مسرح قرب باب الخليل سنة ١٩٠١، كانت تؤدي فيه المسرحيات بالعربية والتركية والفرنسية.

وهكذا أسهمت البلدية بدور نشيط في تطوير القدس، وتحسين البنية التحتية

للمدينة وتجميلها. ولم يكن ثمة مدن كثيرة في. اواخر عهد الامبراطورية العثمانية تستطيع أن تباهي بخدمات بلدية على نطاق مماثل .

كانت مسؤوليات مجلس الادارة تتعلق بالادارة العامة للسنجق . وكان المجلس يتألف من اعضاء بحكم مناصبهم يشملون المتصرف والقاضي والمفتي والمحاسب ومثلي طوائف الروم واللاتين والارمن واليهود إضافة إلى بضعة اعضاء منتخبين ، وكان هؤلاء الأخيرون عادة من افراد العائلات الإسلامية الوجيهة نفسها التي يتألف منها المجلس البلدي . وبمقتضى قانون الولاية سنة ١٨٦٤ وقانون ادارة الولاية سنة ١٨٧١ كان من حق مجلس الادارة النظر والبيت في المسائل التي تتعلق بالاشغال العامة والزراعة وتسجيل الأراضي والمالية وجباية الضرائب والشرطة . وأهم وظائف المجلس كان تنظيم جباية الضرائب . وهكذا فان عائلات القدس المثلة في المجلس حصلت على نفوذ مالي واقتصادي كبير في السنجق .

ولم يتم إنشاء مجلس عمومي في القدس الا بعد صدور قانون الولاية سنة ١٩١٣ (٢٨) . وكان يتألف من ممثلين عن الاقضية المختلفة . وكانت وظيفته الرئيسية أن يجتمع مرة واحدة في السنة للنظر في ميزانية السنجق (٢٩) .

مُضْلِحٌ مَقْدِسِيّ

إن الدور المهم لهذه المجالس يلقي ضوءاً على نهوض القدس من منظور محلي . وهذا التطور يمكن وصفه حتى بشكل أكثر حيوية لدى تصوير الحياة العملية ليوسف الخالدي رئيس بلدية المدينة لفترة طويلة وعضو مجلس المبعوثان العثماني ٧٨/١٨٧٧ (٣٠) .

ولد يوسف الخالدي ١٨٤٢ ، وهو ينتمي لعائلة كانت إحدى ابرز عائلتين في القدس في القرن التاسع عشر وهما عائلة الخالدي وعائلة الحسيني (٣١) . قضى يوسف افندي سنوات التكوين من حياته في مدينة كانت تتجه نحو مستقبل جديد تحت تأثير سياسة التنظيمات ، خصوصاً بعد صدور مرسوم الاصلاح لسنة ١٨٥٦ . وكان يحس احساساً عميقاً بالاوضاع المتغيرة وخصوصاً بالتغلغل الاوروبي الذي كان يرى أنه ينبغي أن يقاوم .

أما القوة اللازمة لذلك فكان ينبغي اكتسابها عن طريق التعليم العصري على النمط الاوروبي. ولذلك فان يوسف طلب من ابيه أن يرسله الى احدى المدارس العصرية في مصر حيث كان يرغب في أن يتشرب «المعارف المفيدة». وعندما بلغه ابوه انه كان لا بُد من الحصول على دعوة من مصر لتحقيق هذا الغرض استأذن اباه للدراسة في اوروبا. ولكن اباه رفض ذلك. وعلى أثر ذلك فرّ يوسف من بيت أبيه بصُحبة ابن عمه. وبمساعدة من الاسقف غوبات Gobat اسقف القدس الانجليكاني تمكن من الالتحاق بالكلية البروتستنتية في مالطه. وبعد سنتين احضره شقيقه ياسين من هناك الى استانبول حيث درس يوسف سنة واحدة في كلية الطب السلطانية وسنة ونصف في كلية روبرت الأمريكية. ثم اضطرته وفاة ابيه الى العودة الى القدس (٣٢).

كانت هذه رحلة تعليم لافته للنظر. وقد عاد الى القدس والحماسة ملء إهابه، حيث دعا سنة ١٨٦٦/٦٧ الى تأسيس مدرسة رشدية في المدينة. وخاب أمله لانه لم يعين معلماً فيها ولا مديراً لها عندما افتتحت في سنة ١٢٨٤هـ/١٨٦٧-٦٨؛ لكنه عين بدلا من ذلك رئيساً للبلدية، فكرس كل قواه لهذه المهمة الجديدة.

وفي ذلك الوقت أصبح الخالديون معروفين بتأييدهم المخلص لسياسة التنظيمات العثمانية. وفي اوائل سنة ١٨٧٤ دعا راشد باشا وزير الخارجية، الذي كان واليا على دمشق من ١٨٦٦ الى ١٨٧١، دعا يوسف افندي الى الاستانة حيث عمل اولا في ديوان الترجمة التابع للباب العالي ثم عمل قنصلا عثمانيا في ثغربوتي Poti على شاطئ البحر الاسود. ولما عزل راشد باشا من منصبه فقد يوسف افندي وظيفته ايضا، وانتهز يوسف فرصة وجوده في الاراضي الروسية فسافر الى بطرسبرج ومن هناك الى فينا التي كان راشد باشا قد عين سفيراً فيها. وفي فينا قبل يوسف افندي منصب استاذ اللغة العربية والتركية العثمانية في الاكاديمية الشرقية.

وفي اوائل سنة ١٨٧٧ وبينما كان الخالدي في اجازة لتسوية بعض الامور العائلية في القدس انتخبه مجلس الادارة في القدس ليمثل سنجق القدس في مجلس المبعوثان العثماني الاول الذي اجتمع في استانبول من ١٩ آذار الى ٢٨ حزيران ١٨٧٧. ثم اعيد انتخابه للدورة الثانية والأخيرة ايضا (من ١٣ كانوا الاول ١٨٧٧ حتى ١٤ شباط ١٨٧٨) (٣٣). وفي القدس حصل على ثمانية اصوات من بين اربعة عشر صوتا، بما في ذلك

صوت الحاكم (المتصرف). وكان ينافسه في الترشيح لمجلس المبعوثان عمر عبد السلام الحسيني.

وفي استانبول تصدى يوسف للدفاع عن الدستور بحرارة ضد الاجراءات التعسفية للسلطان. واصبح يعتبر بفضل شجاعته واحداً من اقطاب المعارضة. وعذته السلطات واحداً من النواب الاربعة «الاشد خطراً» على الحكم. وعندما حل السلطان البرلمان في ١٤ شباط ١٨٧٨ كان الخالدي احد النواب العشرة الذين أمر بترحيلهم عن العاصمة فوراً.

ولا بد من التأكيد أن يوسف الخالدي كان مصلحاً عثمانياً لبراليا ومخلصاً للدولة وظل كذلك. وقد اتجه نشاطه كنائب ضد الفساد والاستبداد. ولم تكن «معارضة» يوسف الخالدي موجهة ضد الحكم العثماني في الولايات العربية بحد ذاته. كان «عثمانياً» غير انه كان يطالب بالاحياء الفكري والثقافي، وهي فلسفة سياسية جديدة كانت مرتكزاتها الاساسية تقوم على مفاهيم «الحرية الشخصية» وتحصيل «العلوم المفيدة» ونشرها، وحب الوطن والشعور بالواجب - افكار بسماركية - حقيقية - كما وصفها في بيان سياسي طويل.

وعندما عاد إلى القدس استأنف مهماته كرئيس للبلدية. ولكن في خريف ١٨٧٩ حاول متصرف القدس رؤوف باشا أن يُضعف حكم الطبقة الارستقراطية العربية في المدينة؛ أي أن يُخضع وجهاء القدس بصورة فعالة للسيطرة العثمانية، وفي هذا السياق فقد اكثر الخالدين وبعض الحسينيين مناصبهم في المدينة. وكان يُراد بوضوح معاقبة الخالدين بصفة خاصة للدور الذي قام به يوسف الخالدي كزعيم «للمعارضة» في استانبول. فقد أقصي عن رئاسة بلدية القدس وحل محله عمر بن عبد السلام الحسيني. وفقد الخالديون لبعض الوقت تفوقهم السياسي الاداري في القدس. ولكن يوسف الخالدي بقي في خدمة الدولة وإن كان خارج مسقط رأسه. وخلال العقود التالية شغل منصب القائم مقام في عدة مناطق في سوريا والاناطول.

وكان آخر عمل قام به يوسف الخالدي فيما - نعلم وهو عمل نبوئي حقا - رسالة وجهها سنة ١٨٩٩ الى رئيس الحاخامين في فرنسا زادوك كان Zadok Kahn، وكان من معارف الزعيم الصهيوني ثيودور هرتسل. لقد ناشد الصهيونيين، مدفوعاً «بواجب مقدس للضمير» و«باسم الله» أن يتركوا فلسطين في سلام، وتنبأ بأن اصرار الصهيونيين على

برنامجهم سيؤدي الى قيامة حركة شعبية ضد اليهود لا يستطيع اخادها احد (٣١). وارسلت رسالة يوسف الخالدي الى هرتسل الذي اجاب عليها من فينا. وأكد هرتسل في رسالته الفائدة التي ستعود من الهجرة اليهودية على الامبراطورية العثمانية بعامه وعلى «السكان غير اليهود في فلسطين» بشكل خاص. واعرب عن امله في أن يفهم السلطان هذا. ثم اضاف بلهجة التهديد قائلا: «واذا لم يقبل فاننا سوف نبحث وصدقني اننا سنجد ما نبتغيه في مكان آخر» (٣٥).

ويبدو لنا أن تعليم يوسف الخالدي وسيرته العملية ونشاطاته، بما في ذلك نداوة الى الحركة الصهيونية التي خلقت حديثاً، عكست صورة تطور القدس الاداري والسياسي والثقافي في الستينيات والسبعينيات من القرن التاسع عشر، وأخيراً المشكلة الجديدة التي تمثلت في الهجرة اليهودية والمطامع السياسية الصهيونية التي ووجه بها الفلسطينيون العرب.

عاصفة تتجمع

لم يكن يوسف الخالدي اول المقدسين الذين وجهوا الاهتمام العلني الى هذه المشكلة التي اخذت في الظهور. ففي سنة ١٨٩١، وعندما تدفق جزء كبير من المهاجرين اليهود من اوروبا نحو القدس وعجزت السلطات العثمانية عن تنفيذ قوانين تحديد الهجرة ومنع اقامة «الحجاج» اليهود بصورة دائمة في المدينة، ارسلت بعض الشخصيات المقدسية البارزة قرار احتجاج الى الصدر الاعظم. ويقال إنه حمل توقيع ٥٠٠ شخص من سكان المدينة الذين احتجوا ضد الهجرة اليهودية وحيازة الاراضي (٣٦).

وربما كان هذا اول عمل من نوعه، وقد سبقه وتلاه، على اية حال، اشكال أخرى من الاحتجاج في جميع انحاء فلسطين. ونشأت إمكانات جديدة عندما ظهرت الصحف وعندما دُعي البرلمان العثماني الى الانعقاد مجدداً بعد استيلاء جماعة تركيا الفتاة على السلطة في سنة ١٩٠٨. وفي سنة ١٩١١ بشكل خاص كانت قضية الصهيونية محل اهتمام كبير بالنسبة للنواب السوريين في البرلمان العثماني. ودعا هؤلاء الى سن تشريعات لمنع الهجرة اليهودية الى فلسطين بمزيد من الفعالية. ومن الطبيعي تماماً أن نائبي القدس وروحي الخالدي (نائب رئيس المجلس) وسعيد الحسيني (٣٧) كانا في طليعة القائمين بهذه النشاطات (٣٨).

وبعد قيام حكم تركيا الفتاة بفترة قصيرة جداً أصبح لدى نواب سنجق القدس (مع غيرهم من نواب بلاد الشام) سبب مزدوج ليناصبوا النظام الجديد العداء نظراً لسياسة «الستريك» التي انتهجها والتي نفرت العرب من استانبول بصورة متزايدة، ونظراً لتقصير الحكم في عمل أي شيء بشأن واحدة من أكثر المشكلات الحاحاً بالنسبة للعرب الفلسطينيين الا وهي الهجرة اليهودية وحيازة الأراضي (٣٠). وجاهر شعيد الحسيني من القدس وحافظ السعيد من يافا في نقد جمعية الاتحاد والترقي ففقدا بالتالي مقعديهما البرلمانيين في «انتخابات العصا الكبيرة» التي اجريت سنة ١٩١٢. وحافظ روجي الخالدي على تأييد مشفوع بالانتقاد للنظام مع انه ظل راسخ العزم في معارضته للاطماع الصهيونية التي كان قد درسها دراسة مستوفاة (كتب كتاباً غير منشور حول الصهيونية). ولا بد أن نضيف أن شخصيات من القدس كانت من أكثر الاعضاء نشاطاً في الجمعيات المختلفة التي نشأت ضمن الحركة العربية بعد سنة ١٩٠٨.

خاتمة

إن كان ثمة مفترق طرق في تاريخ القدس في القرن التاسع عشر، فينبغي أن نراه في التغيير الذي حدث في الستينيات والسبعينيات. كان هذا التغيير جزءاً من التحول الديموغرافي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي الاداري الحاسم الذي شهدته فلسطين كلها خلال تلك العقود تحت تأثير سياسة الاصلاح العثمانية والتغلغل الاوروبي (١٠).

بيد اننا لو نظرنا الى الوراء، في ضوء التغييرات التي اعقبت الحرب العالمية الأولى، لظهر لنا أن سنة ١٨٨٢ كانت أيضاً نقطة تحول. إن الاحتلال البريطاني في مصر وبداية موجة الهجرة اليهودية الأولى وكلاهما حدث سنة ١٨٨٢ كانا نقطتي البدء لخطين من التطور، الاستعمار البريطاني من جهة والصهيونية من جهة أخرى، تحرك كل منهما في اتجاه الآخر والتقيا أخيراً خلال الحرب. وكانت النتيجةتان صدور وعد بلفور (٢ تشرين الثاني ١٩١٧) ودخول النبي الى القدس (١١ كانون الأول ١٩١٧).

الحواشي

١. حول تاريخ فلسطين العام خلال هذه الفترة (١٨٣١ - ١٩١٧) قارن:

— A L Tibawi, *A Modern History of Syria including Lebanon and Palestine*, London, 1969.

— Bichara Klader, *Histoire de la Palestine*, 2 vols., Tunis and Algiers, 1976-77;

— Moshe Ma'oz, *Ottoman Reform in Syria and Palestine 1840-1861*, Oxford, 1968;

— Alexander Schölich, *Palästina im Umbruch 1856-1882*.

والترجمة العربية لهذا الكتاب:

تحولات جذرية في فلسطين ١٨٥٦ - ١٨٨٢، ترجمة كامل العسلي - عمان، ١٩٨٨.

— عبد العزيز محمد عوض، *متصرفية القدس في العهد العثماني ١٨٧٤ - ١٩١٤*، رسالة دكتوراة، جامعة عين شمس، القاهرة، ١٩٧٠.

— Haim Gerber, *Ottoman Rule in Jerusalem 1890-1914*, Berlin, 1985; Neville J Mandel,

— *The Arabs and Zionism before World War I*, Berkeley, 1976.

انظر ايضاً التقارير التي نشرتها حول الاحداث في فلسطين الجريدة الاسبوعية للمستعمرين الهيكليين الألمان: **Die Warte**. هناك مجلدان يضمنان مقالات مختارة من هذه الجريدة نشرهما الكس كرمل.

Alex Carmel,

1. *Palästina-Chronik 1853 bis 1882*, Ulm, 1978.;

2. *Palästina-Chronik 1853 bis 1914*, Ulm, 1983.

وحول تاريخ القدس خلال هذه الفترة قارن:

— Philipp Wolff, 'Zur neueren Geschichte Jerusalems. Von 1843-1884', *Zeitschrift des Deutschen Palästina-Vereins*, VIII, 1885;

— Leonhard Bauer, *Volkleben im Lande der Bibel*, Leipzig, 1903, ch. 32 ('Jerusalem im 19. Jahrhundert);

— عارف العارف، *المفصل في تاريخ القدس*، القدس، ١٩٦١.

— مصطفى مراد الدباغ، *بلادنا فلسطين*، مجلد ٢/١٠، بيروت، ١٩٧٦.

— Yehoshua Ben-Arieh, *Jerusalem in the 19th century. The Old City*, Jerusalem and New York, 1984.

٢. قارن العارف، *المفصل*، ٢٧٧ - ٩١؛ الدباغ، *المجلد المنوه عنه* ١٦ - ٣١.

Yitzhak Hofman, 'The Administration of Syria and Palestine under Egyptian Rule (1831-1840)'

Moshe Ma'oz (ed.), *Studies on Palestine during the Ottoman Period*, Jerusalem, 1975;

ولطيفة سالم، الحكم المصري في الشام ١٨٣١ - ١٨٤٠، القاهرة، ١٩٨٣.
وللاطلاع على وصف معاصر مليء بالحياة للاحداث التي وقعت في القدس خلال الانتفاضة الفلسطينية ضد ابراهيم باشا سنة ١٨٣٤، انظر:

S N Spyridon, 'Annals of Palestine, 1821-1841', *Journal of the Palestine Oriental Society*, 18, 1938, 89-120.

انظر أيضاً: العارف، المفضل، ٢٨١ - ٢٨٦.

٣. قارن:

— Joseph Hajjar, *L'Europe et les Destinées du Proche-Orient (1815-1848)*, n.p. 1970, 352-72.

— Mayir Vereté, 'A Plan for the Internationalization of Jerusalem, 1840-1841', *Asian Affairs*, 12/1, 1978:

— Alexander Schölch, 'Europa und Palästina 1838-1917' in Helmut Mejcher and Alexander Schölch (eds.), *Die Palästina Frage 1917-1948*, Paderborn, 1981, 17-18.

٤. كان هنالك ١١٦ قرية في القضاء في سنة ١٨٧١ - ٧٢ انظر:

Alexander Schölch, 'The Demographic Development of Palestine, 1850-1882', *International Journal of Middle East Studies*, 17/4, 1985, table 2, and 126 in 1903/04

(انظر العارف، المفضل، ٣٢٩).

Kemal H Karpat, *Ottoman Population 1830-1914*, Madison, 1985, 157 and 161.

حسب ما يقوله نويمان Neumann كان هنالك حوالي ٥٠٠٠ اجنبي وحمي (شخص يتمتع بالحماية) في القدس في النصف الثاني من السبعينات. انظر:

Bernhard Neumann, *Die Heilige Stadt und deren Bewohner*, Hamburg, 1877, 217.

وتحدث القنصل البريطاني عن ٣٠٠٠ فقط من الاجانب والمحميين في القدس سنة ١٨٧٤

Public Record Office, London, FO 195, vol. 1047 (Jerusalem, February 21, 1874).

Mandel, op. cit., pp. XXIV, n. 5, and 29. .٦

قارن : عارف العارف المفصل ، ٢٧١ — ٢٧٣ و ٣٧٤ — ٣٨٤ .٧

Tibawi, *A Modern History*, 35-38 and 249-52.

حول هذه الناحية انظر على الأخص : .٨

Wolff, 'Zur neueren Geschichte Jerusalems'; C Schick, 'Die Baugeschichte der Stadt Jerusalem', pt. VII, *Zeitschrift des Deutschen Palästina-Vereins*, XVII, 1894.; Bauer, op. cit.;

العارف المفصل ، ٣٠٣ — ٣٠٨ .

— Y Ben-Arich, 'The Growth of Jerusalem in the Nineteenth Century', *Annals of the Association of American Geographers*, 65/2, 1975;

— Ruth Kark and Shimon Landman, 'The Establishment of Muslim Neighbourhoods in Jerusalem, outside the Old City, during the Late Ottoman Period', *Palestine Exploration Quarterly*, 112, 1980;

— Ben-Arich, *Jerusalem in the Nineteenth Century*;

— Schölch, *Palästina im Umbruch 1856-1882*, pt. II.

Spyridon, op. cit., 123-25. .٩

حول تطور القدس في اواخر الخمسينيات والستينيات انظر التقارير المفصلة في : .١٠

Philipp Wolff, *Sieben Artikel über Jerusalem aus den Jahren 1859 bis 1869*, Stuttgart, 1869; *Flugblätter aus Jerusalem vom November und Dezember 1869*, Stuttgart, 1870; *Jerusalem*, Leipzig, 3rd edition, 1872.

.١١.

Vital Cuinet, *Syrie, Liban et Palestine. Géographie Administrative, Statistique, Descriptive et Raisonnée*, Paris, 1896-1901, 522, 535, 542, 553, 563.

.١٢ حسب ما يقوله محمد اديب العامري، القدس العربية، عمان ١٩٧٩، ص ١٢، فإن ٨٥٪ من حارة اليهود هي وقف؛ وحسب عارف العارف، النكبة، المجلد ٢، صيدا وبيروت، ١٩٥٧، ٤٩٠، رقم ٣، تبلغ نسبة الوقف ٩٠٪. انظر ايضاً :

A.L. Tibawi, *The Islamic Pious Foundations in Jerusalem*, London, 1978, 43 — 45.

وحول احياء القدس عموماً انظر :

I W J Hopkins, 'The Four Quarters of Jerusalem', *Palestine Exploration Quarterly*, 103, 1971.

Mandel, op. cit., 78 and 105.

. ١٣

. ١٤ حول يهود اليمن انظر:

Martin Gilbert, *Jerusalem – Rebirth of a City*, London, 1985, 176–77 and 208.

Christopher Paulus.

. ١٥ قارن:

'Die Tempelcolonien in Palästina', *Zeitschrift des Deutschen Palästina-Vereins*, VI, 1883;

وحول مستعمرات الميكلين في فلسطين بصورة عامة قارن: محمد رفيق التميمي وعمود بهجت، ولاية بيروت، ج ١، بيروت، ١٩١٦/١٣٣٥، ١٧، ٢٣٨، ٢٤٠ و٢٥٣–٢٥٧.

Alex Carmel, *Die Siedlungen der württembergischen Templer in Palästina 1868–1918*, Stuttgart, 1973;

وعلي عاظمة، العلاقات الألمانية الفلسطينية، ١٨٤٦–١٩٤٥؛ بيروت، ١٩٨١، ١٠٠–١٣٣.

. ١٦ لمعرفة المصادر وتفصيلات اوفى انظر:

Alexander Schölch, 'European Penetration and the Economic Development of Palestine, 1856–82',

في كتاب

R Owen (ed.), *Studies in the Economic and Social History of Palestine in the Nineteenth and Twentieth Centuries*, London, 1982, 10–87; Schölch, *Palästina im Umbruch 1856–1882*, pt. II.

P Palmer, 'Das jetzige Bethlehem', *Zeitschrift des Deutschen Palästina-Vereins*, XVII, 1894, 91–94.

. ١٨ هناك وصف مفصل للمهن في القدس في النصف الثاني من الاربعينيات، مع انه تنقصه معطيات احصائية مرضية، في:

Titus Tobler, *Denkblätter aus Jerusalem*, St Gallen and Constanz, 1853, 228–76.

وهذا الكتاب الذي يتألف من ٧٥٩ صفحة يكاد يكون وصفاً موسوعياً للقدس والحياة في المدينة في ذلك الوقت.

Charles Warren, *Underground Jerusalem*, London, 1876, 490–522.

. ٢٠

A M Luncz, *Jerusalem, Jahrbuch zur Beförderung einer wissenschaftlich genauen Kenntnis des jetzigen und des alten Palästinas*, I, 1881, Vienna, 1882, 33–60

منذ سنة ١٨٨٢ وحتى سنة ١٩١٩ نشر لونتش، ١٣ مجلداً من كتابه :
Jerusalem Yearbook باللغة العبرية، ومن سنة ١٨٩٦ حتى سنة ١٩١٦، ٢٠ مجلداً من كتابه
Palestine Almanac باللغة العبرية أيضاً.

وعن القدس في السبعينات انظر أيضاً :
وكذلك :

G Gatt, *Beschreibung über Jerusalem und seine Umgebung*, Waldsee, 1877.

٢١. بقي هذا لفترة طويلة في عهد الانتداب. وقد كشف أول احصاء للصناعة اجرته حكومة فلسطين سنة ١٩٢٨ أنه كان يعمل في الـ ٦٥٨ مؤسسة «صناعية» في المدينة في تلك السنة ٣٣١٦ شخصاً فقط، بما في ذلك اصحاب تلك المؤسسات. ولم يكن هناك سوى ٨٠ ورشة (مَشْغَل) تملك نوعاً من انواع الآلات التي تدار بالطاقة :

' Alfred E Lieber, 'An Economic History of Jerusalem'

في كتاب :

Jerusalem, (eds.) in John M Oesterreicher and Anne Sinai, New York, 1974, 40.

Schölch, 'European Penetration', 27; .٢٢

Gerber, op. cit., 241. .٢٣

Gerber, op. cit., 241. .٢٤

Cuinet, op. cit., 610-13;

Bauer, op. cit., 340;

Gerber, op. cit., 242.

٢٥. للاطلاع على تفصيلات هذا التطور الاداري قارن:

Schölch, *Palästina im Umbruch 1856-1882*,

(القسم الاول)

وشولش، تحولات جذرية في فلسطين ترجمة كامل العسلي، (القسم الاول).

B Abu Manneh, 'The Rise of the Sanjak of Jerusalem in the Late 19th Century'

في :

Gabriel Ben-Dor (ed.), *The Palestinians and the Middle East Conflicts*, Ramat Gan,

— عوض، متصرفية القدس، ١ - ٢٥، ٢٤ - ٢٨.

26 Schölch, *Palästina im Umbruch 1856-1882*, pt. III.

وترجمة هذا الكتاب بالعربية تحولات جذرية في فلسطين ١٨٥٦ - ١٨٨٢ .

٢٧ . حول تأسيس البلدية ونشاطاتها انظر قبل كل شيء :

Ruth Kark, 'The Jerusalem Municipality at the End of the Ottoman Rule', *Asian Affairs*, 14, 1980.

وقارن ايضا :

Daniel Rubenstein, 'The Jerusalem Municipality under the Ottomans, British and Jordanians'

وفي كتاب :

Joel L Kraemer (ed.).

Jerusalem - Problems and Prospects, New York, 1980, 72-74;

الدباغ، بلادنا فلسطين، المجلد المذكور سابقاً ٢٠١ - ٢٠٢ .

Ben Arie, *Jerusalem in the 19th Century*, 122-25; Gerber, op. cit., 113-17.

٢٨ . قائمة الاعضاء في سنة ١٣٣٢/١٩١٣ - ١٤ في كتاب العارف، المفضل، ٣١٦ .

كان المجلس العمومي يضم ثلاثة اعضاء من قضاة القدس، وثلاثة من يافا، وأربعة من غزة وبئر السبع واثنين من الخليل .

٢٩ . حول مجلس الادارة والمجلس العمومي انظر قبل كل شيء :

Gerber, op. cit.,

الفصل الخامس واماكن متفرقة .

وهذه الدراسة تستند الى ثلاثة سجلات لمجلس الادارة وسجل للمجلس العمومي من العقد الأخير للحكم العثماني .

٣٠ . حول ترجمة حياة يوسف الخالدي انظر مقاليتي :

'Ein palästinensischer Repräsentant der Tanzimät-Periode: Yūsuf Diyā'addīn al-Khālīdī (1842-1906)', *Der Islam*, 57, 1980.

وتستند هذه الدراسة فيما تستند اليه من مصادر أخرى الى السيرة الذاتية ليوسف الخالدي (مخطوط محفوظ في مكتبة

العائلة الخالدية بالقدس) والى رسالة سياسية طويلة كتبها الى المستشرق فارموند *Wahrmund*.

انظر ايضا : عادل متاع، «يوسف ضياء الدين الخالدي» - *الفجر الادبي*، ٣٥/٣٦، القدس، ١٩٨٣ .

وكامل العملي : من اعلام بيت المقدس : يوسف ضياء الخالدي - ترجمة عن الكزاندر شولش، مجلة القدس

الشريف، العدد ٩٥، ١٩٨٦، ٢٦ .

٣١ . بحكم التقاليد المتبعة كان افراد من عائلة الخالدي يتولون منصبى باشكاتب المحكمة ونائب الشرع؛ بينما كان يتولى

افراد من عائلة الحسيني منصبى المفتي ونقيب الاشراف .

٣٢ يبدو ان يوسف الخالدي كان من اوائل العلماء المقدسين الذين رغبوا في تلقي العلم في احدى المدارس العصرية في مصر، ثم درسوا بعدئذ في كليات مماثلة في استانبول. وفي القرن التاسع عشر ظلت اقوى العلاقات الثقافية التي ارتبط بها وجهاء القدس وعلماؤها هي تلك التي تربطهم بالأزهر في القاهرة. بيد أن استانبول اصبحت في فترة التنظيمات تدريجياً منافسةً للقاهرة كمركز للجذب الثقافي. أما دمشق فكانت و بقيت اقل أهمية بكثير بالنسبة لعائلات القدس في هذا الشأن.

حول العلاقات والتوجهات الثقافية لوجهاء القدس وعلمائها انظر:

Uri M Kupferschmidt, 'Connections of the Palestinian 'Ulamā' with Egypt and Other Parts of the Ottoman Empire'toman

في كتاب :

Amnon Cohen and Gabriel Baer (eds.), *Egypt and Palestine*, Jerusalem and New York, 1984;

وانظر كذلك :

Gabriel Baer, 'Jerusalem Notables in Ottoman Cairo' in *ibid*;

في الكتاب نفسه:

'Ādil Mannā', 'Cultural Relations between Egyptian and Jerusalem 'Ulamā' in the Early Nineteenth Century'

في كتاب :

Gabriel R Warburg and Gad G Gilbar (eds.), *Studies in Islamic Society. Contributions in Memory of Gabriel Baer*, Haifa, 1984.

٣٣ . لمعرفة تاريخ الجلستين انظر :

Robert Devereux, *The First Ottoman Constitutional Period*, Baltimore, 1963, 16.

Mandel, *op. cit.*, 47-49.

٣٤ .

Theodor Herzl, *Gesammelte zionistische Werke*, vol. 5, Tel Aviv, 1935, 484-86.

٣٥ .

٣٦ . قارن :

A L Tibawi, *Jerusalem. Its Place in Islam and Arab History*, Beirut, 1969, 28; يوجد هنا انجليزي

— محمود العابدي، قدسنا، القاهرة، ١٩٧٢، ١٣٤ .

— عبد العزيز محمد عوض، الحركة العربية في متصرفية القدس، مجلة الشرق الاوسط، ١٩٧٤، ١٤٥ .

Mandel, op. cit., 39-40.

٣٧. كان روجي الخالدي (١٨٦٤ - ١٩١٣) خلفاً جديراً من وجوه عديدة بعثه يوسف الخالدي بوصفه مثقفاً وسياسياً عربياً بارزاً في القدس. حول ترجمة حياته قارن:
 روجي الخالدي، المقدمة في المسألة الشرقية، القدس، بلا تاريخ، ١ - ٤.
 ناصر الدين الاسد، محمد روجي الخالدي، رائد البحث التاريخي الحديث في فلسطين، القاهرة، ١٩٧٠، ٣٥ - ٤٦.
 زكي محمد مجاهد، الاعلام الشرقية في المائة الرابعة عشرة الهجرية، ٤ مجلدات، القاهرة، ١٩٤٩ - ١٩٦٣، رقم ١٠٧١.
 يعقوب المودات، من اعلام الفكر والادب في فلسطين، عمان، ١٩٧٦، ١٥٥ - ٦٠.
 عرفان سعيد ابو حمد المواري، اعلام من ارض السلام، حيفا، ١٩٧٩، ٥٤٥.
 الدباغ، بلادنا فلسطين، المجلد المشار إليه أنفاً، ٣٦٣ - ٦٩.
 حول سعيد الحسيني أنظر:
 الدباغ، المجلد المشار إليه أنفاً، ٣٧٩ - ٣٨١.
٣٨. الثواب الذي انتخبوا للبرلمان العثماني في سنجق القدس كانوا في ١٩٠٨: روجي الخالدي، سعيد الحسيني، حافظ السعيد (يافا)، وفي سنة ١٩١٢: روجي الخالدي، عثمان النشاشيبي، أحمد عارف الحسيني (غزة)، وفي سنة ١٩١٤: سعيد الحسيني، راجب النشاشيبي وفيضي العلمي. قارن القوائم في العارف، المفضل، ٤٢٦، والدباغ، بلادنا فلسطين، المجلد المشار إليه، ٥١ - ٥٢.
٣٩. وهناك خريطة بين صفحتي ٢٥٨ و ٢٥٩.
٤٠. حول سياسة نواب القدس وحول الاحتجاجات الفلسطينية ضد التغلغل الصهيوني بشكل عام قارن:
 عوض، الحركة العربية
 Mandel, op. cit.,
 Khalidi, British Policy, ch. 4-6;
 Rashid Ismail Khalidi, 'The 1912 Election Campaign in the Cities of Bilad al-Sham', International Journal of Middle East Studies, 16/4, 1984.
 هذا هو الموضوع الرئيسي لكتابي
 Palästina im Umbruch 1856-1882.

الفصل التاسع

تحويل القدس

١٩١٧ - ١٩٨٨ م

مايكل هَدَّسُون

تحويل القدس

١٩١٧ - ١٩٨٨

مايكل هدسون

كانت سنة ١٩١٧ سنة مصيرية بالنسبة لسكان القدس - من عرب ويهود - لا بسبب صدور وعد بلفور فحسب بل لأنها كانت علامة على نهاية أكثر من ١٢٠٠ سنة من الحكم العربي والتركي الاسلامي تخللته فترة انقطاع قصيرة زمن الصليبيين . إن التحويل الذي طرأ على القدس منذ دخول الجنرال ادموند اللنبي Allenby للمدينة في ٩ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩١٧ يزيد بالتأكيد عن التحويل الذي شهدته في أي فترة من فترات تاريخها الحافل بالأحداث . وكان هذا تحولاً مزدوجاً: فعلى المستوى السياسي كان هنالك الاحلال الكامل لحكم القادمين الجدد الصهيونيين اليهود محل الحكم العربي الوطني الأصلي والتركي الاسلامي ؛ وعلى المستوى الاجتماعي إقامة مدينة قلعة عصرية طوّقت بمظاهرها المادية و«ثورتها» الديموغرافية وتبنيها للثقافة الغربية الطابع العربي للمدينة وغطت عليه تقريباً .

إن الطابع العربي للقدس في الثمانينيات من هذا القرن هو ظل لما كان عليه سنة ١٩١٧ وسنة ١٩٤٨ أو حتى سنة ١٩٦٧ . في سنة ١٩٨٧ كان العرب يشكلون ٢٨٪ فقط من سكان المدينة البالغ عددهم ٤٧٥,٠٠٠ ، بالمقارنة مع ٧٣٪ في سنة ١٨٧٣ (قبل الموجة الأولى للهجرة اليهودية الأوروبية) ، و٤٦٪ في سنة ١٩٢٢ و٤٠٪ سنة ١٩٤٤ .^(١) ويتهدد المدينة القديمة العربية خطر التحويل الى متحف للسياح بدلا من أن تشكل جزءاً حيوياً من المدينة . والأحياء العربية التي بنيت خلال الحكم الأردني تقزمت الآن جراء المنشآت العمرانية اليهودية العالية الكثافة التي تحيط بها . وقليل من الناس يذكرون الآن أن آلافاً كثيرة من العرب كانوا يعيشون في القدس الغربية الى أن طردوا منها سنة ١٩٤٨ . ومع ازدياد حدة التعصب الديني باسرائيل في السنوات الأخيرة أصبح هناك الآن خطر متزايد على قداسة الحرم الشريف وأمنه المادي ، بما فيه من مساجد بالغة القداسة . إن وضع المدينة المقدسة وإفاق مستقبلها لا بد أن يثير مشاعر القلق لدى المقدسين العرب والفلسطينيين

والعرب في كل مكان والمسلمين في العالم اجمع . والحق أن الجو السياسي الملتهب في المنطقة ينبغي أن يثير الانزعاج على مستقبل المدينة لدى كل من تعز عليه مدينة القدس .

ومن سخرية القدر أن فترة ضياع القدس تتطابق مع الفترة التي خرج فيها العالم العربي الى عصر الاستقلال السياسي والحداثة . ولو تعادلت الأشياء الأخرى فان القدس لم تكن لتبقى تحت السيطرة العربية فحسب بل كان يمكن أن تغدو أيضاً عاصمة لدولة فلسطينية مستقلة ذات أغلبية عربية واقلية يهودية . بيد أنه لم يقدر لفلسطين أن تمارس تجربة التحرر «العادي» من الاستعمار الأوروبي كما فعلت اجزاء أخرى من العالم العربي . وبدلاً من ذلك استطاعت الحركة الوطنية اليهودية ذات الجذور الأوروبية - الصهيونية - تحت مظلة انتداب بريطانيا العظمى أن تتوالد في فلسطين وتطور مؤسسات دولة . ويصف الأدب الصهيوني هذا الانجاز بأنه أقل بقليل من المعجزة ، اذا أخذت في الاعتبار الأرجحية السكانية للعرب ؛ في حين أن الروايات العربية تعكس نوعاً من الذهول الحقيقي من أن تحمل كارثة كهذه بشعب يطغى وجوده في البلاد وحقوقه التاريخية فيها على كل ما عداه طغياناً ساحقاً . ومن أجل هذا فلا يفاجأ المرء إذ يجد في التواريخ الشعبية للجانبين تفسيرات «أسود وأبيض» ساذجة يقرر النتيجة فيها الأبطال أو الأوغاد ، والشجاعة والخيانة ، ولطف الله أو غضبه .

لكن الأجوبة الساذجة لا تفسر تفسيراً كافياً كيف سقطت فلسطين ، ومعها القدس ، خلال الخمسين سنة التالية قطعة قطعة في أيدي الغزاة الصهاينة . ولا شك أن جزءاً من التفسير يكمن في القيادة والمهارات التنظيمية وقاعدة الموارد الاقتصادية للحركة الصهيونية . لقد أثبتت القدرة على التأثير على الحكومة البريطانية ثم على الحكومة الأميركية ، فيما بعد ، وتمكنت أيضاً من توسيع موطنها قدم بسيط نسبياً في فلسطين نفسها الى شبه دولة استيطانية استعمارية ثم إلى دولة رسمية . وحققت أيضاً بشكل ما ما يكفي من التماسك الداخلي للتغلب على الانقسامات الأيديولوجية والمنافسات التنظيمية بحيث استطاعت أن تواجه بنجاح ما كان يُرى بأنه العدو العربي المشترك . وهناك عنصر آخر بلا شك تمثل في التفكك النسبي والضعف في السياسة العربية في ذلك الوقت . إن الحركة الوطنية العربية ، التي جهدت للتفاهم مع الفوضى التي نشأت عن رحيل الأتراك ومجيء بريطانيا وفرنسا ، كانت تفتقر إلى وحدة الهدف ووحدة الصف اللتين كان يلزم توافرها حتى تقوى الحركة على مواجهة الأوروبيين ، وفي فلسطين ، على مواجهة الصهيونيين أيضاً . ولم يستطع الزعماء

العرب في فلسطين، على النقيض من اندادهم الصهيونيين، أن يضموا صفوفهم بما فيه الكفاية ليصعدوا مقاومة سياسية ومسلحة ثابتة.

أما البريطانيون والفرنسيون والأمريكيون فيما بعد فقد كان لهم من جهتهم مصالح اقتصادية واستراتيجية أكبر يشعون وراءها في المنطقة. ونظراً للتأثيرات الداخلية الموالية للصهيونية في الدرجة الأولى تم إقناع القادة البريطانيين، والأمريكيين فيما بعد، في نهاية الأمر (ولكن ليس بسهولة) بأن قيام دولة يهودية في فلسطين، وحتى وضع القدس تحت إشراف يهودي، من شأنها أن يخدمها هذه المصالح؛ فضلاً عن أنها أمران مرغوبٌ فيهما أخلاقياً. وانه لمن علامات كفاية الدبلوماسية البريطانية والأمريكية أن هذا القبول الأساسي للمطلب الصهيوني، والتأييد الأمريكي السخي اللاحق له، ثم التوصل إليه دون إثارة احتجاج عربي ذي فعالية حقيقية. وبعد أن سحقت بريطانيا بنجاح المقاومة العربية الفلسطينية وأجهزت على زعمائها في أواخر الثلاثينيات انتقل الدور الرئيسي للقيادة العربية في فلسطين إلى الهاشميين، في شرق الأردن. لكن الهاشميين وقد حوصروا بين سياسات بريطانيا العظمى وأمريكا من جهة والمطامح المحيطة للقومية العربية من جهة أخرى، وجدوا أنفسهم يؤدون دور الحارس على البقية الباقية من الأراضي العربية في فلسطين، بما في ذلك القدس، دون أن يستطيعوا حمايتها من المزيد من التوسع الصهيوني.

وإنه ليرتب علينا، ضمن هذا الإطار الأوسع، أن نسعى لفهم الصراع من أجل القدس... بالنسبة لليهود وللصهيونيين كانت المدينة رمزاً دينياً وقومياً معاً؛ وبالنسبة للعرب من مسلمين ومسيحيين لم تكن المدينة أقل شأنًا لكلا السبيين؛ وبالنسبة للمساسة العمليين والمقاتلين من الجانبين كانت القدس جائزة استراتيجية. وقد استخدم كل جانب وسائل غير عادية للتأثير على الحكام (جمع حَكَم) الخارجيين وكلاهما سجل بعض النجاح؛ ولكن في نهاية المطاف سنة ١٩٦٧ كانت القوة اليهودية هي التي حققت النصر. ومع ذلك فبعد مرور عقدين على سقوط القدس العربية ما تزال إسرائيل غير قادرة على الحصول على الاعتراف القانوني بالاستيلاء على القدس لا من العرب ولا من المجتمع الدولي. والصراع مستمر.



القدس البريطانية

«لا اليهود ولا العرب هم الذين استولوا على فلسطين من الأتراك بل البريطانيون . . .»

رونالد ستورس

حذر الحاج أمين الحسيني، مفتي القدس، اللورد بلومر، ثاني مندوب بريطاني سام على فلسطين، من أن انجلترا اذا استمرت في محاباتها للصهيونيين فانه هو (أي المفتي) لن يكون مسؤولاً عن سلامة فلسطين. وردّ عليه اللورد بلومر بحدّة قائلاً: «انت مسؤول؟ من طلب منك أن تكون مسؤولاً عن السلام في هذا المكان؟ أنا (المسؤول)». وقيل انه (أي المندوب البريطاني) خاطب اللجنة اليهودية بهذا الاسلوب الجاف نفسه. (٣) كان البريطانيون مُشربين جزئياً بحماسة محبة السامية؛ ويلاحظ فستر Vester أن اللورد بلفور كان في افتتاح الجامعة العبرية «عميق التأثر وسالت الدموع على وجهه». (٣) وشعر البريطانيون أيضاً ببعض العطف على العرب الفلسطينيين، المواطنين الأصليين، وأملوا أن ينهضوا بطريقة حياتهم بعد أن تخلصوا من عبء ذلك الذي اعتبره الانجليز «فساد»، الحكم التركي المتخلف. وليس بوسع المرء أن يقرأ أقوال موظفي الانتداب البريطاني مثل ستورس وهربرت صموئيل دون أن يتبين فيها إحساساً بـ «المهمة التمديدية» *mission civilisatrice*، على الطراز الانجليزي.

بيد أن البريطانيين وجدوا منذ البداية أن بسط الأمن والنظام لن يكون أمراً سهلاً، وذلك بسبب وجود تناقض في صك الانتداب على فلسطين. فالمادة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم طلبت من الدولة المنتدبة أن تطبق «المبدأ القائل بأن حُسن احوال (شعب فلسطين) وتطوره يشكلان أمانة مقدسة للحضارة». في سنة ١٩١٧ كان العرب يشكلون حوالي ٩٠٪ من سكان فلسطين وحوالي نصف سكان القدس. ولكن في الوقت نفسه فان وعد بلفور الذي ألزم بريطانيا وغيرها من الدول المنتصرة بتأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين قد ضُمن كتاباً أيضاً في صك الانتداب. وفضلاً عن ذلك فان الانتداب نص أيضاً على قيام وكالة يهودية (سميت المنظمة الصهيونية) كهيئة عمومية لتسهيل تطور الوطن القومي والبلاد بوجه الاجمال (المادة ٤). وقد أمرت السلطة المنتدبة أن تسهل الهجرة اليهودية في احوال مناسبة (المادة ٦) وتسهيل الحصول على الجنسية الفلسطينية لليهود. . . (المادة ٧). وقد ساورت العرب الفلسطينيين الشكوك ويحق حول النوايا السياسية للحركة الصهيونية.

ولكن زعماءهم في أكثريتهم ، ظلوا مقتنعين بسداجة حتى أواسط الثلاثينيات بنوايا بريطانيا الطيبة نحوهم .

ظلت فلسطين ، والقدس ، تحت الإدارة العسكرية البريطانية (إدارة أراضي العدو المحتلة) حتى شهر تموز/يوليو/ ١٩٢٠ . وخلال هذه الفترة كانت السلطات منشغلة بصورة رئيسية بتخفيف الخلل الناشئ عن الحرب وتنظيم الشؤون الاقتصادية والادارية . وكانت الشؤون الدينية والأماكن المقدسة قضايا حساسة تطلبت عناية خاصة من حاكم القدس العسكري اللفتانت كولونيل رونالد ستورس . ومن أجل المساعدة في الحفاظ على تراث المدينة وتحسين أوضاعه أسس جمعية محبي القدس The Pro-Jerusalem Society التي تألفت من زعماء دينيين مسيحيين ومسلمين ويهود ومن أعيان مدنيين . وسعت الجمعية ، تحت الرقابة الفنية للمخطط والمهندس المعماري أشبي C.R. Ashbee ، الى القيام بترميم المباني العامة والأثرية وتجديدها .^(٤) وبينما تمسك المندوب السامي وموظفوه بالاجراءات المعتادة المأثورة عن العهد العثماني والمعروفة بـ «الوضع الراهن Status quo» في شأن العلاقات بين الطوائف فقد بدأوا على الفور بتطبيق روح وعد بلفور بادخال اللغة العبرية في الاعلانات والوثائق الرسمية ، جنباً الى جنب مع اللغتين الانجليزية والعربية وفي استخدام الموظفين والمترجمين اليهود .^(٥)

وكان أول مندوب سام مدني هيربرت صموئيل ، وهو وزير سابق . وفي سنتي ١٩١٨ و١٩١٩ كتب صموئيل يقول « . . . انه كان يتعاون تعاوناً وثيقاً مع زعمائها (الحركة الصهيونية)»^(٦) . وعلى الرغم من قدراته ولياقته فان صموئيل كان يُقدم على مشروع يحمل في طياته الفشل في نهاية المطاف نظراً للتناقضات الأساسية الكامنة فيه .^(٧) ومع أنه حاول أن يكون منصفاً فانه كان ملتزماً التزاماً عميقاً بتنفيذ وعد بلفور . ولذلك كان اصطدامه بمطامح الأغلبية العربية في فلسطين أمراً محتوماً .

وقبل سنة واحدة من تعيين صموئيل (الذي تم في تموز ١٩٢٠) رفض المؤتمر السوري العام المنعقد في دمشق (بمشاركة فلسطينيين) وعد بلفور . وقبل تعيينه بثلاثة أشهر فقط اندلعت مظاهرات كبيرة في شهر نيسان . وكانت هذه ذروة لاحتجاجات متزايدة استمرت بضعة أشهر ضد المشروع الصهيوني وتأييداً للحكومة العربية المستقلة الجديدة (ولكن القصيرة العمر) التي شكلها في دمشق الأمير الهاشمي فيصل . وفي هذه المناسبة ومناسبات

لاحقة حثت القيادة العربية التقليدية الجمهور المتأجج بالغضب على الاعتدال والصبر. لكن هؤلاء القادة لم يفهموا تماماً الالتزام البيوي الذي التزمت به سلطات الانتداب بتسهيل تطور طائفة يهودية ذات استقلال ذاتي؛ كما أنهم لم يكونوا على استعداد لقبول العروض التمييزية التي عرضها عليهم البريطانيون للمشاركة في الحكم المحلي. وقد حاول الكتاب الأبيض لسنة ١٩٢٢ الذي كتبه وزير المستعمرات ونستون تشرشل تهدئة مخاوف العرب؛ ولكنه أخفق في ذلك بسبب إعادة تأكيده على الحقوق اليهودية في وطن وعلى مزيد من الهجرة. وقوبلت المقترحات التي قدمتها الدولة المنتدبة في سنتي ١٩٢٢ و ١٩٢٣ بشأن تشكيل مجلس تشريعي بالرفض من كلا الجانبين: من الصهيونيين لأنهم كانوا أقلية؛ ومن القيادة العربية لأن «الوكالة العربية» المقترحة أنزلتهم إلى منزلة الأقلية اليهودية ولم تسمح لهم أيضاً بالاستقلال الذاتي نفسه الذي تمتعت به الوكالة اليهودية. وفي سنة ١٩٢٥ لم يقض قانون الطوائف الدينية ببقاء التمييز العثماني بين المسلمين والمسيحيين العرب إلى ما شاء الله فحسب، بل إنه زاد أيضاً الاستقلال الذاتي للطائفة اليهودية في التعليم وغيره من النواحي التنظيمية. (٨)

وقد تمتع خَلَف هربرت صموئيل في سنة ١٩٢٥، لورد بلومر، بولاية سادها الهدوء نسبياً حتى شهر أيلول/ سبتمبر/ سنة ١٩٢٨. ولكن خلال هذه الفترة من الهدوء الخادع كانت الطائفة اليهودية - أو اليشوف - Yishuv - تنظم نفسها في شبه دولة لها جيش (الهاغانا) وضرائب ومؤسسات مالية، وحشد من المنظمات التعليمية والثقافية والخيرية. أما العرب فقد ظلوا من الجهة الأخرى غير منظمين إلى حد كبير، يقودهم وجهاء تقليديون من رجال الدين والتجار الذين نالوا قسطاً من الثقافة ولكن لم يدربوا على طرائق السياسة الواقعية Real-politik. وكان يعرقل قدرتهم على القيادة تأرجح موقفهم تجاه البريطانيين... والتوتر بين مصالحهم والتزامهم الوطني وكذلك التنافس الشخصي والفئوي، كما تمثل ذلك في الاحتكاكات بين أفراد عائلتي الحسيني والنشاشيبي.

كان العقد الأول من الحكم البريطاني مدعاة للسخط والغضب بلا شك، ولكن فلسطين كانت تحت السيطرة. ففي القدس بدا أن السلطة المنتدبة حققت الاستقرار في العلاقات بين الطوائف وقامت بتحسينات بلدية كثيرة. ولكن بقيت حقيقة أن الانتداب لم يكن يعتبره العرب شرعياً. إنهم لم يُستشاروا، ورأوا بشكل متزايد أنه لم يكن منصفاً.

وأوشكت دمانة القيادة الفلسطينية وسلبية الشعب على التراجع أمام نزعة القتال والعنف في الوقت الذي اخذت فيه الاتجاهات الأكثر تطرفاً في اليسوف تزداد قوة.

واستحال السخط البريطاني الى ذعر مع العنف في حائط المبكى سنة ١٩٢٩، وعندما حفزت الهجرة اليهودية المتزايدة العرب في أوائل الثلاثينيات إلى تنظيم أنفسهم للمقاومة للفعالة. وعندئذ حمل حتى ستورس نفسه على التعليق بأن «صهيون وانجلترا»، بعد أن خلقتنا مشروع الوطن القومي اليهودي، قد فشلنا حتى الآن. وكانت النتيجة «انفجاراً في العواطف بلغ من القوة بحيث أن أقوى دولة في العالم احتاجت، بعد عشرين سنة من التجربة والخبرة، وفي زمن السلم التام، فيلقاً من الجيش وكل عدة الحرب لكي تسيطر على السكان المدنيين المحررين». (١١)

والحق أن اضطرابات حائط المبكى، التي رأى فيها كل من المؤرخين العرب والصهيونيين، عاملاً حافظاً على الطوفان الوشيك الحدوث، ترجع الى ما قبل سنة ١٩٢٨ - ٢٩ بمدة طويلة. (١٢)

وفي حين أن تاريخ القدس الحديث هو جزء لا ينفك من تاريخ فلسطين ككل، فإن هذه الاضطرابات تثبت كيف أن المدينة المقدسة أصبحت بؤرة النزاع نظراً لأهميتها الدينية القومية المزدوجة لكلا الطرفين. فبموجب ترتيبات الوضع الراهن *status quo* العثمانية كان يسمح لليهود بالصلاة عند الحائط؛ ولكنهم كانوا يذهبون الى هناك بسماح من المسلمين لا بحق لهم فيه، لأن الحرم الشريف بأسره وكثيراً من المناطق المحيطة به هي من أملاك الوقف الاسلامي. وبعد سقوط القدس تحت الحكم البريطاني (وبعد أن أُثبتَ وعد بلفور في صك الانتداب) لم يتبدأ الصهيونيون ينازعون بشدة في «الوضع الراهن» فحسب بل بدأوا أيضاً يجدون لدى البريطانيين اذنأ صاغية وتعاطفاً لم يكونوا يجدونه عند الأتراك. وقد قام الصهيونيون بجهود لشراء الحائط منذ وقت مبكر في الخمسينيات من القرن الماضي. وتجددت هذه الجهود بقوة فور قيام الاحتلال البريطاني تقريباً. وفي سنة ١٩١٨ كُثف اليهود المصلون عند الحائط جهودهم لاحضار كراس ومقاعد طويلة وتجهيزات أخرى للمتعبدين. وأثارت هذه النشاطات مخاوف لدى المسلمين من أن اليهود يحاولون اقامة كنيس مفتوح، خارجين بذلك الوضع الراهن؛ مما يضر بحقوق المسلمين.

وقد كانت محاولة وقحة من هذا القبيل بشكل خاص في يوم عيد الغفران سنة ١٩٢٨

هي التي أطلقت عقال سلسلة من الاضطرابات التي أودت حتى نهاية شهر آب ١٩٢٩ بحياة ١١٣ يهودياً و١١٦ عربياً. ويذهب مطر الى أن المنظمات ووسائل الاعلام اليهودية ضخمت الأحداث الأولى وبالغت فيها سواء في فلسطين أو أوروبا بحيث أثارت الذعر الذي له ما يبرره لدى رجال الدين المسلمين العرب (وأهمهم المفتي الحاج أمين الحسيني). وتحمل العرب عن جهودهم الأولى للتعاون مع البريطانيين في تهدئة الوضع وبدأوا بدلا من ذلك في تعبئة الجماهير للاحتجاجات العنيفة. (١١)

وقد كسب الفلسطينيون، بمعنى من المعاني، «معركة» حائط المبكى بحيث أن بريطانيا العظمى، عن طريق لجنة شو Shaw واللجنة الدولية لحائط المبكى، أكدت ترتيبات الوضع الراهن القائمة هناك. وبدأ الفلسطينيون الآن بحشد تأييد أكبر بكثير من العالم العربي والاسلامي. ولكن الانتصار كان انتصاراً أجوف. فالحقيقة أن أعمال العنف عند حائط المبكى وفي انحاء فلسطين الأخرى قد سارعت في الاتجاه نحو المجابهة بين الجانبين ليس إلا. فقد ارتدت الحركة الصهيونية من حالة الجمود التي شهدتها في أواخر العشرينيات ووقعت تحت تأثيرات أشد تطرفاً. فضلاً عن ذلك فإن اشتداد الهجرة الكثيفة في أوائل الثلاثينيات جددت مخاوف العرب، وأوجدت كذلك ضغوطاً في مجالات الاقتصاد والبطالة.

واندلع عنف جديد سنة ١٩٣٣. واذ ترددت القيادة العربية التقليدية التي تسيطر على القدس بتشجيع (تكتيك) كهذا فقد بدأت تفقد سيطرتها على أتباعها أنفسهم. إن اللجنة التنفيذية العربية، التي كانت المنظمة السياسية الرئيسية منذ العشرينيات، اعتبرت مفرطة في المحافظة والليونة في ضوء أعمال العنف الجديدة، وتلاشت عن الأنظار. واستجابة لضغوط الجماهير المتزايدة من أجل العمل نشأت أحزاب سياسية جديدة، مع أنها لم تنزل تحت حكم النخبة: حزب الاستقلال المناادي بالجامعة العربية، وحزب الدفاع وحزب الإصلاح وحزب الكتلة الوطنية. لكن نشاطات الأحزاب لم تقو على احتواء المشاعر التي أيقظت الآن. وبدأ تشكيل منظمات التزمت بالكفاح المسلح سواء ضد البريطانيين أو الصهيونيين. وقام رجال حرب العصابات بقيادة الشيخ عز الدين القسام بثورة قصيرة العمر في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٥ قرب جنين، قتل خلالها الشيخ ومجد على الفور بوصفه شهيداً. وكان ذلك إيذاناً ببدء مرحلة جديدة في الكفاح الفلسطيني.

وفي ٢٥ نيسان (ابريل) سنة ١٩٣٦ شكلت اللجنة العربية العليا في القدس بزعامة الحاج أمين الحسيني وضمت زعماء الأحزاب الجديدة. واذ كانت الوجوه قد ظلت كما هي (وبقيت السيطرة للمقدسيين) فان الاستراتيجية والتكتيك أصبحا مختلفين. أصبحت هناك الآن دعوة للعصيان المدني؛ وبذلك هيء المناخ للاضراب العام لسنة ١٩٣٦ ولثورة ١٩٣٧ - ٣٨. (١٢).

وظهرت القدس بما يكفي من البروز في الأحداث الدموية لسنة ١٩٣٦ - ٣٩. فقد كانت مسرحاً لحوادث عنف وارهاب عديدة، كانت منظمة ارغون تسفاي ليومي Irgun وZvai Leumi خلالها مسؤولة عن موجة من التفجيرات بالقنابل بدأت في خريف سنة ١٩٣٦ واستمرت حتى نشوب الحرب العالمية الثانية بعد سنتين من ذلك التاريخ. ومع أن الثوار الفلسطينيين سيطروا على الأجزاء الريفية والجبلية الرئيسية في فلسطين خلال الثورة، فانهم لم يستطيعوا أن يظفروا أو يحتفظوا بموطيء قدم في المدن الرئيسية. وقد تمكن المقاتلون الفلسطينيون على أية حال من السيطرة على البلدة القديمة في القدس لفترة وجيزة في شهر تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٣٨. وقد دفع العنف المتزايد في المواجهة بين العرب واليهود والبريطانيين بالبريطانيين الى التدخل بكثافة ولكن بغير إنصاف. فقد تجاهل الجيش البريطاني تسليح الطائفة اليهودية؛ بل إن ضابطاً بريطانياً هو اورد ونغيت Orde Wingate قام بتدريب رجال العصابات اليهود. لكن البريطانيين اتخذوا اجراءات صارمة ضد الفلسطينيين بكل الطرق والأشكال. كانت السلطات تبذل جهوداً كبيرة لمصادرة الأسلحة وتعامل المشتبه بهم بفظاظة. وحُلت اللجنة العربية العليا في شهر تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٣٧ ونفيت. وعلى الرغم من صلابه رئيسها الحاج أمين الحسيني فان أعضاءها كانوا يمثلون الى حد بعيد النخبة التقليدية المسورة الحال والمعتدلة نسبياً. وفي غياب اللجنة وقعت القيادة الفلسطينية في أيدي الرؤساء الريفيين، الذين لم يكن «الاعتدال» فضيلة بالنسبة للكثيرين منهم. وفي الوقت نفسه فقدت القدس مكانها البارز على المسرح السياسي الفلسطيني. ووفقاً للمعطيات التي جمعها بوراث Porath لم يكن بين ٢٨١ «ضابطاً» في الثورة الفلسطينية سوى عشرة (٥,٣٪) من القدس (سبعة منهم كانوا من عائلة الحسيني)، وثلاثة وعشرين فقط (٨٪) كانوا من القدس والقرى المحيطة. (١٣)

وعلى الرغم من هزيمة الفلسطينيين العسكرية أمام البريطانيين، فما جاءت سنة ١٩٣٩ حتى أحرزوا نصراً دبلوماسياً كبيراً. فقد استطاعوا بمساعدة عدة حكومات عربية

اقناع البريطانيين، الذين كانوا يعون أهمية مصالحهم العربية الاسلامية الأوسع في الحرب العالمية الوشيكة الوقوع، بأن يقللوا بشكل كبير التزاماتهم تجاه الصهيونيين. وكان الكتاب الأبيض الصادر سنة ١٩٣٩ نكسة كبيرة للمطامح الصهيونية. ولسوء الحظ فإن الزعامة الفلسطينية - والحاج أمين على الأخص - أخفقت في اغتنام فرصة هذا الكسب غير المرتقب، مع أن البعض أدركوا الإمكانيات الكامنة فيها. وظلت متصلة، ولكنها لم تكن قادرة على إعادة تنظيم نفسها استعداداً لمواجهة مسلحة متجددة. أما الصهيونيون فقد ضاعفوا جهودهم، إذ أدركوا أن قوة بريطانيا آخذة في الاضمحلال. واستمروا في تهيئة المنظمة العسكرية الخاصة بهم، الهاغانا، وجماعتهم الارهابيتين «غير الرسميتين»، وهما عصاباتا الأرغون وشترين. وبعد هدوء مؤقت في العنف المحلي خلال الحرب العالمية الثانية، استؤنف الصراع في سنة ١٩٤٤ و١٩٤٥. وغدا العنف اليهودي المنظم ضد البريطانيين والعرب (الذي تمثل في نسف الارغون لفندق الملك داود في القدس سنة ١٩٤٦) على أية حال أكثر تنسيقاً ونجاحاً بكثير من العنف الفلسطيني. وعجز الاخيريون عن القيام بدور مهم في السنوات الأخيرة من عهد الانتداب. وفي ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٤٧ تبنت الجمعية العامة التابعة للأمم المتحدة تقرير الأكثرية الذي وضعته لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين: وتمت التوصية بتقسيم البلاد، ولكن تم ذلك الآن بشروط أكثر مواتاة لليهود مما أوصت به لجنة بيل Peel لسنة ١٩٣٦. وتقرر أن تصبح القدس منطقة دولية، كياناً منفصلاً *corpus separatum*.

إن فكرة السيادة اليهودية على القدس (أو حتى على جزء منها) لم تظهر في المناقشات السياسية والدبلوماسية حتى ذلك الوقت تقريباً الذي أصبحت فيه حقيقة بقوة السلاح الصهيوني سنة ١٩٤٨. ولم يكن ذلك في تصور أي تقرير وضعته اللجان الملكية لفلسطين. وحتى الصهيونيون أنفسهم كانوا على استعداد لغاية تشرين الثاني ١٩٤٧ للقبول بالتدويل، مع أن فكرة الدولة اليهودية ذات السيادة (بالمقابلة مع «الوطن القومي» الغامض الذي ورد في وعد بلفور) كانت تتسرب الى تخطيطهم منذ أوائل الأربعينيات. والحق أن الموقف الدولي القانوني السائد، حتى بعد مضي وقت طويل على استيلاء اسرائيل على الجزء الغربي من المدينة سنة ١٩٤٨ وعلى سائرها سنة ١٩٦٧، هو الـ *corpus separatum*: أن تشكل المدينة كياناً منفصلاً. واليوم، ونحن معتادون على تصور القدس بأنها مدينة يهودية اسرائيلية بأكثريتها الساحقة، قد يبدو لنا من العجيب أن تلقى السيطرة اليهودية على المدينة كل هذه

المقاومة . ولكن في الوقت الذي اتخذت فيه الأمم المتحدة قرارها المشهور بشأن التقسيم ، داعية الى أن تصبح القدس كياناً منفصلاً ، كان الاقرار بالوجود العربي - الديموغرافي والاقتصادي والاجتماعي - في المدينة أمراً لا مفرّ منه . صحيح أنه كانت هناك أغلبية يهودية واضحة - ١٠٠ ألف يهودي مقابل ٦٠ ألف عربي مسلم ومسيحي ، تقريباً ، ضمن الحدود البلدية المعينة بشكل ضيق - ولكن القدس بحكم الجغرافيا والطبوغرافيا كانت المركز الاقتصادي والاداري لفلسطين الوسطى . وهذه الصفة كانت تمتد عضوياً بوصفها منطقة العاصمة خارج هذه الحدود . وهذا هو السبب الذي دفع البريطانيين الى انشاء قضاءٍ واسعٍ للقدس ، والذي جعل المنطقة الدولية المقترحة تشمل المناطق المحيطة بالقدس والدائرة في فلكها . وفي هذه المنطقة شكل السكان العرب أكثر بقليل من نصف السكان (حوالي ١٠٥,٠٠٠ من العرب مقابل حوالي ١٠٠,٠٠٠ من اليهود) . وكان العرب يملكون أكثر من ٨٠٪ من الممتلكات ؛ بينما كان اليهود يملكون ٧٪ فقط ، والباقي كان ملكاً لآخرين أو للدولة . وفي داخل حدود البلدية كانت ملكية اليهود ما تزال حوالي ١٨٪ فقط^(١٤) . وفضلاً عن ذلك ، فإن المرء قد ينسى احياناً نظراً لتدفق اليهود المثير الى القدس أن سكان المدينة العرب قد نموا أيضاً نمواً كبيراً . وحسب معطيات جمعت للجنة التحقيق الانجلو أميركية سنة ١٩٤٥ ازداد السكان العرب في بلدية القدس بنسبة ٣٧٪ بين سنتي ١٩٢٢ و ١٩٣١ ، وبنسبة ٥٣٪ بين سنتي ١٩٣١ و ١٩٤٤ (وكانت الزيادات الاسرائيلية المقابلة ٥١٪ و ٨٩٪ على التوالي) .^(١٥) وكان من الأهمية بشكل خاص نمو مجتمع عربي متعلم من الطبقة الوسطى والعليا - تجار وأصحاب مهن - في الأحياء الحديثة خارج المدينة القديمة : في القطمون والمصرارة والطالبية والبقة الفوقا والتحتا والمستعمرتين اليونانية والألمانية والشيخ جراح ودير أبو طور (الطوري) وماملا والنبي داود والشيخ بدر . وكان النمو الاقتصادي متاثلاً لدى الطائفتين . وعلى سبيل المثال دلت الاحصاءات حول الانشاءات الجديدة بين سنتي ١٩٣٦ و ١٩٤٥ على أن اليهود تولوا انشاء ٦٠٪ من الغرف الجديدة والعرب ٤٠٪ ؛ أي بنسبة حصة كل منهما في عدد السكان .^(١٦) وعندما استولى الاسرائيليون في نهاية الأمر على القدس الغربية فانهم قد حصلوا على ضواح كاملة من العقارات الثمينة التي كان يملكها العرب وعلى «صيد غني» من الأموال المنقولة أيضاً .^(١٧)

وبعد قرار بريطانيا في شباط ١٩٤٧ نقل مسؤوليات انتدابها الى الأمم المتحدة وموافقة مجلس الأمن على قرار التقسيم في تشرين الثاني ، بدا أن المخططين العسكريين الصهيونيين

شرعوا بنشاط في الاستعداد للاستيلاء بالقوة على المدينة المقدسة، مع أنها كانت على مسافة بعيدة خارج حدود الأراضي المخصصة للدولة اليهودية. وفي بداية شهر نيسان، وقبل التاريخ المحدد لانتهاء الانتداب بستة أسابيع بدأ الصهيونيون بتنفيذ خطة داليت plan العسكرية. وهدف هذه الخطة هو فتح ممر من الساحل إلى القدس وضّم أكبر قدر ممكن من المدينة إلى الدولة اليهودية. وشنت حرب نفسية وقحة ضد السكان المدنيين العرب ذوي القيادة الهزيلة والمحرومين من التنظيم، أكدها عملٌ من أبشع الأعمال الارهابية الشائعة في العصور الحديثة: ألا وهو المذبحة التي ارتكبتها عصابة الأرغون وأودت بحياة ٢٥٠ مدنياً في قرية دير ياسين في الضواحي الغربية للقدس في اليوم التاسع من نيسان ١٩٤٨. وبعد وفاة عبد القادر الحسيني، أقوى قادة الثوار الفلسطينيين في قرية القسطل القريبة، هبطت على الفور معنويات السكان المدنيين في القدس وفي غيرها من المدن.

وفي ٢٦ نيسان شنت الهاغانا «عملية يفوسي» Operation Jevussi ضدّ أحياء الطبقة الوسطى العربية الكبيرة في القدس الغربية وطردت جميع سكانها منها. وتجاهل البريطانيون والقوات المتنازعة ببساطة ممثلي الأمم المتحدة الذين أرسلوا في أوائل أيار لإقامة الإدارة الدولية الجديدة للمدينة. وما إن حل الخامس عشر من أيار، وغادر المندوب السامي المدينة، حتى أخذت القوات اليهودية مواقعها من ثلاث جهات للمهجوم على المدينة القديمة المسوّرة. ولم يتسنّ انقاذ المدينة القديمة والأحياء الجديدة المجاورة لها من الشمال والشرق إلا بتدخل الجيش العربي الأردني في اللحظة الأخيرة. ويقول الطيباوي إنّ الحرم الشريف أصيب في أثناء القتال ببعض القذائف وطلقات المورتر والأسلحة الصغيرة. وأصبحت قبة الصخرة في عدة أماكن، وقتل عدة مصليين أو جرحوا. (١٨) وكتب غلوب باشا، قائد الجيش العربي، فيما بعد عن حادثة تلقي الضوء على الأحداث: لقد حذّر أحد ضباط الهاغانا ضابطاً كبيراً من ضباط الجيش العربي قبل بضعة أسابيع من نهاية الانتداب من التدخل مع الهاغانا في القدس. (فقال ضابطنا: «وما الذي سيحدث لو فعلنا؟» فأجاب الضابط اليهودي: «لن تدخلوا القدس الا فوق جثتنا». ومن المحتمل أن اليهود قد عقدوا العزم منذ وقت طويل على الاستيلاء على القدس بأسرها.) (١٩)

وعلى الرغم من أن الأمم المتحدة أعادت تأكيد خطة التدويل في كانون الأول ١٩٤٨، وفي عدة مناسبات بالفعل منذ ذلك الحين، فإن المدينة انقسمت بصورة فعالة على امتداد خطوط المعركة التي حددتها الهدنة الثانية في ١٨ تموز وهي الأسوار الغربية للمدينة

المسورة وحزام من المباني المهجورة والأرض الحرام . إن التشتيت الذي أنزل بسكان القدس العرب كان هائلا . فالقسم الغربي من المدينة ، حيث كان العرب يمتلكون ما يصل إلى ٤٠ في المائة من الممتلكات ،^(٢٠) أفرغ الآن من العرب . وحسب التقديرات المحافظة طرد أكثر من ٣٠,٠٠٠ شخص - السكان العرب في القدس الجديدة» (الغربية) بأسرهم - من المدينة بصورة دائمة .^(٢١) وحسب تقديرات أخرى كان عدد العرب الذين شرّحوا أكبر بكثير ، ربما ٦٠,٠٠٠ ، إذا حسبنا أولئك الذين هربوا من المدينة القديمة أيضاً أو من القرى المتاخمة لحدود البلدية .^(٢٢) وإذا ضممننا أيضاً العديد من قرى قضاء القدس الى الغرب من المدينة ، التي أفرغت أيضاً من العرب بدرجة كبيرة ، يمكن أن يرتفع الرقم الى ٨٠,٠٠٠ .^(٢٣) ويجب أن نسجل أيضاً أنه في القتال الذي جرى لانقاذ المدينة القديمة أخرج حوالي ٢٠٠٠ يهودي كانوا يعيشون في حارة اليهود من قبل الجيش العربي .

لا الاسرائيليون ولا الملك عبدالله ، ملك شرق الأردن ، الذي برز فوق الزعامة الفلسطينية المحلية المشتتة كحاكم فعال للقدس الشرقية ، ألقيا بالأل إلى النداءات التي جاءت من الخارج من أجل التدويل . لقد جعلت اسرائيل القدس الغربية عاصمتها في كانون الثاني ١٩٥٠ . واتخذت شرق الأردن سلسلة من الخطوات لجعل سلطتها شرعية في الضفة الغربية ، بما فيها القدس الشرقية ، فغيرت اسم البلاد إلى الأردن ودعت إلى مؤتمر من الوجهاء الفلسطينيين للمصادقة على سلطة الملك . أما الدول العربية المجاورة التي قاومت بشدة تأكيد الأردن لسيادتها في القدس فقد قبلت الأمر الواقع بالتدريج .

المدينة المقسمة

١٩٤٨ - ١٩٦٧

بعد أن صممت المدافع كان هنالك قدسان لا تفصلهما سوى الأسوار والأسلاك الشائكة ؛ ولكنها ؛ كما لاحظ مالكولم كير Malcolm Kerr ، كانتا « . . . بعيدتين بعضهما عن بعض سياسياً واقتصادياً واجتماعياً ونفسياً بعد نيويورك عن بكين»^(٢٤) . المدينة المنوعة اجتماعياً وعرقياً استقطبت الآن ؛ فالجانب الغربي الثنائي الثقافة من عربية ويهودية أصبح كله يهودياً . وحارة اليهود القديمة في البلدة القديمة بطاقتها الأرثوذكسية التقليدية صارت خرائب ، وطرد اليهود الناجون منها وحل محلهم عرب أخرجوا من ديارهم . ولم يكن يعبر من

خلال نقطة الحدود الوحيدة بين الجانبين المسماة بوابة مندلباوم Mandelbaum Gate سوى الأجنب والدبلوماسيين وأحياناً الحجاج المسيحيين المحليين. وحيل بين اليهود الآن وبين حائط المبكى بصورة نهائية لأن الأردن رفض السماح لهم بالعبور، بالنظر لحالة الحرب المستمرة ولرفض إسرائيل السماح للاجئين العرب بالعودة إلى ديارهم. واتهم كل طرف الطرف الآخر بتدنيس أماكنه المقدسة: لام الاسرائيليون الأردن لسماحه بتدنيس المقبرة اليهودية على جبل الزيتون (الطور) وإهمالها في حين استشاط العرب غضباً على تدمير إسرائيل مقبرتهم التاريخية في ماملات التي يرجع عهدا إلى أيام الفتح العربي، وهي التي كانت مشوى العديد من مشاهير العلماء ورجال التصوف والمجاهدين. (٢٥)

لقد أسبغت حظوظ الحرب - التي ابتسمت للصهيونيين - عليهم تقسيماً واقعياً *de facto* ما خطر شيء مثله ببال أي من اللجان البريطانية أو الدولية. وحتى خلال مجرى القتال المتعدد الفصول الذي نشب سنة ١٩٤٨، دأب الوسيط الخاص للأمم المتحدة الكونت فولك برنادوت على العمل من أجل مدينة موحدة: وفي اقتراحه الأولي الذي صدر في ٢٨ حزيران (يونيه) كانت القدس ستقع تحت حكم سلطة عربية، ولكن مع الاحتفاظ بحكم ذاتي محلي قوي وضمانات لوصول اليهود إلى الأماكن المقدسة. ودعت خطته المنقحة الصادرة في ١٦ أيلول (سبتمبر) (التي وضعها قبل اغتياله من عصابة شتيرن الصهيونية بيوم واحد) دعت إلى تدويل المدينة بأسرها تحت رعاية الأمم المتحدة طبقاً لقرار التقسيم الصادر سنة ١٩٤٧. ولكن مع ضعف الموقف العسكري العربي، وتعمق الصدع بين الملك عبدالله ملك شرق الأردن والدول العربية الأخرى حول مستقبل السيطرة على ما بقي من فلسطين العربية، ازدادت قوة الصهيونيين، وازداد كذلك تصميمهم على الاحتفاظ بأكبر جزء ممكن من المدينة، وجعلها بالفعل عاصمةً للدولة اليهودية.

وكانت ثمّة جهود لاحقة قام بها المجتمع الدولي لتنفيذ التدويل. ولكن هذه الجهود لم تكن فعّالة. وفي كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩٤٨ كررت الجمعية العامة للأمم المتحدة موقفها، ولم يوافق على قبول إسرائيل في الأمم المتحدة في أيار (مايو) ١٩٤٨ إلا بعد أن وافقت على الالتزام بموقف الأمم المتحدة، ولكنها تخلّفت بعد قبولها عن احترام التزاماتها.

لقد جرّبت لجنة التوفيق الدولية لفلسطين التي شكلتها الجمعية العامة في كانون

الأول (ديسمبر) ١٩٤٨ - وكانت مؤلفة من ممثلين عن تركيا وفرنسا والولايات المتحدة - أن تدبر حلاً وسطاً بين التقسيم الواقعي *de facto* وقرار التدويل الصادر عن الأمم المتحدة، في خطة تقدمت بها في أيلول (سبتمبر) ١٩٤٩. لكن إسرائيل وشرق الأردن عارضتاها. أما الحكومات الأخرى المعنية فكانت موافقها تجاهها في أحسن الأحوال فاترة. ^(٢٧) وشرح الملك عبدالله معارضته على هذا النحو:

«لقد كان طلب تدويل القدس غاية في الغرابة وعدم الاتزان في الغايات الوطنية وتفريباً في الحقوق والمصالح العربية وتسليماً بالمقدسات الى السيادة الدولية، وإخراجاً للقدس من الحوزة العربية؛ فكان علينا أن نقف في الدفاع عن عروبة المدينة المقدسة موقف الحزم والصلابة، وأن نقاوم التدويل بمختلف أشكاله وصوره.» ^(٢٨)

وفي أواخر سنة ١٩٤٩ رفعت لجنة التوفيق قضية القدس عن جدول أعمالها. وفي نيسان (أبريل) ١٩٥٠ أجرى مجلس الوصاية التابع للأمم المتحدة محاولة أخرى لوضع صيغة عملية، واعتبر التدويل نموذجه الأساسي أيضاً؛ ولكن المعارضة الشديدة من كل من إسرائيل والأردن حكمت عليها بالتلاشي. وبعد هذا الجهد لم يكن ثمة جهود أخرى فعالة لتنفيذ التدويل أو لتغيير وضع القدس الجديد بأي شكل من الأشكال الى أن استولت إسرائيل على القطاع العربي الباقي في سنة ١٩٦٧. ورغم ذلك فإن الأمم المتحدة كررت موقفها حول القدس بصورة منتظمة ودانت اجراءات إسرائيل لتغيير طابع المدينة. وكذلك فعلت الولايات المتحدة على الرغم من الضغوط السياسية الداخلية المتواصلة للقبول بشرعية الحكم الاسرائيلي في المدينة.

القطاع الاسرائيلي

حتى في الأيام التي سبقت نهاية الانتداب مباشرة رفضت المنظمات الصهيونية في القدس التعاون مع موظفي الأمم المتحدة المكلفين بتنظيم بلدية دولية للقدس. ^(٢٩) وفي ٢ آب (اغسطس) ١٩٤٨، وبعد أن اتضح للاسرائيليين أنه لا يمكن أن يذهبوا الى أبعد مما ذهبوا إليه في المدينة المقدسة، أعلن رئيس الوزراء دافيد بن غوريون أن قوانين إسرائيل ستطبق من الآن فصاعداً في القدس. وعين حاكماً عسكرياً على المدينة هو دوف يوسف. وفي أواخر أيلول (سبتمبر) رفضت الحكومة التدويل بصورة نهائية، مع أنها عرضت بذلك

للخطر حرية الوصول في المستقبل الى أهم الأجزاء الدينية والتاريخية في المدينة. ويتتابع سريع اتخذت اسرائيل خطوات أخرى لتدعيم سلطتها في القدس الغربية: انتقلت المحكمة العليا إلى هناك وكذلك مكاتب الحكومة وأسس مجلس بلدي. وصوت سكان القدس الغربية في الانتخابات التي جرت لجمعية تأسيسية اسرائيلية. وأخيراً في شهر كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٩ بدأ البرلمان الاسرائيلي الاجتماع في القدس. وفي ٢٣ كانون الأول (يناير) ١٩٥٠ أعلن الكنيست (البرلمان) القدس الغربية عاصمة لدولة اسرائيل. (٢٩) وبعد ذلك بثلاث سنوات وعندما انتقلت وزارة الخارجية إلى هناك رفضت معظم الدول (بما فيها الولايات المتحدة) نقل سفاراتها من تل أبيب لكي تظهر عدم قبولها بتأكيد اسرائيل الأحادي الجانب لسلطتها على القدس.

إن القدس الاسرائيلية، كما قال نائب رئيس بلدية سابق واختصاصي في المدن، أصبحت مدينة من مدن الأقاليم بشكل ما في الفترة الواقعة بين ١٩٤٨ و ١٩٦٧. وهي إذ قطعت عن المدينة الاسلامية التاريخية عبر سلسلة جبال فلسطين فقد أصبحت نقطة انتهاء للنقل والمواصلات الآتية من البحر أكثر من كونها نقطة التقاء المحورين الشرقي الغربي والشمالي الجنوبي. (٣٠) وقد تمتعت بنمو اقتصادي متواضع وأقل نوعاً ما من النمو الذي شهدته اسرائيل ككل، وفقدت مكانتها الاجتماعية البارزة السابقة. إن ثنائي ضواحي من بين حوالي أربع وعشرين ضاحية كان يمكن تصنيفها كضواحي فقيرة... الأمر الذي يدل على تفاوت كبير في الدخل. ولم تتطور السياحة حسب التوقعات. فالمدينة الاسرائيلية أصبحت الآن بالطبع مقطوعة عن القدس التاريخية، مع الإزالة الكاملة تقريباً للأبعاد العربية والاسلامية. وإذا كانت بمثابة «فسيفساء» فقد كانت كذلك تماماً بالنظر للطوائف اليهودية من مختلف الأشكال التي قدمت إليها من مختلف أرجاء العالم واستقرت فيها. ويلاحظ بنفسه Benvenisti أن مناهج التعليم في المدينة كانت تفتقر الى حد بعيد إلى دراسات عن العرب أو تاريخهم.

كان عدد سكان القدس اليهود عشية حرب ١٩٤٨ حوالي ١٠٠,٠٠٠. وفي سنة ١٩٦٧ كان سكان القدس الاسرائيليين حوالي ١٩٧,٠٠٠. وكان النقص في المساكن والروتين (في البلدية) والاحتكاكات بين الطوائف الأرثوذكسية والعلمانية والفقير في الخدمات العامة من بين أهم المشكلات التي واجهتها البلدية. ويشعر المرء أيضاً، من قراءة السيرة

الذاتية لـ تيدي كوليك رئيس البلدية على الأقل، أن هؤلاء الموظفين الذين سبقوه لم يُدوا قدرة على القيادة الفعالة. (٣١) وينتقد بنفسه السياسة في ذلك الوقت لاهمال المركز التجاري في المدينة وبعض المناطق الواقعة الى الشرق عند خط الهدنة، ولسأحهم بنمو الأحياء القنطرة الحفيرة، ولتوجيه التطور المستقبلي بأكثر مما ينبغي نحو الغرب. (٣٢) وعلى الرغم من ذلك كان هنالك تحسينات مهمّة للغاية في البلدية: فمشكلة تزويد المدينة بالمياه قد حلت عندما وصلت القدس بخط نقل المياه الوطني في اسرائيل، وهو الخط الذي يجرى فيه الماء من منابع نهر الأردن في سوريا ولبنان (وقد مدّته اسرائيل رغم الاحتجاجات العربية.)، وبنيت مبانٍ عامة مهمّة - مكتبات ومتاحف، ومبنى الكنيست ومستشفى هداसा جديد. ووضعت خطة شاملة للمدينة في سنة ١٩٥٠ ونقّحت سنة ١٩٥٩. (٣٣)

إن القدس الاسرائيلية الجديدة، التي صاغ شكلها الاحساس الأوروبي في بناء المدن، على الرغم من بذل جهد للتوفيق بينها وبين البيئة المادية المحلية، تظهر قدراً معنياً من طراز فاقد الشخصية للبناء الغربي للمدن واحساساً ضئيلاً بالروح الشرق أوسطية الأصيلة. ولكنها كان يمكن أن تكون اسوأ بلا شك. وأكثر ضواحيها مدعاة لسرور العديد من المقيمين والزوار من وجهة جمالية هي الأحياء العربية السابقة مثل القطمون والطلابية؛ حيث تنهض البيوت المصنوعة من الحجر الجيد في مفارقة صارخة مع العمارات الكبيرة المتعددة الشقق ذات البناء التجاري الذي تعوزه المتانة. ومع عدم الرغبة في تشويه الجهود التي بذلها الاسرائيليون في التحسينات البلدية لا بد للمرء أن يسأل: هل هذه هي القدس حقاً؟ وإذ كانت مفصولة كما كانت بالفعل عن القدس التاريخية - المدينة العربية الاسلامية - فكيف يمكن أن تكون القدس؟

القطاع الأردني

في هذه الأثناء تحرّكت الأردن لتؤكد مطلبها بحكم القدس الشرقية، التي أنقذها من الصهيونيين جيشها العربي. وقد صادقت اجتماعات الأعيان الفلسطينيين التي دعا الى عقدها الملك عبدالله في شهر كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٨ على سلطة الأردن. وفي شهر نيسان (ابريل) ١٩٥٠ وافق البرلمان رسمياً على ضم ما بقي من فلسطين التي يسيطر عليها

العرب - بيا فيها بالطبع القدس الشرقية - إلى المملكة الأردنية الهاشمية. (٣٤) وقد استندت مبررات الأردن للسيطرة على الأراضي الفلسطينية إلى حد كبير إلى الافتقار الواضح لقيادة فلسطينية بديلة وفعالة. ونفترض أن دوافع مماثلة تفسر محاولة الأردن بعد الحرب الحصول على الأجزاء العربية من القدس الغربية وطريق بيت لحم مقابل التخلي عن حارة اليهود في المدينة القديمة لإسرائيل. (٣٥)

وما إن جاء خريف ١٩٤٨ حتى بات من الواضح أن الصهيونيين يتمتعون بالتفوق العسكري وأنهم في وضع يمكنهم من الاستيلاء على أراضٍ إضافية مثل صحراء النقب وشرائح مهمّة استراتيجياً من الأرض في الضفة الغربية. إن الزعامة الفلسطينية المحلية لم تتعاف مطلقاً من التشتت الذي أنزله بها البريطانيون خلال انتفاضة ١٩٣٧ - ٣٨ مع أن اللجنة العربية العليا قد أعيد تشكيلها سنة ١٩٤٥. والأعيان الذين تقاطروا لتشكيل حكومة لعموم فلسطين تحت رعاية مصر وجدوا في النهاية أن العلاقة مع مصر لم تكن فعالة كثيراً. . . على الأقل إلى أن استولى جمال عبد الناصر على السلطة في القاهرة. وهكذا فمع انهيار القدرات الفلسطينية المحلية انتقل مركز القوة العربية إلى عمان. وقبل مضي وقتٍ طويل انحاز كثير من الأعيان الفلسطينيين إلى النظام الجديد - جلسوا في البرلمان الأردني وقبلوا مناصب سياسية وإدارية عالية.

لقد وجه بعض الكتاب نقداً في غير محله للقوامة الهاشمية على القدس والضفة الغربية. (٣٦) بلا شك كانت هنالك أخطاء كثيرة ولكن لا يجوز أن تغيب عن الأنظار الميزة الأساسية المُسبغة للشرعية لحكم الأردن ودوره: لقد كانت حكومة عربية وكانت الحكومة العربية الوحيدة القادرة على كبح جماح المزيد من التوسع الإسرائيلي. وطوال عقدين من الزمان أدت هذه الوظيفة الأكثر حيوية بين جميع الوظائف. وفي الجانب الإيجابي كان هنالك أيضاً قَرَض النظام الداخلي. وبعد أن هدأت الفوضى التي تلت الحرب عمل الأردن ضمن إمكاناته المالية والسياسية على إدارة المدينة والعناية بالأماكن المقدسة الإسلامية والمسيحية، وتشجيع السياحة والتجارة واحترم الأردن العقارات الوقفية داخل المدينة القديمة، وخارجها. وبذلك فانه، كما قال شلايفر Schleifer، «مكّن النسيج المعماري للمدينة من البقاء. . .» (٣٧). وفي عام ١٩٥٨ بدأت تعميرات رئيسية في الحرم الشريف بدعم من عدة حكومات عربية ومنظمات إسلامية. وجرى تطوير منطقة تجارية جديدة إلى الشمال والشرق من المدينة القديمة.

ولكن ضغوطاً مختلفة - مالية وسياسية وحتى جغرافية - حالت دون القيام بأي جهد كبير لوضع خطط لتطوير القدس الشرقية. إن ترحيل عشرات الآلاف من الفلسطينيين في منطقة القدس خلال القتال وبعده عقّد أيضاً مهمة الإعمار والتطوير. بيد أن القدس استردت عافيتها مع الوقت. ومهما كانت المشكلات السياسية فإن الإدارة الأردنية جلبت النظام والنمو الاقتصادي إلى جزئي البلاد. وازدهرت القدس كمركز سياحي واستفادت بشكل عام من المساعدات والاستثمارات الخارجية التي استطاعت عمّان أن تجتذبها ومن الحوالات التي كان يرسلها إلى الوطن الفلسطينيون العاملون في الدول العربية المصدرة للبترو. وبينما بقي التفاوت في الدخل أحد ملامح المسرح الاجتماعي فإن الطبقة الوسطى والعليا في الجانب العربي ربما تمتعت بنوعية من الحياة أفضل من نظيرتها في الجانب اليهودي. وذكر أن اسرائيلي القدس قد صدموا سنة ١٩٦٧ عندما اكتشفوا كمية المواد الغذائية والمساكن وبضائع الاستهلاك الأجنبية ونوعها المتوفرة في القدس الشرقية. (٣٨) وفي الستينيات استردت القدس العربية عافيتها بحيث غدّت مكاناً يطيب فيه العيش، ومكاناً مميّزاً للزيارة بكل تأكيد. لقد بقي طابعها العربي التاريخي مفعماً بالحياة وجوهاً ديني ومجتمعها التقليدي سليمين لم يمسا، وبقي تحديثها رحيماً في اعتداله.

ومع ذلك فإن فترة الحكم الهاشمية على مصائر القدس كان لها خصائص سلبية كما كان لها خصائص ايجابية. فالانتقال من الحكم البريطاني إلى الحكم الأردني لم يتم بلا مشكلات. بعضها كانت إدارية وبعضها سياسية. ففي الجانب الإداري كانت هناك مشكلات استرداد العافية والتطور والتخطيط. وقدرات الأردن أهبّظ كاهلها وهو يحاول الدفاع عن القدس، ولم يكن في طاقته تخفيف الولايات التي نشأت عن اقتلاع مئات الآلاف من الفلسطينيين في منطقة القدس وغيرها من المناطق. وحتى مع المساعدة الكبيرة التي قدّمها المجتمع العالمي عن طريق وكالة الأمم المتحدة لاغاثة اللاجئين وتشغيلهم (الانروا) فإن أحوال المعيشة في المدينة كانت صعبة للغاية طيلة شهور عديدة. كما أن إحلال إدارة منتظمة محل البلدية التي كان يديرها البريطانيون أخذ وقتاً، ونشأت خلافات مع عمّان حول حشد من القضايا الإدارية.

كما أن الجهود التي بذلت لوضع تخطيط بعيد المدى للمدينة واجهت صعوبات بعد أن قسمت المدينة إلى قسمين. وكان مخطط المدن في أواخر عهد الانتداب هنري كندال Henry Kencali قد وضع خطة للمدينة كلها في سنة ١٩٤٤. (٣٩) وبقي كندال في القدس

العربية بعد سنة ١٩٤٨؛ ولكن تصوّره أخذ يتآكل باستمرار بفعل الضغوط السياسية والتجارية. وحَدَّث الشيء نفسه تقريباً في الجانب الاسرائيلي المتاخم للمدينة القديمة.

أما المشكلات السياسية فقد تمحورت حول الخلافات بين الفلسطينيين والأردنيين. إن القدس كانت قلب الجسم السياسي الفلسطيني ومركزه العصبي. والمجتمع الفلسطيني في أوائل الخمسينيات كان أكثر عصرية في التوجه وأحسن تعليماً من المجتمع الأصغر والأفقر شرقي نهر الأردن. ولم يكن مقبولاً بالنسبة للكثيرين من أهل القدس أن تغدو عمان مركز إصدار القرارات الرئيسية. وفي الفترة التي تلت الحرب مباشرة شكّا زعماء القدس من أن المدينة لم تكن تحصل من عمان على ما يكفي من الدعم لاعمارها. واغتيال الملك عبدالله في الحرم الشريف لم يكن من شأنه أن يحسن علاقات عمان بالمدينة. وفي أواخر الخمسينيات شهدت القدس وغيرها من مدن الضفة الغربية مظاهرات احتجاج عديدة. ومع انبعاث الوطنية الفلسطينية في أوائل الستينيات نشأ تحدٍ جديد، مع أنه مستور، للعلاقة بين جُزأَي المملكة. وعقدت منظمة التحرير الفلسطينية اجتماعها الأول في سنة ١٩٦٤ في القدس الشرقية في مبنى على مرمى الحجر من خط الهدنة. وإذا نظرنا إلى الوراء إلى عقدي الحكم الأردني يبدو من الواضح أن الضفة الشرقية اختيرت لتسلم معظم موارد الاستثمار والتطوير. وكان نمو منطقة عمان أكبر بكثير دون شك من نمو القدس أو غيرها من مدن الضفة الغربية. وهناك اعتقاد واسع الانتشار بأن السلطات الأردنية كانت تخشى من أن اسرائيل ستضرب مرة ثانية عاجلاً أو آجلاً. وهكذا كان هذا الحافز الأمني لدى السلطات الأردنية هو الذي دفعها إلى إعطاء الأولوية إلى الضفة الشرقية.

ومع هذا كان الأردن يغدو في الوقت نفسه أكثر اندماجاً مع تزايد الروابط الديموغرافية والاجتماعية والاقتصادية بين ضفتي النهر. وقد ساقط الظروف مئات الآلاف من الفلسطينيين إلى عمان، ومن بينهم بعض أكبر عائلات القدس نفوذاً. وسار الملك حسين شوطاً طويلاً لضم زعماء فلسطينيين إلى الحكومة. وتحت قيادة روجي الخطيب، الذي تولى رئاسة البلدية من سنة ١٩٥٧ حتى ١٩٦٧، شهدت المدينة إدارة مستقرة وتحسيناً في العلاقات مع عمان. وبمجيء سنة ١٩٥٩ رفع مركز بلدية القدس إلى أمانة، وهو مركز خاص يعادل مركز عمان. وكان الملك ينوي بناء قصر إلى الشمال من المدينة، ليكون رمزاً لوجوده هناك، وكان يزور القدس بين الفينة والأخرى. وأسهم التوسع التدريجي في الخدمات الحكومية واعتماد القدس المتزايد على عمان، ساهما جميعاً في «بناء الدولة» وعملية

الاندماج. وعشية حرب ١٩٦٧ كانت القدس العربية والضفة الغربية قد بلغت، لجميع المقاصد العملية، درجةً عالية من الاندماج في الدولة الأردنية، على الرغم من الانقسامات السياسية.

سقوط القدس العربية

في صيف ١٩٦٦ لاحظ مسافر على الطريق القديم المتعرج المؤدي إلى بيت لحم، خارج القدس مباشرة، منظرًا جديدًا وغريبًا. فعلى قمة جبل حاد الانحدار كان هنالك فندق قيد الإنشاء. وكان الغريب في هذا المنظر أن المبنى كان يقع في المنطقة الحرام الفاصلة بين خط الهدنة الاسرائيلي الأردني. وكان هذا الاختبار الصغير لمقاومة الأردن والأمم المتحدة علامة على الثقة الاسرائيلية والضغط الاسرائيلي على الوضع الراهن؛ كما كان أيضاً علامة على الأشياء المقبلة.

إن هجوم اسرائيل على مصر في ٥ حزيران ١٩٦٧ قد جرَّ الأردن بلا هوادة إلى حومة النزاع، نظراً لاتفاقات عربية متأخرة واقتراض سائد بأن الجيوش العربية سوف تعلم اسرائيل الآن بعض الدروس. ومع ذلك فنحن إذ نستعيد الأحداث الماضية يَضْعُب علينا أن نفهم كيف يمكن أن يتم الإلتزام بالحرب حين لم يكن هناك سوى قدر ضئيل للغاية من التخطيط العسكري، وربما نجد تفسيراً جزئياً لذلك في أن القادة المصريين والأردنيين قد هدهدتهم فورةً من النشاط الدبلوماسي الباعث على الأمل بين الولايات المتحدة ومصر قبل الحرب بأيام قليلة فحسب، وأنهم لم يكونوا يتوقعون بالفعل أن القتال سيبدأ. وتقول رواية محلية يوثق بها إن دفاعات القدس كانت ضعيفة للغاية في الخامس من حزيران؛ إذ ربما كان هناك ٥,٠٠٠ جندي لم يكن لديهم أمل في الحصول على دعم كاف، أو في الوقت المناسب، من القوة المدرعة أو الجوية. (٤٤)

وما إن جاء ظهر يوم الأربعاء في ٧ حزيران حتى كان الاسرائيليون قد استولوا على القدس العربية. وقام المدافعون الأردنيون بأفضل ما كان يمكنهم القيام به - قتل منهم حوالي المائتين - ولكن لا هؤلاء ولا السكان المدنيون كانوا على أهبة الاستعداد لمواجهة الاسرائيلين بمقاومة جديّة حقاً.

وفي أثناء القتال أطلق الاسرائيليون القذائف على الحرم الشريف وقصفوا نزلًا في المدينة القديمة. ومع أن الفضائع كانت قليلة فيما يبدو فإن النهائيين تبعوا القوات المتقدمة

عن كتب. وكانت هنالك حالات سلب للمساجد. وقد نقلت مخطوطات البحر الميت من متحف الآثار الفلسطيني. وكان أول عمل رئيسي من أعمال التدمير بعد الحرب إزالة حارة المغاربة المجاورة لحائط المبكى بالجرفات ابتداءً من مساء الثامن من حزيران. وفي خلال أيام قليلة أضحت أملاك الوقف التاريخية هذه كومة من الحجارة. ولم يكن هذا العمل المخالف لاتفاقيات جنيف سوى الخطوة الأولى في عملية ضخمة «للتجديد الحضري» كان من شأنها أن تغير وجه المدينة وأفقها خلال سنوات قليلة. وفي ٢٨ حزيران ضُمَّت اسرائيل القدس الشرقية (بيد أنها تجنبت التعبير الصريح - الضم -)، مع أن هذا كان يشكل خرقاً واضحاً للقانون الدولي (اتفاقية لاهاي لسنة ١٩٠٧). وفي الوقت نفسه وسعت حدود المدينة «الموحدة» توسيعاً شاسعاً. ثم قامت بحل المجلس البلدي العربي ونفت فيما بعد رئيس البلدية روجي الخطيب الى الأردن. وكان على زعماء آخرين أن يتبعوه الى المنفى. ولم يضع وزير الدفاع موشيه دايان أي وقت في دمج شطري المدينة. هدمت الجدران والأسلاك الشائكة، ووصلت خطوط المنافع العامة، وأصدرت بطاقات الهوية الاسرائيلية، وقُدِّرت الضرائب. (٤١) ومع أن الولايات المتحدة احتجت على الضم وغيره من الاجراءات غير القانونية، فإن الاسرائيليين مضوا قدماً في «خلق حقائق جديدة» لكي يضمنوا سيادتهم الدائمة على المدينة بأسرها.

القدس الاسرائيلية وآفاق المستقبل

لم تضع اسرائيل وقتاً فيما كان يجب قادتها أن يسموه «خلق حقائق جديدة» لتعزيز سيطرتهم على القدس كلها، وهم يعنون أن حقهم في المدينة بعيد عن الوضوح. وكما أشار الأمير حسن ولي عهد الأردن في نقدٍ مفصل لادعاءات اسرائيل القانونية بالمدينة فإنه لا أنظمة لاهاي لسنة ١٩٠٧ ولا اتفاقيات جنيف لسنة ١٩٤٩ تؤيد ادعاءات كهذه؛ وكذلك فإن بيان الملك داود في السنة الألف قبل الميلاد لا يعد أساساً مقبولاً لها. وبالمثل فإن ادعاءات اسرائيل بأنها لا احتلت المدينة ولا ضمتها (بصورة غير شرعية) وبأن كل ما تقوم به هو مجرد «توحيد للبلدية» هي ادعاءات لا يكاد يصدقها أي طالب غير متحيز للقانون الدولي. (٤٢)

وقد ضمت المدينة «التي أعيد توحيدها» الآن حوالي ٢٠٠,٠٠٠ يهودي و٧٠,٠٠٠ عربي. ونظراً لهرب السكان والحدود التي وضعت لمصلحة جماعة معينة، أصبح العرب الآن

يشكلون حوالي ربع سكان المدينة. وبالمقارنة فإن سكان منطقة القدس سنة ١٩٤٧ وفق التصور الذي وضعته الأمم المتحدة للكيان المستقل *corpus separatum* كانوا سيتوزعون بالتساوي تقريباً بين العرب (٥١٪) واليهود (٤٩٪). أما سكان البلدية نفسها فكان سيشكل العرب منهم ٤٠٪ تقريباً.^(٤٣) ويقول روجي الخطيب رئيس البلدية المعزول إن حوالي ٦٠,٠٠٠ شخص هربوا سنة ١٩٤٨ و ٥,٠٠٠ كانوا «غائبين» في حزيران سنة ١٩٦٧. وهؤلاء إما هربوا أو كانوا خارج البلاد.^(٤٤) واذ قَدَّر نسل المنفيين سنة ١٩٤٨ بحوالي ٣٥,٠٠٠ فقد استنتج أنه كان هنالك حوالي ١٠٠,٠٠٠ مقدسي في المنفى.^(٤٥) وفي هذه الأثناء نجحت اسرائيل في جلب ٣٥,٠٠٠ مهاجر يهودي جديد إلى المدينة بين سنتي ١٩٦٧ و ١٩٧٥.^(٤٦)

وشرعت اسرائيل أيضاً في برنامج يهدف إلى تطوير الجزء الشرقي من المدينة بـ «حزامٍ أمني» (وُصف من قبيل تلطيف التعبير بـ «التطوير الحضري») يتألف من مجمعات من الشقق العالية الارتفاع... التلة الفرنسية، رامات اشكول، راموت، تليوت الشرقية وجيلو. هذه «العزب» الاسكانية حلت محل مستوطنات عربية مضي عليها زمن طويل أو ابتلعها أو حشرتها.^(٤٧) وعلى بعد عدة أميال إلى الشرق، وعلى السفوح الهابطة إلى وادي الأردن، اقيم مشروع ضخّم للاستيطان الحضري - معالوت ادوميم - كجزء من «الحزام الأمني الخارجي» للقدس. وقد استهجن المهندسون المعماريون ومخططو المدن الدوليون خطة التنظيم الرئيسية الجديدة للمدينة، كما فعل ذلك بالفعل بعض الخبراء الاسرائيليين. وقد صرف النظر عن بعض الخطط الأكثر فظاعة (التي تشمل القدس الغربية والشرقية) أو جرى تعديلها.^(٤٨) ومع ذلك فإن أسياد القدس الجدد بدأوا، فيما وصفه صحفي بريطاني بـ «جنون البناء»^(٤٩)، في تغيير سيماء المدينة بصورة أشد مما عرفته المدينة من قبل طوال تاريخها. وفي العقدين اللذين تلوا الاحتلال بنت اسرائيل ٢٦,٠٠٠ شقة جديدة لليهود في المدينة، و ٤٥٠ شقة فقط للعرب.^(٥٠)

وعلى الرغم من بعض التحسينات ذات الشأن في نوعية الحياة - مزيد من الطرق وخطوط المجاري والغرف الصفية (غرف الصفوف) وما شابه ذلك - فإن وضع المقداسة العرب بقي أدنى بوضوح من وضع اليهود. وبالنسبة لأولئك العرب الذين صمموا على البقاء في المدينة كانت الحياة تحت الاحتلال مثقلة بالأعباء - خصوصاً بالنسبة للطبقة الوسطى المتعلمة - فالدولة المتغلبة استخدمت حق الحكومة في مصادرة الملكية الشخصية

لمصادرة أملاك العرب الخاصة، بدعوى «المنفعة العامة» أو الأسباب الأمنية. وقد حدث هذا من غير ريب تحت غطاء من الصيغ القانونية، وليس بالطرد الصريح بالقوة على النحو الذي مورس ضد الألف أو نحو ذلك من السكان التمساء في حارة المغاربة المهدومة، وكانت هناك مصادرات كبيرة مثل الاستيلاء على ٨٤٠ فداناً على امتداد طريق رام الله في سنة ١٩٦٩ ومصادرات أصغر لقطع مرغوب فيها من أراضي ملاكين عرب فرادى، كما حدث في منطقة تل الحكومة. وفيما بين سنتي ١٩٦٧ و١٩٧٧ قدر أن الاسرائيليين استولوا على حوالي ١٥٠٠٠٠ دونم. (٥١) وأثارت الحفريات والتعديلات الأخرى على الحرم الشريف ومصادرة غير ذلك من الممتلكات الوقفية احتجاجات كثيرة من المجلس الاسلامي ومن الهيئات الدولية، وخصوصاً من اليونسكو. وقد خشى القيمون المسلمون على المسجد الأقصى من أن توهم الحفريات أساسات المسجد. (٥٢)

وابتداءً من سنة ١٩٧٨ بدأت مدرسة دينية يهودية (Yeshiva) تدعى اتاريت كوهانيم Ateret Cohanim ويمولها يهود أمريكيون في الاستحواذ على ممتلكات عربية في الحي الاسلامي* من المدينة القديمة. وفي مدة عشر سنوات امتلكت أكثر من ٧٠ مبنى. (٥٣)

واتخذت الهجمة الصارمة على التعبير السياسي شكل طرد الفلسطينيين البارزين مثل رئيس البلدية وقاضي قضاة المسلمين في القدس الشيخ عبد الحميد السائح. وما زال هذا الاجراء مستمراً حتى الوقت الحاضر، كما يدل عليه طرد اكرم هنية محرر جريدة الشعب المقدسية في كانون الأول سنة ١٩٨٦. وفرضت عقوبات قاسية على مقاومة الاحتلال. ويؤكد لنا بنفسه أن عادة نسف بيوت المشتبه بهم قد انتهت في آذار (مارس) ١٩٦٩. ولكن العرب المقدسيين (وخصوصاً الشباب) شأنهم شأن أبناء بلادهم في كل مكان في الضفة الغربية، ورغم اعتبارهم «مواطنين» اسرائيليين، عاشوا وما زالوا يعيشون في خوف يترص بهم من الاعتقال والإهانة على يد شرطة الأمن. وتزداد هذه المخاوف حدة بشكل خاص كلما وقع حادث عنيف. وهذه الحوادث استمرت في الوقوع - بتكرار تزداد وتيرته أو تقل حتى الوقت الحاضر. وفي سنة ١٩٧٧ نشرت صحيفة صاندي تايمز Sunday Times اللندنية تحقيقاً مطولاً حول استخدام اسرائيل للتعذيب ضد العرب في الأراضي المحتلة،

* ليس هنالك حي إسلامي واحد في القدس وإنما هناك عدة أحياء إسلامية . (الترجم)

وخصت بالذكر معتقل المسكويّة الشائن في القدس بوصفه مكاناً تجرّى فيه بعض أعمال الاستجواب التي تتميز بوحشية خاصة تطبق على المعتقلات وعلى المعتقلين على حد سواء. ^(٥٤) وفي سنة ١٩٧٩ تحدث الموظفون القنصليون للولايات المتحدة في القدس عن وقوع أعمال مشابهة. ^(٥٥)

وقد خلقت مسألة صبغ مناهج التعليم بالصبغة الاسرائيلية مشكلات للشباب العرب في القدس الذين كانت فرصهم في اكمال التعليم العالي في اسرائيل ضئيلة للغاية، ولكنهم باتوا الآن أيضاً وبسبب هذه المناهج مُعدين لإعداداً سيئاً للدراسة في الجامعات في البلاد العربية؛ بل إن التعليم الذي تلقوه كان وصمةً بالنسبة لهم لدى محاولتهم الالتحاق بهذه الجامعات. كما أن دمج القدس، الشرقية في الاقتصاد الاسرائيلي خلق مصاعب ومشاق لرجال الأعمال العرب. وقد عانت الفنادق ومهنة السياحة، وهي العمود الفقري للاقتصاد المحلي، معاناةً كبيرة من المنافسة غير المتكافئة للمؤسسات اليهودية وكذلك بالطبع من خسارة الأعمال التجارية مع العالم العربي. وتقلصت الأعمال العمرانية تقليصاً شديداً بسبب الأنظمة الاسرائيلية والنقص في رأس المال المعد للاستثمار. وأصبحت شركة كهرباء القدس التي يملكها العرب مهددة بالاستيلاء عليها من قبل الاسرائيليين. أما المهن - القانون والطب والتعليم والهندسة - فلم يكن بوسعها أن تقدم الا أقل القليل من فرص العمل. وبالنسبة للتجار والمستهلكين المحليين كان «النظام الاقتصادي الجديد» يعني القيود على الاستيراد والضرائب الجديدة المتزايدة في الارتفاع وضرورة مواجهة التضخم العالي في اسرائيل وعمليتها الضعيفة.

وشكا عرب القدس أيضاً من التدهور في الجو الأخلاقي عندما بدأت الحانات والسياح المشبهوهون وحتى النساء العاهرات في الظهور لأول مرة في المدينة القديمة وما حولها. ولا شك أن سنة ١٩٦٧ جلبت بعض المنافع فيما يتصل بتحسّن الخدمات البلدية وعوائد الخدمات الاجتماعية. ومع ذلك فإن احساس المرء بأنه مواطن من الدرجة الثانية (الحق في التصويت في الانتخابات الاسرائيلية لا يكاد يعوض بشيء فقدان الحكم العربي) فاش في الثمانينات كما كان فاشياً بعد الاحتلال مباشرة. ^(٥٦) وأخيراً فيمكننا أن نلاحظ أن احتلال اسرائيل منَع بصورة فعالة العرب المسلمين والمسيحيين (باستثناء الأردنيين الفلسطينيين القادرين على الحصول على تصاريح لزيارة الأقارب، والمصريين بعد سنة

١٩٧٩) من زيارة الأماكن المقدسة؛ وهو أمر لم يلق الا القليل من الانتباه في الغرب حيث جرى انتقاد واسع لرفض الأردن الموافقة على زيارة الاسرائيليين لحائط المبكى على الرغم من قيام حالة الحرب بين البلدين .

إن سلوك اسرائيل في القدس يستمر في ازعاج المجتمع الدولي . وفي سنة ١٩٧٩ شكّل مجلس الأمن لجنة للتحقيق في مشكلة المستوطنات والتغيرات الأخرى التي تجري في الأراضي المحتلة، بما في ذلك القدس، انتهاكاً لاتفاقيات جنيف . وقامت اللجنة بتحقيقاتها دون تعاونٍ من جانب اسرائيل، وبعد سنة من ذلك التاريخ اتخذ مجلس الأمن قراراً جاء فيه :

إن جميع الاجراءات التي اتخذتها اسرائيل لتغيير الطابع المادي والتركيب الديموغرافي والهيكلي المؤسسي أو الوضع القائم في الأراضي الفلسطينية وغيرها من الأراضي المحتلة منذ سنة ١٩٦٧، بما فيها القدس أو أي جزء منها، تُعد باطلّة من الوجهة القانونية . (٥٧)

واتخذ القرار بالاجماع لكن الولايات المتحدة أعلنت فيما بعد أن تصويتها بالايجاب كان خطأ وأنها في الواقع كانت تنوي الامتناع عن التصويت . وفي ٣٠ تموز (يوليو) ١٩٨٠ أصدر الكنيست الاسرائيلي «قانوناً أساسياً» يعلن القدس كلها (الشرق والغرب) عاصمة لاسرائيل . ويبدو أن هذه الخطوة المعنة في الرمزية والاستفزاز جاءت كرد مفعم بالتحدي على قرار اللوم الذي اتخذته مجلس الأمن، وكانت انعكاساً آخر لتصاعد قوة الجناح اليميني في السياسة الاسرائيلية . وقد تسبب عمل اسرائيل في احتجاجات دولية، بما في ذلك قرارات لوم جديدة من مجلس الأمن والجمعية العامة . ومن بين ثلاث عشرة دولة كانت قد فتحت سفارات لها في القدس، عمدت اثنتا عشرة الى نقل سفاراتها إلى تل أبيب حيث توجد السفارات الأخرى، اعراباً عن رفض الدول القبول بشرعية سيطرة اسرائيل على القدس . ولكن في الولايات المتحدة جدد رجال الكونغرس الموالون لاسرائيل حملتهم لمطالبة وزارة الخارجية بنقل سفارة الولايات المتحدة من تل أبيب إلى القدس .

مستقبل القدس

في سنة ١٩٨٥ كتب مراسل صحيفة نيويورك تايمز في اسرائيل تقويماً مطوّلاً لفترة العشرين عاماً التي مرت على تولى تيدي كوليك رئاسة بلدية القدس . والتقويم هو أنشودة مدح يطلع فيها تيدي كوليك بوصفه سياسياً قديراً، ناجحاً كل النجاح في الادارة والتطوير،

وأهم من ذلك كله، في معالجة التوترات بين الطوائف بين العرب واليهود وبين اليهود المتدينين (الأرثوذكس) والعلمانيين. كولييك (كما قال المراسل) له شعبية عند العرب ويحصل على أصواتهم. وهو يعمل على تخفيف التطرف المتزايد لبعض المجموعات داخل إسرائيل. أما المدينة نفسها فتبدو بعد مرور حوالي عقدين على الحكم الإسرائيلي مدينة مزدهرة حسنة التنظيم، ولكن مراسل التاييمز يلاحظ أنه سيكون من الصعب إيجاد خلف لرئيس البلدية البالغ من العمر أربعة وسبعين عاماً والذي يمتلك هذه المهارات في حل النزاعات. وهو (أي المراسل) يقتطف من أحد الحاخامين تحذيره من أنه «ما لم تُسد التعددية العقلانية فلسوف يأتي انفجار للنزوات يغسل هذه المدينة بالدم.»^(٥٨)

وعلى الرغم من أن الصورة الحالية للمدينة تعطي الانطباع بأن المدينة تعيش أحوالاً طبيعية* ويسودها الرخاء فإن القدس بالنسبة لكل من يملك حاسة تاريخية، هي مدينة في خطر: فهي أولاً مهددة بمزيد من التميع لتراثها العربي الاسلامي، وقد أوضح أحد سكان المدينة القديمة في وقت من الأوقات المسألة باجراء مقارنة بين يافا والقدس:

«يجب أن اعترف أنني أخشى الآن أن يحل في القدس الاسلامية ما حل في الحي القديم في يافا - أعمال ترميم رائعة وجديرة بالدراسة من وجهة فنية - الاطار المادي للقلب الاسلامي ليافا حفوظ عليه بصورة رائعة، والهيكلي الداخلي جهز بالاسلاك الجديدة وجرت تقويته وتخصيصه. لكن المعنى الأخلاقي الذي ينطوي عليه ذلك أقل ما يقال فيه أنه مزعج كل الازعاج - تحويل حي عربي كان مليئاً بالحياة يوماً ما، مع أنه محافظ أخلاقياً، إلى حي بوهيمي للفنانين خالٍ من المسلمين، وإلى منطقة أضواء حمراء. وبقا الله القدس شر ترميم كهذا الترميم.»^(٥٩)

والقدس ثانياً معرضة للخطر بسبب فشل جميع اولئك المعنيين بالمدينة والخائفين عليها في حل النزاع السياسي العميق الذي تعتبر القدس رمزاً له وضحية في وقت واحد. ويلوح في الأفق احتمال نشوب حروب عربية اسرائيلية جديدة يمكن أن تعاني القدس فيها أضعاف ما عانته في النزاعات الماضية. ولكن في المستقبل الأقرب هناك نوع آخر من الأخطار المادية

* كتب هيدسون ذلك سنة ١٩٨٨ .

المحدقة . وهذا هو خطر العنف الموضعي بين العرب واليهود . إن الانتفاضة الفلسطينية التي بدأت في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٧ (وكانت ما تزال مستمرة بعد ذلك بعام) أحدثت هزة في إسرائيل ، خصوصاً عندما انتشرت الى القدس العربية . وذكرت هذه الانتفاضة البلدان العربية وبقية العالم بقابلية التفجر المستمرة للمشكلة الفلسطينية . ومنذ بداية الاحتلال قام الفلسطينيون باحتجاجات موضعية عنيفة في جميع أنحاء الأراضي المحتلة ولكنها لم تصل الى مستوى التحدي الجدي لجهاز اسرائيل الأمني . إن حوادث القاء القنابل وأعمال التخريب من الثوار الفلسطينيين أو الجماعات المحلية جرت في القدس بصورة متفرقة بعد سنة ١٩٦٧ ، خصوصاً في السنوات الأولى للاحتلال ، وحتى بداية الانتفاضة ، كما يتبين من انفجارات القنابل عند حائط البراق سنة ١٩٨٦ . ووقعت أيضاً أعمال عنف قام بها أفراد من العرب مثل طعن اسرائيلي في المدينة القديمة في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٧ ، وهو الحادث الذي أدى الى اضطرابات معادية للعرب استمرت اسبوعاً .

وفي الوقت نفسه كان يحدث نوع آخر اشد قوة من أعمال العنف بل ويستجمع قواه . . . الا وهو هجمات اليهود المتشددين على الأماكن الاسلامية المقدسة وعلى العرب الفلسطينيين .

الانتفاضة

بدأت الانتفاضة في اليوم التاسع من كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩٨٧ ؛ أي بعد مرور سبعين سنة بالضبط على دخول اللنبي Allenby إلى القدس . لقد كانت الانتفاضة التي فجّرها حادث وقع في غزة نتاجاً لتراكم التوترات والمظالم التي لحقت بالفلسطينيين . وبعد أقل من اسبوع من بدئها دشن الجنرال أرييل شارون شقته التي حصل عليها حديثاً في الحي الإسلامي من المدينة القديمة في القدس . وهو عمل رمزي واستفزازي للغاية من شخص يعتبر *bête noire* . . . أبغض الناس طراً للوطنية الفلسطينية . وفي أواسط كانون الثاني اندلعت الانتفاضة في قلب القدس العربية نفسها ، عندما استخدمت قوات الأمن الاسرائيلية الغاز المسيل للدموع حول المسجدين اللذين يتمتعان بقداسة خاصة في الحرم الشريف ، في محاولة لتفريق المتظاهرين الفلسطينيين . واذ تعود الاسرائيليون على أن يروا في القدس وسكانها العرب جزءاً لا يتجزأ من اسرائيل ، فقد هزتهم مظاهر التضامن مع الانتفاضة في القدس الشرقية . وقد أطاع تجار القدس وأصحاب المهن فيها سلطة القيادة

الموحدة السرية في التزامهم بقواعد الفتح والاعلاق والإضراب . ومع أن القدس كانت أقل توتراً من غزة وغيرها من مدن الضفة الغربية فانها ظلت تشهد أعمال العنف والاحتجاج . وفي تموز (يوليه) ١٩٨٨ قتل الجنود الاسرائيليون في البلدة القديمة أول عربي من القدس، وهو صبي في الخامسة عشرة من عمره .

وفي الوقت الذي أدركت فيه الانتفاضة السنة الأولى من عمرها كانت قد تركت بالفعل اثراً عميقاً على سياسة الصراع العربي الاسرائيلي ودبلوماسيته . وقد تخلى الأردن، مدفوعاً الى حد بعيد بالانتفاضة، وبصورة نهائية عن دوره النظري كوكيل عن الفلسطينيين . وأعلنت منظمة التحرير الفلسطينية بصورة نهائية انها تؤيد حلاً يقوم على وجود دولتين في فلسطين، واعترفت بذلك بحق اسرائيل في الوجود، وقبلت قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ ونبذت الارهاب . ووافقت الولايات المتحدة على القيام باتصالات رسمية مع منظمة التحرير الفلسطينية . ولكن يبدو أن أثر الانتفاضة على اسرائيل تمثل في تشدد موقفها تجاه المطامح الفلسطينية، كما دلت على ذلك نتائج الانتخابات التي جرت سنة ١٩٨٨ والتي أدت الى تجديد زعامة رئيس الوزراء اسحاق شامير .

إن وثيقة اعلان الاستقلال الفلسطينية الصادرة في ١٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٨ أعلنت «قيام دولة فلسطين على ترابنا الفلسطيني وعاصمتها القدس الشريف» . ورفض زعماء اسرائيل من جهتهم رفضاً باتاً التفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية ورفضوا الاقرار بفكرة دولة فلسطينية ورفضوا كلياً فكرة التنازل عن السيادة على أي جزء من القدس، بله السماح للفلسطينيين باعلانها عاصمة لهم . بيد أن المآزق على الصعيد الدولي يبدو أنه انفرج، عندما أخذت فكرة اقامة الدولتين ثلاثي القبول . واستمرت الانتفاضة . ويبدو من غير المحمل أن تهدأ الاضطرابات في غياب التحرك نحو تسوية شاملة تأخذ في الاعتبار الحقوق السياسية للفلسطينيين ومشاعرهم الدينية . وأما إذا كانت اسرائيل ستعمد حينئذٍ إلى طرد عشرات أو مئات آلاف الفلسطينيين بالقوة، بمن فيهم المقدسيون العرب، وما اذا كانت ستنجح في ذلك، وينجح هذا «الحل» في تهدئة الأراضي المحتلة، فهذا ما سيكشف عنه المستقبل .



خاتمة

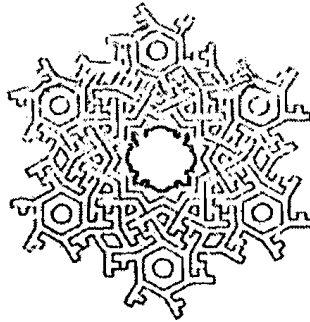
كثيراً ما يقال بأن مشكلة القدس هي أكثر النواحي صعوبة في النزاع العربي الاسرائيلي. ولذلك يرى الدبلوماسيون أن هذه المشكلة لا ينبغي تناولها إلا بعد معالجة القضايا الأكثر سهولة.

إن هذه الرواية للأحداث لا بد أنها بينت، إن لم يكن بين ذلك شيء غيرها، أن المشكلة صعبة حقاً، ولكن هذا لا يعني أن توضع في الموقد الخلفي 'put on the back burner'، كما في لغة مخططي السياسة الخارجية الأميركية. وإذا كان حل قضية القدس يعتمد على إيجاد تسوية أكبر للنزاع العربي الاسرائيلي فمن الصعب أن نتصور أن الأخير يمكن التوصل إليه دون الاتفاق على القدس. إن الوضع الراهن لسيطرة اسرائيل الفعلية *de facto* الكاملة لا هو بالحل العادل ولا هو - في المدى البعيد - بالحل الوطيد المستقر. ومطالبة الفلسطينيين بالسيطرة الكاملة، مع أن التاريخ والديموغرافيا - حتى وقت قريب - يؤيدانها، ربما كانت قابلة للتفاوض، وذلك بسبب حقائق القوة الراهنة بصفة رئيسية. ويبدو أن منظمة التحرير الفلسطينية قبلت فكرة أن يستقر الرأي على القدس الشرقية وحدها كجزء من حل للنزاع كله يقوم على أساس قيام دولتين. ويبقى الحل القائم على الكيان المنفصل - *corpus separatum* - (التدويل)، موقف المجتمع العالمي. وقد جرى تأكيده بانتظام منذ سنة ١٩٤٧. ومع أن (الاتحاد السوفيتي) لم يعد يؤيد التدويل فإن الدول الكبرى الأخرى تؤيده، إلى جانب الفاتيكان وغيره من الكنائس المسيحية. ومع ذلك فمنذ سنة ١٩٦٧ وصدور قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ انتقل التأكيد باتجاه عدم شرعية احتلال اسرائيل المستمر للأراضي التي استولت عليها سنة ١٩٦٧ - أي إلى القدس الشرقية - دون القدس الغربية التي استولت عليها اسرائيل سنة ١٩٤٨. ومع ذلك فإن الكيان المنفصل *corpus separatum* له «صلة وثيقة مستمرة بالموضوع»^(١). وكذلك أصبح موقف الفاتيكان أكثر ليونة؛ إذ انتقل من الدفاع عن نظام حكم دولي للمدينة (في سنة ١٩٤٨) إلى قيام رقابة دولية على الأماكن المقدسة في مدينة يمكن أن تكون تحت سيادة قومية.^(٢)

صحيح أن موقف اسرائيل الرسمي متصلب تماماً في اصرارها على السيطرة الكاملة على المدينة؛ ولكن كثيراً من الاسرائيليين ذوي الفكر ناقشوا عدة أنواع من ترتيبات لاقتسام السلطة يُمكن أن تكون ممكنة في سياق حل عربي اسرائيلي شامل.^(٣) ويبدو أن

الفلسطينيين، بعد أن قبلوا الآن «حل الدولتين» أصبحوا أكثر ميلاً لقبول اقتسام القدس . وقد اقترح وليد الخالدي ، وهو شخصية فلسطينية بارزة، تسمية القدس الغربية عاصمة لاسرائيل ، والقدس الشرقية عاصمة لفلسطين وضمان خروج الأماكن المقدسة للاسرائيليين عن نطاق التشريع الوطني وحرية الوصول إليها، وتشكيل مجلس مسكوني (عالمي) سامٍ يمثل ديانات التوحيد الثلاث (ذي رئاسة دورية) للإشراف على الوفاق بين الأديان . والتفاوض حول الحقوق المتبادلة للانتقال والسكن بين العاصمتين مع حدود يتم الاتفاق عليها. (٦٣)

من الواضح أنه ليست هناك إجابات سهلة لمشكلة القدس . ومع ذلك فإن الأخطار المحدقة بالمدينة أكثر جدية من أن يسمح لها بأن تتفتح دون رعاية من أحد . إن أصدقاء القدس الكثيرين في العالم سيسدون خدمة إن هم شجعوا على النقاش النشط والخلاق حول مستقبل المدينة . ويشمل هؤلاء أولئك الذين يستطيعون التحدث باسم الديانات الثلاث التي تتمتع المدينة لديها بمتزلة عالية من القداسة، وأيضاً أولئك الذين يستطيعون التأثير على سياسات الدول والمجتمعات السياسية التي لها علاقة مباشرة . . . باسرائيل والفلسطينيون، والأردن والدول العربية الأخرى . ولدى البحث عن حل شامل قد تساعد أفكار مثل السيادة بالمشاركة أو السيادة الثنائية^(٦٤) أو الكتوتونات أو حتى إعادة التقسيم دون جدران - إذا طورت بالشكل الصحيح - لا على حل مشكلة القدس وحدها، بل على حل مشكلة النزاع بأسرها .



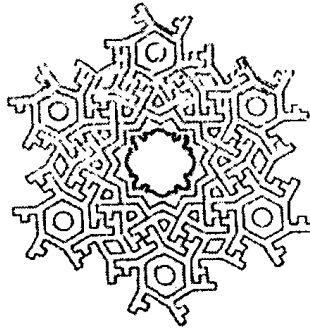
الحواشي

يود الكاتب أن يسجل اعترافه بالمساعدة التي قدمتها مساعدة البحث اميلي ريس Emily Rayyes ، الطالبة في برنامج الماجستير للدراسات العربية في جامعة جورج تاون . انظر الجيولوجيا - قائمة المراجع - لمعرفة التفاصيل الكاملة عن الكتب التي جرت الاشارة اليها .

- ١ . *Survey of Palestine*, I, 151; Frankel, *The Washington Post*, June 2, 1987.
- ٢ . هذه الحكاية ترويها بيرتاستافورد فستر Bertha Spafford Vester صاحبة فندق الكولونية الأميركية في كتابها *Our Jerusalem*, 319.
- ٣ . Vester ص ٣١٨ ، وهي تضيف : ولكنه لا يرى البيوت والمباني العربية مغطاة بالأعلام السوداء .
- ٤ . انظر *Jerusalem, 1918-1920 and Jerusalem, 1920-1922*.
- ٥ . Storrs, 301.
- ٦ . Samuel, 181.
- ٧ . للدلالة على الانتقال من الحكم العسكري الى الحكم المدني طلب الحاكم المعتزل من صموئيل وضلاً كتب فيه ما يلي : «استلمنا من الميجور جنرال السير لويس بوز Bols فلسطين واحدة كاملة» 303 Vester .
- ٨ . Lesch, 40-41.
- ٩ . Storrs, 372.
- ١٠ . حول تاريخ الجدل الذي دار بشأن حائط المبكى انظر : Tibawi, 'Jerusalem: Its Place in Islam and Arab History'. 35-42.
- ١١ . Porath, I, ch. 7 . وانظر أيضاً : Mattar, ch. 3, 60-75.
- ١٢ . حول الانزلاق نحو المقاومة المسلحة انظر Porath II, chs 7-9 وأيضاً Lesch, ch 9, esp. 208-27 وكذلك الفصول التي كتبها كل من : David Waines, Barbara Kalkas, Richard Verdery في كتاب Z. Abu Lughod, part III, 203-204
- ١٣ . Porath, II, appendix B.
- ١٤ . John and Hadawi II, 271 حيث أوردت معطيات، حكومة فلسطين . وانظر أيضاً : Hirst 232 الذي يورد معطيات الأمم المتحدة، وكذلك Aamiry 9 .
- ١٥ . *Survey of Palestine*, I, 148, 151.
- ١٦ . *Survey of Palestine*, II, 789.
- ١٧ . Hirst, 232-34.
- ١٨ . Tibawi, 'Jerusalem . . .', 44.
- ١٩ . Glubb, 107.
- ٢٠ . Cattan, 98.
- ٢١ . من تقديرات الانتداب البريطاني للسكان في شهر تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٤٧ ، ذكرت في كتاب العارف ، ص ١٩١ . انظر أيضاً 43-44 Benvenisti .
- ٢٢ . انظر مثلاً : Hirst, 237 ، نقلاً عن روجي الخطيب : وكذلك 43 Schieffer .

- ٢٣ . جانبيت أبو لغد، ١٥٩، تتوصل الى هذا الرقم، إسقاطاً من المعطيات الاحصائية للانتداب سنة ١٩٤٦ ومعطيات سنة ١٩٤٤ للجنة التحقيق الانجلو أميركية .
- ٢٤ . Kerr, in Abu Lughod (ed.), 358.
- ٢٥ . Ithawi, *Islamic Pious Foundations in Jerusalem*, 49.
- ٢٦ . Forsythe, 65-67.
- ٢٧ . التكملة من مذكرات حضرة صاحب الجلالة الهاشمية الملك عبدالله بن الحسين، المطبعة التجارية، القدس، ص ١٨ .
- ٢٨ . Kerr, 356.
- ٢٩ . Benvenisti, *Jerusalem: The Torn City*, 6-15; Mallison, 214.
- ٣٠ . Benvenisti, 39 والفصل الثالث في عدة أماكن .
- ٣١ . Teddy Kollek, *For Jerusalem*, ch. 12.
- ٣٢ . Benvenisti, *Jerusalem: The Torn City*, 39.
- ٣٣ . Sharon, 132-33.
- ٣٤ . Crown Prince Hassan, *Palestine Self-Determination*, 40-41.
- ٣٥ . Benvenisti, *Jerusalem: The Torn City*, 10. قارن Cattan, 131-32; cf.
- ٣٦ . أنظر مثلاً :
- Daniel Rubenstein, 'The Jerusalem Municipality under the Ottomans, British, and Jordanians',
ch. 4 in Kraemer, 72-99. في كتاب
- ٣٧ . Schleifer, 'Islamic Jerusalem . . .', 173.
- ٣٨ . Benvenisti, *Jerusalem: The Torn City*, 60-62 يخالف ذلك بشدة، ثم يضطر الى تعديل النتائج التي توصل اليها .
- ٣٩ . أنظر Henry Kendall, *Jerusalem: The City Plan*, ch. 5.
- ٤٠ . Schleifer, 166 وفي أماكن عدة .
- ٤١ . Neff, 311-14.
- ٤٢ . HRH Hassan bin Talal, *A Study on Jerusalem*, 27-39.
- ٤٣ . يمكن أن يلاحظ المرء أيضاً أن العرب كانوا يشكلون ٦٢ في المائة من قضاء القدس (المدينة والقرى المجاورة) في نهاية الانتداب . أنظر Cattan, *Jerusalem*, 96.
- ٤٤ . Cattan, *Jerusalem*, 71، يشهد بتقدير للصليب الأحمر الدولي يحمل الرقم ٧٠٠٠ وتقديرات أخرى توصله الى ٣٠,٠٠٠ .
- ٤٥ . الخطيب، اقتطف أقواله : Hirst, *The Gun and Olive Branch*, 237.
- ٤٦ . Benvenisti, *Jerusalem: The Torn City*, 253.
- ٤٧ . يدعي بنفسي أن «العقل العربي» لم يزر علاقة وثيقة بين مشروعات الإسكان هذه والقدس :
Jerusalem: The Torn City, 247.

- ٤٨ . انظر النقد المبني على معرفة لأرثر كوتشر Arthus Kutcher خصوصاً الصفحات ٥٤ - ٥٥ والفصل الرابع .
- ٤٩ . David Hirst, 'Israel in Jerusalem', '29
- ٥٠ . Frankel, *The Washington Post*, June 2, 1987.
- ٥١ . Hirst, *The Gun and the Olive Branch*, 232. الدونم يساوي حوالي ربع فدان .
- ٥٢ . للاطلاع على تفاصيل أعمال السلب والنهب الاسرائيلية انظر: Tibawi, 35-41
- ٥٣ . Robert I Friedman, *The Washington Post*, January 10, 1988
- ٥٤ . 'Israel and Torture', *The Sunday Times* (London), 19 June, 1977.
- ٥٥ . *The Washington Post*, 7 February, 1979. وأيضاً: *The Christian Science Monitor*, 4 April, 1979.
- ٥٦ . من أجل ايضاحات ورسوم تنقل هذه المشاعر انظر: Halsell, *Journey to Jerusalem*: ص ١٢ - ٣٦ ، وأماكن متفرقة . وكذلك Hudson, 'Jerusalem: A City Still Divided', 1969.
- ٥٧ . March 1, 1980; يستشهد بها . Mallinson, 224.
- ٥٨ . Thomas L Friedman, 'Teddy Kollek's Jerusalem', *The New York Times Magazine*, 4 August, 1985.
- ٥٩ . Abdallah Schleifer, 'Islamic Jerusalem as Archetype of a Harmonious Urban Development', *Saqqaf*, 149-75, 172.
- ٦٠ . انظر تحليل ماليسون الجيد الاطلاع Mallinson, 209-228 .
- ٦١ . انظر: Irani, ch. 2
- ٦٢ . انظر مثلاً أفكار هيلر الطريفة Heller, 116-26 .
- ٦٣ . Walid Khalidi, 'Toward Peace in the Holy Land', 788.
- ٦٤ . انظر مثلاً أفكار هيلر الطريفة Heller, 116-26 .



المرجعية (البليوغرافيا)

- Albright, W F, 'The Amarna Letters from Palestine', *CAH*, vol. II, ch. XX.
 'The Egyptian Empire in Asia in the Twenty-first Century BC', *JPOS*, vol. III, 1928.
 Bottero, J, 'Syria during the third dynasty at Ur', *CAH*, vol. I, ch. XXI, part 4.
 de Vaux, R, 'Les Patriarches hébreux et les découvertes modernes', *RB*, 55, 1948.
 Eggers, H J, *Einführung in die Vorgeschichte*, Munich, 1959.
 Gallig, K, 'Die Nekropole von Jerusalem', *PJB*, 32, 1936.
*Biblisches Reallexicon*², 1977.
 Gunkel, H, 'Mythus und Mythologie', *Die Religion in Geschichte und Gegenwart*, IV, 2nd ed.
 Hauer, C, 'Who was Zadok?', *JBL*, 1963.
 Hayes, J H and J Maxwell Miller, *Israelite and Judaeu History*, London, 1984.
 Hayes, W C, 'Chronology, Egypt - to end of twentieth dynasty', *CAH*, vol. I, ch. VI, part 1.
 Henton Davies, G, 'An approach to the problem of Old Testament Mythology', *PEQ*, 88, 1956.
 Kenyon, K M, *Digging up Jerusalem*, London, 1974.
Amorites and Canaanites, London, 1963.
Archaeology in the Holy Land, London, 1979.
 Knudzon, J A, *Die El-Amarna-Tafeln*, Leipzig, 1907.
 Macalister, R A S and J G Duncan, 'Excavations on the Hill of Ophel, Jerusalem 1923-1925',
Palestine Exploration Fund Annual, London, 1926.
 Maisler, B, 'Das vordavidische Jerusalem', *JPOS*, vol. X, 1930.
 Mallon, A, 'Jérusalem et les documents égyptiens', *JPOS*, vol. VIII, 1928.
 Neuville, I, 'Le Préhistorique de Palestine', *RB*, 1934.
 Noth, M, *The Old Testament World*, London, 1966.
 Peter, M, 'Wer sprach den Segen nach Genesis xiv 19 über Abraham aus?' *VT*, vol. XXIX, 1979.
 Posener, G, 'Syria and Palestine during the twelfth dynasty', *CAH*, vol. I, ch. XXI, part 2.
 Saller, S J, *The excavations at Dominus Flerit*, part II, 'The Jebusite burial place', Jerusalem, 1964.
 Schmitt, J J, 'Pre-Israelite Jerusalem' in C D Evans, W W Hallo and J B White, *Scripture in context, essays on the comparative method*, Pittsburg, 1980.
 Seters, J V, 'The terms "Amorite" and "Hittite"', *VT*, vol. XXII, 1972.
 Sethe, N, *Die Ächtung feindlicher Fürsten, Völker und Dingen auf altägyptischen Tongefäßscherben des Mittleren Reiches*, Berlin, 1926.
 Shiloh, Y, 'Excavations at the City of David I, 1978-1982', *Qedem*, 1984.
 Simons, J, *Jerusalem in the Old Testament*, Leiden, 1952.
 Skinner, J, 'Genesis', *ICC*, 1930.
 Smith, R H, 'Abraham and Melchizedek', *ZAV*, LXXVII, 1965.
 Stoltz, F, 'Strukturen und Figuren im Kult von Jerusalem', *BZAW*, 118, Berlin, 1970.
 Terrien, S, 'The Omphalos Myth and Hebrew Religion', *VT*, vol. XX, 1970.
 Thompson, Th. L, 'The Historicity of the patriarchal Narratives', *BZAW* 133, Berlin, 1974.
 Vandermeersch, B, *De Evolutie van de mens. Natuur en Techniek*, 1982.
 Vincent, L-H and A M Steve, *Jérusalem de l'Ancien Testament*, IIIème partie, Paris, 1956.
 Weusnick, A J, *The ideas of the Western Semites concerning the Navel of the Earth*, Amsterdam, 1916.

الفصل الثاني

لقد أوضحت الحفريات الأثرية التي جرت منذ الستينات الى حد كبير التاريخ المادي للقدس. ونحن نجد خلاصة موجزة ممتازة في :

A D Tushingham in *Atlas of the Biblical World*, by Tushingham and Denis Baly, New York, 1971, ch. 6.

وقد اقتضت الحفريات الأخيرة اجراء بعض التعديل على هذا الوصف الذي يستند الى حد كبير إلى حفريات كاثلين كينيون :
(انظر : *Digging up Jerusalem*, London, 1974).

ونجد عرضاً للاكتشافات الأكثر حداثة وللتعديلات التي أدخلت على النتائج السابقة في :
N. Avigad, *Discovering Jerusalem*, Nashville, 1983. وهناك ملخص قيم للمعلومات القديمة

J. Simons, *Je'rusalem in the Old Testament*, Leiden, 1952. في :

وكذلك في

L-H Vincent, and M-A Steve, *Jerusalem de l'ancien Testament*

I-III, Paris, 1954 — 56.

أما التواريخ التوراتية المعتادة، مثل

John Bright, *A History of Israel*, 3rd ed., Philadelphia, 1981

وكتاب :

Alberto Soggin, *A History of Ancient Israel*, Philadelphia, 1985.

فهي تذكر، لكن دون تفصيل، أن سكان القدس كانوا غير اسرائيليين، ومتعددي الآلهة. وهي لا تناقش أيضاً النتائج الثقافية والدينية لاستيعاب سكان المدن الوثنيين في دولة يهوذا السياسية، وهو الاستيعاب الذي حدث مع مجيء امبراطورية داود، لا في القدس وحدها بل في معظم أنحاء فلسطين القديمة أيضاً.

تاريخ القدس في فترة الكتاب المقدس :

منذ زمن الملك داود وتاريخ القدس مرتبط ارتباطاً لا فكاك منه بتاريخ الملكية والدول المختلفة التي تلتها. ولم يتم الا مؤخراً ادراك الحقيقة التي مفادها أن هنالك فرقاً بين الملكية والتراث الديني

التي ادعته الملكية كأساس لشرعيتها على الرغم من أن التواريخ وكتب الأنبياء كلها تندد بجميع ملوك يهوذا وجميع ملوك «اسرائيل» تقريباً. ولذلك فإن تواريخ يهوذا ودولة اسرائيل المنشقة في الفترة التوراتية تظهر اختلافات كبيرة في تناول الموضوع ونجاحاً كبيراً في الغالب في تجاهل القضايا الأساسية. ويكمن جزء كبير من المشكلة في أن مؤلفي هذه الكتب، باستثناء أقل القليل منهم، أبرياء من أي فهم للشعوب والثقافات خارج نطاق أوروبا وأمريكا الشمالية.

Bright, John, *A History of Israel*, 3rd ed. Philadelphia, 1981.

Maxwell Miller, J and John H. Hayes *A History of Ancient Israel and Judah*, Philadelphia, 1986.

Soggin J. Alberto, *A History of Ancient Israel: From the Beginnings to the Kochba Revolt*, A.D. 135, Philadelphia, 1985.

Hermann S. *History of Israel in Old Testament Times* Philadelphia, 1980.

Noth Martin, *The History of Israel*, 2nd ed. Philadelphia 1980.

وهو كتاب كلاسيكي قديم ما يزال يتبعه في خطوطه العامة كثير من العلماء الأوروبين.

Hays, J. H. and J. Maxwell Miller, *Israelite and Judean*

History, Philadelphia and London, 1977.

وهو مجموعة من المقالات كتبها علماء مختلفون لا أحد منهم تقريباً له توجه نحو التاريخ. وهو مفيد في الدرجة الأولى نظراً لقائمة الكتب الضخمة التي يتضمنها كل فصل فيه.

والكتب التالية (التي يجب أن يضاف إليها تاريخ جون برايت) شقت طريقاً جديداً وانفصلت عن نظريات القرن التاسع عشر وأساليبه واتجهت نحو تفهم تاريخي وثقافي أكثر كفاية للعمليات الاجتماعية في الشرق الأدنى القديم:

Mendenhall, George E., *The Tenth Generation: The Origins of the Biblical Tradition*, Baltimore, 1973

Herlon, Gary, *The Social Organization of Tradition in Monarchic Judah*.

وهو رسالة جامعية غير منشورة (آن اربور ميشيفان) تثبت المفارقة الشامعة بين أيديولوجية الملكية والتقاليد اليهودية الصحيحة.

Freedman, D. N.,

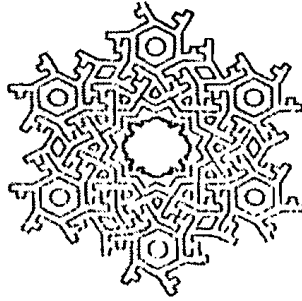
David F. Graf (محرران)

Palestine in Transition: The Emergence of Ancient Israel, Sheffield, 1983.

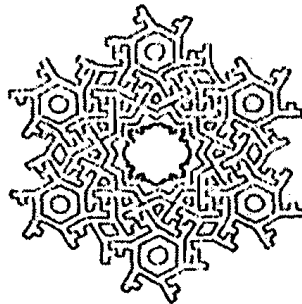
وهو مجموعة من المقالات كتبها ستة علماء تتمحور حول آراء جديدة عن أصول المجتمع التوراتي والتطبيق المثير للجدل لمنهجية علم الاجتماع الحديث.

Gottwald, Norman K., The Tribes of Yahweh, A Sociology of the Religion of Liberated Israel (1250-1050 BCE, Mary Knoll New York, 1979).

وهو محاولة سخيفة وغير مستولة لادخال تاريخ الفترة التوراتية بالقوة في مقولات ماركسية القرن التاسع عشر. ونحن نذكره هنا فقط لأنه يلقى الاهتمام لدى بعض الأوساط ذات التوجهات الاشتراكية.



- Abel, F M, *Histoire de la Palestine*, Paris, 1952.
- Avi-Yonah, Michael, *The Jews of Palestine*, Oxford, 1976.
- Avigad, N, *Discovering Jerusalem*, Nashville, Tennessee, 1983.
- Blomme, R, 'Faut-il revenir sur la datation de l'Arc de l' "Ecce Homo"?' , *Revue Biblique*, 1979.
- Cyril of Scythopolis, *Life of Euthymius* (tr. Festugière).
- Dio Cassius, *Roman History* (Loeb vol. VII).
- Eusebius, *Ecclesiastical History*, 4, 6 (tr. McGiffert in series *Nicene and Post-Nicene Fathers*).
Life of Constantine (tr. McGiffert, NPNF).
Onomasticon, GCS.
- Gregory of Nazianzus, *Or. I. contra Julianum*, (GCS).
- The History of Barsauma of Nisibis*, ed. F Nau, *Resumé de Monographies Syriacques*, 8(18), 1913.
- Hüttenmeister, F and G Reeg, *Die antiken Synagogen in Israel*, (BTAVO), Wiesbaden, 1977.
- Itinerarium Burdigalense in Corpus Christianorum*.
- James, M R, *The Apocryphal New Testament*, Oxford, 1924.
- Jerome, *Epistles* (tr. W H Fremantle, NPNF).
- Josephus, *Antiquities of the Jews*.
War of the Jews.
- Junior, Philosophus, ed. A Riese, *Geographi Latini Minores*, Heilbron, 1878.
- Libanius, *Letter*.
- Melito of Sardis, *On Pascha*, ed. S G Hall.
Paschal Chronicle in Patrologia Graeca.
- Philostorgius, ed. J Bidez, GCS.
- Procopius of Caesarea, *The Buildings of Justinian* (Loeb vol. VII, p. 347).
- Sebeos, *Histoire d'Heraclius*, tr. F Macler, Paris, 1904.
- Sophronius, *On the Birthday of Christ*, ed. H Usener, *Kleine Schriften*, Leipzig, 1913.
- Strabo, *Geography*, XVI (Loeb vol. VII).
- Strategius, *Capture of Jerusalem*, ed. and tr. G Garitte, CSCO.
- Wilkinson, J, *Egeria's Travels*, Warminster, 1981.
Jerusalem Pilgrims before the Crusades, Warminster, 1977.



الفصل الرابع

ابن الأثير،
الكامل في التاريخ، بيروت ١٩٧٩، ١٣ مجلداً.

ابن اسحق،
سيرة ابن اسحق، تحقيق م. حميد الله، الرباط، ١٩٧٦.

الأزدي،

— فتوح الشام

تحقيق أ. م. عامر

القاهرة، ١٩٧٠.

— تاريخ الموصل، تحقيق أ. حبيبة، المجلد الثاني، القاهرة، ١٩٦٧.

ابن أعثم الكوفي،

الفتوح، المجلد الأول، حيدرآباد، ١٩٦٨.

أفتيشيوس (ابن البطريق)،

تاريخ ابن البطريق،

تحقيق لويس شيخو، بيروت، ١٩٠٥، ١٩٠٩.

مجلدان.

ابن تغري بردي،

النجوم الزاهرة، القاهرة، ١٩٢٩، ١٢ مجلداً

ابن الجوزي،

فضائل القدس، تحقيق جبرائيل جبور، بيروت، ١٩٧٩.

ابن خلدون،

كتاب العبر (المقدمة)، أوفست لطبعة بولاق، بيروت، ١٩٧٠.

ابن حجر،

الاصابة، القاهرة، ١٩٣٤، ٤ مجلدات.

ابن حنبل، أحد
مسند أحمد بن حنبل،
بيروت، ١٩٢٠، ٦ مجلدات.

ابن سعد،
كتاب الطبقات
تحقيق فستنفيلد، لايدن، ١٨٦٦ — ٨٦، ٩ مجلدات.

ابن عبد الحكم،
سيرة عمر بن عبد العزيز، تحقيق أ. عبيد، دمشق الطبعة الخامسة، ١٩٦٧.

ابن عبد ربه،
العقد الفريد،
تحقيق أ. أمين وآخرين، القاهرة ١٩٤٠ — ٤٩، ستة مجلدات.

ابن عساكر
— تهذيب تاريخ ابن عساكر،
تحقيق أ. ق. بدران، دمشق ١٣٢٩/١٩١١، مجلدان.
— تاريخ دمشق، المجلد الأول تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق ١٩٥١.

ابن القلانسي،
ذيل تاريخ دمشق،
تحقيق ف. أميدروز، بيروت، ١٩٠/١.

ابن الفقيه،
البلدان (B.G.A)، المجلد الخامس، تحقيق دي خويه، لايدن، ١٨٨٥.

ابن قيم الجوزية،
أحكام أهل الذمة،
تحقيق صبحي الصالح، دمشق، ١٩٦١.

ابن كثير،

البداية والنهاية،

دار الفكر العربي، ١٩٣٢، ١٣ مجلداً

ابن ماجه،

السنن،

تحقيق م. ف. عبد الباقي، القاهرة، ١٩٥٢ — ٣، مجلدان.

ابن وثيمة، عمارة،

كتاب بدء الخلق وقصص الأنبياء، تحقيق رثيف خوري، فيسبادن، ١٩٧٨.

أبو زرعة،

تاريخ أبي زرعة، تحقيق القوجاني، دمشق، ١٩٨٠، مجلدان.

أبو عبيد، كتاب الأموال، القاهرة، ١٩٦٨.

البخاري،

صحيح البخاري، تحقيق م. أ. صبيح، القاهرة (د. ت.)، ٩ أجزاء في ٣

مجلدات.

البستي، محمد بن حبان،

مشاهير علماء الأمصار، تحقيق فلايشامر، القاهرة، ١٩٥٩.

البسوي،

كتاب المعرفة والتاريخ،

تحقيق أ. ز. العمري، بغداد، ١٩٧٤ — ٧٦، ثلاثة مجلدات.

البلاذري،

— أنساب الأشراف، الجزء الأول، تحقيق م. حميد الله؛ الجزء الرابع / ق، ١،

تحقيق شليسنغر وكستر، القدس، ١٩٧١.

— فتوح البلدان، تحقيق دي خويه، ليدن، ١٩٦٨.

البيهقي،

السنن، حيدرآباد، ١٣٤٤ - ٥٥٥، عشرة مجلدات.

الجهشياري،

كتاب الوزراء والكتاب، تحقيق السقا وآخرين، القاهرة، ١٩٣٨.

الحميري،

الروض المعطار،

تحقيق احسان عباس، بيروت، ١٩٧٥.

الحنبلي، مجير الدين،

الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل، عمان، ١٩٧٣ (مجلدان).

الخطيب البغدادي،

تاريخ بغداد، القاهرة، ١٩٣١، (١٤ مجلداً).

خليفة بن خياط،

تاريخ خليفة بن خياط،

تحقيق سهيل زكار، دمشق ١٩٣٨، مجلدان

السيوطي، شمس الدين،

اتحاف الاخصا بفضائل المسجد الأقصى.

تحقيق أ. ر. محمد

القاهرة، ١٩٨٤، مجلدان

سمير شتا،

«النقود وعروبة القدس»، مجلد القدس الشريف رقم ١٠، كانون الثاني

١٩٨٦.

صلاح الدين المنجد،

معجم بني أمية، بيروت، ١٩٧٠.

الصنعاني،
المصنف

تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، بيروت، ١٩٧٠، ١١ مجلداً.

الطبري،

— جامع البيان، تحقيق أحمد. م. شاكر، القاهرة ١٩٦٠ — ٦١، ١٦ مجلداً والقاهرة
١٣٢٣ — ٢٩ هـ، ٣٠ جزءاً

— تاريخ الطبري، تحقيق دي خويه وآخرين، ليدن ١٨٧٩ — ١٩٠١، ١٥ مجلداً.

الطرطوشي،

كتاب الحوادث والبدع، تحقيق م. الطالبي، تونس، ١٩٥٩.

عارف العارف،

المفصل في تاريخ القدس، القدس، ١٩٦١

عبد الله مخلص،

«الطريق من دمشق الى بيت المقدس»، مجلة الكشاف، مجلد ٢، رقم ١،

١٩٢٨.

القلقشندي،

— صبح الأعشى،

القاهرة، ١٩١٩ — ٢٢

١٤ مجلداً.

— الإنافة في مآثر الخلافة،

تحقيق ع. س. فراج، الكويت، ١٩٦٤، ٣ مجلدات.

كامل جميل العسلي،

— أجدادنا في ثرى بيت المقدس،

عمان، ١٩٨١

— مخطوطات فضائل بيت المقدس، عمان، ١٩٨١

الكندي،

كتاب الولاية وكتاب القضاة،

تحقيق ر. غست، بيروت، ١٩٠٨.

المتقي الهندي، علي،

كنز العمال، حيدرآباد، ١٣٦٤ - ٨٥هـ

١٣ مجلداً.

المسعودي،

مروج الذهب،

تحقيق وترجمة باربيردي مينارو بافيت دي كورتاي، باريس ١٨٦١ - ٧٧، ٩

مجلدات.

مسلم،

صحيح مسلم،

تحقيق عبد الباقي، القاهرة، ١٩٥٥ ٥ مجلدات

المشرف بن المرجي المقدسي،

فضائل بيت المقدس والخليل وفضائل الشام،

مخطوط مكتبة جامعة توبنجن رقم ٣٨٠.

مقاتل بن سليمان،

تفسير مقاتل،

المجلد الأول، تحقيق م. شحاتة، القاهرة، ١٩٦٩.

المقدسي، شهاب الدين،

مثير الغرام،

تحقيق أحمد سامح الخالدي، يافا، ١٣٦٥ هـ.

المقدسي البشاري، محمد بن

أحسن التقاسيم

(أوفست لطبعة دي خويه، ليدن ١٩٠٦)، بيروت وفيلا دلفيا، ١٩٨٢.

المهلبى،
المسالك والممالك، قطعة حققها صلاح الدين المنجد في مجلة معهد المخطوطات
العربية، ١٩٥٨/١.

المقدسي، المطهر بن طاهر،
كتاب البدء والتاريخ،
تحقيق كليمان هوار، باريس ١٨٩٩ — ١٩١٨.
(٦ مجلدات).

ناصر خسرو،
رحلة ناصر خسرو،
(سفرنامه)،
ترجمة يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٤٥.

النسائي،
سنن النسائي،
بيروت ١٩٣٠
٨ أجزاء في ٤ مجلدات

نصر بن مزاحم،
وقعة صفين،
تحقيق عبد السلام محمد هارون
الطبعة الثانية، القاهرة، ١٣٨٢ هـ.

ر. نغاعة،
الاسرائيليات،
بيروت، ١٩٧٠.

الهروي،
الاشارات الى معرفة الزيارات، تحقيق جانين سورديل — تومين، دمشق،
١٩٥٣.

الواسطي،
فضائل البيت المقدس،
تحقيق اسحق حسون
القدس، ١٩٧٩.

الواقدي،
فتوح الشام المنسوب للواقدي،
القاهرة د. ت. مجلدان

اليقوبي،
تاريخ اليعقوبي،
تحقيق هوتسما، لندن، ١٩٦٩، مجلدان

- Anon. *Arabische Chronik*. Band XI (von elbaladori elbagdadi). ed. W Ahlwardt, Griefeswald, 1883.
- Creswell, K A C. *Early Muslim Architecture. Umayyads, 622-750*. 2nd ed., Oxford, 1969.
- Donner, F. *The Early Muslim Conquest*. Princeton, 1981.
- Duri, A A. *The Rise of Historical Writing among Arabs*. tr. C I Conrad. Princeton, 1983.
- Goitein, S D F. *Studies in Islamic History and Institutions*. Leiden, 1966.
- Goldziher, I. *Muslim Studies*. tr. C R Barber and S M Stern, London, 1967.
- Michael I. Jacobite Patriarch of Antioch, *Chronique de Michael le Syrien*. ed. and tr. J B Chabot, Brussels, 1963, 4 vols.
- Theophanes, *The Chronicle of Theophanes*. tr. H Turtledove, Philadelphia, 1982.
- Tritton, A S. *The Caliphs and their Non-Muslim Subjects*. repr. London, 1970.
- van Berchem, M. *Matériaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum*, IIème, Jerusalem 'Haram', 1922.
- Wellhausen, J. *The Arab Kingdom and its Fall*. Ar. tr. Abu Rida, Cairo, 1968.
- Wensinck, A J et al., *Concordance et Indices de la Tradition Musulmane*. Leiden, 1936-69, 7 vols.
- Ya'qūbī, *Tārīkh*. ed. Houtsma, Leiden, 1969, 2 vols.



الفصل الخامس

ابن الأثير،

الكامل في التاريخ، المجلد العاشر، بيروت، ١٩٧٩.

ابن تغري بردي،

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الجزء ٦، (اعادة طبع).

ابن شداد،

النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق محمد جمال الدين الشيال،

القاهرة، ١٩٦٤.

ابن القلانسي،

تاريخ دمشق، تحقيق سهيل زكار، دمشق، ١٩٨٣.

ابن ميسر،

المنتقى من أخبار مصر، تحقيق أمين السيد، القاهرة ١٩٨١.

ابن واصل،

مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، المجلد ٤، تحقيق حسنين ربيع، القاهرة،

١٩٧٢.

أبو الفداء،

المختصر في أخبار البشر

مجلد ٣، بيروت، د. ت.

احسان عباس،

رحلة ابن العربي الى المشرق كما صورها قانون التأويل —

مجلة الأبحاث، المجلد ٢١، القسم الأول، آذار ١٩٦٨.

الأصفهاني،

الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق م. م. صبح، القاهرة، د. ت.

مجير الدين الحنبلي ،

الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، عمان ، ١٩٧٣ .

سبط ابن الجوزي ،

مرآة الزمان ، مخطوط المكتبة الوطنية بباريس ، مجلد ٨ ، حيدرآباد ، ١٣٧٠ هـ .

عبد اللطيف البغدادي ،

الافادة والاعتبار

تحقيق أحمد غسان سبانو ، دمشق ، ١٩٨٣ .

العمرى ،

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار . القسم الذي حرره أمين السيد ، القاهرة .

ناصر خسرو ،

سفر نامه ،

ترجمة يحيى الخشاب ، الطبعة الثالثة ، بيروت ، ١٩٨٣ .

كامل جميل العسلي ،

وثائق مقدسية تاريخية ، المجلد الأول ، عمان ١٩٨٣ .

مجهول ،

أخبار الدولة السلجوقية من مرآة الزمان . تحقيق أ . سويم ، أنقرة ، ١٩٦٨ .

محمد أبشري ومحمد داود التميمي ، (محققان) ،

أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين ، استانبول ، ١٩٨٢ .

مصطفى علي الحيارى ،

الامارة الطائيّة ، عمان ، ١٩٧٧ .

المقريزي ،

اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، المجلد ٢ ، تحقيق محمد هـ . م .

أحمد ، القاهرة ، ١٩١/٣ ، ٣ تحقيق م . هـ . أحمد ، القاهرة ، ١٩٧٣ .

يحيى بن سعيد

تاريخ يحيى بن سعيد ، بيروت ، ١٩٠٩

- Anon, *Anonymous Pilgrims in PPTS*, IV, New York, 1971 (reprint of 1894 ed.).
- Anon, *The Pilgrim of the Russian Abbot Daniel in the Holy Land*, 1106–1107 AD, tr. C W Wilson, New York, 1971 (reprint of 1895 ed.), in *PPTS*, IV.
- Anon, [?] *Carulaire Sepulchre*, 1849, 83–85, as tr. in Peters, *Jerusalem, the Holy City in the Eyes of Chroniclers . . .*, Princeton, 1985.
- Anon, [?] *Description of the Holy Land*, tr. Aubrey Stewart, *PPTS*, V, New York, 1971.
- Burgoyne, M H and Amal Abul Hajj, 'Twenty-four Medieval Arabic Inscriptions from Jerusalem', *Levant*, vol. XI, 1979.
- Burgoyne, M H, 'A recently discovered Marwānid inscription in Jerusalem', *Levant*, vol. XIV, 1982.
- Mauslīk Jerusalem*, London, 1987.
- Canard, M, 'Djarrāhids', *EF*.
- Finucane, Roland, *Soldiers of the Faith*, London and Melbourne, 1983.
- Fulcher of Chartres, *A History of the Expedition to Jerusalem, 1095–1127*, tr. S Fink, New York.
- Howarth, Stephen, *The Knights Templar*, London, 1982.
- Join-Lambert, Michel, *Jerusalem*, tr. Charlotte Haldane, London, 1966.
- La Monte, John, *Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem*, New York, 1970 (reprint of 1932 ed.).
- Mayer, Hans E, *The Crusades*, tr. John Gillingham, Oxford, 1972.
- Nāṣir-i Khusrau, *Diary of a journey through Syria and Palestine*, tr. Guy Le Strange, *PPTS*, vol. 4, London, 1893 (reprint, New York, 1971).
- Prawer, J, *The Latin Kingdom of Jerusalem*, London, 1972.
- ' "Minorities" in the Crusader States', *A History of the Crusades*, V, ed. Zacour and Hazard, Madison, 1985.
- 'Social Classes in the Latin Kingdom: the Franks', *A History of the Crusades*, V, ed. Zacour and Hazard, Madison, 1985.
- 'The Origin of the Court of Burgesses', *Crusader Institutions*, Oxford, 1980.
- 'The Patriarch's Lordship in Jerusalem', *Crusader Institutions*, Oxford, 1980.
- Richard, J, *The Latin Kingdom of Jerusalem*, tr. Janet Shirley, Amsterdam, 1979.
- Riley-Smith, J, *The Knights of St John in Jerusalem and Cyprus, c. 1050–1310*, London, 1967.
- Runciman, S, *A History of the Crusades, vol. 1: The First Crusade and the Foundation of the Kingdom of Jerusalem*, New York, 1964.
- Russel, Josiah C, 'The Population of the Crusader States', *A History of the Crusades*, vol. V *The Impact of the Crusades on the Near East*, ed. Norman P Zacour and Harry W Hazard, Madison, 1985.
- Setton, K, (ed), *A History of the Crusades vol. 1: The First Hundred Years*, ed. Harry W Hazard.
- Tibawi, A L, *The Extant Pious Foundations in Jerusalem*, London, 1987.
- William of Tyre, *A History of Deeds Done Beyond the Seas*, 2 vols., tr. Emily A Babcock and A C Krey, New York, 1976, reprint of 1941 ed., I.
- Yahya b. Sa'id, *Tārīkh*, Beirut, 1909.



الفصل السادس

ابن شداد،

النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية،

Recueil des historiens des

Croisades : Historiens

Orientaux, Paris, 1884, III

أحمد دراج،

وثائق دير صهيون بالقدس الشريف، القاهرة، ١٩٦٨.

رشاد الإمام،

مدينة القدس في العصر الوسيط (١٢٥٣ — ١٥١٦م)، تونس ١٩٧٦.

عارف العارف،

المفصل في تاريخ القدس،

القدس، ١٩٦١.

كامل جميل العسلي،

— معاهد العلم في بيت المقدس، عمان، ١٩٨١

— مخطوطات فضائل بيت المقدس، دراسة وبليوغرافيا، ط ٢، عمان ١٩٨٤.

— وثائق مقدسية تاريخية، المجلد الأول، عمان، ١٩٨٣.

القلقشندي،

صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القاهرة، ١٩١٣ — ١٩.

مجير الدين العليمي،

الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل، عمان، ١٩٧٣.

Ayalon, David, 'Discharges from Service. L. nishments and Imprisonments in Mamluk Society', Israel Oriental Studies, 1972, II.

Berchem, Max van, Matériaux pour un corpus inscriptionum arabicanum, Jérusalem 'Ville' Cairo. 1922-23. Jérusalem 'Haram', Cairo, 1925-27.

Butrus Abu-Manneh, 'The Georgians in Jerusalem in the Mamluk Period', Egypt and Palestine, ed. Cohen and Baer.

- Cohen, Claude, and Ibrahim Chabbouh, 'Le testament d'al-Malik aṣ-Ṣāliḥ Ayyūb', *Bulletin d'Études Orientales*, XXIX, 1977.
- Cleve, Thomas C. van, 'The Crusade of Frederick II', *A History of the Crusades*, ed. Kenneth Setton, II.
'The Fifth Crusade', *A History of the Crusades*, ed. Setton, II.
- Drory, Joseph, 'Jerusalem during the Mamluk Period (1250–1517)', *The Jerusalem Cathedral*, Jérusalem, 1981.
- Gibb, H A R, 'The Ayyūbids', *A History of the Crusades*, ed. Setton, II.
- Goitein, S D, 'al-Ḳuds', *EF*, V.
- Gottschalk, Hans L, *Al-Malik al-Kāmil von Ägypten und seine Zeit*, Wiesbaden, 1958.
- Hasson, Issac, 'Muslim Literature in Praise of Jerusalem: Faḍā'il Bayt al-Maqdis', *The Jerusalem Cathedral*, Jerusalem, 1981.
- Humphreys, R Stephen, *From Saladin to the Mongols: The Ayyūbids of Damascus, 1193–1260*, Albany, 1977.
- Kessler, Christel M and Michael H Burgoyne, 'The Fountain of Sultan Qāyṭbāy in the Sacred Precinct of Jerusalem', *Archaeology in the Levant, Essays for Kathleen Kenyon*, ed. by P R S Moorey and P J Parr, Warminster, 1978.
- Lane-Poole, Stanley, *Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem*, reprint Beirut, 1964.
- Little, D P, *A Catalogue of the Islamic Documents from al-Ḥaram al-Šarīf in Jerusalem*, Wiesbaden, 1984.
'Ḥaram Documents Related to the Jews of Late Fourteenth Century Jerusalem', *Journal of Semitic Studies*, vol. 30, no. 2, 1985, 227–264.
'Jerusalem and Egypt during the Mamluk Period', *Egypt and Palestine*, ed. Amnon Cohen and Gabriel Baer, New York, 1984.
- Lutfi, Huda A, *A Study of al-Quds during the Late Fourteenth Century Based Primarily on the Haram Estate Inventories*, unpublished McGill University dissertation, 1983. (This dissertation was published in 1985 in Berlin.)
- Maqrīzī, al-, *A History of the Ayyūbid Sultans of Egypt Translated from the Arabic of al-Maqrīzī*, by R J C Broadhurst, Boston, 1980.
- Matthews, Charles D, 'A Muslim Iconoclast (Ibn Taimiya and the 'Merits' of Jerusalem and Palestine)', *Journal of the American Oriental Society*, LVIC, 1936.
- Pitchell, R J, *The Spring Voyage: The Jerusalem Pilgrimage in 1458*, London, 1964.
- Muhammad Umar Memon, *Ibn Taimiya's Struggle against Popular Religion*, The Hague, 1976.
- Mujir al-Dīn al-'Ulaimī, *Al-Uns al-Jalīl bi-Tārīkh al-Quds wa-'l-Khalīl*, Amman, 1973.
- Oleg Grabar, 'al-Ḳuds: Monuments', *EF*, V.
- Painter, Sidney, 'The Third Crusade: Richard the Lionhearted and Philip Augustus', *A History of the Crusades*, ed. Setton, 2nd ed., Madison, 1969.
- Prescott, H F M, *Jerusalem Journey: Pilgrimage to the Holy Land in the Fifteenth Century*, London, 1954.
- Qalqashandī, al-, *Ṣubḥ al-A'šā fi Sinā'at al-Inshā'*, Cairo, 1913–19.
- Rashād al-Imām, *Madīnat al-Quds fi 'l-'Aṣr al-Wasī' (1253–1516 m.)*, Tunis, 1976.
- Risciani, Noderto, *Documenti e Firmani*, Jerusalem, 1931.
- Runciman, Steven, *A History of the Crusades*, London, 1965, 3 vols.
- Shoshan, Boaz, 'On the Relations between Egypt and Palestine: 1382–1517 AD', *Egypt and Palestine*, ed. Amnon Cohen and Gabriel Baer, New York, 1984.
- Sivan, E, 'Le caractère sacré de Jérusalem dans l'Islam aux XIII^e–XIV^e siècles', *Studia Islamica*, XVII, 1967.
'The Beginnings of the Faḍā'il al-Quds Literature', *Israel Oriental Series*, 1971.
- Slane, W M de, *Ibn Khallikan's Biographical Dictionary Translated from the Arabic*, Paris, 1843, II.
- Ziada, Mustafa M, 'The Mamluk Sultans to 1293', *A History of the Crusades*, ed. Setton, II.

الفصل السابع

ابراهيم العورة،

تاريخ ولاية سليمان باشا العادل، صيدا، ١٩٣٦.

ابن عباس الحنفي، محمد بن أحمد،

بدائع الزهور في وقائع الدهور، الطبعة الثانية، تحقيق م. مصطفى، القسم

الخامس، القاهرة، ١٣٨٠/١٩٦١.

ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن،

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة،

المجلد السادس، القاهرة، ١٩٣٦.

احسان عباس،

«الحياة العمرانية والثقافية في فلسطين في القرن السابع عشر» (١٠١٠ -

١١١٢ هـ)، في مجلة المستقبل العربي، مجلد ٦، آذار، ١٩٧٩.

احسان النمر،

تاريخ جبل نابلس والبلقاء، الجزء الأول، الطبعة الثانية نابلس،

١٣٩٥/١٩٧٥؛ الجزء الثاني، نابلس ١٩٦١.

أحمد سامح الخالدي،

— أهل العلم بين مصر وفلسطين، القدس، د. ت.

— رحلات في ديار الشام، يافا، ١٩٤٦.

أسد رستم،

الأصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي باشا، المجلد الأول، بيروت.

د. ت.

البوريني، الحسن بن محمد،

تراجم الأعيان من أبناء الزمان، المجلد ٢، تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق،

١٩٦٣.

الحسيني، حسن بن عبد اللطيف
تراجم أهل القدس في القرن الثاني عشر، تحقيق سلامة النعيمات، عمان،
١٩٨٥.

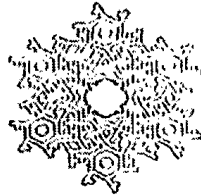
الخليلي، محمد،
وثيقة مقدسية تاريخية، تحقيق اسحق موسى الحسيني وأمين سعيد أبوليل،
القدس، ١٩٧٩.

الخياري المدني، ابراهيم بن عبد الرحمن المتوفى ١٠٨٣/١٦٧٢،
تحفة الأدباء وسلوة الغرباء، القسم الثاني، تحقيق ر. السامرائي، بغداد،
١٩٧٩.

مجير الدين الخنبلي،
الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل، عمان، ١٩٧٣.
دفا تر التحرير العثمانية

رشاد الامام،
مدينة القدس في العصر الوسيط، تونس، ١٩٧٦.

روحي الخالدي،
المقدمة في المسألة الشرقية، القدس، د. ت.



سجلات المحكمة الشرعية في القدس .

عادل مناع ،

— أعلام فلسطين في القرن التاسع عشر، (١٨٠٠ — ١٩١٨)، القدس، ١٩٨٦ .

— «عمر أفندي النقيب الحسيني ونقابة الاشراف في القدس» في [مجموعة بحوث عربية مهداة الى الدكتور اسحق موسى الحسيني] . لا تاريخ، لا مكان نشر.

عارف العارف ،

— المسيحية في القدس، القدس، ١٩٥١ .

— المفصل في تاريخ القدس، القدس، ١٩٦١ .

— تاريخ قبة الصخرة المشرفة والمسجد الأقصى المبارك، القدس، ١٩٥٥ .

عبد الكريم رافق ،

— العرب والعثمانيون (١٥١٦ — ١٩١٤)، الطبعة الأولى، دمشق ١٩٧٤ .

— بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني الى حملة نابوليون، (١٥١٦ — ١٧٩٨)، دمشق، ١٩٦٧؛

— بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام في العصر الحديث، دمشق، ١٩٨٥ .

عبد الكريم غرايبة

سوريا في القرن التاسع عشر (١٨٤٠ — ٧٦)، القاهرة، د. ت.

العياشي، أبو سالم، عبد الله،

رحلة الشيخ الامام العلامة القدوة الهمام العارف الكبير والمحقق الشهير أبو

سالم سيدي عبد الله العياشي، فاس، د. ت.

مصطفى الدباغ،

بلادنا فلسطين — في بيت المقدس، المجلد ١٠، بيروت ١٣٩٦ / ١٩٧٦ .

فيليب حتي وادوارد جورجي وجبرائيل جبور،

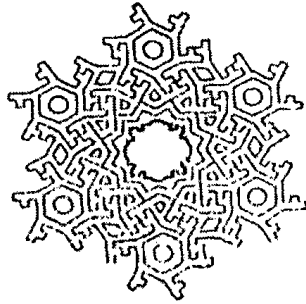
تاريخ العرب المطول، قسم ٢، الطبعة الرابعة، بيروت، ١٩٦٥ .

- كامل جميل العسلي ،
 — معاهد العلم في بيت المقدس ، عمان ، ١٩٨١ .
 — مدينة القدس عربياً وإسلامياً عبر التاريخ ، الموسوعة الفلسطينية ، القسم ٢ ، مجلد ٦ ، ١٩٩٠ .
 — آثارنا في بيت المقدس ، عمان ، ١٩٨٢
 — «الطابع الاسلامي الدولي للعلماء الذين أموا القدس وعاشوا فيها» ، القدس الشريف ، عدد ٨ ، عمان ، تشرين الثاني ، ١٩٨٥ .
 — وثائق مقدسية تاريخية ، مجلد ١ ، عمان ، ١٩٨٣ ، مجلد ٢ ، بيروت ، ١٩٨٥ .
 — التعليم في فلسطين ، الموسوعة الفلسطينية ، القسم الثاني ، المجلد ٣ ، ١٩٩٠ .
 اللقيمي ، مصطفى أحمد ،
 موانح الانس في رحلتي لوادي القدس ، مخطوط مكتبة الجامعة الأردنية ، رقم التصنيف ٦٤٢١٠٤ ، ٩١٥ .
 لندمان ، ش ،
 احياء أعيان القدس خارج أسوارها في القرن التاسع عشر ، تل أبيب ، د. ت. المحبي ، محمد ،
 خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ، القاهرة ، ١٢٨٤ هـ .
 محمد أبشري ومحمد داود التميمي (محققان) ،
 أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين ، استانبول ، ١٩٨٢ .
 محمد سليم اليعقوب ،
 ناحية القدس الشريف في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، رسالة ماجستير غير منشورة ، الجامعة الأردنية ، ١٩٨٦ .
 محمد فريد بك ،
 تاريخ الدولة العلية العثمانية (أوفست) ، بيروت ، ١٩٧٧ .
 محمد كرد علي ،
 خطط الشام ، المجلد الثاني ، الطبعة الثالثة ، بيروت — دمشق ، ١٤٠٣ / ١٩٨٣ .

المرادي، محمد خليل،
سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، المجلد ١ - ٤، بغداد.

المقري، أحمد بن محمد،
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المجلد الأول، القاهرة
المني،
الأعلام بفضائل الشام، تحقيق أحمد سامح الخالدي، القدس، د. ت.

ميخائيل بريك الدمشقي،
تاريخ الشام، ١٧٢٠ - ١٧٨٢، تحقيق أحمد غسان سبانو، دمشق،
١٩٨٢/١٤٠٢.



- Abu Maaneh, Butrus, 'The Hussainis, the Rise of a Notable Family in the 18th Century' in *Palestine in the Late Ottoman Period*, ed. D Kushner, Jerusalem, 1986.
- Akademie der Wissenschaft der UdSSR, *Weltgeschichte*, vol. 4 and 5, German translation, Berlin, 1964, 1966.
- Arvieux, Laurent d', *Mémoires du Chevalier d'Arvieux*, II, Paris, 1775.
- Avigad, Nahman, *Discovering Jerusalem*, Nashville, Tennessee, 1983.
- Baer, Gabriel, 'The Dismemberment of Awqaf in Early 19th century Jerusalem', *Asian and African Studies*, XIII, no. 3, 1979.
- 'Jerusalem's Families of Notables and the Waqf in the Early 19th Century', *Palestine in the Late Ottoman Period*, ed. D Kushner, Jerusalem, 1986.
- Çelebi, Evliya (Mehmed Zilli oğlu), *Evliya Çelebi Siyâhatnâmesi*, vol. 13, Özyadin Matbaasi, Istanbul, 1971.
- Chateaubriand, F R de, *Oeuvres romanesques et voyages*, vol. 2, Paris, 1969.
- Cohen, Amnon and Gabriel Baer, *Egypt and Palestine*, Jerusalem, 1984.
- Cohen, Amnon, *Jewish Life under Islam: Jerusalem in the Sixteenth Century*, Cambridge, Mass., and London, 1984.
- Cohen, Amnon and Bernard Lewis, *Population and Revenue in the Towns of Palestine in the 16th Century*, Princeton, 1978.
- Feridun Bey, Ahmed (d. 1583), *Munsha'ât al-Salâtîn*, pt. 1, Istanbul, 1274-75/1857-58.
- Gerber, Haim, *Ottoman Rule in Jerusalem (1890-1914)*, Berlin, 1985.
- Gibb, Sir H A R and Harold Bowen, *Islamic Society and the West*, vol. 1, pt. 1 and pt. 2, London, 1967, 1969.
- Heyd, V, *Ottoman Documents on Palestine 1552-1615*, Oxford, 1960.
- Hitti, P K, *History of the Arabs*, London, 1970.
- Hourani, Albert, *The Emergence of the Modern Middle East*, London, 1981.
- Hurewitz, J, *The Middle East and North Africa in Modern Politics*, vol. 1, *European Expansion 1535-1914*, 2nd ed., New York, 1975.
- Hütteroth, D and K Abdulfattah, *Historical Geography of Palestine, Transjordan and Southern Syria*, Erlangen, 1977.
- Khairallah, Shereen, 'The Chevalier d'Arvieux, Remarks on his Trips to Palestine (1660)', *The Third Conference on Bilâd al-Shâm*, vol. II, Amman, 1984.
- Kupferschmidt, Uri, 'Connections of the Palestinian 'Ulamâ' with Egypt', *Egypt and Palestine*, ed. A Cohen and G Baer, New York, 1984.
- Leyblich, Badia Y, *Travels of Ali Bey (between the years 1803-1807)*, 2 vols., London, 1861.
- Mannâ', A, *A'lâm Filistîn fi Awâkhir al-'Ahd al-'Uthmânî (1800-1918)*, Jerusalem, 1986.
- 'Umar effendî al-Naqîb al-Husainî wa-Naqâbat al-Ashrâf fi 'l-Quds', *Majmû'at Buḥūth 'Arabiyya Muḥdât ila 'l-Duktur I M Husainî*, , no date or place.
- 'The Sijill as Source for the Study of Palestine during the Ottoman Period with special reference to the French Invasion', *Palestine in the Late Ottoman Period*, ed. David Kushner, Jerusalem, 1986.



الفصل الثامن

روحي الخالدي،

المقدمة في المسألة الشرقية، القدس، د. ت.

زكي محمد مجاهد،

الأعلام الشرقية في المائة الرابعة عشرة الهجرية، ٤ مجلدات، القاهرة،

١٩٤٩ - ١٩٦٣.

سليم لطيفة،

الحكم المصري في الشام، ١٨٣١ - ١٨٤١، القاهرة، ١٩٨٣.

علي محافظة،

العلاقات الألمانية الفلسطينية، ١٨٤١ - ١٩٤٥، بيروت، ١٩٨١.

عادل متاع،

يوسف ضياء الدين الخالدي،

الفجر الأدبي، ٣٥/٣٦، ١٩٨٣.

عارف العارف،

— المفصل في تاريخ القدس، القدس، ١٩٦١

— النكبة، المجلد ٢، صيدا وبيروت، ١٩٥٧.

عبد العزيز محمد عوض،

— متصرفية القدس في العهد العثماني (١٨٧٤ - ١٩١٤)، رسالة دكتوراه، جامعة

عين شمس، القاهرة، ١٩٧٠.

— «الحركة العربية في متصرفية القدس» مجلة الشرق الأوسط، عدد ١/١٩٧٤.

عرفان سعيد أبو حمد الهواري،

أعلام من أرض السلام، حيفا، ١٩٧٩.

محمد أديب العامري،

القدس العربية، عمان، ١٩٧١.

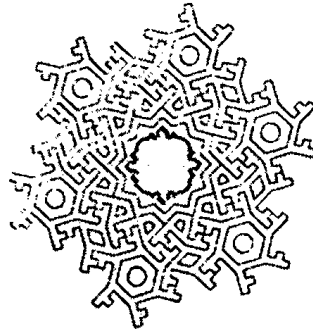
محمد رفيق التميمي ومحمد بهجت، ولاية بيروت، الجزء الأول، بيروت،
١٣٣٥/١٩١٦ - ١٧.

محمود العابدي،
قدسنا، القاهرة، ١٩٧٢.

مصطفى مراد الدباغ،
بلادنا فلسطين، المجلد ١٠/٢٢ بيروت، ١٩٧٦.

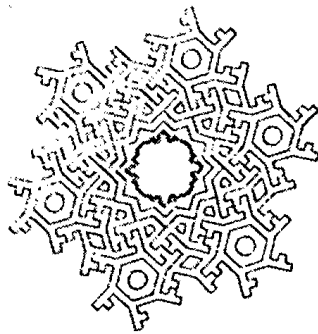
ناصر الدين الأسد،
محمد روجي الخالدي، رائد البحث التاريخي الحديث في فلسطين، القاهرة،
١٩٧٠.

يعقوب العودات،
من أعلام الفكر والأدب في فلسطين، عمان، ١٩٧٦.



- Ben-Arieh, Y, 'The Growth of Jerusalem in the Nineteenth Century', *Annals of the Association of American Geographers*, 65/2, 1975.
- Jerusalem in the 19th century. The O'd City*, Jerusalem and New York, 1984.
- Carmel, Alex, *Die Siedlungen der württembergischen Templer in Palästina 1868–1918*, Stuttgart, 1973.
- Palästina-Chronik 1853 bis 1882*, Ulm, 1978, and *Palästina-Chronik 1853 bis 1914*, Ulm, 1983.
- Cuinet, Vital, *Syrie, Liban et Palestine. Géographie Administrative, Statistique, Descriptive et Raisonnée*, Paris, 1896–1901.
- Devereux, Robert, *The First Ottoman Constitutional Period*, Baltimore, 1963.
- Gatt, G, *Beschreibung über Jerusalem und seine Umgebung*, Waldsee, 1877.
- Gerber, Haim, *Ottoman Rule in Jerusalem 1890–1914*, Berlin, 1985.
- Gilbert, Martin, *Jerusalem – Rebirth of a City*, London, 1985.
- Hajjar, Joseph, *L'Europe et les Destinées du Proche-Orient (1815–1848)*, n.p. 1970.
- Hawārī, al-, Irfān Sa'īd Abū Hamad, *A'lām min ard al-salām*, Haifa, 1979.
- Herzl, Theodor, *Gesammelte zionistische Werke*, vol. 5, Tel Aviv, 1935.
- Hofman, Yitzhak, 'The Administration of Syria and Palestine under Egyptian Rule (1831–1840)' in Moshe Ma'oz (ed.), *Studies on Palestine during the Ottoman Period*, Jerusalem, 1975.
- Hopkins, I W J, 'The Four Quarters of Jerusalem', *Palestine Exploration Quarterly*, 103, 1971.
- Kark, Ruth and Shimon Landman, 'The Establishment of Muslim Neighbourhoods in Jerusalem, outside the Old City, during the Late Ottoman Period', *Palestine Exploration Quarterly*, 112, 1980.
- Kark, Ruth, 'The Jerusalem Municipality at the End of the Ottoman Rule', *Asian Affairs*, 14, 1980.
- Karpat, Kemal H, *Ottoman Population 1830–1914*, Madison, 1985.
- Khader, Bichara, *Histoire de la Palestine*, 2 vols., Tunis and Algiers, 1976–77.
- Khalidi, Rashid Ismail, *British Policy towards Syria and Palestine 1906–1914*, London, 1980.
- 'The 1912 Election Campaign in the Cities of Bilad al-Sham', *International Journal of Middle East Studies*, 16/4, 1984.
- Khālidi, Rūhī, *Al-Muqaddima fi 'l-Mas'ala al-Sharqiyya*, Jerusalem, n.d.
- Kupferschmidt, Uri M, 'Connections of the Palestinian 'Ulamā' with Egypt and Other Parts of the Ottoman Empire' in Amnon Cohen and Gabriel Baer (eds.), *Egypt and Palestine*, Jerusalem and New York, 1984.
- Lieber, Alfred E, 'An Economic History of Jerusalem' in John M Oesterreicher and Anne Sinai (eds.), *Jerusalem*, New York, 1974.
- Luncz, A M, *Jerusalem, Jahrbuch zur Beförderung einer wissenschaftlich genauen Kenntnis des jetzigen und des alten Palästinas*, I, 1881, Vienna, 1882.
- Ma'oz, Moshe, *Ottoman Reform in Syria and Palestine 1840–1861*, Oxford, 1968.
- Mandel, Neville J, *The Arabs and Zionism before World War I*, Berkeley, 1976.
- Mannā', 'Ādil, 'Cultural Relations between Egyptian and Jerusalem 'Ulamā' in the Early Nineteenth Century, in Gabriel R Warburg and Gad G Gilbar (eds.), *Studies in Islamic Society. Contributions in Memory of Gabriel Baer*, Haifa, 1984.
- Mannā', 'Ādil, 'Yūsuf Diyā'addīn al-Khālidi', *Al-Fajr al-Adabi*, 35/36, 1983.
- Mahāfza, 'Alī, *Al-'Alaqār al-'Almāniyya – al-Filastīniyya, 1841–1945*, Beirut, 1981.
- Mujāhid, Zakī Muḥammad, *Al-'alām al-sharqiyya fi 'l-mi'a al-rābi'a 'ashra al-hijriyya*, 4 vols, Cairo, 1949–1963.
- Muḥammad Adīb al-'Āmirī, *Al-Quds al-'Arabiyya*, Amman, 1971.
- Muṣṭafā Murād al-Dabbāgh, *Biladunā Filistīn*, vol 10/2, Beirut, 1976.
- Neumann, Bernhard, *Die Heilige Stadt und deren Bewohner*, Hamburg, 1877.
- Palmer, P, 'Das jetzige Bethlehem', *Zeitschrift des Deutschen Palästina-Vereins*, XVII, 1894.
- Paulus, Christopher, 'Die Tempelcolonien in Palästina', *Zeitschrift des Deutschen Palästina-Vereins*, VI, 1883.

- Rafiq, Muhammad and Muhammad Bahjat, *Wilāyat Bairūt*, pt. 1, Beirut, 1335/1916–17.
- Rubenstein, Daniel, 'The Jerusalem Municipality under the Ottomans, British and Jordanians' in Joel L Kraemer (ed.), *Jerusalem – Problems and Prospects*, New York, 1980.
- Schick, C. 'Die Baugeschichte der Stadt Jerusalem', pt. VII, *Zeitschrift des Deutschen Palästina-Vereins*, XVII, 1894.
- Schölch, A. 'Ein palästinensischer Repräsentant der Tanzimāt-Periode: Yūsuf Diyā'addīn al-Khālidī (1842–1906)', *Der Islam*, 57, 1980.
- Palästina im Umbruch 1856–1882. Untersuchungen zur wirtschaftlichen und sozio-politischen Entwicklung*, Stuttgart, 1986.
- 'Europa und Palästina 1838–1917' in Helmut Mejcher and Alexander Schölch (eds.), *Die Palästina Frage 1917–1948*, Paderborn, 1981.
- 'European Penetration and the Economic Development of Palestine, 1856–82' in R Owen (ed.), *Studies in the Economic and Social History of Palestine in the Nineteenth and Twentieth Centuries*, London, 1982.
- 'The Demographic Development of Palestine, 1850–1882', *International Journal of Middle East Studies*, 17/4, 1985.
- Spyridon, S N, 'Annals of Palestine, 1821–1841', *Journal of the Palestine Oriental Society*, 18, 1938.
- Sālim, Laṭifa, *Al-Hukm al-Miṣrī fi 'l-Shām 1831–1841*, Cairo, 1983.
- Tibawi, A L. *A Modern History of Syria including Lebanon and Palestine*, London, 1969.
- Jerusalem. Its Place in Islam and Arab History*, Beirut, 1969.
- The Islamic Pious Foundations in Jerusalem*. London, 1978.
- Tobler, Titus, *Denkblätter aus Jerusalem*, St Gallen and Constanz, 1853.
- Vereté, Mayir, 'A Plan for the Internationalization of Jerusalem, 1840–1841', *Asian Affairs*, 12/1, 1978.
- Warren, Charles, *Underground Jerusalem*. London, 1876.
- Wolff, Philipp, *Sieben Artikel über Jerusalem aus den Jahren 1859 bis 1869*, Stuttgart, 1869.
- 'Zur neueren Geschichte Jerusalems. Von 1843–1884', *Zeitschrift des Deutschen Palästina-Vereins*, VIII, 1885.



الفصل التاسع

عارف باشا العارف،

تاريخ القدس، القاهرة، ١٩٥١

الموسوعة الفلسطينية، المجلد الثالث، مادة القدس، دمشق، ١٩٨٤.

- Aamiry, M A. *Jerusalem: Arab Origin and Heritage*, London, 1978.
- 'Abdallāh b. al-Ḥusain, King of Jordan. *My Memoirs Completed ('Al-Takmilah)*, with a foreword by His Majesty King Hussein ibn Talal of Jordan, London, 1971.
- Abu-Lughod, Ibrahim. *The Transformation of Palestine*, Evanston, Ill., 1971.
- Abu-Lughod, Janet. 'The Demographic Transformation of Palestine' in Ibrahim Abu-Lughod (ed.), *The Transformation of Palestine*, Evanston, Ill., 1971; 139-63.
- Al-'Ārif, 'Ārif Pasha, *Tārikh al-Quds*, Cairo, 1951.
- Asadi, Fawzi. 'Geographic Elements in the Arab-Israeli Conflict', *Journal of Palestine Studies*, 5, 1, autumn, 1976, 79-91.
- Ashbee, C R. *Jerusalem, 1918-1920*. Published for the Council of the Pro-Jerusalem Society, London, 1921.
- Jerusalem, 1920-1922*. Published for the Council of the Pro-Jerusalem Society, London, 1924.
- Bentwich, Norman and Helen, *Mandate Memories, 1918-1948*, New York, 1965.
- Benvenisti, Meron. *Jerusalem: The Torn City*, Minneapolis, 1976.
- The West Bank Data Project: A Survey of Israel's Policies*, Washington: American Enterprise Institute, 1984.
- The West Bank Data Base Project: 1986 Report*, Washington: American Enterprise Institute, 1986.
- Bovis, H Eugene. *The Jerusalem Question 1917-1968*, Stanford, 1971.
- Cattan, Henry. *Jerusalem*, New York, 1981.
- Cobban, Helena, *The Palestinian Liberation Organization: People, Power and Politics*, Cambridge, 1984.
- Collins, Larry and Dominique La Pierre. *O Jerusalem!*, New York, 1972.
- Dakkak, Ibrahim, 'Jerusalem's Via Dolorosa', *Journal of Palestinian Studies*, 11, 1, autumn 1981, 136-49.
- Forsythe, David P. *United Nations Peacekeeping: The Conciliation Commission for Palestine*, Baltimore, 1972.
- Frankel, Glenn, 'Golden Jerusalem: The Grand Prize', *The Washington Post*, June 2, 1987, 1 ff.
- Friedman, Thomas L, 'Teddy Kollek's Jerusalem', *The New York Times Magazine*, 4 August, 1985, 16-22 ff.
- Glubb, Sir John Bagot, *A Soldier With the Arabs*, London, 1957.
- Gubser, Peter, *Jordan: Crossroads of Middle Eastern Events*, Boulder, Colorado, 1983.
- Hirst, David, *The Gun and the Olive Branch*, London, 1977.
- 'Rush to Annexation: Israel in Jerusalem', *Journal of Palestinian Studies*, III, 4, summer 1974, 3-31.
- Hudson, Michael C, 'Jerusalem: A City Still Divided', *Mid-East*, Washington, VIII, 4, September, 1968, 20-25.
- Irani, George E. *The Papacy and the Middle East: The Role of the Holy See in the Arab-Israeli Conflict 1962-1984*, Notre Dame, Indiana, 1986.
- 'Israel and Torture', *The Sunday Times*, London, 19 June, 1977.

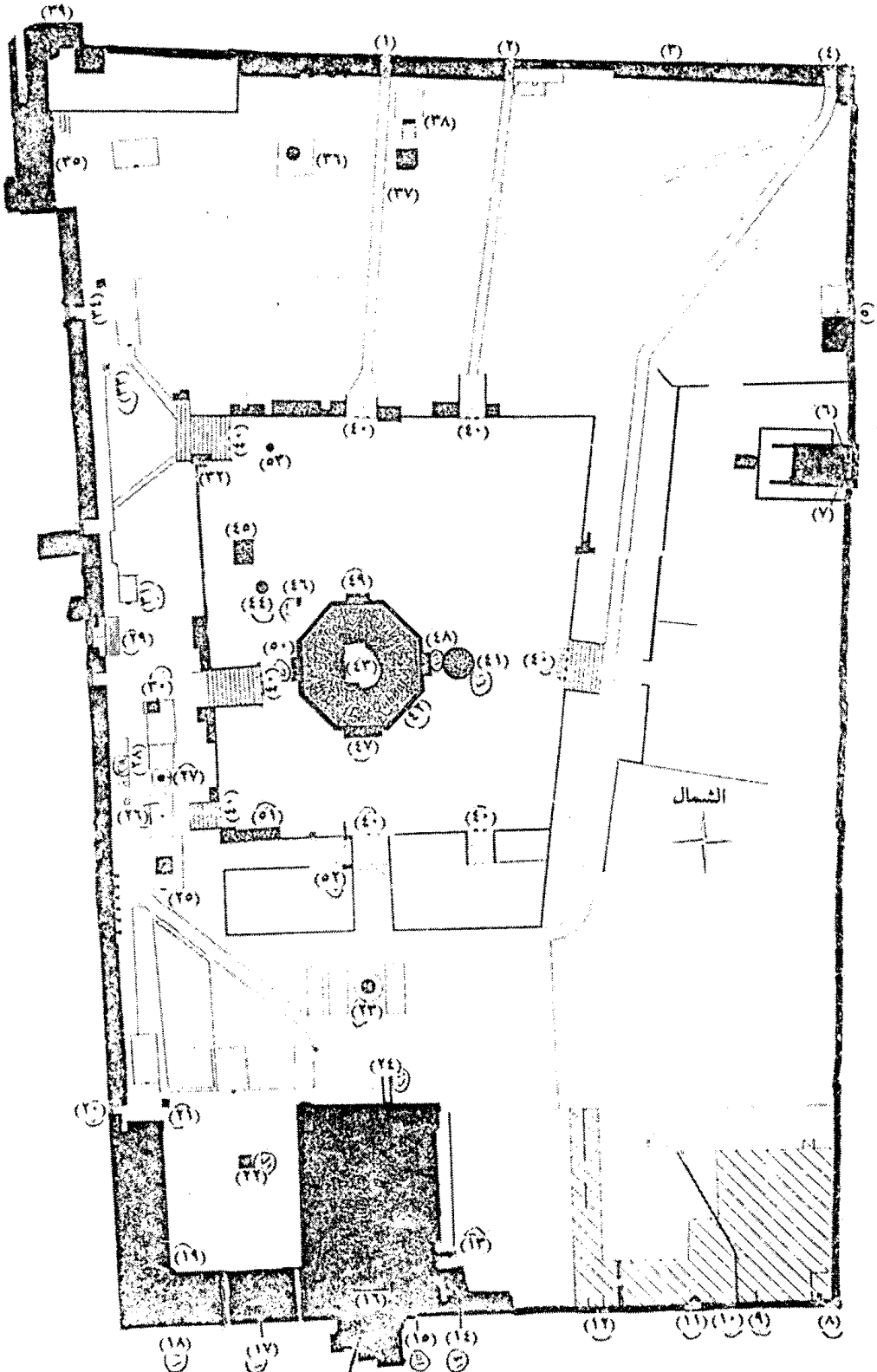
- John, Robert and Sami Hadawi, *The Palestinian Diary*, 2 vols., New York, 1970.
- Kendall, Henry, *Jerusalem, The City Plan, Preservation and Development during the British Mandate, 1918-1948*, London, HMSO, 1948.
- Kerr, Malcolm H, 'The Changing Political Status of Jerusalem' in Abu-Lughod, Ibrahim, *The Transformation of Palestine*, Evanston, Ill., 1971, 355-77.
- Khader, Bishara, 'Palestinian Demography 1900-2000: The Stake and the Challenge', paper presented to the symposium on 'The Demographic Characteristics of the Palestinian People', Tunis, 1984.
- Khālidi, Walid, *Before Their Diaspora: A Photographic History of the Palestinians, 1876-1948*, Washington, Institute for Palestinian Studies, 1984.
(ed.) *From Haven to Conquest: Readings in Zionism and the Palestine Problem until 1948*, Beirut, Institute for Palestinian Studies, 1971.
'Toward Peace in the Holy Land', *Foreign Affairs*, vol. 66, no.4, (spring 1988), 771-89.
- Kollek, Teddy, *For Jerusalem*, New York, 1978.
- Kracmer, Joel (ed.), *Jerusalem: Problems and Prospects*, New York, 1981.
- Kroyanker, David, *Jerusalem Planning and Development, 1979-1982*, Jerusalem, 1982.
- Kutcher, Arthur, *The New Jerusalem: Planning and Politics*, London, 1973.
- Lesch, Ann Moseley, *Arab Politics in Palestine 1917-1939*, Ithaca, NY, 1979.
- Louis, William Roger, *The British Empire in the Middle East, 1945-1951*, London and New York, 1984.
- Mallison, W Thomas and Sally V Mallison, *The Palestine Problem in International Law and World Order*, London, 1986.
- Mattar, Philip, 'The Mufti of Jerusalem: Muhammad Amin Al-Husayni, A Founder of Palestinian Nationalism', PhD dissertation, Columbia University, n.d.
- Palestine Partition Commission, *Report*, Cmd. 5854, October, 1938, London, HMSO, 1938, ('The Woodhead Report').
- Palestine Royal Commission, *Report*, Cmd. 5479, July, 1937, London, HMSO, 1937 ('The Peel Report').
- Palestine, A Survey of*, prepared in December 1945 and January 1946 for the Anglo-American Committee of Inquiry, 2 vols., Palestine: The Government Printer, 1946.
- Porath, Yehoshua, *The Emergence of the Palestinian-Arab National Movement*, vol. 1 (1919-1929), London, 1977.
The Palestinian Arab National Movement: From Riots to Rebellion, vol. 2 (1929-1939), London, 1977.
- 'Al-Quds' (Jerusalem), *Al-Mawsū'ah al-Filastīniyyah (The Palestinian Encyclopaedia)*, vol. 3, Damascus, 1984.
Resolutions and Decisions of the Grand Assembly and the Security Council Relating to the Question of Palestine, 1947-1975, United Nations, General Assembly, Committee on the Exercise of the Inalienable Rights of the Palestinian People, A/AC. 183/L.2 (5 March 1976).
- Samuel, The Rt. Hon. Viscount (Herbert), *Grooves of Change: A Book of Memoirs*, Indianapolis, 1946.
- Saqqaf, Abdalaziz Y, *The Middle East City: Ancient Traditions Confront a Modern World*, New York, 1987.
- Schleifer, Abdallah, *The Fall of Jerusalem*, New York, 1972.
- Sharon, Arieh, *Planning Jerusalem: The Master Plan for the Old City of Jerusalem and Its Environs*, New York, 1973.
- Shiber, Saba George, *Recent Arab City Growth*, Kuwait, 1967.
- Storrs, Ronald, *Orientalisms*, London, 1943.
- Sykes, Christopher, *Crossroads to Israel*, London, 1965.

بيت المقدس في كتب الرحلات

(عند العرب والمسلمين)

د. كامل جميل العسلي

«يصدر هذا الكتاب بمناسبة
مرور ١٣٠٠ عام على بناء قبة الصخرة
المشرفة سنة ٦٩١ - ٩٢ ميلادية، وسنة
٧٢ للهجرة النبوية الشريفة».



مخطط الحرم القدسي الشريف

دليل مخطط الحرم القدسي الشريف

- | | | |
|---------------------------|-----------------------------|----------------------------|
| (١) باب العتم | (١٨) المتحف الاسلامي | (٣٥) باب الغوايمة |
| (٢) باب حطة | (١٩) مئذنة الفخرية | (٣٦) قبة سليمان |
| (٣) مئذنة الاسباط | (٢٠) باب المغاربة | (٣٧) قبة عشاق النبي |
| (٤) باب الاسباط | (٢١) سبيل | (٣٨) سبيل السلطان سليمان |
| (٥) كرسي سليمان | (٢٢) قبة يوسف اغا | (٣٩) مئذنة الغوايمة |
| (٦) باب التوبة | (٢٣) الكاس | (٤٠) قناطر |
| (٧) باب الرحمة | (٢٤) سلم الى الأقصى القديمة | (٤١) قبة السلسلة |
| (٨) مهد عيسى | (٢٥) قبة موسى | (٤٢) قبة الصخرة المشرفة |
| (٩) الباب المفرد القديم | (٢٦) سبيل قاسم باشا | (٤٣) الصخرة |
| (١٠) اسطبلات سليمان | (٢٧) بركة النارج | (٤٤) قبة المعراج |
| (١١) محراب داود | (٢٨) باب المطهرة | (٤٥) قبة الخليلي |
| (١٢) الباب الثلاثي القديم | (٢٩) باب القطانين | (٤٦) قبة جبريل / قبة النبي |
| (١٣) محراب زكريا | (٣٠) سبيل قايتباي | (٤٧) باب القبلة |
| (١٤) مسجد سيدنا عمر | (٣١) محراب علي باشا | (٤٨) باب النبي داود |
| (١٥) الباب المزدوج القديم | (٣٢) قبة الخضر | (٤٩) باب الجنة |
| (١٦) منبر نور الدين | (٣٣) سبيل الشيخ بدير | (٥٠) الباب الغربي |
| (١٧) جامع النساء | (٣٤) سبيل علاء الدين البصير | (٥١) القبة النحوية |
| | | (٥٢) منبر برهان الدين |

بيت المقدس في كتب الرحلات
(عند العرب والمسلمين)

المحتويات

الصفحة

كلمة بين يدي الكتاب ١٣

القسم الأول دراسة عامة عن كتب الرحلات (العربية والاسلامية) الى بيت المقدس

- ١ - القدس مقصد رئيسي للرحلة عند العرب والمسلمين ١٦
 ٢ - القدس والجغرافيون الاوائل ٢٢
 ٣ - الرحالة وكتب الرحلات الى بيت المقدس - عرض عام - ٢٧
 ٤ - الرحالة وكتب الرحلات من القرن الخامس حتى القرن الرابع عشر (الحادي عشر حتى العشرين) مسلسلة حسب القرون :

القرن الخامس / الحادي عشر

- (١) ناصر خسرو ٤٦
 (٢) ابوبكر بن العربي ٥٠

القرن السادس / الثاني عشر

- (٣) علي الهروي ٥٦
 (٤) اسامة بن منقذ ٥٩

القرن السابع / الثالث عشر

- (٥) محمد بن رُشيد الفهري ٦١
 (٦) محمد العبدري ٦٢
 (٧) القاسم بن يوسف التجيبي ٦٥

القرن الثامن / الرابع عشر

- (٨) محمد بن جابر الوادي آشي ٦٦
 (٩) محمد بن عبدالله بن بطوطة ٦٧
 (١٠) محمد بن احمد بن محمد بن مرزوق ٦٩
 (١١) جمال الدين بن نياته ٧١
 (١٢) خالد بن عيسى البلوي ٧٣

القرن التاسع / الخامس عشر

- (١٣) عبد الرحمن بن خلدون ٨٠

الصفحة	القرن العاشر / السادس عشر
٨٢	(١٤) محب الدين محمد بن داود الحموي
٨٣	(١٥) احمد بن يوسف الخالدي الصفدي

القرن الحادي عشر / السابع عشر

٨٤	(١٦) محمد بن احمد المقرئ
٨٥	(١٧) محمد بن احمد بن حافظ الدين القدسي
٨٥	(١٨) عبدالله بن محمد العياشي
٨٩	(١٩) ابراهيم بن عبد الرحمن الخياري
٩٣	(٢٠) يوسف النابلي
٩٤	(٢١) اوليا جلبي

القرن الثاني عشر / الثامن عشر

١٠٠	(٢٢) عبد الغني بن اسماعيل النابلسي
١٠٨	(٢٣) مصطفى بن كمال الدين البكري
١١٥	(٢٤) مصطفى اسعد اللقيمي
١١٩	(٢٥) الياس غضبان الحلبي
١١٩	(٢٦) محمد بن عثمان المكناسي

القرن الثالث عشر / الثامن عشر - التاسع عشر

١٢١	(٢٧) ابو القاسم بن أحمد الزباني
١٢٣	(٢٨) نعمان بن عبده القساطلي
١٢٧	(٢٩) عبد الرزاق البيطار

القرن الرابع عشر / التاسع عشر والعشرون

١٢٨	(٣٠) محمد بن عبد الجواد القاياتي
١٣٠	(٣١) جمال الدين القاسمي
١٣٢	(٣٢) يوسف الحكيم
١٣٤	(٣٣) جرجي زيدان
١٣٦	(٣٤) رشيد نخلة

الصفحة

- ١٣٧ محمد كرد علي (رحلة أنور باشا) (٣٥)
١٣٩ خليل مردم بك (٣٦)
١٣٩ عبد المؤمن الحكيم (٣٧)
١٤١ جرجس فيلوتاوس عوض (٣٨)
١٤٢ محمد ثابت (٣٩)
١٤٣ عبد السلام محمد الكويبة (٤٠)

كلمة بين يحيى الكتاب

يتناول هذا الكتاب موضوعاً لم يُبحث باستيفاء وشمول من قبل ، وهو كما يظهر في عنوان الكتاب ، موضوع بيت المقدس في كتب الرحلات عند العرب والمسلمين . وقد لاقى موضوع الرحلات الى القدس والارض المقدسة اهتماماً اكبر بكثير لدى الغربيين الذين نشروا فيه عدداً كبيراً جداً من المؤلفات التي تناولت كتب الرحلات التي ألفها الرحالة الغربيون منذ القرون الأولى للتاريخ المسيحي وحتى الوقت الحاضر . ولعل من أبرز هذه الاعمال المشروع الذي قامت فيه في بريطانيا في التسعينات من القرن الماضي الجمعية المسماة (جمعية كتابات حجاج فلسطين) (Palestin Pilgrims' Text Society) بترجمة العديد من كتب الرحلات التي كتبت بلغات غير الانجليزية خلال ستة عشر قرناً الى اللغة الانجليزية ، ونشرتها في لندن في ثلاثة عشر مجلداً في العقد الأخير من القرن الماضي . وكان من شأن هذه الكتب انها أبرزت مكانة مدينة القدس كهدف للحج لا نظير له لدى المسيحيين بشكل خاص . ومع أن (جمعية كتابات حجاج فلسطين) نشرت في مجلداتها ما ورد في ثلاثة من الكتب العربية والاسلامية خاصة بالارض المقدسة (وهي كتاب «احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم» للمقدسي وكتاب «سفر نامه» للرحالة الفارسي ناصر خسرو وكتاب «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» لبهاء الدين بن شداد، يوسف بن رافع بن تميم) الا أن موضوع الرحلات العربية والاسلامية الى القدس لم يُبحث بصورة شاملة في اي كتاب حتى الآن . وهذا ما حدا بنا الى الالتفات الى هذا الموضوع والنظر فيه عن كُتب بما قدرنا عليه من توسع واستيفاء . وغني عن البيان أن كتب الرحلات العربية والاسلامية الى القدس تعكس في ثناياها جانباً من جوانب إبراز مكانة القدس عند العرب والمسلمين وتعلقهم بها وحبهم الغامر لها واجلالهم لمقدساتها الرفيعة الشأن ، كما انها تقدم لنا معلومات كثيرة متنوعة عن تاريخ المدينة وتراثها في مختلف العصور ، ولذلك فانها جديرة بالاهتمام .

ويشمل الكتاب كتب الرحلات (العربية والاسلامية) التي ألفت خلال عشرة قرون (من القرن الخامس حتى القرن الرابع عشر الهجري او القرن الحادي عشر حتى القرن العشرين الميلادي) . وتقديرنا اننا بدأنا منذ البداية ، فلا نعرف كتاب رحلة الى القدس (بالمعنى الحقيقي لكتب الرحلة) سبق في تاريخه القرن الخامس / الحادي عشر .

ويبلغ عدد الرحالة الذين تناولهم الكتاب أربعين رحالةً ، وعدد كتب الرحلات ثلاثة وأربعين . ولا نشك أن هناك رحالة آخرين وكتبا أخرى لم تتمكن من معرفتهم او معرفتها ،

خصوصاً وأن دور الكتب والمخطوطات والوثائق وبيوتاً خاصة كثيرة ما تزال تعج بمخطوطات لم تُقرأ ولم تفهرس وتعد بمئات الألوف في مختلف انحاء العالم. ويصدق هذا بشكل خاص على العديد من كتب الرحلات المغربية التي لا تعرف عن كثير منها حتى العناوين. وعلى كل حال فنحن نردد دائماً القول المأثور: «ما لا يدرك كله فلا يترك جُله» وليس لأحد في الدنيا من مطمع في ادراك الكمال.

وقد قسمنا هذا الكتاب الذي بين يدي القاريء الآن إلى قسمين: القسم الاول يتضمن الدراسة العامة التي وضعناها عن الرحلات الى بيت المقدس والقسم الثاني يتضمن النصوص المطولة التي اخترناها من سبعة وعشرين كتاباً من كتب الرحلات، إضافة إلى نص ما كتبه محمد البشاري المقدسي في «احسن التقاسيم» عن بلده القدس، وذلك أن «احسن التقاسيم»، وإن لم يكن من كتب الرحلات بالمعنى الدقيق للكلمة، قد تضمن مادة ثمينة للغاية، عن القدس، لعلها أكثر تفصيلاً وادق وصفاً وأوثق مضموناً من سائر ما كتبه الجغرافيون العرب القدماء.

وهناك نقطة أخرى وأخيرة جديرة بالاشارة اليها في كلمة التقديم هذه، وهي أن المادة التي تناولناها بالدراسة والنشر في هذا الكتاب تكاد تقتصر على مدينة القدس وبعض ضواحيها، دون غيرها من مدن فلسطين وقراها، ولذلك سبب او اسباب تتصل بقدرة الفرد الواحد على الإحاطة بهذا الموضوع الواسع، وعلى تحقيق الجُمّ الوفير من النصوص التي لم يُطبع الكثير منها بعد. وكنت اتخى لو أن القدرة اسعفتني على توسيع نطاق العمل ليشمل الخليل وغزة والرملة ونابلس وغيرها من المدن والقرى في كل انحاء فلسطين - الارض المقدسة، وكل ذرة من ترابها عزيزة غالية كثرى القدس سواء بسواء. وكل ما أرجوه هو أن يستطيع غيري النهوض بما قصرت فيه او عجزت عنه، والله من وراء القصد.

كامل جميل العسلي

عمان في ٢٠/١/١٩٩١

القسم الأول

دراسة عامة عن كتب
الرحلات العربية والإسلامية
إلى بيت المقدس

القدس مقصد رئيسي للرحلة عند العرب والمسلمين

كانت القدس مقصداً رئيسياً للرحالة العرب والمسلمين طوال عصور التاريخ التي تلت الفتح العمري للمدينة. بيد أن ما سُجل من الرحلات الى المدينة في كتب الرحلات كان قليلاً بالقياس الى الاعداد الهائلة من قِصاد القدس من مختلف البلدان والأزمان. وغني عن البيان أن السبب الرئيسي الذي حدا بالمسلمين - وغير المسلمين كذلك - الى زيارة المدينة المقدسة هو المكانة الدينية الفريدة التي اختصت بها المدينة في الأديان العالمية الثلاثة : الاسلام والمسيحية واليهودية، يُضاف الى هذا ان القدس كانت في بعض فترات التاريخ مركزاً علمياً ذا شأن كان يؤمه علماء المسلمين من مختلف انحاء العالم. اما مكانة المدينة عند المسلمين فتوجز القول فيها بأنها ترجع الى كون القدس مدينة الانبياء من قديم الزمان، والاسلام جاء مصداقاً لرسالات هؤلاء الانبياء والرسول ولكتبهم، وكان يجلبهم اجلاً لم يسبقه فيه دين آخر. ولهذا السبب الرئيس لحرمة بيت المقدس عند المسلمين جعلت المدينة قبلة المسلمين الاولى. وقد ظلت كذلك منذ بدء البعثة النبوية وفرض الصلاة في السنة العاشرة بعد الستمائة للميلاد الى السنة الثانية للهجرة (٦٢٢م) عندما أمر الرسول الكريم بأن يولي وجهه شطر المسجد الحرام بعد ستة عشر شهراً او ثمانية عشر شهراً من الهجرة الى المدينة المنورة، اي أن القدس ظلت قبلة المسلمين ثلاث عشرة سنة ونيفاً. ولكون القدس مدينة الانبياء ايضاً كان اسراء النبي ﷺ اليها واجتماعه فيها بالانبياء وصلاته فيهم، وكان معراجها منها الى السموات العُلى، فكان بذلك اول مسلم زار المدينة.

واستناداً الى هذه المرتكزات الثلاثة لمكانة بيت المقدس في الاسلام انبثق ادب اسلامي غزير يدعو الى زيارة القدس والتبرك بمقدساتها، وانبثق ادب فضائل بيت المقدس الذي وُضع فيه ما ينوف عن السبعين كتاباً كلها تحث على إتيان القدس والتبرك بما فيها من مشاهد الانبياء. وكانت الاحاديث النبوية بطبيعة الحال هي أهم اجزاء هذا الادب الداعي الى شد الرحال الى بيت المقدس.

وفيما يلي نماذج من الاحاديث النبوية التي انطوت على الترويج بسكنى بيت المقدس وبلاد الشام والرحلة اليها.

قال ﷺ :

- «عليك بالشام فانها خيرة الله من بلاده يجتبي اليها خيرته من عباده»^(١).
 - ستكون هجرة بعد هجرة فخير اهل الارض الزمهم مهاجر ابراهيم^(٢).
 - «لا تُشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي»^(٣).
- روى أبو داود في سننه بسنده إلى ميمونة مولاة النبي ﷺ . قالت يا رسول الله «أفتنا بيت المقدس»، قال : «اتوه فصلوا فيه فإن صلاة فيه كَأَلْفِ صَلَاةٍ»^(٤).
- «من خرج من بيته لا يريد الا الصلاة في بيت المقدس خرج من خطيئته كيوم ولدته امه»^(٥).
 - «من صلى بيت المقدس غُفرت ذنوبه كلها»^(٦).
 - من حجَّ او اعتمر وصلّى ببيت المقدس وجاهد وربط فقد استكمل جميع سنتي^(٧).
 - «من اهلٌ بحجةٍ او عمرةٍ من المسجد الأقصى الى المسجد الحرام غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر او وجبت له الجنة»^(٨).
 - «من مات في بيت المقدس فكأنما مات في السماء»^(٨) (عن ابي هريرة في فضل الدفن في بيت المقدس).

وينقل صاحب مثير الغرام عن الامام الشافعي قوله : «إن المسجد الأقصى يتعين الإتيان إليه في نذر الاعتكاف والصلاة حتى إنه لا يجوز الاعتكاف عنه الى ما دونه في الفضل من المساجد»^(٩). ويقول المصدر نفسه : إن الامام الشافعي حرّم نقل الميت من بلد الى بلد الا أن يكون مكة او المدينة او بيت المقدس^(١٠).

ومن الطبيعي بعد هذا كله أن تغدو بيت المقدس هدفاً رئيسياً للرحلات ومقصداً للعدد الغفير من الرحالة والمتعبدين في العصور التالية ابتداءً من الفتح العمري .
ففي السنة السادسة عشرة من الهجرة جاء عمر بن الخطاب بنفسه إلى المدينة ليتسلمها من

(١) شهاب الدين المقدسي ، «مثير الغرام الى زيارة القدس والشام» ، رسالة جامعية (دكتوراه) لاحمد الخطيمي - مخطوط - ص ٧٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٨٦ - مهاجر ابراهيم : الارض التي هاجر اليها ابراهيم ، والمقصود هنا القدس وارض فلسطين .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٠٨ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٨٩ و ٢٠١ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ١٩٣ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ١٩٤ .

(٧) المصدر نفسه ، ص ١٩٤ ب .

(٨) المصدر نفسه ، ص ٢١٤ .

(٩) المصدر نفسه ، ص ٢١١ .

(١٠) المصدر نفسه ، ص ٢٦٧ .

البطريك صفرونيوس . ومع عمر وبعده وفد الى القدس عدد كبير من صحابة الرسول، وفي طليعتهم ابو عبيدة عامر بن الجراح وسعد بن ابي وقاص وعبادة بن الصامت وشداد بن اوس ومعاذ بن جبل وعبدالله بن عمر وعبدالله بن عباس وأبو ذر الغفاري وخالد بن الوليد وابو هريرة . وبعد هؤلاء لم ينقطع سيل الوافدين من الصحابين والتابعين والعباد الى بيت المقدس . ومن الصحابة من اختار أن يستقر فيها طوال حياته وأن يدفن فيها . . وهناك تسعة من الصحابين دفنوا في ثرى بيت المقدس . ومنهم شداد بن اوس وعبادة بن الصامت . ومنذ القرن الثاني للهجرة غدت بيت المقدس مركزاً علمياً يشدُّ اليه كبار العلماء الرّجال من مختلف بلدان العالم الاسلامي . من هؤلاء العلماء مقاتل بن سليمان المفسّر، المتوفى سنة ١٥٠هـ، والإمام عبد الرحمن الأوزاعي فقيه اهل الشام المتوفى سنة ١٥٧هـ، والامام سفيان الثوري إمام اهل العراق المتوفى سنة ١٦١هـ، والامام الليث بن سعد عالم مصر وامامها المتوفى سنة ١٧٥هـ، والامام محمد بن ادريس الشافعي المتوفى سنة ٢٠٤هـ . وجميعهم ممن عاشوا في القرن الثاني للهجرة .

والى جانب الصحابين والتابعين والعلماء قدم بيت المقدس في القرنين الأولين بعد الفتح اعداد كبيرة من الزهّاد للتعبد والاعتكاف في المسجد الأقصى . وهؤلاء الزهاد قائمتهم طويلة جداً، واسماؤهم مذكورة في الانس الجليل، وفي مثير الغرام وغيره من كتب فضائل بيت المقدس .

ومنذ القرن الثاني أخذ الصوفية في الظهور وأخذوا يفدون بكثرة الى بيت المقدس، بحيث غدت المدينة منذ هذا القرن مركزاً هاماً من مراكز التصوف في العالم الاسلامي، وفي مقدمة هؤلاء أم الخير رابعة العدوية، من رواد التصوف الاوائل، المتوفاة سنة ١٣٥ او ١٨٠ للهجرة، ويشرُّ بن الحارث الحافي المتوفى سنة ٢٠٦ او ٢٧٠هـ، وذو التون المصري أبو الفيض ثوبان بن ابراهيم المتوفى سنة ٢٤٥هـ، وابراهيم بن أدهم المتوفى سنة ١٦١، وقبره بمدينة جبلة بالشام، والسري بن مغلس السقطي المتوفى سنة ٢٥١ او ٢٥٣ هـ . ويحفل «الانس الجليل» و«مثير الغرام» أيضاً بأسماء هؤلاء والعديد من الصوفية والزهّاد الاوائل الذين وفدوا الى بيت المقدس في القرن الثاني وبعده .

وتدلنا المصادر التي بين ايدينا على أن القدس كانت مركزاً علمياً يتميز بحيوية خاصة ويجتذب العلماء من مختلف البلدان في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي^(١) . وبعد انقطاع في الحركة العلمية ابان الحكم الصليبي للمدينة في القرن السادس / الثاني عشر، وركودها في القرن الذي تلاه والذي اتصف نصفه الاول على الاقل بعدم الاستقرار عادت الى الحياة العلمية في المدينة خصوبتها وحيويتها خصوصاً في القرنين الثامن والتاسع (الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين) .

وتضم كتب التراجم المختلفة مثل «وفيات الاعيان» لابن خلكان و«الدرر الكامنة» لابن

(١) انظر فيما يلي من هذا الكتاب: رحلة ابي بكر بن العربي إلى المشرق، كما صورها كتابه قانون التأويل .

حجر و«الضوء اللامع» للسخاوي و«الكواكب السائرة» للغزي و«خلاصة الأثر» للمحبي، و«سلك الدرر» للمرادي وكذلك كتب ياقوت والمقرئزي وابن تغري يردِي وغيرها أسماء مئآت من العلماء الذين ارتحلوا الى القدس فعلموا وتعلموا فيها بما جعلها مركزاً لا شبهة في اهميته للعلوم الاسلامية. وقد قمت باختيار عينة شبه عشوائية تضم ثمانين عالماً من العلماء غير المقدسين وغير الفلسطينيين الذين عاشوا في القدس وعملوا فيها خلال خمسة قرون (من اول القرن الخامس الهجري حتى آخر القرن التاسع) ثم قمت بتحليل المعلومات الواردة في العينة وخاصة فيما يتعلق باسماء المدن والبلدان التي جاء منها هؤلاء العلماء الى القدس لكي اتحقق من مدى اقبال علماء المسلمين على المدينة وقصدهم اياها بوصفها مركزاً علمياً يدرسون ويدرسون ويجتمعون للمناظرة فيه. وتبين لي في سياق اعداد هذه العينة الاحصائية أن القرنين الثامن والتاسع الهجريين (الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين) كانا احفل القرون من حيث عدد العلماء الذين اموا القدس للدراسة والتدريس. وقد شملت العينة ٩ من العلماء الواقدين في القرن الخامس و ١٤ من القرن السادس و ٩ من القرن السابع و ٢٣ من القرن الثامن و ٢٥ من القرن التاسع^(١). وتبين لنا من تحليل المعلومات الواردة في العينة أن العلماء الثمانين الذين وردت اسمائهم فيها قدموا الى القدس من الاقطار والمدن الميينة في القائمة التالية، والتي رتبته فيها الاقطار وفق الاحرف الابدجديه وحسب اسمائها الحديثه، وزيادة في الايضاح ذكرنا، كلما يقتضي الامر، الاسم القديم للبلد او القطر (اضافة إلى اسمه الحديث).

- ١ - الاردن (بلاد الشام) : الكرك، كفر الماء (عجلون).
- ٢ - افغانستان (خراسان القديمة) : بلخ، هراة.
- ٣ - الاندلس : طرطوشة، اشبيلية، الجزيرة الخضراء، مالقة، رُندة، غرناطة، وادي آش.
- ٤ - اوزبكستان (تركستان / خراسان) : شاش (طشقند اليوم)، طوس (خراسان)، بلاساغون، بخارى، خَتَن، كاشغر.
- ٥ - اوكرانيا (تركستان) : مدينة القَرَم.
- ٦ - ايران (فارس) : جرجان، شيراز، كازرون، زنجان، استراباذ (اسم جرجان القديم)، الري، خُوَيْ، اردبيل، اسد آباد، تبريز.
- ٧ - تركمانستان (خراسان) : صاغان.
- ٨ - تركيا (بلاد الروم) : قونية، بابرته، الرها، حصن كيفا، بورصة، اسعرد (سعرت اليوم).
- ٩ - تونس : قابس.

(١) للتفصيل انظر مقالنا : «الطابع الاسلامي الدولي للعلماء الذين اموا القدس وعاشوا فيها» في مجلة القدس الشريف (عمان)، العدد الثامن (تشرين الثاني، ١٩٨٥)، ص ٤٠ - ٥٠.

- ١٠ - الجزائر : تلمسان .
- ١١ - الحبشة : زيلع .
- ١٢ - السعودية (الحجاز) : مكة .
- ١٣ - سوريا (بلاد الشام) : حلب، حماة، قلعة جعبر، صرخد، دمشق .
- ١٤ - صقلية (ايطاليا) : علقمة .
- ١٥ - العراق : البصرة، الكوفة، الموصل، باجربق .
- ١٦ - كردستان : ثلاثة علماء من مدن غير معروفة الاسم .
- ١٧ - لبنان (بلاد الشام) : صور .
- ١٨ - ليبيا (طرابلس ، إفريقية) : سبرت (صبراتة) .
- ١٩ - مصر : القاهرة، قرقشندة، قمن (قرية)، الصعيد .
- ٢٠ - المغرب : بلاد قبيلة حاحة، بلاد قبيلة بني جابر، مراكش .
- ٢١ - الهند : (مدينة غير معروفة الاسم) .
- ٢٢ - اليمن : (مدينة غير معروفة الاسم) .

ويظهر لنا من ذلك ان هؤلاء العلماء الثمانين قدموا الى القدس من اثنين وعشرين قطرا (بالمفهوم الحديث للأقطار)، ومن عدد من المدن يتراوح بين ستين وسبعين مدينة في هذه الاقطار (ولم يكن ممكنا تحديد اسماء المدن التي جاء منها العلماء في بعض الحالات).

وهذا العدد كاف تماما لبيان المكانة السامية، التي كانت تحتلها القدس في وعي العالم الاسلامي، ولبيان منزلتها الرفيعة، بوصفها مقصدا لعلماء المسلمين من كل حذب وضُوب، ومن كل فج عميق.

وإذا كان عدد العلماء الواردين الى القدس قد قلَّ في العصر العثماني (القرن العاشر الى الرابع عشر الهجري / السادس عشر الى العشرين الميلادي) فان سيل الزوار الذين وفدوا الى القدس في هذه القرون قد تواصل . وحسبنا هنا أن نورد بعض الشهادات في هذا الشأن : الاولى من السائح التركي اوليا جليبي الذي زار القدس في القرن الحادي عشر / السابع عشر والذي اوردنا ما كتبه عن زيارته لها بنصه في القسم الثاني من هذا الكتاب . يقول جليبي : «وهناك على امتداد الجوانب الجنوبية والغربية والشمالية لساحة الحرم اروقة ذات قباب . . . ويعيش في هذه الاروقة دراويش من الهند والسند وبلخ وفارس وأكراد وتتار ومغول واتراك» .

والشهادة الثانية تتعلق بزوار مقام النبي موسى المجاور للقدس والذي كان يجري الاحتفال بموسمه في كل من القدس ومقام النبي موسى : تشير وثيقة شرعية من اوائل القرن الثاني عشر / الثامن عشر الى أن الزوار كانوا يقدون لزيارة المقام (والقدس طبعاً) «من سائر بلاد الاسلام»^(١).

وتفيدنا المصادر الغربية أن الزوار المسلمين كانوا يأتون الى القدس والى النبي موسى في القرن الثالث عشر (التاسع عشر) من جميع انحاء العالم الاسلامي : من الهند وحدود الصين وجميع انحاء آسيا الوسطى وبلاد النوبة والمغرب وساحل افريقيا الشرقي والحجاز وتركيا^(٢). وكثيرون من هؤلاء كانوا يبرون بالقدس اثناء توجههم لأداء فريضة الحج من مكة او لدى عودتهم منها.

(١) سجل ٢٠٢ من سجلات المحكمة الشرعية بالقدس لسنة ١١١٥/١٧٠٤م، ص ٦٦.

(٢) انظر مثلاً ما كتبه أولرش زيتسن Zeetzen الذي زار فلسطين سنة ١٨٠٦، بهذا الشأن.

(Klaus Polkehn, -Palästina Reisen in 18 und 19 Jahrhundert,- p. 95).

القدس والجغرافيون الاوائل

بدأ المسلمون يؤلفون في علم تقويم البلدان في القرن الثالث للهجرة ووصلت تأليفهم مرحلة النضج في القرن الرابع . . وامتاز معظم هؤلاء الجغرافيين الاوائل بأنهم كانوا رحالة جمعوا كثيراً مما شاهدوه في أسفارهم في الكتب التي ألفوها وكانت حصيلة معابنتهم للبلدان التي ألفوا فيها . وزار معظم هؤلاء مدينة القدس وكتبوا نبذاً طويلة او قصيرة عنها . ولم يقتصر الأمر في الرحلة على الجغرافيين فإن المؤرخين والمحدثين والكتاب عموماً كانوا يجوبون الأفاق ويجمعون مادة علمهم وكثير من هؤلاء كتبوا عن القدس ايضا . . بيد أن كتب هؤلاء جميعاً لم تكن كتب رحلة بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، التي نفهم منها المذكرات اليومية أو غير اليومية التي تتضمن الملاحظات التي يكتبها الرحالة عما يشاهده بنفسه في البلدان التي زارها ، وكذلك وصف الاحداث التي مرت به والخبرات التي اكتسبها في تلك البلدان . ولهذا السبب فنحن لا نستطيع أن نتحدث عن مؤلفاتهم في كتابنا هذا بوصفها كتب رحلة ، وإن كان مؤلفوها جابوا البلدان سعياً وراء جمع المعلومات التي وردت فيها - وانما كانت هذه المؤلفات كتباً في علم الجغرافيا بالدرجة الاولى ، وكان منها ايضا كتباً في علم التاريخ وغيره . وكثيراً من هذه المؤلفات التي وضعت في القرنين الثالث والرابع كانت تدعى كتب «المسالك والممالك» ، وتتضمن في المقام الاول وصفاً للطرق واطوالها والمحطات التي يقف فيها المسافرون والاماكن التي كانت تجبى فيها الرسوم .

- ومن كتب الجغرافيين والمؤرخين القدامى الذين كتبوا فصولاً طويلة او قصيرة عن القدس :
- «كتاب المسالك والممالك» لعبيد الله بن خرداذبه (٢٠٥ - ٢٨٠هـ) . وهو من اقدم من زار فلسطين من الجغرافيين الاوائل .
 - «وكتاب البلدان» لأحمد بن اسحق اليعقوبي الجغرافي المؤرخ المتوفى سنة ٢٩٢ هـ ، وكان جل اهتمامه منصرفاً الى الجانب الجغرافي والاحصائي .
 - كتاب «فتوح البلدان» لأحمد بن يحيى البلاذري المتوفى سنة ٢٧٩ هـ ، وهو كتاب تاريخ تضمن معلومات جغرافية .
 - «كتاب البلدان» لأبي عبدالله احمد الهمداني المعروف بابن الفقيه . وقد ألفه سنة ٢٩٠ هـ /
- ١٩٠٣ م .

- «العقد الفريد» لأحمد بن عبد ربه القرطبي المتوفى سنة ٣٢٨.
- «مروج الذهب ومعادن الجوهر» و «التنبيه والأشرف» لعلي بن الحسين المسعودي المتوفى سنة ٣٤٦.
- كتاب «الأقاليم» و «كتاب مسالك الممالك» لأبي اسحق الاصطخري المتوفى سنة ٣٤٦.
- «كتاب المسالك والممالك» لمحمد بن حوقل المتوفى سنة ٣٦٧.
- «أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم» لمحمد بن احمد المقدسي المتوفى حوالي سنة ٣٩٠هـ / ١٠٠٠م.
- كتاب «المسالك والممالك العزيزي» للحسن بن احمد (أو محمد) المهلب المتوفى سنة ٣٨٠هـ (وقد الف كتابه للخليفة الفاطمي العزيز).

وفيما بعد القرنين الثالث والرابع كتب عن القدس من الجغرافيين كل من ابي عبدالله محمد الادريسي المتوفى سنة ٥٦٠هـ / ١١٦٠م في كتابه الكبير «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»، وكذلك في «وصف الشام وفلسطين»، وياقوت الحموي (٥٧٤ - ٦٢٦) في «معجم البلدان» والملك المؤيد اسماعيل بن علي بن شاذي صاحب حماة (٦٧٢ - ٧٣٢) في «تقويم البلدان»، وابن فضل الله العمري المتوفى سنة ٧٤٩ في «مسالك الابصار في ممالك الأمصار»، وزكريا بن محمد القزويني المتوفى سنة ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م في «آثار البلاد واخبار العباد»، وخليل الظاهري غرس الدين (٨١٣ - ٨٧٣) في «زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك». وقد تحدث عن القدس وحماتها ومدارسها واسواقها وخاناتها وكنائسها في صفحات كثيرة كما تحدث عن اماكنها المقدسة عند المسلمين والمسيحيين.

وليس من شأننا أن نتناول في هذا الكتاب وللأسف الذي ذكرناه آنفاً ما اورده الجغرافيون الاولون من القرنين الثالث والرابع في كتبهم عن بيت المقدس، لا من حيث البحث فيها ولا من حيث ايراد نصوص من كتاباتهم. وقد كفانا ما اورده من نصوص في هذا الشأن ا. س. مرمجي الدومنيكي في كتابه «بلدانية فلسطين العربية». ومصطفى الدباغ في «بلادنا فلسطين»، الجزء العاشر، القسم الثاني، وغيرهما من الكتاب والمؤرخين. ونستثني من ذلك ابا عبدالله محمد بن احمد البشاري المقدسي صاحب كتاب «أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم». ولعل السبب الرئيسي الذي جعلنا نتناول ما كتبه المقدسي، رغم أن «أحسن التقاسيم» ليس من كتب الرحلات بمعناها الدقيق وانما هو من كتب الجغرافية، هو أن وصف المقدسي للمدينة هو اقدم وصف مفصل لها في الكتب الجغرافية العربية، وعليه المعول الاول في معرفة ما كانت عليه بيت المقدس في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي وفي ظل حكم الفاطميين الذين حكموا القدس منذ سنة ٣٥٩هـ / ٩٦٩م. والمقدسي كما هو معلوم يكتب بدقة علمية لا يجاريه فيها غيره من الجغرافيين. وقد اعتبره شبر نجر - Sprenger - ربما في شيء من المبالغة - «أكبر جغرافي عرفته

البشرية قاطبة^(١)»، ويعتبره كرامرز اكثر الجغرافيين العرب أصالة ويُعتبر مصنفه واحداً من أئمن المصنفات الجغرافية في الادب العربي^(٢)، ويصفه رشارد هارتمان بانه ربما كان اهم الجغرافيين العرب على الاطلاق^(٣). ويضاف الى هذا وذاك أن المقدسي كان ابن القدس، وعلى ذلك فقد كان يعرفها معرفة مباشرةً ودقيقة، ولم يكن في حاجة لأن ينقل عما كتبه الآخرون عن المدينة، بل بالعكس فان الكتاب الذين جاءوا بعده، اعتمدوا وصفه واخذوا عنه.

ولد المقدسي في بيت المقدس سنة ٣٣٥هـ / ٩٤٦ - ٤٧م، وكان جده ابو بكر بناءً اشتهر ببناؤه ميناء عكا في عهد احمد بن طولون. وقد زار جميع انحاء العالم الاسلامي باستثناء الاندلس والسند وربما سجستان ايضاً. وقد وضع كتاب «احسن التقاسيم» سنة ٣٧٥هـ / ٩٨٥ - ٢٨٦، أي وهو في الاربعين من عمره، في مدينة شيراز^(٤). وقصر وصفه على العالم الاسلامي وجعله قسمين بدأ اولهما بجزيرة العرب فالعراق فأقور فالشام فمصر فالمغرب فبادية الشام. وبدأ القسم الثاني بالمشرق: خراسان والديلم وارمينيا واذربيجان وخوزستان والجنال وفارس وكرمان والسند.

ويأتي وصف القدس في «احسن التقاسيم» في القسم الاول^(٥). وقد اوردناه كاملاً في النصوص التي اثبتناها في كتابنا هذا. ومنه يتضح أن المقدسي كان يعتمد الى القصد في العبارة، ويقول ما يريد قوله مباشرةً بلا حشو ولا إطالة. يتحدث المقدسي عن حجم المدينة وعن جوها المعتدل، وبنائها الحجري المتقن ونظافة اسواقها وعظم مشاهدتها وضخامة مسجدها، وعن فواكهها الكثيرة، واطبائها الكثر، وزوارها العديدين. ويتضح اعجاباه بمدينته وحبها لها وتفضيله اياها على ما سواها في حديثه للقاضي ابي القائم ابن قاضي الحرمين وللقاضي المختار ابي يحيى بن بهرام في البصرة. وهو لا ينسى أن يؤكد فضائلها الدينية من حيث انها عرصة القيامة ومنها المحشر واليه المنشر. ومع ذلك فان المقدسي لا يُغفل ذكر سيئاتها فيذكر من ذلك قلة العلماء وكثرة النصارى فيها. وقد شكوا المقدسي من أن الفقيه في القدس مهجور والاديب غير مشهور كما شكوا من خلو المدينة من مجالس الفقه والتدريس. مع انه ذكر في موضع آخر أن فيها خلقاً من الكرامة «لهم خواتم ومجالس»^(٦). وقال ايضاً ان لأصحاب ابي حنيفة بالمسجد الأقصى «مجلس ذكر يقرأون في دفتر، وكذلك الكرامة في خوانقهم . . . ويجلس الفقهاء بين الصلاتين وبين

(١) اغناطيوس كراتشكوفسكي، «تاريخ الادب الجغرافي العربي»، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، الطبعة الثانية، دار الغرب الاسلامي، بيروت ١٩٨٧، ص ٢٢٧ عن:

(Sprenger, Reiserouten, P. XVII.)

(٢) المصدر نفسه والصفحة ذاتها عن:

(Kramers, Al-Mukkadasi, p 765).

(٣) (Richard Hartmann, Die Strasse von, Damaskus nach kairo, ZDMG, Bd. 64 (1910), p. 675.

(٤) كراتشكوفسكي ص ٢٢٨ - ٢٢٩.

(٥) ويقع في حوالي سبع صفحات من ص ١٦٥ - ١٧٢ من طبعة برييل بليدن الصادرة سنة ١٩٠٦ والتي حررها م. دي خويه.

(٦) «احسن التقاسيم»، ص ١٧٩.

العشائين وللقراء مجالس في الجوامع^(١). ويبدو أن الذي كان موجوداً في القدس كثرةً من ذوي الثقافة الدينية المحافظة والتقليدية من قراء وقصاص. ولكن المدينة كانت خلواً من المناظرات الفقهية والثقافية الأصيلة، وهو الشيء الذي افتقده المقدسي فيها.

وربما كان المقدسي يعكس أيضاً في شكواه من فقر الحياة العلمية ضيق صدره بقيود حكم الفاطميين الذين كانوا سادة البلاد في زمنه.

أما حديثه عن كثرة النصارى فلم يكن يشير فيه إلى الكثرة العددية، بل إلى قوة نفوذهم. ويتضح هذا من قوله: «قد غلب عليها النصارى واليهود». وهو يقصد بذلك توليهم مناصب رفيعة في السلطة. ومن المعروف أن الفاطميين اعتمدوا أحياناً على النصارى واليهود في دواوين الدولة وبيت المال. ومع ذلك فينبغي أن نضيف أن العلاقات الاجتماعية بين المسلمين والنصارى كانت حسنة. ويقول المقدسي أن المسلمين كانوا يشاركون النصارى أعيادهم: «ومن أعياد النصارى التي يتعارفها المسلمون ويقدرّون بها الفصول الفصح والعنصرة والميلاد وعيد بربارة» (ص ١٨٢).

ويتحدث المقدسي عن سور القدس فيقول إن له ثمانية أبواب يسميها واحداً واحداً. وكلها تختلف عن أسماء الأبواب الحالية، باستثناء باب واحد هو باب العمود. وبلغت النظر قول المقدسي: «والماء بها واسع» مع أن القدس كانت تشكو في تاريخها على الدوام من قلة الماء. ولعلمهم حلوا مشكلة الماء في وقته بكثرة الصهاريج والآبار والحباب والبرك، وكذلك بالاعتناء بترميم القناة التي كانت تجلب الماء للقدس من «البركتين» الكائنتين في وادي العروب - برك سليمان فيما بعد - .

وبعد ذلك يأتي وصف المقدسي للمسجد الأقصى. ونلاحظ أن وصف المقدسي للمسجد كان هو الوصف الوحيد للمسجد الذي بناه الخليفة العباسي المهدي سنة ١٦٣هـ، بعد انهيار المسجد إثر زلزال عنيف ربما في سنة ١٥٤. وبناء المهدي الذي وصفه المقدسي يختلف اختلافاً كبيراً عن بناء الوليد بن عبد الملك فهو أقل طولاً وأكثر عرضاً. ولعل أهم ما أورده المقدسي في وصف المسجد الأقصى (الذي يسميه «المغطى» أي المسقوف، تمييزاً له عن الساحة غير المسقوفة) ما ذكره من أن عدد الأبواب كان ستة وعشرين باباً، خمسة عشر باباً منها من جهة الشمال يتوسطها باب النحاس الأعظم، أي أنه كان هناك سبعة أبواب إلى يمين هذا الباب وسبعة إلى يساره، أما الأحد عشر باباً الأخرى فكانت من جهة الشرق. . وكان في المسجد من الجهة الجنوبية أروقة طويلة من الحجارة لا وجود لها اليوم.

وعندما يتحدث المقدسي عن صحن الصخرة (الدكة) يلاحظ أن فيها ثلاث قباب فقط، بالإضافة إلى القبة الرئيسية - قبة الصخرة - وهي قبة السلسلة وقبة المعراج وقبة النبي. ومن هذا

(١) المصدر نفسه، ص ١٨٢.

يتضح أن القباب الكثيرة الأخرى القائمة الآن على سطح الصخرة اي صحنها انما هي اضافات تمت بعد القرن الرابع / العاشر. ويعمد المقدسي بعد ذلك الى وصف مبنى قبة الصخرة وصفاً دقيقاً. ونلاحظ أن أسماء ابواب قبة الصخرة الاربعة قد تغيرت عما كانت عليه زمن المقدسي، باستثناء باب القبلة او الباب القبلي.

وفيدنا المقدسي أن أم الخليفة العباسي المقتدر بالله هي التي امرت بصنع مداخل للأبواب من خشب التنوب^(١)، وانه كان هنالك داخل المبنى ثلاث دوائر من الاروقة لها مركز واحد. وداخلها رواق آخر مستدير يحيط بالصخرة نفسها. وما نسميه اليوم رقية القبة يسميه المقدسي «مِنطقة». ونجربنا أن ارتفاع القبة مع السقود - وهو القضيب المعدني الذي يعلو القبة - كان مائة ذراع، وأن القبة ذاتها كانت مؤلفة من ثلاثة صفوف او اقسام، الصف الاول من الألواح المزوّقة، والثاني من اعمدة الحديد والثالث من الخشب المصفتح.

ثم يتحدث المقدسي عن المواضع التي يُدخل منها الى المسجد فيقول: يُدخل اليه من ثلاثة عشر موضعاً بعشرين باباً. وهو يقصد بالعشرين عدد المداخل التي كانت في هذه الابواب اذ أن بعض الابواب كان لها مدخلان او اكثر فأبواب باب الاسباط مثلاً - وهو باب حطة اليوم - كانت ثلاثة. وكانت ابواب الهاشميين - باب العِتم اليوم - ثلاثة ايضاً.^(٢)

ويبين المقدسي أخيراً أن الزاوية الجنوبية الشرقية من ساحة الحرم، الى الشرق من المغطى - المسجد الأقصى - كانت خالية من البناء. ويعزو ذلك لسببين الاول أن عمر بن الخطاب امر أن يكون البناء غربي المسجد (اي غربي ساحة الحرم الشريف) والثاني انهم «لومدوا المغطى الى الزاوية (الجنوبية الغربية) لم تقع الصخرة حذاء المحراب».

ويختتم المقدسي وصفه للمسجد بشيء من الاحصاءات كقوله: إن طول المسجد ألف ذراع بذراع الملك وعرضه سبعمائة، وفيه اربعة آلاف خشبة وسبعمائة عمود رخام. . وحجم الصخرة ثلاثة وثلاثون ذراعاً في سبعة وعشرين. ثم يُنهي حديثه عن القدس بإشارات سريعة الى محلة سلوان، والمقبرة التي فيها دفن اوس بن شداد وعبادة بن الصامت، وطور زيتا وموضع الساهرة . . .

(١) شجر من فصيلة الصنوبريات.

(٢) استفدنا في تحديد الابواب من كتاب لى سترانج: «فلسطين في العهد الاسلامي» - الترجمة العربية ص ١٠٨، وكذلك من ترجمة لى سترانج الانجليزية لكتاب المقدسي في: . Palestine Pilgrims' Text Society, vol 3, p. 46, 47.

الرحالة وكتب الرحلات الى بيت المقدس

- عرض عام -

شهد القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي نشوء فرع خاص من الادب الجغرافي عند العرب والمسلمين هو فن الرحلة. ولعل اول نموذج مكتمل لهذا النوع من الادب هو كتاب الرحالة الفارسي ناصر خسرو، المعروف بـ «سفرنامه» والذي تضمن وصف رحلة خسرو في بلاد فارس والشرق العربي في العقد الرابع من القرن الخامس، وهو باللغة الفارسية. وتختلف كتب الرحلة عن كتب المسالك والممالك التي سبق ذكرها في أن اصحابها دونوها بشكل مذكرات يومية، مع تفاوت في التدوين من يوم لآخر. وكان الحج الى بيت الله الحرام وزيارة الاماكن المقدسة في مختلف البلدان الاسلامية العنصر الاساسي في الرحلات، لكن تحصيل العلم والاجتماع بالعلماء كان ايضاً من الاهداف الرئيسية للرحلات. ويضاف الى ذلك الرغبة الشخصية للرحالة في التعرف على البلدان والشعوب المختلفة. وأذ كانت كتب الرحلات تصور انطباعات وتجارب شخصية للرحالة فقد كانت بطبيعة الحال اكثر طلاوة وجاذبية من كتب الجغرافية والمسالك والممالك التي لا تخلو من الجفاف في كثير من الاحيان، فضلاً عن أن كتب الرحالة كانت تقتصر على مشاهداتهم الشخصية، ولا تتناول وصف البلدان او المناطق التي لم يزورها. وغني عن البيان أن وصف التجارب والمشاهدات والانطباعات الشخصية كان يطلق العنان للكاتب للسمو بأسلوبه الى آفاق لا تتاح لمؤلفي الكتب العلمية البحتة. ولذلك فاننا نجد في كثير من كتب الرحلة نماذج عالية لفصاحة اللغة والأداء الفني، ونضارة الاسلوب.

ونود هنا قبل أن نمضي قدماً في الحديث عن الرحلات الى بيت المقدس وتطورها عبر القرون أن ندرج فيما يلي الجدول الذي اعددناه عن الرحالة العرب والمسلمين الذين زاروا بيت المقدس وألفوا كتباً عن رحلاتهم خلال عشرة قرون (من القرن الخامس حتى القرن الرابع عشر الهجري / القرن الحادي عشر حتى القرن العشرين الميلادي). وهذا الجدول مقسم حسب القرون. ويظهر فيه اسم الرحالة ومدينته وقطره وعنوان رحلته، وسنة رحلته الى القدس، وسنة وفاته.

الرحالة إلى القدس عبر القرون

سنة الرحلة	سنة زيارته إلى القدس	عنوان الرحلة	المدية والقطر	اسم الرحالة	القرن
١٠٠٠ / ٣٩٠	١٠٤٧/٤٣٨	سفرنامه	بلخ / خراسان	(١) ناصر خسرو	الخامس / الحادي عشر
١١٤٨ / ٥٤٣	١٠٩٢/٤٨٥	ترتيب الرحلة أو الرحلة	اشبيلية / الأندلس	(٢) أبو بكر ابن العربي	السادس / الثاني عشر
١١٦٢ / ٦١١	٧٤ - ١١٧٣ / ٥٦٩	الإشارات إلى معرفة الزيارات	هراة / خراسان	(٣) علي الهروي	١
١١٨٨ / ٥٨٤		كتاب الاختيار	(ولد في الموصل) قلعة شيزر / الشام	(٤) أسامة بن منقذ	٢
١٣٢١ / ٧٢١	١٢٨٥ / ٦٨٤	ملء العمية في ما جمع بطول النجفة	سبتة / الأندلس	(٥) محمد بن رشيد التهوري	١
؟	١٢٨٩ / ٦٨٨	رحلة العبدري أو الرحلة المغربية	بلاد حاحة / المغرب الأقصى	(٦) محمد بن محمد العبدري	السابع / الثالث عشر
١٣٢٩ / ٧٣٠	٩٧ - ١٢٩٦ / ٦٩٦	استفاد الرحلة والأغراب	سبتة / الأندلس	(٧) القاسم بن يوسف النجفي	١

الثامن / الرابع عشر

١٣٣٨ / ٧٤٩ ١٣٢٢ / ٧٢٢

وادي آش / الأندلس

(٨) محمد بن جابر

الروادي آشي

١٣٧٧ / ٧٧٩ ١٣٢٥ / ٧٢٥

طنجة / المغرب

(٩) محمد بن بطرمة

١٣٤٨ / ٧٤٩ و

الأقصى

خفة النظار
في غرائب الأعمار
وعجائب الأسفار

١٣٧٩ / ٧٨١ حوالي ١٣٢٩ / ٧٣٠

تلمسان / المغرب

(١٠) محمد بن أحمد بن

مرزوق

١٣٦٦ / ٧٦٨ ٣٥ - ١٣٣٤ / ٧٣٥

القاهرة / مصر

(١١) محمد بن محمد بن

نبأة (جمال الدين)

حظيرة الأسن
ال
حضرة القدس

(أصله من ميفارقين
بديار بكري)

١٣٧٨ / ٧٨٠ قبل ١٣٣٧ / ٧٣٧

قنطرة / الأندلس

(١٢) خالد بن عيسى

البلوي

التاسع / الخامس عشر

١٤٠٦ / ٨٠٨ ١٤٠٠ - ١٣٩٩ / ٨٠٢

تونس / تونس

(١٣) عبد الرحمن بن

خلدون

التعريف بابن خلدون
ورحلته غربا وشرقاً

(أصله من الشيلية)

العاشر / السادس عشر

١٢٠٨ / ١٠١٦ ١٥٧١ / ٩٧٨

حماة / الشام

(١٤) عجب الدين محمد

بن دارود الحموي

حادي الأقطان
التجدي

١٦٣٥ / ١٠٣٤ ؟

صفا / فلسطين

(١٥) أحمد الخالدي الصفدي

الحادي عشر / السابع عشر

١٦٤٥/١٠٥٥	١٦٠٤/١٠١٣	اسفار الاسفار وابكار الايكار	القدس / فلسطين	محمد ابن احمد بن حافظ الدين المقدسي
١٦٣٢/١٠٤١	١٦٢٠/١٠٢٩ و ١٦٢٨/١٠٣٧	فتح الطبيب	تلمسان المغرب الأقصى	(١٧) محمد بن احمد المقري

الحادي عشر / السابع عشر

١٦٧٩/١٠٩٠	١٦٦٣/١٠٧٤	رحلة العياشي او ماء المراند	فاس / المغرب	(١٨) عبدالله العياشي
١٦٧١/١٠٨٢	١٦٧٠/١٠٨١	نخعة الادب وسلوة القراء	المدينة / الحجاز (اصه من مصر)	(١٩) ابراهيم الحباري
١٦٧٩/١٠٩٠	١٦٧٢/١٠٨٣	سياحته سني	استانبول / بلاد الروم (تركيا - الدولة العثمانية)	(٢٠) اوليا جلبي
١٧١٢/١١٢٤	١٦٧٨/١٠٨٩		الرها / ديار بكر (الدولة العثمانية)	(٢١) يوسف التلي

الثاني عشر / السابع عشر

والثامن عشر

١٧٣١/١١٤٣	١٦٩٠/١١٠١ و ١٦٩٣/١١٠٥	المظرة الاسية في الرحلة القدسية والحقيقة والحجاز	دمشق / الشام	(٢٢) عبد النبي التابلي
-----------	-----------------------------	--	--------------	------------------------

الثاني عشر / السابع عشر
والثالث عشر

١٧٤٩/١١٦٢	١٧١٠/١١٢٢	- الحجرة المحصنة في الرحلة الفدسية	دمشق / الشام	(٢٣) مصطفى البركي الصدويقي	
	١٧١٤/١١٢٦	- الحجرة الثانية الإنسية في الرحلة الدانية القدسية			
	١٦-١٧١٥/١١٢٨	- الحلة الذهبية في الرحلة الطلبة			
١٧٥٩/١١٧	١٧٣١/١١٤٣	موانع الانس برحلي لراي القدس	دمياط / مصر	(٢٤) مصطفى اسعد اللقيني المياطي	١
١٧٦٥/١١٧٨	١٧٥٥/١١٦٨		حلب / الشام	(٢٥) الياس غفسيان الحلبي	٢
١٧٠٨/١٢١٣	١٧٨٥/١٢٠٠	احراز المعقل والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والبيرك بقر الحبيب	مكناس / المغرب الأقصى	(٢٦) محمد بن عثمان الكناسي	١
١٨٣٣/١٢٤٩	١٧٣٩/١٢٠٨	الترجمة الكبرى الرحلة النعمانية	فاس / المغرب الأقصى	(٢٧) ابو القاسم الزباني	الثالث عشر / الثامن عشر
	/ ٥١٢٩١		دمشق / الشام	(٢٨) نعمان النساطلي	والسابع عشر
١٩٢٠/١٣٣٨	٧٥-١٨٧٤		دمشق / الشام	(٢٩) عبد الرزاق اليطار	
١٩١٢-١٣٣٥		اواخر القرن التاسع عشر			

الربع عشر / التاسع عشر
والعشرون

١٩٠٢/١٣٢٠	١٨٨٥/١٣٠٢	نسخة البسام	القبايات (صعيد مصر) مصر	(٣٠) محمد بن عبد الجواد القبايات
١٩١٤/١٣٢٢	١٩٠٣/١٣٢١	سورية والمعهد العثماني	دمشق / الشام	(٣١) جمال الدين القاسمي
١٩١٤/١٣٢٢	١٩١٠/١٣٢٨	فلسطين، تاريخها وآثارها	اللاذقية / الشام	(٣٢) يوسف الحكيم
	١٩١٣/١٣٣١		القاهرة / مصر	(٣٣) جرجي زيدان
١٩٣٩/١٣٥٨	١٩٠٣-١٣٣٥ / ١٩١٦	كتاب النفى الرحلة الأثورية	(اصله من بيروت) الباروك / لبنان	(٣٤) رشيد نخلة
١٩٥٣	١٩٢٣	دمشق والقديس في العشرينات	دمشق الشام	(٣٥) محمد كرد علي
١٩٥٩/١٣٧٩	١٩٢٣	دمشق والقديس في العشرينات	دمشق / الشام	(٣٦) خليل مردم بك
١٩٢٥/١٣٤٤	١٩٢٣/١٣٤١	رحلة مصري الى فلسطين ولبنان وسورية	القاهرة / مصر	(٣٧) عبد المؤمن الحكيم
؟	حول ١٩٣١	مشاهدان في القديس	القاهرة / مصر	(٣٨) جرجس فيلوتاوس عوض
١٩٥٨/١٣٧٧	اللاثليات من القرن العشرين	جولة في ربوع الشرق الاقدم	القاهرة / مصر	(٣٩) محمد ثابت
	١٩٦٦	رايت بغسي طريق مدينة الرسول	طهران / المغرب	(٤٠) عبد السلام محمد الكويبة

يضم الجدول، كما ذكرنا من قبل، ٤٠ رحالة من تسعة أقطار هي فلسطين (رحالتان)، وخراسان (١)، والعراق (١)، والاندلس (٥)، والشام (١٢)، وبلاد المغرب (٩)، ومصر (٧)، والحجاز (١)، وتركيا (رحالتان). ولو وزعنا الرحالة حسب القرون لاستخرجنا الجدول التالي:

عدد الرحالة	القرن
٢	القرن الخامس / الحادي عشر
٣	القرن السادس / الثاني عشر
٣	القرن السابع / الثالث عشر
٥	القرن الثامن / الرابع عشر
١	القرن التاسع / الخامس عشر
٢	القرن العاشر / السادس عشر
٦	القرن الحادي عشر / السابع عشر
٥	القرن الثاني عشر / الثامن عشر
٢	القرن الثالث عشر / الثامن عشر والتاسع عشر
١١	القرن الرابع عشر / التاسع عشر والعشرون
٤٠	المجموع

أما عدد كتب الرحلات التي وضعها هؤلاء فيبلغ ٤٣ رحلة لأن لرحالتيْن منهم أكثر من رحلة واحدة: فلعبد الغني النابلسي رحلتان، ولمصطفى البكري الصديقي ٣ رحلات. [وقد نشرنا في القسم الثاني من الكتاب نصوصاً مطولة - غالباً - من سبع وعشرين رحلة].

ويتضح لنا من الجدول أن العدد الأكبر من كتابي الرحلات جاء من كل من بلاد الشام (بما فيها فلسطين) ومن المغرب والاندلس (مجتمعين) - ١٤ رحلة من كل منهما - وجاء من مصر (٧)، ومن تركيا (٢) والحجاز (١) والعراق (١) وبلاد فارس (١).

وأما أحفل القرون بالرحالة الذين دونوا رحلاتهم فهو القرن الرابع عشر (١١ رحلة) يليه القرن الحادي عشر (٦) والقرنان الثامن والثاني عشر (٥ رحلة من كل منهما).

ويلفت النظر كثرة عدد الرحالة، الذين سجلوا وقائع أسفارهم، من المغرب والاندلس. ومن المعروف أن الرحالة المغاربة والاندلسيين كانوا يزورون القدس ضمن زيارتهم إلى الحجاز لأداء فريضة الحج. لكن أداء الفريضة الدينية لم يكن السبب الوحيد للرحلة، فقد كان المغاربة والاندلسيون يحنون إلى زيارة البلاد التي يرجع أصول الكثيرين منهم إليها، وكان طلب العلم أيضاً من الأسباب الهامة لرحلاتهم إلى المشرق. ويورد المقرئ في الجزء الثاني من نفع الطيب سير ٣٠٤ من الاندلسيين الذين ارتحلوا إلى المشرق. وهو يذكر من زار القدس من هؤلاء: أبا بكر بن العربي (ص ٢٥ - ٤٣)، وأبا عبدالله القرشي الهاشمي الاندلسي (ص ٥٤ - ٥٧)، وأبا بكر

محمد بن الوليد الطرطوشي (ص ٨٥ - ٩٠) وعلي بن احمد القادسي الكناني (ص ١٢٤) وابا بكر محمد بن احمد البكري الشريشي المالكي، شيخ الحرم في القدس، ٦٠١ - ٦٨٥ هـ (ص ١٣١)، (١٣٢)، وابا عبدالله محمد بن ابراهيم، الشهير بابن الغصن الاشيلي الجزيري الذي اقرأ القرآن في القدس وتوفي فيها سنة ٧٢٣ / ١٣٢٣ (ص ٢٠٧)، وابا البقاء خالد بن عيسى البلوي الاندلسي (٥٣٢ - ٥٣٤)، وابا عبدالله محمد بن علي بن محمد بن الازرق، قاضي غرناطة، الذي تولى قضاء القضاة بالقدس وتوفي فيها سنة ١٤٩٠ / ٨٩٥ ولعل اسبق هؤلاء الرحالة العلماء - من ناحية زمنية - هو ابو علي الحسن بن خلف بن يحيى بن ابراهيم الأموي المتوفى نحو سنة ٥٠٠ / ١١٠٦ - ١١٠٧. ويقول المقرئ (ص ٥٠٧ - ٥٠٨) إن لأبي علي المذكور رحلة حج بها الى القدس وغيره، وانه كان في القدس سنة ١٠٧٢ / ٤٦٥ - ١٠٧٣ حيث سمع من عالمها ابي الفتح نصر بن ابراهيم النابلسي المقدسي.

ويورد عبد السلام بن سودة في كتابه: «دليل مؤرخ المغرب الأقصى» عناوين ١٨٦ رحلة دونها الرحالة المغاربة اكثر من نصفها رحلات حجازية. وهناك في مكنتات المغرب والاندلس (الاسكوريال) عشرات الرحلات التي ما تزال مخطوطة ومن بينها رحلات هامة من النواحي العلمية والادبية والجغرافية كرحلة ابن رشيد الفهري، ورحلة التجيبي السبتي، ورحلة ابن عثمان المكناسي، (وسياتي ذكر هذه الرحلات الثلاث)، ورحلة ابن عبد السلام الناصري، ورحلة ابي الطيب الشرقي، ورحلة ابي العباس الفاسي وغيرهم^(١).

واتسمت رحلات المغاربة والاندلسيين منذ بداياتها باهتمام الرحالة بطلب العلم والبحث عن الكتب والأشياخ ومتابعة الدرس والتحصيل. وكان رائدهم في هذا المضمار ابا بكر ابن العربي في القرن الخامس (كما سياتي بعد). وتبعه في ذلك معظم الرحالة المغاربة والاندلسيين، كالعبدري وابن بطوطة وابن خلدون وابن رشيد الفهري وغيرهم ممن سياتي ذكرهم. وفي هذا النمط من الرحلة يحتل الصدارة عند صاحبها التعريف بالعلماء والترجمة للشيوخ، والحديث عن المخطوطات، مما يدل على التقدير الرفيع للعلم، وقد تتحول الرحلة في بعض الاحيان الى ما يشبه مُعجم السير. وهو ما يسمى عند الاندلسيين بالبرنامج، وعند المغاربة بالفهرس (وعند المشاركة بالثبث)، وفيه يعمد الرحالة إلى إثبات سنده العلمي، ويذكر الكتب التي اخذها عن شيوخه والطرق التي اقتبسها منهم.

ويلاحظ أن الرحلات التي قام بها المغاربة والاندلسيون الى المشرق (والقدس من جلته) قد قَلَّتْ بل كادت تنعدم في النصف الثاني من القرن الثامن وفي القرنين التاسع والعاشر. وذلك امر طبيعي بالنظر للكوارث التي كانت تتهدد الاندلس (والمغرب) في تلك الفترة، وخاصة في القرن التاسع الذي خسر العرب في نهايته بلاد الاندلس بكاملها سنة ٨٩٧ - ٨٩٨ / ١٤٩٢. وفي ذلك

(١) محمد الفاسي في مقدمة تحقيقه لرحلة العبدري، الرباط، ١٩٦٨، ص (ب).

القرن دعا العلماء الى الجهاد ضد الاسبان وآثروه على الحج . «وفي كتاب [الاستقصاء] للناصري ذكر لفتاوى العلماء، ومنهم فتوى للإمام ابن رشد لتقديم الجهاد على الحج»^(١).

وإذا كانت الرحلات التي يضمها هذا الكتاب تنبسط على عشرة قرون متوالية فمن الطبيعي أن تتفاوت فيها الاساليب اللغوية والمستوى الثقافي والصياغة الفنية، وطرق المعالجة والوصف والتحليل. ومن الممكن أن تقسم هذه الفترة الزمنية الطويلة الى مجموعات تشمل المجموعة الاولى منها اربعة قرون هي القرن الخامس والسادس والسابع والثامن، (النصف الاول منه)، ويليها فترة ضعف شديد بل ندرة في الرحلات امتدت حوالي قرنين ونصف (النصف الثاني من القرن الثامن والقرنان التاسع والعاشر). اما المجموعة الثانية فتشمل القرنين الحادي عشر والثاني عشر، وهما قرنان كثرت فيهما كتب الرحلات مجدداً. واما المجموعة الثالثة فهي الرحلات الحديثة في عصر النهضة في اواخر القرن الثالث عشر ثم القرن الرابع عشر / القرن التاسع عشر والقرن العشرين).

ولو اننا قارنا بين المجموعتين الاولى والثانية لوجدنا أن رحلات المجموعة الاولى كانت أُمير بوجه الاجمال سواء من حيث المادة او الاسلوب. كانت ادق وصفاً واغزر مادة واجمل اسلوباً واكثر احتفالاً بالعلم. وقد اختتمت هذه الفترة في القرن قبل الأخير من العصر المملوكي في مصر والشام (القرن الثامن) اما المجموعة الثانية فتقع اساساً في الفترة العثمانية حتى اواسط القرن الثالث عشر / التاسع عشر، وفيها بدأت تظهر سمات التدهور في فن الرحلات، كما في فنون العلم الأخرى المختلفة. وقد بذل علماء هذه الفترة جهوداً كبيرة، ولكن هذه الجهود لم تكن في مجملها تتعدى تكرار الماضي. ويلاحظ التدهور في اساليب الصياغة اللغوية كما في المادة العلمية. ففي اللغة كثرت الاسجاع بصورة مزعجة، وازدادت المحسنات اللغوية والزخارف على حساب المعاني. أما المادة فتكاد تصطبغ اجمالاً بالصبغة الصوفية. اذ كان اكثر الرحالة من المتصوفين. ولقد ساد التصوف وأقصى العلم الى حد كبير عن الميدان. وفتح الباب أمام التصديق والإذعان والتسليم.

وبطبيعة الحال كان للظروف السياسية والامنية السائدة في شرقي البحر المتوسط أثرٌ بين في تشجيع الرحلة الى القدس او منعها في بعض الاحيان. فبعد انتعاش الرحلة في النصف الثاني من القرن الخامس / الحادي عشر حينما امتلأت المدينة المقدسة بمئات الوافدين من المشرق والمغرب في فترة الحكم السلجوقي للقدس جاءت فترة الاحتلال الصليبي التي استمرت في القدس ٨٨ سنة قل فيها زوار المدينة من المسلمين الى حد كبير، وإن لم تكن الزيارة متعذرة تماماً، كما نعرفه من زيارات أسامه بن المنقذ وعلي الهروي الى المدينة في فترة الاحتلال هذه، وربما كانا من قبيل الاستثناءات. فاننا نعرف أن الرحالة الأندلسي الشهير ابن جبير الذي زار بلاد الشام سنة ٥٨٠ /

(١) الحسن السائح في مقدمته لتحقيق «تاج المشرق»، ص ٥٥.

١١٨٤م إبان الاحتلال الصليبي، استطاع أن يزور عكا ولكنه لم يزر القدس. وكان للأحوال الصعبة في القدس في النصف الأول من القرن السابع / الثالث عشر، وهي فترة التهديد بعودة الاحتلال الصليبي، ثم عودة هذا الاحتلال بالفعل لإحدى عشرة سنة (من ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م - ٦٣٧ / ١٢٣٩ ثم ١٤١ / ١٢٤٣ - ٦٤٢ / ١٢٤٤)، كما كان للخراب وسوء الأوضاع الاقتصادية في المدينة أثر في توقف الرحلة الى المدينة في هذا الوقت. وبعد أن استتب الأمر للمماليك في النصف الثاني من القرن السابع / الثالث عشر عادت الرحلة كما كانت، فازداد عدد زوار المدينة تباعاً، وخصوصاً من المغرب والأندلس اللذين وفد منهما في هذه الفترة ثلاثة من مشاهير اصحاب الرحلات وهم ابن رُشيد والعبدي والتجيبى. وفتح المجال امام الزوار والرحالة أيضاً في النصف الأول من القرن الثامن / الرابع عشر، فزار القدس ايضا فيه اربعة من مشاهير الاندلسيين والمغاربة هم ابن بطوطة وابن مرزوق والوادي آشي والبلوي.

اما النصف الثاني من هذا القرن وكذلك القرنان التاليان (التاسع والعاشر / الخامس عشر والسادس عشر) فقد قلَّ فيها عدد الرحالة المغاربة الى المشرق والحجاز والقدس بسبب ما ذكرناه من الخطر الداهم الذي كان يتهدد بلاد الاندلس والمغرب في هذه الفترة، واثار الجهاد على الحج. وكاد كتاب الرحلات الى القدس يقتصر على الشاميين. وقد شهد القرن الحادي عشر / السابع عشر زيادة في عدد الرحالة والحجاج والزوار الذين وفدوا الى بيت المقدس في ظل ظروف دولية مواتية، على الرغم من أن اوضاع الأمن الداخلي في فلسطين لم تكن جيدة بسبب تهديد البدو لطرق المواصلات من خارج المدن في هذا القرن وكذلك في القرن التالي (الثاني عشر / الثامن عشر، وهما قرنان ضعفت فيها سيطرة الدولة المركزية وسلطتها، ونشط فيها قطاع الطرق في القدس وما حولها).

وواضح أن الرحلات ازدادت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر / الثالث عشر بعد أن استطاعت الدولة العثمانية اخضاع مشايخ القرى والعشائر الذين كانوا يسيطون سلطانهم دون اكرات بالدولة في جبال القدس والخليل ونابلس. وكان لتحسُّن طرق المواصلات البرية بالقطار والعربات بين يافا والقدس وفي منطقة المشرق عموماً اثر في ازدياد الرحلات، كما سيأتي ذكره، ولذلك فاننا نجد ما لا يقل عن احدى عشرة رحلة كتبها رحالة من مصر والشام والمغرب بين سنتي ١٨٧٤ و ١٩٦٦.

ومما هو جدير بالإشارة اليه أننا نصادف في الفترة العثمانية وفي القرن الثاني عشر / الثامن عشر بالتحديد، اول رحلة كتبها رحالة عربي مسيحي هو الياس غضبان حلبي ووصف فيها زيارة قام بها من حلب الى الأماكن المقدسة في القدس. وبعد ذلك بقرن قام رحالة عربي مسيحي آخر هو نعمان القساطلي بزيارة القدس ايضا. ومما نلاحظه في هذه الفترة ايضا أن دار الخلافة - استانبول - بوصفها عاصمة الدولة اصبحت قبلة الرحالة من القدس ودمشق وبلاد الشام عموماً. ومن اجزاء الدولة العثمانية الأخرى. وقد دوّن الكثيرون من الرحالة رحلاتهم الى استانبول،

ومن فعل ذلك على سبيل المثال ابراهيم الخياري ومحمد كبريت المدني من المدينة، ومصطفى البكري الصديقي وبدر الدين الغزي من دمشق ومحمد العطار الدمشقي ايضا الذي قام برحلته الى استانبول من مدينة القدس. وكان كثير من الوجهاء والعلماء يقصدون عاصمة الخلافة للحصول على الوظائف أو لقضاء الحاجات او اكتساب الحظوة عند القائمين بالأمر.

ما هي المزارات والآثار التي تردد عليها الزوار والرحالة في القدس؟

كان في مقدمتها بالطبع المسجد الأقصى المبارك - الحرم القدسي الشريف بمشاهده المختلفة: قبة الصخرة والمسجد الأقصى اولا ثم المشاهد العديدة التي تضمها ساحة الحرم: القباب القائمة على صحن الصخرة: قبة السلسلة وقبة المعراج وقبة النبي وقبة جبرائيل وقبة الارواح وقبة يوسف والقبة النحوية، وقبة الخضر ومنبر برهان الدين، وفي ساحة الحرم المحيطة بصحن الصخرة: قبة سليمان وقبة عشاق النبي وقبة موسى وقبة يوسف اغا، وكذلك في هذه الساحة، في الجزء الجنوبي الشرقي منها، مهد عيسى ومحراب داود وما يُدعى باسطيلات سليمان وعمود الصراط، وفي الشرق باب التوبة وباب الرحمة المتجاوران، ثم المسجد الأقصى نفسه والى جواره جامع النساء وجامع المغاربة. وتقدم لنا كتب الرحلات، او بعضها على الاقل، معلومات ثمينة عن هذه المشاهد، وخصوصاً قبة الصخرة والمسجد الأقصى وصفتهما في العصور المختلفة، وما طرأ عليهما من تغير عبر القرون. وفي خارج الحرم الشريف وصف لنا الرحالة العديد من المزارات والآثار الأخرى التي أموها في المدينة المقدسة وفي ضواحيها: اسوار القدس وابوابها وتكايها وزواياها ومشاهدها المختلفة مثل زاوية الشيخ محمد القرمي وتكية خاصكي سلطان ومزار النبي داود في حي النبي داود، ومحراب داود بباب الخليل والقلعة والمدارس القديمة كالمدرسة السلطانية الاشرفية والمدرسة التنكرية، والمدرسة الغادرية (او القادرية) وبركة بني اسرائيل، وحائط البراق والعديد من قبور الاولياء والصالحين وترهبهم داخل المدينة القديمة. وكان في مقدمة المشاهد المسيحية كنيسة القيامة وطريق الآلام بمشاهده ومراحله المختلفة، وكان الرحالة المسيحيون يزورون ايضا عليّة صهيون في جبل صهيون، مكان العشاء الأخير، وغيرها من المشاهد. وفي خارج القدس الى الشرق كانت هناك عين سلوان ومقبرة باب الرحمة، وقبر السيدة مريم في اسفل وادي سلوان (قدرون)، والقبور القديمة العجيبة الشكل في هذا الوادي، وقبر اليعازر في قرية العيزرية، ومصعد عيسى على جبل الطور ومقام سليمان الفارسي ومقام رابعة العدوية والزاوية الاسعدية وفيها قبر محمد بن عمر العلمي. وفي خارج القدس الى قبة الشمال مقبرة باب الساهرة ومزار الشيخ جراح. والى جهة الجنوب ضريح احمد الثوري في قرية ابوثور. والى الشمال الغربي من القدس مقبرة ماملا ومقام الصحابي عكاشة بن محصن وقبر الشيخ بدر (وهو شهاب الدين بادار القونوي). وكان الرحالة يزورون كذلك مقام النبي موسى شرقي القدس، وقبر النبي صمويل (اشمويل) الى شمالها، وغير ذلك من المشاهد.

ولا بدّ من التنويه بأن الحجاج والزوار والرحالة كانوا يزورون ايضاً كنيسة الولادة (المهد) في بيت لحم، والقبور التي تنسب الى الانبياء في القرى الواقعة بين القدس والخليل. وكانت زيارة قبر ابراهيم الخليل، واولاده يعقوب واسحق ويوسف وزوجاتهم، في الحرم الابراهيمي الشريف بمدينة الخليل واحدة من اهم الزيارات التي كان الرحالة والزوار والحجاج يعيرونها اهمية خاصة. وكل من يزور القدس كان يزور مسجد الخليل إما اثناء اقامته في القدس، او هو في طريقه الى القدس او عند قفوله منها. وكان بودنا أن نفصل في ما ورد عن زيارة الخليل في هذا الكتاب لولا ضيق المقام. والحق أن الخليل وزياراتها تستحق دراسة خاصة بل دراسات وابحاثاً عديدة لأهميتها الكبيرة عند المسلمين. وهي مدينة جليلة لم تنل من عناية الباحثين ما هي به جديرة بكل تأكيد.

وإذا كانت كتب الرحلات قد قدمت معلومات هامة عن مزارات القدس ومشاهدها، وخصوصاً في الحرم القدسي الشريف، فانها لم تكن تخلو في الوقت نفسه من ترديد كثير من الاوهام والاساطير المتعلقة بهذه الاماكن (وإن كان بعض الرحالة، كما سنرى، احجموا عن تصديق كثير مما كان يروى لهم في هذا الشأن) ومن ذلك مثلاً القول بأن الصخرة معلقة في الهواء، وانها ظلت كذلك منذ أن حاولت اللحاق بالنبي ﷺ عندما عرج الى السماء. . . والقول بأن للصخرة لساناً بارزاً سلّم على النبي. . . والحديث عن السلسلة التي كانت بمحكمة داود (قبة السلسلة) وكانت تتدلى من السماء فاذا حاول المتخاصم المٌبطل أن يمسكها ارتفعت الى السماء، أما المتخاصم المحق فكان يستطيع أن يمسكها بيده. . . ومن ذلك ايضاً حكاية البلاطة السوداء القرية من باب الجنة من ابواب الصخرة والتي كانت فيها مسامير من الفضة يتناقص عددها عاماً بعد عام، فاذا اختفت المسامير كلها قامت الساعة. ومن ذلك الحديث عن عمود الصراط في سور الحرم الشرقي الذي يبدأ منه الصراط الذي ينصب يوم القيامة بين سور الحرم وجبل الطور فمن اجتازه بسلام ذهب الى الجنة، اما الأشرار فيهبون الى النار في وادي جهنم. ومن ذلك الحديث عن العامودين الكائنين في المسجد الأقصى والقرييين جداً واحدهما من الآخر بحيث لا يستطيع المرور من بينهما الا الرجل الصالح، اما الرجل الشرير فيعصرانه عصراً إن هو حاول المرور.

ولا شك أن هذه الاساطير وغيرها أصولاً قديمة ترجع الى عصور عريقة في القدم ربما من زمن الكنعانيين، واضيفت اليها حكايات شعبية (فولكلور) من زمن بني اسرائيل وما بعده من العصور المسيحية والاسلامية.

ومما يلفت النظر أن كثيراً من الرحالة والمؤرخين المسلمين قد نسبوا الى النبيين داود وسليمان آثاراً لم تكن لهما بالقطع. ومن ذلك ما سُمي بحراب داود، وهو جزء من قلعة القدس بباب الخليل. ومن المحقق أن «مدينة داود» لم تصل في امتدادها الى هذا المكان النائي على الاطلاق وانما كانت تقتصر على جبل اوفل او جبل الظهور المطل على قرية سلوان الى الجنوب من الحرم الشريف. ويعتقد علماء الآثار أن هذا البرج بني بعد داود بما يقارب الف عام وانه احد الابراج التي بناها هيرودس في السنوات الأخيرة من القرن الاول قبل الميلاد. وكذلك القول في قبر داود.

فان التوراة تذكر أن داود دفن في مدينة داود^(١). وهناك اماكن اخرى ذكر أن داود دفن فيها كبيت لحم، ووادي قدرون، ولم يكن من بينها جبل النبي داود الحالي (او جبل صهيون) الذي ساد اعتقاد خاطيء بأن داود مدفون فيه. ومن ذلك تسمية قبة السلسلة في الحرم الشريف بمحكمة داود. وكذلك تسمية طريق باب السلسلة الذي يصل بين الحرم الشريف والقلعة بطريق داود، وغير ذلك. اما سليمان فقد نسب اليه كرسي سليمان او عرشه في شرقي ساحة الحرم، وكذلك نسب اليه بناء سور الحرم الشرقي الذي ساد الاعتقاد بانه من البناء السليمانى القديم وأن الجن هي التي بنته لسليمان بتسخير من الله تعالى، مع أن أسوار القدس القديمة قد هدمت من اسسها زمن الرومان. ومع أن سور سليمان وداود (وهو سور القدس الثاني، وكان السور الأول هو سور اليبوسيين) لم يكن قد بقي له اثر عندما بنى نحميا النبي السور الثالث في القرن الخامس قبل الميلاد. وكذلك القول في الاصطبلات المنسوبة الى سليمان وقيل إنه كان يضع خيوله فيها (وتقع تحت الجزء الجنوبي الغربي من ساحة الحرم). واقدام تاريخ يمكن تقديمه لهذه الاصطبلات هو القرن الاول قبل الميلاد زمن الملك هيرودوس أي بعد سليمان بألف عام، كما يقول علماء الآثار^(٢). وقد ردد الرحالة المسلمون هذه الأقوال وسواها اعتماداً على الروايات المتوارثة لا عن دراسة وتحقيق فلم يكن بينهم واحد من الأثريين كما أن علم الآثار الحديث لم يكن قد نشأ بعد. وقد حمل اكثر هؤلاء الرحالة هذه الروايات التي سمعوها على محمل الايمان وكرروها. ولا بد من التعليق هنا بكلمة قصيرة على القول المكرر بأن المسجد الأقصى اساسه من عمل داود وسليمان. واذا كانت الروايات الدينية القديمة تقول إن سليمان بنى الهيكل في هذه المنطقة فان علم الآثار الحديث لا يستطيع أن يحقق البقعة الدقيقة التي اقيم عليها الهيكل في هذه المنطقة. وهناك روايات متضاربة في هذا الشأن، خصوصاً لأنه لم يبق لهيكل سليمان اي أثر على الاطلاق. وليس من غرض هذا الكتاب الإفاضة في هذه المسألة او دراستها. ومع ذلك وعلى فرض أنه أمكن إثبات أن المسجد الأقصى أو قبة الصخرة أقيما في موقع الهيكل فليس من شأن هذا أن يدعم بشكل من الاشكال ادعاءات المتعصبين اليهود ضد المسجد الأقصى، أو يبرر اعتداءاتهم وخططهم الرعناء، بموجب اي شريعة من الشرائع.

وهناك بعد ذلك نقطة هامة ينبغي التأكيد عليها ونحن نحاول تفسير الروايات الاسلامية في كتب الرحلات وفي الفولكلور الشعبي القديم، حول نسبة الكثير من الآثار، وخصوصاً الآثار الباذخة، الى داود وسليمان في القدس، وفي غيرها بل وفي اسياغ التبجيل على هذه الآثار بهذه النسبة رغم أن العلم الحديث لا يستطيع القبول بذلك. وهذا التفسير يستند الى المكانة السامية التي يحتلها النبيان في الدين الاسلامي. ففي حين أن الدين اليهودي يعتبر داود وسليمان ملكين فان الاسلام رفعهما الى مقام النبوة الأجل بما لا يقاس من مقام الملوك. إن داود وسليمان، وكذلك

(١) «الكتاب المقدس»، سفر الملوك الاول، الاصحاح الثاني، طبعة دار الكتاب المقدس في العالم العربي، ص ٥٣٢.

(٢) انظر مثلا: Kay Prag, Jerusalem, London, 1989, p. 142.

ابراهيم ويعقوب وموسى واسحق ويوسف، هم في الاسلام نماذج اسلامية رفيعة المقام - انهم انبياء. وقد ورد ذكر داود في القرآن ست عشرة مرة^(١). وفي هذه الآيات الكريمة أن الله جعل داود خليفة في الارض وسخر له الجبال والطيْر يُسبِحُ معه إذا سَبَّحَ وألأن له الحديد وعلمه منطلق الطير واكرمه بالحكمة وفصل الخطاب ومنحه القوة في العبادة وشدة الاجتهاد فيها. وأما سليمان فقد ورد ذكره في القرآن الكريم سبع عشرة مرة^(٢). وفي هذه الآيات أن الله أتى سليمان الحكمة والعلم وسخر له العاصفة تجري بامرهِ وعلمه منطلق الطير وسخر له جنداً من الجن والانس والطيْر.

ولا غرابة بعد هذه المكانة التي احتلها النبيان داود وسليمان في القرآن الكريم أن مجدهما المسلمون التمجيد كله. وكان من الطبيعي بناءً على هذا انهم نسبوا اليهما كثيراً من المباني القديمة الباذخة التي لم تسعفهم القدرة ولا حالة العلم على التحقق من هوية بناتها وزمانهم، فقالوا انها من البناء السليمانى القديم، او ما شابه ذلك من الاقوال. ورددوا بافتخار أيضاً أقوالاً لا سند لها في علم التاريخ من مثل قولهم بأن سليمان ملك الارض كلها! وبالطبع ففي كثير من الاحوال لم تكن نسبة الآثار الى سليمان وداود من اختراع المسلمين، بل كانت ترديداً لروايات اخذوها عن اهل الكتاب، وفيها الشيء الكثير من الاسرائيليات التي لا تستند الى اساس علمي.

كرر الرحالة هذه الروايات كما كرروا ما سمعوه عن الآثار العجيبة في وادي سلوان او وادي قدرون المجاور للقدس من جهة الشرق. وقد قدَّروا ان هذه قبور. وهي كذلك بالفعل. وكرروا ما سمعوه من انها قبور الانبياء زكريا ويحيى وكذلك قبر «كوفية» زوجة فرعون، وما شابه ذلك. وكذلك هنا فان حالة المعرفة التاريخية والأثرية لم تسعفهم لمعرفة حقيقة هذه القبور. ولا بأس أن نتتهز الفرصة لنثبت هنا بعض المعلومات التي توصل اليها علماء الآثار فيما يتصل بهذه النصب والقبور الكائنة في وادي قدرون - سلوان^(٣).

هناك اربعة نصب تقع على يسار الطريق القادم من باب الاسباط. وقد أطلق عليها اسماء اشخاص من العهد القديم والعهد الجديد. لكن هذه النصب كلها ترجع الى العصر الهليني / القرن الثاني ق.م او الى زمن هيرود / القرن الاول. وهي ليست مبنية ولكنها مقطوعة في الصخر، ويظهر فيها المزج بين الفن اليوناني والفن الروماني.

تبدأ هذه السلسلة من القبور من الشمال بالقبور المسمى قبر أبشالوم (ابن داود) الذي كان

(١) البقرة آية ٢٥٦، النساء ١٦٣، المائدة ٧٨، الانعام ٨٤، الاسراء ٥٥، الانبياء ٧٨، ٧٩، النمل ١٥ و١٦، سبأ ١٠ ر ١٣، صاد ١٧ و٢٢ و٢٤ و٢٦ و٣٠.

(٢) البقرة، الآية ٥٧ و١٠٢ (وورد في الآية ١٠٢ اسم سليمان مرتين)، النساء ١٦٣، الانعام ٨٤، الانبياء ٧٨ و٧٩ و٨١، النمل ١٥ و١٦ و١٧ و١٨ و٣٠ و٣٦ و٤٤، وسبأ ١٢، وصاد ٣٠ و٣٤، والأعراف ١٦٠، وطه ٨٠.

(٣) انظر خلاصة لذلك في:

- Baedekers, Jerusalem, Stuttgart 1987, p. 105.
- Baedekers, Israel, Stuttgart 1988, p. 163.
- Kay Prag, Blue Guide, Jerusalem, London, N.Y. 1989, p. 247 ff.

يُرجم فيما مضى بالأحجار، تذكراً لثورة أبشالوم على أبيه داود، لكن نسبة القبر الى أبشالوم ليست صحيحة. فان غرفة القبر المربعة التي يعلوها قبة بشكل القبعة (ولذلك يسميها اهل القدس طنطور فرعون) ترجع الى القرن الاول قبل الميلاد. ويرتفع هذا القبر ٢٠ متراً. وهناك على مقربة من هذا النصب الى جهة اليسار بقايا قبر يقال انه قبر يهو شافاط، ملك يهودا الذي حكم القدس في القرن التاسع ق. م.

وعلى مسافة قصيرة الى الجنوب يرى المرء واجهة ذات أبواب وعليها عامودان من الطراز الدوري. ويقول المسيحيون إن هذه مقبرة يعقوب (من حواربي المسيح) الذي اختفى بعد القبض على المسيح، على أن هناك نقشاً على المبنى باللغة العبرية يفيد أن هذا هو قبر عائلة من حاخامات اليهود تدعى بني هزير أو خزير من القرن الاول ق. م.

ويلى هذا القبر الى الجنوب قبر يدعى قبر زكريا. وهو على هيئة مكعب حجري فوقه هرم. ويرجع القبر أيضاً الى القرن الاول للميلاد. . . بينما الروايات المتوارثة ترجعه الى القرن السادس ق. م. - وهو القرن الذي ذكر ان النبي زكريا عاش فيه.

الطرق التي سلكها الرحالة الى القدس

الطرق التي سلكها الرحالة الى القدس كثيرة. وقد فصلنا قدر الإمكان لدى حديثنا فيما يلي عن كل واحد من هؤلاء الرحالة في الحديث عن الطريق التي سلكها والمحطات او المنازل التي مر بها في طريقه.

ويمكن للدارس أن يتتبع ذلك بالتفصيل، فيجد مادة مفيدة للبحث في الطرق المؤدية الى القدس في الفترات المختلفة يضيفها الى ما ورد عن الطرق في كتب المسالك والممالك وكتب الجغرافيا الأخرى. اما هنا فنسكتفي بعرض ملاحظات عامة عن الطرق التي سلكها الرحالة الذين ورد ذكرهم في كتابنا هذا.

كانت نقطتا الانطلاق الرئيسيتان الى القدس هما دمشق والقاهرة. ولكن بعض الرحالة قدموا من اتجاهات أخرى، من بيروت مثلاً على الطريق المحاذي للساحل، ومن يافا «وهي ميناء القدس» بعد أن يكونوا قد جاؤوها بحراً، ومن أيلة او البتراء بالنسبة الى القادمين من الحجاز. وهذه الطرق الثلاث الأخيرة كانت اقل استعمالاً من تلك التي تأتي من دمشق والقاهرة إلى القدس.

لنتبع اولاً طرق القادمين من دمشق: كان هنالك ثلاث طرق رئيسية^(١) من دمشق الى

(١) انظر:

R. Hartmann, Die Strasse von Damascus nach Kairo (Z.D.M.G. Bd. 64, 1910, pp. 665 - 702).

القدس، الطريق الاولى تأتي من اقصى الشمال، على مقربة من جبل الشيخ، الى جسر بنات يعقوب جنوبي بحيرة الحولة. وهي تصعد من دمشق التي تقع على ارتفاع ٧٠٠ متر فوق سطح البحر، الى أن تبلغ الجبال على علو الف متر ثم تنزل الى الجسر الذي يقع تحت سطح البحر بثلاثة عشر متراً. ثم تمر هذه الطريق عبر الجليل الى مرج بن عامر. وقد سلك هذه الطريق عبد الغني النابلسي ومصطفى البكري الصديقي.

الطريق الثانية تمر عبر الجولان، وهي ليست مرتفعة كثيراً وتنخفض تدريجياً - لا فجاءة مثل الطريق الاولى - الى وادي الأردن وتصله جنوب بحيرة طبرية، ثم تصعد عقبة فيق وتتجه بعد اجتياز النهر إما الى جبال الجليل الجنوبية الشرقية او إلى بيسان. وتصل من بعد الى مرج ابن عامر.

اما الطريق الثالثة من دمشق فيسير القادم منها مع طريق الحاج ثم تتجه جنوب وادي اليرموك خلال منطقة عجلون. وهنا إما أن يمر المرء باريد أو أم قيس متجهاً الى جسر المجامع او الى الطيبة من محاضرة جنوب جسر المجامع، ومنها يتجه الى شرق مرج ابن عامر من بيسان او من الجليل. ويبدو أن ابن نباتة سلك هذا الطريق.

وبعد هذه الطرق الثلاث التي تلتقي في مرج ابن عامر هناك عدة طرق من هذا المرج الى القدس. فقد يأخذ المسافر طريق الشاطيء الى قيسارية ثم يافا والرملة فالقدس، وقد يسير الى قاقون (قرب طولكرم) ثم الى الرملة ومنها يتجه الى القدس عبر وادي اللطرون. وكذلك يمكن أن يتجه المرء من مرج ابن عامر الى جنين فنابلس فعقبة اللبن فالبيرة فالقدس. وهذا هو الطريق الذي سلكه النابلسي والبكري في رحلتها الى القدس.

اما الطريق القادم من بيروت، الذي سلكه ناصر خسرو فهو الطريق الساحلي الذي يمر بصيدا وصور وعكا وحيفا وقيسارية وكفر سابا حتى يصل الى الرملة. . . ومنها يتجه المرء الى القدس.

وهناك طريق آخر كان يُسلك على قلة من دمشق الى القدس، ويبدو انه كان مستعملاً في القرن الثاني والثالث والرابع للهجرة وربما لبعض الوقت ثم بطل استعماله بعد ذلك : وهذا الطريق يمر عبر جبال الاردن الوسطى الى أريحا ثم القدس. ولم يسلكه احد من الرحالة الذين ذكرناهم في العصور الوسطى (الا ان جمال الدين القاسمي سلكه في مطلع القرن العشرين عندما قدم من دمشق بقطار سكة حديد الحجاز الى عمان، ثم توجه من عمان الى القدس). ومن المعروف أن عبد الملك بن مروان المتوفى سنة ٨٦ هـ / ٧٠٥م كان قد عبّد الطريق من دمشق الى القدس عبر شرقي الاردن واريحا. وقد عُثِر على صُوى الاميال الخاصة بهذه الطريق بين القدس واريحا في القرن الماضي، وهي مودعة الآن في متحف موزه خانة في استانبول. ولم يذكر الجغرافيون

العرب القدامى هذا الطريق باستثناء المقدسي الذي يقول «وتأخذ من بيت المقدس الى اريحا بريدئين ومن اريحا الى بيت الرام^(١) بريدئين ثم الى عمان مرحلة ومن عمان الى الزرقاء مرحلة ومن الزرقاء الى اذرعاع (درعا) مرحلة ومن اذرعاع الى دمشق مرحلتين»^(٢).

اما القادمون الى القدس من القاهرة فكان طريقهم يمر في المنازل التالية (وهو الطريق الذي سلكه ابن بطوطة): مصر، بليس، الصالحية، قَطَا (وهي مركز الجمرك)، بير القاضي، العريش، رفح، غزة. (وكان يمكن للمسافر أن يأتي من غزة الى القدس بعد ذلك إما عن طريق الخليل او عن طريق الرملة). وهذا هو الطريق الواصل بين مصر والشام كما وصفه لنا العمري والقلقشندي وابن شاهين الظاهري. وسلك كثير من الحجاج المغاربة هذا الطريق الى فلسطين. اما بعضهم فكان يذهب من مصر رأساً الى الحجاز عن طريق سيناء ماراً ببئر النخل الى عقبة ايلة ومنها الى الحجاز، ثم يعود من الحجاز الى العقبة ومنها يتجه إما الى غزة أو الخليل ومنها يتوجه الى القدس. وكان الحجاج المغاربة والانديسيون يأتون الى مصر اما من الطريق البري بمحاذاة ساحل افريقيا الشمالي، واما عن طريق البحر الى ميناء الاسكندرية. وكان بعض هؤلاء الحجاج يختارون طريق البحر الاحمر الى الحجاز دون أن يمرؤا بفلسطين لا في الذهاب ولا في الإياب.

وكان بعض الرحالة يختارون المجرى الى فلسطين من مصر أو لبنان او اوروا عن طريق ميناء يافا ومنها يتجهون الى القدس. وهذا هو الطريق الذي اختاره القياطي مثلاً في القرن الرابع عشر / التاسع عشر. وكان ميناء يافا تكتفه الشعاب الصخرية بحيث كان يترتب على السفن أن تلقي مراسيها، وهي على بعد نصف ميل على الاقل من الشاطئ. وبسبب الشعاب الصخرية كان تاريخ مرفأ يافا تاريخ كوارث صغيرة وكبيرة^(٣). وكان القادمون الى يافا في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وقبل ذلك بالطبع، يركبون الدواب في قوافل الى القدس، ثم افتتح طريق للعربات سنة ١٨٦٨. وفي السبعينات كانت هناك خدمة منتظمة لسير العربات. وفي سنة ١٨٩٢ حدث تقدم كبير في المواصلات، عندما افتتح طريق السكة الحديدية الذي يصل يافا بالقدس، عبر مدينة اللد القريبة من الرملة. وقد أصبحت اللد فيما بعد محطة القطارات الرئيسية في فلسطين التي تستقبل القطارات القادمة من حيفا ومن القاهرة عن طريق القنطرة. وقد انشئ خط السكك الحديدية القادم من مصر في اثناء الحرب العالمية الأولى.

اما الاماكن التي ينزل فيها زوار القدس فتقدم لنا كتب الرحلات معلومات محددة عنها بالنسبة للعصر العثماني فقط. ومن بين هذه الاماكن البيوت الخاصة التي كان يحل فيها الأقرباء او الاصدقاء او المعارف، ومنها بيوت كان يستأجرها الوافدون للاقامة فيها اثناء زيارتهم للمدينة

(١) تعرف اليوم بأرض رامة وفيها تخيم قبيلة العدوان من قبائل الاردن.

(٢) المقدسي، احسن التقاسيم، ص ١٩٢. ولبعض التفاصيل في هذا الشأن انظر: عبدالله مخلص «الطريق من دمشق الى بيت المقدس في القرن الهجري الاول - كامل جميل العسلي، «تراث فلسطين في كتابات عبدالله مخلص»، ص ١٦٥ - ١٦٧.

(٣) انظر الكزنذر تولتس، «عجول جذرية في فلسطين»، ترجمة كامل جميل العسلي، ص ١٦٣، ١٦٤.

ومنها الخانات، ومنها غرف وخلوات في الحرم الشريف، ومنها رباطات ذات خلوات يسكن فيها الزوار كرباط بيرم، ومنها الزوايا كزاوية المغاربة والزاوية الختنية جنوبي الأقصى، والمدارس كالمدرسة السلطانية والمدرسة القادرية والمدرسة الرصاصية. وكان من أهم الأماكن التي ينزل فيها زوار القدس في العصر العثماني مزار النبي داود الذي كان يضم غرفاً كثيرة لايواء الزوار. وكان ممن نزل فيه في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الشيخ القاياتي من مصر والشيخ النابلسي من الشام.



وأخيراً نود أن نُجمل في سطور قليلة أهمية ما تتضمنه كتب الرحلات من معلومات تزيدنا معرفة بالمدينة وتاريخها وتراثها فنقول إنها تقدم لنا معلومات كثيرة عن الأماكن المقدسة، وخاصة الحرم الشريف، والآثار والمشاهد الأخرى في المدينة، وهي تعرفنا وتزودنا بنصوص عدد من النقوش الهامة المكتوبة على المباني، وتعرفنا بموقع المدينة والطرق المؤدية إليها وكذلك بطوبوغرافية المدينة وأحيائها وشوارعها وأبوابها وأسوارها ومرافقها العامة من خانات وربط وخوانق وزوايا وحمامات ومنشآت مائية أخرى كالبرك والأسيلة والمقابر والترب والمقامات، وكذلك تزودنا بمعلومات عن السكان وعددهم وعاداتهم وأحوالهم الاجتماعية والاقتصادية في فترات مختلفة من التاريخ، وبخاصة عن علماء المدينة ومؤلفاتهم ورجال التصوف فيها والفرق الصوفية السائدة والحياة العقلية والعلمية في فترات تاريخية مختلفة، كما تعرفنا بالعديد من الكتب والمراجع العلمية والأدبية وبالمؤلفين القدامى، وهي تمدنا أخيراً لا آخراً بمعلومات عن حكومة المدينة وإدارتها وأوضاع الأمن فيها. وفي كل ذلك تلقى هذه الكتب أضواءً جديدة تُغني الباحثين في تراث القدس وتاريخها وتفتح أمامهم كوى ومنافذ جديدة تطل على حقائق غير معروفة حتى الآن، فتقدم بذلك زاداً شهيماً لكل محبي القدس وتراثها الخالد.

- ٤ -

**الرحالة وكتب الرحلات
من القرن الخامس / الحادي عشر حتى القرن الرابع عشر / العشرين
مسئلة حسب القرون**

القرن الخامس / الحادي عشر

١ - ناصر خسرو (٣٩٤ - ٤٥٣ / ١٠٠٣ - ١٠٦١)

بعد المقدسي بنصف قرن تقريباً حل القدس رحالة فارسي مشهور هو ناصر خسرو. وكان ذلك زمن الحكم الفاطمي ايضاً. وناصر خسرو هو اول رحالة مسلم يزور بلاد الشام، ويكتب كتاب رحلة بالمعنى الدقيق للكلمة، دوّن فيه مشاهداته وانطباعاته يوماً بعد يوم.

ولد ناصر خسرو سنة ٣٩٤هـ / ١٠٠٣ في قرية من اعمال بلخ تدعى قباديان، وعاش اكثر من اربعين سنة في خدمة السلاجقة في مدينة مرو. ثم اعترته حيرة نفسية من جراء تضارب المذاهب في تلك البلاد التي اضطرت فيها السنة والشيعية فاراد أن يسافر بحثاً عن الحقيقة بعد أن تززع ايمانه بكل العقائد. ويقال إن طائفاً طاف به في حلم ذات ليلة وأمره بالذهاب الى مكة للحج. فاستقال من عمله في ديوان السلاجقة وشدّ رحاله للسفر من مرو سنة ٤٣٧ / ١٠٤٧. واستمرت اسفاره سبع سنوات من سنة ٤٣٧ إلى سنة ١٠٤٥ (١٠٤٥ - ٥٢م)^(١). بدأ ناصر رحلته من مرو فمر بنيشابور والري وتبريز ومياً فارقين وآمد وحران ثم دخل بلاد الشام فزار حلب وحماة والمعة وطرابلس وجبيل وبيروت وصور وعكا. ومن عكا زار المشاهد التي تقع الى شرقها حتى وصل الى طبرية، ثم عاد الى عكا. وسافر من عكا الى قرية حيفا الصغيرة . . . ومنها الى القدس ماراً بقيسارية وكفر سابا (او كفر سلام) ثم الرملة فاللطرون فالقدس. وصل خسرو القدس في الخامس من رمضان سنة ٤٣٨، وأمضى فيها شهرين وعشرة ايام (تركها يوم الاربعاء ١٥ ذي العقدة ٤٣٨ / ١ - ٥ - ١٠٤٧) ثم ادى فريضة الحج، وعاد الى القدس عن طريق دمشق يوم ٥ محرم ٤٣٩ / ٧ - ٧ - ١٠٤٧ فمكث فيها حوالي عشرة ايام. ومن القدس ذهب الى مصر حيث قضى ثمانية أشهر، ثم حج مرة ثانية وعاد الى مصر وظل يتنقل في بلاد الخليفة الفاطمي المستنصر حوالي سنتين ثم غادر القاهرة نهائياً سنة ٤٤٢ / ١٠٥٠ بطريق عيذاب الى جدة، ثم حج للمرة الأخيرة وعاد الى بلاده عن طريق الحسا والبصرة وواصل السير حتى محطته النهائية في بلخ.

ويبدو أن خسرو، الذي كان سنياً، اعتنق الدعوة الاسماعيلية وهو في مصر التي اشاد بها وامتح خليفتها الفاطمي المستنصر، واصبح فيما بعد داعية من دعاة الاسماعيلية، فاضطهده السلاجقة بعد عودته ففر الى ما وراء النهر حيث عاش بقية عمره، وتوفي سنة ٤٥٣ / ١٠٦١. وإذا كان «سفر نامه» - كتاب رحلته - هو الذي يهمننا من مؤلفاته الآن، فلا بد أن نذكر أن خسرو كان شاعراً من اكبر شعراء اللغة الفارسية في عصره. وله ديوان شعر معروف.

(١) انظر يحيى الخشاب، مقدمة كتاب «سفر نامه» لناصر خسرو: زكي محمد حسن: «الرحالة المسلمون في العصور الوسطى» القاهرة، ١٩٤٥، ص ٥٦ - ٦٣، كراتشكوفسكي، «تاريخ الادب الجغرافي العربي»، الترجمة العربية، بيروت ١٩٨٧، ص ٢٨٥ - ٢٨٧.

حظي سفرنامه الذي كتب بالفارسية باهتمام شديد في ايران والبلدان العربية وكذلك في اوروبا. وقد ترجمه م. شيفر Schefer الى اللغة الفرنسية سنة ١٨٨١، ثم ترجمه لي سترانج Le Strange الى اللغة الانجليزية، وصدرت الترجمة في مكتبة جمعية كتابات حجاج فلسطين. Palestine Pilgrims' Text Society سنة ١٨٩٣ في لندن وترجمه الى العربية الدكتور يحيى الخشاب في القاهرة سنة ١٩٤٥.

ويستحق سفر نامه ما أوليه من اهتمام. وبلغت النظر فيه اسلوبه البسيط الذي يدل على أن الرحالة كان يدون مشاهداته يوماً فيوماً، والمعلومات الهامة الكثيرة التي تضمنها عن البلاد المختلفة وتفصيل الكلام عن المباني والآثار.

وقد جعل كل ذلك «سفر نامه» مصدراً هاماً لتاريخ العالم الاسلامي في القرن الخامس / الحادي عشر، خاصة فيما يتعلق بمصر التي تحدث عنها خسرو بالتفصيل. ويعتبر وصفه لمصر وكذلك للقدس والمسجد الأقصى من أهم اجزاء الكتاب. يشغل ما كتبه خسرو عن القدس (والخليل) ثماني عشرة صفحة من سفر نامه^(١). لكن هذه الصفحات بالغة الأهمية، خصوصاً لأن مصادر المعلومات الأخرى عن القدس في هذه الفترة شحيحة.

في الصفحة الاولى يلتفت خسرو نظرنا الى أن اهل الشام [يسمّون بيت المقدس «القدس»] . وكان بيت المقدس البيت المقدس هو الاسم الأكثر شيوعاً عند المسلمين من قبل. لكن اسم القدس كان مستعملاً حتى في اوائل القرن الثالث للهجرة. وربما قبل ذلك ايضاً. فهناك «فلس» ضربه المأمون تخليداً للتعمرات التي قام بها في القدس كتب على مداره: «بسم الله ضرب هذا الفلس بالقدس سنة سبع عشرة ومائتين»^(٢). ونخرج من ملاحظة خسرو بأن «القدس» كان هو الاسم الشائع للمدينة في الشام في زمنه. ونجربنا خسرو أن عدداً غفيراً من الناس، قد يتجاوز العشرين ألفاً في بعض السنين، كانوا يذهبون الى القدس في موسم الحج، إذا كانوا لا يستطيعون الذهاب الى مكة، ويتوجهون الى «الموقف» ويضحون ضحية العيد. ويعرف هذا باسم التعريف (نسبة الى عرفة). وقد انتقد الطرطوشي في القرن الخامس هذه «البدعة». ولا يعرف متى بدأ هذا «التعريف» في القدس. ونفهم ضمناً من القلقشندي انه بدأ قبل القرن الخامس. ومن المحتمل أن التعريف بدأ في القدس في أواخر القرن الرابع او اوائل القرن الخامس^(٣).

ويتحدث ناصر خسرو عن القرى المحيطة بالقدس فيقول إن الخيرات بها كثيرة ورخيصة،

(١) في ترجمة يحيى الخشاب التي سبقت الاشارة اليها.

(٢) كامل العسلي، «مكاتب القدس في تاريخ العرب والمسلمين»، عمان ١٩٨٨، ص ٢٦.

(٣) هذا رأي الدكتور عبد العزيز الدوري بعد أن فحص المصادر التي تناول الموضوع. انظر: Abdul Aziz Duri, Jerusalem in History, ed. K. J. Asali, ch. IV, p. 116-117.

وان بعض الوجهاء يملك الواحد منهم ٥٠ ألف (مَنْ) (١) من زيت الزيتون يحفظونها في الآبار للتصدير.

ويقدر خسرو عدد «الرجال» بالقدس بعشرين ألف رجل . وأذ كان الرجل يعنى «العائلة» في كثير من الاحيان، فان عدد السكان ربما ناهز المائة الف . ويشير الى اسواقها الجميلة وابنتها العالية وارضها المبلطة بالحجارة، ويقول إن لكل جماعة من صناعها الكثيرين سوقا خاصة بهم . ثم يتحدث، كما فعل المقدسي، عن سهل الساهرة، يجمع الناس يوم الحشر والنشر . ويقول إن بينه وبين الجامع واديا عظيم الانخفاض . والذي نعرفه أن هذا الوادي الذي عرف بوادي جهنم يقع الى الشرق من كل من الجامع وسهل الساهرة وليس بينها . ويعلق على قول العامة إن من يذهب الى نهاية وادي جهنم يسمع صياح اهل جهنم بقوله : «وقد ذهبت فلم اسمع شيئا» . ويلفت النظر قوله إن قرية سلوان كانت ملأى بالعمارات والبساتين .
واما المستشفى الذي يقول خسرو انهم وقفوا عليه اوقافا طائلة ويصرف لمرضاه العديدين العلاج والدواء وبه اطباء يأخذون مرتباتهم من الوقف، فهو اول بيمارستان اسلامي في القدس بلغتنا اخباره، ويرجح انه من انشاء الفاطميين .

ووقف هذا البيمارستان هو ايضا من اوائل الاوقاف في المدينة . ونلاحظ أن موقع البيمارستان كان هو والمسجد على حافة وادي جهنم . ولما كان من غير الممكن أن يكون جنوبي المسجد حيث نهاية البلد من الجهة الجنوبية الغربية فلا بد أنه كان شمال المسجد، اي قرب الباب المعروف بباب الاسباط .

وكان لدى خسرو من الوقت ما يجعله يقيس ابعاد المسجد بنفسه ويسجلها في مذكراته . ولعله اول من ضبط ابعاد المسجد الأقصى وقياساته بدقة، وهو يقول إنه رأى نقشا مكتوبا عليه هذا نصه : «طول المسجد سبع مائة واربع وخمسون ذراعاً وعرضه اربعمائة وخمس وخمسون ذراعاً بذراع الملك» . ثم يصف الرحالة الفارسي الرواق الفخم العالي الذي كان يتصب فوق بابي المسجد المتجاورين اللذين يعرف احدهما باسم باب السلسلة والثاني باسم باب السكينة او السلام (وكانا يعرفان معاً في وقته باسم باب داود) . ثم يصف الرواقين الطويلين الممتدّين على يمين الداخل لهذا الباب حتى يصل الى «المقصورة» . ويستعمل خسرو كلمة «المقصورة» للدلالة على الجزء الرئيسي المسقوف من المسجد الأقصى الذي كان يسميه المقدسي : «المغطى» ، ثم يصف الرواق الطويل الذي يمتد من باب السلسلة الى جهة الشمال، كما يصف الجانب الشمالي للمسجد، ويسمى ابوابه الثلاثة . وأذ كانت هناك في شمالي ساحة المسجد اليوم ثلاثة ابواب هي باب العتم وباب حطة وباب الاسباط، فقد كان عددها زمن خسرو ايضاً ثلاثة، ولكن اسماءها كانت تختلف : فباب الاسباط عنده هو باب حطة اليوم، وباب الابواب (المكون من ثلاثة

(١) المن كان يعادل في هذا الوقت في بلاد الشام ٨١٩ غراما (فالتر هتس)، «المكايل والاوزان الاسلامية»، ترجمة كامل العسلي، عمان، طبعة ثانية، ص ٤٦ .

مداخل، ومن هنا اسمه) هو باب الاسباط اليوم. اما باب العتم فأشار الية بقوله إنه الباب الذي تقوم خارجه صومعتان للصوفية، دون أن يسميه باسم معين. وعلى هذا النحو تختلف أسماء المسجد كلها او معظمها عن اسمائها اليوم. كما يتضح من الحواشي التي ذيلنا بها نص الرحلة في القسم الثاني من كتابنا هذا.

ويفهم من نص ناصر خسرو، أو هكذا فهمت انا على الأقل، أنه كان هناك مسجد كبير عند الزاوية الجنوبية الشرقية للحرم يعرف باسم المسجد الأقصى. وكان هذا المسجد يشكل جزءاً فرعياً من البناء الرئيسي للمسجد الأقصى الذي سماه خسرو «المقصورة»، وهو غير متصل به. ويعتبر وصف خسرو للمقصورة (اي البناء الرئيسي للمسجد الأقصى) وثيقة هامة تصف لنا المسجد كما بناه الخليفة الفاطمي اثر الزلزال الذي اطاق سنة ٤٢٥هـ/١٠٣٣م بالبناء الذي شيده الخليفة المهدي في القرن الثاني (الثامن) والذي وصفه لنا المقدسي من قبل. ونحن نعرف من وصف خسرو أن الابواب الستة والعشرين التي كانت قائمة في بناء المهدي - خمسة عشر بابا الى الشمال واحد عشر الى الشرق - نقص عددها في البناء الفاطمي الجديد الى خمسة عشر بابا، خمسة منها في الجدار الشمالي (في الوقت الحاضر عددها سبعة) وعشرة تفتح على الجدار الشرقي للمسجد. ويستفاد من وصف خسرو أنه كان هنالك رواق كبير وراء الحائط الجنوبي للمسجد، كما كانت هناك مiazza، وكلاهما غير موجود في هذا المكان اليوم.

وقد تحدث خسرو، كالمقدسي قبله، عن وضع الماء ومنشآته في القدس وفي الحرم بشكل خاص، كما تحدث عن الصهريج الكبير الذي تنقل مياهه قناة الى المسجد^(١). ولدى الحديث عن الابواب الواطئة التي تقع في سور المسجد الجنوبي يجربنا أن احد هذه الابواب يسمى «باب النبي» ويقول: «وقد دخل منه نبينا عليه الصلوات والسلام الى المسجد ليلة المعراج، وهذا الباب على جانب طريق مكة». وكان هذا الباب يحمل هذا الاسم ايضا زمن المقدسي، اما اليوم فان اسم «باب النبي» يطلق على الباب القديم الكائن تحت باب المغاربة، في الجهة الغربية لا الجهة الجنوبية من الحرم.

ويتنقل خسرو في آخر حديثه عن القدس الى وصف قبة الصخرة وصحنها وقبابها وابوابها. ووصفه هنا دقيق ومشفوع بالقياسات ويقدم لنا صورة واضحة عن قبة الصخرة كما كانت في القرن الخامس. ومن الوصف نستنتج أن المبنى الرئيسي لقبة الصخرة ظل حتى الآن كما كان عليه دون تغيير يذكر - والواقع انه ظل دون تغيير اساسي منذ بني سنة ٦٩١/٧٢.

أما القباب الكائنة في صحن قبة الصخرة، فيذكر منها خسرو قبة اسمها «قبة جبريل» وهو اسم لم يذكره المقدسي، ولكن يبدو أن هذه تسمية أخرى لقبة المعراج، التي لم يرد اسمها عند خسرو. اما قبة النبي فاسمها عند خسرو ايضا قبة النبي. وهناك اختلاف في عدد المراقي،

(١) اشار المقدسي الى «بركتين»، وهما هذا الصهريج نفسه. واصبحت البركتان فيما بعد ثلاثة، ندعوها اليوم باسم برك سليمان بين بيت لحم والخليل.

(الادراج او السلام) بالنسبة لما هو عليه الآن، اذ يذكر خسرو انه كان يصعد الى الدكة (اي صحن الصخرة) من ستة مواضع، اي ستة سلام: اثنان في الجانب القبلي، واثنان في الجانب الغربي وواحد في كل من الجانب الشمالي والجانب الشرقي. اما اليوم فعدد السلام ثمانية: اثنان في الجنوب، وثلاثة في الغرب، واثنان في الشمال وواحد في الشرق.

وينقل لنا ناصر خسرو نقشاً آخر من نقوش الحرم - ولعله اول كاتب اورد نص نقش من النقوش في المسجد - وهو النقش الكائن على مقام الغوري عند الدرج الجنوبي الشرقي لصحن الصخرة، ونصه: « أمر به الأمير ليث الدولة نوشتكين الغوري»^(١). وكان نوشتكين الغوري هو الذي بنى هذا الدرج المكون من ثلاثة ادراج، اثنان منها يلاصقان الصحن من جهتي الشرق والغرب وثالثهما يتعامد معه.

وأخيراً فان ناصر خسرو يذكر لنا أنه غادر القدس في منتصف ذي القعدة ٤٣٨/١-٥-١٠٤٧، الى مكة لاداء فريضة الحج، وعاد الى القدس بعد اربعين يوماً من ذلك التاريخ. ويقول إن طريق الذهاب الى مكة استغرقت عشرة ايام. وبعد عودته الى القدس أقام فترة قصيرة قد لا تتجاوز الاسبوعين، ثم ترك القدس نهائياً الى مصر. وتناول الرحالة الفارسي في آخر الجزء المخصص عن القدس الحديث عن كنيسة القيامة: بيعة القمامة. وأشار الى تخريب الحاكم الفاطمي لها [سنة ٤٢٩/١٠٣٧]، وأتى على وصف للكنيسة الفسيحة التي تتسع لثمانية آلاف رجل، وزخارفها والصور المعلقة فيها التي تحميها ألواح الزجاج. «وليس لهذه الكنيسة نظير في اي جهة من العالم».

٢ - أبو بكر بن العربي (٤٦٨-٥٤٣/١٠٧٦-١١٤٨)

بعد حوالي نصف قرن من زيارة ناصر خسرو للقدس من خراسان وفد على القدس في سنة ٤٨٦/١٠٩٣ رحالة فقيه من الطرف الأقصى الآخر للعالم الاسلامي، من الاندلس، هو ابو بكر محمد بن عبد الله بن العربي المعافري^(٢). اصله من اشبيلية وما لبث أن غادرها الى المشرق صُحبةً ابيه الذي كان يشغل منصباً مرموقاً في دولة بني العباد التي ازالها يوسف بن تاشفين صاحب المغرب. بدأ ابو بكر وأبوه رحلتهم في مستهل ربيع الاول سنة ٤٨٥/١٠٩٢ ولم يكن عمره يتجاوز

(١) كان نوشتكين الغوري - وهو تركي الاصل - قائداً لجيوش الخليفة الفاطمي الظاهر. وبعد أن كان مملوكاً اصبح حاكماً للشام (٤١٩ - ٤٤١هـ / ١٠٢٨ - ١٠٤١م)، اي قبل زيارة ناصر خسرو بقليل.

(٢) انظر سيرته في المقرئ، «نفع الطيب» تحقيق احسان عباس، ج ٣ ص ٢٥-٤٣ بيروت ١٩٦٨. وابن خلكان، «وفيات الاعيان»، تحقيق احسان عباس، ج ٤، ص ٢٩٦-٢٩٧ بيروت. د. ت. وكراشكوفسكي، «تاريخ الادب الجغرافي العربي» ص ٣٣١.

وابن العربي كتاب «المواضع من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة»، تحقيق عبد الدين الخطيب، - المقدمة - بيروت ١٩٨٦.

واحسان عباس، رحلة ابن العربي الى المشرق كما صورها قانون التأويل، مجلة الابحاث، مجلة ٢١ (١٩٦٨) ص ٥٩، وما بعدها.

انذاك سبعة عشر عاماً، بيد انه كانت تحدوه رغبة عارمة في استقاء العلم من مصادره في بلاد المشرق. وقد سار من اشبيلية الى مالقه فغرناطة فالمرية ثم ركب البحر الى بجاية، ومنها سافر الى بونه فتونس فسوسة فالمهديّة، وواصل الرحلة بحراً فانكسرت السفينة على شاطئ بركة فنزل في بيوت بني كعب بن سليم، ثم اتجه الى مصر فالقدس التي وصلها في سنة ٤٨٦/١٠٩٣. وبعد أن أقام في القدس حوالي ٣ سنوات سافر الى دمشق ثم إلى بغداد فوصلها في رمضان ٤٨٩/١٠٩٦ واجتمع فيها بالامام الغزالي، ثم ادى فريضة الحج في السنة نفسها وعاد الى بغداد. ثم سافر الى مصر. ومنها عاد الى وطنه بعد غيبة استمرت عشرة اعوام. وسرعان ما ذاع صيته كقاضٍ وفقه من اكبر فقهاء المالكية في الاندلس وتوفي اثناء رحلته الى مدينة فاس سنة ٥٤٣/١١٤٨. ترك ابن العربي كثيراً من الكتب منها «احكام القرآن» و«العواصم من القواصم» و«قانون التأويل».

والذي يهمننا من كتبه في الدرجة الاولى هو رحلته التي سماها: «ترتيب الرحلة للترغيب في الملة». لكن هذا الكتاب ضاع مع الأسف. غير ان اقساماً منه وصلتنا عن طريق كتب أخرى له ولغيره، واهمها كتاب ابن العربي الموسوم بقانون التأويل. ويعد بحث مطول عن رحلة ابن العربي عثر احسان عباس على كتاب قانون التأويل، الذي كان مفقوداً هو الآخر، فبادر الى نشر الجزء الخاص بالرحلة في مجلة الابحاث البروتية (المجلد ٢١ لسنة ١٩٦٨) تحت عنوان: «رحلة ابن العربي الى المشرق كما صورها قانون التأويل». وهذا هو مصدرنا الاول في الحديث عن رحلة ابن العربي^(١). لكن من الواضح ان قانون التأويل لا يضم الا جزءاً من الرحلة ربما كان يسيراً. وهذا ظاهر من النصوص المتعلقة بالرحلة في كتابي ابن العربي «احكام القرآن» و«العواصم من القواصم» ومن نقولات متعلقة بها في نفح الطيب وغيره من الكتب.

وقبل بداية الحديث نود أن نقول إن رحلة ابن العربي هي اول رحلة دونها رحالة عربي الى القدس. ويقول كراتشكوفسكي ان ابن العربي هو «اول من وضع الاساس لهذا الفن - اي الرحلات - حسب علمنا»^(٢) (اي باللغة العربية).

وصل ابوبكر الى القدس في سنة ٤٨٦/١٠٩٣ كما قلنا. واذا كان هدفه الاول من رحلته هو تحصيل علوم الشرق فقد وجد الكثير مما كان يبتغيه في بيت المقدس. ولذلك فانه اجل سفره الى مكة وقال لايه: إن كانت لك نية في الحج فامض لعزمك فاني لست برائم عن هذه البلدة حتى أعلم علم من فيها^(٣). وظل ابن العربي في القدس أزيد من ثلاثة اعوام.

إن اهتمام ابن العربي بالعلم والعلماء في البلدان التي زارها هو تقليد متبع في الرحلات المغربية الى الشرق بوجه الاجمال، وكان ابن العربي رائداً فيه.

وجد ابن العربي في القدس حياة علمية خصبة زاخرة أسهم فيها علماء كثيرون بعضهم من

(١) نشرنا الجزء المتعلق بالقدس في القسم الثاني من هذا الكتاب.

(٢) كراتشكوفسكي، تاريخ الادب الجغرافي العربي، ص ٣٣١.

(٣) الابحاث، مجلة ٢١، ص ٨٠.

اهل القدس وفلسطين، وبعضهم من انحاء شتى من العالم الاسلامي من المشرق والمغرب:

من علماء القدس كان هناك الامام الحافظ ابو الفضل علي بن محمد بن طاهر المقدسي المعروف بابن القيسراني والمتوفى سنة ٥٠٧/١١١٣^(١)م ومنهم عطاء المقدسي فقيه الشافعية. ومن علماء المسلمين الذين نزلوا القدس في هذه الفترة الامام ابو حامد الغزالي الذي اجتمع به ابن العربي في بغداد، والذي عاش في القدس مجتهداً في العبادة والتأليف^(٢)، ومنهم ابو الغنائم محمد بن علي بن ميمون الترسى الحافظ الكوفي المتوفى سنة ٥١٠/١١١٦^(٣)، والامام ابو عبد الله محمد بن احمد بن عيسى المقدسي العثماني المعروف بالديباجي، اصله من مكة واقام ببيت المقدس وكتب الاحاديث بها، وقد توفي سنة ٥٢٩/١١٣٤-١١٣٥^(٤). وكان على رأس العلماء الذين لزمهم ابن العربي وتمتع بلقائهم في المسجد الأقصى الامام محمد بن الوليد بن محمد بن خلف الطرطوشي الفهري الاندلسي المالكي صاحب «سراج الملوك» وتلميذ ابي محمد علي بن حزم. وكان قد رحل الى بلاد المشرق سنة ٤٧٦/١٠٨٣ وقدم بيت المقدس وتفقه على يد الامام ابي بكر الشاشي المستظهري^(٥)، وسكن القدس ودرس بها. وقد ولد سنة ٤٥١/١٠٥٩ وتوفي بالاسكندرية سنة ٥٢٠/١١٢٦^(٦). وقد استفاد ابن العربي كثيراً من الطرطوشي قبل سفر الطرطوشي الى الاسكندرية وقال ابن العربي فيما نقله صاحب «نفع الطيب» «تذاكرت بالمسجد الأقصى مع شيخنا ابي بكر الفهري الطرطوشي في حديث ابن ثعلبة»^(٧). وقال ابن العربي في قانون التأويل: «ومشيت إلى شيخنا رحمة الله عليه، وكان ملتزماً من المسجد الأقصى - طهره الله - بموضع يقال له الغوير بين باب اسباط وعراب زكريا عليهم السلام فلم نلقه به واقتصصنا اثره الى موضع منه يقال له السكينة فالفيناها بها فشاهدت هذيه وسمعت كلامه فامتلات عيني وأذني منه، واعلمه ابي بنيتي فأناب، وطالعه بعزيمتي فأجاب، وانفتح لي به الى العلم كل باب»^(٨).

ومن اجتمع بهم ابن العربي في المسجد الأقصى جماعة من علماء خراسان كالزوزني والصاغاني^(٩) والزنجاني^(١٠) والقاضي الريحاني^(١١)، وفي بيت المقدس ايضا لقي ابن الكازروني^(١٢)

(١) احمد بن محمد بن ابراهيم بن هلال المقدسي، «مثير الغرام بفصائل القدس والشام»، تحقيق احمد الخطيمي، رسالة جامعية غير منشورة، جامعة القديس يوسف بيروت ١٩٨٥، ص ٤٢٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٢٧.

(٣) المصدر نفسه ص ٤٢٨.

(٤) المصدر نفسه، ص ٤٢٩.

(٥) محمد بن احمد... بن عمر الشاشي التركي الشافعي مدرس النظامية المتوفى ببغداد ٥٠٧ / ١١١٣ - ١١١٤ [عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين ج ٨ / ٢٥٣].

(٦) المقدسي، «مثير الغرام»، ص ٤٢٧، والمقرى «نفع الطيب»، ج ٢، ص ٨٥.

(٧) نفع الطيب، ج ٢، ص ٣٧ - ٣٨.

(٨) قانون التأويل، الابحاث، م ٢١، ص ٨٠ - ٨١.

(٩) صاغان، قرية قرب مرو في خراسان.

(١٠) زنجان مدينة شمال ايران (في خراسان القديمة).

(١١) المصدر نفسه، ص ٨٢.

(١٢) كازورن، بين البحر وشيراز في خراسان.

وقال عنه : كان ابن الكازروني يأتي الى المسجد الأقصى ، ثم تمتعنا به ثلاث سنوات ، ولقد كان يقرأ في مهد عيسى عليه السلام فيسمع من الطور فلا يقدر احد أن يصنع شيئاً دون قراءته الا الاصغاء اليه^(١).

وفضلاً عن المسجد الأقصى والمناظرات العلمية التي كانت تعقد فيه يذكر ابن العربي في «قانون التأويل» و«العواصم من القواصم» و«احكام القرآن» مدرستين كان العلماء يجتمعون بهما ويتناظرون : مدرسة للشافعية بباب الاسباط . وهي المدرسة النصرية التي اسسها الشيخ نصر بن ابراهيم النابلسي المقدسي ، الذي كان قد ارتحل الى دمشق قبل زيارة ابن العربي للقدس ، والمدرسة الثانية هي مدرسة للحنفية تدعى مدرسة ابي عقبة كانت تقع إزاء كنيسة القيامة . وقد ذكرهما ابن العربي في كتبه الثلاثة : احكام القرآن والعواصم من القواصم وقانون التأويل . وجاء في قانون التأويل أن شيخ المدرسة عندما زارها كان يدعى القاضي الريحاني . وقد حضر ابن العربي فيها مناظرات للحنفية^(٢) . وجاء في «العواصم من القواصم» : «ثم خرجت عنهم إلى الشام فوردت البيت المقدس ، طهره الله نألفيت فيه ثمانين وعشرين حلقة ومدرستين احدهما للشافعية بباب الاسباط والأخرى للحنفية بإزاء قمامة تعرف بمدرسة أبي عقبة . وكان فيه من رؤوس العلماء ، ورؤوس المبتدعة ، على اختلاف طبقاتهم كثير . ومن أخبار اليهود والنصارى والسمرية جمل لا تحصى فأوفيت على المقصد من طريقه ، ووعيت العلم بتحقيقه ، ونظرت الى كل طائفة تناظر وناظرتها بحضرة شيخنا ابي بكر الفهري ، رحمه الله ، وغيره من مشايخ اهل السنة^(٤)» .

واورد ابن العربي في كتابه «أحكام القرآن» مناظرة بين القاضي الريحاني والصاغانى حضرها في هذه المدرسة لا بأس أن نقلها للقارئ الكريم كنموذج للمناظرات التي كانت تجري في حلقات العلم في تلك الامام :

«وقد حضرت في بيت المقدس طهره الله بمدرسة ابي عقبة الحنفي والقاضي الريحاني يلقي علينا الدرس في يوم الجمعة ، فبينما نحن كذلك اذ دخل علينا رجل بهي المنظر على ظهره اطمار ، فسلم سلام العلماء ، وتصدر في صدر المجلس بمدارع الرعاء ، فقال له الريحاني : من السيد؟ فقال له : رجل سلبه الشطار امس ، وكان مقصدي هذا الحرم المقدس ، وانا رجل من أهل صاغان من طلبة العلم . فقال القاضي مبادرا : سلوه ، على العادة في اكرام العلماء بمبادرة سؤا لهم . ووقعت القرعة على مسألة الكافر اذا التجأ الى الحرم هل يقتل فيه ام لا؟ فافتي بأنه لا يقتل ، فسئل عن الدليل فقال : قوله تعالى : (ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه) . قرىء : «ولا تقاتلوهم» و«ولا تقاتلوهم» . فان قرىء ولا تقاتلوهم فالمسألة نص ، وان قرىء ولا تقاتلوهم فهو تنبيه ، لانه اذا نهي عن القتال الذي هو سبب القتل كان دليلاً بيناً ظاهراً على النهي عن القتل .

(١) «نفع الطيب» ، ٤٢/٢ . و«احكام القرآن» ق ٤ ، ص ١٥٨٤ تحقيق علي محمد الجاوي ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

(٢) قانون التأويل ، الابحاث ، مجلد ٢١ ، ص ٨٣ .

(٣) كانت القدس عندما كتب هذا الكتاب تحت الاحتلال الصليبي .

(٤) «العواصم من القواصم» ، ص ٦١ - «أراء ابي بكر بن العربي الكلابية» ، ج ٢ ، تحقيق عمار الطالبي ، الجزائر .

فاعترض عليه القاضي الريحاني منتصرا للشافعي ومالك، وان لم ير مذهبها على العادة، فقال: هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: «فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم». فقال له الصاغاني: هذا لا يليق بمنصب القاضي وعلمه، فان هذه الآية التي اعترضت بها عليّ عامة في الاماكن، والآية التي احتججت بها خاصة، ولا يجوز لاحد أن يقول ان العام ينسخ الخاص. فأبته القاضي الريحاني. وهذا من بديع الكلام^(١).

ويحدثنا ابن العربي ايضا عن المناظرات التي كانت تجري بين الفرق المختلفة كالكرامية والمعتزلة والمشبهة، وكذلك بين المسلمين واليهود والنصارى في جو من الحرية والتسامح. وليس من الغريب في هذا الجو العلمي الخصب ان يتخذ ابن العربي «بيت المقدس مباءة ويلتزم فيه القراءة لا يقبل على الدنيا ولا يكلم إنسيًا ويواصل الليل بالنهار، ولا تلهيه تجارة ولا تشغله صلة رحم ولا تقطعه مواصلة وليّ وتقاة عدو»^(٢).

ولم يزل على تلك الحال حتى اطلع على اغراض العلوم الثلاثة: علم الكلام واصول الفقه ومسائل الخلاف وقرأ «المدونة» بالطريقتين القيروانية في التنظير والتمثيل والعراقية على ما تقدم في معرفة الدليل^(٣).

وقد وصف ابن العربي ببعض التفصيل مشهدين من مشاهد القدس هما محراب داود بباب الخليل والمائدة التي بطور زيتا. اما محراب داود فهو الاسم الذي اطلقه المسلمون على برج من ابراج قلعة القدس عند باب الخليل. وقد مر معنا انه ليس لداود النبي علاقة بهذا المحراب سوى الاسم لأن القدس التي عاش فيها داود كانت محصورة في جبل او فل او الضهور، الكائن جنوب المسجد الأقصى، وهي لم تكن ممتدة الى المنطقة المعروفة بباب الخليل. قال ابن العربي: «شاهدت محراب داود عليه السلام في بيت المقدس بناءً عظيماً من حجارة صلبة لا تؤثر فيها المعاول ويُرَى له ثلاثة اسوار لانه في السحاب ايام الشتاء كلها لا يظهر لارتفاع موضعه وارتفاعه في نفسه، له باب صغير ومدرجة عريضة، وفيه الدور والمسكن، وفي اعلاه المسجد، وفيه كوة شرقية الى المسجد الأقصى في قدر الباب». واذ كتب ابن العربي هذا الكلام بعد احتلال الفرنجة القدس سنة ١٠٩٩/٤٩٢ فقد اشار الى التجاء بعض جنود الفاطميين للقلعة واعطاء الفرنجة لهم الأمان على أن يتوجهوا الى مصر فقال «وفيه نجا من نجا من المسلمين حين دخلها الروم حتى صالحوا على انفسهم بأن اسلموه اليهم على أن يسلموا في رقابكم واموالهم فكان ذلك وتخلوا لهم عنه».

وروى ابن العربي بعد ذلك حادثةً شهداها في محراب داود بقوله: ورأيت فيه غريبة الدهر وذلك أن نائراً ثار به على واليه وامتنع فيه بالقوت، فحاصره وحاول قتاله بالنشاب مدة، والبلد على صغره مستمر في حالة، ما اغلقت لهذه الفتنة سوق، ولا سار اليها من العامة بشر، ولا يرز للحال من المسجد الأقصى معتكف ولا انقطعت مناظرة ولا بطل التدريس، وانما كانت

(١) واحكام القرآن، القسم الأول، ص ١٠٧.

(٢) الابحاث ٢٢، ص ٨١.

(٣) المصدر نفسه، ص ٨٢.

العسكرية قد تفرقت فرقتين يقتتلون، وليس عند سائر الناس لذلك حركة، ولو كان بعض هذا في بلادنا لاضطربت نار الحرب في البعيد والقريب ولا انقطعت المعاش وغلقت الدكاكين وبطل التعامل، لكثرة فضولنا وقلة فضولهم»^(١).

اما المائدة التي بطور زيتا، وهو جبل الطور او الزيتون الذي يعتقد أن المسيح عليه السلام صعد منه الى السماء فقد ذكرها ابن العربي، في «أحكام القرآن» ونقل قوله فيها كذلك المقرئ في «نفع الطيب».

جاء في «أحكام القرآن» قول ابن العربي «شاهدت المائدة بطور زيتا^(٢) وأكلت عليها ليلاً ونهاراً وذكرت الله سبحانه وتعالى فيها سراً وجهاراً. وكان ارتفاعها اسفل من القامة بنحو شبر، وكان لها درجتان قليلاً، وكانت صخرة صلداء لا تؤثر فيها المعاول، فكان الناس يقولون: مسخت صخرة إذ مسخ أربابها قرودة وخنازير، والذي عندي أنها كانت صخرة في الأصل قطعت من الأرض محلاً للمائدة النازلة من السماء، وكل ما حولها حجارة مثلها، وكان ما حولها محضوفاً بقصور، وقد نُحِتَتْ في ذلك الحجر الصلبد بيوت أبوابها منها ومجالسها منها، مقطوعة فيها، وحناياها في جوانبها، وبيوت خدمتها قد صُوِّرَتْ من الحجر كما تُصوَّر من الطين والخشب، فإذا دخلت في قصر من قصورهم ورددت الباب وجعلت من ورائه صخرة كُثْمَنَ درهم لم يفتحها أهل الأرض للصوفة بالأرض، فاذا هبَّتْ الرِّيحُ وحثَّتْ تحته التراب لم يفتح إلا بعد صب الماء تحته والإكثار منه حتى يسيل بالتراب، وينفجج منفرج الباب، وقد مات بها قومٌ بهذه العلة. وقد كنت أدخل فيها كثيراً للدرس، ولكنني كنت في كل حين أكنس حول الباب، مخافة مما جرى لغيري فيها، وقد شرحت أمرها في كتاب «ترتيب الرحلة» بأكثر من هذا^(٣).

(١) المقتطفات الثلاثة الأخيرة من «أحكام القرآن»، ق ٤، ص ١٥٨٦ [القاهرة ١٩٥٨ - تحقيق علي محمد البحاري].

(٢) في سورة المائدة: [قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله ان كنتم مؤمنين (١١٢)]. قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين (١١٣). قال عيسى بن مريم اللهم ربنا انزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وانت خير الرازقين (١١٤). قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين (١١٥)]. قال ابن عباس: فنزلت الملائكة بها عليها سبعة ارجفة وسبعة أحوات فأكلوا منها حتى شبعوا. وفي حديث: انزلت المائدة من السماء خبزاً ولحمياً فأمروا ان لا ينجسوا ولا يدخروا لغد فخانوا وادخروا فمسخوا قرودة وخنازير (تفسير الجلالين، المحطى والسيوطي).

(٣) «أحكام القرآن»، ق ٢، ص ٥٢٤، القاهرة ١٩٥٧، وكذلك «نفع الطيب»، ج ٢، ص ٣٧.

وقد علق الشيخ محمد صبري عابدين في رسالة كتبها الى محب الدين الخطيب من القدس على كلام ابن العربي بقوله: والى هذا الزمان يوجد مكان في طور زيتا ملحق بمسجد الاسعدية بقرب الطور يقال له (مكان صعود المسيح عليه السلام)، وهو بلاطة سوداء بركانية، وربما كانت هي المائدة المشار اليها في كلام القاضي ابن العربي، وقد رأيتها حين زيارتي لمسجد الاسعدية. وفي المسجد كهف فيه قبور بعض العلماء والصالحين. وهو منقوش نقشاً بديعاً. وربما كان هذا الكهف بما احتوى عليه من فجوات ونقوش هو المكان الذي رآه ابن العربي بجانب مائدة عيسى. ولا استبعد أن هذا الكهف وما فيه من فجوات كان محلاً لاعتكاف بعض الزاهدين. وربما كان هناك ايضاً بعض البيوت المنحوتة طمست باقامة ابنة جديدة في مكانها («العواصم من القواصم»، تحقيق محب الدين الخطيب ص ١٦ - الهامش).

القرن السادس / الثاني عشر

في سنة ١٠٩٩/٤٩٢ وقعت القدس في قبضة الاحتلال الصليبي واخليت المدينة من أهلها الاصلين بعد مذبحه رهيبة قل نظيرها في التاريخ . وحلت محلهم عناصر غريبة من اوروبا . وخلال فترة الاحتلال الفرنجي هذه التي دامت ٨٨ سنة زار القدس رحالتان مسلمان وحدثانا عن بعض ما شاهدا فيها . احد هذين الرحالتين هو:-

٣ - ابو الحسن علي بن ابي بكر بن علي الهروي المتوفى ١١٦٢/٦١١

اشتهر الرحالة ابو الحسن علي الهروي، بالهروي السائح لأنه كان جواباً لا يكل في الآفاق . ولد بالموصل ولكن اصله من هراة في خراسان القديمة، افغانستان اليوم . وقد بدأ رحلته من حلب فطاف ببلدان الشام .

اولاً: من حلب الى حمص فبعلبك فدمشق فحوران ثم ذهب إلى البلقا فمؤاب فطبريا فاريد فقصر يعقوب وبيت الأحزان وحتين وبيسان وكفرمنده (بين طبريه وعكا) فالناصره فعكا ثم عاد الى اللجون وسبسطية ونابلس فبلاطه فعورتا حتى وصل الى القدس . وبعد القدس زار الخليل وعسقلان ، ومنها ذهب الى مصر وزار الصعيد والنوبة وعاد الى القاهرة ثم ذهب الى الاسكندرية ودمياط، وزار من بعد بعض مدن المغرب وبعدها ذهب الى صقلية وقبرص . ومن هناك الى القسطنطينية وبلاد الروم والاناضول ثم زار الموصل وبغداد حتى البصرة، ومنها سافر الى مكة والمدينة واليمن ثم عاد الى بلاد العجم فزار عدة مدن فيها . وعاد أخيراً الى حلب واستقر بقية عمره فيها في رعاية الملك الظاهر ابن صلاح الدين الأيوبي، الذي بنى له مدرسة في جانب منها قبة . وتوفي في رمضان في العشر الاوسط سنة ١١٦٢/٦١١ ودفن في القبة بمدرسته المذكورة (١) . قال ابن خلكان: كاد يطبق الأرض بالدوران فانه لم يترك براً ولا بحراً ولا سهلاً ولا جبلاً من الاماكن التي يمكن قصدها ورؤيتها الا رآه، ولم يصل الى موضع إلا كتب خطه في حائطه (٢) .

وأشهر كتبه هو «كتاب الاشارات الى معرفة الزيارات» . وصف فيه جولاته في مختلف البلدان والفه على الأرجح بحلب بعد عودته اليها . ولا شك أن كثيراً من مذكراته وأوراقه التي دونها اثناء رحلاته قد ضاع لأنه مني مرتين بخسارة كتبه الاولى سنة ١١٩٢/٥٨٨ عندما نهب رجال ريكاردوس ملك الانكلترا (الإنجليز) القافلة التي كان معها على ماء الخويلفة في مقاطعة الداروم جنوب فلسطين، والمرة الثانية عندما غرقت سفينته قرب عكا في السنة نفسها .

(١) ابن خلكان، «وفيات الاعيان» ج ٣، رقم ٤٥٩ .

وكذلك انظر في سيرة الهروي: كراتشكوفسكي ص ٣٤٦، وكتاب «الاشارات» للهروي، في مواضع متفرقة .

(٢) ابن خلكان، «الوفيات»، ٣٤٦ .

اما الغرض من تأليف «كتاب الاشارات» فقد ذكر مؤلفه أنه «ذكر زيارات الشام وذكر الانبياء والصحابة لا غير، فلما ذكرنا هم ذكرنا من جاورهم من الاولياء والصالحين»^(١). وهكذا يتبين لنا أن تجواله لم يكن في طلب العلم، بل لزيارة أضرحة الاولياء والمقامات والمساجد والمقدسات عموماً، فقد كان الرجل متديناً وفيه نزعة الى التصوف. ومع أن كتاب الاشارات لا يخلو من الاساطير، الا انه احتوى على بيانات تاريخية طريفة، وخصوصاً عن بلاد الشام وفلسطين في فترة الحروب الصليبية. وفيما كتبه الهروي عن القدس مثال واضح على ذلك.

زار الهروي القدس سنة ١١٧٣/٥٦٩ اثناء الاحتلال الصليبي، وقبل استرداد صلاح الدين المدينة باربعة عشر عاماً. . . وتحفل الملاحظات التي سجلها عن القدس ومسجدها في كتاب «الاشارات الى معرفة الزيارات»^(٢) بمعلومات هامة.

يقول الهروي إنه دخل قبة الصخرة سنة ١١٧٣/٥٦٩ ورأى دائر الصخرة درابزين من الحديد، بينما ذكر خسرو أن الصخرة محاطة بدرابزين من رخام. والدرايزين الحديدي كان من إضافة الصليبيين. ومما احدثه الصليبيون في القبة صورة سليمان بن داود وصورة المسيح ذهباً، وهو مرصع بالجواهر. ومما احدثه الصليبيون شمال القبة أي في ساحة الحرم الشمالية دار القسوس. ويعتقد لي سترانج أن دار القسوس هذه هي دار القساوسة الاوغسطينيين التي انشأها غودفري دي بويون، وأنها ربما كانت في موقع «صومعتي الصوفية» اللتين ذكرهما ناصر خسرو^(٣). ولا ادري كيف حدد لي سترانج هذا الموقع بالذات لهذه الدار. ويلاحظ الهروي أن العقد القائم على باب قبة الصخرة الشرقي المواجه لقبة السلسلة، كان مكتوباً عليه اسم القائم بأمر الله امير المؤمنين^(٤) وسورة الاخلاص وتحميد وتمجيد، وعلى سائر الابواب كذلك لم تغيره الافرنج. ويقول ايضا إنه قرأ في سقف القبة آية الكرسي مكتوبة بالفص المذهب. اما المسجد الأقصى، الذي احدث فيه الفرنج تغييرات بنائية كثيرة على ما نعرف، فيقول إن الفرنج لم يغيروا محراب عمر بن الخطاب فيه. ثم ينقل لنا نقشين آخرين في الحرم:

اما الاول: فقد قرأه في سقف قبة المسجد الأقصى وهذا صورته: «بسم الله الرحمن الرحيم سبحان الذي اسرى بعبيده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله. نصر من الله لعبده ووليّه أبي الحسن على الأمام الظاهر لا عزازدين الله امير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وابنائهم الأكرمين. أمر يعمل هذه القبة وإذهابها سيدنا الوزير الاجل صفي

(١) الهروي، «كتاب الاشارات»، ص ١٠٠.

(٢) حققت الكتاب جانين سورديل - طومين بالاستناد الى شطوطات عديدة في كامبردج وبرلين والقاهرة ودمشق وباريس واستانبول وغيرها، ونشره المعهد العلمي الفرنسي بدمشق سنة ١٩٥٣. وتحفل زيارات القدس فيه نصفحات ٢٤ - ٢٩. والنص منشور في القسم الثاني من هذا الكتاب.

(٣) Guy Le Strange, Jerusalem under the Moslems, R:printed from Palestine under the Moslems, no place and no date, p. 51.

(٤) هو الخليفة العباسي السادس والعشرون. تولى الخلافة من سنة ٤٢٢ الى سنة ٤٦٧ / ١٠٣١ - ١٠٧٥.

امير المؤمنين وخالسته ابو القسم علي بن أحمد ايده الله ونصره وكمل جميع ذلك إلى سلخ ذي العقدة سنة ست وعشرين واربع مائة . صنعة عبد الله بن الحسن المصري المزوق» .

وبما هو جدير بالذكر أن فان يرشم قرأ نقشاً يطابق هذا النقش مطابقة تامة في كلماته في قبة الصخرة أيضاً^(١) . ومن المعروف أن الظاهر الذي اعاد بناء المسجد الأقصى سنة ١٠٣٥/٤٢٦ بعد أن هدمه زلزال في السنة السابقة قد عمّر قبة الصخرة ايضاً في الوقت نفسه . وربما وُضع فيهما نص متطابق على كل من القبتين ومن عمل الصانع نفسه . يضاف الى هذا أن فان يرشم اورد نقشاً آخر^(٢) عن تعمير الظاهر لاعزاز دين الله للمسجد الأقصى باشراف الوزير علي بن احمد نفسه . غير أن هذا النقش طمس كثير من كلماته . وربما كان هو النقش الذي قرأه الهروي . ويضيف الهروي الى هذا النقش الكائن في الحائط الشمالي للحرم والذي كان ناصر خسرو قد نقله لنا ، حول طول المسجد الأقصى (اي الحرم) وعرضه (٧٠٠ . بذراع الملك في ٤٤٥) .

وهذه النقوش التي اوردها الهروي ذات اهمية نادرة ، بعد أن طمس اكثرها ، للتعريف بالمسجد الأقصى في عهده .

ويعضي الهروي بعد ذلك الى وصفٍ دقيق مشفوع بالقياسات لقبة الصخرة ورواقها واساطينها وأعمدتها ، ولصحنها الخارجي وابوابها ولغارة الارواح تحت الصخرة ، ولقبة السلسلة . ووصف الهروي للقبة يطابق بدقة وضعها الحاضر بما في ذلك ترتيب الاعمدة والاسطوانات التي تدعم القبة في الدائرة الداخلية والخارجية وعددها .

ثم يورد الهروي بعد ذلك بعض الملاحظات عن ابعاد بناء المسجد الأقصى القائم جنوب الحرم (المغطى والمقصورة عند المقدسي وناصر خسرو) ، وهي ابعاد تتفق مع ما هو عليه المسجد في الوقت الحاضر . ويمكن أن تقدر الخطوة التي استعملها باليارد (٩١سم) والذراع الملكي التي استعملها . بنحو ٥٦سم^(٣) .

ويرد الهروي بذكر بعض المشاهد الأخرى كالاصطبل الذي اطلقوا عليه اسم اصطبل سليمان ، ومهد عيسى وبركة نبي اسرائيل : «يقال إن بخت نصر ملاًها من رؤوسهم» ، وبرج داود وعين سلوان ووادي جهنم ، وجبل الطور والمقامات الكائنة فيه «وبه (اي جبل الطور) مواضع مباركة وقبور كثيرة من الصالحين والتابعين (رضهم) الا أنها لا تعرف لاستيلاء الفرنج على البلاد . وخلف سور الحرم الى الشرق قبر شداد بن اوس ، وذو الاصابع التميمي من صحابة الرسول» .

ويختتم الهروي حديثه عن القدس بذكر عدد من الكنائس فيها : كنيسة اليعاقبة وكنيسة السليق ، وكنيسة صهيون التي «يقال ان المائدة نزلت على عيسى بن مريم والحواريين بها» - وهو

(١) Van Berchem, CIA, Jerusalem II, no. 275.

(٢) CIA, Jerusalem II, no 301.

(٣) جي لي سترانج ، «فلسطين في المهد الاسلامي» ، الترجمة العربية ، ص ١١٦ .

موضع آخر لها غير طور زيتا - ويصف لنا من المشاهد المسيحية بعد ذلك قبر مريم أم عيسى عليه السلام ببعض التفصيل وينهي كلامه عن زيارات الملة المسيحية بالحديث عن اعظمتها: «كنيسة قمامة وعمارتها من العجائب المذكورة». ويقول انه شهد نزول النور فيها: «وأما نزول النور»^(١) فإني أقمت بالقدس زمانا على عهد الفرنج إلى أن عرفت كيفية عمله».

أما الرحالة الآخر الذي زار القدس عدة مرات في فترة الاحتلال الصليبي فهو:

٤ - اسامة بن منقذ (٤٨٨ - ١٠٩٥/٥٨٤ - ١١٨٨)^(٢)

كان أسامة بن مرشد بن منقذ معاصراً لعلّي الهروي، ولكن الرجلين يختلفان اختلافاً كبيراً هو الاختلاف بين الناسك المتصوف الذي يبحث عن المزارات في بلاد الشام وسواها أثناء الاحتلال الصليبي لأجزاء كبيرة منها وبين الفارس المقاتل الذي اشتبك مع الصليبيين في حملات عديدة وصفها في كتابه الهام: «كتاب الاعتبار». ويشترك الرجلان في أنها زارا القدس في فترة الاحتلال الصليبي، وفي أنها فقدتا كتبهما في تجوالهما في الاقطار، وكذلك في شغفهما بالكتابة على الآثار والامكنة التي زاراهما.

ولد اسامه في شيزر (قلعة قرب حماة) موطن آبائه واجداده سنة ١٠٩٥/٤٨٨، ثم سكن الشام وانتقل الى مصر حوالي سنة ٥٤٠ وعاش الحياة في بلاط الفاطميين، وقاد عدة حملات ضد الصليبيين. وعاد من مصر بعد حوالي عشر سنوات الى دمشق، وفقد في سفره هذا كتبه التي كانت تربي على الاربعة آلاف مخطوط. ثم برح دمشق الى حصن كيفا بديار بكر الى أن استدعاه صلاح الدين الى دمشق. وفي دمشق توفي سنة ١١٨٨/٥٨٤ ودفن في سفح قاسيون. ترك اسامه كثيراً من التأليف منها ديوان شعر، وبهنا منها كتابه الهام، كتاب «الاعتبار» الذي تضمن احداث رحلاته واسفاره في الشام ومصر وكذلك اخبار علاقاته مع الصليبيين وحروبه معهم. وفي الكتاب معلومات قيمة، اقتصادية وسياسية واجتماعية وعسكرية عن بلاد الشام ومصر في هذه الفترة، وقد امتاز اسامه بالدقة في الملاحظة والصدق في الرواية والأمانة في النقل وتضمن كتابه حكايات قصيرة في غاية الطرافة. ومن هنا فقد حظي باهتمام المحافل العلمية فنشره دير بنورغ H. Deren- bourg في لندن سنة ١٨٤٤، وترجمه فليب حتى الى الانجليزية سنة ١٩٢٧ ثم نشره محققاً تحقيقاً جديداً سنة ١٩٣٠، كما ترجم الكتاب الى الألمانية شومان سنة ١٩٠٥، وترجمه سالير الى الروسية ١٩٢٢، وترجم كذلك الى لغات اوروبية اخرى. واخيراً حققه من جديد قاسم السامرائي سنة ١٩٨٧. ولكن كتاب الاعتبار ليس بكتاب رحلة بالمعنى الدقيق، ولم يكن هدف كاتبه أن يصف

(١) تحتفل الطوائف المسيحية - ما عدا طائفتي اللاتين والبروتستنت - بفيض النور من القبر المقدس يوم السبت السابق لعيد الفصح (تذكراً لقيام المسيح من بين الاموات). بطريقة لا يد للانسان فيها.

(٢) مصادر عن سيرته: ابن خلكان، ووفيات الابهان، ج ١، ص ١٩٥-١٩٩، بروكلمان، وتاريخ الادب العربي، (الترجمة العربية)، ج ٦، ص ٢٢ خير الدين الزركلي، «الاعلام»، ٢٩١/١ فيليب حتى، مجلة «الكشاف» ٤/٤٧٣-٥٠٢.

البلدان والأثار التي زارها، وانما هو رواية للاحداث التي شهدها أو شارك فيها، ولم تكن الرواية فيه متسلسلة حسب التسلسل التاريخي للاحداث. . . وعلى هذا فيمكن اعتباره بالدرجة الاولى من كتب السيرة الذاتية. ونصيب القدس في كتابه ضئيل جداً، رغم أنه فيما يبدو، زارها عدة مرات اثناء الاحتلال الصليبي. وقد يسر له ذلك علاقات صداقة مع بعض الفرسان الداوية (١) [الهيكلين، Templars] الذين كانت تربطهم باسرة بوري الحاكمة في دمشق اذالك علاقات حسنة.

روى اسامه احداثاً وقعت له في القدس زمن الافرنج فقال: (فمن جفاء اخلاقهم اي الافرنج)، قُبِّحهم الله، انني كنت اذا زرت البيت المقدس دخلت الى المسجد الأقصى، وفي جانبيه مسجد صغير قد جعله الافرنج كنيسة، فكنت اذا دخلت المسجد الأقصى وفيه الداوية وهم اصدقائي يُخلون لي ذلك المسجد الصغير اصلي فيه. فدخلته يوماً فكَبِّرْتُ ووقفت في الصلاة فهجم علي واحد من الافرنج فسكَّنني وردَّ وجهي الى الشرق وقال: كذا صَلِّ. فتبادر اليه قوم من الداوية أخذوه اخرجوه عني، وعدت انا الى الصلاة فاغتفلهم وعاد هجم علي ذلك بعينه وردَّ وجهي الى الشرق وقال: كذا صَلِّ. فعاد الداوية دخلوا اليه واخرجوه واعتذروا الي وقالوا: هذا غريب وَصَل من بلاد الافرنج في هذه الايام، وما رأى من يصلي إلى غير المشرق. قلت: حسبي من الصلاة! فخرجت فكنت اعجب من ذلك الشيطان وتغيير وجهه ورعدته وما لحقه من نظر الصلاة إلى القبلة.

ورأيت واحداً منهم جاء الى الأمير معين الدين (٢)، رحمه الله، وهو في الصخرة فقال: تريد أن تبصر الله صغيراً؟ قال: نعم فمشى بين أيدينا حتى أرانا صورة مريم والمسيح، عليه السلام، صغير في حجرها. فقال: هذا الله صغير - تعالى الله عما يقول الكافرون علواً كبيراً (٣).

(١) هذه الكلمة التي تستعملها المصادر العربية من اصل سرياني، وتعني في السريانية الفقراء، فقد كان الفرسان الهيكليون يسمون انفسهم «فرسان المسيح الفقراء».

(٢) معين الدين أنر بن عبدالله، كان مدبر دولة مجير الدين أبق بن محمد بن بوري بن طغتكين من حكام دمشق السلاجقة في ذلك الوقت. توفي سنة ٥٤٤. («وفيات الاعيان» ١/ ٢١٧، سيرة رقم ١٢٢).

(٣) اسامة بن منقذ، «كتاب الاعتبار»، تحقيق قاسم السامرائي، الرياض ١٤٠٧ / ١٩٨٧ ص ١٥٣، ١٥٤.

القرن السابع / الثالث عشر

بعد زيارة الرحالة الاندلسي ابى بكر بن العربي للقدس (سنة ٤٨٥/١٠٩٢) بقرنين تقريباً قام رحالة أندلسي آخر بزيارة المدينة سنة ٦٨٤/١٢٨٥ . وكان قد مضى حينئذ قرناً كاملاً على تخوير صلاح الدين الأيوبي للمدينة (سنة ٥٨٣/١١٨٧) . ولم يلبث حكم أبناء صلاح الدين واحفاده فيها الا أكثر بقليل من نصف قرن . وفي منتصف القرن السابع انتقلت مقاليد الحكم الى ايدي المماليك الذين عكفوا في النصف الثاني من ذلك القرن على تطهير البلاد من الاحتلال وتوَج ذلك ، بسقوط عكا سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م . في أوائل هذه الفترة المملوكية التي دامت زهاء ٢٧٠ سنة وفي اواخر القرن السابع / الثالث عشر ، زار القدس ثلاثة من رحالي المغرب والاندلس اولهم :

٥ - محمد بن رُشيد الفهري الاندلسي^(١) (٦٥٧-٧٢١ / ١٢٥٩-١٣٢١)

ولد محمد بن عمر بن محمد ابو عبد الله ، محب الدين بن رُشيد الفهري السُتبي في مدينة سبتة بالاندلس سنة ٦٥٧/١٢٥٩ ، وولي الخطابة بجامع غرناطة الأعظم ، ثم انتقل الى فاس حيث عاش في اواخر دولة الموحدين واوائل عهد دولة بني مرين . وتلقى تعليمه في جامعة القرويين بتونس عاصمة دولة بني مرين . خرج من فاس في رحلة الحج واتجه إلى سبتة ، ومنها استقل سفينة متجهة الى الاسكندرية ، وذلك سنة ٦٨٣/١٢٨٤ ، ويمم شطر الحجاز . وزار في رحلته التي استمرت ثلاث سنوات (٦٨٣-٦٨٦ / ١٢٨٤-١٢٨٧) كلاً من الحجاز ومصر والشام ، ثم عاد الى فاس وامضى بقية عمره فيها حتى وفاته سنة ٧٢١/١٣٢١ . وقد سجل وقائع رحلته في رحلة سماها «ملاء العيّبة في ما جمع بطول الغيبة في الوجهة الواجبة إلى الحرمين بمكة وطيبة» . وتضمنت معلومات كثيرة تتعلق بالحالة الاجتماعية والعلمية في البلاد التي زارها ، وتراجم لشيوخه والعديد من العلماء الآخرين . ونقل صاحب «دليل مؤرخ المغرب الأقصى» أن محمد الفاسي الاختصاصي المعروف في الرحلات المغربية ، ذكر ان الرحلة تقع في سبعة اسفار معظمها متوفر في مكتبة الاسكوريال باسبانيا . وينقص منها نصف الجزء الاول والجزء الرابع وبعض الاوراق من الجزء الثالث^(٢) . ويقول احمد رمضان إن مخطوط الرحلة موجود في رباط الموقف بمكة المكرمة تحت رقم ٢٤٠ ح ٢ وإن عدة اجزاء منها موجودة في وقف المغاربة ، وفي رباط السلطان قايتباي بمكة

(١) انظر عنه : كراتشكوفسكي ، الترجمة العربية ، ص ٤٠٠ ، عبد السلام بن سودة ، «دليل مؤرخ المغرب الأقصى» ج ٢ ، ط ٢ الدار البيضاء ، ١٩٦٥ ص ٣٦٣ - ٣٦٤ ، الزركلي ، «الاعلام» ، ٣١٤/٦ احمد رمضان ، «الرحلة والرحالة المسلمون» ، ص ٣٤٣ - ٣٤٥ . محمد الحبيب الهيلة : «القدس واشاعها الثقافي في المغرب والاندلس من خلال الرحلات العلمية» ، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام ، المجلد الاول ، عمان ١٩٨٣ ، ص ٢٩١ - ٣٠١ .

(٢) عبد السلام بن سودة ، «دليل مؤرخ المغرب الأقصى» ، ج ٢ ، ص ٣٦٤ (رقم ١٥٩٠) .

ايضاً^(١). ويقول محمد الحبيب الهيلة إن ابن رُشيد خص كل مرحلة من مراحل تنقله بجزء من هذه الرحلة فكان الرابع منها هو الذي سجّل فيه لقاءاته ودروسه ومحاوراته في بيت المقدس وبلاد الشام. وهذا الجزء مفقود مع الأسف ولذلك فانه ليس في وسعنا أن نتحدث عن وقائع رحلة ابن رشيد الى القدس الى أن يتسنى العثور على الجزء المشار اليه^(٢).

اما ثاني الرحالة المغاربة والاندلسيين في هذه الفترة فهو:

٦ - ابو عبدالله محمد العبدري الحيجي

إن المعلومات المتوفرة لدينا عن حياة العبدري ضئيلة. ويقول محمد الفاسي انه لا تُعرف له ترجمة ولا يُعرف تاريخ ولادته ولا تاريخ وفاته، ولا كيف واين نشأ ولا ما كان من أخباره بعد عودته من رحلته الى الشرق. ولكن يضيف أنه كان من بلاد حاحه القبيلة البربرية التي تحيط بمدينة الصويرة على شاطئ الاطلسي والنسبة اليها حيجي على غير قياس. ويؤكد أنه مغربي صميم من مراكش^(٣). أما كراتشكوفسكي وغيره فيذهبون الى أن اصله من بلنسية في الاندلس^(٤). وعلى اية حال فان اسمه يدل على أنه ينتمي الى بني عبد الدار من بني قصي الذي ينسب اليه توحيد قبيلة قريش. اما الباقي من وقائع حياته ورحلته فنعرفه من «الرحلة المغربية او رحلة العبدري» التي نشرها محمد الفاسي في الرباط سنة ١٩٦٨.

خرج العبدري في رحلته من بلاد حاحّة في ٢٥ ذي القعدة سنة ٦٨٨/٩ كانون الاول ١٢٨٩، وسافر عن طريق البر من وراء جبال الاطلس (السوس الاعلى) قاطعاً صحراء المغرب الجنوبية/الشرقية حتى وصل الى تلمسان، وبها بدأ تقييد رحلته. ومن تلمسان سافر الى بجاية فقسطنطينة فبونة فتونس فالقيروان فقايس فطرابلس فالاسكندرية فالقاهرة ثم غادر القاهرة الى بركة الحجاج على بعد عشرة اميال من القاهرة، ومنها سافر الى السويس فيبر النخل بسيناء ثم عقبه ايله، ومنها الى مكة حيث أدى فريضة الحج. وبعدئذ زار المدينة المنورة ثم اتجه الى ينبع وعقبه ايلة وانطلق منها الى الخليل ثم حلحول إلى أن وصل الى القدس في اواسط محرم سنة ٦٩٠/ كانون ٢، ١٢٩١ ومكث فيها خمسة أيام (١٣-١٨ محرم) ثم غادرها الى مصر في طريق العودة الى بلاده.

ورحلة العبدري حافلة بالتحقيقات الجغرافية ووصف المناظر الطبيعية والمعلومات القيمة عن الآثار القديمة، وعن عادات البلاد التي زارها، وعن علماء المسلمين في القرن السابع/ الثالث

(١) احمد رمضان، «الرحلة والرحالة المسلمون»، ص ٣٤٣-٣٤٥.

(٢) ذكر الهيلة انه عثر في «الاستدعاء الاكبر» الذي كتبه ابن رشيد عن فسطاط مصر في رجب سنة ٦٨٤ - ومنه نسخة بخزانة الفروين في المغرب - على اسماء العديد من رجال العلم ببيت المقدس والخليل من امهم علي بن الانصاري ويوسف بن داود بن عيسى وعبد المنعم بن يحيى القرشي وغيرهم من شيوخ القدس.

(٣) حمد الفاسي، الرحالة الشهير ابو عبدالله العبدري - «فصل من صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد»،

مدريد، ١٩٦١ / ١٩٦٢، ص ٢ و ٣.

(٤) كراتشكوفسكي، ص ٣٩٧.

عشر. والى العلم والعلماء اتجه اهتمام العبدري في الدرجة الاولى، وهو الاهتمام الذي تجلّى في معظم الرحلات المغربية، التي تحولت شيئاً فشيئاً كما قال كراتشكوفسكى، الى ضرب من يوميات العلماء^(١). ودلت الرحلة على سعة معارف الرجل وتمكّنه من العلوم الاسلامية، وثقافته الواسعة ولم يكن لرجل هذا شأنه من العلم أن يُعجب بالاحوال العلمية التي خبرها في معظم البلدان التي زارها في وقت بدأت الثقافة الاسلامية عموماً فيه تستدبر احسن ايامها. ولم يخطيء العبدري اذ رأى أن علوم الشرع والادب كانت في اضمحلال في المغرب والمشرق كليهما. وقد ابدى ملاحظات سلبية عديدة في رحلته عن اوضاع البلدان التي زارها. فعن تلمسان قال: اما العلم فقد درس رسمه في هذه البلاد. وكذلك تحدث عن مليانة والجزائر وبجاية. وتونس فقط كانت محل اعجابه الشديد فامتدح الحركة العلمية فيها. اما طرابلس فقال عنها «وهي للجهل مأتم وما للعلم بها من عرس». واذم العبدري كلا من الاسكندرية والقاهرة. اما المدينة المنورة فقال عنها: لم أر بالمدينة . . . من هو بالعلم موصوف^(٢).

ولم يكن رأى العبدري بالاوضاع العلمية في القدس، بافضل من هذا، كما سيتبين معنا لدى تحليلنا التالي لما كتبه عن القدس.

وقد اتهم العبدري بانه بالغ في الذم، ولكنه رجل كان فيه نزوع الى الاتقان، ولم يكن يرضى في العلم بانصاف الحلول.

يضاف الى ذلك أن العبدري كان نيراً الفكر فأبدى رفضه لكثير من الاوهام والاساطير التي سمعها من العلماء في الاقطار التي زارها. ومع كل هذا فإن العبدري لم ينبج من مؤثرات عصره من حيث الاسراف في صنعة الكلام وتزويق اللفظ والاكتثار من المترادفات وايلاء القالب الادبي اهتماماً مبالغاً فيه، وتضمين الكلام الكثير من المقطعات الشعرية. وغني عن القول أن الرغبة في اظهار البراعة في الكتابة كثيراً ما تسفر عن وضع معان ضئيلة في ثوب فضفاض من الجمل المزوقة المسجوعة. وهذا شأن العبدري اذ يقول عن القدس - مثلاً - «والقدس المقدس المنفي من الآثام، نجعة من راد وري من حام، خفق برقه فوق من شام وتدفق ودقه فأفرق ذو الهيام». . . اما تضمين الكلام العديد من أبيات الشعر فهو سمة كثيراً من نصادفها في الرحلات العربية من قبل ومن بعد.

لم يشغل حديث العبدري عن القدس سوى اقل من اربع صفحات من كتاب رحلته^(٣)، الأمر الذي يتناسب واقامته القصيرة في المدينة التي لم تتعدّ خمسة ايام. ويمكن تقسيم حديثه عن القدس الى ثلاثة اقسام: القسم الاول، يتناول بعض مشاهد المدينة وأماكنها المقدسة، والقسم

(١) كراتشكوفسكى، ص ٣٩٧.

(٢) رحلة العبدري، في مواضع متفرقة، وكذلك مقالة محمد الفاسي المشار إليها اعلاه في «صحيفة معهد الدراسات الاسلامية» بمريد، ص ٧٥.

(٣) من ص ٢٢٨ - ٢٣١.

الثاني يصف المسجد الأقصى والصخرة المشرفة، والقسم الثالث يتحدث عن الحالة العلمية ويخص بالذكر القاضي بدر الدين محمد بن جماعة .

ويتضح من وصف العبدري للقدس أن المدينة كانت ما تزال تُعاني من آثار الخراب الذي حل بها سنة ٦١٦هـ/١٢١٩ عندما هدم الملك عيسى الايوبي المعظم اسوارها (وليس الملك الظاهر كما قال العبدري) ومن الاحداث التي مرت عليها في اواسط القرن، حين سُلمت للصليبيين وتمكنوا من احتلالها مرتين. ويأتي العبدري في كلامه الموجز على ذكر كنيسة القيامة ورباط المنصور ورباط البصير وهما من اهم اربطة المدينة في ذلك الوقت، وقبر مريم عليها السلام في وادي جهنم وقبر رابعة العدوية ومصعد عيسى عليه السلام (في الطور).

أما وصف المسجد الأقصى فليس فيه جديد. وهو يأخذ عن أبي عبيد البكري الجغرافي الاندلسي قياسات المسجد. ويصف العبدري قبة الصخرة وصفا يفيض شاعرية ويدل على انبهاره بما رأى منها .

ومما يدل على نظرة العبدري الناقدة قوله: [وفي القبة - قبة الصخرة - صورة درقة كبيرة من حديد^(١) معلقة هنالك واطتها كانت مرآة ولكنها قد صدثت وزال صقالها، والعوام تقول انها درقة حمزة (عم النبي صلى الله عليه وسلم) واشتهر عندهم هذا الزور حتى صار في حد المقطوع به].

وأما الحياة العلمية في القدس فلم تعجبه شأن القدس في ذلك شأن اكثر البلدان التي زارها في رحلته . . . قال العبدري: (ولم أر في هذا البلد مع شرفه واشتهاره من هو اهل لأخذ العلم عنه ولا معنياً به الا شيخاً هو قاضي البلد يلقب بدر الدين، وهو محمد بن ابراهيم بن سعد بن جماعة^(٢)). ثم روى أنه حضر له مجلسين من مجالسه فلم يخرج منها بطائل، واتهمه بالاغارة على مؤلفات غيره، كما هو مفصّل في مقتطفات الرحلة في القسم الثاني من هذا الكتاب .

أما الثالث من اصحاب الرحلات الذين وردوا الى القدس من الاندلس في نهاية القرن السابع / الثالث عشر فهو:

الدرقة : ترس من الجلد .

هو محمد بن ابراهيم بن سعدالله بن جماعة الكناي الحموي الشافعي ، بدر الدين ، قاض من العلماء بالحديث وسائر علوم الدين ولد في حماة سنة ٦٣٩/١٢٤١ ، وولي الحكم والخطابة في القدس ثم القضاء بمصر، ثم قضاء الشام ثم قضاء مصر الى أن شاخ وعمي . كان من خيار القضاة ، وتوفي بمصر . له تصانيف منها «المنهل الروي في الحديث النبوي وتذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم» و«غرر البيان لمهمات القرآن» و«تحرير الاحكام في تدبير اهل الاسلام» . توفي ٧٣٣/١٣٣٣ ، الاعلام ٢٩٧/٥ ، السلوك ، للمقرئزي ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٧٤٥ ، ٧٧١ ، ٧٧٢ ، ٧٩٨ ، ٨٠٣ ، ٨٠٩ ، ٨٢٨ ، ٨٨٩ ، ٩٠١ ، ٩٠٣ ، ٩٢٧ ، ٩٢٩ ، طبعة ٢ ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

وهو من اهل سبتة ايضاً التي انجبت ابن رشيد الفهرى . وابن رشيد والتجيبى والعبدرى من عصر واحد .

والتجيبى من بني نُجَيْب الذين انتشروا في الاندلس والعدوة المغربية منذ اوائل الفتح الاسلامي وخرج منهم رَهْط من العلماء . ولد في حدود سنة ٦٧٠/١٢٧٠ . وارتحل من سبتة الى المشرق سنة ٦٩٦/١٢٩٥ ، فاجتاز البحر ثم سافر براً إلى تونس فمصر . ثم عاد الى المغرب حيث توفي في حدود سنة ٧٣٠/١٣٢٩ .

حملت رحلة التجيبى عنوان «مستفاد الرحلة والاعتراب»، وهي في عدة مجلدات . وقال ابن حجر إنه وقف على ثلاثة مجلدات ضخمة منها حدا فيها حدو ابن رشيد . وكان هذا قد رحل قبل التجيبى بنحو عشر سنين . وزاد هو على رحلة ابن رُشيد بتضمين الرحلة مشيخةً له . وكان يفعل ذلك في كل بلد دخلها . الجزء الاول من الرحلة تضمن خروجه من سبتة الى مصر . والجزء الثاني بدأه بذكر مدينة القاهرة وتحدث فيه عن اوائل مشاهداته في بلاد الحجاز . وقد نشر هذا الجزء بتحقيق عبد الحفيظ منصور وصدر عن الدار العربية للكتاب (ليبيا - تونس ١٩٧٥) . اما الجزء الثالث فيتضمن بقية اخبار الحجاز والشام وحديثه عن القدس والمسجد الأقصى . ويؤيد هذا قوله عن احد الاحاديث الشريفة في الجزء المنشور من مستفاد الرحلة والاعتراب (ص ٣٢٩) : «ويأتي ذكر هذا الحديث عند ذكر المسجد الأقصى ، إن شاء الله تعالى» . لكن الجزء الثالث ما يزال مفقوداً مع الأسف . ولذلك فإننا نمسك عن الحديث عنه .

(١) له تراجم موجزة في :

- ابن حجر ، «الدرر الكامنة» ٣/ ٢٤٠ ، (حيدر اباد ، ١٣٢٩) .
- عبد السلام بن سودة ، «دليل مؤرخ المغرب» ، ٢ ، ص ٣٤١ .
- التجيبى ، «مستفاد الرحلة والاعتراب» ، تحقيق عبد الحفيظ منصور (ليبيا - تونس ١٩٧٥) (المقدمة) .
- محمد الحبيب الهيلة ، «القدس واشعاعها الثقافي» في المؤتمر الثالث لتاريخ بلاد الشام ، ص ٢٩١ ، مجلد (١) .

القرن الثامن / الرابع عشر

استمر سَيْل الرحلات المغربية الى المشرق منذ اوائل الثلث الثالث من القرن السابع حتى اواسط القرن الثامن، ثم توقف في القرنين التاليين، حتى اوائل القرن الحادي عشر بسبب الكارثة التي حلت بالاندلس. لا نستثني من ذلك سوى زيارة قصيرة قام بها الى القدس عبد الرحمن بن خلدون في اوائل القرن التاسع وسيأتي ذكرها.

فقد ورد الى القدس من اصحاب الرحلات في النصف الاول من القرن الثامن بالترتيب كل من محمد بن جابر الوادي آشي ومحمد بن بطوطة ومحمد بن مرزوق وخالد بن عيسى البلوي، وجميع هؤلاء من بلاد المغرب والاندلس. - اثنان من الاندلس واثنان من المغرب. وازفاقة الى هؤلاء الأربعة زار القدس في هذه الفترة رحالة من مصر هو جمال الدين بن نباته. وسوف نتناول هؤلاء الرحالة تباعاً حسب الترتيب الزمني :

٨ - محمد بن جابر الوادي آشي (او الوادي ياشي، كما يقال أحياناً)
(٦٧٣-٧٤٩ / ١٢٧٤-١٣٣٨).

محمد بن جابر بن محمد بن قاسم الوادي آشي، كما هو واضح في نسبه، اصله من وادي آش، وهي مدينة جنوب الاندلس تقع الى الشرق من غرناطة. وكان اسمها القديم غواديكس Gaudix ولكن مولد الوادي آشي ووفاته بتونس. وكان الوادي آشي شاعراً رحالاً عالماً بالحديث، وهو من مشايخ لسان الدين بن الخطيب وعبد الرحمن بن خلدون. وقال عنه ابن مرزوق^(١): «عاشرته كثيراً واول ما قرأت عليه بالقاهرة ثم بفاس، وبظاهر قسنطينة وفي بجاية وبظاهر المهديّة». له ديوان شعر في مجلد كبير^(٢).

وقال ابن خلدون: «ولازمت أيضاً مجلس إمام المحدثين بتونس، شمس الدين ابي عبد الله محمد بن جابر بن سلطان القيسي الوادي آشي صاحب الرحلتين. وسمعت عليه كتاب الموطأ من اوله الى آخره، وبعضاً من الامهات الخمس وناولني (اي أجازني) كتباً كثيرة في العربية والفقه واجازني اجازة عامة، واخبرني عن مشايخه المذكورين في برنامجه، اشهرهم بتونس قاضي الجماعة ابو العباس احمد بن الغماز الخزرجي»^(٣).

(١) محمد بن احمد (٧١٠ - ٧٨١ / ١٣١١ - ١٣٨٠)، فقيه خطيب من تلمسان، رحل الى المشرق ٧١٨ مع والده وزار القدس وسيأتي ذكره.

(٢) الزركلي، الاعلام ٦/٦٨.

(٣) عبد الرحمن بن خلدون، «التعريف بابن خلدون ورحلته» غرباً وشرقاً، تحقيق محمد بن تاويث الطنجي، القاهرة، ١٩٥٩، ص ١٨.

وهكذا فإنَّ الوادي آشي قام برحلتين الى المشرق . وزار القدس والخليل في رحلتيه . وكانت الثانية منها سنة ١٣٢٢/٧٢٢ ويقول محمد الحبيب الهيلة : إنه تعرض في برنامجه (ثبت شيوخه) الى ذكر الشيوخ الذين اخذ عنهم والكتب التي درسها عليهم . فقد قرأ مُسند الامام الشافعي على برهان الدين الجعبري^(١) كما اخذ عنه ثلاثة وعشرين كتاباً من تأليفه واجازة اجازة عامة بشروط ، وقرأ كتاب «التوكل» لابن أبي الدنيا^(٢) وكتاب «فضل الكلاب على الثياب» لابن المرزبان^(٣) علي الشيخ شهاب الدين الطبري المقدسي ، وأخذ عن بدر الدين بن جماعة قاضي القدس كتباً كثيرة . ولعله في رحلته الثانية التقى به في دمشق فروى عنه ابياتاً يحمن فيها الى بيت المقدس ويذكر عهده بها ، كما اخذ كثيراً عن رواة الاحاديث من المقدسين والمقدسيات منهن هنية بنت علي بن عسكر الهراس^(٤) . والآن نأتي الى اشهر الرحالة العرب على الاطلاق وهو :

٩ - محمد بن عبد الله بن بطوطة الطنجي (٧٠٣-٧٧٩ / ١٣٠٤-١٣٧٧)

ولد ابن بطوطة في طنجة سنة ٧٠٣ من اسرة وصل كثير من افرادها الى مناصب القضاء . وغادر وطنه ١٣٢٤/٧٢٥ لأداء فريضة الحج ولكن سفره استغرق ٢٨ سنة . سافر من المغرب الأقصى الى مصر براً ثم واصل سفره براً الى فلسطين ورافق ركب الحج الشامي الى مكة سنة ١٣٢٦/٧٢٦ . ثم زار العراق وايران وسنجان وماردين ثم عاد الى الحجاز ومنها ذهب الى عدن واليمن وزيلع ومقديشو وعاد الى جنوبي جزيرة العرب ثم سافر الى بلاد الشام فالاناضول فالقرم والقوقاز فالقسطنطينية فقابل امبراطورها . وسافر منها الى آسيا الوسطى ودخل الهند ١٣٣٣/٧٣٤ ثم غادرها الى سيلان والبنغال والملايو وسومطرة ووصل الى الصين ، وعاد منها الى سومطرة فالخليج العربي والعراق ووصل دمشق بعد غياب عشرين سنة وبعدئذ اتجه الى عيذاب وابحر منها الى القاهرة . وغادر مصر الى وطنه سنة ١٣٤٩/٧٥٠ . ولما عاد الى فاس اتصل بسلاطنها أبي عنان المريني فأمر السلطان كاتبه ابن جزى بتدوين ما املاه ابن بطوطة من الرحلة . وفرغ من ذلك سنة ٧٥٧ . ويحمل كتاب رحلته عنوان : «تحفة النظائر في غرائب الاقطار وعجائب الاسفار» . وقام ابن

(١) هو ابراهيم بن عمر الجعبري ولد سنة ١٢٤٢/٦٤٠ بقلعة جعبر ورحل الى الخليل واقام بها ٤٠ سنة . ولعله كان ابرز علماء القراءات في زمنه ، ووضع في هذا العلم كثير من المصنفات . قرأ عليه الكثيرون منهم صلاح الدين الصفدي والسبكي والذهبي («الانس الجليل» ١٥٤/٢) .

(٢) عبد الله بن محمد بن ابي الدنيا (٢٠٨ - ٢٨١ / ٨٢٣ - ٨٩٤) بغدادى حافظ للحديث ، مكث من التصنيف . وكان من الروعاظ ، ادب الخليفة المعتضد ثم ابنه المكتفى . وضع ١٦٤ مؤلفاً .

(٣) «في كشف الظنون» ٢/١٢٧٩ «فضل الكلاب على اكثر من لبس الثياب» لابن المرزبان على بن احمد البغدادي المتوفى سنة ٣٦٦ / ٩٧٦ .

(٤) محمد الحبيب الهيلة ، القدس واشاعها الثقافي ، «المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام» ، المجلد الاول ، ص ٢٩٦ ، عمان ١٩٨٣ . ويقول الاستاذ الهيلة ان للوادي آشي برنامجاً حافلاً منه نسخة كاملة بالاسكوريال رقم ١٧٢٦ ونسخة ناقصة بالمكتبة الوطنية بتونس رقم ٢١٠٠٤ ، وانه حقق هذا البرنامج ، واعد له للطبع . ولا ندري ان كان هذا الكتاب قد صدر بالفعل .

بطوطة بعد رحلته الطويلة برحلتين آخرين احدهما الى الاندلس والأخرى الى اواسط افريقيا .
وتوفي في مراكش .

قام ابن بطوطة بزيارة بيت المقدس مرتين، الاولى سنة ٧٢٦/١٣٢٥، والثانية سنة
١٣٤٨/٧٤٩ .

في زيارته الاولى قدم اليها من مصر . وأذ كان قد ترك مصر في ١٥ شعبان فترجع انه كان في
القدس في رمضان ٧٢٦ . وكان خط سيره هو : مصر - بلبس - الصالحية - العريش - قطيا
(الجمرك والحدود) - غزة - الخليل - حلحول - بيت لحم - القدس .

وقد وصف ابن بطوطة المدينة ومسجدها وصفا يقارب وصف العبدري . ومثل العبدري
ذكر خطأ ان الملك الظاهر (بيبرس) لا الملك المعظم عيسى الايوبي هو الذي هدم سور المدينة .

وكثير من العبارات التي أوردها ابن بطوطة ماثلة، بل تكاد تكون متطابقة، مع أقوال
العبدري، مما يدل على انه (هو أو ابن جزري الذي كتب الرحلة) قرأ رحلة العبدري . . . ومن
ذلك ما ذكره عن مقياس المسجد وكذلك قوله :

«وله اي للمسجد الأقصى ابواب كثيرة واما الجهة القبلية منه فلا اعلم بها الا باباً واحداً
وهو الذي يدخل منه الامام» . وقوله بالحرف الواحد ايضا :

- «والمسجد كله فضاء غير مسقف وفي المسجد مواضع مسقفة» .

- «قبة الصخرة من أعجب المباني واتقنها وأغربها شكلاً» .

- «الصخرة لها أربعة ابواب والدائر مفروش بالرخام المحكم الصنعة، ودأخلها كذلك

. . . وفي ظاهرها وباطنها من انواع الزواقة (التزويق في العبدري) ما يعجز الواصف (ما يقصر
عنه الوصف في العبدري) .

ويذكر ابن بطوطة كالعبدري قبله أن حول الصخرة شباكين احدهما من خشب والثاني من
حديد . . . كما ذكر مثله ما روي له من أن المرآة المعلقة على الصخرة هي درقة حمزة، وأغرب عن
شكّه في صحة ذلك .

ولدى الحديث عن كنيسة القيامة اورد الكلمات عينها التي وردت في العبدري، وهي :
«وعلى كل من يحجها ضريبة معلومة للمسلمين وضروب الالهانة يتحملها على رغم انفسه (في
العبدري راغماً) . كل هذا يدل على ان ابن بطوطة استعان بوصف العبدري، واستعار ألفاظه ذاتها
فما يتعلق بالثواب التي لا تتغير عادة في فترة تقل عن اربعين عاماً هي المسافة الزمنية بين
الرحلتين، كوصف المدينة والمسجد مثلاً . لكن ابن بطوطة اضاف الى اقوال العبدري عدداً من
المستجدات التي طرأت بين زيارتي الرحالتين، من ذلك مثلاً قوله : «وجلب لها (اي للقدس) الماء
في هذا العهد الأخير الامير سيف الدين تنكر امير دمشق» .

وتنكر كان نائب الملك في الشام في عهد الملك الناصر محمد، وقام بالقدس باعمال عمرانية
كثيرة، من جعلتها تعميره لقناة السبيل التي كان ينساب منها الماء من وادي العروب (بين القدس

والخليل) الى المسجد الأقصى، وذلك في سنة ٧٢٦/٧٢٧ هـ - ١٣٢٧/١٣٢٨ م. ومن ذلك ايضا ذكره لقاضي القدس شمس الدين محمد بن سالم الغزى الذي يقول مجير الدين إنه كان متوليا في سنة ٧٢٩^(١)/١٣٢٩ وخطيب القدس عماد الدين النابلسي الذي يقول عنه مجير الدين ايضا انه تولى خطابة القدس مدة طويلة أيضاً وتوفى فيها سنة ٧٣٤/١٣٣٤ بمقبرة ماملأ^(٢). وعيّر هذين يذكر ابن بطوطة ممن عرف من علماء القدس المحدث المفتي شهاب الدين الطبري، وابا عبد الله بن مثبت الغرناطي مدرس المالكية. وكان ابن مثبت شيخا للخانقاه المدرسة الكريمة التي انشئت سنة ٧١٨/١٣١٨^(٣).

وفي طريق العودة من رحلته الكبرى في آسيا عرج ابن بطوطة على القدس ٧٤٩/١٣٤٨، وقدم اليها هذه المرة من دمشق عن طريق عجلون، وكان قد ارتفع منها الوباء الذي تفشى فيها قبل ذلك بوقت قصير. واجتمع هناك بعدد من علمائها ومنهم عز الدين بن جماعة، ابن عم عز الدين (المن) بن جماعة الذي كان قاضي قضاة مصر ٧٣٩/١٣٣٨. وعز الدين الأخير هذا هو ابن بدر الدين محمد الذي اجتمع به العبدري. ووجد ابن بطوطة أن معظم الاشياخ الذين عرفهم في زيارته السابقة قبل حوالي ربع قرن قد انتقلوا الى جوار الله تعالى ولم يبق منهم الا القليل مثل المحدث الامام خليل بن كيكلدي العلائي شيخ الصلاحية الذي توفى سنة ٧٦١/١٣٦٠، والصلاح شرف الدين الحنفي شيخ المدرسة الزاوية الحنفية التي وقفها صلاح الدين الايوبي على الشيخ العابد محمد الشاشي سنة ٥٨٧/١١٩١، ونفر قليل غيرهما من العلماء.

وبعد ابن بطوطة بسنوات قلائل قام علامة تلمساني كبير بزيارة القدس هو:-

١٠ - محمد بن احمد بن محمد بن مرزوق^(٤)

كان ابن مرزوق فقيها مرموقاً، وخطيباً من اعلام الفقهاء، وهو من اشياخ لسان الدين بن الخطيب وعبد الرحمن بن خلدون. وقد اثنى عليه كلاهما في «الاحاطة» و«التعريف» وأفرد له المقرئ ترجمة مسهبة في نفع الطيب، وسماه في غير موضع من كتابه هذا «عالم الدنيا»، وأشار اليه مرات عديدة في صفحات الكتاب.

ولد ابن مرزوق ونشأ في تلمسان ورحل الى المشرق لأول مرة مع والده سنة ٧١٨/١٣١٨ (وهو لم يتجاوز الثماني سنوات). ولما جاور ابوه بالحرمين رجع الى القاهرة واقام بها ثم رجع الى

(١) «الانس الجليل»، ١٢٤/٢ - ١٢٥.

(٢) المصدر نفسه، ١٣٧ / ٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٥٤.

(٤) انظر عنه: المقرئ، «نفع الطيب»، ٣٩٠/٥ - ٤١٨، كحالة، «معجم المؤلفين»، ١٦/٩ - ١٧، الزركلي، «الاعلام»

٣٢٨/٥ - ٣٢٩.

ببلاده سنة ٧٣٣/١٣٣٣، فولي اعمالاً علمية وسياسية وتقدم عند ملوك المغرب وسجنه بعضهم . وكان من أعيان الوزراء بفاس في أيام السلطان أبي سالم المريني . ثم لحق بتونس سنة ٧٦٤/١٣٦٣ فآكرمه سلطانها وولاه الخطابة بجامع الموحدين . وقد عزل من الخطابة بعد موت السلطان فازمع الرحلة الى الشرق مرة اخرى حوالي سنة ٧٧٠/١٣٦٨ - ٦٩ وسرَّحهُ السلطان . فركب السفينة ونزل بالاسكندرية ثم ارتحل الى القاهرة، ولقي اهل العلم وأمراء الدولة . وأوصلوه الى السلطان الاشرف شعبان بن خليل (٦٤٥-٧٧٨ / ١٣٦٣-١٣٧٦) فولاه الوظائف العلمية واستمر قائماً بها الى ان توفي سنة ٧٨١/١٣٧٩ .

لابن مرزوق عدد كبير من التأليف يهمنها منها هنا رسالة قصيرة سماها «عجالة المستوفز المستجاز في ذكر من سمعت (او من استجازني) من المشايخ دون من أجاز من أئمة المغرب والشام والحجاز» . وهو فهرس لشيوخه كغيره من الفهارس التي كانت تتضمنها كتب الرحلات . وربما امكن اعتباره على هذا الاساس جزءاً من كتاب رحلته الذي لم يصلنا خبر عنه . وفي العجالة يتحدث ابن مرزوق عن شيوخه في المغرب والشام والحجاز . وقد ذكر شيوخه بالقدس علاء الدين ابا الحسن على بن ايوب . وخطيب القدس النور ابن الصائغ ، والبرهان الجعبري إمام الخليل^(١) . ومن هذه الاسماء نستطيع أن نستنتج أن ابن مرزوق اجتمع بهؤلاء العلماء في القدس اثناء زيارته الاولى للمشرق ، بين سنتي ٧١٨/١٣١٨ و ٧٣٣/١٣٣٣ كما مر معنا ، وليس في زيارته الثانية الى مصر التي مرّ ذكرها في عهد السلطان الاشرف شعبان في العقد الثامن والتي استمرت عشر سنوات حتى وفاته سنة ٧٨١/١٣٧٩ . فالبرهان الجعبري ابراهيم بن عمر ، الذي يذكر انه اجتمع به - وكان من ابرز علماء القراءات في عصره - توفي سنة ٧٣٢/١٣٣٢ م . (الانس الجليل ١٥٣/٢ - ١٥٤) . وأذ كان البرهان من شيوخه فهو قد اخذ عنه قبل هذا التاريخ . اما على ابن ايوب فيذكر الانس الجليل (١٠٦/٢) انه توفي سنة ٧٤٨/١٣٤٧ بعد أن ادركته الشيخوخة وجف دماغه . اما الغرناطي (او الاندلسي) فهو الذي اجتمع به ابن بطوطة سنة ٧٢٦/١٣٢٦ وكان ذلك في الخاتمة / المدرسة الكريمة . ولم يكن اي من هؤلاء الثلاثة على قيد الحياة في اثناء اقامة ابن مرزوق الثانية في مصر ، وبذلك فان زيارة ابن مرزوق تكون قد تمت حوالي سنة ٧٣٠هـ / ١٣٣٠م وهو في حوالي العشرين من عمره .

وهناك نسخة مخطوطة من «عجالة المستوفز» في الخزانة الملكية بالرباط تحت رقم ٧٥٧٩ ، عدد اوراقها ٢٠ (٢٢ × ١٠ سم) في كل ورقة ٣١ سطراً^(٢) . وفي هذه الفترة نفسها أيضاً وقد على القدس شاعر وكاتب نبه ذكره في محافل الادب وعلا قدره عند الحكام ، وسجّل رحلة تكاد تكون مجهولة ، ولكن لها قدراً من الاهمية كان حرياً بان يلفت اليها النظر .

(١) المقري ٣٩٤/٥ - ٣٩٥ .

(٢) عنان محمد عبدالله ، «فهارس الخزانة الملكية» ، الرباط ، ١٩٨٠ ، ج ١ .

وهذا الشاعر الكاتب هو:-

١١ - جمال الدين ابن نباته، محمد بن محمد الفارقي الجذامي المصري
(١٣٦٦-١٢٨٧ / ٧٦٨-٦٨٦).

كان ابن نباته شاعر عصره واحد الكتاب المترسلين العلماء بالأدب. أصله من ميا فارقين، ومولده ووفاته في القاهرة. وقد سكن الشام سنة ١٣١٥/٧١٥ وولى نظارة «القمامة» في القدس أيام زيارة النصارى لها فكان يتوجه فيباشر ذلك ويعود. ورجع الى القاهرة سنة ١٣٦٠/٧٦١ فكان فيها صاحب سر السلطان الناصر حسن^(١) الذي استدعاه اليه، ولكنه سرعان ما سُرح من وظيفته لكبر السن، وتوفي في شهر صفر سنة ٧٦٨/شباط ١٣٦٦ في القاهرة^(٢).

وكان ابن نباته قد اقام مدة في حماة في رعاية أبي الفداء عماد الدين، اسماعيل بن علي صاحب حماة والمؤرخ والجغرافي المشهور صاحب تقويم البلدان. وعندما توفي ابو الفداء سنة ١٣٣٢/٧٣٢ مكث ابن نباته مدة قصيرة عند ابنه الملك الأفضل، ولكن سرعان ما ساءت العلاقة بينهما، فدعاه الوزير امين الدين (او امين الملك) عبد الله بن تاج الرئاسة القبطي الى دمشق. وكان امين الدين قد اسلم علي يد بيبرس الجاشنكير. وتولى الوزارة بعد ذلك ثلاث مرات في القاهرة، ثم تولى نظر الدواوين بدمشق سنة ٧٣٣/١٣٣١^(٣). وتوطدت العلاقة بين الوزير والشاعر وأخذ امين الدين يصحبه في حله وترحاله، ثم عينه ناظراً لكنيسة القيامة وعلى حجج النصارى وجباية الرسوم من الحجاج. فكان يتردد على القدس من دمشق لهذا الغرض، خاصة في ايام عيد الفصح. وكان امين الدين يهتم بالقدس اهتماماً خاصاً فوقف فيها المدرسة المعروفة باسم المدرسة الأمينية، وكان ذلك سنة ٧٣٠/١٣٣٠. وتقع هذه المدرسة بباب العتم شمالي الحرم، ومبناها مؤلف من طابقين^(٤).

وفي سنة ٧٣٥/١٣٣٤ - ٣٥ اعتزم الصاحب (الوزير) أمين الدين أن يزور القدس ويتفقد الاوقاف التي كان مسئولاً عنها في القدس والخليل والرملة، وغيرها من الأماكن في فلسطين. واصطحب الوزير جمال الدين بن نباته في رحلته هذه وطلب منه أن يكتب وصفاً لها. ويقول ابن نباته في مقدمة الرحلة إن الوزير اراد أن يُسري عنه بعد فجيعة بولده عبد الرحيم فصحبه معه الى القدس الشريف.

ونحن نجد نص هذه الرحلة التي سجلها ابن نباته في كتاب «ثمرات الاوراق» لابن حجة الحموي (تقي الدين) المطبوع على هامش الجزء الاول من كتاب «محاضرات الادباء» للراغب الأصفهاني حسين بن محمد وكذلك على هامش كتاب «المستطرف في كل فن مستظرف»

(١) الزركلي، «الاعلام» ٢٨/٧.

(٢) Brockelmann, Gal, II, 11, Supp II, 5.

(٣) ابن حجر، «الدرر الكامنة»، ج ٢، الطبعة الثانية، القاهرة ١٣٨٥/١٩٦٦. ص ٣٥٧-٣٥٨.

(٤) «الأنس الجليل» ٢٩/٢، «معاهد العلم في بيت المقدس»، ص ٢٣٥.

للأبشيهي . كما نُشر كتاب الثمرات مستقلاً في القاهرة، سنة ١٩٥٢ بتحقيق ابو الفضل ابراهيم، وقد نقلنا نص القسم الخاص بالقدس من هذه الرحلة عن كتاب الراغب الاصفهاني من ص ٣٦٩ - ٣٧٥ .

سُمى ابن نباته رحلته هذه «حظيرة الانس الى حضرة القدس» . ويؤخذ من كتاب «الوافي بالوفيات» لصلاح الدين بن أيك الصفدي أن ابن نباته جمع رحلته وأرّخها في «حظيرة القدس» تم عاد ففصلها في سفر كبير سماه «التحفة الانسية في الرحلة القدسية^(١)» وورد اسم الرحلة المفصلة هذه في «كشف الظنون» بعنوان «النحلة الإنسية في الرحلة القدسية^(٢)» .

بدأ الصاحب وابن نباته الرحلة من دمشق، وكان خط سيرهما كما يلي :

الكسوة، وهي اول منزلة كانت تنزلها القوافل اذا خرجت من دمشق جنوباً، ثم الصنمين، وهي قرية من اعمال دمشق في اوائل حوران، ثم رأس الماء، فالحصين (ولعل المقصود «الحصن» على مقربة من اربد بشمال الاردن)، فعجلون . ثم استراح ركب الوزير على سفح الجبل عند قلعة عجلون، وهي قلعة الرّيبض التي بناها عز الدين اسامة من رجال صلاح الدين سنة ١١٨٤/٥٨٠ . ووصف ابن نباته هذه القلعة بأسلوبه المزرکش المسجوع بقولة : « وهي في معارج السحب صاعدة، شائدة في الجو كأنها في الشجر على عمود الصبح قاعدة، مضيفة بين عقود الانجم كأنها درتها اليتمة حالة على سرير الخيل تنادم الفرقدين كأنها جذيمة^(٣)» . وبعدئذ توجه الركب الى الغور وزار مشهد ابي عبيدة بن الجراح في الغور ثم قطع نهر الاردن الى جهة بيسان على الاغلب وبعدها اتجه الى القدس، ومن هناك سار الوزير وصحبّه الى الخليل وبعدها الى الرملة حيث امر أمين الدين بتعمير الجامع الركني (الجامع الابيض) . وغادر الرملة الى سبسطيه حيث زار مشهد يحمي وذكريا . ثم قطع الغور فزار مشهد معاذ بن جبل (في قرية معاذ بوادي العرب) . ثم اجتاز قرية طيبة الاسم في طريق العودة الى دمشق .

دامت زيارة الوزير وصحبته الى القدس مدة سبعة ايام . وقد وصل الى القدس قبيل الفجر . ونزل في الحرم الشريف . وزار باب الرحمة والمسجد الأقصى . وكان المطر ينزل مدراراً . وبيدوان الوزير وابن نباته قد نزلا في دارة فخمة لشخص يدعى الخلد، واستقبل افواجا من الزوار . ثم قاما بزيارة بعض المشاهد، وزارا الصخرة مرة أخرى، والمباني العظيمة المبنية من الرخام بما فيها منشآت المياه التي تجري في الحرم . وبعدها من هذه المباني بشكل خاص ما ذكره ابن نباته عن

(١) عمر موسى باشا، «امير شعراء المشرق ابن نباتة المصري»، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣ .

(٢) حاجي خليفة، «كشف الظنون»، ١٩٣٤/٢ .

(٣) جذيمة الأبرش المتوفى نحو ٢٦٨م . من ملوك العرب في الجاهلية . اسس الحيرة والانباء وملك الحيرة . (المتجدد) . كان يقال له نديم الفرقدين، وهما نديمان كانا له - بطرس البستاني، «دائرة المعارف»، ج ٦/٦، دار المعرفة، بيروت،

المدرسة الأمينية التي بناها الصاحب امين الدين قبل هذه الزيارة بخمس سنوات. ويُفهم من وصف ابن نباتة لها انها كانت مجمّعا يتألف من زاوية ومدرسة ودار حديث، وخانقاه للصوفية، ورباطاً ومكتباً للايتام. ويقول ابن نباتة إن الصاحب شرع في اثناء هذه الزيارة في بناء رواق على سطح هذه المؤسسة من احجار الرخام التي أحكم ووضعا وتزيينا وحوت الواحها «من الحسن كل شيء». ويبدو ان الزاوية الصّاحبية كانت مؤلفة من طابق واحد فاضيف اليها طابق ثانٍ. وبعد تفقد المدرسة امر الصاحب فرتب لشيخ المدرسة والصوفية (الفقراء) المقيمين فيها «ما يحتاجون اليه من كل نوع فريد واصبح كل احد وهو للنزول عند ذلك الشيخ مُريد». وبنوه ابن نباتة بالصدقات التي أغدقها الوزير على فقراء القدس الذين جاؤا رجالا ونساءً والتي شملت الكسارى وثياب الصوف والدراهم التي جاد بها بسخاء كما اشار الى الاحتفاظ بختمات القران ومجالس التفاسير التي كان يُنفق عليها من الأوقاف الصاحبية. وانتهت بذلك زيارة الصاحب وصحبه الى القدس بعد سبعة ايام، ثم توجه الجميع الى الخليل لزيارة الحرم الابراهيمي الشريف، ومنها الى الرملة وغيرها على الوجه الذي بُيناه من قبل.

وبعد زيارة ابن نباتة الى القدس بستتين وفد على المدينة رحالة آخر من الاندلس هو:-

١٢ - خالد بن عيسى البلوي

القاضي ابو البقاء علم الدين خالد بن عيسى البلوي من اهل قنطرة، وهي حصن من حصون وادي المنصورة من اعمال ولاية ألمرية في الاندلس، وتقع على نهر المنصورة. ولد حوالي سنة ٧١٣/١٢١٣ وتوفي قبل سنة ٧٨٠/١٣٧٨. رحل من بلده الى غرناطة ثم الى فاس حيث اخذ عن علمائها ثم رحل الى المشرق، وهذه الرحلة هي التي ألف فيها كتابه المشهور «تاج المرقق في تحلية علماء المشرق»^(١).

بدأ البلوي رحلته الى المشرق من قنطرة في ١٨ صفر سنة ٧٣٦/١٣٣٦، فسار الى المرية ثم الى مرسى هنين (بافريقيا الشمالية)، ومنها الى تلمسان فبجاية فقسطنطينة فعنابة فتونس. وفي ٧ ربيع ثانٍ سنة ٧٣٧/١٣٣٦ ابحر من تونس الى مالطة ثم كريت (اقريطش) ثم قبرص. وسافر من قبرص الى الاسكندرية فوصلها في ١٣ جمادى الآخرة سنة ٧٣٧/يناير ١٣٣٧ ثم غادرها الى القاهرة وبقي فيها حوالي شهر ونصف. وخرج من القاهرة قاصداً الديار المقدسة في الحجاز في ٢٨ رجب ٧٣٧/١٣٣٧ فوصل الى غزة في ٧ شعبان والى الخليل في ٩ شعبان. ووصل بيت المقدس يوم الاربعاء الثاني عشر من شعبان وبقي فيها حتى الثاني عشر من شوال اي مدة شهرين، وغادر القدس الى المدينة ومكة، ورجع من الحجاز إلى أيلة وواصل السير من أيلة الى القدس فالرملة ففسقلان فمصر. ومن مصر عاد الى المغرب ثم الاندلس.

(١) عن مقدمة كتاب: «تاج المرقق» للحسن السائح، محقق الرحلة. وقد طبع الكتاب في المغرب، لكن دون تاريخ ودون مكان نشر.

وبدأ البلوي في تدوين رحلته منذ خروجه من بلده واكملها سنة ١٣٣٩/٧٤٠-١٣٤٠ ثم فرغ من تأليفها نهائيا سنة ١٣٦٧/٧٦٨. وكان يسجل مذكراته بضبط ودقّة ولا يعتمد على ذاكرته.

ورحلة البلوي تاج المفرق هي من أهم الرحلات الاندلسية والمغربية. . . وهي ذات قيمة كبرى سواء من الوجهة التاريخية او الادبية او العلمية. وقد احتلت الحركة العلمية في البلدان التي زارها مكانة بارزة في الرحلة. وقد تحدث المقرئ عن تاج المفرق فقال «وهذه الرحلة المسماة بتاج المفرق مشحونة بالفوائد والفرائد، وفيها من العلوم والآداب ما لا يتجاوزها الرائد»^(١). وقد عني البلوي في رحلته باظهار مقدرته اللغوية وبراعته في صنوف البلاغة وترتيب الاسجاع، وايراد ضروب المترادفات والكلمات المنمقة. وهي خصائص كانت تميّز معظم كتاب هذه الفترة في المغرب والمشرق. وكان جمال الدين بن نباته من اشهر ممثلي هذه الطريقة التي كثيرا ما تُكثف المعاني بقيود الألفاظ. وقد نسب بعضهم القاضي خالداً المذكور الى انتحال كلام العماد الأصفهاني في «البرق الشامي» لأن خالداً أكثر من الاسجاع على طريقة العماد. ومن هذا البعض لسان الدين بن الخطيب الذي يقول المقرئ انه يظن أنه كان منحرفاً عن البلوي^(٢) على أن خالداً البلوي لم ينقل معاني كتابه وفحواه عن العماد لاختلاف موضوعي الكتابين، ومع ذلك فيبدو أن البلوي نقل بعض عبارات في وصف المغرب عن بعض ما كتبه ابو المطرف احمد بن عميرة المخزومي في كتابه الاغتباط. وكان ابن عميرة هذا كاتباً للموحدين في الاندلس والمغرب^(٣). وما دام الأمر يقتصر على جمل او عبارات فانه يهون. فقد كان من عادة بعض الكتاب في ذلك الزمان ان يتحلوا صفحات كثيرة كاملة من كتب غيرهم وينسبونها الى انفسهم.

والآن ننتقل الى الجزء الخاص بالقدس من تاج المفرق. ويستغرق هذا الجزء ثلاثين صفحة من صفحات الكتاب، مليئة بالمعلومات والفوائد، على الرغم من الترادف الكثير والاسجاع التي اشرنا اليها.

وأود قبل الحديث عن وصف البلوي للقدس ان أشير الى كثرة الاخطاء المطبعية وغير المطبعية في النص المطبوع الذي حققه الحسن السائح. والحق انه تحقيق غير كامل من وجوه عديدة. وقد حاولت أن أتلافى الأخطاء واصححها قدر الامكان وأمل أن أكون قد نجحت الى حد ما، على الرغم من أن ايا من مخطوطات الرحلة السابقة ليس في حوزتي.

ينقسم ما كتبه البلوي عن القدس، وهو مطول بالمقارنة مع الرحلات المغربية والاندلسية السابقة، إلى قسمين رئيسيين اولهما: وصف الحرم الشريف بما فيه المسجد الأقصى وقبة الصخرة، وغيرهما من القباب والمشاهد وثانيهما الحديث عن الحركة العلمية والعلماء في القدس.

(١) المقرئ، «دفع الطيب»، ٥٣٢.

(٢) «دفع الطيب»، ٥٣٣/٢.

(٣) مقدمة الحسن السائح بتاج المفرق، ص ١٠٩.

وفيا يتعلق بوصف الحرم يستغل البلوي أقصى ما عنده من قدرات في البيان ودقة التصوير والوصف المفصل لينقل الى قرائه الأثر المهيّب الرائع الذي تحدّثه زيارة الحرم في نفس كل من يزوره. ويكرّر البلوي ما ذكره غيره أيضاً من أن عدة ابواب الحرم (او المسجد الأقصى) خمسون باباً. ولا ادري من أين جاءوا بهذا العدد، فالابواب القديمة والجديدة التي نعرفها لا تتجاوز بحال من الاحوال نصف هذا العدد. ولعل أهم ما يلفت النظر في وصف البلوي هو تسجيله لعدد من النقوش الكائنة في الحرم. وبعض هذه النقوش ما يزال موجوداً الى الآن. اما اكثرها فقد عفى عليها الزمان. وهنا تكمن أهمية حفظ هذه النقوش في الكتاب. وقد أحصينا هذه النقوش وعددها ثمانية وسجلنا نصوصها كما وردت في تاج المفرق وعلقنا عليها بما نعرفه. وهذه النقوش هي بالترتيب كما يلي:-

١. في المسجد الأقصى:

[أمر بتجديد هذا المحراب المقدس، وعمارة المسجد الأقصى الذي هو على التقوى مؤسس عبد الله ووليه يوسف بن ايوب المظفر الملك الناصر صلاح الدين والدنيا عند ما فتحه الله على يديه في شهور سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وهو يسأل الله ايزاعه شكر هذه النعمة وإجزال حظه من المغفرة والرحمة].

وهذا النقش مسجّل تسجيلاً دقيقاً. وقد سجله فان برشم بنصه هذا في اوائل هذا القرن في كتابه CIA, Jerusalem II, No.280 دون اي اختلاف. وقد اختفى النقش بعد الحريق المتعمد الذي شب في المسجد الأقصى سنة ١٩٦٩.

٢. في المسجد الأقصى

خلف محراب زكريا كتبت الآية الكريمة: «يا زكريا انا نيشرك بغلام اسمه يحيى» كتبت خطأ هكذا [يا زكريا إنا بشرناك بغلام اسمه يحيى]. ولعل هذا من خطأ الناسخين. وهذا هو الغالب والمرجح.

٣. في قبة الصخرة

في الوسط مكتوب بالذهب في أرض سماوية لازوردية على الدائرة ما نصّه: [أمر بتجديد تذهيب هذه القبة الشريفة مولانا السلطان الملك الناصر العالم العادل المجاهد المؤيد من السماء ناصر الدنيا والدين محيي العدل في العالمين وظل الله في أرضه القائم بستته وفرضه محرر ممالك الدنيا ومظهر كلمة الله العليا مشيداً اركان الشريعة الشريفة سلطان الاسلام (ابن) الشهيد الملك المنصور قلاون تغمده الله برحمته وذلك في شهور سنة ثمان عشرة وسبعمائة].

لم نجد هذا النقش في فان يرشم ولكنه كان موجوداً بفحواه العام في ١٩٥٧/٥/٢٨. وقد

(١) هذه الكلمة ساقطة من النص المكتوب.

سجله المهندس صالح احمد الشواربي المهندس المقيم للمكتب المعماري الهندسي على الوجه التالي :-

[أمر بتجديد وتذهيب هذه القبة مع القبة الفوقانية برصاصها مولانا ظل الله في ارضه القائم بستته وفرضه السلطان محمد بن الملك المنصور الشهيد قلاون تغمده الله برحمته وذلك سنة ثمان عشر وسبعمائة]^(١).

ونعتقد أن الاختلاف في النص يرجع إلى إعادة كتابة النص بعد اصلاحات جرت في القبة في فترة زمنية لاحقة .

٤ . في قبة الصخرة

[هذا باب الجنة]

٥ . في قبة الصخرة

على لوح نحاسي ملصق فوق باب القبة الشمالي الداخلي (الباب الداخلي لباب الجنة) :
[بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي لا إله الا هو الحي القيوم لا شريك له الاحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد محمد عبد الله ورسوله ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون آمنا بالله وما انزل على محمد وبما اوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون صلى الله على محمد عبده ونبيه والسلام عليه ورحمة الله وبركاته ومغفرته ورضوانه مما امر به الامام المأمون امير المؤمنين اطال الله بقاءه في ولاية اخي امير المؤمنين ابي اسحاق بن امير المؤمنين الرشيد ابقاه الله وجري على يد صالح بن يحيى مولى امير المؤمنين في شهر ربيع الأخير سنة ست عشرة ومائتين]

وهذا النص سجله عبد الله مخلص في عشرينات هذا القرن العشرين ونشره في مجلة «لغة العرب» ج ٢٣ السنة ٦ آذار سنة ١٩٢٨ .

ويتبين من مقارنة نص البلوي ونص عبد الله مخلص أن النصين متطابقان الى حد بعيد، مع وجود اختلافات طفيفة :-

في البلوي : ارسله بالهدى

في مخلص : ارسله الله بالهدى

في البلوي : مما امر به الامام المأمون .

في مخلص : (وفان برشم) مما امر به عبد الله الامام المأمون .

في البلوي : ابي اسحاق بن أمير المؤمنين الرشيد

(١) المكتب المعماري الهندسي لاصلاح واعمار الصخرة المشرفة في القدس، «اصلاح واعمار مبنى قبة الصخرة المشرفة»، المجلد الثالث: الدراسات والابحاث الفنية والتاريخية، ص ٩٧ .

في مخلص: كلمة الرشيد غير موجودة وهي موجودة في فان برشم.

في البلوي: وجري على يد صالح.

في مخلص: وجرا على يد صالح.

في البلوي: ربيع الأخير.

في مخلص: ربيع الآخر.

ومن هذا يتبين أن البلوي كان دقيقاً في نقله على وجه العموم. وهذا النقش مسجل في فان

برشم CIA, Jerusalem II, No. 216 وكذلك no. 217.

٦ . في قبة السلسلة :-

بوسطها تاريخان مكتوبان بالذهب أحدهما في أرض خضراء زرعيه ونصه : [بسم الله الرحمن الرحيم وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً . كمل تجديد بطن هذه القبة السلسلة المباركة ونقش سقفها وتبليطها في شهور سنة ست وتسعين وخمسائة].

وهذا النقش غير موجود في فان برشم . وهو غير موجود الآن .

٧ . في الركن الغربي من صحن الصخرة

على مسجد فيه قبتان منتظمتان عجيبتان^(١) ما نصه [بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله وصلواته على خير خلق الله محمد وآله وصحبه اما بعد فما زالت همم ملوك الاسلام تتناصر على اثبات مفاخر يبقى ذكرهم ببقائها وإنشاء محاسن يباهون الأمم ببهاثها فيحيون رسوماً طالما نسجت عليها العناكب ويرقمون على صفحات الايام من الخيرات رقماً تشرف اليه الكواكب فتظل عيون الأمانى بماثرهم قريرة واعواد احبائهم بمفاخرهم مورقة نضيرة اعطاهم الله قدرة فصرفوها إلى رفع اقدارهم ، وآتاهم الدنيا فلم يتركوها غفلاً من محاسن آثارهم :

(فتراهم دون الرجاء وذكرهم ياق بها فكأنهم أحياء)

فلله درفتى تبقى مساعيه بعده مشكورة ومناقبه ما بقيت آثارهم مذكورة . ولما تشعث السقف الذي كان أنشأه الملك المعظم الواقف المذكور يرحمه الله انتدب لإحيائه عبد الله الفقير اليه اسد الدين عبد القادر^(٢) سبط الواقف بحكم ما آل اليه من النظر الشرعي في اوقاف جده فجدده وبذل وسعه وطاقته فيه ابتغاء مرضاه الله تعالى . وكان الفراغ منه في ربيع الأخير سنة تسع وعشر وسبعمائة من الهجرة النبوية وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم].

وهذا النقش غير موجود في فان برشم وقد زالت معالمه .

(١) هو القبة النحوية .

(٢) كان عبد القادر بن عبد العزيز بن المعظم عالماً . وقد توفي سنة ٧٣٧/١٣٣٧ عن خمس وتسعين سنة (ابن حجر ، الدرر) ، ٣٩٠/٢ .

[بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي رفع لبيت المقدس في سائر المَلَل ذكراً وفضله على أكثر البقاع شرفاً وفخراً وجمع القلوب على محبته تعظيماً لرتبته وقدرها واسرى بخير خلقه اليه ثم انزل عليه صلوات الله عليه سبحانه الذي اسرى فيها بشرى لمن بنا الله فيه بيتاً ولو كان شبراً ويا اسعد من اسدى للناس فيه ثواباً وبراً لقوله تعالى : « وما تقدموا لانفسكم من خير تجدوه عند الله » هو خيراً واعظم اجراً، فأبي خير اعظم من إنشاء هذا المكان وبناء هذا الايوان الذي باب الرحمة مفتوحاً بين يديه والطور امامه والشجر تحت قدميه، والجامع الأقصى كالقمر ناظر اليه، والصخرة الشريفة كالشمس مقبلة عليه، وهو كالهلال قد ظهر بين الشمس والقمر
ما الشمس ما البدر في لآلاء بهجته

في كل ناحية من وجهه قمر

ارجو لبانيه أن يعطى امانيه وأن يفوز من الملك الجليل بالعطاء الجزيل والثناء الجميل والظل الظليل وحسبنا الله ونعم الوكيل]. وهذه الكتابة اختفت الان .

أما فيما يتعلق بالحركة العلمية في القدس فيركز البلوي حديثه في خمسة من علماء المدينة أخذ عنهم وحضر مجالسهم، وهؤلاء العلماء أولهم عبد الرحيم بن (بدر الدين) محمد بن ابراهيم ابن جماعة خطيب المسجد الأقصى وهي رتبة اخذها عن اسلافه . وقد دعا البلوي الى منزله «الجليل القدر» وكان بابه يلاصق محراب المسجد الأقصى . ونفهم من هذا بأن بدر الدين كان يسكن المدرسة الختنية الكائنة خلف محراب المسجد بالضبط . وعدد البلوي الكتب التي قرأها عليه من مؤلفاته ومؤلفات أبيه وغيرها .

والثاني هو صلاح الدين العلائي الامام في علم الحديث، والذي مر ذكره في رحلة ابن بطوطة . وقد أتى عليه البلوي ونوّه بعلمه بشكل خاص وكال له المديح بلا حساب وقال إن كل من حضر مجالس تدريسه من علماء الانصار «يخلف أنه ما سمع بمثلها من مثله في هذه الاعصار» . ثم عدد البلوي الكتب التي سمعها فيه، ومنها كتاب الشفا للقاضي عياض وكتاب مسلم بن الحجاج وبغية الملتمس في عوالي حديث مالك بن انس وغيرها .

والثالث هو الشيخ الفقيه علاء الدين ابو الحسن علي بن ايوب بن منصور امام الحديث في فلسطين واحد شيوخ المدرسة الصلاحية وقد مر ذكره في رحلة ابن بطوطة . وقد حضر البلوي دروسه في المسجد الأقصى وأخذ عنه جميع صحيح الامام البخاري، وحدثه ابن ايوب عن بعض شيوخه في دمشق، كما سمع عليه عدداً كبيراً من الاحاديث .

والشخص الرابع هو شيخ الخانقاه المدرسة الكريمة الذي مر ذكره في رحلة ابن بطوطة وهو شمس الدين محمد بن علي بن محمد بن مثبت الاندلسي . وقد زدنا البلوي بمزيد من المعلومات عن هذا الشيخ الذي لا نعرف عنه الا القليل . ثم حدثنا عن كتب التصوف التي اخذها عنه

كعوارف المعارف للسهروردي والرسالة القشيرية . وهذان الكتابان هما من اهم كتب التصوف التي كانت تدرس في القدس عبر العصور . وحدثه ابن ميثب عن سنده في رواية هذه الكتب، وهم نفرٌ من كبار علماء ذلك الزمان .

اما الشخص الخامس والأخير فهو جمال الدين بن نباته الذي آثره بمسك الختام وهو (ملك الكلام وحامل لواء البيان) . وكان البلوي معجباً به أيما اعجاب للتشابه بين اسلوبي الرجلين في الكتابة واشتراكهما في صنعة الكتابة المسجوعة، والمزخرفة بالوان البديع والجناس . وكان ابن نباته في حرم القدس أتاه زائراً من دمشق فربطتهما مودة اكيدة وتهاديا الكتب، واذاغ البلوي شعر ابن نباته فيما بعد في المغرب .

القرن التاسع / الخامس عشر

بعد رحلة البلوي في النصف الأول من القرن الثامن / الخامس عشر لم يكد يصل شيء من كتب الرحلات العربية والاسلامية فيما تبقى من ذلك القرن. وكان من اسباب ذلك، كما تقدم، انخفاض شديد في الرحلات المغربية والاندرلسية في النصف الثاني من ذلك القرن بسبب المحنة التي كانت تتعرض لها الاندلس التي خسرها العرب نهائيا سنة ١٤٩٢ / ٧٩٧ حتى إذا جاء القرن التاسع / الخامس عشر وقد على القدس زائر اندلسي كبير هو:-

١٣ - عبد الرحمن بن خلدون

جاء العلامة ابن خلدون الى القدس من القاهرة التي كان قد ارتحل اليها من تونس واقام فيها.

وابن خلدون رجل ذائع الصيت فلا حاجة بنا الى حديث مفصل عن سيرته. ويكفي أن نقول إنه من اشيلية اصلا، ولكنه ولد في تونس سنة ٧٣٢/١٣٣٢، حيث نشأ وتعلم. وقد زار فاس سنة ٧٥٣/١٣٥٤ فاعتقله سلطانها ابو عنان لمدة سنتين، ثم زار غرناطة فأكرمه سلطانها ابن الاحمر وتنقل من بعد في البلاد وعاد الى تونس. وفي سنة ٧٨٠/١٣٧٨ استأذنه في الحج فأذن له باجتياز البحر الى الاسكندرية فقدم مصر سنة ٧٨٤/١٣٨٢ وعين فيها قاضيا للمالكية، في عهد الظاهر برقوق. ثم عزل ثم أعيد ثم توفي فجأة في القاهرة^(١). وقد اشتهر ابن خلدون بكتابه العظيم «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر» وهو من اصول علم الاجتماع. وقد ختم الكتاب بفصل عنوانه: «التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً». وحقق هذا الفصل محمد بن تاويت الطنجي ونشره مستقلاً في القاهرة سنة ١٩٥١. وهذا الكتاب ليس من كتب الرحلات بالمعنى الدقيق للكلمة بل هو في الحقيقة سيرة ذاتية، وضعها ابن خلدون ووصف بها ما مر به من احداث مثلما فعل اسامه بن منقذ في كتاب الاعتبار، وذكر فيه الرحلات التي قام بها والتي فرضتها عليه ظروف حياته المتقلبة، فقد كان احيانا رحالة على الرغم منه. وفي احدي هذه الرحلات زار ابن خلدون مدينة القدس التي قدم اليها من مصر سنة ٨٠٢/١٤٠٠ في عهد السلطان فرج ابن برقوق. ويبدو أن هدف هذه الزيارة كان التبرك بالمسجد الأقصى والصلاة فيه، وربما استمرت بضعة ايام فقط زار خلالها ايضا مدينة الخليل. وهناك فقرة واحدة في كتاب التعريف المشار اليه تتعلق بالزيارة قال فيها:

«وكنت استأذنت في التقدم الى مصر بين يدي السلطان لزيارة بيت المقدس فأذن لي في

(١) السخاوي «الضوء اللامع»، مجلد ٢، ص ١٤٥، الزركلي، «الاعلام» ٣/٣٣٠.

ذلك، ووصلت الى القدس ودخلت المسجد وتبركت بزيارته والصلاة فيه، وتعفقت عن الدخول الى القمامة لما فيها من الاشادة بتكذيب القرآن اذ هو بناء امم النصرانية على مكان الصليب بزعمهم فنكرته نفسي ونكرت الدخول اليه، وقضيت من سنن الزيارة ونافلتها ما يجب وانصرفت الى مدفن الخليل عليه السلام^(١).

كان هذا في اوائل القرن التاسع / الخامس عشر، وطوال هذا القرن ايضا لم يبلغنا خبر كتاب آخر من كتب الرحلات.

(١) عبد الرحمن بن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، تحقيق محمد ناوي الطنجي، القاهرة، ١٩٥١، ص ٣٤٩.

القرن العاشر / السادس عشر

في سنة ١٥١٦/٩٢٢ دخل العثمانيون مدينة القدس واستمر حكمهم فيها اربعمائة سنة وسنة واحدة، اي الى سنة ١٩١٧/١٣٣٦. وكانت الفترة العثمانية ايضا غنية بالرحلات الى بيت المقدس، خصوصاً في القرنين الحادى عشر/ السابع عشر والثاني عشر/ الثامن عشر.

واول القرون الاربعة التي حكم فيها العثمانيون القدس هو القرن العاشر. ومن هذا القرن لدينا رحلتان: رحلة ما تزال خزائن الكتب تحتفظ بنسخ منها، ورحلة ثانية لا نكاد نعرف عنوانها الدقيق، ولا نعرف عن وجود أي مخطوط لها في اي مكان.

اما الرحلة الاولى فهي بقلم

١٤ - محب الدين محمد بن ابي بكر بن داود الحموي الدمشقي

وهو جد ابي المؤرخ المعروف محمد المحبي صاحب خلاصة الأثر، وكان قاضيا واديبا وفقهيا ومفسراً ولغويًا. الف كثيراً من الكتب. وله ثلاث رحلات ذكرها صاحب خلاصة الأثر هي الرحلة المصرية والرحلة الرومية والرحلة التبريزية.

ولد ابن داود المحبي عام ٩٤٩هـ / ١٥٤٣م وتوفي عام ١٠١٦هـ / ١٦٠٨م ولد ونشأ في حماة ثم ارتحل الى حمص وحلب فأخذ عن علمائها. وقام برحلة (اولى) الى استانبول ثم رجع الى دمشق مدرساً في مدارسها. ثم سافر الى القدس والقاهرة سنة ١٥٧١/٩٧٨. وعاد من القاهرة الى دمشق بعد حوالي ثلاث سنوات. وما لبث أن قام برحلة الى استانبول شهد فيها اعتلاء السلطان مراد الثالث العرش سنة ٩٨٢/١٥٧٤. وكان آخر المناصب التي تولها مفتي دمشق. وفي دمشق توفي ١٠١٦/١٦٩٨. (١)

نعرف عنوانين كاملين لرحلتين للمحبي: رحلة الى بلاد الروم بعنوان: «بوادي الدموع العندمية ببوادي الديار الرومية». ومنها نسخة بجامعة يال - مجموعة لاندبرغ تحت رقم ٤٣٧/١٣٥٩، ومنها صورة بمركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الاردنية - شريط رقم ١٢.

اما الرحلة الأخرى التي تهمننا هنا فهي رحلة المحبي الى القدس والقاهرة وعنوانها الكامل: «حادي الأظعان النجدية الى الديار المصرية». وقد نجد لها في بعض المخطوطات عنواناً آخر هو الدرّة المضية في الرحلة المصرية [جامعة يال، مجموعة لاندبرغ رقم ٤٠/١٣٦١، شريط مركز الوثائق والمخطوطات رقم ١٢]. وتوجد نسخ عدة من حادي الأظعان النجدية في عدة مكتبات منها مكتبة جامعة كامبردج.

Descriptive Catalogue of the Arabic,

. Pers. and Turkish Mss in the Library of Trinity College 1870 (Palmer)

تحت رقم ٣٠٣، وفي مكتبة مكتبة عاطف افندي في استانبول، تحت رقم ٢٠٣٠ في فهرس

(١) «خلاصة الاثر»، ٣/٣٢٢، كراتشكوفسكي، ص ٧٦٠.

المكتبة. وفي جامعة يال مجموعة لاندبرغ رقم ٤٠/١٣٦١، وباريس، فهرس المكتبة الوطنية تحت رقم ٢٢٩٣، وفي القاهرة، فهرس الكتب العربية بدار الكتب العربية بدار الكتب المصرية مجلد ٧، رقم ٦٤٦ والاسكندرية، مكتبة البلدية رقم ١٤٣ فنون.

ان حادي الأظعان النجدية هي الرحلة الاكثر رواجاً من بين رحلات ابن داود الحموي. وقد كتبها عندما كان قاضياً في معرة النعمان وتاريخ هذه الرحلة هو سنة ١٥٧١/٩٧٨. وقد سافر فيها صحبة قاضي قضاة دمشق محمد بن محمد بن الياس الشهير بجوى زادة. وكان معها ايضاً احمد بن عبد الله المعروف بفورى مفتي الحنفية بدمشق. وكان القاضي المذكور قد امر بالتفتيش على كنيسة في القدس «وكان اتصل بمسامع الدولة ان النصراني جدودوا شيئاً في الكنيسة^(١)» فخرج الثلاثة من دمشق «في يوم الاثنين ثامن عشر شعبان سنة ثمانٍ وسبعين وتسعمائة فوجدوا . . . الى جانب الكنيسة مسجداً قديماً هدم الكفار جدرانها وحولوا وضعه القديم وجدودوا بنيانه فأمر قاضي القضاة يهدم ما جدوده فهدمه المسلمون . . . واقامت صلاة الجمعة في عصر ذلك اليوم في المسجد المذكور»^(٢).

وقام القاضي وصاحبه بزيارة بعض المشاهد في القدس. ثم رجع المفتي الى دمشق. وواصل قاضي القضاة جوى زاده والمحبي سفرهما الى القاهرة. وكان جوى زاده قد اعطي قضاة مصر، فلما فرغ من مهمته في القدس اتجه الى القاهرة لاستلام منصبه الجديد فيها. واصطحب المحبي معه ووصلا القاهرة يو الاربعاء ١٦ رمضان. «واجتمع صاحب الترجمة (اي المحبي) بالاستاذ سيدي محمد محمد البكري ووقع بينها محاورات ومراسلات اورد صاحب الترجمة كثيراً منها في رحلته^(٣). والان نتقل الى الرحالة الثاني وهو:

١٥ - احمد بن يوسف الخالدي الصفدي.

الرحلة الثانية التي وقعت فيما نرجح في القرن العاشر / السادس عشر قام بها اديب مؤرخ يعرف بالخالدي واسمه احمد بن محمد بن يوسف الصفدي. وهو من اهل صفد مولداً ووفاءً وقد درس في مصر واخذ عن علمائها. وعاد الى صفد، وفيها توفي. وتذكر المصادر تاريخين لوفاته هما ١٥٩٦/١٠٠٤^(٤) و ١٦٢٥/١٠٣٤^(٥). ولا نقطع بأيّ منها. ويقول صاحب خلاصة الأثر: «ومن تأليفه شرح على الفية ابن مالك وكتاب في العروض. وله رحلة الى الحج وأخرى الى بيت المقدس نظماً . . .»^(٦) وينبغي أن نضيف أن أشهر ما اشتهر به الخالدي كتاب هام لم يذكره صاحب (خلاصة الأثر) ولعله افضل ما كتب وبه حقق لنفسه بعض الشهرة. وهذا الكتاب هو تاريخ الأمير فخر الدين المعني الذي نشر باسم «لبنان في عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني»^(٧). اما رحلته المنظومة الى القدس فلا نكاد نعرف عنها شيئاً.

(١) «خلاصة الأثر» ٣/٣٢٥. (٢) المصدر نفسه والصفحة ذاتها.

(٣) المصدر نفسه ص ٣٢٥. (٤) اسماعيل الباني، «هدية العارفين»، مجلد ٥، ص ١٥١.

(٥) «خلاصة الأثر» ١/٢٩٧ والاعلام ١/٢٣٦. (٦) «خلاصة الأثر» ١/٢٩٨.

(٧) تحقيق اسد رستم وفؤاد افرام البستاني، بيروت، ١٩٦٩.

القرن الحادي عشر / السابع عشر

وصلنا من هذا القرن عدد من كتب الرحلات الى القدس لعل اولها رحلة قام بها عالم من مشاهير رجال المغرب، وضمّنها كتاباً من عيون كتب الادب والتاريخ والرحلات. وهذا الاديب الرحالة المشهور هو:

١٦ - محمد بن أحمد المقرئ

وهو منسوب الى المقرّة، ضاحية من ضواحي تلمسان، فهو المقرئ التلمساني.

ولد المقرئ حوالي سنة ١٥٩١/١٠٠٠. لعله كما يقول كراتشكوفسكي، اكبر شخصية في محيط الادب عامة في القرن الحادي عشر / السابع عشر^(١). وقد سجّل حضارة الاندلس في كتابه الشهر الضخم «نفع الطيب من غصن الاندلس الرطيب» الذي يُعد من اهم الكتب التي تناولت الحضارة الاندلسية، وفيه ثبت في عدة مئات من الصفحات بالاندلسيين الذي رحلوا الى المشرق. وفي هذا الكتاب نجد معطيات كثيرة حول رحلات المؤلف. فقد رحل المقرئ الى فاس وعمره تسع سنوات، واستقر فيها كإمام ومُفتٍ في جامع القرويين ثماني عشرة سنة. وفي آخر رمضان ١٠٢٧/١٦١٨ يَمّ شطر المسجد الحرام، وسافر اولاً بَحراً الى مصر، ومنها الى مكة ثم عاد الى القاهرة حيث تزوج. ومن القاهرة زار القدس ودمشق التي اعجب بها كثيراً وطابت له الإقامة فيها وألف كتابه الضخم بناءً على نصيحة اصدقائه الدمشقيين. توفي المقرئ في القاهرة سنة ١٠٤١/١٦٣٤ قبل أن يقدر له الرجوع الى وطنه ولم يكد عمره يتجاوز الاربعين سنة.

زار المقرئ القدس مرتين قادما من مصر المرة الأولى في ربيع الاول سنة ١٠٢٩/١٦٢٠ والمرة الثانية في شهر رجب سنة ١٠٣٧/ آذار ١٦٢٨. وقد بُهر المقرئ بجمال المسجد الأقصى عندما دخله اول مرة وسأل عن محل المعراج الشريف المحل الذي أمّ فيه الرسول صلى الله عليه وسلم الرسل الكرام. . . . وعاد بعد انتهاء هذه الزيارة الأولى الى مصر. اما الزيارة الثانية فجاءت بعد عودته الى القاهرة من حجته الخامسة في شهر صفر سنة ١٠٣٧/١٦٢٧. ففي اوائل رجب من ذلك العام تحركت همته الى زيارة القدس من جديد فوصلها في اواسط رجب واقام في المدينة نحو خمسة وعشرين يوماً القي خلالها عدة دروس في المسجد الأقصى والصخرة المنيفة وزار مقام الخليل، ومزار موسى الكليم. وفي منتصف شعبان تحرك عزمه الى زيارة دمشق الشام «ذات الحسن والبهاء. . . حيث المشاهد المكرّمة والمعاهد المحترمة والخطوة الغناء. . . والمكارم. . .».

(١) كراتشكوفسكي، ص ٨١٥.

في القرن الحادي عشر وطوال الحكم العثماني اتجهت كثير من الرحلات من البلدان العربية الخاضعة للحكم العثماني الى استانبول دار الخلافة وقاعدة الملك . وليس من ههنا هنا عرض هذه الرحلات التي الممنا ببعض عناوينها في هذا الكتاب ، ولكننا نذكر من بينها رحلة العالم المقدسي :
١٧ - محمد بن احمد حافظ الدين القدسي^(١)

الذي ترك لنا وصفا لرحلة تحدث فيه عن زيارته للقاهرة ، والقدس ودمشق واستانبول سنة ١٦٠٤/١٠١٣ .

يروى صاحب خلاصة الأثر موجز سيرة حافظ الدين فيقول إن حافظ الدين قرأ بالقدس وسافر مراراً الى بلاد الروم وولى القضاء بمصر ثم صار مفتياً بالقدس ومدرساً بالمدرسة العثمانية بها ثم ارتحل الى الشام فتزوج وما لبث أن سافر الى الروم ، حيث أعطي قضاء طرابلس الشام ، ولكنه عزل عنه وعاد الى دمشق سنة ١٦٣٤/١٠٤٤ ثم سار الى دار الخلافة وولى القضاء ببوسنة وصوفية (حيث توفي سنة ١٦٤٥/١٠٥٥) . وكان كثير الأثار^(٢) . وههنا من هذه الأثار رحلته . والعنوان الذي اعطاه حافظ الدين لرحلته هو : «إسفار الأسفار في أبحار الأفكار» . ومن حسن الحظ أن نص الرحلة ما يزال موجوداً في مخطوطة بمكتبة الدولة ببرلين - وكانت تدعى من قبل ، عندما اصدر ألفرد Ahtwardt فهرساً لمخطوطاتها ، المكتبة الملكية ببرلين ، ورقم مخطوط الرحلة في المكتبة هو 1134/ We214 . إن إسفار الاسفار وصف لرحلة برية بحرية تحدث فيه حافظ الدين عن زيارته لكل من القاهرة والقدس ودمشق ووصف بالتفصيل الرحلة البحرية من مصر الى استانبول (عام ١٦٠٤/١٠١٣) وافاض في وصف العواصف والانواء في عرض البحر ، ثم تحدث عن اماكن الزيارة المشهورة في استانبول وعن سكانها وعلمائها . وغلب على وصفه السجع والمحسنات اللغوية الكثيرة المألوفة في ذلك العصر . واورد حافظ الدين كثيراً من الابيات الشعرية كما امتدح شيخ الاسلام محمد بن سعد الدين الذي كان حافظ الدين قد لازمه مدة من الزمن ، ونال على يديه كثيراً من مناصب القضاء في العديد من المدن^(٣) .

اما الرحالة التالي بين الرحالة الذين كتبوا عن القدس في القرن الحادي عشر/السابع عشر ، فقد كان عالماً مغربياً من اهل فاس جاء الى القدس سنة ١٠٧٤/١٦٦٣ . وهو :

١٨ - عبد الله بن محمد بن ابي بكر العياشي (ابو سالم)^(٤) .

ولد العياشي سنة ١٠٣٧/١٦٢٨ ، وهو ينتمي الى قبيلة بربرية تدعى (آيت عياش) كانت تقيم بسلمجاسه بأطلس الوسطى . وارتحل وهو شاب إلى مدينة فاس . وادى فريضة الحج عدة مرات كانت اولها سنة ١٠٥٩/١٦٤٩ . ثم تابع دراسة لبعض الوقت في كل من القاهرة ومكة

(١) انظر عنه «خلاصة الأثر» ٤١٢/٣ ، كراتشكوفسكي ٧٦١-٦٢ .

(٢) «خلاصة الأثر» ، ٤١٢/٣ .

(٣) انظر «الموسوعة الفلسطينية» - القسم الثاني ، المجلد الثالث ، ص ٣٧١ .

(٤) انظر بروكلمان GII, 464 ، وكراتشكوفسكي ، ص ٨٠٨ ، والزركلي ، «الاعلام» ج ٤ ، ص ١٢٩ .

ووجه اهتمامه الى العلوم الدينية المختلفة، وخاصة الحديث والفقه والتصوف. وكانت سفرته الثانية سنة ١٠٦٤/١٦٥٤ فدرس في القاهرة ثم سافر مرة أخرى وأقام مدة ليست بالطويلة في مكة والمدينة ابتداء من سنة ١٠٧٣/١٦٦٢، حين ادى فريضة الحج مرة ثالثة. وفي هذه الاثناء زار مدينة القدس وعاد بعد ذلك الى المغرب عن طريق مصر، وتوفي في بلاده بالطاعون في ١٠ ذي القعدة سنة ١٠٩١/١٣-١٢-١٦٧٩.

كان العياشي قد دون مذكرات متقطعة اثناء الحج ثم قام بتنقيحها إثر رحلة الحج الأخيرة، وما لبث أن أممها وسماها ماء الموائد ولها عنوان آخر هو الرحلة العياشية. وقد طبعت هذه الرحلة طبعة حجرية في مدينة فاس في مجلدين سنة ١٣١٦. ويبلغ مجموع صفحاتها حوالي ٤٨٠ صفحة.

وانسجاماً مع تقاليد الرحلات المغربية أولى المؤلف المسائل العلمية، والمحاورات مع العلماء ورجال التصوف وكذلك المخطوطات النادرة اهتمامه الأول. لكن الكتاب يتضمن معلومات وفيرة في مجالات التاريخ والجغرافيه والعادات والاحوال الاجتماعية والاقتصادية مما يجعله كبير الأهمية بالنسبة لدارسي تاريخ البلدان العربية في القرن الحادي عشر / السابع عشر. ويتميز اسلوبه بالبساطة. وهو خال من الاسجاع والمحسنات اللفظية وقريب من اساليب الكتابة الحديثة.

ويستفاد من الرحلة العياشية أن ابا سالم العياشي بدأ رحلته من سجلماسه فاتجه الى طرابلس ثم برقة فالجبل الأخضر فدرنه فالقاهرة فالسويس فالتيه فالعقبة (عقبة ايلة). ثم سافر من العقبة الى ينبع فرابغ فمكة فالمدينة. وعاد من المدينة الى فلسطين فزار اولاً غزة ثم الرملة ثم القدس. وبعدها الخليل فغزة فالعريش فدمياط فالقاهرة فاسكندرية ومنها واصل السفر الى المغرب.

ويستفاد من الرحلة العياشية أيضاً أن ابا سالم خرج من المدينة متجهاً الى القدس في الثاني من محرم سنة ١٠٧٤/١٦٦٣ أب. وكانت اولى المدن الفلسطينية التي حل بها هي غزة التي بقي فيها خمسة أيام. ومنها سافر الى الرملة فالقدس التي وصلها في السادس عشر او السابع عشر من صفر ومكث في القدس اسبوعاً وغادرها في ٢٣ صفر سنة ١٠٧٤.

استهل ابو سالم حديثه عن القدس بأن ذكر أنه نزل اولاً في زاوية المغاربة ثم انتقل منها الى بيت قريب من رواق الشيخ منصور- ويقصد على الأرجح الرباط المنصوري المنسوب للملك المنصور قلاون بيبان الناظر - وانتقل بعدئذ الى وصف الحرم الشريف، وركز على مبنى قبة الصخرة، دون المسجد الأقصى، واورد بعض القياسات للصخرة وللحرم ثم تحدث عن قباب الحرم ومشاهده المختلفة. وتطرق الى وصف اماكن اخرى خارج الحرم مثل عين سلوان وطور زيتا. اما مقام النبي موسى فلم يتمكن من زيارته لاختلال الأمن على الطريق. ويلفت النظر في وصف العياشي للحرم القدسي وللمزارات المختلفة انه اورد فيه كثيراً من القصص والأقوال

التي رَدَّدها رواة الادب الشعبي (الفولكلور) عن الحرم الشريف ومشاهده بصورة عامة. ونذكر من ذلك على سبيل التمثيل للقصص الفولكلورية السائدة في زمنه:

- «ذكر بعض المؤرخين أنَّ الصخرة كانت في زمن بني اسرائيل طويلة جداً وانهم قطعوها وبنوا منها الكنيسة المسماة قمامة».

- «الصخرة واقفة في الهواء لا يمسكها الا الله».

- «في احد الاساطين حجر يقال ان فيه بعض اثر اعضايه صلى الله عليه وسلم».

- «وهناك راس عمود من رخام خارج من جدران المسجد يقولون انه رأس الصراط».

- (عن الأقصى القديم) : «مسجد اخر تحت المسجد الأقصى . من حجارة منحوتة وهو

من البناء السليماني».

- «وسور المسجد هذا كله من بناء نبي الله سليمان عليه السلام بنته له الجن بتسخير من الله

تعالى».

وظاهر أن العياشي لم يصدق اكثر هذه الروايات . فاستخدم مراراً كثيرة كلمة «يقال» او

«زعموا» وما شاكل . فعن «الحجر الذي فيه بعض اثر اعضايه «ص» قال «يقال»، وعن قبة

المعراج: «يقال ان منها عرج برسول الله صلى الله عليه وسلم»، وعن المسجد الأقصى: «وفيه

موضع زعموا أن فيه صلى عمر، «وحول باب المسجد موضع يقال إن فيه عرش سليمان». وقال

عن عمود الصراط المنسوب على «جهنم»: «وهو لا اصل له».

وعن الأقصى القديم (تحت الأرض): «زعموا أن ذلك مقرّ المسجد في عهد سليمان والذي

نعرفه انه بني بعد ذلك»، كما لم يصدق الحكاية التي ردها بعض الناس حول العثور في عين سلوان

على آية كانت قد سقطت من احد الفقراء في ماء زمزم فقال: «وزعموا انهم استخرجوها من عين

سلوان».

وهكذا بين العياشي انه لم يكن سهل التصديق لكل الحكايات الفولكلورية التي سمعها،

بل انه في الواقع يرفض اكثرها. ومن جملة ذلك انه كان يجنح الى عدم التصديق بصحة القبر

المزعوم للنبي موسى قرب القدس. وفي حديث ابي سالم حول بعض المزارات كقبر النبي داود

وعيسى عليه السلام مثلاً يظهر لنا أن الصراع على ملكية هذه المزارات كان قائماً في زمنه بين

المسلمين واصحاب الديانات الأخرى.

وطبيعي أن يتحدث العياشي عن الحالة العلمية، كما شهدنا في مدن فلسطين، وغيرها من

الأقطار التي زارها، بل ان هذا الموضوع كان في مقدمة اهتماماته. وواضح من كلامه أن وضع

العلم في فلسطين قد خيب اماله. ففي تلك الفترة التي زار فيها العياشي القدس كانت اليد العليا

لشيوخ التصوف لا للعلماء، وكانت السيادة لمجالس الذكر لا لمجالس العلم.

وهناك شواهد كثيرة على الحالة العلمية التي وجدنا ابان زيارته، فقااض القدس محمد

النفاتي التونسي الاصل «كانت له وجاهة عند السلطان والعسكر من لدن عهد اخيه الشيخ ابي

الحسن النفاقي فترقى بجاه اخيه إذ استوطن استانبول مدة اعوام وقدم في هذه السنة الى القدس . وليست له قوة الحافظة العلمية ، انما هو مجرد ترسيم ووجاهة اكسبته ذلك . ومن لقيهم بالقدس رجلٌ يسمى شهاب الدين الحنبلي المصري قدم الى القدس من مصر فبالغ الناس بالثناء عليه فسعى العياشي الى الاجتماع به في القدس فتبين له من كلامه أنه ليس عنده تحصيل وتناقش معه في بعض المسائل العلمية فأعرض عنه بعد أن تبين له جهله وغباوته و «أن ما انتشر له من الصيت انما هو بغلبة الجهل على اهل تلك الديار وقلة المحصلين فيها فضلا عن المحققين» . وكرر العياشي امثال هذه الملاحظات عندما التقى بالشيخ ابراهيم بن شهاب الدين المرواني «الذي كان يتولى امامة مسجد الخليل و يقيم مجلس الذكر فيه . فقلما يخلو مسجد من مجلس ذكر يرفع الصوت في الجماعات والانشادات على هيئة سماع الصوفية ، إلا أن متعاطي ذلك اميون ارباب دنيا ، فقل العلم في هذه البلاد والسواحل الشامية كلها»^(١) . وقال العياشي كلاما يشبه ذلك عن الشيخ عبد القادر الغصين في غزة الذي اكسبته ديانة ظاهرة وقاراً وهيبه ووجاهة عفت ما عسى ان يظهره امره من قصور او تقصير^(٢) .

اما الشيخ الذي أشاد به العياشي في القدس فهو الشيخ عمر بن محمد العلمي امام الصوفية وابن امامها في تلك الديار وهو حفيد العامل الغوث محمد العلمي^(٣) الذي اخذ عنه كثيرون منهم المقرئ . وقد اخذ العياشي على عمر العلمي العهد ولقبه وشد المئزر في وسطه وأقعده وأقامه ثم اقعده قائلاً : «اجلس مریداً و قم خادماً للفقراء» وأجازه . . . وهكذا فان الرابطة الصوفية لا المشاركة العلمية هي التي جمعت بين العياشي وعمر العلمي ، على اية حال . وقد تحدث العياشي عن مجالس الذكر التي كان يعقدها عمر العلمي كل ليلة . وكتب عمر العلمي اجازة للعياشي في الطريقة الرفاعية مؤرخة في شهر صفر سنة ١٠٧٤ / ايلول ١٦٦٣ وأورد العياشي نصها في الصفحة ٣٢٤ (من المجلد الثاني من رحلته) ، وعبر العياشي عن تقدير فائق للقطب الكبير محمد العلمي وأورد نص سيرة ذاتية مفصلة كتبها محمد العلمي بعنوان : «رسالة معالم التصديق لمعرفة دخول الفقير في الطريق» وردت كاملة من صفحة ٣٣٣-٣٤٤ من المجلد الثاني . وهي تتضمن عدة فصول : - فصل في ذكر بعض السادات المشايخ الاعلام الذي اخذ (اي محمد العلمي) منهم ما تيسر من العلم الجليل .

فصل في ذكر بعض سادات اجتمع بهم في مكة المكرمة والمدينة المنورة .

فصل في ذكر من من الله تعالى عليه بهم من الاولاد وعدتهم ثلاثة عشر ، ثمانية من بنت العم ، ستة ذكور وبتان ، وخسة من بنت الشيخ موسى العسلي .

(١) رحلة العياشي ٣٤٧/٢ .

(٢) رحلة العياشي ٣٠٨/٢ .

(٣) ٩٦٣-١٠٣٨/١٥٥٦-١٦٢٩ . من اقطاب الصوفية في بيت المقدس تنقل بين الشام وبلاد الروم واقام في دمشق مدة ثم عاد الى القدس . كان من اقطاب الطريقة القادرية . وكثر اتباعه في الديار الشامية كلها . وهو مدفون ، هو وزوجته ، في الزاوية الاسعدية على جبل الطور في القدس .

واختتم محمد العلمي الرسالة بالقول (ص ٣٤٤): «وإما مولد العبد الفقير فأخبرنا سيدنا الوالد رحمه الله أنه كان في شهر رجب سنة ثلاث وستين وتسعمائة . وأسأل الله خاتمة الخير من غير فتنة ولا بلاء ولا نعمة يمنه وكرمه . إنه أكرم الأكرمين وارحم الراحمين، وأوصي الجميع من ابنائي وإخواني وأحبائي وإياي بتقوى الله الكريم الديان في السر والاعلان وأسألم صالح الدعاء لي ولاشيخاي ولأبائي وابنائي وإخواني والحمد لله رب العالمين» .
وغادر العياشي القدس في ٢٣ صفر سنة ١٠٧٤ / ايلول / ١٣٦٣ قاصداً مدينة الخليل .

وفي هذا الربع الأخير من القرن الحادي عشر / السابع عشر الذي حفل بالرحلات، وبعد رحلة أبي سالم العياشي بسبع سنوات قدم الى بيت المقدس رحالة آخر من الأراضى الحجازية المقدسة هو:

١٩ - ابراهيم بن عبد الرحمن بن علي الخياري المدني^(١) (١٠٣٧-١٠٨٣ / ١٦٢٨-١٦٧٢)

وهو عالم من علماء المدينة المنورة أصله من مصر من قرية تدعى الخياريّة . وكان أبوه عبد الرحمن قد استوطن المدينة قبل مولد ابنه بثماني سنوات . وقرأ ابراهيم على أبيه الذي كان من كبار علماء المدينة، وعلى عدد من العلماء . وتوفي أبوه وهو بعد في سن العشرين فورث عن أبيه الخطابة في مسجد المدينة والتدريس في إحدى مدارسها، ولكن أحد المتعلّمين من العلماء الواردين على المدينة اعتدى على حقه واخذ التدريس منه . وكان هذا هو السبب الذي دعاه الى مغادرة المدينة والسفر الى بلاد الروم في مسعى منه لاسترداد وظيفته . وقد افلح مسعاه .

سجل الخياري رحلته في كتاب طريفٍ اسماءه «تحفة الأدباء وسلوة الغرباء» . وقد طبع هذا الكتاب في ثلاثة اجزاء في بغداد سنة ١٩٧٩^(٢) . ويصف المؤلف فيه وقائع رحلته من المدينة الى بلاد الروم ذهاباً وإياباً وصفاً مفصلاً تغلّب عليه ككثر كتب الرحلات الاستشهادات بعدد كبير من ابيات الشعر . ويتضمن كتاب الرحلة معلومات قيمة عن بلاد العالم الاسلامي التي زارها في مجالات الجغرافيا والادب والاجتماع والتاريخ . وصيغ الكتاب بأسلوب جيد ولغة متينة وإن كان لا يخلو من السجع والصنعة . وقد اعتمد المؤلف في كتابه على مشاهداته، ولم ينقل عن غيره فجاء كتابه في اعلى مستويات التأليف بالنسبة للوقت الذي عاش فيه - القرن الحادي عشر / السابع عشر، الذي اتسم بتدهور عام في العلوم ومختلف ميادين الحياة في البلدان العربية .
بدأ الخياري رحلته الى بلاد الروم ١٠٨٠ / ١٦٦٩، وعاد الى المدينة في السنة التالية، وتوفي

(١) المحبي، «خلاصة الاثر» ١/ ٢٣ .

- كراتشكوفسكي ٨٠ / ٢ .

- بروكلمان Brockelmann GAL II, 393, SII, 538 .

- حمد الجاسر (مع الشيخ ابراهيم الخياري المدني في رحلته) «مجلة العرب»، المجلد الثاني، العدد ٣، سنة ١٩٦٧ .

(٢) صدر عن وزارة الثقافة والاعلام، ودار الرشيد للنشر، بتحقيق رجاء محمود السامرائي .

بعد عودته بعامين تقريبا (في شهر رجب سنة ١٠٨٣/١٦٧٢). ويقول المحبّي: «قيل إن سبب موته ان شيخ الحرم المدني الزم أئمة الشافعية وخطباءهم أن يُسرُّوا في الصلوات بالبسملة كالحنفية فلم يمثل الخياري . . . فدسّ له من سقاه السم». وربما كان السبب الحقيقي هو عداء تمكن بينه وبين شيخ الحرم المدني الذي خشي نفوذه الواسع في استانبول وحسده عليه.

يستفاد من نص - تحفة الادباء - وغيرها من الادبيات التي بين يدينا أن الخياري خرج في رحلته من المدينة في ٢٢ محرم سنة ١٠٨٠، ودخل دمشق مع الركب الشامي في ٢٨ صفر من نفس العام، واقام بدمشق ١٨ يوماً ثم سافر الى بلاد الروم، زمن السلطان محمد الرابع (١٠٥٨-١٠٩٩ / ١٦٤٨-١٦٨٧). واجتمع بشيخ الاسلام الذي أعاد له وظيفته التي فقدتها، واجرى عليه (قائمقام الوزير الاعظم) جرايتين من خزينة مصر. وعاد من بلاد الروم ظافراً الى دمشق فوصلها في ٢٢ جمادى الأخرى ١٠٨١/١٦٧٠ م. وفي ١٥ رجب غادر دمشق لزيارة بيت المقدس.

وكان خط سير الرحلة كما يلي: دمشق - داريا - سعسع - نهر الاعوج - القنيطرة - نهر يعقوب - جب يوسف - المنية - عيون التجار - مرج ابن عامر (اللجون) - عارة - عرعر - قاقون - جلجوليا - اللد - الرملة - قرية العنب (ابو غوش فيما بعد) - القدس. واجتمع الخياري في الرملة بشيخها خير الدين الرملي، وغادرها الى القدس التي مكث فيها اقل من يومين وبارحها يوم الجمعة في ٢٨ رجب ١٠٨١ الى القاهرة عن طريق الخليل وغزة التي اجتمع فيها بعالمها عبد القادر بن الغصين. ووصل القاهرة في ١٣ شعبان وبقي فيها حتى ٢٤ شوال حين غادرها إلى الحجاز مع ركب الحج المصري عن طريق العقبة فوصل الى المدينة في ٢٨ ذي القعدة. وبذلك تكون رحلته قد استغرقت اثنين وعشرين شهراً وستة ايام.

لم يمكث الخياري - كما قلنا - في القدس سوى يومين ولكنه استفاد من زيارته اقصى ما يمكن الاستفادة منه في هذه المدة الوجيزة اذ يبلغ القسم المخصص للقدس عشرين صفحة من الكتاب المطبوع الذي بين أيدينا (من صفحة ١٧٥-١٩٥)، الا أن نصف هذه الصفحات تقريباً لا يتعلق بوصف مشاهداته، وانما هو تعليقات من مصنفات قديمة.

يستغرق الجزء الاكبر مما كتبه ابراهيم الخياري عن القدس وصفه المفصل نوعاً ما للحرم الشريف. ولعله من اوائل من وصف التعميرات التي اجراها السلطان سليمان القانوني في الحرم في القرن السابق (العاشر) اي قبل زيارة الخياري للقدس بقرون أو قرن ونصف، فان هذه التعميرات استمرت عدة عقود من السنين. وأشار الخياري الى القاشاني الذي يكسو الاجزاء العلوية من جدران مسجد قبة الصخرة الخارجية فقال إنها من عمل سليمان القانوني. وكانت هذه الاجزاء قبل سليمان مغطاة بالفسيفساء التي بليت بمرور الزمان فابدلت. ومن عمل سليمان ايضاً الرخام الابيض الذي يغطي الجزء الاسفل من هذه الجدران. ولا ادري اصل مقولة الخياري إن هذا الرخام كان قد اخذ من بعض الكنائس ونقل الى قبة الصخرة . . . فلم نسمع بذلك من مصدر آخر. وما هو جدير بالذكر أن سورة ياسين المكتوبة على دائر مسجد قبة الصخرة الآن كانت

مكتوبة ايضا عندما زار الخياري القدس . ومن المعروف أن الكتابة الحالية ترجع الى زمن السلطان عبد الحميد الثاني في اواخر القرن التاسع عشر . ولكنه يتضح الآن أن سورة ياسين لم تكتب لأول مرة في زمن هذا السلطان بل إن عبد الحميد أمر باعادة كتابتها رُبما بعد أن تساقطت الكتابة بفعل الزمن الذي مر منذ عهد سليمان القانوني ، اي منذ اكثر من ثلاثمائة سنة .

ويلفت النظر ايضا أن الخياري يصف مبنى قبة الصخرة خطأ بأنه مسدس الجهات بينما هو ثماني ، كما هو معروف . ويورد الخياري اقوالاً فولكلورية كثيرة من نوع تلك التي وردت في رحلة العياشي .

فمن ذلك قوله إن الحامل كانت اذا مرت تحت الصخرة يسقط حملها من شدة الخوف . ولذلك فانهم بنوا جداراً تحت الصخرة ، لا ليمنعها من السقوط ، بل ليزيل القرع من نفوس الزوار . ومن ذلك حديثه عن الثقب المتسع النافذ والثقب غير النافذ في الصخرة ، وقوله إن أحد هذين الثقبين ربما كان هو الخرق الذي حصل باصبع جبريل عليه السلام عندما ربط البراق ولكن الخياري يضيف : « والله اعلم بحقيقة الحال » . ويختم حديثه عن الصخرة بالقول : « ويزعمون أن اثرأ بها في احد طرفيها هو موضع قدمه صلى الله عليه وسلم » . ثم يتحدث عما قاله بعض العلماء من أن قدميه صلى الله عليه وسلم كانتا تغوصان في الصخر ويؤكد أن علماء آخرين قالوا : إن هذا لا اصل له ولا سند الخ

ويعيد الخياري ايضا ما حُكي عن السلسلة التي كانت معلقة في السماء عند قبة السلسلة زمن داود عليه السلام والتي كانت تتصل بالمظلوم وترفع عن الظالم فلا يستطيع إمساكها ، وعن عمود الصراط الذي يمتد فوق وادي جهنم ، ويتحدث كذلك عن العمدان التي رفع عليها المسجد الأقصى والتي كانت فيها احجار مخرومة يقال إن الذي وضعها سيدنا سليمان وإن هذه الأخرى هي حلقات الاصفاد التي صند بها الجان وانتقل الخياري بعد ذلك الى وصف المسجد الأقصى واسهب في وصف المحراب الذي اشتمل باطنه على اضلاع ملونة من الرخام الاحمر والاسود والأخضر والأبيض ، وعَدَّد كل منها يتفق مع عدد الركعات في الصلوات المختلفة .

ومن وصف الخياري نعرف أن الجامع الذي يدعى الان جامع النساء في (الجامع الأقصى القديم) كان مخصصاً للنساء ايضا في القرن الحادي عشر ، وقد استحسن فَصَّلَ النساء عن الرجال وإفراد جامع خاص لهن^(١) ، ثم يُنبئنا الرحالة الحجازي بأن الجامع كان له ، كما له الآن ، عشرة أبواب ، سبعة منها من جهة الشمال . ثم يحدثنا عن الاماكن الاربعة التي يصلى بها اصحاب المذاهب الاربعة في المسجد : المالكية والحنابلة والحنفية والشافعية . ويقول إن امام المالكية كان يتقدم سائر الأئمة في الصلاة .

(١) يظهر انه كان في المسجد الأقصى مكان مخصص للنساء منذ وقت طويل ، فان ابن الفقيه المتوفى سنة ٢٩٠هـ / ٩٠٣م قال في «مختصر كتاب البلدان» المطبوع في لندن سنة ١٣٠٢ ، ص ١٠٠ : «وداخل المسجد ثلاث مقاصير للنساء طول كل مقصورة سبعون ذراعاً» .

ونجد في رحلة الخياري بعض الملاحظات السريعة عن الحالة العلمية في القدس ابان زيارته لها :

ففي هذا الوقت كانت المدارس ، التي تحدث عنها الرحالة اوليا جلبي ايضا بعد الخياري بسنة او سنتين ، ما تزال محيطة بالحرم من الشمال والغرب . وكانت فيه ايضا «أوضات يسكنها طلبة العلم . وهذه المدارس تلاشت تباعاً في القرن التالي الثاني عشر / الثامن عشر وبعده . والمدرسون كانوا يُقرئون الطلبة ايضا في قبة الصخرة فضلا عن المدارس لكن اهم ملاحظاته فيما يتصل بالحالة العلمية هي تلك التي تتناول علماء القدس . فان الخياري اذ ذكر اجتماعه بعالم الرملة خير الدين الرملي وبعالم غزة عبد القادر بن الغصين لم يشر بالاسم الى اي عالم أخذ عنه في القدس . يقول الخياري : (وفي هذه المدة (اي مدة اقامته في القدس) وأنا التمس بجد واجتهاد طلباً للعلم وعلو الاسناد علماً يصلح للدراية او راوياً تؤخذ عنه الرواية ، فأعياني ذلك الطلب وأكدى سعبي دون أن يعلق بمرامي سبب ، وعُين لي شخصان فرأيتهما لتبليغ مرادي لا يُخلصان فأعرضت اعراض من منع الورود ولم يفز من الروض المسجود باقتطاف (الورود . . .) .

وأما خطيب المسجد الذي استمع الخياري منه الى خطبة تتضمن فضل المسجد الأقصى فقد «اكثر اللحن والتخليط في خطبته» ولكنه اغتفر له ذلك بسبب جلال الموضوع الذي تحدث فيه .

وهكذا فإن الخياري يعيد الى اذهاننا ما قاله العياشي الذي زار القدس قبله بسبع سنوات عن الوضع العلمي المتواضع في المدينة ، ويؤكد صحة الملاحظات التي ابداهها الرحالة المغربي . ولكن مع تسليمنا بذلك بوجه الإجمال فلا بد أن نلاحظ أن «الاسبوع» الذي مكثه العياشي في القدس و«اليومين» اللذين قضاهما فيها الخياري لا يكفيان للحكم على الحالة العلمية في المدينة ولا على غيرها ، ولا يكفيان للتعرف على العلماء ولا على سواهم من الناس

أسفر الحكم العثماني للبلدان العربية في اوائل القرن العاشر عن تعزيز كبير للعلاقات بين الدولة العثمانية - او بلاد الروم كما كانت تسمى ، وبين البلدان العربية - وبلاد الشام بشكل خاص . ومن المظاهر الكثيرة لذلك الاسفار والرحلات المتبادلة بين بلاد الروم والأقطار العربية . وقد اشرنا الى عدد من الرحالة العرب الذين زاروا القسطنطينية - دار الخلافة - وانحاء أخرى من بلاد الروم . . . ومن هؤلاء محب الدين ابن داود الحموي ومحمد بن أحمد بن حافظ الدين القدسي وابراهيم الخياري . وسنشير من بعد الى رحلات عبد الغني النابلسي ومصطفى البكري الصديقي . ومن الرحالة العرب الذين نود الاشارة الى رحلاتهم هنا رحالة يدعى محمد العطار الدمشقي الذي تحدث عنه وعن رحلته عبد الله مخلص في مقالة له بمجلة المجمع العلمي العربي (٨٣ ، ج ٤ ، نيسان ١٩٢٨ ص ٢٣٥) . ويستفاد من مقالة عبد الله مخلص أن هناك في الخزانة التيمورية بالقاهرة رحلة كتبها رجل دمشقي يدعى محمد العطار شد رحاله من بيت المقدس الى القسطنطينية في ٢ صفر سنة ١١٧٩ / ١٧٦٥ ، وسافر بحراً من ثغريافا ثم براً من أذنة الى العاصمة

فوصلها في شهر ربيع اول سنة ١١٧٩/١٧٦٥ . وقد قصد كاتب الرحلة عاصمة الدولة ليشكو قاضي القدس الذي لم ينصفه على شريكه النابلسي . ومن ذكرهم العطار المذكور في كتاب رحلته وقال انه اجتمع بهم في القسطنطينية التي كانت تشد اليها الرحال من كل البلدان الحاج عبد اللطيف بن عبد الله بن عبد القادر القدسي (الحسيني) المتوفى سنة ١١٧٤/١٧٧٤^(١) وبدر الدين بن جماعة مفتي الديار القدسية ورئيس خطبائها وامام الصخرة^(٢) واحمد بن احمد الموقت المتوفى سنة ١١٨٦^(٣) ، والشيخ محمد التافلاتي المغربي مفتي القدس^(٤) (وكان من سلالة الاشراف في المغرب) المتوفى سنة ١١٩١/١٧٧٧ ، والشيخ ظاهر العمر الزيداني شيخ عكا^(٥) وغيرهم من وجهاء يافا والرملة والقدس ودمشق وطرابلس - كانت استانبول كعبة القصاد .

اما الرحالة العثمانيون الذين زاروا البلدان العربية والقدس فنذكر منهم :

٢٠ - يوسف افندي النابي

هو عالم حنفي رهاوي الاصل ، ولكنه عاش طويلا في حلب ، ثم سكن القسطنطينية وشغل فيها بعد منصباً كبيراً في الديوان الهمايوني هو منصب الخواجكان^(٦) الذي كان يُسند الى رؤساء الدولة المشهورين بالمعارف والادب . وكان النابي ينظم الشعر ويكتب بالعربية والتركية وله عدد من المصنفات التاريخية المحررة باسلوب أدبي ، يجمع بين الشعر والنثر . ولا يخلو من الصنعة . وبالاسلوب نفسه صاغ وصف رحلته الى الحجاز التي قام بها عام ١٠٨٩/١٦٧٨ الذي يحمل عنوان تحفة الحرمين . وقد بدأها في أسكدار ماراً بقونية والرها وحلب ودمشق . ثم زار القدس وتم تدوين الرحلة سنة ١٠٩٣/١٦٨٢ وطُبعت في استانبول سنة ١٢٥٦/١٨٤٩ وتوفي يوسف النابي سنة ١١٢٤/١٧١٢^(٧) .

اما اشهر الرحالة الاتراك الذين كتبوا الرحلات وزاروا مدينة القدس ووصفوها وصفا مستفيضاً فهو :

(١) «سلك الدرر» ، ٣/١٣٢ .

(٢) المصدر نفسه ٢/٢ .

(٣) سيره والده احمد في «سلك الدرر» ١/١٧٥ .

(٤) «سلك الدرر» ٤/١٠٢ .

(٥) المصدر نفسه ٣/١٨٤ .

(٦) خواجكان ديوان همايون . خواجكان بالتركية تعني المعلم . ويطلق هذا اللقب على رجال العلم والقلم في الديوان الهمايوني (السلطاني) .

(٧) المرادي «سلك الدرر» ، ج ٤/٢٦٤ ، كراتشكوفسكي ، ص ٧٢٧ .

٢١ - اوليا جلبي^(١)

اوليا جلبي بن درويش بن محمد من مواليد استانبول عام ١٠٢٠هـ/١٦١١م، من اصل تركي رفيع. كان جده حاملا للواء السلطان محمد الثاني فاتح القسطنطينية، اما ولده درويش فكان جواهرى البلاط السلطاني (قويوچي باشي). وقد صحب السلطان سليمان القانوني في اكثر من حملة عسكرية. اما امه فكانت اختا للمصدر الاعظم.

كان اوليا جلبي ذا ميل للدراسات العلمية ولذلك فقد عمل «حافظاً» في مسجد آيا صوفيا، وهناك سنحت له فرصة التعرف بالسلطان مراد الذي ضمّه الى حاشيته. والتحق فيما بعد فترة من الزمن بالجيش برتبة سباهي. بدأت اسفار اوليا جلبي منذ عام ١٠٤١/١٦٣١ فشرع في الجوبان في الأرض طوال نصف قرن تقريباً بلا كلل. وقد اخذته اسفاره الى بلاد الفرس والقوقاز والعراق وسوريا ومكة ومصر وجنوب روسيا وبلاد البلقان والنمسا والمجر وبعض انحاء اوربا الغربية والشمالية. ووصف اسفاره في هذه الأقطار جميعاً في كتاب سياحتنامه الكبير المؤلف من عشرة اجزاء، والذي اكسبه لقب ابن بطوطة التركي وسياح عالم. وفي الجزء الثالث من سياحتنامه يتحدث الرحالة عن اسفاره ومشاهداته في بلاد الشام بما في ذلك فلسطين والقدس الشريف^(٢).

مصنّف اوليا جلبي يُعد من اهم الوثائق التي تصف العصر الذي عاش فيه. وهو يزودنا بتفصيلات غنية عن الأقطار التي زارها وعادات شعوبها واحوالها الفكرية والاجتماعية ونظم حكوماتها ومعاهدها ومنشأتها واثارها القديمة التي اولاهها قدراً كبيراً من اهتمامه وخص منها بعنايته - شأنه شأن الهروي - المساجد والمزارات والأضرحة. ويتضمن مصنّفه حكايات كثيرة عن كرامات الاولياء والانبياء، ومنها حكايات تتميز بصبغة اسطورية واضحة. لقد كان اوليا جلبي شديد التدين بل كان متصوفاً مغرباً في التصوف، في عصر انتشر فيه التصوف وعم الأقطار الاسلامية. وكان اول اربعة من المتصوفين المشهورين الذين زاروا القدس تبعاً. اما الثلاثة الآخرون فقد تلوه في زيارتها في النصف الاول من القرن التالي (الثاني عشر/الثامن عشر)^(٣). وقد أجمل موردتمان Mordtmann (١٨٥٢-١٩٣٢) الواسع الاطلاع على الثقافة التركية القول في اوليا جلبي حين قال: «لقد كان اوليا جلبي كاتباً خصب الخيال مع جنوح واضح الى الغريب والى المخاطر، وهو يفضل الاسطورة على الوقائع التاريخية الجافة ويلذ له الدخول في المبالغات بحيث يبلغ في ذلك حد

(١) انظر عن حياته واسفاره قبل كل شيء كراتشكوفسكي من ص ٧٠٢ - ٧١١. وكلمة جلبي تلفظ تشلي، وهي كلمة تركية تعني اللطيف او المهذب. «ومنها كلمة «شلي» العامية في بلاد الشام».

(٢) لدينا الاصل التركي لهذا الكتاب: «اوليا جلبي سياحتنامه سي»:

Evliya Celebi Seyahatnamesi, Ozyadin Matbaasi, Istanbul, 1971.

وكذلك الترجمة الانكليزية للقسم المخصص عن فلسطين بقلم اسطفان حنا اسطفان والمنشورة في:

Quarterly of the Dept. of Anhqities in Palestine, vols IV, V, VI, VIII, IX, 1934 - 1939.

(٣) أما الثلاثة الآخرون فهم عبد الغني النابلسي ومصطفى البكري الصديقي، ومصطفى اسعد اللقيمي، الذين ستحدث عنهم وعن رحلاتهم بعد قليل.

الاسقف. فاذا ما وضعنا في حسابنا هذه النقائص فانه يجب الاعتراف من جهة أخرى بأن كتابه ذخيرة لا تنفذ في جميع ما يمس الحياة الاجتماعية والادب الشعبي والجغرافيا وانه يعرض كل هذا في اسلوب يمتاز بالبساطة والحوية معاً^(١)

ويضيف تيشنر Taeschner أن المؤلف لا يخلو من بعض العُجْب بنفسه ومن الميل الى المبالغة. واسوأ من ذلك انه يعتمد احياناً الى العبث بالحقائق. . ولهذا فان دراسة المصنف والافادة منه في البحث العلمي تحتاج دائماً الى أعمال التحفظ وبذل العناية الشديدة. ولا شك ان النتائج التي يمكن الحصول عليها بعد ذلك ستكون ذات قيمة كبرى بالنسبة للباحث^(٢).

ولا يجوز أن يغيب عن أذهاننا بعد هذا كله أن اوليا جلبي، الذي اعتمد على مشاهداته الشخصية فيما دونه في كتابه، كان جغرافياً كبيراً، ورحالة من اعظم الرحالين الذين عرفهم الشرق وأن كتابه سياحته مصدر في الدرجة الاولى من الأهمية. وبه ختمت سلسلة الجغرافيين الرحالين الكبار من اهل الشرق.

والآن لتحدث عن اوليا جلبي والقدس.

زار اوليا جلبي القدس مرتين كانت الاولى سنة ١٠٥٩ هـ / أواخر سنة ١٦٤٩م والثانية سنة ١٠٨٢ هـ / ١٦٧١ م. وفي هاتين المرّتين واصل السفر منها الى الحجاز لاداء فريضة الحج^(٣). ونحن نعتمد اساساً في حديثنا عن وصفه للقدس على ما كتبه عن سفرته الثانية^(٤).

وفد جلبي الى القدس قادماً من صيدا على الساحل الشامي. وسلك طريقاً لعل لم يسلكه سائح آخر. ولعل ما حدد هذا الطريق ان جلبي سعى الى زيارة اكبر عدد من المزارات المنتشرة في فلسطين. فسار من صيدا جنوباً على محاذة البحر ثم انعطف صاعداً الى المنطقة الجبلية جنوبي لبنان فزار القرى التالية: في لبنان يارون والجش والسوق العتيق ثم دخل فلسطين فزار اولاً قرية ميرون وهي تقع على بعد ١٢ كم الى الشمال الغربي من صفد على الطريق التاريخي الذي يصلها بعكا والساحل. ثم زار مدينة صفد وبحيرة المنية (طبرية) وقلعتها وقام بزيارات لمشاهد مختلفة في منطقة صفد وطبرية. وبعدهُ واصل سفره الى قلعة عين التجار (اليوم خان التجار وخان السوق) فجبل طابور فاللجون فقريّة نين (في مرج ابن عامر) فقريّة زرعين (في المرج نفسه). ثم زار جنين

(١) Mordtmann, Ewliya Celebi, p. 35.

(٢) عن كراتشكوفسكي، ص ٧٠٥.

(٣) كراتشكوفسكي، ص ٧٠٧. وقد أخذ كراتشكوفسكي الكثير مما كتبه عن جلبي عن:

Taeschner, Die geographische Literatur der Osmanen, pp. 67 - 70.

(٤) ونرجح أنه زار القدس مرة ثالثة في سنة ١٠٨٣/١٦٧٢، بعد عودته من الحج. فقد ورد في نص رحلته قوله: إنه زار كل المواقع في حرم القدس قبل عيد رمضان سنة ١٠٨٢ (كانون الثاني، سنة ١٦٧٢). ثم يقول في موضع آخر من الرحلة انه زار القدس سنة ١٠٨٣/١٦٧٢.

(٤) الترجمة التي أعدناها ونشرناها في القسم الثاني من هذا الكتاب هي في الاساس تعريب للترجمة الانكليزية التي نشرها اسطفان نقلا عن مخطوط مكتبة طويقابوسراي، كما اننا استعنا بالطبعة التركية الصادرة في استانبول ١٩٧١.

وقباطية وعرابة والمغارة والفندقومية وسبسطية. ومن هناك اتجه الى عكا والناقورة، ثم عاد الى دير شرف وبيت ايبا وجنين مرة أخرى. ونجد بعد ذلك في رحلته المحطات التالية: نابلس، عسکر، بلاطة، عورتا، حوارة، بيتا، عقربة، الزاوية، خان اللبن (عقبة اللبن)، سنجل، البيرة، النبي شمويل (صمويل)، عين الظاهر ببيرس (قرب قرية العنب «أبو غوش») - الشيخ جراح بظاهر القدس، فالقدس.

تناول جلبي القدس بوصف مستفيض استغرق حوالي خمس عشرة صفحة من الجزء الثالث من سياحته (الأصل التركي). ولعل أهم ما تضمنه حديثه عن القدس: وصف القلعة والسور بالتفصيل، ووصف الحرم الشريف المفصل، بما في ذلك المسجد الأقصى وقبة الصخرة، واجزاء الحرم المختلفة الأخرى، وكذلك حديثه عن المدينة كما شاهدها في القرن الحادي عشر، بما في ذلك الادارة العثمانية فيها وفي فلسطين ككل. أما الحديث عن تاريخ المدينة وتاريخ الحرم القديم، وكذلك الحكايات الشعبية المرتبطة بالمقدسات الاسلامية المختلفة، فهو اقل اهمية، لا سيما وأن ذلك يمتزج باساطير كثيرة تكمن قيمتها في أنها تعطينا فكرة عن الحالة العقلية السائدة في وقته وعن افكار جلبي ومعتقداته بشكل خاص.

بدأ جلبي عرضه بحديث عام عن تاريخ المدينة منذ بدايته وحتى الفتح العثماني. وهو عرض لا ينطوي على فوائد علمية كثيرة. وفيه من الاساطير قدر غير قليل. وهو يتسم بالابحاز بالنسبة للعصور السابقة للعثمانيين، ولا يكاد يذكر فترة المماليك التي امتدت حوالي ٢٧٠ سنة.

ويكتسب حديثه المفصل عن الفترة العثمانية اهمية خاصة لأن الكاتب تناول فيه فترة عاش فيها، وكان يتحدث عن جزء من تاريخ دولة كان هو من رجالها. فافاض في الكلام عن فلسطين وعن ايراداتها وواقفها وتوزيع الاراضي وانواعها. كما تناول جهاز الادارة في القدس بجناحيه العسكري الذي يرأسه الباشا والمدني الذي كان برئاسة القاضي. وذكر اهم الموظفين والرؤساء العسكريين والمدنيين. وخصّ جهاز القضاء بالعناية وعدّد اهم الموظفين التابعين له وتحدث عن وظائفهم.

وانتقل بعد ذلك الى وصف قلعة القدس وسورها فذكر ابواب السور واحداً واحداً على محيط السور كله واورد عنه معلومات واحصاءات مفيدة. ولم ينس المغارة الواقعة تحت السور قرب باب العمود والتي «سَجَنَ فيها النبي سليمان الارواح الشريرة».

ويستغرق وصفه الفصل للسور والابراج والقلعة، عدة صفحات. وفي هذا الوصف التفصيلي معلومات جيدة للمؤرخين. ولدى الحديث عن القلعة يعدّد موظفيها والغرف الاحدى والسبعين التي يقيم بها العساكر. ولا ينسى «البرج والمسكن الشريف الذي بناه داود نفسه». ويورد نص النقش الذي وضعه الملك المعظم عيسى بن العادل الايوبي على البرج الذي حوّل الى مسجد. ويذكر مسجد القلعة الذي بناه الملك الناصر محمد، والذي كان مسجداً للجمعة اضافة

للمسجد الأقصى ، ثم يتحدث حديثاً موجزاً عن المباني التي هي كلها داخل السور ويقول إن جميع الاحياء اسلامية «وهناك ما مجموعه الف قصر عال شبيه بالحصن» .

ويأتي بعد ذلك وصف مفصل للمسجد الأقصى ، يتحدث في مستهله عن تاريخ بناء المسجد حديثاً اسطورياً في اكثره . ومن ذلك قوله ان الارواح الشريرة هي التي بنته بأمر من النبي سليمان الذي حَبَس الارواح بعد بنائه الى أن هلكت . . . ثم ينتقل الى وصف المسجد كما شاهده بقدر كبير من الاحساس بفخامة المسجد وجماله وعظمته ، وهو وصف قيم دقيق مشفوع بالارقام والقياسات لكل جزء من اجزاء المسجد . ويَلَفَت النظر وصفه الرائع لمحراب المسجد كما كان عليه قبل ثلاثمائة عام . وإذا كانت المعلومات التي يوردها جلبي لا تخلو من اخطاء فهي تبقى بوجه الاجمال اساسية لكل من يعنى بتاريخ المسجد ووضعه المعماري وأثاثه وتجهيزاته وكذلك العاملين فيه والمراسم الدينية التي كانت تؤدي فيه في القرن الحادي عشر (السابع عشر) بشكل خاص . ويركز جلبي على الدور الذي قام به السلطان سليمان القانوني في تعمير المسجد وترتيبه .

وبعد ذلك ينتقل السائح التركي الى وصف الصخرة المشرفة «وهو اثر لا يضاهي على وجه الارض» فيصف اولاً صحن الصخرة ويتحدث عن دور سليمان القانوني في بنائها وترتيبها بعد أن ظهر له النبي في ليلة مباركة وامره بذلك . والواضح أن منظر قبة الصخرة اثر في نفس جلبي اشد التأثير واعمقه فوقف مشدوها امامه . ثم اخذ يتحدث عن دقائق تفاصيل البناء من السداخل والخارج في وصف نابض بالحياة . ومما قاله أن سورة ياسين ، التي يظن انها كتبت حول مسجد الصخرة لأول مرة زمن السلطان عبد الحميد الثاني في اواخر القرن التاسع عشر ، كانت مكتوبة في القرن الحادي عشر ايضاً (الخيارى سبق أن ذكر ذلك) . كما زدنا بواقعة تاريخية أخرى عندما حدثنا عن (الظُلَّة) الفاخرة التي امر السلطان احمد الأول (١٠١٢ - ١٠٢٦ / ١٦٠٣ - ١٦١٧) بصنعها لتغطية الصخرة المقدسة .

وبعد ذلك وصف جلبي المقام الواقع تحت الصخرة ، كما وصف صحن القبة ومقاماته واورد في ذلك كثيراً من الحكايات الشعبية التي كثيراً ما كان يخلطها بحقائق التاريخ . ففيما يتعلق بالمقام الواقع تحت الصخرة ، وهو محراب جبريل ، قال ان سبب الشق الكائن في الصخرة فوق المحراب ، هو أن جبريل لما اراد أن يدخل الى تحت الصخرة انشقت ليتمكن من الدخول .

ثم تحدث عن المقامات الكائنة خارج درابزين الصخرة المقدسة : الخزانة التي تضم الاثر المبارك لقدم النبي اليمنى وترس حمزة وشباك الصخرة «وهو من عمل داود!» ومقامات الخلفاء الراشدين والقناديل والسجاجيد «مما ليس له نظير حتى في قصر الملك» .

وانتقل جلبي بعد ذلك الى الحديث عن صحن الصخرة المقدسة والابواب والادراج المؤدية اليه ، والمغاوير المخيفة التي تقع تحته حيث «ما تزال آثار الأصفاد والسلاسل التي ربطت بها الارواح الشريرة ظاهرة للعيان» . ويخلص من ذلك الى الحديث عن المقامات الجديرة بالزيارة في صحن

الصخرة : قبة المعراج وقبة النبي وبئر الارواح ومنبر برهان الدين وقبة الارواح وقبة السلسلة بطبيعة الحال . ثم يذكر الغرف المحيطة بالصحن والتي يسكنها «اناس صالحون يعتبرون من الدراويش صانعي المعجزات» ويعيشون حياة التصوف . وحديث جلبي في هذا الشأن مفعم بالتفاصيل والدقائق وينبغي أن يقف عنده كل من يتبغى دراسة قبة الصخرة وتاريخها المعماري وتاريخها العام . ويستغرق هذا الحديث عن الصخرة عدة صفحات من الكتاب .

ويتنقل بعد ذلك الى الحديث عن مساحة الحرم ويذكر قياساتها والاشجار المزروعة فيها والمصاطب الكثيرة التي تنتشر في أرجائها . ويصف ابواب الحرم الكائنة على الطرق العامة ويعطينا بعض المعلومات عنها ، كما يصف الأروقة التي يعيش فيها «دراويش من الهند والسند وبلخ وفارس واكراد وتار ومغول واتراك» . . ويتناول بعد ذلك المدارس المحيطة بفناء الحرم : فهناك مائتا غرفة للمدارس حول الفناء الكبير ومجموع المدارس والزوايا يناهز ٣٦٠ مدرسة وزاوية صغيرة وكبيرة . ويتحدث أيضاً عن المآذن والمدرسة التنكزية ومسجد المغاربة والمساجد الأخرى كمسجد الحنابلة والمقامات والقباب المحيطة بالمسجد الأقصى . . . وكذلك عن مهّد عيسى والمقامات العجيبة الكائنة فيه ، وعن المكان المظلم الذي كان سليمان يسجن فيه الارواح والذي يحفل بالهيكل العظمية حتى الان . . ثم يتساءل عن سبب بقاء الجبال التي ربطت بها الارواح دون أن تبلى كل هذه المدة الطويلة . . منذ عهد سليمان . وعندما أجيب بأن سليمان كان سيد الانس والجن وانه كان ذا قدرة فائقة فاستطاع بذلك أن يصنع جبلاً قوية من هذا النوع اقتنع جلبي وقال : «رضيت بهذا الجواب» .

واخيراً يتحدث السائح التركي عن عمود الصراط ويورد عنه روايات مختلفة بصورة تنم عن تصديقه اياها . ثم يذكر باب التوبة وباب الرحمة وصومعة للدراويش فوق باب مريم (باب الاسباط من ابواب الحرم) وكروسي سليمان ومقامه . كما يذكر مقامات أخرى لعدة انبياء وأئمة ويختتم كلامه بالقول : إن المقامات والقباب والمدارس والزوايا والمباني الأخرى تنتشر انتشاراً واسعاً في القدس وتمتد من جبل الطور الى المدينة .

هذا هو الهيكل العام لوصف جلبي للقدس والمقدسات وهو وصف يتضمن الكثير من المادة المفيدة .

وكما اشرنا من قبل فإن رحلة جلبي تنطوي على فوائد تاريخية لا شك فيها من مثل وصفه للقلعة والسور والحرم القدسي ، وحديثه عن المدارس والغرف التي تحيط بالحرم ، وعن المتعبدين والزوار القادمين الى القدس من شتى انحاء اسيا من الهند والصين حتى فارس وكرديستان ، وكذلك المعلومات التي يقدمها عن حكومة القدس وجهازها الاداري وعن احوال الأمن المضطربة التي كان الحجاج يضطرون معها الى اللجوء الى حماية العسكر من غارات البدو .

ومن جهة أخرى فإن وصف جلبي يتضمن اخطاء تاريخية كثيرة ، لاعتماده على ما كان يتردد من روايات يرجع بعضها في أصوله الى الأدب المتصل بالتوراة وما يسمى بالاسرائيليات بل والى

الفولكلور الفلسطيني السابق على ذلك والعريق في القدم . ومن الامثلة على ذلك قوله بأن نبوخذ نصر اراد أن ينتقم لدم يوحنا المعمدان فاحتل القدس ! . (ومعروف أن نبوخذ نصر سبق يوحنا المعمدان بحوالي ستمائة سنة) . وقوله : إن السلطان سليم اعطى طوائف الروم والفرنجة خطأ شريفا أكد فيه ما جاء في الوثائق العمرية من اعفاءات . وفاته أن الفرنجة لم يكن لهم وجود في القدس زمن عمر . وقوله : ان مصطفى لالا باشا هو الذي شيد قلعة القدس بأمر السلطان سليمان . وقوله : إن باب المغاربة سمي بهذا الاسم لأن المغاربة أخذوه في الحرب . وقوله : إن البرج الكائن على يمين الداخل الى قلعة القدس هو «برج داود ومسكنه» . وقوله : إن عدد أبراج سور القدس هو ٥٧ ، بينما العدد الصحيح هو ٣٤ برجا الخ . . ومن اجل هذا فلا بد للمرء أن يتوخى الحذر من المعطيات التاريخية (وغيرها) التي يُوردها اوليا جلبي . . والحق أن كثيراً من معطياته تمتزج بالاساطير والحكايات الفولكلورية التي تعكس صورة البيئة التي كان يعيشها الناس في عصره . وهكذا يتردد كثيراً عنده الكلام عن سليمان والارواح الشريرة التي بنت المسجد الأقصى ، والتي ما تزال جماجمها تُرى في مغاور القدس والتي لُوِّث الرمل الكائن في مهد عيسى . وكذلك القول بالنسبة لداود «الذي بنى المسجد الأقصى بعد أن انتشر الطاعون في القدس ثم خفت حدته» . . والقول بأن برج داود «لا مجال للشك مطلقاً في أن الارواح هي التي بنته» ، وبأن شباك الحديد الذي شاهده حول الصخرة ينسب الى داود . . ويضاف الى هذا قوله : ان بالقدس مقامات لـ ١٢٤ الف نبي . وهو في كل ذلك يبدو سهل التصديق لكل ما سمع من خوارق ومعجزات . . .

ومن الطبيعي أن جلبي اشاد اشادة تامة بالصوفية المنقطعين الى العبادة في الغرف المحيطة بالحرم وقبة الصخرة ، فقد كان هو واحداً منهم .

ومن الطبيعي ايضاً أن يشيد جلبي ، وهو العثماني المخلص المقرب الى بلاط السلطان بمنجزات سلاطين آل عثمان في القدس في غير موضع من رحلته ، وهو يشعرنا بشيء من الزهو لانتمائه للدولة ولسلاطينها . ومن ذلك قوله : «ولما كان الباديشاه (السلطان العثماني) في الوقت الحاضر اكثر السلاطين جلالاً واحتراماً في الدنيا باسرها وقد ذاعت شهرته بين جميع الملوك حتى دولة الصين ، ولما كانت كل ربيع تردد هذا النبا الذي يُفرح القلب ولهجت الالسن بالثناء على السلطان لكرمه الذي لا يحمد فقد جعل هذا المسجد جنة لا نظير لها في الارض وزينه برسوم بهزاد . وذلك أن السلطان العثماني وحده هو الذي يمكن ان يكون صاحب بيت الله» .

ونجمل القول فيما سبق بالتأكيد على اهمية المادة الغنية التي كتبها اوليا جلبي عن القدس ، وعلى ما يمكن استخلاصه منها من المعلومات . ويبقى أن نضيف أن هنالك في النص التركي لسياحته ، بعض الصفحات التي لم يترجمها اسطفان حنا اسطفان الى الانجليزية . وقد اوردنا اهم ما جاء في هذه الصفحات بعد ترجمتنا للنص الذي ترجمه اسطفان في القسم الثاني من هذا الكتاب .

القرن الثاني عشر / الثامن عشر

اخذت النزعة الى التصوف تنمو في الشرق الاسلامي ابتداءً من القرن الثاني والثالث الهجريين . وفي القرن الخامس وصف ابو بكر بن العربي التصوف بانه «طريقة قد عمت المشرق ولا سبيل الى طمسها»^(١) . وفي القرن السادس نشأت الطرق الصوفية واخذت شكلها التنظيمي واضطرد نحو التصوف في العصر الايوبي ثم العصر المملوكي بسبب اضطراب الظروف الاقتصادية وعسف الطبقات الحاكمة وعدم الاستقرار السياسي ، وبسبب تشجيع السلاطين للتصوف وبناء المؤسسات الصوفية التي كانت اهدافها تتمثل في ترميم النظام الاجتماعي الأخذ بالتصدع . وبلغ التطور مداه في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، وخصوصاً في القرن الأخير، حين اشتدت أزمة الدولة العثمانية الاجتماعية . وقرب الخلفاء رؤساء الفرق الصوفية . ودعموا منشآت الإغاثة الصوفية وقد اخذ التصوف بناء على ذلك يسيطر على الحياة الثقافية، واتجه كثير من العلماء الى التصوف فانضموا الى الفرق الصوفية الكثيرة، القادرية والرفاعية والخلوتية والمولوية وغيرها، وخصوصاً لأن التصوف كان يعزز مركزهم الاجتماعي وشعبيتهم، ويُعفيهم من الضرائب ويضمن لهم مسكناً ورزقاً . . . وقد تم هذا الانصراف الى التصوف لدى جبهة العلماء على حساب العلم الذي تدنى مستواه، كما نعرفه من كتب الرحلات والكتب الأخرى الصادرة في هذه الفترة . وقد كان اوليا جلبي كما قلنا احد رجال التصوف المشهورين في القرن الحادي عشر وتتابع بعده مجيء رجال التصوف الكبار الى المدينة المقدسة في النصف الاول من القرن الثاني عشر - وقد كانت المدينة قبلة المتصوفين منذ زمن طويل - وستحدث الآن عن ثلاثة من مشاهير المتصوفين الذين زاروا المدينة المقدسة . وسجلوا زيارتهم في كتب رحلات كانت كلها تحمل اسم القدس في عناوينها، واول هؤلاء الثلاثة :

(٢٢) عبد الغني بن اسماعيل النابلسي^(٢) .

عبد الغني النابلسي كان واحداً من اعظم الوجوه الصوفية التي احرزت شهرة كبيرة في العالم الاسلامي وخاصة في بلاد الشام في القرن الثاني عشر . ولد عبد الغني النابلسي في دمشق سنة

(١) احسان عباس، رحلة ابن عربي الى المشرق كما صورها قانون التأويل، «الابحاث» ٢١، ١٩٦٨، ص ٧٠ .

(٢) مصادر عنه: كمال الدين الغزالي: الورد القدسي والوارد الانسي في ترجمة عبد الغني النابلسي . مخطوطة مكتبة عارف حكمت رقم ٤٠١٠، الجامعة الامريكية ببيروت رقم ٧٥٢ .

- بروكلمان GAL II, p. 457 .

- المحبي، «خلاصة الاثر» ٣/٣٠ .

- كراتشكوفسكي، ٨٣٢ .

J. Gildemeister, Des Abdul Al - ghani al - nabulsi Reise von Damascus nach Jerusalem, ZDMG, Bd. -

36, p. 385.

- صلاح الدين المنجد، «رحلتان الى لبنان»، بيروت .

- هريرت بوسه، «التحقفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية»، القاهرة ١٩٧١ .

١٠٥٠هـ / ١٦٤٠م وتوفي فيها سنة ١١٤٣/١٧٣١. وخلف وراءه عدداً هائلاً من المصنفات، ربما بلغت ثلاثمائة مصنف.

نشأ النابلسي في أسرة عرفت بالتدين. واسم أسرته هو بنو جماعة. فهو من بني جماعة المقدسين الذين وفدوا الى القدس من حاة في القرن السابع، والذين ينتمون الى قبيلة كنانة. وقد سكن جده ابراهيم مدينة نابلس وبقيت ذريته فيها فاشتهروا بالنابلسي، واختفى اسم «بنو جماعة» ثم هاجروا الى دمشق^(١). انضم النابلسي الى الطريقة النقشبندية، وكان قادري المشرب. وابتداءً من سنة ١٠٠ ق.م / ١٦٨٨ انصرف الى الرحلة في الآفاق وألف عدداً من كتب الرحلات. ففي هذه السنة زار لبنان وألف: «حلة الذهب الابريز في رحلة بعلبك والباق العزيز». وقد حققها صلاح الدين المنجد في كتاب «رحلتان الى لبنان»، بيروت، ١٩٧٩. وفي سنة ١١٠١ رحل الى القدس وألف في هذه الرحلة: «الحضرة الانسية في الرحلة القدسية». وفي سنة ١١٠٥/١٦٩٤ زار الشام (بما فيها القدس) ومصر والحجاز، وألف في هذه الرحلة كتاب «الحقيقة والمجاز في الرحلة الى بلاد الشام ومصر والحجاز». وفي سنة ١١١٢/١٧٠٠ زار طرابلس وألف في رحلته: «التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية». وقد حققها هربرت بوسه Heribert Busse وصدرت في القاهرة سنة ١٩٧١. وبهذه الرحلات المتكررة اصبح النابلسي من مشاهير الرحالة في بلاد الشام.

والذي يهمنا مباشرة في هذا الكتاب من رحلاته الاربع «الحضرة الانسية في الرحلة القدسية» و «الحقيقة والمجاز في الرحلة الى بلاد الشام ومصر والحجاز» وهما الرحلتان اللتان زار فيها القدس ووصفها، وحازتا رواجاً كبيراً في القرن الثاني عشر. «الحضرة الانسية في الرحلة القدسية» اتمها النابلسي في ٩ ذي الحجة / ١١٠١ (١٣ ايلول ١٦٩٠) وهي ما تزال مخطوطة لم تحقق ولم تطبع بكاملها حتى الآن. وقد طبع جزء منها في مطبعة الاخلاص بمصر سنة ١٩٠٢/١٣٢٠ بعنوان «رحلتي الى القدس»، ونشر احسان النمر مختارات منها في نابلس سنة ١٩٧٢ بعنوان: «المختار من الحضرة الانسية في الرحلة القدسية». وفي عام ١٩١٨ نشر R. Graf في مدينة زالفلد الألمانية قسماً منها مع وصف الحرم الشريف بطريقة الطبع على الحجر. بيد أن الرحلة ما تزال تنتظر نشرها علمياً تاماً. وتتوفر الحضرة الانسية في العديد من المخطوطات في كثير من المكتبات منها:

- المكتبة الظاهرية بدمشق رقمها ٦٨٤٤.
- المكتبة الخالدية بالقدس.
- الخزانة العامة بالرباط رقم ٣٣٢٠ك، (وهي مصورة على شريط رقم ٥٩٧ في مركز المخطوطات والوثائق بالجامعة الاردنية).
- خزانة الحي الكتاني في المغرب رقم ٢٣٢٠.

(١) «رحلتان الى لبنان»، المنجد وفيلد Wild ص ٧ نقلاً عن المغزى، الورد الانسي، نسخة الجامعة الامريكية ببيروت رقم ٧٥٢ ورقة ١٢٦

- المكتبة الوطنية ببرلين (المكتبة الملكية سابقا) رقم ٦١٤٥ .
- مكتبة غوطا Gotha رقم ١٥٤٧ .
- مكتبة جمعية المستشرقين الالمان (BDMG) رقم ٥٩ .
- مكتبة عارف حكمت في المدينة المنورة رقم ٣٨٢٣ (رقم التصنيف ٨٧ / ٩٠٠) «ومنها نسخة على ميكروفيلم في مكتبة الجامعة الاردنية رقمها ٨٢٠».

فغسى أن تنهض همة الباحثين الى تحقيق هذه الرحلة التي وجدت في وقتها اهتماماً في العالم الاسلامي لوصفها مزارات القدس وفلسطين، وعلمائها وشخصياتها الاجتماعية. وقد درس رحلة النابلسي هذه عدد من المستشرقين الالمان منهم كريمير وفلوجل وجلد مايستر ورشارد هارتمن^(١).

غادر عبد الغني النابلسي دمشق الى القدس يوم الاثنين في ١٧ جمادى الثانية سنة ١١٠١ / ٢٨ آذار سنة ١٦٩٠ ووصل الى القدس في ٢ رجب / ١١ نيسان. وبقي فيها حتى العشرين من رجب / ٢٩ نيسان. ثم غادرها الى دمشق فوصلها في ١ شعبان / ١٠ أيار، اي أن رحلته كلها استغرقت خمسة واربعين يوماً، قضى منها ١٨ يوماً في القدس، و ٢٧ يوماً في الطريق (١٥ يوماً في الطريق من دمشق الى القدس، و ١٢ يوماً في طريق العودة من القدس الى دمشق). وقد سلك النابلسي في قدومه ولدى عودته الطريق الذي يمر بجسر بنات يعقوب. وكان خط سيره كما يلي:

دمشق - داريا - خان الشيخ - قرية سبعس - الفينطرة - جسر بنات يعقوب على نهر الاردن - جب يوسف (حوالي خمسة كم غربي قرية الجاعونة بقضاء صفد) - خان المنية - خان التجار (ومنه يفرق المسافر الذاهب الى مصر الى جهة الغرب والذاهب الى القدس الى جهة الجنوب) . . - قرية الناعورة - قرية جلمة - جنين - عرابة - نابلس - عورتا - جماعين - مردا - عقبة اللبن، (الخان) - البيرة - الشيخ جراح - القدس.

* * *

غني عن البيان أن اهتمام الشيخ النابلسي كرجل دين وشيخ من شيوخ الصوفية الكبار كان منصرفاً بالدرجة الاولى الى زيارة الاماكن المقدسة والمشاهد العديدة التي حفلت بها المدينة ووصف هذه الاماكن، وكذلك الى الالتقاء بعلماء المدينة واعيانها الذين وفدوا للسلام عليه في محل اقامته بالمدرسة السلطانية او الذين اجتمع بهم في الحرم.

وفي كلا المجالين يقدم لنا النابلسي مادة ثمينة عن القدس في الفترة التي زار فيها المدينة اوائل القرن الثاني عشر. وما هو حريٌّ بالإشارة اليه وصفه المفصل لقبة الصخرة والمسجد الأقصى وللمشاهد العديد المنتشرة في ساحة الحرم كلها، على الرغم من أن جزءاً من هذا الوصف (خاصة ما يتعلق بالقياسات والوصف المعماري) كان مأخوذاً عن مجير الدين الحنبلي، وربما

(١) كراتشكوفسكي، ص ٨٣٢. وكتابات هؤلاء مسجلة في ثبث مصادر كتاب كراتشكوفسكي.

الهروي، قبله. وكذلك الوصف المعماري المفصل والدقيق لمبنى المدرسة السلطانية او الاشرافية التي نزل بها في القدس. ولعلّه أوفى وصف معماري للمدرسة يضعه مؤرخ من المؤرخين. ومن المشاهد الأخرى التي أتحفنا بوصفٍ مفصل لها قد لا نجد عند غيره: مزار النبي داود والتكية المولوية والزاوية القرمية والمدرسة القادرية والمدرسة الصلاحية الخ.

وحظيت قبور الاولياء والمقابر بعامه، باهتمامه الخاص، سواء تلك المنتشرة في داخل مدينة القدس، كتربة الشيخ غباين والشيخ ابو شوشه وحسن بن عليل وتربة الشيخ المنسي وغيرها او تلك المنتشرة خارجها: مثل مقبرة ماملا التي نظفر عنده بثبت دفن فيها من العلماء والاعيان، ومقبرة باب الرحمة ومقبرة الساهرة. ويقص علينا حكايات حدثت في هذه المقابر وغيرها حتى إن الرحلة تصلح لأن تكون دليلاً لهذه التربة، وما كان يتردد حولها من حكايات شعبية، كثير منها مشكوك في صحته. وشملت زيارات النابلسي كل ركن من اركان الحرم وكل زاوية من زوايا القدس، ابتداءً من جبل طور زيتا ومشاهده حتى مزار سيدنا عكاشة بظاهر القدس من جهة الغرب بل انه اعطانا وصفاً مفصلاً لمقام النبي موسى (على بعد ثلاثين كيلومتراً شرق القدس) الذي زاره في اليوم الثاني والعشرين من ايام رحلته (١٧ نيسان ١٦٩٠) ووصفه وصفاً مستفيضاً. وتظهر لنا من ثنايا ذلك معلومات تاريخية مفيدة منها على سبيل المثال، الأمر الذي اصدره السلطان بمنع المشي بالنعال في المسجد كله، ووضع «تخت» من الخشب في صحن الصخرة بين بابها ودرجها الشرقي ليمشي عليه الناس بالنعال، ومنها تخصيص مكان خاص للنساء في داخل المسجد الأقصى، غير جامع النساء، تؤدى الصلاة فيه يوم العيدين ويوم الجمعة، ومنها القول إن مكان صلاة الحنابلة كان في سوق المعرفة قبل أن ينتقلوا الى الطابق الارضي للمدرسة السلطانية.

ومن الجدير بالذكر أن النابلسي كان يدي حذراً واضحاً من تقبل الحكايات التي كانت تروى له، وتتصل بمشاهد الحرم المختلفة. بل انه، كما يتضح من اقواله، لم يكن يصدق كثيراً من هذه الحكايات، وهو بذلك يختلف اختلافاً بيناً عن اوليا جلبي. وهناك امثلة كثيرة على ذلك:

فعندما يتحدث عن الشق في الصخرة مثلاً لا يذكر ما ذكرته بعض المصادر الاقدم، ومنها جلبي، من أنه الشق الذي دخل منه جبريل. ولدى حديثه عن البلاطة السوداء لا يصدق فيما يبدو حكاية المسامير: [ووجدنا فيها مسامير من الفضة يزعم الناس انه في كل سنة يغيب مسمار فاذا غاب الجميع قامت الساعة]. اما لون البلاط الاسود فلا يرجع الى زمان الهاوية والطوفان في رأيه بل لأن اللون الأسود يطلق على الأخضر، كما في قولنا «سواد العراق»، وكذلك رفضه لما يقال عن «حديدة المزولة» بانها لسان الكذاب فالنساء والجهال هم الذين يصدقون ذلك. كما أن تسمية عامودين في قبة الطومار بأن احدهما «بطن المرابي» والآخر «عاق والديه» مشهور بين النساء والأولاد «ولا اصل له بحال». وهو يضيف كلمة «يقال» او «ذكروا» قبل كثير من الاشياء التي لا يود أن يلتزم بتصديقها من مثل قوله عن امكنة مختلفة في الحرم:

«وهو مكان يقال إنه محل تعبد سيدتنا مريم» او «مكان يقال إنه محل سيدنا جبريل» او

«مكان يقال إنه محل تعبد الحواريين» او «محل يقال له كرسي سليمان» او «وذكر لنا بعضهم أن النبي سليمان دفن هناك» أو «وذكر لنا بعضهم أن امتداد الصراط يكون من ذلك المحل (العمود الذي يقال له رأس الصراط).

والواقع أن رحلة النابلسي يمكن أن تعتبر افضل «دليل للزيارات» وُضِعَ للمدينة في الفترة العثمانية بأسرها. وربما كان الدليل الاكثر من غيره تفصيلاً.

والجزء الثاني المهم في رحلة النابلسي يتضمن حديثه عن شخصيات المدينة وعلمائها، فهو يقدم لنا عدداً كبيراً من هؤلاء ويتحدث عن بعضهم مطولاً . . . ومن هؤلاء عدد لا نعرفه من معاجم السير. ويشمل هذا القسم اسماء العلماء والاشخاص الذين استقبلوه لدى قدومه الى القدس والذين زاروه في المدرسة السلطانية والذين زارهم في مؤسساتهم المختلفة والذين احتفوا به فاقاموا له المآدب، والذين اجتمع بهم في الحرم القدسي . وكان من بين من ذكرهم زوار قدموا الى القدس من الخارج ومنهم اخوان يُنسبان الى المتصوف الأندلسي ابي الحسن الششتري (من القرن السابع)، ومنهم ايضاً «الشيخ الصالح الشيخ عمرة من قرية دوقرة من بني كنانة تابع اريد» وكذلك رجل صالح من اهل مصر يقال له الشيخ علي الديبصطي لقيه في اثناء زيارته للنبي موسى .

وعندما يتحدث الشيخ النابلسي عن لقاءاته مع محمد بن جماعة خطيب المسجد الاقصى يؤكد في غير موضع انه ابن عمته، فيثبت انه ينحدر من بني جماعة المقدسين .

وكان النابلسي يقضي فترات طويلة في التعبد في الحرم، وحضور مجالس الذكر والدعاء، أو في القاء بعض الدروس على طلاب كانوا يقصدونه في المدرسة السلطانية. وهو لا يذكر كتباً معينة كان يُقرئها، ولكن لا بد أن كتب التصوف كانت في الضدارة. ونحن لا نجد في رحلة عبد الغني النابلسي معطيات كثيرة عن مدينة القدس نفسها - فيما خلا حول المشاهد والشخصيات الدينية - وخصوصاً عما يتعلق بادارة المدينة وحياتها الاقتصادية وسكانها ومعاشهم وانماط حياتهم. فهو كقطب من اقطاب التصوف لم يكن يُعنى عامة بغير ما يُعنى به المتصوفون. ورغم ذلك تبدو في رحلته ملامح من الحياة الاجتماعية في القدس نعرف منها أن المدينة لم تكن كلها مجالس ذكر وتلاوة ولا حلقات للمتصوفة . . . فهو يذكر مثلاً كثيراً من مجالس الطرب التي كان الشيخ يُقبل عليها بلا حرج مما يدل على انه لم يكن متشدداً منصرفاً عن مباحج الحياة. ومن هذه المجالس الأخيرة المجلس الذي حضره في التكية المولوية (التي وصف لنا بناءها السامق ووصفا مفصلاً) حيث «جلسنا في صدر ذلك الديوان وعملوا لنا السماع الشريف ببدايع الالحان حتى حصل لنا غاية الطرب». كما وصف لنا الحمامات التي كانت تطلق في داخلها مجامر البخور، ويُرش فيها ماء الورد على الوجوه والنحور، وتشرب فيها القهوة وتقدم الحلويات والمآكل الشهية وتردد فيها الالحان الطيبة .

وكانت هناك بيوت للقهوة في القدس تصدح فيها الالخان والاغاني . فبعد زيارة النابلسي للمولوية قال : «ثم مررنا في السوق مع الاخوان فوجدنا فيه بيت القهوة ملائ، وهم يُعلنون بانواع الاغاني والالخان فكمل لنا السماع وانطربت منا الاسماع» . وفي موضع آخر يقول : «ثم ذهبنا الى جنينة بعض الاخوان وكان زمان الربيع . . وسمعنا الاناشيد واطايب الالخان» .

ويشير ما كتبه النابلسي عن الولايم الكثرية التي حضرها الى حياة منعمة في بيوت اثرياء المدينة ووجهائها كالقصر الذي كان يسكن فيه المفتي عبد الرحيم بن ابي اللطف، وبيت التاجر الثري المعني بالكتب صالح العسلي . ويذكر انه رأى بيت الأخير «الانبوب الفوار بالماء» - اي الترجيلة التي يبدو أن اسمها الحالي لم يكن شائعاً في زمنه .

ومن الطبيعي أن اسلوب النابلسي في رحلته لا يعجبنا اليوم فهو اسلوب مصنوع مليء بالسجع . والتزام السجع قد يضطر الكاتب احيانا الى كلام ثقيل متكلف، ويكون ذلك بالطبع على حساب المعنى والدقة في التعبير . وهذا السجع والتزويق اللفظي كان من سمات عصور التدهور لا عند العرب فحسب بل عند الأمم الأخرى أيضا .

ويرد القسم الخاص بمدينة القدس في «الرحلة القدسية» في القسم الثاني من هذا الكتاب . وقد سجلنا فيه حواشي وتعليقات يمكن الاطلاع عليها في مواضعها . اما الرحلة الثانية التي تحدث فيها النابلسي عن مدينة القدس فنجد وصفها في كتاب رحلته المطولة الموسومة بـ «الحقيقة والمجاز في الرحلة الى بلاد الشام ومصر والحجاز» .

وتسمى هذه الرحلة «الرحلة الكبرى» بين رحلات النابلسي، فالرحلة الصغرى هي التي قام بها الى بعلبك والبقاع، والرحلة الوسطى هي رحلته القدسية - الحضرة الانسية - . وربما كانت الرحلة الكبرى هي الاكثر رواجاً بين رحلاته . وقد استغرقت ٣٨٨ يوماً زار خلالها أرجاء بلاد الشام، بما فيها فلسطين والقدس، ومصر وبلاد الحجاز . وهي تقسم الى اقسام ثلاثة لكل قطر من الاقطار الثلاثة قسم خاص به . وقد دونها بعد عودته بثلاث سنوات (١١٠٩ - ١١١٠ هـ / ١٦٩٧ - ١٦٩٨ م) . ومن المؤسف أن هذه الرحلة الطويلة والحافلة والتي يذكر بروكلمان عدداً كبيراً من نسخها المخطوطة لم تحقق تحقيقاً علمياً حتى الآن، مع انها طبعت في دمشق ١٢٩٩ / ١٨٨١ - ٨٢ وفي القاهرة عام ١٣٢٤ / ١٩٠٦ - ١٩٠٧ وتم تصوير نسخة جيدة منها موجودة بدار الكتب المصرية (رقم ٣٤٤ جغرافيا) وصدرت في القاهرة سنة ١٩٨٦^(١) . وهذه النسخة هي التي بين يدي الآن .

ومن المخطوطات المتوفرة لرحلة «الحقيقة والمجاز» صورة ميكروفيلم في مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الاردنية (شريط رقم ٦٣١) صورت من مكتبة جامعة توينغن الألمانية، ورقمها هناك Ma VI, 28 . وهناك في المركز صورة اخرى (على شريط رقم ٥٧٣) صورت عن

(١) قدمها وأعد فهرسها د . احمد عبد المجيد هريدي . لكن دون تحقيق .

مخطوطة من مكتبة اسعد افندي باستانبول ورقمها ٢٣٧٦ . وهناك اربع نسخ من الرحلة بالمكتبة
الظاهرية بدمشق ارقامها ٤٦٤٢ و ٣٢٢٥ و ٣٢٢٦ و ٤٧٥٣ . كما أن هناك نسخة في مكتبة تشستر
بيتي بدبلن تحمل الرقم ٣٣٥٨ .

بدأ النابلسي رحلته الكبرى غرة المحرم سنة ١١٠٥ ، وانتهى منها في الخامس من صفر
١١٠٦ (٣٨٨ يوماً) ، قضى منها ٩٩ يوماً في الطريق من دمشق الى حدود مصر الشرقية ، وبقي في
مصر ٨٣ يوماً ثم قضى ٥٤ يوماً في الطريق من مصر الى الحجاز ، ثم أمضى ١٠٩ ايام في البلاد
الحجازية و ٤٣ يوماً في طريق العودة من الحجاز الى دمشق^(١) . وقد اعتمد النابلسي في كثير مما
أورد في رحلته على كتب الرحلات والزيارات ومنها كتب الهروي ومحمد كبريت المدني وابراهيم
الخياري وكتب التاريخ والجغرافيا العديدة والمتنوعة . ومنها (بالنسبة للقدس بشكل خاص) كتاب
الانس الجليل لمجير الدين الحنبلي ، وكذلك المعاجم اللغوية وكتب الحديث والفتاوى الفقهية ،
وغيرها .

وصل النابلسي الى القدس في اليوم الثاني من شهر ربيع الثاني سنة ١١٠٥ ، وهو اليوم
الستون من ايام رحلته . وردد حين وصوله بيتي شعر لابن حجر العسقلاني اصبحا مشهورين بعد
أن ردهما العديدون من زوار القدس وهما :

إلى بيت المقدس جئت أرجو

جنان الخلد نزلا من كريم

قطعنا في مسافته عقاباً

وما بعد العقاب سوى النعيم

ومر أولاً بالمدرسة او الزاوية الجراحية التي هي اول المباني التاريخية التي تواجه زائر القدس
القادم من الشمال . ونزل في هذه الزيارة بالمدرسة القادرية التي كان قد زارها وزار شيخها موسى
المغربي في رحلته السابقة . وقد توافد اعيان القدس الى المدرسة للسلام عليه ، ومنهم نجم الدين
الرملي ابن خير الدين الرملي ، والسيد مصطفى نقيب الاشراف في القدس ونائب قاضي الشرع
بالقدس جورجى النابلسي ، وقاضي القدس عطاالله افندي ابن شيخ الاسلام جرى زاده المفتي
سابقاً بالديار الرومية ، ثم قام كالمعتاد في مستهل زيارته للمدينة المقدسة بزيارة الحرم الشريف
والمشاهد المختلفة فيه التي فصل الكلام عنها في رحلته السابقة . كما زار مقبرة باب الرحمة وعين
سلوان وجبل الطور وما فيه من المشاهد . وهو يذكر من القبور التي زارها ، ربما قرب باب
الاسباط ، «قبور اولاد الامام الاعظم أبي حنيفة النعمان ، وهو مشهور بين الناس» ولا نعرف
موضع هذه القبور ، ولم نسمع عنها من قبل . وتردّد النابلسي كالعادة على مقام النبي داود وزار
ضريحه واجتمع فيه بالشيخ يحيى الدجاني خادم المقام فأكرمه غاية الاكرام . ومن المدارس التي

(١) عن مقدمة احمد عبد المجيد المردي للرحلة ، ص ١٠ .

زارها في رحلته هذه المدرسة الفخرية الكائنة في الزاوية الجنوبية الشرقية للحرم القدسي^(١). والمعروف ان هذه المدرسة كانت تحتوي على كتب قيمة منذ قديم الزمان . وقد رأى النابلسي جملة من هذه الكتب منها ديوان ابي العلاء المعري وشرحه . ويذكر النابلسي انه زار ابن عمه محمد بن جماعة في المدرسة الجوهرية . والمعروف ان هذه المدرسة هي الآن من اوقاف عائلة بني جماعة (الخطيب اليوم) - وقد مضى على سكناهم فيها مئات السنين^(٢). وقد جُعِلت قبل سنوات قلائل مقراً لقسم الآثار الاسلامية في القدس . ويقول النابلسي في رحلته إنه وصلته مكاتيب من جهة الشام ، الأمر الذي يدل على توفر الخدمات البريدية حتى غير الرسمية في تلك الايام .

وقد شُغل النابلسي في هذه الزيارة للقدس بالولائم التي اقامها اعيان المدينة وبالتعبد في المسجد الأقصى والقاء الدروس فيه ومحادثة علمائه وحضور مجالس الذكر والموالد . وكان ممن استضافه في هذه الزيارة الحاج علي المعروف بابن نسيبة فاجتمع به في داره المعمورة التي كانت مشحونة بالافاضل والاعيان الذين اجتمعوا لاستقباله .

وقد وصف النابلسي الاحتفال بالمولد النبوي الشريف في المسجد الأقصى ، وصفا شائقاً : وقال إن الناس على مختلف طبقاتهم بمن فيه النساء والاولاد حضروا هذا الاحتفال . قال النابلسي : «وكانت تلك الليلة ليلة المولد النبوي المنيف . فجتنا الى المسجد الأقصى . الذي فضايله وبركاته لا تستقصى . وجلسنا هناك ننتظر سماع المولد المبارك . فلما اذن العشاء وصلينا صلاة العشاء مع الجماعة بمعونة الله تعالى وتبارك . وكانت اوقدت تلك القناديل الكثيرة . واستتارت تلك الشموع فحيرت البصر والبصيرة نصب الكرسي قبالة المحراب . وصعد عليه رئيس السادة الموالدية الرفيع الجنباب . وهو السيد عبد الصمد ابن مفخر الاعيان السيد عبد اللطيف افندي . وقرأ شيئاً من القرآن العظيم يعيد له ويبيدي . وقد اجتمعت الناس على طبقاتهم من الموالى والاكابر والعلماء والافاضل وأئمة المحاريب والمنابر ، والخواص والعوام من الرجال حتى النساء ذوات الحجال في ناحية من المسجد مجتمعات . ومعهن الصبيان الصغار والبنات . ثم شرع في المولد الشريف . وحوله جماعة من المؤذنين يترنمون بالصوت اللطيف . ثم فرقوا على جميع الحاضرين . انواع السكر والنقل وطيب الرياحين . وجاؤا بالماء ورد ومباخر العود . وكان وقتنا شريفاً حصل فيه كمال الخضوع والشهود . ثم بعد ذلك انصرف الناس . وتفرق ذلك الجمع باللطف والايناس» .

اما المباحث العلمية التي كانت تجري في تلك المجالس في الأقصى ودور العلماء فيذكر من جللتها مسألة التفضيل بين الانبياء (بعد محمد ﷺ) ابراهيم وعيسى وموسى .

ولعل من اوضح الادلة على الجو الفكري الذي كان يسود حتى الفئة المتعلمة في تلك الايام ما رواه الشيخ أمين الخليلي للشيخ النابلسي حول أصل عين السلطان الكائنة قرب اريحا وسبب

(١) «معاهد العلم»، ١١٣ .

(٢) انظر «معاهد العلم»، ص ١٩٥ .

جريان الماء فيها، فإن الشيخ امين المذكور احواله على على ورقة بالية ظهرت في قبو وجد في محلة القصيلة، من محلات حارة باب العامود قاتلا له: إذا اردت أن تعرف محل النهر الذي بييت المقدس (يقصد عين السلطان المشار اليها قرب اريحا) الذي غوره حزقيل (وهو من انبياء بني اسرائيل) تعمد الى رأس القصيلة من جهة الغرب نحو كذا وكذا ذراع (وعدد الأذرع) . . تجد طابقا من رخام وتحتة لبايد مملوءة بالملح وتحتة طابق آخر الى سبع طوابق تجد النهر المذكور. وذكر انه لما غوره حزقيل ظهر من عين السلطان التي بغور قرية اريحا!

وقد قام الشيخ النابلسي في رحلته الثانية هذه ايضا بزيارات الى خارج القدس، فزار مدينة الخليل ومقامات الانبياء فيها، كما زار مقام النبي موسى في اليوم الخامس عشر من شهر ربيع الاول (اليوم الثالث والسبعون من ايام الرحلة) وزار قرية اريحا وعين السلطان في اليوم التالي ثم عاد مساءً الى مقام النبي موسى فقرأ المولد في المقام. وعاد الى القدس بعد يومين في ١٧ ربيع الاول. وفي اليوم السابع والسبعين من ايام الرحلة (١٩ ربيع الاول) - اي بعد زيارة استمرت سبعة عشر يوما للقدس، وهي عين المدة التي مكث فيها في رحلته القدسية السابقة - عزم على السير الى مصر عن طريق الرملة وغزة وحضر اعيان البلد لوداعه كما هي العادة. فتوجه مصحوبا بالسلامة.

اما الرحالة الثاني الذي تردد على القدس عدة مرات في هذا القرن فهو:

(٢٣) مصطفى بن كمال الدين البكري الصديقي . .

ويرجع البكري الصديقي نسبته الى ابي بكر الصديق. وهو تلميذ الشيخ عبد الغني النابلسي وقرأ عليه مدة في دمشق، وله سيرة مطولة في سلك الدرر (٤، ١٩٠ - ٢٠٠). ولد في دمشق سنة ١٠٩٩ / ١٦٨٨ ودرس فيها، وأخذ الطريقة الخلوتية عن الشيخ عبد اللطيف الحلبي الخلوتي، ووضع كثيرا من المؤلفات والرسائل، ربما جاوزت المائتين. وكان رحالة لا يستقر له قرار. وبين كتبه عدد كبير من كتب الرحلات التي نحاول أن نحصرها فيما يلي اعتماداً على ما ذكر منها في كتب رحلاته المختلفة وعلى سيرته في سلك الدرر. وبدأ بكتب رحلاته التي زار فيها القدس، وهي:

اولا: الرحلة المحسية في الرحلة القدسية، وهي رحلته الاولى. وقد زار فيها القدس سنة ١١٢٢ / ١٧١٠. وكان عمره ٢٣ سنة.

ثانيا: الخطرة الثانية الانسية للروضة الدانية القدسية (وفي بعض المخطوطات: «الخطرات»). وقد سجل في هذه الرحلة وقائع زيارته الثانية الى القدس سنة ١١٢٦ / ١٧١٤.

ثالثا: الحلة الذهبية في الرحلة الحلبية. وتاريخ الرحلة ٢٠ رجب سنة ١١٢٨ / ١٧١٦. وقد توجه فيها اولاً الى حلب الشهباء فوصلها في شهر شعبان. ومنها ذهب الى بغداد واقام بها نحو

شهرين، ثم رجع وتوجه الى الساحل الشامي حيث زار قبر الصوفي المشهور ابراهيم بن ادهم في جبلة. وزار بعدها طرسوس وبيروت وجنين و نابلس وقريني حجة ودير استيا، ثم مقام علي بن عليل في شاطيء يافا، وقريني الزاوية وبديا. وفي اواخر جمادى الثانية سنة ١١٢٩/١٧١٧ دخل بيت المقدس. وهذه هي رحلته الثالثة اجمالا ورحلته الثالثة ايضا الى القدس^(١). وفي هذه الرحلة عمر البكري الصديقي ما يُدعى بالخلوة التحتانية. ويظن أن المقصود هو الدار التي كانت تدعى قديما الزاوية الوفائية وتدعى اليوم دار البديري. وقد باعها ورثة الشيخ الصديقي الى محمد بن بدير القدسي فيها بعد^(٢).

وقد قام الصديقي برحلات وزيارات عديدة إلى القدس بعد هذه المرات الثلاث. ففي سنة ١٧١٩/١١٣١ ذهب الى القدس وتزوج هناك. وفي سنة ١٧٢١/١١٣٣ سافر من القدس الى مصر مع رجب باشا ثم رجع الى القدس بحراً ثم براً وبقي فيها حتى بداية سنة ١٧٢٣/١١٣٥. وفي سنة ١٧٢٧/١١٣٩ (في اواخرها) ذهب الى القدس واقام بها حتى سنة ١٧٣٢/١١٤٥ ثم توجه الى الحج وعاد الى القدس وبقي فيها ٤٠ يوماً. وفي سنة ١٧٣٥/١١٤٨ دخل القدس غرة رمضان. وفي سنة ١٧٣٩/١١٥٢ زار القدس وبقي فيها ثماني سنوات، حتى سنة ١٧٤٧/١١٦٠.

وللصديقي العديد من الرحلات الأخرى الى اقطار عربية واسلامية مختلفة، نذكر منها حلب والساحل الشامي ١٧١٦/١١٢٨، الحجاز لاداء فريضة الحج ١٧١٧/١١٢٩ ومصر ١٧٢١/١١٣٣، وطرابلس وحمص وحماة وحلب ١٧٢٣/١١٣٥، والقسطنطينية ١٧٢٣/١١٣٥. ويستفاد من المرادي (سلك الدرر ٤/١٩٢) أن الشيخ البكري كان في القسطنطينية في سنة ١٧٢٥/١١٣٧ وأنه عاد الى حلب سنة ١٧٢٦/١١٣٩. وزار العراق في تلك السنة (١١٣٩) ثم عاد في السنة نفسها الى الشام فدخل حلب ثم دمشق. وادى فريضة الحج في بيت الله الحرام مرة اخرى سنة ١٧٣٢/١١٤٥. وفي سنة ١٧٣٥/١١٤٨ قصد البلاد الرومية مرة اخرى. ومنها توجه الى الاسكندرية بحرا. وفي سنة ١٧٣٦/١١٤٩ ذهب الى الحج ثم رجع الى دمشق، ثم تحول الى ديار بكر وبقي فيها ٨ اشهر ثم رحل الى نابلس فمكث بها ١١ شهرا. وفي سنة ١٧٤٧/١١٦٠ سار الى مصر. وفي سنة ١٧٤٨/١١٦١ أدى فريضة الحج للمرة الأخيرة.

ويقول المرادي : إن له اثنتي عشرة رحلة و ٧ دواوين شعرية (٤/١٩٥). وهو يذكر منها

إضافة الى ما ذكرنا من قبل :

١ - الحلة الفاتية رسوم الهوموم والعموم في الرحلة الثانية الى بلاد الروم.

(١) مصطفى البكري الصديقي، مجموع من رحلاته المخطوطة لدى مؤلف هذا الكتاب. وهذا المجموع صورة من اصل في

مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة ورقمه فيها ٣٨٤٠. ويضم هذا المجموع ما يلي :

(١) الحجرة المحسية في الرحلة القدسية، ورقة ١ - ٣٥. (٢) الخطرات الثانية الانسية ورقة ٣٦ - ٥٣. (٣) برء

الاسقام في زيارة برزة والمقام ٥٤ - ٧٣. (٤) لمع برق المقامات العوال في زيارة سيدي حسن الراعي وولده عبد العال

٧٤ - ٩٠. (٥) الحلة الذهبية في الرحلة الحلبية ٩٢ - ١٣٧.

(٢) انظر : «معاهد العلم»، ص ٣٤٥.

- ٢ - كشط الصدا وغسل الران في زيارة العراق وما والاها من البلدان .
 - ٣ - الفيض الجليل في أراضي الخليل .
 - ٤ - النحلة النصرية في الرحلة المصرية .
 - ٥ - بُرء الاسقام في زمزم والمقام .
 - ٦ - ورد الاحسان في الرحلة الى جبل لبنان .
 - ٧ - لمع برق المقامات العوال في زيارة سيدي حسن الراعي وولده عبد العال .
- ولو اضعنا الى هذه الرحلات العشر (الثلاث التي ذكرناها اولاً والسبع التي ذكر عناوينها المرادى) ثلاث رحلات عثرنا على عناوينها في «الخطرة الثانية الانسية» للبكري وفي المجموع الذي لدينا من اعمال البكري وهي :-

- (١) برء الاسقام في زيارة برزة والمقام .
 - (٢) تفريق الهموم في الرحلة الى بلاد الروم .
 - (٣) الحلة الحقيقية لا المجازية في الرحلة الحجازية (سنة ١١٣٠-١١٣١هـ)
- (١٧١٧-١٧١٨) لتجمع لدينا عناوين ثلاث عشرة رحلة كتبها البكري . وربما كانت هناك عناوين أخرى أيضاً . لقد طوف البكري طويلاً في البلاد . وكان له اعداد كبيرة من المريدين في العديد من البلدان . ولما بلغ تلاميذه مائة الف أمر بعدم كتابة اسمائهم وقال هذا شيء لا يدخل تحت عدد^(١) .

ويبدو أن آخر رحلاته هي رحلة الحج الأخيرة سنة ١١٦١/١٧٤٨ . وقد عاد منها الى مصر . وهناك آن للفارس أن يترجّل ، فادركته المنية في القاهرة سنة ١١٦٢/١٧٥٩ . ونود أن نضيف أن كثيراً من كتب الرحلات التي وضعها كانت رسائل صغيرة . وعلى اية حال فالذي يهمننا منها هنا في الدرجة الاولى هو رحلاته الاولى والثانية والثالثة : الخمرة المحسية ، والخطرة الثانية الإنسية ، والحلة الذهبية . . .

الخمرة المحسية في الرحلة القدسية :

خرج البكري في رحلته الاولى هذه الى القدس في ١٩ محرم ١١٢٢ وعاد في ١٥ شعبان من السنة نفسها اي أن الرحلة استغرقت حوالي سبعة اشهر بما في ذلك الذهاب والاياب . وسلك البكري الطريق التي سلكها النابلسي قبله والتي كانت احدى الطرق الرئيسية من دمشق الى مصر وفلسطين . وكان خط سيره ، كما هو مبين في رحلته ، كما يلي : دمشق - داريا - خان الشيخ - سعسع - القنيطرة - جسر بنات يعقوب (الخان) - جب يوسف الصديق (الخان) - المنية - عيون التجار - جنين - نابلس - سنجل - البيرة - القدس .

رحلة البكري هذه قصيرة لا تتجاوز ٣٥ ورقة من المجموع الموجود لدينا (صورة مخطوط مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة رقم ٣٨٤٠) .

(١) المرادى ، سلك الدرر ، ١٩٤/٤ .

وهناك عدد قليل من مخطوطات هذه الرحلة منها، عدا نسخة عارف حكمت هذه :

- نسخة في مكتبة برلين رقم ٦١٤٩ .

- ونسخة كانت في حوزة المرحوم احمد سامح الخالدي . وربما هي الآن في المكتبة

الخالدية بالقدس ؟

ولم تُنشر الخمرة المحسية حتى الان ، لا تحقيقاً ولا تصويراً ، لكن احمد سامح الخالدي أتى

بخلاصة لها في كتابه الصغير - رحلات في ديار الشام - .

ان اسلوب مصطفى البكري الصديقي يعكس النمط السائد في عصر التدهور ، لأن السجع فيه كان من مستلزمات التعبير الادبي ، وكثير ما شكل ذلك عبئاً كبيراً على المعاني . وكان هنالك بالاضافة الى السجع الاستطراد الكثير خصوصاً في امتداح أمائل ذلك الزمان من علماء وحكام وسواهم . مما يتعذر معه استخراج المعلومات والحقائق حتى من الصفحات المطولة . وكان تضمين الشعر من خصائص هذا الاسلوب . وكثيراً من هذا الشعر - ولكن ليس كله - كان من نظم المؤلف . . . وهو شعر ركيك بوجه الإجمال بل هو نظم مرصوف . ويشبه اسلوب البكري في الكتابة اسلوب استاذه النابلسي ، ولكنه أشد ركاكة وأكثر تكلفاً في السجع ، ونكتفي هنا بهذا القدر عن اسلوب الرحلة لأن ما يهمننا بالدرجة الاولى هو ما تضمنته من حقائق ومعلومات :

في مقدمة الرحلة يُثبت البكري سلسلة نسبه بذكر حوالي ثلاثين جداً من اجداده انتهاءً بكعب بن تميم بن مرة جد الرسول صلى الله عليه وسلم . ويتوسط سلسلة النسب ابو بكر الصديق . ويقول في مستهل رحلته انه رجع الى المشايخ والاولياء من اجل الاستشارة والاستخارة في امر الزيارة - وكانت هذه عادة متبعة - وخرج من دمشق ، فيما يذكر ، صحبة خاله محمد علي الموقع (وكان قد غير اللباس لكي لا يعرفه أحد من الناس) وسار الركب في الطريق التي أجملنا مراحلها من قبل الى أن وصل الى بيت المقدس . ف «أخذنا لذلك الطرب والابتهاج» . وكان اول ما صادفه في القدس المدرسة الجراحية أو مزار الشيخ جراح . ويُبين البكري ، وهو ما لم نجد له إشارة في رحلة النابلسي ، أنه طلب الأذن من المسؤولين في المدينة «كما هو المطلوب من كل داخل وخارج» .

ونزل السيد البكري في القدس في دار رجل شريف يقال له السيد محمد الطواقي . وكان خاله ينزل بهذا المكان من قديم . وما لبث أن زار الحرم المحرم وصعد الى سطح الصخرة العلي المنار ، فاذا «المسجد يزيد على الأموي بأكثر من خمس مرات» . وفي اليوم التالي استأنف الزيارات في الحرم وهو «ملتحف برداء الخفا كل ساعة» ، وبصحبة بعض الاخوان منهم التاجر علم الدين العلمي والصوفي الخلوقي الشيخ يحيى الدجاني . وقد دعاه الأخير الى دار الضيافة بمقام النبي داود فزارها عدة مرات . وبقي على هذه الحال الى أن حان موسم النبي موسى فسار مع الركب الى ساحته حيث قضى هناك عدة ايام ثم عاد الى القدس . واستأنف زيارته فزار سكان جبل الطور (طور زيتا) (وهو لا يقصد بالسكان السكان الأحياء بل الاولياء في ثرى الطور) ، كما زار قبر مريم العذراء أنس الجفون . وكان في اغلب الاحيان يجلس في احد شبابيك الاقصى العتيقة المطلة على

جبل المكبر وحديقته الخاتونية الكائنة جنوبي الأقصى مباشرة ويعكف على الكتابة . . . وفي بعض الاحيان كان ينزل متهيئاً الى المغارة تحت الصخرة «لثقل الواردين فيها من الفحول» كما كان يحضر درس الشيخ محمد الخليلي ويقرأ الاوراد حتى حان موعد زيارة الخليل فزارها . وما لبث أن عاد إلى القدس وسار مع السيد محمد بن عبدالله السلفيتي لزيارة النبي شمويل ورافقه صديقه فتح الله الدجاني ونور السعدي وقرأ معهم (الحكم العطائية).

وبعدئذ عاد الى القدس واعتكف بعد ايام في الخلوة النحوية، وتبعه فيها السيد محمد المشار اليه «وتبعه صديقنا نور الدين مصطفى بن عقيب وأخوه عبد الله و «طلبنا اندراجا في هذا النهج المستنير الابهج». وكانوا يقرأون في الخلوة الاوراد. وبقي البكري فيها ثلاثة ايام لم ينم هو وصحبه خلالها. ثم زار نبي الله داود مرة أخرى وزار كذلك الطور وكان يبيت في الزواية الاسعدية حيث ضريح القطب محمد العلمي وزوجته. وزار في الطور مشهدي رابعة العدوية وسلمان الفارسي، كما زار العزيز عليه السلام في قرية العيزرية وقبري شداد بن اوس وعبادة بن الصامت في باب الرحمة. ثم توجه الى شمال القدس فزار مقام الشيخ ابي زيتون قرب قرية بيتونيا، ثم مقام الست نفيسة أم الشيخ احمد الدجاني في بيتونيا نفسها. ثم غرب من القدس فزار مقام الولي علي بن عليل على شاطئ يافا ثم قرى في نابلس وجهات بني صعب.

ويظهر أن السيد البكري كان يلبس الملابس الفاخرة فجاءه يوماً الشيخ محمد المكنى بأبي فروة (وكان يلبس فروة على ظهره متجرداً عن لباس اهل دهره) وقال له إذ راه يرتدي فروة ذات ثمن واثواباً حسنة: «اهكذا كان لباس صاحب الأخلاق المرضية والافعال المستحسنة؟» ويبدو أن ابا فروة المذكور كان من الكادحين الزاهدين. وقد راعه أن يرى البكري، وهو المتصوف الناسك، في الملابس الفاخرة. . . وتخلص البكري من السؤال بالقول: ليس التصوف لبس الصوف والخلق. . . بل التصوف حسن السمعة والخلق. . .

وما لبث الإخوان أن طلبوا من الشيخ البكري وصية ينتفعون بها تجمع اركان الطريق وشروطه فكتب لهم «الوصية الجلية للسالكين طريق الخلوتية».

وهنا أوْشكت الزيارة على الانتهاء فشدَّ البكري الرحال وعاد الى دمشق فوصلها في الخامس عشر من شعبان (١١٢٢/١٧١٠).

وبعد اربع سنوات حنَّ الشيخ البكري الى ربوع القدس فغادر دمشق في اوائل شعبان سنة (١١٢٦/١٧١٤ آب) ولكنه لم ينس قبل أن يشدَّ الرحال أن يستشير كالعادة اوليائه حول السفر، خصوصاً بعد أن سمع أن عرب الصقر المقيمين بالغور وما حوله قد منعوا السبيل السلطاني، فتوجه الى زيارة شيخه المرحوم عبد اللطيف البدركياني واستشاره ففاحت من قبره رائحة عطر سيسباني فعرف انذاك أن الطريق آمن فسار على بركة الله بصحبة شخصين من بلدة حرستا^(١) «وحرستا هذه بلدة الصاحب الثاني لامانا الاعظم ملي القناني». واتبع الطريق السلطاني المعروف

(١) في «معجم البلدان» ٢/٢٤١: حرستا بالتحريك وسكون السين. قرية كبيرة عامرة وسط بساتين دمشق على طريق حمص بينها وبين دمشق اكثر من فرسخ.

الى سوسع والقنيطرة ثم اتجه الى ارض صفد وجب يوسف فالمنية فعيون التجار فجنين فنبلس فالبيرة. ونزل البكري هذه المرة في الخلوة الرصاصية^(١). وفي شهر رمضان انتقل الى خلوة السيد جار الله في الحرم. وكان يأكل في دار الأخ مصطفى بن عقبة. وكان ممن دعاه وكرر الدعوة الشيخ نور الدين الهواري وقاضي البلدة كتحدا زاده. وفي شوال قدم الوالي رجب باشا الى القدس، وطلب الوزير الاجتماع به فتوثقت العلاقات بينهما، واصطحبه الوزير فيما بعد الى مصر سنة ١١٣٣/١٧٢١ وتشاغل البكري في تلك الايام بكتابة «الضيء الشمسي» نهاراً ومراجعتة ليلا، كما بيض كتابه الأخر «الورد الطارق واللمح الفارق». وكان قد جلب معه أوراق مسودات من دمشق فانتفع بها. وطلب اخوان كبار وصغار دخول الخلوة فاجابهم الى ذلك وأمر الطلاب أن ينفرد كل واحد في خلوة. وكان ممن طلب ذلك الشيخ عبد الحق واحد بن ابي النصر. . . وأمر الحاج ابراهيم أن يغلق باب الخلوة ولا يفتحه الا قبل الغروب وأن يحضر عقب العشا الى الخلوة البيرونية لاجل أن يسمعهم قصائد انشاد. وقضوا في الخلوة ثلاثة ايام كانت كبارقات احلام ثم اشتهى الشيخ احمد الموقت دخول الخلوة الصغيرة التي كان البكري ينام فيها وتبعه الشيخ اسماعيل الكسير والشيخ نور الدين. . . ولم تسع الاوضة غير هؤلاء الاربعة. . .

ويروي الشيخ البكري بعد ذلك قصة حلم، حلم فيه أن الوزير رجب باشا خلع عليه ثلاث خلع عظام. . . فاخرج البكري من عبه سيوفا حدادا ليحارب بها العربان الثائرين وينتصر عليهم. وزار البكري بعدئذ الخليل ولما جاء الربيع توجه (ربيع ثان - جمادى الأولى ١١٢٧ / آذار - نيسان ١٧١٥) الى زيارة النبي موسى في موسمه، في صحبة عددٍ من الإخوان. وبعد ثلاثة عشر يوماً عاد الى القدس ومر في طريقه على مزار العزير. وبعد ليالٍ توجه لزيارة «الخليفة» داود. وكان الوزير رجب باشا قد فتح بابا في مقام النبي داود وعمل الستارة به كما كان بتعميرات أخرى في القدس والخليل وذكر البكري من بينها أنه «أحيا وقف الخليل وادار سماطه^(٢) الجليل، وعمر نبي الله اشمويل. . . وقصر من الصخرة المغارة (ربما ببناء حائط في سقف المغارة) وفرشها وأرخصى عليها ستارة».

ثم قام الشيخ البكري بزيارة مقام السيد علي بن عليل على شاطئ يافا. وبينما كان هو وصحبه يجلسون هناك. . . اذ اعلام وإشارات في السهل بادية وخيول تتجاري فقلنا اسود ضارية فجأت الرفاق واصطفوا للفرجة اصطفا فاقيل الشيخ محمد الخليلي قادم من يافا فاستقبلوه منشرحين. ودعا الشيخ الخليلي البكري لزيارة قصره في يافا على شاطئ البحر ففعل، ثم عاد الى مقام سيدنا علي «وعدت فوصلت النهر (نهر العوجا) ولم ندر مقطعه ووقفت وقدمت الأخ السلفيتي، فكاد يغرق. ثم هداني الله لقطعه من جانب البحر فرأيتة سهلا فحمدت ربي وبعد ذلك رأينا فلكا في البحر تجرى بانحدار فخشينا لوجود (قراصنة) (اي قراصنة) فيه أن تكون مملوءة

(١) نظن انها المدرسة الرصاصية في عقبة التكية وهي نفسها المسماة البيروية اورباط بيرم («معاهد العلم»، ٣٢٤) التي نزل فيها في المرة السابقة بعض الوقت.

(٢) السماط : الطعام الذي يقدم للفقراء وغيرهم.

بالافرنج فصعدنا الجبل ، وبعدها بعدت الفلك نزلنا الشط واجتمعنا بالاخوان الذين كانوا في مقام سيدنا علي . وقضينا بعد ذلك اليوم حتى أتينا كفر سابا فزرتنا سيدي بنيامين وسيدي سراقه ابن كعب وابن عمرو وابن الحرث وابن مالك المدلجي وابن عمرو ذو النون صحابيون . وزار بعد ذلك قريتي جيوس وعزون ثم عاد الى القدس . وزار النبي شموئيل مع محمد السلفيتي . وما لبث الشيخ محمد الخليلي أن ارسل رسولا الى داره ومعه كتاب يدعو للزيارة ملوحاً أن جناب الوزير طلب ذلك وأمر باحضار إخوانه ومرافقيه فذهبوا : «ولما أذن العشا . . اجلسنا (اي الشيخ الخليلي) لديه وقربني إليه وأمر بالذكر . . . وجلس هو فوق المصفة لسمع التهليل والتكبير . وكان الوزير حاضراً المجلس فطرب للانشاد واعطى المتشددين خرجية» .

وخرجوا الى الشيخ بادار (بدر - قرب مدخل لفتا شمال غربي القدس) واقاموا بجواره في كرم فسيح . وهناك رأى جماعة من المغاربة يستمعون الى الشيخ محمد المزطاري الشاذلي ، وهو يتكلم بالنصائح الوفاية .

وكان من اواخر ما فعله البكري في زيارته هذه الى القدس انه لَقِّن الاخ الامجد الشيخ احمد الموقت الاسم الرابع وعمل له كسوة بيضا عازماً على إلباسه اياها ليلة السفر وعلى تخليفه اياه على جماعة الصوفية الخلوتية في القدس . وما لبث (يوم ٢٦ شعبان) أن لقنه الاسم الخامس في الطور . ووصف البكري الاحتفال الذي اقيم في تلك المناسبة فقال : «وكان الإخوان وقفوا عند الدرج (درج الزاوية الاسعدية في الطور) وفرشت سجادتين عند مرقد العلمي . وقبل النزول قرئت فاتحة لأرباب الوصول فشعر القلب والفؤاد الصادي أن الرجال ملأت ذلك النادي . . . أمرنا من حضر من الاخوان . . . بالذهاب الى الجامع وعمل المحياً الجامع للبرق اللامع . واخبرنا الأخ الشيخ عبد الحق الجماعي قال : ما رايت جلاله نور يلماعي مثل ليلة التخليف والنيابة . وفي اليوم التالي اي (٢٧ شعبان ١١٢٧) (آب ١٧١٥) اختتم البكري الزيارة وعاد الى دمشق . وهكذا فان زيارته الثانية دامت اكثر من عام كامل .

اما رحلة الشيخ البكري الثالثة - وهي الحلة الذهبية - فقد توجه بها كما قدمنا الى حلب الشهباء . وقد خرج من دمشق في ٢٠ رجب ١١٢٨/١٧١٦ . وكان الوصول الى حلب في اوائل شعبان . وسار من حلب الى طرابلس الشام ثم توجه الى زيارة قبر ابراهيم بن ادهم في جبلة . وسافر من بعد الى طرطوس وبيروت وجنين ونابلس ، ومقام سيدنا علي (بن عليل) في يافا . وفي اواخر جمادى الثاني ١١٢٩/١٧١٧ دخل بيت المقدس وزار معلمها واصحابه فيها ، كما زار سيدنا موسى الكليم وعاد الى الخلوة البيرمية التي عمَّرها عثمان باشا المهدي . وكذلك توجه لزيارة النبي شمويل ثم جبل الطور . وبعثذ سار من القدس الى الخليل ، ومنها الى جنوب فلسطين حيث زار عسقلان وبيت جبرين والفالوجه والمجدل ومنطقتها وقرية حمامة ووادي النمل والجورة . وبعثذ زار الرملة ثم عابود وسلفيت ونابلس . وفيها التقى الشيخ محمد الخليلي الذي كان وصلها وهو في طريقه الى الشام للاجتماع بمتوليها رجب باشا . ومن نابلس توجه الى قرية حجة والحضرة العليلية

وعزون والمجدل. وفي هذه الأخيرة التقى بربح باشا امير الحاج ووالي الشام. ثم توجه الى شمال فلسطين ماراً بمنطقة صفد وعاد من هناك الى دمشق.

اما ثالث الرحالة المتصوفين الكبار الذين زاروا القدس في القرن الثاني عشر / الثامن عشر فهو من مريدي مصطفى البكري الصديقي وتلاميذه، كما كان الصديقي بدروه تلميذ عبد الغني النابلسي. فهؤلاء الثلاثة الذين أشربوا حب القدس كونوا سلسلة متصلة من الناحية العلمية والرابطة الصوفية. هذا الرحالة هو:

٢٤ - مصطفى أسعد بن احمد بن محمد اللقيمي الدمياطي^(١)

ولد اللقيمي بدمياط سنة ١١٠٥/١٦٩٣، ولكنه يرجع باصله الى القدس. فهو يقول في اول رحلته «موانح الانس» إنه سبب العلامة نور الدين علي بن غانم المقدسي الحنفي السني العمري^(٢).

وبنو غانم من العشائر الخزرجية التي استقرت في فلسطين والتي تُرجع نسبها الى سعد بن عبادة الخزرجي، الصحابي المشهور المتوفى سنة ١٤/٦٣٥. وكان جزء منها على الاقل في قرية بورين من قرى نابلس. ومن هذه القرية استقدم صلاح الدين الأيوبي جد العائلة، وأول من سكن القدس منها، الشيخ غانم بن علي بن حسين الانصاري الخزرجي المقدسي، وولاه مشيخة الخانقاه الصلاحية. وتوفي غانم بدمشق سنة ٦٣٢/١٢٣٥^(٣) وخلفه في مشيخة الخانقاه عدد من شيوخ بني غانم الذي تولوا مشيختها حتى اواخر العصر المملوكي^(٤).

ومن هؤلاء العلماء من هاجر الى مصر مثل نور الدين علي جد اللقيمي. وكان منهم في القرن الحادي عشر محمد بن حافظ الدين بن محمد المعروف بالسروري مدرس الميمونية المتوفى سنة ١٠٨٠/١٦٦٩^(٥). ويبدو أن نسبة السروري لحقت بهذه العائلة منذ هذا الوقت - والسروري من

(١) انظر عنه: اللقيمي، «موانح الانس برحلتني لوادى القدس» - مخطوط.

- Brockelmann, GAL II, 476 S II, 490

- المرادي، «سلك الدرر» ٤/١٥٤ - ١٦٦.

- كراتشكوفسكي، ٨٢٧.

(٢) هو الشيخ علي بن محمد بن علي الخزرجي قال في البدر الطالع: «قال العصامي هو شمس العلوم والمعارف بدر المفهوم واللطائف، قرأ عين اصحاب ابي حنيفة الراقي في معارج التحقيق حقيقة.. وقال الشيخ عبد الرزاق المنادي: هو شيخ الوقت حالا وعلما وتحقيقا وفهما. وامام المحققين حقيقة ورسما. كانت وفاته سنة ١٠٠٤ اربع وألف ١٥٩٥ - ١٥٩٦ (محمد بن علي الشوكاني، البدر الطالع، ص ٤٩١).

ولد الشيخ علي الملقب بنور الدين في القدس سنة ٩٢٠هـ / ١٥١٤. ومن كتبه التي حققت ونشرت مؤخراً مصائد الشيطان وذم الهوى وهو مختصر كتاب اغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن قيم الجوزية. حققه ابراهيم محمد الجمل، وصدر في القاهرة عن دار القرآن. (د.ت).

(٣) الخبلي، «الانس الجليل» ٢/١٤٦.

(٤) العسلي، «معاهد العلم» ٣٣٦ - ٣٧.

(٥) «خلاصة الأثر» ٣/٤١٤.

عائلات القدس في الوقت الحاضر - ومنهم في القرن الثاني عشر محمد السروري. وكانت له وظيفة
الدرس والاعادة بالمدرسة الميمونية في سنة ١١٩٨/١٧٨٤ وتلاه فيها اولاده^(١).

هذا عن اولاد غانم. اما نسبة اللقيمي التي لحقت بمصطفى اسعد الذي نتحدث عنه
فيقول المرادى إنها نسبة الى لقيم بالطائف، ونسبة اجداده اليها^(٢). وربما كانت الحال كذلك
بالنسبة لاجداده الاقدمين، فهم أصلاً من الحجاز بلامراء. ويبدو أن أم مصطفى مصرية من
دمياط، لأن جده لأمه محمد الدمياطي الذي قابله عبد الغني النابلسي في القدس كان على الاغلب
من اهالي دمياط.

نشأ مصطفى اللقيمي في كنف ابيه احمد وادي فريضة الحج بصحبة والده ثم تلقى تعليمه
بمكة والمدينة والقاهرة ودمشق والقدس. وقد سكن دمشق في الشطر الأخير من حياته، وفيها توفي
سنة ١١٧٣/١٧٥٩^(٣) أو ١١٧٨/١٧٦٥^(٤). واشتهر اللقيمي بمؤلفين احدهما (لطائف انس
الجليل في تحايف القدس والخليل). وهو مصنف كبير من كتب فضائل بيت المقدس، تحدثنا عنه
في كتابنا مخطوطات فضائل بيت المقدس^(٥). وثانيهما - وهو اشهر من الأول - رحلته الى القدس
التي تحمل عنوان «موانح الانس في رحلتي لوادي القدس» والتي نحن بصدد الحديث عنها الان.
وهذه الرحلة الطويلة تقع نسختها المحفوظة في المتحف البريطاني في ١١٧ ورقة من القطع
المتوسط، ومسطرتها ٢٧ سطراً بخط نسخ معتاد. وهي لم تُطبع ولم تُحقق حتى الآن مع أنها تتوفر في
عدد كبير من المخطوطات في عدة بلدان، وقفنا منها على النسخ التالية:-

- نسخة في المتحف البريطاني The British Library ورقمها OR. 7712.

- برلين - المكتبة الوطنية (الملكية سابقاً) 6151, no. 443, p. V Verzeichnis Ahlwardt.

- كامبرج 1140.

- مجمع اللغة العربية بدمشق، وعنها نسخة مصورة في مركز الابحاث الاسلامية في

القدس.

- نسخة في مكتبة رشيد مكّي بجوار عسقلان من اعمال المجلد (العارف، المفصل،

٥٥٨)

- صورة ميكروفيلم في مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الاردنية (شريط رقم ٦٠٢).

- عدة نسخ (على الفوتوستات) بمكتبة الجامعة الاردنية.

- نسخة في مكتبة عارف حكمت في المدينة المنورة رقم ٣٩٨٧.

- المكتبة الظاهرية بدمشق ثلاث نسخ تحت ارقام ٥٢٤٨ و ٧٢ (٥٤٥٣) و ٩٢٩٧.

(١) سجل المحكمة الشرعية بالقدس رقم ٢٦٥، ص ٢١.

(٢) «خلاصة الاثر» ١٦٦/٣.

(٣) الجبرتي، «عجائب الاثر» ٢٤٢/١.

(٤) Ahlward V, 443.

(٥) عمان ١٩٨١ (مجمع اللغة العربية الاردني)، ص ١١٩.

بدأ اللقيمي رحلته من دمياط الى القدس في شهر ذي القعدة ١١٤٣ / ١٧٣٠ م .
واستغرقت الرحلة حوالي ستة أشهر زار خلالها عدة مدن في جنوبي بلاد الشام ، ثم عاد الى دمياط
عن طريق البحر عبر قبرص حيث اقلعت به السفينة الى جهة دمياط فوصلها في شهر جمادى الاولى
١١٤٤ .

اما خط الرحلة كلها فكان على الوجه التالي : دمياط - بحيرة دمياط ، ومرّاً في شاطئها بكل
من سيدي شطا - القرشي - البغدادي - التفاحي - الدابر - فم مفرج ، ثم ركب الجياد الى قلعة
الطينة - الرماني - قطية - بئر العبد - العريش . ودخل فلسطين فمر برفح - خان يونس - غزة - سدود
- الرملة - قلونية - القدس . ومن القدس ذهب الى يافا فنبلس ، ماراً بالعديد من القرى
والمشاهد . وفي ١٧ ربيع الاول ١١٤٤ / ١٧٣١ غادر نابلس الى دمشق فوصل اليها حوالي الاول
من ربيع الثاني . . . ومنها سافر الى طرابلس ، وركب البحر الى قبرص . وفي ١٠ جمادى الاول
اقلع الغليون به إلى جهة دمياط .

وصل اللقيمي الى القدس قبيل العصر ، فاستأذن في الدخول كالعادة . واعجب بسور
المدينة وابوابه الستة (الباب السابع وهو - الباب الجديد - فتح في زمن السلطان عبدالحميد الثاني في
سنة ١٨٨٧) . ثم قصد منزل استاذة مصطفى البكري الصديقي الذي كان يجله كل الاجلال ،
فاستأذن في التوجه الى الحرم ورجع بعد العشاء الى بيت استاذة . وفي اليوم التالي زار الشيخ محمد
الخليلي عمدة الائمة الشافعية . ثم فرض له استاذة الصديقي خلوة على سطح الصخرة مقابل
المدرسة السلطانية . وبدأ زيارته للحرم فزار محل البراق واسطبل سليمان ، والمسجد الأقصى
ومحل الصراط وسور المسجد وبابي التوبة والرحمة . وذكر اطوال الحرم وصحن الصخرة وعُدّد
ابواب الحرم ومناثره وصهاريجيه ووصفه وصفاً عاماً ثم احالنا الى كتابة لطائف انس الجليل في
تحايف القدس والخليل . وبعده توجّه الى القلعة ثم ارتقى الى شباك في محراب داود . «وباراض
ذلك الشباك البديع الاحكام حجر غاص فيه ذراع داود عليه السلام» .

وفي آخر ذي القعدة ١١٤٣ / ١٧٣١ يم شطر طور زيتا . فطلع من باب الاسباط فزار مقبرة
باب الرحمة ثم قبر مريم عليها السلام ، وصعد الى ذروة الجبل فزار مصعد عيسى والزاوية
الاسعدية وقبر رابعة العدوية وقبر الصحابي الجليل سلمان الفارسي . وتوجه بعدئذ الى قرية
العيزرية فزار نبي الله العزيز .

ودعاه رئيس خطباء المسجد الأقصى الشيخ نور الله الجماعي إلى بستان بيته البديع - لعله
قصر الخطيب بوادي الجوز - وبعده وصف اللقيمي زيارته الى مشاهد الانبياء في مدينة الخليل
وأفاض في الحديث عن قصص الانبياء فيها وفي حلحول وبيت لحم ثم دعاه داعي الغرام إلى زيارة
نبي الله داود . وفي اليوم التالي حصلت له السعادة لانتظامه في عقد اهل الطريقة الخلوتية ، ولقنه
الاستاذ الاعظم (الصديقي) الاسم الاول عند باب الرحمة وادخله الخلوة بمنزله فدخلها يوم
الثلاثاء وخرج يوم الخميس ليلة عيد الاضحى ، فاحيا الليلة وجميع الاخوان بالذكر وتلاوة القرآن
إلى أن طلعت الشمس فامتلاً المسجد بالخاص والعام لأداء صلاة العيد .

وفي اليوم التالي زار بشر ايوب وعين سلوان ومر على قبري (زكريا ويحيى) بواد سلوان . . ثم زار على التوالي الزاوية الادمية وضريح الشيخ جراح وسعد وسعيد ومغارة الكتان ومقبرة ماملا حيث قرأ الفاتحة لارواح من بها من الأخيار. وبعثذ زار مقام النبي موسى على ما فصلناه في كتابنا «موسم النبي موسى في فلسطين»^(١). ودعاه الشيخ الخليلي لزيارة أبي ثور المجاهد فوصل الى قريته (وهي محلة دير ابي طور او الطوري في القدس الآن) ثم توجه الى ارض البقعة. وكان للشيخ قصر هناك واقام يومه يجتلي من ذلك الروض وقال: «وهذا الوادي هو الذي رأى فيه النبي صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج الآيات» . . . «وقد كان بهذا الوادي قصور وبساتين محتها توالي الايام». وقرأ على الشيخ في ذلك اليوم كتاب ابن عطاء الله الاسكندري المسمى بتاج العروس ثم دعاه الشيخ الخليلي لزيارة النبي داود.

وفي يوم الخميس بعد صلاة العصر دعاه الاستاذ (البكري الصديقي) الى باب الرحمة حيث لقنه الاسم الثاني للسادة الخلوئية ثم امره بالخلوة ثلاثة ايام.

وبقي اللقيمي في مدينة القدس حتى نهاية شهر محرم (١١٤٤/١٧٣١). وكان يعتكف احيانا في المغارة التي تحت الصخرة واراد ليلة ان ينام بها، فورد عليه وارد كاد أن يطيش منه الجنان فصعد منها بسرعة من شدة الجزع. ويردد اللقيمي ما كان يقال عن ان الصخرة معلقة بين السماء والارض لا يمسه الا الذي يمسه السماء . . . ثم عاد الى الحديث عن مشاهد المسجد النفيس: قبة المعراج وقبة النبي وقبة السلسلة ومهد عيسى و«الصحرات التي وقف عليها سيدنا سليمان حين أتم بناء المسجد . . .» وغير ذلك من المشاهد.

وقد ذكر اللقيمي بعد ذلك ستة من علماء بيت المقدس، ممن اخذ عنهم أثناء مقامه في المدينة، وهم مصطفى البكري الصديقي، ومحمد الخليلي واحمد الموقت وعلى الداغستاني وابوبكر العلمي وعبد المعطي الخليلي، وتحدث عن كل منهم.

وفي يوم الاحد العاشر من صفر غادر اللقيمي القدس صحبته استاذ الصديقي متوجها الى نابلس وبعدها الى دمشق «وخرج من المسجد باكياً».

ونلاحظ ان رحلة اللقيمي تكاد تكون متطابقة في مضمونها مع رحلات النابلسي والبكري من حيث كونها دليلاً للزيارات ووصفاً للمشاهد، واخصها الحرم القدسي، وإن كان وصف الحرم اقصر بكثير مما رأيناه عند النابلسي. وقد اعتمد اللقيمي على كل من النابلسي والبكري، لكنه اعتمد بشكل خاص على مجير الدين الحنبلي. ولعل هذا الوحيد بين هؤلاء الذي يحمل بجداره صفة المؤرخ. وقد اعتمد عليه النابلسي والبكري، وكل من كتب عن القدس بعده. وجرياً على القاعدة المتبعة في اكثر الرحلات ذكر اللقيمي شيوخه والكتب التي اخذ عنها ومعظمها، كما هو واضح، من كتب التصوف التي رجحت كفتها على كتب العلم والفقه، كما رجحت كفة المتصوفين على العلماء في هذه الفترة من الزمن.

(١) ص ١٧٠ - ١٧٢.

ونتقل الان الى رحلة من نوع آخر من الرحلات، وهي رحلة قام بها عربي مسيحي الى مدينة القدس لزيارة الأماكن المقدسة المسيحية فيها. وهذه الرحلة كتبها مسيحي مرموق من اهل حلب هو :

٢٥ - الياس غضبان الحلبي^(١)

معرفتنا بالياس غضبان الحلبي محدودة، وهي تستند اساساً إلى مخطوط محفوظ في المكتبة الشرقية لجامعة القدس يوسف في بيروت، تحت رقم ٣٤ بعنوان: رحلة الياس غضبان الحلبي الى زيارة الاماكن المقدسة^(٢). وهو مخطوط مكتوب بخط واضح وعدد اوراقه ٤٠ ورقة من القطع المتوسط^(٣).

كان الياس غضبان من وجهاء طائفة الروم الكاثوليك في حلب. ويقول كراتشكوفسكي انه خرج من حلب في رحلة للحج في صحبة راهبين بطريق البر في ١٣ ابريل / نيسان وعاد في ٢٧ أيار - مايو من عام ١٧٥٥م / ١١٦٨هـ، اي ان رحلته استغرقت حوالي شهر ونصف. ويبدو ان اقامته في القدس لم تتجاوز الاسبوع او نحو ذلك. وعلى الرغم من ذلك فان وصفه لها، كما قال كراتشكوفسكي اعتماداً على شيخو، يحفظ مقداراً من المعلومات القيمة في مجالي التاريخ والجغرافيا. والرحلة تنقسم الى قسمين يعالج الأول منها الكلام عن الرحلة نفسها، بينما يصف الثاني الاماكن المقدسة.

وفي السنة الأخيرة من القرن الثاني عشر زار القدس قادماً من استنبول وفي طريقه الى الحجاز رحلة آخر في سلسلة الرحالة المغاربة هو:

٢٦ - محمد بن عثمان المكناسي^(٤)

وفد ابن عثمان المكناسي المتوفى في ١٢١٣/١٧٠٨ الى المشرق في مهمة رسمية في سفارة من لدن سلطان المغرب محمد بن عبد الله. وكان ابن عثمان كاتباً (وزيراً) له، ومن اخصائه المقربين. وقد أرسله في عدة سفارات الى اسبانيا ومالطة ونابولي والقسطنطينية، كما ولاء وزارة الخارجية. وفي سنة ١٢٠٠ هجرية/ ١٧٨٥م وجهه السلطان ابن عثمان في سفارة الى الأستانة وامره أن يتوجه بعد ذلك الى الحجاز لتسليم الهدايا التي كان يرسلها السلطان سنوياً الى الحرمين الشريفين بمكة والمدينة فقام ابن عثمان بهاتين المهمتين. ودامت رحلته الى المشرق سنتين وسبعة

(١) كراتشكوفسكي، ٨٤٠.

(٢) Cheikho, Catalogue raisonne II, p. 105, no. 174 - Cheikho Catalogue p. 155 - 156 no. 585

(٣) منه نسخة في مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الاردنية - شريط رقم ٧٥٤.

(٤) انظر عنه :

- محمد بن عثمان المكناسي، «الأكسير في فكاك الاسير» - مقدمة المحقق محمد القاسي صفحة ٥٥.

- عبد السلام بن عبد القادر بن سودة، «دليل مؤرخ المغرب الأقصى»، ج ٢، ٣٣٣ - ٣٣٤.

- احمد المكناسي، «اهم مصادر التاريخ والترجمة في المغرب»، تطوان ١٩٦٣، ص ٢٣.

اشهر، من بداية السنة الهجرية: ١ محرم/١٢٠٠ حتى ١٠ رمضان، ١٢٠٢ من ٤/١١/١٧٨٥ -
٤/٦/١٧٨٨. وقد دُوِّن رحلته في كتاب بعنوان: (إحراز المعلّى والرقيب في حج بيت الله الحرام
وزيارة القدس الشريف والتبرك بقبر الحبيب). ويقول محمد الفاسي في مقدمة تحقيق الرحلة
الموسومة «بالاكسير في فكاك الاسير»، وهي للمكناسي ايضاً: إن هناك نسخة فريدة من هذه
الرحلة في خزانة المؤرخ مولاي عبد الرحمن بن زيدان (المكتبة الزيدانية) «وقد تفضل ومكنني منها
عندما كنت ادرس بباريس واخذت منها نسخة وكتبت بحثاً عن مؤلفها وجعلت لها تعاليق
وتقدمت بذلك لنيل دبلوم الدراسات العليا من جامعة باريس. ووصف الفاسي الرحلة فقال إن
المؤلف اظهر فيها ثقافة اسلامية واسعة في الحديث والتصوف والفقہ والاداب وعلوم اللسان^(١).
وقد بلغني أن هنالك نسخة من احراز المعلّى في الخزانة الملكية في الرباط تحت رقم ١٤٤٠م
وعدد اوراقها ١٦٧ ورقة.

(١) مقدمة «الاكسير في فكاك الاسير»، صفحة (س).

القرن الثالث عشر / الثامن عشر - التاسع عشر

وبعد حوالي عشر سنوات من زيارة المكناسي الى القدس زار المدينة رحالة مغربي آخر كان هو الآخر وزيراً من وزراء الدولة العلوية في عهد السلطان محمد بن عبد الله . وكان مثله مبعوثاً في سفارة الى الأستانه وواصل سفره الى الحجاز لأداء فريضة الحج . وهذا الرحالة هو .

٢٧ - ابو القاسم بن احمد بن علي الزباني^(١) .

وهو مؤرخ مشهور بل اشهر مؤرخي المغرب في عصره . ولد سنة ١١٤٧/١٧٣٤ في مدينة فاس وتوفي فيها سنة ١٢٤٩/١٨٣٣ . وهو ينحدر من اسرة بربرية واصبح في عهد السلطان محمد بن عبد الله وزيراً له ونبدأ لابي عبد الله محمد المكناسي . سافر الزباني مبعوثاً الى السلطان العثماني في الأستانه مرتين ، الأولى سنة ١٢٠٠/١٧٨٦ ، والثانية سنة ١٢٠٨/١٧٩٢ . ورحلته الثانية هذه هي التي زار فيها القدس . وقد انطلق فيها من فاس الى تونس وغادر تونس في اول جمادى الأولى سنة ١٢٠٨/١٧٩٣ الى استانبول . وفي ٢٢ رجب خرج مع ركب أمين الصرة من استانبول قاصداً الحجاز ماراً بانطاكية وحماة وحمص ودمشق ثم سار عبر شرقي الأردن الى العقبة ومنها الى المدينة ومكة . وبعد أداء فريضة الحج سافر الى مصر حيث أقام عدة أشهر . وادى فيها فريضة الحج للمرة الثانية (ذي الحجة ١٢٠٩/١٧٩٥) ثم عاد الى مصر . واستقل سفينة متجهة الى إزمير فمر برودس وعكا وطرابلس وانطاكية فأقام فيها شهراً . ومن انطاكية توجه براً الى الخليل والقدس (اوائل سنة ١٢١٠هـ/١٧٩٥) . وبعدئذ توجه الى آسيا الصغرى حيث ركب السفينة من إزمير الى تونس ثم الى موطنه المغرب . وكانت هذه السفارة الثانية الى استانبول بتكليف من السلطان سليمان ابن السلطان محمد بن عبد الله الذي توفي ١٢٠٦/١٧٩٢ .

وضع الزباني خمسة عشر مصنفاً . وكان آخر هذه المصنفات رحلته المسماة : «الترجمة الكبرى في اخبار المعمور براً وبحراً» التي اتم كتابتها سنة ١٢٣٣/١٨١٨ ، وهو في السادس والثمانين وقيد فيها الأخبار عن العالم العمور براً وبحراً ، جامعاً ما قيده في رحلاته الثلاث : رحلة الحج الاولى (التي لم تتم بسبب انكسار السفينة) سنة ١١٦٩/١٧٥٥ ، والرحلتين الاولى والثانية الى استانبول . وكتاب الترجمة يحتوي على مادة غنية في التاريخ والجغرافيا والاجتماع . ولكن من وجهة قصدنا كان مخيباً للآمال . اذ يبدو أن مقام الزباني في القدس والخليل كان قصيراً فعمد المؤلف ببساطة الى نقل ما كتبه ابو البقاء البلوي في تاج المرفق (ص ٢٤١ وص ٢٤٦ الى ص ٢٥٢

(١) الزباني ، الترجمة الكبرى ، تحقيق عبد الكريم الفيلاي - مقدمة المحقق ، ونص الكتاب .

- كراشكوفسكي ، ٨٤٨ .

- بروكلمن ، 878 ، P. II .

- الاعلام ، ١٧٢/٥ .

(الخ) عن مسجدي الخليل والقدس وضمنها كتابه (الترجمة - النص المطبوع من ص ٢٦٦ - ٢٧٢). ولذلك انعدمت الفائدة من الكتاب بالنسبة لنا، اللهم الا فيما يتعلق بتصحيح بعض الأخطاء الواردة في تحقيق الحسن السائح لتاج المفرق. ومن الطريف أن الزباني كرر أيضا ما قاله البلوي عما ذكره الشيخ شمس الدين الكرمي للبلوي حول زنة الرصاص على قبة الصخرة: فقال الزباني أيضا: «ذكر لي الشيخ . . شمس الدين الكرمي الخ». مع أن الزباني والكرمي تفضلهما خمسة قرون . . كما أن الزباني اورد نص النقش الكائن على القبة النحوية والذي يشير الى الملك المعظم عيسى الايوبي بصورة مغايرة للنص الوارد عند البلوي^(١). واذا كان النص الاصيلي يقول: ولما تشعت السقف الذي كان أنشأه الملك المعظم الواقف المذكور رحمه الله^(٢) انتدب لحياته عبد الله الفقير اليه اسد الدين عبد القادر سبط الواقف بحكم ما آل اليه من النظر الشرعي . . . وكان الفراغ منه في ربيع الآخر سنة تسع وعشر وسبعمائه . . . فان الزباني كتب النص كما يلي:

«ولما تشعت هذ السقف من هذا الهيكل لسعيد امر بتجديده الملك العادل الرشيد السلطان الاعظم والحقان الأفخم، مالك ممالك العرب والعجم المجاهد الغازي الاكرم سليمان بن سليم خان، بعد الألف من هجرة المصطفى صلى الله عليه وعلى آله الأخيار الشرفاء»^(٣). ونحن نرجح بناء على ذلك أن الفنيين الذين أجروا تعميرات في قبة الصخرة في القدس زمن سليمان ربما اجرؤا تعميرات في القبة النحوية أيضا وغيروا نصّ النقش الاصيلي.

وعلى اية حال فليس من المفيد ان ندرج المادة الواردة في الترجمة عن القدس في القسم الثاني من هذا الكتاب لأنها موجودة كلها فيما نقلناه عن تاج المفرق.

بعد زيارة الزباني الى القدس (١٢١٠-١٧٩٥) بثلاث سنوات فقط احتل نابوليون بوناپرت مصر (١٧٩٨). وفي السنة التالية (١٧٩٩) زحف بجيشه على عكا. وكان الغزو النابوليوني ايدانا بدخول الشرق الادنى مرحلة جديدة في حياته تعرض فيها باضطراد الى تدخل اوروبي مثير شمل المنطقة كلها وفلسطين من جملتها. وفي ذلك الوقت بالذات كانت الدولة العثمانية والبلدان العربية قد وصلت الى حضيض الضعف والانحدار، في مختلف نواحي حياتها، مما سهل على الأوروبيين التدخل في شؤونها بمختلف انواع الضغوط بما فيها الضغط العسكري عندما كان يقتضي الأمر . . . وكان من أوجه التغلغل وفود جموع السياح والآثاريين والعلماء الى الارض المقدسة يحجون ويدرسون وينقبون وانفتحت البلاد المقدسة للمتغلغلين الى أن تم انتزاع فلسطين من اهلها رسمياً ابتداءً من سنة ١٩١٧، واقيم بها كيان صهيوني ١٩٤٨، ما لبث أن احتل فلسطين كلها ١٩٦٧.

(١) ص ٢٥٢ - ٢٥٣.

(٢) سنة ٦٠٤.

(٣) الترجمة ص ٢٧٢ - ٢٧٣.

في سنة ١٨٦٥ تأسس في بريطانيا صندوق استكشاف فلسطين Palestine Exploration Fund واخذ يرسل البعثات المتتالية لدراسة الأرض المقدسة، تمهيداً لاعادتها الى «اهلها الشرعيين» (اي اليهود). وقام الصندوق باعمال علمية هامة في هذا المجال، وخاصة فيما يتعلق بتحديد المواقع الأثرية ووصف الأرض المقدسة واعداد خارطة مفصلة للمواقع المذكورة في الكتاب المقدس الذي كانت اعمال الكشف تهتدي بما جاء فيه بداية ونهايةً وتعتبر صحة ما ورد فيه نقطة انطلاق للعمل. وكان من رجال الصندوق العاملين الكابتن ولسون والكابتن وارين والكابتن كوندر وكتشنر ورهط آخر من رجال القوات البريطانية المسلحة.

وكان اهل البلاد العرب بعيدين عن كل هذا ولا يدرون من الأمر شيئاً. بل كان منهم من رأى في اعمال المسح والتنقيب - الى الحد الذي انتهوا فيه الى هذه الاعمال - مجرد خدمة تسدى للدين وللعلم فأقبلوا على المساهمة في ذلك. . وكان هؤلاء على اية حال قلة تعد على اصابع اليد من اولئك الذين نالوا نصيباً من التعليم. وكان من هؤلاء المؤرخ السوري:

٢٨ - نعمان بن عبده بن يوسف بن نقولا القساطلي (١٢٧٢-١٣٣٨ / ١٨٥٥-١٩٢٠). وهو مؤرخ ولد بدمشق ونشأ بها وتعلم علوم العربية والرياضيات. وتعاطى التجارة وتوفي بدمشق. من آثاره: الروضة النعمانية او مرآة فلسطين وسورية في خمسة مجلدات، وتاريخ دمشق في مجلد كبير، وحوادث سنة ١٨٦٠. (١) ونود أن نضيف شيئاً الى هذا القليل الذي اورده معجم المؤلفين - وهو المصدر الوحيد الذي وجدنا فيه شيئاً عن القساطلي في كتب التراجم والمعاجم - بعض المعلومات فتاريخ دمشق الذي اشار اليه كحالة ربما كان هو عينه كتاب القساطلي الموسوم بـ الروضة الغناء في دمشق الفيحاء. وقد طبع هذا الكتاب في بيروت سنة ١٨٧٩، واهداه المؤلف الى مدحت باشا والى دمشق (٢). وهو يتناول احوال دمشق منذ نشأتها الى عصره ويبلغ عدد صفحاته ١٥٨ صفحة من القطع المتوسط. وكان الفراغ من تأليفه يوم الثلاثاء ختام سنة ١٨٧٨. وجاء في خاتمة الكتاب قول المؤلف: وإن شاء الله سأردفه بكتاب آخر دعوته (مرآة سورية وفلسطين). وهذا الكتاب الآخر هو الذي عنوانه المؤلف بـ «الروضة النعمانية في سياحة فلسطين وبعض البلدان الشامية». وهو كتاب لم ينشر فيما نعلم. وقد عثرنا على مسودة (فحسب) منه محفوظة في المكتبة الظاهرية بدمشق. (٣) واذا استفاد من كحالة أن القساطلي كتب كتابه في خمسة مجلدات، فإن الذي بين ايدينا من الكتاب هو الجزء الاول والجزء الثاني وقسم من الجزء الثالث، في مجلدين، المجلد الاول عنوانه: آثار جبل الخليل مع بعض اوصافه الحالية (وتنقص هذا المجلد الورقة الأولى) وفيه ١٤٤ صفحة والمجلد الثاني عنوانه: اورشليم او القدس الشريف، وفيه ١١٣ صفحة.

(١) عمر رضا كحاله، معجم المؤلفين، ج ١٣، ص ٧٨.

(٢) واصدرته دار الرائد العربي بيروت مصوراً سنة ١٩٨٢.

(٣) الجزء الاول: رقم المخطوط ٤٩١٩.

الجزء الثاني: رقم المخطوط ٤٩٢٠.

ومنها نسخة على ميكروفيلم في مكتبة الجامعة الأردنية.

ومن الجدير بالذكر ان اسم المؤلف غير مكتوب على المخطوط . ولكن قرائن لا شك فيها تؤيد نسبه الى القساطلي، ومنها عبارات كثيرة في صلب الكتاب . وفي آخر المجلد الثاني هناك بضع صفحات فحسب من الجزء الثالث .

بيد أن الكتاب كما قلنا مسودة فحسب كتبها اثناء سياحته في فلسطين او عمله فيها في الرحلة التي قام بها عن طريق بيروت ابتداءً من ٢٦ ايلول ١٨٧٤ واستمرت حتى اواخر ١٨٧٥ . ولذلك فان الصفحات غير مرتبة . ويفاجئك بالقفز من موضوع الى آخر . وكثير من الجمل والكلمات مشطوبة . ومن الظلم أن يحكم عليه وهو بهذه الصورة . ولا ندري إن كان المؤلف قد بيّضه بعد عودته الى دمشق كما وعد . وعلى اية حال فإن المادة المتاحة لنا تدل على أن المؤلف كان متأثراً بمناهج البحث عند الغربيين من علماء الآثار . وكذلك ببعض اتجاهاتهم الفكرية . ولذلك فنحن نجد في الاوراق التي بين ايدينا بعض الملاحظات الأثرية المفيدة والهامة . وهناك أيضاً بعض الرسوم للمواقع والمباني الأثرية . وهذه الرسوم والمادة الأثرية كلها هي على غرار الرسوم والمواد التي نجدها في الكتب الأثرية المعاصرة التي اصدرتها جماعة صندوق اكتشاف فلسطين وغيرها . ولا ندري الى اي حد استعان القساطلي بما كتبه هؤلاء ، لأن ذلك يحتاج الى دراسة مستقلة .

ومهما يكن من أمر فلا شك أن القساطلي قد تدرّب على يد اعضاء الفريق الأثري الذي عمل معهم في فلسطين كما يتضح من نصوص كثيرة في الكتاب نفسه . ويستدل من هذه النصوص على انه شارك في عملية مسح واسعة للمواقع الأثرية في جنوب فلسطين كله ، شملت منطقة الخليل ومنطقة غزة وعسقلان والرملة ، والعديد من القرى والحرب في هذه المناطق :

ففي صفحة ٢٦ مثلاً يقول : «يوم الخميس ١٥ نيسان غربي سنة (١٨٧٥) ارتحلنا من مجدل عسقلان المار ذكره فبعضنا توجه على الطريق السلطاني الموصل بينهما . أما أنا ومستر كروفيت فسرنا على شط البحر» .

ص ٢٥ : «يوم الثلاثاء في ٢٧ تشرين الاول غربي زرت هذه الخربة مع جناب القبطان كوندرا» (Captain Conder) .

ص ٤٥ «ذهبت أنا والقبطان من بينه» .

ص ٥٢ «في ١١ ايار غربي خرجنا للشغل مع «كمبرجلنر» .

ومن يتأمل ما كتبه القساطلي عن القدس ونابلس والخليل وغيرها يجد أن خلفيته الثقافية - وربما كان هذا بالنسبة اليه امر طبعياً - تستند الى الكتاب المقدس والكتابات المسيحية القديمة ، والمعاصرة . ويظهر تأثره بالآثار بين الغربيين من اتباعهم في رد الاسماء الحديثة الى اصول توراتية ، حقيقية او مزعومة : من ذلك مثلاً قوله : (عاقراً : وهي في الكتب المقدسة عقرون) وقوله : (البيرة كان اسمها بيروت ، انظر يسوع ص ٩-١٧) .

وكما قلنا فهو يشارك الآثاريين الاجانب الذين انطبعت في اذهانهم صورة زاهية عن فخامة البلاد كما صورتها الكتب المقدسة ، فنعوا على البلاد تأخرها بالنسبة لما كانت عليه في الماضي . . ومن ذلك قوله ص ٤٨ : (ولا شك بأن الانسان يتعجب من حكمة الله عندما يشاهد عقرون

بالحالة التي هي عليها الآن بعد عظمتها السالفة وحالتها القديمة حيث قد حل عليها قضاء الله كغيرها من مدن فلسطين).

وإذا كانت البلاد متأخرة فإن الغربيين كانوا يضحون ذلك، ويمطرون أهلها وسكانها بالشتم ويصفونهم بالخاملين الذين لا يصلحون للحياة، وذلك بهدف الاستيلاء على البلاد والقضاء على سكانها، كما فعلوا بعد ذلك بعقود قليلة بالفعل. ولكن القساطلي لم يفتن إلى هذه الحقيقة فردد بعض اقوالهم بحسن نية . . . ومن قبيل هذا التأثير الغربيين أيضاً قول القساطلي عن أهل نابلس: «فهم لم يزالوا للآن أصحاب تعصب لأن أيدي التمدن لم تفعل بهم لحد هذا الوقت» (ص ٧٨). وربما لم يخطر ببال القساطلي أن التعصب المزعوم لأهل نابلس كان إلى حد كبير نتيجة لشعورهم بأن كيانهم مهدد حتى في هذا الوقت المبكر (سنة ١٨٧٥).

ولنستعرض الآن استعراضاً عاماً المقتطفات التي استخلصناها عن القدس وآثارها من الروضة النعمانية:

يبدأ الكتاب بعرض عام لتاريخ القدس في مختلف العصور استناداً إلى الكتاب المقدس، بعهديه القديم والجديد والكتابات التوراتية الأخرى، ثم يتحدث عن موقع المدينة الجغرافي واجزائها المختلفة مستعملاً الأسماء التوراتية مثل وادي يهوشافاط (بدلاً من وادي ستا مريم أو وادي سلوان) ووادي ابن هنوم بدلاً من الاسم العربي المتداول باب الرابية . . فهو يعرف الماضي ولا يعرف عن الحاضر. ثم يتحدث عن سكان القدس فيزعم أنهم كانوا نحو أربعين ألفاً أكثرهم من اليهود السكانج (الاشكناز) المتغريين وأن عدد المسلمين فيها لا يتجاوز ستة آلاف وعدد المسيحيين ١٢ ألفاً، والباقي من اليهود . . وهذه الأرقام موضع جدل كبير، وهي تناقض الإحصاءات العثمانية الرسمية وتستند إلى معطيات غريبة ويهودية كانت تضخم الوجود اليهودي في المدينة منذ ذلك الوقت. ووصف القساطلي مباني المدينة الحجرية وتحدث عن سكانها المؤلفين من أمم مختلفة ولغات ومشارب متباينة فساوى بذلك بين أهل البلاد العرب وبين الغرباء. وأبدى ملاحظات سلبية، (قد يكون بعضها صائباً) من مثل قوله: «إن الأغنياء يسكنون بيوتاً خاصة بالاديرة والأوقاف ويأخذون خبزاً من الاديرة أو من الحرم الشريف». وقال بحق: «ولا يوجد بينهم من درس اللغة العربية حق الدرس سوى قلائد جداً». ويتحدث عن الصناعات فيقول أنها قليلة، وأهمها صناعة البناء ثم صناعة الأحذية (الكنادر) والنجارة، وصناعة الصابون والشمع والصور. أما المصدر الأساسي الذي يعتاش منه أهل المدينة فهو الزوار الأجانب والسياح.

ويطالب القساطلي بأن يهب أهل القدس من نومهم فيدخلوا العلوم الرياضية إلى مدارسهم الكثيرة غير المفيدة. وقد خيبت القدس أمه بوجه الأجمال فبعد أن كان يظنها متقدمة على دمشق وجد البون بينها شاسعاً (لمصلحة دمشق). وادعى القساطلي أن تجارة المدينة، أكثرها، بل كلها بيد اليهود. وهذا يتناقض والإحصاءات التي أجراها الكابتن وارن Warren وغيره^(١).

(١) انظر الكزاندر شولس، ومحولات جغرافية في فلسطين، ترجمة كامل العسلي ص ١٥٨-١٥٥.

ولجا القساطلي بعد ذلك الى تعميمات سلبية كثيرة عن سكان القدس، من مثل قوله: ان جميع اهل هذه المدينة، الا ما ندر منهم، يفرطون في إدمان المسكرات . . . وهم قوم لا يجنون الغرباء . . . ويكثرون في التكلم عن بعضهم . . . والفحشاء في هذه المدينة كثيرة الخ . . . ومن الواضح أن كلام القساطلي لم يكن يخلو من التحامل الذي كانت تطفح به كتب زوار القدس من الاجانب في القرن التاسع عشر.

ولعل القساطلي كان أكثر توفيقاً في تقاريره الأثرية. بل إنه كان كذلك بالفعل. وفي المقتطفات التي اخترناها من السياحة النعمانية تحدث القساطلي عن ثلاثة من المواقع الأثرية حديثاً ينطوي على العلم والمعرفة. وهذه المواقع هي اولاً الآثار القديمة التي عُثر عليها شمال باب العامود ويعتقد انها من بقايا دير القدس اسطفان (دير استيفانوس)، ومنها خان ومغارة قديمة منقورة في الصخر بداخلها قبور مسيحية لها شكل الصناديق. وأرقق كلامه ببعض الرسوم.

وثانياً المحل الذي صعد منه المسيح على جبل الطور. وقد وصف البناء الكائن هناك وصفاً مفصلاً نوعاً ما من الناحية المعمارية وقال إن هذا المحل مفتاحه بيد المسلمين كالقيامة بسبب الفتن بين الطوائف النصرانية والتنافس فيما بينها للاستيلاء عليه. وهو يهاجم المشاحنات بين الطوائف المسيحية هناك خصوصاً اوقات الاعياد، وتحدث عن شر عظيم جرى هناك في سنة ١٨٧٥ بين الروم والأرمن. ويشفع حديثه يرسم لقبة الصعود تجده في القسم الثاني من هذا الكتاب.

ويتهز الفرصة للحديث عن قرية الطور والكنيسة المسكوبية هناك^(١) التي عثروا وهم يحفرون اساساتها على آثار قديمة، وكذلك عن الدير والكنيسة التي اقامتها هناك اميرة فرنساوية.

اما الموقع الأثري الثالث الذي يصفه القساطلي بنوع من التفصيل فهو مقام النبي صمويل الذي يقع في قرية قديمة شمالي غربي القدس - (النبي صمويل) - بها آثار قديمة وعظيمة ومحللات كثيرة منقورة في الصخر. ثم يصف مقام النبي صمويل فيقول إنه جامع كبير عمارته متينة كقلعة عظيمة، يقصده كثير من اهل الساحة وخصوصاً اليهود. ويتحدث عن عيون الماء والبرك الموجودة في القرية وينقل الأبيات الشعرية المكتوبة فوق باب مقام النبي صمويل.

وفي نهاية الكتاب عاد القساطلي الى الحديث عن سور القدس. ثم قال إن المدينة كانت في الزمن القديم اوسع بكثير مما كانت عليه في زمنه. وساق الدلائل والشواهد من الكتب المقدسة. وختم القسم الخاص بالقدس بحديث مفصل مشفوع بالرسوم عن قبور الملوك الكائنة شمال المدينة، وهو حديث تجاوزته الدراسات الأثرية الحديثة . . .

(١) هي كنيسة ودير وبرج ساعة بنيت بين ١٨٧٠ و ١٨٨٠ وسلمت للراهبات الروس ١٩٠٧. وبرجها اعلى بناء في القدس (٦٠ متراً). ويقال انه عثر في مكان بداخلها على رأس يوحنا المعمدان. ويعتقد الروس أن المسيح صعد من هذا المكان الى السماء.

وفي اواخر القرن الثالث عشر / التاسع عشر قام برحلة الى القدس عالم دمشقي كبير من دعاة الاصلاح في الاسلام هو:-

(٢٩) عبد الرزاق بن حسن بن ابراهيم البيطار .

ولد عبد الرزاق البيطار في دمشق سنة ١٢٥٣/١٨٣٧ وتوفي فيها سنة ١٣٣٥/١٩١٦ . وقد اشتهر بمؤلفه الكبير حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر^(١)، وهو معجم لتراجم رجال هذا القرن على غرار معجمي المحبّي والمرادي . ويقول الزركلي في الاعلام (٣/٣٥١) إن احد كتبه يحمل عنوان «الرحلة» . وقد اشتمل على عدة رحلات احداها المقدسية . ويؤكد محمد عبد الجواد القاياتي ذلك في كتابه رحلة الشام الأتي ذكره فيقول إنه اجتمع بالشيخ عبد الرزاق البيطار في بيروت سنة ١٣٠٣ واطلع له على رحلة كبيرة تشتمل على عدة رحلات منها الرحلة القدسية والرحلة البعلبكية وغيرهما . وفيها نظم رقيق ونثر . وقرأنا في ترجمة المؤلف في مقدمة «حلية البشر» (ص ١٨) : «ولقد حجج المرحوم على نفقته ثلاث مرات وشد الرحال الى المسجد النبوي والمسجد الأقصى» . ولكن هذا هو كل ما نعرفه عن رحلته . . بل نحن لا نعرف تاريخها الدقيق ولا نعرف إن كان نصّها ما زال موجوداً بين مخلفاته او لدى ذويه حتى الآن .

(١) نشر في دمشق بتحقيق محمد بهجة البيطار في جزئين، دمشق ١٩٦١، ١٩٦٣ .

القرن الرابع عشر الهجري التاسع عشر والعشرون الميلادي

استهل القرن الرابع عشر برحلتين للقدس من طراز الرحلات الكلاسيكية القديمة قام بها عالمان من رجال الدين الاسلامي ، وتفصل بين رحلتي هذين العالمين عشرون سنة تقريباً . ولا تكاد تنعكس في رحلتي هذين العالمين ملامح التغيير التي اخذت تظهر في القدس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ولا نجد لديها معطيات ذات بال خصوصاً عن الغزو الاوروبي واليهودي لها . فقد كان ههما الاول زيارة الحرم الشريف والاماكن الاسلامية المقدسة . وكان اول هذين الرحالين من مصر والثاني من سوريا . اما الأول فهو:-

(٣٠) محمد بن عبد الجواد بن عبد اللطيف القاياتي

(١٢٥٤ - ١٣٢٠ / ١٨٣٨ - ١٩٠٢)^(١) ونسبته الى القايات بلدة في صعيد مصر . وكان احد الذين تشردوا من جراء الغزو البريطاني لمصر ١٨٨٢ . فقد أسفرت هزيمة الثورة العربية سنة ١٢٩٩ / ١٨٨٢ بعد التدخل العسكري البريطاني عن التنكيل بعدد كبير من الوطنيين المشاركين في الثورة بالمطاردة والحبس والتشريد .

وقد اعتقل القاياتي على الأثر وحبس بسجن مديرية المينا بصعيد مصر ، ثم صدر الأمر بابعاده عن مصر فتوجه الى بلاد الشام سنة ١٣٠٠ / ١٨٨٣ ، وبقي فيها حوالي ثلاث سنوات ثم عاد الى القاهرة فسكنها وتوفي ببلده القايات .

وقد سجل القاياتي مذكرات رحلته في كتاب سماه «نفحة الشام في رحلة الشام»^(٢) . كان خروج القاياتي من ثغر الاسكندرية الى البحر الاول سنة ١٣٠٠ (٢١ كانون الثاني ١٨٨٣) واتجهت السفينة اولاً الى بور سعيد ثم مرسى يافا (وهي في غاية المخافة) ، ثم سافرت الى الى حيفا ثم الى بيروت . وفي بيروت اقام مدة من الزمن وتحدث في كتاب رحلته عنها وعن علمائها وعوائل اهلها وزار في اثناء اقامته بها صيداً وغيرها من البلاد الشامية . وبقي في بيروت حتى شهر جمادى الثانية سنة ١٣٠٢ / آذار ١٨٨٥ . فاستقل وابور الخديوية المصرية المسمى بالرحمانية ووصل الوابور الى يافا في اليوم التالي . . وفي يافا نزل الليلة الأولى في منزل ابراهيم رياح الدجاني وفي الليلة الثانية في منزل علي ابي المواهب بن حسن الدجاني ، وكلاهما كان من طلبة العلم في الأزهر وعرفهما اثناء مجاورتهما به . ثم اتجه الى الرملة فزار مزاراتها العديدة وبعدئذ سافر الى القدس

(١) انظر عنه : تركي محمد مجاهد ، الاعلام الشرقية في المائة الرابعة الهجرية ، ج ٤ ، ٢٤٦ ، الاعلام ١٨٥/٦ ، القاياتي ، نفحة الشام ، مقدمة المؤلف .

(٢) اصدرت دار الرائد العربي ببيروت طبعة منه سنة ١٩٨١ في ٢٠٦ صفحات . والشام شجر طيب الرائحة يعرف حبه عند الصيادلة بحب البلسان .

بالكروسة عبر الجبال الشاهقة . وكان الركاب يضطرون احيانا للنزول عند المرتفعات العالية . ولا بد أن نلاحظ أن استعمال الكروسة (العربة التي تجرها الجياد) كان تطوراً جديداً في طرق المواصلات حدث قبل سنوات من زيارة القياقي للقدس . فقد كان المسافرون قبل ذلك يأتون الى المدينة على متون الدواب . وفي سنة ١٨٦٧ بدأت السلطات العثمانية في تعبيد الطريق بين يافا والقدس . وفتحت الطريق في السنة التالية . وبدأ استعمال العربات (الكروسات) على الطريق بمبادرة من رئيس بلدية القدس يوسف الخالدي . وسرعان ما حصل الالمان الهيكليون على امتياز لتسيير العربات بانتظام (١٨٧٩) . وزاحمهم في ذلك العرب واليهود^(١) .

حل القياقي في القدس في مزار النبي داود حيث رُحِبَ به رئيس الخدمة الداودية محمد كمال الدين الداودي . وجاء للسلام عليه عدد من افراد العائلة الداودية . . ومنهم الشيخ عبد الرؤوف الذي كان مجاوراً معه في الأزهر . ويلاحظ أن الدراسة المشتركة في الأزهر كانت تشكل رابطة قوية بين علماء مصر وفلسطين، خصوصاً وأن الأزهر كان في ذلك الوقت المعهد الأول الذي كان الفلسطينيون يقصدونه للدراسة في خارج بلادهم .

وشاهد القياقي سور البلد واعجب باتقان بنائه . . ثم بادر للذهاب الى الحرم ووصفه، واجتمع بقبة الصخرة برئيس الخدمة في الحرم الشيخ عبدالله الدنف (الانصاري) ثم وصف القبة، والبلاطة السوداء التي (يقال ان تحتها قبر سيدنا سليمان عليه السلام) وسائر مشاهد الحرم الأخرى . وكان العمال وقتئذٍ يعملون بترميم بلاط ساحة الحرم بعد أن ارسل السلطان عبد الحميد خان ١٦ الف ليرة تركية لهذا الغرض . وزار القياقي بعد ذلك كنيسة القيامة ثم مشاهد جبل طور زيتا وعين سلوان ويشر ايوب وشهد الاحتفال الذي يقام بطلوع السنجق (البيرق) لسيدنا الكليم، ووصف اجتماع الناس من الامراء والذوات واصطفاف العساكر لهذا الغرض، وتحدث عن احتشاد الناس في الحرم بهذه المناسبة . وتوجه القياقي مع جموع الزوار الى حضرة سيدنا موسى الكليم . ورغم التحسُّن النسبي في حالة الأمن على الطرق في هذا الوقت فإن القياقي لاحظ أن طريق الكليم كانت لا تسلك ولا تؤمن الا في ايام الموسم . وفي النبي موسى استقبله مفتي القدس وأنزلوه في (أودة) معدة للزائرين «وبات غالب الزوار في الصحراء تحت المطر» . ويبدو انه نزلت في تلك السنة أمطار غزيرة غير عادية فواجه الزوار صعوبات شديدة من البرد والمطر الذي كان يعصف بالحيام وبالناس . وكان المطر غزيراً في طريق العودة الى القدس كذلك . وكاد القياقي يهلك من البرد والمطر - وهو غير معتادٍ عليهما - واستمر هطول الامطار الغزيرة بعد العودة الى القدس أيضاً . واجتمع القياقي في النبي موسى وفي القدس بيوسف افندي الفاهوم زميله في الأزهر وابن مفتي الناصرة امين افندي الفاهوم . ودعاه يوسف افندي للمبيت معه في دار استأجرها بجوار الحرم ، ولكن القياقي اعتذر مراعاة لخواطر الجماعة الداودية، غير انه رافقه في الزيارة الى بيت لحم، حيث نزلا في احد أديرتها لليلة واحدة بضيافة رئيس الدير، ثم مضيا الى

(١) انظر الكراندر شولش، «مخولات جذرية في فلسطين» ترجمة كامل العسلي، ص ١٦٧-١٦٨ .

الخليل حيث نزلا في بيت ابن قاضي البلد محمد افندي علي، وهو ايضاً من رجال العلم الأزهرين وكان على معرفة به منذ أيام الطلب بالأزهر.

وبعد زيارة الضريح والمسجد الابراهيمي عادا الى القدس في اليوم التالي. وهنا الح عليه يوسف افندي في دعوته لزيارة الناصرة فتوكل على الله ولبى الدعوة. وزار في طريقه الى الناصرة نابلس وتحدث عنها وعمّا شاهده فيها، ثم توجه الى دمشق، ومنها رجع الى بيروت. وهنا جاءه العفو فعاد الى مصر في شهر ذي القعدة، ١٣٠٣ آب ١٨٨٦، بالوابور الحديوي.

اما العالم الثاني الذي زار القدس في اوائل القرن الرابع عشر فلم يكن من رجال السياسة في الدرجة الاولى بل من رجال الاصلاح الديني. وهو اشهر من القاياتي وله رصيد كبير في علوم الدين في بلاد الشام وخارجها. وهذا العالم هو:-

(٣١) جمال الدين بن محمد بن سعيد القاسمي^(١) (١٢٨٣ - ١٣٣٢ / ١٨٦٦ - ١٩١٤).

كان القاسمي شيخ الشام وعالمها. ونشأ في بيت من بيوت العلم والدين فيها. وتتلّمذ على شيوخ عصره، ومن بينهم والده محمد سعيد القاسمي، وعبد الرزاق البيطار وطاهر الجزائري. وقد قاد القاسمي حركة اصلاحية في الدين كانت تقوم على السلفية، والرجوع الى الكتاب والسنة، والاجتهاد في الدين ونبد التقليد فتعرض بذلك الى المشايخ الجامدين الذين يحاربون كل جديد، ويكرهون الاصلاح. وقد رحل القاسمي في بلاد الشام ومصر والحجاز. وفي مصر اجتمع بالشيخ محمد عبده، المصلح المشهور، وربطته به علاقة المودة والتماثل الفكري.

وللقاسمي عشرات المؤلفات، اكثرها رسائل قصيرة في مختلف الموضوعات. وله ايضاً مذكرات كثيرة غير مطبوعة. ومن هذه المذكرات رسالة حول رحلته الى القدس سنة ١٣٢١ هـ / ١٩٠٣ م. وقد نشرتها جريدة الدستور الاردنية سنة ١٩٨١^(٢) تحت عنوان: «العلامة القاسمي يصف رحلته الى بيت المقدس قبل ثمانين عاماً». واستأذنت بنشرها نجله العالم المرحوم ظافر القاسمي نقيب المحامين السابق بدمشق.

خرج القاسمي من بيته في دمشق صباح ٢٩ محرم سنة ١٣٢١ (٢٧ نيسان ١٩٠٣). فركب قطار سكة حديد الحجاز الى مزيريب فدرعا فالزرقاء فعمان، حيث اقام عشرة ايام اجتمع فيها بالعديد من اهلها، وخصوصاً فقهاء الشراكسة فيها، وشاهد آثارها وصعد الى جبل القلعة ورأى حصونه والأعمدة المنقضة فيه، ووصف بعض عادات اهلها. وفي مساء الخميس ١٠ صفر توجه من عمان الى السلط، فأعجبه الخصب المدهش في بطاحتها، وعيون الماء الكثيرة حولها واجتمع بوجهاء السلط الذين جاؤا لزيارته واشاد بعمرانها الجديد. . وكان نزوله في السلط عند أنسابه

(١) محمود مهدي الاستانبولي، شيخ الشام جمال الدين القاسمي، بيروت ١٩٨٥.
الزركلي، الاعلام، ١٣٥/٢.

(٢) العدد ٤٨٦١، ٢/٢٢، ١٩٨١، ص ١٤ و ١٥.

(أحوال إبنى ضياء الدين). وقضى في السلط عشرة ايام ايضا. ثم عزم على السير الى الاراضي المقدسة فسلك طريق وادي شعيب على ظهور الجياد حتى منزل يقال له «مشرع سارة» فخاض ورفاقه المشرع واجتازوه الى الناحية الأخرى وواصلوا السير حتى نهر الشريعة. «وعلونا على جسره الخشبي وأردنا النفوذ منه فإذا بابه مغلق، ولديه بواب لا يفتح الا بجعل معلوم، فان كان راكبا فعليه ثلاثة قروش، او ماشيا فنصف قرش فدفعنا له ثلاث بشالك». واخترق الركب بعد الجسر جبالا مالحة لا نبات فيها الى أن وصل الى أريحا فاستراح مدة في دار حكومتها. ثم توجه هو ووصحبه الى القدس، واضطروه للمبيت في الخان بين القدس واريحا (عله الخان الاحمر). وفي اليوم التالي استأنفوا السير فوصلوا القدس ودخلوا المدينة من باب الاسباط.

وهناك أمران جديدان في رحلة الشيخ القاسمي، الاول انها اول رحلة استخدم فيها رحالة عربي القطار - ولو في جزء من الطريق. في سفره الى القدس (سنة ١٩٠٣). وكان الخط الحديدي الحجازي في بداية تشغيله^(١) حينئذ. والأمر الثاني أن القاسمي هو الاول بين كتاب الرحلات (الذين مروا معنا) الذين قدموا الى القدس من عمان عبر السلط ووادي شعيب الى نهر الاردن، قرب اريحا.

دخل القاسمي القدس من باب الاسباط فوضع أمتعته في خان ثم انتقل الى الزاوية الداودية فبقى فيها ليلة واحدة، ثم نزل في الزاوية / المدرسة القديمة المسماة بالختنية الملاصقة للمسجد الأقصى من جهة الجنوب.

وقد تحدث القاسمي عن منشأتين جديدتين زارهما في القدس هما المكتبة الخالدية ومطبعة اللاتين. اما المكتبة الخالدية فقد استست سنة ١٩٠٠ / ١٣١٨، اي قبل زيارة القاسمي بثلاث سنوات. وقد طالع القاسمي فيها بعض الكتب النفيسة ونظم قصيدة في مدحها بناء على طلب «اربابها الكرام» جاء فيها قوله:

كُتِبُ آلِ الخالدي أنعمَ بها
مُورداً للفضل منه فإحتسي
غَرَسوا في القدس فخراً باهراً
ورثوه عن كرام المَغْرَسِ
فجزاهم ربنا خيرَ الجزا
ما سرى ركب لارض القُدس

أما المؤسسة الثانية التي زارها القاسمي فهي مطبعة اللاتين بحارة النصارى. وكانت هذه

(١) والأرجح أن القاسمي سافر على هذه الخط حتى قبل افتتاحه رسمياً فقد جاء في كتاب «تاريخ الاردن في القرن العشرين» لنيب الماضي وسليمان موسى ص ١٣، مايلي: ابتدأ العمل بمذ الخط من دمشق في شهر ايلول سنة ١٩٠٠، كما يوشرفي نفس الوقت بالعمل من المزريب الى عمان. وفي ايلول ١٩٠٣ جرى افتتاح خط دمشق - درعا، ثم افتتح خط درعا - عمان في الشهر التالي.

المطبعة قد أنشئت سنة ١٨٤٧. انشأها الآباء الفرانسييسكان وجلبوا لها ادوات الطباعة من النمسا. و«اصبحت المطبعة في اول القرن العشرين من اكبر المطابع الشرقية لا يتقصها شيء مما تفخر به المعامل الاوروبية من ادوات طبع الحروف والحجر والمسابك والمقاطع وآلات التنجيس والصقل والتذهيب والتجليد وغير ذلك مما يدار بالبخار... وقد استجلب الاب الألماني هينريش كرتسمان من اوروبا سنة ١٩٠٠ اربع عشرة آلة جديدة لفنون الطباعة...»^(١) فاعجب القاسمي بالمطبعة كل الاعجاب ووصف ما شاهده فيها.

وقام القاسمي، كالعادة بجولات وزيارات كثيرة لمشاهد الحرم. وكان حريصاً على ألا تفوته صلاة من الصلوات في الحرم فذر الامكان. وزار بالطبع مشاهد طورزيتا. وفي يوم الاربعاء سلخ صفر زار الخليل ومقامات الانبياء، ومر في الطريق بيت لحم فاشترى بعض القطع الصدفية «هدية للأولاد والعيال». واعجب بوادي بيت جالا المملوء بشجر الزيتون، ورأى البركة التي فيها نبع ماء يساق للحرم الأقصى الشريف. وعاد الشيخ من الخليل في اليوم التالي. ومكث يومين الى صباح السبت ٣ ربيع الاول، حين بارح البيت المقدس وودع الاقصى بركعتي السفر والصخرة بركعتين. ثم استقل وصحبه القطار الى يافا. وهنا نزل في دار مفتيها السابق الذكر علي افندي ابي المواهب وسر بمحاورته العلمية، واطلع على مؤلفاته. وفي اليوم التالي دعاه المفتي الى مُنْتزِه لهم في بيت دجن.. وفي يوم الاثنين زار الضيوف حديقة الحيوانات التي انشأها الألمان في يافا.

وفي يوم الثلاثاء ٦ ربيع الاول عزم القاسمي وصحبه على المسير من يافا فاستقلوا باخرة (الوابور) إلى بيروت، وعادوا من هناك الى دمشق «وتمت الرحلة اربعين ليلة».

كانت رحلة القاسمي، كما قلنا، آخر الرحلات الكلاسيكية الى القدس. وقد تلتها فيما اطلعنا عليه من رحلات القرن الرابع عشر / العشرين الى القدس، تسع رحلات يَغْلُبُ عليها طابع الحداثة والقالب الصحفي في هذا القرن. وقد تمت هذه الرحلات جميعاً فيما بين سنة ١٩١٠ وسنة ١٩٦٦. وتميزت هذه الرحلات كلها بإشارات الى الغزو اليهودي الذي أخذ يتكاثر في المدينة منذ اوائل هذا القرن، ويطغى على طابعها الكلاسيكي العتيق. ويفرض عليها التهويد بالقوة..

وأول اصحاب الرحلات هؤلاء هو:-

(٣٢) يوسف الحكيم..

وهو من مواليد اللاذقية درس في المعهد الأمريكي بها والمكتب الاعدادي الحكومي في مدينة آبائه واجداده. وفي سنة ١٩٠٤ عين قاضياً. وتولى القضاء بالقدس ويافا وطرابلس. وفي سنة

(١) عبد الرحمن ياغي، حياة الادب الفلسطيني الحديث، بيروت ١٩٦٨. ص ٧٨، ٧٧.

١٩١٣ عين اميناً عاماً لحكومة جبل لبنان المستقل ادارياً . واستقال سنة ١٩١٥ بعد عزم الحكومة الغاء استقلال جبل لبنان . وبعد استقلال سوريا تولى يوسف الحكيم الوزارة عدة مرات . وقد سجل الحكيم مذكراته ورحلاته وقدم لها سنة ١٩٦٤ ، ونشر الكتاب الذي تضمنها بعنوان «سوريا والعهد العثماني» في سنة ١٩٦٦^(١) . وخصص الفصل الاول من الكتاب للقديس الشريفة التي زارها لأول مرة سنة ١٩١٠ لياشر مهام وظيفته فيها عضواً في المحكمة البدائية . وقد جاء الحكيم بطريق البحر من اللاذقية الى يافا ومنها ركب القطار الى القدس^(٢) وياشر عمله في ٩ كانون الثاني سنة ١٩١٠ .

تحدث الحكيم اولاً عن موقع مدينة القدس المرتفع حوالي ٨٠٠ متر عن سطح البحر وجمال مناظرها الطبيعية ، وقال ان مشكلتها الرئيسية هي قلة الماء بها . ولاحظ أن القدس - رغم وجود عائلات عريقة بها - تسودها حياة ديموقراطية بفضل التعليم وانتشار المدارس . وقال ان قدوم الحجاج والسياح للقدس من مختلف اقطار العالم كان في مقدمة الاسباب لرقى الحياة الاجتماعية وعاملاً قوياً في رفع الحياة الاقتصادية .

واهتم المؤلف بالطوائف المسيحية في القدس ولاحظ بارتياح أن المودة والاخاء كانا يسودان بين المواطنين من مسلمين ومسيحيين . ولاحظ ايضاً تعدد المدارس الحكومية والاجنبية التابعة لمختلف البلدان الاوروبية بالاضافة الى مدارس الرهبان . وقال ان النابيين من الطلاب اتقوا التحصيل العالي في جامعات اسطنبول وبيروت .

وقدّر عدد المسيحيين في القدس من مختلف الطوائف بأربعين الفا . . اكثرهم من الروم الارثوذكس ، وقال إن اكثرية الاماكن المقدسة في القدس وكل فلسطين كانت بيد البطريركية الارثوذكسية . ثم تحدث عن كنائس القدس والمشاحنات التي كانت تجري بين الطوائف المختلفة لآتفه الاسباب ، وخاصة ايام الاحتفالات . ولاحظ أن اكثر الزائرين كانوا من الروس الاتقياء . وتحدث عن الأديرة والكنائس والمؤسسات والمدارس الاجنبية التي انتشرت خارج السور ومنها دير الروس وكنيستهم في جبل الطور والبنية الفخمة التي اقامها الالمان فوق الجبل واعدت لنزول الامبراطور غليوم والاسرة المالكة^(٣) ثم وصف المؤسسة الروسية المعروفة بالمسكوبية في الموقع المعروف باسم الميدان الى الشمال الغربي من القدس ، - ومبانيها هي اول المباني الحديثة التي شيبت خارج السور حوالي سنة ١٨٥٦ - فقال انها معدة لاستقبال الزوار الروس ويديرها رهبان وراهبات من الروس انفسهم ويحيط بيناتها الفخم وكنيستها الكبرى حدائق وكروم زيتون على التلال والادوية . واعجب الحكيم بالنظام السائد بين سكان المؤسسة والزوار الروس ويجوقة المرتلين في الكنيسة .

(١) وصدر عن المطبعة الكاثوليكية ببيروت . ومن هذا الكتاب استقيناً بعض المعلومات عن حياته من مواضع متفرقة .

(٢) افتتحت السكة الحديدية بين يافا والقدس سنة ١٨٩٢ .

(٣) هي بناية أوغسطا فكتوريا او المطلق (ام الطلعة) التي بناها الالمان سنة ١٩٠٥ واهدوها للامبراطور والامبراطورة بمناسبة عيد زواجهما الفضي . اتخذها الانجليز ١٩١٨ مقراً للحكم ، وفيها الان مستشفى تابع لوكالة غوث اللاجئين .

ورضوانه، مما أمر به الامام المأمون أمير المؤمنين أطال الله بقاءه في ولاية أخيه أمير المؤمنين أبي اسحاق ابن أمير المؤمنين الرشيد أبقاه الله وجرى على يد صالح بن يحيى مولى أمير المؤمنين في شهر ربيع الاخير سنة ست عشرة ومائتين». وبأعلى الباب الثاني من الباب الشرقي لوح آخر من نحاس أيضا مكتوب هذا النص المذكور بجملته، وأمام باب الجنة المذكور قبة تغشى النواظر بشعاعها وتحظف الابصار بالتعاعها تسمى قبة السلسلة التي كان يحكم بها داود عليه السلام، وهي قبة عجيبة قامت على (سواري) مختلفة وصناعة على الحسن مشتملة بوسطها تاريخان مكتوبان بالذهب أحدهما في أرض خضراء زرعية ونصه: [بسم الله الرحمن الرحيم وداود وسليمان اذ يحكمان في الحرث اذ نفثت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان، وكلا أتينا حكما وعلما^(١)] كمل تجديد بطن هذه القبة السلسلة المباركة ونقش سقفها وتبليطها في شهر سنة ست وتسعين وخمسائة]. وفي الركن الغربي من هذا الصحن المرتفع المذكور مسجد^(٢) فيه قبتان منتظمتان عجيبتان فيهما رسوم مذهبة وتواريخ مختلفة أقربها عهدا وهو ما نصه: [بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله وصلواته على خير خلق الله محمد وآله وصحبه، أما بعد فما زالت همم ملوك الاسلام تتناصر على اثبات مفاخر يلقى ذكرهم ببقائها وانشاء محاسن يباهون الامم بيهاتها، فيحيون رسوما طالما نسجت عليها العناكب. ويرقمون على صفحات الايام من الخيرات رقما تشرف اليه الكواكب فتظل عيون الاماني بمآثرهم قريرة وأعواد أجبائهم بمفاخرهم مورقة نضيرة أعطاهم الله قدرة فصرفوها الى رفع اقدارهم، وأتاهم الدنيا فلم يتركوها غفلا من محاسن آثارهم:

(فستراهم دون الرجاء وذكرهم باق بها فكأنهم أحياء)

فله در فتى تبقى مساعيه بعده مشكورة، ومناقبه ما بقيت آثارهم مذكورة، ولما تشعت السقف الذي كان أنشأه الملك المعظم الواقف المذكور رحمه الله انتدب لحيائه عبد الله الفقير اليه أسد الدين عبد القادر سبط الواقف بحكم ما آل اليه من النظر الشرعي في أوقاف جده فجده وبذل وسعه وطاقته فيه ابتغاء مرضاة الله تعالى. وكان الفراغ منه في ربيع الاخير سنة تسع وعشر وسبعمائة من الهجرة النبوية وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم. وفي الجهة الغربية ثلاث صوامع واسم المأذنة أو المنار أحق من اسم الصومعة لان - الصومعة هي التي للراهب وهي بفتح الميم. وفي الجهة الغربية والجوفية قباب مختلفة تركت وصفها اختصارا. منها قبة الركن الشرقي الحافلة وقبة المعراج وقبة الميزان الرخامية وقبة موسى البديعة وقبة سليمان الرائقة. وفي كل مسجد من تلك المساجد ومدرسة من تلك المدارس، وقبة من تلك القباب امام عاكف به قائم عليه. ولقد عددت مواضع الاشفاق وصلاة التراويح بها في شهر رمضان المعظم فالفيتها نحو الاربعين موضعا. وفي الجهة الغربية من الصحن الكبير المثلث مدرسة عجيبة غريبة الشكل غزيرة

(١) سورة الانبياء، اية ٧٨ (ك.ع).

(٢) المقصود هو المدرسة التحوية التي انشأها الملك المعظم عيسى الايوبي سنة ٦٠٤، وهي في الطرف الجنوبي الغربي لصحن الصخرة عند الدرج المؤدي الى الساحة تجاه باب السلسلة. ويبدو أن هذا النقش غير موجود في فان برشم (ك.ع).

قام جرجي زيدان برحلته الى فلسطين - قبل وفاته بسنة واحدة - ونشرها في حلقات في مجلة (الهلال) المجلد الثاني والعشرين (١٩١٣ - ١٩١٤)، ابتداءً من الجزء الاول .

تحدّث في الجزء الأول عن تاريخ فلسطين بما فيها القدس، وفي الجزء الثاني عن آثار القدس، وواصل ذلك في الجزئين الثالث والرابع . ثم تحدّث في المجلد نفسه (٢٢) من ص ٦٠٣ - ٦٠٧ عن أحوال فلسطين العلمية .

جاء جرجي زيدان الى القدس بالسكة الحديدية من يافا وكان في المدينة في شهر آب ١٩١٣ فاقام له اهلها حفل تكريم القى فيها الشيخ علي الرймаوي^(١) قصيدة قال فيها:

زيدان ياربّ الفضائل واليراعة واللسان
يهنيك هذا المهرجان فأنت زين المهرجان
ملأت فضائلك الزمان فراح يحمدك الزمان
في الشرق لاح هلاك الزاهي فضاء المغربان

الى أن قال:

العلم والوطن العزيز هما لعمري الجامعان
والدين لله العليّ فإنّ وقت العلم حان
يجب التفاهم والتعارف والتقارب والحنان^(٢)

وصف لنا جرجي زيدان في مستهل رحلته مناظر الجبال الشاهقة والأودية الرائعة التي يجتازها القادم الى المدينة من الغرب ثم تحدّث عن موقع القدس القديمة وطوبوغرافيتها . . ومضى بعد ذلك يتحدث عن آثارها بادناً بكنيسة القيامة فقدم لنا وصفاً لمبنى الكنيسة مرفقاً بمخطط لها . وهو وصف واضح ودقيق، بل ربما هو احسن وصف قدمه رحالة عربي للكنيسة حتى ذلك التاريخ . وقد اثبتنا الوصف والمخطط في القسم الثاني من هذا الكتاب . وكرر زيدان الحديث عن الخصومات والمشاحنات بين الطوائف المسيحية حول الاماكن المقدسة، الأمر الذي اشار اليه نعمان القساطلي من قبل . وبعد ذلك قدم لنا وصفاً شاملاً جيداً للحرم الشريف فوصف قبة الصخرة من الخارج ثم من الداخل وسجل نصوص الآيات القرآنية المكتوبة بداخلها مما لم يرد في اوصاف الرحلات التي مرت معنا . . وتحدّث عن قبة السلسلة وقبة المعراج ثم أتى على وصف المسجد الأقصى بالتفصيل . ثم وصف سائر ابنية الحرم . وتابع وصفه بأن تحدّث عن ميكي اليهود وجبل الزيتون (الطور) وبين اهمية هذا الجبل في الانجيل . وختم جرجي زيدان مقالاته بالحديث عن الاحوال العلمية فقال ان التعليم في فلسطين ضعيف بوجه الاجمال، وخص القدس بالكلام

(١) علي بن محمد الرймаوي ١٢٧٧-١٣٣٧ / ١٨٦٠-١٩١٩ شاعر فلسطيني من بيت ربما . درس في الأزهر ثم درس الفقه في مدرسة روضة المعارف واشتغل بالصحافة في جريدتي القدس الشريف والمصباح . (بلادنا فلسطين ١٠/٢٢ ص

٣٧٢-٣٧٣)

(٢) عن الدباغ، المصدر السابق ص ٣٧٣ .

لأنها ارقى سائر مدن فلسطين بالتعليم . وذكر من المدارس الوطنية «المدرسة الدستورية» التي انشأها خليل السكاكيني «ومدرسة روضة المعارف» للشيخ محمد الصالح . اما الأجانب فلهم في فلسطين مدارس كبرى أهمها دار الأيتام السورية التي أسسها الدكتور شنلر الألماني سنة ١٨٦٠ ، وهي متخصصة بالصنائع . وكان فيها يومئذ ٧٥٠ تلميذاً منهم ٤٠٠ داخليون ونحو خمسين فتاة ، ومدرسة جويات للانجليز ، ومدرسة صهيون وهي انكليزية ايضاً^(١) .

ثم تحدث عن مدارس اليهود فقال إن لليهود شأنًا خاصاً في التعليم مثل شأنهم في الاقتصاد . . . وقد توفرت لهم عناصر النجاح ، وهي العلم والمال والاتحاد . وهم يبذلون المال في سبيل مطامعهم الاقتصادية والاجتماعية في فلسطين . وبه أنشأوا مدارس كثيرة ليست لسواهم ، بعضها على النسق القديم تعلم التوراة والتلمود ، والبعض الآخر يعلم العلوم الحديثة . اما مدارسهم العصرية فأول من انشأها لليهود جمعية الأليانس في فلسطين ، وفيها كلها نحو ٢٠٠٠ تلميذ . ومن هذه المدارس مدرسة بيت سليل ومدرسة لاميل وغيرها . وأبدى جورجى زيدان دهشته لدى زيارة كلية تل ابيب (الجمنان) لأن هذه الكلية تعلم العلوم باللغة العبرانية كما تعلم المدرسة الكلية الأمريكية في بيروت بالانجليزية ومدرسة الآباء اليسوعيين بالفرنسية وأبدى زيدان اعجاباه بمؤسسات اليهود التعليمية عموماً ثم قال : على أن الميل الى التعليم ينتشر الآن في طبقات الامة الفلسطينية ولا سيما الطبقة الراقية التي ترسل ابناءها الى بيروت والأسنانة وفرنسا وغيرها . . .

كان جرجي زيدان من اوائل الصحفيين العرب الذين كتبوا سياحتهم في فلسطين وربما اولهم ، وتلاه حتى سنة الكارثة ١٩٤٨ (١٣٦٧هـ) عدد من الصحفيين او الادباء الذين امتهنوا الصحافة . ومن هؤلاء الشاعر اللبناني

(٣٤) رشيد نخلة ١٢٩٠ - ١٣٥٨ / ١٨٧٣ - ١٩٣٩ .

الذي حل في القدس عشية الحرب العالمية الاولى (الحرب العظمى) في شهر ايلول سنة ١٩١٣ . وكانت زيارة رشيد نخلة للقدس زيارة قسرية فقد زارها منفياً هو وجماعة من اعيان لبنان بأمر من جمال باشا حاكم الشام^(٢) . بسبب ما كان يخشاه من شعوره القومي العربي . كان رشيد نخلة شاعراً وزجلاً . ولد وتوفي في الباروك - وهو نبع غزير على بعد (٥٠) كيلو متراً من بيروت . أنشأ سنة ١٩١٢ «جريدة الشعب» في عين زحلتا . ومن مؤلفاته : «كتاب المنفى»^(٣) الذي تحدث فيه عن إقامته في القدس :

(١) مدرسة جويات هي نفسها مدرسة صهيون كما نعرف . ولعله يقصد بصهيون مدرسة سانت جورج (المعروفة بالمطران) .

(٢) وكانت القدس تستخدم كمنفى ابان حكم المالك ، وقد نفى اليها سلاطينهم العديد من الامراء الذين كانوا يخشونهم ، بعض الشيء ، دون أن يشعروا بأنهم يشكلون خطراً جدياً عليهم ، اي انها كانت منفى لاولئك الذين اراد السلاطين أن يرأفوا بهم ، وذلك لقرب المدينة واعتدال جوها . وقد نال القدس على يد اولئك الامراء المنفيين الذين كانت تجرى عليهم رواتب تقاعدية خيراً كثيراً . إذ اقام هؤلاء العديد من المدارس والمنشآت الكبيرة التي ازدهت فيها القدس في العصر المملوكي وبعده .

(٣) صدر في بيروت ، سنة ١٩٥٦ .

وصل رشيد نخلة وصحبه الى القدس في شهر ايلول سنة ١٩١٣ ووضعوا تحت المراقبة على الفور ومنعوا من الخروج من المدينة حتى الى الضواحي، الا بإذن من مدير الشرطة. وكان مدير الشرطة يزورهم في الفندق كل مساء ويسأل عنهم واحداً واحداً . . . وهكذا عاش رشيد وصحبه في قلق وخوف دائمين . . .

وقد ذكر من الإخوان الذين أضاؤا ليالي همم الشاعر الشيخ علي الريمائي الذي كان آية في الظرف وحلاوة الحديث، واسعاف النشاشيبي الاديب المنقطع النظر في فقه اللغة، والشيخ عبد القادر المغربي، الرئيس السابق للمجمع العلمي العربي في دمشق، ومحمد حبيب العبيدي واحد الموصل في العلم ومفتيها. وقد كان في القدس يومذاك متطوعاً في «هيئة العلم النبوي»، وخليل السكاكيني الكاتب اللغوي المحقق، ومدحت بك متصرف القدس التركي، وحنا افندي بطاطو من وجهاء القدس .

وبعد مضي نحو اربعة اشهر في القدس سير جمال باشا جيشا عظيماً لفتح ترعة السويس في ١٤ كانون الثاني ١٩١٤. وبعد ايام قلائل اقيمت الزينات الباهرة احتفالاً بانتصار الزحف العثماني، لكن النصر كان في الواقع هزيمة اذ اضطر الجيش للنكوص على اعقابه . . .

وفي هذه الاثناء قدم الملك فيصل ابن الحسين للقدس - وكانت الثورة العربية التي أوقدها الملك الحسين بن علي لم تشتعل نارها بعد - ودقت البشائر في القدس أن الشريف فيصلاً قد تقدم للجهاد طوعاً. وقامت المدينة وقعدت لبشرى قدوم الأمير العربي وخفت الجماهير الى المحطة، ولكن الأمير لم يصل في الموعد المحدد، ووصل المدينة فجأة فقيل بين الجماهير إن جمال باشا اراد وصوله هكذا . . . بلا استقبالات.

أما المرحوم فيصل فقد كان مدة اقامته في القدس كثيباً قلقاً . . . وراجت الإشاعات بانه لم يتقدم للجهاد طوعاً وأنه جيء به إقصاءً عن الحجاز . . . ووقع في ايدي جمال . . .

اما الصحفي التالي الذي كتب رحلة عن القدس فهو شيخ الشام وعالمها

(٣٥) محمد كرد علي^(١) ١٢٩٣ - ١٣٧٢ / ١٨٧٦ - ١٩٥٣

رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق وصاحب مجلة المقيس، والمؤلفات الكثيرة التي من أبرزها «خطط الشام» في ستة مجلدات. وكان محمد كرد علي قد ناوأ جماعة الاتحاد والترقي فهده جمال باشا وانذره ثم ما لبث أن ولاه تحرير جريدة الشرق التي اصدرها الجيش العثماني. وامضى كرد علي مدة الحرب مصانعا بلسانه وقلمه. وقد ظهر ذلك في كتاب الرحلة الذي وضعه محمد كرد علي بعنوان «الرحلة الأنورية الى الاصقاع الحجازية والشامية»^(٢). وهي ليست رحلة قام بها كرد علي شخصياً، وانما هي كتاب وضعه كرد علي عن «سياحة رجل العثمانيين ويطل الاسلام

(١) انظر الاعلام: محمد بن عبد الرازق كرد علي ٢٠٢/٦.

(٢) المطبعة العلمية ليوسف صادر، بيروت ١٣٣٤/١٩١٦.

والمسلمين صاحب الدولة والعطوفة انور باشا وكيل القائد الأعظم وناظر الحربية الجليلة الى المدينة المنورة وسورية وفلسطين» .

وظاهر أن هدف رحلة انور باشا التي تمت في سنة ١٩١٦ / ١٣٣٤ ابان الحرب العالمية الاولى كان هدفا دعائيا يرمي الى استرضاء الشعوب العربية ودعم المجهود الحربي التركي . ويقول بروكلمان : إن محمد كرد علي كتب هذه الرحلة بطلب من جمال باشا^(١) .

امتلأت «الرحلة الأنورية» بعبارات التمجيد والتفخيم، المعهودة والمعروفة في بلادنا العربية، لأنور باشا ناظر الحربية العثمانية وجمال باشا قائد الجيش الرابع وناظر البحرية . .

زار انور باشا في رحلته حلب وبيروت ودمشق، واستمع الى قصائد المديح والخطب التي تناوب عليها الكثيرون من الشعراء والادباء والمستولين . وطلعت الصحف في هذه المدن بالمقالات التي تشيد بأعمال انور باشا «الصدّيقية» و «الفاروقية» و «الصلاحية» وتصفه بـ «روح الأمة ومؤسس سعادتها» . . الخ .

وبعد انتهاء زيارة القائدين التركيين الى مدن سورية توجهوا الى فلسطين ووصل قطارها الخاص الى محطة الرملة (١٢ شباط على الحساب الشرقي سنة ١٣٣١)، ثم توجهوا وسط استقبالات حافلة الى يافا بدعوة من قائد الموقع حسن بصري بك الجابي (منشئ جامع حسن بك في يافا) الذي «تجاسر» ودعاهما باسم البلدة حيث افتتح انور باشا شارع جمال باشا بيده الكريمة . وبينما كان انور وجمال بيافا بين دقات القلوب سرورا وابتهاج النفوس فرحا كان اهالي القدس منتشرين في جهة بزوغها الى مكان مقرهما مقر الجيش المظفر مائة ألف أو يزيدون . . . وقام وجهاء القدس بالسلام على انور وجمال بدار الحكومة . ثم زار الضيفان الحرم الشريف حيث صلى انور باشا ركعتين تحية المسجد واستمعا الى خطاب للشيخ اسعد الشقيري وتقبلا هدية من المفتي كامل افندي الحسيني . ثم زارا الكلية الصلاحية التي كان جمال باشا قد أنشأها سنة ١٩١٥ ، في مكان المدرسة الصلاحية القديمة . وبعدئذ توجهوا لزيارة مقام نبي الله داود وكنيسة القيامة . وتبرع انور باشا للكنيسة بمائتي ذهب عثمانية بعد أن وهب خدمة الحرم الشريف خمسين ذهبا . وأقيمت في فندق فاست بالقدس وليمة تكريمية كبرى خطب فيها الشيخ علي الريمايوي^(٢) ثم انشد قصيدة ترحيب استعيدت أبياتها مرارا . وتلت ذلك زيارات الى الخليل حيث مقامات الانبياء وإلى بيت لحم حيث كنيسة الولادة والى بئر السبع . ثم الى معسكر الجيش العثماني في جبل الطور، حيثلقى الشيخ اسعد الشقيري مفتي الجيش الرابع خطابا قال فيه «إن انور باشا في عصرنا يحق له السيادة على الاسلام» . واخيرا توجه القائدان الى اريحا بالسيارة «فشيّعها الاهالي والقلوب باجل مظاهر التشييع والوداع» . ومن اريحا سارا على طريق عمان حيث ركبا القطار الى مدينة الاسلام والسلام (المدينة المنورة) .

(١) Brockelmann, S III, 431

(٢) زُود علي الريمايوي كرد على بالمادة التي كتبت عن القدس في الرحلة، كما اعتمد المؤلف على ما كتبه مكاتب المتبسن في يافا .

طويت صفحة الدولة العثمانية في البلاد العربية بهزيمتها هي وحلفاؤها الألمان في الحرب ، وخرج العثمانيون من القدس في ٩ ديسمبر/كانون الاول ١٩١٧ . وجاء الحكم البريطاني واستقر تحت اسم الانتداب حتى كارثة ١٩٤٨ . وكانت فترة الانتداب مشحونة بالكوارث التي كان قد زرع الكثير من بذورها في فلسطين منذ مئات السنين .

وفي خلال فترة الانتداب هذه زار القدس العديد من الرحالة . وسوف نقصر حديثنا على اربعة من اولئك الذين دونوا مشاهداتهم على صفحات الكتب او الجرائد . واحدٌ من هؤلاء الرحالة جاء من سوريا وثلاثة منهم جاءوا من مصر . وسوف نتحدث عن كل من هؤلاء بالترتيب الزمني . اول هؤلاء هو العالم والاديب السوري :-

٣٦ - خليل مردم بك (١٣١٣-١٣٧٩ / ١٨٩٥-١٩٥٩)

خليل مردم بك كاتب وشاعر مشهور مولده ووفاته بدمشق . كان من اعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٢٥ ، وانتخب رئيساً له بعد وفاة رئيسه الاول محمد كرد علي سنة ١٩٥٣ . وقد تولى الوزارة وعمل في السلك الدبلوماسي . وكان من الاعضاء المراسلين لمجمع اللغة العربية بمصر والمجمع العلمي العراقي والمجمع العلمي السوفيتي . زار خليل مردم بك القدس سنة ١٩٢٢ او اوائل سنة ١٩٢٣ ونشر انطباعات بل شذرات عن الزيارة في جريدة الف باء الدمشقية في شهر شباط ١٩٢٣ (العدد ٧٣٩ الصادر في ١٣ شباط ، والعدد ٧٤٢ الصادر في ١٦ شباط والعدد ٧٤٥ الصادر في ٢٠ شباط) . وجمعت هذه الانطباعات مع العديد من المقالات الأخرى لخليل مردم بك في كتاب صدر في بيروت سنة ١٩٧٨ بعنوان «دمشق والقدس في العشرينات» شرحه وقدم له عدنان مردم بك . وقد توقعت أن اجد مادة دسمة عن القدس في كتابه فلم أجد شيئاً مما أوحى اليّ به العنوان . وإنما ذكر الكاتب فيها على حد تعبيره - ما علق بذهنه مما رأى وسمع في أثناء رحلته . ولا يتجاوز ما كتبه عن القدس وفلسطين عشر صفحات جاءت في اول الكتاب . وحسبنا ان نقدم نموذجاً واحداً منها حول اللغة العربية في فلسطين في العشرينات ، في القسم الثاني من هذا الكتاب .

اما الرحالة الثاني فهو :-

٣٧ - عبد المؤمن كامل الحكيم

وهو من اهل القاهرة . كان محرراً في جريدة الاهرام وتوفي سنة ١٩٢٥/١٣٤٤ . قام عبد المؤمن الحكيم برحلة الى فلسطين ولبنان وسورية سنة ١٩٢٣/١٣٤١ . واصدر في السنة التالية كتاباً تضمن اخبار رحلته بعنوان : رحلة مصري الى فلسطين ولبنان وسورية ومناظر المسجد الأقصى وجميع المشاهد الدينية والأثرية والعمرانية^(١) .

جاء عبد المؤمن الحكيم ، كما اصبح معتاداً في هذه الفترة ، عن طريق البر بالسكة الحديدية

(١) المطبعة السلفية بمصر ١٩٢٤/١٣٤٢ .

فمر بالقنطرة في اوائل سبتمبر / ايلول سنة ١٩٢٣ حتى اذا وصل الى بيت المقدس لبث فيها مدة يتبرك بزيارة المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله ويتعهد قبور الانبياء والصالحين . وبعد زيارة القدس رحل الى بيروت وغيرها من مدن لبنان ، ثم اتجه منها الى دمشق ، فقضى فيها فترة قصيرة عاد بعدها بقطار السكة الحجازية الي حيفا ومنها الى القاهرة حيث بلغها في ١٢ اكتوبر/ تشرين الاول ١٩٢٣ .

لاحظ الصحفي المصري مظاهر التهويد منذ البداية . فاستمارات او طلبات السفر على الحدود كانت مكتوبة باللغات الثلاث الانكليزية والعربية والعبرانية . وموقع «ديران» القريب من الرملة غيروا اسمه الى «رخويوت» . ومحطة قطار بير يعقوب خصصت لمصايف اليهود وبعض الانجليز . واسم عرتوف اطلقوه على واد قرب الرملة واسسوا فيه عدة شركات صهيونية لاستثمار الارض . . . ولم يجد الاهالي صداً لهذا التيار إلا وقف اراضيهم والامتناع عن بيعها .
واشاد عبد المؤمنين الحكيم ، شأنه شأن يوسف الحكيم قبله ، بالاتحاد بين المسلمين والمسيحيين . ولاحظ أن اجور الفنادق في القدس مرتفعة جداً . وسمى من فنادق القدس فندق مرقص وكان يتقاضى جنيها في اليوم ، وكذلك فندق النبي بشارع يافا . واما فندق مار يوحنا الواقع امام القبر المقدس فكان يتقاضى ٨٠ قرشاً . . . وفي شارع يافا رأى محلات جديدة يديرها بعض الروسيات اللاتي هبطن الى القدس بعد الحرب . وكان هذا الشارع الطويل يحتاج الى اصلاح كبير وعناية . . .

وكجميع القادمين الى القدس من جهة الغرب أعجب الصحفي المصري بالمناظر الخلابة للجبال المزروعة بالاشجار المثمرة والخضرة ، وانهر بمنازل المسجد الأقصى والقباب والكنائس . وبعد ان نزل في فندق بيب الخليل قصد المسجد الأقصى في طريق مزدحم بالناس مسقوف منحدر ومبلط بالحجر الصغير (سويقة علون ، وسوق باب السلسلة) ، حتى دخل الحرم . وسرعان ما لاحظ ان نحو نصف هذا المسجد الأثرى المتعمد النظير مسدود بالواح من الخشب . . . ووجد البواكي الجميلة مصلوبة على اعمدة من الخشب لتقيها شر السقوط . ومع أن هذا المسجد هو المصلى الوحيد لاهل القدس وقاصديها من بلاد العالم فإن الاهالي لا يستطيعون عمارته بدون معونة تأتيهم من الخارج . وكان موضوع التبرع من أجل اصلاح المسجد مما تطرقت إليه خطبة الجمعة التي استمع اليها عبد المؤمن الحكيم فانفعل بذلك وتأثر ودعا لالة الأمور في مصر الى التبرع لعمارة المسجد . . . وذكر في هذا الصدد أن فلسطين اوفدت الى الاستانة وفداً يطلب دعم مسلمي تركيا لاصلاح المسجد ، وقابل الوفد السلطان العثماني ، فوعدهم بدعم لم يأت منه شيء .

وما ذكره عبد المؤمن الحكيم أن اهل فلسطين كانوا يدعون في خطبة الجمعة (سنة ١٩٢٣) الى حضرة الخليفة عبد المجيد بعد نعته بـ «خادم الحرمين الشريفين» . ولفت نظر الزائر المصري معاهد الخير التي اسستها الدول المسيحية والاعنياء فيها في القدس ومنها الملاجيء ودور العجزة والانزال الكثيرة لايواء الغرباء . والمستشفيات الفخمة ، وكذلك المحلات الخيرية والملاجيء التي اقامها اليهود . وأهاب بالمسلمين أن ينهضوا الى ما نهض به هؤلاء ، خصوصاً لأن المسلمين في هذه

البلاد فقراء وواقفهم لا تكفي الا لاقامة شعائر الدين، وناشد مصر أن تمدّ يدها لترميم الحرم الشريف ولبناء تكية ومدرسة في القدس الشريف يلجأ اليها الفقراء . . .

وانتقل عبد المؤمن الحكيم بعد ذلك الى وُصِفِ مفصل للمسجد الأقصى : الحرم الشريف وجميع المباني القائمة فيه وساحته وسوره وابوابه وقبة الصخرة ومقاييسها وابوابها، والمسجد الأقصى . وهو وصف شامل مُعْتَمَد الى حد كبير. وتأتي أهميته من أن الحكيم اعتمد في كل ما اورده على البيان الذي نشره المجلس الاسلامي الاعلى في القدس في ذلك الوقت. وقد اشتمل الوصف على نبذة تاريخية عن المسجد الأقصى في مختلف العهود وخاصة العهود الاسلامية المختلفة من الأمويين حتى العثمانيين معززة بالتواريخ وأسماء الحكام الذين تعاقبوا على اصلاح المسجد وترميمه . . .

واختتم عبد المؤمن الحكيم كلامه عن القدس بالتنويه بمركزها السياحي العالمي بفضل المقدسات القائمة فيها والتي يقصدها عدد وافر من الناس من اجناس مختلفة ومن كل البلدان، وبالإشارة إلى اللجنة الفنية التي شكلت من خبراء من تركيا وفلسطين لدراسة إصلاح المسجد الأقصى وبالحدِيث عن المجلس الاسلامي الاعلى الذي شكل قبل سنتين [أي سنة ١٩٢١] برئاسة محمد امين الحسيني مفتي فلسطين وعن مهام المجلس واعماله الكثيرة، ومنها انقاذ أراضي الاوقاف وحفظ المساجد والزوايا وانشاء المدارس والاهتمام بعمارة المسجد الأقصى . . . واهاب بمصر مرة أخرى أن تمد يد العون والمساعدة في هذا الشأن .

ونذكر من زوار القدس في هذه الفترة أيضا باحثاً في اللاهوت المسيحي من مصر ايضاً هو :-

٣٨ - جرجس فيلو تاوس عوض

لا نكاد نعرف اي معلومات عن حياته، ويبدو أنه كان من رجال الكنيسة القبطية. وقد وضع كتاباً بعنوان «مشاهداتي في القدس الشريف» طبع في المطبعة العصرية الاهلية في القاهرة سنة ١٩٣١ وعثرنا على نسخة مصورة على ميكروفيلم منه في مكتبة الجامعة الأردنية .

ويقع الكتاب في ٥٦ صفحة. ويتألف من مقدمة تليها اربعة مباحث هي :

(١) تابوت يسوع بن يوسف وهل هو تابوت المسيح .

(٢) الحجر المؤابي (كتب سنة ٨٩٦ ق. م).

(٣) النور في المقبرة .

(٤) المؤاخاة على بحر الشريعة أو المقبرة .

ويتعلق المبحث الأول بتابوت عُثْر عليه في وادي سلوان (يهو شافاط) وعليه كتابة بالأرامية تفيد انه قبر يسوع بن يوسف . وقد نقل هذا التابوت عقب اكتشافه الى متحف الآثار الفلسطيني . ويخرج الباحث من دراسة التابوت وملابس اكتشافه بأن هذا التابوت ليس بتابوت المسيح . اما المبحث الثاني فيتعلق بحجر مؤاب او مسلة ميشع . وهي مسلة صغيرة اكتشفت في مدينة

ديان قرب مادبا سنة ١٨٦٨ . وينسب النقش الى ميشع ملك مؤاب الذي عاش حوالي ٨٥٠ ق. م ، وهو يحكي قصة انتصار ميشع على بني اسرائيل وتحرير قومه منهم . ويعرض الباحث رأيه في المعلومات التي يتضمنها النقش ويخرج من ذلك الى القول بأن الحجر المؤابي يشهد للكتاب المقدس بالصدق .

ويتناول الباحث المصري بعد ذلك النور الذي يظن في القبر المقدس في عيد الفصح فيقول إن صحة خروج النور تعتقدها الكنائس المسيحية الشرقية دون الغربية . ثم يعرض رأيه في شأن النور، وخلاصته أن النور الذي يظهر من القبر ليس حقيقيا .

اما المبحث الاخير فيعرض الى ما يسمى بالتآخي بين الرجال والنساء في بحر الشريعة ، والمقصود نهر الاردن حيث تم تعميد السيد المسيح . ثم يخرج الباحث من حديثه عن هذا التآخي الذي يمكن الرجال والنساء من الاستحمام معا وفي مكان واحد من النهر بالقول «بأن هذا التآخي على بحر الشريعة» ليس من الدين . . .

اما الرحالة الرابع الذي ستحدث عنه وعن رحلته الى القدس زمن الانتداب فهو:

٣٩ - محمد ثابت المتوفى سنة ١٣٧٧هـ / ١٩٥٨م

تلقب محمد ثابت بلقب الرحالة المصري ، وهو جغرافي متأدب من اهل القاهرة . كان معلما في المدارس الثانوية ومراقبا للنشاط الاجتماعي بوزارة التربية المصرية وعميدا لمعهد المعلمين الابتدائي بالزيتون ، ثم اختير لتدريس المواد الاجتماعية في كلية النصر بالمعادي وقد توفي فيها اثناء عمله^(١) .

جاء محمد ثابت اثناء العطلات المدرسية ارجاء العالم فله جولات في ربوع افريقية واوروبية وآسيا والدنيا الجديدة وجولة في ربوع الشرق الادنى الخ .

وصف محمد ثابت القدس في كتابه «جولة في ربوع الشرق الادنى»^(٢) ونقدر أن الزيارة للقدس تمت حوالي سنة ١٩٤٠ اذ لا يذكر الكاتب تاريخ وصوله الى المدينة - وكذلك شأنه مع كل المدن الأخرى التي زارها - ولا تاريخ مغادرته اياها .

جاء الرحالة المصري بالقطار الى القنطرة ثم الى غزة فاللد ، حيث محطة القطارات المركزية في فلسطين وغير هنا القطار واتجه الى القدس ، حيث نزل في نزل (أوليفيت) . وقد امتدح المدينة لنظافتها وبنائها الحجري المتعدد الألوان . ولاحظ اختلاف الأزياء والاجناس بكثرة ، ووصف هذه الأزياء ، كما وصف القناع الاسود الثقيل الذي كانت تلبسه النساء .

بدأ زيارته للمدينة من باب الخليل وسوق البازار ثم وصف طريق الآلام الذي سار فيه المسيح وهم يقودونه الى الصلب وعدد مراحل حتى كنيسة القيامة ووصف هذه الكنيسة وصفا

(١) الاعلام ٦/٦٦ .

(٢) بين يدي الطبعة الثالثة من هذا الكتاب القاهرة ، ١٩٥٢ .

موجزأ. وبعدئذ وصف الحرم الشريف وقبة الصخرة وقبة السلسلة والمسجد الأقصى، وصفاً صحفياً سريعاً خالياً من الدقة. وقد وقع في كثير من الأخطاء سواء في رواية التاريخ القديم للقدس أو في رواية تاريخها الاسلامي. . . وقد ردد دون تمحيص كثيراً من المزاعم الاسطورية التي كان يجدر بكتاب حديث أن يتجاوزها. ومن الأخطاء الطريفة في سياق وصفه قبة الصخرة قوله ان الذي بناها (مروان خليفة دمشق)، وكرر ذلك في غير موضع. . . كما انه ذكر نقش تأسيس قبة الصخرة فقال إن في النقش أن مؤسسها هو هارون الرشيد. والواقع ان الاسم المكتوب هو عبد الله المأمون، بدلا من الاسم الصحيح الذي محي وهو اسم عبد الملك بن مروان. ولذلك فإننا اغفلنا معظم القسم التاريخي الذي تناول فيه محمد ثابت تاريخ القدس والحرم، واختصرنا المقتطفات الواردة منه في القسم الثاني من الكتاب.

وبعد وصف الحرم القدسي وصف محمد ثابت جدار المسجد الأقصى الغربي المعروف بحائط البراق، ووصف منظر اليهود وهم يقفون عنده في خشوع. وقال إن الحائط «مبعث نزاع متواصل بين المسلمين واليهود». واتخذ موقف الحياد بقوله: «اذ كل فريق يدعيه لمذهبه ويقدهه». وبعد ذلك توجه الرحالة المصري الى بيت لحم حيث زار كنيسة المهد او الولادة وردد ما سمعه من رهبان الكنيسة عنها وقصد اثر ذلك الى قبور الانبياء في الخليل. ثم عاد الى القدس، فزار جبل الزيتون ووصفه وصفاً يدل على انه كان خالي الذهن عن مكانة هذا الجبل عند المسلمين، والمشاهد الاسلامية فيه. . . وأخيراً قام محمد ثابت برحلة الى البحر الميت ووصفه وقدم بعض الارقام عن املاحه الغنية ووصف ماءه واقام يوماً كاملاً استمتع خلاله رغم شدة الحر. ولدى عودته عرّج على مدفن داود في مغارة تحم الأرض لا يدخلها الا المسلمون. وبعد أن تحدث عن أزقة المياه في القدس مرة أخرى استقل الاوتوبيس قاصداً يافا. . . .

انتهت فترة الانتداب البريطاني بالكارثة العظمى التي حلت بفلسطين سنة ١٩٤٨، والتي انقسمت المدينة إثرها الى شطرين بعد أن احتل الصهيونيون القسم الغربي منها. وبقيت بلدة القدس القديمة وبعض الاحياء الشمالية في حوزة العرب. واصبحت جزءاً من المملكة الاردنية الهاشمية حتى سنة ١٩٦٧، عندما وقعت الكارثة الثانية واحتل الاعداء القدس بأسرها. وفي هذه الفترة من ١٩٤٨-١٩٦٧ كان في وسع الحجاج الى بيت الله الحرام زيارة المدينة، في أثناء توجههم الى مكة او عودتهم منها. وبالفعل زار القدس العديد من هؤلاء ولكن عددهم تراجع كثيراً عن ذي قبل. ومن هؤلاء الحجاج حاج مغربي سار على سنن الحجاج والرحالة المغاربة فدوّن انطباعاته عن زيارة المدينة. وهذا الحاج الرحالة الذي نختم به حديثنا عن الرحالة العرب والمسلمين الذين ألفوا كتباً عن رحلاتهم الى القدس هو.

٤٠ - عبد السلام محمد الكويرة

وهو واعظ مغربي قام باربعة رحلات للحج الى البقاع المقدسة في الحجاز سنة ١٩٤٢، وسنة ١٩٦٢ وسنة ١٩٦٦ وسنة ١٩٦٧. وقد وصف رحلاته الاربعة هذه في كتاب له عنوان طويل

وغريب بعض الشيء هو: «رأيت بنفسي طريق مدينة الرسول في المعبر لأطراف القارات الثلاث وفي مراحل اربع». وقد صدر في تطوان بالمغرب سنة ١٩٧٧.

زار عبد السلام الكويبره القدس في رحلته الثالثة (١٩٦٦). وكان قد غادر مدينته تطوان الى سبتة بالسيارة، ثم استقل القطار الى مدريد ومنها واصل رحلته بالقطار الى الشرق عبر اسبانيا وفرنسا وايطاليا وبلغاريا الى أن وصل استانبول مساء الاحد ١٩٦٦/٣/٦. وبعد اقامة قصيرة في استانبول استقل السيارة مع وفد الحج التركي عبر تركيا الى مدينة حلب، ومنها الى دمشق. وفي ٢٤ ذي القعدة ١٣٨٥ / ١٤ / ١٩٦٦ غادر دمشق هو ومن معه من الحجاج الاتراك - قاصدين بيت المقدس فوصلوها يوم الجمعة ٢٥ ذي القعدة ١٣٨٥ (١٩٦٦/٣/١٥). وزار الرحالة المغربي المسجد الأقصى وصلى به ثم زار الصخرة وذهب الى الخليل حيث زار مراقد الأنبياء. وقد وصف في كتاب رحلته الحرم الشريف والمسجد الأقصى وقبة الصخرة وصفا أدرجناه في القسم الثاني من هذا الكتاب. ومكث عبد السلام الكويبره في القدس اربعة ايام ثم غادرها الى الاراضي المقدسة في الحجاز عن طريق البر عبر الأردن - معان فتبوك فالمدينة المنورة فمكة المشرفة.

القسم الثاني

النصوص

نصوص من كتب الرحلات
(مصدرة بوصف محمد المقدسي الوارد
في أحسن التقاسيم بمعرفة الأقاليم)

الصفحة

- (١) سفرنامه .
ناصر خسرو ١٥٥
- (٢) رحلة ابن العربي الى المشرق كما صورها قانون التأويل .
ابوبكر العربي ١٦٧
- (٣) الاشارات الى معرفة الزيارات .
علي الهروي ١٧٥
- (٤) رحلة العبدري المسماه الرحلة المغربية .
محمد العبدري ١٧٩
- (٥) تحفة النظار في غرائب الأمصار .
محمد بن بطوطة ١٨٣
- (٦) حظيرة الأنس الى حضرة القدس .
جمال الدين ابن نباته ١٨٧
- (٧) تاج المشرق في تحلية علماء المشرق .
خالد بن عيسى البلدي ١٩٣
- (٨) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب .
محمد بن احمد المقرئ ٢٠٧
- (٩) رحلة العياشي المسماة «ماء الموائد» .
عبد الله العياشي ٢٠٩
- (١٠) تحفة الادباء وسلوة الغرباء .
ابراهيم الخباري ٢١٥
- (١١) سياحتنامه .
اوليا حليبي ٢٢٣
- (١٢) الحضرة الإنسية في الرحلة القدسية .
عبد الغني النابلسي ٢٥٣
- (١٣) الحقيقة والمجاز في الرحلة الى بلاد الشام ومصر والحجاز .
عبد الغني النابلسي ٢٧٧

الصفحة	(١٤) الخمرّة المحسية في الرحلة القدسية .
٢٨٩	مصطفى البكري
	(١٥) الخطرة الثانية الانسية في الرحلة الدانية القدسية .
٢٩٧	مصطفى البكري
	(١٦) موانح الانس في رحلتي لوادي القدس .
٣٠٣	مصطفى اسعد اللقيمي
	(١٧) الروضة النعمانية في سياحة فلسطين وبعض البلاد الشامية .
٣١١	نعمان القساطلي
	(١٨) نفحة البشام في رحلة الشام .
٣٢١	عبد الجواد القاياتي
	(١٩) من مذكرات جمال الدين القاسمي - وصف رحلته الى القدس .
٣٣٣	جمال الدين القاسمي
	(٢٠) سورية والعهد العثماني .
٣٤٥	يوسف الحكيم
	(٢١) فلسطين : تاريخها وآثارها .
٣٥٩	جرجي زيدان
	(٢٢) كتاب المنفى .
٣٧٣	رشيد نخلة
	(٢٣) الرحلة الانورية الى الاصقاع الحجازية والشامية .
٣٧٧	محمد كرد علي
	(٢٤) رحلة مصري الى فلسطين ولبنان وسورية .
٣٨٣	عبد المؤمن الحكيم
	(٢٥) جولة في ربوع الشرق الأدنى .
٣٩٩	محمد ثابت
	(٢٦) رأيت بنفسي طريق مدينة الرسول
٤٠٧	عبد السلام محمد الكويرة

أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم

ابو عبد الله محمد المقدسي

تحقيق دي خويه

بريل، لندن، ١٩٠٦

(صفحة ١٦٥ - ١٧٢)

بيت المقدس ليس في مدائن الكور اكبر منها وقصبات كثيرة اصغر منها كاصطخر وقاين
والفرما^(١) لا شديدة البر وليس بها حر وقل ما يقع فيها ثلج .

سألني القاضي ابو القاسم ابن قاضي الحرمين عن الهواء بها فقلت : سَجَسَج لا حر ولا برد
شديد قال هذه صفة الجنة . بنيانهم حجر لا ترى احسن منه ، ولا اتقن من بنيانها ولا اعف من
اهلها ، ولا أطيب من العيش بها ولا انظف من اسواقها ولا اكبر من مسجدها ولا اكثر من
مشاهدها ، عنبها خطير وليس لمعنتها^(٢) نظير وفيها كل حاذق وطيب ، واليها قلب كل لبيب ولا
تخلو كل يوم من غريب . وكنت يوماً في مجلس القاضي المختار أبي يحيى بن بهرام في البصرة فجرى
ذكر مصر إلى أن سئلت اي بلد اجل قلت بلدنا قيل فأياها اطيب قلت بلدنا قيل فأياها افضل قلت
بلدنا قيل فأياها احسن قلت بلدنا قيل فأياها اكثر خيرات قلت بلدنا قيل فأياها اكبر قلت بلدنا
فتعجب اهل المجلس من ذلك . وقيل انت رجل محصل^(٣) وقد ادعيت ما لا يقبل منك وما مثلك
إلا كصاحب الناقة مع الحجاج . قلت اما قولي اجل فلانها بلدة جمعت الدنيا والآخرة فمن كان من
ابناء الدنيا واراد الآخرة وجد سوقها ومن كان من ابناء الآخرة فدعته نفسه الى نعمة الدنيا وجدها .
وأما طيب الهواء فانه لا سم ليردها ولا أذى لحرها . واما الحسن فلا ترى احسن من بنيانها ولا
انظف منها ولا انزه من مسجدها . واما كثرة الخيرات فقد جمع الله تعالى بها فواكه الاغوار والسهل
والجبال والاشياء المتضادة كالاترج واللوز والرطب والجوز والتين والموز ، واما الفضل فلانها عرصة
القيامة ، ومنها المحشر واليها المنشر ، وانما فضلت مكة والمدينة بالكعبة ، والنبي ﷺ ، ويوم القيامة
ترفان اليها فتحوى الفضل كله ، واما الكبر فالخلائق كلهم يحشرون اليها فاي ارض اوسع منها .
فاستحسنوا ذلك واقروا به الا أن لها عيوباً عدة . يقال إن في التوراة مكتوب بيت المقدس طشت
ذهب مليء عقارب ، ثم لا ترى اقذر من حماماتها ولا اقل مونة ، قليلة العلماء كثيرة النصرارى وفيهم
جفاء . على الرحبة والفنادق ضرائب ثقال . على ما يباع فيها رجالة على الابواب ، فلا يمكن احدا
ان يبيع شيئاً مما يرتفق به الناس الا بها ، مع قلة يسار . وليس للمظلوم انصار ، والمستور مهموم
والغني محسور والفقير مهجور ، والاديب غير مشهور ، لا مجلس نظر ولا تدريس قد غلب عليها
النصارى واليهود ، وخلا المسجد من الجماعات والمجالس . وهي اصغر من مكة واكبر من
المدينة . عليها حصن بعضه على جبل وعلى بقيته خندق ، ولها ثمانية ابواب حديد : باب صهيون ،
باب التيه ، باب البلاط ، باب جب ارميا ، باب سلوان ، باب اريحا ، باب العمود ، باب محراب

(١) اصطخر هي عاصمة اقليم فارس .

وقاين : مدينة بين اصفهان ونيشابور .

والفرما : بلدة في صعيد مصر (ك.ع) (ك.ع = كامل العسلي) .

(٢) المنقحة من البسر هي التي بلغ الترطيب قريبا من قمعها وبقي من لونها حوله كالحاتم فشبهه بالعتق : والبسر التمر إذا لون
ولم ينضج . (ك.ع) .

(٣) من حصل العلم فهو محصل (ك.ع) .

داود^(١). والماء بها واسع ويقال ليس ببيت المقدس امكن من الماء والأذان. قل دار ليس بها صهريج واكثر وبها ثلاث برك عظيمة بركة بني اسرائيل بركة سليمان بركة عياض^(٢) عليها حماماتهم لها دواع من الازقة. وفي المسجد عشرون جبا متبحرة. وقل حارة الا وفيها جب مسبل، غير أن مياهها من الازقة. وقد عمد الى واد فجعل بركتان يجتمع اليهما السيول في الشتاء^(٣) وشق منها قناة الى البلد^(٤) تدخل وقت الربيع فتملأ صهاريج الجامع وغيرها. واما المسجد الأقصى فهو على قرنة البلد الشرقي نحو القبلة اساسه من عمل داود طول الحجر عشرة اذرع وقل منقوشة موجهة مؤلفة صلبة وقد بنى عليه عبد الملك بحجارة صغار حسان وشرقوه. وكان احسن من جامع دمشق، لكن جاءت زلزلة في دولة بني العباس، فطرح المغطى^(٥) إلا ما حول المحراب، فلما بلغ الخليفة^(٦) خبره قيل له لا يفي برده الى ما كان بيت مال المسلمين فكتب الى امراء الأطراف وسائر القواد أن يبني كل واحد منهم رواقاً فبنوه اوثق واغلظ صناعة مما كان وبقيت تلك القطعة شامة فيه، وهي الى حد اعمدة الرخام، وما كان من الأساطين المشيدة فهو محدث. وللمغطى ستة وعشرون باباً: باب يقابل المحراب يسمى باب النحاس الأعظم مصفح بالصُّفر المذهب لا يفتح مصراعه الا رجل شديد الباع قوي الذراع عن يمينه سبعة ابواب كبار في وسطها باب مصفح مذهب، وعلى اليسار مثلهن. ومن نحو المشرق احد عشر باباً سواذج^(٧) وعلى الخمسة عشر (باباً) رواق على اعمدة رخام احده عبد الله بن طاهر^(٨). وعلى الصحن من الميمنة اروقة على اعمدة رخام واساطين. وعلى المؤخر اروق آزاج^(٩) من الحجارة. وعلى وسط المغطى جمل^(١٠) عظيم خلف قبة حسنة. والسقوف كلها، الا المؤخر، ملبسة بشقائق الرصاص، والمؤخر مرصوف بالفسيفساء الكبار. والصحن كله مبسط وسطه دكة مثل مسجد يثرب يصعد اليها من الاربع جوانب في مراق واسعة. وفي الدكة اربع قباب قبة السلسلة، قبة المعراج، قبة النبي ﷺ. وهذه الثلاث لطاف

(١) باب صهيون هو باب النبي داود اليوم.

وباب النبي هو على الاربع باب صغير في السور الغربي مقابل دير الارمن اليوم.

باب البلاط هو فيما يرجع باب الرحبة عند مجير الدين في سور المدينة الغربي قرب باب الخليل ولا وجود له اليوم. باب جب ارميا هو باب الساهرة القديم المغلق الآن. باب سلوان هو فيما يرجع باب المغاربة الآن. باب ارميا هو باب الاسباط او باب ستنا مريم الآن، باب محراب داود هو باب الخليل. انظر تعليقات لي سترانج على ترجمته للمقدسي في

(The Library of the Palestine Pilgrims' Text Society, vol. 3, notes to pp 38, 39, AMS edition, 1971).

(٢) بركة بني اسرائيل معروفة وهي جافة الآن وتقع شمالي ساحة الحرم قرب باب الساهرة. اما البركتان الأخريان فلا نعرف موقعيهما. وربما كانت احدهما هي بركة حمام البطرك بحارة النصارى. (ك.ع. = كامل العسلي).

(٣) كانت برك سليمان الثلاثة بركتين زمن المقدسي، واضيفت الثالثة لها فيما بعد، ربما في اوائل العصر العثماني. ويسميهما مجير الدين بركتي المرجع. (ك.ع.).

(٤) هي ما اصبحت تعرف باسم قناة السبيل، وتستمد مياهها من عين العروب وسواها بين القدس والخليل.

(٥) المغطى: هو الجزء الرئيسي المسقوف من المسجد الأقصى (ك.ع.).

(٦) المهدي بن منصور (١٥٨-١٦٩ / ٧٧٤-٧٨٥) (ك.ع.).

(٧) لازينة فيها.

(٨) والي المأمون على الشام ومصر.

(٩) جمع أزج، وهو البيت يبني طولاً (ك.ع.).

(١٠) هو ما يسمى بالجملون. وهو الجزء الاعلى المثلث الزوايا من جدار مكتنف بسطحين متحدين (ك.ع.).

ملبسة بالرخاص على اعمدة رخام بلا حيطان. وفي الوسط قبة الصخرة على بيت مثنى باربعة ابواب كل باب يقابل مرقة. باب القبلي، باب اسرافيل (الى الشرق) باب الصور (الى الشمال)، باب النساء يفتح الى الغرب، جميعها مذهبة. في وجه كل واحد باب ظريف من خشب التنوب^(١) مداخل حسن امرت بهن ام المقتدر بالله. وعلى كل باب صفة مرخمة بالتنوية، تطبق على الصفرية من خارج. وعلى ابواب الصفاق ابواب ايضا سواذج. داخل البيت ثلاثة اروقة لاطية^(٢) داخلها رواق آخر معجونة، اجل من الرخام واحسن، لا نظير لها قد عقدت عليها اروقة لاطية^(٣) داخلها رواق آخر مستدير على الصخرة، لا مثنى، على اعمدة معجونة بقناطر مدورة فوق هذه منطقة^(٤) متعالية في الهواء، فيها طيقان^(٥) كبار والقبة من فوق المنطقة طولها عن القاعدة الكبرى مع السفود^(٦) في الهواء مائة ذراع تُرى من البعد فوقها سفود حسن طول قامة وبسطة. والقبة على عظمها ملبسة بالصفير المذهب، وارض البيت وحيطانه مع المنطقة من داخل وخارج على ما ذكرنا من جامع دمشق. والقبة ثلاث سافات^(٧): الاولى من الواح مزوقة، والثانية من اعمدة الحديد قد شبكت لثلاث تميلها الرياح، ثم الثالثة من خشب عليها الصفائح، وفي وسطها طريق الى عند السفود يصعدها الصنّاع لتفقدوها ورّمها. فإذا بزغت الشمس اشرفت القبة وتلاّأت المنطقة ورأيت شيئاً عجيباً. وعلى الجملة لم أر في الاسلام ولا سمعت أن في الشرك مثل هذه القبة. ويدخل الى المسجد من ثلاثة عشر موضعاً بعشرين باباً: باب حطة^(٨)، بابي النبي ﷺ^(٩)، ابواب محراب مريم^(١٠)، بابي الرحمة^(١١)، باب بركة بني اسرائيل^(١٢)، ابواب الاسباط^(١٣)، ابواب الهاشميين^(١٤)، باب الوليد^(١٥)، باب ابراهيم^(١٦)، باب ام خالد^(١٧)، وفيه من المشاهد محراب مريم وزكريا

- (١) التنوب: شجر من فصيلة الصنوبريات (ك.ع).
 - (٢) منخفضة واطنة (ك.ع).
 - (٣) ما يدعى اليوم برقبة القبة (ك.ع).
 - (٤) نوافذ (ك.ع).
 - (٥) القمة العليا، الذروة وما عليها من اشكال معدنية... الخ (ك.ع).
 - (٦) طوابق او صفوف أو اقسام (ك.ع).
 - (٧) هو الآن، على ما حدّده لي سترانج، باب النبي تحت باب المغاربة (لي سترانج، فلسطين في العهد الاسلامي، الترجمة العربية ص ١٠٨ (ك.ع).
 - (٨) باب الاقصى القديم، الباب المزدوج القديم (ك.ع).
 - (٩) الباب الفردي القديم او الباب الثلاثي (ك.ع).
 - (١٠) باب الرحمة وباب التوبة (ك.ع).
 - (١١) باب الاسباط اليوم (ك.ع).
 - (١٢) باب حطة اليوم (ك.ع).
 - (١٣) باب العتم اليوم (ك.ع).
 - (١٤) باب الفوائمه (ك.ع).
 - (١٥) باب الناظر (ك.ع).
 - (١٦) باب الحديد او باب القطنين او باب المتوضأ (المطهرة) (ك.ع).
 - (١٧) باب السلام وباب السلسلة.
- [انظر لي سترانج، فلسطين في العهد الاسلامي - الترجمة العربية، محمود عمارة، عمان ١٩٧٠] (ك.ع).

ويعقوب والخضر ومقام النبي وجبرئيل وموضع النمل، والنور والكعبة والصراط متفرقة فيه . وليس على الميسرة اورقة (١) . والمغطى لا يتصل بالحائط الشرقي . ومن اجل هذا يقال لا يتم فيه صفٌ ابداً . وانما ترك هذا البعض لسببين احدهما قول عمر: اتخذوا في غربي هذا المسجد مصلى للمسلمين فتركت هذه القطعة لثلاثيخالف، والثاني انهم لومدوا المغطى الى الزاوية لم تقع الصخرة حذاء الحراب فكروها ذلك والله اعلم .

وطول المسجد الف ذراع، بذراع الملك الاشباني(٢)، وعرضه سبعمائة، وفي سقوفه من الخشب اربعة آلاف خشبة، وسبعمائة عمود رخام . وعلى السطح خمسة واربعون الف شقفة رصاص، وحجم الصخرة ثلاثة وثلاثون ذراعاً في سبعة وعشرين . والمغارة التي تحتها تسع تسعاً وستين نفساً . وكانت وظيفته في كل شهر مائة قسط(٣) زيت، وفي كل ستة ثمان مئة الف ذراع حصر . وخدمته ممالك له اقامهم عبد الملك من خمس الاسارى(٤) . ولذلك يسمون الاحماس لا يخدمه غيرهم ، ولهم نوب يحفظونها .

وسلوان محلة في ريبض المدينة تحتها عين عذيبية تسقى جنانا عظيمة اوقفها عثمان بن عفان على ضعفاء البلد تحتها بئر ايوب . ويزعمون أن ماء زمزم يزور ماء هذه العين ليلة عرفة . وادي جهنم على قرنة المسجد الى آخره قبل الشرق، فيه بساتين وكروم وكنائس ومقابر وصوامع ومقابر وعجائب ومزارع، وسطه كنيسة على قبر مريم، وشرف عليه مقابر فيها شداد بن اوس الخزرجي وعبادة بن الصامت . وجبل زيتا مطل على المسجد شرقي هذا الوادي، على رأسه مسجد لعمر نزله ايام فتح البلد وكنيسة على الموضع الذي صعد منه عيسى عليه السلام، وموضع يسمونه الساهرة، وحدثونا عن ابن عباس أن الساهرة هي ارض القيامة بيضاء لم يسفك عليها دم .

(١) الأرجح أن «على الميسرة» تعني الجانب الشرقي اي شرقي الحرم (ك.ع).

(٢) ذراع الملك حوالي ٤٥ سنتيم (بي مترانج) (ك.ع).

(٣) القسط نصف صاع (ك.ع).

(٤) الخمس الذي يأخذه الخليفة (ك.ع).

الرحلات

- ١ -

سفرنامه

كتبه باللغة الفارسية الرحالة

ناصر خسرو علوي

نقله الى العربية وقدم له وعلق عليه

الدكتور يحيى الخشاب

الطبعة الاولى - القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٣٦٤هـ - ١٩٤٥م

(ص ١٩ - ٣٧)

في الخامس من رمضان سنة ٤٣٨ (١٦ مارس ١٠٤٧) بلغنا بيت القدس . وكان قد مضى على خروجنا من بلدنا سنة شمسية ، وطوال رحلتنا لم نقر في مكان قط ولا وجدنا راحة كاملة . وأهل الشام وأطرافها يسمون بيت المقدس «القدس» . ويذهب إلى القدس في موسم الحج من لا يستطيع الذهاب إلى مكة من أهل هذه الولايات ، فيتوجه إلى الموقف ويضحي ضحية العيد كما هي العادة . ويحضر هناك لتأدية السنة ، في بعض السنين ، أكثر من عشرين ألف شخص ، في أوائل ذي الحجة ، ومعهم أبناؤهم . كذلك يأتي لزيارة بيت المقدس ، من ديار الروم ، كثير من النصارى واليهود ، وذلك لزيارة الكنيسة والكنائس هناك . وهناك كنيسة عظيمة سيأتي وصفها في مكانه . وسواد ورساتيق بيت المقدس جبلية كلها ، والزراعة وأشجار الزيتون والتين وغيرها تنبت كلها بغير ماء والخيرات بها كثيرة ورخيصة . وفيها أرباب عائلات يملك الواحد منهم خمسين ألف من زيت الزيتون يحفظونها في الآبار والأحواض ، ويصدرونها إلى أطراف العالم . ويقال إنه لا يحدث قحط في بلاد الشام . وسمعت من ثقات أن ولياً رأى النبي عليه السلام في المنام فقال له : «ساعدنا في معاشنا يا رسول الله» فأجابه النبي عليه السلام : «على خبز الشام وزيته» .
والآن أصف مدينة بيت المقدس .

وصف بيت المقدس :

هي مدينة مشيدة على قمة الجبل ، ليس بها ماء غير الأمطار ورساتيقها ذات عيون . وأما المدينة فليس بها عين فإنها على رأس صخر . وهي مدينة كبيرة كان بها ، في ذلك الوقت ، عشرون ألف رجل ، وبها أسواق جميلة وأبنية عالية ، وكل أرضها مبلطة بالحجارة ، وقد سوا الجهات الجبلية والمرتفعات ، وجعلوها مسطحة . بحيث تغسل الأرض كلها وتنظف حيث تنزل الأمطار . وفي المدينة صناعات كثيرة ، لكل جماعة منهم سوق خاصة . والجامع شرقي المدينة وسوره هو سورها الشرقي . وبعد الجامع سهل كبير مستوي يسمى «الساهرة» يقال إنه سيكون ساحة القيامة والحشر ، ولهذا يحضر إليه خلق كثير من أطراف العالم ويقومون به حتى يموتوا فإذا جاء وعد الله كانوا بأرض الميعاد . اللهم عفوك ورحمتك بعبيدك ذلك اليوم يا رب العالمين . وعلى حافة هذا السهل قرافة عظيمة ، ومقابر كثير من الصالحين ، يصل بها الناس ويرفعون بالدعاء أيديهم فيقضى الله حاجاتهم ، اللهم تقبل حاجاتنا واغفر ذنوبنا وسيئاتنا وارحنا برحمتك يا أرحم الرحمن . وبين الجامع وسهل الساهرة واد عظيم الانخفاض كأنه خندق وبه أبنية كثيرة على نسق أبنية الأقدمين ورأيت قبة من الحجر المنحوت مقامة على بيت لم أر أعجب منها ، حتى إن الناظر إليها ليسأل نفسه كيف رفعت في مكانها؟ ويقول العامة إنها بيت فرعون . واسم هذا الوادي «وادي جهنم» . وقد سألت عمن أطلق هذا اللقب عليه فقيل إن عمر رضي الله عنه أنزل جيشه أيام خلافته في سهل الساهرة هذا ، فلما رأى الوادي قال هذا وادي جهنم . ويقول العوام إن من يذهب إلى نهايته يسمع صياح أهل جهنم ، فإن الصدى يرتفع من هناك ، وقد ذهبت فلم أسمع شيئاً . وحين يسير السائر من المدينة ، جنوباً ، مسافة نصف فرسخ ، وينزل المنحدر ، يجد عين ماء

تتبع من الصخر، تسمى عين سلوان. وقد أقيمت عندها عمارات كثيرة. ويعر ماء هذه العين بقرية شييدوا فيها عمارات كثيرة وغرسوا بها البساتين. ويقال إن من يستحم من ماء هذه العين يشفى مما ألم به من الأوصاب والأمراض المزمنة. وقد وقفوا عليها مالا كثيرا. وفي بيت المقدس مستشفى عظيم عليه أوقاف طائلة ويصرف لمرضاة العديدين العلاج والدواء وبه أطباء يأخذون مرتباتهم من الوقف. وهذا المستشفى ومسجد الجمعة يقعان على حافة وادي جهنم. وحين ينظر السائر من خارج المسجد يرى الحائط المطل على هذا الوادي يرتفع مائة ذراع من الحجر الكبير الذي لا يفصله عن بعضه ملاط أو جص. والحوائط، داخل المسجد، ذات ارتفاع مستو. وقد بنى المسجد في هذا المكان لوجود «الصخرة» به. وهي الصخرة التي أمر الله عز وجل موسى عليه السلام أن يتخذها قبلة. فلما قضى هذا الأمر، واتخذها موسى قبلة له، لم يعمر كثيرا، بل عجلت به النية؛ حتى إذا كانت أيام سليمان عليه السلام، وكانت الصخرة قبلة بنى مسجدا حولها بحيث أصبحت في وسطه وظلت الصخرة قبلة حتى عهد نبينا المصطفى عليه السلام فكان المصلون يولون وجوههم شطرها، إلى أن أمرهم الله تعالى أن يولوا وجوههم شطر الكعبة وسيأتي وصف ذلك في مكانه.

وقد أردت أن أقيس هذا المسجد، ولكنني آثرت أن أتقن معرفة هيئاته ووضعه أولا ثم أقيسه، فلبثت فيه زمنا أمعن النظر، فرأيت عند الجانب الشمالي، بجوار قبة يعقوب عليه السلام طاقا مكتوبا على حجر منه إن طول هذا المسجد أربع وخمسون وسبعمائة ذراع وعرضه خمس وخمسون وأربعمائة ذراع، وذلك «بذراع الملك»، المسمى في خراسان «كزشايكان»، وهو أقل قليلا من ذراع ونصف^(١). وأرض المسجد مغطاه بحجارة موثوقة إلى بعضها بالرصاص، والمسجد شرقي المدينة والسوق، فاذا دخله السائر من السوق فإنه يتجه شرقا، فيرى رواقا عظيما جيلا ارتفاعه ثلاثون ذراعا وعرضه عشرون وللرواق جناحان وواجهتاها وإيوانه منقوشة كلها بالفسيفساء المثبتة بالجص على الصورة التي يريدونها وهي من الدقة بحيث تبهر النظر. ويرى على هذا الرواق كتابة منقوشة بالمينا، وقد كتب هناك لقب سلطان مصر، فحين تقع الشمس على هذه النقوش يكون لها من الشعاع ما يحير الأبواب. وفوق الرواق قبة كبيرة من الحجر المصقول، وله بابان مزخرفان وواجهتاها من النحاس الدمشقي الذي يللمع حتى لتظن أنها طليا بالذهب، وقد طعما بالذهب وحليا بالنقوش الكثيرة وطول كل منها خمس عشرة ذراعا وعرضه ثمان، ويسميان باب داود عليه السلام. وحين يجتاز السائر هذا الباب، يجد على اليمين رواقين كبيرين في كل منهما تسعة وعشرون عمودا من الرخام، تيجانها وقواعدها مزينة بالرخام الملون ووصلاتها مثبتة بالرصاص. وعلى تيجان الأعمدة طيقان^(٢) حجرية وهي مقامه فوق بعضها بغير ملاط وجص ولا

(١) يقول شيفر (ص ٧٢) إن قنصل فرنسا في القدس أرسل إليه حوالي سنة ١٨٨١ النص المكتوب على الجامع وهو: طول المسجد سبع مائة وأربع وخمسين ذراع وعرضه أربع مائة وخمس وخمسين ذراع بذراع الملك.

(٢) أفواس.

يزيد عدد حجارة الطاق منها على أربع أو خمس قطع ، وهذان الرواقان ممتدان إلى المقصورة (١). ثم يجد على اليسار وهو ناحية الشمال ، رواقا طويلا به أربعة وستون طاقا كلها على تيجان أعمدة من رخام . وعلى هذا الحائط نفسه باب آخر اسمه «باب السقر»؟ (٢) وطول المسجد من الشمال إلى الجنوب . وهو ساحة مربعة إذا اقتطعت المقصورة منه . والقبلة في الجنوب . وعلى الجانب الشمالي بابان آخران متجاوران عرض كل منهما سبع أذرع وارتفاعه اثنتى عشرة ذراعا ، ويسميان «باب الأسباط» (٣) . فإذا اجتازه السائر ، وذهب مع عرض المسجد الذي هو جهة المشرق يجد رواقا عظيما كبيرا به ثلاثة أبواب متجاورة ، في حجم «باب الأسباط» ، وكلها مزينة بزخارف من الحديد والنحاس ، قل ما هو أجمل منها تسمى «باب الأبواب» (٤) لأن للمواضع الأخرى باين وله ثلاثة . وبين هذين الرواقين الواقعين على الجانب الشمالي ، في الرواق ذي الطيقان المحملة على أعمدة الرخام ، قبة رفعت على دعائم عالية ، وزينت بالقناديل والمسارج ، تسمى قبة يعقوب عليه السلام ، لأنه كان يصلى هناك . وفي عرض المسجد رواق في حائطه باب (٥) خارجه صومعتان للصوفية . وهناك مصليات ومحاريب جميلة يقيم بها جماعة منهم ويصلون ولا يذهبون للجامع إلا يوم الجمعة لأنهم لا يسمعون التكبير حيث يقيمون .

وعند الركن الشمالي للمسجد رواق جميل ، وقبة جميلة لطيفة مكتوب عليها : «هذا محراب زكريا النبي عليه السلام» ، ويقال إنه كان يصلي هناك . وعند الحائط الشرقي ، وسط الجامع ، رواق عظيم الزخرف من الحجر المصقول ، حتى لتظن أنه نحت من قطعة واحدة ، ارتفاعه خمسون ذراعا وعرضه ثلاثون ، عليه نقوش ونقر ، وله بابان جميلان لا يفصلهما أكثر من قدم واحدة ، وعليهما زخارف كثيرة من الحديد والنحاس الدمشقي وقد دق عليهما الحلق والمسامير . ويقال إن سليمان بن داود عليه السلام بنى هذا الرواق لأبيه .

وحين يدخل السائر هذا الرواق متجهاً ناحية الشرق ، فالأيمن من هذين البابين هو «باب الرحمة» والأيسر «باب التوبة» . ويقال إن هذا الباب هو الذي قبل الله تعالى عنده توبة داود عليه السلام . وعلى هذا الرواق مسجد جميل كان في وقت ما دهليزاً فصيره جامعاً وزينه بأنواع السجاد ، وله خدم مخصوصون ، ويذهب إليه كثير من الناس ، ويصلون فيه ويدعون الله تبارك وتعالى ، فإنه في هذا المكان قبل توبة داود ، وكل إنسان هناك يأمل في التوبة والرجوع عن المعاصي . ويقال إن داود عليه السلام لم يكذباً عبثاً هذا المسجد ، حتى بشره الوحي بأن الله سبحانه وتعالى قد قبل توبته ، فاتخذ هذا المكان مقاما وانصرف إلى العبادة . وقد صليت ، أنا

(١) المقصود البناء الرئيسي للمسجد الأقصى (ك.ع).

(٢) وهو باب الناظر اليوم (ك.ع).

(٣) باب حطة اليوم (ك.ع).

(٤) باب الأسباط اليوم (ك.ع).

(٥) هو باب العتم أو باب فيصل اليوم . وكان قبل القرن الخامس الهجري يسمى «الأبواب الهاشمية» كما كان يسمى زمن

المالِك باب الدوادية (ك.ع).

ناصر، في هذا المقام، ودعوت الله تعالى أن يوفقتي لطاعته، وأن يغفر ذنبي . الله سبحانه وتعالى يهدي عباده جميعاً لما يرضاه، ويغفر لهم ذنوبهم، بحق محمد وآله الطاهرين .

وحين يمضي السائر بحذاء الجدار الشرقي إلى أن يبلغ الزاوية الجنوبية، عند القبلة التي تقع على الضلع الجنوبي، يجد، أمام الحائط الشمالي^(١)، مسجداً بهيئة السرداب ينزل إليه بدرجات كثيرة مساحته عشرون ذراعاً في خمس عشرة، وسقفه من الحجر مرفوع على أعمدة الرخام . وبهذا السرداب مهد عيسى عليه السلام، وهو من الحجر، حجمه كبير بحيث يصلي عليه الناس . وقد صليت هناك . وقد أحكم وضعه في الأرض حتى لا يتحرك . وهو المهد الذي أمضى فيه عيسى طفولته وكلم الناس منه، وهو في المسجد مكان المحراب . وفي الجانب الشرقي من هذا المسجد محراب مريم عليها السلام . وبه محراب آخر لذكريا عليه السلام . وعلى هذين المحرابين آيات القرآن التي نزلت في حق ذكريا ومريم . ويقال إن عيسى عليه السلام ولد بهذا المسجد . وعلى حجر من عمده نقش إصبعين كأن شخصا أمسكه . ويقال إن مريم أمسكته بإصبعيها وهي تلد . ويعرف هذا المسجد «بمهد عيسى» عليه السلام . وبه قناديل كثيرة من النحاس والفضة، وتوجد كل مساء .

حين يخرج السائر من هذا المسجد، متبعاً الحائط الشرقي^(٢)، يجد عندما يبلغ زاوية المسجد الكبير مسجداً عظيماً جداً، أكبر مرتين من مسجد «مهد عيسى» يسمى «المسجد الأقصى» وهو الذي أسرى الله عز وجل بالمصطفى ﷺ، ليلة المعراج من مكة إليه، ومنه صعد إلى السماء، كما جاء في القرآن: وقد بناوا به أبنية غاية في الزخرف، وفرش بالسجاد الفاخر، ويقوم عليه خدم مخصوصون يعملون به دواما .

[وحين يعود السائر إلى الحائط الجنوبي، على مائتي ذراع من تلك الزاوية، يجد سقفاً، وهناك ساحة المسجد]^(٣)، وأما الجزء المسقوف من المسجد الكبير، والذي به المقصورة، فيقع عند الحائطين الجنوبي والغربي . وطول هذا الجزء عشرون وأربعمئة ذراع وعرضه خمسون ومائة ذراع، وبه ثمانون ومائتا عمود من الرخام، على تيجانها طيقان من الحجارة وقد نقشت تيجان الأعمدة وهياكلها، وثبتت الوصلات فيها بالرصاص في منتهى الإحكام . وبين كل عمودين ست أذرع مغطاة بالرخام الملون الملبس بشقائق الرصاص . والمقصورة في وسط الحائط الجنوبي، وهي كبيرة جداً تتسع لستة عشر عموداً، وعليها قبة عظيمة جداً منقوشة بالمينا على نسق ما وصفت . وهي مفروشة بالحصير المغربي، وبها قناديل ومسارج معلقة بالسلاسل ومتباعد بعضها عن بعض . وبها محراب كبير منقوش بالمينا، وعلى جانبيه عمودان من الرخام لونهما كالعقيق الأحمر، وإزار المقصورة

(١) يبدو أن هناك خطأ في الترجمة هنا . بدلا من «أمام الحائط الشمالي» يكتب: «شمال السور (أي السور الجنوبي) (ك.ع) .

(٢) يبدو أن هناك غموضاً في الترجمة نوضحه بالرجوع إلى ترجمة (لي سترايج) إلى الإنجليزية: فبدلاً من: «متبعاً الحائط الشرقي» يكتب: «قرب زاوية السور الشرقي (أي الزاوية الجنوبية الشرقية للحرم) (ك.ع) .

(٣) بدلا من العبارة بين قوسين يكتب: «ومن الزاوية (الجنوبية الشرقية) وعلى طول السور الجنوبي (للحرم) ولسافة حوالي ٢٠٠ ذراع ليس هناك بناء، وهذا جزء من ساحة الحرم (ك.ع) .

كله من الرخام الملون . وعلى يمينه محراب معاوية ، وعلى يساره محراب عمر رضي الله عنه . وسقف هذا المسجد مغطى بالخشب المنقوش المحلى بالزخارف . وعلى باب المقصورة وحائطها المظللان على الساحة خمسة عشر رواقا ، عليها أبواب مزخرفة ارتفاع كل منها عشرة أذرع وعرضه ست . عشرة من هذه الأبواب تفتح على الجدار (الشرقي)^(١) الذي طوله عشرون وأربعمائة ذراع ، وخمسة منها على الجدار (الشمالي)^(٢) الذي طوله خمسون ومائة ذراع . وقد زين باب منها غاية الزينة ، وهو من الحسن بحيث تظن أنه من ذهب ، وقد نقش بالفضة وكتب عليه اسم الخليفة المأمون ، ويقال إنه هو الذي أرسله من بغداد . وحين تفتح الأبواب كلها ينير المسجد حتى لتظن أنه ساحة مكشوفة . أما حين تعصف الرياح وتمطر السماء وتغلق الأبواب ، فإن النور ينبعث للمسجد من الكوات . وعلى الجوانب الأربعة من الحرم المسقوف صناديق من مدن الشام والعراق ، يجلس بجانبها المجاورون ، كما هو الحال في المسجد الحرام بمكة شرفها الله تعالى .

وخارج هذا الحرم ، عند الحائط الكبير (الجنوبي)^(٣) الذي مر ذكره ، رواق به اثنان وأربعون طاقا ، وكل أعمدته من الرخام الملون ، وهذا الرواق متصل بالرواق الغربي . وتحت الأرض في الحرم المسقوف حوض جعل بحيث يكون في مستوى الأرض حين يغطي . وقد بنى لتجمع فيه مياه المطر . وعلى الحائط الجنوبي باب يؤدي إلى ميضأة ، يذهب إليها من يحتاج إلى الوضوء فيجده ، وذلك لأنه لا يلحق الصلاة إذا هو خرج من المسجد ليتوضأ ، إذ أن كبر المسجد يفوت عليه الصلاة ، إذا اجتازه . وكل الأسقف ملبسة بالرخاصص .

وقد حفرت في أرض المسجد أحواض وصهاريج كثيرة ، فإن المسجد مشيد كله على صخرة ، يتجمع فيها ماء المطر ، فلا تضيع منه قطرة ، ويستفح به الناس . وهناك ميازيب من الرصاص ينزل منها الماء إلى أحواض حجرية تحتها ، وقد ثقت هذه الأحواض ليخرج منها الماء ويصب في الصهاريج ، بواسطة قنوات بينها ، غير ملوث أو عفن . وقد رأيت على ثلاثة فراسخ من المدينة صهريجاً كبيراً تنحدر إليه المياه من الجبل وتتجمع فيه ، وقد أوصلوه بقناة إلى المسجد ، حيث يوجد أكبر مقدار من مياه المدينة . وفي المنازل كلها أحواض لجمع ماء المطر ، إذ لا يوجد غيره هناك ، ويجمع كل إنسان ما على سطح بيته من مياه ، فإن المطر هو الذي يستعمل في الحمامات وغيرها .

والأحواض التي بالمسجد لا تحتاج إلى عمارة أبداً ، لأنها من الحجر الصلب ، فإذا حدث بها شق أو ثقب أحكم إصلاحه حتى لا تتخرب . ويقال إن سليمان عليه السلام هو الذي عمل هذه الأحواض . وقد جعل القسم الأعلى منها على هيئة التنور ، وعلى رأس كل حوض غطاء من حجر حتى لا يسقط فيه شيء . وماء هذه المدينة أعذب وأنقى من أي ماء آخر . والميازيب تستمر في قطر المياه يومين أو ثلاثة ولو كان المطر قليلاً ، إلى أن يصفو الجو وتزول آثاره السيئة ، وحينئذ يبدأ المطر!

(١) و(٢) و(٣) الكلمة بين قوسين إضافة للإيضاح منا ، (ك.ع.) .

قلت إن مدينة بيت المقدس تقع على قمة جبل وإن أرضها غير مستوية . أما المسجد فأرضه مستوية ، فخارج المسجد ، حيثما تكون الأرض منخفضة يرتفع حائطه ، إذ يكون أساسه في أرض واطئة ، وحيثما تكون الأرض مرتفعة يقصر الجدار . وفي الجهات الواطئة من أحياء المدينة فتحوا في المسجد أبواباً كأنها نقب ، تؤدي لساحته . ومن هذه الأبواب باب يسمى «باب النبي»^(١) عليه الصلاة والسلام ، وهو بجانب القبلة ، أي في الجنوب ، وقد عمل بحيث يكون عرضه عشرة أذرع وأما ارتفاعه فيتفاوت حسب المكان ، فهو في مكان خمس أذرع ، أي علو سقف هذا المر ، وفي مكان آخر عشرون . والجزء المسقوف من المسجد الأقصى مشيد فوق هذا المر وهو محكم بحيث يتحمل أن يقام فوقه بناء بهذه العظمة من غير أن يؤثر فيه قط . وقد استخدمت في بنائه حجارة لا يصدق العقل كيف استطاعت قوة البشر نقلها واستخدامها . ويقال إن سليمان بن داود عليه السلام هو الذي بناه . وقد دخل منه نبينا عليه الصلوات والسلام إلى المسجد ليلة المعراج . وهذا الباب على جانب طريق مكة .

وعلى الحائط ، بقرب هذا الباب ، نقش لمجن كبير . يقال إن حمزة بن عبد المطلب عم النبي عليه السلام كان جالساً هناك وعلى كتفه المجن وظهره مسند إلى الحائط ، وأن هذا نقش مجنه . وعند بوابة المسجد حيث هذا المر الذي عليه باب ذو مصرعين ، يبلغ ارتفاع الجدار من الخارج ما يقرب من خمسين ذراعاً . وقد قصد بهذا الباب أن يدخل منه سكان المحلة المجاورة لهذا الضلع من المسجد ، فلا يلجأون إلى الذهاب لمحلة أخرى حين يريدون دخوله . وعلى الحائط الذي يقع يمين الباب حجر ارتفاعه خمس عشرة ذراعاً وعرضه أربع أذرع وليس في المسجد حجر أكبر منه . وفي الحائط ، على ارتفاع ثلاثين أو أربعين ذراعاً من الأرض كثير من الحجارة التي يبلغ حجمها أربع أذرع في خمس .

وفي عرض المسجد باب شرقي ، يسمى «باب العين»^(*) يقال إنه هو الباب الذي أمر الله عز وجل بني إسرائيل أن يدخلوا منه إلى المسجد ، قوله تعالى : «وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين»^(٢) .

وهناك باب آخر يسمونه «باب السكينة» ، في دهليزه مسجد به محاريب كثيرة ، باب أولها مغلق حتى لا يلجحه أحد . ويقال إن هناك تابوت «السكينة» الذي ذكره الله تبارك وتعالى في القرآن والذي حمله الملائكة^(٣) . وأبواب بيت المقدس ، ما تحت الأرض وما فوقها تسعة أبواب ، كما ذكرت .

(١) يدعى اليوم باب الأقصى القديم ، وهو الباب المزودج عند القدماء .

(*) هو الباب المفرد أو الثلاثي عند القدماء ، وهو في سور الحرم الجنوبي . أما باب الحطة فيدعى اليوم باب النبي وهو تحت باب المغاربة (ك . ع) .

(٢) سورة البقرة آية ٥٨ .

(٣) إشارة إلى قوله تعالى «وقال لهم نبيهم إن آية ملكية أن يأتيكم التابوت فيه سكينه من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون تحمله الملائكة إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين» (البقرة ٢٤٨) ، وباب السكينة هو باب السلام أو باب السكينة اليوم ، وهو الباب التوأم لباب السلسلة (ك . ع) .

وصف الدكة التي^(١) بوسط ساحة المسجد والصخرة التي كانت قبلة قبل الاسلام:
أقيمت هذه الدكة في وسط الساحة، لأنه لم يتيسر نقل الصخرة إلى الجزء المسقوف من
المسجد لعلوها. وهي تظل مساحة من الأرض مقدارها ثلاثون وثلاثمائة ذراع في ثلاثمائة
وارتفاعها اثنتي عشرة ذراعاً. وصحنها مستو، ومزخرف بالرخام الملبس بوصلات الرصاص.
وعلى جوانبها الأربعة ألواح الرخام، كما يعمل في المقابر وهي مبنية بحيث لا يستطيع أحد الصعود
عليها من غير المراقي المخصصة لهذا الأمر، ويرى من يصعد عليها سقف الجامع. وقد حفر في
أرضها، في الوسط، حوض يصب فيه مياه المطر بواسطة قنوات أعدت لذلك. وماء هذا الحوض
أنقى وأعذب من كل ماء في الجامع. وعلى هذه الدكة أربع قباب، أكبرها قبة الصخرة التي كانت
القبلة.

وصف قبة الصخرة:

بني المسجد بحيث تكون الدكة في وسط الساحة، وقبة الصخرة في وسط الدكة والصخرة
وسط القبة، وقبة الصخرة بيت مثنى منظم، كل ضلع من اضلاعه الثمانية ثلاث وثلاثون ذراعاً
وله أربعة أبواب، على الجهات الأربع الأصلية، باب شرقي وآخر غربي وثالث شمالي ورابع
جنوبي، وبين كل باين ضلع. وجميع الحوائط من الحجر المنحوت، وارتفاعها عشرون ذراعاً.
ومحيط الصخرة مائة ذراع، وهي غير منتظمة الشكل، لا هي مدورة ولا مربعة، ولكنها
حجر غير منظم كحجارة الجبل. وقد بنوا على جوانب الصخرة الأربعة أربع دعائم مربعة،
بارتفاع حائط الدكة المذكورة. وبين كل دعامتين، على الجوانب الأربعة، عمودان إسطوانيان من
الرخام، بنفس الارتفاع. وعلى قمة تلك الدعائم وهذه الأعمدة الاثني عشر، بنوا القبة التي تحتها
الصخرة، والتي يبلغ محيطها مائة وعشرين ذراعاً.

وبين حائط هذا البناء والدعائم والأعمدة (أسمى المربعة المبنية «ستون» دعامة والمنحوتة
المستديرة التي من حجر واحد «اسطوانة» عموداً) ثمان دعائم أخرى مبنية من الحجارة
المنحوتة^(٢). وبين كل اثنتين منها ثلاثة أعمدة من الرخام الملون على أبعاد متساوية، بحيث يكون
في الصف الأول عمودان بين كل دعامتين، ويكون هنا ثلاثة أعمدة بين كل دعامتين. وعلى تاج
كل دعامة أربعة عقود، على كل عقد طاق، وعلى كل عمود عقدان فوق كل منها طاق. وهكذا
يكون على العمود متكاً لطاقين، وعلى الدعامة متكاً لأربعة، فكانت هذه القبة العظيمة في ذلك
الوقت مرتكزة على هذه الدعائم الاثنتي عشرة المحيطة بالصخرة، فتراها على بعد فرسخ كأنها
قمة جبل. لأنها من أساسها إلى قمته ثلاثون ذراعاً، وهي تستند إلى أعمدة ودعامات ارتفاعها
عشرون ذراعاً، وقبة الصخرة مشيدة على بيت ارتفاعه اثنتي عشرة ذراعاً، وإذا فمن ساحة المسجد
إلى رأس القبة اثنتان وستون ذراعاً.

(١) في النص الفارسي الدكان. ويسميه المقدسي الدكة فأثرنا لفظ المقدسي.

(٢) في النص ست دعائم وقد صححها شيفر إلى ثمان في صفحة ٩٠ للملحوظة الأولى، مستنداً إلى ما جاء في النص من اثنتي

عشرة دعامة وإلى اللوحة ١٨ من De Vogue, Le Temple de Jerusalem

وأسقف وقباب هذه الدكة مكسوة بالحجارة. وكذلك الدعائم والعمد والحوائط وذلك بدقة قل نظيرها. والصخرة أعلى من الأرض بمقدار قامة رجل، وقد أحيطت بسياج من الرخام حتى لا تصل يد إليها.

والصخرة حجر أزرق لونه، لم يطأها أحد برجله أبداً، وفي ناحيتها المواجهة للقبلة انخفاض، كأن إنساناً سار عليها فبدت آثار أصابع قدميه فيها، كما تبدو على الطين الطري. وقد بقيت عليها آثار سبع أقدام. وسمعت أن ابراهيم عليه السلام كان هناك، وكان إسماعيل طفلاً فمشى عليها وهذه هي آثار أقدامه. ويقام في بيت الصخرة جماعة من المجاورين والعايدين، وقد زينت أرضه بالسجاد الجميل من الحرير وغيره. وفي وسطه قنديل من الفضة، معلق بسلسلة فضية فوق الصخرة. هناك قناديل كثيرة من فضة، كتب عليها وزنها، أمر بصنعها سلطان مصر. وقد قدرت ما هناك من الفضة بألف من.

ورأيت هناك أيضاً شمعة كبيرة جداً طولها سبع أذرع وقطرها ثلاثة أشبار، لونها كالكاפור الزباجي وشمعها مخلوط بالعنبر. ويقال إن سلطان مصر يرسل هناك كل سنة كثيراً من الشمع، منه هذه الشمعة الكبيرة، ويكتب عليها اسمه بالذهب.

وهذا المسجد هو ثالث بيوت الله سبحانه وتعالى، والمعروف عند العلماء أن كل صلاة في بيت المقدس تساوي خمسة وعشرين ألف صلاة، وكل صلاة في مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام تعد بخمسين ألف صلاة، وإن صلاة مكة المعظمة شرفها الله تعالى تساوي مائة ألف صلاة. وفق الله عز وجل عباده جميعاً لهذا الثواب.

وقد قلت إن أسقف وظهور القباب ملبسة بالرخام، وعلى جوانب الدكة الأربعة أبواب كبيرة ذات مصراعين من خشب الساج وهي مقفلة دائماً. وبعد قبة الصخرة قبة تسمى «قبة السلسلة» وهي السلسلة التي علقها داود عليه السلام، والتي لا تصل إليها إلا يد صاحب الحق، أما يد الظالم والغاصب فلا تبلغها. وهذا المعنى مشهور عند العلماء. وهذه القبة محمولة على رأس ثمانية أعمدة من الرخام، وست دعائم من الحجر. وهي مفتوحة من جميع الجوانب عدا جانب القبلة، فهو مسدود حتى نهايته، وقد نصب عليه محراب جميل.

وعلى الدكة نفسها قبة أخرى مقامة على أربعة أعمدة من الرخام، وهي مغلقة من ناحية القبلة أيضاً حيث بنى محراب جميل. وتسمى هذه القبة «قبة جبريل» عليه السلام. وليس فيها فرش بل إن أرضها من حجر مستو. ويقال إن هناك أعد «البراق» ليركبه النبي عليه السلام ليلة المعراج.

وبعد «قبة جبريل» (*) تأتي «قبة الرسول» عليه الصلاة والسلام وبينهما عشرون ذراعاً. وهي مقامة على أربعة أعمدة من الرخام أيضاً^(١). ويقال إن الرسول عليه الصلاة والسلام صلى ليلة المعراج، في قبة الصخرة أولاً ثم وضع يده على الصخرة، فلما خرج وقفت لجلالته، فوضع

(*) لا يذكرها المقدسي (ك.ع.)

(١) يستعمل هنا كلمة ستون مكان أسطوانة، وهو يقصد بالأولى الدعامة وبالثانية العمود ص ٤٣ ملاحظات غني زاده (٧).

الرسول عليه الصلاة والسلام يده عليها لتعود إلى مكانها وتستقر وهي بعد نصف معلقة . وقد ذهب الرسول عليه السلام من هناك إلى القبة التي تنتسب إليه وركب البراق، وهذا سبب تعظيمها .

وتحت الصخرة غار كبير، يضاء دائماً بالشمع . ويقال إنه حين قامت الصخرة خلا ما تحتها، فلما استقرت بقي هذا الجزء كما كان .

وصف المراقى المؤدية الى الدكة التي بساحة الجامع .

يسار إلى هذه الدكة من ستة مواضع : لكل منها اسم ، فبجانب القبة طريقتان ، يصعد فيهما على درجات ، فإذا وقفت في وسط الدكة وجدت أحدهما على اليمين ، والثاني على اليسار . والذي على اليمين يسمى مقام النبي عليه السلام ، والذي على اليسار يسمى مقام الغوري . وسمي الأول مقام النبي لأن النبي عليه الصلاة والسلام صعد على درجاته إلى الدكة ليلة المعراج ، ودخل إلى قبة الصخرة . ويقع طريق الحجاز على هذا الجانب . وعرض درجاته عشرون ذراعاً ، وهي من الحجر المنحوت المنتظم ، وكل درجة قطعة أو قطعتان من الحجر المربع ، وهي معدة بحيث يستطيع الزائر الصعود عليها ركباً . وعلى قمة هذه الدرجات أربعة أعمدة من الرخام الأخضر الذي يشبه الزمرد ، لولا أن به نقطاً كثيرة من كل لون ، وبلغ ارتفاع كل عمود منها عشرة أذرع ، وقطره بقدر ما يحتضن رجلان . وعلى رأس هذه الأعمدة الأربعة ثلاثة طيقان ، أحدهما مقابل للباب والآخرا على جانبيه ، وسطح الطيقان أفقي ، من فوقه شرفات بحيث يبدو مربعاً ، والعمد والطيقان منقوشة كلها بالذهب والمينا ، ليس أجمل منها . ودرابزين الدكة كله من الرخام الأخضر المنقط ، حتى لتقول إن عليه روضة ورد ناضر .

وقد أعد مقام الغوري بحيث تكون ثلاثة سلام على موضع واحد ، أحدهما محاذ للدكة والآخرا على جانبيها ، حتى يستطيع الصعود من ثلاثة أماكن . ومن فوق هذه السلام الثلاثة أعمدة عليها طيقان وشرفة . والدرجات بالوصف الذي ذكرت من الحجر المنحوت ، كل درجة قطعتان أو ثلاث من الحجر المستطيل . وكتب بخط جميل بالذهب على ظهر الطاق : أمر به الأمير لئس الدولة نوستكين الغوري . ويقال إنه كان تابعاً لسلطان مصر ، وهو الذي أنشأ هذه الطرق والمراقى (١) .

وعلى الجانب الغربي للدكة سلمان في ناحيتين منها ، وهناك طريق عظيم مشابه لما ذكرت . وكذلك في الجانب الشرقي طريق عظيم مماثل ، عليه أعمدة فوقها طيقان وشرفة يسمى المقام الشرقي .

(١) هو الأمير أبو منصور أنوشكين أمير الجيوش وحاكم سوريا من قبل الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله ، وأصله من ختن . كان عبداً لضابط في الديلم اسمه دزبر بن أوسيم . وقد خلف أبا قطاع الهمداني على دمشق سنة ٤١٩ (١٠٢٨) . واضطر إلى الفرار منها على أثر ثورة في سنة ٤٣٣ (١٠٤١) وهاجر إلى حلب حيث مات بعد ثلاثة أشهر . انظر Schefer ص ٩٧ الذي نقل عن مخطوط في مكتبته لصالح الدين خليل بن ابيك الصفدي في تاريخ الخلفاء والأمراء والولاة الذين حكموا دمشق ، الورقة ١٣٧ .

وعلى الجانب الشمالي طريق أكثر علواً وأكبر منها كلها، به أعمدة فوقها طيقان، يسمى المقام الشامي. وأظن أنهم صرفوا على هذه الطرق الستة مائة ألف دينار. وفي الجانب الشمالي لساحة المسجد، لا على الدكة، بناء كأنه مسجد صغير، يشبه الحظيرة. وهو من الحجر المنحوت، يزيد ارتفاع حوائطه على قامة رجل ويسمى «محراب داود»، وبالقرب منه حجر غير مستوي يبلغ قامة رجل، وقمته تتيح وضع حصيرة صلاة صغيرة عليها^(١). ويقال إنه كرسي سليمان عليه السلام الذي كان يجلس عليه أثناء بناء المسجد.

هذا ما رأيت في جامع بيت المقدس. قد صورته وضممته إلى مذاكراتي^(٢)، ومن النوادر التي رأيتها في بيت المقدس شجرة الحور.

وبعد الفراغ من زيارة بيت المقدس عازمت على زيارة مشهد إبراهيم خليل الرحمن عليه الصلاة والسلام، في يوم الأربعاء ذى القعدة سنة ٤٣٨ (٢٠ ابريل سنة ١٠٤٧)، والمسافة بينهما ستة فراسخ، عن طريق جنوبي به قرى كثيرة وزرع وحدائق وشجر برى لا يحصى من عنب وتين وزيتون وسماق.

ثم رجعت إلى بيت المقدس ومن هناك سرت ماشياً مع جماعة تقصد الحجاز، وكان دليلنا رجلاً اسمه أبو بكر الهمداني، وهو رجل جلد يقدر على المشي، وجهه جميل. غادرت بيت المقدس في منتصف ذى القعدة سنة ٤٣٨ (أول مايو ١٠٤٧)، وبعد ثلاثة أيام بلغت جهة تسمى «أعز القرى»^(٣) بها ماء جار وأشجار، ثم غادرناها إلى منزل آخر يسمى «وادي القرى» ومن بعده نزلنا مكاناً ثالثاً. ثم بلغنا مكة بعد عشرة أيام. لم تحضر لمكة قافلة من أي بلد في هذه السنة، ولم يكن الطعام متوفراً. وقد نزلت في سكة العطارين أمام باب النبي عليه السلام. وفي يوم الاثنين طلعت عرفات، وكان الناس مملوئين رعباً من العرب، ولما عدت من عرفات لبثت بمكة يومين، ثم رجعت إلى بيت المقدس عن طريق الشام. بلغنا القدس في الخامس من محرم سنة ٤٣٩ (٧ يوليو ١٠٤٧). ولا أذكر هنا وصف مكة والحج، وسأذكر ذلك عند الكلام على الحجة الأخيرة.

كنيسة بيعة القمامة:

وللنصارى في بيت المقدس كنيسة يسمونها «بيعة القمامة»^(٤)، لها عندهم مكانة عظيمة. ويحج إليها كل سنة كثير من بلاد الروم، ويزورها ملك الروم متخفياً، حتى لا يعرفه الناس. وقد

(١) هذه الجملة مضطربة: «سروى . . . افتد». تعليقات غنى زاده ص ٤٥ (٨).

(٢) هذه الإشارة تفيد أن النص الذي بأيدينا ليس كاملاً، تنقصه الصور على الأقل وعندني أنه يشير إلى مذكرات مؤقتة كتبها أثناء رحلته. راجع تعليق غنى زاده ص ٤٥.

(٣) في النص ارعز. وذكرها شيفر باسم عزرا وقال إنه اسم غير واضح (ص ١٠٦) وصححها غنى زاده بالرسم الذي ذكرنا (ص ٤٩).

(٤) وتسمى عند النصارى كنيسة القيامة.

زارها أيام عزيز مصر الحاكم بأمر الله فبلغ ذلك الحاكم، فأرسل إليه أحد حراسه - بعد أن عرفه أن رجلا بهذه الحلية والصورة يجلس في كنيسة بيت المقدس - وقال له: «أذهب عنده وقل له: إن الحاكم أرسلني إليك ويقول: لا تحسني أجهل امرئ، ولكن كن آمناً فلن أقصدك بسوء». وقد أمر الحاكم هذا بالإغارة على الكنيسة فهدمها وخربها. وظلت خربة مدة من الزمان. وبعد ذلك بعث القيصر إليه رسلاً، وقدم كثيراً من الهدايا والخدمات وطلب الصلح والشفاعة ليؤذن له بإصلاح الكنيسة فقبل الحاكم وأعيد تعميرها^(١).

وهذه الكنيسة فسيحة تسع ثمانية آلاف رجل، وهي عظيمة الزخرف، من الرخام الملون والنقوش والصور، وهي مزدانة من الداخل بالدباج الرومي والصور، وزينت بطلاء من الذهب. وفي أماكن كثيرة منها صورة عيسى عليه السلام راكباً حماراً، وصور الأنبياء الآخرين مثل: إبراهيم وإسحق ويعقوب وأبنائهم عليه السلام. وهذه الصور مطلية بزيت السندروس^(٢). وقد غطى سطح كل صورة بلوح من الزجاج الشفاف على قدها، بحيث لا يحجب منها شيء وذلك حتى لا يصل الغبار إليها. وينظف الخدم هذا الزجاج كل يوم. وهناك عدا ذلك عدة مواضع أخرى كلها مزينة، ولو وصفتها لطالت كتابتي. وفي هذه الكنيسة لوحة مقسمة إلى قسمين عملاً لوصف الجنة والنار، فنصف يصف الجنة وأهلها ونصف يصف النار وأهلها ومن تبقى فيها. وليس لهذه الكنيسة نظير في أي جهة من العالم. ويقام بها كثير من القسس والرهبان، يقرءون الإنجيل ويصلون ويشغلون بالعبادة ليل نهار.

(١) هدمت في سنة ٤٠٠ (١٠٠٩) بأمر الخليفة الحاكم بأمر الله. وظلت خربة حتى ٤٢٩ (١٠٣٧) حين عقد الامبراطور ميشيل هدنة مع والي بيت المقدس من قبل المستنصر بالله. وقد تعهد بتحرير خمسة آلاف أسير مسلم ومنح الحق في إعادة بناء الكنيسة، فأرسل المهندسين والمعماريين فوراً من القسطنطينية وبنيت الكنيسة من جديد. انظر Schefer ص ١٠٧.

(٢) نوع من الدهن يستخرج من صمغ بعض الأشجار. ويسميه اليونان ستالوزي Santaloz.

رحلة ابن العربي الى المشرق
كما صورها قانون التأويل

لأبي بكر بن العربي
تحقيق احسان عباس
(مجلة الابحاث - المجلد - ٢١ ديسمبر ١٩٦٨)
(ص ٧١ - ٨٥)

... وكان من حسن قضاء الله تعالى اني كنت في عنفوان الشباب وريان الحداثة وعند ريعان النشأة رتب لي ابي رحمه الله حتى حدقت القرآن في العام التاسع، ثم قرن بي ثلاثة من المعلمين احدهم لضبط القرآن باحرفه السبعة التي جمعها الله فيه ونبه الصادق عليه السلام في قوله: انزل القرآن على سبعة احرف في تفصيل فيها، والثاني لعلم العربية، والثالث للتدريب في الحسبان. فلم يأت علي ابتداء الاشد في العام السادس عشر من العدد الا وانا قد قرأت من احرف القرآن نحو من عشرة بما يتبعها من ادغام واطهار وقصر ومد وتخفيف وشد وتحريك وتسكين وحذف وتتميم وترقيق وتفخيم. وقد جمعت من العربية فنونا وتصرفت فيها تمريناً.

وقرأت من الأشعار جملة منها الستة وشعر الطائي والجعفي ويسير من اشعار العرب والمحدثين. وقرأت في اللغة كتاب ثعلب و«اصلاح المنطق» و«الامالي» وغيرها، وسمعت جملة من الحديث على المشيخة، وقرأت من علم الحسبان: المعاملات والجبر والفرائض عملاً. ثم كتاب اوقليدس وما يليه الى الشكل القطع، وعدلت بالازياج الثلاثة، ونظرت في الاسطرلاب وفي مسقط النقطة ونحوه. يتعاقب علي هؤلاء المعلمون من صلاة الصبح الى صلاة العصر ثم ينصرفون عني [١٣٨ أ] وأخذ في الراحة الى صبح اليوم الثاني، فلا تتركني نفسي فارغاً من مطالعة او ذاكرة او تعليق فائدة، وأنا بغرارة الشباب، اجمع من هذه الجمل ما يجمل والقدر يخبأها عندي للانتفاع بها في الرد على الملحدين والتمهيد لاصول الدين، ثم حالت هذه الحالة الخاصة بالاستحالة العامة عند دخول المرابطين بلدنا سنة اربع وثمانين اربعمائة، ووقع علينا من تلك الحوادث ما كان مدة اسف فوفنا وصاب بارضنا شؤبوب فتنة يا طال ما درت سحابه بنا فانصدع الائتنام، وتبدد ذلك النظام، وكان لنا حسرة^(١) وللإسلام، ولم يمكن بارضنا المقام.

ذكر الرحلة في طلب العلم

فدعت الضرورة الى الرحلة، فخرجنا والاعداء يشتمون بنا، وآيات القرآن تنزع لنا^(٢)، وفي علم الباري جلّت قدرته انه ما مرّ علي يوم من الدهر كان اعجب عندي من يوم خروجي من بلدي ذاهباً الى ربي. ولقد كنت مع غزارة السبيبة^(٣)، ونضارة الشبيبة، احرص على طلب العلم في الآفاق، واتمّني له حال الصفاق الافاق^(٤)، وارى ان التمكن من ذلك في جنب ذهاب الجاه والمال وبعد الاهل بتغير الحال ربح في التجارة، ونجح في المطلب. وكان الباعث على هذا السبب - مع هول الامر - همة لؤمت، وعزيمة نجمت، ساقتها رحمة سبقت

(١) حسرة قد تقرأ «حيرة»، ولا استبعد ان تكون اللفظة «خيرة» بمعنى «ما اختاره الله» او «خير». فقد ثبت من بعد ان المرابطين تعهدوا حال الاندلس ولما نظامها المبدد، كما ان ابن العربي يرى في رحلته التي قضت بمفارقة الوطن مصدر خير له.

(٢) كذا في الاصل، ولعله ينظر في هذا الى «المنزعة» أي الراي والتدبير وقوة العزم والهمة.

(٣) السبيبة: الخصلة من الشعر.

(٤) في حديث لثمان بن عاد حين وصف اخاه بقوله «صفاق افاق» اي يضرب في آفاق الارض مكتسباً. والصفاق: الكثير الاسفار والتصرف في التجارات.

وسرنا حتى انتهينا الى ديار مصر، فألفينا بها جماعة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين والسلطان عليهم جرى^(١)، وهم من الخمول في سرب خفي، ومن هجران الخلق بحيث لا يرشد اليهم جري^(٢)، لا ينسبون من العلم بينت شفة، ولا ينتسب احد منهم في فن الى معرفة، بله الادب. فنظرنا فيه مع قوم منهم ابو عبد الله محمد بن قاسم العثماني والسالمي وشعيب العبدري وآخرون سواهم ذكرناهم في موضعهم وسميتاهم. وترددت في لقاء الناس بين اسفل وفوق، بما كنت فيه من المعارف من التوق، وناظرت الشيعة والقدرية، وتدرت في جمل من الجدل، ونظرت في نبذ من علم الكلام، وتفطنت من سخافة هذه الطائفة بنفسي الى معان [١٤٠ أ] تمها لي النظر في المعارف والتمرس بالمشايخ: أمة غلب عليها سوء الاعتقاد، ونشأت من غير فطم بلبس العناد، واستولى اليأس منهم بما هم فيه من الفساد.

ذكر دخول بيت المقدس

ثم رحلنا عن ديار مصر الى الشام واملنا الامام، فدخلنا الارض المقدسة، وبلغنا المسجد الأقصى، فلاح لي بدر المعرفة فاستترت به أزيد من ثلاثة اعوام، وحين صليت بالمسجد الأقصى فاتحة دخولي بها، عمدت الى مدرسة الشافعية بباب الأسباط^(٣)، فألفت بها جماعة علمائهم في يوم اجتماعهم للمناظرة عند شيخهم القاضي الرشيد يحيى^(٤) الذي كان استخلفه عليهم شيخنا الامام الزاهد نصر بن ابراهيم النابلسي المقدسي^(٥) وهم يتناظرون على عادتهم، فكانت اول كلمة سمعتها من شيخ من علمائهم يقال له مجلي^(٦): [الحرم]^(٧) بقعة لو وقع القتل فيها لاستوفي القصاص بها، وكذلك اذا وقع في غيرها اصله الحل. فلم افهم من كلامه حرفاً، ولا تحققت منه نكراً ولا عرفاً. واقمت حتى انتهى المجلس فكررت راجعا الى منزلي وقد تأوينا حرصي القديم، وغلبني على جدي في التحصيل والتعليم، فقلت لأبي رحمة الله عليه: ان كانت لك نية في الحج فامض لعزمك فاني لست برائم عن هذه البلدة حتى اعلم علم من فيها، واجعل ذلك دستورا للعلم وسلياً الى مراقبها، فساعدني حين رأى جدي، وكانت صحبته لي من اعظم اسباب جدي. ونظرنا في الاقامة بها، وخزلنا انفسنا عن صحبة كنا نظمنا بهم في المشي الى الحجاز، اذ كانوا في غاية الانحياز، ومشيت الى شيخنا ابي بكر الفهري^(٨) رحمة الله عليه، وكان ملتزماً من المسجد

(١) كان السلطان في مصر حين قدوم ابن العربي هو المستنصر الفاطمي (-٤٨٧) وتولى بعده المستعلي.

(٢) الجري: بفتح الجيم وتشديد الراء، الحيوان الذي يأوي الى الجر كالضبع والثعلب واليربوع.

(٣) هو الباب الشرقي في سور المدينة.

(٤) لعله يحيى بن علي المعروف بابن الصائغ وهو ممن صحب الشيخ نصر المقدسي (السبكي، طبقات الشافعية الكبرى ٤: ٣٢٤ الطبعة الاولى).

(٥) وفي سنة ٤٩٠ بدمشق. وكان من كبار الشافعية في عصره (طبقات السبكي ٤: ٢٧ والنجوم الزاهرة ٥: ١٦٠).

(٦) هو مجلي بن جميع بن نجا المخزومي المتوفى سنة ٥٥٠ (طبقات السبكي ٤: ٣٠٠ والسيوطي، حسن المحاضرة ١: ١٧٠ ط. مصر ١٣٢٧ هـ وابن خلكان رقم: ٥٢٨).

(٧) زيادة لتوضيح المعنى.

(٨) هو الامام ابو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي صاحب سراج الملوك، توفي سنة ٥٢٠ (انظر الفتح ٢: ٨٥ والحاشية).

الأقصى - طهره الله - بموضع يقال له الغوير، بين باب أسباط ومحراب زكريا عليه السلام، فلم نلقه به واقتصصنا اثره الى موضع منه يقال له السكينة فالفيناها بها فشهدت هديه، وسمعت كلامه، فامتألت عيني وأذني منه .

واعلمه ابي بنيتي فأنا، وطلعه بعزيمتي فأجاب، وانفتح لي به الى العلم كل باب، ونفني الله في العلم والعمل، وتيسر لي على يديه اعظم امل، فاتخذت بيت المقدس مباءة، والتزمت فيه القراءة، لا اقبل على دنيا ولا اكلم انسيا، نواصل الليل بالنهار، وخصوصا بقبة السلسلة^(١) منه تطلع الشمس لي على الطور^(٢) وتغرب على محراب داود^(٣) فيخلفها البدر طالعا وغاربا على الموضوعين المكرمين، وادخل الى مدارس الحنفية والشافعية في كل يوم لحضور التناظر بين الطوائف [١٤٠ ب] لا تلهينا تجارة، ولا تشغلنا صلة رحم، ولا تقطعنا مواصلة ولي وتقاة عدو. فلم تمر بنا مدة يسيرة حتى حضر عندنا بالغوير ونحن نتناظر وفقه الشافعية عطاء المقدسي. فسمعني وانا استدلت على ان مد عجوة ودرهم بمدي عجوة لا يجوز وقلت: الصفقة اذا جمعت مالي ربا ومعها او مع احدهما ما يخالفه في القيمة سواء كان من جنسه او من غير جنسه فان ذلك لا يجوز لما فيه من التفاضل عند تقدير التقسيط والنظر والتقويم في المقابلة بين الاعواض، وهذا اصل عظيم في تحصيل مسائل الربا. فاعجب الفهري ذلك والتفت الى عطاء وقال له: قيضت^(٤) فراخنا، فقال له عطاء: بل طارت، وذلك في الشهر الخامس او السادس من ابتداء قراءتي. وكنا نفاوض الكرامية^(٥) والمعتزلة والمشبهة واليهود. وكان لليهود بها خير منهم يقال له التستري لقنا فيهم ذكيا بطريقهم. وخاصمنا النصارى بها، وكانت البلاد لهم يأكرون^(٦) ضياعها ويلتزمون اديارها ويعمرون كنائسها. وقد حضرنا يوما مجلسا عظيما فيه الطوائف، وتكلم التستري الخبر اليهودي على دينه فقال: اتفقنا على ان موسى نبي مؤيد بالمعجزات معلم بالكلمات فمن ادعى ان غيره نبي فعليه الدليل، واراد من طريق الجدال ان يرد الدليل في جهتنا حتى يطرد له المرام، وتمتد اطناب الكلام. فقال له الفهري: ان اردت بموسى الذي ايد بالمعجزات وعلم الكلمات وبشر باحمد فقد اتفقنا عليه معكم وأمانا به وصدقناه، وان اردت به موسى آخر فلا نعلم ما هو، فاستحسن ذلك الحاضرون واطنبا في الثناء عليه، وكانت نكتة جدلية عقلية قوية، فهت الخضم وانقضى الحكم.

ولم نزل على تلك السجية حتى اطلعت بفضل الله على اغراض العلوم الثلاثة: علم الكلام واصول الفقه ومسائل الخلاف التي هي عمدة الدين والطريق المهيج الى التدرب في معرفة احكام

(١) القبة الصغيرة الواقعة الى شرق مسجد الصخرة وهي على مثاله.

(٢) هو طور زيتا وفي اصطلاح اليوم: جبل الزيتون، وتقع عليه قرية الطور وهو الى الشرق من قبة السلسلة.

(٣) هناك محراب داود في قلعة باب الخليل ومحراب داود في المسجد الأقصى (ك.ع).

(٤) قيضت: شقت قشرة البيضة عنها.

(٥) الكرامية: اتباع محمد بن كرام (- ٢٥٥هـ) يرون ان الايمان هو الاقرار والتصديق باللسان دون القلب (الاشعري، مقالات الاسلاميين: ١٤١ تحقيق الاستاذ ريتز ١٩٦٣). وابن كرام مدفون في القدس.

(٦) في الاصل: ياكثرون، يأكرون: يؤجرون الارض مزارعة، وربما قرئت (يكثرون)، والمعنيان متقاربان.

المكلفين الحاوية للمسألة والدليل، والجامعة للتفريع والتعليل. وقرأنا «المدونة» بالطريقتين: القيروانية في التنظير والتمثيل والعراقية على ما تقدم في معرفة الدليل. وفي اثناء ذلك، ورد علينا برسم زيارة الخليل صلوات الله عليه وبنية الصلاة في المسجد الأقصى جماعة من علماء خراسان كالزوزني^(١) والصاغاني والزنجاني والقاضي الريحاني ومن الطلبة جماعة كالبسكري وساتكين التركي، فلما سمعت كلامهم رأيت أنها درجة عالية، ومزية ثانية، وبز^(٢) من المعارف اغلى، ومنزلة في العلوم اعلى [١٤١ أ] وكأني اذ سمعت كلامهم ما قرأت ما يقني، ولا يكفي في المطلوب ولا يغني.

وكان من غريب الاتفاق الالهي ان المسألة التي سمعت اول دخولي بيت المقدس ولم افهم كلام القوم فيها هي التي سمعت الصاغاني يتكلم عليها، فرأيت انه اغوص على جواب كتاب الله واستنباط لا يدركه إلا من اصطفاه الله، وكذلك سمعت كلام الزوزني في مسائل منها قتل المسلم الذمي، فرأيت يقرطس على غرض الصاغاني، وينظرون الى المطلوب من حدقة واحدة، فاستخرت الله تعالى على المشي الى العراق، وصورة المسألة وتسطير الكلامين يكشف لك قناع الطريقتين. قال مجلي في اول مجلس: من قتل في الحرم او في الحل فلجأ الى الحرم قتل لان الحرم بقعة لو وقع القتل فيها لاستوفي القصاص بها فكذلك اذا وقع القتل في غيرها، اصله الحل. فقال له خصمه: لا يمتنع ان يقع القتل فيها واذا قتل في غيرها ولجأ اليها عصمته كالصيد اذا لجأ اليها عصمته اذا لجأ الى الحرم عصمه ولو صال على احد عصمه، وهذا الفقه صحيح^(٣)، وذلك ان القاتل في غير الحرم اذا لجأ اليه فقد استعاذ بحرمته واستلاذ بأمنته وقد قال سبحانه: (ومن دخله كان آمناً) (آل عمران: ٩٧). واذا قتل فيه هتك حرمة وضيع امنته فكيف يعصمه؟ قال له مجلي: هذا الذي ذكرت لا يصح ولا يلزمي لان الحرم لم يحترم حرمة القاتل ولا باعتقاده واحترامه وانما احترم حرمة الله سبحانه التي جعلها الله فيه وحكم بها له، فسواء اقام القاتل هذه الجريمة او لم يقمها لا يسقط شيء منها، فكان من حقتك ان تعصمه على كل حال لقيام الجريمة لنفسه وحكم الله بها له. ويخالف الصيد، فان الله حرم الصيد علينا ما دمنا حرما اي محرمين او كائنين في الحرم، لكن الصيد اذا صال على احد لم يجز قتله ولكنه يدفعه عن نفسه وان ادى الى قتله، كالمسلم فانه احترم بحرمة الاسلام وعصم دمه بالشهادتين، فاذا صال على احد وجب دفعه وان ادى ذلك الى ذهاب نفسه. واما قوله سبحانه (ومن دخله كان آمناً) فانما عني به ما كان عليه الحرم في الجاهلية من تعظيم الكفار له وأمن اللائذ منهم به. ودار الكلام على هذا النحو.

ثم دخل علينا مدرسة ابي عقبة الحنفية ببيت المقدس بعد ذلك بمدة الصاغاني في جبة راع وسلم واخترق الحلقة الى ان قعد بازاء الشيخ وعليه سيما الثروة واسمال الرغبة^(٤) ففطن الشيخ

(١) انظر ما سجله ابن العربي من محاوره بين الزوزني وعطاء المقدسي في احكام القرآن: ٦١.

(٢) في الاصل: وبز.

(٣) في هامش الاصل: قوله وهذا الفقه صحيح من كلام الخصم لان كلام ابن العربي.

(٤) كذا في الاصل، وانظر حكاية ورود الصاغاني في احكام القرآن: ١٠٧.

وهو القاضي [الريحاني] (٣) [١٤١ب] له فقال: ولعل الشيخ من اهل هذه الرفقة المسلموية بالامس، فقال له الصاغاني: نعم، فاسترجع له ودعا بالخير ثم قال له: وهو من اهل العلم والله اعلم فقال: ما انا الا قرأت شيئاً يسيراً، فقال القاضي للاصحاب مبادراً: سلوه، فسألوه عن هذه المسألة فقال: اذا لجأ الى الحرم لا يقتل، وفرح القاضي وقال: وكأن الشيخ حنفي! قال له: نعم، فستل عن الدليل: فاستدل بقوله سبحانه (ولا تقاتلوهم ولا تقتلوهم؛ فان قلنا: بقراءة من قرأ: ولا تقاتلوهم كان تنبيهاً، لانه اذا نهى عن القتال - وهو سبب القتل - فالنهي عن المسبب الذي هو القتل أولى. قال له القاضي الريحاني: هذه الآية منسوخة بقول (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) (التوبة: ٥) قال له الصاغاني: القاضي اجل قدرا من ان يتكلم بهذا، وكيف ينسخ الخاص العام، وانما ينسخ القول القول اذا عارضه، فهذه القضية وهذا مالا جواب عنه لأحد. وأعجب من بعض المغاربة ممن قرأ الاصول يحكي عن ابي حنيفة ان العام ينسخ الخاص اذا كان متأخرا عنه، وهذا ما قال به قط، ولولا ان ابا حنيفة ناقض فقال: لا يبايع في الحرم ولا يكلم ولا يجالس ولا يعان بماكل ولا بمشرب ولا يجلس حتى يخرج عنه فتؤخذ العقوبة منه، ما قام له هذه المسألة أحد. - الى مناظرات كثيرة ومسائل من التحقيق عديدة.

وخرجت حيثذ إلى عسقلان متساحلا، فالفيت بها بحر ادب يعجب عبايه ويغيب ميزابه، فاقمت بها لا ارتوي منه نحواً من ستة اشهر. فلما كان في بعض الأوان، كنت منقلباً عن بعض الاخوان الى ان جيت لَقَمَ (٢) طريق وقد امتلأت بالناس وهم منقصفون (٣) على جارية تعني في طاق، فوقفت أطلب او افكر في المشي على غيره وهي تترنم للتهامي (٤):

اقول لها والعيس تحدج للنوى
اعندي لفقدي ما استطعت من الصبر
ليس من الخسران ان لسياليسا
تمر بلا نفع وتحسب من عمري

فقلت: محمد، هذا بشهادة الله وحي صوفي وهاتف ديني، انت المراد وعليك دار هذا الترداد، ارحل من حينك الى نيتك الاولى، وخذ بنفسك الى ما هو الأحرى بك والأولى. وبادرت الى داري وقلت لابي: الرحيل الرحيل، فليس هذا المنزل بمقيم، فسر بذلك اذا كان قبل يراودني

(١) هذه اللفظة ثبت عند النقل من ١٤١ الى ١٤١ ب وسقطت من المتن نفسه.

(٢) اللقم: وسط الطريق.

(٣) انقصفوا: تدافعوا وازدهموا.

(٤) لم اجدها في ديوان التهامي، ونسبها ابن خلكان في وفيات الاعيان ١: ٤٢٩ (تحقيق الشيخ محيي الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٤٨) للوزير ابي القاسم المغربي.

عليه [١٤٢] وأنا امانعه عليه . ودخلنا البحر في الحين الى عكا وانجدنا الى طبرية وحوران
وصمدنا^(١) دمشق وفيها جماعة من العلماء رأسهم شيخ الوقت سناء وسناً وعلماً وديناً نصر بن
ابراهيم المقدسي النابلسي ، واصحابه متوافرون ، وهم على سبيل اهل الارض المقدسة سائرون ،
وفي مدرجتهم سالكون ، وبتلك الدرجة متمكنون ، فلزمنا شيخنا نصر بن ابراهيم في السماع
وانتهينا إلى سماع كتاب البخاري بعد تقدم غيره عليه ، وكان يقرأ علينا بلفظه لثقل سمعه .

(١) صمدنا: قصدنا.

المعهد الفرنسي بدمشق
للدراسات العربية

كتاب

الإشارات الى معرفة الزيارات

تأليف

أبي الحسن علي بن أبي بكر الهروي

المتوفى بحلب ٦١١هـ

عُنت بنشره وتحقيقه

جانين سوردييل - طومين

دمشق ١٩٥٣

(ص ٢٤ - ٢٨)

زيارات القدس الشريف وما حوله

به قبة الصخرة وهو موضع عُرج بالنبي ﷺ وبه الصخرة التي عُرج به من عليها وقدمه فيها. وهذه الصخرة رأيتها في زمان الفرنج شمالي هذه القبة ودائرها درابزين من الحديد كالبيت وهي الآن من الجانب القبلي وتحتها دكة وهي عليها مبنية، والصخرة شبر واف وعلوها مقدار ذراعين ودائرها يزيد على أربعة أذرع. وتحت قبة الصخرة مغارة الأرواح ذكروا أن أرواح المؤمنين يجمعها الله بها. ويُنزل إلى هذه المغارة في أربع عشرة درجة يقال إن قبر زكرياء عم بهذه المغارة والله أعلم. وقرأت كتاباً في سقف هذه القبة ما هذا صورتها: «بسم الله الرحمن الرحيم الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض . . . الآية». والكتابة بالفص المذهب. وهذه القبة لها أربعة أبواب ودخلتها في زمان الفرنج سنة تسع وستين وخمسمائة. وكان قبالة الباب الذي إلى مغارة الأرواح صورة سليمان بن داود عم عند التأزير الحديد وغريبه باب من الرصاص عليه صورة المسيح ذهباً وهو مرصع بالجواهر. الباب الشرقي إلى جانب قبة السلسلة وعليه عقد عليه مكتوب اسم القائم بأمر الله أمير المؤمنين وسورة الاخلاص وتحميد وتمجيد. وعلى سائر الأبواب كذلك لم تغيره الفرنج. وإلى هذه القبة من الشرق قبة السلسلة التي كان يحكم بها سليمان بن داود عم. وشمالي هذه القبة دار القسوس بها من العمد وعجائب الصنعة ما أذكره عند ذكر الأبنية والآثار إن شاء الله تعالى.

المسجد الأقصى به محراب عمر بن الخطاب رضه ولم تغيره الفرنج. وقرأت في سقف قبة الأقصى ما هذه صورته: «بسم الله الرحمن سبحانه الذي اسرى بعبد ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا من^(١) حوله نصر من الله لعبد الله ووليه أبي الحسن علي الإمام الظاهر لإعزاز دين الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين أمر بعمل هذه القبة وإذهاها سيّدنا الوزير الأجل صفي أمير المؤمنين وخالسته أبو القسم علي بن أحمد أيده الله ونصره وكمل جميع ذلك إلى سلخ ذي القعدة سنة ست وعشرين وأربع مائة صنعة عبد الله بن الحسن المصري المزوق». وجميع الكتابة والأوراق بالفص المذهب وجميع ما على الأبواب من آيات القرآن العزيز وأسامي الخلفاء لم تغيره الفرنج. وقرأت على صخرة مكتوباً ما هذه صورته: «طول المسجد الأقصى سبعمائة ذراع بذراع الملك وعرضه أربعمائة وخمس وخمسون ذراعاً بذراع الملك». وهذه الصخرة باقية مبنية في حائط شمالي الأقصى.

ورواق قبة الصخرة مبني على ست عشرة أسطوانة من الرخام وعلى ثمانية أركان. والقبة التي داخله مبنية على أربعة أركان واثني عشر عموداً ودائرها ستة عشر شباكاً. والقبة دائرها مائة وستون ذراعاً. ودائر البنية العظمى التي تحوي الجميع ثلاثمائة وأربع وثمانون ذراعاً. ودائر الجميع مع قبة السلسلة مع ما يلائمه من العمارة أربعمائة واثنتان وثمانون ذراعاً. وعلو الدرابزين الحديد الذي يحوي هذه الصخرة قامتان. وأبواب قبة الصخرة أربعة من الحديد، باب منها إلى

(١) لا وجود لها في الآية، وأظنها من اخطاء النسخ (ك.ع).

باب الرحمة، وباب منها الى باب جبرئيل، وباب الى القبلة، وباب الى قبة السلسلة. ودائر قبة السلسلة ستون خطوة. ومغارة الأرواح ارتفاعها قامة وبسطة، وسعتها إحدى عشرة خطوة من الشرق الى الغرب، ومن الشمال الى القبلة ثلاث عشرة خطوة، ودرجها أربع عشرة درجة. وفي سقفها روزنة^(١) من ناحية الشرق سعتها ذراع ونصف، ودائر المغارة خمسون ذراعاً. سعة الرواق^(٢) خمس عشرة خطوة، طوله من القبلي إلى الشمالي أربع وتسعون خطوة. علو قبة الأقصى ستون ذراعاً، دائرها ستة وتسعون ذراعاً، دائر أسفلها مربعاً مائة وستون ذراعاً، طول الأقصى من القبلة إلى الشمال مائة وثمانية وأربعون ذراعاً.

وتحت الأقصى إصطبل كان لدواب سليمان بن داود كما ذكروا، به حجارة هائلة ومعالف الدواب إلى الآن. وهناك مغارة يقال بها مهد عيسى ابن مريم عم. وشمالي الأقصى بركة بني إسرائيل يقال إن بخت نصر ملأها من رؤوسهم.

وبالقدس كنيسة اليعاقبة بها بئر يقال إن المسيح اغتسل منها وآمنت السامرية على يده عندها يزورونها ويعتقدون بها. وبالقدس برج داود عم ومحرا به المذكور في القرآن العزيز.

ويظاھر القدس من الزيارات عين سلوان ماؤها مثل ماء زمزم وهي تخرج من تحت قبة الصخرة وتظهر بالوادي قبلي البلد. وكنيسة السليق يقال إن المسيح عم منها رُفِع إلى السماء. وكنيسة صهيون يقال إن المائدة نزلت على عيسى بن مريم والحواريين بها.

وأيدي جهنم به قبر مريم أم عيسى عم يُنزل إليه في ست وثلاثين درجة، وبه من العمدة المانع والرخام تحت القبة ستة عشر عاموداً من الرخام، وثمانية حمر وثمانية خضر، وله أربعة أبواب على كل باب ستة عمد من الرخام المانع، وبها كنيسة وهي الآن مشهد لأبراهيم الخليل عم، وبها من الآثار والعمد شي كثير وصنعة عجيبة. وبالجليل مقام رابعة العدوية وقبرها والصحيح أن قبر رابعة العدوية في البصرة وسيأتي ذكرها في رحلة العراق وإنما هذه رابعة التي بالجليل هي زوجة أحمد بن أبي الحواري. وبه مواضع مباركة وقبور كثيرة من الصالحين والتابعين رضهم إلا أنها لا تُعرف لاستيلاء الفرنج على البلاد. وخلف السور من الشرق قبر شداد بن أوس الخزرجي وذو الأصابع التميمي وقيل قبر شداد بفلسطين والله أعلم.

وأما زيارات الملة المسيحية فأعظمها كنيسة قامة وعمارتها من العجائب المذكورة ولا بد عند ذكر الآثار نذكر صفة هيكلها وجميع ما فيها. ولهم فيها المقبرة التي يسمونها القيامة وذلك أنهم يعتقدون أن المسيح قامت قيامة في ذلك الموضع والصحيح أن الموضع كان اسمه قامة لأنه كان مزبلة للبلد. وكان ظاهر البلد تقطع به أيدي المفسدين وتصلب به اللصوص، هذا ذكر في الانجيل والله أعلم. ولهم فيها الصخرة التي يزعمون انها انشقت وقام آدم من تحتها لأنها كانت تحت الصليبوت بزعمهم. ولهم فيها بستان يوسف الصديق عم يزورونه. وأما نزول النور فإنني أقمت بالقدس زماناً على عهد الفرنج إلى أن عرفت كيفية عمله.

(١) الكوة النافذة قرب السقف (ك.ع).

(٢) المقصود رواق المسجد الأقصى (ك.ع).

رحلة العبدري المسماة
الرحلة المغربية

لأبي عبد الله محمد بن محمد العبدري الحبيبي
تحقيق وتقديم محمد الفاسي
الرباط . ١٩٦٨
(ص ٢٢٨ - ٢٣١)

ثم وصلنا الى بيت المقدس زاده الله تعظيما . والحفه مبرة دائمة وتكريما . مسجد الانبياء
وقبلتنا قديما . ومطلع الاولياء يطلعهم عظيما فعظيما . أحد المساجد التي اليها تعمل المطي .
وتضاعف بها الحسنات لكل بر تقي . مصعد نبينا عليه السلام . الى مستوى يسمع فيه صرير
الاقلام . ومعراجة حين عسعس الظلام . الى مناجاة الله الملك العلام . والقدس المقدس المنفي
من الأثام . نجعة من راد وري من حام . خفق برقه فوفق من شام . وتدقق ودقه فأفرق ذو الهيام .
لو نطق محتجا بفضيلته الشام . لأفحم به العراق أي افحام .

والبلد مدينة كبيرة منيعة محكمة كلها من صخر منحوت على نشز غليظ مقطوع بجهات
الادوية وسورها مهديم هدمه الملك الظاهر^(١) خوفا من استيلاء الروم عليها وامتناعهم بها
والخراب فيها فاش وليس لها نهر ولا بستان . وحواليها تلال مشرفة عليها وبها كنيسة معظمة عند
النصارى يججونها في كل عام وهي التي يزعمون ان فيها قبر عيسى عليه السلام . وعلى كل من
يحجها منهم ضريبة معلومة للمسلمين وضروب من الاهانة يتحملها راغما . وبها رباطان متقاربان
في غاية الاتقان بنى أحدهما الملك المنصور وبنى الآخر الامير علاء الدين الاعمى . وفي كليهما رزق
جار للمنقطعين وابناء السبيل . وفي شرقي البلد واد يعرف بوادي جهنم في بطنه كنيسة يعظمها
النصارى ويقال ان بها قبر مريم عليها السلام . وفي عدوته على تل مرتفع منارات منها قبر رابعة
البيدوية بالبهاء منسوبة الى البادية ومنها بنية أخرى يقال انها مصعد عيسى عليه السلام .

ذكر المسجد الأقصى

وأما المسجد المقدس فهو من المساجد الرائقة العجيبة المشرحة الفسيحة وهو متسع جدا
طولا وعرضا . وذكر أبو عبيد البكري أن طوله سبع مائة واثان وخسون ذراعا بالمالكي ، وهو ثلاثة
أشبار . وطوله من الجنوب الى الشمال . وعرضه أربع مائة وخمس وثلاثون وهو من الشرق الى
الغرب . وله أبواب كثيرة من الشرق والغرب والشمال ولا أعلم له بابا قبلها سوى الباب الذي
يدخل منه الامام . وذكر بعض الناس أن عددها خمسون بابا والمسجد كله فضاء غير مسقف في
نهاية الاحكام واتقان العمل وفيه تزويق كثير وتذهيب رائع مليح . وهذا المسقف في الركن الغربي
من ناحية الجنوب . وفي ناحية الشرق مواضع مسقفة مع طول الحائط وعلى الابواب وهنالك
موضع عيسى عليه السلام يقصد للركوع فيه والتبرك به وهو هزمة (٢) في الارض مبيضة . وهذا
الحائط الشرقي هو سور المدينة من ناحية الشرق وهو على طرف الوادي المذكور أولا وعلى جهة منه
منطقة بعيدة المهوى جدا .

وفي وسط فضاء المسجد قبة الصخرة وهي من أعجب المباني الموضوعة في الارض وأتقنها
وأغربها قد نالت من كل حسن بديع أوفر حصة وتلت من الاتقان ظاهره ونصه . وتجلت في جلالها

(١) الذي نعرفه أن الذي هدم سور القدس هو الملك المعظم عيسى سنة ٦١٦ ، وليس الظاهر ببيرس (ك.ع) .

(٢) الهزمة : الحفرة .

الرائع كعروس حسناء جلّيت على منصّة. قامت مشرفة متبرجة على يفاع. تصرّح وتلوّح بالاعراب والابداع. وتفصح بما يشرح عن فضيلة الصنّاع. حسنها الاول فاستحسنها الاخر وانعقد الاجماع. تنازع الكمال منها الظاهر والباطن. لما سلما معا من كل عائب وشائن. واجتمعت في كليهما اُشتات المحاسن. فان أدلى الظاهر بحجته الى حكم الطرف حكم له. وان أعرب الباطن عن فضائله قال له الطرف ما أكمله. تناصف الحسن وتماثلت الادلة. فليس إلا أن يقال في جواب المسألة أيها جاء أولا عمل عمله. وصفتها أنها قبة مثمّنة على نشز في وسط المسجد ويطلع اليها في درج من رخام وقد أحاط بها ولها أربعة أبواب والدائر مفروش بالرخام المحكم الصنعة وداخلها كذلك. وفي ظاهرها وباطنها من أنواع التزييق ما يقصر عنه الوصف. وأما الذهب فما رأيت مبتذلا في شيء كابتذاله في هذه القبة حتى لقد غشي به أكثرها ظاهرا وباطنا فهي تتلالا ساطعة الانوار. كلمعان برق أو اشتعال نار. وقد ذهب الاعلى من ظاهرها الى حد التسقيف والبس سقفها لين الرصاص المحكم اللصاق حتى صار جسدا واحدا. وأما باطنها فيكل عن وصفه اللسان. ويحار في حسنه انسان الانسان. تبهر الناطق أشعته الباهرة. وتستوقف الخاطر محاسنه الظاهرة. أسكرت العقول فصارت لها عقالا. وكلت اللسان فما وجدت مقالا. فاقت حسنا وكمالا. فقطعت لسان من يغمز. وراقت حلّى وأوصافا فأسرت فؤاد المتحرز. ان وعدت الاعجاب خيرا فهي مشاهدة تنجز. أو افتخر مكان لتحدث من حسننها بالمعجز.

شرك العقول ونزهت ما مثلها

للناظرين وعقلة المستوفز

وفي وسط القبة الصخرة التي جاء ذكرها في الاثار وأنه عليه السلام عرج عنها الى السماء وهي صخرة صما علوها أقل من القامة وتحتها شبه مغارة على مقدار بيت صغير يعلو قدر القامة وينزل اليه في درج وقد هيء له محراب وسوي وأتقن. وعلى الصخرة شباكان محكمان يغلقان عليها أحدهما وهو الخارج من الخشب والآخر من حديد أصفر محكم العمل بديع الصنعة. وفي القبة صورة درقة كبيرة من حديد معلقة هنالك وأظنها كانت مرآة ولكنها قد صدت وزال صقالها. والعوام تقول انها درقة حمزة واشتهر عندهم هذا الزور حتى صار في حد المقطوع به.

ولم أر في هذا البلد مع شرفه واشتهاره من هو أهل لأخذ العلم عنه ولا معنيا به الا شيخا هو قاضي البلد يلتقب بدر الدين وهو محمد ابن ابراهيم بن سعد بن جماعة^(١) له مجلس علم يدرس فيه أول النهار في المسجد عند المحراب ومجلس سماع ويروي فيه بعد صلاة العصر يوم الجمعة في قبة الصخرة. وقد حضرت كلا المجلسين فلم أخرج منها بطائل وكلمته في أشياء تحبب فيها وتعسف فلم أجد من نفسي اذعانا للاخذ عنه على قلة همته في الرواية اذ وجدته يروي عن نظائره من أهل

(١) قاضي من علماء الحديث وسائر علوم الدين. ولد في حماة ١٢٤١/٦٣٩ وولى الحكم والخطابة بالقدس، ثم القضاء في مصر والشام. توفي بمصر ٨٧٣٣هـ/١٢٣٣م. له عدة تأليف (انظر الاعلام ٥/٢٩٧-٢٩٨) (ك.ع.).

مصر ومن لا يزيد عليه في السن الا يسيرا الى أخلاق وصف لي بها تريب الاريب وتنفرد النسيب والغريب . فله تواليف منها اختصار كتاب أبي عمرو بن الصلاح في علوم الحديث^(١) ومنها كتاب حذا فيه حذو السهيلي في كتاب الاعلام بما أتهم في القرآن من الاسماء الاعلام^(٢) . أثار فيه على الكتاب المذكور اغارة وسماء غرر البيان في مبهمات القرآن ، ومنها كتاب المسالك في علم المناسك . لم يات فيه بيديع . ولا شق الظلماء من بيانه صنيع . وكانت اقامتنا بالقدس خمسة ايام .

-
- (١) هو عثمان بن عبد الرحمن (صلاح الدين) ابن عثمان الشهرزوري ، ابو عمر تقي الدين (٥٧٧-٦٤٣! / ١١٨١-١٢٤٥) احد المقدمين في التفسير والحديث والفقہ . من شيوخ الصلاحية بالقدس له كتاب «معرفة انواع علم الحديث» مشهور ، يعرف بمقدمة ابن الصلاح (الاعلام ٤٢/٢٠٧) (ك . ع) .
- (٢) عبد الرحمن بن عبد الله الحنفي ، السهيلي ، حافظ عالم باللغة والسيرة . ولد في مالطه ١١١٤/٥٠٨ . اتصل امره بصاحب مراكش فطلبه اليها واكرمه توفي بمراكش ١١٨٥/٥٨١ . نسبته الى سهل من قرى مالطه . له «التعريف والإعلام في ما أتهم في القرآن من الاسماء والاعلام (ك . ع) .

رحلة ابن بطوطة
المسماة
تحفة النظار في غرائب الامصار
تحقيق علي المتصر الكتاني
بيروت ، ١٩٨١
(ص ٧٦-٧٨ ، ٧٤٩-٧٥٠)

[ثم وصلنا الى بيت المقدس شرفه الله، ثالث المسجدين الشريفين في رتبة الفضل، ومصعد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً، ومعرجه الى السماء. والبلدة كبيرة، منيفة بالصخر المنحوت. وكان الملك الصالح الفاضل صلاح الدين ابن أيوب جزاه الله عن الإسلام خيراً لما فتح هذه المدينة هدم بعض سورها. ثم استنقض الملك الظاهر هدمه خوفاً أن يقصدها الروم فيتمنعوا بها. ولم يكن بهذه المدينة نهر فيما تقدم، وجلب لها الماء في هذا العهد الأمير سيف الدين تنكز أمير دمشق. (والمسجد المقدس) هو من المساجد العجيبة الرائقة. الفائقة الحسن. يقال انه ليس على وجه الأرض مسجد أكبر منه. وأن طوله من شرق إلى غرب سبعمائة وثمان وخمسون ذراعاً. بالذراع المالكية، وعرضه من القبلة إلى الجوف أربعمائة ذراع وخمس وثلاثون ذراعاً. وله أبواب كثيرة في جهاته الثلاث. وأما الجهة القبليّة منه فلا اعلم بها إلا باباً واحداً وهو الذي يدخل منه الإمام. والمسجد كله فضاء وغير مسقف. إلا المسجد الأقصى فهو مسقف، في النهاية من احكام الفعل واتقان الصنعة، موه بالذهب والاصبغة الرائقة. وفي المسجد مواضع سواء مسقفة. (وقبة الصخرة) هي من أعجب المباني وأتقنها وأغربها شكلاً. قد توفر حظها من المحاسن، وأخذت من كل بديعة بطرف. وهي قائمة على نشز في وسط المسجد، يصعد إليها في درج رخام. ولها أربعة أبواب، والدائر بها مفروش بالرخام أيضاً، محكم الصنعة، وكذلك داخلها. وفي ظاهرها وباطنها من أنواع الزواقة ورائق الصنعة ما يعجز الواصف. وأكثر ذلك مغشى بالذهب. فهي تتلألأ نوراً وتلمع لمعان البرق، يحار بصر متأملها في محاسنها، ويقصر لسان رائثها عن تمثيلها. وفي الوسط، القبة الصخرية الكريمة التي جاء ذكرها في الآثار. فإن النبي ﷺ عرج منها إلى السماء. وهي صخرة صباء، ارتفاعها نحو قامة، وتحتها مغارة مقدار بيت صغير، ارتفاعها نحو قامة أيضاً، ينزل إليها على درج، وهنالك شكل محراب. وعلى الصخرة شباكان اثنان، محكما العمل، يغلقان عليها. أحدهما، وهو الذي يلي الصخرة، من حديد، بديع الصنعة، والثاني من خشب. وفي القبة درقة كبيرة من حديد، معلقة هنالك، والناس يزعمون أنها درقة حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه. (أما المشاهد المباركة بالقدس الشريف) فمنهم بعدوة الوادي المعروف بوادي جهنم في شرقي البلد على تل مرتفع. وهنالك بنية يقال إنها مصعد عيسى عليه السلام إلى السماء. ومنها أيضاً قبر رابعة البدوية، منسوبة إلى البادية، وهي خلاف رابعة العدوية الشهيرة. وفي بطن الوادي المذكور كنيسة يعظمها النصارى، ويقولون ان قبر مريم عليها السلام بها. وهنالك أيضاً كنيسة أخرى معظمة يحجها النصارى، وهي التي يكذبون عليها ويعتقدون ان قبر عيسى عليه السلام بها، وعلى كل من يحجها ضريبة معلومة للمسلمين، وضروب من الإهانة يتحملها على رغم أنفه.

وهناك موضع مهد عيسى عليه السلام يتبرك به. (ومن بعض فضلاء القدس) قاضيه العالم شمس الدين محمد ابن سالم الغزي^(١)، وهو من أهل غزة وكبرائها. ومنهم خطيبه الصالح الفاضل عماد الدين النابلسي^(٢). ومنهم المحدث المفتي شهاب الدين الطبري، ومنهم مدرس المالكية وشيخ الخانقا الكريمة^(٣) أبو عبدالله بن مثبت الغرناطي، نزيل القدس. ومنهم الشيخ الزاهد أبو علي حسن المعروف بالمحجوب، من كبار الصالحين. ومنهم الشيخ الصالح العابد كمال الدين المراغي. ومنهم الشيخ الصالح العابد أبو عبد الرحيم عبد الرحمن ابن مصطفى من أهل ارز الروم. وهو من تلامذة تاج الدين الرفاعي، صحبته ولبست منه خرقة التصوف.

ثم سافرت من القدس الشريف برسم زيارة ثغر عسقلان، وهو خراب قد عاد رسوماً طامسة، وأطلالاً دارسة].

وفي طريق العودة من رحلته الآسيوية الكبرى زار ابن بطوطة بيت المقدس سنة ٧٤٩ هـ للمرة الثانية، وكتب عنها يقول:

[ثم سافرت إلى عجلون، ثم إلى بيت المقدس. ووجدت الوباء قد ارتفع عنهم. ولقيت خطيبه عز الدين بن جماعة، ابن عم عز الدين قاضي القضاة بمصر^(٤)، وهو من الفضلاء الكرماء، ومرتبته على الخطابة ألف درهم في الشهر. وصنع الخطيب عز الدين يوماً دعوة ودعائي فيمن دعاه إليها، فسألته عن سببها، فأخبرني أنه نذر أيام الوباء أنه إن ارتفع ذلك ومر عليه يوم لا يصلي فيه على ميت صنع الدعوة. ثم قال لي: «ولما كان بالأمس لم أصل على ميت، فصنعت الدعوة التي نذرت». ووجدت من كنت أعهدده من جميع الأشياخ بالقدس قد انتقلوا إلى جوار الله تعالى رحمهم الله، فلم يبق منهم إلا القليل مثل المحدث العالم الإمام صلاح الدين خليل بن

(١) القاضي شمس الدين محمد بن امين الدين بن سالم بن ناصر الدين عبد الناصر الكتاني الغزي (في الاصل الغوي) الشافعي. سمع الحديث عن جماعة وافق ودرس وولي قضاء القدس وحديث. وكان متولياً في سنة ٧٢٩. ومات سنة بضع وخمسين وسبعمائة (الانس الجليل ٢/١٢٤-١٢٥) (ك.ع).

(٢) قاضي القضاة عماد الدين ابو حفص عمر بن ظهير الدين عبد الرحم بن يحيى القرشي الزهري النابلسي الشافعي نفعه بدمشق واذن له في الفتوى وولي خطابة القدس الشريف مدة طويلة وقضاء نابلس معها، ثم ولي قضاء القدس آخر عمره. شرح صحيح مسلم في مجلدات توفي بالقدس في المحرم سنة ٧٣٤ ودفن باملا (الانس ٢/١٣٧) (ك.ع).

(٣) الخانقا او المدرسة الكريمة برواق الحرم الشمالي انشئت سنة ٧١٨ هـ. (انظر معاهد العلم في بيت المقدس، ص ٢٥٤) (ك.ع).

(٤) هو عبد العزيز بن بدر الدين محمد الذي سبق ذكره ولي قضاء مصر سنة ٧٣٩. وجاء للحجاز ومات بمكة سنة ٧٦٧/١٣٦٦. وله عدة مؤلفات في الفقه والسيره (الاعلام ٤/٢٦) (ك.ع).

كيكلدي العلاني^(١)، ومثل الصالح شرف الدين الحنّتي^(٢) شيخ زاوية المسجد الأقصى^(٣). ولقيت الشيخ سليمان الشيرازي فأضافني، ولم ألق بالشام ومصر من وصل إلى قدم آدم عليه السلام سواه.

ثم سافرت عن القدس، ورافقتي الواعظ المحدث شرف الدين سليمان الملباني، وشيخ المغاربة بالقدس الصوفي الفاضل طلحة العبد الوادي. فوصلنا إلى مدينة الخليل عليه السلام، وزرناه ومن معه من الأنبياء عليهم السلام].

(١) صلاح الدين خليل بن كيكلدي العلاني: (٦٩٤-٧٦١)، أصله من دمشق وتولى مشيخة الصلاحية بالقدس ودرس الحديث في التنكزية. كان إماماً في الحديث وعلمي الأصول والفروع. وألف تصانيف كثيرة (الانس ١٠٦/٢-١٠٧) (ك.ع).

(٢) شرف الدين الحنّتي: شيخ الزاوية المدرسة الحنّية التي وقّعها صلاح الدين الأيوبي في القدس سنة ٥٨٧ على الشيخ العابد محمد الشاشي (ونلاحظ أن ابن بطوطة سمي الزاوية/المدرسة زاوية المسجد الأقصى).

ختن مدينة في تركستان (اوزبكستان اليوم في الاتحاد السوفيتي) وشاش هو الاسم القديم لطشقند (ك.ع).

(٣) زاوية المسجد الأقصى المدرسة الحنّية. (ك.ع).

حظيرة الانس
الى
حضرة القدس

تأليف

محمد بن محمد بن نباتة
جمال الدين

عن كتاب ثمرات الاوراق
لتقي الدين ابي بكر علي
المعروف بابن حجة الحموي

المطبوع على هامش الجزء الاول
من محاضرات الادباء

للمراغب الاصفهاني حسين بن محمد
(لا مكان ، لا تاريخ)

(ص ٣٦٨ - ٣٧٩)

... (فلما) عزم^(١) بدمشق المحروسة سنة وخمس وثلاثين على زيارة القدس الشريف اطلع
رأيه الشريف على ما في خاطري وأمرني بالمسير في ظل ركابه فسر على الحقيقة سائري وكاشف ولا
ينكر الكشف لمن كثرت زواياه في البلاد ونظر لحالي ولا ينكر النظر في الاحوال لسيد الوزراء
والزهاد وكان له في استصحاى مقصد تقبل الله عمله الصالح ومتجره الرابع وذلك اني كنت لابسا
ثياب الحزن على ولدي مقبيا بين المقابر اقامة تفت حبة قلبي على قطعة كبدي ساقيا روض الحزن
بغمائم الجفون باكياً على دينار وجه عاجلته الايام بصرف المنون اطلب قلبي في التراب وانشده
واطراح صوت الصدا فينشدني وانشده شعر

يا لهف قلبي على عبد الرحيم
ويا شوقي اليه ويا شجوي ويا دائي
في شهر كانون وافاه الحمام لقد
احرقت بالنار يا كانون احشائي

فاقتضى تدقيق النظر الصاحبي في اسداء العوارف وابداء عواطف الفضل وفضل
العواطف ان ينزع عني بصحبة ركابه الكريم لباس الباس ويشغلني بمشاهدة الانس القابل . ألا
هكذا فليصنع الناس وينهضني بالانعام من حوادث الزمن ويقرب مثلي قربا لا يقطن لمثله الامن
ومن . فياها سفرة قابلها وجه الاقبال بالسفور وتلا فضلها الحمد لله الذي اذهب عنا الحزن ان ربنا
لغفور شكور ومد فيها الانعام على ظلا ظليلا وملاً بيتي وعيني دقيقا وجليلا وأمرني ان أصف له
المنازل والطرق وصفا كقصده الجميل جميلا فسرنا وايدي السعد قد ذلت الطرق بل طوتها
وقدمت وعود الآمال بل انجزتها والارض قد شرعت في لباس حليها وحللها . ومراعي الربيع قد
وعدت حتى الشمس بتسمين جلها والشتاء قد آن ان يقوض الخيام والافق قد شمر للانصراف
ذيل الغمام ومبدأ الروض أحق بقول أبي الطيب المتنبى

لقد حسنت بك الايام حتى
كانك في فم الدهر ابتسام

فأتينا الكسوة فلبسنا منها للمسرة ثيابا سابغة الذبول وطفنا منها بكعبة الفضل طوفا واضح
الاقبال والقبول وقلنا للمقاصد تباشري بالخطوة ولعيون الاقبال تأمل ما أحسن الكعبة في الكسوة
ومررنا والخيل تجمز جمزا وجزنا بالصنمين فهمت ان تفخر بمواطىء خيلنا على اللات والعزى
وصعدنا منزلة رأس الماء فكاد الطرب يهزه هزا ورأينا بينها وبين منزلة المغير أرضا قد اخضر جناها
وطرزت بآثار الطرف ثيابها فأمرت بالقول فقلت

(١) اي صاحب أمين الدين الوزير الملوكي .

سقى الله أرضاً طرقها مثل طرزها
وسائرها برد من الوشى اخضر
تذكرت احبائي بمشوى بريدتها
فعيني راس الما وجسمي المغير

ووافينا الحصين وقد راغت الخيل روغان ابيه وتلقتنا بالبشر والبشرى وجوه اهليه وسألونا ان نريح عندهم الركاب من الاين وعجلوا بالضيافة على الفتوح ولا ينكر تعجيل الفتوح للحصين ووجدنا هناك فقيرا مغربيا حسن التلاوة قد عجز عن المسير وارثد طرف قصده عن القدس خاسئا وهو حسير فأمرت له الصدقات الصاحبية بمركوب ونفقة تعينه على السفر والاقامة . ولحقه في ذلك فقير عجمي ينشد لسان حاله بي مثل ما بك يا حمامة فلم ار مثلها صدقات تجود من الزاد والراحلة بالغيث والبرق ولا مثله متصدقا يجلس لحظة واحدة فيركض نداه في الغرب والشرق . وعجنا بعجلون فحشر الناس لدينا ضحى وجاء أهل المدينة يستبشرون فرحا وارتفعت الاصوات بالادعية الوافية وأردنا أن نكتم دخولنا البلد وكيف تكتمنا وهي ذات عين صافية . ثم نزلنا بالخيام في مرجتها الخضراء تحت قلعته الغراء وهي في معارج السحب صاعدة شائدة في الجو كأنها في السحر على عمود الصبح قاعدة مضيئة بين عقود الانجم كأنها درتها اليتيمة جالسة على سرير الخيل تنادم الفرقدين كأنها جذيمة . فنظر في المصالح وميز بالعدل بين الصالح والطالح وعجل من عجلون المسير فلم ينظر الغادي الذي هو رائح واشرفنا على بركات القصد المنجية واقتحمنا الى الغور عقبه سهلها السعد فلا تقل ما ادراك ما العقبة واستفتحنا المزارات التي نوبنا قصدها وطوبنا غورها ونجدها بمشهد صائب رسول الله ﷺ وهو أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه فترامينا اليه بالعزم الفاخر . وزار أمين هذه الامة الاول امينها الآخر واجرى أمر مشهده على سنن الصلاح ونظر في مرتبه بعين العدل واعانه بيد السماح وجعل والي الناحية عبيدة وما جعل لشاهدة المعروف بالجراح وسلكتنا جانب الغور الممطور فاعجبنا ربا ورواء وكنا نظن الماء فيه غورا فوجدنا الغور ماء وخضنا في حديثه وخاضت الخيل وتركنا عقباته كالمعلقة وملنا الى السهل كل الميل وتلقينا كل ذي قصد يبشر الصباح ولم نقل اهلك والليل وما زلنا كذلك لا ثمر بواد الا ابت مع الابتهاج بطول العمر رماله وارامله ولا بناد الا قامت للدعاء رجاله واطفاله وحلائله . . . الى ان قدمنا القدس الشريف نحن والغمام وسبقنا اليه طرة الصبح تحت اذيال الظلام وخف بنا جناح الشوق والسوق حين دنت الخيام من الخيام والقينا بباب حرمة عصا السفر والقت هناك رحالها ركائب المطر وزرنا باب الرحمة من الارض وزارنا باب الرحمة من السماء وصرنا من الصالحين عند زيارة الاقصى فمشينا على الماء وحمدنا الأوطان والاقطار واستمرت السحب حتى عادت الصخرة كحجر موسى تنفجر منها الانهار واقمنا في بيوت اذن الله ان يرفع شأنها ويسبح فيها بالغدو والاصال سكانها . وكان معنا شخص يلقب بالخلد سكن بيتا حسنا وغمض عينه على الرفاق تخميصا بيئا (فقال مولانا صاحب) ما تقول في بيته فقلت ما اقول في جنة الخلد . وشكى قوم عشرة هذا الرجل فكتبت على

ورقتهم اصبروا على ما يفعلون «وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون»^(١) (ثم) دخل الناس على الابواب الصحابية افواجا وما ترك احد منهم منهاجا ذا ناحية الا منهاجا ومكثنا في البيوت الى ان صحا الافق من مدامة غمامه وحسر عن وجهه للابصار فضل لثامه وقمنا لبقية المشاهد قاصدين ولتلك المباني المعظمة شاهدين ومشاهدين فعاودنا الصخرة بقلوب قد لانت ونثرنا على مواطىء القدم دموعا عزت بلمسها ولا نقول هانت . ونظرنا آثارا قديمة تذهل عيون النظارة وآثارا متجددة في هذه الدولة القاهرة تقصر عنها العبارة ومحاسن يقف في طريق الزيارة متأملها ووقفه في الطريق نصف الزيارة فمنها ما هو مخصوص بالحرم الشريف نستلم كالحجاج اركانه ونقلب وجوهنا في سماء سقف يكاد يمطر علينا لجينه وعقيانه ونشاهد رخاما بلغ في الحسن والمحل الاقصى في الاقصى وتمت به في بهجة المكان زيادة تخالف قول النحاة ان في الترخيم^(٢) نقصا فاما المياه التي تجري في الحرم على رأسها وتطوف على مواضع المنافع بنفسها فتلك نعمة مقيمة يكافىء الله عنها في دار المقامة وحسنه في المعنى والصورة جارية الى يوم القيامة . ومن المباني المذكورة ما هو خصيص بمولانا ملك الامراء أعز الله نصاره وابقاه سيفا يقف كل ذي قدر عند حده فلا يجاوز مقداره من مدرسة علم يدرس ولا يدرس معهده ودار حديث يروى فيروى الاسماع الطامئة مورده وخانقاه تضيء عليها انوار البركات الكوامل ورباط ومكتب هما كما قيل * ثمال^(٣) اليتامى عصمة للارامل * وقلت فيها

بنيت رباطا للنساء ومكتبا

يدير على الايتام سحب الفواضل

فله من هذا وذاك كما ترى

ثمال اليتامى عصمة للارامل

فجنينا من تلك المحاسن بساتين دانية القطوف ولحظنا من الظلال السيفية جنة نشأت وكذلك الجنة تحت ظلال السيوف وشرعت صدقات السر والجهر وقبول السؤال ببحر لا يسمع عنده نهر وغص بفقرائهم المكان والطريق وجاؤوا رجالا ونساء وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق^(٤) فوضع في مواضعه النوال وقدرت الكساوى حتى على المستورين والاطفال . هذا وكيم ثياب صوف أعرض اشراقها عن مقال اللاحين واتخذ الفقراء والاعنياء من اصوافها أثاثا ومتاعا الى حين وجاءت الدراهم بعد التفاصيل بالجمل وقال جودها لحاتم هذى التي لا ناقة لك فيها ولا جل (ومما قلت في ذلك) . . .

(١) سورة السجدة، الآية ١٤ .

(٢) هنا تورية فالترخيم عند النحاة حذف حرف من آخر المنادى، والترخيم ايضا تركيب الرخام على المباني .

(٣) الثمال: الملجأ والغيات والإطعام .

(٤) سورة الحج، الآية ٢٧ : «وأذن في الناس بالحج ياتوك رجالا ونساء وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق» .

الله كم حال امرىء مقتر
قضيت في القدس بتنفيسه
ودرهم ولى ولكنه
قد أخذ الاجر على كيسه

ثم تليت الختمات التي شرف الله تعالى ذكرها ومواعيد التفاسير والرقائق التي اجرت
الاقواف الصحابية اجرها وشرع في بناء الرواق على سطح الزاوية الصحابية بباب الحرم الشريف
واخذ راقم الرخام في التوشيح والتفويف فيالها الواحا كتب فيها من الحسن كل شيء واطرد ماء
رونقها فكان العين منها في ماء وفيء وباله رواقا شاق وصفه وراق ورفع محله فقال لسان المتصوف
حبذا رفاعى الرواق. ثم رتب للشيخ والفقراء ما يحتاجون اليه من كل نوع فريد وأصبح كل أحد
وهو للتزول عند ذلك الشيخ مريد وبرزنا في اليوم السابع من الاقامة وقد قدمنا نقصد الخليل
صلوات الله عليه بالنية الجليلة وطربنا لتلك المنازل وكيف لا نظرب لها وهي الخليلية. وزرنا قبر
يونس عليه السلام في طريقنا ورفعنا لانواره الجفون وتملى عند الزيارة ذو العين بذى النون ثم نزلنا
من محل الخليل على محل القرى وحمدنا عند صباح ذلك الوجه السرى واستقبلنا بمقام ابراهيم امانا
واستلمنا من ضريح شائد الركن ومن ضرائح اهله اركاننا واكلنا من شهى عدسه لونا ووجدنا من
الهناء الوانا وقلنا لانفاس الشوق كوني بردا وسلاما على ابراهيم وفرقت الهبات وتليت الختمات
وجرت المواعيد على عوائدها المحكمات فقلت

قصدنا خليل الله في ظل صاحب
جلى العلى والمكرمات جليل
فهذا لديانا وهذا لديننا
فيا حبذا من صاحب و خليل

وسرنا في ظل صاحب من الخليل وكادت دمشق تمد ايدي اعطائها لمجاذبة ركابه ومصر
تنضرع باصابع نيلها طمعا في اقترايه وترضع ثدى هرمها داعية الى الله بعوده اليها واياه. وهم
شباك الوزارة ان يتلقى صاحب فتحه وصدر الخزائن ان يعانق ما اعتاده من رأى عطفه ومنحه فانه
ما جلس فيه ابهر واهبى من الطلعة الامينية باجماع الأملين المتأملين والخزائن التي كم قال لها تدبيره
اني حفيظ عليم فقال الملك وانك لدينا مكين أمين ثم عطفنا الاقدار الى جهة الرملة وجاءت الوفود
كالرمل وخفت اكياس دراهم الصلات وثقلت اكياس دراهم الحمل واقمنا ثلاثة ايام نكاد ننشد

خرجنا على ان المقام ثلاثة
فطاب لنا حتى اقمنا بها عشرا

ورأينا مسجدا يعرف بالركنى قد غير الزمان محاسنه الانيقة وهدم الخراب والموت ركنيه على
الحقيقة فأمر مولانا صاحب بعمارة ما منه اندثر ولحظت الأراء حجارته المنقضة فتبين ان السعادة

تلحظ الحجر . ولقد صنع في هذه المنزلة من المعروف ما لا صنع ذو الدهر الطويل مثله وبني من المكرمات ما ثبت ولولا ابداع سعادته ما ثبت البناء فوق الرملة ورحلنا عن الرملة بنية الزيارة لمشهد زكريا ويحيى عليهما السلام فمررنا في طريقنا بجمله غير معترضة وبنيه في وجهة القبول مبيضة تحتوي على قبر بنيامين أخى يوسف عليهما السلام فالحقناه بالزيارة باخيه وتوكلنا على الله في القبول توكل أبيه وتيممنا بنيامين وقرعنا ابواب السماء بادعية فاتحة فقال النجح عقيب الفاتحة آمين وسرنا والصدور منسرحة والطريق الى خير الدارين متضحة وجئنا المشهد وقد ظهرت عليه بضر يحيى كريمين بهجة الدين والدنيا وتلا مزارها للقادم انا نبشرك بيحيى . وبتنا ليلة طيبة نحيتها ونميت النوم ونعصى بالسهر أمره فما له سلطان على اعين القوم واصبحنا وقد امتلأت القلوب سرورا والاعين نورا وقوينا على قصد جنى الجنان واستقبلنا محاسن بيسان . وختمنا الزيارة بمشهد معاذ بن جبل رضي الله عنه فانقذت انواره القلوب من الهم أي انقاذ وكدنا نفتن بالانس حتى نقول افتان أنت يا معاذ . وامسكنا عنده من الدعاء بعروة لا تنفصم وأوينا من طوفان الذنوب الى جبل ينجح من به يعتصم وأمر بما يحتاج اليه من تجديد عماره وانشاء طهارة والحق بكل مزار وردنا عليه في هذه السيارة فانا لا نفارقه الا عن اقامة صلاة وصلات وتجديد آثار يزين به وجه القبول كتاب الحسنات . ثم نهضنا عن الغور نهوض ليثه الملبد وجزنا مبتسمين فابكيننا بكاء ليبد يوم فراقه ازبد وانتشقتنا من تلقاء طيبة الاسم اطيب العرف وسلكتنا بحرف وادبها مستبشرين فكانت طيبة الاسم والفعل والحرف ثم عادونا المنازل التي قدمنا ذكرها ورجعنا كما تسترجع منازل الافق زهرها وتنسمننا ارواح دمشق حتى كدنا نشق من ذيل الكسوة عطرها واستقبلنا الديار على هذا السعي الجليل وفاصلنا السفر على كل وجه للفضل جميل وقطعنا بالكسوة ليلا طائلا نداؤه * كل ليل للعاشقين طويل * وفي تلك الليلة كان دخولنا الى دمشق المحروسة كدخولنا الى القدس الشريف سائرين سرى النجوم في الليل سابقين لغرة الصباح بفر الخيل موفرين لخواطر الملتقين وهيئات وقد سال منهم السيل نازلين من دمشق جنة قد تبسمت لقدومنا عن ثغور الازهار وجرت امام ركابنا الانهار ولبست من وشى البديع حللا لها من اوائل ما انعقد من الثمار ازرار فائزين من الثناء والثواب بفوق الارادة داعين لمن فضله لنا جامع مترقيين لربته باب الزيادة وتمت هذه السفارة على احسن ما يكون . . .

تاج المفرق في تحلية علماء المشرق

لخالد بن عيسى البلوي

تقديم وتحقيق : الحسن السائح . ج ١ / ٢٤٦

مطبعة فضالة - المحمدية، المغرب (د.ت)

(ص ٢٤٥ - ٢٧٥)

خرجنا منها^(١) ضحوة يوم الاحد الثاني لشعبان المذكور وعشي ذلك اليوم بنفسه دخلنا مدينة بيت المقدس كلاًها الله تعالى .

هي بلدة الافق المنير ونجمه، والنجم الذي لا تمتطي صهواته وصلناها والليل في سن الاكتهال وأيدينا ممتدة بالشكر لله تعالى والابتهاال فوافينا مدينة واسعة الرقعة طيبة البقعة، سامية الارتفاع، مشرفة البقاع مباركة الاغوار والتلاع، عذبة المراد، منمنمة الابراد، ممرعة الجنبات، متنوعة النبات ممدودة الظلال، مردودة الخلال، مأمولة السعادة مسعودة الآمال، ضخمة البناء، واسعة الفناء، تشهد لسكانها بالثراء والسناء، قد أخذت من كل المحاسن نصيباً، وفوقت الى هدف الفضائل سهماً مصيباً وملئت ظرفاً وأدباً وأوتيت من كل شيء سبباً:

محل كأن الشمس تخجل كلما نضت ثوبها عن معطفيه مغيباً
تنم رياح الخلد منه لاهله ويطفح تسنيماً^(٢) ويرشح طيباً

ظل ظليل، وماء سلسيل، تنساب مذابحه انسياب الاراقم بكل سيل، ورياضات تحمي النفوس بنسيمها العليل تتبرج لناظرها بمجتلى صقيل، وتناديهم هلموا الى معرس للحسن ومقيل، فنزلنا منها منزلاً بديعاً قد عذب مأؤه، وراق روضه، ورق صفاؤه وهواؤه، وتفسحت مساحاتها، وتأرجحت أرجاؤه .

ثم قصدت الحرم الشريف، والمسجد العظيم المنيف، الذي بارك الله حوله، وعرفت كل أمة فضله، المسجد الاقصى موضع المعراج والاسراء، وكفى بهذا شرفاً وفخراً، فرأيت بقعة لها نور، وفضل مأثور، وشرف معلوم مذكور، ومسجد له حرمان، ومقام تحظر فيه خطرات، وتعرض مقامات، ومحل تفيض عليه بركات. وتستجاب فيه دعوات، ومكان يمكن فيه الالتفات، وتقصر عنه الصفات، وتكل في تصنيف محاسنه الياءات والالفات، قد جمع شرف المقدار الى طيب التربة وفضيلة الدار، وشهت مفاخره، فأية البقاع تفاخره؟ وراقت محاسنه فلا منظر يحاسنه! وفاقت مأثره جميع من يكاثره، وأمتع بكل سليم الود من سلم وحيّاً، وأطلع نور البشر في أفق المحيا.

وهذا المسجد الشريف هو أعظم مساجد الدنيا طوله سبعمائة وثمانون ذراعاً وعرضه أربعمائة وخمسون ذراعاً فيكون تكسيره في المراجع المغربية مائة مرجع، وسواريه أربعمائة وأربع عشرة سارية وأبوابه خمسون باباً يطيف به سور سعته ثلاث خطوات قد أسس بالحجارة العظيمة والأواحة الكبار المنحوتة الهائلة بنته الجن لسليمان عليه السلام والمفتوحة الآن من أبوابه اثنا عشر باباً كل باب منها له الوجه المنقش المحسن المرقش . فيها باب مصفح بالعقيان واللجين مغمد بهما قد قام على ما راق الابصار وأعجب النظار (ومنها باب الرحمة وباب التوبة بابان من الجهة

(١) مدينة الخليل (ك.ع).

(٢) التسليم قيل عنه : هو ماء في الجنة يتنزل من علو (ك.ع).

الشرقية . وروى المفسرون عن عبدالله بن عمرو بن العاص وعن ابن عباس أيضا في قوله تعالى «فضرب بينهم بسور^(١)» أنه سور بيت المقدس الشرقي له باب يسمى باب الرحمة من بيت المقدس قال : كعب باطنه المسجد . وظاهره وادى جهنم) . وفي الجهة القبليّة المسجد الاعظم الحافل الذي عليه اليوم اسم المسجد الاقصى فيه الخطبة والجمعة والمنبر الذي جمع الله فيه من كل ابداع عجيب واختراع غريب والمقاصر التي لا نظير لها غرابة صنعة وجودة انشاء والسواري المفضضة الملونة من ألوان شتى من حمرة قانية وصفرة فاقعة وبياض ناصع ومن الجبرية^(٢) الخالكة الصافية ومن الخبرية المجزعة العجيبة البديعة كلها مطلية الرؤوس بالذهب الذائب والتبر الخالص . وقد قامت بين يد المحراب منتظمة به (قبة) عظيمة جليلة منقسمة على أفنان^(٣) معقودة بأقواس مخرجة متراكبة مدخلة على ألوان شتى ، وتصنيف غريب ، مذهبة ما دخلها في الثمين والتسديد والتربيع بتذهب مشجر مورق بالذهب مصنف محكم قد رونق الحسن استتمامها واستوفت من حظوظ البراعة أقسامها ، لها منظر رائع ورواء لامع فتراها تشتعل ذهابا وتستقل عجبا ، فيها تواريخ مكتوبة بالذهب في أرض فيروزية وفي أرض حمراء زنجفورية^(٤) (وبأعلى المحراب) مكتوب بالذهب في أربعة أسطر ما نصه ، «أمر بتجديد هذا المحراب المقدس ، وعمارة المسجد الاقصى الذي هو على التقوى مؤسس عبدالله ووليه يوسف بن أيوب المظفر الملك الناصر صلاح الدين والدنيا عندما فتحه الله على يديه في شهور سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وهو يستل الله ايزاعه شكر هذه النعمة ، واجزال حظه من المغفرة والرحمة» . (وبشرقي) هذا المسجد متصلا به وداخله فيه المسجد المبارك ، الذي بناه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ويجوفه تربيعة خلفها محراب زكريا عليه السلام ، ومكتوب عليه بالذهب «يا زكريا انا بشرناك^(٥) بسلام اسمه يحيى» . وبخارج المسجد الاعظم من ناحية المشرق مسجد بقبطين ، يعرف بمسجد عيسى ، وفي شرقيه باب له مدارج كثيرة تفضى تحت الارض الى موضع كبير حسن كمسجد فيه مهد مصور من الحجر الصلد يذكر أنه مهد عيسى عليه السلام . وبغريبه مسجد حسن للمالكية يسمى بمسجد المغاربة (لان حارتهم) تلاصقه . ومن ناحية الغرب مدرسة حافلة تسمى الفخرية^(٦) . وبخارج المسجد الاعظم صحن عظيم كبير مشمر بأنواع الثمار والاشجار الكبار المختلفة الانواع ومن أكثرها الزيتون ، وفيه أجباب^(٧) كثيرة . ذكر عبد الملك بن حبيب بسنده أن عمر بن الخطاب لما قدم بيت المقدس خرج رجل من أصحابه يستسقى في جب سليمان وهو جب في داخل المسجد فخرت دلوه في الجب فنزل بها يستخرجها فبينما هو يطوف في الجب اذا آتاه ملكان فأخذا بعاتقه فذهبا به حتى أدخلاه الجنة فجعل يسريان به

(١) سورة الحديد ، آية ١٣ . (ك.ع.) .

(٢) في بعض النسخ الجبرية الخبرية وباقي النسخ الخبرية ، والخبر شجر السدر والاراك .

(٣) افنان اقباء (ك.ع.) .

(٤) الزنجفر والزنجفر معدن احمر يدهن به الحديد ليسلم من الصدأ (ك.ع.) .

(٥) نبشرك ، الآية ٧ ، سورة مريم (ك.ع.) .

(٦) انظر معاهد العلم ، ص ١١٣ (ك.ع.) .

(٧) جمع جب (ك.ع.) .

فيها فكان كلما مرا به على شجرة لها ثمر يمد يده الى ثمرها فيؤخره الملكان حتى مرا به على شجرة ذات أفنان فمد يده فأخذ ورقة واحدة فقال له الملكان لو ملكت يدك لسرنا بك الى يوم القيامة ثم انصرفا به الى الجب فخرج عند صلاة الظهر فأتى عمر فأخبره بالذي كان وضبط يده على الورقة فقال عمر، أضمم يدك عليها ثم بعث الى كعب الاحبار فأتاه فقال يا أبا اسحاق! هل تجد في علمك أن رجلا من أمة محمد ﷺ يدخل الجنة ثم يخرج منها قال نعم يا أمير المؤمنين قال فهل تسميه فقال نعم فهو شريك بن حاشه (١) النميري قال فانظر هل تراه فنظر كعبا مليا ثم قال هو ذا فقيل لكعب صف الورقة قال نعم كانت مثل الكف العظيمة أشبه شيء بورق الدراقين يعني الخوخ. ففي بيت المقدس اثنا عشر جبا، ليس فيها جب أطيب ولا أعذب ولا أبرد من هذا الجب وهو يسمى بير الورقة انتهى. وفي هذا الصحن ساقية ماء تأتي من مسافة شاقة ومهوى بعيد من الارض قطعت لها الجبال وصدعت لها الصخور الجليلة صدعا بالمال الجسيم والايدي الشديدة حتى انصببت منها المياه على المسجد الاقصى فاروت وأغدقت وفاضت وأفضت الى (خصّة) من رخام كبيرة أمام المسجد الاعظم في وسطها فوارة يجري فيها الماء. (وفي وسط هذا الصحن) صحن آخر عال مرتفع يصعد اليه بأدراج عالية كثيرة من جهات ثمانية وهو مفروش بالرخام الابيض. وفي وسط هذا الصحن الاخير المرتفع القبة العظيمة القدر الكبيرة الخطر التي كأن محاسن الدنيا مجموعة فيها ومحصورة في نواحيها فهي من أعاجيب الدهر وأحسن ما يرى بالبصر ويتخيل في الفكر (قبة الصخرة الكريمة)، وهي مصنوعة من قبة مثمثة الحائط والاركان من داخلها وخارجها مستوية السقف، اعلاها ذهب مضروب في صفائح عجيبة وجوانبها كلها من داخلها ملبسة بألواح الرخام المشور الملصق الصاقا محكما مخططا بالخطوط الكحل تحطيط القدرة الربانية فجاء منها خواتم عجيبة وطوالع مختلفة الصناعة غريبة. وفي وسط هذه القبة (٢) المثمثة المستوية السقف قبة اخرى قد بعد في السماء مرتقاها حتى تساوى ثراها مع ثريها وجازت الجوزاء سمنا وعزلت السماك الاعزل سمكا وارتقت في الهوى وأسرت الى السماء النجوى، وانتهت في الحسن الى الغاية القصوى فكانما صورت جنة الخلد واشربت حبة القلب وأوسعت قرة العين، ونقشت في عرض الارض وأبرزت في الابريز الخالص المحض قد اتفق الذكر فيها وضرب المثل بتناهيها، وبلغ الخاصة والعامه خبرها وبعد فيهم صيتها وارتفع ذكرها وعظم خطرها وتوافى الناس اليها من البعد والقرب والشرق والغرب متأملين لها متعجبين من موقن مرعاها ورونق سناها والتقى رجال برجال قد دخلوا البلدان واستبدلوا الاوطان وجالوا في الامصار وجابوا في الاقطار فأقسم كل واحد منهم بجهد قسمه أنه ما رأى لتمام محاسنها تماما ولا لتأتق ما انتظمت مطالعها انتظاما ولا بعجيب ما تضمنته اباؤها، واحتجته أفناؤها من النقوش السرية، والصنائع السنية التي لا يبلغها نقوش أهل الهند ولا تنتهيها غنمة أهل الصين ولا تدرکها رقوم أهل رها، ولا تساميهها ديابيح تستر (٣) ولا

(١) الصحيح: حُباشة.

(٢) المقصود مسجد القبة (ك.ع).

(٣) تستر: مدينة في عربستان (ايران) (ك.ع).

يقارن بها وشى صنعاء. ولو لم يكن لها الا السطح المرّود^(١) المشرف على الصحن الكبير والقبة وعجائب ما تضمنته من اتقان الصنعة وفخامة المهمة وحسن المستشرف وفراهة الملبس والحلة ما بين مرمر مسنون وذهب موزون^(٢)، وعمد كأنها أفرغت في القوالب، أو أعيرت ملمس النضار الدلامس، ونقوش كقطع الحياض، وتشجير كألفات الرياض، يتسّم بين ذلك كله على أنه سنام الدنيا، سلسل برود يفرغ أمامه من تماثيل عجيبة الاشخاص في خوابى رخام تهد الجبال ضحها ولا تهدي الاوهام الى سبيل الالفاء؟ بها. ولقد أخبرني الشيخ العالم القدوة شمس الدين الكركي قال بلغت زنة الرصاص الذي على سقف قبة الصخرة هذه ثلاثين ألف فنطار بالدمشقي وهو بالمومني مائة ألف وعشرون ألف فنطار كاملة. وذكر عبد الملك بن حبيب رحمه الله ان عبد الملك بن مروان بنى القبة على الصخرة وجعل على الجانية التي أعلا القبة ثمانية آلاف صفيحة من نحاس مطلية بالذهب في كل صفيحة سبعة مثاقيل وأفرغ على رأس الاعمدة مائة ألف مثقال ذها. وفي وسطها مكتوب بالذهب في أرض سماوية لا زوردية على الدائرة ما نصه: - بسم الله الرحمن الرحيم - أمر بتجديد تذهيب هذه القبة الشريفة مولانا السلطان الملك الناصر العالم العادل المجاهد المؤيد من السماء ناصر الدنيا والدين محيي العدل في العالمين وظل الله في أرضه القائم بسنته وفرضه محرر ممالك الدنيا ومظهر كلمة الله العليا مشيد أركان الشريعة الشريفة، سلطان الاسلام ابن الشهيد الملك المنصور قلاون تغمده اله برحمته وذلك في شهور سنة ثمان عشرة وسبعمائة». وتحت هذه القبة العجيبة الصخرة الشريفة التي هي كالجبل الراسي والطود العظيم معلقة وسط الفضاء بين الارض والسماء لا صعودا ولا نزولا، انما يمسكها الذي يمسك السماوات والارض أن تزولا. وقد انصنع بهذه الصخرة الشريفة والبيان الدائر بها نوع مغارة كبيرة تقضى اليها ادراج جملتها خمس عشرة درجة وفيها سطح مفروش بالرخام المجزّع المختلف الالوان البديع الصنعة وهو موضع مبارك للصلاة. وفي الطرف القبلي من الصخرة الشريفة أثر قدم النبي ﷺ يتبرك به الناس ويمرغون خدودهم فيه. وقد طاف بالصخرة الشريفة شبك من العود (الخشب) وبعده شبك آخر من الحديد (فيه)، ثلاثة أبواب وبين الشباكين فضاء واسع للصلاة. وللقبة المثمنة أربعة أبواب فالباب الجوفي^(٣) منها يسمى باب الجنة وبأعلاه مكتوب بالخط الحسن هذا باب الجنة. وبأعلى الباب الثاني منه لوح نحاس كبير مكتوب فيه بالنقش المحكم ما نصه: «بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي لا اله الا هو الحي القيوم لا شريك له الاحد الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفؤا أحد، (محمداً) عبدالله ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون آمنا بالله وبما أنزل على محمد وبما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون، صلى الله على محمد عبده ونبيه والسلام عليه ورحمة الله وبركاته ومغفرته

(١) أجرنا كثيراً من التصحيحات في كلمات الاسطر السابقة اعتماد على رحلة الزياتي المنقولة حرفياً عن رحلة البلوي هذه (ك.ع).

(٢) موزون متصد (ك.ع).

(٣) الجوفي: الشمالي (ك.ع).

ورضوانه، مما أمر به الامام المأمون أمير المؤمنين أطل الله بقاءه في ولاية أخيه أمير المؤمنين أبي اسحاق ابن أمير المؤمنين الرشيد أبقاه الله وجرى على يد صالح بن يحيى مولى أمير المؤمنين في شهر ربيع الاخير سنة ست عشرة ومائتين». وبأعلى الباب الثاني من الباب الشرقي لوح آخر من نحاس أيضا مكتوب هذا النص المذكور بجملته، وأمام باب الجنة المذكور قبة تغشى النواظر بشعاعها وتخطف الابصار بالتماعها تسمى قبة السلسلة التي كان يحكم بها داود عليه السلام، وهي قبة عجيبة قامت على (سوارى) مختلفة وصناعة على الحسن مشتملة بوسطها تاريخان مكتوبان بالذهب أحدهما في أرض خضراء زرعية ونصه: [بسم الله الرحمن الرحيم وداود وسليمان اذ يحكما في الحرث اذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان، وكلا آتينا حكما وعلما] (١) كمل تمديد بطن هذه القبة السلسلة المباركة ونقش سقفها وتبليطها في شهور سنة ست وتسعين وخمسمائة]. وفي الركن الغربي من هذا الصحن المرتفع المذكور مسجد (٢) فيه قبتان منتظمتان عجيبتان فيها رسوم مذهبة وتواريخ مختلفة أقربها عهدا وهو ما نصه: [بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله وصلواته على خير خلق الله محمد وآله وصحبه، أما بعد فما زالت همم ملوك الاسلام تتناصر على اثبات مفاخر يبقى ذكرهم ببقائنا وانشاء محاسن يباهون الامم بهائنا، فيحيون رسوما طالما نسجت عليها العناكب. ويرقمون على صفحات الايام من الخيرات رقما تشرف اليه الكواكب فتظل عيون الاماني بمآثرهم قريرة وأعواد أجبائهم بمفاخرهم مورقة نضيرة أعطاهم الله قدرة فصرفوها الى رفع اقدارهم، وأتاهم الدنيا فلم يتركوها غفلا من محاسن آثارهم:

(فستراهم دون الرجاء وذكرهم باق بها فكأنهم أحياء)

فله در فتى تبقى مساعيه بعده مشكورة، ومناقبه ما بقيت آثارهم مذكورة، ولما تشعت السقف الذي كان أنشأه الملك المعظم الواقف المذكور رحمه الله انتدب لآحيائه عبدالله الفقير اليه أسد الدين عبد القادر سبط الواقف بحكم ما آل اليه من النظر الشرعي في أوقاف جده فجدده وبذل وسعه وطاقته فيه ابتغاء مرضاة الله تعالى. وكان الفراغ منه في ربيع الاخير سنة تسع وعشر وسبعمائة من الهجرة النبوية وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم. وفي الجهة الغربية ثلاث صوامع واسم المأذنة أو المنار أحق من اسم الصومعة لان - الصومعة هي التي للراهب وهي بفتح الميم. وفي الجهة الغربية والجوفية قباب مختلفة تركت وصفها اختصارا. منها قبة الركن المشرقي الحافلة وقبة المعراج وقبة الميزان الرخامية وقبة موسى البديعة وقبة سليمان الراققة. وفي كل مسجد من تلك المساجد ومدرسة من تلك المدارس، وقبة من تلك القباب امام عاكف به قائم عليه. ولقد عددت مواضع الاشفاق وصلاة التراويح بها في شهر رمضان المعظم فألفتها نحو الاربعين موضعا. وفي الجهة الغربية من الصحن الكبير المثلث مدرسة عجيبة غريبة الشكل غزيرة

(١) سورة الانبياء، اية ٧٨ (ك.ع).

(٢) المقصود هو المدرسة النحوية التي انشأها الملك المعظم عيسى الابوي سنة ٦٠٤، وهي في الطرف الجنوبي الغربي لصحن الصخرة عند الدرج المؤدي الى الساحة تجاه باب السلسلة. ويبدو أن هذا النقش غير موجود في فان برشم (ك.ع).

المياه حافلة الصنعة بابها ملاصق لباب الحرم تسمى الذنقيدية^(١). ويسكنها الصوفية وقد حُف بها من الرسوم المذهبة العجيبة والخطب الادبية الغريبة والالفاظ البعيدة القرية كل ما أتى بالعجب، وسفر عن الحسن المنتخب ووجب أن كتب هناك بذوب الذهب، اخترت أخصرها ونقلت أيسرها، فكان الذي ارتضاه الاختيار واقتضاه الاختصار ما قيده من مباح الطبقة العليا ونصه: «بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي رفع لبيت المقدس في سائر الملل ذكرا، وفضله على أكثر البقاع شرفا وفخرا، وجمع القلوب على محبته تعظيما لرتبته، وقدرنا، وأسرى بخير خلقه اليه ثم أنزل عليه صلوات الله عليه، سبحان الذي أسرى، فيا بشري لمن بنا لله فيه بيتا ولو كان شبرا، ويا أسعد من أسدى للناس فيه ثوبا وبرا، لقوله تعالى «وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله»^(٢) هو خيرا وأعظم أجرا، فأى خير أعظم من انشاء هذا المكان وبناء هذا الايوان، الذي باب الرحمة مفتوحا بين يديه، والطور أمامه والشجر تحت قدميه، والجامع الاقصى كالقمر ناظر اليه، والصخرة الشريفة كالشمس مقبلة عليه، وهو كالهلال قد ظهر بين الشمس والقمر.

ما الشمس ما البدر في للاء بهجته في كل ناحية من وجهه قمر «أرجو لبانيه، أن يعطى أمانيه، وأن يفوز من الملك الجليل بالعطاء الجزيل والثناء الجميل والظل الظليل وحسبنا الله ونعم الوكيل». وهذا الطور المذكور جبل عظيم منه رفع عيسى عليه السلام الى السماء فيما يذكر، وهو بشرقي هذا الحرم العظيم فيه تلة مباركة في أعلاها مسجد شريف حافل مؤسس بالسوارى الحسنة الضخمة والرخام الابيض الصافي والحجر المنجور الجافى يقصده الناس تبركا ودونه بيسير قبة مباركة يفضى اليها ادراج تحتها تربة الصالحة الولية رابعة العدوية رحمها الله تعالى ودونها على بعد قبة كبيرة مختلفة فيها تربة مريم عليها السلام تفضى اليها ادراج هابطة الى التربة الكريمة عدت فيها ثمانيا وأربعين درجة. وفي هذه المدينة الكريمة بقاع ظاهرة عليها بركات ظاهرة وبها قبور الانبياء صلوات الله عليهم وأثارهم نفع الله بالقصد والنية في زيارتها برحمته. وما هذا الذي ذكرت من وصف تلك المشاهد الشريفة الذكر، والمساجد العظيمة القدر، والمعاهد الكريمة الفخر الا كالنقطة الواقعة في البحر، والذرة الساقطة في القفر، والشرارة من الجمر، ولما لاحت نيرات هذه الانوار، وفاحت نسيمات تلك الاسحار، وشاهدت احد المساجد الثلاثة التي لا تشد الا اليها الرحال وعابنت الحرم الشريف حقيقة قد أحلني لديه الترحال، اخترت مجاورته وأثرت ملازمته وقلت أين أذهب عن موطن مهبط الرحمة وموضع محشر الامة، ومحل تفرج الكربة والعمة، حدثني الشيخ الفقيه القاضي شمس الدين عبدالله محمد بن سالم بن عبد الناصر الكناني الغزوي الشافعي^(٣) قاضي مدينة بيت المقدس حرسها الله تعالى سماعا

(١) أي: التنكزية او الدنكزية نسبة للأمير تنكز الذي بناها سنة ٧٢٩ (انظر تفصيلات عنها في معاهد العلم لكامل جميل العسلي، ص ١١٨ وما بعدها) (ك.ع).

(٢) سورة البقرة، الآية ١١٠ (ك.ع).

(٣) قال الأس الجليل (٢/١٢٤-١٢٥): كان متوليا في سنة ٧٢٩، وتوفي سنة بضع وخمسين وسبعمائة (ك.ع).

مني عليه بحرم المسجد الاقصى الشريف بقراءة شقيقه الشيخ الامام الاوحد، علم الدين أبي الربيع سليمان^(١) وبقصد الرواية عنهما ومن أصلها نقلت، قال حدثنا الشيخ الامام المحدث علاء الدين أبو الحسن علي بن ابراهيم ابن داود العطار رحمه الله، قال الاول منهما، سماعا عليه في رجب سنة أربع وعشرين وسبعمائة وقال الثاني قراءة عليه في يوم الجمعة ثاني صفر سنة سبع عشرة وسبعمائة بدمشق المحروسة يرفعه الى أبي هريرة رضي الله عنه ان النبي ﷺ قال: لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول، والمسجد الاقصى، رواه البخاري ومسلم، ولمسلم قال إنما يسافر الى ثلاثة مساجد الكعبة ومسجدي ومسجد ايلياء وبهذا السند الى أبي العطار يرفعه الى ذي الاصابع رجل من أصحاب النبي ﷺ رضي الله عنهم، قال قلنا يا رسول الله أرأيت ان ابتلينا بالبقاء بعدك أين تأمرنا، فقال عليك ببيت المقدس فعسى الله أن ينشئ لك ذرية يغدون الى ذلك المسجد ويروحون، وبه عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال، من زار بيت المقدس محتسبا لله عز وجل حرم الله لحمه وجسمه على النار، وبه عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ انه قال: فضل صلاة في المسجد الحرام على غيره مائة ألف صلاة وفي مسجدي ألف صلاة وفي بيت المقدس خمسمائة صلاة. وبه عن أبي ذر رضي الله عنه قال قلت يا رسول الله الصلاة ها هنا أفضل أم الصلاة في بيت المقدس، قال صلاة في مسجدي خير من أربع صلوات فيه، ولنعم المصلى هو أرض المحشر والمنشر. وبه عن يزيد بن عبدالله رحمه الله قال من خرج الى بيت المقدس بغير حاجة إلا الصلاة فيه فصلى فيه خمس صلوات صباحا وظهرا وعصرا ومغربا وعشاء خرج من خطيئته كيوم ولدته أمه. ولو تتبعت الاحاديث المأثورة والاحبار المشهورة لأملأت وملأت ورويت ورويت. هذا الى ما اطلعه الله في ذلك الافق المنير من بدور العلماء وامتنع من صدور الاولياء الذين وردوا على طاهر تلك البقاع وقصدوا الى العبادة فيها والانقطاع، فسن الله إليّ البغية ولقيتهم أجمعين ورويت عنهم. ولما كثر على تعدادهم وقل عليّ نظراؤهم وأندادهم، انتقيت منهم هاهنا خمسة يتبرك بذكورهم وتعطر الاندية بشكرهم (فأولهم) في الحلبة وأولاهم بالتقديم على هذه العصبة الشيخ الخطيب العالم زين الدين أبو البركات عبد الرحيم^(٢) بن بدر الدين أبو عبدالله محمد بن ابراهيم ابن أبي الفضل بن سعد الله بن جماعة بن علي بن جماعة بن حازم بن صخر الكناني الشافعي سليل العلماء العالمين وقليل النظراء في عباد الله الصالحين، تحلى من مراقب الفضائل والمعارف وتحلى بالمجد التليد والطارف قصرت الاوهام عند كنه فضله ونقصت الاحلام عن رجاحة عقله وعجزت الاقلام عن وصف مثله كثر من كنوز الكرم لا ينفد على النفقة ولا يسأم من الصلة والصدقة فيا له من رجل ما زادت الرفعة الا تواضعا عجبا، ولا أبقت له المعلومات في العجب أربا برع بأحسن صورة، ورفع من المجد أرفع سورة، وجمع جمال سمات وجمال سيرة زين به ذلك المسجد الشريف ومحرابه وعين للامامة والخطابة فيه، وما بقل عذاره ولا كمل شبابه، فجلس على الكرسي الاكبر ورقى ذروة المنبر

(١) ولي قضاء غزة ثم قضاء الخليل، وتوفي ٧٦٤. الانس ١٢٥/٢ (ك.ع).

(٢) هو ابن القاضي بدر الدين محمد الذي تولى قضاء الديار المصرية والذي مر ذكره في الحديث عن رحلة العبري (ك.ع).

فلو أن مشتاقا تكلف فوق ما في وسعه لسمى اليه المنبر
خطة ورثها من الفاضل أبيه ورتبة ما برح يتوخى فيها السنن الرضى ويقتفيه، ولو لم يكن
لديه الا اقتفاء سير أسلافه الصالحين والرواية عنهم وعن والده قاضي القضاة بدر الدين رضى الله
عنهم أجمعين، لقيته بالمسجد الأقصى عمره الله تعالى بالذكر وضاعف لمجاوره جزيل الاجر
فأدخلني الى منزله الكريم الذي التصق بابه بمحراب ذلك المسجد العظيم فرأيت منزلا جليل
القدر سامي الخطر مكلل الجوانب مرصع الارز^(١)، فذهلت في نقشه وخجلت من وطىء فرشه
ثم ذكرت ما أعده الله تعالى لاوليائه في دار كرامته من النعيم المقيم وتلوت: «قل ان الفضل بيد الله
يوثيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم». وقد سمرت في زوايا مجالسه حدود الورد الغض،
وتراكت سحائبه بعضها فوق بعض، فعجبت من ظهوره في غير أيامه، وأكبيت على انتشاقه
والثامه . . . ولم أزل أتردد اليه واسمع منه، وأقرأ عليه حتى تحصلت لي منه جمل مفيدة، ومقيدات
عديدة. وما قرأت عليه بمنزله المذكور جميع الجزء الذي ألفه وخرجه عن شيوخه في أحاديث نبوية،
وفوائد جمّة، وجميع الجزء المسمى بتفحيط المناظرة، في تصحيح المخابرة، وجميع كتاب المنهل الروى
في علوم الحديث النبوي، وهو اختصار كتاب ابن الصلاح رحمه الله تعالى، وجميع الخطب
المختصرة من خطب ابن نباتة رحمه الله تعالى. وما سمعت بلفظه بعض كتاب غرر التبيان لمن لم
يسم من القرآن، وبعض كتاب تجنيد الاجناد في وجهات الجهاد، وبعض كتاب مستند الاجناد في
آلات الجهاد، وكلها من تأليف والده سوى الجزء الاول، وتناولت ما لم يكمل لي سماعه عن يده
المباركة وأخبرني بذلك سماعا عن المؤلف والده المذكور وقرأت عليه وسمعت منه غيرها حسبما
كتب لي لذلك وأجازني اجازة تامة. والثاني أعوذ بالمعوذتين والسبع المثاني الشيخ العالم الامام
الحافظ مفتي المسلمين صلاح الدين خليل بن كيكلدى^(٢) بن عبدالله العلائي الشافعي
الدمشقي^(٣) نزيل بيت المقدس نفع الله تعالى به رجل من أكبر كبار المشرق. واستقل بالامامة في
جميع فنون العلم ولما يشب له سواد المشرق، واستقر بالنيرين، نور علمه ونور جبينه المشرق، فجلى
من حسن الصورة بما قصرت عنه مخدرات القصور، وأتى من الشجاعة ما يرعد به مفارق ومفاصل
الليث المصور، ومنح من الكرم ما تحل عنه اسخياء هذه الازمنة وكرماء هذه العصور. ولما أكمل
تعالى عليه نعمته في كمال خلقته واعتدال قامته وبنيته أحب أن يزيد كمال حلاه البدنية، وصفاته
بكمال نفسه السنية، وذاته البهية، فجمع في صدره ما تشئت من فنون العلم، والقى عليه سكينه
الوقار والتقى والحلم، والبس أديم الحسن ناعم ذلك الجسم، فلم تر عيني على عظيم ما رأيت من
مخلوقات الله تبارك وتعالى رجلا أتم حسنا، ولا أكمل معنى، ولا أنبل تحصيلا، ولا أفضل جملة
وتفضيلا، منه في صورته وسيرته وعمله، ولبسه وعقله وفضله، واعتداله وكمالته وجزالته وبسالته
وشجاعته وبراعته ودهائه وحيائه وحبائه وكرمه وكلمه وحفظه ولفظه وفصاحته وسماحته وزكائه

(١) يرُجَّح من الوصف أنه كان يُسكن في الزاوية الحُتَّيْبَةُ الملاصقة للمسجد الأقصى من جهة الجنوب (ك.ع).

(٢) الكيكلدى، محدث كبير ترجم له ابن السبكي في الطبقات وهو غير الذي شرح لامية العجم المشهور بالصفدي الشامي.

(٣) سبق ذكره في رحلة ابن بطوطة (ك.ع).

ونباهته ونزاهته وعبادته وزهادته وورعه ودينه واخلاصه ويقينه وحركاته وسكونه وتصرفاته في جميع فنونه .

لولا عجائب صنع الله ما ثبتت تلك الفضائل في لحم ولا عصب
يمينا بثاياته السافرة، وآياته السائرة ان الاحبار لفي حيرة بافادته كالمحابر والمنابر، باجادته،
وان أوضح المفوظات ما تلقاه فالتقاء، وأصح المحفوظات، ما أحرزه فأبرزه. ببصيرته يمتدني
البصري، وبكفايته يقتدي الكوفي وينكته يستصحب الصاحب^(١) وعلى انشائه يعتمد ابن
العميد. وأما الآثار فعليه مدارها ولديه ينفق عندها وينذارها(؟) لا جرم أن ذا التحصيل والرأي
الاصيل، من طاف بسدة سيادته، وجنح لمعلم علمه فاستعدى الرشاد والسداد واستملى^(٢) المتن
والاسناد ليسعد جده بالحمل على الجادة، ويتحقق في كل صورة ومادة، بين الصبح لذي عينين،
وما قلت الا بالذي علم سعد، لقد حضرت مجالس تدريسه التي هي متدى الاعلام، ومنتهى
جهد الاسماء الاعلام، وميدان فرسان الطروس والاقلام، وقلائد اعناق مدارس الاسلام. فكان
كل من حضرها من علماء الامصار يحلف انه ما سمع بمثلها من مثله في هذه الاعصار، وان الله
أخلصه بخالصة ذكرى الدار، وجعله من أولى الايدي والابصار. ولقد حل أول شهر رمضان
معتكفا بالمسجد الاعظم لالتزام الاوراد والاذكار، والتسبيح والاستغفار، فما كان يبرز منه الا
للافتطار، وقضاء ما خف من الاوطار. ولقد شاهدته بطول الشهر المذكور وقد اختص به واحتل
بمنزله من طلبة العلم وغيرهم ما ينيف على الاربعين رجلا سوى عائلته، والجميع من عنده يأكلون
واليه ينضمون ويأوون، فسألت ذلك فقيل لي ذلك دأبه وعادته في رمضان كل سنة على تعاقب
الدهور والازمنة. وهذه نبذ من عظام فضائله، ولمع من حسان فعائلته، فلنقف عندها، وهي تدل
على ما بعدها، ثم نذكر بعض ما سمعت من لفظه ونقلت من خطه أو حفظت فمن ذلك كتاب
الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ﷺ للقاضي أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض رحمه الله
تعالى سمعت جميعه من لفظه بالمسجد الاقصى الشريف وحدثني به بسنده المكتتب بخطه في
اجازته لي وقرأت بلفظه جميع كتاب الشفاء هذا، وسمعت بلفظ غيره على جماعة كثيرة من أهل
الاندلس غرب العدو وأثبت سندهم فيه في برنامج روايتي وسمعت عليه بعض كتاب مسلم بن
الحجاج رضي الله عنه وجميع الجزء الذي صنفه في تقرير الوجدانية لله تعالى، يشتمل على تفسير
قوله تعالى: يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق، الآية . وجميع بغية
الملتمس في عوالي حديث مالك ابن أنس من تخريجه أيضا وهو ستة أجزاء خرجها من كتاب الموطأ،
وقرأت وسمعت عليه غير ذلك مما هو مثبت بخطه كذلك. وله شعر رائق ونثر فائق أسمعني من
ذلك جملة وأنشدني. ومن خطه نقلت لشيخه الامام العلامة فريد دهره ووحيد عصره قس
الفصاحة ملك البلاغة شهاب الدين ابن أبي الثناء محمود سليمان الحلبي^(٣) كاتب السلطان

(١) الصاحب بن عباد (ك.ع).

(٢) ن ٢١٠ واستملا وهو خطأ لان استملا الدين جعله في الاغنياء الثقة.

(٣) محمود ابن سليمان الحلبي ثم الدمشقي، شهاب الدين (٦٤٤-٧٢٥ / ١٢٤٧-١٣٢٥). ولي ديوان الانشاء بمصر والشام نحو ٥٠ عاما. ثم ولي كتابة السر بدمشق. كان شيخ صناعة الإنشاء في عصره (الاعلام، ١٧٢/٧). (ك.ع).

بدمشق كل فريدة غيداء وحديقة غناء رائقة النظم والرصف فائقة الوسم والوصف مالكة القلب والطرف .

يقود عنان السمع حسن نشيدها فتزرى بالحنان الغريض ومعيد

وأنا أول من جلب شعر شهاب الدين هذا فأدخله بلاد المغرب وقصيدته اللامية الحافلة التي استوتفت كثيرا من معجزات النبي ﷺ وهي من القصائد العجيبة والقلائد الغريبة وأولها .

هذا اللقاء وما شفيت غليلا كيف احتيالي ان عزمتم رحيلا
يا دار من أهوى وحقك لم أجب داعي التفرق لو وجدت سبيلا

وعدها مائة بيت وواحد وثمانون بيتا .

والثالث أكبرهم سنا . وأكثرهم بالمعاني الادبية معنى الشيخ الفقيه المحدث الاديب علاء الدين أبو الحسن علي بن أيوب بن منصور المقدسي الشافعي^(١) أبى الله بركته شيخ النظم والنثر وامام الحديث في ذلك القطر خطب حسناء الادب سنين ، وانعقد النكاح بينها بالرفاء والبنين ، واعتنى بالرواية فأخذ عن جلة من الشيوخ الغابرين قطع في ذلك زمنه ، وأطار فيه وسنه ولم يش لغير العلم همته ، ولا جر في سواه رسنه ، فروى وقيد وشيد من مباني العلم ما شيد ، فهو اليوم وان قرب من الفوت رُحله هذا الوقت له سبلة متسدلة يروق ايماضها ويقوق السواد بياضها ، على وقار وسكينة وجلالة مكينة وحصاة رزينة وهيئة زينت بأحسن زينة ينصب مجالسه المباركة لعلوم الحديث في القديم من الزمان والحديث ، فيعلوها منه الصدق ويغتنمها لديه الخلق ويطرق اليها من أقاصى البلاد ، فيلحق فيها الاصاغر بالاكابر والاباء بالاولاد ، سمعت عليه بمجلسه من المسجد الاقصى الشريف جميع صحيح الامام أبي عبدالله محمد بن اسماعيل البخاري رضي الله عنه بعد أن كفت سمعت عليه جميع الثلاثيات المخرجة منه وحدثني به عن الشيخ الامام تاج الدين أبي محمد عبد الرحمن بن ابراهيم بن سباع الفزاري^(٢) ، وعن الشيخ الحافظ شرف الدين الحسين علي بن محمد بن أحمد اليونيني^(٣) قراءة منه على كل واحد منها بجميعة بدمشق المحروسة قالوا أخبرنا الشيخ الصدوق أبو عبدالله الحسين بن أبي بكر المبارك بن محمد بن يحيى بن الزبير أخبرنا الشيخ الثقة أبو الوقت عبد الاول بن عيسى بن الشجري أخبرنا الشيخ أبو الحسن عبد الرحمن ابن محمد المظفر الداوردي أخبرنا أبو محمد عبدالله بن أحمد بن حموية السرخسي ، أخبرنا أبو عبدالله البخاري ، وقد كنت قرأت عليه بلفظه جميع صحيح الامام أبي عبدالله البخاري بالمسجد الاعظم

(١) تولى مشيخة الصلاحية سنة ٧٢٦ وتوفي ٧٤٨ عني بمختلف العوام الاسلامية ، مجر الدين ١٠٦/٢ الدرر الكامنة ٩٩/٣ ، ابن كثير ١٢٣/١٤ شذرات الذهب ١٥٣/٦ (ك.ع).

(٢) عبد الرحمن بن ابراهيم بن سباع الفزاري البصري أبو محمد تاج الدين (٦٢٤-٦٩٠ / ١٢٢٧-١٢٩١) مؤرخ من علماء الشافعية ، مصري الاصل ، دمشق الإقامة والوفاة ، هو والد برهان الدين ابراهيم مؤلف كتاب باعث النفوس الى زيارة القدس المحروس (والاعلام ٢٩٣/٣).

(٣) محمد ابن احمد اليونيني (١١٧٦-١٢٦٠) من حفاظ الحديث ، حنبلية وهو ابو قطب الدين موسى المؤرخ . (الاعلام ٣٢٢/٥) (ك.ع).

في مدينة مالقة حرسها الله عام ثلاثة وعشرين وسبعمائة على الشيخ الخطيب الصالح الولي الله تعالى أبي عبدالله محمد بن أحمد الهاشمي الطنجالي، وسنده فيه مشهور لجودته، وسمعت على شيخني هذا بالمسجد الأقصى الشريف، جميع أحاديث الرباعيات المروية عن مسلم رضي الله عنه وجميع الجزء الذي فيه التساعيات من شيخه ابن البخاري، وجميع الجزء الذي فيه ثمانية وثمانون حديثاً من مشيخته أيضاً وجميع جزء الانصاري وجميع الثمانية عشر حديثاً وحديثين عن ثمانية عشر شيخاً، وشيختين لابن الطاهر، وأسانيد هذه الاجزاء كلها مستوفاة في برنامج روايتي، وسمعت عليه بحيث ذكر جميع قصيدتيه الرائيين اللتين نظمهما في فضائل المسجد الأقصى شرفه الله تعالى، وأجازني بالاجازة التامة وكتب لي بخطه. ومولده يوخذ من قوله فيما كتب لي به في استدعاء وأنشدنيها بلفظه رضي الله عنه :

(اجازهم المستول فيه بشرطه على بن أيوب بن منصور بالقدس)
(ومولده ما بين ستين حجة وسبعين بعد الستمائة بالحدس)

ورابعهم في التعداد، العديم الاقران والانداد، الشيخ الفقيه المقرئ الصالح شمس الدين أبو عبدالله محمد بن علي محمد بن مثبت الخولاني الاندلسي^(١)، أحد العباد الموقنين، والعباد المتقين، يذكر سيره السلف الصالح بعمله الموهوب، وعقله الراجح، ما تراه أو تلقاه الأيروك دينه وتقاه ولا تبصر مجلسه أو عمشاه الا وتباهه وتحشاه اشتغل بما يعنيه، واشتمل دهره اما على علم ينجي، أو الى عمل يجنيه، قد عزل عن الناس نفسه وجعل بالله وبكتابه انسه، فليس له هم الا في اقرآء القرآن، وايراده عند اغفاء الاجفان، أو في اطعام كبد جائع واغائة ملهوف مغترب شافع فهو مأوى الغرباء وجنان الفقراء ومظان قضاء حوائج الاخوان والاولياء:

قبلة في السماح يجتمع السا بق في فضلها مع المسبوق

رحل عن الاندلس فتي غرا فجرعه البين كاسه مرا، والى هلم جرا يذكر أوطانه فتفيض دموعه حمرا ويهب له منها نسيم فيذكي ضلوعه جمرا، لا جرم أن الزمان أخذ بيده، قبلغه أسنى مقصده وانجزه أكرم مواعده فوعى وفهم وعمل بما علم واستفاد وأفاد، ورزق المال والاولاد فهم الآن بذلك الحرم الشريف من خيار المدرسين وكبار الرؤساء لا المرءوسين، كثيرا ما كنت أحضر مجالسه العلية وفوائده العلمية ودروسه الفقهية والنحوية فاغبط من حضر والتقط الدرر:

وأمنح الطرس من الفاظه نبذا وأخلط العنبر الوردى بالعفر

ومما قصدت روايته لعلوه فيه، كتاب عوارف المعارف تأليف الامام شهاب الدين أبي حفص السهروردي^(٢) رحمه الله تعالى سمعت أكثره بلفظه وتناولته من يده، فحدثني به عن الشيخ كمال الدين عمر بن الياس المرعني سماعا عليه بجميعة حدثه به عن الشيخ الامام قطب الدين أبي بكر

(١) مر ذكره في رحلة ابن بطوطة (ك. ع).

(٢) الصوفي المشهور.

بن محمد بن أحمد القسطلاني^(١) قراءة عليه من المؤلف شهاب الدين المذكور سماعا عليه من لفظه أيضا، أكثر رسالة الشيخ أبي القاسم القشيري رحمه الله وناولني إياها، وحدثني بها عن الشيخ شهاب الدين أحمد ابن يحيى بن اسماعيل بن جهيل قراءة منه عليه لجميعها حدثه بها عن الشيخ شرف الدين بن هبة الله بن عساكر سماعا عليه عن الشيخ أبي محمد عبد الوهاب بن شاه الشاذياخي سماعا، عن المؤلف المذكور وسمعت من لفظه جميع الاحاديث التي خرجها الشيخ الامام فخر الدين أبو الحسن علي السعدي المقدسي الحنبلي، وحدثني بها عن الشيخ شهاب الدين بن أحمد بن جهيل المذكور، قراءة عليه حدثه بها عن مخرجها فخر الدين المذكور سماعا، سمعت غير ذلك واجازني اجازة تامة وكتب لي بخطه^(٢). (وأوترهم) بل أوترهم بمسك الختام، وملك الكلام وخامس الاربعة الكرام، وحامل لواء البيان بين صنائيد مصر وفحول الشام الشيخ الفقيه الاديب الابرع جمال الدين أبو بكر محمد بن محمد بن الحسن بن أبي الحسين بن صالح بن علي بن يحيى بن طاهر بن عبد الرحيم بن نباتة المصنف صاحب الخطب الشهيرة أبرع خلق الله اذا نظم أو كتب ومن جمع الله له الادب والحسب، ورحب في تلك الطباع، أملح الانطباع وأمد الباع إن تغرل أو نسب، الذي مد أرض البلاغة ودخلها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها، يستخرج بن بحره اللؤلؤ المنظوم والمثثور فيسحر الحور ويفتن الحور^(٣) ويطمع المهارق ويؤس النحور، فرفقا يا درة النفس ومهلا يا مرجانة المسطور، غازلت الغزلان، وبدرت البذور، وعلمتنا نبتد المباسم ونسسى الثغور فنحن في روضة مدبجة نخرج من زهرة الى زهرة. ولما ملكه الله تعالى ملاك هذه الطريقة الادبية وقوامها وحطت لديه هذه الصناعة السنوية رحلها وزمامها ومدت له في الادب غاية كبا دونها أهل الاداب، ورفعت له في الشعر راية مشى تحتها كثير من الشعراء والكتاب، تنافست ملوك الشام في لقائه وتهاقت على اصطفائه وارتقائه فحولته مقاصد وقصورا ووهبتة ولدانا وحورا، وأنالته نعيما وملكا كبيرا، فانصوى اليهم زمانا، وتلقى منى وأمانا فزهت في يمينه الأقلام، ونهت وأمرت بين يديه الليالي والايام:

وزف اليهم بنات النهى فأمهر نقدا ولم يخش نقدا
ونظمها بجبين العلى فزانت كما زين الجيد عقدا

خطب حسناء المعالي فلم يُغله المهر، ونهى وأمر فامتثل اليه النهى والامر، وأنيل أمله النظم والنثر، وحلل سحرهما وقد حرم السحر، فقرط وشفن، ودبج وفوف، وألف وصنف، وعنى بينات فكره القلوب ممن عنى، وعنف، وسحرتني ألقاظه، ولقد كنت بعيدا من أن أصاب بسحر، الا أنه اليوم قد أثر الراحة من حراسهم وحجا بهم، واستغنى بباب الله عن الوقوف الى أبوابهم، فما يظأ لهم ناديا، ولا يليبي منهم مناديا، بل أقبل على ما يعنيه، وأعرض عما كان يتعبه ويعنيه،

(١) ٦١٤ - ٦٨٦، عالم بالحديث ورجاله، أصله من توزر بإفريقيا، ومولده بمصر. تولى مشيخة دار الحديث الكاملية بالقاهرة الى أن توفي. له كتب كثيرة في الحديث والتفسير تجد بعضها في (الاعلام ٣٢٣/٥) (ك.ع).

(٢) شاذياخ من قرى بلخ، (معجم البلدان ٣/٣٠٥) وشاذياخ أيضا مدينة تيسابور (المصدر نفسه) (ك.ع).

(٣) الحور في الكلمة الأولى جمع أحور وفي الكلمة الثانية جمع حوراء.

بهمة تشرق فهي الشمس أو تسمو الى الغايات فهي زحل .

لقيته بحرم المقدس أتاه من دمشق زائرا، وخرج من بيته مهاجرا، وقد كان عرف أنى في الطريقة من أنسابه وعلى الحقيقة من المتعلقين بأهدابه، فحين رآني أسرع في القيام، وبادر الى اللقاء والى السلام، فحجلت من فعله وعجبت من فضله واستشديني من شعري، فأنشدته لي ولغيري، وتحصل بيني وبينه ذمام أكيد، وعهد بفضل الله حميد، ثم سألته في تقييد شيء من شعره فأخرج لي ما ارتضاه منه واختاره في نسخة تغار عليها حبات القلوب اذا تبديها، وتود الاحداق اذا رمقتها لو تبديها بياضها بياضها وسوادها بسوادها، فاستعرتها منه، وكتبتها عنه فلما رمت ما كتبتة أحب اقتناءه تمجيذا للعهد وحفظا للود فاستوهبه مني محتشا، واسعفته فيه فقبله وقبلت ضاحكا مبتسما، ووهبني أصله وأكمل لدى طوله وفضله فأنا أول من جلب ذلك الدر النفيس من بحره، وتقلد في جيده ونحره، وفاز بشرفه وفخره . ولما قرأت عليه أخذ القلم بمحضري وكتب على ظهر الاصل ما نصه (الله الموفق قرأ عليّ الشيخ الامام العالم الكامل الفريد أبو البقاء خالد البلوى الاندلسي شكر الله برة المغدق وأصله المعرق، وحرس شخصه الذي تقول المحاسن : أطلعه الغرب فأرنا مثله يا مشرق أكثر هذا النبذ من شعري والرسالة من انشائي قراءة ملاً بها سمعا وذمنا، وأربح بها للشعر نقدا ووزنا، وفضها سبط حلى فهو اما يقلد عنقا واما يقرظ أذنا وأحكمها ببيانه وصوته، فما سمعت أطيب من حالته اعرابا ولحنا، وأجزت له روايتها وجميع ما تجوز لي روايته معترفا بفوائده الممتازة، عالما أنه كان يجب أن أجيز من الجائزة لا من الاجازة متطوقا عوارفه التي عز بها الجيد ولا كرامة للدر، ولا عزازة، ونحلتها هذه النسخة . وسألته اصلاحها بعد أن تعرضت عنها بنسخة من خطه الذي يتنافس فيه البصر والسمع، وقطرات أقلامه التي اذا نافستها أقلام الفضلاء تولوا واعينهم تفيض من الدمع والله تعالى يرحم أسلافه، ويبقى منه على كرمه الطاهر ما أبقي الكرم من السلافة قال ذلك وكتبه محمد بن الخطيب بن نباته العبشهي المصري ثم الشافعي وذلك في شوال سنة سبع وثلاثين وسبعمائة بحرمة القدس الشريف .

ثم تألف بتلك المدينة الركب، وأشتاق الى البقاع الكريمة القلب فأعددت الزاد . وشددت الاقتاب والاققاد^(١)، وخرجت من مدينة القدس الشريف . في عشي يوم الاربعاء الثاني عشر لشوال من العام المذكور . وقد تضمخ حبي الاصيل بالعبير، وكادت الشمس تسقط من الغرب على شفير، فبتنا بقرب سورها، وأخذنا من الامور بميسورها، وودعت بمنزلنا ذلك أخى محمد المذكور المتقدم الذكر وداعا استولى على الفكر . فشغلت مقل بالدموع، وأكباد بالجمر، وطالت النوى لوجدان الاسى وعدم الصبر:

ومدت أكف للوداع وصافحت
ولا بد للآلفين من دمع لوعة
وكادت عيون للفرق تسيل
اذا ما خليل بان منه خليل

(١) القتب : رخل صغير والقند خشب الرحل .

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب

تأليف : احمد بن محمد المقرئ التلمساني

تحقيق : احسان عباس - المجلد الاول

دار صادر بيروت - ١٩٦٨

(ص ٥٤ - ٥٨)

[ثم عدت الى مصر وقد زال عني ببركته ﷺ الإصر، وذلك في محرم سنة ١٠٢٩، ثم قصدت زيارة البيت المقدس في شهر ربيع من هذا العام، وقد شملني بفضل الله جوائز الانعام، وتذكرت عند مشاهدة تلك المسالك الصعبة قول حافظ الحفاظ ابن حجر العسقلاني - رحمه الله تعالى - وهو مما زادني في هذه الزيارة رغبةً:

الى البيت المقدس جئت ارجو جنان الخلد نزلا من كريم
قطعنا في مسافة عقاباً وما بعد العقاب سوى النعيم
قلما دخلت المسجد الأقصى، وابصرت بدائعه التي لا تُستقصى بهرني جماله الذي تجلي الله
به عليه. وسألت عن محل المعراج الشريف فارشدت اليه وشاهدت محلاً أم فيه ﷺ الرسل الكرام
الهداة].

وبعد زيارة المقرئ للقدس ذهب إلى القاهرة وزار مكة والمدينة، [ثم أُبْتُ إلى مصر مفوضاً
لله جميع الأمور، ملازماً خدمة العلم الشريف بالأزهر المعمور، وكان عودي من الحجّة الخامسة
بصفر سنة سبع وثلاثين وألف للهجرة، فحركتُ همي أوائل رجب هذه السنة للعود للبيت
المقدس، وتجديد العهد بالمحل الذي هو على التقوى مؤسس، فوصلتُ أواسط رجب، وأقامت
فيه خمسةً وعشرين يوماً بدا لي فيها بفضل الله وجهُ الرشد وما احتجب، وأقيت عدة دروسٍ
بالأقصى والصخرة المنيفة، وُرُتْ مقام الخليل ومن معه من الانبياء ذوي المقامات الشريفة.

ثم استوعبت أكثر تلك المزارات المباركة كمزار موسى الكليم، على نبينا وعليهم وعلى سائر
المرسلين والأنبياء أجمعين أفضل الصلاة والتسليم، ثم حدث لي متصف شعبان، عزم على الرحلة
إلى المدينة التي ظهر فضلها وبان، دمشق الشام، ذات الحسن والبهاء والحياء والاحتشام،
والأدواح المتنوعة، والأرواح المتضوعة، حيث المشاهدُ المكرمة، والمعاهدُ المحترمة، والغوطةُ الغناء
والحديقة، والمكازم التي يُباري فيها المرء شائته وصديقه، والأطلال الوريقة والأفنان الوريقة].

رحلة الشيخ الامام العلامة القدوة الهمام
العارف الكبير والمحقق الشهير ابي سالم
سيدي عبدالله العياشي المسماة «ماء الموائد»
- الجزء الثاني -

(ص ٣١٥ - ٣٢٤ و ٣٤٤ - ٣٤٥)

ودخلنا مدينة القدس وقت العصر وصلينا العصر بقية الصخرة وانزلنا حوائجنا اولا بزاوية المغاربة حتى لقيت الشيخ محمد الصيرافي فقيه رواق الشيخ منصور^(١) الكائن تحت الصخرة المقدسة. وقد كتب اليه الشيخ عبد القادر كتاباً يوصيه بنا فاعطانا بيتاً بإزاء الرواق ونقلنا اليه حوائجنا. وكان داخل المسجد فاغبتنا به لتمكنا من الجلوس في المسجد والصلاة فيه في اي وقت اردنا. وهذا المسجد المقدس آية من آيات الفن في فخامة البناء وسعة المقدار فيه أشجار كثيرة من التين والزيتون عظيمة تحت كل شجرة مصطبة مبنية بالحجر المنحوت على قدر ما تظله أغصان الشجرة، فيه شكل محراب فيجلس الناس تبعاً للصلاة والقراءة ويأوي اليها الفقراء المتجردون. وطوله من الجهة الشرقية ستمائة ذراع وخمسة وستون ذراعاً بالذراع المالكي وعرضه اربعمائة ذراع وستون ذراعاً بالذراع المالكي. واما الاروقة التي في داخله والبيوت التي في خارجه فشيء كثير. وفي وسط المسجد قبة الصخرة ماثلة في الهواء مثمثة الشكل لها اربعة ابواب. دور القبة كلها نحو من خمسمائة قدم، وحيطان القبة وارضها كلها مزخرفة بانواع الفسيفساء المصبوغة باصباغ مختلفة ونقوش عجيبة وهي في غاية الارتفاع واتقان البناء، وابوابها في غاية العظمة والاتقان. وداخل الابواب دربيز^(٢) مثنى بين الاساطين على دُور الصخرة. وفي داخل الاساطين الصخرة المقدسة يحيط بها شبك من خشب دوره نحو من تسعين خطوة. والصخرة لونها يميل الى الزرقة في غاية الصلابة. وشكلها فيه استدارة يغلب عليه الطول، وغلظتها نحو من ذراعين. وعلى ظهر الصخرة ندوب ومربعات صغيرة وكبيرة كانت اماكن احجار قطعت منها. وقد ذكر بعض المؤرخين انها كانت في زمن بني اسرائيل طويلة جداً وانهم قطعوها وبنوا فيها الكنيسة المسماة بقمامة. وعجائب هذه الصخرة والسلسلة التي كانت عندها في عهد بني اسرائيل مرتفعة وهي واقفة في الهواء على ما ذكر لا يُسكها الا الله. وأما في عصرنا هذا فقد بني يازاتها ومن تحتها الجدار صار ما تحتها شبه مغارة على هيئة مسجد يُصلي فيه الناس من تحت كُسْرُها المسمى بلسان الصخرة وهو من الناحية القبليّة. وكنت ادخل اليها في غالب اوقات الصلوات واصلي تحتها ما تيسر. وبين الباب القبلي والغربي في احد الاساطين حجر يقال ان فيه بعض أثر أعضائه ﷺ، والناس يتبركون به. ومن وراء قبة الصخرة (قبة) لطيفة يصلي بها الناس يقال ان منها عرج برسول الله ﷺ ليلة المعراج، ويحيط بمسجد الصخرة صحن كبير مفروش بالحجر المنحوت وعلى اطراف الصحن بيوت ينزلها المتعبدون وكذلك تحته . . . متعددة. وفي قبلة الصخرة من تحت الصحن بغلوة المسجد الاقصى وهو كله مسقف وفيه تصلي الجمعة وبنائوه من ارفع الابنية، وفيه موضع زعموا أن فيه صلى عمر رضي الله عنه لما دخل بيت المقدس. وفي ركنه الشرقي موضع يزار فيه حجر منحوت يقال له مهد عيسى. وهناك طاقات واسعات في جدار المسجد يشرف منها الى الوادي الذي يقال له وادي جهنم. وورد في بعض الآثار تسميته بذلك. وهناك رأس عمود من رخام خارج من جدار المسجد

(١) الرباط المنصوري - بباب الناظر، انشأه الملك المنصور قلاوون سنة ٦٨١ (ك.ع).

(٢) درابزين (فارسية).

يقولون انه رأس الصراط المنصوب على جهنم، وهو لا أصل له. وينزل من ذلك الركن في درج الى مسجد آخر تحت المسجد الأقصى واسعاً جداً مرفوع على اساطين من حجارة منحوتة وهو من البناء السليماني. وزعموا أن ذلك مقر المسجد في عهد سليمان، وان الذي نعرفه انما بني بعد ذلك. وما ذكروا هو الاقرب. وذكروا انه يمتد كذلك الى الصخرة وان ارض المسجد الآن كلها سطح ذلك المسجد ولا يتعدى ذلك. وبالجملة فغرائب الصخرة والمسجد الأقصى وما حولها من المزارات شيء كثير. وقد ألفت فيه التأليف. وانما نذكر من ذلك بعض ما رأيناه وزرناهُ فمن ذلك حجر خارج بعض ابواب المسجد الغربية مثقوب هو في داخل حايط يزوره الناس ويدخلون فيه ايديهم ويتمسحون به يقولون إنه الذي ربط به النبي ﷺ دابة البراق ليلة المعراج، وخبره مذكور في الصحيح. ومن عجائب هيئة هذا المسجد أن ناحية منه شرقية قد غلب عليها العشب والكلأ اليابس فلا يقدر احد أن يمشي فيها بلا نعل لكثرة شوكة المنكسر بعضه على بعض وانما يمر الناس في خط رفيع بين ذلك الشيخ^(١). وذكروا أن ذلك المحل ربما زرعوا فيه بعض الحبوب في بعض الاحيان ويستغلونها بالبعل لأن البلد كثير الامطار. وقد ذكر بعضهم أن من خاصية هذا البلد الشريف انه ما رأيت السماء صافية فيه يوماً كاملاً (لا) صيفاً ولا شتاءً ولا بد أن يرى في السماء غيم. إن الارض المقدسة هي ارفع مكان في الارض واقربه الى السماء وانها اقرب الى السماء من جميع الارض بثمانية عشر ميلاً، ويقدر ما ترتفع الارض تقل حرارتها وتكثر امطارها. ومن المزارات خارجها طور زيتا في شرقي المسجد بينه وبين الوادي الكبير المسمى بوادي جهنم. وطور زيتا مشرف على القدس كله وعلى غالب تلك البلاد التي حوله. وفي اعلاه مزارات فيها مكان يقال ان منه رفع المسيح عليه السلام من فوق حجرة هناك. وكان هذا المحل في ايدي النصارى وسعى شيخ مشايخنا قطب زمانه الشيخ محمد العلمي جد شيخنا الشيخ عمر الآتي ذكره في استخلاصه من ايدي النصارى ونصح لله في ذلك. وتعصب عليه النصارى باهل الدنيا وبذلوا في ذلك الاموال فأعانه الله عليهم حتى اخرجهم من ايديهم، وهو الآن في يد اولاده، وعمر تحت مشهداً ورباطاً فيه قبره رضي الله عنه^(٢). ومن المزارات التي على جبل الطور قبر العابدة العدوية في مغارة تحت الارض، ومن المزارات قبر مريم عليها السلام في كنيسة في أصل الوادي وهي بايدي النصارى فتخرجنا من الدخول اليه وزرناهُ من خارج، ومنها عين سلوان وهي في اسفل الوادي، ولم اصل اليها إلا برأي العين^(٣)، فبعثت من أتانا منها بماء، ووردت آثار في فضلها وزعم بعض الفقهاء انه وقعت منه آية في بير زمزم بمكة فذهب الى القدس فوجدها على باب المحل الذي فيه عين سلوان، وزعموا انهم استخرجوها من العين فيقولون ان ما ذقنا من زمزم، ويذكرون في ذلك اثراً وهو بعيد من حيث العادة اقرب شيء بالنظر الى اثر قدرة الله تعالى. وليست عيننا معيناً يجري ماؤها على وجه الارض انما هي مثل حوض ينزل اليه بدرج على ما أخبروا. قالوا: وربما ارتفع

(١) نبات ترعاه المواشي.

(٢) وهو يدعي الان الزاوية الاسعدية (ك.ع).

(٣) اي رأها عن بعد (ك.ع).

ماؤها حتى يجري على وجه الارض في سنين الخصب . ومن المزارات قبر شداد بن اوس وعبادة بن الصامت الصحابياني رضي الله عنهما وهما تحت سور المسجد الشرقي بينه وبين الوادي الذي يقال له وادي جهنم . وهناك مقبرة عظيمة . وحول قبريهما في سور المسجد صخرة عظيمة منحوتة طولها نحو من اربعة عشر ذراعاً وعرضها نحو من ذراعين إذا زيد والله اعلم كم عرضها الداخلى في الجدار . وسور المسجد هذا كله من بناء نبي الله سليمان عليه السلام بنته له الجن بتسخير من الله تعالى ، واثر ذلك ظاهراً ليس في قوة البشر تعاطي مثل ذلك . وحول باب المسجد الموالي لناحية الوادي موضع يقال إنه قبة عرش سليمان ، وهو من المزارات . وقد ذكر بعض العلماء أن الدعاء عنده مستجاب ، وهو قريب من الباب الذي يقال له باب حطة . وفي خارج المدينة قريباً من غربيها مزار يقال إن فيه قبر داود عليه السلام ، وكان بايدي النصارى فاستخلصه منهم ايضاً الشيخ العلمي او غيره من الصالحين . وغالب مزارات تلك البلاد هي بايدي النصارى فمما بايديهم بيت لحم الذي فيه مولد المسيح وهو على نحو فرسخ من المدينة الى ناحية القبلة . وقد مررنا قريباً منه لما ذهبنا الى زيارة الخليل عليه السلام ، ومنها قبر يونس ابن متى عليه السلام في قرية (١) قرب مدينة الخليل . وقد مررنا قريباً منه ايضاً وزرناهما من بعيد تأثماً من دخول معبد النصارى ولضيق الوقت .

وأما قبر موسى عليه السلام بينه وبين القدس نحو من نصف مرحلة أو أزيد إلى ناحية المشرق وقد أروني ما يحاذيه من الأمكنة عندما صعدنا الى الطور وأخبروني أن المسافة بيننا وبينه مخوفة غاية ولا يوصل إليه إلا في قوة ومنعة وكنت كثير الاشتياق لمشاهدة ما يقال هنالك من العجائب وان لم يرد أثر صحيح في أن ذلك قبره ولم يشتهر ذلك المكان في العهد القديم ولا في صدر الاسلام وإنما بناه وأظهره المتأخرون من الملوك وأكثر ذلك كان في المائة السادسة أو السابعة بإشارة أمير الكشف . . .

واستشرت بعض الاخوان في وجه نتوصل به إلى زيارة المحل المذكور وإلى مدينة الخليل عليه السلام فإن الطريق في تلك المدة قد بترت . ولا يوصل لزيارتها إلا مع قوة وقد خشيت أن أحرم زيارة المكانين ونحن في غاية الضيق لا يمكننا تطويل الإقامة خشية فوات الركب لمصر فأشار على المستشار بالوصول إلى قاضي البلد والتعرف له فانه قد يمكن ذلك على يده . وكان القاضي في ذلك الوقت الشيخ محمد النفاقي التونسي المغربي قدم من اصطنبول متقلداً لقضاء القدس وكانت له وجاهة عند السلطان والعسكر من لدن عهد أخيه الشيخ أبي الحسن النفاقي رحمه الله فترقى بجاه أخيه اذ استوطن اصطنبول مدة أعوام وقدم في هذه السنة إلى القدس . وليست له قوة المحافظة العلمية ، إنما هو مجرد ترسيم ووجاهة أكسبته ذلك الا أنه ينتمي إلى الصلاح بسبب أسلافه فيظهر الانخراط في سلوكهم فتوصلت إليه وسلمت عليه وأكرمني غاية وهش وبش وأظهر المسرة

(١) حلحول.

بقدمي وقال لأصحابه هيثوا له منزلاً ينزل فيه هو وأصحابه وأجروا له من الضيافة ما يليق به مدة إقامته ، فقلت له إننا قد نزلنا ببيت في المسجد ولا يمكننا التحول منه إثارةً لقرب المسجد والصلاة فيه فأجرى لنا المحتاج له من خبز ولحم يصلنا كل يوم إلى منزلنا بل أجرى لنا ما يفضل عن كفايتنا فجزاه الله خيراً ، فأبنت له مقصدي من إرادة الوصول إلى المقامين فقال لي : أما مشهد الكليم عليه السلام فلا يتيسر في هذه المدة مع هذا الضيق الذي أنتم فيه لشدة الخوف وبعد الشقة ولا عمران هناك ويحتاج إلى ذهاب القيم من هنا وعليه في الذهاب كلفة ، ولا أرى بك تحمل هذه المشقة كلها مع كون المحل ليس موثقاً به أنه قبر الكليم ولا هو قريب من الوثوق فقبلت عذره في ذلك ورأيت أن النية كافية وتوجهنا إلى المحل بقلوبنا ووجوهنا عندما طلعتنا وزرناه من هناك والله يتقبل .

ومن لقبته بالقدس رجل يسمى شهاب الدين الحنبلي المصري قدم من مصر الى القدس قبلنا بمدة واقام بالقدس نحو الشهرين . وبلغنا بالرملة وغزة أن عالماً من علماء القاهرة ورد إلى القدس واخذ يدرس الحديث وبالغوا في الثناء عليه وذكروا له محلاً عظيماً في العلوم الشرعية فاشتقت الى لقائه لاجل ذلك . فلما وردت القدس ونزلت برواق الشيخ منصور داخل المسجد وكان هو نازلاً بقربه فبعث إليّ بين العشائين قبل أن اذهب اليه فدخلت اليه في منزله ورحب بي وسأل عن اخبار الحجاز وكنيت الحظه بعين التوقيع على قدر ما كنت اسمع وإن تبين لي من كلامه أن ليس عنده تحصيل فأحمل ذلك على محامل حسنة . وفي الغد رجعت اليه ووجدت بعض الحنبلية يقرأون عليه المناسك في فقه الحنفية فجرى ذكر يوم التروية فقال انه مشتق من الرؤية فقلت ان هذا لا يصح وانما هو مصدر تروى من الماء لانهم كانوا يتروون فيه من الماء واعرضت عنه وتبين لي جهله وغباوته وان ما انتشر له من الصيت انما هو بغلبة الجهل على اهل تلك الديار وقلة المحصلين بها فضلاً عن المحققين

ولما كان صبيحة يوم الخميس ثاني يوم دخولنا دخلنا الى الشيخ امام الصوفية وابن امامها في تلك الديار الشيخ عمر العلمي وهو حفيد العالم العامل الغوث الشيخ محمد العلمي . وجدّه هذا هو شيخ شيخنا العالم العلامة سيدي ابي بكر بن يوسف الكتاني تلقى عنه الذكر والبسه واجازه وكان يثني عليه كثيراً ويقول ما رأيت اعبد منه مع علمه وورعه . ومما اخذ عنه ايضا الشيخ المقرئ وهو انه اشار على الشيخ ابي بكر بلقائه والأخذ عنه وساذكر التعريف بهذا الشيخ آخر الترجمة . ثم ان الشيخ عمر عزم علينا الى داره بعد عصر يوم الجمعة الثامن عشر من شهر صفر فأخذت عليه العهد ولقنتي وشدّ المتزر في وسطي واقعدني واقامني ثم اقعدني قايلًا اجلس مريداً وقم خادماً للفقراء واجلس قريباً لهم ، ووهب لي القوطة التي شدّ بها وسطي واجازني وكتب لي اجازة متضمنة بخطوط جماعة من اصحابه واصحاب جده يشهدون بذلك . . .

ومن اصحاب شيخنا عمر محبنا واخونا في الله الشيخ محمود السالمي . . . وقد عقدت معها عقد اخوة في الله ، وتكفلا لي بالدعاء مدة حياتهما في تلك المقامات الشريفة . ووهب لي اخونا الشيخ محمود السالمي ديوان الشيخ محمد العلمي وفيه من جيد القصايد المحتوية على قصايد

الصوفية وأمداح خير البرية ما لا يحصى كثرة ووهب لي جملة من رسائله وساذكر بعضها إعلاماً بمقامه وحاله . وشيخنا عمر هو القائم مقام جدّه في تربية المريدين وخليفته في اقامة وظائف الدين وترتيب مجالس الذكر ومجلس للذكر كل ليلة مع جماعة كثيرة من اصحابه بين العشائين بباب الصخرة . وكان ابوه عبد الصمد توفي في حياة والده وبقي ولده هذا في كفالة جدّه وقد شملته عناية جده وظهرت عليه آثار بركته والله الحمد . وهذا نص الاجازة التي كتبها لي رضي الله عنه وقد نقلتها مع طولها تبركاً بها .

(نص الاجازة التي اعطيت للمؤلف)

في الطريق الرفاعية

وتاريخها شهر صفر في العشر الأخير سنة (١٠٧٤)

ونجد في الصفحة ٣٣٣ سيرة ذاتية للشيخ محمد العلمي جاء في ختامها قوله :

«واما مولد العبد الفقير فأخبرنا سيدنا الوالد رحمه الله أنه كان في شهر رجب سنة ثلاث وستين وتسعمائة وأسأل الله خاتمة الخير من غير فتنة ولا بلاء ولا نعمة بمنه وكرمه انه اكرم الاكرمين وارحم الراحمين ، وأوصي الجميع من ابنائي واخواني واحبائي وايبي بتقوى الله الكريم الديان في السر والاعلان واسألهم صالح الدعاء لي ولاشياخي ولأبائي وابنائي واخواني والحمد لله رب العالمين» .

وخرجنا من القدس الشريف ضحى يوم الاربعاء الثالث والعشرين وما كنا عزمنا في ذلك اليوم على الخروج الى أن بعث الينا القاضي النفاتي المتقدم ذكره وقال إني وجدت رفقة مأمونة وعلى تيسير لنا فاعزموا على المشي فودعنا الشيخ عمر وخرج معنا اصحابنا الى خارج المدينة وودعنا القاضي ودفع كراء الدواب التي ركبناها الى الخليل وكتب كتاباً الى نايبه في مدينة الخليل عليه السلام يوصيه بنا . فسرنا في حفظ الله تعالى ومررنا بالجوابي^(١) التي يأتي منها الماء الى المسجد الأقصى وهي جواي عظيمة في غاية السعة لم ارى اوسع منها ، وهي ثلاثة متوالية يجتمع فيها الماء من عين هناك حتى اذا امتلأت ذهب في قنوات محكمات تحت الارض الى أن يدخل المسجد . ولم نجد فيها في هذه السنة الا قليلا من الماء لقلّة الأمطار . . .

(١) ج جابية وهي الحوض الذي يجيى فيه الماء (اي يجمع).

تحفة الأدباء وسلوة الغرباء

تأليف

ابراهيم بن عبد الرحمن الخياري المدني

المتوفى سنة (١٠٣٧ - ١٠٨٣) هـ

الجزء الثاني

تحقيق الدكتور

رجاء محمود السامرائي

الجمهورية العراقية

وزارة الثقافة والاعلام ١٩٧٩

دار الرشيد للنشر

سلسلة كتب التراث (٧٥)

(ص ١٧٥ - ١٩٥)

فلم نزل ندنو بأشواق كاملة، وجياد ناصبة عاملة، حتى لاح سور البلد فاذا هو سور عليه بهجة ونضارة، واشراق حوى اتقان عمارة، وباب سامي الذرا يسمى باب الخليل وعلى دائر السور من خارجه يمين الباب ويساره خندق للياه، وبعد دخوله على يمين داخل البلد قلعة شامخة مرتفعة حسنة الوضع، محكمة البناء والرفع، ثم بعد مجاوزتها أسواق قائمة بها الناس على سوقهم، بها كل ما يحتاجه الناس لاستيفاء أوفى حقوقهم، حتى آل بنا سيرنا فيها لخان عامر يأوى إليه الصادر والوارد من كل مسافر فأويناه ريثما يعقد شِسْعٌ^(١) أو يحل نسع^(٢)، ثم أخذنا في أسباب الطهارة فتوضأنا ثم سرنا منه آمين المسجد الاقصى ذا الخصائص والمزايا التي لا تعد ولا تستقصى، فلما وصلنا بابه، فاذا باب عليه مهابه ومحل أعز الله جنابه. فلما دخلناه قائلين اللهم افتح لنا أبواب رحمتك، وأجرنا من عذابك ونقمك، فأول ملحوظ لنا القبة الشامخة ذات القواعد الراسخة التي انطوت على الصخرة المقدسة أضلاعها، وكان على تلك الدرة اليتيمة والقبلة القديمة انجماعها، فاذا هي قبة تأخذ بالابصار وتقضى لرائيها بالاعتبار، مغشاة بالقيشاني الحسن الألوان والابداع، الكامل في حسن الصناعة والارتفاع، وهي كما أخبرني بعض من لقيته من بناء عبد الملك بن مروان، وأما القاشاني فمن عمل السلطان سليمان وكذلك ما تحته مغشى به القبة من الرخام الأبيض العريض القطع فمن عمله أيضا وانه كان ببعض الكنائس فأخذه ونقله إليها. فيا له من مخفوض ارتفع بالنصب بطرف هو ذلك المكان، وظرف هو في الصناعة والاتقان، ومكتوب على دائرها من الخارج سورة «يس» بعمل القاشاني بالخط الثلث المحكم وهو عجيب في وصفه وصنعه. وقبل الوصول لبابها صعدا عشرين درجة من الرخام الأبيض ينتهي أعلاه أربعة عقود كأنها أبواب أربعة متلاصقة من الرخام الأبيض ما قبلها خال وما بعدها كذلك لكنه مبسوط به قطع الرخام الأبيض التي لها ويص^(٣) ووميض، فانتهينا إليها إذ كانت أول مرأى لنا بالجامع فبعد الدخول إليها فاذا محل عليه مهابة وجلالة، وفضل يجب للسائل عن فضله سؤاله، مسدس الجهات، محرر الاوضاع، مستحسن السمات، وإذا يحيط بحمل الصخرة أربعة أركان من البناء المحكم بين كل ركنين ثلاثة عواميد من الرخام، وبداخل القبة معاليق، وبها غير ذلك قناديل أربعة ثلاثة منها من الذهب وواحد من الخشب وأما ما يظهر من الصخرة أي من ظهورها فانه في الطول نحو الثمانية والعشرة من أذرع العمل تقريبا والعرض قريب من ذلك أو هي مربعة أو متفاوتة الجهات وهي الى الاستدارة أقرب وفي ظهورها أي وهو في أحد الجانبين أقرب احديداً بأنه ضلعان انطبقا أو كأنه مركب انقلب على وجهه ويحيط به دريزان من الخشب يخيل لرائيه أولا أنه تابوت لبعض الأموات ويحيط بها بعده بين العواميد والأركان مشبك من حديد يمنع المرور دون الرؤية. وبهذا المشبك ثلاثة أبواب: باب من جهة القبلة في مقابلة المحراب الذي يصلي فيه إمام السادة الخنفية، فإنه يصلي فيه الصلوات الخمس مختصاً به دون باقي أئمة المذاهب الأربعة، وباب

(١) الشسع: ج أشسع وشسوع: زمام يدخل بين الاصبعين، ويدخل طرفه في ثقب النعل. (الرائد).

(٢) النسع: ج نسوع ونسع ونساع: جبل أو سير من جلد عريض تشد به الرحال. (الرائد).

(٣) الوبيص: اللمع والبرق.

في المشرق وباب في المغرب . وكل من هذه الابواب الثلاثة يقابله باب من ابواب القبّة فانها أربعة والرابع منها يستقبله مستدير القبلة . وحول هذا الدائر المسجد المعد للصلاة وهو متسع بعض الاتساع وبه كثرة من الرباع^(١) والمصاحف المعدة للقراءة وبه يقرأ بعض المدرسين وبعض الذاكرين ليلة الجمعة ويومها . ويقابل المحراب باب في جهة القبلة ينزل إليه بدرجات يسيرة وهو ما تحت الصخرة التي صارت الصخرة سقفا له فاذا حلّ مرّحّم وبه على يسار داخله صورة محراب من الرخام وعلى اليمين مثل ذلك . وحائط الصخرة كائنه على أطراف كأنها محمولة عليه لكن الحس قاض بأن مثل هذا الحائز^(٢) لا يقبل مثلها وقد اشتهر انه بني لما كانت الصخرة مرفوعة بين السماء والارض لا على حائز ولا حامل من جدار أو عماد فكانت الحامل إذا مرت تحتها أسقطت فصنع ذلك سترًا لسرّ القدرة وسبحان الفاعل المختار، بأن الله يمكس السماء أن تقع على الارض إلا بأذنه . وبه على شمال الصخرة قبة يقال انها محل المعراج الشريف والمحراب الشريف الذي أمّ النبي ﷺ الأنبياء في ذلك المقام المنيف فرأيت أن أنشد ما قاله بعض أهل التوفيق عند سلوك هاتيك الطريق شعرا:

قدر محمد بين الأنام
تظفر بربك من أوام
تقديمه الرسل الكرام
وافاها بعزم واهتمام
إن الجماعة بالامام
والفضل للقمر التمام
وبأحمد ختم النظام
يبقى إلى يوم القيام
السن اللد الخصام
آيات له خير الكلام
أزكى الصلاة مع السلام

إن كنت تسأل أين
فأصخُ إلى آياته
أكريم بعبد سلمت
في حضرة التقديس
صَفّوا وصلّوا خلفه
للشهب نور بين
سلك النبوة باهر
هذا كتاب دلالة
شهدت له من بعد عجز
خير الوري وأجل
فعليه من رب الوري

وفي وسط الصخرة ثقب متسع كالمنور يزيد على دائرة القمر نحو المرتين به قنديل معلق مسروج دائما . ولم أدرِ أهذا هو الذي خرّقه جبريل عند ربط البراق أو غيره ولم أزل أسأل عن الخرق الذي حصل بأصبع جبريل عليه السلام ولم أرَ له أثرا نافذا غير المذكور، ولكني رأيت في أحد جوانبها من الأعلى نقبا يدخل فيه الاصبع إلا أنه غير نافذ، فالله أعلم بحقيقة الحال . ويزعمون أن أثرا بها في أحد طرفيها هو موضع قدمه ﷺ .

هذا وإلى جانب القبّة جِذاء الباب الذي يكون على يسار القبلة بها قبة مرتفعة بها محراب

(١) الرباع والربوع جمع مربع وهو الدار حيث كانت، والربع أحد الاجزاء الاربعة (المغرب للمطرزي).

(٢) الحائز: الخشبة التي تنصب عليها الاجذاع (لسان العرب مادة حوز).

حسن الوضع ، وباطنها مرخّم ، وظاهرها مغشى بالقيشاني . ويقال إن هذا المحل الذي هي به هو الذي كانت به السلسلة المعلقة من السماء في زمن سيدنا داود على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، وانها كانت يتصل بها المظلوم وترفع عن الظالم حتى تعلّم الناس الحيلة فجاء مُدّع ومُدعى عليه بمال فوضع من الدنانير بقدر المال الذي عليه لذلك المدعي في قصبه شبه العكاز الذي يعتمد عليه فصار المدعي يمدّ يده الى السلسلة فتصلها لانه محق في دعواه فاذا اراد المدعي عليه إمساكها كذلك دفع العصاة المشتعلة على الدنانير في يد المدعي فيصير قابضا لحقه الذي هو يدعي فتصل يد المدعي عليه بها أيضا ، لبراءة ذمته من ذلك الدين . فعند ذلك أوحى إلى سيدنا داود شأنها ثم رفعت . ومكتوب على ذلك الحجر : «يا داود إنا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق» (١) .

وبعد رؤيانا ما ذكر استقبلنا المسجد الأقصى الذي تعمل اليه اليعملات وخذاً وذميلاً وعنقا ونصا ، ذا الفضل السامي الذي هو ثالث المسجدين في الفضل ، والجاري على نمطها في جواز شدّ الرحل ، والفضيلة في إتيانه وإن الصلاة فيه بخمس مائة صلاة ، أو ألف صلاة ، وإنه بقعة من بقع الجنة كما أثبت له من رواه ، فاذا هو مسجد كامل الصفات ، مستحسن الأوضاع والسمات ، في صدر الحرم الوسيح الأكناف ، المنبسط الأنحاء والأطراف في جهة قبلته وهو الى الطول أقرب ، يشتمل على رواق في الوسط زائد العرض جدا في مقابل الباب الى المحراب مؤزر بالرخام الملون ذي الأصباغ والألوان العجيبة والذهب اللامع والفسيفساء وبه المحراب الفائق في الوضع ، الحسن الابداع والرفع ، والمنبر من الخشب المحكم من عمل المرحوم السلطان نور الدين الشهيد . ومن غريب الاتفاق الذي يعده أهل تلك البلدة قصداً ، وانه جرى من صانعه عمداً أن باطن ذلك المحراب إشتمل على أضلاع من الرخام هي سبعة عشر ضلعا ثمانية بيض وأربعة حمر وثلاثة سود وإثنان خضراوان فزعم بعض من لقبني متكررا من أهل البلدة بأن الثمانية البيض إشارة الى عدد صلاتي الظهر والعصر لأنها نهاريتان وأن الأربعة الحمر لصلاة العشاء لأنها تحجب بمغيب الشفق الاحمر والثلاثة السود لصلاة المغرب لأنها تجب عند أول الظلام والاثنا عشر الخضراوان لصلاة الصبح . قلت : ولو كان المخبر حمصيا لكان ذلك لجريانه على الأصل مقبولا ولكن هكذا جرى وكان أمر الله مفعولا ، ولقد حق أن أنشد البيت الشهر الذي آخره :

جسم البغال وأحلام العصافير (٢) .

وعلى يمين المحراب بجانب المنبر مقصورة لطيفة معدة لمصلى الخليفة إذا كان أو للخطيب ليرز منها للمباشرة لقرب المكان ، وبمحاذاتها مكان مستطيل على عقود متعددة يقال على ألسنتهم إنه الجامع الأقصى القديم . هكذا أخبرني بعضهم . وفي طرف الجامع المذكور على يسار داخله حل محوط له باب من جهة القبلة (٣) لا غير هو مصلى النساء في يوم الجمعة والعيد . ونعم ذلك الصنيع فإن فيه عدم إختلاط الرجال بالنساء المنهى عنه شرعاً .

(١) ص ٣٨ ، الآية ٢٦ .

(٢) البيت لشاعر الرسول (ص) حسان بن ثابت ، وصدرة : لا باس بالقوم من طول ومن غلط . . .

(٣) الصحيح الشمال .

هذا وأما أبواب الجامع الأقصى المشتمل على المنبر والمحراب فعشرة أبواب: سبعة في جهة القبلة^(١) وواحد في جهة الشرق ويسمى باب الخضر وواحد في جهة المغرب والباب الثالث لجهة الأقصى العتيق. وبين أبواب هذا الجامع السبعة والصخرة بحرة، ماء عذب، بها كأس من الرخام الأبيض، حسن الوضع والصنع، ممتلئ دائماً من الماء يتدفق من أطرافه، محمول على عمود من الرخام، كذلك قائم وسط البحيرة المستديرة حوله من الرخام أيضاً. وتقول المقادسة بين الأقصى والصخرة، الكاس وسط البحرة. ويحيط بالبحرة أحجار تشبه الكراسي من الرخام، موضوعة للمتوضئين، وينصرف فاضل مائها بمصارف من تحت الأرض، وما حول هذه البحرة مفروش بالرخام أيضاً الناصع بحيث أن المتوضئين لا يحتاجون ما يلبسونه بعد غسل أرجلهم من نعل أو شبيهه، بل يمشون حفاة فوق ذلك الرخام إلى أي محل من الجامع شاؤا.

هذا ويصلي بمحراب الجامع الأقصى إمام السادة الشافعية خصوصاً بهم الخمس الصلوات كما اختص السادة الحنفية بالصخرة كما تقدم، والسادة المالكية بمحل بركن الجامع الأقصى منفرد من خارج مصلى الشافعية، في محل يخصهم بباب واحد، أي من داخل الجامع الكبير في صحنه، وكما اختص السادة الحنابلة بمدرسة تسمى السلطانية^(٢)، يصلي بها إمامهم. فيكل من هذه المواطن يصلي إمام من أئمة المذاهب الأربعة ويتقدم أولاً إمام المالكية ثم الشافعية، ثم الحنفية، ثم الحنابلة. وأخبرني بعض من لقيت من خدام الأقصى أن سبب تقديم المالكية على غيرهم أنهم كانوا المقدمين حالة فتح بيت المقدس، أي الثاني، عند استنقاذه من أيدي الكفار أهل الضلال، وأن الملك حسن بلاهم مناهم فتمنوا تقديم جماعتهم على غيرهم من الأئمة فانعم عليهم بذلك.

قلت: ولأن الجزء من جنس العمل وكذلك بالمسجد الحرام بمكة إذا صلى الأئمة الأربعة أيام الحج فانه يتقدم بها إمام المالكية فليعلم أيضاً. وأما الجمعة فانها تقام بالمسجد الأقصى بمحل صلاة إمام الشافعية لا غير. هذا وأما الحرم - أعني صحنه - وما أحاط بالأقصى والصخرة وقتها، فالأمر عظيم سعة ونضارة وإشراقاً بحيث لا يوجد له نظير فيما علمناه تحت الخضراء ولا أقلت مثله في تلك الأوصاف الغبراء، فهو الجامع الفرد عديم النظير، وحائز الشرف الأئيل الخطير. وبالمسجد مهد سيدنا عيسى «عليه السلام» ينزل إليه بدرجات في ركن المسجد على يسار مستقبل القبلة في الأقصى فإذا صورة مهد من الرخام وإلى جانبه على يسار المستقبل فيه أيضاً صورة محراب لطيف، يقال: إنه محل تعبد سيدتنا مريم، ومحل بركته، يقال: إنه محل سيدنا جبريل، وبه أي محل المهدي باب يتوصل به إلى ما تحت الأقصى، فانه مرفوع على عمد من الحجر الأسود، مربع

(١) الصحيح الشمال.

(٢) المدرسة الاشرفية: بالقرب من باب السلسلة والى الشمال منه، ومن أسمائها السلطانية. بناها في الاصل الامير حسن الظاهري، باسم الملك الظاهر خوشقدم ٨٧٥-١٤٧٠م، وكانت تدعى السلطانية، وبعد وفاة الملك الظاهر، نسبت الى الملك الاشرف قايتباي فسميت بالاشرفية. ولما زار قايتباي القدس أمر بهدمها فاعاد بناءها سنة ٨٨٧هـ-١٤٨٢م. ومن جملة ما عمره الملك الاشرف قايتباي السبيل المقابل للمدرسة بدخل المسجد، فوق البئر المقابل لدرج الصخرة الغربي. (الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ٢: ٣٨٧، تاريخ القدس لعارف العارف ص ٩٨).

الأوضاع، كل عمود له غلظ زائد، مبني من ثلاثة أحجار أو أربعة، رُكِب بعضها فوق بعض
 باحكام الالتصاق، وبكل عمود حجر مخروق، يقال: إنّه من وضع سيدنا سليمان نبي الله، وإنّ
 هذه الأخرق^(١) هي التي كان يصفد فيها الجان عند عمارة المسجد المشار إليها بقوله تعالى:
 «والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين في الأصفاد»^(٢). والمحل ذو مناور، تعطيه بعض
 النور، نزلته، ومشيت في جهاته للاحاطة فاذا علوزائد نحو العشرة الأذرع أو دونها. وقيل لنا إن
 الجامع «جميع رحابه» وصحنه معلق على مثلها، ولكنّ الذي تقضي به الرؤية والمشاهدة إنّ ذلك
 خاص بالمسجد الأقصى مصلى الشافعية. وبعد البروز منه تمشي إلى محل مرتفع به درجات في
 جدار الجامع بها عمود من الرخام الأبيض تمتد إلى خارج المسجد، يزعمون أنه محل الصراط
 وامتداده، وتحتة قبور اليهود. ويزعمون أيضا أن ذلك المحل محل جهنم، والصراط يمتد عليه،
 والعلم عند الله سبحانه وتعالى، مع تسليم أنها أرض المحشر والمنشر. وفي امام باب الصخرة من
 جهة القبلة محراب ومنبر من الرخام الأبيض^(٣)، يقال إنه يُصلى به يوم العيد، وأيام الصيف، وإنّ
 محل محرابه يوضع الميزان يوم القيامة. وفي أطراف المسجد أماكن من المدارس والأوضاع التي
 يسكنها طلبة العلم، وبه حول البحرة والكأس أربع أشجار من السرو، وفي جهاته أشجار زيتون
 وتين وعنب. وأما أبوابه الموصلة إليه من الخارج فهي باب المغاربة، باب البراق، باب السلسلة
 ومنه كان دخولنا إليه لقربه من منزلنا وهو يتصل به سوق البلد، باب السكينة، باب المتوضئين،
 باب القطانين، باب الحديد، باب الناظر، باب الغوانم، باب حطّه، باب إلى جانبه لم أعرف
 اسمه^(٤)، باب الرحمة.

والحاصل انه في العظم والكبر لا يقاس ولا يسامى، ولا يستطيع القلم أن يحيط ببعض
 أوصافه وإن هو على الطروس ذات السطور ترامى، فلنثني عنان القلم، ونرى أن الاختصار ألزم.
 وقد امضينا به بقية يومنا يوم الخميس السابع والعشرين إلى أن أظلمت ليلة الجمعة، فبتنا به وصلينا
 العشاء مع الامام الحنفي بجامع الصخرة، بعد أن كنا صلينا العصر والمغرب بالأقصى مع امام
 الشافعية، فاذا ليلة مشرقة الأنوار، يلحظ الانسان بها ما يدهش الأبصار. وفيما تحت الصخرة التي
 هي سقفه من الخشوع والخضوع ما يؤذن الداعي بالاجابة، ويقضي بحصول الاثابة. وقد كنا بها
 إذ ذاك، ودعونا بما تسنى وتيسر هناك، ويعملون بالمسجد تحمياً^(٥) يذكرون الله تعالى فيه وحدانا
 وجماعات. وبتنا بمحلتنا ليلة عذبة الموارد، حسنة المصادر. ثم لما كاد أن يلوح الفجر، فجر يوم
 الجمعة، ذهب لبعض حماماتها مغتسلاً بها، دافعاً للدرن، محصلاً ثواب غسل يوم الجمعة الذي

(١) جمع خرق.

(٢) ص ٣٨، الآية ٣٧.

(٣) هو منبر برهان الدين (ك. ع).

(٤) هو باب الاسباط (ك. ع).

(٥) للاستاذ عبد الحميد العلوجي بحث طريف، في كتابه من تراثنا الشعبي ص ٩٧-١٠٣، ناقش فيه آراء من كتبوا عن هذه
 الليلة من مستشرقين وعرب.

ندب إليه الشارع، لكن بلفظ الوجوب وسنن، ثم ذهبت بعد الفجر لأداء فرض الصبح فأدّيته بمسجد الصخرة، ثم لاح ابن ذكّا وألحف الجو الضياء، فذهبت للمنزل لتجديد الطهارة فجددتها، ثم عدت للأقصى مبكراً للجمعة، ناوياً به الاعتكاف لأكون ممن بكر، وحاز الثواب وجمعه. وفي خلال هذه المدة وأنا ألتمس بجِدِّ واجتهاد طلباً للعلم وعلو الاسناد علماً يصلح للدراية، أوراوياً تؤخذ عنه الرواية، فأعياني ذلك الطلب وأكدي^(١) سعيي دون أن يعلق بمرامي سبب، وعُين لي شخصان فرأيتهما لتبليغ مرادي لا يخلصان، فاعرضت إعراض من مُنَع الورد ولم يُفَرِّج من الروض المسجد باقتطاف الورد، فاقمت بالمسجد الأقصى معتكفاً تالياً تارة وذاكراً أخرى، حتى حانت الصلاة، ووجب استماع ذكر الله، وقد انتظم شمل الجمع، وصُلِّيَ على النبي ﷺ إيذاناً بخروج الخطيب بحسن الصوت، وكمال الرفع، فبرز الخطيب في هيئته يتهدى بين عصيته، ويعتمد على عُصيته، فصعد في تودة وأناة، واستقل بذروة منبره وأجال بصره أنحاء، ثم أذن المؤذنون بين يديه، وروى المرقى الحديث المطلوب روايته لديه، فاستفتح على الوضع العربي من غير تغن ولا نعم، وأتى بخطبة تتضمن فضل المسجد الأقصى وبعض ما اختص به فخص وعم، وانه وإن كان في الفضل بعد مسجدي البلدين فقد اختص بأن صخرته أولى القبلتين، وإنه بقعة من بقاع الجنة، وإن النبي سار إليه فعظمت عليه المنّة، وأن الصخرة منها ينفخ في الصور، وما يضارع ذلك من المنقول والمأثور، وفضل زيارته وشد الرحل إليه، وما يقتضيه المقام ويدل الحال عليه، فناسب فيما أتى به مقتضى الحال، ولكنه أكثر اللحن والتخليط في خطبته وما قال، فقلت قد يغتفر هذا لذاك، وإياك الاعتراض إياك. ثم بعد إتمام الصلاة ودُعنا المسجد بركعتي الوداع، وانطلقنا في الأرض مجدين بكمال الاسراع، عازمين بعد قضاء هذا المهم الذي انعم علينا الكريم المنعم على أعمال الجياد واستصحاب الخفير والدليل لزيارة أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم الخليل، ففارقنا بيت المقدس بعد صلاة الجمعة.

(١) أكدي: لم يظفر بحاجته.

رحلة أوليا جلبي : سياحتنامه
ترجمها كامل العسلي عن النص الانكليزي :

Evliya Tschelebis Travels in Palestine

Translated from Turkish by Stephan H. Stephan.

Quarterly of the Department of Antiquities in Palestine.

Vol VIII (1938) pp. 145 - 156.

Vol IX (1939) pp. 81 - 104.

وصف الحصن القديم والقبلة الاولى بيت المقدس

هي تدعى باليونانية^(١) ولاية ايليا وبالسريانية مقديشا وبالعبرية حاس^(٢) وبالعربية بيت المقدس او القدس . وتضم المدينة مقامات مائة واربعة وعشرين الف نبي . وكانت قبل الطوفان وبعده قبله الجنس البشري .

وعندما هاجر النبي تلبية لأمر الهي من مكة الى المدينة كان عمره احدى وخمسين سنة وتسعة أشهر . وقد عاش في المدينة عشر سنوات . وفي السنة الثانية (من الهجرة) نزلت عليه الآية «فولَّ وجهك شطر المسجد الحرام» (سورة البقرة، الآية ١٤٤) على يد جبريل الأمين . وهكذا تحولت القبلة من بيت المقدس إلى مكة . وأمر بمراعاة الصيام في مكة لكن القبلة الاولى كانت بيت المقدس ، وبقيت المدينة قبله للنصارى . وباختصار كانت القدس مطمع كل الأقوام التي امتلكتها ، وخصوصاً النصارى لأن المسيح هبط من رحم امه فيها ، في القدس . وفضلاً عن ذلك فقد نشبت جميع الحروب من اجل هذه المدينة . لكن النصارى شنوا حروباً أخرى أيضاً بغية الاستيلاء على مكة . (فقصة) اصحاب الفيل ، ابرهة ، وقوم تبع من اليمن معروفة .

إن حصن القدس بني في الاصل اثناء حكم داود ، بناه طالوت (شاول) لأن جالوت (جوليات) هاجم القدس تكراراً بسبب الاماكن الاكثر قداسة الكائنة فيها . وبعد أن قام (جالوت) بحملات عدة ضدها نجح في أخذها . وبعده خاض طالوت وداود معركة كبيرة جداً ضد جالوت في مرج دابق قرب حلب حيث تمكن داود بحصاه المحكمة التسديد من قتل جالوت ، كما جاء في الآية : «وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك . . .» (البقرة الآية ٢٥١) .
واصبح داود من ثم ملكاً مستقلاً وعاد سالماً بالغنائم الكثيرة الى القدس وجعل المدينة بالغنائم التي اخذها من مملكة جالوت . ورغم أن داود كان نبياً وملكاً فقد اشتغل بالحدادة وكان يصنع الدروع . ولهذا فان داود هو راعي الحدادين .

وبعد ذلك وفي سنة . . . (٢) اراد نبوخذ نصر أن ينتقم لدم يوحنا المعمدان ، فترك بلدة نصيبين في كردستان (١) ووصل الى القدس . وقد دمر جميع مبانيها وانزل بأهلها الويلات ، وقتل عدة آلاف من الاسرائيليين . ولم يرفع سيفه عنهم الا بعد أراقة دماء تعدل في قيمتها دم يوحنا . وأخذ دانيال اسيراً الى صفد ثم جلب الى الموصل .

وازدهرت القدس ثانية . وفي اثناء حكم الامبرطور البيزنطي هرقل في سنة . . . (٣) من الهجرة قام عمر بن الخطاب بحصارها بنفسه وكان معه ستون الف مقاتل . وسلمت المدينة بعد أن اعطيت الأمان . لكن اهلها اشترطوا أن تترك لهم كنيسة القيامة ، وهي مركز عبادتهم الرئيسي .

(١) ربما تحريف هائر Ha'ir بمعنى المدينة بالعبرية .

(٢) السنة غير مذكورة في الاصل التركي الذي ترجمه اسطفان (ك.ع) .

(٣) لا ذكر للسنة في الاصل .

ولما وضع هذا الشرط في عهد قُطع لهم قاموا بتسليم القدس . وبني عمر مسجداً فوق كنيسة انسطاسيا^(١) . ثم ترك عشرة آلاف محارب في القلعة ورجع الى مكة ، وارسل عمرو بن العاص لفتح مصر .

وبعدئذ اخذ الكفار القدس ثانية في سنة . . . (٢) وزحف صلاح الدين ، وهو ما زال وزيراً لنور الدين الشهيد في دمشق ، زحف نحو القدس على رأس مائة الف جندي وافتتحها بعد معركة ضارية . ثم هدم القلعة لكي لا يتمكن الكفار من تحصينها ثانية اذا ما فتحوا المدينة مرة ثانية . وعندما كانت القدس في حوزة المماليك الشراكسة خرج كل العلماء والصالحين لملاقاة سليم شاه سنة ٩٢٢ هجرية (١٥١٦م) . وسلموه مفاتيح المسجد الأقصى وقبة صخرة الله ، وسجد سليم وهتف قائلاً : « الحمد لله انا الآن صاحب مسجد القبله الأولى » ثم وزع الهدايا على جميع الاعيان واعفاهم من الضرائب الباهظة وثبتهم (اي ثبتهم في وظائفهم) .

ثم أدار الوثائق العمرية التي كانت في حوزة رهبان الروم والفرنجة^(٣) امام وجهه وعينيه واعطاهم خطأ شريفاً اكد للربان فيه ما جاء في تلك الوثائق ، اي انهم كانوا معفون من اداء الضرائب وأن كنيسة انسطاسيا (المقصود القيامة) تظل مكان الصلاة الرئيسي بالنسبة لهم كما كانت حتى الآن .

وعين . . . باشا^(٤) حاكماً على المدينة وثبّت مولانا أخفش زادة شيخ الدارويش المولوية في منصبه ومُنح ٥٠٠ اقجة على سبيل الصدقة .

وتم تخليص ايالة (فلسطين) (من يد المماليك) . وهي ما تزال تعتبر نوعاً من «إقطاعية شعبي» تمنح لارباب المناصب الكبيرة (بالتركية arpalıq) .

ويبلغ محصولها العائد الى السلطان ٣٥٧٤٨٥ اقجة^(٥) وفيها تسع زعامات و ١٠٦ تيمارات . ولدى حاكم القدس ٥٠٠ جندي يأتمرون بامرهم وهو امير الحاج الشامي . وامير حجاج مكة في الذهب والأياب . وتبلغ مخصصاته السنوية ٤٠٠٠٠٠ قرش .

انها ولاية مزدهرة . لكن ارباب الاقطاعيات فيها لا يؤمرون بالخدمة في الميدان . وما على هؤلاء الا ان يرافقوا وهم يحملون اعلامهم الحجاج القادمين (ويأخذوهم) الى مكان الحج الذي يقصدونه . ويبلغ عددهم جميعاً ستمائة رجل .

ويتلقى قاضي القدس (وهو الحاكم المدني) مخصصات تعادل مخصصات الباشا ، ولأن المنطقة التي ينفذ حكمه فيها تعد ألفاً وستمائة قرية يعين في كل منها نائب شرع ، وذلك أن ولايته

(١) لم يقل ابن البطريق سوى أن عمر صلى على درجات المدخل الشرقي لكنيسة انسطاسيا في القيامة ، التاريخ ٢ ، ص ١٧ .

(٢) السنة غير مذكورة في الاصل .

(٣) لم يدرك المؤلف أن طوائف رهبان اللاتين لم يكن لهم وجود في فلسطين زمن عمر .

(٤) اسم الباشا غير مذكور في الاصل .

(٥) في الطبعة التركية التي بايدينا والتي سنشير اليها فيما بعد : ٢٥٧٤٨٥ اقجة (ك.ع) .

رفيعة المقام . وعندما يظهر احيانا أن البطارقة والقسس والشمامسة والرهبان والقساوسة المتزوجين يخلفون بعد وفاتهم بعض الاموال فان الملا (القاضي الكبير) والباشا يحصلان من تلك الاموال على ما يترواح بين اربعين وخمسين الف قرش . ويحدث ذلك بوجه خاص في عيد الفصح الشائن عندما يذهب الملا والباشا الى باب كنيسة الانسطاسيا (القيامة) الذي لا يفتح (في ذلك اليوم) قبل وصولهما الى هناك ، ويأخذ القسيس من كل حاج من الحجاج الذين يترواح عددهم بين الخمسة آلاف والعشرة آلاف ما بين عشرة قروش وخمسة عشر قرشا . ويعطى الملا والباشا (. . .) ٢٠؟ وهو مبلغ كبير .

وعندما قام سليم بتخليص البلاد (من ايدي المماليك) كان بشالق (فلسطين) يتألف من السناجق التالية : ١- غزة ٢- وجبل عجلون ٣- واللجون ٤- ونابلس ٥- والقدس . وهذه السناجق يديرها الباشا . وهناك خمسة سناجق أخرى تحت حكم زعماء البادية (tshol beyleri) يديرونها كأنها ملك خاص لهم ، ولكنهم يدينون في الوقت نفسه بالولاء للسلطان . وفي هذه الولاية بعض القرى المخصصة للاوقاف إلا أن معظم القرى تتبع ارباب الاقطاعات من الزعماء والتيماريين ، وهم قادة الفرسان الاقطاعيين . وهناك ايضا قائد قوات السنجق . وقائد الانكشارية .

وينقل ارباب الاقطاعات الحجاج المسلمين الى الخليل ومكان ولادة عيسى في بيت لحم والى النبي موسى لأن الطرق غير آمنة بسبب المتمردين من الاعراب . وهناك (في القدس) قائد الفرسان (اغا السباهية) وقائد (اغا) الانكشارية وقائد لانكشارية دمشق ومناصب للشيخ الاربعة للمذاهب الاربعة ، ونقيب للاشراف . اما الاشراف والاعيان والعلماء والصالحون فعددهم كبير جداً . وهناك ايضا قائد القلعة (الذردار) ويتبعه حامية تتألف من مائتي رجل .

ويرسل الملا جنوداً من الحامية الى الجهات الصعبة في البلاد ليكونوا تحت تصرف القضاة المقيمين في القدس والخليل ونابلس والرملة والكرك واللجون وجنين . وقد جمعت هذه المناطق كلها تحت ولاية قاضي القدس . وتضم المناطق احيانا (الى منطقة القدس) تبعاً لمقدرة الملا ، ولكنه يعين في بعض الاحيان قاضٍ لبضع سنوات للقدس وحدها . وباختصار فان الحصيلة السنوية لادارة القانونية في القدس تبلغ ٤٠ الف قرش .

ويتبع ملا القدس ٢٠ ضابطا (اغا) يعينون ببراءات من السلطان . واول هؤلاء المحضر باشي الذي يعينه السلطان في احتفال رسمي . وهو الحارس الليلي لابواب المدينة ، وينفذ مهام وظيفته بوساطة العساكر السلطانية . والاغا الثاني هو ناظر الشرطة الذي يعين خصيصاً للقدس وهو منصب عال يشتهيه الكثيرون . والاغا الثالث هو المعمار باشي - (رئيس المعمارين) ، والرابع هو المهندس باشي والخامس هو المعتمد باشي (كبير الوكلاء) والسادس الصراف باشي (امين الصندوق الرئيسي) الذي يقوم شخصيا بدفع الهبات السنوية (الصرة) التي ترد من السلطان الى العلماء والاغا السابع هو الخزن دار باشي (امين بيت المال) والثامن هو الصوباشي (ضابط الشرطة) والتاسع البازار باشي (المحتسب) والعاشر الكتخددا (رئيس البلدية) والحادي عشر: رئيس سوق

القماش المقصَّب. وباختصار فان رؤساء جميع فئات التجار يحضرون يوماً الى المحكمة الشرعية لاداء واجباتهم.

وهناك سبعة اوقاف «باهرة» في القدس يأتي متولوها الى المحكمة ويحضر كل منهم هدية الى المُلّا. انها إدارة شرعية كبيرة ومحكمة قضاء كبيرة.

وصف حصن القدس

إن كل التواريخ تسمى هذه البلاد بلاد فلسطين. وقد امتدحها الله في القرآن الكريم في اثنين واربعين آية، تلميحاً وتصريحاً. ولما كان جميع الملوك في الاجيال السابقة حريصين على الاستيلاء على القدس فقد حوصرت مائة مرة ودمرت قلعتها. وكانت قلعة ضخمة مبنية بالاحجار المربعة المنحوتة عندما شيدها مصطفى لالا باشا بامر السلطان سليم و (بايرادات) اثني عشر سنجقاً. والقلعة التي هدمت في الأزمنة القديمة ترتفع من اساساتها الى ما بين اربعين وخمسين ذراعاً مكياً. وقد بنيت خارج السور، بينما بني مسجدا الاقصى والصخرة داخله. وهي قلعة مربعة الشكل وقوية ذات بناء ضخم وكل حجر من احجارها المربعة في حجم الاسد او مؤخرة الفيل.

ويمكن وصف محيط «جسم» القلعة كما يلي:

يأتي اولاً باب المغاربة، الذي يفتح جنوباً. وهو باب صغير وقد سمي بهذا الاسم لأن المغاربة اخذوه في الحرب وقد عبر عن تاريخه هكذا:
[امر بإنشاء هذا الباب في ايام (ال) سلطان الاعظم السلطان سليمان خان ابن سليم خان خلد الله ملكه (ب) تاريخ محرم الحرام في سنة سبع واربعين وتسعمائة].
وقد سجل هذا النقش على جميع الابواب وابراج القلعة وعلى منحنيات الزوايا بخط واضح جداً.

وإذا سرنا على امتداد سور المدينة (وهو بلا خندق) وتركنا هذا الباب في اتجاه الغرب فنمشي خمسمائة خطوة كبيرة حتى نصل الى برج الماء. ومن هناك نتجه صعداً مرة ثانية الى اقصى زاوية في الغرب فنسير الف خطوة حتى نصل الى باب داود.

وهذا الباب ايضا يفتح جنوباً. وهو باب جديد يبلغ علوه اثني عشر ذراعاً. ومن هنا الى زاوية القلعة مسافة ٢٥٠ خطوة في اتجاه الغرب. وهذا الموقع هو احد زوايا القلعة. ومن هنا يتجه المرء الى الشمال. ويسير شمالاً على محاذة الخندق مسافة ستمائة خطوة «ممتدة» فيصل الى باب خليل الرحمن. ويفتح هذا الباب غرباً وارتفاعه عشرة اذرع. وله بوابة حديدية مزدوجة عالية. وعلى هذا الباب ايضا نقش يبين تاريخه مكتوب على عتبته العليا. واذا مرّ المرء من باب الخليل هذا

على امتداد حافة القلعة التي لا خندق لها في اتجاه الغرب فيصل الى «البرج المائل»^(١) بعد مسافة اربعمائة خطوة. وهذا البرج هو الزاوية الأخرى للقلعة. ومن هذا المكان ايضا يتجه المرء الى جهة الشمال(!).

وإذا اتجه المرء من هذا «البرج المائل» في الخندق الى جهة الشرق فهو يرى حدائق وبساتين الى أن يصل الى اسفل المرتقى المؤدي الى باب الصولجان الحديدي^(٢) Bozdoghan Qapu على بعد تسعمائة خطوة.

وقد دعى هذا الباب بهذا الاسم منذ أن اعدم مصارع كردي (او كرجي؟) عنده. وخارج هذا الباب يتابع المرء الخندق في اتجاه الشرق حتى يصل بعد مائة خطوة الى مغارة الارواح المقطوعة في الصخر، وهي الارواح التي سجنها الملك سليمان^(٣) وهي مغارة محفوفة بالاسرار ويحميها طلسم، وجديرة بالمشاهدة. وإذا سار المرء ثلاثمائة خطوة أخرى من المكان المحاذي للبرج القائم فوق هذه المغارة في اتجاه الشرق - في الخندق - فيصل الى باب الساهرة وهو باب حديدي صغير يفتح شرقاً^(٤). واذا يمشي من هذا المكان على حافة الخندق في اتجاه الشرق فيجد امامه زاوية برج رستم باشا^(٥) على بعد خمسمائة خطوة.

ومن هنا يتجه المرء الان الى الجنوب وهو يسير في الخندق، على مرمى النار؟ الى أن يصل الى باب الاسباط. ويدعى ايضا باب مريم لانها مدفونة هناك. وبعد خمسمائة خطوة تأتي الى باب حديدي مزدوج مكشوف^(٦) يقع في الجانب الشرقي مقابل جبل الطور (الزيتون). ومن باب مريم يسير المرء بمحاذاة سور المسجد الأقصى الذي لا خندق له مسافة ستمائة خطوة فيصل الى زاوية مقام مريم^(٧). وهذه هي الزاوية الرابعة لحصن القدس، وهي لهذا السبب مربعة الشكل.

ومن مقام مريم الى الغرب لا يصادف المرء خندقاً وهو يمر بازاء اماكن شاهقة ومهولة الى أن يمر امام محراب المسجد الأقصى ويصل ثانية الى باب المغاربة بعد أن يسير أخيراً ثمانمائة خطوة. ووفقاً لهذا الحساب يكون محيط الحصن سبعة آلاف وخمسين خطوة. وله سبعة وخمسون برجاً حسن التحصين وثلاثة وسبعون منحنى تسيطر على الاسوار الأخرى. وهناك ما مجموعه اربعة آلاف وخمسون كوة (فتحة) بين شرفات السور.

(١) ليس هناك الان من اثر لهذا الاسم التركي. وليس هناك ما يشير الى أن قلعة جالوده هذه هي «برج مائل» وكان الصليبيون يدعونه بـ «برج تانكرد».

(٢) يقصد باب العمود.

(٣) يقصد مغارة الكتان او محجر سليمان.

(٤) الباب يفتح بالطبع الى جهة الشمال.

(٥) المقصود: برج اللقلق الان.

(٦) هما بابا الرحمة والتوبة اللذان يطلق عليهما عامة الناس بالقدس باسم توما توما، ويطلق عليها الاجانب اسم الباب الذهبي. وهما مقفلان ربما منذ القرن السادس للميلاد. ويدعيان الآن كذلك باب الدهرية اشارة الى الاسطورة التي تقول بأنها سيفتحان ثانية عند دنو اليوم الآخر.

(٧) هو ما يعرف اليوم باسم مهد عيسى ومحراب مريم حيث ارضعت السيدة مريم طفلها، فيما يقال.

وإذا ما سار المرء من مقام مريم الى باب المغاربة فباب داود ومن تم الى الزاوية الشمالية(!) فهو لا يصادف خندقاً على امتداد الف وسبعمائة ذراع فوق ارض حجرية تماماً. فالخندق ليس ضرورياً هناك. وفضلاً عن ذلك فلا مكان له هناك. والخندقان الكائنان في الطرف الغربي ليسا عميقين كثيراً. وربما ترواح عمقهما بين خطوتين وثلاث خطوات.

وبداخل باب الخليل تتصل القلعة في احد الجوانب بالحصن الرئيسي. وهو حصن داخلي صغير آخر يبلغ محيطه اربعمائة خطوة وله ثلاثة ابواب حديدية مكشوفة تؤدي الى الحصن الكبير. ومن الباب الأول يعبر المرء على جسر خشبي يؤدي الى القلعة. وفي هذا المبنى الذي شيبه الدهر، إيوان مزدان بالعديد جداً من ادوات الحرب، الكائنة داخل القلعة.

ويعيش في القلعة قائدها (الذردار) ووكيل الحاكم (الكيخيا)، وإمام وواعظ ومؤذن وعساكر. وهناك ما مجموعه احدى وسبعون غرفة مبنية بداخلها، وهي صغيرة للغاية. وبستان قائد القلعة بستان صغير مزدهر، قائم في حندق القلعة.

وبرج الزاوية الواقع الى يمين الداخل الى القلعة هو البرج والمسكن الشريف الذي بناه داود نفسه. وهو غير مسكون لاسباب عاطفية، ولكنه يُستخدم مستودعاً للذخائر وبيتاً للجمال. وله باب حديدي. والبرج مبني بالحجارة المربعة المنحوتة التي يبلغ قياس الواحد منها خمسة الى ستة اذرع^(١).

والحق انه لا مجال للشك على الاطلاق في أن الارواح هي التي بنته. ويترواح عمق خندق هذه القلعة خارج باب الخليل ما بين حوالي اربعين وخمسين ذراعاً مكياً^(٢). والقلعة تتألف من ثلاثة طوابق متينة البنيان. وكل حجر من احجارها في حجم جسم الفيل. اما محراب مسجد داود في القلعة فيتجه الى الشمال^(٣) نحو المسجد الأقصى. ولما أنزلت الآية «فول وجهك شطر المسجد الحرام» - البقرة، ١٤٤ - على محمد، جعل الاتجاه في الصلاة نحو مكة.

وقد حول السلطان الايوبي عيسى محراب داود هذا الى مسجد ووضع لوحة رخامية بيضاء في جداره الايسر كتب عليها النقش التالي: [بسم الله الرحمن الرحيم لا اله الا الله محمد رسول الله. أقمنا اسس بنيانه على تقوى من الله^(٣). نصر من الله وفتح قريب^(٤)] وعمل هذا البرج المبارك من مولانا الملك المعظم شرف الدنيا والدين عيسى ابن ملك(!) العادل بن سيف الدين بن ابي بكر بن محمد بن ايوب بن شادي خلد الله دولته وتولى عمارته عز الدين وعمر عمارته بارض فلسطين في شهور سنة عشر وستماية والى! الله رب العالمين].

وليس هناك مبانٍ مهما كانت حول حصن القدس^(٥) اللهم الا حارة داود التي تتألف من اربعين بيتاً.

(١) بالانجليزية yards (ك.ع).

(٢) ربما هو الذراع المعماري العادي الذي يبلغ طوله ٢٩ر٥ انش.

(٣) التوبة، الآية ١٠٩، في النص الذي سجله جليبي: [ام من اسس الخ].

(٤) سورة الصف، الآية ١٣.

(٥) المقصود السور.

وإذا استثنينا البساتين والكروم وحدائق الزهور فجميع المباني هي داخل الحصص (السور).
 وجميع الاحياء إسلامية، وهناك ما مجموعه ألف قصر عال شبيه بالحصن. ومباني هذه المدينة من
 الحجارة، وليس فيها مباني خشبية مطلقاً. ومع ذلك فالأبواب مصنوعة من الخشب. والدور
 مغطاة بالشيد وكلها مصليات^(١). وهناك مسجدان للجمعة، أحدهما داخل القلعة، والآخر هو
 المسجد الذي عينه لذلك نص حاسم، وهو المسجد الأقصى الذي ذكره خالق العالمين في القرآن
 الكريم (الاسراء). وليس هنالك الى جانب هذين مسجداً للجمعة، فجميع المساجد الأخرى
 مساجد عادية.

وصف المسجد الأقصى

يفترض ان داود هو الذي بدأ ببناءه. اما سبب بنائه فهو أن الطاعون انتشر بين بني اسرائيل
 في زمن داود فصلى داود ودعا بأن يزول المرض. وعندما خفت حدة الطاعون بُني المسجد
 الأقصى في الموضع الذي صلى فيه داود. ولكن قبل اتمام البناء توفي داود واتم سليمان البناء.
 وبعد أن رفع داود قواعده الى مقدار قامته الرجل مات داود بسلام بعد أن قهر جالوت. وهكذا
 انتقل الملك الى سليمان. واصبح سيداً لجميع المخلوقات وامر الارواح (الشريعة) بأن تبني هذا
 المسجد الأقصى.

وبعد فترة طويلة تم البناء. وفي ذلك اليوم نفسه كان سليمان يتوكأ على عصاه الملكية بينما
 كان يراقب انتهاء المسجد فجاء الامر الالهي: «ارجعي الى ربك»^(١). وصعدت روحه الشريفة
 الى السماء، بينما كان جسده يتكوى على العصا. ولم يعلم بذلك احد من الخلق. ومع ذلك فعند
 تطهير المسجد الأقصى فان آصف براخيا، وهو حكيم من رجال سليمان ووزيره، وحافظ خاتمه
 الخاص، دأب على صرف جميع الارواح والجنيات من عملهم اليومي قبل الغروب وحبسهم جميعاً
 عند انتهاء العمل في السجن القديم^(٢) الكائن في الخندق خارج باب العامود. وكان يفعل ذلك
 باستخدام طلسم. ومع الوقت هلكوا جميعاً. وحتى في هذا الوقت يمكن للمرء أن يشاهد جماجمهم
 هناك^(٣). إنه مكان مظلم جداً يقشعر المرء لدى النظر إلى داخله.

وفيماء بعد أكلت دودة عصا سليمان من الداخل فسقط على الارض. وهناك اتفاق بين جميع
 العلماء على انه وفقاً للكتب المقدسة دفن بجوار والده داود.
 وبعدئذ جاء الامر الإلهي^(٤) بتحويل المسجد الأقصى إلى قبلة. وامثل العديد من الملوك.
 وبني كل منهم ملحقاً للمسجد حتى اصبح جميلاً كأنه الجنة.

(١) الفجر، الآية ٢٨.

(٢) مغارة الكنان.

(٣) البقرة، آية ١٤٤ و ١٤٥.

وبعد أن قضى النبي عشر سنوات^(١) في المدينة بعد الهجرة صَدَّر له الامر الإلهي : «فول وجهك شطر المسجد الحرام»^(٢). وعندئذ حولت القبلة من القدس الى مكة. ومع ذلك فإنه بالاشارة الى القدس نزلت الآية: «وَلْيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ»^(٣)، وفي هذا الوقت الحاضر فإن هذا المسجد هو كعبة المتصوفة.

انه مسجد كبير يتسم بالجلال والصفاء. ويبلغ قياسه من الباب الجنوبي^(٤) حتى المحراب ثلاثمائة خطوة بالضبط. ويبلغ عرضه من محراب عمر في الشرق الى زاوية محراب المالكية اربعمائة خطوة. ويبلغ مجموع ما فيه من العمدان سبعين عاموداً كبيراً وصغيراً، وهي ذات اشكال فتانة من لون السماق وغيره من الالوان. وكل عامود منها جوهرة بذاته تساوي كنوز مصر.

وجناحا المسجد إضيقا اليه فيما بعد، وهما يستندان الى دعائم بينما ترتفع القبة على اقواس ضخام. ويتألف المبنى من صفوف واحدها فوق الأخر وهناك اقواس فوق الاعمدة القوية. ويستند السطح الذي يشبه العرش والسقف الخشبي إلى عشرين دعامة من خشب الارز، وهي مطلية بمختلف الالوان. انه منظر مدهش. ويرتفع المبنى المستدير اربعين ذراعاً عن الارض، بينما يبلغ ارتفاع المباني القائمة الى جواره عشرين ذراعاً. ويستند المسجد من الداخل الى مائة وعشرين قوساً، من كبيرة وصغيرة. والقبة التي تعلو المحراب هي اعلى اجزاء المبنى. انها قبة رائعة لا مثل لها على وجه الارض. ويبلغ ارتفاعها خمسين ذراعاً، وهي ملكة جميع القباب المحيطة. انها ليست كروية كالقباب الأخرى بل اهليلجية.

والمسجد مزدان من الداخل برسوم من الفسيفساء الزجاجية المذهبة بألوان متقزحة تمثل شجرة ارز الجنة (الطوبى) وزهرات اشجار الفاكهة. انه مبنى مستدير «نور على نور» (سورة النور، الاية ٣٥). وقد كتبت حوله الآية: «الله نور السموات والارض» (النور، ٣٥) وقد رجمه سليمان خان ولا يمكن ايقاء المحراب والمنبر حقهما من الوصف بالكلمات، لانها يفوقان الوصف والتحديد. صحيح أن المنبر من الخشب، الا ان الصانع البارع، رغبةً منه في عرض براعته، جعل المنبر كأنه من عمل ساحر. اما المحراب فهو مذهب بسخاء كأنما هو قطعة مطلية باللازورد ومرصعة بالجواهر. وكل معدن أو حجر كريم معروف على وجه البسيطة، ايما كان، قد ادخله الصانع البارع، في حجم عين الطير في ذلك المحراب، بحيث اصبح نموذجاً يجلب في جماله عن الوصف.

وبعد أن نظر سليمان خان في انشاء المحراب والمنبر والقبة اختار من معارفه الشخصيين المعلم الموهوب، المختص في فسيفساء الزجاج عبد الله السكير (Serkhosh Abdo) الذي اتى بالعجائب في هذا المحراب الذي في الحرم الشريف، وذلك باستعماله اثني عشر نوعاً من الزجاج

(١) البقرة الآية ١٤٤ و ١٤٥، ومعروف أن هذه الآية نزلت في السنة الثانية للهجرة (الترجم).

(٢) الحج، الآية ٢٩.

(٣) يخلط المؤلف هنا، كما في امكان اخرى، الشمال بالجنوب.

ذي الالوان المختلفة المتقرحة، بحيث أن الاشعة المنعكسة عندما تسقط على الأرض تضيء المسجد كله وتغلا جموع المصلين الكبيرة بالضياء والتأمل، وتوحى لهم بصلاة تلتقيها المهابة والخشوع.

والى جانب ألواح الزجاج ذات الاثني عشر لونا التي مر ذكرها من قبل هناك ما مجموعه مائة وخمسة من الواح الزجاج، بما في ذلك البلور والبلور الصخري والزجاج البنفسجي .
والى يمين المحراب ويساره غرست الواح من الخشب الممتاز^(١) في الجدار قياس كل لوحة ثلاثة اقدم، وجميعها مطلية ببراعة فائقة بالوان قوس قزح. وهي محاطة بالرخام. وكلما انعم المرء النظر فيها ازداد بها إعجاباً، كأنما هو ينظر الى عمل الله. لكم كانت هذه الصفائح الرخامية الكبيرة جميلة في صقلها وزينتها.

وهناك سبعة شبابيك في هذا الحائط على جانبي المحراب وتطل عليه.

وامام المنبر تقع دكة المؤذنين^(٢)، وهي ترتفع على اثني عشر عموداً رفيعاً صغيراً جيد التوازن، كأنها سرادق. وهناك ايضاً «كرسي سليمان»^(٣) وكرسي للواعظ. وقد زينها المعلم البارع باللمسات الفنية، وجعلها منظراً بهياً يسمو بالنفوس.

إن سجاد الصلاة الحريري في هذا المسجد رائع. وهو سجاد اناضولي وعربي وفارسي. وما من سجاد في المساجد الأخرى يضاهيه في الجمال.

وهناك حوالي الف من المعلقة الثمينة البارعة الصنعة تتدلى من السقف الى جانب سبعة آلاف من قناديل الزيت الصغيرة^(٤). ويضاء كل ليلة حوالي الف قنديل. اما في ليلة القدر فتضاء القناديل جميعاً، بحيث يغدو المسجد وهو الجيد الانارة من قبل، نوراً على نور، في حين يسبح خارج المسجد بالضياء ايضاً..

للمسجد عشرة ابواب، سبعة منها تفتح جنوباً^(٥). ويبلغ ارتفاع الباب المركزي خمسة عشر ذراعاً. انه من صنع قديم وهو من النحاس المطلي بالمينا. وعلى كل جانب من جانبي الباب ثلاثة ابواب أخرى، وهي متقنة الصنع وجديرة بالرؤية. والى اليسار يقع باب الخضر بينما يقع الى اليمين باب المالكية. وخلف المنبر يقع المدخل المؤدي الى المدرسة^(٦). وخارج الابواب الجنوبية^(٧) هناك قناطر على ست دعائم ورواق.

(١) ليست هذه الالواح من الخشب بل هي صفائح من الرخام المزدان بكثافة بالاشكال الهندسية.

(٢) المكان المواجه للمنبر مخصص للمبغين لا للمؤذنين.

(٣) ليست هنالك منصة ولا كرسي تحمل اسم سليمان في المسجد الأقصى في الوقت الحاضر.

(٤) إن عدد القناديل المعلقة الآن (أي في سنة ١٩٣٩) في الأقصى، كما يقول سدة المسجد، هو اربعة آلاف. وقد تم تركيب الضوء الكهربائي في الساحة فحسب.

(٥) الصحيح شمالاً.

(٦) المدرسة الحنينية القديمة.

(٧) الصحيح: الشمالية.

زيارة المسجد الأقصى

هناك اولاً في الزاوية الشرقية محراب عمر . فبعد الفتح ادى الصلوات هناك طيلة اسبوع كامل . ويليه محراب داود حيث كانت تؤدى الصلاة عندما كانت اساسات المسجد قيد الحفر . وإلى يساره آيات قرآنية كتبها بشكلٍ متساوٍ بالاحرف الكوفية الخليفة عثمان . وتبدو كأنها كتبت بيد العلي القدير .

وإلى يمين المنبر يقع مهد عيسى ، وهو مصلى يقع خلف درابزين في الصنعة . وله مدخل منفصل .

ويقع مقام الخضر عند باب المسجد الأيسر . واحمد الله اني زرتها جميعاً وصليت عند كل منها ركعتين راجياً الله بخشوع أن يلبي سؤلي بشفاعتهم .

هنالك ثمانمائة من السدنة ارباب الرواتب في المسجد الأقصى هذا . فهناك أئمة للمذاهب الأربعة وعدد مساوٍ من الوعاظ . وإيام الجمعة يصعد الخطيب إلى المنبر ويديه السيف^(١) . أما السيف المشقوق فهو سيف عمر^(٢) ويمكث الخطيب على رأس عمله مدة اسبوع واحد . وهناك في الجملة خمسون مؤذناً ، ومسبحاً ومبلغاً (أو معرفاً) وسواهم من القراء وكذلك السدنة .

وهذه الوظائف تدفع معاليمها من جيب السلطان . ويأتي امين الخزانة الخاصة سنة فسنة لتوزيع هذه الهدايا والأعطيات عليهم .

وقبة المسجد الأقصى مغطاة كلها بالرصاص . والقناطر مغطاة من الداخل بالزخارف المذهبة بكثافة إلى ارتفاع قامة الرجل ، وهكذا فانها تحير المشاهد بفخامتها وهذا كل ما في الأمر .

وصف مسجد صخرة الله

يقع مسجد صخرة الله شمال المسجد الأقصى الذي سبق ذكره . ومن هذا المسجد الأخير يسير المرء خلال مرج فوق (رصيف) طوله مائتا خطوة من بلاط الرخام الابيض غير المنحوت الذي رُصف بأمر السلطان سليمان (القانوني) - ومن ثم يتجه المرء بخطاه إلى حوض ماء رخامي ضخم مصنوع من كتلة واحدة^(٣) وفق توجيهات السلطان سليمان نفسه .

(١) من المعروف جيداً أن الخطيب ينبغي أن يستند إلى السيف أثناء الخطبة في المدن المفتوحة ، ولكن لما كانت القدس قد استسلمت صلحاً فيفترض في الخطيب فيها أن يستند إلى عصا وهو يلقي خطبة الجمعة من المنبر . انه يرتدي ثوباً حريرياً اخضر اللون وخفا جلدياً احمر . اما المدن الفلسطينية التي يحمل فيها الخطيب السيف فهي نابلس ويافا وغزة والناصرية وعكا والخليل ويشغل منصب الخطيب في المسجد الأقصى في الوقت الحاضر افراد من بني جماعة ، وهي عشيرة من عشائر قبيلة كنانة التي تنتسب إليها قریش . ويرتدي الخطيب في صلاة الجمعة رداءً اخضر وخفاً احمر - وفي الخطب التي تلقى في المسجد الأقصى - يوضع إلى يمين الخطيب علم النبي موسى ، وإلى يساره علم المسجد الأقصى . ويوضع العلمان على اعمدة المنبر .

(٢) هذا السيف المشقوق هو ذو الفقار ، وهو سيف علي بن ابي طالب .

(٣) وهو يعرف منذ اجيال باسم الكاس .

... وهو اثر لا يُضاهي (بجماله) على وجه الارض . انه متقن الصنع ويقع في وسط المصطبة . وعندما يجتازه المرء متجهاً الى الشمال يصل بعد حوالي اثنتي عشرة خطوة الى درج يؤدي الى قبة الصخرة . وعدة الدرجات اثنتان وعشرون درجة ، وهي من الرخام الابيض . وعرض الدرج عشرون ذراعاً بحيث يستطيع ألف شخص الصعود عليه دون ازدحام . ومن قمة هذا الدرج يرى المرء الصخرة المقدسة . والقبة التي فوقها هي قَصْر اقيم في وسط الحرم تماماً ، وهو مغطى بالرخام الابيض المصقول . ومنظرها يشل في الانسان القدرة على الكلام ، وعندما يشهدها المرء يردد هذا الدعاء : «اللهم اجعل النور في قلبي وفي عيني واذني . وامنحني نور رحمتك ، يا رؤوف يا رحيم» .

وعندما يأتي المرء من جهة المسجد الأقصى يرى منبراً مقابل باب قبة الصخرة الجنوبي^(١) . وهناك يحمل الحجاج احديتهم بايديهم ويسيرون حفاةً مسافةً مائة خطوة على البلاط الرخامي الابيض في المسجد ، الى أن يصلوا الى باب مسجد صخرة الله . وهناك يتركون احديتهم في حراسة البوابين ويبدأون زيارتهم .

إن عبد الملك بن مروان هو الذي بدأ اولاً بإنشاء قبة الصخرة هذه سنة ٧٢ هجرية . ولما كانت الصخرة هي القبلة الاولى فان كثيراً من الملوك والسلاطين بنوا من بعد مباني ملحقة بها ، وزينوها على نحورائح وجعلوها مكاناً يتسم بالهدوء والجلال .

وفي سنة ٩٢٦هـ (١٥٢٠م) ارتقى السلطان سليمان سدة العرش وفتح قلعة بلغراد وفيما بعد جزيرة رودس ومالطة^(١) وجمع بذلك ثروة هائلة . وعندما اصبح ملكاً مستقلاً^(٢) ظهر له النبي في «ليلة مباركة» وقال له : «يا سليمان لتبلغن الثامنة والاربعين من العمر^(٣) وتقومين بفتح كثيرة . ولن يقفني نسلك الى آخر الزمان وسوف اسبغ عليك دائماً رحمتي . واني أمرك بأن تنفق هذه الغنائم على تزيين مكة والمدينة وتحصين قلعة القدس لتصد عنها الكافرين عندما يحاولون الاستيلاء على القدس في عهود خلفائك . وعليك ايضاً أن تزين حرمها ببناء حوض للماء فيه وأن تمنح الدراويش فيه هبات المال السنوية وان تزين ايضاً صخرة الله وتعيد بناء القدس .

واذ كان هذا هو امر النبي فان سليمان نهض من نومه على الفور وارسل من غنائمه الف كيس^(٣) إلى المدينة وألف كيس أخرى الى القدس . ثم بعث المعمار البارح الخوجا سنان ، مع المواد اللازمة الى القدس . ونقل لالا مصطفى باشا من ولاية مصر الى ولاية سوريا . واذا أمر هذا الأخير بتعمير القدس فقد جمع كل معلمي البناء والمعماريين والنحاتين الموجودين في القاهرة ودمشق وحلب وارسلهم الى القدس ليعيدوا بناءها وليزينوا الصخرة المقدسة ، بحيث أن الآية «هذه

(١) وهو المنبر الصفي الذي بناه القاضي برهان الدين بن جماعة (٧٨٠-٨٣٩هـ / ١٣٧٨-١٤٣٦م) .

(٢) حكم السلطان سليمان ٤٨ سنة قمرية .

(٣) الكيس كان يعادل خمسمائة قرش .

جنت عدن . . . فادخلوها . . .»^(١) كتبت بحق على باب الجنة^(٢) في قبة الصخرة . حقاً إنها صورة طبق الاصل لقصر من قصور الجنة .

وخلال السنوات الثماني والثلاثين التي جُلَّت فيها في سبعة عشر بلداً يبقى هذا الموقع فريداً بين المباني التي شاهدها كأنه واحد من الجنت الثماني^(٣) . وإن المرء ليقف مشدوهاً امام منظرها ، ويأخذ بمجامع اللب الجمال الأخاذ لمسجد رائق الحسن ينهض كقصر الخورنق وسط مسجد مرصوف ببلاط الرخام الابيض .

إن محيط هذا المبنى المثلث هو ثلاثمائة خطوة^(٤) وهو ملبس بالرخام السماقي والرخام المعرق المتعدد الالوان حتى ارتفاع ثلاث قامات . وحتى هذا الرخام يشهد بالف صورة من الصور على عجائب الخالق .

ومن فوق الغطاء الرخامي حتى طرف المبنى (العلوي) زُين المبنى ببراعة بالبلاط المتعدد الالوان ، باكمل بلاط في الدنيا . وعلى هذا البلاط كتبت سورة ياسين حول المبنى بقلم احمد قرا حصارى . وفي كل زاوية من زوايا المثلث أضيفت آيات مثل سورة ياسين ، والآية «سلام قولاً من رب رحيم» (ياسين ، ٥٨) والآية : «وما توفيقى الا بالله» (هود ، ٨٨) بخط جلي كبير .

وفوق هذه البلاطات المنقوشة وضعت ميازيب لماء المطر مصنوعة من النحاس المطلي بالقصدير . وفوق شرفات المثلث غطى السطح كله بصفائح الرصاص . وفوق ذلك بُسّت رقبة القبة ببلاطات منقوشة كتبت عليها حروف يبلغ ارتفاعها عشرة اقدم ، وهي ممتازة الصنع . ثم ترتفع القبة الجليلة الى اوج السماء . ومع ذلك فانها ليست كروية كالقباب الأخرى بل هي اهليلجية كالقبة التي تعلو مقام جلال الدين الرومي في قونية . وتصل قمة القبة الى الغمام . اما الهلال الشريف فيبلغ ارتفاعه اثني عشر ذراعاً . ويقولون إنه ذُهب بكثافة حتى إن لآلاه تُرى على بعد مرحلة . انه منير حقاً . وتحت هذه القبة السامقة تقع صخرة الله .

لهذا المكان المقدس اربعة ابواب . هناك باب يواجه الجنوب ، وآخر يواجه الشرق ، وثالث غير مغطى (اي من الخارج) يتجه شمالاً هو باب الجنة - وابع يواجه الغرب . وهذه الابواب المزدوجة مصنوعة من البرونز الأصفر الساطع ، الذي يتلألأ كالذهب . وما من معلم فنان يستطيع في هذه الايام أن يتفد عملاً لهذا . وعلو كل باب عشرة اذرع . وعلى كل باب ستائر مزدوجة من القماش المطرز لأن فصل الامطار في القدس يتسم بالقسوة .

والمبنى من الداخل ايضاً ، كما هو من الخارج ، مكسو من القمة حتى القاع بصفائح الرخام من سماقي ومعرق وزعفراني واصفر وبيرقاني واحمر سماقي وابيض مرقس ذي عروق مذهشة . وكل صنف من اصناف الرخام هو الاجود من نوعه . وقد قُصّت قطع البلاط بحيث تشكل

(١) ليست هذه بآية . ويبدو انها كلمات مقتطعة من آيات مختلفة .

(٢) وهو الباب الشمالي .

(٣) في القرآن الكريم الجنت سبع (ك . ع - المترجم) .

(٤) إن محيط المبنى السفلي لقبة الصخرة هو ١٦٠ متراً . وطول كل ضلع من اضلاع المثلث هو ٢٠ متراً .

أزواجاً. وإذا وضعت الواحدة منها بجانب الأخرى فانها تكون رسوماً كثيرة غريبة وجميلة (متناسقة). وحتى خارج الباب الجنوبي يرى المرء اذ يدخل قبة الصخرة صورة ديكين^(١) منقار احدهما إزاء منقار الآخر، ولهما أجنحة مفروشة على الرخام الذي يكسو الجانب الايمن من الباب، وهما مثبتان على الرخام المعرق بمعجزة من معجزات السماء. وقد رسم الديكان رسماً جميلاً بحيث يلفتان الانظار. وفضلاً عن هذا فهناك رسوم نباتية ورسوم أخرى في هذا الرخام ذي العروق. والنوافذ في الجدار الاول الذي يتحد مع غيره في المركز تطل على باحة المسجد. ويقرأ المرء على زجاجها الرائع المصنوع والمقزح الالوان كلمات: «لا إله الا الله» او الآية «الله نور السموات والارض» (سورة ٢٤، الآية ٣٥) او اسماء الخلفاء الراشدين الاربعة. انه زجاج مصبوغ جميل يحير الالباب.

اما الجدار الثاني فهو إن اردنا الدقة ليس بجدار بل هو صف دائري من الاعمدة داخل الجدار الاول. وفيه ما مجموعه اربعة وعشرون عموداً، تصل بينها اقواس تستند اليها القبة العالية. الا أن ستة عشر عموداً من الاعمدة الاربعة والعشرين هذه هي احجار ضخمة مفردة صنعتها يد الله القدير نفسه. ولونها احمر سَمَاقِي، وهي تجل عن الوصف. اما الاعمدة الثمانية الباقية فهي دعائم مربعة تقف عند النقاط الاساسية. وقد زينها الباني البارع تزييناً سخياً بالزخارف الغنية التذهيب وكذلك بالالوان المتنوعة حتى إن الشخص الغريب الذي لم يعتد على رؤية هذا المنظر يصيبه الدهول حينما تسقط اشعة الشمس من خلال نوافذ الزجاج المصبوغ على هذه الدعائم.

واما السقف بين هذه الاحجار المفردة الضخمة الاربعة والعشرين وبين الجدار فقد طلاه ببراعة فائقة على ارضية بنية بلون الجمال، الرسامون بهزاد القاليقوتي^(٢)، وماني، وشاه قولي، وولي يان، وأغا رضا. ويقسم السقف الى ثمانية اقسام، كل قسم منها مصبوغ على مثال مغاير للآخر.

وتحت الاقواس التي يسندها صف هذه الاعمدة هناك شرفات يمشي عليها الناس لاضاءة قناديل الزيت. وامام هذا الصف من الاعمدة هناك ايضا، في الجدار محراب الحنفية، حيث تؤدي الصلاة مجموعة كبيرة من الناس خمس مرات في اليوم.

هناك ائمة ومؤذنون (في قبة الصخرة). وفوق الباب المؤدي إلى مغارة الصخرة تقوم دكة المؤذنين. ولكن لا منبر هناك (اي في قبة الصخرة). وتنتشر على الارض سجاجيد حريرية ثمينة. وبداخل هذا الصف الثاني من الاعمدة هناك صف دائري ثالث منها، فيه اثنا عشر عموداً

(١) هما في الواقع حمامتان.

(٢) من المستحيل أن يكون اعظم رسامي المنمنمات الفرس بهزاد المروري (فهو من هرات لا فاليقوت «كالكوتاه» الذي عاش بين سنتي ١٤٤٠ و١٥١٤، هو الذي رسم سقف قبة الصخرة مع أن الزخارف القائمة هناك هي فارسية ايضا في البلاط الذي يكسو مئمن قبة الصخرة ورقبتها.

ذات لون احمر سماقي ومبرقش . وكل منها يساوي في قيمته الايراد السنوي لآسيا الصغرى . انها اعمدة ضخام من حجر مفرد .

وتستند القبة العالية الملأى بالانوار الالهية الى هذا الصف الدائري من الاعمدة . والسقف الكائن بين صف الاعمدة الثاني والثالث مطلي ايضا بشكل غير مألوف على ارضية بنية بلون الجمال . وينقسم هذا السقف الى ستة عشر حقلًا كل حقل منها مطلي ببراعة يد صناع على نحو يأخذ بالالباب .

وبين هذه الاعمدة الكائنة في الصف الثالث وضع شبك من الحديد . انه تحفة فنية مصنوعة بطريقة معجزة ، وينسب الى داود .

وهناك ابواب خلال هذا الشبك الحديدي يدخل منها الى الصخرة . وهذه الابواب هي ايضا من الشبك المصنوع بطريقة فنية ، ومفتوح من جميع الجهات . وداخل هذا الشبك هناك درابزين من خشب الارز مرصع باللؤلؤ ويحيط بالصخرة المقدسة وليس له اي باب . ولا يجوز لاي شخص كان أن يدخل الصخرة . وارباب الرتب العالية والمحتد الكريم هم وحدهم الذين يسمح لهم بدخول الفناء لتنظيف الصخرة المقدسة ومسح الغبار عنها بمنشفة مرة واحدة في العام ، في حين أن جميع الحجاج يطوفون حوله عادة من الخارج .

وصف صخرة الله

أدعو لأخوتي الحجاج أن لا تساورهم اية انكار غامضة حولها . إن تلك الصخرة التي تدعى بصخرة الله محاطة بهذا الدرابزين . وهي صخرة بيضاء يبلغ حجمها ، وفقاً لمحيط الدرابزين ، مائة خطوة . ويرى المرء من خلال الدرابزين حجراً ابيض يدعى صخرة الله . ويرى بعض المنسرين أن الآية : «له مقاليد السموات والارض» [سورة الشورى ، اية ٤٢ : ١٢] تعني (أن الله يشير بذلك) : «لقد خلقت اولا حبيبي محمد على وجه الارض ثم اغلقت الارض بمقاليدها (مفاتيحها) اي انني اقمتم جبالها . ويقول مفسرون آخرون إن المقاليد تلمح في الدرجة الاولى الى جبل عرفات ثم الى قبة الصخرة . وهذه الأخيرة معلقة بحول الله لأنها قبله لجميع الارواح التي تُعبَّد في القدس ، سواء الخيرة منها او الشريرة . وحتى في ذلك الزمان البعيد كانت قبة الصخرة مكانا للعبادة . انها قبله آدم نفسه ، كما ذكرنا من قبل .

تلقى النبي هبة النبوة وهو في الاربعين من عمره في مكة حيث عاش ثلاث عشرة سنة أخرى بعد ذلك . ولما بلغ الثالثة والخمسين وتسعة اشهر هبط عليه جبريل من الله العزيز القدير وقال له : «يا محمد إن الله العزيز القدير يُقرئك السلام ويقول : اشر الى موضع يُقام فيه مكان لعبادة الله ، فعين حبيب الله مكاناً وابلغ جبريل الأمين .

ويقول بعض الرحالين : «لا ، إن محمداً ترك مكة وذهب الى القدس على البراق . لكن هناك اختلاف واسع في الاراء حول هذا الموضوع . وعلى اية حال فإن النبي جاء الى القدس حيث رحبت به ارواح الانبياء جميعا . وادى الصلاة في المغارة التي تحت الصخرة المقدسة . وما إن مسح

محمد وجهه بيديه حتى هبط جبريل من عند الله وقال له: «يا محمد إن الله تعالى يقرئك سلامه، وقد ارسل لك البراق لتطير الى الجنة. وأمر قائلاً: ليركبهُ ويأت ويرعشي واللوح المحفوظ وقلمي وجناتي الثماني. ليرني دون وسيط ويشاهد عظمتي. وعند ذلك اطاع النبي امر الله وترك مغارة الصخرة وصلى ركعتين على صخرة الله. وحتى هذه اليوم فان آثار رأسه الشريف وهوراكع و آثار ركبته على الصخرة ما تزال ظاهرة - هكذا يقولون. ومع ذلك فلا يُسمح للمرء بأن يزورها. وبعدئذ بسم الله رسول الله وامتطى البراق وطار وهو يتلو الآية «وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومُرْسَاهَا. إن ربي لغفور رحيم» (سورة هود، الآية ٤١). واذ هو قال ذلك نخس البراق ووَصَلَ بيسر الى السماوات العلى. ثم سمع هزيم الرعد فاستدار بوجهه الكريم نحو الصوت فرأى صخرة الله وراءه كأنها تناشده: «يا محمد خذني معك الى حضرة الله». وكانت الصخرة تتحدث بلسان. فخاطب رسول الله الصخرة على الفور هكذا: «يا صخرة الله ظلي معلقة باذن الله» فظلت الصخرة معلقة في الهواء باذن الله. وحتى اليوم ما تزال معلقة لا يصلها بالارض شيء. واذ كانت معلقة بين السماء والارض فهي تدعى (الحجر المعلق). لكنها صخرة الله. ويقولون إن كلمات كتاب التاريخ تصدق بهذه الحالة، بمعنى أنها المِقلد (المفتاح) الثاني الذي خلق على وجه الارض. ويروي كتاب التاريخ ايضا أن هناك صخرتين جاءتا من الجنة. احدهما الحجر الاسود الذي كان في الاصل بلون الياقوت. وفي اثناء طوفان نوح العظيم بقي في ماء الهاوية. وكان الخاطئون يمسحون وجوههم عليه. وهكذا تغير لونه واصبح «الحجر الاسود»، اما الصخرة الثانية فيقال انها صخرة الله هذه - ولكن الله وحده يعلم حقيقة الأمر.

وقد امر المرحوم السلطان احمد^(١) بصنع ظُلة غنية التذهيب كان غطاؤها يتألف من ستارة مرصعة بالذهب والجوهر. وثبتت زواياها بجبال من حرير بحيث غطت الصخرة المقدسة. ومن هذه الظلة الى اعلى نقطة في القبة علو يتراوح مقداره ما بين اربعين وخمسين ذراعاً. ويبدو داخل هذه القبة، النيلي اللون، كأن سطحه كله مطلي بالذهب ومرصع بالاحجار الكريمة المغروسة في المينا. اما اسم الرسام الذي طلاه فهو شاه قولي.

وعندما طارت الصخرة خلف نبي الله ثم امرها الرسول بالوقوف في مجراها خلال الهواء بقي تحتها فراغ. وهذه المغارة تتسع لمائتي شخص^(٢). ويقع مدخلها خلف محراب الخفية تحت دكة المؤذنين تماماً. ويدخل اليها باستخدام درج حجري. وبابها يتألف من شبك من الحديد. وتحتها غرفة واسعة ومصلى للأتقياء من الحجاج. وقد أمر احد الخلفاء في الايام الخوالي باقامة حائط حاجز رفيع تحت الصخرة المقدسة لئلا تستبد الرهبة بالحجاج الذين يرغبون في زيارة المغارة، فيتمكنوا من اداء صلواتهم بذهن حاضر وسكينة. وذلك أن منظر الصخرة المعلقة كان يُفزع الحجاج ويؤدي بالكثير من النساء الخوامل الى الاجهاض لمجرد رؤيتها. بيد انه يمكن ادخال اصبع بسهولة او حتى ادخال يد في بعض الاماكن بين الصخرة والحائط.

(١) احد الاول (١٥٨٩-١٦١٧). (ك.ع - المترجم).

(٢) لا تكاد المغارة تتسع لاربعين شخصاً، وهم وقوف.

مقامات مغارة صخرة الله

عندما تنزل على الدرج يكون مقام جبريل ومحراه على الجانب الايمن من المغارة، بينما يكون مقام داود على اليسار. وعندما صلى النبي هناك لمس الصخرة المقدسة بعمامته الشريفة وترك بعض العلامات المجوفة (في الحجر). وعلى الزائر للمكان أن يمَسُّ ذلك المكان ثم يمَسُّ وجهه ويدعو قائلاً: «اللهم بيض وجهي ببركة معراج محمد عليه السلام». وعندما أتى جبريل الأمين من خلوة الخضر وصومعة سليمان الى النبي لم يدخل من جانب المغارة بل انشقت الصخرة التي فوقها. وفي هذا الشق الذي نزل منه يُشاهد مصباح زيت كبير ظل مشتعلًا منذ ليلة الاسراء. وبملاء السدنة بالزيت على الدوام ويجددون الفتيل، وهو مسئولون عن هذه الخدمة. وبذلك فإن داخل المغارة يغمره الضوء بحيث أن من يصلي ركعتين تحت هذا الضوء الغامر لن يحرم أبداً من رحمة الله وفضله بعونه تعالى. وهذا ما اردت أن اقله.

ثم ان هنالك عاموداً صغيراً ورقيقاً من الرخام عند مدخل المغارة. وهو موضوع تحت الصخرة المقدسة، أملاً في أن يسندها إذا ارتجفت. وبذلك يشعر الناس بالأمان وباب هذه المغارة يواجه الجنوب. وكل هذه النصب والآثار كائنة داخل قبة صخرة الله. انها قبة اهليلجية ضخمة كأنها هبطت من قمة الأجرام السماوية. لم يبن بناء كهذا قط منذ سقوط آدم، ولا رأى السائحون له نظيراً في جميع ارجاء العالم المعمور.

المقامات الكائنة خارج درابزين الصخرة المقدسة

هناك اولاً سياج من القضبان الفضية حول خزانة تضم الاثر المبارك لقدم النبي اليميني وتُملأ بماء الورد نهاراً وليلاً، وقد اعتاد الحجاج أن يغسلوا وجوههم به. ومقابل الخزانة ترى ترس حمزة موضوعاً على زاوية معكوسة. ويسميه بعض الناس مرآة الاسكندر. وهي مقعرة في احد جانبيها. انها طلسم عظيم كأنما هي مرآة العالم. ولو نظر فيها ألف رجل في وقت واحد لأمكن رؤية كل واحد منهم. انها قطعة لافتة جداً للنظر. ويشهد الفقير كاتب هذه السطور بأنها مرآة الاسكندر.

وعلى شبكة صخرة الله صنع داود رمانات من حديد. انها حقا عجيبة من عجائب رسول الله، وقطعة فنية من عمل داود نبينا عليه السلام.

وفي النقاط الرئيسية الاربعة نجد مقامات الخلفاء الراشدين الاربعة - رضي الله عنهم جميعاً. فالى الشرق مقام علي، والى الجنوب مقام ابي بكر الصديق، وعند الباب الغربي مقام عمر، وعند الباب الشمالي او باب الجنة مقام عثمان ذي النورين.

وتستمد الصخرة نورها من المصباح المعلق من القبة. وكل من صلى ركعتين تحت قناديل الزيت هذه، وعددها الف قنديل بالضبط، سيبلغ بالتأكيد اكثر ما يشتهي.

وبالاضافة الى ذلك هنالك ثلاثة آلاف قنديل اخرى معلقة في هذا المكان المقدس. كأنها

فروع من نور الشمس، ولا حاجة بنا لأن نذكر العديد من الشمعدانات البالغة الثمانية.

وكل واحد منها تحفة انجزها فنان ضليع. وهي قد بلغت في ثماتها حداً فائقاً بحيث أن ايراد مصر نفسه لعدد من السنين يعجز عن شرائها. ناهيك بقطع البلور النفيسة.

إن البسط والسجاجيد في هذا المكان المقدس هي من اجل العبادة. وليس هناك نظير لهذا السجاد حتى في قصر الملك. ولما كان البادشاه (السلطان) العثماني في الوقت الحاضر اكثر السلاطين جلالاً واحتراماً في الدنيا باسرها وقد ذاعت شهرته بين جميع الملوك حتى دولة الصين ولما كانت كل ريح تردد هذا النبا الذي يُفرح القلب، ولهجت الالسن بالثناء على السلطان لكرمه الذي لا يحد^(١) فقد جعل هذا المسجد جنة لا نظير لها في الارض وزينه برسوم بهزاد، وذلك ان السلطان العثماني وحده هو الذي يمكن أن يكون، صاحب بيت الله.

واحمد الله إني زرت كل موقع (في منطقة الحرم) قبل عيد رمضان (عيد الفطر) سنة ١٠٨٢هـ [٢٢-٣١ كانون الثاني ١٦٧٢] واتممت الختمة ليلة القدر في المسجد الأقصى في بيت الله واهدت ثواب ذلك الى ارواح موتى المؤمنين المدفونين في القدس.

وصف الحرم والأقصى وصخرة الله

نقول في البداية إن صحن الصخرة المقدسة هو ميدانٌ مغطى بالرخام الابيض تؤدي اليه الابواب من سبعة اماكن. والابواب لها قناطر مزدوجة وليس بها مصاريع. وفي جهة الشرق باب له قنطرة واحدة. ويصعد المرء الى صحن الصخرة المقدسة على سلم ذي ثمانى عشرة درجة من الحجر.

ويتم الدخول من الشمال عبر ثلاث بوابات على سلام حجرية في كل سلم منها عشرون درجة ومن الجنوب هناك ثلاث بوابات أخرى مقنطرة. وليس لهذه ايضا مصاريع. ويتم الوصول الى الصحن عبر هذه ايضا بسلام في كل سلم منها عشرون درجة تؤدي الى صحن الصخرة المقدسة. وهكذا يتسنى الوصول الى الصحن من جميع الجوانب. ويرتفع الصحن سبعة اذرع مكيّة عن الارض المحيطة به. وذلك أن الحرم يقع كالقصر وسط وادٍ أخضر ومركزه هو صخرة الله. والارض من تحته مُنخربةٌ بالمغاور من اولها الى آخرها. وفي هذه المغاور سجن سليمان الارواح الشريرة. وما تزال اثار الأصفاد والسلاسل ظاهرة للعيان. والناس الذين لديهم قدر كافٍ من الشجاعة يدخلون هذه المغاور ويحيطون النظر فيها. إنه مكان معتم ومخيف. وهو حتى اليوم منامةٌ للجان الاشرار، وطافح بالغبار. ويمكن للمرء أن يختلس النظر الى المغاور من خلال شقوق في الابواب. وهذه المغاور طافحة بالهياكل العظمية. وفوقها تقع صخرة الله. وقتها تدعى

(١) الاصل التركي محرف، والترجمة فيها شيء من الافتراض.

القصر الأبيض لأنها مغطاه بالرخام الأبيض الطبيعي . والمتعبون والمحزونون من الناس يغادرون المسجد وملء اهاهم الأمل والبشر (ياذن الله). إن الحرم يذهب بالحزن وقد قست ايضا محيط الصحن المرتفع كله . إن اتساعه من الشرق الى الغرب مائتا خطوة، ومائتا خطوة اخرى من الجانب الغربي^(١) بينما يبلغ طول كل من الجانبين الجنوبي والشمالي ثلاثمائة خطوة. وهكذا فلدى حسابان مساحة صحن صخرة الله نجد ان محيطه يبلغ الف خطوة. وفي وسط هذه الخطوات الالف المربعة تنهض القبة المنيرة الى السماء. وهذا كل ما في الأمر.

المقامات الجديرة بالزيارة في الحرم

تأتي اولاً قبة صخرة الله . بين البابين الغربي والشمالي للقبة ونحن ننظر الى الشمال وعلى مقربة من الجدران الخارجية للمبنى هناك محراب احمر - قبة النبي . هي قبة صغيرة تنهض على اربعة اعمدة صغيرة ورفيعة . ومحراها واطيء وهو من احجار طبيعية تضرب الى الحمرة . كان لونها في الأزمنة القديمة ياقوتيا . فلما تأثرت باسوداد مياه الهاوية الاصلية في زمن طوفان نوح تحول لونها واصبح الان ضارباً الى الحمرة .

والى يمين هذا المحراب هناك بناية لطيفة ثمانية الشكل وعليها قبة ، وهي قبة المعراج . وهذه القبة عمودان صغيران من المرمر في كل زاوية من زاويتيها ، نصبهما بناء حاذق . وهيكلها ملفوف بالرخام الأبيض والقبة مغطاة بالرخام الجيد وفوق قمتها هلال ذهبي . ويواجه باب القبة الشمال ولكنها الان مغلقة من جميع الجوانب . ولا يعرف ما بداخلها وليس لها شبابيك . ويبدو انه من غير الحكمة ان يدخلها المرء ، لأنها كانت مغلقة . ونقرأ فوق مدخلها النقش التالي المؤرخ وآيات قرآنية : [بسم الله الرحمن الرحيم . رضي الله على نبيه سيدنا محمد وأصحابه . وما فعلوا من خير يعلمه الله] ، «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره» ، هذه قبة النبي ﷺ التي ذكرها اهل التاريخ في كتبهم تولى اظهارها بعد عدمها وعمارتها بعد دثارها بنفسه وماله الفقير الى رحمة ربه الأمير الاجل الاسفهلار الكبير الأوحد الاخص الأمن المجاهد الغازي المرابط عز الدين جمال الاسلام سعيد السعداء سيف امير المؤمنين ابي عمر بن علي بن عبد الله الزنجيلي متولي القدس الشريف وذلك في شهور سنة سبع وتسعين وخسمائة^(٢) .

وتقع بئر الارواح امام الباب الشمالي^(٣) وماء المطر المتجمع من هذا البيت المقدس ينساب

(١) النص غير واضح . ولعل المقصود أن الجانب الشرقي للصحن طوله ٢٠٠ خطوة والجانب الغربي ٢٠٠ خطوة كذلك (الترجم - ك. ع.) .

(٢) نقلنا نص النقش عن : Van Berchem, C.I.A. Jerusalem Haram, P.37 وهو النص الصحيح . اما النص الذي اورده جلبي فهو غير واضح في مواضع منه وتنقصه بعض الجمل . كما أن تاريخه هو ٥٧٧هـ / ١١٨١-١١٨٢م . بينما التاريخ الصحيح الوارد في النقش هو : ٥٩٧هـ / ١٢٠٠-١٢٠١م (الترجم ك. ع.) .

(٣) تقع بئر الارواح اليوم تحت البلاطة الرئيسية للمغارة التي تقع تحت الصخرة . اما البئر المشار اليها هنا بأنها امام الباب الشمالي لقبة الصخرة فهي بئر الجنة .

الى بئر الارواح . وقد سميت بهذا الاسم بئر الارواح لأنها تنعش ارواح اولئك الذين يشربون منها في شهر تموز . ويقال إنها بئر ضخمة .

وعند الباب الجنوبي للحرم (يقصد قبة الصخرة - المترجم) هناك منبر صعد اليه النبي ليلة الاسراء ليعظ ارواح جميع الانبياء . انه منبر صغير . وفي ايام الجفاف يجتمع اهل المنطقة حوله ليصلوا صلاة الاستسقاء^(١) .

وقريب من هذا المكان قبة الارواح ، وقريب منها باب الموازين حيث تجدرسوماً للموازين . وامام الباب الشرقي لقبة الصخرة ، وعلى بعد حوالي سبع خطوات منه ، تقع محكمة النبي داود عليه السلام . وهي مبنية تحت الارض كقصر من القصور وقبتها تستند كلياً الى اعمدة ، وليس لها اي جدار^(٢) . وتتكون دائرتها الخارجية من تسعة اعمدة نفيسة وتتكون دائرتها الداخلية من ستة اعمدة . وترتفع القبة على هذه الاعمدة . ويكسو القبة من الخارج والداخل بلاط القاشاني الخالص بلون اللآزورد . اما القبة نفسها فهي مغطاة بالرصاص الجيد الصنع الذي يشبه الرصاص الذي يكسو جامع السليمانية في استانبول .

ومحيط هذه البناية خمسون خطوة وارضها مرصوفة ببلاط الرخام الطبيعي الابيض . وفيها محراب صليت فيه ودعوت ومحدث .

وهنا ينتهي ذكر المواقع الحرة بالزيارة في قبة الصخرة .

وعند وصول المرء الى باب الموازين من داخل المسجد يلاحظ وجود مزولة بنيت وفق نظام فيثاغورس العجيب . انها مزولة فريدة لا نظير لها في ارجاء العالم المعمور . ويؤذن المؤذنون في كل من مسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى وفقاً لهذه المزولة . وبناءً على ذلك يتردد الأذان من مدارس ، لانه ليست هنالك مثذنة خاصة لأي من المسجدين .

وعلى جميع جوانب مسجد الصخرة المقدسة^(٣) هنالك غرف تابعة لاربعين مدرسة . وفي كل منها يعيش اناس صالحون يعتبرون من الدراويش صانعي المعجزات ، وبعضهم لا يكسرون صيامهم مرة واحدة في الاسبوع ، بينما بعضهم ربما لم يذق اللحم منذ اربعين او خمسين سنة . هكذا هي هذه الانفس التقية التي يعيش اصحابها هنا حياة التصوف ، بينما هم في الوقت نفسه علمون بالمعارف والعلوم الدنيوية .

وهنا ينتهي وصف مسجد صخرة الله المقدسة . وهذا هو كل شيء .

إن مسجدي الصخرة المقدسة والأقصى الذين وصفناهما اعلاه يحيط بهما ارض مستوية واسعة . انها كبيرة بحيث لا يستطيع من يقف في نهايتها أن يميز الناس في النهاية الأخرى فيما اذا كانوا رجالاً او نساءً . وهو مرج ممرع . وفيها بيلي مقاييس محيطه . في جانب المسجد الأقصى

(١) هو منبر برهان الدين بن جماعة ، عند الطرف الجنوبي الاوسط لصحن الصخرة .

(٢) هي القبة المعروفة اليوم بقبة السلسلة والتي بنيت في الاصل لتضم بيت مال المسجد الأقصى ، وبانيها هو عبد الملك بن مروان .

(٣) يقصد الحرم الشريف (المترجم ك . ع) .

اربعمائة خطوة، ومن الشمال في جانب باب حطة، هناك ايضا اربعمائة خطوة. اما الجانب الشرقي، وهو سور الحصن نفسه، فقياسه ستمائة خطوة. والجانب الغربي وهو جانب المحكمة الشرعية فطولُه مثل ذلك. وبموجب هذا الحساب فان محيط هذه المنطقة يبلغ الفي خطوة. وهي مكان للتنزه تزيته اشجار الورد واللبلاب والاس ومملأه تغريد البلابل المسكر، وهو يزخر بالاشجار، التي تبني فيها الطيور اعشاشها، بينما هناك اشجار أخرى مثمرة من نوع شجرة الطوبى الطيبة في الجنة. والى جانب ذلك نجد اشجار المحلب والخور والصفصاف وآفا عدة من اشجار الزيتون والرمان وكذلك اشجار ارز لافنة للنظر متوازنة الشكل.

ويصادف المرء في ثلاثة وثمانين موضعاً مصاطب صغيرة لاداء الصلاة في العراء، اقيمت تحت ظلال الاشجار العالية. ولكل مصطبة منها محراب، وكل مصطبة يسكنها ولي من اولياء الله.

وصف ابواب الحرم الكائنة على الطرق العامة

إن الرواق الكائن عند باب مريم^(١) الذي يواجه الشمال هو محل إقامة الهنود. وعلى الخط نفسه يقع باب حطة المذكور في السورة الثانية (الآية ٥٨): «وادخلوا الباب سُجّداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم». ومن هناك الى زاوية باب حطة الأصغر، وعلى الخط نفسه أيضاً، يقع باب الناظر، خلف قصر الباشا^(٢) تماماً.

هذه الابواب الخمسة (!) تفتح شمالاً وفيها بوابات خشبية. ويضاف اليها باب الغوارنة وباب الحديد. وحول الحديد نزلت الآية التالية في سورة الحديد (السورة ٥٧، الآية، ٢٥): «وانزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس».

ويأتي بعد ذلك باب القطنين وباب المطهرة وباب السلسلة. وهذا الأخير باب مزدوج له مصراعان من البرونز. وهو يعرف ايضا بباب المحكمة، وهو مزدحم جداً.

ويلي ذلك باب المغاربة، وهو باب صغير له بوابة من الحديد. وهذه ستة ابواب في مجموعها، بادئين بالعد من الزواية الغربية لقصر الباشا. وكلها على الجانب الغربي (للحرم).

اما الجانب الجنوبي، اي جانب المسجد الأقصى والجانب الشرقي ففيهما اسوار الحصن (اسوار المدينة - المترجم). وليس فيهما ابواب، لأن هناك على امتدادهما وديانا وخنادق. هذه هي ابواب الحرم العالية العشرة، على الوجه الذي ذكرناه.

وهناك على امتداد الجوانب الجنوبية والغربية والشمالية لساحة الحرم اروقة ذات قباب تستند الى ثلاثمائة وستين عموداً ودعامة. وجميع الاروقة تضاء كل ليلة يقناديل الزيت. فيغدو نورها ساطعاً كأنه نور النهار. ويعيش في هذه الاروقة دراويش من الهند والسند وبلخ وفارس واكراد وتار ومغول واثراك. وهم لا يحتاجون الى اضواء الشموع الخاصة ليلا لانهم يستطيعون ان

(١) ابواب الاسباط من ابواب الحرم، لا السور.

(٢) هو المبنى المعروف بمبنى كلية روضة المعارف. هذا الباب هو باب العتم او الدوادارية لا باب الناظر (المترجم).

يقرأوا القرآن (من ضوء فناديل الزيت التي تعطي ما يكفي من النور) ويتلوا الذكر ويرفعوا الى الله احسن الدعاء .

وتؤدي الطرق بين هذه الاورقة الى ابواب الحرم التي مر ذكرها . وهي محاطة من الجانبين بجدران(?) وكل رواق فيه محراب^(١) وليس هنالك اروقة على امتداد السور الشرقي لأن هذا في الوقت نفسه هو سور الحصن . على انه توجد بعض الصوامع في عدد من المعامل والحصون . ومن كل باب من الابواب تؤدي ممرات مرصوفة بالرخام الابيض ، وعرض الواحد منها ما بين خمسة الى عشرة اذرع ، خلال مروج خضراء الى المسجد الأقصى او قبة الصخرة بحيث لا تلمس قدم المار عليها ذرة من الغبار .

وهناك مائتا غرفة للمدارس حول هذا الفناء الكبير الذي يحيط بالاجزاء السفلى لمسجد صخرة الله . ويبلغ مجموع عدد المدارس في القدس حوالي ثلاثمائة وستين مدرسة وزاوية بين كبيرة وصغيرة .

على أن أفضل المدارس واكثرها حظاً من العناية هي مدرسة باب حطة^(٢) . ولهذه المدرسة مثذنة . ثم تأتي مدرسة باب الناظر . (اقرأ : باب الدوادارية) وهي ترتفع خلف قصر الباشا تماماً في الزاوية (زاوية ساحة الحرم) . ولها مثذنة رفيعة .

والمدرسة الغورانية في باب الغوارنة لا مثذنة لها . والمدرسة السلطانية^(٣) في باب المتوضأ هي أحسن المدراس جميعاً . ولها مثذنة من ثلاثة طوابق يبلغ ارتفاعها ١٣٠ قدماً . وقد صعدها الكتاب المتواضع وتمتع بمنظر كامل للمدينة كلها .

ولا توجد الى جانب هذه المآذن الثلاث^(٤) مآذن أخرى في منطقة الحرم . وليس للمسجد الأقصى ولا لمسجد قبة الصخرة المقدسة مثذنة . ويُتلى الأذان من اعلى المثذنة الأخيرة لانها قرب البلدة . ولما كان المسجد الأقصى ومسجد الصخرة المقدسة الكائنين في هذا المرج بعيدين عن البلد فلم تبين مثذنة لاي منهما .

وخلف باب المغاربة في هذا الفناء يقف المبنى الجميل لجامع المالكية^(٥) . وطول هذا الجامع من بابيه الشمالي حتى المحراب ثلاثمائة قدم وعرضه سبعون قدماً . ومع ذلك فليس له مثذنة ولكنهم ينشدون الذكر هنا بعد صلاة الفجر ويرددون الادعية بطريقة تحير ألباب محبي الدعاء والتصوف . انه مسجد مغطى بالرصاص وله رواد كثيرون .

وساحة المحكمة الشرعية عند باب السلسلة تؤدي إلى الصحن الكبير . وعلى مقربة من هذا المكان يقوم قصر ملكي من اربعة طوابق^(٦) ، وهو بناء عال عجيب ، ولكنه لا يقارن بقبة الصخرة

(١) النص غير واضح تماماً .

(٢) ربما هي المدرسة الطولونية او المدرسة الفنارية ، وكان يصعد إليهما من السلم الموصل الى مثذنة باب الاسباط (ك . ع) .

(٣) وتسمى ايضا الاشرفية .

(٤) هناك مثذنة رابعة هي مثذنة جامع المغاربة (الترجم ك . ع) .

(٥) كان يعرف بجامع المغاربة حتى سنة ١٩٢٧ ، ثم حول منذ ذلك العام الى متحف .

(٦) ربما كان المقصود بالقصر المدرسة التنكزية (ك . ع) .

المقدسة . وهو محاط من جميع جوانبه بالرخام الملون بلون اليشب (الأخضر الضارب الى السواد) والمبرقش والاحمر السماقي ، من مختلف الانواع .

وسوف نحتاج الى وقت طويل لو حاولنا أن نصف المباني المحيطة بساحة الحرم على افضل وجه نستطيعه . ويكفي أن نصف المقامات المحيطة به لأن هذا ايضا فيه ثواب حسن .

مقامات المسجد الأقصى

خلف جامع المغاربة يقع مسجد المالكية ، ثم يأتي بعد ذلك المسجد الأقصى بالمعنى الضيق للكلمة ومقام الخضر وقبة النبي داود في الطرف الأقصى للمسجد الأقصى . وفي الزاوية الشرقية لهذا الحرم يقع مسجد الحنابلة ، وهو مبني على اثنتي عشرة دعامة . ولهذا المسجد قبة . وتمتد المغاور في الارض التي تحته حتى تصل إلى الأقصى . وهنا في هذه المغاور ، ايضا سجن سليمان الارواح الشريرة . وفي بعض الاماكن هناك مغاور تستند الى سبعين عموداً .

والى الشرق من هذه المغاور وعند زاوية الاسوار ، هناك سلم حجري به عشرون درجة يؤدي الى مقام مريم ، حيث عاشت وقد لجأت هنا فراراً من كلام الناس الذين اساءوا اليها . وفي هذه المغاور محراب صغير يواجه الشرق . انه مهد عيسى ، وهو حجر لامع مصقول يشبه العشب . وفي داخل هذه المغارة مقام آخر إحياءً لذكرى حواربي عيسى ، وابتعد من هذا مقام جبريل . وهذه المقامات الخمسة توجد في المغارة . ولكن العجيب فيها أن المرء عليه أن يتزل اليها عشرين درجة على سلم حجري لا ينفذ اليه حتى بصيص من النور . انها غرفة مظلمة . ولكن الخالق قضى بأن يكون ضوء النهار في مهد عيسى . واذا بالمغارة اصبحت ضوءاً بقدرة عين الله القدير^(١) . ومع ان المغارة خالية من النار فانها مضيئة . ليس هنالك فيها من شيء يحترق لا قنديل ولا شمعة . هذا هو نور الله ! .

والى يمين هذه المغارة هناك ثقب صغير وخلال هذا الثقب يدخل بعض المتهورين لإلقاء نظرة . انه مكان مظلم لا يميز الرجل فيه رجلاً آخر . والمغارة كبيرة ، وتمتد حتى المسجد الأقصى . والواقع انها كانت السجن الذي سجن فيه سليمان الارواح الشريرة . انه مرمم مظلم يحفل بهياكل عظمية للارواح والجنيات . وحتى الهيكل العظمي الصغير فيه يبلغ طوله سبعة أشبار . وبعض الجمالجم كبيرة في حجم جماجم الروم . ووراء ذلك يصادف المرء في هذه المغارة طيوراً في حجم الحمام ، تحوم وتهاجم المرء في الوجه (خفافيش) .

وارض المغاور مغطاة برمل ناعم يشبه رمل الساعة الرملية . وفي الايام الخوالي كانت الارواح الشريرة تلوّث الرمل وتنام عليه .

وفي بعض ثقبوب الصخر رأينا بعض نهايات حبال مصنوعة من ليف النخيل . وقال الادلاء الذين كانوا يروننا المكان إن سليمان كان يكتف الارواح الشريرة بهذه الحبال . والحق أن هذا غير

(١) هناك كوة للسهام عند أعلى الدرج .

منطقي . ولكن لنفرض انه ربط هذه الارواح بطريقة معجزة . فحسب تاريخ محمد بن اسحق هناك فترة طولها الف وستمائة سنة بين سليمان ومولد النبي . أضف الى هذا الوقت الذي مر بين ذلك المولد وزيارتنا الى القدس فيكون المجموع الفين وثلاثا واربعين سنة لانني زرت المدينة سنة ١٠٨٣ هـ (١٦٧٢م) وقد عاش رسول الله ثلاثا وستين سنة . ولو اخذنا هذا كله بالحسبان والزمن الذي مر منذ سليمان حتى سنة ١٠٨٣ هـ فاننا لنعجب كيف قاومت هذه الحبال التي اوثقت بها الارواح الفساد طيلة ثلاثة آلاف وستماية واربعين سنة . لانني زرتها سنة ١٠٨٣ للهجرة . ورداً على هذا السؤال الذي سألته تلطف علماء القدس باجابة السائل الحقيق بأن سليمان كان سيد الانس والجن والبهائم والطيور . وما دام الأمر كذلك فقد استطاع بقدرته الفائقة ان يصنع من ليف النخيل حبالاً قوية لربط الارواح الشريرة وعمل يده ذاتها لا يتطرق اليه الفساد . وقد رضيت بهذا الجواب .

وبالاختصار فان المرء يشاهد في الرمل في هذه المغاور اثاراً عديدة لحيوانات لا تحمل اي شبه مهما كان لصورة اي انسان .
وعاد الادلاء ادراجهم . وعند مدخل احد المغاور كُوم بعضهم خمسة الى عشرة حجارة على الرمل عند الثقب، حتى يستطيع الزوار مغادرة المغاور . وبعد أن تركنا مغارة مريم حمدنا الله وشكرناه .

وصف عمود الصراط

ونزلنا من هناك وذهبنا شمالاً فجتنا الى مقام جسر الصراط، وهو نائي من سور الحصن (المدينة) . انه حجر مستدير مصقول لونه ضارب الى الحمرة، وأملس بحيث أن الطير يقدر أن يطير حوله ولكنه لا يقدر أن يحط عليه . لكن الطير في الجو فوقه لا يستطيع أن يبقى هناك لأن الوادي الذي تحته عمقه بضعة آلاف من الاذرع، وهو يذكر المرء بالدرك الاسفل من جهنم . وهو في الواقع يدعى وادي جهنم لانه يضم جميع قبور اليهود، وهو مكان هؤلاء الناس المجردين من الدين .

إن هذا العمود الذي يشبه جسر الصراط بني في السور قبل وقت (ترميم التحصينات الذي اجراه) السلطان سليمان . وقد بني على صخرة الاساس الناتئة من السور . ويطلب من المتهم أن يمشي فوق هذا العمود الى نهايته ثم يطلق سراحه . واذا سقط فهم لا يأهبون لدفنه، لانه على اية حال سوف يذهب الى جهنم، وهم يتركون جثته تتعفن في الوادي .

ومنذ الجاهلية بقي هذا العمود في موضعه . وفي سنة عندما كان الحصن يعاد بناؤه بأمر من السلطان سليمان صَدَف أنه وضع اساس التحصينات على موقع هذا العمود فأزيل من موقعه وبني في السور، لكن في مكان اعلى من السابق، ناتئاً من خط السور ولذلك سمي «برج الصراط» .

وتركناه وذهبنا الى مواقع واماكن وابيار وزوايا متصلة بالسور والى مقامات مختلفة ومصليات

على الساحة اقيمت هنا وهناك في جميع ارجاء المرج الأخضر. ثم ذهبنا الى الاحياء الاسلامية داخل الحصن (المدينة).

إن مقامات باب التوبة وباب الرحمة لبني اسرائيل تتصل بأسوار الحصن. وكان الناس في الايام الخالية يتوبون عند احد هذين البابين، وينالون الرحمة ويتخلصون من المهمل وقلقهم عند الباب الآخر.

وهناك فوق باب مريم صومعة للدروايش أصحاب طريقة يزيد البسطامي، حيث يقام ذكر رائع كل ليلة خميس.

وفي خط هذه المباني يقع ايضا مقام سليمان وكروسيه وهما متصلان بسور الحصن ولهما قبتان عاليتان وسبع نوافذ. هنا كروسي سليمان. وقد ذكرت هذه المقامات بعد مقام مغارة مريم. وهي تقع في الجانب الشرقي من ساحة الحرم.

تعداد المقامات في الجانب الشمالي

باب حطة هو مقام النبي قفاح بن . . . وعلى مقربة منه يقع مبنى قبة الارواح، وله قبة صغيرة ترتفع على ثمانية اعمدة رفيعة.

ومقابل قبة سليمان وباب المحكمة، قرب حوض الامام الشافعي، تقع قبة موسى^(١) وسبيلا الامام الاعظم ابي حنيفة والامام علي. وقد بناهما دانيال باشا تكريماً للامام علي.

أما مقامات عزرا نبي الله، والارواح غير المنظورة، والصالحين الامناء، واركاب الاسلام الاربعة، والصوفية على مختلف فئاتهم، والزعماء الروحانيين لعصرهم فهذه كلها مقامات على مصاطب منفصلة واقعة في ساحة الحرم.

غير ان النصب المسقوفة بالرصاص والمقامات والقباب في حرم الصخرة، ومدارسهم وزواياهم والمباني الأخرى ذات الالوان الداكنة، تمتد من جبل الطور (الزيتون) الى القدس.

واليكم الآن ترجمة بتصرف لما جاء في الصفحات الأخيرة من نص جلبي الاصيلي الذي لم يترجمه اسطفان الى الانجليزية:

زيارة طور زيتا

يقول المفسرون إن آية «التين والزيتون» في القرآن الكريم تشير الى هذا الجبل. وهذا المكان توجه فيه ١٢٤ نبيا بالدعاء الى الله. وهو مكان يرتاده الكثيرون.

زيارة الجسمانية: في سفح الجبل يقع قبر السيدة مريم، ويُنزل اليه بثلاث عشرة درجة. وهو في كنيسة يفتح بابها الى جهة القبلة، وهو مغلق. والى شمال القبر مغارة كبيرة يقال إنها المغارة التي اختلى بها السيد المسيح عن أعين الذين انكروه. وهي المغارة التي نزل بها جبريل عليه السلام

(١) وتدعى ايضا قبة الصخرة الصغيرة، واكثر من ذلك شيوحاً اسم قبة شقفة الصخرة.

وانزل عليه فيها الانجيل . والمكان الذي دخل منه جبريل عليه السلام معروف حتى الان . واذا سرت من هذا المكان حوالي ٦٠٠ خطوة صُعداً الى الشرق تصل الى جبل الطور (الزيتون) .
زيارة الملك القادر^(١) .

وهو ملك عادل من ملوك بني اسرائيل توفي قبل ٣٠٠ سنة! وكان اليهود الذين انكروا السيد المسيح قد قالوا له: «إذا أُحْيِيَتْ هذا الملك العادل فاننا سنؤمن بك؟؟» . وفي هذه اللحظة قام السيد المسيح وقال للميت: «قم ياذن الله» . فاستفاق هذا الملك في تلك اللحظة من الموت قائلاً: «لا إله الا الله عيسى روح الله» . وآمن بالسيد المسيح وعاش بعد ذلك سبعين سنة . وتقع قرب هذا المكان كنيسة قديمة^(٢) تقع الى جانبها عين ماء مالحة تفيد طبيياً ضد جميع انواع الامساك والاضطرابات المعدية إذ أن ماءها ينظف امعاء من يشرب منها . ويقال إن هذا الماء من معجزات السيد المسيح ، وهو يسير من العين ويختلط بمياه بحيرة لوط .
واذا ذهبت من هنا صعداً مسافة مائة خطوة تجد:

مقام حضرة موسى^(٣)

هو مقام ذوقبة فيه خزانة طويلة بداخلها عصا طولها ستة أذرع ملفوفة بغطاء احمر من الصوف له شعبتان . لا نظير لهذه العصا في الدنيا . انها من اشجار الجنة وبها نزلت الآية: «قال هي عصاى اتوكأ عليها واهش بها على غنمي»^(٤)، والآية «أن اضرب بعصاك البحر فانقلب البحر»^(٥) . والسبب في نزول هاتين الآيتين أن سيدنا موسى حين تاه في الصحراء مدة ست سنين طلب قومه منه ماء . فضرب سيدنا موسى بهذه العصا حجراً فانجس الماء من سبعة اماكن ، وبعد ذلك اخفوا الحجر في (خريطة) وكانوا حين يحتاجون الى الماء يضربون الحجر بالعصا فيخرج الماء منه . ويوجد هذا الحجر الان في غار عيسى بالشام . وهذه هي العصا التي التهمت أفاعي فرعون .

واذا ذهبت الى اعلى تجاه طور زيتا تمر بين الحدائق والاشجار .

وفي الطور قبر رابعة العدوية في مغارة مظلمة لا يدخلها النساء بل يدعون من خارجها . وعلى مقربة منها يجب أن تزور الشيخ محمد العلمي^(٦) . وعلى قمة جبل طور زيتا قلعة الطور (هل

(١) لا ندري ما هو المقصود بالملك القادر ولا مكان قبره بالضبط ، وهو على الأرجح في وادي سلوان او قدرون .

(٢) كانت هناك كنيسة قديمة قرب عين سلوان الشهيرة التي تبعد حوالي ٣٠٠ متر عن الزاوية الجنوبية الشرقية لسور الحرم . وكان لدى المسلمين اعتقاد بأن لياه عين سلوان قدرة على شفاء الامراض (ناصر خسرو مثلاً) . انظر كتابنا (من آثارنا في بيت المقدس) ص ٩٧ ، وما بعدها .

(٣) ليس المقصود هنا مقام النبي موسى المشهور البعيد ٣٠ كم شرقي القدس ، بل مقام يعرف بمقام عصا موسى كان يقع على جبل الطور .

(٤) طه ، ١٨ .

(٥) الشعراء ، ٦٣ .

(٦) مقام الشيخ محمد العلمي في الزاوية الاسعدية قرب مقام رابعة العدوية (انظر اجدادنا في ثرى بيت المقدس ، ص (٩٩) .

يقصد مبنى كنيسة الصعود او مصعد عيسى) وعلى الباب الغربي هذه القلعة حجر عليه آثار قدمي المسيح . كما يوجد الى الشرق مقبرة وهنا مقام سلمان الفارسي .

[ويعدّ جلبي بعد ذلك مقامات للأنبياء على جبل الطور: مقام يونس واسحق وداود ويعقوب وموسى والعزير وآدم . وكذلك مسجدا الإمام مالك وتربة راحيل وقبة الشهداء . ثم يقول] وفي شرقي طور زيتا مكان للدعاء ، دعا منه جميع الانبياء . ومن هذا المكان تكلم موسى عليه السلام مع الله^(١) (وكلم الله موسى تكليماً)^(٢) . وقد وقفت ذليلاً بعد الصلاة . ودعوت الى الله . لا يوجد في اطراف هذا المكان جبال عالية . وقد قرأت سورة ياسين على قبر جدي الذي قيل انه دفن هنا .

وبعد نزولنا من طور زيتا حوالي ألف خطوة وصلنا إلى مكان يسمى وادي جهنم (وادي سلوان) حيث ترتفع قباب لكل من فرعون وقارون وبلعام بن باعور وشذات وبخت نصر . وقد قطعت جميعها من الحجر الابيض ، ويقال إنها خالية . والمياه القذرة التي تنحدر من المدينة تنصب في هذا المكان ، ومن هذه النقطة ترى جسر الصراط . وعلى بعد خطوة من هذا المكان الى الاسفل تقوم قرية سلوان . وهناك على منصة فيها مصلى له محراب ، تاريخه ١٠٥٢ .

تخرج مياه سلوان من مغارة على عمق ثلاثين قدماً . وهي مياه جيّدة للهضم وتكسب الجسم قوة . وهي نظيرة الاكل في فائدتها للجائع . ويأتي الى هذه المياه شتى اصناف الناس ، ويقيمون عندها اربعين يوماً او اسبوعاً يغسلون ذنوبهم بها . وقد اغتسلت انا العبد الحقيّر وغسلت ذنوبي وثبت . وعلى بعد ٥٠٠ خطوة تجد نبع يونس عليه السلام . واذا شربت من مائه صباحاً فان جسمك ينشط كأنك أكلت خروفاً . وهي تشفي جميع الامراض الجلدية . وحيز رأى الناس هذه المعجزة من سيدنا يونس آمنوا به .

قرية النبي يونس : في هذه القرية حوالي اربعين الى خمسين منزلاً . ويقول الذين يقيمون في هذه القرية إنهم من نسل الذين آمنوا بمعجزة نبي النبي يونس .

كنيسة هايون (ونظن المقصود صهيون) : ويوجد هنا دير للراهبات . وقد تعبد السيد المسيح في هذا المكان . وهنا نزلت المائدة للسيد المسيح وأكل منها هو والحواريون . . .

كنيسة باتوس : اقام هنا السيد المسيح . وهناك قرب هذا المكان عدة مغارات وتجاه هذا المكان ايضاً :

مزار بناشي بن عزا : وكان يقيم به حين فتح عمر بن الخطاب القدس . ويحضر الى هنا مرة كل سنة القزازون والبقالون للترهة والتسلية .

(١) يخلط جلبي هنا بين جبل الطور في سيناء - طور سيناء وجبل الطور (طور زيتا بالقدس) . واسم النبي موسى مرتبط بالجبل الأول بالطبع .

(٢) سورة النساء ، الآية ، ١٦٤ .

وإذا طلعت من سلوان الى الشرق (الصحيح الى الغرب) حوالي ١٠٠ خطوة تصل الى باب داود.

قرية داود (وهو حي النبي داود اليوم): وهي قرية فيها مائة منزل وجامع واحد وفيها مرقد سيدنا داود الذي توفي قبل ١٦٠٠ عام وسيدنا سليمان تحت قبة واحدة حولها شبك من حديد. على الجهات الاربع لكل قبر آيات كريمة. وهناك في الساحة ٢٠ مدرسة (كتاب) تسمع منها اصوات التلاميذ. وقد قرأنا سورة ياسين واهديناها الى كل ولي ونبي.

داخل مدينة القدس

تبدو مدينة القدس وكأنها مدينة صغيرة لكنّ فيها ٢٤٠ محراباً و ٧ دور حديث و ١٠ دور للقران و ٤٠ مدرسة و ٧٠ زاوية لسبعين طريقة، اكبرها زاوية عبد القادر الجيلاني واحمد البدوي والرفاعي والمولوي. وفي القدس ستة خانات، وستة حمامات هي حمام السيدة مريم وحمام السلطان وحمام الشفاء وحمام العين وحمام الصخرة وحمام البترك. . . وفيها ١٨ سيلا كتب على كلا منها سنة (٩٤٧). وهناك غير ذلك ٧٧ صهريجاً وشادروان. وقد عمل على جلب المياه لهذه الصهاريج سليمان خان حيث أنشأ قنوات لا يصل الماء اليها من ميزانية مصر. وتمتد هذه القنوات مسافة يقطعها الماشي في اربع ساعات. وحسب سجلات المحتسب هناك ٢٠٤٥ دكانا، والطرق المؤدية اليها مرصوفة وبيضاء. . . وفي المدينة كنيسان لليهود وكنيستان للأرمن وثلاث كنائس للروم. وكنيسة القيامة الرومية بناها الاسكندر اليوناني. وقد نقش على بابها تاريخ انشائها باليونانية. وفي يوم عيد (البيض الاحمر) - ولعله يقصد ايام عيد الفصح - يجتمع هنا الآلاف من (الكفرة). وفي هذه الايام يحضر ايضا الباشوات والقضاة واعيان الولاية مسلحين لكي لا يستولي على كنيسة القيامة (الكفرة) - يعني المسيحيين - ثم يدعو القيم على كنيسة القيامة للسلطان ويدعو اكثر للكفرة (اي المسيحيين). ثم يفتح الباشا والملا (القاضي) باب الكنيسة. ويحتشد بداخلها آلاف الناس من جميع الشعوب ومئات القساوسة. وياب الكنيسة مغلق طوال السنة، وحين يُفتح بابها يؤخذ من كل من يدخلها عشر ذهبات، تخصص منها حصة للباشا والمثلا (الملا). وعند مغيب الشمس يغلق الباشا والملا الباب. إن باب الكنيسة وشبابيكها لا نظير لها في العالم. وهناك على الجانب الايسر من الباب، غرفة عليها قبة يقال لها قبة قسطنطين. وقد بلط المدخل بالرخام.

مباني القدس كثيرة وهواءها لطيف وماؤها عذب وبها ٧٠٠ قاضٍ. عدّ جاوش زاده محمد باشا سكان المدينة فبلغوا ٤٦ الف رجل. وكان جاوش زاده يوزع الصرة على الف رجل بمن فيه من الاصدقاء المقربون واهل الذوق واصحاب الاحوال. اغنياؤهم يلبسون السمور والقنبار المصنوع

من الجوخ الممتاز. وفقراؤهم يلبسون العباءة والقنباذ المصنوع من الصوف الابيض، ونساؤهم محتشمات يلبسن على رؤوسهن طاقيات مصنوعة من الذهب والفضة. ويلتفنن بالملايات البيض، ويحتدين الاحذية المقفولة المعروفة بالجزمة. بعد انتهاء الزيارة رافقني ٢٦ شخصا مسلحاً الى الخليل، وخرجنا من باب الخليل باتجاه القبلة ومررنا بصحراء البقعة، وفيها ٤٣ الف كرم. واهل القدس يأخذون عائلاتهم ويسكنون فيها ٣ اشهر. وخرجنا من هناك وذهبنا الى كنيسة مار الياس.

الحضرة الإنسية في الرحلة القدسية
لعبد الغني بن اسماعيل التابلسي
مخطوط في مكتبة عارف حكمت
في المدينة المنورة
ومنه نسخة على مايكرو فيلم في مكتبة
الجامعة الاردنية رقمها (٨٢٠)
(ورقة ٢٦ - ١٢٤ مع حذف واختصار)

ثم لم نزل سايرين وباجنحة الدواب طائرين حتى صعدا العقبة واشرفنا على القدس الشريف وما منا الا وقد هزته الاشواق الى زيارة ذلك البلد المنيف فنسينا عند رؤيتنا ذلك ما قطعنا من تلك العقبات وابتهجنا بانواع الراحة والمسرات. ولله در الحافظ العسقلاني حيث قال حين وصل الى القدس الشريف وتمتع بروية بهجة هاتيك المباني:

الى بيت المقدس قد اتينا جنان الخلد نزلا من كريم
قطعنا في مسافته عقاباً وما بعد العقاب سوى النعيم

ووصلنا الى مزار الشيخ جراح فوقفنا وقرأنا الفاتحة ودعونا الله تعالى بالخير والإصلاح . . . وقد خرج للقائنا في ذلك المكان جماعة من المشايخ والاعيان وقد نشروا الاعلام على جهة الافهام بكمال المودة والاعلام يتلون البراءة (ربما المقصود البردة) الشريفة والصلوات على الرسول إلى أن اقبلنا على باب المدينة مع هاتيك الجماعات منهم الشيخ الامام العالم العمدة الفهامة الهمام الفاضل والمقدم الكامل الشيخ احمد ابن الشيخ صلاح الدين العلمي^(١) وولده المكرم الفاضل الشيخ ابوبكر، ومنهم اخوه فخر الأفاضل وعمدة ارباب الفواضل الشيخ علي ومنهم التقي العابد والناسك الزاهد الشيخ محمود السالمي ومنهم الحسيب النسيب الفاضل الاديب السيد خليل امام^(٢) الشافعية بالمسجد الأقصى ومنهم الامام الاديب الكامل التهذيب قريننا الشيخ محمد بن جماعة الخطيب بالمسجد الأقصى^(٣) وغير ذلك من الخاص والعام من الاخوان اهل التعظيم والاكرام. وقد استقبلنا فقراء الزاوية الادهمية في الطريق وحصلت لنا البركة بلقايم ومصافحتهم فنعم ذلك الفريق حتى دخلنا من باب المدينة الذي يسمونه باب العامود فإذا هو كبير عظيم واسع عالي كأنه قطعة من جلمود. وحول بيت المقدس سور جديد متين قوي الاركان عظيم البنيان يحيط بالبلد كلها . . . مبني بالشيد والحجر المنحوت وفي داخله جميع الاماكن والبيوت. وقد أخبرنا انه من بناء الملك المظفر سليمان خان من ملوك آل عثمان ايدهم الله تعالى . . . للقدس عشرة ابواب منها هذا الباب الذي هو باب العامود وهو من جهة الشمال. ومن هذه الجهة أيضاً باب الداعية المتوصل منه الى حارة بني زيد^(٤) وباب يسمى باب دير السرب^(٥) وباب الساهرة. ومن جهة القبلة باب حارة المغاربة وباب صهيون المعروف الآن بباب داود. ومن جهة الغرب باب صغير بلصق دير الأرمن^(٦) وباب المحراب المعروف الآن بباب الخليل وباب يعرف بباب الرحبة^(٧). ومن جهة الشرق باب الاسباط. ولنا من النظم في شأن الوصول وما اتفق من الدخول:

(١) صوفي شاذلي : ترجمته في تراجم اهل القدس، الترجمة ١٦.

(٢) نرجح أنه السيد خليل الامام، الذي كان سنة ١١٢٥ ايضاً ناظرًا لدار الحديث ومقرنا فيها (سجل المحكمة الشرعية رقم ٢٠٨ (١١٢٥)) ص ٤٥ ٢٧٠ لسنة ١٢٠٣، ص ٨١.

(٣) انظر عنه : تراجم اهل القدس. ترجمة (١)

(٤) الانس، ٥٦/٢.

(٥) الانس، ٥٦/٢.

(٦) الانس ٥٦/٢ (باب السرب).

(٧) الانس ٥٦/٢ (من جهة الغرب).

سعدنا في دخول القدس لما سعدنا في ذرى أوج السعود
ولا عجب إذا الاقدار منا سمت وترفعت أعلى الوجود
فإننا قد تفاءلنا لأننا دخلنا القدس من باب العمود

فأول ما دخلنا من باب العامود فاستبقنا به من باب الى باب ووجدنا في جانب الشمال مزاراً لطيفاً له مسجد ومحراب وفيه ضريح الشيخ لولو غازي^(١) صاحب الكرامات المشهورة والفضائل الماثورة فوقنا وقرأنا الفاتحة ودعونا لله تعالى بما تيسر من الدعاء . ثم انحدرنا في تلك المنزلة وحث كل واحد منا رَحْلَهُ وحرك رجله ومررنا في ذلك السوق العامر ورأينا به الخير الغامر حتى اقبلنا على الحرم الشريف وشهدنا نور ذلك المقام المنيف، وقلنا في ذلك من النظام اللطيف :

ولله يوم القدس اذ طلعت بنا ركاينا كالنجم في طالع السعد
وسرنا الى تلك البلاد نزورها الى المسجد الاقصى الى منتهى القصد
فيا حسن وقت قد اتينا بجمعنا ومن سوق قطانين لاحت ربا نجد
واشرقت الانوار للحرم الذي تقدس بالتفضيل والفخر والمجد
وجينا فاقبلنا عليه كأننا من البعد اقبلنا على جنة الخلد

فدخلنا من باب القطانين الى تلك الساحة الواسعة والحضرة النورانية الشاسعة . وللمسجد الشريف اربعة عشر بابا منها ثلاثة مسدودة باب التوبة وباب الرحمة بابان متحدان في السور الشرقي (وباب الجنائز) بالقرب من البابين المذكورين من جهة القبلة . والاحد عشر بابا من جهة الغرب : باب القطانين الذي دخلنا منه وباب الغواصة وباب الناظر وباب الحديد وباب المتوضأ وباب السلسلة وباب السكينة وباب المغاربة ويسمى باب النبي . ومن جهة الشمال باب الاسباط وباب حطة وباب شرف الانبياء . ورأينا ذلك الحرم الشريف والمسجد الذي هو غني عن التعريف وذرعه كما ذكر الحنبلي في التاريخ طولا من حايط السور القبلي الى صدر الرواق الشمالي ستمائة وستون ذراعاً غير عرض السورين ، وعرضاً من السور الشرقي الى صدر الرواق الغربي اربعماية وستة اذرع غير عرض السورين على التقريب . واتفق لنا أن الذين كانوا يقرأون البردة الشريفة قدامنا على الترتيب وصلوا في حال دخولنا للحرم المبارك، وهو اتفاق عجيب، الى قوله فيها

سريت من حرم ليللا الى حرم كما سرى البدر في داج من الظلم

ثم شرعوا في قراءة حزب البحر للشيخ الامام العارف بالله تعالى ابي الحسن الشاذلي^(٢) قدس الله سيره الى أن وصلنا الى المدرسة السلطانية، وصعد الناس معنا حتى غصت بهم هاتيك الاماكن المرتفعة العلية . وحين اقبلنا على المدرسة المذكورة رأينا بابا عظيماً مصنوعاً من الاحجار المنحوتة الملونة والمحفورة وعليه رواق المدرسة مبني بالاعمدة الرخام والاحجار الكبار العظام

(١) معاهد العلم، ٣٥٩ .

(٢) علي بن محمد المتوفى سنة ٦٥٦، كشف الظنون ٦٦١ .

والعقد المقيى العالى وكمال الرونق والبهجة كالكوكب المتلالي حتى صعدا نحو خمسين درجة من الدرجات الكبار المبنية بالمنحوت من الاحجار. وهو درج ملفوف مشترك مع درج المنارة^(١) المشتملة من المحاسن على صنوف. وفي اثناء الدرج شبايك كبار من النحاس مطلات على الحرم ينظر الصاعد فيها الى الناس. ثم دخلنا من فوق ذلك الدرج الى عمارة وذلك على مقدار النصف من درج المنارة. فعبرنا الى مكان واسع الفضا مزخرف الجوانب بالاحجار المنحوتة اذا طلعت عليه الشمس اضاء، يطل عليه اربعة شبايك من شبايك المدرسة معقودة من النحاس الاصفر يروق في ذلك المنظر. ثم عبرنا من باب آخر مصنوع من الاحجار المنحوتة والزخارف والكتابات التي تظل العيون فيها مبهوتة. فوجدنا ممشى صغيرا مبلطا بالرخام والدقيق الملون من الاحجار العظام. وهناك جهتان مشتملتان على باين احدهما على اليمين والاخر على الشمال. فالذي على الشمال يتوصل منه الى المطبخ وبيت طهارة وما يحتاج اليه من الاحوال.

فأخذنا من ذلك جهة اليمين فوجدنا بابا بمصراعين لطيفين. فدخلنا منه الى ميدان من الطف الميادين مفروش جميعه بالسماقي الملون على الالوان والرخام الابيض والدقي من الحجارة التي تزين المخان. مسقوف بالسقوف العجمية المدهونة التي تحير الاذهان فاذا هي قاعة متقنة البنيان محكمة الاركان. تشمل على اربعة ايوانات، وهي مسقوفة بالسقوف العجمية التي هي بأنواع الدهان والاطلية مزخرفات. وجميع جدرانها من داخلها معمولة بالرخام والحجر السماقي الخام، وانواع الفصوص والاحجار الدقاق فأرضها تحاكي حيطانها في زيادة البهجة والاشراق. وارضية الايوانات الاربع مفروشة ايضا بالسماقي والرخام وانواع الاحجار الملونة والفصوص المكونة. فايوانات منها كبيران واسعان متقابلان. احدهما اكبر من الاخر واوسع وهو القبلي وفيه المحراب العظيم البنيان المتقن غاية الاتقان. وايوانان صغيران متقابلان احدهما اصغر من الاخر. فالصغير منها له شباكان مطلان على الساحة العلوية التي ذكرناها انفا. والايوان الاخر الذي يقابله منفتح الصدر لماع فيه عامودان من الرخام الابيض وله شعيرة مبنية من الاحجار الملونة في ارتفاع ذراع. وذلك مظل على الحرم الشريف وصحن الصخرة العالى المنيف. وارتفاع سقوف الايوانات والمدرسة يسامت تلك المنارة وكل ذلك معمرا اكمل العمارة. وفي الايوان القبلي من الشرق ثلاثة شبايك معقودة من النحاس الاصفر نزهة للابصار. مطلات على الحرم وصحن الصخرة. وفي جهته القبلي اربعة شبايك كبار ايضا كذلك واحد منها يطل على الحرم الشريف من جهة القبلة. والثلاثة مظلة على دهليز المدرسة وتلك الظلة. وشباكان من الجهة الغربية على تلك الساحة المذكورة السماوية. وفي الايوان الشمالي شباكان كبيران من الجهة الشرقية. مطلان على الحرم وسطح الصخرة وشباكان كذلك من الجهة الشمالية مطلان على بيت لطيف لصيق المطبخ المذكور فيما تقدم. وعلى الجملة والتفصيل فهي مدرسة عظيمة ذات قدر جليل وهي من بنا السلطان الملك الاشرف قايتباي الشركسي. وقد ذكر الشيخ محمد بن الشيخ يوسف الباعوني^(٢)

(١) مثذنة باب السلسلة.

(٢) (١٥٧-٨٥٧/٩١٦-١٤٥٣/٥١٠-٥١٠) أديب دمشقى (الاعلام ٧/١٥٥).

في التاريخ المنظوم الذي ذيلنا عليه بذكر الدولة العثمانية . وجرينا على اسلوبه المعلوم عند ترجمة السلطان الاشرف قايتباي وذكر ماله من الخيرات والعمائر . فقال :

وعمر السلطان ايضا مدرسة في غاية الاتقان والاحكام
بزخرف الطرز وبالرخام
وبالجنان حسنها يذكر
مع كونها على السطوح رصفت
واحكمت في وصفها معاله
ومن غريب ما بها قد وصفت
بمرتقى تعددت سلالمه

وتحت المدرسة المذكورة مسجد الحنابلة يصلون فيه الصلوات الخمسة (كذا) على حدة وقبالته بحرة كبيرة مربعة الشكل يجري اليها الماء من نوفرة في وسطها صغيرة ، وبالقرب منها قبة صغيرة حولها انابيب يجري فيها الماء لمن اراد الطهارة يفتل انابيبها فتمسك الماء وترسله^(١) . ثم لما استقر بنا مع الجماعة المذكورين واطمأنينا في المدرسة المذكورة جالسين قرأنا الفاتحة في تلك الساحة وتفرقت تلك الجماعة . وكان ذلك الوقت قبيل الظهر ييسر فارسل لنا الى المدرسة المذكورة بالضيافة المشتملة على الالوان الكثيرة كالروض النضير غب الوصول بالتيشير صاحب القدر الخطير والجاه الكبير الحسيب النسيب السيد عبد اللطيف افندي^(٢) فانه عين هاتيك البلاد المقدسية وصدر اهلها في المحافل الانسية . ثم لما سمعنا الأذان خرجنا مسرعين من ذلك المكان فنزلنا وصلينا الظهر مع الجماعة في جامع الصخرة الشريفة التي هي بالأنوار لماعة . كانت صلاتنا (خلف) امام مذهبنا الإمام الحنفي فان عادتهم إذا فرغ المؤذن من الأذان في الظهر والعصر فأول ما يصلي امام المالكية في جامع المغاربة وخلفه المبلغ له المقتدي به . وفي صحن الصخرة مبلغ آخر غير مقتدي به ، فاذا فرغ يصلي امام الشافعية في المسجد الأقصى وخلفه مبلغ آخر مقتدي به ، وعلى الصفة في الخارج مبلغ آخر مقتدي به وفي صحن الصخرة مبلغ آخر غير مقتدي به . . . فاذا فرغ صلى امام الحنفية بجامع الصخرة وله مبلغ مقتدي به وفي سطح الصخرة من الخارج مبلغ آخر غير مقتدي به ، فاذا فرغ صلى امام الحنابلة في المسجد الذي تحت المدرسة السلطانية . واما في المغرب والعشا والفجر فكل امام يصلي بجماعته من غير ترتيب . واما صلاة الجمعة فانها تقام بالمسجد الأقصى بمحل صلاة الشافعية لا غير . واما صلاة العيدين وصلاة الاستسقاء فانها تقام في المحراب الذي على صحن الصخرة الشريفة ويخطب الخطيب في المنبر^(٣) الذي بجانب المحراب . وللصلاة هناك فضيلة عظيمة ومزية حسيمة وردت بها الأخبار وصرحت بذكرها الايمة الكبار .

(١) المقصود السبيل الذي يعرف باسم سبيل قاسم باشا وتقع الى جانبه بركة مربعة . بني السبيل سنة ٩٣٣ ويبدو أن كلمة الحنفية لم تكن معروفة زمن النابلسي .

(٢) عبد اللطيف بن عبد القادر (الحسيني) ، شيخ الحرم القدسي توفي سنة ١١٠٧ ، تراجم اهل القدس في القرن الثاني عشر ، تأليف حسن عبد اللطيف الحسيني ، عمان ١٩٨٥ ص ٣١٠

(٣) منبر برهان الدين بن جماعة .

ثم بعد أن فرغنا من صلاة الظهر ودعونا الله تعالى بما تيسر من الدعاء ذهب معنا خدمة المكان الى الزيارة والتبرك بهاتيك الآثار الحسان، فأول ما زرنا الصخرة الشريفة ذات الانوار الواضحة التي بها مطيفة فرأينا امرأً عجيباً على اسلوب هايل وهيكلًا مباركا يحوي أنواع الفضائل . وهي الصخرة العظيمة والدرة البيّمة قدرنا حولها والتمسنا فضلها وطولها ودعونا الله تعالى عند رؤيتها بما تيسر من الادعية المقبولة والتوسلات المطلوبة المأمولة، وهي صخرة طولها نحو العشرة اذرع وعرضها نحو الخمسة اذرع وسمكها من جهة القدم الشريف نحو الذراعين، ومن الطرف الذي يقابله اقل من ذلك بكثير. هناك محراب لطيف على اعمدة الرخام متصل بالدائرة الخشب التي تحيط بالصخرة بحيث أن المصلى اليه يكون مستقبلاً للكعبة والصخرة الشريفين فصلينا اليه ركعتين ودعونا الله تعالى . ويسمى هذا المحراب بمحراب الخضر عليه السلام، ثم دخلنا تحتها وجلنا في ذلك المجال بعد نزولنا اليه بأربع او خمس من الدرجات في تلك المغارة المباركة التي لا تزال مهبطاً لانوار الملائكة ودعونا الله مستقبلين القبلة نحن ومن معنا من الجماعة، فكان وقتنا مباركاً لا بعده ولا قبله وقد ورد في فضل هذه الصخرة المباركة أخبار كثيرة وقد أخبرونا انه وردت الاوامر السلطانية بالنهي عن المشي بالنعلين في المسجد كله وتكلفوا ذلك مدة من الزمان ثم تركوه لما يجدون في ذلك من الحرج خصوصاً في زمن الشتاء . وقد رأيناهم جعلوا تحتاً طويلاً من الخشب يوضع زمن الشتاء من عند باب جامع الصخرة الى عند الدرج الذي من جهة الغرب يدوسون عليه بالنعال . . .

وقد وجدنا في صدر المغارة التي تحت الصخرة قبالة وجه الذي ينزل من الدرج على جانبه اليمين مصطبة متصلة بحايطها الشرقي لها عمود لطيف متصل بالصخرة يقال ان هناك مقام الخضر عليه السلام . وفي نفس الصخرة خرق واسع نافذ الى الجهة العليا يضعون فيه قنديلاً مشعولاً كل ليلة . . .

وللقبة المذكورة (قبة الصخرة) سقفان احدهما من الخشب وهو المدهون المذهب وفوقه سقف آخر يعلوه الرصاص وبين هذين السقفين خال متسع . وهي مرتفعة على اثني عشر عاموداً من الرخام واربعة سوارى مبنية في غاية الاتقان والاحكام . والصخرة الشريفة تحت هذه القبة يحوطها درابزين من حديد لاصق بالاعمدة والسوارى المذكورة . وفي ذلك الدرابزين اربعة ابواب من الحديد المشبك (واحد منها)^(١) مستدير من الخشب المدهون المذهب على سبعة عشر عاموداً من الرخام وثمانية سوارى . وارض القبة وحيطانها مبنية بالرخام باطناً وظاهراً ومزينة بالفصوص الباطن والظاهر . ذراع داير جامع الصخرة المشتمل على القبة المذكورة من الباطن مايتا ذراع واربعة وعشرين ذراعاً، ومن الظاهر مايتا ذراعاً واربعون ذراعاً . ولجامع الصخرة المذكورة اربعة ابواب تفتح الى صحن الصخرة: باب قبلي عن يمين الداخل منه المحراب مقابل دكة المؤذنين على

(١) يبدو ان هناك خطأ من الناسخ . وربما كان الصحيح القول، كما في الانس، ٢٠/٢٢٦: وخارج القبة سقف مستدير من الخشب الخ .

عمد من رخام . وعلى جانب الدكة باب قبة الصخرة المشبك من الحديد ويليهِ الباب الذي ينزل منه الى المغارة ، والثاني باب شرقي تجاه درج البراق قبالة قبة السلسلة ويسمى باب اسرافيل ، والثالث باب شمالي معروف بباب الجنة وعنده البلاطة السوداء الآتي ذكرها والرابع باب غربي وهو الذي عنده التخت المستطيل الذي يضعونه ايام الشتاء ويمشون عليه بنعالهم . وعلى ظاهر كل باب من ابواب جامع الصخرة الاربعة عشايد وعمد من رخام وسقف يعلوه ، والله تعالى اعلم . ثم توجهنا جهة الباب الشمالي المشهور بباب الجنة ووقفنا عند البلاطة السوداء ووجدنا فيها مسامير من الفضة يزعم الناس انه في كل سنة يغيب مسمار فاذا غاب الجميع قامت الساعة . يقولون انها بلاطة الجنة وانما قيل لها سوداء مع انها خضراء لأن الخضرة تظهر من بعد سواد ، كما قالوا : سواد العراق اطلقوا عليه سواداً لخضرته بالاشجار والزروع ثم توجهنا الى جهة قبة السلسلة وهي قبالة الباب الشرقي للجامع الصخرة فصلينا فيها ركعتين ودعونا الله تعالى ، وهي قبة ظريفة مكشوفة من جميع جوانبها بمنزلة الخيمة الكبيرة المثمنة مرتفعة على عمد الرخام . وفي وسطها سلسلة مدلاة وعدة اعلمتها سبعة عشر عموداً غير عامودي المحراب وبين العمود والعمود نحو الذراعين ثم ذهبنا الى جهة الغرب فزرنا فيها قبة المعراج وهي عن يمين الصخرة الشريفة في صحن جامعها ، وهي قبة مستديرة الجدران لها باب يتوصل منه الى داخلها مبنية بالرخام مشهورة مقصودة للزيارة . استدعينا بخادمها ففتح لنا الباب فدخلنا وصلينا ركعتين ودعونا الله تعالى وفيها محراب لطيف تجاه الداخل من الباب قال المشرف : ولم يختلف اثنان انه عرج به ﷺ من عند القبة التي يقال لها قبة المعراج . ثم ذهبنا الى محراب النبي ﷺ بجانب قبة المعراج المذكورة ، وهو محراب مبسوط في الارض له حافة مقدار الشبر من الرخام فصلينا هناك ركعتين ودعونا الله تعالى بما تيسر من انواع الدعاء ، ووجدنا هناك خلوات متعددة لها قباب على اطراف صحن جامع الصخرة من كل جهة مبنية بالاعمدة الرخام والاحجار الملونة منها قبة تسمى حاكورة القيشاني^(١) وغير ذلك . وبعضها مسكون ، فيه جماعة من المجاورين وبعضها غير مسكون ، وبعضها مسدود . وصحن جامع الصخرة كما قال الخنبلي في تاريخه محيط بقبة الصخرة على التربع لكن طوله من القبلة الى الشمال اكثر من عرضه من المشرق الى المغرب . واما صحن الصخرة الشريفة فان دايره سور مبني بالاحجار مقدار نصف القامة . فمقدار صحن الصخرة الشريفة الذي يحيط به هذا السور المذكور من القبلة الى الشمال مائتان وخمسة وثلاثون ذراعاً هذا طوله واما العرض فمن المشرق الى المغرب مائة وتسعة وثمانون ذراعاً . وجميع المقدار مما هو حول جامع الصخرة مبلط بالاحجار والبلاط الابيض الكبير المتين . وفي صحن جامع الصخرة من جهة الغرب قبالة قبة الطومار مزولة مبنية بالاحجار وفيها بلاطة كبيرة منصوب عليها لوح من الحديد يُعرف بِظُلَّةِ مقدار الماضي والباقي من ساعات النهار . ويسميه بعض المزورين لسان الكذاب . ويأتون بالنساء وبعض الجهال اليه ويقولون هذا لسان الكذاب وفي حايط قبة الطومار عامود من الرخام ملفوف يسمونه بطن المرابي وعامود آخر بالقرب منه ملفوف ايضا من الرخام يسمونه عاق

(١) في الجهة الجنوبية الشرقية لصحن الصخرة ، وقربها قبة الطومار الآتي ذكرها (انظر : بحر الدين ٢/ ٢٣) .

والديه^(١)، وذلك مشهور بين النساء والجهال ولا اصل له بحال . واما الدرج الذي يحيط بصحن جامع الصخرة من كل جانب فهو من جهة القبلة درجان احدهما مقابل الباب الجامع الأقصى بحيث ينزل منه اليه وهو نحو العشرين درجة وعرضه نحو العشرين ذراعا . على رأس هذا السلم من الرخام والى جانبه محراب يصلي فيه صلاة العيدين والاستسقاء والثاني يليه من جهة قبة الطومار وعرضه (و) وعدد درجه نحو الاول . ومن جهة الشرق سلم يعرف بدرج اليراق نحو الاول في عرضه وعدد درجه . ومن جهة الشمال سلّمان احدهما مقابل باب الدويدارية وهما كالاول في عرضه وعدد درجه ، ومن جهة الغرب ثلاثة سلالم احدها مقابل باب الناظر والثاني مقابل باب القطنين والثالث مقابل باب السلسلة . وهي كالدرج الاول وعلى رأس كل درج من الدرج المذكور اعمدة من الرخام عليها قناطر مرتفعة في الهواء نحو العشرة اذرع يسمونها الناس بالموازين . ثم نزلنا من الدرج القبلي الذي يقابل باب المسجد الذي يسمونه الان المسجد الأقصى والا فالمسجد الأقصى جميع مسجد بيت المقدس كله فأرأينا في اسفل ذلك الدرج بلاطة كبيرة يسمونها بلاطة الاوليا ويقال ان تحتها مغارة متصلة بمغارة السيد الخليل عليه السلام وان الدعاء هناك مستجاب . وحين اخبرنا بذلك توقفنا وصلينا ركعتين عليها ودعونا الله تعالى بما تيسر لنا من الدعاء ، ثم سرنا فوجدنا الكاس قبالة ابواب المسجد الأقصى ، وهو كاس من الرخام كبير سعة باطنه مقدار الخمسة اذرع في خمسة اذرع . موضع شكل النوفرة في وسط البحرة الكبير المستدير الجوانب على شكل الكاس الذي في وسطها ، والماء يخرج منه ويسقط في البحرة ثم يسيل في بالوعات حوله ويجري الى صهريج كبير في ارض المسجد طوله نحو الاربعين ذراعا وعرضه كذلك وله اربعة افواه مبنية بالاحجار يستخرج منه الماء بالدلا على شكل البئر .

وهذا الماء يجري الى الكاس المذكور من خارج المدينة على مقدار مرحلة في طريق الذهاب الى بلاد الخليل من برك ثلاثة كبار هناك مبنية بالكلس والحجر ، وعندهم قلعة^(٢) مبنية بالاحجار المتينة يجلس بها اناس يحرسون هذه البركة من العدو . والماء يجري من تلك البرك في سواقي مغطى بالاحجار لا ينقطع في الليل والنهار

[شعر]

والظاهر أن هذا الكاس من عمارة السلطان الاشرف قايتباي^(٣) الذي عمر المدرسة السلطانية كما ذكر ذلك الشيخ محمد الباعوني في منظومته المختصرة في التاريخ عند ترجمة السلطان قايتباي المذكور حيث قال :

[شعر]

ثم توجّهنا على ابواب المسجد الأقصى وهي سبعة ابواب على صف واحد قبالة القبلة ،

(١) نقل هذا العامودان فيما بعد ووضعا على جهتي باب القبة المنحوتة الرئيسي المظل على صحن الصخرة .

(٢) قلعة مراد ، قرب البرك المعروفة ببرك سليمان بين الخليل وبيت لحم .

(٣) انشاء الكاس السلطان العادل ابو بكر بن ابوب سنة ٥٨٩ ، وعمر بعد ذلك مرات عديدة احداها زمن السلطان قايتباي .

الايوسط منها اكبر الجميع . وبظاهر الابواب السبعة رواق على سبع قناطر كل باب قبالة قنطرة . ولتلك القناطر اربعة عشر عاموداً من الرخام مبنية غير السواري . وله من جهة الشرق باب صغير يسمى باب الخضر وباب آخر من جهة الغرب والباب العاشر يدخل منه الى الأقصى العتيق بالقرب من جامع المغاربة . فدخلنا اليه فوجدناه مشتملاً على بناء عظيم له قبة مرتفعة عند الحائط القبلي (مرتبة بالفصوص الملونة وطرفها مبني على الحائط القبلي)^(١) والطرف الآخر على اربعة اعمدة عمودين متلاصقين بينهما مقدار الشبر من جهة الغرب وعمودين كذلك في جهة الشرق والعمامة يرون بين هذا (!) العامودين ويعتقدون أن الذي يمكنه المرور لا ذنب عليه والمذنب لا يقدر أن يمر بينهما . وبلغني ان رجلاً كان جسيماً فلم يمكنه أن يمر بينهما فلما توسطها انكسر شيء في ظهره فحسب انه ضلع من اضلاعه فاغمي عليه حتى رشوا الماء على وجهه . فلما افاق وقد اخرجوه فنظروا فاذا معلقة قد انكسرت له موضوعة في ظهره وقد نسيها وذلك من العجايب انه اغمي عليه من جهة التوهم . وتحت القبة المنبر من الخشب المرصع بالعاج والابنوس وبجانبه المحراب . هو مسجد ممتد من جهة القبلة الى جهة الشمال على قسي^(٢) متجاوزة مرتفعة على عمد من الرخام والسواري فعدة ما فيه من الاعمدة خمسة واربعون عموداً منها ثلاثة وثلاثون من الرخام ومنها اثنا عشر مبنية من الاحجار . وجميع هذه الاعمدة تحت الجملون وعمود ثالث عشر مبني عند الباب الشرقي تجاه محراب زكريا وعدة ما فيه من السواري اربعون سارية . وسقفه في غاية العلو والارتفاع فالسقف مما يلي القبلة من جهة المشرق والمغرب مسقوف بالخشب ومما يلي القبلة من جهة الشمال ثلاثة (قسي) (اكوار) مسقوفة بالخشب والايوسط منها هو الجملون ، وهو اعلاها واثنان الى جانب الجملون من المشرق والمغرب دونه . وبقية (القسي) (الاكوار) وهي اربعة اثنان من جهة الغرب (واثنان من جهة الشرق معقود ذلك) بالشيد والحجر . وصدر الجامع القبلي وبعض الشرقي مبني بالرخام الملون . والمحراب الكبير الذي هو (في) صدره الى جانب المنبر من جهة الشرق يقال انه محراب داود عليه السلام . بداخل المحراب سبعة عشر ضلعاً من الرخام الملون ثمانية بيض واربعة حمر وثلاثة سود واثنان اخضران . وذكر لنا بعض الخدام هناك أن الثمانية البيض اشارة الى عدد ركعات الظهر والعصر لانها نهاريتان وان الاربعة الحمر لصلاة العشاء تجب عند اول الظلام والاثنان الاخضران لصلاة الصبح . وفي جانب المنبر من جهة الغرب مقصورة لطيفة حولها جدران مشبكة من حديد ملاصقة للمنبر ومعدة لمصلي الخليفة اذا كان وللخطيب يبرز منها للمباشرة لقرب المكان . ومقابل المنبر والمحراب دكة المؤذنين على عمد من الرخام وهي في غاية الحسن . وذرع هذا الجامع في طوله من المحراب الكبير الى عتبة الباب المقابل له مائة ذراع غير المحراب وغير الاروقة على الابواب السبعة الشمالية وعرضه (من الباب الشرقي الذي يخرج منه الى جهة مهد عيسى الى الباب الغربي ستة وسبعون ذراعاً)^(٣) .

(١) بين القوسين سطر ناقص اضفناه من المختار لاحسان النمر .

(٢) قسي جمع قوس ، ويقصد بها الاكوار او الاروقة التي ينقسم اليها هو المسجد وهي سبعة . ومعظم الوصف هنا منقول عن الانس الجليل ١١/٢ .

(٣) عن الانس الجليل ص ١٢ .

وبداخل هذا الجامع في آخره من جهة الشرق مكان معقود بالحجارة والشيد وبه محراب يقال له جامع عمر لانه بقية بنايه الذي جعله عند الفتح . والى جانب هذا المكان المعروف بجامع عمر من جهة الشمال ايوان كبير معقود يسمى مقام العزيز، وبه باب صغير يتوصل (منه) الى جامع عمر . وبلي هذا الايوان من جهة الشمال ايوان لطيف به محراب يسمى محراب زكريا، وهو بجوار الباب الشرقي المسمى باب الخضر . وبهذا الجامع ايضا من جهة الغرب مكان كبير معقود بالاحجار الكبار وهو قبوان^(١) معقودان ممتدان من جهة الغرب على عشرة قناطر وتسع سواري في غاية^(٢) الاقصى القديم . وعلى يسرة الداخل للمسجد الاقصى في طرفه مكان محوط له باب يفتح لجهة القبلة لا غير معد لصلاة النساء في الجمعة والعيدين^(٣) . وعلى يسرة الداخل ايضا في طرف الجامع بير يسمى بير الورقة . . . ثم خرجنا فذهبنا الى محراب داود عليه السلام وهو محراب كبير من جهة الشرق في السور القبلي يقال ان الدعاء عنده مستجاب فصلينا ركعتين هناك ودعونا الله تعالى، ثم ذهبنا الى مكان يسمى بسوق المعرفة وهو مكان معقود به محراب يلي محراب داود من جهة الشرق . . . وكان هذا المكان جعل قديما مصلى للحنابلة ثم جعل لهم المسجد الذي تحت المدرسة السلطانية . ثم ذهبنا الى مهد عيسى عليه السلام تحت الارض بجانب سوق المعرفة في ركن المسجد من جهة الشرق ينزل اليه بدرجات فيه صورة مهد من الرخام، والى جانبه على يسار مستقبل القبلة صورة محراب لطيف يقال انه محل تعبد سيدتنا مريم عليها السلام، وهو موضع مأنوس . ومحل في ركنه ايضا يقال إنه محل سيدنا جبريل عليه السلام، وفيه ايضا مكان يقال انه محل تعبد حواريين عيسى عليه السلام يقال ان الدعاء في ذلك المكان مستجاب فصلينا هناك ركعتين ودعونا الله تعالى . وبهذا المحل باب متهدم من جهة الغرب يتوصل منه الى تحت الجامع الاقصى وهو قبوة مرفوعة على عمد من الاحجار الكبيرة مربعة الاوضاع كل عمود له غلظ زايد مبني من ثلاثة احجار او اربعة ركب بعضها فوق بعض باحكام الإلصاق وبكل عمود حجر مخروق . . . محل مظلم فيه بعض ضوء من طاقة هناك فنزلنا ومشينا في جهاته للاحاطة وهو عال نحو العشرة اذرع . وذكروا لنا ان الجامع جميع رحابه وصحنه مُعلق على هذه الكيفية ولم نجسر أن ندور فيه لانا وجدناه مهولا موحشا، ولا يجد الانسان له فيه مونساً . ثم خرجنا من ذلك المكان ومشينا شيئاً قليلاً ثم صعدنا في درجات في حايط السور الشرقي وهناك عمود ممتد الى خارج السور فذكر لنا بعضهم أن امتداد الصراط يكون في ذلك المحل وتحت الوادي العميق الذي فيه الان قبور اليهود . وذكروا ايضا أن ذلك المحل يسمى وادي جهنم . . . ثم ذهبنا الى باب الرحمة وباب التوبة وهما بابان متحاذيان كبيران مسدودان الان شرقي المسجد من جملة هذا السور، ولهما بابان

(١) في الانس : كوران . ومعظم الوصف هنا ايضا منقول عن مجر الدين ١٢/٢ .

(٢) هنا كلمة ناقصة نعتقد انها الاحكام اي في غاية الاحكام . وبعدها خلل ناشيء عن نقص كلمة او اكثر . ويستقيم المعنى لو اضفنا (ويدعي) او (وهو) الاقصى القديم الخ . وبهذا المناسبة فان الاقصى القديم يطلق احيانا على ما تحت المسجد الاقصى من بناء، وحيانا اخرى على المباني المجاورة للمسجد من الغرب : جامع النساء وجامع المغاربة الخ .

(٣) يظهر من هذا أنه كان هنالك مكان آخر محوط (غير جامع النساء) مخصص لصلاة النساء في الجمعة والعيدين بداخل المسجد الاقصى في طرفه الشرقي (على يسرة الداخل الى المسجد) .

من الخشب القديم المحدد يفتحان الى داخل وعليهما من الداخل مكان معقود بالبنا السليماني . . . فوقنا هناك ودعونا الله تعالى بانواع الدعاء، ثم ذهبنا الى المكان الذي يقال له كرسي سليمان عليه السلام في مؤخر الجامع من جهة الشرق فدخلنا اليه وصلينا فيه ركعتين ودعونا الله تعالى. وفيه قبة محكمة البنا بداخل صخرة كبيرة ثابتة تشبه القبر لاصقة بالسور . . . وذكر لنا بعضهم أن هناك دفن نبي الله سليمان عليه السلام . . . ثم خرجنا وعدنا الى منزلنا بالمدرسة السلطانية فحضر عندنا اعيان تلك البلدة وأكابرها وعلمائها وغالب اهلها ففرحنا بلقايم وابتهجنا برؤياهم. وكان ممن حضر عندنا بالمدرسة السلطانية شيخ الاسلام صاحب النسب الطاهر المتصل بسيد الانام العالم العلامة عبد الرحيم افندي^(١) المفتي بالقدس الشريف والمحفل المنيف ابن ابي اللطف ابن اسحق ابن الشيخ عمر، ومعه ولده مفخر الافاضل وزبدة الصالحين ارباب الفضائل السيد محمد^(٢) سلمه الله تعالى. وجد السيد عبد الرحيم افندي هو السيد عمر كان بينه وبين الشيخ الامام درويش افندي الطالوي^(٣) محبة وصداقة ومراسلة كما ذكر ذلك درويش افندي في سانحاته حيث قال وما كتب به صدر مكاتبة؟ من غزة هاشم سقتها غر الغمام للعالم الرباني والقطب الصمداني سراج الملة والدين علامة الديار القدسية زين الدين عمر بن ابي اللطف لا زال مشربه من العلوم صافيا ولباس العوارف عليه . . . وقد تشرفت به مدة اقامتي عام ثمانية وسبعين وتسعمائة . . .

وكان ممن حضر عندنا أيضا السيد الحسين النسيب صاحب الفضل والكمال والتقريب مفخر السلالة الهاشمية وطراز العصابة المصطفوية مصطفى افندي نقيب السادة الاشراف في هاتيك الجهات والاطراف، ومنهم السيد الحسين النسيب صاحب المكارم والمفاخر السيد عبد اللطيف افندي المتقدم ذكره والفايح في رياض هذه الاوراق نشره ومعه اخوه مفخر السادة الاشراف ودره تيجان بني عبد مناف السيد عبد الصمد سلمها الله تعالى من كل سوء ونكد، ومنهم الشيخ الامام قدوة الانام مفخر السادة الائمة الفخام بركة السلف وجوهرة الخلف الشيخ ابو الوفا العلمي^(٤) ومعه ولده الفاضلان الكاملان مفخر العلماء والمدرسين بركة السلف الصالحين الشيخ مصطفى العلمي^(٥) ومفخر الافاضل ارباب الكمالات والفضائل السيد محمد^(٦) جعلها الله تعالى ذخيرة ابيهما في الدارين وشمس كمالته المشرقة في الخافقين وانار سماء هدايته بطلعة هذين النيرين، ومنهم مفخر الاكابر والاعيان وخلاصة اكارم ابناء الزمان المولى الهمام والجهد

(١) عبد الرحيم بن ابي اللطف مفتي الحنفية في القدس ورئيس علمائها (١٠٣٧/١٠٣٧ - ١٦٩٢/١١٠٤) سلك الدرر ٥٠٢/٣.

(٢) محمد بن ابي اللطف بن عبد الرحيم، مفتي الحنفية بعد ابيه ومؤلف الفتاوي الرحيمية. توفي ١٧٢٨/١١٤١ (تراجم اهل القدس، ١٩٧).

(٣) درويش محمد بن احمد الطالوي الارثقي الدمشقي. من علماء دمشق وأدبائها ١٠١٤ (خلاصة الاثر ١٥٥/٢).

(٤) من كبار رجال التصوف في القدس. توفي ١٦٩٧/١١٠٩ (تراجم اهل القدس، ص ١٨٦).

(٥) و (٦) انظر نفس الموضوع السابق في تراجم اهل القدس.

الشهم المقدام صالح افندي الشهير بابن العسلي^(١) اعزه الله في الدارين وجعله من خير الفريقين، ومنهم الشيخ الامام العلامة والجهيد الكامل الفهامة امين الدين افندي الحلبي المقدسي حفظه الله تعالى وعافاه من كل شر وبليّة وادام له المرتبة السامية العلية فإن مزاجه كان متوعكا في حين الاجتماع وقد حصل بيننا وبينه من ذلك ما تقربه العيون وتلذذ الاسماع، ومنهم الشيخ الامام الصالح والفاضل الكامل الناجح الشيخ محمود السالمي وقد بلغنا وفاته رحمه الله تعالى في شهر رمضان سنة اثنين ومائة والـف، ومنهم الشيخ الامام والحر الهمام الشيخ احمد بن الشيخ صلاح الدين العلمي^(٢) الامام الحنفي بالصخرة الشريفة والخطيب بجامع الأقصى ذي المشاهد المنيفة ومعه ولده الكامل الفاضل الشيخ ابو بكر، ومنهم اخو الشيخ احمد المذكور الشيخ الامام الصالح العالم الكامل الفالح الشيخ علي العلمي وفقهم الله تعالى للعلم والعمل وبلغهم غاية الامل، ومنهم سليل العلماء الاعلام الشيخ الكامل الفاضل الامام الهمام من اتصلت بيننا وبينه نسبة الجدود واتصلت بمكارم الأخلاق ووفى العهود الشيخ محمد ابن الشيخ بدر الدين المتصل نسبه الكريم بابن جماعة الكناني الخطيب بالجامع الأقصى المعمور^(٣) حفظه الله تعالى وادامه بين ارباب الصدور صاحب ورود وصدور، ومنهم السيد الحسيب النسيب والفاضل النسيب مجمع الكمال ومفخر ارباب النوال السيد خليل الامام الشافعي بالمسجد الأقصى وصاحب القرات الحسنة على اكمل ما يستقصى جعله الله تعالى من اكمل اهل التقوى وحفظه من الاغيار في السر والنجوى، ومنهم الشيخ الامام القدوة الفاضل الكامل الملازم على العبادة في المسا والغدوة الشيخ محمد الموقت^(٤) بالمسجد الأقصى وامام المالكية بجامع المغاربة الحائز من الكمالات ما هو الأقصى ادام الله له التوفيق وجعله من خير فريق، ومنهم الشيخ الفاضل جامع الفضائل والفواضل الشيخ يحيى الدجاني^(٥) تحفه الله بالمقام السبحاني في حضرة الغيب الاحساني والجناب الصمداني، ومنهم الشيخ الكامل صاحب الفضل الشامل الشيخ محمد القرمي من ذرية الانصار من قبل امه وجده لابيّه الشيخ محمد القرمي المشهور امام السادة المالكية في جامع المغاربة وقد بلغنا وفاته في شهر رمضان عام احدى ومائة والـف بعد رجوعنا لدمشق الشام رحمه الله تعالى رحمة واسعة وعامله بمقتضى منته النافعة، ومنهم الاخوان الصالحان الفاضلان الكاملان سلالة الاوليا المقربين ونتيجة اهل الكمال والدين الشيخ محمد واخوه الشيخ احمد من ذرية الشيخ ابي الحسن الششتري^(٦) صاحب الديوان المشهور. وقد وردا من مصر الى القدس الشريف وجاورا هناك مدة من الزمان عاملهما الله تعالى باللطف والاحسان وانجح لهما القصد والامل ووقفهما لكمال العلم والعمل ثم

(١) صالح بن عبد الجواد العسلي. كان هو (وابوه) شيخ التجار في القدس، كما كان دزدار القلعة.

(٢) انظر عنه وعن اولاده تراجم اهل القدس ص ٢٥٠-٢٥٣.

(٣) رئيس خطباء المسجد الأقصى ومن كبار علماء القدس. توفي سنة ١١٧٠/١٧٥٦ (تراجم اهل القدس ص ٢٢٠).

(٤) امام المالكية بالحرم القدس ت سنة ١١٠٩/١٧٠٧ (تراجم اهل القدس، ص ٢٣٣).

(٥) خادم مقام النبي داود. توفي ١١٤٨/١٧٣٥ قتيلا بيد قطاع الطرق (تراجم اهل القدس، ٢٤٢).

(٦) علي بن عبد الله (٦١٠-٦٦٨ / ١٢١٣-١٢٦٩) متصوف اندلسي من اهل ششت من عمل وادى أش. له ديوان شعر

(الاعلام ٣٠٥/٤).

تشرفنا بهم بعد ذلك ووردا الى دمشق الشام في شهر رمضان سنة اثنين ومائة والـف، ومنهم الشيخ الامام العالم العلامة والمحقق المدقق الفهامة الشيخ موسى المغربي^(١) صاحب الشرح على السنوسية وغيرها من المؤلفات وهو القدوة في علمي العقائد والقراءات كمله الله تعالى بحميد الاخلاق وجمله بالمحبة الشاملة والوفاق، ومنهم رجل من ذرية عبادة بن الصامت الصحابي المشهور، وبينهم اناس من ذرية الكمال ابن ابي شريف^(٢) وغيرهم من طلبة العلم والصالحين ممن لا يحصى عددهم ولا نعرف الان اسمائهم على التعيين وفقهم الله تعالى جميعا في جميع الاحايين . ومن حضر عندنا من العسكرية في المدرسة السلطانية مفخر الامراء المعترين عقل بيك المتسلم يومئذ بمملكة القدس الشريف على مقتضى الشرع والدين ادام الله جنباه محروسا ومجلسه مأنوسا .

ومنهم فخر الاكارم والامجد وخلاصة ذوي المكارم والمحامد علي اغا الناظر سابقا على حرمي القدس والخليل جعله الله تعالى منه في ظل ظليل، ومنهم فخر الاعيان وخلاصة ابناء الزمان محمد اغا الناظر يومئذ على الحرم القدسي والمقام الخليل الاسنى حفظه الله تعالى باسرار عنايته وجعله في كنف هدايته وغيرهم من بقية ارباب الاقلام وفق الله الجميع الى ما هو الخير المحض التام .

وقد وجدنا في مجموع بعض الاصحاب بالقدس الشريف قصيدة في مدح اهل بيت المقدس المنيف من نظم الشيخ الصالح والامام القدوة الناجح الشيخ احمد السالمي شيخ الخلوئية بدمشق رحمه الله فانه نظمها في زيارته عام احدى وثمانين والـف .

(نص القصيدة وتليها قصيدة اخرى للشيخ النابلسي في مدح اهل القدس وقصيدة اخرى في الموضوع نفسه للشيخ درويش الطالوي) .

ثم ذهبنا مع جماعة من الاخوان الى زيارة السيد عبد الرحيم افندي المذكور في هذا المكان فوصلنا الى مجلسه السامي . وقد اشتمل على جملة من طلبة العلم وهو بالبركة نامي ففرح بنا غاية الفرح وقد تلقانا بصدر قد اتسع وانشرح . فتذاكرنا معه في الصخرة الشريفة وكونها مرتفعة بين السما والارض . . .

ثم ذهبنا من عند السيد عبد الرحيم المذكور فزرنا بين ازقة بيت المقدس تربة الشيخ علاء الدين البصير^(٣) صاحب المقام الموقر وزرنا المكان الذي يسمى قنطر الخضر وزرنا الشيخ حيدر والشيخ السيوفي والشيخ موسى جد الشيخ محمد العلمي الكبير عليه رحمة الله تعالى السميع البصير ودعونا الله تعالى عند مقامات هؤلاء السادة وقبورهم والتمسنا من بركاتهم ولمحات نورهم ورجعنا الى مكاننا في المدرسة السلطانية وجلسنا على عادتنا فيها لاستقبال من يرد علينا من

(١) كان شيخ المدرسة الغادرية او القادرية في القدس . كما يذكر الشيخ عبد الغني بعد قليل .

(٢) شيخ الصلاحية وعالم القدس المشهور استاذ مجير الدين الحنبلي المتوفى سنة ٩٠٥ . (مجير الدين الحنبلي، الانس الجليل، ص ٣٧٨-٣٨١) .

(٣) ناظر الحرمين الشريفين بالقدس والخليل ت ٦٩٣ . الانس ٤٣/٢ .

الاخوان والطلبة العلمية فحضر عندنا جماعة من اعز الطلاب وارادوا منا أن نقرهم في رسالة الشيخ العارف بالله تعالى وبالاداب الشيخ ارسلان الدمشقي . . . فشرعنا في الاقرا في ذلك اليوم . . . وكان وقت الدرس في كل يوم بعد أداء صلاة العصر . . .

ثم عزم علينا رجل من الأحباب في منزله الواسع الرحاب . . . ومررنا في طريقنا على مزار الشيخ عيد رحمه الله تعالى فوقفنا عنده وقرأنا الفاتحة له ودعونا الله تعالى برفع المشقة عن المسلمين . . . فوصلنا الى دار محب خليل وصديق جليل وفناء رحب واسع وقدر عظيم شاسع وضيافة كريم . . . حتى اذا استقر بنا المجلس في ذلك واشرق وجه الليل الخالك قمنا فذهبنا مع جماعة الى حمام لطيف البناء، ظريف الجوانب والفناء، عذب المياه طيب الأمواه، فدخلنا اليه بعد العشا الأخيرة مع جماعتنا وتلك العشيرة. ولم يدخل احد غيرنا من الاجانب فانشرحت صدورنا في هاتيك الأرجا والجوانب واطلقت في داخله مجامر البخور وحيء بماء الورد ورش على هاتيك الوجوه والنحور، ثم وردت فناجين القهوة ونحن في اكمل مسرة واتم حظوة حتى اخذنا من ذلك بالحظ الوافر واطمان بيننا بما رأى القلب المقيم والمسافر فخرجنا الى ذلك المكان الوسطاني بعد ما تنعم منا الوجه الجسماني والروحاني فحيء بأواني السكر في ذلك الاوان وكما تحلت المسامع هناك بالالحن الطيبة تحلى بالطعوم الطيبة اللسان . . .

ثم خرجنا من الحمام ونحن في غاية من السرور والاكرام وقد زرنا في الطريق قبر الشيخ المعروف بالشيخ غباين وقبر الشيخ ابي الريش من الاوليا والصالحين اصحاب المقامات واليقين الى أن وصلنا الى تلك الدار التي منها اتينا الى الحمام فبتنا في احسن ليلة على ابلغ نظام الى أن طلع الصباح واضاء بنوره ولاح . وكان ذلك اليوم يوم الجمعة التاسع عشر من الرحلة الميمونة واللؤلؤة المكنونة فذهبنا مع الجماعة الكرام الى زيارة نبي الله داود عليه السلام فخرجنا الى خارج المدينة من الباب القبلي المسمى بباب صهيون المعروف الان بباب داود فوصلنا إلى مزار عظيم ومقام كريم وقبة عالية وحضرة سامية وفنا رحب الجوانب واسع الاطراف وقصر مشيد عال موطن الاكتاف فدخلنا الى زيارة قبر داود عليه الصلاة والسلام . وهناك مسجد ومحراب وساحة ومقام فوجدنا كمال الهيئة وغاية الاحتشام فصلينا ركعتين ووقفنا ودعونا الله تعالى بنهاية الاذعان والاحترام . ويقال ان قبر داود عليه الصلاة والسلام في بلاد البقاع في جبل لبنان وقد زرناه ايضا والله الحمد كما ذكرنا في رحلتنا المسماة بـ «حُلَّة الذهب الابريز في رحلة بعلبك والبقاع العزيز» . . . ثم جينا قبل وقت صلاة الجمعة . . . فدنونا من الخطيب والمنبر . . . فاذا هو قريبنا خطيب الخطباء وكريم الفضلاء والنجباء الشيخ الفاضل سليل الاماجد والاكرام والأفاضل الشيخ محمد بن بدر الدين بن جماعة جمع الله له بين خيربي الدنيا والآخرة وجعله مجمعا للكملات الفاخرة . . . وذهبنا جميعا الى دعوة شيخ الاسلام ومفتي الانام السيد عبد الرحيم افندي . . . حتى صعدنا الى مقر متسع الأطراف له على جامع الصخرة والحرم الشريف كمال الاشراف وجلسنا في بستان من الكتب النفيسة وحياض في ابحاث العلوم اللطيفة . . . وحضر في هذا المجلس عين العيون وحقيقة السر المكنون الشيخ ابو الوفا العلمي واولاده . . . وغيرهم من اهل بيت المقدس . . .

ثم ذهبنا الى جامع الصخرة المعمور وجلسنا ننتظر صلاة المغرب مع الجمهور ثم رجعنا بعد صلاة العشا الأخيرة الى منزلنا بالمدرسة السلطانية المنيرة، حتى اذا اسفر وجه الصباح وخذت انوار الصباح وصلينا صلاة الفجر واغتنمنا الثواب مع الجماعة والاجر وكان ذلك يوم السبت العشرين من ايام هذه الرحلة المأنوسة . . . زرنا . . . تربة الشيخ الامام والعارف الكامل الهمام شمس الدين بن ابي عبدالله محمد بن احمد القرمي^(١) بكسر القاف وفتح الراء قدس الله تعالى سره واعلى في درجات القرب مقره . . . فدخلنا الى زاويته المشهورة وتبركنا بحضرة المأنوسة المعمورة ووقفنا تجاه ذلك الشباك وقرأنا الفاتحة لحضرتة بغير اشتراك . وكان يخاطر في بالنا أن نذهب ولا ندخل الى داخل الزاوية وأن هذا مقدار اجتماعنا بجنابه في هذه القضية الداعية واذا بشيخ الزاوية الشيخ الصالح الذي على وجهه اثر الخير لا يبح الشيخ محمد القرمي وهو من ذرية الشيخ محمد القرمي المذكور من جهة أبيه ومن ذرية الانصار من جهة أمه . . . وادخلنا مع الجماعة الى داخل تلك الزاوية وقد اجبنا الى سؤاله وقرأنا معه الفاتحة اولاً الى الشيخ احمد المثبت^(٢)، وكان نقيب الشيخ محمد القرمي المذكور وقبره تجاه قبره، بينهما الزقاق في مكان آخر معمور ثم دخلنا الى مسجد لطيف البنيان معد للذكر مع الجماعة وتلاوة القرآن فجلسنا فيه حصة من الزمان . . . اخبرنا شيخ الزاوية المذكور عن سبب تسمية الشيخ احمد بالمثبت وسبب كونه نقيباً لجدته الشيخ محمد القرمي قدس الله ارواحهما ونور ضريحهما بأن الشيخ محمد القرمي كان يجلس في هذه الزاوية لتربية الفقرا والمريدين في طريقة المعرفة واليقين وكان يحضر عندها نساء كثير ورجال ويختلط بعضهم ببعض في وقت الذكر وتوارد الاحوال فاعترض عليه الشيخ احمد المذكور، وكان رجلاً من الفقهاء اهل العلم الظاهر كما هو عادتهم في كل زمان مع اهل السر الباهر والحال القاهر فأخرج الشيخ احمد الفتاوى من علماء المذاهب بأن الشيخ محمد القرمي يمنع من الذكر المقتضى لهذا الاجتماع وانه منكر وقع على حرمة الاجتماع ثم انه جاء الى هذه الزاوية واجتمع بالشيخ القرمي ونهاه عن ذلك وبين له المفساد المرتبة على ما هنالك وكان معه رجل من اتباعه فأمره أن يذهب معه الى منزله ويأتي بالعلبة التي فيها الفتاوى لاثبات ما ذكر من الدعاوي فذهب واتى بالعلبة المذكورة ففتحها فوجد فيها شياً من الاعاجيب الماثورة وهو ثلج تحته قطن تحته نار فتعجب من هذا الامر وقال ليس لي علم بذلك ولا استشعار وانما كان في العلبة الفتاوى لا غير . فقال له الشيخ محمد القرمي ان هذه اشارة الخير اما القطن فهو النساء واما النار فهو الرجال واما الثلج فهو الحال فانه اذا وجد الحال لا تقدر النار أن تحرق القطن بالاشتعال بل لها عن ذلك كمال الاشتغال فتاب على يد الشيخ وحسنت توبته في الحال . وقال الشيخ محمد اجعلني عندك نقيباً وخادماً للنعال فجعله نقيباً عنده وكان محسوباً عليه من جملة العيال ثم قال له يوماً من الايام يا سيدي مرادي أن تودعني سراً من أسرار الله تعالى العظام فقال له لا تقدر الان على ذلك لانك في ليلٍ من ظلمات نفسك حالك واصبر الى ان يطلع فجر الفتح الرباني ويتقد مصباح المقام الروحاني ثم اتفق له انه في مرة رأى الشيخ قدس الله

(١) من كبار المتصوفين بالقدس توفي سنة ٧٨٨ بالقدس (معاهد العلم، ٣٦٠، الانس الخليل ١٦٠/٢-١٦١).

(٢) احمد بن علي بن ميثب توفي بالقدس ٨١٣ ودفن بترتته (الضوء اللامع ١١٥/٢، اجدادنا في ثرى بيت المقدس ص ٨٢).

سره يتوضأ على البركة ورآه قابضاً يده فوقه في نفسه ان هذا من عادة الروافض يقبضون ايديهم في وقت الوضوء . فالتفت اليه الشيخ وقال له : أما قلت انك لا تقدر على ما طلبته من تحمل الاسرار لانك بعد لم تطهر من دنس الانكار فاخذ بيده ودفعه اولاً وثانياً حتى غاب عن ادراكه وصار قريباً تايماً فقال له يا سيدي انا الان في اي مكان فقال له انت في جبل قاف وقد حصلت منك الموافقة والايلاف اثبت على هذه الحالة وحقق له مقاصده وآماله . ومن ذلك اليوم لقب بالشيخ احمد المثبت بكسر الباء الموحدة مشددة فكانه ثبت نفسه لما قال له الشيخ اثبت، ثم بعد ذلك فتح الله عليه بالفتح التام حتى صار من جملة اصحاب الحال والمقام وحل عليه نظر شيخه الكامل فصار من جملة الاولياء الكرام ثم جذبتنا اسرار هذا الشيخ المذكور وتمتعت قلوبنا بما هنالك من البهجة والسرور فدخلنا الزاوية المذكورة . . . وفتح لنا شيخ الزاوية باباً كان مقفلاً ودخل بنا الى روض اريض ترقص اغصانه بانواع الحلى والحلا . . ورأينا ذلك ذلك المقعد اللطيف والمجلس العالي المنيف ومكثنا ساعة لطيفة في ذلك القصر الشريف وقد فتحت تلك الشبايك المظلة على هاتيك الجوانب المغنية عن التعريف . . . فودعنا تلك الاماكن وتحركت منا القلوب السواكن فمررنا في الطريق على مزار السادة المشهورين بالشهدا البدرية^(١) فزرنا مقامهم المشهور وتنعمنا بما لديهم من البهجة والنور ودعونا الله بما تيسر من الدعاء لنا وللجمهور، ثم مررنا على تكية الخاصكية^(٢) المشهورة في تلك الديار القدسية فوجدناها مملوءة بانواع الخيرات واجناس المبررات طاحونها دايرة . . وانواع مخازنها عامرة وصدقاتها للجميع غامرة حتى وقفنا على بيت الرحا ورأينا الخليل تديرها وقد تقيد بها اجيرها فدلنا ذلك الأجير على مكان هناك له باب فدخلنا منه الى قبة مبنية بالاحجار المنحوتة ذات جوانب واعتاب وفي داخلها قبر عليه هيبه وجلالة فسألنا عن صاحب هذا القبر . . فقيل لنا هذا قبر المجاهد الشيخ سعد الدين الرصافي صاحب النهل الصافي والمشرّب الوافي رحمه الله تعالى . . .

وكان ذلك اليوم الاحد وهو الحادي والعشرون من هذه الرحلة الميمونة والسفرة المأمونة فذهبنا الى زيارة المقبرة المشهورة في هاتيك البلاد المقدسة باملاً^(٣) . . . فزرنا في هذه التربة المباركة المحفوفة بانوار الارواح القدسية واسرار الملائكة غالب من دفن فيها من مقابر الاولياء والشهداء والصالحين والسادات الابرار والمقربين . . . ثم مررنا في الطريق على القبر المشهور بالشيخ المنسي ويقال انه صحابي . . . وقيل انما سمي بالمنسي لأن الصحابة رضي الله عنهم في يوم الفتح نسيته مقتولاً في ذلك المكان حتى شعر به فدفنه بعض الاخوان ثم مررنا في وسط ذلك الوادي الذي تظهر انواره للصادي والغادي بظاهر القدس من جهة القبلة على العين المشهورة بعين سلوان ذات الماء العذب اللذيذ للظمان فوجدنا العين ينزل اليها بدرج نحو العشرين عليها سور المسجد القبلي . وفوق تلك العين مسجد لطيف بمحراب منيف، وحول ذلك بساتين القرية

(١) في المدرسة القديمة المسماة بالمدرسة البدرية بحارة الواد - معاهد العلم، ص ٢٠٥ .

(٢) من آثارنا في بيت المقدس ص ٣٨٩

(٣) اجدادنا في ثرى بيت المقدس ١١٧ و ١٥٧ .

المعروفة بقرية سلوان مشتملة من الثمار على انواع والوان

وقد مررنا على بير ايوب في طرف ذلك الوادي وهو بير عذب الماء للصادر والصادي وهو بالقرب من عين سلوان . . . ثم توجهنا بمعونة الله تعالى ولم نقل لعل وليتا فصعدنا الى طور زيتا . . . وهو جبل عظيم شرقي بيت المقدس مشرف على المسجد الأقصى وحرم الصخرة الشريف . . . ويسمى هذا الجبل الذي هو طور زيتا جبل الحمر بفتح الحاء والميم، وهو كثير الشجر والظل وهو الجبل الذي صعد منه عيسى عليه السلام الى السماء . . . ولما مررنا في وسط ذلك الوادي ابصرنا بابا كبيرا للصادر والغادي فسألنا عنه فقيل لنا هاهنا قبر مريم بنت عمران في داخل هذا المتين من البنيان، وهي كنيسة كما قال الحنبلي في داخل جبل طور زيتا تسمى الجسمانية خارج باب الاسباط، وهو مكان مشهور يقصده الناس للزيارة من المسلمين والنصارى . . . وقد دخلنا الى هذه الكنيسة بقصد الزيارة لمريم عليها السلام فنزلنا اليها بدرج نحو خمس وخمسين درجة مشتمل على الاحجار الكبار وعرض الدرج نحو خمسة اذرع حتى وصلنا الى اسفل ذلك واذا قبر معقود من الاحجار عليه قناديل نحو العشرة كبار موقودة بالليل والنهار . . . خرجنا ورأينا المكان الذي يسمونه الناس بطرطور فرعون^(١) ويرجمونه بالاحجار^(٢)، وهو قبة من بناء الروم من الصخر بذييل جبل الطور بالقرب من قبر مريم، ورأينا بالقرب منه قبة أخرى من الصخر ايضا يقال لها كوفية زوجة فرعون . . . وقد قيل لنا ان القبة الاولى قبر زكريا والثاني قبر يحيى عليه السلام . . . ثم صعدنا فزرننا قبر السيدة رابعة العدوية البصرية^(٣) مولاة آل عقيل الصالحة المشهورة . . . وقبرها على راس جبل الطور وفي زاوية (ينزل) اليها بدرج معمور تقصد للزيارة . . . ثم خرجنا فذهبنا الى زيارة الشيخ الكامل والعارف العالم العامل الشيخ محمد العلمي^(٤) قدس الله سره واعلى في درجات المقربين مقره حتى دخلنا الى جامعة المعمور وتربته المملوه من النور ورأينا تلك المنارة العالية التي هي كالعلم المنشور فوق جبل الطور ودخلنا الى زيارته بكمال الخشوع والحضور ونزلنا الى قبره بدرج نحو العشر درجات وقرأنا الفاتحة ودعونا الله تعالى . . . وكانت وفاة الشيخ رحمه الله ليلة الاحد منتصف شهر ذي الحجة الحرام سنة ثمانية وثلاثين والالف، وعنده زوجته مدفونة في ضريح آخر . . .

ثم ذهبنا نرور بقية من دفن في الطور فزرننا سلمان الفارسي^(٥) الصحابي المشهور رضي الله عنه، وقد اشتهر كون قبره في ذلك المكان بين اهل القدس الشريف وهو في مسجد هناك لطيف .

ثم رجعنا من زيارة الطور فجئنا الى مقبرة باب الرحمة^(٦) نرتجي كمال الأجور وهي بجوار

(١) او طنطور فرعون . كان يقال ان ابشالوم ابن الملك داود دفن فيه . وهذا قبره، لكن البناء يعود الى القرن الاول ق.م . (Kay Prag, Blue Guide, Jerusalem) .

(٢) لانه نار على ابيه داود Land. 1989, P. 248

(٣) و(٤) و(٥) و(٦) انظر اجدادنا في ثرى بيت المقدس الصفحات ١٠٢، ٩٩، ٩٧، ١٣٣ على التوالي .

سور (الحرم) الشرقي فوق وادي جهنم وهي تربة مأنوسة لقرىها من المسجد وهي اقرب التربة الى المدينة فزرنا بها قبر الصحابين الجليلين شداد بن اوس^(١) وعبادة بن الصامت^(٢) رضي الله عنهما . . . وكان معنا رجل من ذرية عبادة بن الصامت رضي الله عنه . ثم دخلنا الى المدينة من باب الاسباط فمررنا على المدرسة الصلاحية^(٣) لتتبرك بها ونشهد آثار العلماء الذين اقاموا بها الدروس سابقا من علماء الاسلام فدخلناها فوجدناها مدرسة عظيمة آثار ابنتها قديمة وكأنها كانت سابقا كنيسة فان واجهة بابها تؤذن بذلك وكذلك في داخلها الاعمدة والسقوف النفيسة . ويقال ان فيها قبر حنة ام مريم عليها السلام كما ذكر الحنبلي في تاريخه . وقد وقفنا على هذا القبر المذكور في داخل المدرسة المذكورة في مكان مكشوف فضاؤه ظاهر للألوه وضياؤه ينزل اليه بدرج من الحجر . والعامه يقولون انه قبر هيلانة ام قسطنطين التي بنت الكنيسة الحسمانية التي فيها قبر مريم عليها السلام كما قدمنا ذلك . ثم مررنا على بركة بني اسرائيل^(٤) لصيق سور المسجد الشمالي فوجدناها بركة كبيرة واسعة ليس فيها ماء وانما فيها الحشيش النبات . . . ثم مررنا بالمدرسة القرقشندية^(٥) وهي قبالة هذه البركة لصيقة باب المسجد وفيها قبر الشيخ القرقشندي رحمه الله فوقنا هناك ودعونا الله تعالى . ثم دخلنا الى المسجد وذهبنا الى مكاننا بالمدرسة السلطانية . وبعد صلاة الظهر ذهبنا مع الجماعة اصحاب الاخلاق المرضية الى ضيافة الشيخ الامام والخبر الهمام البركة التحرير صاحب القدر الخطير الشيخ ابي الوفا ابن الشيخ عبد الصمد ابن الشيخ محمد العلمي رضي الله عنه وعن اسلافه الكرام . . . فدخلنا من داره الى دار السلام بتحية وسلام وصعدنا الى ذلك القصر المنيف . . . فتلقنا بالاعزاز والاكرام والقبول والاحتشام . . . وقلنا له قد زرنا جدك الشيخ محمد العلمي اول النهار في الطور وزرناك يا علمي في آخر النهار . . . وقد حضر في المجلس شيخ الاسلام وبركة السلف الصالحين الكرام . . . السيد عبد الرحيم افندي المفتي بالقدس الشريف وولده الكامل الفاضل السيد محمد وبعض السادات والاصحاب والاخلاء الانجاب وجرت بيننا وبينهم الابحاث العلمية في المسائل الشرعية والأدبية . . . ثم قمنا للمسير بعد اطلاق مجامر الطيب والعبير وتوجهنا فمررنا على المدرسة القادرية^(٦) فدخلنا اليها فوجدنا مدرسة عظيمة البنا واسعة الفنا مشتملة على اشجار الورد ولها الروتق والبها بين المدارس كالعلم الفرد واجتمعنا فيها بمن له كلمة فيها والمجاور بها على اكمل حسن وبها وهو الشيخ الامام والخبر الهمام الشيخ موسى المغربي . . . واجتمعنا هناك برجل من اهل الجذب والصلاح اسمه الشيخ صالح ابن الشيخ ابي بكر الحلبي . .

[ثم يمضي الشيخ النابلسي الى ذكر زيارته للنبي موسى ، وقد اوردنا نصه في كتابنا «موسم النبي موسى في فلسطين» ص ١٦٠ - ١٦٦ فليرجع اليه هناك من شاء ، ثم يواصل كلامه قائلًا : .

(١) (٢) اجدادنا، ص ١٣٣ ؛ (٣) معاهد العلم ٩٦-٥٤ .

(٤) من آثارنا، ١١٧ ؛ (٥) معاهد العلم ٢٥٩ .

(٦) معاهد العلم، ص ٢٦١ .

... فمررنا في الطريق على قرية العيزرية ودخلنا الى ذلك المقام والارجاء البهية ونزلنا الى الجامع المعمور بنحو من الخمس درجات فوجدنا قبراً عليه جلاله ومهابة في ناحية من تلك الجهات يقال له قبر عميرار النبي عليه السلام فوققنا وقرأنا الفاتحة بكمال التعظيم والاحترام ... ثم سرنا الى أن اقبلنا على مدينة القدس الشريف وتراي (تراءى) لنا ذلك المنظر المشرق المنيف وقد خرج الى لقائنا جماعة من الاخوان وجملة من الطلبة والصالحين والاعيان حتى وصلنا الى مكاننا في المدرسة السلطانية ... (وفي اليوم التالي وهو يوم الاربعاء الرابع والعشرين من ايام الرحلة) ذهبنا مع جماعتنا بكرة النهار وضيافة رجل من الصالحين الأختيار ... الى المدرسة القادرية ... دخلنا فيها الى ساحة فضية كأنها مصنوعة من النور مُضيئة وجللسنا في ذلك الجامع الذي هو الفارق للحنن الجامع وحضر عندنا الشيخ الامام والعلامة الهمام الشيخ موسى المغربي ... ثم قدم لنا ما تيسر من الزاد وزاد ... وقد جرى بيننا وبين الشيخ موسى حفظه الله تعالى (حديث) في مسألة اباحة الدخان ... وذهبنا مع الجماعة لزيارة الشيخ البسطامي في المدرسة البسطامية^(١) ودخلناها فوجدنا على ذلك الضريح المبارك جلاله وافيه وهيئة سنية، واشتهر هناك انه قبر ابي زيد البسطامي طيفور عليه رحمة الرب الغفور وانما هو رجل كان على طريقة ابي زيد البسطامي كان يري المريدين فيقال له البسطامي. ثم توجهنا الى جهة التكية المولوية^(٢) ذات الحضرة العلية والسدة السنية حتى وصلنا اليها مع الاخوان واقبلنا على هاتيك الارجاء الحسان وصعدنا في الدرج وشممنا عرف ذلك الارج فدخلنا الى الطبقة الاولى فاذا هي ساحة واسعة جوانبها مرفوعة شاسعة فصعدنا في الدرج الثاني الى ساحة اخرى اصغر من الاولى ولها في البهجة والاشراق اليد الطولى حتى صعدنا في الدرج الثالث الى ساحة ايضا اصغر منها. وقد كدنا في العلوننتشارف السما. وجميع ذلك مبني بالاحجار والعقود المتينة من الصخور الكبار فدخلنا الى ديوان واسع الاطراف مفروش بالدفوف المنحوتة اللطاف وحوله الرواقات المصنوعة للجلوس والسدة العالية التي ترفع اليها الروس. وهناك الفسقية الصغيرة من الرخام الابيض المنحوت وقد جرى فيها الماء المجموع للجران كشبابيك اللؤلؤ والياقوت. وجميع ذلك الديوان مسقوف بالقبو المعقود من الاحجار نزهة للابصار، وحوله شبابيك المطللة على جميع البلاد القدسية وهاتيك الجهات الانسية فتلقانا شيخها الدرويش الصالح مع بقية اخوانه من كل ذكي فالح حتى جلسنا في صدر ذلك الديوان وعملوا لنا السماع الشريف ببدايع الالحان حتى حصل لنا غاية الطرب ...

ثم قمنا لنخرج من ذلك المكان مع من كان معنا من الاخوان فسمعنا اصوات نساء يصحن بالزغاليات لاجتماعهن في عرس بتلك المحلة لاجل المييت فتفالتنا (فتفاءلنا) بكمال الطرب في ذلك اليوم ببركة زيارة لزوايا الصالحين من فقرا القوم ثم مررنا في السوق مع الاخوان فوجدنا فيه بيت القهوة ملآن وهم يعلنون بانواع الأغاني والالحان فكمل لنا السماع وانطربت منا الاسماع ..

(١) معاهد العلم ٣٥٧.

(٢) معاهد العلم ٣٦٢.

.. ثم توجهنا الى جهة الزاوية الادمية(١) بقصد زيارتها والتبرك بمن فيها من الفقراء اصحاب الطريقة المرضية ثم خرجنا من باب المدينة باب العمود ... حتى دخلنا بين رياض وبساتين واقبلنا على مغارة عظيمة غير مبنية بالحجار ولا طين بل هي قطعة واحدة منحوتة في الصخور، وقد حطم بعض جوانبها من الليالي وتكرار الدهور ... فولجنا ذلك الفنا الرحب وتقيأنا بسرحة هاتيك الصخور مع الصحب ووقفنا في ذلك الجناب السامي مع اخواننا من القدسي والشامي وزرنا ذلك الذي هناك يقال له الشيخ بدر^(٢) فانه بدر التمام ومقام نبي الله العزيز عليه السلام^(٣) وهاتيك التربة التي هناك المشتملة على قبور الصالحين الكرام ... ثم جلسنا على صفة عند الباب مع الاخوان والاحباب وفقرا السادة الادمية ... ثم ذهبنا فزرنا مقبرة الساهرة التي هي فوق الزاوية الادمية المذكورة بالآخرة. ومن المشهور في حق ذلك الأمر المذكور أن الاموات فوق الأحياء وهو امر مشهور ظاهر من غير خفا ...

... ثم دخلنا المدينة من جهة الغرب من الباب الصغير الذي بلصق دير الارمن فمررنا في الطريق على قبر الشيخ ابي شوشة ... مررنا ايضا على قبر الشيخ حسن ابن الشيخ علي بن عليل فوقفنا عنده حصة من الزمان ... ثم ذهبنا الى مكاننا في المدرسة السلطانية ... وقد عزمنا من تلك الليلة على الذهاب الى بلاد الخليل ... وقصد السفر ايضا معنا جماعة من اهل بيت المقدس .. فلما اصبحنا في يوم الخميس الخامس والعشرين من ايام هذه الرحلة السعيدة ... تهيأنا للسفر مع اوليك الرجال وقد تعينت معنا جماعة من السباهية ليذهبوا معنا الى تلك الحضرة الخليلية فركبنا باسم الله العظيم ..

[ثم يصف النابلسي طريق الرحلة الى الخليل وزيارته مقام ابي ثور وقبة راحيل وغيرها ويصف زيارته لمدينة الخليل وقرى القضاء وتحدث عما رأى فيها من المشاهد. وخصوصاً في بيت لحم ومغارة مهد عيسى عليه السلام ...].

ثم سرنا الى جهة بيت المقدس المبارك بمعونة الله تعالى وتبارك ... فخرج الى لقائنا جماعة من الاخوان ... حتى وصلنا الى مكاننا بالسلطانية في داخل الحرم ... وبتنا الى أن دخل وقت الفجر .. وكان ذلك اليوم يوم الاحد الثامن والعشرين من ايام هذه السفارة المؤنسة من النفرة فذهبنا الى الصلاة في مسجد الجماعة في جامع الصخرة .. ثم رجعنا الى مجلسنا المعلوم وتكلمنا مع الاخوان في تقرير المسائل والعلوم والاجتماع باهل الخصوص والعموم.

(اليوم التاسع والعشرون من ايام الرحلة) جاء الينا قريتنا الهمام خطيب الجامع الأقصى علامة الخاص والعام الشيخ محمد الجماعي ... وطلب الاجازة منا .. وعرض علينا ايضا الشاب الفاضل جامع الفضائل الشيخ ابوبكر بن الشيخ احمد العلمي المتقدم ذكره ايضا اجازته في طريق الشاذلية وطلب منا الكتابة عليها بما تيسر من الكمالات الادبية فكتبنا ثم ذهبنا الى جنينة

(١) معاهد العلم ٣٥٥.

(٢) و(٣) الشيخ بدر ليس في الادمية بل هو بظاهر قرية لفتا الى الشمال الغربي من القدس. اما العزيز فهو في قرية العيزرية.

بعض الاخوان وكان زمان الربيع وهي مكلّلة منه بالوان، والورد مورد الوجنت ضاحك الثغور على تلك الاغصان فجلسنا فيها برهة من الزمان وسمعنا الاناشيد واطياب الالحان. ثم ذهبنا بجماعتنا الى زيارة مفخر الاعيان وحدقة عين الانسان صالح افندي الشهير بابن العسلي المتقدم ذكره والطير لا يطربه الاوكره. والمحبة تجذبُ القلوب فيقود المحب الى محبوبه فكره حتى دخلنا الى داره السعيدة وحضرته الفريدة فتلقانا بصدر الواسع ورحب بنا فنعمنا بقدره الشاسع وجلسنا بذلك المجلس اللطيف والمقعد المنيف وصنع لنا الانبوب الفوار بالماء الذي يوضع له فيرتفع المنار، وهو مبني بالرخام نزهة للأنام وفي ذلك قلنا من النظام . . .

وفوارة يعلو بها الماء صاعداً لها مدد لكن بتدبير ذي الحجا كرمح رماء ساعد اليد للسا فصادفه بُعد السها فتعوجاً صعداً الى ذلك القصر العالي ونعمنا بكرمه المتلالي ورأينا من لطايف كتبه اشباه الجواهر والالائي، ثم لم نبرح حتى ورد علينا وارء الكمال باقبال عين الاقبال وروح جسد المهابة والاجلال الحسيب النسيب السيد عبد اللطيف افندي المتقدم ذكره . . . فجلس حتى طاب ذلك المجلس . . . وجرت بيننا اللطايف الاديبة والكلمات المستظرفة المرضية فطلب أن نكون عنده في اليوم التالي . . . فاجبناه الى ما دعا . . . ثم انفض ذلك المجلس الميمون وانطوى بساط تلك الاحاديث والحديث شجون. ثم ذهبنا مع الاخوان الى جهة دير صهيون وقصدنا زيارة نبي الله داود عليه السلام وكان دعانا الى ذلك خلاصة عين العيون وعقد جواهر اللولو المكنون الشيخ محمد^(١) الدجاني . . . وهو خادم هاتيك الحضرة الداودية . . . ثم حين وصلنا الى زيارة ذلك الجنب الرفيع . . . ولبسنا درع التبرك اتقاء تلك الهية التي تجعل السكون حركة والحركة سكون صعداً غب الزيارة في درج قريب من درج المنارة حتى وصلنا الى قصر واسع الاطراف موطن الاكتاف مطل على البيوت والبساتين، واذا لم يوجد الهواء في مكان يوجد فيه في كل حين. وكان قد تلقانا الشيخ يحيى المذكور الى بعض الطريق وبث في وجهنا بشاشة الرفيق الرفيق . . . ثم عدنا الى مكاننا بالسلطانية .

كان ذلك اليوم يوم الثلاثاء وهو اليوم الثلاثون من ايام هذا السفر الميمون فدخل علينا في مجلسنا المعروف الشيخ الصالح الذي هو بالكمال موصوف سليل الاولياء والصالحين الشيخ طه الزغبي (الزغبي؟) الكنتاني من اهل الجذب والدين فجلس معنا وتكلمنا واياه في احوال كثيرة واسرار غزيرة، وهو رجل صاحب حال ظاهر وسر باهر يصطلم تارة فلا يتكلم مع احد، واذا خاطبه المتكلم لا يرد عليه ولا يرجع الجواب اليه. وقد اخبرونا عنه لكراماته وخوارقه ولوايح وبوارق. ودخل علينا ايضا الشيخ الصالح الشيخ عمره من قرية دوقره^(٢) من بني كنانة تابع اريد، فجلس عندنا معه وتواخينا، ومعها من جماعتها اناس كثيرون . . .

(١) الصحيح يحيى الدجاني.

(٢) انظر عنها: ناحية بني كنانة، عمد عدنان البخيت، عمان ١٩٨٩ الصفحات: ١٥، ٢٢، ٢٤، ٣٠، ٣٣، ٣٧، ٣٩.

١٤٢، ٩٩، ٦٤، ٥٢

وكان ذلك اليوم يوم الاربعاء الحادي والثلاثون من ايامنا المعهودة وواقاتنا المشهودة فبعد اداء الصلاة المفروضة . . . عزمنا على المسير الى عيادة (بعض) المحبين مع جماعة من الاخوان . . . ثم ذهبنا غب الضيافة . . . حتى دخلنا الحمام المعروف بحمام الشفا^(١) . . .

وهذا الحمام ماءه يجري اليه من تحت الصخرة كما تقدم . وأظن أن ماءه من ماء عين سلوان لان طعمهما واحد وهو يشبه ماء زمزم في الطعم . وهو حمام لطيف في سوق القطنين بالقرب من الحرم الشريف المقدسي ثم ذهبنا غب الحمام الى بيوت بعض الاصدقاء الكرام

ذهبنا الى زيارة تربة مأمّن الله^(٢) . . . فحين وصلنا الى التربة المذكورة رأينا البلاطة المخططة المشهورة وذكروا لنا فيها خواص مجربة من اجابة الدعا ونحوه من الامور المقربة، ثم وقفنا عند قبر الشيخ شوله يفتح الشين المعجمة وقرأنا الفاتحة ودعونا الله تعالى . وهو رجل من اهل الجذب والصلاح يقصد الناس زيارته والتبرك به . ثم وقفنا عند قبر الواسطي ورأينا على قبره مكتوباً بعد البسملة هذا قبر عمر بن ابراهيم بن عثمان الواسطي . . . ثم وقفنا عند قبر الشيخ الضغستاني (الداغستاني) وقرأنا له الفاتحة . ثم وقفنا عند قبر الشيخ ابي شعره وقرأنا له الفاتحة وانما سمي بذلك لانه اشترى شعرات من شعرات النبي ﷺ بمبلغ كبير من المال وامر انه إذا مات توضع في عينيه . . . ثم زرنا قبر الشيخ مجير الدين الحنبلي^(٣) صاحب التاريخ المشهور الذي سماه انس الجليل في تاريخ القدس والخليل وقرأنا له الفاتحة . ثم زرنا مدفن القلندرية يقال إنه دفن فيها اوليا صالحون لا يحصون . . . ثم زرنا قبر الكمال ابن ابي شريف وقرأنا له الفاتحة وزرنا قبر الشيخ شهاب الدين احمد بن الهائم وقرأنا له الفاتحة . . . ثم زرنا قبر الشيخ ابي عبدالله القرشي رحمه الله تعالى وقرأنا الفاتحة . . . ونقل أن الانسان اذا خاف التخمة من شدّة الاكل وقال عند رفع المائدة وفراغه من الاكل قال ابو عبدالله القرشي اليوم يوم عيد لم يضره ذلك الاكل . . ثم زرنا بجانب قبر الشيخ شهاب الدين ابو العباس احمد بن ارسلان الرملي ثم المقدسي الإمام العالم العلامة صاحب الكرامات الظاهرة والعلوم والمعارف الباهرة . . . ثم زرنا الشيخ محمد البرماوي شارح صحيح البخاري وقرأنا له الفاتحة، ثم زرنا اجدادنا بني جماعة الشيخ عبد القادر وولده الشيخ بدر الدين والشيخ موسى بن البدر والشيخ عرفة وولده الشيخ محي الدين وسائر اولاد بني جماعة وقرأنا لهم الفاتحة، ثم زرنا تربة الشيخ الدجاني وذرية الشيخ احمد الدجاني الكبير . وذكروا الناس من كراماته أنه إذا كان للانسان حاجة يجيء الى عند قبره ويحمّله حملته ويضع على قبره حجر فاذا قضيت حاجته عاد ورمى بالحجر عن القبر . والشيخ عبد المنعم الدجاني كان من العجائب كانت تربطه والدته بخيط من القطن الرفيع فيمكث اليوم واليومين، والشيخ يوسف الدجاني كان

(١) من آثارنا، ص ١٧٥ .

(٢) هي ماملا التي مر ذكرها، وانظر عن الاعيان المدفونين فيها من يذكرهم النابلسي فيها يلي وغيرهم كتاب اجدادنا في ثرى بيت القدس .

(٣) ربما كان هذا دليلا على أن قبر مجير الدين الحنبلي هو في مقبرة ماملا، وليس في وادي سلوان تحت مقبرة باب الرحمة كما قلنا اعتماداً على اقوال غيرنا، في اجدادنا، ص ١٣٩ .

ايضا من المجاذيب كان ينقب الصخرة بعود صغير من الحطب وله صخرة مشهورة به وسائر ذريته
وقرأنا لهم الفاتحة . ثم زرنا الشيخ كمال المجذوب القرمي الشهير بابن بغلة وقرأنا له الفاتحة ثم
زرنا الشيخ محمد الخريشي بالتصغير صاحب التصانيف وقرأنا له الفاتحة . ثم زرنا الولي الصالح
الشيخ عمر المجرى المصمودي الذي عمر زاوية المغاربة بالقدس الشريف وقرأنا له الفاتحة .
وزرنا الشيخ الصالح محمد العجمي في قبة مستقلة وولده الشيخ عبد الغفار خارجها والشيخ قيصر
والشيخ بدر الفقير وقرأنا له الفاتحة ، وزرنا عكاشة الصحابي^(١) على ما هو المشهور هناك وقرأنا له
الفاتحة ، ثم قرأنا الفاتحة لمن دفن بالتربة المملشية بفتح الميم واللام والشين المعجمة المكسورة بعدها
مئاة تحتية ثم هاء . وحيننا من تلك الجبانة الى مكان خالٍ من القبور فاخبرونا أن هذا المكان حفر
(فيه) مرة على قبر فوجدوا فيه رجلا جالساً يقرأ القرآن فسأله هل قامت الساعة فاندھش الذي
نبش وذهب ثم رجعوا فلم يجدوا للقبور اثراً . . . ومن العجائب اننا وجدنا في هذه المقبرة حشيشة
طول الاصبع خضرا مزهرة ولها يدان واربع ارجل ورأس صغير احمر ولها عرف ابيض فوق رأسها
وذنبها زهر احمر معقد وفيها الحماة وتمشي على ارجلها .

ثم رجعنا نحن والاخوان ومن معنا من الاصحاب والخلان فزرنا في الطريق سعد وسعيد
والشيخ بادار وقرأنا لهم الفاتحة يوم السبت الرابع والثلاثون من هذا السفر المبارك . . . عزمنا على
الخروج من هاتيك البلاد والتوجه الى جهة الامل والاولاد فحضر لوداعنا جملة من اصحابنا اهل
الصدقة والوداد فسرنا على بركة الله وخرجنا من باب العمود وخرج معنا الى مقام الشيخ جراح
سادة من اهل الكرم والجود . . .

(١) مقام الشيخ عكاشة ليس في مقبرة ماملا، وانما هو بعيد عنها على طريق لفتا شمال غربي القدس .

الحقيقة والمجاز
في الرحلة إلى
بلاد الشام ومصر والحجاز

تأليف
عبد الغني بن اسماعيل النابلسي
المتوفى ١١٤٣ هـ

تقديم وإعداد
د. أحمد عبد المجيد هريدي
الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٦

(ص ١١٠ - ١٣٨)

وكان يوم الأحد وهو اليوم الستون ثاني شهر ربيع الاول فسرنا على بركة الله تعالى الى ان وصلنا الى البيرة بكسر الباء الموحدة فنزلنا هناك . واكلنا ما تيسر من الزاد على وجه الاشتراك . ثم ركبنا وسرنا في تلك الجبال العالية . والادوية الخالية . الى ان اشرفنا على مدينة القدس الشريف . وقربنا من هاتيك المعاهد القديمة بلا تسويق .

ثم لم نزل سايرين الى ان خرج لاستقبالنا اولاد الشيخ العلمي وجماعتهم وطائفة من الاخوان والمحبين . حتى نزلنا في تلك البقعة . وشكرنا الله تعالى حيث من الهم فككنا الرقبة ، ومررنا على المدرسة الجراحية^(١) وزرنا من دفن بها من هياكل تلك الارواح الراضية المرضية ، ثم سرنا نؤم البيت المقدس . الذي هو على لطايف الاسرار مؤسس . والله در العلامة الحافظ ابن حجر العسقلاني :-

الى بيت المقدس جئت ارجو جنان الخلد نزلا من كريم .
قطعنا في مسافته عقابا وما بعد العقاب سوى النعيم

الى ان كان منزلنا في معدن الارواح النورانية، المسماة بالمدرسة القادرية^(٢) . فحضر عندنا هناك شيخ الجماعة . وسليل اهل المعارف الالهية والبراعة . التقى الصالح والسني الفالح الشيخ ابو الوفا العلمي واولاده الكرام الثلاثة . اهل الكمالات العلية والاخلاق البهية وحسن الدمائه السيد الفاضل مجمع الفضائل والفواضل . الشيخ مصطفى والسيد السامي . صاحب الفضل النامي الشيخ محمد والسيد الكامل الذي هو لانواع المحامد شامل . السيد فيض الله والشيخ يحيى الداودي وأكابر تلك البلدة واعيانها واجتمعنا بصديقنا الشيخ الفاضل العالم الصالح محمد البدري الدمياطي الشهير بابن الميت^(٣) . وكان قدم علينا سابقا الى دمشق الشام في اوامر شوال سنة اربع ومائة والالف ومعه تلميذه الشيخ الكامل مصطفى الحريثي الدمياطي .

ثم ان الشيخ ابا الوفا العلمي المذكور ارسل لنا بالضيافة المحمودة وانواع من الاطعمة معدودة . حتى صلينا صلاة المغرب في مكاننا المعلوم مع جماعتنا على وجه الخصوص والعموم . ثم اتى لزيارتنا في ذلك الحين شيخ الاسلام العالم العامل الهمام الشيخ نجم الدين ابن المرحوم شيخ الاسلام . وعلامة الاعلام . الشيخ خير الدين الرملي ومعه الشيخ شمس الدين وحضرة الحسيب النسيب السيد مصطفى نقيب السادة الاشراف في بيت المقدس وجرت بيننا وبينهم مباحثات علمية . ومذاكرات فقهية . ثم بتنا تلك الليلة في اكمال سرور واجمل حبور الى ان طلع صباح يوم الاثنين الحادي والستين ثالث شهر ربيع الاول فجلسنا في المدرسة القادرية . التي هي منزلنا ذات الخلوات اللطيفة والجلوات العلية . وقد وردت علينا اهل البلاد من الاخوان والاصحاب واهل المودة والاحباب . وجاء الى عندنا نائب القضاء في تلك البلدة . وحضرة

(١) معاهد العلم، ٣٤٣، أجدادنا، ١٠٤ .

(٢) معاهد العلم ٢٦١ .

(٣) هو جد مصطفى اسعد اللقيمي الدمياطي العالم الرحالة الاتي ذكره من جهة امه، وهو ممن قرأ عليه اللقيمي (سلك الدرر

١٥٥/٤) .

مفخر ذوى المكارم علي جورجي النابلسي ومن معه من اهل الكمال والنجدة ومشايخ الحرم
القدس والعلماء والصالحون من ذوي المقام الاسمى ومنهم الشيخ الصالح محمد المالكي الموقت
بالحرم الشريف وامام المالكية فيه . وغيرهم من بقية الناس من كل نبيل ونبيه .

وقلنا في ذلك اليوم ونحن في رياض القدس وقد انتبه بلبل القريحة من النوم .
بلدة القدس وهي اشرف بلدة
وعلى الكافرين فيها جحيم
اهلها المؤمنون اكمل قوم
وهي دار الندا وبيت المعالي
شرف زايد لها ومزايا
حرم ثالث لمكة فضلا
كم بها من مشاهد شاهدات
وبها الصخرة التي هي نور
كان منها المعراج حيث اليها الله
وبها الانبياء والرسول صلت
جنتها زايرا فنلت ثواباً
مع قوم لهم مزية فضل
فسقى الله ارضها وحماها

اشبهت جنة النعيم وخلده
حيث كل منهم يفارق رشده
حفظوا الود اهل فخر ونجده
وعماد التقى وركن المودة
من اتاها رأى هداه وسعده
وحى طيبة اتت هي بعده
أنه الله في تجليه وحده
كل نفس من سرها مستمده
اسرى بمن يسميه عبده
خلف طه النبي من حاز مجده
حيث نفسي كانت له مستعدة
كل شهيم منهم يحاول قصده
من ديار بها حوى العيش رغده

على انا وجدنا لابن ابي شريف احد علماء القدس على حسب ما رأى ووجد والازمان
تختلف كمالا ونقضا باعتبار من قصر من اهلها وجد . والجروح قصاص . ومن الله الخلاص .
وذلك قوله :

اني ارى القدس على فضلها
لا سوق للعلم بها نافق
فتذكرت بذلك قول بعضهم في بلادنا دمشق الشام . مما يناسب ذلك من النظام .
تجنب دمشق ولا تأتها
فسوق الفسوق بها قايم
موسوقة بالجهل اى اتساق
ما نافق في القدس الا النفاق
وان راقك الجامع الجامع
وفجر الفجور بها طالع

ثم اصبحنا يوم الثلاثاء الثاني والستين رابع شهر ربيع الاول فجلسنا في مكاننا المعهود حتى
اتى الى زيارتنا فخر الموالي الكرام ذوي الكرم والجود عطاً الله افندى القاضي يومئذ بمدينة القدس
المحروسة . لا زالت شجرات الكمال في رياضها مغروسة . وهو من اولاد العلامة العمدة الفهامة
شيخ الاسلام جوى زاده المفتي سابقا بالديار الرومية^(١) مقر السلطنة العلية . واجتمعنا به سابقاً في

(١) مر ذكره سابقا في رحلة محب الدين محمد الحموي -١٤- في القسم الاول .

بلادنا دمشق الشام . واتى الى زيارتنا هناك ايضا بكمال الاحتشام . وجرت بيننا وبينه مطارحات ادبية . ومصاحبات عرفية . ومباحثات علمية . حتى انساق بنا الكلام فذكرنا له ان بين جد والدنا الشيخ اسماعيل النابلسي الكبير صاحب الفضل الشهير المذكور سابقا وبين جده الاعلى جوى زاده المفتي بالديار الرومية سابقا مكاتبات ومراسلات فمن ذلك ما وجدته بخطه الكريم انه كتبها ايام المحنة يشكو فيها جور بعض الحكام . بدمشق الشام . وارسلها للمولي المذكور في اواخر ذي الحجة سنة احدى وتسعين وتسعمائة .

ثم قمنا فذهبنا نحن واخوان الى زيارة الحرم القدسي والمشهد الشريف الانسي . فزرنا الصخرة الشريفة . ومسجدها المبارك والقدس الشريف ومحراب القبلتين ومحراب ادريس والبلاطة السوداء وهاتيک الاثار المنيفة . ثم نزلنا تحت الصخرة في ذلك الدرج وزرنا لسان الصخرة ومقام الخضر ومحراب داود عليها السلام ثم خرجنا فزرنا قبة السلسلة وقبة الارواح وذهبنا الى المسجد الاقصى وزرنا ما فيه من الأماكن الشريفة التي فصلنا الكلام عليها في رحلتنا الوسطى المسماة بالحضرة الانسية في الرحلة القدسية . ثم عدنا الى مكاننا في المدرسة القادرية وصلينا الظهر ثم سرنا نحن والاخوان فزرنا التربة الملاصقة للسور عند باب الرحمة وباب التوبة المسدود الان . لكونها يفتحان الى الجهة الخالية من سكنى انسان . والسلوك الى شيء من البلدان . وزرنا هناك قبر عبادة بن الصامت وشداد بن اوس الصحابييين المشهورين . ومن دفن حولها في قبور المسلمين . ثم ذهبنا الى عين سلوان في اسفل الوادى ولنا في ذكر هذه العين كلام منظوم ومثور في الرحلة القدسية ثم صعدنا الى جبل الطور .

ثم زرنا قبر رابعة العدوية رضى الله عنها في جبل الطور على ما هو المشهور وزرنا هناك قبر الشيخ الامام العارف بالله تعالى محمد العلمي صاحب الديوان المشهور في داخل قبته وعنده عمارة عظيمة وجامع شريف بمنارة عالية فوق الجبل وتكية الاسعدية ثم زرنا سلمان الفارسي الصحابي المشهور في مغارة بذلك الجبل وعنده خرنوبة العشرة على ما هو المشهور بين الناس يعنون الصحابة العشرة المبشرين بالجنة في حديث النبي ﷺ فكان ارواحهم رؤيت حاضرة في ذلك المكان تحت تلك الشجرة الخرنوبة فنسبت اليهم او غير ذلك والله اعلم . وزرنا هناك ايضا في ذلك الجبل قدم عيسى عليه السلام اثر في صخرة وقرانا الفاتحة ودعونا الله تعالى بما تيسر لنا من الدعاء ثم عدنا الى مدينة القدس فدخلنا من باب هناك فزرنا بالقرب منه اولاد الامام الاعظم ابي حنيفة النعمان رحمهم الله تعالى على ما هو المشهور هناك بين الناس وحولهم قبورهم ثم ذهبنا الى ضيافة فخر الاعيان حضرة مصطفى اغا من اكابر بلاد القدس فدخلنا الى داره الواسعة الاركان . المشيدة البنيان . فتلقانا بصدره الرحيب . ولطفه العجيب حتى انقضى ذلك المجلس وعدنا الى مكاننا بالقادرية . ونحن في كل سرور واتم حالة مرضية . ثم بعد صلاة المغرب اتى الى زيارتنا الشيخ الامام الفاضل مفتي تلك البلاد القدسية . نجم الدين ابن الشيخ الكامل . والعالم العامل خير الدين الرملي رحمه الله تعالى ومعه رفيقه الشيخ شمس الدين فتحدثنا معه ساعة من الزمان تتجاذب اطراف المباحث العلمية والمسائل الفقهية حتى ذكر لنا الشيخ نجم الدين المذكورانه

وجد لجدنا المرحوم الشيخ الكامل والعالم العامل عبد الغني ابن النابلسي شرحا للجامع الصغير في الحديث للجلال الاسيوطي وذكر لنا الشيخ شمس الدين المذكور ايضا انه وجد لوالدنا المرحوم الشيخ الامام العلامة اسماعيل ابن النابلسي ديوانا من الشعر اللطيف في بلاد مصر المحروسة . ولم نقف نحن على شيء من ذلك لموت والدنا المذكور رحمه الله تعالى وانا صغير دون البلوغ وقد ذهبت جميع كتبه وكتب والده وجده التي كانت عنده وهي الوف لا تكاد تحصى تفرقت ادراج الرياح .

ثم اصبحنا في يوم الاربعاء الثالث والستين خامس شهر ربيع الاول فاقى الى زيارتنا الشيخ الصالح اسماعيل ابو قاسم النجار واتي بقصيدة من نظمه يمدحنا بها فقبلناها منه وتبركنا به وهو ممن لم يعلمه الله تعالى الشعر ولا ينبغي له لانها خارجة عن الوزن . فتسلق بسامعها مسالك السهل والحزن . ثم ذهبنا فدخلنا الى الحرم الشريف وزرنا قبة الارواح وقبة المعراج وقبة السلسلة والقبة التي على القطعة التي اخذت من الصخرة المباركة وزرنا محراب عبادة ابن الصامت وباب التوبة وباب الرحمة والمكان الذي فيه كرسي سليمان عليه السلام وصعدنا على المكان الذي يسمونه بالصراط ثم انزلنا الى المهدي مهد عيسى عليه السلام وفيه مقام الحواريين ومقام الخضر عليه السلام ثم صعدنا وزرنا محراب داود عليه السلام وسوق المعرفة وجامع المغاربة ثم دخلنا الى المدرسة التي بجانب جامع المغاربة وهي المدرسة المسماة بالفخرية^(١) وهي في غاية من الحسن والانتقان . وكمال البها وجمال البنيان . وفيها جملة من الكتب وراينا فيها ديوان ابن العلا المعري وشرحه ورأينا هناك مكتوبا هذين البيتين :

قلت لفقدي لكم يهون
تأسى على فقدته العيون

قالوا العمى منظر قبيح
والله ما في الانام شيء

ويناسبه قوله ايضا .

ان العمى اولاك احسانا
ما ابصرت عيناك انسانا

ابا العلاء يا بن سليمانا
لو ابصرت عيناك هذا الورى

ثم خرجنا من الحرم فزرنا مكان البراق ثم سرنا نحن والاخوان الى زيارة نبي الله داود عليه السلام في دير صهيون فخرجنا من باب مدينة القدس وزرنا الشيخ المنسي ثم دخلنا الى مكان الدير قريبا من باب المدينة فرأينا قبر داود عليه السلام وعليه كمال الهيبة والجلال والاعظام . فقرأنا الفاتحة ودعونا الله تعالى لنا ولجميع الانام .

قال كعب والنصاري تزعم ان قبره في الكنيسة الجسمانية بالبيت المقدس انتهى . والمشهور ان قبره في دير صهيون كما قدمنا . ومكان هذا الدير الان هو مسكن اولاد الدجاني وهم خدام نبي الله داود عليه السلام فاجتمعنا هناك منهم بالشيخ الفاضل الكامل يحيى الدجاني الداودي وأكرمنا غاية الاكرام . وانزلنا هناك في ذلك الرواق العالي والقصر المتتالي ولطيف ذلك

(١) معاهد العلم، ص ١١٣ .

المقام . واضافنا بما يتسنى من زاد . وكفى والله وزاد . ثم رجعنا الى الحرم القدسي والمقام الانسي . وصلينا الظهر بجماعة في مسجد الصخرة المباركة الذي هو مهبط الملائكة . ثم اجتمعنا بالشيخ الصالح عيسى الكردي (١) وهو رجل من الافاضل ساكن في خلوة هناك وقد تزوج في بيت المقدس وقطن بها يقرىء الطلبة في بعض العلوم ثم ذهبنا الى ضيافة قاضي البلدة عطاء الله افندي المتقدم ذكره فعمل معنا غاية الاكرام . واحتفل بنا وبيجماعتنا وعاملنا بالاحترام . ثم عدنا الى مكاننا بالمدرسة القادرية .

ثم اصبحنا في يوم الخميس الرابع والستون سادس شهر ربيع الاول فعزمنا على السير الى حبرون وهي بلاد الخليل لزيارة انبياء الله الكرام . عليهم الصلاة والسلام . فركبنا نحن والاخوان . وسرنا وسار معنا الشيخ محمد الدمياطي المذكور سابقا والشيخ يحيى الدجاني وغيرهما من الاعيان وجماعات كثيرون من اهل بيت المقدس وغيرهم من الاصحاب والمحبين ذوي الاذعان . فمررنا في الطريق على قبر راحيل ام نبي الله يوسف عليه السلام . فوقفنا وقرانا الفاتحة ودعونا الله تعالى احتراماً لذلك المقام . ثم سرنا في ذلك الطريق الوعر الذي كان سهلاً علينا متدانياً . حتى نظمنا في ذلك بعون الله تعالى هذا الموالياً .

وجدت في ارضكم وعر الفلا سهلاً وكل صعب رايناه بكم سهلاً
يا سادة الف أهلاً لي بهم سهلاً من جاءكم قد تسمى بينكم سهلاً

ولم نزل سايرين الى ان وصلنا الى البرك الثلاث (٢) التي يجتمع فيها الماء من السيول والامطار ومن عين هناك صغيرة له انبعاث . البرك بكسر الباء الموحدة وفتح الراء جمع بركة بضم الموحدة وسكون الراء وهي يجتمع الماء . ثم يجري ذلك الماء في طريق بين تلك الجبال والادوية مغطى بالنيان عليه . حتى يصل الى حرم بيت المقدس ويخرج من الكاس الرخام الذي هو لديه . وهناك قلعة لطيفة فيها بعض الناس كأنهم لذلك الماء من العرب والفلاحين بمنزلة الحراس (٣) .

فلما اصبحنا في يوم الاثنين الثامن والستين وهو عاشر شهر ربيع الاول عملنا هذه القصيدة . تمسكا بحبال المودة العتيقة الجديدة . مدحا في جناب المولى الهمام سليل العلماء الكرام حضرة عطاء الله افندي جوى زاده القاضي بمدينة القدس المذكور سابقا ودعانا فذهبنا الى جنابه .

ثم صلينا الظهر بالحرم القدسي الشريف . وزرنا الصخرة المباركة ذات القدر المنيف ودخلنا الى المسجد الاقصى الذي هو ابعد عن كل رجس واقصى . ثم عدنا الى المنزل . والشوق الى المعالم الحجازية يصعد وينزل . ثم بعد صلاة العصر ذهبنا الى ضيافة قريتنا الفاضل اكمل الافاضل . الشيخ محمد بن جماعة الخطيب (٤) الذي يقوم على منبر المسجد الاقصى كما يترنم في عوده

(١) انظر ترجمة ابنه محمد الاديب الشاعر في سلك الدرر ١١/٤ .

(٢) وتعرف باسم برك سليمان . انظر عنها من آثارنا في بيت المقدس ص ١٤١ وما بعدها .

(٣) من آثارنا في بيت المقدس ، ص ١٥٤-١٥٥ .

(٤) انظر عنه : سلك الدرر ٩٤/٤ .

العندليب . فذهبنا معه الى مسكنه مدرسة الجوهريه فتلقانا بوجهه الرحيب وكان مجلساً حافلاً بالعلماء والافاضل اولى الكلمات والفواضل . ثم نزلنا الى الحرم الشريف وصلينا المغرب بالجماعة . ثم عدنا الى منزلنا نتقلب في ملابس العبادة والطاعة . وفي هذا اليوم المبارك جاءتنا المكاتيب من جهة دمشق الشام بانواع الاخبار وغرايب الاعاجيب . ففرحنا غاية الفرح . وزال الهم والترح . فمن ذلك مكتوب اخينا شقيقنا العلامة العمدة الفهامة الامام الهمام والفاضل الكامل المقدم الشيخ يوسف ابن النابلسي الحنفي امين الفتاوى بدمشق الشام عليه رحمة الملك العلام . وسياي ذكر موته في مجلد ثالث الاقسام . وذكر فيه ان ولدنا الشيخ اسماعيل يريد ان يتوجه الينا فيطلب منا تعيين بلد الاجتماع . حتى كتبنا له الجواب بان ذلك يكون ان شاء الله تعالى في غزة المحروسة ونحن الان في القدس الشريف خير البقاع . فان السياحة تقتضي الجولان بالانخفاض والارتفاع .

ثم عدنا الى مكاننا في الزاوية القادرية . فطلب منا بعض الجماعة عمل درس في الحرم الشريف لاجل البركة وتحصيل المزية . فبعد ان صلينا صلاة الظهر في مسجد الصخرة الشريفة . نزلنا الى رواق الشيخ الكامل والعالم العامل منصور المحلى الصابوني^(١) روح الله تعالى روحه . ونور ضريحه . فجلسنا هناك في تلك الحضرة المنيرة . وقرأ المعيد حديث انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى . وتكلمنا على ذلك ما تيسر لنا من الابحاث مما فتح الله تعالى به في ذلك الوقت وحضر جماعات من العلماء وأعيان الفضلاء وغيرهم من عامة الناس الى ان دخل وقت العصر فصلينا صلاة العصر في ذلك المكان . نحن ومن معنا من الاخوان ثم ذهبنا الى ضيافة الحاج علي المعروف بابن نسيبة بصيغة التصغير فصعدنا الى داره المعمورة . وهي بانواع الخيرات مغمورة . وكانت مشحونة بالافاضل والاعيان من اكابر ذلك الزمان . فحصلت اكمل الفائدة . ومدت لنا اشرف المائدة حتى تفرق ذلك الجمع . وقد قرّ البصر والسمع . ونزلنا الى صلاة المغرب فصليناها بالحرم الشريف ، وكانت تلك الليلة ليلة المولد النبوي المنيف . فجئنا الى المسجد الاقصى الذي فضايله وبركاته لا تستقصى . وجلسنا هناك ننتظر سماع المولد المبارك لما اذن العشاء وصلينا مع الجماعة بمعونة الله تعالى وتبارك . وكانت اوقدت تلك القناديل الكثيرة . واستنارت تلك الشموع فحيرت البصر والبصيرة . نصب الكرسي قبالة المحراب . وصعد عليه رئيس السادة الموالية الرفيع الجنب وهو السيد عبد الصمد اخو مفخر الاعيان السيد عبد اللطيف افندي . وقرا شيئاً من القران العظيم يعيد وييدي . وقد اجتمعت الناس على طبقاتهم من الموالى والاكابر والعلماء والافاضل وائمة المحاريب والمنابر والخواص والعوام من الرجال حتى النساء ذوات الحجال في ناحية من المسجد مجتمعات ، ومعهن الصبيان الصغار والبنات . ثم شرع في المولد الشريف وحوله جماعة من المؤذنين يترغمون بالصوت اللطيف . ثم فرقوا على جميع الحاضرين انواع السكر

(١) الشيخ منصور المحلاوي من اقطاب الصوفية ، وهو مصري الاصل من مدينة المحلة . وقف الزاوية المنصورية على جبل الطور ١٦٥٣/١٠٦٤ - وثائق مقدسة تاريخية مجلد ، ص ٢٣٢ . اما رواق الشيخ منصور فلا نعرف شيئاً عنه هل هو الزاوية ام لا .

والنقل وطيب الرياحين . وجاؤا بالماء ورد ومباخر العود . وكان وقتا شريفا حصل فيه كمال الخضوع والشهود ثم بعد ذلك انصرف الناس وتفرق ذلك الجمع باللطف والايناس .

ثم بتنا تلك الليلة الميمونة بحقق كل منا آماله وظنونه ويمتخ خواطره بانواع المسرة وينزه عيونه الى ان اصبح صباح يوم الاربعاء وهو اليوم السبعون الثاني عشر من شهر ربيع الاول فحضر عندنا بعض الافاضل من الاخوان . وتذاكرنا بعض المذاكرة العلمية مع كمال الملاطفة والاذعان . ثم ذهبنا عند اذان الظهر الى الحرم الشريف . فصلينا صلاة الظهر مع الجماعة في مسجد الصخرة ذات القدر المنيف . وجلسنا لاقراء الدرس في ذلك المحراب تجاه الصخرة المباركة وقد حضرنا الافاضل والامجد من الطلبة الذين يمشون على اجنحة الملائكة ولم نزل في الدرس حتى سمعنا اذان العصر وصلينا مع الجماعة وقد ظفرنا بكمال المثوبة والنصرة . ثم عدنا الى مكاننا في زاوية القادرية . وبتنا تلك الليلة على اتم حالة مرضية . فلما أصبحنا في يوم الخميس وهو اليوم الحادي والسبعون الثالث عشر من شهر ربيع الاول ذهبنا الى عيادة بعض الاصحاب وكان مريضا . اكمل الله تعالى له الاجر والثواب . ثم ذهبنا الى زيارة الكامل الامام والبركة الهمام الشيخ ابي الوفا العلمي حفظه الله تعالى فتلقنا بصدرة الرحيب , واولاده الكرام وما منهم الا وهو فاضل نجيب . وكان هناك بعض افاضل البلاد ذوي الاحترام فجرت بيننا مسألة التفضيل بين الانبياء عليهم السلام فسألنا الفاضل العالم . من اشرفت بكلماته المعالم . الشيخ مصطفى ابن الشيخ ابي الوفا العلمي عن النبي الافضل بعد نبينا عليهم السلام من هو فذكرنا له انه ابراهيم الخليل ثم موسى ثم عيسى ثم طلب منا تحرير رسالة في ذلك في رسالة على الاستقلال فوعدنا بذلك اذا استقر بنا في منزلنا الحال . ثم قمنا من ذلك المجلس وذهبنا الى تكية المولوية نتنزه بذلك ونستأنس . وزرنا في الطريق الشيخ البسطامي في زاويته المشهورة . ومررنا في الطريق على قبر الشيخ حسن ابن الشيخ على بن عليل صاحب الاحوال المنشورة . وقرأنا له الفاتحة والتمسنا من نفحات بركاته الفاتحة ثم دخلنا الى الحرم الشريف من باب حطة . وسرنا الى منزلنا بالقادرية الذي فيه المحطة ثم عند اذان الظهر ذهبنا الى الاقصى المبارك . وصلينا صلاة الظهر مع الجماعة وجلسنا في ذلك المحراب في اعمال الخير نتشارك . وعملنا الدرس العام وحضر عندنا جماعات من الافاضل ومن العوام . وتكلمنا على حديث لا يزال عبدي يتقرب الى بالنوافل بما تسير من الكلام . الى اذان العصر ثم صلينا صلاة العصر وتوجهنا الى منزلنا المعهود . وشرعنا في عمل رسالة في التفضيل بين الانبياء عليهم السلام على حسب ما سبق لنا من الوعود . وكتبنا فيها ما تسير من القول على مقتضى ما تقبله العقول . سميناهم صفوة الاصفياء في بيان التفضيل بين الانبياء . ثم بيضها بعض الاصحاب . وارسلناها الى طالبها منا جناب الشيخ مصطفى العلمي كما سبق ذكره في هذا الكتاب . ثم دخل وقت المغرب فصلينا في زاويتنا القادرية صلاة المغرب مع الجماعة . وجاء شيخ الزاوية وهو الرجل الصالح الشيخ محب الله وجاءت جماعته اهل الذكر والطاعة . وأوقدوا تلك القناديل . وعقدوا مجلس الذكر والصلاة على رسول الله ﷺ مع التكبير والتهليل الى ان دخل وقت العشا . وارتفعت ظلمة القلوب والغشاء ثم وقفنا في المحراب وصلينا بالجماعة صلاة العشا

وحصل الثواب وكمل البسط والصفاء وعظم السرور والوفاء حتى طلع صباح يوم الجمعة الثاني والسبعين وهو الرابع عشر من شهر ربيع الاول فحضر عندنا بعض الاخوان والاحباب ونجاذبنا اطراف المسائل العلمية مما عذب وطاب الى ان دخل وقت الصلاة فذهبنا الى المسجد الاقصى وسمعنا خطبة قريينا الفاضل الامام والكامل الهمام الشيخ محمد بن جماعة وقد ادار كل حاضر إليه اسماعه . وكانت خطبته في شد الرحال الى المساجد الثلاثة . وذكر الحديث الوارد في ذلك الامر فحرك شوق القلب واسرع انبعاثه . ثم بعد انصرفنا من الصلاة توجهنا مع الخطيب وغيره من اهل البلاد الى زيارة تربة مأمن الله المسماة ماملان العباد . فمررنا في الطريق على قبر الشيخ غباين واغتنمنا بركة من هناك من السر البايين ثم دخلنا في تلك التربة المباركة . واستشارت قلوبنا بمطايا هاتيك الارواح السائرة المباركة وزرنا قبور اجدادنا اولاد جماعة . وقبر الشيخ المسمى بوجدنا وقبر الكمال ابن ابي شريف وقبر الواسطي وبقية الجماعة . مع قبر ابن الهائم وقبر الشيخ يحيى (١) الدجاني وقبور اولاده وذريته وقبر الشيخ ابي عبد الله القرشي وبجانبه قبر البرماوي رحمهم الله تعالى اجمعين ثم قرأنا الفاتحة لجمع من دفن في تلك الجبانة المباركة من المسلمين والمسلمات . ثم رجعنا فصلينا صلاة العصر في مسجد الصخرة وكثرت ان شاء الله تعالى لنا الحسنات وبتنا تلك الليلة الى ان طلع صباح يوم السبت وهو اليوم الثالث والسبعون . الخامس عشر من شهر ربيع الاول فعزمنا على المسير الى زيارة نبي الله موسى بن عمران عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام في كل آن . فسرنا وسار معنا حضرة المولى الهمام المشار له فيما تقدم من الكلام عطا الله افندي القاضي بمدينة القدس ذات الشرف والاحترام والسيد الحسين النسيب مصطفى النقيب وغيرهم من الاعيان الكرام وجماعات كثيرة فكنا جميعا نحو المأتين من الرجال فمررنا في الطريق على قرية العزيزية وزرنا فيها نبي الله العزيز عليه السلام واطمان بنا الحال . ثم سرنا الى ان وصلنا الى الخان الذي في الطريق فنزلنا ونزل حضرة القاضي وبقية الجماعة في ذلك الفناء العميق فأكلنا ما تيسر من الزاد وانعم الله تعالى بكرمه وزاد . ثم سرنا الى ان وصلنا الى حضرة نبي الله موسى عليه السلام . ودخلنا في ذلك البنيان العظيم وشريف المقام . وشهدنا تلك الهيبة والوقار والعظمة والاحترام وقرأنا الفاتحة ودعونا الله تعالى

وقد انشد المنشد هذه القصيدة المباركة في حال زيارتنا له حول قبر الشريف الذي هو مهبط الملائكة وكانت الجماعة كلهم حاضرين وحننت القلوب لشواهد الغيوب اكمل الحنين ونار وجد عظيم وصار حال جسيم وبكا شديد وشوق ما عليه من مزيد ثم لم نزل في سرور وأنى وكمال ارتياح وتعافى . وبتنا تلك الليلة وبعض الجماعة يقرأ القرآن . وبعضهم يذكر الله تعالى ويسبحه بالقلب واللسان وبعضهم ينشد القصائد الالهية وبعضهم يصلي وبعضهم يدعي الله تعالى بانواع الامنية .

(١) الشيخ يحيى كان ما زال على قيد الحياة، ولا اظن انه يقصد يحيى غيره . وانما يقصد الصالح المشهور «احمد الدجاني» .

وقال الشيخ الامام السيد محمد المشهور بكبريت^(١) المدني رحمه الله تعالى في رحلة الى بلاد الروم وهي رحلة جميع لفظها منظوم حين زيارته للسيد موسى عليه السلام في سنة الف وثلاث واربعين هذا النظام :-

ثم الى قبر الكليم موسى سرنا فشاهدنا الحمى المأنوسا
صلى عليه ربنا وسلمنا ما افتر ثغر الدهر او تبسما
وقد شهدنا في حماه عجبنا احجار واديه تحاكي الخطبا
تشتعل النار كمثل الفحم وعنه تغنى لطبخ اللحم

وفي زيارات الهروي ان في بلد مؤاب في قرية هناك يقال لها شيحان بها قبر ينزل عليه النور ويراه الناس وهو على جبل ويزعمون انه قبر موسى بن عمران عليه السلام والله اعلم انتهى قلت وعندنا في دمشق الشام خارج باب الله بالقرب من قرية القدم تل احمر يقال ان فيه قبر موسى بن عمران عليه السلام وعليه قبة صغيرة من اخشاب وحول التل جدران تحيط به وللناس فيه اعتقاد يزورونه ويتبركون به وقد استوفينا الكلام على ذلك في رحلتنا الوسطى التي سميناهم بالحضرة الانسية في الرحلة القدسية. ثم اصبح صباح يوم الاحد الرابع والسبعين وهو السادس عشر من شهر ربيع الاول فقصدنا المسير الى اريحا ويقال مدينة اريحا. وفي صبح الاعشى للقلقشندي :

والغور يقال انه ثلاثة اقسام غور مدينة زغر وهي وبة جداً وغور مدينة اريحا وغور مدينة بيسان. وكلها جارية في اعمال الاردن. وذكر ياقوت الحموي في المشترك ان الغور بفتح الغين المعجمة وسكون الواو والراء غور الاردن بالشام بين بيت المقدس وحوران من عمل دمشق وهو منخفض عن ارض دمشق وارض بيت المقدس ولهذا سمي الغور طوله نحو مسيرة ثلاثة ايام وعرضه نحو فرسخين او اقل وفيه قرى كثيرة وقصبة بيسان. وفي طرفه الشرقي بحيرة طبرية وفي طرفه الغربي بحيرة زغر المتنته انتهى وزغر بضم الزاي وفتح الغين المعجمة وبالراء كزفر هو اسم ابنة لوط عليه السلام واسم قرية الشام لانها نزلت بها. كذا في القاموس. وقد سار معنا عطاء الله افندي القاضي ومن كان معه من الجماعة. وقد مشينا صاعدين وهابطين على حسب القدرة والاستطاعة حتى سرحنا في ذلك الفضاء الواسع. وشرحنا صدورنا في اشراق نوره القريب الشايح.

ثم وصلنا الى قرية اريحا التي يضاف اليها الغور. فوجدناها قرية قديمة البنا غالبها الان خراب من كثرة الظلم والجور. فلم نجلس بها وسرنا الى ان وصلنا الى منبع ذلك النهر والمكان

(١) محمد بن عبد الله بن محمد الذي ينتسب الى الحسين بن علي بن ابي طالب، والمعروف باسم محمد كبريت (١٠١٢-١٠٧٠ / ١٦٦٠-١٦٠٣) عالم ورحالة من المدينة قام سنة ١٠٣٩ برحلة الى بلاد الروم سماها رحلة الشتاء والصيف. وقد طبعت هذه الرحلة في القاهرة ١٢٩٣ وفي بيروت ١٣٨٥. وقد اطلعنا عليها، ولم يرد في النص المطبوع الايات التالية المنسوبة لمحمد كبريت حول قبر موسى الكليم او مدينة غزة. وليس فيه ما يشير الى أن عمده كبريت زار القدس او غزة أو النبي موسى فهل إن التابلسي التمس عليه الأمر، أم ان النسخة المطبوعة فيها نقص ما، أم ان محمد كبريت كتب هذه الايات في غير رحلته المشار اليها.

المسمى بعين السلطان الزاهي بظله الوريث والزهر فجلسنا هناك بقية اليوم . ونعمنا بما تيسر من الزاد نحن والقوم . وصلينا على شط ذلك الماء الزلال صلاة الظهر والعصر . ونحن في اكمل السرور والانشراح والراحة والنصر حتى قلنا من النظام . في ذلك المقام .

يا رعا الله عين ماء لطيف من اريحا بالغور في في اغصان
قد جلسنا منها بمجلس انس وراينا المنى بعين السلطان

وحدثنا عن اصل هذه العين النابعة في هذا المكان . ونحن في رملة هاشم بعد سفرنا من بيت المقدس اعز السادة الاعيان الفاضل الكامل الشيخ امين الدين (١) المتقدم ذكره فيما نعينه ونخصه . انه رأى ورقة مكتوب فيها ما نصه . هذه صورة ما وجد في ورقة بالية ظهرت في قبو وجد في ظهر راس القصيلة بمحلة باب العمود (٢) وهو انك اذا اردت ان تعرف محل النهر الذي ببيت المقدس الذي غوره حزقيل تعمد الى راس القصيلة من جهة الغرب نحو كذا كذا ذراعا وذكر عدد الاذرع تجد طابقا من رخام وتحت لبابيد مملوءة بالملح وتحت طابق اخر الى سبع طوابق تجد النهر المذكور . وذكر انه لما غوره حزقيل ظهر من عين السلطان التي بغور قرية اريحا انتهى ثم عدنا في وقت العشى الى مزار السيد موسى عليه السلام . وبتنا فيه تلك الليلة في سرور تام . وقد جاء الى عندنا الشيخ فتح الله رئيس المؤذنين بالصخرة المباركة ومعه جماعة وقرأوا لنا المولد العظيم . والاناشيد الالهية المحمدية التي هي كالدرد التنظيم . وعقد بعده مجلس الذكر الشريف . والانشاد اللطيف . والسماع المنيف . وحصل الوجد للقلوب . ولعت في تلك الحضرة بوارق الغيوب . ثم لما اصبحنا في يوم الاثنين وهو اليوم الخامس والسبعون سابع شهر ربيع الاول سرنا قاصدين العود الى بيت المقدس فمررنا على قبر الشيخ الراعي وهو قبر كبير معروف هناك فقرأنا الفاتحة ودعونا الله تعالى ثم سرنا وقد نقطتنا السحاب بلألىء امطارها . ونثرت علينا النسيم منظوم العقود من اقطارها . الى ان وصلنا الى العين المسماة بعين العيزرية فنزلنا هناك برهة من الزمان . نحن ومن معنا من الاخوان . ثم وصلنا الى القرية العيزرية وقرأنا الفاتحة لنبى الله العزيز عليه السلام . بالزاي ثم الرء على حسب ما يقال انه مدفون في ذلك المقام . ثم مررنا على الجسمانية عمارة قديمة متينة في اسفل الوادي فيها قبر مريم بنت عمران فقرأنا الفاتحة هناك ودعونا الله تعالى ثم دخلنا الى مدينة القدس الشريف . وقد تراسل المطر وزاد قطره التزيف . فحجنا الى منزلنا في زاوية القادرية . وبتنا على اتم سرور وأكمل حالة مرضية بمعونة رب البرية . فلما أصبحنا في يوم الثلاثاء وهو اليوم السادس والسبعون ثامن عشر ربيع الاول ذهبنا الى ضيافة المولى الهمام عطاء الله افندى القاضي المتقدم ذكره في محل زيارة نبي الله داود عليه السلام في دير صهيون خارج مدينة القدس فدخلنا الى موضع المزار . وقرأنا الفاتحة ودعونا الله تعالى ثم صعدنا الى ذلك القصر الرفيع والجناب المحمى المنيع . وجلسنا نتذاكر القصص والახبار ونتوارد اللطائف الادبية ورقائق الاشعار الى

(١) امين الدين الخليلي .

(٢) محلة القصيلة ضمن حارة باب العامود آخر مدينة القدس من جهة الشمال وضمنها حارة بني سعد ومحلة القصيلة . وهي شرقي وادي الطواحين (الأنس ٥٤ / ٢) والقصة تظهر مدى تغلغل الخرافات حتى في الفئات المتعلمة .

ان صار وقت الظهر فقدمت المائدة واسرعنا في الطهر. ثم دخلنا الى الحضرة الداودية. فصلينا هناك بالجماعة صلاة العصر ثم قدمت لنا المائدة. فشهدنا مواسم حاتم الطائي او معن بن زائدة. ثم عدنا في العشي الى مكاننا المذكور. وبتنا في اكمل صفاء وسرور. حتى اصبح صباح يوم الاربعاء السابع والسبعين وهو اليوم التاسع عشر من شهر ربيع الاول فعزمنا على المسير من البلاد القدسية. الى جهة الرملة وغزة المحمية. فحضر عندنا علماء البلاد. واعيان الاكارم والاجاد والطلبة والافاضل من اهل الوداد. لاجل حصول الوداع. وان تقر بالادعية منا ومنهم القلوب والاسماع. ثم ساروا معنا الى الخارج وودعناهم وذهبنا في تلك الجبال والاوادية بمصاعد ومعارج.

الخمرة المحسّية في الرحلة القدسية

مصطفى البكري الصديقي

مخطوط مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة

رقم ٣٨٤٠ / رقم التصنيف ٩٠٠/٩٤

(ورقة ١ - ٣٥)

وبعد فإن العبد الفقير والعاجز الحقير مصطفى بن كمال الدين بن علي بن كمال الدين بن محيي الدين بن عبد القادر بن بدر الدين محمد نزيل دمشق بن ناصر الدين محمد شهاب الدين بن ناصر الدين بن بهاء الدين عوض بن عبد الخالق بن عبد المنعم بن يحيى بن الحسن بن يحيى بن يعقوب بن نجم الدين ابي الروح عيسى بن داود بن محمد بن نوح بن الشيخ طلحة سلطان مدينة النبي ﷺ بن السيد الامام ابي محمد عبد الله بن السيد الإمام المجتهد الصحابي ابي الفضل عبد الرحمن بن الامام الاعظم والخليفة المكرم ابي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وارضاه بن عثمان ابي قحافة بن عمرو بن عامر بن سعد بن كعب بن تميم بن مرة جد رسول الله ﷺ يقول بعد التماس القبول:

طال ما كانت تتوجه بي الهمة وتقلقني الاشواق بعزمة إثر عزمة إلى زيارة بيت المقدس الشريف الذي مناره عال منيف لا زال محفوفاً بالطاف اللطيف مأموناً محروساً من كل شيء مخيف، ولكن القدر يعيقني عن ذلك حتى آن اوان المسير إلى هناك فحركت القدرة منا كل ساكن إلى نحو هاتيك الأماكن ذات الطلول الزاهرة والربوع الطاهرة الفاخرة والمعابد ذوات الدلائل الباهرة والمعابد التي فضائلها وآثارها ظاهرة. فكان ذلك في يوم الخميس المبارك الانيس في اليوم التاسع عشر من محرم الحرام الذي هو من شهور عام اثنين وعشرين ومائة والقب. وفيه شرعت بحول طول المعين في رحلة تجمع ما يمنحه المتين وسميتها بالخمرة المحسية في الرحلة القدسية. ولقد كنت يوماً عند شيخنا المرحوم الشيخ عبد اللطيف الخلوتي الذي هو بالرحمات معوم قدس الله سره وجعل في مقعد الصدق مقره فورد على بيتان بشراني بالزيارة ولم تكن لي ببال. وكان ذلك قبل وفاة شيخنا المذكور بنحو ستين او اكثر وانشدتها اياه في الحال وهما:-

نحن اهل القدس والمقام الاقدس
مجلس القرب يقيناً في المعاني مجلسي

فدعنا لنا الشيخ رحمه الكبير المتعال بتحقيق هذا المقال ونيله بالحال، فتوجهنا ذلك اليوم البار مع ركب الزوار والآثار صحبة الخال السيد يحيى حسن الموقع ابن المرحوم الحاج محمد على الموقع فسرنا نحن واياه والبسيط ينشقنا رياه وكان ذلك في زمان الربيع والنسيم لطيب عرفه مذيع والزهر قد باح بسرّه ونشر على العالم مطوى عطره. وركبنا ظهور الرواحل نقطع الفيافي والمراحل وودعنا الأهل والاطوان واشتعل في القلب من الفراق نيران. فلما قاربنا باب الله مراقبين في السر جلال الله صادفنا مجذوبين من ارباب الأحوال ومن اهل الصدق في الاقوال وكنت قد غيرت (اللباس) لثلا يعرفني احد من الناس.

وما برحنا نسير وقد كدنا بالشوق نظير إلى أن صعدا العقبة ولاحت لنا انوار المسجد المحبة، واشرفنا على بيت المقدس المقدس والمنزل السامي النفيس الانفس ونادى هناك من معنا من الغلمان، فرحاً بما بدا حيا الله ما بان، فاحذنا لذلك الطرب والاهتزاز، وكل منا بالسلامة قد فاز. ومنذ شهدت ذلك المشهد الزاهر، الذي هو للعقول سلاب وباهر انشدت في ذلك بحول طول العلي المالك، مفصلاً عن بعض ما لقينا عند القدوم على هاتيك المسالك :-

مناقبه جلّت عن الحصر والعد
علا وتسامى خالص المسك والند
غرام بنا () يجبل عن العد
وابطاله طافت علينا بلا وعد؟
تؤم لتأهيل وتسعى من الوجد
ببشر وافراح وبسط هنا يجدي
وقرى بما نلتيه من مشهد السعد

إلى القُدس الفيحا وردنا وان ذا
وحررنا قريبا نسيم عبيره
ولاخت لنا اعلامه فاستهزنا
ووافت لنا ساداته ورجاله
وقد أقبلتُ ركبانه ورجاله
وفي الوقت اذ لاقت حقيقته لنا
إلى العين قلنا ايها العين أبشري

ولما قربنا من الشيخ جراح^(١) وهب علينا من شذاه المنعش الارواح ما يفوق عبيره الراح
والعنبر والند اذا فاح وانشدت في الحال، وقد تذكرت وارد ذلك الحال :-

يطهرنا التقديس بالوابل الانسي
بها قد غدونا مطلقين من الحبس
على الجرح به نفسي

سلكننا فجاجاً بتغي القدس علنا
وطافت علينا خمرة معنوية
وما زال جراح اشتياقي يزيدني

وحين وصلنا تجاه ذلك المزار وشهدنا ما عليه من المهابة والوقار قرأنا له الفاتحة التي الابواب
لها فاتحة ودعونا الله تعالى ببلوغ الأمنية وحصول القبول بهذه الزيارة القدسية. قال شيخنا في
رحلته الانسية: وهذا المزار في المدرسة الجراحية قال الحنبلي في تاريخه وهي بظاهر القدس الشريف
من جهة الشمال ولها وقف ووظائف مرتبة نسبتها لواقفها الأمير حسام الدين الحسين ابن شرف
الدين الجراحي احد امراء الملك صلاح الدين يوسف ابن ايوب ووفاته في صفر سنة ثمان وتسعين
وخمسماية ودفن بزوايته المذكورة انتهى. فلما وصلنا قريبا من باب المدينة وجدنا بعض اهلها اولي
الانفس الرزينة، قد خرجوا للفرج على الركب من الباب الشامي^(٢)، وكان قد أطفئ بعض لهب
الغرام الدمع الهامي. وعندما اردنا دخول المدينة طلبنا الإذن ممن حلها من اهل المراتب المكينة كما
هو المطلوب من كل داخل وخارج ليكون مطلبه المطلب الناجح ومقصده المقصد الرابع. قال
الشُعْراني^(٣) قدس الله سره في منته: ومما من الله به علي استيذاني لاصحاب النوبة كلما خرجت من
بلدي او دخلت وذلك لاكون تحت نظرهم حيث ما كنت وكذلك لاأطلع القلعة او ادخل بيت
حاكم في شفاعة مثلا حتى اقول بتوجه قلب في اول عتبة الدار التي ادخلها دستور يا اصحاب
النوبة لحيتي اليوم تحت نعالكم فلاحظوني اليوم مع هذا الأمير او هذا القاضي او هذا الظالم فلا
أخرج من عنده الا منصورا الا ان اكون مبطلا والعياذ بالله تعالى. وقل ما يتنبه لهذا الادب من
فقراء الزمان بل ربما ينكر بعضهم اصحاب النوبة ويظن أن اصحاب النوبة هو وامثاله وهو جهل
وغلط اذ لا يلزم من كون احدهم مسلما أن يكون من اصحاب النوبة كما يعرف ذلك من له ادنى

(١) المدرسة الجراحية التي مر ذكرها.

(٢) باب العمود.

(٣) عبد الروهاب بن احمد الشعْراني (٨٩٨-٩٧٣ / ٤٩٣-١٥٦٥) من قلقشندة بمصر. من علماء المتصوفين له تصانيف في
التصوف والفقهاء الخ منها لطائف المنن وهو مطبوع ويعرف بالمتن الكبرى (الاعلام ٤/١٨٠).

خلطة بالاولياء، وأطال في ذلك. وكنت قد لبثت بثياب الخفا، راجيا منه تعالى حصول الصفا، فدخلنا المدينة بالذل والسكينة، ونزلنا نحن والخال في دار قريبة من الحرم، في مكان صالح لنا عند رجل شريف من اهل الكرم يقال له السيد محمد الطواقي، كان الله له من كل سوء واقبي، فقام بخدمتنا اتم قيام، ونصب بجوارنا للمؤانسة فروع (؟) خيام. وكان اهل بيته يكرمونا غاية الاكرام، ويرءفون علينا رافة الوالدة على طفلها حالة السقام. وكان بهذا المكان منزل الخال من قديم، لما يلاقي من اهله من الاكرام والتعظيم. ثم لما سكن بالراحة من الروع والجاش، قلت للخال قم نزور الحرم لنحظى بكمال الانتعاش. فتأهنا الى ذلك بالطهارة والخضوع، وسكبنا على سالف الذنوب من الدموع ثم سرنا لذلك الحرم المحرم، والمسجد الأقصى المبارك المعظم، ودخلناه متشحين بالذل والانكسار، وصعدنا سطح الصخرة العالي المنار فنظرنا فإذا ذلك السطح المنور يزيد على جامع بني امية في الكبر، والنور انتشر في اكنافه، وقد عم ساير اطرافه، والمسجد يزيد على الأموي بأكثر من خمس مرات ويفوق في حسن بنايه ما بني وما هوأت. ودخلنا الصخرة الشريفة بقصد الزيارة والتعظيم، والالتماس البركة الحافظة زوارها والتكريم، وصلينا هناك بخضوع وخشوع المغرب والعشاء، ورجعنا الى الدار وساكن الوجد في القلب فشا، وبتنا في منزلنا تلك الليلة، والليل قد ارخى علينا ذيله، إلى أن أصبح الصبح وبان، وعنا العنا والنصب قد بان، فعكفنا على الزيارات الباقية في المسجد الأقصى ونراسل التردد ونواصل الامداد الى ما لا يحصى. وكنت ملازماً فيه على الخمسة اوقات بالجماعة، وانا ملتحف برداء الخفاء كل ساعة، وكنت في اغلب الاوقات اجلس في الدار، اكتب تارة واطالع فيما معي من الكتب خوف الاشتهار، ولم يصحبي في تلك الايام الا بعض كرام اقوام منهم أخونا الفاضل الاديب الماهر اللبيب احد التجار المعتبرين، السيد علم الدين العلمي جعله الله تعالى بمن كل سوء حمي، فكان يتردد على الحال في بعض الاحيان ويسمعنا من جوهرى لفظه بديع البيان، والشيخ السالك طريق السادة الخلوئية والمسلك على نهج طريقتهم المرضية الشيخ يحيى الدجاني، منحه الله التذاني، خادم نبي الله داود، عليه الصلاة والسلام من المعبود، وقد دعاني الى دار الضيافة المعمورة التي هي بامدادات الخليفة سيدي داود مغمورة، ولم نصعد ذلك الدرج الا بعد انتشار عبير الارج، والزيارة المقصودة بالذات لانها جامعة للذات، ثم تكررت منا التوجهات الى زيارة هذه السدة العلية الرفيعة الشرفات وما زلنا بين كر وفر، في حر وقر، تتردد على هذا المقر إلى أن حانت ايام الموسم الكليمي الكريم وتوجه الركب الى ساحته فسرنا. . . (١).

وعاد الصديقي الى القدس بعد زيارة النبي موسى ومضى يقول:

ودخلنا من باب حطة للقدس ثم زرنا الخليفة الاعظم (النبي داود) لما اشرفنا على قبة ضريحه الافخم وكذلك سكان جبل الطور ومريم العذراء انس الجفون والتمتع بزيارة الصخرة والأقصى وكنت في اغلب الاحيان اجلس في احد شبابيك الأقصى العتيقة المطلة

(١) نقلنا ما كتبه مصطفى البكري الصديقي عن زيارته مقام النبي موسى في ايام الموسم في كتابنا موسم النبي موسى في فلسطين، ص ١٦٦-١٧٠ فلا حاجة لتكراره.

على جبل المكبر وحديقة الخاتونية وانعم بها من حديقة ، واصحب معي الدواة والقلم واكتب للتسلي ما يجريه منزل نون والقلم . فما رسمته في ذلك المجال في وصف المسجد الذي تشد اليه الرحال

(شعر في مدح المسجد)

وكنت اصلي اغلب الاوقات مع امامنا الحنفي فيها (١) . . . وفي بعض الاحيان انزل الى المغارة مع الاجلال . . . وكنت احيانا لا استطيع النزول لثقل موارد الواردين فيها من الفحول ، وعلامة ذلك عندي نفرة خاطري واقشعرار جلدي فمتى رأيت ذلك رجعت ولم اكابر ادباً مع من حل فيها من الاكابر . واخبرني بعض ممن له في الصدق قدم فقال : إنا نبئت فيها للحراسة اربعة انفار فنتام في التوبة فنسمع احياناً قرقرة باب الجنة مثل قرقرته بالنهار فنذهب اليه لننظر ما الخبر فنراه على حاله مقفلاً لا عين ولا أثر . واخبرني أيضا انه اخذ مرة سجادة المحراب فاذا برجلين يقول احدهما للآخر خذها من غير ازعاج ولا اضطراب فاخذها من تحت راسي ، وكان في تلك الليلة عقلي راسي فلم تحرك ولم اجد مشقة وسمعت لوقع راسي على الارض طقة فزال من الوحشة عن عيني المنام . وبعد ساعة جاءوا بها ووضعوها تحت رأسي بحسن إلام هكذا اخبرني بما يقارب او يؤدي المعنى بهذا الكلام . وكنت في تلك الايام احضر درس شيخنا الشيخ محمد الخليلي (٢) بلغ المرام واجلس من بعيد بحيث اسمع ما الذي به يفيد فاذا سمعت الأذان في المنارة بادرت للصلاة وعدت للزيارة وحيثاً اصلي خلف الشيخ المذكور . . . وكنت ملازماً في تلك المدة على القيام في السحر وقراءة ورد الاستاذ الأفخر جلال الدين محمد البكري (٣) الأزهر المسمى بحزب الفتح ، وهو ورد جليل المقدار نافع في جلا البصائر والابصار . .

واذا بهواتف الزوار تهتف بزيارة الخليل فسرنا مع ذلك الموكب الجامع وصحبنا الغفرية ليوصلونا الى هذا النور اللامع ، وعندما مررنا على ضريح أبي ثور (٤) قرأنا الفاتحة .

. . . وفي ثاني يوم غب الوصول (الى القدس من الخليل) الى الديار ذات الانوار الرفيعة المنبئة الأطوار ورد الصديق المحب بالسماع ذو الوجد والحب والالتياح السيد محمد نجل السيد عبد الله السلفيتي يسلم علي ، وما كنت اعرفه . . . فعرفني بنفسه والحال ووقعت الألفة الجنانية في الحال . . . وسرنا معه الى زيارة سيدي اشمويل عليه الصلاة والسلام ورافقنا فتح الله الدجاني ونور الدين السعدي . . . وصلينا المغرب بعد زيارة لتلك الحضرة العالية . . . وصعدنا الى سدة ، رفيعة بنيت بالاحجار المنبئة وصلينا العشا في تلك البقعة الميمونة . . . وكان مع الصديق المشار اليه الحكم العطائية فاستفتح يقرأ فيها فتح الله علينا وعليه المنح العطائية (٥) . . واسترحنا

(١) في مغارة الصخرة .

(٢) من كبار علماء القدس وكبار الصوفية في وقته ، قادري الطريقة (١١٤٧/١٧٣٤ . تراجم اهل القدس ، ص ١٤٥) .

(٣) فقيه مصري صاحب مؤلفات ولد ١٤٠٤/٨٠٧ وتوفي ١٤٨٦/٨٩١ ، (الضوء الرمع ٧/٢٨٤ ، الاعلام ٦/١٩٤) .

(٤) اجدادنا . . . ص ٩٥ .

(٥) لاحمد بن عطاء الله الاسكندري المتوفى سنة ٧٠٩ . وهي حكم منثورة على لسان اهل الطريق (كشف الظنون ١/٦٧٥) .

باخذ المضاجع ساعة وقمنا لاداء الصلاة بالجماعة وودعنا صاحب المكان فرحين بموارد الاحسان وركبنا صباحاً جياذ الخيل . . . وفي ثاني ليلة والتي تليها اجتمعنا في خلوة الدجاني في الحرم نتذاكر فيها فما مضت مدة حتى كثرت العدة ففررنا من المحل لغيره خوفاً من الاشتهار . وبعد ايام طلب السيد محمد «السلفيتي» الطريق فادخلناه على الاستخارة . . . وتبعه صديقنا نور الدين بطلب الوصلة في الطريق . . . ثم جاء السيد مصطفى بن عقبة واخوه عبد الله وطلبنا اندراجا في هذه المنهج المستنير الابهج . . . وكنا نجتمع معهم في الخلوة النحوية ونقرأ الاوراد . ومكثت في تلك الخلوة ثلاثة أشهر وايام لم اكل فيها ليلاً عيني بمنام وكذلك اخواننا الكرام بلغهم الله المرام . وكنا نذهب احيانا معهم الى اخريات المسجد لنشتغل بالذكر والمذاكرة . . . وفي كل ليلة نذهب الى محل مختص بالزيارة لاجل احياء تلك الليلة بانفس طيارة ، فتارة نقصد نبي الله داود عليه الصلاة والسلام ووقتا طور زيتا وأوانا مهد عيسى عليه الصلاة والسلام اواباب الرحمة لنيل الرحمة والانعام وتارة للأقصى الرفيع المقام . . . واما جبل الطور فهو جبل النور والهنا والسورور مضت لنا فيه ايام كانت بارقات احلام نتهامى في قصوره بين ولدان وحور ، فانه جبل جامع لما لا يُحصى من انبياء الشكور . وكنا نبين في الاسعدية^(١) ذات العوارف والطوارف الندية التي بناها جناب المرحوم اسعد افندي مفتي ديار الروم باسم الشيخ محمد العلمي المدفون فيها . . . وكنا بعد ما نصلي الصبح والاشراق نذهب لزيارة سيدي سلمان الفارسي ذي الاشراق . . . ونعود فنزور رابعة التي في رياض الجنان رائعة . . . ونزور بباب الرحمة اولى السعادة والرضوان والرحمة ونخص سيدي شداد بن اوس وعبادة بن الصامت . . . وذهبنا مع اخواننا الكرام الى زيارة العزير عليه الصلاة والسلام . . . وبتنا عنده ليلة بدرية . . . ورافقتنا فيها المحب المجذوب الشيخ عبد الله العربي المطروب المولّه في الجمال يغلب عليه الجلال واذا تلاه (القرآن) يترنم ودموعه منحدرة له كرامات تدل على انه من ارباب الاحوال . . . وكنا عشرة انفار واكثر . . . وكان بعض اوباش القرية الجالسين في صف النعال مرادهم الأذية بانفس ذنية ولو بسرقة النعال فدفعهم الله بحوله وقوته عن الاغتياح وحمانا من شرهم الكبير المتعال . . . ولم يثبت اذ غلب النعاس معي في السهرة الا الأخ السلفيتي ونور الدين السعدي . . . وتوجهنا لزيارة سيدي شمويل عليه الصلاة والسلام مرة اخرى على الاقدام باقدام وخلعنا النعال للادب والاحترام من نصف الطريق الى ذلك المقام . . .

وبعد مضي ايام قصدنا زيارة راس ابي زيتون^(٢) فعدنا الى عتباته عليه الصلاة والسلام نرتجي الفيض اهتون وسرنا في الصباح وقد ركبنا متون الخيل للقصد الجليل . . . ولما وصلنا بيتونيا^(٣) اكرمونا غاية الاكرام لأن اولاد الدجاني صحبونا للدلالة على المقام . وبهذه القرية وقف

(١) الزاوية التي تضم قبر القطب محمد العلمي على جبل الطور (اجدادنا، ص ٩٩).

(٢) مقام ابي زيتون ، وهو احد الاولياء ، يقع قرب قرية بيتونيا في منطقة رام الله - القدس ، وعلى بعد خمسة كيلومترات غربي القرية المذكورة ويقال إن الشيخ زيتون من الرجال الصالحين المجاهدين (بلادنا فلسطين ٢/٨ ، ص ٣٧٢).

(٣) تقع بيتونيا في ظاهر بلدة رام الله الجنوبي وفيها جامع قديم . ومن مزاراتها مقام السيدة نفيسة ام الشيخ احمد الدجاني ، وقد بني على ضريح السيدة نفيسة قبة كبيرة فيها مسجد (بلادنا فلسطين ٢/٨ ، ص ٣٧١) اما الشيخ احمد الدجاني فهو متصوف كبير ، وجد عائلة الدجاني المعروفة . كان له كثير من الاتباع والمريدين . توفي في القدس سنة ٩٦٩ . (الكواكب السائرة ٣/١٢٠ ، شذرات الذهب ، ٣٥٥٨).

الصخرة ذات الاحترام ولهم فيها شركة عن جدهم . . . وزرنا والدة ام الشيخ احمد الدجاني رحمها الله تعالى ومنحها كامل التداني وصعدنا الى المرقد الذي حلت فيه . . . ورأينا عندها عبداً اسود من المجاذيب ينفر عن الناس نفار الوعل او الذيب . واخبرت انه يوحد النار حتى تعود حجرا وينام فيها حتى تحمد بنفسها ولا يألف زيدا وعمراً . . . وعزمنا على البيات واجتمعت على ذلك النيات . . . ولما فض ختم تلك الليلة الانيسة بعد فجرها توجهنا نحو الربوع القدسية لنشارك اهلها في كامل أجرها .

[زيارة مقام الولي علي بن عليل على شاطئء يافا ثم قرى نابلس كسلفيت وعورتا وجهات بني صعب ومدينة نابلس نفسها حيث اقام اربعة ايام «في خانها المعهود» وبعد ذلك عاد الى القدس].

وبعد اخذ الحظ من هذه الكرة ونيل البسط التام مع المسرة اقمنا في خلوتنا على العادة وعدنا لما كنا عليه من استعادة وافادة، وجاني صديقنا الشيخ محمد المكنى بابي فردة تلميذ الشيخ علي عزون تلميذ الشيخ قاسم السفيناني بللوشا، وسبب تسميته انه كان يلبس فردة على ظهره متجرداً من ملابس اهل دهره فرأى علي فروة ذات ثمن واثوابا حسنة فقال: أهكذا كان لباس صاحب الأخلاق المرضية والافعال المستحسنة فقلت له ما معناه اللباس الحشن يتخذة القوم زهداً في الدنيا ورغبة في العقبى، لكن قد يكون اللباس الحشن غير زاهد القلب ولا لبس الحرير متصف بذلك عار عما هنالك وقلت في ذلك المعنى لمن كان معنا . . . ليس التصوف لبس الصوف والخلق بل التصوف حسن السمعة والخلق .

وقد دعانا الأخ نور الدين السعدي لداره مرات عديدة باذلا في الخدمة جهده مظهراً المحبة الاكيدة وادخلنا التكية المولوية فتمتع الطرف في تلك الروضة الانسية . وكان ممن اخذ الطريق وانتسب لهذه الطائفة العلية الحاج علي شعال السلطانية وطباخ التكية الخاسكية . والمذكور كانت له محبة قلبية ونغمة في الورد السحري مرضية لانه كان يبتدى به من داره لاشتغاله بالشغل والطبخ ويحتمه وهو مشتغل باطوارة واطواره، وكنت ارى عليه اثر المحبته غير أن همّ العايلة اتعب قلبه . . . ولما هل هلال شعبان . . . طلب الاجوان وصية ينتفعون بها تجمع معظم الاركان وبعض شروط الطريق الراجح الميزان فاجبتهم لذلك وسميتها (الوصية الجليلة للسالكين طريق الخلوتية) . . . وكان ممن أخذ الطريق في الجملة الحاج محمد بن نسيبة .

. . . ولما عزمنا على المسير وتحلف الخال بحكم التقدير خرجنا معه الى ان ودعنا الصخرة والأقصى . . . وسار معنا اخواننا الى رؤس المشارف^(١) . . . وعند الوداع كادت تطير القلوب فرقاً وتدوب . . . وسرنا نقطع الفيافي بركب صغير والحق يهون العسير بفيضه الغزير ومدده الكبير الى ان دخلنا دمشق الشام ليلة النصف من شعبان . . .

[استغرقت الرحلة حوالي سبع اشهر من ١٩ محرم الى ١٥ شعبان ١١٢٢]

(١) التل الذي يقع شمالي القدس مباشرة بينها وبين قرية شعفاط (ويدعى ايضا الآن جبل سكوس).

الخطرات الثانية الانسية
للروضة الدانية القدسية
للشيخ مصطفى البكري الصديقي
مخطوط مكتبة عارف
بالمدينة المنورة

[من مجموع مؤلفات الشيخ الصديقي، ورقة ٣٦ - ٥٠]

وبعد فيقول العبد الجاني والقن المتواني مصطفى بن كمال الدين منحهما الله حلول المغاني بن علي بن كمال الدين سبط آل الحسينين . . . الصديقي نسباً الحنفي مذهباً الخلوقي مشرباً القادري ادباً . . . لما زرت البيت المقدس والاركان في الثاني والعشرين من القرن الثاني (اي الثاني عشر ١١٢٢) من هجرة النبي الرسول العدناني انبسطت روحي وتشعشع جناني بثالث الحرمين ومن هو للقبلتين ثاني، وألفته نفسي وتعرفه حسي لوفور أنسي بالمسجد السليماني . وكنت اشاهد فيه بسطاً زائداً وحظاً ولحظاً للمعاني قائداً وسروراً آخذاً بالزام . . . وذكرت بعض ما جرى فيها . . . في الرحلة الموسومة بالخمرة المحسية في الرحلة القدسية . . . احببت ان اسمى هذه الرحلة القدسية ذات العيون الترجمية «الخطرات الثانية الانسية للروضة الدانية القدسية». وقبل المسير للمعبد المنير والمعبد . . . بالتذكير الفيضاني جاء الخبر وظهر وانتشر أن عرب الصقر اهل الضرر منعوا السبيل السلطاني، فتوجهت الى زيارة شيخنا المرحوم الغارف من البحر الوفائي والمشارف على البر الفوقاني الشيخ عبد اللطيف البدركاني والنجم الشعشاني وجلست عند ضريحه وعرضت عليه ما سمعته آذاني . . . فقاحت حالاً رايحة عطر سيسباني (١) ففهمت اشارته من أن الطريق فيه امان واماني . . . ثم إني ودعت اسلافي واجدادني واخواني وتوجهت أوائل شعبان المبارك عام ستة وعشرين وماية والف احسن الله ختامه بمنه وكرمه أمين، ورافقتي بهذا المسير الأعظم والسفر المسفر بالحال المنير الأنور الأخ في الله تعالى ابراهيم بن حسن الدكاني والولد الانجب الارشد اسماعيل بن رجب، وكل منهما حرساتي، وحرستي هذه بلدة الصاحب الثاني لامامنا الاعظم عملي القناني . وكان يؤجر البغال للركوب وحمل الاثقال رجل يقال له العرمان فتوجهنا معه الى قرية عرطوز.

[ثم وصف خط سيره على الطريق السلطاني الى سعسع والقنيطرة ثم اتجه الى ارض صفد وجب يوسف ثم المنية وعيون التجار فجنين فنبلس فالبيرة ثم قال].

وسبق اشخاص الى المدينة (القدس) واعلموا اخواننا بقدم أنفس مدينة فتلقتنا منهم جمع مشارف عند رؤس المشارف وزرنا الشيخ جراح وسعد وسعيد واستاذنا صاحب البلد سيدي داود ذو التأييد عليه وعلى ولده الرشيد صلوات وسلام البر الرشيد . وسألنا مَنْ وَقَد عَمَّنْ تخلف وما قصد، فقيل انهم تألفوا على الغير ولذا تخلفوا فقلنا: لا نكره لهم حسن السير، ختم الله لنا ولهم بالخير.

وكان السيد احمد القادري البغدادي نَزَلَ الخلوة الرصاصية (٢) التي كنا نزلنا فيها في الخطرة الاولى الاختصاصية، وقد كثرت الوراد من اهل تلك المهاد وزارنا السيد احمد وزرناه، ومن جاء للسلام مع اخوته الكرام السيد احمد الموقت . . . ولما قرب شهر الصيام وارسل بشايره للقيام دعانا بعض المحبين لضيافته في الحرم واكثر فيها من دعوة المشايخ وأرباب الخدم . وكان الشيخ احمد

(١) السيبان شجيرة صغيرة، لها رائحة زكية، تستعمل اوراقها لمعالجة الاسهال.

(٢) قرية على طريق دمشق حمص، وسط بساتين دمشق (معجم البلدان ٢/٢٤١).

(٣) انظر معاهد العلم (رباط بيرم ص ٣٢٤).

الموقت ممن حضر فاختلفت به درجة في ذلك المحضر وسألته عن عدم مجيئه بعض يوم وليله فأعلم ان الحيا يمنعه . . . وعندما دخل شهر الصيام ونزل علينا بمعسكره والخيام انتقلنا الى خلوة السيد جار الله القريبة من مصفة العوافي لثلا نعكر على شيخنا الشيخ محمد الخليلي المصافي بالذكر والاوراد الصباحية فيما يستعمله من النصائح الحكيمة بعد الصلاة الفجرية . وكنا نتعاطى امر الزاد للغربة في دار الأخ السيد مصطفى بن عقبة . وكان خَلَقُ من الخواص والعوام يحضرون قريباََ بهيام منا ويستمعون الورد السحري وحسن ذلك النظام، منهم الأخ الأجد الشيخ احمد . . . ومن دعانا وكرر الدعوة الشيخ نور الدين الهواري وقاضي البلدة كتحذا زاده . . . وبعد انقضاء شهر الصوم ومضى عوم فيه ياله من عوم (!) في اواسط شَوَالِ قدم الوزير المرحب . . . رَجَبَ باشا واليا^(١) . وفيه توجهنا صحبة السيد احمد القادري المقرب إلى زيارة الكليم عليه الصلاة والسلام . . . وكان معي الأخ الحاج ابراهيم . . . وحين هجم البرد ودخل الشتاء وكان الحاج محمد نسيبة من مصر أتي فقلنا لدار الاوضة . . . واقتصرنا عن الجمعية بالناس ما عدا من يقصدنا من اخوان وكانت نقلة ميمونة وحرمة فيها بركة مأمونة ومن جذبته نظرة النينا . . . الاخ الشيخ عبد الحق نجل الشيخ نور الله (الجماعي) . . . وغيره من اخوان واحباب وأخوان . وموقتنا والهواري لم يقطعا التردد عن دارى . . . وتردد علينا إمامُ الوزير محبنا ابراهيم افندي الخطير . وحَضَرَ ليلة عَمِيَا فنال فؤاده الإحيا . وطلب الوزير المذكور الجمعية فأجبت بشرط أن تكون في المغارة الألمعية، ومنها تعلق قلبه وازداد بناحبه . وتشاغل تلك الايام في كتابة «الضياء الشمسي» لنيل المراد، وامرت الأخ الحاج سلامة بنسخ ما اكتب منه لشرب جامه . . . وربما قابلت ما كتبت ليلا وزدت بعض ما يظهر ميلا فعاتت المبيضة مسودة . . . وكان الهواري يأتينا وهو متواري وربما ساعد وما تباعد . وبيضت فيها «الورد الطارق واللمع الفارق» وجمعت في هذه الدار جميع الموارد من كل شارد . . . وكنت وانا في الديار الشامية السامية الاشراق اكتب ما يرد على في اوراق والبعض أبقيه والبعض ألقيه في النار للاحراق، فانتيقت ما جمعته مما هنالك راجيا أن ينتفع به السالك . وقد توعدك مني المزاج ثلاثة ايام لدمٍ هاج فجاءني الرئيس محمد بعلاج فناسب وحصل الابتهاج سقاه الله من الشراب الوهاج . وحين اشتد البرد وامتد سح الامطار طلب اخوان كبار وصغار دخول خلوة على جاري عادة السيار الطيار فاجبتهم لذلك راجيا رضا المالك مدليا علي قوس العقد الذي في بوابه الدار بساطا لثلا يدخل الضوء والهواء الضار، وامرت الطلاب أن ينفرد كل واحد في خلوة ولو باحرام او إزار لتتحقق لهم بالوحدة المسرة . . . وكان ممن ترجى الدخول الولد الملتحق باهل الحق الشيخ عبد الحق فاقمت بيت خلوته عن يميني وجعلته فيها . . . خازني واميني والسيد احمد بن ابي النصر رتبته اماما في هذا القصر وجعلته على يساري . . . وامرت الحاج ابراهيم أن يتقيد في الادوار مع كل مستقيم وان يغلق الباب مخافة قصاد كثيرة ولا نفتحه الا قبل الغروب لاجل طبخ الحريرة، وأن يحضر عقب العشا وانقضاء الوارد في الخلوة البيرومية لأجل أن يسمعنا قصايد إنشاد . فكان إذا جاء وشدا وغنى فاطرب بما حدا ربما يغلب الوجد فنطلب سكان العراق ونجد، واذا راق الليل وطفح

(١) وقد توثقت صلات البكري مع هذا الوالي وسافر معه الى مصر بعد سنوات قلائل (المرادى / ١٩١-٩٢).

من السرور الكيل ربما نزمزم بميل ونكفكف . . . وقد حظينا في هذه الخلوة الطيبة . . . باوقات رايقة وبريقات فائقة سيما بعد قراءة السحر . . . وما كانت تلك الايام الثلاثة الا كبراقات احلام استنسر فيه من الهيام بغات الدماتمة ويوم التمام ، وردت اخوان كرام وحضروا العشاء وقد زال الغشاء ، ثم إن الصديق الذي للاعادي تمقت الشيخ احمد نجل الشيخ محمد الموقت اشتهى دخول خلوة في الاوضة الصغيرة التي كنت أنام فيها بعين قريرة فتبعه الأخ الشيخ اسماعيل الكسير والشيخ نور الدين المفرد والفقير . ولم تسع الاوضة غير هؤلاء الاربعة ثم صار البواب ابن نسيبة ووقعت عليه في الامامة القرعة ، وكان الطالب على اليمين ونور الدين على الشمال بيقين والولد اسماعيل في القرنة الثانية فبتنا بجنة قطوفها دانية . . . وعندما انتصف ذو الحجة توجه الوزير لمعان للملاقات الحج العطر على طريق معان ، زائراً في سيره خليل الرحمن راجيا من مولاه به الأمن والأمان عليه وعلى اولاده الكرام الف صلاة والف سلام . ولقد رأيت بعد مدة في المنام وحصل منه اكرام تام واستقبال وبشاشة بحب وهيام ، وخلع على الفقير ثلاث خلع عظام فاخرجت له من عبي السيوف الحداد وقلت له خذ هذا واحتفظ عليه تبلغ المراد . ولما استفتت غلب على ظني انه يحارب العرب وانه في خطرته يغلب ولا يُغلب لأن السيوف الحداد صارت في يده إذ اخبر بذلك لما عاد من سفرته . وبعدهما خف سح الامطار وعم الربيع وجه الارض في الاقطار . . . تحركنا للزيارة الخليلية . . . فسرنا ودهمتنا . . . قطاع الطريق عند القيبة ولكن الله سلم بعنايات الهية . . . (وكان ذلك في صفر سنة ١١٢٧ ، شباط ١٧١٥) ولما نما الربيع وقع الإذن الكريم بزيارة السيد الكليم عليه الصلاة والسلام . . . وتأهبنا للنزول لنحصل حظاً وأنسا واعدت المتوجهين سبعة عشر نفساً . . . وكنا في خلوة تحتية ولصيقنا في اخرى الشيخ احمد صحبة اخيه الشيخ محمد ، ومعهما الشيخ عبد المعطي في اخرى مرعية والسيد خليل الامام بالأقصى في اخرى السنية . . . وتأخر عنا الشيخ محمد الخليلي كان الله منيله امانيه ومنيلى وصحبنا مغربي خفيف مغرى بذكر سيدي عبد الله الشريف . وكان القمر علا ونوره ملاً الخلا ، وهذا المغربي يدور حول جامع الكليم وبذكر الجلالة والمهابة يصبو موهاً ومهيم . . . [وبعد اقامة في المقام استمرت ثلاثة عشر يوماً زار البكري في رجوعه نبي الله العزيز وبعد ليال توجه لزيارة «الخليفة» داود] وكان الوزير المشار فيما تقدم اليه (رجب باشا) فتح باباً في الزيارة فتح الله عليه وعمل الستارة منحه الله مما لديه ، واحيا وقف الخليل وادار سماطه الجليل . وعمر نبي الله اشمويل ، حُبي البرّ الجزيل وقصر من الصخرة المغارة وفرشها وارخى عليها ستاره .

وكنت انتقلت الى البيرومية لما دخل فصل الربيع وجعلت البيات في الخلوة الصيفية .

[ويصف الشيخ بعد ذلك زيارته للسيد على بن عليل قرب يافا] . . . ثم إن الأخ السلفيتي من اتخذته في هذا السير دليلي هياً لنا ما يلزم في زيارة المسجد المعمور المحترم العليلي . . . وتقدمنا الى حافة الجبل المشرف على الشط . . . فبيننا نحن على تلك الربوة جلوس نسرح الطرف في ذلك البر والبحر المحروس ، وقد طاب الوقت وغاب داعي المقت ، واكلنا ما تيسر وتفرق ذلك المعشر ، وإذا اعلام واشارات في السهل بادية وخيول تتجاري فقلنا اسود ضارية فجأت الرفاق . واصطفوا

للفرقة اصطفا فاقيل الشيخ محمد الخليلي قادم للزيارة من يافا، فنزل للقاءه الأكثر فرحين بقدمه الأزهر واستقبلنا خارج المحل منشرحين بالجمعية فقال إني لما قيل فلان هناك اسرعت بالزيارة الارضية قلت له إنه في الخطرة الاولى . . . «اجتمعنا بالشيخ نجم الدين الخيري وفي هذه بكم فالحمد لله المنمي خيري» .

تم زار يافا بدعوة من الشيخ الخليلي ونزل في قصره على شاطئ البحر ثم عاد الى مقام سيدنا علي وكفر سابا ثم جيوس ثم عزون ثم عاد للقدس].

حضر لدينا الأخ السيد محمد السلفيتي ذو الوجه الانضر وتوجه معنا إلى زيارة نبي الله شمويل بحر الوفا والصفاء والنعمة والنيل وبتنا ليلة طيبة . . وفي الصباح ورد خبر قدوم الوزير المعترف فجعلنا العود من غير طريق لثلاث نراه فليزمننا لديه بالتعويق . ولما وصلنا الحرم وجدنا المقال صحيحاً فحمدنا الله تعالى تصريحا وتلميحا . . . وغب صلاة الاشراف وقرأة وردها في الحرم اتينا الدار لناخذ من الزاد ما المولى به قسم واذا برسول الشيخ محمد الخليلي ومعه كتاب يدعوني الى الزيارة ملوحاً أن جناب الوزير طلب ذلك وصرح وامرنا باحضار اخواننا ومن الينا ينتمي فعدنا مع الأخ احمد والسيد محمد السلفيتي المفرد والشيخ نور الدين و ابراهيم ، وشممت في المسير الى الزيارة عَرَفَ طنطور الجندي . . . ولما اذن العشاء . . . اجلسنا (اي الشيخ الخليلي) لديه وقربني اليه وامر بالذكر . . . وجلس هو فوق المصفة لسمع التهليل والتكبير . . . وفي نصف الشهر المقدم الأحب خرجنا الى الشيخ بادار^(١) مع كل محب ومحبة واقمنا بجواره في كرم فسيح ، ومعنا من الأخوان كل اغر صبيح ، وكان الشيخ نور الدين كرر طلب الطريق واحلته على الاستخارة فلم ير ما يليق ، فتمت في ذلك المكان الدار كعادتي حيث اكون في الدار . . . فرأيت جناب الشيخ محمد المزطاري في بستان قرب بابه جالس يتكلم على إخوانه في رفيع تلك المجالس ، ومعني الأخ الشيخ نور الدين المشار اليه ، فجلست في الحلقة أتملى بوجه الشيخ مقبلا عليه ، وغالب جماعته بل كلهم مغاربة . . . وهو يتكلم على جماعة الشاذلية بالنصائح الوفاية .

وما زلنا نتردد على الخليفة (داود) احيانا اذ مدده الممتد على وجودنا أحيانا، وعلى الطوراناً فانا .

في شعبان ١١٢٧ حضر الأخ السيد محمد السلفيتي . . . وتوجهنا صحبته وبقية الاخوان الى التكية الهمة المسماة بالادمية وطلب هناك الأخ الامجد السيد محمد ارجوزة في الادب فاجته لذلك . . . ثم اتي بعد ايام لفتت الأخ الامجد الشيخ احمد الاسم الرابع وعملت له كسوة بيضا عازما على لباسها له ليلة السفر وتخليفه على الجماعة ايضا . وفي ليلة الثلاثاء السادس والعشرين من شعبان بت مع الجماعة في الطور . . . وخلصت بالأخ الامجد . . . وسبق من ايام تلقيه الاسم

(١) بادار بن عبد الله القونوي البصير نزيل القدس . كان يتكلم على الناس بقبة السلسلة بصحن الصخرة . ت ٧٨٠هـ وقبره عند مدخل قرية لفنا شمال غربي القدس (الانس الخليل ١٦٠/٢) .

الرابع والباسه الكسوة. ولقنته الاسم الخامس. وكان الاخوان وقفوا عند الدرج وفرشت سجادتين عند مرقد العلمي. . وقبل النزول قرأت فاتحة لارباب الوصول فشعر القلب والفؤاد الصادي أن الرجال ملأت ذلك النادي. . امرنا من حضر من الاخوان. . بالذهاب الى الجامع وعمل المحيا الجامع للبرق اللامع واخبرنا الأخ الشيخ عبد الحق الجماعي قال: ما رأيت جلالة نور بالماعي مثل ليلة التخليف والنيابة. .

[وفي اليوم التالي سافر الشيخ البكري ومعه السلفيتي ومصطفى بن عقبة في طريق العودة الى دمشق ومروا بنابلس فودّعهم الأخ السلفيتي وعاد الى القدس، وواصل الركب سيره الى دمشق].

موانح الانس في رحلتي
لوادي القدس

مصطفى اللقيمي الدمياطي

مخطوط - الجامعة الاردنية - ٩١٥٦٤٢٠٤ ر

(ورقة ٢٠ - ٣١ و ٤٤ - ٦٠)

. . . فوافينا المدينة قبيل العصر وقد قابلتنا بشائر التهاني بالمسرة والنصر فوقفنا وقرأنا الفاتحة عند الباب واستأذنا في الدخول من بها من الاوتاد والانجاب فان ذلك من حسن الادب معدود كما نص عليه الشعراي^(١) في العهود. وللمدينة سور محكم البنيان بديع الشكل في الصناعة والاتقان وله ستة ابواب منيعة غريبة في الوضع بديعة وهي باب الاسباط وباب الساهرة وباب العامود وباب الخليل وباب داود وباب المغاربة

ودخلنا المدينة من باب الخليل وحاد الانس بالسعد لنا دليل فنزلنا بمنزل قطب دائرة الافلاك الحسينية واسطة عقد العصابة الهاشمية خلاصة السادة الاشراف وصفوة بني عبد مناف . . . استاذ كل استاذ وملاذ كل ملاذ مولانا السيد مصطفى البكري الصديقي قدس الله سره الشريف . . . فوالنجم اذا هوى انه لجميع المحاسن قد حوى وهو الذي يقتدي به المقتدون . . . واستأذناه في التوجه الى الحرم والحما الرفيع المنيع البديع المحترم فتوجهت الى ذيك المقام وحظيت فيه بحسن المقام . . . وما برحت في الحرم الى العشا معتكف ورجعت لبيت الاستاذ عمدة اهل الاصطفا ثم لما اشرفت الشمس وانجلت وتجلت برونق حسنها وازدهت توجهت لشيخ مشايخ الاسلام وعمدة العلماء الاعلام ذي الاخلاق الشريفة المرضية مولانا الشيخ محمد الخليلي عمدة الائمة الشافعية . . . ولما رأني مقبلاً قابلني بوجه بالسرور متهللاً فقبلت يده الشريفة واستمطرت سحب دعواته المنيفة وتنزهت في روضته الانيقة مجتنباً من أزاهر علومه العبيقة منهلًا من جدوله الغديقة كؤوس علوم جمعت بين الشريعة والطريقة والحقيقة ثم فرض لي حضرة الاستاذ الصديقي خلوة سنية على طرف سطح الصخرة مقابلة للمدرسة السلطانية . . . وفي يوم الاثنين زرنا محل ما ربط البراق وعليه من المهابة والجلال ابهى رواق ونزلنا الى اصطبل سليمان عليه السلام ومنه الى المسجد القديم ذي الاحترام ثم انعطفنا الى مهد عيسى لنحبي برؤيته نفوساً وقرأنا به سورة كهيعص والمنقذات والسبع المثاني ودعوت الله تعالى ولاخواني ببلوغ المنى والاماني ثم ارتقينا سور المسجد من جهة الصراط المظل على وادي جهنم الذي ذكره يقطع من القلب النياط فاذا به مقبرة طائفة من اليهود ودليل الغضب عليها شاهد ومشهود . . . ثم توجهنا الى باب التوبة والرحمة لعل بولوجهما يحصل لنا تمام الرحمة وقرأنا بينهما مع ام الكتاب سورة الحديد بمناسبة قوله تعالى في القرآن المجيد «فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب»^(٢). قال بعض المفسرين هو سور بيت المقدس باطنه باب الرحمة وظاهره وادي جهنم. انتهى. والسور المذكور المحيط (محيط) ببيت المقدس وبالمسجد من جهة القبلة والشرق. والمسجد المذكور متسع جداً وطوله قبلة بشام من السور القبلي الى صدر الرواق الشمالي ستمائة وستون ذراعاً وعرضه شرقاً بغرب من السور الشرقي المظل على باب الرحمة الى صدر الرواق الغربي اربعمائة وستة اذراع، والصخرة على سطح بوسط المسجد طوله قبلة بشام مائتان وخمسة وثلاثون ذراعاً وعرضه مائة وتسعة وثمانون ذراعاً. والصخرة في وسطه عليها قبة عظيمة باربعة ابواب وللمسجد احد

(١) للشعراي كتاب عتوانه: البحر المورود في المواثيق والعهود.

(٢) سورة الحديد، الآية ١٣.

عشر باباً وأربعة مناير^(١) وبه سبعة وأربعون صهريجاً للماء وبركة كبيرة بوسطها كأس من المرمر تجاه باب الأقصى . وبالمسجد عدة اشجار من زيتون وغيره تنشرح بها الصدور وتنجلي برؤيتها سحاب الهم عن القلب المصدور . ومظهر هذا المسجد مظهر جمال كما أن الحرم المكي والمدني مظهر جلال وكمال فلا يحيط بما في المسجد الأقصى من حسن الاوصاف الا من حل هماء وبارجائه طاف . وهذا المسجد احد المساجد الثلاثة التي تشد اليها الرحال الوارد في فضله كثير من الآيات والاحاديث والآثار وقد استوفينا جملة صالحة منها حسب التسهيل في كتابنا الموسوم بـ «لطائف انس الجليل في تحائف القدس والخليل» ثم في عصر هذا اليوم المبارك الذي فيه الهنا للمسرة شارك توجهت مع بعض الرفقا الاصحاب اللابسين حلل اللطافة والادب الى القلعة التي زاحمت بمنابها الافلاك وكادت سكانها تسمع تسييح الاملاك فصعدنا الى محل الزيارة مقصود به محراب نبي الله داود فتبركنا بآثاره السنوية وانتشقتنا عبير روايحه الزكية وقرأنا سورة (ص) كما فعل امير المؤمنين عمر بن الخطاب عند فتحه ودعونا الله تعالى راجين نفحة من نفحه ، ثم ارتقينا الى اعلى القلعة بشباك كانما لصيد النسيم شبك وبارض ذلك الشباك البديع الاحكام حجر غاص فيه ذراع داود عليه السلام فلتثمت تلك الاثر بجفون العيون .

ختام ذي القعدة الشهر المذكور^(٢) المفتح بالهنا والمختتم بالسرور يمينا زيارة طور زيتنا الاقدس لنقتبس نور الضياء من مشكاة سناه المقدس فطلعنا من باب الاسباط ونحن والرفقاء الرفاق في غاية الانبساط وتواردت علينا عواطف المسرات الجملة حين مررنا بمقبرة باب الرحمة وزرنا بها من السادة القادة خصوصا الصحابين هما شداد بن اوس وعبادة رضي الله عنهما وعن كل الصحابة اجمعين ثم انعطفنا نحو الجهة الشمالية ومرينا بذيل الجبل بالكنيسة الجثمانية المدفونة فيها مريم ابنة عمران^(٣) فوقفنا بها وقرأنا ما تيسر من القرآن هدية لجنابها ثم صعدنا الى جبل الطور والوقت يلحظنا بعين السرور فلما ارتقينا ذروة ذراه وشاهدت ميين سناه ودخلت مصعد عيسى وحيدا بمرآه تأنيسا سجدت لله شكرا وانشدت في ذلك شعرا فكيف لا يكون هذا الجبل انيساً وقد رفع منه روح الله عيسى وبجانب مصعد عيسى زاوية نحوي برؤيتها نفوسا وباسفلها ضريح الشيخ العلمي وزوجته ، وردناه لنستقي من مناهل حضرته . وقريب منه مكان مانوس يقصده الزوار فيحوزون به حل الرموز وكشف الاسرار لديه مغارة سنية بهية بها قبر العارفة بالله رابعة العدوية وكنيتها ام الخير من اعيان عصرها اخبارها في الصلاح والعبادة مشهورة وهناك قبر الصحابي الجليل الاسنى من ورد في حقه «سلمان منا» وهذا هو سلمان الفارسي بن الاسلام رافع الولاية والاعلام وانت خير بما اسلفناه في هذا المسطور عن صفات المناوي الامام المشهور بأن مقام سلمان الفارسي بسدود وعنده مقام سيدي ابراهيم المتبولي مشهود

(١) مآذن .

(٢) سنة ١١٤٣هـ / ١٧٣٠م .

(٣) الصحيح أن الجثمانية ، لا الجثمانية ، مجازوة لقبر مريم عليها السلام والقبر ليس فيها ، وانما هي مقدسة لان عيسى عليه السلام كان يجتمع فيها مع الحواريين ومعنى الجثمانية معصرة الزيت .

.. ذكر شيخنا السيد الصديقي في رحلته القدسية في زيارة جبل الطور : وكنا بعد ما نصلي الصبح والاشراق نذهب لزيارة سيدي سلمان الفارسي ذي الاشراق. وقال في رحلته العراقية بمناسبة نقلا عن الامام الشعرائي في ترجمة سيدي ابراهيم المتبولي انه دفن عند سيدي سلمان الفارسي بسدود وقد خلج عليه شهرته انتهى . وقال في الرحلة المذكورة في محل آخر: ثم سرنا الى أن وصلنا الى ايوان كسرى وتعديناه الى مرقد الامام الهمام سلمان الفارسي المقدام ثم توجهنا الى قرية العيزرية في الساعة وهي قرية من الطور نحو نصف ساعة وزرنا بها نبي الله العزيز عليه السلام بمسجد سما بالمهابة والاحترام . هذا هو المشهور أنه العزيز بلا دليل . .

.. دَعَانَا لِلتَّهْزَةِ دَاعِي وَهُوَ رِئِيسُ الْخُطْبَا بِالْاَقْصَى الشَّيْخِ نُورِ اللهِ الْجَمَاعِي فَتَوَجَّهْنَا مَعَهُ إِلَى بَسْتَانٍ نَفَحَتْ أَزْهَارُهُ وَخَطَبَتْ عَلَى مَنَابِرِ أَيْكِهِ أَطْيَارَهُ^(١) فَبَيْنَمَا نَحْنُ فِي لَذَّةِ الْاِنْسِ نَحْتَسِي كَأْسَهُ الرَّحِيقِي وَإِذَا السَّعْدُ يَبْشُرُنَا بِوَفُودِ اسْتَاذِنَا الصَّدِيقِي فَتَبْتَسِمُ لَنَا مِنَ الزُّهُورِ الثُّغُورِ وَبَدَأَ لَنَا فَمَ الْمَسْرَةَ مِنْ وَرَاءِ السُّتُورِ وَاتَّمَعْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ الْهَنِي بِهَذَا الْمَجْلِسِ السَّنِيِّ نَلْتَقِطُ دَرَّ الْفَوَايِدِ وَنَجْتَنِي ثَمَرَاتِ الصَّلَةِ وَالْعَوَايِدِ فَلَعَمْرِي هَذَا هُوَ الْمَجْلِسُ الْحَقِيقُ بِذِكْرِ أَهْلِ الْاَشَارَاتِ وَالتَّوْفِيقِ . .

[من ورقة ٣١ - ٤٤ يصف اللقيمي زيارته لمدينة الخليل ومنطقتها وكذلك بيت لحم، ويفيض في الحديث عن قصص الانبياء الذين زارهم في الخليل وحلحول وبيت لحم وغيرها ثم يصف طريقه حتى عاد الى القدس] ثم يقول:

وفي يوم الاحد حركني داعي الغرام الى زيارة خليفة الله داود عليه السلام فسعيت الى وادي هاه الرحيب ونزلت بسوح مربعه الزاهي الخصب ثم لثمت اعتاب تلك السدة المتبعة ودخلت .. [هذه الورقة مضموسة كلماتها فلا تقرأ]

.. وفي يوم الاثنين المفتح بالسعد والمختتم بالسعادة بشرت بنيل الحسنى وزيادة وحصلت لي العواطف الرحمانية بانتظامي في عقد اهل الطريقة الخلوتية فلقنتني حضرة الاستاذ الاعظم الاسم الاول وقت الغروب عند باب الرحمة وامرني بالاشتغال به والاستعداد لدخول الخلوة لتتم لي النعمة فادخلني الخلوة بمنزله ليلة الثلاثاء وقت العشا راجياً من الله تعالى الفتح وكشف الغشا فمكثت بها الى غروب يوم الخميس وطلعت منها ليلة عيد الله الاكبر^(٢) الانفس النفيس لاشهد الجمعة في هذا المقام . فيا حبذا تلك الليالي العظام حيث كنت بالمسجد الشريف الأقصى وعواطف الرحمة تترادف بروادف انس لا يخصص فاحييتها وجمع الاخوان بالذكر وتلاوة القرآن وجلسنا تكبر بعد صلاة الصبح الى أن طلعت الشمس وارتفعت قدر رمح وامتلأ المسجد بالخاص والعام مستمنحين من موائد الفضل والانعام وصلى الامام صلاة العيد، وبمئبر الصخرة خطب فتحققت النفوس هنالك ببلوغ الارب، وقد قرئت بذلك العيون وفي ذلك فليتأسف المتأسفون . . . وفي يوم السبت ثاني العيد الذي صار فيه الهمة خلقت والانس جديد سرت الى بئر

(١) يقول احمد سامح الخالدي في كتابه رحلات في زيارات الشام ص ١٠٣: تروّج انه قصر الخطيب بوادي الجوز.

(٢) عيد الاضحى، ١٠ ذي الحجة سنة ١١٤٣ .

أيوب وعين سلوان مع اصدقاء يرتوى بحديثهم الظمان فانجلت عنا سحائب الكروب مُد اشرفنا على بئر ايوب المشار اليه في محكم الكتاب بقوله تعالى «اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب»^(١) فشربنا من مائه المعين وغدونا بآثار ايوب عليه السلام متبركين ثم وردنا عين سلوان والقلب من فرط السرور نشوان ونزلنا بدوح ظلها نروي القلب من نهلها وعلها واغتسلنا فيها مطهرين من الأوزار مماثلين لما ورد به الآثار فعن ابي هريرة مرفوعا ان الله «اختار من العيون اربعا عين بيسان وعين سلوان وعين زمزم وعين عكا»، وعن ابن سعد : «زمزم وعين سلوان التي ببيت المقدس من عيون الجنة» ولما حصل الانس بهذا المقام وحان من ذلك اليوم التمام سرنا فمررنا على قبري زكريا ويحيى عليهما السلام بذيل جبل الطور بقبتين بديعتي الاحكام المقول فيها طرطور فرعون وكوفية زوجته كما هو مشهور وزرنا الزاوية الأدهمية البديعة الاتقان وانها من العجائب وليس الخبر كالعيان . وزرنا ضريح الشيخ جراح فالتأم بزورته من القلب الجراح وقرأنا الفاتحة لسيدي سعد وسعيد ودخلنا مغارة الكتان اذ كانت غير بعيد ثم رجعنا الى الخلوة لنجتلي بها حسن الخلوة

وفي يوم الخميس ختام العام ذهبت بعد العصر بصحبة اعزة كرام الى مقبرة مامل مدفن الخلاصة الابرار الوارد في فضلها الأخبار والآثار. فعن الحسن أن اصلها ما من الله وأن من دفن فيها فكأنما دفن في السماء. فزرنا من بها من السادات ووقفنا باعتاب تلك القارات كالشيخ عبدالله القرشي وابن رسلان وابن الهمام وابن جماعة الكبير الشان والشيخ الدجاني والكمال بن ابي شريف كما ذكره الحنبلي صاحب تاريخ القدس الشريف وغيرهم ممن محيت من قبورهم الآثار ولم تزل تتلى في الكتب الاخبار فقرأت لهم ما تيسر وختمت بالسبع المثاني ودعوت الله ببلوغ المنى وحصول التهانى

[حول زيارته لمقام النبي موسى - انظر كتابنا «موسم النبي موسى في فلسطين ص ١٧٠ -

«١٧٢»]

. وفي يوم الاربعاء عشري شهر المحرم^(٢) دعانا شيخنا الشيخ الحلبي الأكرم لزيارة ولي الله المجاهد ابي ثور فسرنا قاصدين جنباه على الفور فوصلنا الى قريته المعمورة التي هي باندية فيض امداده مغمورة فوقفنا بسوجه تجاهه رحابه واهدينا ما تيسر من القرآن لعليا جنباه . قال صاحب انس الجليل : (هنا سيرة ابي ثور منقولة عن الانس الجليل) ثم توجهنا الى ارض البقعة بعد ذلك ، واقمنا بقية يومنا هنالك نحسني كاسات الانس والسرور ونجتلي من روض رياض شيخنا المذكور^(٣) ما دق من ثمرات الفوائد ويانعات الزهور . وهذا الوادي هو الذي رأى فيه النبي ﷺ ليلة المعراج الآيات كما اخبر به شيخنا المذكور وهو من ثقة الرواة وذوات الثقة . وقد

(١) سورة «ص» ، الآية ٤٢ .

(٢) سنة ١١٤٤ .

(٣) الشيخ الحلبي .

كان بهذا الرادي قصور وبساتين محتها توالي الايام وتعاقب السنين فلم يبق الا اخبارها والتأسف على حسنها ورؤية آثارها . . .

وقرأت على شيخنا ذلك اليوم بقصره المأنوس كتاب ابن عطاءالله المسمى بتاج العروس^(١) الذي اشتمل على حكم عجيبة وامثال غريبة منها: من اكثر من مجالسة اهل هذا الزمان فقد تعرض لمعصية الله تعالى . . . ثم وصلنا سرور ذلك اليوم المشهود بالمبيت بسوح خليفة الله داود عليه وعلى جميع الانبياء صلوات ونحية . . وجلسنا تجاه مقامه الكريم نتدارس القرآن العظيم الى أن يرق ضياء الفجر ولاح . . وقد اطلعت في تلك الليلة على كتاب «الاعلان في تفسير ما انبهم من القرآن» للعالم العلامة النبيل ابي القاسم السهيلي الجليل . .

وفي يوم الخميس بعد صلاة العصر مع الجماعة دعاني الاستاذ^(٢) الى باب الرحمة فاجبت بالسمع والطاعة ولقنتي الاسم الثاني للسادة الخلوئية فكان لي بذلك وفي نعمة سنية . . ثم أمرني بالخلوة بالحرم المقدس الانيس فدخلتها ليلة الاثنين وطلعت يوم الخميس . وكان حضرة الاستاذ يحضر عندي في بعض الاحيان ويسألني عما حدث لي بهذا الشأن فاخبر عما يرد لي من الموارد وما اشاهده في تلك الخلوة من المشاهد فيشترني تارة وينذر اخرى لانه اعلم بالغيب وصاحب البيت ادري . . ثم لم ازل بالبيت المقدس ارتع في روض حماة الاقدس الى غاية شهر محرم الحرام (١١٤٤) وانا في غاية الانس وترادف الانعام اطوي الليالي بمسامرة الأذكار وأنشر الايام بمصاحبة السادة الأخيار . وكنت غالب الاوقات معتكفا بالمسجد الأقصى . . وفي بعض الليالي انزل تحت الصخرة بذلة وخضوع . . وقد حدثني نفسي ليلة (ان أنام) بالمقام لاجتلي الانس من وراذ هذا المقام فاستأذنت في ذلك من بها من الخدم الذي ثبت له في صحبتي اوثق قدم فاجابني هنالك قائلاً: لا قدرة لك على ذلك . فبعد صلاة العشاء بهذه الرحاب نزلت اليها وقد قفلت من قبة الصخرة الابواب وجلست تجاه القبلة . . ثم استفتحت بتلاوة القرآن العظيم راجيا ختمه في هذا المقام الكريم . فلما أن وصلت الى سورة آل عمران ورد علي وارد كاد أن يطيش مني الجنان فصعدت على السرعة من شدة الجزع وكدت أن اسقط من توالي الفزع . . واقبل الخادم الى نحوي مسرعاً . . فسألته عن ذلك السبب فقال لي: هذا جلال من يرد هذا المقام من اهل الرتب . . .

«تحفة لطيفة في حقيقة الصخرة الشريفة» :

فانها صخرة في وسط المسجد قد انقطعت من كل جهة لا يمسكها الا الذي يمسك السماء تقع على الارض الا بإذنه وهي مائلة من جهة الجنوب وفي الجهة الثانية اثر اصابع الملائكة التي امسكتها حين مالت حين ركب النبي ﷺ البراق وقد بني تحتها بناء تطمينا لمن ينزل تحتها . وعليها قبة في غاية الحسن والاتقان لا يدرك وضعها إلا من شاهدها بالعيان، وهي من الاماكن المأنوسة

(١) كتاب في الوصايا والعظات لابن عطاء الله الاسكندري المتوفى ٧٠٩/١٣٠٩ .

(٢) البكري الصديقي .

اللطيفة والمحلات الماثورة المنيفة. وقد ورد في فضلها احاديث وآثار وقد شاع ذكرها في جميع الأقطار . . .

وكم بهذا المسجد النفيس من مَشْهَدٍ ومعهد أنيس، فمنها قبة المعراج ذات الضياء والنور الوهاج، ومحل رؤية ﷺ الحور العين عن يمين الصخرة الشريفة بيقين، وموضع ما صلى بالنبيين والملائكة في تلك البقعة المباركة، ومحكمة داود عليه السلام وهي قبة السلسلة ذات الاحكام، ومهد عيسى ابن مريم الذي نور سناه قد عم، والصخرات التي وقف عليها سيدنا سليمان حين اتم بناء المسجد ودعا فاستجاب له الرحمن، ومحراب نبي الله داود ذو الجلال المشهود، ومحراب نبي الله زكريا اذ دعا الله به دعاء خفياً، وبثر الورقة المشهور وسوق المعرفة الغير المنكور، وموضع مصلى الخضر عليه السلام كما شاهد ذلك بعض الائمة الاعلام. فلعمري لو شاهدت تلك المشاهد ورأيت انوارها بتلك المعاهد لبكيت حسرة وتأسفا حيث كنت عنها في سالف الزمان متخلفا ولقرعت سن الندم حيث فاتت: ذلك المغتتم. فلقد قال بشر الحافي^(١) الولي الهمام: «لم يبق عندي من لذات الدنيا الا أن اكرن بالمسجد الأقصى».

ولقد اجتمعت حال مقامي بالقدس بائمة سادة فحصل لي بصحبتهم الحسنى وزيادة فمنهم الامام الكامل صاحب النسب الباذح والحسب العالي الشامخ فرع السلسلة العلوية وثمره الشجرة الشريفة البكرية . . . استاذنا الاعظم وملاذنا الاكرم مولانا السيد مصطفى البكري الصديقي . . . واجتنت من حدائق روضه اسراراً ومنحني من موانحه امداداً . . . ومنهم مجمع مجرى الشريعة والحقيقة ومصدر اهل السلوك والطريقة خلاصة اصحاب العلوم والعلامة الجهد الامام مولانا الشيخ محمد الخليلي الشافعي المذهب . . . فكنت ارد لمجلسه كل يوم بين العصرين فاسمع منه فوائد تقر بها العين واجلس معه في حلقة الذكر يوم الجمعة بسطح الصخرة . . . وحضرة مولانا الشيخ المذكور فضله في جميع الأقطار مشهور وهو مقصد ذوي الحاجات وموصوف باجابة الدعوات . . . ومنهم صاحب الطبع السليم والحال المستقيم والفهم الذي يسبق هبوب النسيم جامع الاخلاق السنية وحادي الفضائل المتحلي بحاسن العفاف والشيم ومن له في حل المشكلات اثبت قدم مولانا الشيخ الموقت^(٢) بحرم القدس المالكي المذهب المحيط ببقية المذاهب بلا لبس، فطالما كنت اجتمع بحضرته الشريفة وتجري ما بيننا مباحث علمية لطيفة وأنه يدعن للحق حيث ما دار ويعرف به ويرجع اليه بلا انكار . . .

. . . ومنهم المتجرد عما سوى الله في التوجه الى المناهج السنية اللابس من لباس التقوى اشرف حلة بهية الحادي علوم الشريعة والحقيقة والآداب السالك من طرقها مسالك الصواب الامام العالم الاوحد الرباني العارف بالله مولانا الشيخ علي الداغستاني الشافعي طالعت عليه جملة

(١) من الزهاد والصوفيين الاوائل. اصله من مرو. قدم بيت القدس، وانقطع للعبادة فيها. ولد سنة ١٥٠ وتوفي سنة ٢٢٧.
شبر الغرام، تحقيق الخطيمي، رسالة جامعية ص ٤٢١ [١٩٨٥]، الاعلام ٤٢-٥.
(٢) احمد بن محمد المتوفى سنة ١١٧١/١٧٥٧. تراجم اهل القدس، ٢٢٣-٢٣٤.

من الرسالة القشيرية بالمسجد المقدس بالمدرسة السلطانية، وهو ممن له قدم في العبادة والزهد والصلاة والصوم ومعرفة تامة بآداب التصوف في اصطلاح القوم فلا يخلو مجلسه من حكمة يديها ووصية من وصايا القوم يروها . . . ومنهم فخر المدرسين الانجاد السالك في سبيل الاسعاف والامداد الفاضل البارع والكامل المتواضع وارث الفضل والمجد في الحقيقة عن أب وجد العلامة ابو بكر العلمي^(١) مفتي السادة الحنفية بالديار الشريفة القدسية بيننا وبينه صلة ارحام من الجد الأعلى العزّ بن عبد السلام وقد حصل ما بيننا وبينه من الصُحبة كمال الألفة ومزيد المحبة . . . ومنهم العمدة الفاضل والامام الكامل المتقي العابد الناسك الزاهد مولانا الشيخ عبد المعطي^(٢) الهمام سالك طريقة الائمة السادة الاعلام الملازم للمسجد بالمدرسة النحوية فلا يخرج منه الا لحاجةٍ ضروريةٍ مشتغلا بنسخ الاحاديث والآثار وان له شهرة بضبط الكتابة في تلك الأقطار.

وفي يوم الاحد المبارك غرة صفر الخير عزم حضرة استاذنا الصديقي على السفر والسير الى ناحية نابلس الفيحا وواديها وزيارة من حل من الانبياء والاولياء بساحة ناديها فطلعت معه مصاحبا وكنت الى متابعتة راغباً . . فصليت ركعتين بالمسجد مودعا، وأضحى الفؤاد بفراق هاتيك المآثر مروّعا، وخرجت من المسجد الشريف باكيا . .

(١) ابوبكر بن احمد بن صلاح الدين العلمي . مفتي الحنفية . توفي في استانبول ١١٤٤/١٧٣١ (تراجم اهل القدس ٢٥١، بلك الدرر ٤٩/١).

(٢) عبد المعطي الخليلي (تراجم اهل القدس ١٧٥-١٨٥).

الروضة النعمانية في سياحة
فلسطين وبعض البلدان الشامية

الجزء الثاني

اورشليم او القدس الشريف

نعمان القساطلي المتوفى سنة ١٩٢٠

مخطوطة دار الكتب الظاهرية بدمشق رقم ٤٩٢٠ خط

[موضع القدس وسكانها وصنائعها واحوالها الاجتماعية] :

ان مدينة اورشليم او القدس مبنية على اربعة جبال وهم صهيون ومُريا واكرا وبزيتا، فالجانب الجنوبي مبني على صهيون والشرقي على مُريا والجنوبي^(١) على أكرا والغربي^(٢) على بزيتا. وهي الى الشرق بانحرافٍ الى الجنوب عن مدينة يافا، وتبعد عنها نحو خمسة وثلاثين ميلا، وهي في طول ١٨ ٣٥ وعرض ٣٨ ٣١. وعدد سكانها الآن نحو اربعين ألف تقريبا اكثرهم من اليهود السكناج المتغربين منهم ٦٠٠٠ مسلمين و ١٢٠٠٠ مسيحيين من جميع الطوائف إفرنج ووطنيين والباقي وهو ٢٢٠٠٠^(٣) يهود وطنيين وسكناج. وربما في وقت قصير سيزداد عدد سكان هذه المدينة كثيراً لكثرة المهاجرين اليها من اليهود الذين يأتونها من اقطار العالم. وكل ابنية هذه المدينة من الحجارة ولا يعمل فيها شيء من الأخشاب سوى ابواب البيوت والخزائن. ويحيط بهذه المدينة إلا من الشمال وما يليه اودية منها إلى الجنوب وادي ابن هنوم^(٤) وإلى الشرق وادي يهو شافاط^(٥) وبه قرية سلوان وعين سلوان وبستان الجسماني وبجانيه الشمالي والفاصل بينهما طريق جبل الزيتون كنيسة مشتركة بين الروم والارمن والقبط والسريان اسمها كنيسة المريمية. ويقولون ان مريم العذراء مدفونة بها. وفي هذا الوادي مقبرة اليهود الحالية وقبور كثيرة قديمة تعتبر من آثار هذه المدينة واغلبها يستحق الاعتبار لعظمته الباقية رغم كرور الأيام لتكون شاهداً على اقتدار سكان هذه المدينة الاصلين. وسوف يأتي الكلام عن ذلك مع الكنيسة المذكورة في ما نخصه للكلام عن آثار هذه المدينة.

ثانياً : وبما أن قصدنا الآن ان نتكلم عن احوال هذه المدينة بنوع مفيد نقسم ذلك لاقسام لزيادة الفهم فنشرح اولاً في الكلام عن احوال اهاليها من كل الأوجه بنوع مختصر غير انه لا يضيّع شيئاً من الأهمية فنقول : ان سكان هذه المدينة من امم مختلفة ولغات ومشارب متباينة، وقلما توجد طائفة من المسيحيين في العالم ولا تجمد منها في هذه المدينة إن من الوطنيين او من الاجانب، وكذلك يقال في طوائف اليهود. واهل هذه المدينة، خلا الإفرنج منهم وبعض طايفة البروتستانت (التي يبلغ عدد رجالها نحو خمسة وعشرين، واشهرهم عائلة الجمل التي هي معظمهم^(٦)) واغناهم عودة عزام وبالبقية اكثر مستخدمون؟ اكثر عايلة بيت الجمل لاجل خدامة الانجيل والمدارس^(٦)، يحبون التنعم بمال الاحسان وان يكن بعضهم غير محتاج ذلك، فانك ترى نفس الاغنياء منهم يسكنون في بيوت خاصة الأديرة والاقواف مجانا. وكثيرون من الاهالي يأخذون خبزاً معيناً وخلافة

(١) الصواب: والغربي.

(٢) بزيتا هو شمال شرقي المدينة، منطقة باب حطة، وحارة السعدية.

(٣) هذه الأرقام كلها تقديرات غير دقيقة، وهي جزافية. واكثرها من تقديرات الاجانب، وتناقضها السجلات العثمانية الرسمية.

(٤) وهو وادي الرّبابة.

(٥) وادي سلوان، وقديما وادي قدرون، وادي جهنم (عند المسلمين).

(٦) الجملة كما نرى غير واضحة تماما.

من الاديرة، والمسلمون من الحرم الشريف واكثر المسيحيين لهم رغبة في دراسة اللغات الاجنبية غير انهم لا ينجحون بذلك نجاحاً يُعْتَد به . ولا يوجد بينهم من درس اللغة العربية حتى درس سوى قلائل جداً من بعض ابناء العرب، تلامذة مدرسة المصلبة المختصة بدير الروم . والصنایع قليلة جداً بهذه المدينة فلا يوجد فيها سوى ما قل كصناعة البناء ومتعلقاته التي يرغبها اكثر المسيحيين . ولا بد لهذه الصناعة من أن يوافيها يوم ما تقف به حركة محورها لانه لا يخفى بأن دورها الان متوقف على البنيات (البنيات) الكثيرة الحديثة خارج سور المدينة . وبلا شك ان هذه البنيات ستأخذ في يوم ما حداً نهائياً فتقل الاشغال بهذه الصناعة ويصبح اصحابها في تشكي من عدم الاشغال، كما حدث في دمشق بعد ان تم بناء حارة النصارى التي ضربت في حادثة سنة ١٨٦٠ مسيحية، وصناعة الكنادر والنجارة غير انها لا تحسب صناعة مهمة لعدم لزومها للابنية واقتصارها على شغل بعض اخشاب من الزيتون تباع على الزوار وأكثر صناعاتها اجانب، وصناعة الصابون واكثر فعلتها من الفلاحين، وصناعة الشمع والصور غير انها لا يحسبان صناعة لعدم اهميتها وخصوصاً في هذا الزمان الذي اخذ كثيرون من اهله في مقاومتها . ويوجد خلاف ما ذكر بعض صنایع قليلة لا يعتد بها . واهل هذه المدينة ينتظرون وفود الزوار ليتزقون عليهم ويتعيشون . فيا حبذا لو انتبهوا من هذا النوم الثقيل وشخصوا حالة مستقبلهم المعد لهم، وسعوا في إدخال الصنایع لبلدتهم والتمسوا ذلك من أديرتهم والمحسنين اليهم الذين يبذلون جهدهم في سبيل افادتهم وطلبوا معه أن يصير إدخال العلوم الرياضية الى مدارسهم الكثيرة غير مفيدة (المفيدة) الفائدة المطلوبة واشتغلوا بمساعدتهم في ذلك فينجون من ويلات المستقبل الذي معد لهم . وكنت اظن بأن هذه المدينة في مقدمة المدن السورية ان في التمدن او العلوم او الاعمال، ولكن لما زرتها وجدت بها ما ينافي أفكارى وصرت أرى بأن مدينتنا دمشق الشام التي كنت احتسبها في اقصى درجات التأخر تعد أوروبا بالنسبة لهذه البلاد واعتبارها عند سكانها كاعتبار أوروبا لكثرة الصنایع والاعمال التي تصدر عنها وان تكن قاصرة من اوجه كثيرة . وتجارة هذه المدينة ضعيفة واكثرها اذا ما قلنا كلها بيد الفرنج واليهود^(١) . ولا يوجد شيء يصدر عنها سوى الصابون وبعض الصور ومسابع واكثرها من اشغال بيت لحم التي سيأتي الكلام عليها . وجميع أهل هذه المدينة الا ما ندر منهم يفرطون في إدمان المسكرات وهم قوم لا يحبون الغرباء وقد اجمعوا جميعهم على ذلك . واذا نظرت احد الغرباء مألوف من احدهم فيكون ابتلافة طمع الوطني اما بماله وعرضه او دينته (ديانته؟) . ويكثرون في التكلم عن بعضهم وقلما تجد احد منهم يتكلم عن آخر في مغيبته الا ويصغي له، ولو كان من اعز اصداقيه . والفحشا في هذه المدينة كثيرة وارغب الناس بها نساء المسلمين وبعض النصارى واليهود ووسائل استمئال قلوب الرجال اليهن كثيرة غير انها في اغلب الاحيان لا تأتي بغايتها المطلوبة، وذلك لاسباب اما مخافة من مرض يعقب او لعدم تأثير منظرهن في قلب من يقصدون إلقاءه في حبايلهن لان اكثرهن سمر الالوان وليس لوجوههن تكويننا

(١) هذا يناقض الاحصاءات التجارية التي اجراها في هذا الوقت المهندس البريطاني ورن Warren وغيره . انظر كتاب الكسندر شولس، محولات جلدية في فلسطين، ترجمة كامل العسلي، ص ١٥٥ .

حسناً يتكفل بجذب القلوب اليهن . والجميلة بينهن قليلة . وارغب شيء في مذهبهن هذا الردي الشبان الشماليون ، فانهم يملن اليهم جداً وخصوصاً الدمشقيون

* * *

[بعض المواقع الاثرية القديمة والعلاقات بين الطوائف المسيحية].

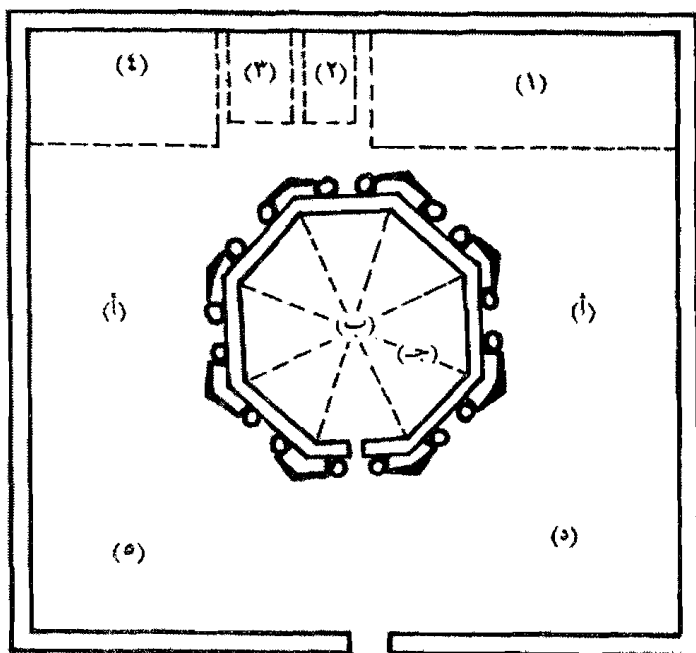
ثم يوم السبت في ٢٢ أيار غربي سنة ٧٥ (١٩) زرت محلاً في القدس خارج سور المدينة عند باب العمود على طريق الشام . في الجانب الايمن من الطريق حاكورة . وفي وسط الحاكورة حيثما حفر صاحب تلك المحلة لغرس بعض الاشجار وجد آثار بناية عظيمة ففتشها واذا بجدار ممتد لمسافة وبجانبه الشرقي وجد مَعْلَقاً فْتَبَعَهُ فإذا بجانبه معالف كثيرة . ومن هذا يستدل بأن دير استفانوس المشهور في تاريخ القدس كان هناك ، وكذلك الخان الذي يذكره المؤرخون ويسمونه بخان الحمير . وقبل أن يستكشف الخان المذكور الذي لم يدع شكاً عنه وجود الدير المذكور هناك ظن بأن الدير كان هناك لاجل مغارة رهبانية موجودة من زمن ينوف عن الخمسة عشر سنة ونيف؟^(١) وهذه المغارة منقورة بالصخر ، وهي من الاشغال المسيحية لان القبور بها كالصناديق . وهذه العادة لم تكن موجودة قبلاً في هذه البلاد لانهم كانوا يضعون موتاهم على وجوه القبور التي كانوا يعملونها ذات مصاطب وهي كالبيوت . وما وجد في جميع الآثار القديمة قبور كالصناديق سوى في مصر . ومن ذلك نستنتج بأن تلك العادة كانت محصورة في المصريين فقط . وبعد ذلك (انتقلت؟) للمسيحية حيث يوجد قبور مثل هذه في الاديرة الشمالية في بلاد سوريا وخلافها . وقد نظرت قبوراً مثل هذه في بلاد غزة ، ولكن يرجح بأنها من قبور المسيحيين القداما

وقد وجد صاحب تلك المحلة هناك حجارة كبيرة مربعة ومستطيلة ورؤوس اعمدة وقطع اعمدة كثيرة جعل بعضها تصويته لحاكورته . وهناك الى شرق البنا بيراً كبيراً جداً منقوراً بالصخر عندما نزل اليه بعد أن نبشه وجد على جدرانه مرسوماً صليباً كبيراً بالصخر . واما المغارة فموقعها بجانب الحاكورة الشمالي في صخر مقطوع قطعاً محكماً يحيط بتلك الحاكورة من الشمال وبعض الشرق ، ومن ثم يسير شرقاً وهذا رسم المغارة المشار اليها .

يوم الخميس في الصعود شرقي في سرت صباحاً الى جبل الطور حيث اقام في ذلك النهار القديس الروم والارمن والقبط والسريان في المحل الذي صعد منه السيد المسيح للسماء في يوم الاربعين بعد الفصح الذي صلب به السيد . اما ذلك المحل فبرأس الجبل المذكور . وبجانبه الجنوبي جامعاً وفيه مسلة عالية . وذلك المحل يحتوي على دار . وضمن المحل قبة مثمثة الزوايا من خارج قائمة على ١٤ عموداً صغيراً طول كل واحد منها نحو ١٠ اقدام . وعلى رؤوس تلك الاعمدة نقوش جميلة . وربما ذلك بني قبل الدولة الصليبية لأن نقوش الرؤوس تختلف عن النقوش الصليبية ، وهي كالنقوش التي في الحرم الأقصى . وبرأس عمودين من الجانب الشمالي

(١) لعل المقصود الف وخمسة سنة (ك.ع).

منقوش . . . كالتي في جامع عمر في الحرم الأقصى . ولما كان هذا المحل شايع بين جميع الطوائف النصرانية خلا البروتستنت عمل له حايطاً مستديراً من داخل ولفتات؟ الاعمدة من خارج ظاهرة . ولكل طائفة عوايد دينية تجربها به يوم خميس الصعود . ومفتاح هذه المحلة بيد المسلمين كالقيامة . اعطي لهم ذلك حذراً من الفتن النصرانية . ومن نحو خمسة سنين التمس الارمن من الباب العالي بأن يعمرها هيكلاً هناك فجازوا باذن وعمرها فقاومهم بطريك الروم كيرلئس واحتصل فرماناً بمساعدة الطوائف المحقة (!) بذلك المحل ، وهدم ذلك البنا بعد أن تمّ مدعياً بأن لا قسم خصوصي لطائفة من الطوائف المسيحية في ذلك المحل . فالحكومة حذراً من الشرور هدمت ذلك المحل الذي لوبيقي لكان موضوعاً عظيماً لشرور كثيرة ربما كانت تجري بها الدماء من جرى تعصب الاهالي الغير معتدل ، وخصوصاً في مدينة القدس الشريف . والان يوم عيد الصعود تصلي اللاتين في ذلك المحل لوحدها لكون العيد عندها يسبق بقية الطوائف الشرقية ، فالروم تنصب خيمة يوم العيد الى الجانب القبلي ولها معظم المحل والسريان بجانبهم والقبط بجانبهم ، والارمن في الجانب الشمالي . وترى يوم هذا العيد اربعة قداديس قايمه معاً . واما في سنة الكبيس فترى خمسة قداديس . وكل ذلك في دايرة الدار . واما داخل القبة الذي صعد منه المخلص فكل طائفة تنحرف به ، فالروم اولاً ثم الارمن ثم السريان ثم القبط وبعده عند قراءة الانجيل يجري الترتيب . . . وفي سنة ١٨٧٥ جرى شر عظيم بين الروم والارمن لأن الارمن نحرت وقرأت الانجيل قبل الروم فاشتبك الشريين الجهتين لاجل تلك القضية فكنت ترى الرهبان في ملابسها الكهنوتية نازلة في حومة القتال مع بعضها . وبالحقيقة ان امور كهذه توجب الحزن والاسف الشديد من كل عاقل . اما رسم ذلك المحل فهو هكذا . ومن الامور المستحقة الاعتبار عدم وجود ادنى زينة في ذلك المحل الذي داخل القبة مدى الايام :



فإن ألف دائرة الدار

- ب - دائرة القبة وعلى حيطانها من داخل كتابة اسماء زائرين كثيرين بلغات كثيرة .
ج - المحل الذي صعد منه المسيح للسما .
د - بئر ماء .

- ١ - المحل الذي ينصب به الروم خيمتهم يوم عيد الصعود .
٢ - المحل الذي ينصب به السريان خيمتهم يوم عيد الصعود .
٣ - المحل الذي ينصب به القبط والحبش خيمتهم يوم عيد الصعود .
٤ - المحل الذي ينصب به الارمن خيمتهم يوم عيد الصعود .
٥ - المحل الذي بناه الأرمن وخرَّب بموجب التماس بطريرك الروم كيرللس .
وشرق قرية الطور محلاً للمسكوبية اقاموا به بناء ومُزَمِّعين أن يبناو ديراً هناك . وبينما هم يحفرون في تلة صغيرة من التراب وجدوا آثار محل قديم فنظفوا أرضه واذا بها نقوشاً من قطع حجارة ملونة جميلة بها صور طيور واسماك ، وفي النصف صورة وعل . وعلى الدائر كتابة حفظ منها شيء لحد الان . وهي على الجانب الشمالي من تلك النقوش بأحرف صعبة القراءة . وقد بنوا محلاً حول ذلك المحل وربما كان هذا سنة ١٨٧٢ حين وجد . ومن الممكن بأن هذا المحل كان ديرة دير لأنه وجد الى الغرب منه اثر كنيسة للروم لم تزل رسومها ظاهرة لحد الان ، وفي خاطر المسكوب أن يقيموا كنيسة على اثر الكنيسة نفسها . وهذه (صورة الكتابة) المذكورة .

(رسم الكتابة)

وفي جانب قرية الطور الجنوبي قد اقامت اميرة فرنساوية ديراً وكنيسة لحد الآن لم يكمل ذلك تماماً . وبالْحَقِيقَة ان ذلك البناء الجميل جداً وبه عملاً مربعاً وضعت به تماثلاً وكتب هناك على الدائر على الواح رخامية الصلاة الربانية ٣٢ لغة . وهذا المحل من الابنية الحديثة الجميلة المستحقة الاعتبار . وقد اوصت تلك الأميرة بأن يدفنها هناك في القبر الجميل الذي عملته لنفسها ووضعت تماثلاً فوقه .

اما قرية الطور فعلى رأس جبل الزيتون المشهور في الانجيل بحوادث متعلقة بالسيد المسيح له المجد . وقد نزلت به عساكر تيطس الروماني الذي حارب اورشليم . ولا سبيل الآن بهذه المسودة للتطويل عن ذلك . وعدد سكان تلك القرية نحو اربعمائة نفس تقريباً واهلها اصحاب إقدام في الاشغال رجالاً ونساءً وعندهم اعتناء في تربية المواشي وابنية هذه القرية من الحجارة النظيفة ، وهي على شكل مستطيل يمتد من الشرق الى الغرب ويكثر هناك شجر الزيتون ، وخصوصاً في الجانب الغربي المقابل للقدس .

يوم الجمعة في (فراغ) سرت الى النبي صموئيل وهناك رامت المصفاة حيثما وضع تبوت العهد لوقت موت صموئيل النبي . وقد دفن هناك . اما هذه القرية الصغيرة التي هناك فعلى جبل عالٍ تظهر من بعد طويل ، وهي الى الشمال الغربي من القدس ، وبها آثار قديمة وعظيمة فانه

يوجد بها محلات كثيرة جميلة وكبيرة منقورة بالصخر. وقد يخال بأن هذا المحل في الزمن القديم كان كل بيوته منقورة بالصخر وكذلك الطرقات فإنها منقورة ايضاً. وعندما تدخل الى القرية تشاهد محلاً متسعاً كبركة كبيرة جداً منقورة بالصخر، وهو على شكل مربع تقريباً. ولربما كانت الخيمة هناك سابقاً. ومقام النبي صموئيل واقع في الجنوب الغربي من القرية التي لا تحتوي على اكثر من عشرين بيتاً، وهو جامع كبير على أثر كنيسة عظيمة. وبزاويته القبليّة مأذنة خرب الان كثير منها. وعمارة هذا الجامع متينة كقلعة عظيمة تستحق الاعتبار. وهذا المحل يقصده كثيرون من اهل السياحة وخصوصاً اليهود فإنه لا يأتي زاير يهودي الى الاراضي المقدسة إلا ويوره. ومن قبل ذلك تجد كتابات اسماء كثيرة من الزوار على الجدران بلغات مختلفة، وخصوصاً اللغة العبرانية. وبالكاد تجد محلاً صغيراً خالٍ من الكتابة. وكل ذلك داخل دائرة المقام. وهذا المحل من المحلات المعتمدة جداً من الجميع لعدم وجود محلاً لشك في حقيقته. وفي هذه القرية التي يظهر بانها كانت مدينة فيما سبق آثار تدل على اتساع دايرتها في ايام عزها ومجدها. وبها عيون ماء كثيرة ذات مياه عذبة جيدة. فانه من الشمال من المقام المذكور وعلى بعد نحو مائة وخمسين ذراعاً عين ماء يسمونها بعين البلد، وبينها وبين المزار بير يسمونه بير الضباع(?)، والى الشرق منها عين الجاكوك آثار مغاير صغيرة، وعين الطولة تخرج من مغارة ويشعب منها عينان، وعين الأمير في مغارة وعين الشاطر وعين الزفيزف(?) . وكل العيون الشرقية قريبة من بعضها والى شرق بعضها بعضاً. وهناك عند الاعين الشرقية حواكير جميلة بها اشجار من الزيتون والتين. ثم فوق باب مقام النبي صموئيل حيثما يوجد قبره مكتوب هذه الابيات . .

زر بقعة بالبها والنور مشرقة	قد عمها الله بالانوار تعميماً
وأشهد بأن نبي الله ساكنها	من نسل يعقوب كل حان تعظيماً
عليهم صلوات الله تشملهم	تعمهم شرفاً مجداً وتعظيماً
وقف بباب كريم راجياً كرماً	واسأل إلهك بالغفران تميماً
تنال عزاً ولطفاً ومغفرة	من الاله واحساناً وتكريماً

والى القرب من الاعين الشرقية المذكورة أنفاً بركة منقورة بالحجارة مربعة الشكل وبجانبيها ملاحق بها برك صغيرة ايضاً عدتها ٢ . . . وقد قيل لي بأنه يوجد آبار كثيرة منقورة بالصخر هناك ونواويس. ولضيق الوقت لم اتمكن من مشاهدة شيء منها. والى الجنوب الشرقي من القرية المذكورة على رأس مرتفع برجاً بني في عهد مجهول لم يزل معظمه واقف لحد الآن. وربما اقيم في عهد الدولة الصليبية. وحوله خربة ليست بصغيرة.

يوم الثلاثة في ٨ حزيران غربي سنة ٧٥ قلعنا الخيام من القدس وسرنا شمالاً قاصدين نابلس . . .

[يتحدث القساطلي بعد ذلك عن قرية البيرة ثم عن العديد من القرى والاماكن والآثار الواقعة على الطريق المؤدي الى نابلس، ثم يتحدث حديثاً مفيداً عن مدينة نابلس: موقعها

وبساتينها وطرقها واسواقها وسكانها الذين ينوف عددهم عن ١٢ الف نسمة (اي سنة ١٨٧٥)،
«والاسلام منهم لم يزلوا للآن اصحاب تعصب لان ايدي التمدن لم تفعل بهم لحد هذا الوقت»،
ويتحدث كذلك عن جوامع المدينة وتجارتها واحوال اهلها، ويورد عن روزنامة الحكومة سنة
١٢٨٨ هـ جدولاً باعداد المنتمين للطوائف المختلفة وعدد المؤسسات المختلفة فيها . . . ويقول في
ختام هذا الفصل: (وعندما تشكلت ولايات الدولة العثمانية في سنة اصبحت نابلس
مركز متصرفية البلقاء، ودار حكومة البلاد بها) .

ثم تقرأ ما يلي :

(تم الجزء الثاني من الروضة النعمانية ويليهِ الثالث انشاء الله وكان ختام تحرير هذا الجزء في
مدينة نابلس في ١١ حزيران غربي سنة ٧٥). وفي خاتمة المخطوط نجد العنوان التالي: بعض آثار
اورشليم او القدس الشريف . . . وفيه يقول):

بما اننا قد وعدنا في بداية دفترنا بأن نذكر بعض آثار اورشليم او القدس الشريف المدينة
القديمة والشهيرة في الكتب المقدسة والتواريخ نبادر الآن لذكر ما تمكنا من الوقوف عليه . ولا بد
بذلك من أن تكون فائدة لنا نتذكرها في المستقبل عندما ترجعنا العناية الالهية الى اوطاننا، ولأجل
أن يبقى ما شاهدناه من الآثار القديمة بهذه المدينة وخلافها مرسوماً دائماً في صفحات افكارنا نضع
رسوم بعض المحلات التي تمكنا من اخذ رسمها مع ضعفنا بهذا الفن . وحيث ان دفترنا هذا
مذكرة لنا لا نراعي به شروط الترتيب الان . ولكن انشاء الله اذا عدنا لاوطاننا سالمين سنرتبه ترتيباً
حسناً ونحفظه في مكتبنا تذكراً لسياحتنا الحالية التي كان اول بدايتها يوم السبت في ٢٦ ايلول
غربي سنة ٧٤ (١٨) حيث خرجت من مدينتي دمشق الشام قاصداً هذه البلاد عن طريق بيروت .

هذا وبما أن القصد افادتنا من ذلك نبدي آراءنا المتعلقة ببعض ما سنذكره بحسب ما تقودنا
اليه تلك الآثار التي بعضها مهم في الاعتقادات بحسب اعتبار بعض الطوائف . ولا بد من
الاستناد ايضا على النتائج الصادقة المأخوذة عن المؤرخين الشهيرين إذ بواسطتها تستنير افكارنا
ونفوز بحكم صائب فيما نتعرض للحكم عليه . وبناء على ذلك نرجو من ربما أن يطلع على كتابنا او
دفترنا هذا أن يعذرنا اذا قلنا او قررنا حقيقة تخالف رأيه او متعلقات اعتقاده حيث اننا جعلنا هذا
ليس لاجل غرض او تنديد بل لتقرير الواقع تماماً مع الرأي المصيب المسنود على الحقائق . وما
قصدنا به أن نطرح زياداً او نقاوم عمراً، بل جل غايتنا أن نتخذ لذاتنا واسطة تحفظ حقائق ما نراه
في افكارنا بحيث لا يقوى عليها النسيان السلطان العام المستوي على كل بشر . هذا ولربما فقد منا
هذا الكتاب نحفظ لذاتنا حتى منح إشهاره حيثما وجد، ونطلب من الله أن يوفقنا الى الختام كما
قادنا الى البداية وأن يرجعنا بالسلامة الى اوطاننا ويمنَّ علينا بمشاهدة اهلنا واحبائنا بكل خير وسلام
لأنه السميع المجيب واليه كل الأمور تنيب .

[ويتحدث بعد ذلك عن سور القدس وهو يعتقد أن المدينة لم تتسع عما كانت عليه زمن ادريانوس ثم يقول . انها في الزمن القديم كانت اكبر كثيراً مما هي عليه الان ويسوق الشواهد والدلائل علي ذلك من الكتب المقدسة التي يستند اليها اساساً في معلوماته التاريخية . وبعدئذ يتكلم كلاماً عاماً عن آثار القدس ومواقعها . وتختتم الصفحات التي بين ايدينا ببحث مطول مشفوع بالرسوم عن قبور الملوك . وقد تجاوزت هذا البحث الدراسات الحديثة وكذلك التقنيات الأثرية التي جرت بعد زيارة المؤلف للقدس].

نفحة الشام

في

رحلة الشام

رحلة في بلاد سورية وفلسطين ولبنان قبل حوالي مئة عام تشمل
على وصف لعاداتها وتقاليدها وتراجم لاشهر العلماء والاعيان
في بيروت ودمشق وطرابلس الشام والقدس الشريف

تأليف

الشيخ محمد هبذ الجواد القاياتي

(ص ٨٤ - ١٠١)

مطلب زيارة القدس ونواحيها

فشددنا ركائب العزم والحزم وركبنا مطايا التصميم والحزم، وحدا بنا حادي الغرام والشوق حتى أثار كامن القوة والطوق. ونزلنا عصر يوم الجمعة في جمادى الثانية سنة ١٣٠٢ ألف وثلثمائة واثنين من الهجرة في وابور الخديوية المصرية المسمى بالرحمانية تفاعلاً بالرحمة. فمكثنا طول الليل به إلى الصباح فوصلنا (يافا) عندما أضاء نور النهار ولاح. وكانت من فضل الله حركة البحر في المينا ساكنة وركاب الفلوكات فيها مطمئنة آمنة، مع أن العادة في تلك المينا أن يكون البحر هياج واختباط وتلاطم أمواج، ولكن قد أدركتنا فيها الألفاظ الخفية فوصلنا البلد بغاية الأمانة. وقصدنا منزل الأستاذ العالم العامل الشريف الكامل، حليف التقوى والصلاح وأليف الهدى والنجاح، حضرة الشيخ إبراهيم أفندي أبي رباح، من أهل طريق الصوفية الأكابر، الوارثين لها كابراً عن كابر. فقابلنا بالإكرام والترحاب وحططنا رحلنا في ذلك الرحاب. وبادر للسلام علينا كثير من الأحباب والأخوان والأصحاب، ولا سيما صاحب الفضيلة والخلال الجميلة والمراتب الجليلة، ولد عمه ذي المناقب، الشيخ علي أفندي أبي المواهب، نجل القطب الرباني الشيخ حسين أفندي الدجاني، أحد المرشدين العارفين من رجال الطريقة الغارفين من بحار العلم والحقيقة^(١). وكان حضرة الشيخ إبراهيم، والشيخ على المومى إليهما من طلبه العلم بالأزهر في أيام مجاورتنا به ونعرفهما ويعرفوننا بدون اجتماع متعارف. وكانا من أهل الذكاء التام والمعارف يشتغلان بعلوم الآلات والآداب، ولهما على تحصيل العلم التفات وانكباب. فأقمنا عند الأول الليلة الأولى، ودعانا الثاني في الليلة الثانية. وبيتوتها متجاورة بل متلاصقة. فبتنا هاتين الليلتين في أكمل سرور وحبور وقرّة عين وتذكرنا بهما عهداً بالحمى، وقضينا ذلك الوقت بحسن المحاضرة ولطيف المذاكرة، التي هي أرق من نسيم الصبا مرّاً على زهر الربى.

واجتمع بنا في منزلتيهما كثير من أهل العلم والأدب والحسب والنسب ولا سيما بلدنا المصري الديمياطي حضرة مصطفى أفندي الأرنبوطي، من جملة المنفيين معنا في الحادثة المصرية، وأقام بيندر (يافا) لقربها من ثغر دمياط، حتى يكون ذلك أنجز لمقصوده في إدارة حركة التجارة في البضاعات المصرية مثل الأرز وخلافه، وأقرب المواصلات اللازمة لتلك الجهات. وفضلاً عن ذلك فقد نال من لطف هؤلاء السادة ما أذهب عنه وحشة الغربة وأنساه بلاده. ولقد صنع لنا حضرته وليمة عظيمة عالية المقدار غالية القيمة. ودعا إليها حضرات المشايخ العلماء وبعض التجار والأمراء. فجزاه الله عنا أحسن الجزاء. وبعد أن أقمنا هذه الليالي الثلاث في غاية الأناج عزمنا على التوجه في الكروسة إلى القدس، وكنا خمسة أشخاص بدون انتقاص. فاستكرينا كروسة مخصوصة بليرة إنكليزية يجرها ستة من الخيل، وسادس ركبها سائق العربية ومدير سيرها.

(١) تجلت ظاهرة المزج بين الفقه والتصوف في مدينة يافا في القرن التاسع عشر في عدد من العلماء من آل الدجاني. كان في مقدمتهم حسين بن سليم الدجاني المتوفى ١٢٧٤/١٨٥٧. وكان من كبار المتصوفين وتولى افتاء الحنفية في يافا أكثر من أربعين عاماً. وابنه أبو المواهب علي بن حسين الدجاني المتوفى سنة ١٩٠٨. ومن العائلة الدجانية في يافا أيضاً إبراهيم أبو رباح انظر الدباغ، بلادنا فلسطين ٢/٤ ص ٢٩٠-٢٩١ وأيضاً اعلام فلسطين ١٦٨-١٧١.

وسافرنا في ضحوة النهار ولم نزل سائرين في أرض سهلة إلى أن وصلنا إلى (الرملة) فنزلنا بها لأجل استراحة الدواب وعلفها، واشتغلنا في هذه البرهة بزيارة من بها من الصالحين ومزارات من قيل بدفهم فيها من النبيين ورؤية بعض آثار السالفين من الأمراء والسلاطين . فأخذنا رجلاً من أهلها العارفين بها وما زلنا ندخل معه مشهداً بعد مشهد . ومعهداً عقب معهد، إلى أن حان أوان الذهاب واستراحت تلك الدواب . فكان من ضمن من دخلنا مزاراتهم وحظينا بزياراتهم، حضرة سيدنا الفضل بن العباس في ضريح على يسار طريق الذهاب إلى القدس من يافا، وهو لعمر الحق مزار مشرق جلي الأنوار . وضريح زين العابدين، وضريح الشيخ أبي العون، وضريح الشيخ العليمي، وضريح السيدة أم العباس، ومزار نبي الله أيوب عليه السلام . وغالب هذه المزارات في وسط المزارع والأشجار وعماً قريب يحدث عليها الاندثار ولا يبقى لها آثار . ومنها مزار نبي الله صالح^(١)، وهو بجانب الجامع الأبيض المشهور ومنارته الغربية الشكل المربعة الأضلاع، التي هي في غاية المتانة والكبر والارتفاع . وهي والمسجد من بناء السلطان (ابن قلاوون) من سلاطين مصر في سنة ٧١٨ سبعمائة وثمانية عشرة كما رأينا مكتوباً على حائط المنارة بالحفر والخط بارز . ولم يبق من الجامع الآن إلا حائط السور وبعض أروقة . وهو مبني على مسجد آخر مثله في الشكل الفوقاني كالتحتاني فتأمل غريب هذه المباني . وهكذا المسجد الأقصى، الظاهر من على وجه الأرض بناء بني أمية، على حذاء البناء الأصلي تحت الأرض . ويقال إنه من بناء نبي الله سيدنا سليمان بن داود عليها السلام .

والرملة هذه هي المشهورة في التواريخ بفلسطين تسمى بها ولاية عظيمة في الملك من قديم الزمان، ولعدم طول مسافة المكث لم نستطيع استيعاب المزارات والآثار كلها، ولم نتمكن من دخول البلد بل خرج إلينا منها بعض أهاليها من طلبة العلم الذين كانوا في مصر مجاورين بالأزهر من ذرية الشيخ خير الدين الرملي صاحب الفتاوي الخيرية المشهورة في مذهب الحنفية .

ومنهم أخو الشيخ، القاضي بيافا الآن . كان يوم خروجنا من يافا واصلاً إليها حاضراً من الأستانة العلية . وجاء التلغراف من بيروت يفيد حضرة الشيخ المفتي أبي المواهب بقدمه في ذلك اليوم . وهو أيضاً من طلبة العلم الأزهرين . إلا أنه لعزماً على السفر للقدس الشريف لم تنتظر حضوره ومقابلته، ثم بعد توجهنا إلى القدس في الكروسة ترفعنا جبال وتخفطنا أودية لم نر في عمرنا جبلاً مثل هذه ولا كنا نظن أن على ظهر البسيطة نظيرها فسبحان الخلاق العظيم الرزاق الكريم . ومن شدة علوها لم نستطع في بعض الاحوال رقي تلك الجبال ونحن راكبون على الكروسة فكنا ننزل ونمشي حتى نقطع تلك القطع الشاهقة . ولم نزل بتلك الحالة إلى أن دخلنا القدس ليلاً بعد الساعة الرابعة . ولم نجد بالبلد محلاً صالحاً للمبيت إلا مزار سيدنا داود، على نبينا وعليه السلام . فإنه كما أخبرنا بعض الناس في يافا والقدس معد لتزول الزوار وأهل الأسفار من سائر الأقطار . فحملنا رحالتنا ونحن ملطخون بأوحالتنا، لتزول الأمطار ومائها المدرار، على خلاف

(١) حول مزارات الرملة عموماً انظر الانس الجليل ج ٢، ٦٨-٧١ وتراث فلسطين ص ٨٤ و ص ٢١٤ - ٢٥١ .

العادة الجارية في غالب السنين الماضية . وطرقتنا باب المزار على من فيه من الخدمة والزوار فكأنهم كانوا على انتظار، ففتح لنا الباب ودخلنا الرحاب، فوجدناه مزدحماً بأجناس من الناس رجالاً ونساءً وصغاراً وكباراً . فجلسنا معهم كأحد الفقراء وال دراويش . فجاء قيم المزار قبل الاستقرار وطلب منا الصعود إلى محل عال في أودة يقال لها (الابراهيمية) من بناء إبراهيم باشا المصري أيام كانت البلاد الشامية في ضمن الحكومة المصرية . فرأينا ديواناً واسعاً مفروشاً وفي جواره أيضاً أود صغيرة ومرافق لفضاء الحاجة . فبتنا تلك الليلة بغاية المشقة الزائدة من شدة البرد واتساع المحل . وتغطينا بكل ما معنا من الأغطية والملابس فلم نجد نفعاً ولم نجد به دفعاً فليسوء الحظ الناقص جاء على خلاف العادة هذا البرد القارص .

ولما طلع النهار وأضاء المحل واستنار، جاءنا رئيس الخدمة الداودية وهو حضرة الشيخ محمد كمال الدين الداودي وسلم علينا ورحب بنا وطلب لنا القهوة، فرأينا عليه لوائح المروءة والنخوة، وأمر الخدامين بتهيئة محل في الدور التحتاني بجوار ضريح نبي الله داود (عليه السلام) . وأعد لنا فيه ما يلزم من الفرش والأغطية الفاخرة فجزاه الله عنا كل خير في الدنيا والآخرة . وجاءنا للسلام أقاربه الكرام وأعيان المحل الفخام، السيد بكري أفندي وأولاده، والحاج علي وأولاده، والشيخ عبد الرؤوف الداودي الذي كان في الأزهر معنا مجاوراً، وله معرفة بنا في ذلك الوقت، وهو أخو السيد بكري المتقدم .

فبالغ الجميع في إكرامنا والقيام بما يلزم من الخدم لنا فرأينا ذلك من أكبر نعم الله علينا، حيث وجدنا في كل جهة توجهنا إليها من يعرفنا في مصر . وكان من أشدهم حرصاً على مراعاة خاطرنا حضرة الشيخ عبد الرؤوف المذكور، وحضرة الشيخ حسن بن الحاج علي، فإنه من أهل العلم المشتغلين بالطلب، وكما لا يخفى من أن الجنس للجنس أميل . ثم توجهنا في ذلك اليوم إلى زيارة الحرم المقدس . والمسجد الأقصى الأنفس . فألفينا به راحة الروح وقرّة العين وطيب النفس . ومحل سيدنا داود هذا خارج سور البلد في الجهة الجنوبية . وقد بنى هذا السور السلطان سليمان فاتقنه غاية الاتقان وشيد أساس ذلك البنيان بما لم ير مثله في قديم الزمان .

حرم البيت المقدس

فأما المسجد الأقصى فمحاسنه لا تُحصى وهو في مقابلة قبة الصخرة من الجانب القبلي، وهو قبلة أهل الشام وتحت المسجد القديم ينزل إليه بدرج كثير وهو مسجد كبير وفيه من العمد العجيبة النزر اليسير، بخلاف المسجد الفوقاني فإن عمده من الرخام الملون ورؤوسها مطلية بالذهب الأحمر الوهاج في غاية الرونق الأنيق والابتهاج . مكتوب على محرابه بالخط الكوفي (سيحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير) . ومنبره أعجوبة من أعاجيب الدهر وخطيبه من قديم الزمان

يكون من عائلة مشهورة هناك يقال لهم بيت ابن جماعة. ويخطب في جمعة الموسم بذكر قصة الإسراء والمعراج. وكذلك يقرأ في الصلاة من سورة الإسراء فيحصل للمصلين من هذه الخطبة وهذه القراءة أثر عظيم من الخشية والاتعاظ بتلاوة هذه الألفاظ.

وأما قبة الصخرة فهي شمال المسجد. فيبعد أن تخرج من الأقصى تمشي في رحبة واسعة جداً مفروشة بالبلاط وفي وسطها بركة ماء وافرة الكبير، وعن شمالك شجر الزيتون وفيه شجرة قديمة جداً يزعمون أنها من عهد بناء المسجد، ولا أظن ذلك صحيحاً، وبعد ذلك تنتهي إلى درج صاعد إلى محل الصخرة يبلغ نحو العشرين درجة. فإذا طلعت فوق هذا الدرج وجدت رحبة أكبر وأنضرم من الرحبة الأولى وعليها بلاطات واسعة كثيرة عليها محاريب من بناء بعض الملوك تسمى مصلى (ثم ترى قبة الصخرة) هائلة منقوشة بالذهب وقطع الصيني الملون بالأخضر والأزرق والأحمر في أكمل البهجة والنضرة والحسن الأوفر.

ولما دخلنا قابلنا بها حضرة رئيس الخدمة الشيخ عبد الله أفندي الدتف، رجل كبير السن عليه هيئة السلف، فآظهر لنا مزيد الحب والشغف، وأمر بعض أقربائه بمرافقتنا وتعريفنا محلات الزيارة في الحرم وما أحاط به من قبة السلسلة وقبة المعراج.

ومهد سيدنا المسيح في محل منخفض، في شمال المسجد الأقصى من الشرق، وباب التوبة وباب الرحمة، وهما الآن لطول الزمان قد أشرفا على الانهدام، ولذلك بني عليهما بنيان متين بالحجارة ومحل كرسي سليمان (وباب حطة) والقبة التي هناك ومحل ربط البراق عند باب المغاربة وعنده مسجد في داخل الحرم يقال له مسجد المغاربة أيضاً «وهؤلاء المغاربة موجودون بالقدس الشريف ينتسبون إلى أبي مدين الغوث» وذلك، زيادة عما في نفس الصخرة وقبتها من الآثار الشريفة، فإن فيها قطعة بلاطة زرقاء اللون تضرب إلى الخضرة على باب القبة الجوانية، يقال إن تحتها قبر سيدنا سليمان بن داود عليها السلام، وفيها مسامير غائصة في الحجر لم يبق منها إلا نحو الأربعة يقول العامة عنها انه في آخر الزمان لا يبقى من هذه المسامير شيء ظاهر إلا غاص في هذا الحجر. ولا ندرى هل لذلك الكلام صحة أم لا.

وأما ذات الصخرة، فهي الآن مرتكزة على بناء حولها من الجوانب الأربعة، وتحتها خلاء ومحراب يقف الزائرون فيه ويصلون ويدعون، وقد صلينا ودعونا. والحمد لله فنسأل الله تعالى القبول ونيل المأمول.

وهي قطعة حجر واحد في طول عشرين ذراعاً وعرضها قريب من ذلك وسمكها نحو الثلاثة أذرع، وفيه أثر القدم الشريف وآثار أخرى يقال انها محل يد جبريل، والعلم عند الله تعالى. وحرم البيت المقدس واسع الخطبة جداً. ويقول بعض الناس إنه أوسع من الحرمين الشريفين (حرم مكة والمدينة) لو دخلا فيه لوسعها.

وفي أسواره منارات كثيرة وأبواب مثل باب المغاربة المتقدم وباب القطانين والباب الشمالي. وفي داخله جملة مدارس وزوايا وأروقة. وفي وسطه أسبلة وبرك للوضوء وسقاية الماء

وجملة أود وخللوي في رحبة قبة الصخرة من فوق، وجملة أود أيضاً في الساحة السفلى المنخفضة تحت القبة، من الشمال الغربي، يسكنها المجاورون في المسجد الأقصى لطلب العلم، وكذلك الأعراب المسافرون من الزوار. وقد عرضوا علينا أخذ أودة منها فلم نرض بمفارقة محلنا في الداودية لكثرة السيول والأمطار الفائقة الحد في ذلك الوقت. وغالب الحرم مكشوف ليس عليه سقف. ومن اخواننا الأزهريين المشغولين بالقراءة في الحرم الشيخ على العورى، وأخوه الشيخ أبو السعود أفندي وله أودة مجاورة للصخرة في غاية الظرافة والنصرة عزم علينا بأخذ مفتاحها على الدوام لنستريح فيها عند مجيء الحرم فلم نر حاجة إلى ذلك.

وبالجملة فحرم القدس (وهو كما لا يخفى ثالث الحرمين الشريفين ولا تشد الرحال لغيرها) لا يتمكن من الوصف وصفه. فكلما دخل إليه أحد ظهر له من المحاسن فيه ما لم يكن ظهر له من قبل، فسبحان من وضع فيه هذا الجمال وحلاه بحلية البها والجلال، وجعل عليه من الانوار ما يحفظ الأبصار، ويذهل العقول والأفكار، ويورث الخشية والاعتبار.

ولقد أرسل إليه الآن مولانا السلطان الأعظم (عبد الحميد خان) ستة عشر ألف ليرة لتصرف في ترميم بلاطه، وتبليط الخالي من البلاط. ورأيناهم في وقت الموسم مشتغلين بهذا الترميم ولكن الظن أن هذا المقدار لا يفي بقدر النصف من مساحته مع أن الباقي الآن بدون شغل كله خال من البلاط بالكلية لا جديد فيه ولا قديم، وقد نبت العشب والحشيش في أرضه. فنسأل الله سبحانه تعالى أن يوفق له أهل الخير من المسلمين فيكملوه أو يطلبوا له من حضرة أمير المؤمنين زيادة عما أنعم به، أسبغ الله نعمه عليه وأجرى الخير الجزيل على يديه.

كنيسة القيامة

وفي أثناء أقامتنا بالقدس الشريف مررنا يوماً على كنيسة النصارى المشهورة (القيامة) وحولها من نصارى الشام، وقبط مصر، ونصارى أوروبا، خلق كثير يتكبدون من المشاق ما لا يطاق في سبيل هذه الزيارة لتلك القيامة ولا سيما ان موسم القدس في غالب السنين يوافق فصل الشتاء وما فيه من الأمطار والسيول وبرد الهواء فسبحان من أعانهم على هذا العناء في زيارة ذلك البناء الخالي من كل شيء إلا التصاوير والنقوش (التي هي صنعة أيديهم) ورؤية النور المجسم المحرق في يوم سبت النور المشهور فيما بينهم.

عود على بدء

ثم انه بعدما صفا الجو، وهو كما يقولون الطقس، وخفت الأمطار نوعاً ركبنا الدواب وتوجهنا لزيارة المعاهد الموجودة (بطور زيتا). وهو جبل عال جداً مشرف على القدس وحرمه. فالواقف عليه يرى القدس وحرمه الشريف كأنه بين يديه. وفيه من المزارات محل ارتفاع السيد المسيح إلى السماء، وكما يزوره المسلمون يزوره النصارى أيضاً. وفيه مزار في مغارة منخفضة وعليها قبة على ظاهر الأرض، يقال إنها ضريح سيدنا سلمان الفارسي الصحابي الجليل:

وفيه مزارات أخرى لم أتذكرها الآن. وفي قبة الجبل أيضاً كنيسة لدولة المسكوب. بنوها في عهد قريب بغاية الزخرفة. وبعد نزولنا من الطور رأينا في أسفل الجبل بناء على شكل قبة يشتمل على نحو الخمس صخور فقط، والصخرة العليا محذبة مرتفعة تسميه العامة بطرطور فرعون. وهو على شاطئ الوادي المشهور بوادي جهنم، في شمال الحرم من الجهة الشرقية. وكذلك هو أيضاً في شمال الداودية التي فيها مزار سيدنا داود على جبل عال في الجانب القبلي من القدس خارج السور كما تقدم. وفي أسفل هذا الجبل عين مشهورة بعين أيوب يستدلون بفيضاتها في أيام الشتاء على استكمال المطر النافع لاراضي الشام في ذلك العام. ولقد فاضت ونحن بالقدس في أيام الموسم، ففرح الناس فرحت شديداً واستبشروا بالخصب والرخاء، فهي عندهم كالنيل بمصر إذا وفي كفى. وفي مقابلة هذه العين عين أخرى تسمى عين سلوان، ذكر صاحب أنس الجليل في تاريخ القدس والخليل، انه ورد فيها حديث بأنها من الجنة، وماؤها أشبه المياه بماء زمزم. نزلنا إليها وشربنا من مائها والله الحمد شكراً على هذه النعمة. وقلت فيها ونحن على أعلى الدرج النازل إليها هذين البيتين:

إن لم أرد في رحاب القدس مورده فيا جفائي وهذا عين سلواني
لكنني فيه لم أصدر بحر ظمى وأصدرتني رويأ عين سلوان

وزرنا المقبرة التي بجوار سور الحرم من الشرق وفيها بعض الصحابة والعلماء الأقدمين. وقريب منها قبر السيدة مريم ابنة عمران، والمقبرة التي بالداودية.

وفيها من العلماء والصالحين خلق كثير، ولكن كثر تداول الأيدي من النصارى والإسلام واليهود على هذه البقاع، وتقادم العهود، صير المعاهد بها مجهولة مشتبهة. إلا المشاهد التي لا يمكن إخفاؤها ولا جحدها، ولو تقادم عهدها. فهذه هي التي تزار إلى الآن وعليها ما يحفظها من البنيان، وكل من عليها فان. ولقد حضرنا هناك في الحرم الاحتفال بطلوع الصنجق (البيرق) لسيدنا الكليم واجتمع الناس من الامراء والذوات والعلماء والباشاوات، واصطفت العساكر على الجانبين من باب الأقصى إلى باب قبة الصخرة. ومعهم سعادة رؤوف باشا، متصرف القدس. وخرجوا به من الباب الشمالي وركب معه المفتي لكون خدمة مولد سيدنا موسى الكليم على بيت الحسيني من قديم، وهو منهم بل أكبرهم، وبعض الامراء والتجار. فصار الحرم مزدحماً بالزوار وأرباب الإشارات ويقال لهم السيارات وكذلك الطرقات في حوالي الحرم. وكان طلوعه بعد صلاة الجمعة في أول الموسم وما رجعوا إلا في الجمعة الثانية. وبعد صلاحها عمل له احتفال كالأول، واصطفت العساكر على هيئتها النظامية من باب المسجد الأقصى إلى باب قبة الصخرة وكنا إذ ذاك واقفين على الباب مع حضرة شيخ الخدمة الشيخ عبد الله الدنف، وكبار أهل البلد فساروا بالصنجق إلى أن وصلوا إلى قبة الصخرة ودخلوا به إليها، ودخلنا معهم. وقفل الباب خشية الازدحام وكان هذا الختام. وبعد ذلك انصرف الناس إلى بلادهم وجبالهم.

وأما زيارتنا لحضرة سيدنا موسى الكليم فكانت في الجمعة التي بعد طلوع الصنجق وقبل

نزوله . فخرجنا من القدس ضحوة النهار وركبنا دواب من المكارية من أقبح دواب البرية، فسرنا تحت الأمطار والأخطار، الملجئ لذلك كون طريق الكليم لا تسلك ولا تؤمن إلا في أيام الموسم . وما زلنا في جبال وأودية إلى أن وصلنا قبيل الغروب، ودخلنا للزيارة في شدة الزحمة ونزول الرحمة، وطلعنا إلى ديوان عالٍ مشتمل على عدة أود معدة للزائرين في تلك الأيام . ووجدنا مفتي القدس جالساً معهم في إحدى الأود . ناستقبلنا بغاية كل إكرام واحترام وأخرج لنا وللحاضرين كافة عشاء من مطبخه . ولما حان وقت النوم أرسل إلينا فرشاً وألحفة للغطاء . وبات غالب الزوار في الصحراء تحت المطر، لأن البناء الموجود حول ضريح سيدنا موسى غير كاف لايواء هؤلاء الجمع . وفيه هناك بعض خيم صغيرة يسمونها شوادير لا تكفي ولا تدفي، بل بلغنا بعضها اقتلعه الهواء فلم يعرف بعد إلى أين ذهب وفي أي موضع وقع، وذلك لشدة الرياح العاصفة والأهوية القاصفة . وبتناها ليلة نابغة نعاني جهد البلاء وتتلوى من شدة اللأواء . ولما طلع النهار واستنار، ركبنا دوابنا بعد أن زرنا الضريح الأنور في جانب الكثيب الأحمر . وتوجهنا تجاه القدس ولم تنزل الأمطار تنزل علينا كافوا القرب وقد أيقنا بقرب العطب لما شهدناه من هذه الكرب، ولكن الله سلم وتفضل وأنعم . ولا يمكنني أن أصف لك ما حصل للزوار في صعود تلك الجبال الشاهقة وكل نفس زاهقة وكل رجل زالقة، حتى كنت في بعض الأحيان يحصل لي الاياس، وتضيق مني الأنفاس، وأنقطع في السير عن الناس، وأرى أن ترك المشي والوقوف أولى مع هذا العناء الذي آخره كما كنت أظن الفناء . ولقد بلغنا أن بعض الزوار انقطع في الطريق من التعب والبعض حل به العطب . ومات جملة من شدة البرد وأرسل المتصرف من طرفه عساكر وغيرهم للتفتيش عنم تخلف بالاعياء أو الموت وأحضرهم إلى القدس في اليوم التالي .

وكيف أصف لك المشي على رؤوس الجبال وتحتها الأودية البالغة الغاية في الانخفاض التي لا يستطيع الإنسان أن ينظر إليها وإلا أخذته الدوخة والإغماء، فضلاً عن ضيق الطريق وامتلأته بالأحجار وتزحلقه بكثرة ماء الأمطار . وصارت الشمسيات لا بقاء لها في الأيدي ولا ثبات وضاع أغلبها في الأودية من الهواء .

وبالجملة، فما دخلنا القدس إلا بعد الغروب، وتفرقتنا فلا يلوي أحد منا على أحد ولا والد على ولد، وصرنا من أول النهار إلى آخره في ماء واصل إلى الأبدان لم تدفعه كثرة الثياب الثقيلة، فلا حول ولا حيلة . ولما أردنا تغييرها في القدس لم نستطع خلع بعضها إلا بشق الأنف أو شق الأنف . ومكث ما كان معنا من الفرش والغطاء منشوراً مدة من الأيام ولا يجف . ومضت علينا أيام الموسم ونحن من كثرة الأرياح في المساء والصبح وتراكم الغيث الغزير المdrار أثناء الليل وأطراف النهار، لا نستطيع الوصول إلى الحرم إلا في بعض أوقات إذا حصلت في ذلك الحال فترات . حتى إن جناب الفاضل الأكرم والصدیق الأفخم والشهم الأوحد والكریم الأجد، حضرة الشيخ يوسف أفندي الفاهوم، نجل العلامة الهمام والسيد المقدم جناب الشيخ أمين أفندي صاحب المقام المفهوم، مفتي الناصرة في الحالة الحاضرة، جاء في هذا العام لزيارة القدس

ولم يسبق له زيارة في غير هذه السنة، مع قرب البلاد وتوافر الأهبة والاستعداد، وذلك لأن حضرة المشار إليه أسبغ الله نعمه عليه، كان رفيقنا في أيام الحضور بالجامع الأزهر. وكنا نحضر التحريز والمنهج على شيخنا وأستاذنا المرحوم المغفور له الشيخ خليفة السفطي. فعندما شعر بقدمنا إلى الديار السورية وإقامتنا في بيروت أرسل إلينا تلغرافياً، على يد حضرة عز تلو عبد القادر أفندي القباني، يستدعينا للوفود إليه والقدوم عليه، لأجل الضيافة والإكرام وزيارة القدس الشريف معه في ذلك العام. فلم يساعدنا الوقت على ما طلب وإن كان ذلك عندنا غاية الأرب. فأرسلنا إليه بإبداء الأعذار في التأخر عن هذا المزار، وهكذا صار يدعوننا في كل عام إلى أن يسر الله المرام وعزمنا على التوجه العزم التام. فعندما اردنا القيام من بيروت، حررنا له جواباً نفيده فيه أن موعد الاجتماع بكم إن شاء الله تعالى موسم القدس الشريف بدون تسويق. فحضرنا نحن إلى بيت المقدس قبل حضوره بيوم أو يومين وقدم هو في يوم الجمعة وقت طلوع الصنجدق فأرنا على بعد في ذلك المجمع فاشتبه علينا باديء الأمر لكثرة شبيهه وظهور الكبير عليه، مع عهدنا به شاباً غض الشباب، ممتلئ الإهاب، فأخذنا من حاله الاستعجاب.

بيت لحم

وبعد أن سلمنا عليه طلب منا الإقامة في دار بجوار الحرم كان قد أرسل من قبل قدمه تلغرافاً لبعض أصدقائه فاستكراها له ولمن معه من الأصحاب والخدم. وكان في معيته جملة من الحميالة نحو العشرة أو يزيدون فلم نرض بهذا الطلب مراعاة لمخاطر الجماعة الداودية ولا سيما الشيخ محمد كمال الدين، فإنه لما سمع بأن الشيخ يوسف الفاهوم حاضر العام إلى القدس لأجل الزيارة والمقابلة معنا لسابق المعرفة معه من مصر، بادر بوصيتنا والتأكيد علينا في عدم الخروج من مزار نبي الله داود، ورجعنا إلى منزلنا الأول وأقام هو بداره مع جماعته وحال بيننا وبين الاجتماع به شدة الأمطار والوحل في الطريق فكنا لا نجتمع به إلا على سبيل الندرة في المسجد الأقصى أو في قبة الصخرة إلى أن عزمنا على زيارة الكليم فرافقنا في الذهاب والإياب، وكذلك حينما عزمنا على زيارة الخليل أشار علينا بالمبيت أول ليلة في بيت لحم حتى نزور مولد السيد المسيح ويخف علينا السير ونستريح. فكتب له بعض أعيان النصارى في القدس وصية منه إلى رئيس الدير في بيت لحم وأرسل بها مخصوصاً قبل قيامنا من القدس، فركبنا من عصر اليوم ودخلنا بيت لحم قبل الغروب فاستقبلنا أهل الدير وأدخلونا إلى محل الولادة وموضع النخلة في جانبه، وقد زخرنا بأنواع الزخارف البديعة ومحل الولادة عليه صحائف الفضة مدور الشكل في وسطه دائرة منخفضة عما حولها يبسير، ورأينا في الدير كثيراً من طوائف النصارى يدخلون طائفة بعد طائفة ومعهم الحرس من عساكر الدولة العثمانية خوفاً من وقوع بعض فشل أو خلل. ورأينا صورة المسيح موضوعة في ألواح معلقة على حوائط الدير من كل جانب ومنها تصويره مصلوباً وفي بطنه وبدنه ورجليه مواضع دق المسامير. وتصوره على حجر أمه عرياناً مائل العنق والرأس وبعض يده ملقى على الأرض.

وتصويره واليهود يضربونه ويمثلون به والدم سائل من جميع أعضاء بدنه . وتصويره طفلاً (صغيراً بريئاً) رضيعاً . وتصويره طفلاً مشدود الوسط في خدمة يوسف النجار يعلمه صنعة النجارة وعلى رأسه ما يشبه القبعة ، وتصوير أمه العذراء البتول وفي جانبها صورة يوسف النجار وهي تنظر إليه .

الخليل

ثم ان الرئيس أمر لنا بالمسافر خانه المعدة للمسافرين . فدخلناه فوجدنا فيها لكل واحد تختاً وناموسية ، وكرسیاً للجلوس ، وكرسیاً آخر عليه شربة ماء وطشت وإبريق للموضوء . ثم دعينا لتناول طعام العشاء فنزلنا لأودة السفرة فرأينا فيها طرابيزة وعليها أنواع الطعام من لحوم وأطبخة وحلواء فأكلنا ورجعنا إلى محلنا الأول ونمنا إلى الصباح . ثم خرجنا خارج الدير وقد أعد لنا الخدم الركائب وسرنا على بركة الله متوجهين إلى جهة الخليل نصعد في جبل وننحدر في واد حتى وصلنا إلى الخليل ، إلا أن طريقه أسهل سلوكاً من طريق الكليم . وبعد أن خرجنا من بيت لحم مررنا في الطريق على يمين الذهاب إلى الخليل بضريح السيدة راحيل أم سيدنا يوسف الصديق وعليه قبة صغيرة فزرتناها ، ومضينا في صوب مقصدنا حتى وصلنا إلى عين ماء يمين الطريق يقال لها (عين سارة) امرأة سيدنا ابراهيم ، وبعدها على نحو ساعة أو أكثر من البلد دخلنا في بسايتينها ومزارعها ووجدنا كروم العنب فيها لا تحد ولا تعد . ومن ذلك كان العنب بها رخيصاً جداً ، فإن الرطل الشامي بها يساوي عشرين فضة وهو مقدار نحو خمسة أرتال مصرية ونصف . ودخلنا الخليل قبل العصر ونزل بنا الشيخ يوسف علي ابن قاضي البلد الشيخ محمد أفندي علي ، وهو رجل من أهل العلم الأزهرين كان له معرفة به في أيام الطلب بالأزهر . وبعد أن استقرت ركائبنا في منزله وكان في محل شغله خارج المنزل أرسل أهله إليه يعلمونه بمجيئنا وتوجهنا نحن لزيارة خليل الرحمن فدخلنا المسجد ، وهو كما قيل من بناء سيدنا سليمان ، وآثاره باقية إلى الآن فرأينا على ضريحه قبة وبابه من فضة ، وعليه من المهابة والإجلال ما لا يفي بذكره المقال .

الضريح المسجد

ومن داخل هذا الضريح المسجد وقبة ضريح سيدنا إسحاق وفي محاذاته ضريح زوجته (رفقة) وعليها قبتان ومدفنها في داخل مغارة تحت الأرض لها منور مفتوح من الجانب الغربي .

وأما سيدنا يعقوب فهو وزوجته في محل آخر من المسجد في مقابل ضريح الخليل . وسيدنا يوسف في محل آخر أيضاً ، في الجهة القبليّة ، منفرد في جانب على حدته وعليه من الجمال اليوسفي والمحاسن البهية ما يبهر عقول البرية ، دخلناه فوجدنا به المصاحف الجميلة وهي موضوع عليها العلامات في سورة يوسف فقرأت السورة بتمامها في رحابه وأهديتها لروحه الكريمة زيادة في ثوابه . ولما صلينا بالمسجد صلاة العصر وجدنا به بعض دروس منعقدة في تعليم العوام . وبلغنا أن

حضرة الشيخ خليل أفندي التميمي الأزهرى، الذي كان قديماً مفتي الديار المصرية، من ذرية الصحابي الجليل سيدنا تميم الداري يقرأ دائماً دروس العلم في ذلك المسجد وفي بيته أيضاً. وكان في ذلك الوقت منحرف المزاج فتوجهنا نحن وحضرة الشيخ يوسف أفندي لزيارته وعبادته تبركاً به والتماساً للدعوة خير منه. فإنه مع كونه مقلداً بوظيفة الإفتاء في الخليل إلا أنه أنزه نفساً عن أن يتعاطى شيئاً من حطام الدنيا فيه أدنى شبهة من حرام، وهكذا يصفه أهل الشام بزيادة الورع والعفة. فلما دخلنا عنده قابلته مقابلة عظيمة ورأينا عليه مخايل الصلاح والتقوى لائحة وهو من التقلل والخمول في جانب عظيم، مع كمال الدراية والمعرفة ولا سيما في فقه أبي حنيفة. وما زال يؤانسنا ويلاطفنا ويقص علينا بعض أحواله في أيام المجاورة في الأزهر وهو في صحبة بلديه الشيخ التميمي، المفتي بمصر إذ ذلك.

الرجوع الى القدس

ولما أن أردنا الانصراف خرج معنا إلى خارج الدار ولسانه منطلق بالدعاء والابتهاال في صلاح حال مصر وبلاد الإسلام. وفي الصباح توجهنا من الخليل راجعين إلى القدس، ومررنا في الطريق على بلدة يقال لها (حلهول)، وفيها ضريح نبي الله يونس، عليه السلام، فدخلناه للزيارة فوجدنا به عمارة جديدة لم تكمل بعد. والبلد على ربوة عالية وهي على يمين الذهاب إلى القدس. وتحتها عين ماء عذبة جداً، جارية على الدوام ليلاً ونهاراً، يقال لها عين الدرورة. ثم وصلنا إلى القدس في يومنا ذلك وأردنا بعد إكمال هذه الزيارة الرجوع إلى محل الإقامة فألح علينا حضرة الشيخ يوسف أفندي في الذهاب معه إلى بلدة الناصرة، ونحن لما شاهدناه من صعوبة الطريق في تلك البلاد لم ينشرح صدرنا لهذا الأمر، إلا أنه أبدى رغبة شديدة وظهر لنا من حاله اننا إذا لم نذهب معه وجل قصده في حضور الموسم في هذا العام. إنما هو الدعوة يحصل له تغير خاطر وكسوف طبع بين أهل البلاد. فتوكلنا على الله وأجبنا دعواه. واستكرى لنا دواب من القدس وتوجهنا على طريق نابلس.

من مذكرات جمال الدين القاسمي :

العلامة القاسمي

يصف رحلته الى بيت المقدس قبل عام ٨٠ عاماً

١٣٢١هـ / اواخر محرم - صفر - نيسان ١٩٠٣

[عن جريدة الدستور الاردنية العدد ٤٨٦١،

تاريخ ١٩٨١/٢/٢٢، ص ١٤ و ١٥]

بداية الرحلة

لم ازل كثير التشوق لزيارة تلك الاماكن المباركة منتظرا للفرصة حتى حانت، فشددنا ساعد الهمة، وابرزناها من القول الى الفعل، وذلك في اواخر شهر محرم فاتح سنة (١٣٢١)، ونوبنا الذهاب من طريق البر.

ثم في صباح الاحد ٢٩ محرم المذكور خرجنا من دارنا طلوع الشمس، بعد ان قرانا ورد المسافر، وجيء لنا بعربة فوقفت امام حارتنا وهي زقاق العلامة المكتبي ظاهر باب الجابية، المجاور لجامع الزيتونة، فاستطرنها الى محطة الميدان، وسار لوداعنا ليف من الاهل والاصحاب.

ثم تحرك بنا «وابور» مزيريب (القطار) ولم يزل يجوب تلك البلاد الحوارنية المخصبة المونقة، الى ان وصلنا الى قرية مزيريب قرب الظهر، وبعد اداء فريضة الظهر مقصورة بمجموعة مع العصر قرب عين البجة تجولنا في ارجاء اخبية التجار ريثما يسافر «الوابور» الحجازي الى عمان. وبعد العصر تحرك الوابور المذكور وسار الى درعا فوصلنا قرب المغرب.

واتفق ان رافقتنا من مزيريب الى درعا احد ضباط العسكرية فنوه بنا لدى قومندان العسكر المقيمة هناك، فأوفد الينا القومندان من العسكر من نقل امتعتنا الى فركون مشير الخط الحجازي. وغب وضع امتعتنا فيه تجولنا في تلك الفيحاء النضرة.

وكان طير خبير قدمنا الى قاضي درعا احد وجهاء دمشق، وكان مرافقا لنا في «الوابور» وحل ضيفا عنده. ففي الحال ارسل القاضي لنا ثلاث دواب لطول المسافة ما بين المحطة والبلد. وكنا ادينا فرض المغرب وناقلته والورد عقبه. فامتطينا تلك الجياد، وتلقانا القاضي على بعد بالترحاب، وانزلنا في داره، وبذل جهده في الايناس والاكرام. وبعد اداء فريضة العشاء أعد لنا من التخوت والفرش ابدعها، فحمدنا المولى على ذلك، وتفاءلنا بالمسرة والرفاهية في هذه الرحلة من هذا العنوان. ثم عزم في الصباح علينا القاضي في المقام عنده بضعة ايام فأبيننا. ثم ودعنا ضحوة النهار وسرنا الى محطة «الوابور» ودعانا بعض ضباط العسكر، فأقمنا عندهم ريثما يتحرك الوابور. وبعد تناول الغداء عندهم حضر وقت الظهر، فجمعناه مع العصر، ثم ركبنا «الوابور» الحجازي، وطار بنا يجوب قرى حوران، الى ان بلغ منتهائها، ثم السهل بعدها الى الزرقاء، ثم الى محطة عمان، فوقف هناك قبيل الغروب.

في عمان

وكان خرج لاستقبالنا من عمان بعض الخلان، واحضر لنا الدواب فركبناها، وسرنا الى عمان فوصلناها بعد الغروب بنحو ساعة. ووفد لزيارتنا في الصباح فقهاء الجراكسة هناك، ووجهائها، واقمنا فيها عشرة ايام نتظر فراغ احد رفقاتنا من علاقة تجارية له. وتجولنا في خلال هذه المدة في معظم ارجائها، وشاهدنا آثارها وخرائبها، المدهشة بقاياها، وبعض مقابرها الحجرية التي اخذت في الظهور في ناحيتها القبلية، من بيت هناك، وصعدنا الى جبلها ورأينا

رسوم تلك القمة والحصون والاسوار والاعمدة المنقضة فيه، وسرنا يوما الى مداخل سرداب تلك القاعة من جهة جنوب البلدة تحت طرف جبلها، وابصرنا غرائب جمّة، وآثار عمران سلفت مدهشة.

عودا على بدء

وقد قيض المولى لنا في عمان احد الاخلاء الدمشقيين المقيمين ثمة للمورية، فبذل وسعه في الاكرام والايثار الزائد، ورأينا من اقبال فقهاء الجراكسة ووجهائها المقيمين هناك ما لم نتأمله، فكانوا يتسابقون للاجتماع بالمحال التي تنتزه في فيحائها، ونقيم سحابة النهار في وارف افيائها. ولم تفتروا لائمهم لاجلنا في الصباح والمساء، ولهم تأنق في تهيئة الشاي، واقتصاد في المعيشة غريب. ورام خطيب عمان ان يوكلي في خطبة الجمعة بها فأبيت عليه، كيلا يختلف الحال على المصلين، وظهر لي ان ابقاء ترتيبهم بخطيبهم اولى. ودعانا ايضا في خلال ذلك احد ضباط العسكر المقيمين هناك للمورية الخط الحجازي، وكان مع رفقة ضاربا خياه في قمة جبل عمان الشمالي، فذهبا اليهم، واشرفنا على تلك البطاح الغناء، وانتشقتنا ذاك الهواء.

هذا ولم تخل بحمده تعالى مجامعنا عن مذكرات علمية ولطائف ادبية، ومفاهات تستروح اليها النفوس، واستصحاب كتب اشهى لدينا من منادمة العروس. هذا وتجارة البلدة آخذة في المزيد، كما ان عمرانها، اكثر النازلين فيها، وتوالدهم، في تقدم ايضا. وذاكرت فقيهم في عادة حملهم السلاح، وشده بزوارهم، حضرا وسفرا، وان الاولي بهم تركه حضرا، ولا سبي في الجماعة في المسجد، فقال: هذا من اخذ الحذر من العدو. فقلت: اما في وقت الخوف فمسلم، واما في الامان فلا معنى له! ثم علمت انهم ماشون في هذا مع عوائلهم وازيائهم. وشاهدتهم في دفنهم الموت يختارون اللحد، ويتقدم فقيهم معنا للحفار في المقبرة بلا مبالاة، ويصلون على موتاهم قرب المقبرة، ثم ينصرفون الى تعزية اهل الميت في بيته، ويجلسون بضع دقائق، ولا يقف المعزي في محل كما جرت العادة بالشام، ويعلمون على الميت صغيرا او كبيرا. ولهم تمهل حسن بعد اداء الجماعات في المسجد اصلا. وقبل صلاة الجمعة يتحلقون في المسجد حول صف من القرآن، يقرؤون مناوبة، كل واحد ربعا، وهكذا الى الاذان. وقد كانت مدة اقامتنا في عمان عشرة ايام.

السلط

ثم مساء الخميس عاشر صفر الخير، بعد اداء فريضة العصر، توجهنا من عمان بقصد السلط فودعتنا الاحباب وسرنا من الطريق الأخذ اليها، وشاهدنا ضواحيها المخضبة، وجبالها المملوءة بالكلا، المفروشة بأصناف الزهور المتنوعة الاشكال. ولما ابصرت الخصب المدهش في بطاها، علمت ان لذلك اتخذت قديما عاصمة مملكة، وشيدت لها القلاع والحصون، وبسببه يضرب المثل بسمن البلقاء. ومررنا في الطريق على عيون لطيفة، صادفنا عند احداها المغرب،

فتوضأنا ثمة وادينا الفريضة . ثم اخذنا بعد ذلك في وهاد منخفضة، وجبال شامخة، الى ان وصلنا بعونه تعالى نحو الساعة الرابعة ليلا الى السلط . وكان خرج لاستقبالنا عند المساء اصحابنا هناك ، وبقوا بعد الغروب حصة كبيرة، ولما استبطؤوا قدومنا عادوا الى بيوتهم . وسبب تأخرنا عنهم، مع انهم ارسلوا لنا الدواب من عندهم، وتحققوا وصولنا لطرفهم المغرب، ان دوابهم لما وصلت لعمان وقت الظهر، سلط على المكاري بعض العسكر فاستاق دوابه منه، وعيي ان ينقذها منهم فماقدر . بل جلدوه على فخذه عدة جلدات، اخزاهم الله تعالى! وكان بعض ظلمة الضباط امرهم اذا ظفروا بدواب ان يأتوا بها، ليحملوا عليها عند محطة عمان بعض امتعة العساكر القادمة من الحج . ولما بلغنا ذلك ارسلنا احد احبابنا لاستنقاذها، فسار من عمان الى محطة الوابور وقت الظهيرة، وكلم مقدم العسكر هناك فسرحتها، واتى المكاري في صحبته، فعندئذ اخذنا في التأهب، وتاخر الوقت المنتظر قدومنا فيه للسلط . ومثل هذه العادة في تسخير الدواب قهرا عن اربابها مألوفة في دمشق ايضا كثيرا، ولا زاجر ولا رادع، فانا لله!

وكان نزولنا في السلط عند اخوال ابني ضياء الدين سلمه الله تعالى، وعمره بالعلم والطاعة، حيث متجرهم مع العرب، ولهم هناك دار يقطنونها بالتناوب نحو نصف عام، ثم يعودون للشام .

وفي الصباح قدم لزيارتنا وجهاء السلط ولقيف من موظفي حكومتها، ثم اخذ يتوافد علينا من عرفنا قبل، ومن تعرف بنا هناك، ليلا ونهارا، وغصت مجالسنا بهم وزادت على مجتمعات عمان . وكان احد رفقائي يقول لي: ان طالعتنا طالع جمع شمل، وصفو وقت .

واستحسن من منتزهات السلط حدائق عين الجادور، ففي اغلب الاوقات نستغرق لديها النهار الى المساء، ومعنا كتبنا التي هي زاد ارواحنا . وكان يأتيتنا غداؤنا بحمدته تعالى اليها، ويفد اليها عند المساء بقية اصحابنا، ونقرأ عليهم مما معنا ويمضي الوقت في مسائل ولطائف . وهكذا قضينا عشرة ايام كانت مظهراً للانس والسرور، بحمد الله الشكور، وانتزها يوماً جهة قبة الجادور بين حدائق العنب، وتحولنا في تلك الرياض الشفاء .

وقد اخذ الان عمران السلط في ازدياد واصبحت تشاد فيها البيوت المرتفعة بنهضة عجيبة واكثر اهلها من نابلس .

وادي شعيب

ثم عزمنا على السير منها الى الارض المقدسة، فخرج لوداعنا الى منحدر عين الجادور في طرف الوادي جمع من الاصحاب، وسرنا على بركة الله تعالى قبيل المغرب بساعة مساء الاحد في ٢٠ صفر الخير، حتى قطعنا حدائق السلط البديعة، في منفرج تلك الجبال المخصصة، المتخلل بينها عيون عذبة جارية، وهي بمقدار ساعة ونصف . ثم تخللنا مسالك بين جبال، فصرنا تارة في انخفاض، وآونة في انحدار، وسلطنا في واد يقال له وادي شعيب، الى ان انخنا على حافة نهر ذلك الوادي قبيل العشاء، وصليناها مع المغرب مجموعة جمع تأخير . ثم احضرنا ما زودنا به من

العشاء، واحضر لنا المكارون من القصب والحطب، ووقدوا لنا نارا فأضاءت ما حول النهر عن اشجار من الدفل البديع المونق، مكمل بتيجان حمر بهيجة المنظر. وبعد تناول الطعام اخذنا في الاضطجاع، ولم ينلنا برد اصلا، بحمده تعالى، لان ذلك الاسبوع زادت فيه الحرارة بحكمته تعالى، حتى اذا كانت الساعة التاسعة من الليل، وقرب ظهور القمر من رؤوس الجبال تحرك الراكب للمسير فامتطيا متون الجياد، وسرنا في ذلك الوادي جانب النهر الى ان قطعناه، وارتقينا على ظهر جبل، ومنه الى جبال الغور الهائلة التي كان من الحكمة قطعها ليلا، والا فليس الخير عن هولها كالعيان، خصوصا في مسالك منها على حرف الجبل في غاية الضيق، ومنها ما هو في غاية الانحدار مع التوعر، الى ان وصلنا مع الفجر الى منحدر جمعنا مع ذلك النهر في منزل يقال له (مشرع سارة)، فنزلنا وصلينا الصبح بغلس. وفي جنبه ذاك النهر بستان قدم لنا منه خيار، فأكلنا.

اريجا

ثم امتطينا الخيل وسرنا مجددين، وخضنا مرارا في ذلك المشرع، وجاوزناه الى حافته الاخرى، وكان الطريق اسهل مما مر، حتى اشرفنا بعد طلوع الشمس على فيحاء واسعة، ولاح لنا من بعيد سواد اريجا، ولم نزل مجددين حتى انزلنا احد احوال ولدي ضياء الدين - وكان معنا - عند بعض معارفه من العرب، وغب ان فرشوا لنا ما لديهم ثمنا نحو ساعة. ثم جلسنا، واحضروا لنا غذاءنا، ودعونا للمقام عندهم فأبينا.

ثم ركبنا من عندهم ضحوة، وسار معنا خال ولدي خطوا واسعا، ثم امرناه بالانصراف وودعناه، ووالينا المسير الى ان وصلنا الى نهر الشريعة، وعلونا على جسره الخشبي، واردنا النفوذ منه، فاذا بابه مغلق، ولديه بواب لا يفتح الا بجعل معلوم، فان كان راكبا فعليه ثلاثة قروش، او ماشيا نصف قرش فدفعنا له ثلاث بشالك، وبلغنا ان ضمان هذا الجسر الخشبي الف وعشرون ليرا عثمانية تضمنته الدولة في كل عام. وليس إذا أبوا الا الخراج او الضريبة على من يمر عليه. وفقوا لبنائه من قناطر حجرية اسوةً بمن كان يبني من الامراء الاقدمين كذلك فانا لله وانا اليه راجعون. واشتهر أن اول من عمر هذا الجسر الملك الظاهر برقوق من امراء الشراكسة بمصر فقال احد الادباء وقتئذ^(١).

بني سلطاننا برقوق جسرا بأمر والانام له مطيعة
مجازا في الحقيقة للبرايا وامراً بالسلوك على الشريعة

وبعد ان جاوزناه اخترقنا في جبال ملححة لا نبات فيها، الى ان وصلنا نحو الظهر الى اريجا،

(١) ليس هذا الجسر القريب من البحر الميت المجاور للجسر الذي كان يعرف بجسر النبي ويعرف اليوم بجسر الملك حسين هو الذي عمره السلطان المملوكي برقوق المتوفى سنة ٨٠٦. وانما هو عمر جسراً الى جهة الشمال على نهر الشريعة ربما كان قريباً من جسر دامية (او جسر الأمير محمد اليوم). لكن القاياني في نفحة البشام (ص ١١١) يقول إن الجسر الذي بناه برقوق هو جسر بنات يعقوب. وفي هذا الجسر القول التالي للسيدة عائشة الباعونية الدمشقية المتوفاة سنة ٩٢٢ (الكواكب السائرة، ١/٢٨٧-٢٩٢). وبعاون قرية من قرى عجلون في الاردن.

ونزلنا في دار حكومة مديريتها، ريثما يبرد الهواء ونؤدي الفرض، فصلينا الظهر وتناولنا الشاي بعد القيلولة، ثم صلينا العصر، وركبنا منها الى خان^(١) بين اريحا والقدس وهب الهواء عاصفاً، وبرد الجو، فاضطررنا الى المبيت، لا سيما وفي المسافة الى القدس بقية بعد، فصلينا المغرب في حجرة فيه واسعة، ونمنا فيه، ثم استيقظنا قبل الفجر فتوضأنا، وغب الوتر سرنا من ذلك الخان، الى ان اسفر الوقت فنزلنا على جانب الطريق، وادينا الفجر، ثم ركبنا، الطريق اخذت بالمارة تقبل وتدبر منها الى ان بدت اعلام قرية يقال لها (العيزرية) ومنها لاحت مباني بيت المقدس من ضواحيه.

في بيت المقدس

ثم دخلنا المدينة من باب الاسباط ضحوة الثلاثاء في ٢٢ من صفر الخير الموافق لخمس من ايار، فأنزلنا المكاري في خان هناك، وبعد ان وضعنا امتعتنا في حجرة فيه اتينا الى الحرم الشريف، فلا تسل عما هجم علينا من السرور المفرط، وانشراح الصدر، وبهجة النفس، وانتعاش الفؤاد، وحسبناه قطعة من الجنة قد دخلناه حامدين شاكرين لفضله، ونحن نكفكف الدمع فيهمر.

ثم وردنا الصخرة الشريفة، وأرينا اثارها ثم استقبلنا شخص من خدامها، وسألنا عن نزلنا، فقلنا: الان امتعتنا بالخان، فدلنا على الزاوية الداودية، وقال: هي منزل الفضلاء القادمين لهذه البلدة، ولها اطعامية سلطانية، لذلك ذهبنا بعد العصر اليها، فاستقبلنا قيموها الكرام، واصعدونا الى غرفة فخيمة، ثم اكدوا علينا في تناول العشاء والمنام فامتثلنا، وشاهدنا منهم غاية الترحاب والايناس، ورغبوا ان نكون نزلاءهم مدة مقامنا فأبينا، رغبة في ان يكون نزولنا في الحرم نفسه.

وفي يوم الاربعاء «طاقوا» بنا في الحرم، فتقاطرت علينا ارباب الحجرات في صحن الحرم، وحول الصخرة، كل يرغب ان تأخذ حجرته ان شئنا، ثم دلنا شخص على حجرة داخل الحرم الأقصى في قبليه، جهة منبره اليمين، جانب مقصورة الحديد، فأثرتنا على كل حجرة لقربها من الحرم، الذي هو البغية من الرحلة، وتيسر بيت للطهارة فيها، ولإشراف برآنيها على ما حول الحرم من المباني والبطاح الفيحاء. ولقد زارني من لا اشك في صلاحه وقال لي: ابي الله الا ان تكونوا في حرمه، وضياف بيته، فأبكاني سرورا، وسجدت لله شكرا.

ثم راجعت تاريخ انس الجليل، فرأيت ذكر ان منزلنا المذكور كان في الاصل زاوية، ونص عبارته في مبحث ما في بيت المقدس من المدارس والمشاهد بجوار المسجد الأقصى: «الزاوية الخنثية»^(٢) بجوار المسجد الأقصى، خلف المنبر، وفقها الملك صلاح الدين تغمده الله برحمته على رجل من اهل الصلاح، وهو الشيخ الاجل الزاهد العابد المجاهد جلال الدين محمد بن احمد الشاشي، المجاور في البيت المقدس ثم من بعده على سن يحدو حدوه. ولما زرت المكتبة الخالدية في جوار الحرم^(٣)، طالعت بعضا من نفائس كتبها، وترددت اليها كثيرا، واستعرت منها الشفاء

(١) نعتقد انه «الخان الاحمر».

(٢) معاهد العلم، ص ١٠٠.

(٣) معاهد العلم ص ٣٧٩.

للقاضي عياض، عليه سماعات كثير من المحدثين، وهو مقابل على نسخة مقابلة على نسخة المؤلف، فشرعت في مقابلة نسخة لي عليه في الحجر المذكورة، وكان يساعدي في المقابلة من كان راحلا معي من دمشق الى انتهاء الرحلة المذكورة الشيخ عبد اللطيف بن حسين بن محمد الشهر بالصفتي من اهالي دمشق، واحيانا رفيقنا الثالث الشيخ يسن بن الحاج رشيد الفرا الدمشقي، وفقهما الله تعالى بخدمة العلم الشريف هما وذريتهما.

ثم طلب مني مجاورو الحرم قراءة درس عام فأبيت من دخول العجب عيادا بالله، فتحبط الرحلة. وشكوا الي فقد العلماء من تلك الديار المباركة، فاسترجعت وتحولت. ودعانا في مدة اقامتنا بعض التجار المياسير، وبعض اهل الادب لداره والاقامة عنده، فأجبت الدعوة دون المقام، ضناً على حوار الحرم الشريف.

المكتبة الخالدية

وفي اثناء ترددي على المكتبة الخالدية، طلب مني اربابها الكرام ابياتا يأترونها في دفترهم الذي فيه يأترون من كل قادم يتوسمون فيه الفضل، فاعتذرت بأني لست من اولئك الرجال، فألحوا، فكتبت على عجل هذه الابيات، واختلستها رغماً عن مهماتي في تلك الاوقات، فقلت مشيراً الى آداب الزيارة، والمجاورة في الحرم، وفضله وفضل الصخرة، وتطرق لحجرتنا التي نزلنا بها فقلت:

ايها الزائريت المقدس	يبتغيه بعد شق الانفس
احمد المولى بما اولى اذا	ما بدت اعلام نور القدس
واقم في الحرم الاسمى على	طاعة والذكر وقت الغلس
وابتهل لله في جنح الدجى	واسل دمعك كالمبتس
وتجرد فيه عن كل الذي	يظلم القلب كلهو المجلس
واذا ما شئت تجوالا فيسر	لسنا مكتبة واقتبس
كتب آل الخالدي انعم بها	مورداً للفضل منه فاحسني
غرسوا في القدس فخرا باهرا	ورثوه عن كرام المغرس
فجزاهم ربنا خير الجزا	ما سرى ركب لارض القدس

وبعد عصر يوم الاحد في ٢٧ صفر سارينا احد فضلاء دمشق المقيمين هناك في مأمورية الى مقام يقال إن قبر السيدة مريم عليها السلام فيه، وهو في كنيسة تسمى الجثمانية.

طور زيتا

ثم في صباح الاثنين ٢٨ صفر ذهب بي احد الاحباب المقدسين الى طور زيتا، فصعدت اليه، واراني غالب مزاراته، ومنها مصعد السيد عيسى عليه السلام، على ما يروونه، وهو صخرة فيها اثر قدم داخل قبة، وجلسنا في الزواية العلمية في جواره طلباً للرحمة، وقدمت كؤوس

المرطبات، ثم انحدرنا منه . وبعد عصر ذلك اليوم سار بنا رفيقنا المذكور الى كنيسة القيامة الشهيرة، فتقدمنا أحد بوابيها المسلمين، واراننا جهاتها العلوية والسفلية، موضعا موضعا. ثم انعطف بنا رفيقنا الى الخانقاه الصلاحية، وصعدنا اليها، واحتفل بنا قيمها، وجلسنا ثمة برهة، واراننا غرفها وطباقتها العلوية.

ثم في صباح الثلاثاء ذهب بنا رفيقنا المذكور الى نواحي البلدة، واراننا غرائب اماكنها، ومنها دار مطبعة للاتين^(١) مهمة جدا، مشتملة على دار حدادة وطحن بأدواتها، ويديرها وابور بخاري. فاحتفل بنا قيموها. هذا وفي كل ذلك ننقلب الى حجرتنا في الاقصى بسرعة، بحيث لم تفتنا بحمده تعالى في مدة اقامتنا الصلاة أول الوقت فيه، الا ما كان وقت المغرب احيانا، لوجودنا في دعوة بعض المحبين. ثم في يوم الثلاثاء المذكور زارنا قبيل العصر في حجرتنا احد وجهاء القدس، وغب اداء العصر نادى بمن يأتي بمفتاح الاقصى التحتاني، المنحدر في درج امام ابواب المسجد، فدخلنا وصلينا فيه ركعتين تحية المسجد، ثم انقلب بنا الى محل البراق غربي المسجد، فانحدرنا في درج اليه، الى موضع الحلقة، وصلينا ركعتين تحية المسجد ايضا. ثم ذهب بنا من باب المسجد المعروف بباب المغاربة، في اواخر الجهة الغربية من صحن المسجد. وقد ذكر صاحب انس الجليل ان موقتي الحرم ذهبوا الى ان هذا الباب هو الذي دخل منه النبي ﷺ ليلة الاسراء. ثم تجولنا خارج السور، واشرفنا على عين سلوان، وتلك المناظر المباركة، وكنا في دعوة احد الصالحاء ليلتذ.

بدء الرحلة الى الخليل

ثم صباح الاربعاء سلخ صفر، عقدنا النية على المسير الى بلدة الخليل عليه السلام، وبينما نحن في التهيؤ لاستئجار عربية، واذا بأحد محبيننا قادم لزيارتنا، وقد هيا لنا عربية تنتظرنا، فحمدنا المولى على هذا التيسير، وسرنا في الحال من حجرتنا في الاقصى، وركبنا العربية من باب العمود قبيل الظهر، ولا زلنا حتى وصلنا بيت لحم، فدخلنا للمكان المشهور بولادة السيد عيسى عليه الصلاة والسلام فيه، واراننا قيمه محل الولادة، والنخلة، وما جاورهما، وتجولنا في انحاء ذلك المكان، واحببت ان اصلي ركعتين عند محل الولادة، اتباعا لما ورد في قصة المعراج.

ثم خرجنا منه الى جامع البلد، فصلينا الظهر جماعة، واشترينا من بعض التجار ثمة بعض قطع صدفية، اعدناها هدية للاولاد والعيال. وقد انفردت هذه القرية بدقة الصنعة في التفنن بالقطع الصدفية، بما يدهش الالباب، ثم سرنا متوكلين عليه تعالى في ذاك الطريق البهيج، وقد راقتني منه وادي بيت جالا، المملوء بشجر الزيتون، ووقفنا في بعض المحلات لراحة الدواب، ومنها لدى عيون عذبة، كعين عروب، وعندها صلينا العصر، ثم عين الدورة.

وابصرنا في الطريق البركة التي فيها نبع ماء يساق للحرم الاقصى الشريف، وقرية حلحول

(١) مطبعة عريقة مجهزة باحدث الآلات انشئت سنة ١٨٤٧.

التي يقال ان بها قبر سيدنا يونس بن متى ثم تبدت لنا اعلام مدينة الخليل عليه السلام قرب المغرب، فسيرنا توا الى الجامع الشريف، ودخلنا رباطا في جواره، توضأنا فيه . ثم دخلنا الجامع، وغب صلاة المغرب والناقلة جاءنا احد الطلبة فيه وسلم علينا، وجال بنا في انحاءه، لزيارة تلك المقامات الجليلة . ثم بعد زيارة الجميع عليهم الصلاة والسلام، استندنا الى المنبر، فتحلق لدينا من اهالي المسجد ثلة، وسألني بعض الطلبة هناك عن بعض مسائل، وغب الجواب طلب مني قراءة درس في الصباح فاعتذرت بأنا على جناح السفر، ومقامنا قليل . وغب اداء العشاء سار بنا امام الحرم الحنفي وخطيبه، وانزلنا في داره ظاهر البلدة، على غاية من الرفاهية، فحمدنا الباري تعالى على ما اهتم .

العودة الى بيت المقدس

وصباح الخميس دعينا لتناول الغداء عند احد الوجهاء ثمة، ثم اعدنا الكرة الى الجامع الشريف، وصلينا الظهر هناك، و . اجتمعنا بقاضي البلدة فيه، فرحب ودعانا لطول المقام فاعتذرت بأن رفقتنا في نيتها بعد الغداء العود الى البيت المقدس، فألح هو ومن نزلنا عنده الحاحا زائدا، فأبيننا . وفي نحو الساعة السابعة من النهار ودعنا الاحباب، وركبنا العجلة، وسرنا على بركة الله تعالى، ووافينا بيت المقدس بعد الغروب، وصلينا المغرب في الاقصى الشريف . وفي تلك الليلة رأيت كأني في قصر عال صعدت اليه مع بعض فضلاء دمشق، فلما جلسنا فيه ابصرت فرشا عديدة، فرام بعض اخواننا ان يفرش لنا على بعض شرفات ذلك القصر، فقال له ذلك الفاضل ما معناه : حسبك يا اخي، فما فوق منزلكم الا منزل السلطان . واتفق ان رأى تلك الليلة ايضا بعض رفقاتنا قائلا يقول لنا : تقبل الله زيارتكم . فرجوننا ان تكون هذه الرؤيا من المبشرات . وهذا ولما كان مقصدي تقييد زمن هذه الرحلة في هذا الدفتر، لتكون تذكارا لي ولن يتشوف من وقتها من اهلي، اقتصصر على هذه الكلمات، واضربت صفحا عن تاريخ البلاد التي مررت عليها، وذكر جغرافيتها، وحالها قديما وحديثا، خشية الطول، والخروج عن الموضوع . ومن اراد الوقوف على شأن البيت المقدس، فعليه بأنس الجليل، وكتاب الروضتين لابي شامة فانه تطرق لكثير من مهمات آثاره، لا سيما من نثر مثل القاضي الفاضل، والعماد، كاتبتي الحضرة الصلاحية . وكنت اراجع لجغرافية ما مررنا عليه من الجبال والبلاد والقرى كتاب الجغرافية العمومية، وكتاب تاريخ المملكة السورية، وكتاب دليل الزوار، ففيها من تحقيق الكتابين لبعض شؤون ذلك ما يزداد به احاطة، ولسهولة الوقوف على هذه الكتب بواسطة طبعها وانتشارها، اكتفينا بالاحالة عليها .

الى يافا

ثم في صباح السبت ٣ ربيع الاول عزمنا على مبارحة البيت المقدس، فقدم لوداعنا يومه وقبله لفيف ممن صادقتنا هناك . وبعد ارتفاع الشمس ودعنا حرم الاقصى بركعتي السفر، ثم ركعتين يمين الصخرة، وابتهلنا الى المولى في دعوات حمة، ومنها ان يغفر لنا ما فرطنا من التقصير في

مقام هذا المسجد الجليل . ثم خرجنا من روض ذلك الحرم الشريف، ونحن نكفكف الدمع
وينهمل :

ولما قضى التوديع فينا قضاءه

خرجت ولكن لا تسل كيف مخرجي

ثم سرنا الى «محطة الوابور» بعربة ركبناها من باب الخليل فالفينا هناك جمعا من صلحاء
الحرم، واخيار القدس، وفدوا لوداعنا ايضا، فشكرنا سعيهم . ثم تحرك «الوابور» ضحوة النهار
المذكور، وجاب في بطاح جميلة المنظر، حتى وصل يافا قبيل الظهر .

وصادفنا في «الوابور» احد فقهاء قرية اللد ركب منها قاصدا يافا ايضا، فترافقتا، ونزلنا
جميعا في دار مفتي يافا، العلامة المفضال، والشاعر البليغ، السيد الشيخ علي افندي ابي المواهب؛
ابن الاستاذ الكبير الشهير الذكر، الشيخ حسين الدجاني، فأجل وفادتنا، وسررنا بمحاورته
العلمية، ومطارحته الادبية، واطلعنا على جملة من تأليفاته اللطيفة، وشعره الفائق .

المفتي الشاعر

ثم في صباح الاحد بعد تناول الشاي دعانا المفتي المنوه به وأفاضل بني عمه الى متنزّه لهم في
قرية بيت دجن، فركبنا العربات، وسرنا في طريق تحف به حدائق ناضرة، والخيل تشق عباب
الرمل، وبينما نحن سائرون اذا بانسان يستوقف سائق العربة ويطلبه برسم المرور، فقال لنا
المفتي: هذا ونظراؤه من جباة المكوس، ممن يصدق عليهم قوله تعالى: «وتقعدون بكل صراط
توعدون» ثم قص لي ان في عهد نور الدين الشهيد، كان صدر امره الصارم بمنع الخمر، فقال
بعض الفضلاء يخاطبه ويعظه:

وعليك كاسات المكوس تدور
تدعى ظلام الدين ما لك نور

عطلت كاسات الخمر تعففا
تدعى بنور الدين فاحذر في غد

قال : فابطل الرسوم المكوسية من وقتئذ . ثم وصلنا لذلك المتنزّه الارفع فالفينا لديه قصراً
شاهقا، تحف به رياض بديعة وللبصر في جوانبه مجال، ولا يجيب فيحاءه جبال ولا تلال . وهناك
مكنة كازية تسحب الماء وترفعه من بئر فيه، وتدير ناعورة لسقي اراضيه . فقضينا سحابة ذلك
النهار ثمة في مباحث علمية، ونوادير تاريخية، ومطارحات ادبية .

وكان المفتي المنوه به اصطحب لاجلنا جملة كتب من مكتبته . ومنها مجموعة اشعاره،
فتصفحناها فالفيتها كلها غررا، وراقني من مقاطيعه قوله :

ولما تجلى نور فرق جبينه وراح بقدر الريدني يخظر
تذكرت بدر التم في عنق الدجى وغصن النقا والشيء بالشيء يذكر

وفي يوم الاثنين سار بنا احد ادباء يافا الى متنزّه للامان، ضم صنوفا من الطيور الغريبة،

والحيوانات العجيبة . وترددنا الى جامعها الكبير مرارا ، والى مسجد في جوار دار المفتي مطل على البحر احيانا .

العودة

ثم عزمنا على المسير من يافا نهار الثلاثاء ٦ ربيع ، فجمعنا الظهر والعصر تقديما في دار المفتي ، وسار معنا الى المينا ، وركبنا الزورق ، ولطف المولى ، وله الحمد ، حيث لم يكن في البحر تموج زائد ، والمسافة الى الوابور كانت نحو من ثمان دقات . ثم ارتقينا الى الوابور . وبدأ الدوار يأخذ بنا ، فاشير الينا بالاضطجاع . ثم سار من ميناء يافا الساعة التاسعة من النهار ، ولم يزل يشق عباب البحر الى ان وافينا بعناية الله وفضله ولطفه ثغر بيروت ، بعد طلوع الشمس باقل من ساعة ، واجتمعنا يومئذ باخلائنا الفضلاء هناك ، ودعينا للاقامة بها ، وعَزَمَ علينا فابينا ، خشية من ان يطول بنا المقام ، والنفس نزعتم الى الاوطان ، واخبر بعض رفقاتنا محرر «الثمرات» بالقصيدة التي طلبت مني في القدس المار ذكرها ، وكان وفد لزيارتنا ، واركبنا عربة لقصد بعض اعزائنا ، فاستملاها ونشرها في «الثمرات» في عدد ١٤٣٣ ، وتطرق لمرورنا بالثغر ، ثم عزمنا على المسير من بيروت نهار الخميس ، فامتطينا الوابور ، ثم وافينا دمشق مساء الخميس على حين غفلة . وتمت الرحلة اربعين ليلة . والحمد لله اولا واخرا . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم .

سوريّة والعهد العثماني

يوسف الحكيم

المطبعة الكاثوليكية

بيروت (١٩٦٦)

(ص ١٨٩ - ٢٠١ و ٢١٦ - ٢٢٣)

مباشرة الوظيفة :

غادرت اللاذقية، على ظهر باخرة ايطالية رست نهراً كاملاً في مرفأ بيروت، ام المدين الساحلية في سورية اجتماعياً وثقافياً واقتصادياً، ثم سارت ليلاً ورست صباحاً امام حيفا .

تجوّلت في البلدة الصغيرة القديمة، واهم ما شاهدته فيها ميناؤها الجميل، المبشر بمستقبل زاهر يجعلها مدينة كبيرة وجبل الكرمل الثابت حارساً لها .

وصلت الباخرة في اليوم التالي الى يافا، حيث ركبت القطار الى القدس، فباشرت مهام وظيفتي في التاسع من كانون الثاني ١٩١٠ عضواً في المحكمة البدائية، الحائزة ايضاً صلاحية محكمة الاستئناف بالنسبة الى محاكم الاقضية وصلاحية محكمة الجنايات في اللواء .

عهد اليّ رئيس المحكمة جمال بك، وهو يعرفني شخصياً مذ كان نائباً عاماً في اللاذقية، باملاء قرارات المحكمة على الكاتب. وكانت القرارات التي تصدر في القضايا الجنائية والجنح الهامة تكتب في غرفة المذاكرة قبل تفهيمها، لما في ذلك من ضمان لعميق التدقيق قبل البت في الدعوى، وكنت قد الفت هذه المهمة منذ كنت كاتباً وعضواً ملازماً في محكمة اللاذقية .

لما اضطر الرئيس المشار اليه الى دخول المستشفى لمرض الم بصحته، عهد اليّ بمهام الرئاسة . وقد امتدت مهمتي هذه ثلاثة اشهر كسبت خلالها تقدير اخواني القضاة والمساعدين وثقة المحامين والمتقاضين . ومن حسن الحظ ان جميع الاحكام التي صدرت في تلك المدة وطلب ذوو العلاقة نقضها قد اقترنت بتصديق محكمة التمييز .

مدينة القدس وحياتها الاجتماعية :

تعلو مدينة القدس نحو ثمانمئة متر عن ساحل البحر الابيض المتوسط، وتأخذ قسطها من كل فصل من فصول السنة الاربعة، وقد بنيت على تلال متقاربة الارتفاع وسط سلسلة جبال تتخللها الودية، مما جعل مناظرها الطبيعية خلابة بالاضافة الى قدسيتها وآثارها التاريخية ومؤسساتها الحديثة . ولا ينقص ضمان رفاهية الفقراء من سكانها سوى الماء القراح، فهو قليل في الصيف لان الاعتماد قائم في الغالب على آبار مياه المطر نظراً الى قلة الينابيع في الاراضي المحيطة بها، ومن لا يحوي مسكنه بئر ماء يضطر الى شراء حاجته بثمان زهيد من باعة ينقلونه من آبار الجوامع والمساجد واهمها آبار المسجد الاقصى .

تسود القدس حياة ديموقراطية، رغم وجود عائلات ارسوقراطية عريقة في الحسب والثراء والقدم، كآل الحسيني والخالدي والداودي والنشاشيبي وجار الله وغيرهم، وذلك بفضل انتشار المدارس الحكومية والاجنبية المختصة بمتنوع العلوم والفنون . وقد ضمت العدد الكبير من الاوساط الشعبية، مما جعل الشعب قسمين لا ثالث لهما، قسم متعلم راقٍ وآخر غير متعلم، اسوة بمعظم المدن السورية .

ان قدوم الحجاج والسياح من مختلف اقطار العالم الى القدس لزيارة المقامات المقدسة ومشاهدة الآثار القديمة، كان في مقدمة الاسباب الرئيسية لرقى الحياة الاجتماعية وعاملاً قوياً في رفع الحالة الاقتصادية، حتى كان عدد غير قليل من الرجال والشبان يقوم بمهام الترجمة والدلالة للسياح الاوربيين والاميركيين في القدس وسائر انحاء فلسطين.

ومن نتائج هذا الرقي، بالاضافة الى الشعور القومي العربي النبيل، ان ساد الاخاء والمودة بين المواطنين من مسلمين ومسيحيين. فهم يتبادلون العواطف في كل مناسبة ولا سيما في الاعياد والمواسم على كثرتها، حتى ليعسر على المرء التفريق بينهم لولا بعض الحالات المتعلقة باللبسة والاسماء الموروثة التي اختص بها فريق دون آخر.

كان نائبا القدس في مجلس المبعوثين، سعيد بك الحسيني وروحي بك الخالدي، يتمتعان بثقة جميع المواطنين على اختلاف طبقاتهم. ومن عالي مزاياهما التي يرددها الناس انه لم يبدر منهما في وقت ما اي تدخل في شؤون القضاء.

الثقافة :

تعددت المدارس والمعاهد العلمية في القدس، من حكومة وطنية واجنبية، وهذه تشمل الالمانية والانكليزية والفرنسية والاطالية واليونانية، بدرجات ابتدائية واعدادية، ومدرسة صناعة يقوم على ادارتها جمعية خيرية المانية. اما الكلية الروسية، فكانت في بلدة الناصرة، وقد تخرج منها اساتذة ومديرون لمدارس البعثة القيصرية في كثير من مدن فلسطين وسورية.

والجدير بالذكر، ان النابهين من خريجي مدارس القدس لم يكتفوا بالتحصيل الاعدادي، بل اتقوا التحصيل العالي في جامعات اسطنبول وبيروت.

هذا عدا مدارس الرهبان في الدير، واهمها مدرسة الصلاحية لطائفة الروم الكاثوليك، وقد تخرج منها علماء بارزون احرز الكثيرون منهم مرتبة الاسقف والمطران والبطريرك في سورية ولبنان.

ولم تحرم الاناث من نعمة التحصيل في المدارس المختصة بهم، من حكومية وخاصة، واهمها مدارس الراهبات الفرنسية، الى جانب المدارس الالمانية والانكليزية.

الطوائف المسيحية :

يبلغ عدد المسيحيين في القدس اربعين الفاً، تنطبق عليهم الحياة الاجتماعية التي سبق وصفها وهم موزعون مذهبياً على الوجه التالي: روم ارثوذكس (معظمهم عرب) ولاتين وارمن وسريان واقباط واحباش وانجيليين وموارنة وروم كاثوليك. فالروم الارثوذكس اكثرهم عدداً ويليهم اللاتين ثم من ذكر بعدهم على الترتيب.

ولكل من الطوائف الخمس الاولى كنيسة حول الساحة المحيطة بالقبر المقدس ويطلق على

مجموعها كنيسة القيامة، ويتناوب على حراسة القبر المقدس ليل نهار رهبان ارثوذكس. وحين تقيم احدى الطوائف الاربعة الباقية طقوسها الكنسية حول القبر المقدس، يقف راهب من رهبانها الى جانب الراهب الارثوذكسي في اوقات محددة بنظام متفق عليه بين الرئاسات العليا لهذه الطوائف، باشراف الحكومة. اما حراسة الباب الخارجي، فهي من قديم الزمن بيد آل نسييه، من كرام العائلات المسلمة، يتوارثونها خلفاً عن سلف.

ان اكثرية الاماكن المقدسة في القدس وكل فلسطين هي بيد البطريركية الارثوذكسية ويليها البطريركية اللاتينية فالارمنية، على الترتيب السالف الذكر، وكل منها متمسك بالقديم من حقوقه المكتسبة، لا يسمح لغيره بالتجاوز عليها.

انشق ذات يوم ستار ايقونة السيدة مريم العذراء في كنيسة بيت لحم، لسبب بسيط لم تعرف حقيقته وقد يكون لها علاقة بالقدم. فاسرع ممثلو هذه الطوائف لوصول شققي الستار وكاد التسابق بينهم ينقلب الى نزاع واشتباك، لولا ان تدخلت الحكومة في الامر واخذت على عاتقها القيام بهذه المهمة بوساطة لجنة حظر عليها ان تقبل اي تدخل من الطوائف المذكورة ولو كان من قبيل عرض الابرة والخيط، خشية حصول سابقة يتولد منها حق الاولوية لطائفة دون سواها.

ان اخشى ما كانت تحشاه الحكومة، ان يقع اثناء احتفالات اسبوع الالام وست النور وعيد الفصح، تصادم بين افراد ينتسبون الى قوميات اوربية مختلفة. لذلك لم تكتف بيقظة موظفي الشرطة والامن العام، بل كانت تهدم بسريات من الجنود النظامية بقيادة احسن ضباطها، لالقاء الرهبة في نفوس الطائشين ودرء كل ما يمكن ان يعطراً على اطمئنان المصلين والزائرين من شغب. وكان الحاكم الاداري وقائد الفرقة يحضران بانفسهما بعض تلك الاحتفالات. فيتصلان في نهاية كل منها بالعاصمة برقياً مطمئنين عن استتاب الامن والسلام.

كان قناصل روسيا واليونان من بين ذوي المقامات السياسية الاجنبية، يأتون مع حاشيتهم الى كنيسة القيامة بموكب رسمي للاشتراك في الاحتفالات الدينية الارثوذكسية، بمقابل حضور قناصل فرنسا بموكب رسمي ايضاً الاحتفالات اللاتينية.

والجددير بالذكر، ان اكثر الزائرين هم الروس الاتقياء وقد يبلغ عددهم عشرة الاف زائر في موسم عيد الفصح، فتعج بهم الكنيسة على رحبها دون ان يسمع لاحدهم صوت.

للاحباش كنيسة كبرى في دير ملاصق لكنيسة القيامة ويوجد بالقرب منها للامان الانجيليين كنيسة حديثة متقنة وللموازنة كنيسة ضمن دير داخل المدينة. وبدهي ان تكون دور البطريركيات الارثوذكسية واللاتينية والارمنية ودور اساقفة باقي الطوائف المسيحية ضمن المدينة ايضاً.

اما خارج المدينة القديمة المحاطة بالسور، فحافل بالاديرة والكنائس والمؤسسات والمدارس الاجنبية من مختلف القوميات الاوربية والاميركية. وفي جبل الطور، القريب من المدينة، دير وكنيسة للروس يتوسط ساحتها قاعدة جرس يرى من اعلاها البحر المتوسط غرباً ونهر الاردن

والبحر الميت شرقاً. وقد بنى الالمان في هذا الجبل بناية فخمة اعدت لنزول الامبراطور غليوم والاسرة المالكة وعظماء الالمان حين زيارتهم القدس.

المؤسسة الروسية :

بعد ظهر يوم الجمعة، ذهبت بصحبة الزميل الصديق. علي بك جار الله للنزهة في حديقة المؤسسة الروسية المعروفة «بالمسكوبية»، وهي مؤسسة معدة لاستقبال الزوار الروس في الاعياد والمواسم، يديرها رهبان وراهبات من الروس انفسهم، يحيط بينائها الفخم وكنيستها الكبرى حدائق وكروم زيتون على التلال والاوودية، يتألف من مجموع ذلك مناظر رائعة يرى منها جبل الطور والابنية التاريخية البارزة بقبيها ومآذنها وقواعد اجراسها، مما يضمن لكل زائر راحته وانسراحه مهما كان مثقلاً بالانتعاب فكراً وجسماً.

تظل ابواب هذه الحديقة مفتوحة للزائرين من عصر كل يوم، حتى ساعة بعد غروب الشمس، ويوجد في باحاتها مقاعد لمن اراد الجلوس من المنتزهين. وقد لفت رفيقي الكريم نظري الى الانتظام السائد بين سكان المؤسسة والزوار الروس، حين اقبلوا قبيل الغروب يستقون من حنفية ماء واحدة ويبد كل منهم ابريق من الومينيوم. فكانوا يفدون جماعات متتابعة نحو الماء مع فاصلة دقيقة او دقيقتين بين كل جماعة مؤلفة من عشرين او ثلاثين نفساً، دون ان يخل احدهم بالنظام او يسمع له صوت، خلافاً لتسابق نقلة الماء بالاجور من امكنة معينة في المدينة الى بيوت معظم سكانها تسابقاً يقترن في الغالب بتزاحم وتنازع ممقوتين.

اما الكنيسة الكبرى، فقد امتازت بجوقة مرتليها الروس، مما حفز بالكثيرين من مختلف الطوائف وعشاق الانغام للاقبال على سماعها وكأنهم امام مسابقة موسيقية بدون اية آلة من آلاتها، كما تميزت بمظاهر التقى والصلاح البارزين في المصلين الروس المنصرفين بجميع حواسهم الى استماع القداس من بدايته حتى نهايته دون ان يلتفت احدهم يمينا او شمالاً.

الاشتراكية الانجيلية :

بين متعدد الطوائف المسيحية، على اختلاف مذاهبها وقومياتها وتزاحمها، على رعاية الاماكن المقدسة والاثرية واستثمارها لمصلحة المحتاجين ونشر التعليم والتربية الفضلى بين الرهبان والمواطنين، ظهرت حديثاً في القدس جمعية مسيحية اشتراكية قام بتأسيسها اميركان انجيليون على الاسس الواردة في اعمال الرسل وشاركهم فيها فلسطينيون تجاوز عددهم آتذ المئة بين رجال ونساء واولاد، يضعون ما يجمعه كبارهم من ثمرة جهود التدريس وبيع المصنوعات المحلية الى الزوار في صندوق مشترك وينفقون منه حسب حاجة كل منهم. وقد عرفوا بدمائة الخلق وحسن المعاشرة وانشأوا مدرسة ابتدائية للذكور والاناث، تعلم العربية والانكليزية، الى جانب ابناء اعضاء الجمعية، عدداً غير قليل من ابناء كرام العائلات الاسلامية والمسيحية، دون شرط الانضواء تحت راية الاشتراكية.

قام افراد هذه الجمعية باعمال حرة متنوعة، فكان منهم مدير المدرسة والمعلم والمعلمة

ومنهم الصانع والبائع في مخازن معدة لمصنوعات صدفية وخشبية يرغب في اقتنائها السياح وزوار الاماكن المقدسة .

لقد حضرت احدى حفلاتهم العائلية بصحبة الزميل الوجيه علي بك جار الله ، صديقهم القديم ، فاعجبنا بما ساد جو الاجتماع من روح المحبة والوداعة والانس والمرح وعالي التهذيب .

الخلاف بين البطريركية الارثوذكسية وابنائها العرب :

الخلاف الارثوذكسي في البطريركية الاورشليمية من الناحية المدنية بين ابنائها وبين القائمين على ادارتها من الروم واليونان ، وكلهم عثمانى ارثوذكسي وان اختلفت قوميتهم ، قديم العهد ، دون ان يترك البطريرك السياسي العظيم داميانوس ومن سبقه من البطاركة مجالاً لظهور اي اثر له ، الى ان اعلنت الحرية والدستور في المملكة العثمانية (١٩٠٨) . حينئذ نشط فريق من الشبان العرب ، كان من ابرزهم الاستاذ يوسف العيسى الصحفي المعروف واعلنوا مطالبهم العديدة ويمكن اجمالها في ثلاثة : اولاً - ان يكون مطران عربي واحد على الاقل بين الاثني عشر مطرانا يونانيا المقيم بعضهم في الابريشيات والاكثرية في المقر البطريركي .

ثانياً - ان يشترك العرب في ادارة الاديرة والاقواف وهي كثيرة وغنية يقدر ايرادها السنوي باربعين الفاً من الليرات العثمانية .

ثالثاً - رفع شأن المدارس الارثوذكسية واحداث كلية اسوةً بالطوائف الغربية . بينما يصرح البطريرك وحاشيته اليونانية باستعدادهم لارسال تلامذة من العرب الى المدارس اللاهوتية في اثينا او في خالكي ، احدى جزر البوسفور ، تمهيداً لترقيتهم الى مرتبة الاسقفية ، ويعدون باصلاح ادارة الاوقاف والمدارس ، ولكنهم لم يحققوا شيئاً يذكر من هذه الدعوة .

والحقيقة ان جماعة الاكليروس اليوناني الذين القوا منهم اخوية القبر المقدس ازدادوا احتفاظاً بفكرتهم القومية حين رأوا نجاح الكنيسة الانطاكية باعتلاء مطارنتها ورهبانها العرب السدة البطريركية ومعظم الابريشيات التي كانت بيد اخوانهم اليونانيين . لذلك عمد فريق من العرب الى مقاطعة البطريركية او ينالوا مطالبهم واعتمدوا في نشرها جريدة «فلسطين» في يافا وجريدة «الانصاف» في القدس ، بينما اعتمدت طباعة الرهبان اليونان جريدة «القدس» الواسعة الانتشار للدفاع عن خطتهم وصدق حراستهم الاماكن المقدسة وعطف البطريرك على جميع فقراء الملة ، من عرب ويونان على السواء ، واسكانهم مجاناً في بيوت الوقف .

وبدهي ان تظل الغلبة للبطريركية ، بفضل مركزها الديني وكرمها الخائمي وحسن صلاتها بالحكام والموظفين في مختلف الدوائر ومبادلتها رابطة الاخوة مع البطريركية المسكونية في العاصمة واركانها من روحيين وعلمانيين . ولا ينكر ان عدداً كبيراً من الشباب العربي من مختلف الاديان والمذاهب ، في القدس وملحقاتها ، كان بكل عواطفه الى جانب العرب الارثوذكسين ، متمنياً لهم النجاح في سعيهم ، حتى ان رئيس المحكمة جمال بك كان جد صريح في مناصرتهم . فقطع الزيارات والمناسبات الاجتماعية مع خصومهم ونال بسبب ذلك انتقاداً مريراً من المتصرف وغيره

من القضاة والوجهاء، الحريصين على بقاء القضاء بعيداً عن كل تحزب لجهة من الجهات المتنازعة على ان النائب العام جلال زهدي بك ومعظم القضاة ظلوا محافظين على حيادهم بازاء الفريقين .

كان من العادة المستحبة في القدس ان يبعث البطريرك في عيد الفصح المجيد، الى الاصدقاء من المسلمين وكبار الموظفين، هدية من البيض المسلوق والقداس (الخبز المصلى عليه في الكنيسة). وقد جاءني الرئيس جمال بك قائلاً انه لم يقبل الهدية الواردة اليه من هذا القبيل ودعاني الى الاقتداء به . فرفضت طلبه قائلاً اني بحكم الوظيفة، على الحياد بين الفريقين المتنازعين وبمقتضى التدين والاجتماع اقبل هدية البطريرك على بساطتها كبركة من رئيس الكنيسة .

والحقيقة التي لا يختلف فيها اثنان، ان البطريركية الاورشليمية، لو استطاعت تنظيم موازنتها السنوية فيما يتعلق بادارة الاوقاف وغيرها، وأسست المدارس الكافية لسد حاجة ابنائها، وعلمت العرب منهم اليونانية واليونانيين العربية لضمان الاخاء بينهم، ورفعت مستوى الكنيسة فوق السياسة والقومية، لكانت قلة انظار الجميع في شتى الامور الدينية والمدنية .

المسجد الاقصى ومقام النبي موسى :

هو ثالث الحرمين الشريفين (مكة المكرمة والمدينة المنورة) ومهوى افئدة العرب خاصةً والمسلمين عامةً، يقصده الزوار والسياح من اقطار العالم ويجتمع فيه لاداء صلاة الجمعة كل اسبوع وصلاة العيد والاقوات الخمسة، جماهير المؤمنين وتظل ابوابه مفتوحة طول النهار وبعض الليل وتغلق بعد صلاة العشاء لتفتح قبل الفجر .

يقوم على رأس ادارة المسجد الاقصى شيخ جليل من علماء القدس يسمى شيخ الحرم وتشرف على ادارته مديرية الاوقاف الاسلامية .

لا يسمح لليهود دخول المسجد الاقصى مطلقاً، غير ان المتدينين منهم يقضون كل نهار سبت امام جدار من جدرانه الخارجية يسمى حائط المبكى ويكون فيه مجدهم الزائل ويرجون من الله ان لا يفتقد ذنوب الآباء في الابناء وان يرأف بهم ويعيد الملك لاسرائيل .

يحتفل المسلمون في القدس والقادمون اليها من سائر فلسطين والبلدان العربية والاسلامية بزيارة مقام النبي موسى، شرقي القدس، على مسافة نهار مشياً على الاقدام، باهازيج وادعية وابتهالات وراء رايات واعلام موشاة بآيات كريمة واحاديث شريفة، في نفس الاسبوع الذي يحتفل فيه المسيحيون بعيد الفصح المجيد، حين تكون فلسطين ولا سيما مدينة القدس قبلة الزوار من جميع اقطار العالم .

وفي نيسان عام ١٩١٠، سار الموكب العظيم كسابق العرف يوم الجمعة من المسجد الاقصى الى مقام النبي موسى، على ان يعود في نهاية الاسبوع بنفس الاحتفالات، وقبل عودته، طراً على مسامع من في القدس ما لم يكن في الحسبان، مما يجده القارئ في البحث التالي .

التنقيب عن الآثار في الحرم الشريف :

قبل ان يعود موكب النبي موسى الى القدس، شاع خبر قيام بعثة اثرية بريطانية سرّاً بحفريات في حرم المسجد الاقصى وتحت قبة الصخرة المشرفة، حيث كان يدخل عمال البعثة الفنيون، بعد سابق الاتفاق مع شيخ الحرم، حوالي الساعة العاشرة ليلاً، حين تكون الابواب الخارجية مغلقة ويحفرون مدة اربع او خمس ساعات، يعيدون بعدها سطح الارض الى حالته الاصلية. وقد ثابرت اللجنة على عملها الليلي شهراً من الزمن، الى ان ظفرت بضالتها المنشودة وهي سيف واواني ذهبية يرجع تاريخها الى عهد الملك سليمان الحكيم.

وشاع في الوقت نفسه ان الوزارة العثمانية هي التي اجازت لهذه اللجنة القيام بمهمتها الاثرية واتخذت الحكومة المحلية التدابير المقتضية لاتمامها سرّاً، بعد اليعاز الى مديرية الاوقاف وشيخ الحرم.

ولما كان لكل معارضة في ظل الحكم الدستوري شأن يجعلها تغتنم الفرص لاثارة الشغب ضد القائمين على الحكم، ولا سيما اذا كان هنالك ما يمس المشاعر الدينية، لذلك انتشرت الاشاعة في المدينة بسرعة البرق ووصلت الى مسامع موكب النبي موسى، فانقلب فور عودته الى القدس الى تظاهرات وهتافات عدائية عارمة على اولياء الامر صغاراً وكباراً.

ولكن الحكومة، التي تجلّى موقفها بعزم رئيسها عزمي بك وحزم قائد الدرك والامن العام سامي بك وحسن تدبيرهما، تمكنت من الحيلولة دون تفاقم الشر واضطراب جبل الامن. فاحالت شيخ الحرم وغيره من صغار الموظفين الى لجنة التحقيق، الذي لم ينته الا بعد ان استقر الهدوء وعادت السكينة الى المدينة وعاد كل شيء الا الاثار المكتشفة الى مجراه الطبيعي. وكما اثار هذا الحادث هجوم المعارضة في المجلس النيابي، اثار ايضاً حفيظة المتعصبين للدين ضد اولياء الامور وضد البعثة الاثرية ومتبوعتها بريطانيا العظمى ولكن بدون جدوى، لان الحكومة القائمة لم يعسر عليها افهام الشعب ان التنقيب عن كل هذه الآثار قد ينفع البلاد من الوجيهات العلمية والثقافية والاقتصادية دون ان يكون له اي مساس بالشعائر الدينية.

اليهود في القدس :

اليهود قسمان، سفراء واسكناج. فالاول يشمل المواطنين والمقيمين في البلاد العربية وفي فرنسا واسبانيا، والثاني يضم المقيمين في المانيا والنمسا وروسيا وبعض المدن الاوربية الاخرى واميركا الشمالية، وقد هاجروا الى تلك البلاد هجرة تجارية واستوطنوها واحرزوا فيها ثراء بارزاً، وهم اكثرية اليهود ودعامة الصهيونية.

لم يتجاوز عدد اليهود السفراء الذين يعيشون في فلسطين من قديم الزمن عشرين الفاً، منهم خمسة او ستة آلاف مقيم في القدس. ولما كانوا في الغالب فقراء، عطف عليهم اغنياؤهم المقيمون في اوربا، وفي مقدمتهم البارون روتشيلد، فاسس لهم على نفقته الخاصة المدارس

المسماة «اليانس» (الحلف) وكان يشرف على ادارتها وادارة شؤون اليهود بازاء الحكومة السيد عتايي .

وقد جاء فلسطين من القسم الثاني اسكناج عدد كبير واستوطن بعضهم في ضواحي القدس خارج السور وفي يافا وبعض القرى المجاورة لها وحيثما وظلوا محتفظين بجنسياتهم للاستفادة من الامتيازات الاجنبية فكان منهم في القدس تجار وصرافون ومديرو فنادق واساتذة مدارس واطباء وارباب مهن حرة، كالخياطة وغيرها . وكان بينهم وبين اخوانهم السفراء تناظر وتزاحم لم تخف اثاره عن معاشريهم ، وقد ظهر ان رجال الدين من الاسكناج هم اشد تمسكاً بدينهم وقوميتهم من زملائهم السفراء .

اخبرني زميلي القاضي يومتوب آمون افندي ان اليهود المواطنين قدموا له بيتاً لسكنه وراتباً لقاء تدريسه التركية في مدرستهم الخاصة ، ولولا ذلك لما استطاع البقاء في الوظيفة براتبها المتواضع بازاء الغلاء المتصاعد . والحقيقة ان قومه يرون في وجود امثاله من احسن رجالهم في دوائر الحكومة ضماناً لمساعدتهم في قضاء حاجاتهم الحكومية عند الاقتضاء .

لقد ظهر ان تعاون اليهود العالمي في الامور الاقتصادية قد زاد المتاجر اليهودية في القدس نشاطاً مكنها من مزاحمة غيرها رغم محافظة جميع اليهود على الاستراحة ايام السبت واغلاق مخازنهم اغلاقاً يلفت نظر كل مار في اسواق القدس .

ومما يجدر ذكره ، ان اهل القدس الودعاء كانوا يبادلون مواطنيهم اليهود عواطف المودة والاخاء ، دون ان يخطر لهم ببال (وهم في عام ١٩١٠) أنه سيأتي يوم يقصدهم فيه عن ديارهم اليهود النازحون من شتى اقطار العالم فيصبح اصحاب البلاد لاجئين في الاقطار العربية ، على ان العرب اباة الضيم لن ينسوا هذه المأساة صنيعة الاستعمار ، وهم جادون في سبيل عودة الحق الى نصابه عاجلاً او آجلاً .

الشعور الوطني والنفوذ الاجنبي :

لا شك بأن اكثر ما يحز في نفوس العثمانيين المأ وشكوى هو ما يرونه من امتياز الاجنبي عليهم في عقودهم ، بفضل الامتيازات الاجنبية التي نالتها الدول الاوربية منحاً من سلاطين آل عثمان ثم تمسكت بها كحق من حقوقها الاساسية .

ومن جملة هذه الامتيازات ، انه كان لكل دولة من تلك الدول الاجنبية دوائر بريد لها ما لدوائر بريد الحكومة المحلية من حقوق . وقد فاق بريد القنصلية النمساوية في القدس ، التي كان يديرها رجل يهودي ، غيرها رواجاً وشهرة .

شاء مدير البريد العثماني امين بك ، المعروف بغيرته على مهام وظيفته وجده ونشاطه ومزيد اخلاصه في العمل ، ان يزاحم البريد النمساوي ويتفوق عليه ببيع الطوابع البريدية . فلجأ الى سمسار يهودي واتفق معه على ان يعطيه اربعين بالمئة من قيمة الطوابع العثمانية التي يقوم بتصريفها بيعاً الى الناس ، فبلغ ثمن ما صرفه هذا اليهودي في نهاية الشهر من طوابع ما يعادل

مبيع سنة بكاملها. فانشرح صدر المدير، ظاناً انه قام بفتح جديد سيكافأ عليه من مرجعه الذي رفع الامر اليه. ولكن لم يطل انتظاره حتى صعق للجواب الذي ورده وملخصه ان السمسار اليهودي كان يوزع ما اخذه من امين بك من طوابع على الباعة في امهات مدن سورية متنازلاً لهم عن نصف عمولته، فكانت النتيجة هبوط تصريف الطوابع من صناديق دوائر هذه المدن هبوطاً افقد صواب القائمين عليها، الى ان تنبّهت الوزارة للامر ووجهت الى مدير القدس برقية لوم وتعنيف لعدم خصه الطوابع التي سلّمها للسمسار بسمة الاستعمال في فلسطين دون سواها.

اذا كانت هذه الحادثة قد دلت على سلامة قلب مدير البريد العثماني وقلة خبرته اللازمة لتوقي الاخطار التي قد تأتي عن السماسرة وغيرهم، فان الشكوى من الامتيازات الاجنبية والسياسة التي اوجدتها وحافظت عليها لما يردده كل وطني مفكر في نفسه ومع اخوانه ومواطنيه، دون ان تؤثر على شعوره بالاخاء الانساني نحو الغرباء المستوطنين والزوار والسياح على اختلاف جنسياتهم الاجنبية القادمين الى القدس وفلسطين، حيث يلقون احسن المعاملة والاعتبار من الشعب والحكومة معاً، كما شاهدت ذلك بنفسي مدة وجودي في تلك الديار العزيزة.

تأسيس محكمة الاستئناف :

كانت محكمة بيروت الاستئنافية مرجعاً لاستئناف الاحكام التي تصدرها محكمة القدس بصفتها البدائية، ولما تبين لوزارة العدل كثرة الدعاوي في لواء القدس، المستقل من الولاية، استصدرت قانوناً بتأسيس محكمة استئناف فيه تكون مرجعاً استئنافياً لمحاكم البداية في مركز القدس واقضيتها ولمحكمة لواء نابلس البدائية.

ومن الجدير بالذكر، ان قضاء الناصرة، الواقع ضمن حدود متصرفية عكا التابعة لولاية بيروت، كان ملحقاً بمتصرفية القدس المستقلة، نزولاً عند طلب الدول الاوربية تسهلاً لمعاملات رعاياها حين يزورون الاماكن المقدسة. وبعد ان تسلم الاتحاديون الحكم في اثر اعلان الدستور، اعيد ربط قضاء الناصرة بمتصرفية عكا رعايةً لمصلحة اهله.

في مطلع تشرين الاول ١٩١٠، تلقيت برقية من وزارة العدل تنبئ بتعييني قاضياً في محكمة القدس الاستئنافية الجديدة. وبوجوب اسراعي اليها للقيام بمهام المدعي العام وكالاً، ريثما يعين الاصيل، فلم اتوان عن تلبية الامر^(١).

شعرت، حين عودتي الى القدس، بششاط وارتياح وسررت لوجودي في محكمة الاستئناف مع جهازة العلم والقانون، الرئيس ابراهيم حقي بك والاعضاء عوني بك الخالدي، خريج معهد الحقوق في الاساتنة، والفقير العلامة الياس بك طراد والحقوقي اللامع الاستاذ عوني اسحق والجزائري المدقق انطون بك شلهوب، وهؤلاء الثلاثة من ابرز محامي بيروت، قبلوا الوظيفة موقناً ليتمكنوا من عودتهم لممارسة المحاماة، بعد ان صدر قانون يحصر ممارستها بخريجي معاهد الحقوق ومن وجد قاضياً استئنافياً مدة سنة او قاضياً بدائياً مدة اربع سنوات.

(١) كان في يافا بعد نقله اليها (ك.ع).

وفي فترة وجودي قائماً بمهام المدعي العام الاستثنائي بالوكالة، تمكنت من ترفيع رفاقي القديم رباح افندي قربة، معاون مأمور التنفيذ في اللاذقية، الى سلك القضاة. فحين، بموجب قرار اللجنة العدلية وموافقة الوزارة، مستطفاً في يافا. فكان موفقاً في ايفاء الوظيفة حقها وفي كل ما اسند اليه بعدها من وظائف اهله لرئاسة محكمة البداية في اللاذقية وظل معروفاً بحزمه ونزاهته وصدق وطنيته.

جناية في الحرم الشريف :

كان السياح القادمون لزيارة الاماكن المقدسة ورؤية الآثار القديمة يلقون، على اختلاف اجناسهم ولغاتهم، كل اكرام وعناية من اهل القدس وملحقاتها ومن جميع موظفي الحكومة. وكان يرافقهم في تجوالهم تراجمة من اهل القدس يتقنون اللغات الاجنبية من افرنسية وانكليزية وروسية والمانية واسبانية وغيرها. ولما دخل فريق من السياح الاميركيين الحرم الشريف، نزل ثلاثة اشخاص منهم، بينهم آنسة، الغرفة الصغيرة الكائنة تحت الصخرة الشريفة، وكان فيها آتذ رجل افغاني يقيم فرض صلاة العصر. فحين شاهد الأنسة بحداثها، لم يستطع الصبر، فاخرج من جيبه سكيناً وطعنها بها طعنة اوقعتها ارضاً. فقبض رفيقاها يدي الجاني وحضر افراد الشرطة على الاثر، فقادوه الى قاضي التحقيق حيث اقر باقتراه الجريمة دفاعاً عن حرمة الاماكن المقدسة التي وطئها السياح باحدثهم.

قامت القدس وقعدت لهذه الجريمة يومين كاملين، ثم هدأت الحالة بفضل التدابير التي اتخذتها الحكومة لضمان اطمئنان السياح.

كرر الجاني اعترافه اثناء المحاكمة وفي نهايتها اجمعت آراء القضاة الخمسة على تجريمه ولكنهم اختلفوا فيما يتعلق بالاسباب والظروف التي رافقت الحرم، فهي مخفة للعقوبة ام مشددة. فكان رئيس المحكمة واحد الاعضاء يريان تخفيفها الى حدها الادنى، وهو ثلاث سنوات في سجن الاشغال الشاقة، بينما يرى عضوان آخرون تشديدها الى الحد الاقصى وهو خمسة عشر عاماً. وبعد ان اشتد الجدل بينهم حرصاً من كل منهم على العدالة، انبرى اصغرهم معلناً رأيه بان تكون العقوبة خمس سنوات، لما في اسباب الجريمة ونتائجها من مستلزمات التخفيف والتشديد. فقبلوا اقتراحه وصدر الحكم باجماع الآراء وكان له حسن الاثر في نظر الحكومة والشعب والسياح معاً.

السفر الى العاصمة :

عند قدوم مدعي العام الاصيل، ثابت على معاونته في معظم الاوقات، الا حين يستدعي نصاب المحكمة وجودي بين قضاتها. ولما لم يبق مانع من استعمال اجازتي السنوية، وهي شهر كامل، عزمت على قضائها في العاصمة بعد ان اسعدني الحظ بفريق ممتاز هو آصف بك، رئيس محكمة القدس البدائية.

غادرنا القدس معاً بالقطار الى يافا ومنها بالباخرة الى بور سعيد، فنزلنا اليها باكراً وتجولنا فيها، الى ان حلّ ميعاد سفر القطار الى القاهرة، فوصلناها ظهراً. وفي صباح اليوم الثاني، ركبنا

القطار الى الاسكندرية وكانت قد وصلتها الباخرة نفسها، فعدنا اليها مساءً بسرور ونشاط، ولدهما في انفسنا رؤية ابن عمي جبرائيل في القاهرة، حيث رافقنا في زيارة متاحفها وحدائقها ومصر الجديدة (هليوبوليس)، وكانت آنذ (١٩١١) في بدء تأسيسها، ثم مشاهدة ابن خالي الرفيق القديم موسى ابراهيم وقرينته الفاضلة في الاسكندرية، حيث تناولنا طعام الغداء في منزلها العامر تلبيةً لدعوتها والحافها. والحق ان مما زاد في سروري هو انشراح رفيق السفر الجزيل الاحترام واطراؤه الاقرباء.

غادرنا ميناء الاسكندرية على ظهر الباخرة وكان الطقس جميلاً. وفي اليوم الثاني، واجهنا ازمير، ميناء الاناضول الكبير، ثم جزيرة ساقر (شيو) فجزيرة مدلي (متلين) فمضيق جناق قلعة (الدردنيل) الى بحر مرمره. وبعد ان اجتازت الباخرة الجزر الصغيرة اللطيفة في مرمره، ابرقت العيون واسارير الوجوه برؤية العاصمة الجميلة، بكل ما حبتها الطبيعة من موقع لا يضاهيه حسناً وروعةً اي مكان آخر في العالم، ومن امن وحرية ضمنها سكان العاصمة المشهورون برفيع التهذيب ولطف المعاشرة، بالاضافة الى حسن تطبيق القانون الاساسي تحت اشراف حكومة الاتحاد والترقي، فضلاً عما في القسطنطينية من آثار قديمة وذكريات تتجدد نشوتها كلما تكررت زيارتها.

في العاصمة :

نزلت بارشاد رفيقي آصف بك في فندق «المسرة» في اسطنبول، وهو قريب من الباب العالي ومعظم النظارات. وغير بعيد عن مطعم علي افندي، وكلا الفندق والمطعم يرتادهما عادة موظفو الدولة وكبار المتقاعدين لنظافتها مع ما تستلزمه اوضاعها الشرقية الراقية من اعتدال في الاسعار بخلاف امثالها في بك اوغلي (بيرا).

قمت في اليوم الثاني من وصولي الى العاصمة بزيارة صديقي الكبير، معاون رأس المدعين العامين لدى محكمة التمييز العليا، مظهر بك، ثم تشرفنا بزيارة استاذي خيرى بك، ناظر الاوقاف، فكان كل منهما على عهدي به من اللطف والالفتات وعظيم النفس والاخلاق، ولا تبدل المناصب العالية من تواضعه وعطفه على الصغير، وقد شجعاني، بصراحتها المحببة، على تكرار زيارتهما. وحين تلتطف مظهر بك بزيارتي في الفندق، دعاني الى تناول العشاء معه في مطعم «طوقاتيان» الشهير في بك اوغلي، فامتثلت امره شاكرًا نبيل عاطفته.

لقد ساعدني الحظ بلقاء اصدقاء قداماء، من زوار العاصمة او المقيمين فيها، فكانت اقضي معهم معظم اوقات فراغي من زيارة الدوائر الرسمية ارواءً لفضول الشباب المنطلق دوماً الى الامام.

من العاصمة الى القدس :

بعد ان ودعت صديقي آصف بك ، الذي اراد ان يقضي كامل اجازته بين اهله وخلانه في العاصمة ، غادرتها قاصداً مقر عملي ، على باخرة فرنسية فيها متصرف القدس الجديد . جودت بك ، منقولاً من منصبه السابق ، متصرفية طرابلس ، وهو كهل لا تفارق الابتسامة وجهه مع رصانة السن والمقام .

ولما وصلت بنا الباخرة الى ميناء طرابلس ، جاء بعض وجهائها ، وكانوا على علم بسفر متصرفهم السابق الى مركز وظيفته الجديدة الرفيعة الشأن ، فأحاطوا به مهئين ، وقد لفت نظري من بينهم شيخ جليل كللت المهابة جمال وجهه وطلاوة حديثه ، فاخذ يعبر بفصيح بيانه عن شعور اخوانه وما يكونونه من عواطف الاجلال لعطوفة جودت بك ، الذي عرفنا ببعضنا ، فاذا بي امام العالم التقى الورع الشيخ عبد الفتاح افندي الزعبي ، الجزيل الاحترام ، فكان هذا الاجتماع بدء تعشقي طرابلس قبل ان اراها .

لدى وصولنا الى محطة القدس ، وجدناها حافلة بالعساكر النظامية ورجال الامن العام ومزدانة بالوجهاء من كبار الموظفين والاهلين ، الذين قدموا لاستقبال المتصرف الجديد .

عدت في اليوم التالي الى العمل مع زملائي القضاة ردحاً من الزمن . وما لبثت ان تلقيت برقية من الوزارة تنبئ بتعييني نائباً عاماً في طرابلس الشام ، فكررت الحمد لله تعالي والشكر لرعاية اولياء الامور وبادلت الرؤساء والزملاء وجميع الاصدقاء الاوفياء مقتضيات الوداع ، حافظاً لكل منهم ما يجب علي من جميل الذكر .

جئت اولاً موطني اللاذقية ، حاملاً ادعية غبطة البطريرك داميانوس الجزيل الاحترام وهديته المباركة ، وهي وسام القبر المقدس لوالدي ، التي ربتني ، وصليبين من ذهب مذخرين بعود الصليب لشقيقتي زلفا وادما ، ومسيحة كهرباء لشقيقي الامين ، فكان فرحهم بلقائي بعد غياب سنة ونصف عظيماً جداً .

وبعد ان قضيت معهم ومع الاقرباء والاصدقاء اياماً معدودة ، سافرت الى طرابلس ، مقر وظيفتي الجديدة ، متكلاً دوماً على الله ورضى الوالدين ودعاء اخوتي الاعزاء .

فلسطين تاريخها وآثارها

من رحلة لجورجي زيدان
صاحب الهلال

مجلة الهلال

السنة ٢٢ (سنة ١٩١٣)

الجزء الثالث وبعده

القدس اقليمها

كنا قبل شخوصنا اليها ونحن في يافا نتوقع ان نلقاها حارة الاقليم قياساً على ما نعرفه من المدائن السورية. وهو الغالب في مدن السواحل. وانما جذبنا اليها ما حوته من الآثار الهامة. فركبنا اليها القطار الحديدي من يافا ولم نكد نتوسط حتى رأينا القطار يجري صعوداً في جبال كثيرة الشبه بجبال لبنان. وقد هب النسيم عليلاً منعشاً كأننا بين عالية وبحمدون. وشكل الجبال في هذا الطريق كثير الشبه بما في لبنان. وفيها الفاكهة من العنب والتين والخوخ وسائر الاثمار. وان كانت في حاجة الى العناية لاستثمارها.

اشرفنا على القدس فاذا هي واقعة على مرتفعات جبلية حولها اودية شهيرة في التاريخ. وتحيط بالاودية جبال اسماؤها على السنة الاطفال في المدارس لكثرة ورودها في التوراة. فاستلقت انتباهنا اولاً لطافة نسيمها وجفاف اقليمها. ولا عجب فانها مرتفعة عن سطح البحر مثل ارتفاع عاليه في لبنان. فيرى المصريون فيها مصيفاً جميلاً لا يخافون فيه حرّاً. وانما يفضلها لبنان بالمياه المتدفقة من ينابيعه الباردة. واما ماء القدس فانه مجموع في الصهاريج من مياه المطر. والينابيع نادرة فيها.

والمدينة على مرتفع اصله بضع تلال لكنه الآن كالتل الواحد مكسو بالابنية. ويحيط بالمدينة من اكثر جهاتها الاودية الا من الشمال حيث امتدت الابنية الحديثة. فليلها من الجنوب والغرب وادي ابن هنوم ويسمى وادي الرباب. وفي الشرق وادي قدرون او وادي ستي مريم ووادي يهوشافاط. واشهر الجبال المحيطة بتلك الاودية جبل الزيتون في الشرق يفصله عن القدس وادي قدرون ووادي ستي مريم.

والقدس القديمة تشبه المربع المنحرف محاطة بسور من بناء السلطان سليمان القانوني في اواسط القرن العاشر للميلاد. ارتفاعه ٣٨ قدماً ومحيطه نحو ميلين ونصف. له ثمانية ابواب بعضها مقفل منذ اجيال. وشوارع المدينة ضيقة مرصفة بالحجارة على طريقة الترصيف في ذلك العصر. وهي مقسومة الى احياء باعتبار الطوائف والعناصر. ولكل منزل صهريج تجمع فيه مياه الامطار. وقد اخذ اهل هذا العصر بالبناء خارج السور. واكثر ابنتهم في الشمال وما يليه بينها قصور وحدائق على النمط الحديث. واهم ابنتها الاديار والمعابد والمزارات حتى يصح ان يقال انها «معبد كبير».

سكانها عددهم نحو ٩٠ ٠٠٠ نفس منهم ٦٠ ٠٠٠ اسرائيليون ونحو ١٢٠٠٠ من المسلمين و ١٨٠٠٠ من المسيحيين بوجه التقريب^(١). يقسمون الى امم شتى.

(١) هذه الارقام هي تقديرات، ولا تقوم على احصاءات للسكان (ك.ع).

آثارها

وفي القدس آثار كثيرة حتى تكاد لا تحصى مكاناً فيها ليس له ذكر تاريخي في التوراة او غيرها . وكثير من روايات القوم عن تلك الآثار يحتاج الى تحقيق لا محل له هنا . واشهر الآثار واهمها كنيسة القيامة حج المسيحيين والحرم الشريف حج المسلمين فنقدم الكلام فيها :

كنيسة القيامة

هي بناء قديم ضخم واقع في نحو منتصف المدينة القديمة مع ميل قليل نحو الشمال والغرب . وقد اشتهرت هذه الكنيسة وزادت اهميتها لوجود قبر المسيح فيها ويسمى القبر المقدس . والعلماء مختلفون في هل هو قبر المسيح حقيقة؟ اي هل هذا هو المكان الذي قبر فيه المسيح بعد صلبه كما جاء في الاناجيل؟ واما العامة فانهم على ما تسلموه من آباؤهم بلا بحث . وقد تسلسل هذا الاعتقاد من زمن الملكة هيلانة والدة الملك قسطنطين . لانها جاءت الى القدس وبحثت عن قبر المسيح فوجدت الصليب و بنت كنيسة هناك سنة ٣٣٦ م . وتوالى على هذا القبر وما بني حوله من الكنائس والمزارات تاريخ طويل .

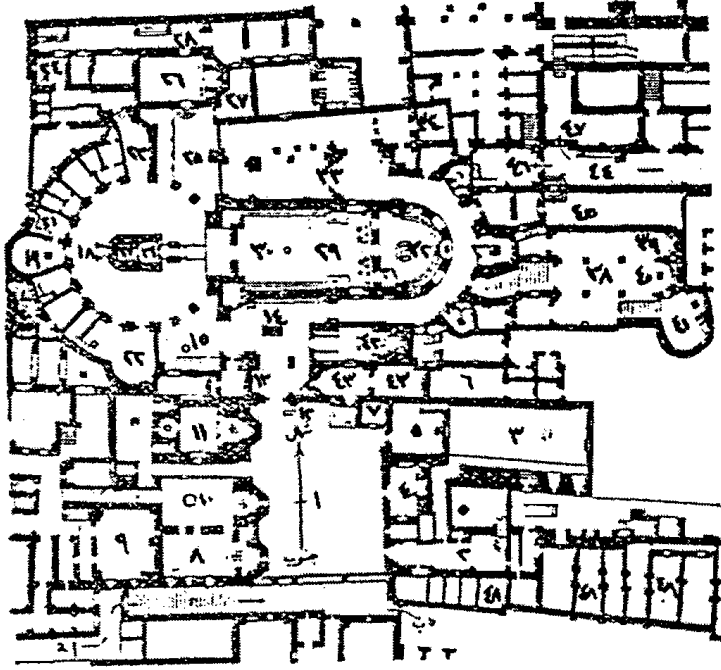
فلما اطلقت الافكار في المدينة الحديثة كانت مسألة القبر المقدس من جملة ما طرح على بساط البحث . ولا يزال الاختلاف سائداً . وحجة المنكرين انه القبر الحقيقي ان المسيح دفن خارج اورشليم وكانت اكبر مما هي الآن كثيراً . والقبر الآن في اواسطها فكيف يكون هو نفسه؟ واخذت طائفة منهم يبحثون عن مكان القبر الحقيقي فذهبوا مذاهب مختلفة . واصحاب القول بانه القبر الحقيقي يوالون البحث في هذا السبيل ايضاً . ولا يتسع المجال لتحقيق هذا الامر هنا فنكتفي بوصف القبر وما يحيط به .

كنيسة القيامة بناء كبير مؤلف من القبر وعدة كنائس ومصليات ومزارات وغيرها . بعضها للروم الارثوذكس والبعض الآخر لللاتين أو الارمن او القبط ونبدأ بالباب الخارجي من جهة الجنوب .

اول شيء يراه المقبل على هذه الكنيسة واجهتها الجنوبية . وبين يديها ساحة مرخمة ببلاط ضخم يظهر من بقاياها انها كانت كالرواق العريض القائم على الاعمدة . وهي مربعة الشكل مستطيلة . ضلعها الشمالي واجهة الكنيسة وهو يقابل القادم اليها . والجنوبي يلي الطريق عليه بقايا اعمدة من رخام . وضلعها الشرقي الى يمين المقبل وفيه دير ابراهيم ومصلى الارمن وكنيسة القديس ميخائيل للقبط . وضلعها الغربي فيه كنائس القديس يعقوب ومريم المجدلية والاربعين شهيداً وغيرها .

وأما الواجهة ففيها باب يدخل منه الى الكنيسة عليه نقوش رومانية وعربية وبعد دخول الباب الى اليسار مقعد يجلس عليه خفراء مسلمون من قبل الحكومة . وأول شيء يقابل الداخل حجر مربع مستطيل طوله سبعة اقدام وعرضة قدمان . لونه اصفر محمر يسمى حجر الدهن او

المسح . يقال ان جسد المسيح وضع عليه وحنطه نيقوديموس . وعلى مسافة ٣٣ قدماً نحو الغرب حجر آخر يقال ان النساء وقفن عنده وقت التحنيط . وقد تداول امتلاك حجر المسح او الدهن طوائف مختلفة من النصارى . فكان في القرن الخامس عشر خاصاً بالاقباط . وفي القرن السادس عشر صار الى الجورجيين (الارمن) ودفع اللاتين ٥٠٠٠٠ غرش لنيل حق ايقاد المصابيح فوقه . ثم صار الى اليونان لكن الطوائف الاخرى لها حق ايقاد الشموع او المصابيح فوقه . فتجد هناك عدة مصابيح للارمن واللاتين والروم والاقباط .



خريطة كنيسة القيامة

- | | | |
|-------------------------------|--------------------------|------------------------------|
| (١) ساحة الكنيسة قبل مدخلها | (١٢) قبر فيليب دوبيني | (٢٤) صهريج القديسة هيلانة |
| (٢) دير ابراهيم | (١٣) مجلس الخفر المسلمين | (٢٥) مدخل الكنيسة الاخر |
| (٣) دكاكين اروام | (١٤) حجر المسح او الدهن | (٢٦) كنيسة ظهور الروح |
| (٤) مصلى الارمن | (١٥) حجر مشاهدات المسح | (٢٧) كنيسة اللاتين |
| (٥) كنيسة قبطية للقديس مخائيل | (١٦) مصلى الملائكة | (٢٨) دير اللاتين |
| (٦) كنيسة الاحباش | (١٧) القبر المقدس نفسه | (٢٩) كنيسة الروم ونصف الدنيا |
| (٧) كنيسة مريم المصرية (تحت) | (١٨) مصلى القبط | (٣٠) مركز العالم |
| كنيسة آلام العذراء (فوق) | (١٩) مصلى السريان | (٣١) مجلس البطريرك |
| (٨) كنيسة مار يعقوب للروم | (٢٠) حجرة في الصخر | الاورشليمي |
| (٩) كنيسة القديسة تقلا | (٢١) ممر الى قاعة الارمن | (٣٢) الخورس |
| (١٠) كنيسة مريم المجدلية | (٢٢) الجناح الجنوبي | (٣٣) جناح كنيسة الصليبيين |
| (١١) كنيسة الاربعين شهيداً | (٢٣) الطريق الى الصهريج | (٣٤) حبس المسيح |

(٣٥) مصلى القديس لونجينوس	(٤٠) مصلى مذبح الامبراطورة	(٤٥) دير الاحباش
(٣٦) مصلى اقتسام ثياب المسيح	(٤١) مصلى وجود الصليب	(٤٦) مدخل دير الاحباش
(٣٧) مصلى الازدراء	(٤٢) مصلى نصب الصليب	(٤٧) مدخل صهريج هيلانة
(٣٨) مصلى الامبراطورة هيلانة	(٤٣) مصلى تسمير الصليب	(٤٨) الملجأ اليوناني
(٣٩) مصلى اللص التائب	(٤٤) المدخل من السوق	

القبر المقدس

ويمشي الزائر نحو اليسار بضع عشرة خطوة الى بقعة مستديرة في وسطها بناء عال فوقة قبة قطره ٦٥ قدماً ويحتوي على القبر المقدس . والبناء المذكور مبني من قديم الزمان لكن الموجود الآن منه تم سنة ١٨١٠ وهو قائم على ١٨ عموداً متصلة من اعلاها باقواس في اتقن ما يكون . واجهته التي فيها الباب متجهة نحو الشرق مقابل الكنيسة الخاصة بالروم الارثوذكس نصف الدنيا .

وإذا تأملت تلك الواجهة ادهشك كثرة ما فيها من أدوات التكريم والتعظيم كالقناديل والمصابيح الذهبية والشموع الضخمة والرايات المقدسة والصور عليها الخلي من الذهب والفضة تملأ الواجهة الى اعلاها . وفي اسفل تلك الواجهة مدخل ذلك البناء الى الضريح . يستطرق الى فسحة كالغرفة طولها ٢٦ قدماً وعرضها ١٧ قدماً مثمثة الشكل جدرانها من الرخام . تم بناؤها سنة ١٨١٠ وهي تنتهي الى حجرة تسمى مصلى الملائكة طولها ١١ قدماً وعرضها ١٠ اقدام مصفحة بالرخام وقد تعلق في سقفها قناديل من ذهب عددها ١٥ قنديلاً خمسة منها لليونان وخمسة للاتين واربعة للارمن وواحد للاقباط . وفي وسط هذا المصلى حجر يعتقدون انه الحجر الذي دحرجه الملك عن القبر .

ويدخل من هذا المصلى في باب ضيق الى حجرة الضريح وفيها القبر نفسه . طوله ستة اقدام ونصف وعرضه نحو اربعة اقدام سطحه من رخام جميل . وسقف الضريح قائم على اعمدة ويتدلى منه ٤٣ قنديلاً من الذهب منها ٤ للاقباط والباقي مقسوم بين الطوائف الاخرى على السواء . وعلى جدران تلك الحجرة نقوش تمثل بعض حركات المسيح كل منها لطائفة من الطوائف المشتركة في تكريم هذا المكان . في هذه الحجرة تتلى الصلاة كل يوم وهو اقدس مكان في كنيسة القيامة .

وفي سفر لوقا ان المسيح دفن في قبر من حجر ويقال ان هيلانة لما بحثت عن قبر المسيح وجدت هناك كهفاً بنت فوّه مصلى . ولما ملك الصليبيون بيت المقدس كان شكل المكان مستديراً وفيه حجرتان الخارجية منها مصلى الملائكة والداخلية فيها القبر . ويؤخذ من التقاليد المتوارثة ان ذلك البناء تهدم سنة ١٥٥٥ حتى انكشف القبر ووجدوا فيه قطعاً من خشب الصليب . فاعيد البناء بسنة ١٧١٩ ثم اصابه حريق سنة ١٨٠٨ فاعيد بناؤه سنة ١٨١٠ .

وحول البناء المشار اليها خلاء مرصف بالرخام تحيط به ابنية الكنيسة . ووراء الابواب الدهاليز المؤدية الى سائر اجزائها . ولما كان القبر هو اقدس مكان هناك اتفقت الطوائف المسيحية

على الاجتزاء من قربه او الحصول على مكان يمكن ابناء كل طائفة من الوقوف فيه عند الاحتفال بانبثاق النور في يوم سبت النور. والنور في ذلك اليوم يخرج للناس من كوة في جدار القبر. فيقتبسون منه بشموع اعدوها في ايديهم. فاذا اضيئت تبركوا بلهبها فيدنونه من وجوههم أو ثيابهم على نسبة ايمانهم وصحة اعتقادهم. والروسيون اكثر الحجاج ايماناً فيتقدم احدهم ويده شمعة أو شمعات يديها من النور الخارج من الكوة فاذا اضاءت ادار لهبها حول وجهه وادخلها تحت ثيابه وهو لا يخشى احتراقاً. وللباحثين آراء مختلفة في كيفية تكون ذلك النور. أما المؤمنون فيعتقدون انه يخرج من القبر المقدس. وليس من شأننا الخوض في هذا الموضوع.

الاختصاص والتنازع

والخلاء المذكور حول القبر اقتسمته الطوائف النصرانية بينها. منه مصلى محدود بالدرايزين في قفا القبر ابي في الغرب هو خاص بالاقباط من القرن السادس عشر. فالاقباط يقفون في يوم سبت النور هناك. وقس على ذلك مواقف سائر الطوائف وهم الروم الارثوذكس والارمن والسريان لكل منها بقعة مخصصة لها. ولا يسمح لطائفة ان تتعدى حدودها. ومن تجاسر على ذلك منعه جاره المعتدى عليه. وكثيراً ما يحدث الخصام ويتضاربون بالعصي والخنجر في هذا السبيل. وقد يتضاربون عند كنس تلك المواقف او تنظيفها. فلا يؤذن للطائفة ان تكنس غير الجزء المختص بها. فاذا مست الكنيسة جزءاً من مواقف الجار نبهه هذا. فاذا لم يُذعن منعه بالقوة. كأن تنظيف المكان يجعل للمنظف حقاً في تملكه - من قبيل وضع اليد!

وقد سمعنا حكايات من هذا القبيل ينكرها السامع لاول وهلة لغرابتها ولكن التواتر يؤيدها. واغرب من ذلك تنازعهم على ما هو غير مقسوم من اجزاء البناء كالجدران والاعمدة والسقوف فهذه لا تخص طائفة دون أخرى. فاذا وقعت ايقونة كانت معلقة على احد الجدران تخصموا على من يعلقها في مكانها. واذا تهدم جزء اختصاصوا في من يرممه من الطوائف. اذ لا يجسر احد على ان يفعل ذلك وحده. وكثيراً ما يبقى ذلك النقص شهراً او اعواماً حتى تعقد المجالس المشتركة او تتداخل الحكومات في الاقرار على اصلاحه. وقد وقع خصام من هذا النوع في اواسط القرن الماضي فكان من جملة الذرائع التي جرّت الدول النصرانية الى الاختصاص في حرب القرم. وقد شاهدنا في مغارة بيت لحم شباكاً واقع في كنيسة لكل طائفة من الطوائف جزء منها فيه قد تراكم نسيج العنكبوت على زجاجه وكساه الغبار. ورأينا ارض الكنيسة نظيفة فسألنا عن سبب بقاء ذلك الشباك مهملاً. فأجابوا انه لا يخص طائفة دون أخرى فلا تتجاسر واحدة منهم على تنظيفه بدون ان تتعرض لغضب جارتها. وقد يشتد الخصام حتى ينجلي عن الجرحى والقتلى. ولذلك فان الحكومة اقامت الخفر من الجند يبيتون هناك منعاً لهذه الاخطار.

وقس على ذلك تنازعهم في سائر اماكن المزارات المشتركة. وقد باحثنا بعض العقلاء في سبب ذلك النزاع ولماذا لا تتفق الطوائف المشتركة في مزار على اقتسامه بخريطة تعين فيها حدود

كل طائفة . ثم لا يتنازعون عند كنسه او تنظيفه اذ يكون حق كل منهن ميئناً في الخريطة . فاستصوبوا ذلك لكنهم قالوا ان الطوائف لا تقبل به . ويلوح لنا ان التي لا تقبل انما هي الطوائف اصحاب الحصص الصغرى في تلك الاماكن . ولا تزال ترجو ان تزيد حصتها بوضع اليد او المغالطة . مما لا يليق البقاء عليه في هذا العصر . وقد آن لعقلاء هذه الطوائف ان يضعوا حدًا لهذا الامر فانه سخرية يضحك منها النصرارى انفسهم فكيف سواهم؟

مزارات اخرى

وفي كنيسة القيامة كنائس ومصليات وتذكارات عديدة يضيّق المكان عن شرحها . اهمها كنيسة الروم الارثوذكس مدخلها يقابل واجهة قبة القبر المقدس فيها كثير من زخارف التحف في وسطها مكان يعتقدون انه مركز العالم او نصف الدنيا . وهو اعتقاد قديم وتنوّل بالتقليد . وفيها عرشان كبيران يجلس على احدهما البطريرك الانطاكي وعلى الآخر البطريرك الاورشليمي . وهناك حجرة للآتين فيها اوان بينها تحف كنائسية قديمة ارونا منها سيف جودفروا دي بولون صاحب بيت المقدس في زمن الصليبين ومهمازه وصليبه . طول السيف قدما ٨ قراريط . غير المصليات للطوائف الاخرى واماكن اثرية اهمها الجلجثة وبنوا فيها كنيسة ترتفع عن ارض كنيسة الروم ١٤ قدماً . ويعتقدون ان هناك جبل الجلجثة الذي صلب عليه المسيح قبل دفنه .

الحرم الشريف

للحرم سبعة ابواب^(١) يمكن الدخول منها اليه . ويشتمل على عدة ابنية اهمها المسجد الأقصى وقبة الصخرة . وقد رأينا في روايات العرب عنها انهم يسمون الحرم كله «المسجد الأقصى» .

قبة الصخرة

١ - وصفها من الخارج

ارض الحرم مبلاة ببلاط ضخّم في وسطها نحو الغرب دكة مربعة حولها رواق كالسور على اعمدة يصعد اليها بالسلام . وفي وسط الدكة قبة كبيرة هي قبة الصخرة وبجانبيها نحو الشرق قبة صغيرة اسمها قبة السلسلة . وقباب اخرى نحو الشمال اسمها قبة المعراج وقبة النبي وقبة الارواح . اهمها قبة الصخرة ويسمونها الافرنج خطأ جامع عمر .

ولزيادة الايضاح في الوصف نقسم هذا البناء الى ثلاثة اقسام :-

(١) الطبقة السفلى (٢) المنطقة المستديرة فوقها (٣) القبة نفسها . ونبدأ في وصفها من

(١) الصحيح ١٠ ابواب اذا حسبنا باب السلسلة وباب السلام (السكينة) باين (ك.ع.) .

الخارج . فالطبقة السفلى بناء فخيم جدرانه مثمثة الاضلاع فيها اربعة ابواب . طول الضلع الواحد ٧٧ قدماً وبعض القدم . اسفلها مصفح بالرخام واعلاها مغشى بالقيشاني من ايام السلطان سليمان القانوني سنة ١٥٦١م في غاية الجمال لتناسب الوانه . ويحيط بالبناء آيات من القرآن منقوشة كالطنف . وفي كل ضلع سبعة شبايك الا الجدران التي فيها الابواب ففي كل منها ستة شبايك . ويظهر من هندستها انها من صنع القرن السادس عشر .

والابواب الاربعة يسمى الشمالي منها باب الجنة والغربي الباب الغربي والجنوبي باب القبلة وهو الذي يؤدي الى المسجد الاقصى . والشرقي باب السلسلة أو باب داود . وعلى عتبات هذه الابواب نقوش كتابية جاء فيها ان باني هذه القبة «عبد الله الامام المأمون» . لكن تاريخ البناء في الداخل يدل على انه بني سنة ٧٢هـ في زمن عبد الملك ابن مروان . فالظاهر ان المأمون هو مجدد البناء أو مرعمه .

والطبقة الثانية او المنطقة حائطٌ مستدير فوق البناء المثلث . فيه طاقات كبار من زجاج ملون ومذهب . وفوق المنطقة القبة وهي عالية جداً مليسة بالصفير المذهب اذا اشرفت عليها الشمس تلالأت وظهرت من بعيد . وهي مؤلفة من ثلاث طبقات الاولى البطانة التي يراها الداخل وسنأتي على وصفها . والطبقة الوسطى مصنوعة من اعمدة حديدية شبكت تشبيكاً متيناً تميلها الرياح والطبقة الثالثة وهي الخارجة من خشب عليها الصفائح الملبسة بالصفير في وسطها طريق مدرج يصعد فيه الصناعات لتفقدتها .

٢ - وصفها من الداخل

دخلنا ذلك البناء من باب السلسلة الشرقي فادهشنا ما وقع عليه بصرنا من النقوش الجميلة على الجدران وفي باطن القبة ولا سيما الفسيفساء بالوانها التي تأخذ بالابصار وتستوقف الخاطر لاتقانها وجمالها وهو يبعث على التفكير في مقدار ما أنفق في هذا النقش من الاموال الطائلة . يدل ذلك ان بعض تلك النقوش تدعى الى السقوط فارادوا ان يتداركوه بالترميم فاستقدموا مهندساً ماهراً طلبوا اليه ان يقدر النقصات اللازمة لذلك الترميم فقدرها بعشرين الف جنيه فتأمل .

قطر البناء المثلث عند اسفله ٥٧ متراً . ويقسم الى ثلاث مناطق او اروقة الواحد داخل الاخر . يفصل بينها صفان من الاعمدة موازيان للجدار . فالرواق الاول واقع بين جدار القبة وصف من الاعمدة فيه ثمانى عضائد تقابل زوايا البناء وتشبهها باشكالها . بين كل عضادتين عمودان من الرخام جملتها ستة عشر عموداً . تختلف طولاً ولوناً لانها جمعت في الاصل من انقاض هياكل قديمة ولا سيما هيكل جويتير المتقدم ذكره . وكذلك تيجانها فانها مختلفة الاشكال والاقدار من الطرز البيزانتى . ولا يزال على احدها اثر صليب . علو هذا الرواق عشرون قدماً تتحد اعمدته من اعلى التيجان باحجار ضخمة مستقرة على جسور من الخشب مدعمة بالحديد اسفلها مصفح

بالنحاس . وعلى الجسر قطع من الرخام حافاتها بارزة مزركشة . وهناك رخامات عليها نقوش من زمن السلطان سليمان . وأما الجدار المثلث من الداخل فاعلاه مزخرف بالفسيفساء بأشكال جميلة متداخلة فيها رسوم الازهار وغيرها . وفوق ذلك منطقة زرقاء عليها نقش كوفي قديم باحرف ذهبية هي آيات قرآنية متفرقة هذا نصها : «قل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الدن وكبره تكبيراً» .

«لله ملك السموات والارض يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير» «يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته القاها الى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم انما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السموات وما في الارض وكفى بالله وكيلاً»
«والسلام عليّ يوم وُلدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً . ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون ما كان لله ان يتخذ من ولدٍ سبحانه اذا قضى امراً فإنما يقول له كن فيكون وان الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم»

وهناك نقش كوفي ان هذا البناء تم سنة ٧٢ هـ أي في زمن عبد الملك بن مروان . وعلى النوافذ من البناء المثلث اسم السلطان سليمان وتاريخ سنة ٩٣٥ هـ ويقال ان صلاح الدين كسا الحائط بالرخام والسلطان سليمان أعاد الكساء .

والرواق الثاني دا من الاول واقع بين صف الاعمدة المتقدم ذكره وصف آخر مرتب بشكل مستدير لان القبة مسترة عليه . وهو مؤلف من اربع عضائد ضخمة بين كل اثنتين منها ثلاثة اعمدة الجملة ١٢ عموداً من الرخام . وهي قديمة مثل تلك وقد كسيت قواعدها بالرخام في القرن السادس عشر . تتصل من اعلاها بعقود متينة . وحول هذه الاعمدة في الاسفل حاجز قصير من الحديد صنعه الافرنج في القرن الثاني عشر للميلاد يوم حولوا هذه القبة الى كنيسة فوضعوا هذا الحاجز ليناسب عاداتهم في الصلاة .

وبين القبة نفسها وهذا الرواق المنطقة المستديرة المتقدم ذكرها . وهي مصفحة من الداخل بالفسيفساء على الطرز البيزنطي صنع القرن العاشر أو الحادي عشر للميلاد . يمثل زهريات فيها عناقيد العنب وسنابل القمح في أعلاها ١٦ نافذة عليها أغطية من ملاط فيها ثقوب مختلفة الشكل والحجم . فتحاتها الداخلية اوسع من الخارجية . وقد أفضلت الفتحة الخارجية بزجاج ملون يتألف منه أشكال جميلة . اذا أغلقت أبواب البناء ونفذ النور منها الى داخل القبة ظهر بشكل بديع .

اما القبة نفسها فقد بناها الحاكم بأمر الله^(١) سنة ٤١٣ هـ . علو القبة من الداخل ٣٧ قدماً وعرضها ٦٦ قدماً . لكن علوها من الظاهر ٩٨ قدماً لانها مؤلفة من طبقات كما تقدم . وفي باطن القبة نقش يدهش النظر بالوانه المتناسبة قاعدته زرقا . صنع في زمن السلطان صلاح الدين واعيد صقله بعده مراراً .

(١) الصحيح انه الظاهر لاعزاز دين الله ، ابن الحاكم .

وفي ارض هذا البناء داخل الرواق الاخير صخرة كبيرة يحيط بها حاجز خشبي كالدرابزين طولها ٥٨ قدماً وعرضها ٤٤ قدماً. وعلوها معظمه ستة اقدام فوق ارض البناء المحيطة بها. واختلف الباحثون في اصلها. ويظن بعضهم انها المذبح الذي كانت تقدم عليه المحروقات لانهم اكتشفوا تحتها قناة تجري فيها دماء الذبائح ينزل اليها في ١١ درجة نحو الجنوب. ولكن هذا الرأي يخالف ما تقدم عن موضع المذبح من هيكل سليمان حيث كان تابوت العهد وقدس الأقداس. فلعل القناة التي اكتشفوها تؤدي الى صهريج. وفي التلمود حكايات كثيرة تتعلق بهذه الصخرة

حول قبة الصخرة

وفي قبة الصخرة آثار دينية اخرى اغضينا عن ذكرها. ونكتفي بوصف ما يحيط بها من القباب. اولها قبة السلسلة وتسمى ايضاً محكمة داود. يظنون ان الملك داود كان يجلس هنا للقضاء.

وقبة المعراج ويعتقد المسلمون انه المكان الذي عرج منه النبي من القدس الى مكة. ويؤخذ مما على هذه القبة من النقوش أنها بنيت سنة ٥٩٧هـ وشكلها من النوع القوطي. ووراءها نحو الشمال الغربي قبة النبي يظهر انها حديثة وتحتها مسجد النبي في الصخر. وهناك قبة اخرى تسمى قبة الارواح بجانبها قبة الخضر. وفي الزاوية الشرقية الجنوبية للدكة منبر القاضي برهان الدين نسبة الى بانيها تتلى عندها خطبة كل جمعة في رمضان. وفي الجنوب بين قبة الصخرة والمسجد الاقصى بئر يقال لها بئر الكاس هي بالحقيقة خزان للماء وغير ذلك.

المسجد الاقصى

واقع في القسم الجنوبي وهو بناء مربع له جناحان احدهما في الشمال ممتد نحو الشرق والآخر في الجنوب يمتد نحو الغرب. مشينا اليه من باب قبة الصخرة القبلي فنزلنا من الدكة بدرجات فمررنا ببئر الكاس واقبلنا على المسجد من بابه الشمالي. والمظنون ان هذا المسجد بني في مكان كنيسة بناها يوستينيان^(١) هناك على اسم السيدة مريم. ولما جاء عمر الى القدس صلى في مكان منها هو الآن غرفة في طرف المسجد نحو الجنوب والشرق فبنى المسلمون مسجداً هناك. ولما تولى عبد الملك صفح ابوابه بالذهب والفضة. وفي ايام ابي جعفر المنصور تصدع جانباه الشرقي والغربي بزلازل فاضطروا للانفاق على ترميمه ان يضربوا ما كان عليه من الذهب والفضة نقوداً. ولما تولى المهدي (سنة ١٥٨هـ) كان المسجد قد اصابه زلزال آخر فاعاد بناءه وغير شكله فقلل طولها وزاد في عرضه. وسقط سقفه سنة ٤٥٢هـ فاعيد ولم يبق من انقاض بناية يوستينيان الا القليل.

طول المسجد ٨٦ متراً. اذا دخلته من بابه الشمالي المقابل لقبة الصخرة مشيت بين صفتين

(١) اثبتت الحفريات الأخيرة في البلدة القديمة أن هذا الزعم الذي رده الكثيرون لا اساس له. وقد عثر على كنيسة جوستينيان المشار اليها في منطقة حارة اليهود القائمة على جزء من جبل صهيون. وهي تسمى كنيسة العذراء الجديدة (Nea). انظر

N. Avigad, Discovering Jerusalem, Nashville 1980 P 226-246.

من الاساطين الضخمة متصلة باعلاها بسبعة عقود بناها الملك المعظم عيسى الايوبي (٦٢٥هـ) ثم اعيد بناؤها. وسقفها الموجود الآن من بناء القرن الخامس عشر للميلاد فيه مشابهة للطرز القوطي.

ويتهي ذلك المدخل الى بقعة فوقها قبة يظن انها من بناء المهدي . وفيها نقش عليه كتابة ان صلاح الدين اعاد بناءها . وهي مصنوعة من الخشب مصفحة بالرصاص من الخارج . واما داخلها فانه مزين مثل زينة قبة الصخرة . وعليها اسم السلطان محمد بن قلاوون لانه اعاد زينتها . وفي صدر المسجد محراب تأتق صانعه في صنعه من الخشب المنزل بالعاج والصدف في اجمل ما يكون . فعل ذلك رجل حلبي باشارة السلطان نور الدين سنة ٥٦٤هـ فاذا مشيت نحو اليسار انتهيت الى مسجد عمر . واما في اليمين فتسير في رواق طويل . وفي افاريز المسجد نقوش كتابية اكثرها آيات من القرآن . وفي نوافذه زجاج ملون مثل ما تقدم عن زجاج قبة الصخرة .

سائر ابنية الحرم

ومما يستحق الذكر من ابنية الحرم اسطبلات سليمان . وهي عبارة عن اقبية يتألف منها معظم القسم الجنوبي الشرقي من ساحة الحرم . لان تلك الساحة كانت في اصلها جبلاً غير متساوي السطح . فالظاهر انهم ابتنوا تلك الاقبية لاجل تسويته . والاقبية ضخمة ويظهر من حال قواعدها وما فيها من الثقوب او الحلقات انها كانت مرابط للدواب . ينحدر اليها الزائر من باب في الزاوية الجنوبية الشرقية من ساحة الحرم . وهناك اماكن كثيرة ينسبون اليها حوادث تاريخية بعضها يفترق الى اثبات . وكان لهذه الاقبية شأن في حصار اليهود فانهم كثيراً ما كانوا يختبئون فيها .

وسور الحرم بعضه قديم وبعضه حديث . وكذلك ابوابه واهمها من الوجهة التاريخية باب الذهب ويسمى العرب باب الظاهرية (الصحيح : الدهرية ك.ع .) مؤلف من ثلاث قناطر الشمالية منها تسمى باب التوبة والجنوبية باب الرحمة . وبعض الباب الحالي من بناء القرن السابع للميلاد . والباقي بناه العرب في اوائل القرن التاسع . وفي واجهته الشرقية اعمدة من الرخام يقول اليهود ان ملكة سبا اهدتها الى سليمان . والباب المذكور مغلق من زمن بعيد . ويقال انه كان مستعملاً في زمن الصليبيين كانوا يفتحونه في احد الشعانين ثم اقفل ولا يزال مقفلاً .

سائر آثار القدس

ان كنيسة القيامة والحرم الشريف اهم آثار القدس وقد تقدم وصفها . يليها آثار عديدة قليلة الاهمية فنختصر في وصفها :

مبكى اليهود

واقع وراء جدار الحرم الشريف في الغرب وهو عبارة عن حائط حجارته ضخمة يتصل بسور الحرم من خارجه . أو هو جزء منه ويعتقد اليهود انه جزء من هيكل سليمان فيقفون عند

ذلك الحائط كل يوم جمعة يبكون مجدهم ويندبون استقلالهم . طول هذا الحائط نحو خمسين متراً .
الصف السفلي من احجاره تسعة احجار ضخمة بينها حجر في الشمال طوله خمسة امتار ونصف
متر وعرضه ثلاث امتار ونصف . وفوق هذا الصف ١٥ صفا حجارها اصغر . وعلى هذه الاحجار
كتابات بالفحم أو الحفر باللغة العبرانية اكثرها اسماء بعض الزوار .

وقفنا امام ذلك الحائط وعنده عشرات من اليهود رجالاً ونساءً بين واقف وقاعد وقد علا
صجيجهم وارتفعت اصوات بكائهم . وفيهم من يقرأ دعاءً أو يتلو آية . وسمعنا بعض النساء
يندبن ويبكين بصوت عال . وواحدة منهن تشهق تشهيق الثكلى من فرط البكاء وهي مولية وجهها
نحو حجر من تلك الاحجار تكاد تبلله بدموعها . فآثر منظرها في نفسنا تأثيراً عظيماً لانها كانت
تبكي بلهفة كأنها تندب فقيداً عزيزاً . فاعملنا فكرتنا في الباعث على هذا البكاء وهل هو التأسف
على مجد اليهود الزائل كما يقولون؟ فاذا صح ذلك كان لليهود شعائر جنسية لا مثيل لها في العالم .
لأن الواقدين الى ذلك المبكى اكثرهم من طبقة العامة البسطاء . فاذا كان في اولئك البسطاء مثل
هذا الشعور السياسي أو الاجتماعي فكيف في الطبقة الراقية المتعلمة؟ لكننا نظن الباعث على
ذلك البكاء بالاكثر شعوراً خاصاً في الباكي نحو فقيد أو مريض من اهله او ذويه - اذا جاء المبكى
تذكرة وبكاء أو صلى من اجله أو طلب الشفاء له بحرارة . كما يفعل التاكل اذا شهد مأتماً وان كان
ميت ذلك المأتم لا يهمه لكنه يتذكر مصيبته فيبكي فقيده وان طال الامد على موته .

ولهم اناشيد يتلونها في موقفهم هناك باللغة العبرانية يندبون فيها الهيكل وخرابه وما تهدم
من جدرانها وما ضاع من عزه واحترق من جواهره . وما اصاب كهانه من الذل . ويستزلون الرحمة
على صهيون ويتوسلون الى الله ان ينجيهم من الذل ويعيد اليهم ملكهم في اورشليم .

جبل الزيتون

ليس من النصارى من لم يقرأ اسم هذا الجبل في الانجيل . وهو واقع شرقي القدس يفصل
بينها وادي ستي مريم . ويقال له ايضاً جبل الطور وجبل النور أو هذا جزء منه . وفي الطريق من
القدس الى هذا الجبل اماكن اثرية كثيرة لكل منها حديث ووصف يضيق المقام عنه . منها قبر
العذراء وكنيسة ستي مريم وبستان الجسمانية ومعهد الامبراطورة فكتوريا وكرم الصياد وكنيسة
الصعود واديرة وكنائس مختلفة وقبور الانبياء . وانما في هذا المقام الاشارة الى مظهر القدس للواقف
على ذلك الجبل فانه يشرف على المدينة فتبين له احيائها وقصورها وأديرتها واضحة . ولا بد لمن
يزور القدس من ان يصعد الى هذا الجبل ويشرف منه على كنيسة القيامة والحرم وغيرها من
الابنية .

وفي وادي قدرون وما يليه قبر ابشالوم ومغارة القديس يعقوب وهم زخرياً وجبل بطن
الهواء وعين العذراء أو عين ستي مريم وبركة سلوان أو عين سلوان وحقل الدم وغيرها . وفي
القدس آثار اخرى تزار مثل مغارة ارميا ودير الدومينكان وقبور الملوك وقبور القضاة والنبي داود
وغ غيرها .

احوالها العلمية

التعليم على الاجمال ضعيف في فلسطين مثله في معظم المملكة العثمانية . بل هو في فلسطين اضعف مما في سواها . ويصدق ذلك على المدارس الوطنية الاميرية وغير الاميرية . ونخص الكلام بالقدس لانها ارقى سائر مدائن فلسطين في التعليم . وليس فيها من المدارس الكبرى الوطنية الا المدرسة الدستورية لخليل افندي سكاكيني ومدرسة روضة المعارف للشيخ محمد الصالح الحسيني ومدرسة اعدادية للحكومة . وكلها تشبه المدارس الابتدائية عندنا . وقس على ذلك سائر مدارس فلسطين الوطنية . وليس في فلسطين مدرسة كلية وطنية . اما الاجانب فلهم في فلسطين مدارس كبرى لتعليم اهل تلك البلاد وتثقيف عقولهم - هاك اهمها في القدس :

١- دار الايتام السورية : اسسها الدكتور شنيلر الالماني سنة ١٨٦٠ بجده واجتهاده . قضى اهم سني حياته في هذا المشروع يدبر شؤونه رغبة في عمل الخير . وقد جمع له المال من المحسنين بالمانيا واميركا وروسيا وسويسرا وانفقها كلها في انشاء هذا المعهد العلمي الخيري لتعليم الايتام الذين ليس لهم من يعولهم . وقد نجح نجاحاً عظيماً واتى باثمار حسنة . وتخرج في هذا المدرسة مئات من الشبان والشابات وفيهم طائفة من العميان . وقد تعلموا اللغات او بعض الصنائع وضمنوا لانفسهم اسباب الرزق .

وقد اتسعت هذه المدرسة وتعددت فروعها وابنتها وفيها معامل للخزف ومصانع للحدادة والكراسي والنجارة وغير ذلك . وفيها قسم داخلي وآخر خارجي . وعدد تلاميذها نحو ٧٥٠ تلميذاً منهم ٤٠٠ داخلين . ونحو خمسين فتاة . وعدد العميان فيها نحو ٥٠ اعمى . وعدد المعلمين نيف واربعون معلماً منهم ٢٣ لتعليم العلوم واللغات و٢٢ لتعليم الصناعات .

٢- مدرسة جويات للانكليز: يديرها اسقف انكليزي اشتهر بفضله وتفانيه في تربية الناشئة . وهي من احسن المدارس لتعليم اللغة الانكليزية وآدابها . وقد تخرج فيها طبقة من الادباء بعضهم جاء مصر واشتغل فيها .

٣- مدرسة صهيون وهي انكليزية أيضاً وتخرج فيها كثيرون وهناك مدارس اخرى لسائر الطوائف النصرانية . لكن اكثرها صغيرة لا تستحق الذكر هنا . وبلغنا ان الابهاء اليسوعيين قرروا انشاء كلية في القدس على نسق كليتهم في بيروت .

مدارس اليهود

لل يهود شأن خاص في فلسطين من حيث التعليم مثل شأنهم في الاقتصاد واسباب المعاش . واليهود في هذا العصر يناقسون الامم الاخرى باقوى عوامل المدنية واهم اسباب النجاح . نعني المال والعلم والاتحاد . اما المال فهم مشهورون باقتدارهم على جمعه واحرازه من قديم الزمان . وهم يبذلونه الآن في سبيل مطامعهم الاقتصادية والاجتماعية في فلسطين . ويبذلونه ايضا في سبيل التعليم . واما الاتحاد فانه عماد اعمالهم كما رأيت في ما تقدم عن الجمعية الصهيونية وغيرها . ونقتصر هنا على الكلام في التعليم .

لليهود مدارس كثيرة في فلسطين ليست لسواهم بعضها على النسق القديم تعلم التوراة والتلمود والبعض الآخر يعلم العلوم الحديثة. فالمدارس القديمة منها في القدس وحدها عشرات عدد معلميها ٢٠٠ معلم وتلاميذها نحو ٤٠٠٠ تلميذ وكلهم يهود. ومنها خارج القدس نحو عشرين مدرسة اكثرها في يافا عدد معلميها كلها ٥١ معلماً وتلاميذها ١٤٠٠ طالب.

اما مدارسهم العصرية التي تعلم العلوم الحديثة فاول من انشأها لليهود «جمعية الاليانس» في فلسطين. فيها كلها نحو ٢٠٠٠ تلميذ وهناك مدارس أخرى لجمعيات اخرى او بعض الافراد لا محل لها هنا. نكتفي بذكر المدارس الكبرى في القدس اشهرها مدرسة الاليانس المتقدم ذكرها. ومدرسة بيت سالييل ومدرسة لاميل وغيرها

على ان الميل الى التعليم ينتشر الآن في طبقات الامة الفلسطينية. ولا سيما الطبقة الراقية. فمن لا يكفي بتعليم ابنائه في المدارس الوطنية او غيرها في القدس او يافا ارسلهم الى المدارس الكبرى في بيروت او الاستانة او فرنسا او غيرها. وهكذا يفعل بيت الحسيني والخالدي في القدس وبيت السعيد في يافا وبيت عبد الهادي في نابلس. ورأينا اضطراباً في اميال الاهلين من حيث الخطة التي يجب ان يتخذوها في تعليم ابنائهم هو تابع لاضطراب جو السياسة. ولا بد ان تستقر الاحوال. وعسى ان تستقر على ما يوافق مصلحة البلاد العربية والامة العربية والدولة العثمانية.

المكتب الصحي المختلط

وفي القدس مكتب او معمل للابحاث الطبية والفحص الميكروسكوبي يندر مثله في الشرق. اسسه الاجانب واليهود - اشترك في انشائه ثلاث جمعيات طبية: (١) «الجمعية الالمانية لمحاربة الملاريا» (٢) «المكتب الصحي اليهودي» (٣) «جمعية الاطباء والعلماء اليهود لتحسين الصحة في فلسطين» وسموه المكتب الصحي المختلط.

وللمكتب المذكور لجنة تدير شؤونه مؤلفة من بعض اعضاء الجمعيات الثلاث المتقدم ذكرها. وهو مؤلف من معامل للابحاث الطبية اهمها: ١ - معمل الملاريا للبحث في مقاومة هذا الداء رئيسه الاستاذ مولنس ٢ - المعمل الهيجيني بادارة الدكتور برين ٣ - معمل الكلب والمصل بادارة الدكتور بيهان. الغرض منه استحضار الامصال اللازمة والبحث في حوادث الكلب التي تقع. وهذا نادر لا وجود لمثله في سوريا على ما نعلم. ولذلك فمن يصاب بالكلب فيها يحملونه الى مصر او اوروبا. اما القدس فقد انشئ فيها هذا المعمل لهذا الغرض ٤ - المعمل البكتريولوجي للبحث في الميكروبات على الاجمال بادارة الدكتور كولديبرج.

وهناك فروع طبية للابحاث المختلفة اهمها فرع الملاريا بادارة الدكتور كنعان^(١). وهذا الداء كثير الانتشار في القدس لان ماءها اكثره مجموع في الصهاريج.

(١) الدكتور توفيق كنعان من اطباء القدس وعلمائها العرب المشهورين بمؤلفاتهم. توفي في القدس سنة ١٩٦٤.

مقتطفات من «كتاب المنفى»
لرشيد نخلة
بيروت ، منشورات المكتبة العصرية
١٩٥٦
(ص ١٨٧ - ١٨٨ و ١٩٦ - ٢٠٠)

بعد أن استقر بنا الأمر، في القدس، علمنا أنه لا يُراد بنا، ورآه ذلك، إلا وجودنا بعيدين من لبنان، وأنا أصبحنا «تحت المراقبة»، كما كان يقال في لغة تلك الأيام، ليس لنا أن نخرج، حتى إلى ضواحي المدينة، إلا بإذن من مدير الشرطة. أما في لبنان فقد كانت أخبار السوء تُذاع عنا في كل مكان. فقيل في بيروت أنني والأمير فائق شهاب، ومصطفى بك عماد، قد شقنا، يوم وصولنا إلى القدس. وقيل في الجبل أنني قضيت نحيبي في الطريق، من سمّ وضع لي في أكلة، إلى غير هذه الشائعات التي أطلقها مطلقوها، غفر الله لهم، تشفياً بنا، وكيداً لنا، فكان أهلنا على قلق لا يُوصف، إذ إن رسائلنا من القدس لم تبلغ لبنان إلا بعد أيام طويلة. «المراقبة» التركية القديمة معناها مراقبة حقاً، ومعناها، أيضاً، عقوبة حقاً!

وكان مدير الشرطة يقبل علينا في الفندق كل مساء، يسأل عنا، واحداً واحداً، ولكن على غاية اللطف والبشاشة. لطف تركي، وبشاشة تركية! فتكون عينك مقرورة، وأذنك في نعيم. أما القلب فله أن يقوم ويقعد من شدة الحذر، وفرط القلق، ما يشاء . . .

ولقد عُين مديراً للشرطة، في القدس، بعد أربعة أشهر من وجودنا في المنفى، تركي اسمه شاكر بك أرطوغرول، وكان آية في الرفق بنا. فقال فيه الأمير فائق شهاب: «هذا رجل عجيب. فهو إما أن يكون أدهى بني قومه في إخفاء مالا يُبدي، وإما أن يكون في قلبه وجع من جمال باشا!!».

ولقد صدقت نبوءة الأمير فائق، بعد ذلك بقليل. ففي بعض الأيام رأينا أرطوغرول بك يُسار به من بيته، وهو مكبل بالحديد. ثم علمنا أنه أُحيل إلى المحاكمة في الديوان العرفي، في عالية، حيث حكم عليه بالموت!

أصدقائي في المنفى

أما الاخوان الذين أنسوا طرفي، وأضأوا ليالي همّي، فإن من الحق أن يُشاد بأسمائهم، ويُشدى بذكرهم في هذه الفصول، وفاءً لودادهم، واعترافاً بجميلهم. وهم كثر، خرج فريق منهم من هذه الدنيا، رحمهم الله، وبقي فريق فيها قرّة للعيون، وهناءً للقلوب، حفظهم الله. وأنني أذكرُ منهم في هذا الفصل المرحوم الشيخ علي الرّيمائي، وهو الشاعر الذي جمع في شعره جلال الفصاحة إلى خفة الدعابة. وكان آية في الظرف، وحلاوة الحديث، وحضور الذهن، عدا الوفاء، ولطف الشماثل.

والأستاذ إسعاف بك النشاشيبي، الأديب العربي المنقطع النظر في فقه اللغة، ومعرفة سنن العرب في الكلام. وهو غاية في الحفظ، بل خزانة من لحم ودم، تتضايق بألف كتاب في البلاغة، والأحاديث، والسير، وعلوم العربية. أما مجلسه فنشر الزهر، وأما فؤاده فوفاء القطر. والاساذ الشيخ عبد القادر المغربي، الرئيس السابق للمجمع العلمي العربي في دمشق.

والشيخ من تيجان علماء اللغة في هذا الوقت. ذكور لدقاتها، وعي لشواردها، يكاد لا تفوته شاردة، ولا واردة، وهو مجبُّ النكته في المجلس الذي فيه تُرفع الكلفة، فيتزحزح عن وقار العلم، ويسمع عشراؤه منه، حينئذٍ، أحاديث، ولطائف، أخف من قطر الندى. كان يجيئي في الزيارة، وإلى جانبه الناشيبي، فأحسُّ ان الدنيا قد أقبلت علي بالسرور، وبالنعيم!

والاستاذ السيد محمد حبيب العبيدي، واحد الموصل في العلم، ومفتيها، ونائبها اليوم في البرلمان العراقي. وللعلامة العبيدي شعر في قَمَّة البلاغة، ومحفوظ من أفحل القول، وحديث بين الرزاة والملاحه، يأخذ بمجامع القلب. وله وفاء. وله إيثار. وقد كان في القدس، يومئذٍ، متطوعاً في «هياة العلم النبوي». فلما عقدت أواصر الصداقة بيننا، وفتحت السرائر، وجدت الصديق العبيدي من أبغض خلق الله لتركبي مسود على عربي، ومن أشدهم حذراً لجمال باشا، وخوفاً من الدُخول في صحبته. ذلك على أن جمال باشا كان يبذل له كثيراً من اللطف والبشاشة.

والاستاذ خليل السكاكيني، الكاتب اللغوي، المحقق، وصاحب الممتع في علم اللسان. وهو الذي ناظر الأمير شكيب في جريدة «السياسة» المصرية عام ١٩٢٣، في قضية تطور اللغة في الألفاظ والأساليب. وناهيك بمن يتلاقى وأمير البيان في حلبة ميدان!

ومدحت بك، وكان، يومئذٍ، متصرفاً للقدس. وهو تركي، ابن بيت عريق في السؤدد، في «إزمير». ولقد وثقت له عهدي، وأعطيته صفقة يدي، لباطن نقي، وموثق صحيح، ورعاية جميلة. وكان مدحت بك من أحفلهم في حكومة القدس بزيارة لبناني له، شرط أن لا يتظاهر زائره بما لا تنطوي عليه ضلوعه... ولقد ظلَّت رسائل الوداد تجري بيني وبين مدحت بك حتى انقطعت رسائله عني، فبت لا اعرف ما فعلت به الأيام.

والمرحوم حنا افندي بطاطو، الوجه المقدسي المعروف، وكان يادب لنا في كل اسبوع، ونجتمع عنده في أطيب سمر، وأشهى حديث، ونتمتع بحلوشمائله. لقي نجبه، رحمه الله، بعد ذلك في دمشق، وقد جاءها على طلب من جمال باشا، في تهمة حاكها بعض الجواسيس.

فأنت ترى، أيها القارىء، بعد أن طلعت عليك هذه الأسماء من مصابيح الوفاء، ان ايامي في المنفى لم تكن كلها ظلمات، وان جمال باشا كان يستأهل، بعد هذا، أن تنسى أذيتي، وتُشكر يده، وقديماً قال أبو فراس:

وبعض الظالمين، وإن تناهى شهى الظلم، مغتفر الذنوب!

الأمير فيصل في القدس

بعد مضي نحو من أربعة أشهر على مقامنا بالمنفى، سير جمال باشا جيشاً عظيماً لفتح ترعة السويس، وذلك في ١٤ من شهر كانون الثاني سنة ١٩١٤. وكان لذلك في القدس يوم مشهود. فما مضت أيام قلائل حتى جاءت الأنباء بانتصار الزحف العثماني، فأقامت الحكومة معالم الزين، وخرج الناس الى الشوارع من السرور والاعتباط. وما هي حتى أدرك أهل المعرفة ان الانتصار

مزعوم، وان الجيش قد لقي ناراً انكليزية حامية، نكص لها على أعقابها. ثم ذاع، بعد ذلك، ان جمال باشا قد مكر بالجنود العرب في حرب «الترعة»، وذلك انه جعل فصائلهم في المقدمة، عرضة للرصاصة، ورداً للخطر عن الجنود الترك. وبلغت هذه الشائعة جمالاً، وكان قد دخل المدينة في الليل، عائداً من الوقعة. فلما طلع الصباح وجد الناس، في كل مكان، مناشير تحمل توقيع الباشا، وقد جاء فيها ما هذا معناه: ان الشائعة كاذبة من أساسها، وان القصد منها التفريق بين العناصر العثمانية، وان الذي يجرؤ على ترويجها يعاقب بالاعدام - أي: لا أقل ولا أكثر!!

فساد القدس ذعر لا يُوصف، وانبت الجواسيس يترصدون الناس، ويعدون أنفاسهم. وكانت الثورة العربية التي استوقدها، بعدئذ، المغفور له الملك حسين بن علي لم تشتعل نارها، وكان المغفور له الملك فيصل لا يزال في مستهل شأنه، لم تنهض له هذه الشهرة العريضة. بعد. ففي بعض الأيام، وكان ذلك قبل حرب «الترعة» بقليل، دقت البشائر في القدس ان الشريف فيصلاً بن الحسين قد تقدم للجهد طوعاً، وانه في الطريق الى القدس، ليوافي فيها جمال باشا. فقامت المدينة وقعدت لبشرى قدوم الأمير العربي الشاب، ونزوله بين ظهرانيتها. فلما كان صباح اليوم الذي عينته حكومة القدس موعداً لوصول قطار الشريف، خفت جماهير الناس الى المحطة يترقصون من الفرح، ويهزجون باسم فيصل. ولكن انتظارهم كان عبثاً، فان ذلك النهار مضى، وجاء الليل، وانتصف، والقطار لما يصل. وفي صباح اليوم التالي وصل الشريف بغتة. فقبل في الجماهير ان جمال باشا قد أرادها هكذا، وانه لا يطيق أن يرى عراقياً فيه نبض، وان الشريف الشاب لم يتقدم للجهد عن طوع، وانه جيء به إقصاءً له عن الحجاز، وان في الحجاز ناراً تتأجج تحت رماد، الى آخر ما قيل، يومئذ، وانتهى بحذافيره الى الباشا. فأوجس الرجل من تلك الأقاويل خيفةً، وأطلق أعوانه يطمسون القال والقال بالتي هي أحسن، وبغير التي هي أحسن!!

أما المرحوم فيصل فقد كان، مدة إقامته بالقدس، منكمش النفس، كثيباً، قلقاً. رأيت، أول مرة، في «فندق مرقس». فقدمني اليه السيد العبيدي، وراعني منه، وراء الكأبة والانقباض، وقار، وذكاء، ودعة، وحلاوة نفس تأخذ بالقلب. فقلتُ للسيد العبيدي، بعد أن انقلبنا عن مجلس فيصل، رحمه الله:

«لعمرك، لا أدري كيف وقع هذا الحمل في يد الذئب...».

الرحلة الانورية الى الاصقاع الحجازية والشامية

وهي صفحات ضمت شمل ما تفرق من سياحة رحل العثمانيين وبطل
الاسلام والمسلمين صاحب الدولة والعطوفة انور باشا وكيل القائد
الاعظم وناظر الحربية الجليلة الى المدينة المنورة وسورية
وفلسطين وما قيل من التنويه بافضاله على الملة والدولة

تأليف

محمد كسردي علي

صاحب مجلة وجريدة المقتبس ورئيس تحريرها

(ص ٢١٩ - ٢٢٨)

طبع في المطبعة العلمية - يوسف صادر في بيروت ١٣٣٤هـ - ١٩١٦م.

لم تكن زيارة مدينة يافا داخلة في خطة سفر القائدين العظمين صاحبي الدولة انور باشا وكيل القائد العام وناظر الحربية وجمال باشا قائد الجيش الرابع وناظر البحرية ولكن قائد الموقع حسن بصري بك الجاي تجاسر على دولتيهما ودعاهما باسم البلدة فلبيا دعوتها فقابلته بكل ما لديها من وسائل الاحتفاء والزينات الباهرة التي فاقت على مثلها في غير بلدان بشهادة من كان في معية دولتيهما فقد كانت الزينات التي اقامها ابناء يافا واللد والرملة في ذلك اليوم من اجل ما رأى ثغر يافا .

وصل قطار الوزيرين الخاص الى محطة الرملة الساعة الخامسة من صباح الجمعة فكان في انتظاره جميع من في القضاء من مأمورين عسكريين وملكين واعيان القوم وافاضلهم . ولما وطنا الارض دوى القضاء باصوات التصفيق والهتاف فسارا بين جماهير الخلق الى سرداق فخيم نصب هناك بعد ان مرا تحت قوس نصر زين باحلى زينة . وبعد ان تناولوا الفطور في محطة سكة الحجاز اقلتها السيارات الى مكان استعرضا فيه الفرقة المرابطة في تلك الانحاء . ومن هناك اخذا طريق يافا والتوفيق قائدهما فوصلاها الساعة الحادية عشرة وكان دخولهما من شارع جمال باشا الجديد الذي انشئ على احدث طراز . وهناك ترجلا بازاء قناصل الدول والرؤساء الروحيين واشراف البلدة وجوهها الذين كانوا بانتظار بزوغ شمس طلعتهم فاسكروا الناس بلطفهما المشهور وابتسامهما الخلاب . ولما كان هذا الشارع لم يفتح بعد رسمياً كلف صاحبه دولة جمال باشا دولة انور باشا ان يفتحه بيده الكريمة فتنازل دولته وقطع شريطاً من الحديد كان يمنع مدخله ونحرت وقتئذ القرابين وتلا فضيلة مفتي يافا دعاء امن عليه الجميع . وسار بعد ذلك الضيفان الكريمان مشياً على الاقدام فمرا تحت قوس نصر مزدوج اقيم على عرض الشارع البالغ ٣٠ متراً فكان منظراً لم تقع العين على اجمل منه . ولما توسطت الشارع ركبا سيارتهما ومرا تحت قوسين آخرين من بديع الصنع وجميل الهندسة الى ان وصلا الى منزل هرنك حيث اعد المجلس البلدي لدولتيهما مأدبة تليق بمقامهما .

وبعد الطعام ركبا الى دار الحكومة فكانت الوف الخلق تحييهما على الجانبين وهناك في البهو الكبير تصدرا بدرين منيرين واخذ قائد الموقع يقدم لها وجهاء البلدة واعيانها واحداً واحداً فابديا التفاتاً خاصاً للخواجه فريدريك مراد الذي تبرع باكثر ارض شارع جمال باشا وارض جامع الجاي الجديد الذي انشأه قائد الموقع باسمه . ثم قدم لها طبق من فضة عليه تمثال هرم كبير من الحلوى فابتسما لمغزاه واستل القائد خنجره وقدمه لها فاخذ كل منهما قطعة منه وادير على الحاضرين . ثم نزلا الى ساحة السراي فاخذ المصورون رسم الحفلة وانشد الشيخ احمد الطريفي بعض ابيات بصوت رخيم ثم ركبا السيارات محفوفين باليمن والاقبال ووجهتها بيت المقدس فمرا ايضا تحت اقواس نصر اخرى جمعت خلاصة الفن والابهة .

ومما يذكر ان دولة انور باشا تبرع بمبلغ لفقراء البلدة وانه اعجبه برتقال يافا الشهر فاقوقف سيارته امام احد البساتين في طريقه الى القدس ودخل مع دولة جمال باشا وقطع بيده مقطفاً من

البرتقال ونفح خادم البستان بضع ليرات عثمانية تلقاها هذا بالدعاء . ولا عجب بهذه الاخلاق الرضية والجود والكرم فالعظيم عظيم في كل امر .

وبينا كان انور وجمال بيافا بين دقات القلوب سروراً وابتهاج النفوس فرحاً كان اهالي القدس منتشرين في جهة بزوغها الى مكان مقرهما مقر الجيش المظفر مائة الف او يزيدون . وبيننا نحن في السراوق المضروب لاستقبالها اذا بضجة صعدت للسماء وهتاف بصوت واحد ليحي انور وجمال فهرع القوم جميعاً واذا بالبدرين قد بزغا من مطلع الافق على سيارتهما وعرجا على السراوق هنيهة ثم استأنفا السير بين اقواس النصر وصفوف الاهلين على اختلاف عناصرهم ومذاهبهم رجالاً ونساءً واطفالاً وطلبة مدارس على طبقاتها ومشاربها والاعلام بايديهم يحيون اعظم من يحبون . مرت سيارتهما ورفقاؤهما تخرق الطريق بين تصفيق الرجال وهتاف الاطفال وزغاريد النساء حتى وصلا الى المقر العسكري العالي .

لم يقم الاهالي بهذا الاحتفال النادر خوفاً او رياءً ولكنه الاحساس الوطني الحي والقلوب والنفوس التي تعشق انور وجمالاً عشقاً عذرياً ومن لا يعشق النور والجمال ومن لا يحتفل بمحبي حريته ومؤسسي سعادته . ولقد رأيت بنفسى امرأة قروية جاءت مندھشة هائجة تخرق الصفوف وهي تزغرد وتقول (اروني انور اروني انور اروني ولدي وحببي اني ساحتها في اولادي الموجودين تحت السلاح فليموتوا فداءً له وللوطن). قال الراوي : فبكيت انا والله شهيد . ورأيت قروية اخرى فاتتها مشاهدة انورنا تتأسف وتعص يديها ندماً لعدم حضورها ملاقة هذا البطل ورؤيته كأنها فاقدة انجح بنائها . هذا العمرى هو الاخلاص الحقيقي والشعور الصحيح والحب الخالي من التصنع والمداجاة لانه شعور قروي طبيعي . لا اقول انه الوفاء العربي ولكنه الاخلاص العثماني الخالص

كان وصول انورنا وجمالنا ورفقاؤها عصر الجمعة فتناولوا طعام العشاء ليلة السبت في مقر الجيش الرابع وفي صباحه اجتمع اركان الحكومة والعلماء والوجوه وكل مذكور في دار الحكومة وركبوا العربات وساروا نحو المقر يتقدمهم مدحت بك متصرف اللواء حتى وصلوا المقر وتشرفوا بالسلام على انور الامة وجمالها مصافحة بالترتيب وهما يستقبلان الزائرين بالطلاقة والبشاشة . وقبل الظهر تناولوا طعام الغداء ومن معهما في مقر الفيلق الثامن بدعوة جمال باشا قائده المبجل . ومن هناك زارا الحرم القدسي فبدأوا بالصخرة المشرفة حيث سمعا بعض الآيات الكريمة . وبعد ان صلى انور باشا ركعتين تحية المسجد سارا يحف بهما العلماء والاشراف الى مسجد الاقصى الجامع وصلى هناك ايضاً ركعتين . وعندئذ تقدم خطيب الشرق الشيخ اسعد الشقيري وابان لحضرة القائدين العظيمين فضائل الحرم القدسي والاحاديث الواردة في شرفه . وهناك قدم لدولة القائد العظيم كامل افندي الحسيني مفتي القدس نسخة من فتاوى الانقروى كتبت منذ مئة وثمانين سنة لتكون تذكراً في خزانة كتب انور العثمانيين .

وبعد ان زار حضرات قائديننا العظيمين الحرم الشريف ذهاباً بموكب حافل الى الكلية الصلاحية فاستقبلها مديرها ومعلموها وطلبتها وبعد ان جلسا في بهوا الكبير قرأ تلميذ بعض

الأي الكريمة ثم قرأ احد المعلمين خطاباً عربياً ثم استعرض الطلبة استعراضاً عسكرياً رياضياً فابدعوا وادهشوا ثم تلا احدهم قصيدة تركية العبارة وآخر قصيدة باللغة الالمانية الفصيحة كأنه من احدى مدارس برلين لهجةً وحركةً وإشارة. وهذا ما زاد الدهشة واطرب ضباط العسكرية الالمانين وجعل للحفلة رونقاً وبهاءً ثم ختم تلميذ آخر الحفلة بخطاب تركي.

ثم زارا مقام نبي الله داود عليه السلام ثم عطفوا على كنيسة القيامة فزاراها ومن يصحبها من القواد والضباط الالمانين والنموسيين. وقد تبرع دولة الانور لها بمائتي ذهب عثمانية بعد ان وهب لخدمة الحرم الشريف خمسين ذهباً ليعلم الناس ان هذا الدين الاسلامي القويم يحترم الشعائر والمذاهب لا تعصب فيه وان الدولة ايدها الله تساوي بين عناصرها وطوائفها وكنيسة القيامة هي التي دخلها سيدنا عمر وصلاح الدين وفي عصرنا دخلها انور سيف الاسلام. وفي تلك الليلة ليلة الاحد تناول القواد العظام طعام العشاء على حساب المجلس البلدي في منزل فاست الكبير. وكان المدعوون ستين شخصاً من اركان الحكومة والعلماء والادباء مع ضيوفنا الكرام. وفي اثناء الطعام صعد الشيخ علي ريماي من فضلاء^(١) القدس وقال: لو كنت طويلاً لوجب علي ان اتقاصر امام عظمة حضرات قوادنا العظام وضيوفنا الكرام ثم انشد قصيدة طرب لها الحاضرون جداً واستخفت طرب الاستاذ الشقيري حتى استعاد ابياتها مراراً ثم تلا الشيخ سليم اليعقوبي من اساتذة يافا قصيدة غراء ثم خطب خاتماً الحفلة جميل بك النيال مدير الاوقاف والكلية الصلاحية خطاباً تركياً.

وبعد الطعام ركب القائدان الجليلان ومن معها سياراتهم الى المقر العالي تاركين طلبية الصلاحية يتجولون بالمصاييح والمدينة كلها نور وفرح وسرور. وفي صباح الاحد سار انور باشا وجمال باشا ورفقاؤهما الى جهات بئر السبع ويوم الثلاثاء رجعا بالعز والاقبال. وبين بئر السبع والخليل وقفا ساعة حيث استقبلتهما قطعة من الجيش المرابطة هناك ثم عطفوا على مدينة السيد الخليل عليه السلام وزارا اضرحة الانبياء الكرام وشربا الشاي في دار الحكومة وركبا الى بيت لحم حيث وُلد السيد المسيح عليه السلام وزارا المغارة. ومن هناك رجعا الى القدس بين الهمس والالتفات.

وصباح الاربعاء توجه قائدانا العظيمان الى اريحا على السيارة فشيعةما الاهالي والقلوب باجل مظاهر التشيع والوداع. وبعد الغداء في اريحا على حساب بلدية القدس سارا على طريق عمان حيث ركبا القطار الى مدينة الاسلام والسلام صلوات الله على ساكنها.

وكان الاستقبال في اريحا جميلاً قام به جميع العشائر المخيمة حول نهر الاردن بالسلاح والخيول المطهمة ومشايخ الطرق والزوايا بالاعلام والطبول ثم جاء الى السلط فنصبت السراوق والخيام واقامت بلدية السلط ضيافة شاي وكان جميع عربان السلط اشرفهم وطلبة مدارسهم

(١) اعتمدنا على ما كتبه هولنا بهذا الشأن عن القدس واكثره من عباراته ص ٢٠٤ وعلى ما كتبه مكاتب المقتبس في يافا وعلى مصادر اخرى جديدة بالثقة.

يرددون الاناشيد والالخان والرؤساء والقبائل يظهرن للقسائدين شعائرهم وعواطفهم . ومن السلط ركبوا السيارات ايضاً الى عمان حيث استعرض الجراكسة سكان تلك القصبة بخيولهم ومنها ركبا القطار الى المدينة المنورة .

هذه اجماليات المكاتبين والذي علمناه من مصدر يركن اليه أن دولة القائد لما وصل الى خليل الرحمن استقبلته المشايخ وارباب الطرق وترجل دولته مع جمال باشا حتى وصل الى المسجد الابراهيمي . وهناك وقف العلماء امام ضريح جد الانبياء سيدنا ابراهيم الخليل عليه السلام فتلى ما تيسر من القرآن وادعية ظهرت عليها علائم القبول وزار تربة سيدنا اسحق ويعقوب ويوسف وجميع المشاهد وصافح العلماء والانتقياء ونال حظاً كبيراً من ادعيتهم واحسن الى الفقراء بصدقة عظيمة وسار والعز يشيعه الى قصبة بيت لحم وهناك وقف له رؤساء جميع الملل والطوائف الغير المسلمة مع الجند السلطاني فاستقبلوا دولته اعظم استقبال وابهى احتفال واسترحوا منه ان يروه كنيسة الولادة فدخلها اجابة لدعوتهم . وكان الرؤساء الروحون بملابسهم الكهنوتية وضربت له النواقيس واجتمعت الطوائف على اختلاف اجناسها واعمارها ووقدت الشموع والقناديل داخل الكنيسة ودعي للدولة والجيش فخرج واحسن بصدقة عظيمة ايضاً على فقراء الطوائف ثم جاء القدس وقت الظهر فتناول الطعام في المعسكر في جبل الطور . وكانت ضيافة القدس في العودة مما اقامه روشن بك مفتش المنزل وتكلم في تلك الضيافة الشيخ اسعد الشقيري على حديث نبوي خاطب فيه الرسول سيدنا علي بن ابي طالب بقوله انت سيد المسلمين ويعسوب الموحدين وان السيادة التي كانت لعلي بسبب حفظه لكيان المسلمين وحرصه على اقامة شعائر الدين وقيادته للجيش الاسلامي واجتهاده في الفنون الحربية وحصول الظفر على يديه فنال السيادة بالعزم والحزم والجهاد والسيف ومضى راضياً مرضياً وان انور باشا في عصرنا يحق له السيادة على الاسلام بسبب ثباته على مسلك الدين واتباعه لشريعة سيد المرسلين وجهاده في طرابلس الغرب وفي مواقع الحروب وتنظيمه للجيش واخذه على عاتقه القيادة العامة وشخصه بالذات الى هذه الولايات لتفقد الشؤون العامة والنظر في الجيش . وذكره بما ذكر له مع جماعة العلماء ما اجراه القائد العام احمد جمال باشا من الاصلاحات وحمد الله على ان الباشا رأى آثار اخيه جمال باشا رأي العين حتى انور باشا صرح بانه رأى من هذا القبيل فوق ما سمع .

اما تبرعات انورنا في لواء القدس فكثيرة منها للفقراء ومنها لكنيسة القيامة ومنها لخدمة الحرم القدسي ومنها لخدمة السيد الخليل ومنها لبعض المساتير والعلماء والادباء وكذلك كانت تبرعاته لاهالي لواء عكا .

رحلة مصري
الى فلسطين ولبنان وسورية
ومناظر المسجد الاقصى وجميع المشاهد الدينية والاثرية والعمرانية

بقلم
السيد عبد المؤمن كامل الحكيم
المحرر بجريدة الاهرام

١٩٢٤ - ١٣٤٢

المطبعة السلفية - بمصر

(ص ٢٩ - ٧٣)

متى وصل المسافر في طريق القدس الى «وادي صرار» مستقبلاً بيت المقدس ، موجهاً وجهه نحو قبلة المسجد الاقصى تتفعل نفسه انفعالات شتى ، مرجعها الى طبيعة الارض التي بارك الله حولها . وقد ورد في القرآن الكريم «سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله» .

يرى الراكب - في القطار - الجبال الكثيرة السامقة وعليها الشجر القائم من الزيتون والاراك والتين والبرتقال والليمون . ويرى العنب بين طيات الجبال ومرتفعاتها على أبواب المغارات أو في انفاق بعيدة ترتفع عنها السكة الحديدية بخمسين من الامتار أو أكثر من ذلك . ويرى ان الجبال الصفراء والسود والغرابيب من الارض مورد رزق لاهل «دير الشيخ» وسكان «بتير» وسكان «القدس» والبلاد المجاورة لها . ويرى الخضرة على اختلاف اشكالها تنبت وتثمر في احواض من الارض تكتنفها الجبال . ويرى الزراع يحرقون الارض وهي غير مستوية ويقيمون عليها «البتون» وهي كلمة اصطلح عليها الزراع في الوجه البحري بدلا من كلمة الحد أو الحدود . حتى لا يتسرب الماء منها الى الزراعة التي بجوارها أو أسفل منها . ويرى الرجال يملأون الروايا أو «التنكات» من الآبار يبيعونها لسكان المدينة ويرى النساء والبنات وهن يحملن المشنات بالخضرة أو الفاكهة على رؤوسهن . كل ذلك من هذه الارض التي باركها الله .

نزلنا من القطار الى محطة القدس التي بناها الاتراك قبل الحرب ، وكان في استقبالي من محطة «بتير» مندوب شركة مصايف لبنان . وبعد ان نقل المتاع ركبنا عربة صعقت بنا في طريق صعيب المرتقى ، حتى استويينا على طريق مهيبة امام باب القلعة التي بناها السلطان سليمان القانوني . وهذا الباب أشبه بباب الفتوح في سور القاهرة ، وخرجنا منه الى الفندق . وبعد ان استرحت قصدت الى المسجد الاقصى ، وسلكت من طريق مسقوف منحدر ومبلط بالحجر الصغير وهو سوق البلد وهو يشبه سوق الفحمين وشارع التربيعة والحمزايوي ويقرب من خان الخليلي في مصر أو قسبة رضوان في بعض اجزائه . والسالك الى المسجد يرى الطريق مزدحماً باناس من الامم المختلفة في اللون والشكل والملابس ويعرف منهم اهل الخليل والقدس بملابسهم وعمائمهم . فاذا وصلت بعد هذا الانحدار الكثير الى سبيل السلطان سليمان الموجود على باب من أبواب المسجد وجدت طائفة كبيرة من السائلين لا يسألون الناس الحافا .

ودخلنا ذلك الفناء الرحب الذي يجتمع فيه لصلاة الجمعة جميع المسلمين من سكان القدس والبلاد المجاورة . فما هي الا نظرة الى ما نحن فيه والتفاته الى ذكرى ما مضى من الاثر ، حتى يمتلىء القلب هيبه وتخشع النفس وتذرف العين الدموع .

وصلت قبل ازدحام المسجد بالمصلين وتخطيت الصفوف حتى وصلت الى المنبر ونظرت الى الجنوب فماذا وجدت؟ وجدت نحو نصف هذا المسجد الاثري المتعدم النظير مسدودا بالواح من الخشب ، ونظرت من شقوقها فوجدت البواكي الجميلة (وسأصفها فيما بعد) مصلوبة على أعمدة من الخشب لتقيها شر السقوط . والسكينة مخيمة على هذا الجزء من المسجد فتزيده هيبه . مع ان

هذا المسجد هو المصلى الوحيد لاهل القدس وقاصديها من بلاد العالم، فان الاهالي لا يستطيعون عمارته دون معونة تأتيهم من الخارج.

آدينا النوافل وسمعنا قارئاً مصرياً يقرأ سورة الكهف بصوت جميل وبجانبه جلس قراء من المسجد من الاشراف ينتظرون وقت الاذان ليقوموا بالدعاء للمسلمين ولولاتهم وللمحسنين منهم ولمن يتبرع بعمارة المسجد، ثم يصلون على النبي وآله باصوات مليحة جهورية قبل خطبة الجمعة ثم يدعون لحمزة والعباس والحسن والحسين - مما ليس له اثر في مصر.

وصعد الخطيب على المنبر وهو يلبس كما كان يلبس مشايخ السادات في مصر قبل ان تزول آثار هذه الطريقة. وخطب بعد أن حمد الله وصى على النبي لا كخطبة ائمة المساجد في مصر المشتملة على الفاظ محفوظة في الوعد والوعيد بل ضرب على الوتر الحساس وأوصى الناس بالاتحاد وعدم التفرقة وجمع الكلمة لان الفرقة سلاح العدو. وأوصى الناس بتبادل الثقة وتأدية الامانات الى اهلهما والتعاون على البر والتقوى وعدم التنازع بالالقاب وان لا يأكل أحدهم لحم أخيه، وكلمات أخرى تنفع الناس في معاشهم ومعادهم. ثم ذكرهم بعمارة المسجد الاقصى ودعوة الناس اليه في أقطار العالم فقال:

«أيها الرجل قم ودبر المال لعمارة هذا المسجد. نعم دبر المال لاجل مصلاك هذا كي تريح وتغنم فانه ثاني القبليتين والا فستجد في المستقبل القريب جدرانته تشكو الى الله بخل الانسان. اخاطب معاشر المسلمين في مشارق الارض ومغاربها وأطلب منهم التصديق ببعض اموالهم لعمارة المسجد الحرام. وأقول للبخيل منهم الى متى هذا البخل عن مد يد المساعدة لاصلاح هذه الجوهرة اليتيمة، فالركعة هنا كما تعلمون بثواب ٥٠٠ ركعة في مساجد اخرى. فلاجل ذلك الثواب يحق لنا ان ننظر نظرة شفقة واقدم فتدبر في جمع ما يلزم من مال واجتماع وحث المسلمين على جمع الاموال والاعانات من مصر ومن سائر الاقطار. وبذلك أيها المسلمون يرضى الرب ويتجدد هذا المسجد».

ولما قضيت الصلاة عدت الى الفندق وأنا متأثر من بكاء الناس وأقول: يا الله ما افعل الاعتقاد في القلوب. وتمنيت ان يذكر الواقفون في اوقافهم والمتصرفون في صدقاتهم ورجال وزارة الاوقاف في مصر ورجال الدولة فيها وولاة أمورها بر المسجد الاقصى ومراعاة علمائه والتبرع بشيء من الاموال لعمارته. ويكفي ان التبرع هو لعمارة المسجد الاقصى.

فلسطين والخليفة

كانت فلسطين قد اوفدت الى الاستانة وفدأ للسعي في لفت انظار مسلمي تركيا الى تجديد ما تداعي من بناء المسجد الاقصى وذلك كالوفود الاخرى التي أوفدتها الى بعض الاقطار الاسلامية. وان الرجل الذي اعتمده المجلس الاسلامي الاعلى في القدس لاداء هذه المهمة في الاستانة هو عبد اللطيف بك صلاح احد أفاضل فلسطين وامثالها. فزار حضرة الخليفة في قصر ضوله باعجه ورفع له مجموع صور أولى القبليتين وثالث الحرمين وقدم له قطعة من خشب قبة

المسجد وذكر له الحاجة الماسة الى تعميمه واصلاحه وقرار المجلس الاعلى في فلسطين المتعلق بمشروع التعمير والاصلاح . ثم رجا من حضرة الخليفة اعلان دعوة رسمية لمساعدة هذا المشروع . فلقى من مقام الخلافة كل تشجيع وتأييد . وما قاله حضرة الخليفة :

« ان هذه الغاية التي تسعون اليها جميلة ومقدسة . واعدّ فألا حسنا أن تكون مؤازرتي لكم فيها فاتحة اعمال . وسأصدر منشوراً بالحث على معاونتكم في تعمير هذا المسجد فاجعل فاتحته آية » سبحان الذي اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله » فاكون قد وفيت بذلك وظيفتي الدينية . وأهنيء أعضاء المجلس الاسلامي الاعلى بما أظهره من حسن التدبير والسياسة وبرجوعهم في هذا الامر الى مقام الخلافة وبيان ارتباطهم به . وكرر لكم تفاؤلي بهذا العمل . فبشروا بذلك مسلمي فلسطين ومصر . »

وقد مضى على نشر هذا التصريح في صحف الاستانة عدة أشهر ومع ذلك فان المنشور الذي وعد حضرة الخليفة بنشره لم يظهر بعد . ولعل هنالك موانع حالت بين حضرته وبين اذاعة هذا المنشور .

يدعو أهل فلسطين في خطبة الجمعة باسم حضرة الخليفة عبد المجيد بعد نعته ويقولون عنه انه خادم الحرمين الشريفين ويقلدهم أهالي بيروت . أما أهالي دمشق فيكتفون بالدعاء للخليفة وللجميع ملوك المسلمين بدون ذكر اسم احد منهم . وعلمت من أخبار حلب انهم يذكرون الخليفة بالاسم ويدعون له بالخير والتأييد .

يرى الزائر للقدس الشريف معاهد الخير منتشرة في أحسن واصح نقطة في المدينة أسستها الدول المسيحية أو الاغنياء منهم الذين عملوا بوصايا دينهم . وعرفوا أن الانسان لا يعيش لنفسه بل يعيش لسواه وعملوا بقول أبي العلاء المعري :

ولو اني حبيت الخلد فردا لما أحببت بالخلد انفرادا

فانشأوا هذه المعاهد وعززوها بالملاجيء وبدور العجزة حبا في منفعة سكان القدس من الطوائف المسيحية اولا ثم باقي السكان من المسلمين واليهود ثانياً . ويرى الزائر ملاجيء كثيرة لايواء الغرباء من زوار القبر المقدس واطعامهم واكثرها للاميركان ثم طوائف اللاتين ثم الارثوذكس من الروس والاروام والارمن والالمانيين والنمساويين والايطاليين ويرى عيادات طبية . ولليهود كذلك محلات خيرية للتعليم وملاجيء للعجزة ويوجد في المدينة عدة مستشفيات داخل قصور فخمة للعلاج واسعاف المرضى والوالدات وعمل العمليات الجراحية يحيط بها حدائق غناء ولهذا الملاجيء والمعاهد والمستشفيات ايرادات ثابتة من غلة بعض الاراضي الموقوفة ومن التبرعات والاعانات المستمرة ولها ادارات تشرف عليها وتحافظ على كيانها .

وما يؤسف له انك مهما قلبت نظرك في هذه المدينة التي هي أحق بعطف المسلمين في

مشارك الارض ومغارها، لانها مهبط الرحمة ومبعث الانبياء والتي توجد فيها قبلة المسلمين الاولى لا تجد للمسلمين - الذين لهم هذه القبلة الموجودة بداخل المسجد الاقصى المعروف قديما بتل موريا، والذي له منزلة دينية سامية من أقدم أزمنة التاريخ، قدسها الوثنيون أولا ثم اليهود ثم المسيحيون ثم المسلمون - الا أشياء تافهة كمدرسة لتربية الأيتام الموجودة في دار من دور الحكومة التركية داخل المدينة وبعض معاهد أولية. وللمسلمين في هذه البلاد العذر لانهم فقراء ولان أوقافهم لا تكفي الا لاقامة شعائر الدين في المسجد الاقصى ومسجد عمر ابن الخطاب في القدس وفي بيت لحم ومسجد الخليل وبعض مساجد ومزارات أخرى ومسجد الصخرة الذي لا يوجد مثله في البلاد. فعسى أن مصر التي اشتهرت بالاحسان من قديم الزمان والتي لها الاثر الخالد في الحرمين الشريفين والمزارات والمساجد تمد يدها أولا لترميم الحرم الشريف القدسي ومسجد الصخرة. ولبناء تكية ومدرسة في القدس الشريف يلجأ اليهما الفقراء فيجد العاجز منهم بلغة تقيه شر الجوع ومكانا مصر يا بأوي اليه ومدرسة يتعلم فيها الابناء العلم. وتقر بها عين الشروق كما قررت عين الغرب بما فيها من معاهد العلم التي اشرفنا عليها. بارك الله في همة أبنائها الذين في أمواهم حق معلوم، للسائل والمحروم.

وصف المسجد الاقصى جمال الحرم . وجمال مبانيه

للمباني التي يتألف منها الحرم الشريف جمال وجلال يشعر بها حالا كل من يتاح له التمتع بمشاهدته أيا كان سواء في ذلك العالم والجاهل الكبير والصغير، المسلم وغير المسلم. فاذا سرح الطرف متأملاً في عجائب صنعتهما ازداد تأثره واتسع شعوره، وحلق وجدانه مرتقياً من الحسن الى الاحسن ومن السامي الى الاسمى، فيخشع قلبه وتحمل عليه روحانية لطيفة تسمو بنفسه الى ادراك حقائق الدين ودقائق معانيه ونبيل مقاصده، الى غير ذلك مما يدل على بلوغ فناني العرب والمسلمين الغاية القصوى في الاتقان والابداع.

فالداخل الى الحرم المكرم من أي باب من أبوابه المباركة تأخذه روعة المقام الشريف اذ ينسبط أمامه مشهد من مشاهد السعة والصفاء رحب فسيح، ينشرح له الصدر، وينجلي بمراه الذهن، فلا يلبث النظر أن يرسل رائده الى ما حوله من المباني الفخمة المتنوعة بتناسب تام من مربع الى مسدس الى مثلث الى مستطيل الى كروي الى اسطواني . . . على أشكال وأوضاع متلائمة آخذ بعضها برقاب بعض تسر الناظرين، وتسبح بحمد رب العالمين.

وترى أروقة ممتدة على جوانب الساحة يتخللها النور والهواء فتنزل على النفس السكينة والهناء، وقباباً عظيمة تحنو على ما تحتها من المعابد ولا حنو الأم على فطيمها، وأساطين شاهقة ترفع

ما فوقها بقوة ومتانة، وأعمدة هيفاء مختلفة الاشكال والالوان، قامت صفوفاً متزاوجة توحى الى القلوب الاحترام وحب النظام، ومآذن تحترق الفضاء، وتمعن في العلاء لتكون رسولا بين الارض والسماء، ومناديا ينادي الناس كل يوم خمس مرات «بحي على الصلاة، حي على الفلاح» ومقاصير وفساقي، وادراجا ومراقى، ومنابر خاشعة، تتلى عليها المواعظ الحسنة، ومحاريب ساكنة يستقبل فيها المصلون وجه ربك ذي الجلال والاكرام، ويذكرون فيها اسمه تبارك وتعالى في الغدو والأصال.

وكل ذلك قد أحكم بناؤه من حجر منقوش، أو مرمر مسنون، أو خزف مصقول، أو خشب منجور، أو صفر مطلي، بالفضة أو مكسو بالتبر، أو فص مذهب يعلوه التزيين والتلوين، والتشجير والتزهير، والتذهيب والترصيع، والوشي والزخرفة والتنميق . . فاذا أشرقت الشمس وامتزج نورها بتلك التراكيب الهندسية البديعة رأيت لها لآء يأخذ الابصار ويملاً الجوانح وينقل النفوس الى نعيم قدسي لا يدرك كنهه، ولا يعرف سره،
فتبارك الله أحسن الخالقين

المساحة - السور - الابواب

يقع الحرم القدسي الشريف على مساحة مربعة طول الجهة الغربية منها (٤٩٠) مترا والشرقية (٤٧٤) مترا والشمالية (٣٢١) مترا والجنوبية (٢٨٣) مترا يحيط بها سور يتراوح ارتفاعه بين (٣٠) مترا (عند الزاوية الشمالية الشرقية) و (٤٠) مترا (في الجنوب الشرقي) ويبلغ بعض الحجارة فيه نحو خمسة أمتار طولاً في أربعة أمتار عرضاً.

وحول السور من جهة الغرب والشمال أروقة فسيحة معقودة يتخللها بعض أبواب الحرم وهي ١٤ بابا المشروع منها احد عشر وهي:

١ - في الجهة الشمالية: باب الاسباط، وباب حطة، وباب شرف الانبياء أو الدويدار (العتم).

٢ - في الجهة الغربية : باب الغواثمة (وكان يسمى قديماً باب الخليل) وباب الناظر أو البصير (كان يسمى قديماً بباب ميكائيل) وباب الحديد، وباب القطانين، وباب المتوضأ، وبابا السلسلة والسكينة (وهما متلاصقان). وكان باب السلسلة يعرف قديماً بباب داود، وباب المغاربة (وكان يسمى بباب النبي)

ومن الابواب غير المشروعة بابا الرحمة والتوبة المعروفان بباب الذهب وهما في السور الشرقي للحرم الشريف، وباب آخر في السور القبلي.

قبة الصخرة

شيد جامع الصخرة الشريفة على صحن مربع مفروش بالبلاط المصقول طوله من القبلة الى الشمال اكثر من عرضه من المشرق الى المغرب وارتفاعه ٣ أمتار يصعد اليه بادراج من الجهات الاربع : اثنان منها في الجهة الشمالية، وواحد في الجهة الشرقية، واثنان آخران في الجهة الجنوبية، وثلاثة في الجهة الغربية، وقد عقد على كل درج من أعلاه قناطر هيفاء، محمولة على أعمدة من رخام وأركان من البناء، فكأن كل قنطرة منها اطار يبدو منه للرائي عن كئيب منظر جامع للقبلة ويدائعها الرائعة . والقبّة قائمة على بناء فخم مئمن، ذرع كل تميمه منه (٢٩) ذراعاً وثلاث ذراع أو ٢٠ متراً و ٤٠ سنتيمتراً، وقد كسي القسم السفلي من ظاهره بالرخام الابيض المشجر والقاشاني البديع الذي يترقق فيه ماء الالوان المتزاوجة من لازوردي صاف، وأخضر قاتم، وأبيض ناصع، يعلو ذلك شبه افريز رسمت عليه آي القرآن الكريم بخط جميل، وقد صنع هذا القاشاني العجيب في أيام السلطان سليمان القانوني سنة ٩٦٩ للهجرة .

وللقبة سقّان من خشب (الانتوب) أحدهما فوق الآخر بينهما خلاء متسع فاما الخارجي منها فمكسو بشقائق الرصاص من الخارج وأما الداخلي فمدهون مذهب، وسيأتي وصف ذلك .
وتحتوي كل تميمية من البناء على سبع طاقات للتي لا باب فيها وعلى ست للتي لها باب والطاقات المحاذية لاطراف التميميات مسدودة كلها والاخرى مركب عليها الزجاج والشبائيك الحديد . وشكلها الحاضر يدل على انها جددت في القرن العاشر الهجري (أي في القرن السادس عشر للميلاد) .

ولجامع الصخرة أربعة أبواب مزدوجة داخلاً وخارجاً مربعة الشكل بعقود مقوسة وهي :-
باب الجنة في الشمال، وباب النساء في الغرب، وباب داود أو باب السلسلة في الشرق، وباب القبلة في الجنوب . وأمام هذا الباب الاخير من الخارج رواق مفروش بالرخام عليه سقف مكسو بالقاشاني في وسطه قنطرة معقودة والسقف محمول على ثمانية اعمدة من الرخام مختلفة في النوع واللون، وللباب المذكور مصراعان ملبسان بالنحاس الاصفر المنقوش، عليها اقفال نفيسة متقنة الصنع . وأما الابواب الثلاثة الاخرى فيرجح انها كانت مثل الباب القبلي وهي الآن لا أروقة لها .

ويبلغ دور البناء من الداخل ٥٣ متراً، وهو مقسم الى ثلاث دوائر يفصل بعضها عن بعض صفان مستديران من الاعمدة والاركان يتألف الاول منها من ثماني سوارى مسددة الاضلاع و ١٦ عموداً منها (أبيض وأزرق) عشرة، و (أخضر مرسيني) ثلاثة، و (شحم ولحم)^(١) ثلاثة، والصف الثاني مؤلف من أربع سوارى مربعة الاضلاع، واثنى عشر عموداً، منها سبعة (أخضر مرسيني) وخمسة (شحم ولحم) .

(١) المراد بالشحم واللحم ما كان حجرها ذا بقع بيض وحر على هيئة الشحم مع اللحم .

والسوارى ملبسة بالرخام المشجر والملون البديع ، والاعمدة قديمة جداً وأكثر تيجانها تدل على أنها من الطراز الرومانى أو البيزنطى القديم ، ويربط أعمدة الصف الاول بعضها ببعض وبالسوارى (بساتل)^(١) ملبسة بالنحاس الاصفر المنقوش المذهب وتحمل هذه الاعمدة مع جدار الجامع سقفاً مائلاً بعض الميل مدهوناً بأنواع الدهان قائماً على قناطر مرصعة بالفص المذهب متصلاً طرفه الاعلى بكرسى القبة .

ويزين باطن القبة مجموعة لا نظير لها من الفصوص الملونة تمثل ٦٤ شكلاً من الزخارف على نحو ما كان يصنعه فنانو البيزنطيين ، وهى مركبة على سطح موسى بالذهب يأخذ بيبصر الناظر ولبه . وفى كرسى القبة ست عشرة طاقة زجاج مذهبة يعلو كلاً منها طبقة من الجبس مقسمة عيوناً مغطاة بقطع الزجاج المختلفة الالوان والاشكال تنفذ منها أشعة الشمس صافية ملطقة بفضل الواح الزجاج الخارجية والمشبكات المصنوعة من الفاشانى . وعلى هذه الطاقات نقوش تدل على انها صنعت فى زمن السلطان سليمان سنة ٩٤٥ هجرية كما أن المرمر الذى يكسوها انما ركب فى زمن (السلطان صلاح الدين) وجدد فى أيام السلطان سليمان المذكور .

والصخرة الشريفة واقعة داخل درابزين^(٢) من خشب منقوش مدهون بأنواع الدهان طولها ١٧٧٠ متراً وعرضها ١٣٥٠ متراً وارتفاعها عن الارض يبلغ نحو ١٢٥ متر الى مترين وينزل الى المغارة التى تحتها باحدى عشرة درجة من جهة القبلة ، وعند باب المغارة قنطرة معقودة بالرخام العجيب على عمودين وبياطنها محرابان كل محراب على عمودى رخام لطيفين . وامام المحراب الايمن صفة تسمى مقام الخضر يواجهها عمود رخام قائم للسقف وآخر راقد ، وفى الركن الشمالى منها صفة تسمى مقام الخليل .

وجميع باطن أرض الصخرة والمغارة مفروش بالرخام . وفى وسط المغارة بلاطة مستديرة ينبعث عنها اذا نقر عليها رنين تتجاوب اصداؤه . وهذا يدل على خلوما تحتها . وحول الدرابزين الخشبي مصلى النساء وهو محاط بالقضب الحديدية من جميع جهاته ، وله أبواب أربعة لا يفتح منها عادة الا الباب الغربى الموازى لباب النساء وهو من عمل الصليبيين ابان احتلالهم بيت المقدس .

صفة المسجد الأقصى

يقع المسجد الاقصى جنوبي جامع الصخرة وطوله ٨٠ متراً وعرضه ٥٥ ما عدا ما أضيف اليه من الابنية .

وأول ما يقابلك من المسجد الاقصى عند الدخول اليه من الجهة الشمالية رواق كبير أنشأه الملك المعظم عيسى بن أبى بكر ابن أيوب صاحب دمشق سنة ٦٣٤ هجرية وجدد من بعده . وهو مؤلف من سبع قناطر عقدت على عمر ينتهى الى سبعة أبواب كل باب يؤدي الى (كور) من (أكوار)

(١) جمع (ستلة) وهى عارضة من حديد تصل ما بين الاعمدة ولعلها فارسية . وقد وردت فى كتاب «مسالك الأبصار فى ممالك

والامصار» لابن فضل الله العمري .

(٢) الدرابزين كلمة أعجمية يمكن أن يجعل عملها كلمة كفاف بالكسر .

المسجد السبعة، وللمسجد عدا هذه الابواب باب في جهة الشرق، وآخر في جهة الغرب ومدخل الى المكان المعروف بجامع النساء، فيكون مجموع ما للمسجد من الابواب عشرة. والبناء قائم على خمسة وأربعين عموداً منها ثلاثة وثلاثون من الرخام واثنا عشر مبنية بالاحجار. وهي تحت (الجميلون^(١)) والعمود الاخير مبني بالحجارة أيضاً وموضعه عند الباب الشرقي تجاه محراب زكريا، وهذه الاعمدة قديمة نقلت في الغالب من انقاض ابنية متنوعة اقدم عهداً من الحرم، وفوق الاعمدة قناطر عريضة حديثة العهد يربط بعضها ببعض أخشاب ضخمة مستطيلة وفوق القناطر صفان من الطاقات، العلوية منها تفتح على الخارج والسفلية على (الاكوار) داخل المسجد. وباطن السقف مكون من عوارض كلها من الخشب.

وعدة ما في المسجد من السوراري أربعون، وهي ضخمة مربعة الشكل مبنية بالحجارة. وباقصى البناء من جهة الجنوب قبة مرتفعة مزينة بالفصوص الملونة المذهبة، وهي مما رممه صلاح الدين الايوبي، وذلك في سنة ٥٨٤ هجرية، كما أنه رمم أكبر جناحي المسجد. والقبة والجناح على الغالب انما صنعا في خلافة المهدي بعد تهدم المسجد بفعل الزلازل. وهي كقبة الصخرة من خشب مكسوة بصفائح الرصاص من ظاهرها وبالفص المذهب من باطنها. ومجدد هذه التزيينات هو الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٨ للهجرة كما يفهم ذلك من الكتابة التي عليها.

وهناك آيات قرآنية كتبت بخط كوفي على جانبي المحراب. والمحراب قائم على أعمدة لطاف من المرمر وبجانبيها المنبر وهو من الخشب المرصع بالعاج والأبنوس، أمر بصنعه خصيصاً لبيت المقدس الملك العادل نور الدين الشهيد وهو بحلب سنة ٥٦٤ هجرية، فلما فتح بيت المقدس على يد صلاح الدين أمر باحضاره ونصبه في المكان الموجود به حالا. ويقابل المنبر دكة المؤذنين، وهي على عمد من رخام في غاية الحسن.

وبداخل المسجد من جهة الغرب جامع النساء أو الجامع الابيض، وهو عبارة عن عشر قناطر على تسع سوار في غاية الاحكام بناه الفاطميون. ومن جهة الشرق جامع عمر وهو معقود بالحجر والجير سمي بذلك لانه بقية من الجامع الذي بناه عمر رضي الله عنه حين الفتح. والى جانب هذا البناء ايوان كبير معقود يسمى مقام عزيز وبه باب يتوصل منه الى جامع عمر. وبجوار هذا الايوان من جهة الشمال ايوان لطيف به يسمى محراب زكريا عليه السلام، وهو بجوار الباب الشرقي.

وفي صحن المسجد الاقصى شمالاً بركة مستديرة من رخام سورت بالقضب الحديدية يقال لها الكاس يأتيها الماء بانابيب خاصة من عيون جارية بالقرب من برك المرجع المسماة ببرك سليمان أهمها عين عطاب ووادي الآبار وغيرها. ومنها يتوضأ المصلون.

ومن الآثار المهمة في الحرم الشريف: البناء السفلي المعقود بالحجر والجير المعروف عند

(١) الجميلون من اوضاع العامة وهي تعني السقف المحذب.

الافرنج باصطبل سليمان عليه السلام وهو عبارة عن مهد عيسى ومحراب مريم والعقود الواسعة التي يقوم عليها المسجد الاقصى . وكذا البراق الشريف وهو في السور الغربي وجامع المغاربة، والمدرسة النحوية (المعظمية). وفيها اليوم دار كتب المسجد الاقصى . وهي من ابنية الملك المعظم (سنة ٦٠٤هـ) ومنبر القاضي برهان الدين بن جماعة ومحرابه وقبة السلسلة، وهي شرقي قبة الصخرة وعلى شكلها . صنعت في ايام عبد الملك بن مروان . وقبة المعراج (سنة ٥٩٧هـ) وسبيل قايتباي (سنة ٨٨٧هـ) وما يحيط بالحرم الشريف من المدارس القديمة كالمدرسة التنكزية وفيها اليوم المحكمة الشرعية والمدرسة المنجكية، وفيها المجلس الشرعي الاسلامي الاعلى والرباط المنصوري في باب علاء الدين وغير ذلك من الآثار الاسلامية والاماكن التاريخية^(١).

الحرم الشريف

وفي سنة ٦١٤م . اكتسح الفرس البلاد فخرّبوا بيت المقدس وقضوا على ما فيها من المعابد والكنائس لكن جيوش المسلمين لم تلبث ان فتحت بيت المقدس سلماً سنة ١٥ هجرية و٦٣٧م . بحضور الخليفة الثاني سيدنا عمر رضي الله عنه . فلما دخلها ذهب توا الى مكان الحرم الشريف وازال ما كان فيه من الاقدار .

ولما افضت الخلافة الى عبد الملك بن مروان وحيل بينه وبين الحرمين الشريفين لقيام خصمه اذ ذاك عبدالله بن الزبير خليفة في الحجاز ولي وجهه شطر القبلة الاولى فأمر بانشاء المسجد الاقصى وقبة الصخرة في بيت المقدس ورصد لذلك خراج مصر سبع سنين ووكّل على العمارة أبا المقدم رجاء بن حيوة بن جود الكندي . وكان من العلماء الاعلام ويزيد بن سلام مولى عبد الملك من اهل بيت المقدس وولديه . ويقال ان عبد الملك وصف ما يختاره من عمارة القبة وتكوينها للصناع فصنعوا له وهو في بيت المقدس القبة الصغيرة التي هي شرقي قبة الصخرة (قبة السلسلة) فاعجبه تكوينها وأمر ببنائها كهيئتها .

وبقيت بعد الفراغ من عمارة الحرم مئة الف دينار فامر بها عبد الملك جائزة لرجاء ويزيد فكتب اليه : «نحن أولى ان نزيده من حلى نسائنا فضلا عن أموالنا، فاصرفها في أحب الأشياء اليك» . فكتب اليها بان تسبك وتفرغ على القبة فسبكت وافرغت عليها فما كان أحد يقدر ان يتأملها مما عليها من الذهب . وهيئاً لها جلالا من لبود توضع من فوقها فاذا كان الشتاء البستها لتقيها من الامطار والرياح والثلوج .

وكان الفراغ من عمارة قبة الصخرة والمسجد الاقصى في سنة ٧٢ من الهجرة، وقد قرن اسم عبد الملك بهذا الاثر الخالد منقوشا بالفسيفساء عند مدخل الصخرة من الباب الجنوبي بعبارة هذا نصها :

(١) كل ما أورده من وصف الحرم القدسي مأخوذ من البيان الذي نشره المجلس الاسلامي الاعلى في القدس .

«بنى هذه القبة عبد الملك (عبدالله الامام المأمون) أمير المؤمنين في سنة اثنتين وسبعين تقبل الله منه ورضى عنه أمين» .
ويظهر من اختلاف الخط واللون فيما أشرنا اليه بين هلالين أنه من الاضافات التي حدثت بعد ذلك التاريخ .

الحرم الشريف في زمن العباسيين

وفي سنة ١٣٠ هـ سقط شرقي المسجد الاقصى وغريبه في الرجفة التي حصلت في خلافة أبي جعفر المنصور العباسي فخطوب بلزوم عمارته ، فامر بقلع صفائح الذهب والفضة التي كانت على الابواب فقلعت وضربت دنانير ودرهم وانفقت عليه حتى فرغ . ثم حصل زلزال سنة ١٥٨ هجرية تهدم فيه البناء الذي كان امر به أبو جعفر . فلما كانت خلافة المهدي أمر بينائه فانقص من طوله وزيد في عرضه . وذلك في سنة ١٦٩ هـ . وأخيراً جددت عمارة قبة الصخرة في أيام المأمون (٢١٦ هـ) كما جاء في الكتابة المذهبة الواقعة على البابين الشرقي والشمالي من الداخل .

الحرم الشريف في زمن الفاطميين

ثم جاءت زلزلة ثالثة سنة ٤٠٧ هـ . تهدمت من جرائها قبة الصخرة وبعض الجدران الواقعة في الشمال الشرقي من الساحة المحيطة بها فقام الظاهر لاعزازدين الله ابن الحاكم بامر الله برفعها وتجديد عمارتها سنة ٤١٣ هـ . على يد علي بن احمد كما نقش على الاعمدة الواقعة داخل القبة . ومما زيد فيها في زمن الفاطميين البناء المسمى اليوم بجوامع النساء .

الحرم الشريف في دولة بني أيوب

ولما احتل الصليبيون بيت المقدس حولوا قبة الصخرة الى كنيسة والمسجد الاقصى الى منزل لسكنى ملكهم وسموا ما تحت الاقصى من الابنية باصطبل سليمان وربطوا فيه الخيل فجاء صلاح الدين الايوبي وهدم ما احدثوا من الابنية والسواري وأعاد الحرم الشريف الى ما كان عليه وذلك سنة ٥٨٣ هـ . وكان الملك العادل نور الدين الشهيد قد أعد منبراً عجيب الصنعة يرسم القدس صنعه حميد بن ظافر الحلبي وسليمان بن معالي من خشب مرصع بالعاج والابنوس وعليه تاريخ يرجع الى سنة ٥٦٤ هـ . وقد أدركته المنية قبل الفتح فاحضره صلاح الدين من حلب وجعله في المسجد الاقصى وهو الموجود في عصرنا هذا .

وأمر بترميم محراب الاقصى وكتب عليه بالفصوص المذهبة ما نصه :

«بسم الله الرحمن الرحيم . أمر بتجديد هذا المحراب المقدس وعمارة المسجد الاقصى الذي هو على التقوى مؤسس عبدالله ووليه يوسف بن أيوب أبو المظفر الملك الناصر صلاح الدنيا والدين عندما فتحه الله على يديه في شهور سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وهو يسأل الله ايزاعه شكر هذه النعمة واجزال حظه من المغفرة والرحمة» .

وفي سنة ٦٣٤ قام الملك المعظم عيسى بن أخي صلاح الدين بعمارة (واجهة) المسجد الاقصى الشمالية والرواق الموجود في مدخله من تلك الجهة .

وفي سنة ٦٦٨ هـ اعتنى السلطان الملك الظاهر بيبرس بعمارة المسجد ورمم صدع الصخرة الشريفة وجدد فصوصها التي على الرخام من الظاهر والتي على قبة السلسلة .

وعمر السلطان الملك المنصور قلاون الصالحى سنة ٦٨٦ سقف المسجد الاقصى من جهة القبلة مما يلي الغرب . وفي أيام السلطان الملك العادل كتبغا في سنة ٦٦٥ جدد عمل فصوص الصخرة الشريفة وعمارة لسور الشرقي المطل على مقبرة باب الرحمة . وفي أيام السلطان الملك المنصور لاجين جددت عمارة محراب داود الذي بالسور القبلي عند مهدي عيسى عليه السلام بالمسجد الاقصى .

وعنى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون ابان سلطنته الثالثة بعمارة السور القبلي الذي عند محراب داود عليه السلام ورخم صدر المسجد الاقصى وفتح به الشباكين اللذين عن يمين المحراب وشماله (٧٣١ هـ) . وجدد تذهيب القبتين قبة المسجد الاقصى وقبة الصخرة سنة ٧١٨ هـ . وعمر القناطر على الدرجتين الشماليين بصحن الصخرة التي احدهما مقابل باب حطة والاخرى مقابل باب الدويدارية وعمر باب القطانين بالبناء المحكم . وفي أيامه أيضاً عمر الامير تنكز الناصري نائب الشام البركة الرخام بين الاقصى والصخرة والرخام الذي في قبة المسجد عند المحراب وكذا الجانب الغربي سنة ٧٢٨ هـ .

وفي أيام الملك الاشرف شعبان بن الامير حسن بن الملك الناصر محمد بن قلاون عمرت المنارة التي عند باب الاسباط بمباشرة السيفي قطلوبغا ناظر الحرمين الشريفين في سنة ٧٦٩ هـ . وكذا تم تجديد الابواب الخشب المركبة على الجامع الاقصى والقناطر التي على الدرجة الغربية لصحن الصخرة المقابل لباب الناظر في (٧٧٨ هـ) .

وفي سلطنة السلطان الملك الظاهر أبي سعيد برقوق عمرت دكة المؤذنين التي بالصخرة تجاه المحراب الى جانب المغارة بمباشرة ناظر الحرمين ونائب القدس الشريف الناصري محمد بن السيفي بهادر الظاهري في ٧٨٩ هـ .

وفي أيام الملك الظاهر أبي سعيد جقمق العلائي الظاهري احترق سقف الصخرة القبلي من جهة الغرب ، من جانب القبة فاخذت النار وعمر السقف باحسن مما كان .

وفي سنة ٨٧٧ هـ . أمر السلطان الملك الاشرف أبو النصر بعمارة الدرج الموصل الى صحن الصخرة الشريفة تجاه باب السلسلة المجاور لقبة المدرسة النحوية . وفي سنة ٨٨٤ جدد رصاص قبة الاقصى ولم يكن من حيث الجودة والاتقان كالقديم . وفي سنة ٨٨٧ هـ . أنشئ سبيل قايتباي

المقابل لدرج الصخرة الغربي على بئر هناك وكذلك الفسقتان المجاورتان له .

وقد نمت في الحرم الشريف عمارات متعددة في زمن سلاطين بني عثمان كزجاج شبايك الصخرة العجيبة فانه من آثار السلطان سليمان القانوني سنة ٩٤٥ هـ كما تدل على ذلك الكتابات المرسومة على زجاج الطاقات . وكذلك القاشاني البديع المحيط بقبة الصخرة من الخارج فانه صنع في زمنه سنة ٩٦٩ هـ . وهذا التاريخ مثبت في صدر محراب قبة السلسلة والنقوش والكتابات النفيسة فان قسماً كبيراً منها جدد في أيام السلطان محمود سنة ١٢٣٣ وسنة ١٢٥٦ هـ . وفي أيام السلطان عبد العزيز سنة ١٢٩١ هـ . جدد رصاص الصخرة الخارجي وتذهيبها . وحصلت عمارات طفيفة في زمن السلطان عبد الحميد كتجديد سبيل قايتباي وباب الصخرة الغربي وغير ذلك .

نظرة في مدينة بيت المقدس الآن
الاماكن المقدسة . المسجد الاقصى وعمارته . اللجنة الفنية
عناية ملك انكلترا بالاثار . الحالة في المدينة
مهمة المجلس الاسلامي الاعلى

يقصد القدس سنويا للزيارة والتبرك بزيارة المسجد الاقصى ومسجد الصخرة ومزارات الانبياء والقبر المقدس ومولد المسيح ومولد السيدة مريم والنبي موسى عليهم السلام ومقام ابراهيم عليه السلام في بلد الخليل (حبرون) وزيارة السيدة راحيل في طريق بيت لحم - عدد وافر من مسلمي العالم على اختلافه وعشرات الالوف من المسيحيين واضعاف ذلك العدد من اليهود . فترى في القدس اجناسا مختلفة وسحنا متباينة من يهود الكرج وعجم همدان ويهود روسيا وبولونيا وايطاليا والنمسا والمانيا عدا الاعراب من الكرك والسلط والصحراء . فترى المساكن متجاورة وفي المنحدرات من الارض . او في مرتفع يصعد اليها بدرج وبينها كنيسة قديمة مضى عليها اكثر من الف سنة لا يشعر الانسان بعظمتها واتساعها وزخرفها الا اذا اجتاز بابها الضيق ودخل اليها من طريق مرصوف بالحجر الرفيع الذي يشبه الأجر . وكذلك الشوارع فانها منحدره مسقوفة وعلى بواكيتها منازل السكان وكذلك حارة اليهود فانها تزدحم بالمنازل على ضيقها، وبجوارها أو فيها مصانع الخمر ومدابغ الجلود . فلا يسع المار الا سد أنفه . وسراة المدينة يقيمون في منازل جميلة . اشبه بمنازل القاهرة في بيرجوان او بين السيارج والجمالية وقصر الشوق والجودرية وحارة الروم وسوق السلاح ودرب الجماميز .

والحق يقال ان جميع سكان المدينة يشتغلون في تجارتهم بنشاط . ولا يقل المسلمون عن النصارى ولا هؤلاء عن اليهود في الحرص على مصالحهم ومنافعهم .

مررت من حارة المغاربة بين صعود وهبوط حتى وصلت الى جدار المسجد الاقصى من الجهة القبليية فوجدت احباراً من اليهود ونساء منهم يستقبلون الجدار وأيديهم في فجوة صغيرة منه فيقرأون ويهتزون بحركة مستمرة ونسمع أصوات بكائهم على ملك أورشليم الذي ضاع ويقرأون الزبور بنغمات غريبة فاذا انتهى أحدهم بعد ساعة قام الثاني مقامه . وهكذا من الشروق الى بعد الغروب . ويقول العامة ان اليهود يسمون هذا الجدار بسور البكاء .

اللجنة الفنية

لا يوجد في القدس الشريف بالرغم من الاماكن الاثرية الموجودة فيه بكثرة لجنة لحفظ الآثار كما هو في مصر بل يوجد بدلها لجنة فنية تضم بعض المهندسين من ابناء فلسطين وتركيا ممن تعلموا في مدارس الاستانة بواسطة الاستاذ كمال الدين بك العماري المعروف . وبين اعضائها رشدي بك ونهاد بك وهاني بك وغيرهم . وقد رأت هذه اللجنة ان المسجد الاقصى ومسجد الصخرة

كلاهما في حاجة الى الاصلاح فعرضت الامر على المجلس الاسلامي الاعلى فقام بالدعوة بعد ان وضعت الحرب أوزارها. ووصل الخبر الى مسامع جلالة ملك انكلترا فعرض بواسطة حاكم القدس ان يتبرع بمبلغ الف جنيه للمساعدة الفنية ليس الا. فشكره المجلس الاسلامي الاعلى بعبارة لطيفة خلاصتها ان هذا الامر يختص بالمسلمين وحدهم وهم في استعداد للقيام بالتبرع والاصلاح.

يقع الحرم القدسي الشريف على مساحة مربعة يحيط بها سور يتراوح ارتفاعه بين ٣٠ مترا ويبلغ بعض الحجارة فيه نحو ٥ امتار طولاً في أربعة امتار عرضاً. وللحرم ١٤ باباً المشروع منها أحد عشر.

والداخل الى الحرم من أي باب من أبوابه يرى المباني الفخمة على اشكال واطراف متناسبة آخذ بعضها برقاب بعض. ويرى أروقة ممتدة على جوانب الساحة وقباباً عظيمة وأعمدة مختلفة الاشكال والالوان وقد أتينا على وصفه من قبل. ويذكر التاريخ ان أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان خصص لعمارة المسجد الأقصى ومسجد الصخرة خراج مصر لمدة ٧ سنين. ولهذا يذكر أهالي القدس مصر بالثناء ويقولون انها السبب في عمارة المسجد الأقصى قبل ١٢٤٠ سنة. وهم لاجل ذلك يعتمدون على مصر في المساعدة لاصلاح المسجد والتبرع ببعض أموالهم. ويعتقدون ان الدعوة التي أذيعت في أول هذا العام في مصر ستأتي بالثمرة المقصودة.

مهمة المجلس الاسلامي الاعلى

هذا المجلس أهلي يتولى شئون الطائفة الاسلامية في فلسطين وقد تشكل منذ نحو سنتين برياسة حضرة السيد محمد أمين الحسيني مفتي فلسطين فقام بالواجب عليه في انقاذ أراضي الاوقاف من واضعي اليد عليها من الذين ادعوا ملكيتها أو من الحكومة وبلغ مقدار ما استخلصه نحو ١٠ آلاف فدان منها أراض كانت غير معروفة في أيام الحكومة العثمانية. فحفظ المساجد والزوايا وأنشأ مدارس لتعليم الايتام والاطفال وحفظ التكايا بما يدره عليها من الارزاق ثم أصدر أوامر مشددة نفذتها الحكومة بعدم تبرج النساء أو التهتك اثناء سيرهن في الطرقات وامتنع من القدس ذلك الداء الفتاك داء البغاء المنتشر في مصر وبلادها. وكانت مصر أولى بذلك. ثم استدعى لجنة فنية للكشف على المسجد الأقصى ومسجد الصخرة وناط رئاستها بالمهندس كمال الدين بك اشهر مهندسي الاستانة فتولى ذلك في اغسطس ١٩٢٢. وبعد ان قام بالاعمال الابتدائية سافر في اكتوبر من السنة المذكورة وأمر بالسرعة في العمارة وكلف نهاد بك أحد اعضاء البعثة بعمل الرسوم الفنية فقام بما عهد اليه. واستعان بما بقي من القاشاني في قبة الصخرة الذي صنع في أيام السلطان سليمان سنة ٩٦٩ هجرية. وأتم في هذا الاسبوع صنع الخرائط الجميلة وقد شاهدها فوجدتها منطبقة على الاصل تمام الانطباق.

وقد قدر للعمارة مبلغ ١٥٠ الف ج.م. ورد منها مبلغ ١٢٥٠٠ ج.م. من الحجازيين جمعه جلالة ملك الحجاز وسلمه للوفد الذي ذهب الى مكة في أيام الحج . وجمع من أهالي فلسطين بعض مبالغ . وسافر وفد من علماء فلسطين الى الهند في هذا الشتاء ثم يعود الى العراق لبث الدعوة في العالم الاسلامي وجمع النقود .

وقدر للعمارة ١٥ سنة يصرف في كل سنة ١٠ آلاف جنيه الا اذا وفق المجلس الاسلامي الاعلى لجمع هذا المقدار بسرعة فان العمارة تنتهي في ٣ سنوات .

أما المسجد الأقصى فالعمارة فيه لازمة لان الجزء الجنوبي منه في خطر . وقد تفتت اخشاب السقف فوقعت على الارض ورأيت بعض قطعها فوجدت ان السوس نخرها . وقد مالت البواكي التي تحمل القبة الشريفة ، وهذه القبة لا يوجد مثلها في البلاد .

ويقول الناس في القدس ان صاحب الجلالة ملك مصر لما بلغته الدعوة الى عمارة المسجد الأقصى وعد بالمساعدة ، وان حكومته ستساعد في نشر الدعوة والاكتتاب .

وهذا قول حق لأن مصر أولى بالسبق لما لهذا المسجد الشريف عليها من حق الجوار ، ولما لها فيه من تالد الآثار . فيكتب على الجدران اسم الملك فؤاد بجوار اسمي صلاح الدين والسلطان سليمان .

ولما كان الشيء بالشيء يذكر فان مسجد النبي داود يقع في نقطة بعيدة من سور المدينة على بعد من مباني القدس وهو مسجد صغير بداخله وبجواره منازل آل الدجاني وبعض التكايا لفقراء المسلمين يصرف عليها من مال أوقاف فلسطين . وبين الامكنة مكان بناه المغفور له ابراهيم باشا جد ملكنا الحالي وخصصه للفقراء وتلاوة القرآن . ومن الاسف الشديد ان هذا المكان منع منه ذكر اسم الله وخلا من الناس لان الاوقاف الخصوصية بمصر تركته في زوايا النسيان مع ان ١٠٠ من الجنيهاً تكفي في كل سنة لادارته .

وقد كتب خدام المسجد رشدي افندي الدجاني الى صاحب السمو الامير عمر طوسن بالمسألة فكتب اليه بمراجعة الاوقاف الخصوصية . فعسى ان تهتم الاوقاف الخصوصية بهذه المسألة . لان لكل الملل في القدس الشريف تكايا ومدارس وملاجي وعيادات طبية ومستشفيات سيأتي الكلام عنها بعد . وهي تشهد للجمعيات الخيرية المسيحية بالسبق في فعل الخير ومساعدة بني الانسان .

انتهت مدة اقامتي في القدس بعد ان فرغت من زيارة الاماكن المقدسة والآثار في القدس وبيت لحم والضواحي ، وسافرت في القطار الى حيفا فوصلتها بعد خمس ساعات ونصف . وفي اليوم التالي ركبت سيارة من سيارات شركة مصايف لبنان الى بيروت .

جولة في ربوع الشرق الأدنى

للرحالة محمد ثابت
القاهرة ١٩٥٢ (ط ٣)

الى فلسطين الأرض المقدسة
(ص ٥ - ٢١)

كنا في القنطرة السادسة مساءً وعبرنا قناة السويس في سباحة بخارية صغيرة أعدتها الشركة ليعبر الناس عليها القناة إلى أرض طور سيناء، وفي القنطرة الشرقية أقلنا القطار في منتصف الليل وأوغل بنا في الصحراء، وفي باكورة الصباح تفتحت عيوننا على:

غزة: مولد الامام الشافعي وهي بلدة صغيرة قامت حولها بعض المزارع الفقيرة، ثم أخذ الزرع يتزايد في بقع متناثرة في الصحراء حيث تكثر العيون وخصوصاً على المنحدرات التي كان يكسوها شجر الفاكهة في صفوف منسقة بديعة تمر خلالها مجاري الأسمت للري، وقد كانت كثرة الشجر خير مؤيد لما نعرفه من شهرة المكان بالفاكهة. وفي هذه القرية الصغيرة زرنا مدفن شمشون الجبار تحت قبة مهملة لا تشعر بجبروت من فيها. ثم وصلنا محطة:

السد: وكان الشجر حولها وفيراً وهنا غيرنا القطار الذي قام بنا صوب القدس فأخذنا نوغل في وديان ملتوية معقدة آخرها بالغ الامتداد غير ذي زرع، وكان القطار يجد صاعداً خلال كل اولئك في جهد كبير، وقد زود بقاطرتين معاً، وفي منتصف العاشرة دخلنا:

بيت المقدس: فأوتيت إلى نزل (أوليفيت) الجميل يديره صاحبه الوطني الذي شراه من الانجليز ويقوم عليه خير قيام. أما القدس فبلد كأنه اقيم على مجموعة تلال في ارتفاع ٢٤٠٠ قدم، طرقة تسير في ليات عجيبة وتهوى آنا وتصعد آنا في منحدر وعمر، وقد يرتقي الواحد من طريق إلى آخر بدرج مرتفع يناهز الخمسين سلباً. والمدينة جد نظيفة وساعد على ذلك أن ترتبها صخرية مجدبة لا تكاد تجد أثراً للتراب في أرضها وبيوتها من صخر الجير يبدو في ألوان طبيعية أبيض وأحمر وأخضر. وللقوم مهارة خاصة في نحته وإقامته بحيث يبدو فخماً جذاباً رغم انه لا يغشاه في ظاهره ملاط، وغالب المساكن من طابقين إلا بعض المنشآت الحديثة. وكم كان يدهشني اختلاف الأزياء والأجناس بكثرة لم أعهد لها في أي بلد آخر مما أيد أن ذلك المكان المقدس أضحي بلداً عالمياً. فالناس من مذاهب شتى وديانات مختلفة ولكل زيه الخاص، فالعربي القح يلبس الصوف وعلى رأسه العقال وسواد الناس يلبسون الطربوش وسروايل تحبك حول الساق وتنتفخ حول العجز، والبعض يلبس القفطان وعليه الخزام المعوج الجذاب نساء ورجالاً. ولعل أعجب الأزياء تبدو في طائفة من اليهود الرجعيين فتراهم يرسلون لحاهم وشعور رؤوسهم ويدلون منه ذؤابتين طويلتين أمام الأذنين في شكل يسترعى الأنظار، والنساء يخرجن وعلى وجوههن قناع أسود ثقيل. ومن أخص ما ترى فتياهم الذين يحملون وراء ظهورهم سلاباً كبيرة تكاد تحفي قامة الغلام منهم ويسبرون على غير هدى كلهم يجدون مرتزقاً في حمل متاع الغير في تلك السلال، ونعمة الحديث عجيبة قد تثير الضحك اذ يميلون الحروف ويمدون. ويتصرفون في حروف الجر تصرفاً مدهشاً. ولاحظت أنهم لا يميلون إلى النزاع أو المشاكسة، وهم كرام النفوس وديعون مؤدبون فما سألت أحدهم شيئاً إلا وحاول أن يهديني في رغبة وبشاشة فإن قلت (متشكر) أسرع قائلاً (استغفر الله). وهم يودون المصريين ويذكرونهم بخفة الروح.

وذاك المحراب مطعم بالعاج ترصعه اللآلئ أقامه السلطان نور الدين سنة ١١٦٨ وجمله صلاح الدين وإلى جانب من المنبر قبلتان : واحدة للمسيح ويظهر فيها أثر قدمه، والثانية لموسى عليهما السلام، وعلى كل جانب من مدخل المنبر عمودان قريان كان يعتقد الناس أن من يمر بينهما يدخل الجنة وإلا فهو من أهل الجحيم . وحدث مرة أن جاء رجل بدن كبير الجنة وحاول المرور من بيت العمودين فحشر ومات، ومن ثم سد ما بين الأعمدة ليمنع وقوع ذلك .

وإلى جوار الأسوار في الجنوب الشرقي اسطلب سليمان نزلناه بدرج تحت أرض الحرم . وإذا به مجموعة من أهباء وأقبية تقوم على اعمدة كان سليمان يربط خيله فيها، وقلده الصليبيون ففعلوا ذلك فيما بعد . ويحتمل البعض أن البناء من عهد هيرود الأكبر . وفي غرفة مجاورة مهد المسيح قيل إن مريم عرضت ابنها في المعبد عليه . وإلى جانب الاصطبل فيما جاور قبة الصخرة : الباب الذهبي أو محبس الجن، كان يجلس سليمان فيه الجن متى شاء، ويظن أنه أقيم في مكان باب شوشان الذي بناه هيرود، ولقد سده المسلمون لأن هناك خرافة تقول بأن النصراني سيغزون الحرم يوماً ويدخلون من ذلك الباب . ويجاور ذلك عرش سليمان الذي كان يجلس عليه، وقبائه من الخلف جبل الزيتون الذي كان يأوى إليه المسيح للتعبد بين أشجار الزيتون . ويقول الناس إن السراط سيمتد يوم القيامة بين هذا المكان وبين قبة الصعود قبائه فوق جبل الزيتون . وسيمسك النبي بطرف السراط من فوق صخرة رأيناها بارزة على سور الحرم، والطرف الثاني للسراط سيمسكه المسيح ثم يمر الناس جميعاً من فوقه فمن جازه نجاة وإلا فالويل لمن هوى .

مبكى اليهود : ويسمونه أحياناً البراق، حائط هائل خارج الباب الأوسط للحرم الشريف، وأقيم من كتل الصخر الكبيرة، ينبت العشب خلال شقوقها، وهو الحائط الوحيد الذي بقي من معبد داود القديم، لذلك يتخذة اليهود مبكى لهم يأرون إليه، وبخاصة يوم السبت والجمعة عند الغروب، وكذلك في أعيادهم . ويقف الرجال في ركن والنساء في الآخر وهم يبكون ويرتلون ويندبون ملكهم القديم الزائل، ويسألون الله أن يعيده إلى مجده السالف، ومنظرهم وهم خشوع رهيب، ويزيدهم رهبة أن غالب القوم يلبسون قبعات من وبر أسود فاحم كأنها حلقات غليظة، وتتدلى شعورهم من رؤوسهم ولحاهم في جدائل تسترعى النظر . ويقف جندي البوليس هناك ولا يبرح المكان لا ليلاً ولا نهاراً لأن الحائط مبعث نزاع متواصل بين المسلمين واليهود، إذ كل فريق يدعي لمذهبه ويقده .

بيت لحم : قمت إليها في سيارة لأرى قرية المسيح التي ولد فيها هو وسيدنا داود، أهلها جلهم من النصراني الذين يفاخرون بأنهم يمتون بصلة القرابة إلى المسيح نفسه، وبيت لحم قرية صغيرة وسط الجبال، تقوم بيوتها من حجارة بعضها فوق بعض، وأقدس مكان بها كنيسة مريم أقدم كنائس الدنيا مدخلها وطىء لا يكاد يسمح بالدخول إلا في انحناء شديد وذلك اتقاء هجمات العرب والأتراك الذين طالما دخلوها بخيلهم ودوابهم . وفي قلبها مغارة بجانبها صخرة مثقوبة في شكل نجم كبير وتضيء من فوقها المصابيح أبداً وهو مكان ميلاد المسيح عليه السلام . ويراقب هذا الموضع حارس مسلم ليمنع تعدي الطوائف المسيحية بعضها على بعض إذ كثيراً ما

يشجر النزاع بينهم . هنا عطرنا القسيس بماء الورد المقدس الذي تبركنا به وانعشنا في ذلك الحر اللافح ، وإلى جانب المكان بئر كانت تستقى منها العائلة المقدسة . ويقولون إن النجم الذي هدى مريم إلى هذا المكان هوى إلى تلك البئر! وإلى اليمين رأينا درجاً نزلناه إلى هيكل الأبرياء حيث ذبح هيرود أطفال بيت لحم جميعاً . وإلى اليسار الغرفة التي تلقى فيها يوسف الوحي ليهرب بالمسيح إلى ديار مصر .

وفي طريقنا إلى بيت لحم زرنا مقبرة راحيل أم سيدنا يوسف الصديق التي شراها اليهود من المسلمين وهي المكان المقدس الوحيد الذي ظل في أيدي اليهود إلى اليوم . وعلى بعد عشرين كيلومتراً من بيت لحم بلدة الخليل ، وفيها مدفن إبراهيم الخليل وزوجه وأولاده ويوسف الصديق وكثير غيرهم من الأطهار، على أن البلدة ألفيناها قدرة متربة . ومدفن إبراهيم داخل المسجد الذي لم يكن يدخله غير المسلمين إلى أمد قريب . لكنهم اليوم أباحوا للنصارى الدخول مقابل رسم يدفعه الزائر قدره نصف جنيه .

جبل الزيتون : أحد الجبال التي تحيط بالقدس ، ويقع شرقها ويبلغ علوه ٢٦٨٠ قدماً . كان المسيح يتريض فيه ويخلو بنفسه ليتعبّد ويناجي ربه ، ومنه دخل بيت المقدس يمتطي حماره فانتصر وتوج ملكاً . وفي حدائق الجبل خرج عليه تابعه (يهوذا) ودل اليهود على المسيح سيده . ومن ذروة هذا الجبل صعد المسيح إلى السماء . سرنا إلى ذاك الجبل المقدس صعداً على أقدامنا ، وفي طريقنا إليه زرنا مقبرة مريم أم المسيح في مغارة سحيقة نزلنا إليها بدرج عظيم رهيب ، وقد أقيمت فوقها كنيسة ، وقد شربنا هناك من مياه بئر مريم الطاهرة ، ثم مررنا بعد بمقابر لثلاثة آلاف جندي بريطاني ماتوا في الحرب الكبرى ، وبعدها زرنا كنيسة ألمانية فاخرة حديثة البنيان ، وفي ذروة الجبل وصلنا إلى مسجد صغير إلى جواره قبة تحتها موطىء قدم المسيح يوم صعد إلى السماء من هذا المكان . وتُصَفُّ خارج القبة مذابح متعددة للطوائف المسيحية المختلفة يتسلم مفاتيحها حراس مسلمون خشية النزاع الطائفي . وفي هذا المكان يقيم النصارى شعائر (تقديسهم) وينصبون خيامهم في الموسم ويقيمون فيها حول القبة أياماً ولن أنسى مشهد مدينة القدس كلها من خارج تلك القبة ، ومن قمة مثذنة المسجد إذ تجلّت في رواء وروعة ، دونها كل وصف . وفي أسفل القبة على منحدر الجبل بستان ناجى فيه المسيح ربه وتعبّد بينا كان صحبه نياماً ، وهنا قبض عليه اليهود . وتكاد تكسو الجبل غابة من شجر الزيتون العتيق المتفرق ، وقد وقفنا تحت شجرة منه يقولون عنها إن عمرها يزيد على تسعمائة سنة وتسمى شجرة الآلام . وفوق الجبل عدة كنائس فاخرة لم يتح لي الوقت زيارتها .

إلى البحر الميت : أو بحر لوط . أقلتنا إليه سيارة الأمنيوس فأخذنا نسير في طرق ملتوية تعلو وتهبط في مهاوي مخفية ، وكانت تحوطنا الربى المجذبة إلى الأفاق . وبعد أكثر من ساعة ونصف بدأ البحر الميت على بعد تحده من شرقه جبال (مواب) المقدسة . تجلي في بساط أملس من الماء الأزرق القاتم ، وكان الاغريق والرومان يسمونه بحر الأسفلت لكثرة ما أمدهم من تلك المادة . امتداده ٤٨ ميلاً وعرضه عشرة بحيث يعادل في مساحته بحيرة جنيف . ومستوى مائه دون مستوى البحر

بمقدار ١٣٠٠ قدم، فهو بذلك أحط منخفضات العالم أجمع، وأعماقه سحيقة تبلغ في بعض جهاته ٢٣١٠ قدم، ويصب فيه من شماله نهر الأردن ويسميه الناس (نهر الشريعة الكبرى). ورغم أنه يغذيه بنحو ستة ملايين ونصف المليون طن من الماء في اليوم فإن أملاحه أخذت في الزيادة السريعة لشدة البخر حوله حتى بلغت نسبة الملح في مائة ٢٥٪. ومن هذه الأملاح ٣٤٪ من ملح الطعام، و٦٪ كلورور البوتاسا، و١٪ بروميد المغنيزيوم. وقد حسب مقدار ما يجوى من أملاح وقدّر بنحو ثلاثين ألف مليون طن منها ١٥٠٠ مليون طن من البوتاسا، ومن ثم عدت فلسطين من أغنى بقاع الدنيا بتلك المادة. ولما ذقت ماءه كنت وكأني وضعت في فمي حفنة من ملح، وملمس الماء لبك. ولقد أخذت امتياز استغلاله شركة من يهود الإنجليز، وقد مهدت إليه بالأوتوبيس وأقامت هناك مقصفتين ومسبحين، وهي تعد نزلاً فاخراً. نزلت البحر لأسبح قليلاً فكان يضايقني ملح الماء جداً، إذ كان كأنه مادة كاوية في العين والفم وكلما حاولت الغوص لم أستطع بل كان يدفعني الماء إلى سطحه، ولما شحذت جسدي لبثت طافياً فوقه زمناً طويلاً. وكلما حاولت السباحة مالت رأسي إلى الغوص وظل الجسد طافياً، وهذا خطر السباحة فيه ويحق لهم تسميته بالبحر الميت لأن الحياة لا تكاد توجد به قط، فمجرد دخول السمك من نهر الشريعة إليه يموت ويجده القوم طافياً. ونهر الشريعة ينبع من جبال لبنان ويدخل في طريقه بحيرة جليل ثم يخرج منها ليصب في البحر الميت. وفي هذا النهر عمدّ يوحنا المعمدان المسيح عليه السلام، ويوحنا هذا هو المعروف عندنا باسم يحيى بن زكريا عليهما السلام.

وماؤه كدر اللون مبيض حتى بعد ترشيحه. وطعمه لا باس به. سقانا غلام المقصف منه ماء مثلوجاً. وقد اقامت على ضفاف ذلك البحر، وفي جوار نهر الشريعة نهراً كاملاً استمتعت خلاله رغم شدة القيز ووهج ضوء الشمس المحرقة حوله فهو من أشد بقاع الدنيا حرارة في الصيف.

عدت إلى القدس وقد عرجت على مدفن داود في مقبرة غائرة تحت الأرض وسط مسجد داود الذي لا يدخله الا المسلمون. ويقال إن سليمان مدفون معه، وقد نقشت حول القبر الآية الشريفة (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض).

ومن أعجب ما أذكره للقدس شح مائها وندرته. فأهم مستمد للماء هنال أحواض يستقبل فيها مطر الشتاء لامداد البلدة، فإذا ما أقبل الصيف نصبت تلك الأحواض، فكان المستمد الوحيد (برك سليمان) إلى جانب بيت لحم تطلق منها المياه مرتين في اليوم لتسير في أنابيب تؤدي إلى صنابير الطرق في القدس. وكنت أدهش لتزاحم القوم حولها قبل ميعاد فتحها بساعات وبيد كل منهم (تنكة) ينتظر ليملاها بثمن يكاد يفوق ثمن النبيذ الرخيص هناك، وكثيراً ما سمعتهم يقولون إن النبيذ أرخص لديهم من الماء العذب. وفي كل بيت تجد موضعاً لادخار ماء المطر شتاء. وفي البيوت الكبيرة يتاعون الماء بسعر المتر المكعب ثمانية قروش. لذلك اعتاد القوم الشح الشديد في الماء وعدم الإسراف فيه.

رأيت بنفسي طريق مدينة الرسول في المعبر لاطراف
القارات الثلاث وفي مراحل اربع

عبد السلام محمد الكويبة

تطوان، ١٩٧٧

(ص ٣٥ - ٤١)

هذا وقد غادرنا دمشق في الساعة 5 مساء 24 قعدة 1385 قاصدين بيت المقدس بالمملكة الهاشمية بالاردن فصلينا المغرب ببلدة صغيرة تسمى درعه من عمالة سوريا وهي قريبة من حدود الاردن تبعد عنه (بـ ٥ كلم).

وفي الساعة ٧ مساء كنا بباب الاردن حيث أشر الاخوان الاتراك على جوازاتهم التي كلفتهم التأشيرة الوحيدة ديناراً اردنياً عن كل جواز أي ثلاث دولارات امريكية، ثم استأنفنا السير في الاراضي الهاشمية الى أن وصلنا الى القدس الشريف في الساعة الرابعة صباحاً من صباح يوم الجمعة ٢٥ قعدة ١٣٨٥ هـ ثم صلينا الصبح بالمسجد الأقصى الذي بارك الله حوله، كما صلينا به في ظهر الجمعة، ثم زرت مسجد الصخرة فبيت لحم الذي يبعد عن القدس بـ (١٧ كلم) وقبة رحيل التي تبعد عن بيت لحم (بـ ٤ كلم).

اما الخليل فيبعد عن القدس (بـ ٤٨ كلم).

وفي الخليل مسجد سيدنا ابراهيم الخليل عليه السلام وتحتة مغارة لها أبواب ٣ مسورة بسور سليمان نسبة الى نبي الله سليمان والمغارة هذه ينزل لها بدرج ٤٠.

وهي مراقد لجل الانبياء عليهم السلام وزوجاتهم واقعة في غار موصد سفلى الحرم. وما الاضرحة العليا الا رمزا لها. ولهذا الغار ثلاثة مداخل احدها بازاء المنبر والثاني بين قبر سيدنا اسحق وزوجته الى جهة الشمال وهما مسدودان، والثالث واقع بجوار الحجرة الخليلية، وعليه القبة اللطيفة التي انشأها الملك الناصر محمد بن قلاون، وبابه من رخام مستدير له غطاء من نحاس يسرج فيه دائماً قنديل معلق عند فوهته.

وفي التوراة ان سيدنا ابراهيم عليه السلام لما توفيت زوجته السيدة سارة اشترى مغارة «المكفلية» من صاحبها «عفرون الادومي» بـ ٤٠٠ درهم من فضة ودفنها فيها ثم دفن فيها الخليل عليه السلام بحداثتها، ثم اسحق ويعقوب عليهما السلام وزوجاتهم وغيرهم. ومن ذلك الحين اصبح هذا الغار الشريف مكاناً مباركاً واثراً خالداً.

والحاصل ان مساحة الحرم الشريف تبلغ ٢٦٠ دوماً وتقوم رقعة على جبل موريا. ويذكر المؤرخون ان هذا المكان كان بيد «لارنيا البيوسي» اشتراه منه داود، وبني فيه سليمان هيكله المعروف (بهيكل سليمان)، وقد هدم الهيكل وعمر غير مرة.

ومنذ القرن الخامس للميلاد بقي هذا المكان ساحة مهملة مهجورة لا ترى فيها غير أكوام من الحجارة والانقاض النائحة الى ان جاء الخليفة الثاني عمر بن الخطاب فأمر بتنظيف الصخرة واطهارها، وبني في ناحية جامعاً للمسلمين. وحين بنيت فيه الصخرة والمسجد الأقصى عاد الى المكان رونقه واهميته وصار الناس يزورونه من كافة الاقطار والامصار.

وللحرم عشرة أبواب مفتوحة واربع مغلقة. وفي الساحة عدة سبل أنشأها الملوك والمتولون على القدس. وبه خمس وعشرون بئراً عذبة ثمان منها في صحن الصخرة وسبع عشرة في فناء الأقصى.

ويجمع الناس للوضوء حول الحوض المسمى (بالكاس) أمام المسجد الأقصى . وللحرم اربع مآذن عالية وبه أورقة أخرى تقع في الجهتين الغربية والشمالية، ومكتبة ومتحف اسلامي .

مسجد الصخرة

يرجع تقديس المسلمين للصخرة الى علاقتها الوثيقة بقصة الاسراء والمعراج، والصخرة نفسها تقع تحت قبة المسجد مباشرة . طولها من الشمال للجنوب ١٧ر٧٠ متراً وعرضها من الشرق للغرب ١٣ر٥٠ متراً وارتفاعها عن الأرض يتراوح بين ٢ر١ متراً .

بنى مسجد الصخرة الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان سنة (٧٢هـ - ٦٩١م) ورصد لبنائه خراج مصر لسبع سنين، وقد تبقى من المبالغ المخصصة لبنائه مائة الف دينار فأمر بها عبد الملك جائزة للرجلين المشرفين على البناء وهما رجاء بن حياة الكندي أحد علماء الاسلام من بيسان ويزيد بن سلام من القدس . وقد رفضا قائلين : «نحن أولى أن نزيده من حلي نساتنا فضلاً عن اموالنا فاصرفها في احب اشياء اليك، فأمر بان تسبك ذهباً وتفرغ على القبة والابواب .

وفي سنة ١٠٩٩م حول الصليبيون المسجد الى كنيسة وبنوا عليه مذبحاً . ولكن صلاح الدين جاء فأزال المعالم الصليبية وزين القبة وستر الجدران بالرخام واقام السدنة لخدمة المسجد ووقف عليه داراً وارضاً . واهتم بعمارته من بعده ملوك بني أيوب والمماليك، وبني عثمان . ومن عمل المماليك صنع الابواب واصلاحات القبة، واقامة القناطر وعدد من المآذن وبعض السبل .

ويذكر أن جميع الاورقة الممتدة من باب الغوايمة في الشمال الغربي الى باب المغاربة في الجنوب هي من إنشاء ملوكهم .

ومن ابرز الذين يقترن اسمهم بهذه الاعمال الناصر محمد بن قلاوون وقايتباي . أما سلاطين بني عثمان فمن آثارهم تجديد عمارة الابواب وصنعها، ووضع القسم الاكبر من الرخام والبلاط الصيني في الجدران والقاشاني البديع الكائن في عدد من الطاقات، وفي قبة السلسلة كما أن جميع السجاد العجمي المفروش في أرض مسجد الصخرة والمسجد الأقصى والثريات المعلقة فيها هي من اهدائهم، وينسب اليهم انشاء معظم السبل . وأبرز من لهم علاقة بذلك سليمان القانوني وعبد الحميد الثاني . وقد اصاب البناء عطب في اجزائه بسبب العواصف والامطار كما سقط بعضه، لكن الخلفاء والحكام في الازمنة المتعاقبة كانوا يتداركونه ويعنون بعمارته واصلاحه . ويتجلى في مسجد الصخرة جمال الهندسة العربية والذوق العربي . واجمع المؤرخون على انه من اجمل الابنية على وجه البسيطة، كما وصفه بعضهم بأنه من اجمل الآثار التي خلدها التاريخ .

المسجد الأقصى

يقع المسجد الأقصى في الجهة الجنوبية من رقعة الحرم الشريف . شرع في بنائه عبد الملك بن مروان الاموي واتمه ابنه الوليد بن عبد الملك سنة ٧٠٥م . يبلغ طوله ٨٠ متراً وعرضه ٥٥

متراً، ويقوم الان على ٥٣ عموداً من الرخام . ٤٩ سارية مربعة الشكل . ولقد كانت ابوابه زمن الامويين ملبسة بصفائح الذهب، والفضة، ولكن أبا جعفر المنصور أمر بقلعها وصرفها دنائير تنفق على المسجد . وفي أوائل القرن ١١ اصلحت بعض اجزائه وصنعت قبتة وأبوابه الشمالية . ولما احتل الصليبيون بيت المقدس سنة ١٠٩٩م جعلوا قسماً منه كنيسة واتخذوا القسم الآخر مسكناً لفرسان الهيكل ومستودعاً لذخائرهم .

ولكن صلاح الدين عندما استرد القدس منهم أمر باصلاح المسجد وجدد محرابه . وكسا قبتة بالفسيفساء واتى بالمنبر الخشبي المرصع بالعاج والابنوس والموجود حالياً الى جانب المحراب، من حلب ووضع فيه، وقد عنى به بعدئذ ملوك بني أيوب والممالك وسلاطين بني عثمان وانثت فيه أروقة، وعمر سقفه وصنع بالفسيفساء والرخام، ورمت جوانبه وفرشت ارضه بالسجاد العجمي . وطراً على المسجد خلل سنة ١٩٢٧م فاستنهض المجلس الاسلامي الاعلى الأقطار العربية والاسلامية التي ساهمت بمبلغ ١٠٠٠٠٠٠ الف دينار عمر بها المسجد . وقد كان اخطر تعمیر اجرى عليه هو رفع الاعمدة القديمة البالية التي تقوم عليها القبة واستبدالها بأعمدة جديدة عددها ٨ اقيمت على اساسات متينة من الخرسانة المسلحة . وحدث زلزال آخر تصدعت على اثره اروقة واجزائه فتولى المجلس الاسلامي تعميرها من واردات الاوقاف العامة فهدم الرواق الشرقي وبنى من جديد، كما أعيد بناء الرواق الاوسط . وأتى بالاعمدة اللازمة الماثلة الى الان من ايطاليا . وقد بلغت تكاليف زخرفة هذه الاقسام وتذهيبها نحو ١٠ الاف جنيه تبرعت بها الحكومة المصرية لهذا الغرض . وفي داخل الاقصى جامع مستطيل يسمونه (جامع عمر) وايوان كبير يسمونه (مقام عزيز وايوان آخر صغير جميل فيه محراب زكرياء) وامام المسجد من الشمال رواق كبير أنشأه الملك عيسى من ملوك الايوبيين سنة ١٨ اي عام ١٢١٨م هو مؤلف من ٧ قناطر مقصورة كل واحدة منها تقابل باباً من أبواب المسجد . وتحت الاقصى دهليز واسع يسمى الاقصى القديم ويعرف باصطبل سليمان ويتألف من سلسلة عقود تقوم على أعمدة ضخمة .

جدار البراق : هو حائط كبير مبني من حجارة ضخمة يبلغ طوله نحو ١٥٦ قدماً وارتفاعه ٦٥ قدماً . والمسلمون يقدسونه نظراً لعلاقتة الوثيقة بقصة اسراء الرسول محمد عليه السلام من مكة المكرمة الى بيت المقدس . وربما كان هذا الجدار كما يعتقد البعض هو الحائط الخارجي للهيكل الذي رمه هيرودوس سنة ١١ قبل الميلاد ودمره تيطس سنة ٧٠ . وهو يؤلف اليوم جزءاً من الجدار الغربي للحرم القدسي .

- عبد الرحمن الجبرتي، تاريخ عجائب الآثار، ٣ اجزاء، بيروت د.ت.
- عبد الرحمن بن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، القاهرة، ١٩٥١.
- عبد الرحمن ياغي، حياة الادب الفلسطيني الحديث، بيروت، ١٩٦٨.
- عبد السلام بن سودة، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، جزءان، الجزء الاول، الدار البيضاء، ١٩٦٥، الجزء الثاني، الدار البيضاء ١٩٦٥.
- عبد السلام محمد الكويبة، رأيت بنفسي طريق مدينة الرسول في المعبر لأطراف القارات الثلاث وفي مراحل اربع. تطوان، ١٩٧٧.
- عبد الغني بن اسماعيل النابلسي، حلة الذهب الابريز في رحلة بعلبك والبقاع العزيز في «رحلتان الى لبنان» تحقيق صلاح الدين المخد، واسطفان فلد، بيروت ١٩٧٩.
- عبد الغني النابلسي، الحضرة الانسية في الرحلة القدسية - مخطوط - مكتبة عارف حكمت في المدينة المنورة، ومنه نسخة ميكروفيلم بالجامعة الاردنية رقم ٨٢٠.
- عبد الغني النابلسي، المختار من كتاب الحضرة الانسية في الرحلة القدسية، اختيار احسان النمر، نابلس ١٩٧٢.
- عبد الغني بن اسماعيل النابلسي، الرحلة الطرابلسية، تحقيق هريبرت بوسه، القاهرة، لا تاريخ.
- عبد الغني بن اسماعيل النابلسي، الحقيقة والمجاز في الرحلة الى بلاد الشام ومصر والحجاز تقديم واعداد احمد عبد المجيد هريدي، القاهرة ١٩٨٦.
- عبد الله بن محمد العياشي، الرحلة العياشية، ماء الموائد، (جزءان)، طبعة ثانية بالافست، الرباط ١٩٧٧.
- عبد الله مخلص، «الطريق من دمشق الى بيت المقدس في القرن الهجري الاول»، مجلة الكشف، ٢م، ج ١، ١٩٢٨، ص ٢٥.
- عبد المؤمن كامل الحكيم، رحلة مصري الى فلسطين ولبنان وسورية، القاهرة، ١٩٢٤.
- علي بن ابي بكر الهروي، كتاب الاشارات الى معرفة الزيارات، تحقيق جانين سورديل تومين، دمشق ١٩٥٣.
- علي بن غانم القدسي، مصايد الشيطان وذم الهوى مختصر اغاثة اللهفان، تحقيق ابراهيم محمد الجمل، القاهرة مكتبة القران د.ت.
- علي محسن عيسى مال الله، ادب الرحلات عند العرب في المشرق، بغداد، ١٩٧٨.
- عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين (١٥ جزءاً)، بيروت، دون تاريخ، مقدمة المؤلف ١٩٥٧.
- عنان محمد عبد الله، فهارس الخزانة الملكية، الرباط، ١٩٨٠، ج ١.
- القاسم بن يوسف التجيبي السبي، مستفاد الرحلة والاعتراب، تحقيق عبد الحفيظ منصور، ليبيا - تونس، ١٩٧٥.

- القرآن الكريم .
- كامل جميل العسلي، تراث فلسطين في كتابات عبد الله مخلص، عمان، ١٩٨٦ .
- كامل جميل العسلي، «الطابع الاسلامي الدولي للعلماء الذين أمرو القدس وعاشوا فيها» - مجلة القدس الشريف (عمان) عدد ٨، ١٩٨٥، ص ٤٠ - ٥٠ .
- كامل جميل العسلي، اجدادنا في ثرى بيت المقدس، عمان ١٩٨١ .
- كامل جميل العسلي، معاهد العلم في بيت المقدس، عمان، ١٩٨١ .
- كامل جميل العسلي، مخطوطات فضائل بيت المقدس، عمان، ١٩٨١ .
- الكتاب المقدس - دار الكتاب المقدس في العالم العربي .
- لي سترانج، جي، فلسطين في العهد الاسلامي، ترجمة محمود عميرة، عمان ١٩٧٠ .
- مجير الدين الحنبلي، الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل، عمان، ١٩٧٣ .
- محمد ثابت، جولة في ربوع الشرق الادنى، القاهرة ١٩٥٢، (ط٣) .
- محمد خليل المرادي، سلك الدرر في اعيان القرن الثاني عشر، ٤ اجزاء، بيروت (الطبعة الثالثة) ١٩٨٨ .
- محمد الحبيب الهيلة، «القدس واشعاعها الثقافي في المغرب والاندلس من خلال الرحلات العلمية» في كتاب المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، المجلد الأول عمان، ١٩٨٣، ص ٢٩١ - ٣٠١ .
- محمد عبد الجواد القاياتي، نفحة البشام في رحلة الشام، بيروت، ١٩٨١ .
- محمد بن عبد الرحمن السبخاوي، الضوء اللامع لاهل القرن التاسع، ٦ مجلدات، دار الحياة، بيروت، د.ت .
- محمد بن عبد الله، الشهر ب كبريت، رحلة الشتاء والصيف، تحقيق محمد سعيد الطنطاوي، بيروت ١٣٨٥هـ - (ط٢) .
- محمد بن عبد الله بن بطوطة، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار، تحقيق على المنتصر الكتاني، ج ١ و ٢ بيروت ١٩٨١ .
- محمد بن عثمان المكناسي، الاكسيري في فكك الاسير، تحقيق محمد الفاسي، الرباط، ١٩٦٥ .
- محمد بن علي الشوكاني، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دار المعرفة - بيروت .
- محمد الفاسي، الرحالة الشهير ابو عبد الله محمد العبدري، مدريد ١٩٦١ - ١٩٦٢ .
- محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، القاهرة، ١٩٨٦ .
- محمد كرد علي، الرحلة الانورية الى الاصقاع الحجازية والشامية، بيروت، ١٩١٦ .
- محمد المحيي، خلاصة الأثر في اعيان القرن الحادي عشر، مصر المحمية، ١٢٨٤ .
- محمد بن محمد العبدري الحليحي، رحلة العبدري، تحقيق محمد الفاسي، الرباط، ١٩٦٨ .
- محمود مهدي الاستانبولي، شيخ الشام جمال الدين القاسمي، بيروت ١٩٨٥ .

- ا.س. مرمرجي الدومنيكي، بلدانية فلسطين العربية، وقف عليها وفهرسها، محمد خليل الباشا، بيروت، ١٩٨٧.
- مصطفى اسعد اللقيمي الدمياطي، موانح الانس في رحلتي لوادى القدس، مخطوط - الجامعة الاردنية رقم ٩١٥٦٤٢٠٤ لقي.
- مصطفى البكري الصديقي، الخمرة المحسية في الرحلة القدسية - مخطوط مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة، رقم ٣٨٤٠.
- مصطفى البكري الصديقي، الخطرات الثانية الانسية للروضة الدانية القدسية، مخطوط - مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة، من مجموع فيه مؤلفات الصديقي.
- مصطفى البكري الصديقي، الحلة الذهبية في الرحلة الحلبية - مخطوط (مجموع) مكتبة عارف حكمت بالمدينة رقم ٣٨٤٠.
- مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين، عشرة اجزاء، بيروت ١٩٦٥ - ١٩٧٦.
- المكتب المعماري الهندسي لاصلاح واعمار الصخرة المشرفة في القدس، اصلاح واعمار مبنى قبة الصخرة المشرفة - المجلد الثالث.
- منيب الماضي وسليمان موسى، تاريخ الاردن في القرن العشرين، عمان، ١٩٨٨.
- الموسوعة الفلسطينية، القسم الاول، دمشق، ١٩٨٤، القسم الثاني، بيروت، ١٩٩٠.
- ناصر خسرو، سفرنامه، ترجمة يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٤٥، وبيروت ١٩٨٣.
- نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة باعيان المئة العاشرة، تحقيق جبرائيل سليمان جبور، ج ١ - ٣، بيروت، ١٩٧٩.
- نعمان عبده القساطلي، الروضة النعمانية في سياحة فلسطين وبعض البلدان الشامية، مخطوط المكتبة الظاهرية بدمشق.
- نعمان عبد القساطلي، الروضة الغناء في دمشق الفيحاء، بيروت ١٨٧٩، بيروت ١٩٨٢.
- نقولا زيادة، الجغرافية والرحلات عند العرب، بيروت، ١٩٦٢.
- يوسف الحكيم، سورية والعهد العثماني، بيروت، ١٩٦٦.
- Ahlwardt W, Verzeichnis der ar. Hdss der Koniglichen, Bibliothek zu Berlin - 10 Bände - Berlin 1887 - 1899.
- Antrassian, Assadour The Timeless Holy Land, Jerusalem, 1979.
- Asali, Kamil J. (editor) Jerusalem in History, Essex, 1989.
- Baedekers Israel, Stuttgart, 1988.
- Baedekers Jerusalem Stuttgart, 1987.
- Brockelmann, Geschichte der Arabischen Litteratur, Band I,II Supplement Band I, II, III Leiden 1937 - 1979.

- Cheikho, L. Catalogue raisonne des Manuscrits historhques de la Bibliotheque St. Joseph. I - V, Beyrouth, 1913 - 1929.
- Duncan, Alistair, The Noble Sanctuary, London, 1972.
- Gildemeister, J., Des Abdul al - ghani al nabulsi Reise Von Dam. - nach J'lem, ZDMG, Band 36.
- Die Gute Nachricht, Altes -nd Neues Testament, Stuttgart, 1978.
- Hartmaun, Richard, Die Strasse Von Damaskus nach Kairo in: ZDMG, Bd. 64 (1910) PP 665-702.
- Kay Prag, Blue Guide, Jerusalem, London, New York, 1989.
- Le Strange, Guy, History of Jerusalem under the Moslems, (reprinted from Palestine under the Moslems), no place, no date.
- Mukaddasi, Description of Syria, including Palestine translated by Guy Le Strange in Palestine Pilgrims' Text Society (Library), Vol 3 London 1896.
- Nasir-i- Khusrau, Diary of a Journey through, Syria and Palestine, translated by Guy Le Strange, in the library of the Palestine Pilgrims' Text Society, Vol IV, London, 1893.
- Palmer E.H. Descriptive Catalogue of the Arabic, Pers. and Turkish Mss in the Library of Trinity College, Cambridge, 1870.
- Polkehn, Klaus, Palästina Reisen im 18 und 19 Jahrhundert.
- Tschelebi, Ev., Evliya Tschelebi's Travels in Palestine, tr. from Turkish by St. H. Stephan, Quarterly of the Dept of Antiquities in Palestine, Vols VIII and IX.
- Van Berchem, Corpus Inscriptionum Arabicarum, I, II, III, Le Caire, 1922 - 1927, 1930.

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com

الأعمال المقدسية الكاملة

د. كامل العسلي

المجلد الأول

① القدس في التاريخ

② بيت المقدس

في كتب الرحلات عند العرب والمسلمين

يحتوي هذا المجلد على كتابين، هما: القدس في التاريخ، وبيت المقدس في كتب الرحلات عند العرب والمسلمين.

الكتاب الأول وضعه باللغة الإنجليزية مجموعة من الباحثين. وقام المرحوم الدكتور كامل العسلي بتحرير الطبعة الإنجليزية وترجمتها. والكتاب محاولة لتقديم صورة متوازنة حقيقية موضوعية لتاريخ القدس. ويشتمل على تسعة بحوث ركزت على تاريخ القدس في: العصر البرونزي؛ والفترة من 1000 - 62 ق م؛ وتحت حكم روما وبيزنطة؛ وفي الفترة الإسلامية الأولى؛ وتحت حكم الصليبيين؛ وفي عهد الأيوبيين والمماليك؛ وإبان الحكم العثماني؛ وفي القرن التاسع عشر؛ وأخيراً تاريخ القدس في الفترة 1917 - 1988.

أما الكتاب الثاني فيقع في قسمين. القسم الأول ينطوي على دراسة شاملة لكتب الرحلات العربية والإسلامية التي زار مؤلفوها بيت المقدس وكتبوا عنها طوال عشرة قرون. ويبلغ عدد الرحالة الذين استطاع المؤلف حصر مؤلفاتهم أربعين، ابتداء بالرحالة القارسي ناصر خسرو في القرن الخامس الهجري/ الإحدى عشر الميلادي، وانتهاء بعبد السلام الكويرة؛ وهو رحالة مغربي زار القدس قبل الاحتلال الإسرائيلي لسنة واحدة، أي عام 1966. والقسم الثاني من الكتاب فيه مقتطفات مطولة من سبعة وعشرين كتاباً من كتب الرحلات، من ضمنها مخطوطات لم تنشر. ومواد كتبت أصلاً بلغات غير اللغة العربية ولم تكن قد ترجمت بعد.

يقدم الكتاب صوراً ورسوماً طريفة للقدس في ألف عام. وكان المرحوم الدكتور كامل العسلي قد أصدر كتابه هذا عام 1992 بمناسبة مرور 1200 سنة على بناء قبة الصخرة المشرفة في القدس.